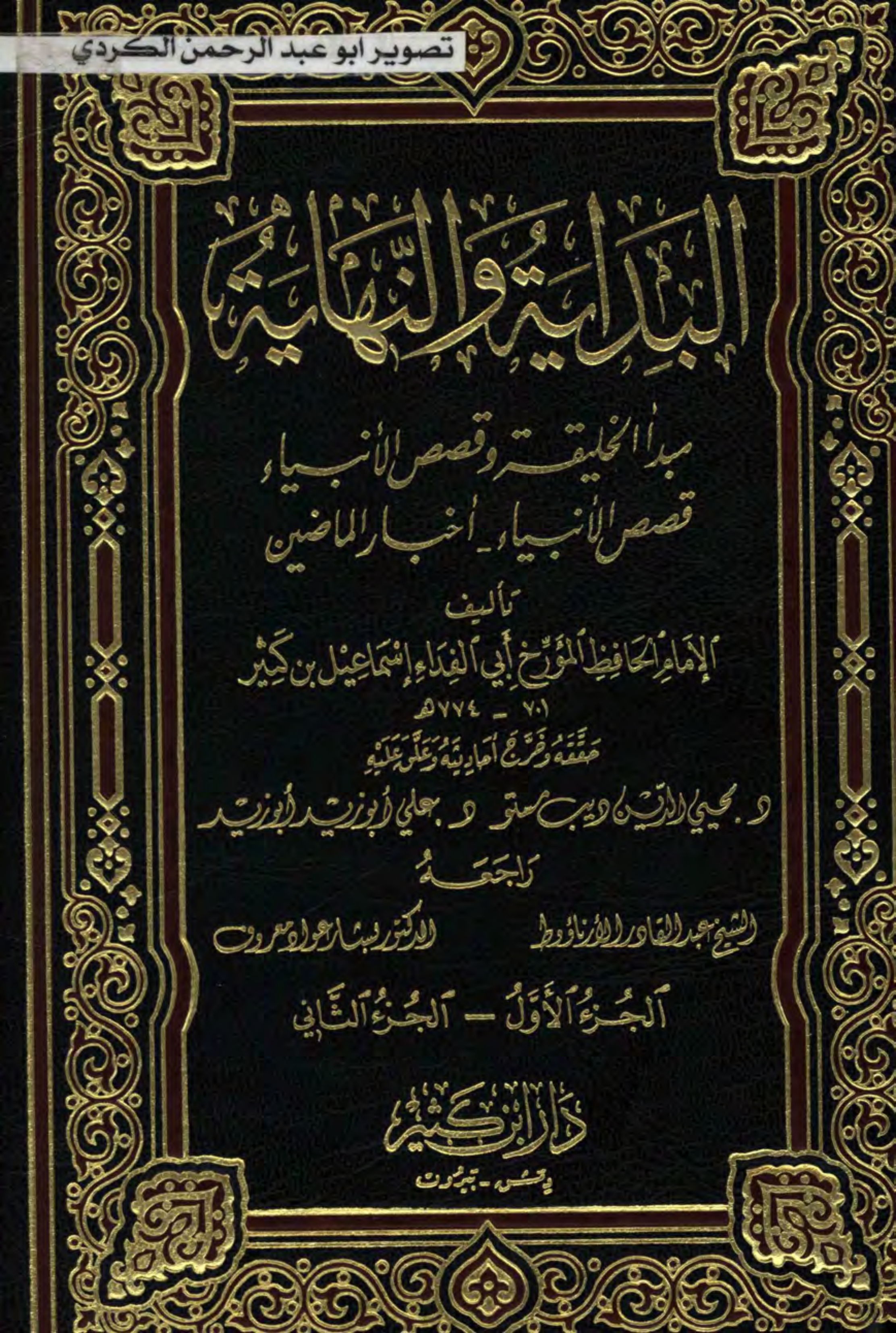


تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
البداية والنهاية
مبدأ الخليقة وقصص الأنبياء
قصص الأنبياء - أخبار الماضين
تأليف
الإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن كثير
٧٠١ - ٧٧٤هـ
حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
د. محيي الدين ديب مستو د. علي أبو زيد أبو زيد
راجعه
الشيخ عبد القادر الأرناؤوط
الدكتور بشار عواد معروف
الجزء الأول - الجزء الثاني
دار ابن كثير
دمشق - بيروت



الطبعة الأولى

1428 هـ ـ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : البداية و النهاية 20/1

التأليف : الإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 10128

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 16 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ايبكس

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



البداية والنهاية

مبدأ الخليقة وقصص الأنبياء

تأليف

الإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ - ٧٧٤هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

د. محيي الدين ديب مستو

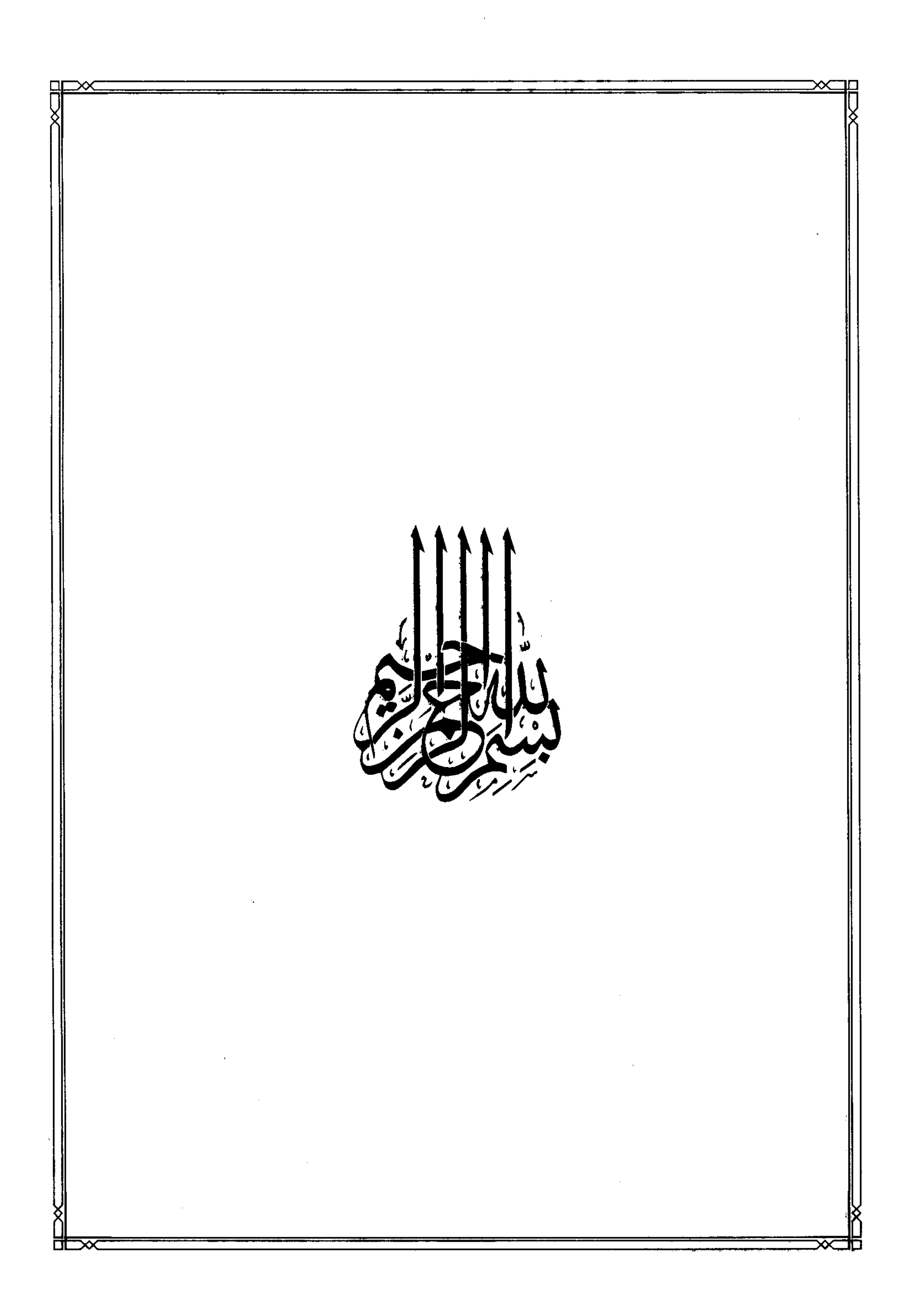
راجعه

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط　　الدكتور بشار عواد معروف

الجزء الأول

دار ابن كثير

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل
إلى البداية والنهاية

كتبه وعلق عليه
د. محيي الدين ديب مستو

راجعه وأضاف عليه
الدكتور بشار عواد معروف

(١)

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي خلق فسَوَّى ، وقدَّر فهدى ، وجمع فأوعى .

والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى رسوله محمد بن عبد الله المجتبى ، وآله الشُّرفا ، وأصحابه نجوم الهُدَى ورجوم العِدَى ، ومن تبعهم بإحسان ووفَّى ووفَى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الأسماء الحسنى ، أمات وأحيا ، وجعل لكل أمة تاريخاً وأجلاً مسمًّى . وأشهد أنَّ سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وحبيبه ، صاحب المقام المحمود والشفاعة الكبرى ، المبعوث إلى الخليقة جميعاً بالإنذار والبُشْرى .

وبعد :

● **أهمية العمل ومبرراته :**

فإن النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد شهد صحوة إسلامية فكرية وثقافية ، واهتماماً ملحوظاً بالكتب المطبوعة والمحقَّقة ، على وفق أحدث الطرق الطباعية الحديثة ، والإخراج الفني المتطور ، والتجليد المتقن الفاخر ، وظهرت أمَّات الكتب في التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والتراجم ، موثَّقة ومفهرسة ، وبأجمل شكل وبأصدق مضمون ، مثل : تهذيب الكمال للمِزي ، وجامع الأصول ؛ لابن الأثير ، وزاد المعاد ؛ لابن قيم الجوزية ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، والتفسير والتاريخ ؛ للإمام الطبري ، وغيرها .

وكان النصح إلى أصحاب دور النشر الكبيرة أن يتطلعوا إلى الكتب والمراجع في جميع مناحي الثقافة الإسلامية ، وإحياء مخطوطاتها المنسية ، وإعادة تحقيق الكتب المطبوعة من غير توثيق ولا تعليق ولا فهارس ، والاستفادة من المخطوطات المشرقية ، والمخطوطات المكتشفة حديثاً بعد أن كانت ضائعة أو مجهولة .

على أنَّه يتعين علينا أن نشير إلى أن العرب المسلمين حين تنبهوا إلى أهمية تراثهم وبدؤوا بنشره منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت المطابع الكبرى تعهد إلى مصححين من كبار العلماء لضبط النصوص وتصحيحها ، فأخرجت مطبعة بولاق بمصر نفائس من هذا التراث وتبعتها دار الكتب المصرية وغيرها من المؤسسات المعتبرة .

وتحقيق المخطوطات والعناية بالنصوص علم قائم بذاته ، أقام العلماء المسلمون منذ أمد بعيد قواعده على أحسن وجه ، فأخرجوا لنا ، ومنذ عصر المخطوطات ، نماذج رائعة في التحقيق والتدقيق ، نذكر منها كتابين مهمين هما نموذج لعشرات من نظرائهما ؛ موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي ، وصحيح البخاري .

فقد عُني العلامة جمال الدين محمد بن يوسف المعروف بابن مَسْدي الأندلسي الغرناطي نزيل مكة المكرمة ودفينها « ٥٩٩ ـ ٦٦٣هـ » برواية الليثي من الموطأ فأخذه عن العديد من شيوخه ببلاد شتى وأسانيد كثيرة ، وقابل بين نسخه وعَمِلَ لنفسه منه نسخة محققة مدققة مستندة إلى العديد من الروايات ، ورمز لكل رواية من الروايات برمز معين ذكره في صدر نسخته ، وثبت في حواشيها الاختلافات بينها(١) .

وعني بصحيح البخاري عالمان جليلان هما : اليونيني ، وابن مالك صاحب الألفية فجمعا روايات الصحيح وقابلا بينها ورجحا في القراءات ، وأثبتا الاختلافات في الحواشي ، فكانت هذه النسخة من أعظم نسخ صحيح البخاري وأكثرها صحة وضبطاً وإتقاناً ، وهي التي انتشرت فيما بعد ، وطبع السلطان عبد الحميد يرحمه الله « الصحيح » استناداً إلى النسخة اليونينية ، فهي إلى يوم الناس هذا أصح طبعة لهذا الكتاب وأدقها وأتقنها وكل الذين نشروا الصحيح عيال عليها ، ولا أظن محققاً من محققي اليوم له القدرة على تجاوزها .

على أن انتشار الطباعة الحديثة ويُسْرها شجع الكثير من أصحاب الضمائر الضعيفة ممن يتصدون لنشر الكتب أو يدعون المعرفة بتحقيق النصوص إلى إخراج كتب مليئة بالتصحيف والتحريف والسقط ، أو سرقة الكتب المحققة تحقيقاً علمياً طمعاً بالربح العاجل ، فتُسلب حقوق المحققين المعنوية ، وحقوق الناشرين الجادين المادية ، فيسيؤون إلى كل عمل جاد وكل ناشر مخلص ، وقيل في القواعد الاقتصادية : « إن العملة الرديئة تطرد العملة الصعبة » ، نسأل الله الستر والعافية .

و « دار ابن كثير » للطباعة والنشر والتوزيع التي تأسست عام ١٩٨٤م في دمشق وبيروت ، من دور النشر الكبيرة والجادة في خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد تطلعت إلى الإسهام في إعادة تحقيق ونشر كتب أمّات(٢) في بابتها ، ولعل اسمها كان أكبر مُحفِّز للاضطلاع بتحقيق كتاب « البداية والنهاية » ، إذ هو من أعظم آثار الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ، ولما يمتاز به من التأريخ

---

(١) انظر وصفها في مقدمة الدكتور بشار عواد لطبعته من موطأ مالك برواية الليثي ، ط٢ ، دار الغرب ، بيروت ١٩٩٨م جـ١ ص١٢ ـ ٢٢ .

(٢) ومنها أطراف مسند الإمام أحمد ؛ لابن حجر (١/ ١٠) ، والمفهم في شرح ما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ؛ لأبي العباس القرطبي (١/ ٧) . وفتح القدير في التفسير ؛ للشوكاني (١/ ٦) .

الإسلامي العام ، والتأريخ لدمشق الشام في عصورها المختلفة بعامة ، وفي عصر المؤلف بخاصة ، وقد طبع ـ قديماً ـ طبعة واحدة في مطبعة السعادة ، وهي طبعة غير محققة مليئة بالتصحيف والتحريف والسقط والخلط ، مما قلَّل من قيمتها وجعل الاعتماد عليها يسيء إلى البحث العلمي الرصين ، وجل النشرات التي تلتها كانت تعتمدها على الرغم من ادعائها الاعتماد على مخطوطات ، ولذلك تشوَّف إلى هذا العمل العلمي الكبير جمهرة من العلماء والدكاترة بإشراف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ يرحمه الله ـ ، وإدارة وتمويل الأستاذ علي مستو صاحب دار ابن كثير ـ حفظه الله ـ .

وفي الأول من شهر شعبان المكرم سنة ١٤٠٥هـ . تم الاجتماع في قرية « بسيمة » من وادي بردى ، وحضره : الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ ، والدكتور علي أبو زيد ، والدكتور محيي الدين ديب مستو ، والدكتور رياض مراد ، والأستاذ محمود الأرناؤوط ، والدكتور نزار أباظة ، والأستاذ محمد حسان عبيد ، والأستاذ حسن مروة ، والأستاذ أكرم البوشي ، والأستاذ إبراهيم الزيبق ، والدكتور مأمون الصاغرجي ، والأستاذ ياسين السَّواس ، والأستاذ صلاح محمد الخيمي ـ رحمه الله ـ ، والأستاذ محمد ديب مستو ، والأستاذ علي ديب مستو .

• **خطة العمل ومنهج التحقيق :**

وزَّع فضيلة الشيخ عبد القادر ـ يرحمه الله ـ خطة العمل المقترحة على الأساتذة المشاركين في التحقيق ، وهي كما يلي :

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد :

فإنَّ أوَّل ما يجب أن يكون واضحاً لكل الإخوة من الأساتذة المشاركين في تحقيق الكتاب : أن هذا المنهج لم يُوضع لتقييد المحقق في الجزء الذي وكل إليه تحقيقه ، وإنما أُريد منه أن يكون جامعاً لجهود المحقِّقين الأفاضل ، لكي تنصبَّ جميع الجهود في جهة واحدة في الشكل والمضمون بالقدر المستطاع ، حرصاً على نجاح العمل في الكتاب من الوجهتين العلمية والفنية ، لأن الكتاب عند ظهوره ـ إن شاء الله ـ سيكون مرتبطاً بأسماء المشاركين فيه ، مما يدلُّ على أن نجاحه هو نجاح الجميع ، ومن هنا كانت الرغبة في أن يتناول هذا المنهج جميع ما يتصل بتحقيق الكتاب وإخراجه على النحو التالي :

أولًا : فيما يتصل بالنسخ الخطية :

تعتمد نسخة المكتبة الأحمدية بحلب كنسخة رئيسة في العمل ، وقد اصطلح على تسميتها

« النسخة الأم » ، وذلك لكونها أتم النسخ من جهة ، ولكونها قوبلت على أصل قوبل على نسخة المؤلف من جهة أخرى ، وأخيراً لاعتبارها نسخة شامية المصدر ، لذا تجري عملية مقابلة المطبوع عليها لتصحيح ما وقع في المطبوع من الأخطاء ، واستدراك ما حصل فيها من السقط ، والإشارة إلى ما ورد فيها من الزيادة على النسخة المطبوعة من الكتاب ، وبعد ذلك تجري عملية مقابلة النسخة الأحمدية على النسخة الأخرى : نسخة برلين ، والنسخة الثالثة : نسخة دار الكتب الظاهرية ، وذلك في الأجزاء التي توفَّرت لها أوراق من النسختين المذكورتين ، فيثبت ما قد يرد فيها من الزيادة بين حاصرتين هكذا [ ] ، ويشار إلى ما وقع فيها من السقط والتحريف والتصحيف والاختلاف ، وهذا الأمر ينطبق على ما يتوفر من النسخ الخطية الأخرى من الكتاب ، ويُشار إلى النسخ المخطوطة في الحواشي عند وقوع سقط أو زيادة ، أو تحريف أو تصحيف أو اختلاف بالرموز ، وتُسمَّى مخطوطة الأحمدية بـ « النسخة : أ » ونسخة برلين بـ « النسخة : ب » ونسخة الظاهرية بـ « النسخة : ظ » والمطبوعة بـ « النسخة : ط » .

ثانياً : فيما يتصل بتحقيق نصوص الكتاب فإنه يجري على هذا الشكل :

١ ـ تفصيل النصوص ، وترقيمها ، وترتيبها ، واعتبار الفصول في الأجزاء (١ ـ ٦) و (١٧ ـ ١٨) والسنوات في الأجزاء (٨ ـ ١٦) فيما يتعلق بأوائل الصفحات ، وختم كل فصل ، وحوادث كل سنة بخمس نجوم (☆ ☆ ☆ ☆ ☆) في وسط الصفحة .

ويرجى ترقيم الآيات الواردة في الكتاب بذكر اسم السورة مع رقم الآية بين حاصرتين في متن الكتاب هكذا [ ] وحصر الآيات بقوسين مزهرين هكذا ﴿ ﴾ والأحاديث والآثار وأسماء الكتب بقوسين هكذا « » .

٢ ـ ضبط ألفاظ الآيات ، والأحاديث ، والآثار ، والأبيات الشعرية ، وأسماء الأعلام ، والبلدان والأماكن ، والألفاظ التي قد يُشكل فهمها على كثير من الناس .

٣ ـ ذكر مصادر الترجمة للمترجمين تراجم مفردة في الكتاب مرتبة ترتيباً زمنياً ، بحيث تذكر المصادر التي سبقت المؤلف وعاصرته .

٤ ـ تخريج الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب من المصدر الذي نقل عنه المؤلف ، والإشارة إلى ورود الحديث في المصادر الأخرى التي سبقت المؤلف ، أو المصدر الذي نقل عنه ، لا من طريق غيره من الرواة ، وكذلك بالنسبة إلى الآثار الموقوفة على الصحابة ، والتي لم ترفع إلى رسول الله ﷺ ، ويرجى ترتيب المصادر حسب الترتيب الزمني أيضاً ، والتأكد من سلامة النقل في المصدر الذي نقل منه المؤلف ، وذلك لاستدراك ما قد يقع من السقط ، والإشارة إلى ما قد يكون من زيادة في نصِّه ، ويكون تخريج الحديث وفق ما يلي على سبيل المثال :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير النَّاسِ قَرْني ، ثمَّ الذين يَلُونَهُمْ ، ثمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ ، ثمَّ يجيءُ قومٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه ، ويمينُه شهادتَه » . رواه أحمد في « مسنده » (١/ ٤٤٢) والبخاري في « صحيحه » (٧/ ٦) في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ومسلم في « صحيحه » رقم (٢٥٣٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، والترمذي في « جامعه » رقم (٣٨٥٨) في المناقب ، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه . كلُّهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

٥ ـ التعريف بالبلدان المغمورة باختصار ، مع الإشارة إلى المصدر الذي نقلت عنه المعلومات ، وذكر الجزء والصفحة أو المادة من كتب اللغة .

٦ ـ الإشارة في الحواشي إلى أسماء المصادر التي نقل عنها المؤلف ، وذكر الجزء والصفحة ، ومقابلة النقل على المصدر الذي نقله منه ، للتأكد من سلامة النقل ، واستدراك ما قد يقع فيه من السقط ، وتصحيح ما فيه من الخطأ ، والإشارة إلى الخلاف ما بين النص المنقول من الكتاب أو النص الموجود في الأصل المنقول عنه .

٧ ـ ترقيم التراجم المفردة في الكتاب بأرقام متسلسلة ، وذلك لحصر العدد الكامل لها في آخر الكتاب ، والتعريف بالأعلام الذين ليس لهم ترجمة في الكتاب باختصار .

٨ ـ ذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كل جزء على حدة .

٩ ـ صنع فهرس للموضوعات في كل جزء على حدة ، والتراجم المفردة الواردة فيه .

١٠ ـ يقوم كل محقق بكتابة مقدمة موجزة للجزء الذي وكل إليه تحقيقه .

١١ ـ يتولَّى كلُّ محقِّق تصحيح تجارب الطبع في الجزء الذي وكل إليه تحقيقه . وبالنسبة للحواشي والتعليقات يقوم المحقق بكتابتها على أوراق مستقلة ، ويترك فراغاً بين التعليق والآخر مقدار ثلاثة أسطر تقريباً ، لكي يتسع لما قد يضيفه المراجع من التعليقات أثناء مراجعة الكتاب ، لا سيما فيما يتصل بتخريج الأحاديث النبوية ، للحكم عليها من جهة الصحة والضعف .

وفي الختام : نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا جميعاً على إخراج هذا الكتاب العظيم على النحو الذي يُرضيه عنا جلَّ جلاله ، وأن ينال الكتاب تقدير المخلصين العاملين في خدمة تراث هذه الأمة العظيمة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق في ١ شعبان ١٤٠٥ هـ ـ خادم السنة النبوية / عبد القادر الأرناؤوط .

● مدى الالتزام بهذه الخطة :

التزم المحققون جميعاً بهذه الخطة ، وأتقنوا تفاصيلها ، وبخاصة عندما تعدَّى التكليف بالتحقيق إلى أكثر من جزء أو جزأين .

☆ وبدأت تظهر بعض الأجزاء المتقدمة ، فتكون نموذجاً ونبراساً للأجزاء المتأخرة ، وكانت الجهود ظاهرة في خدمة النص ، وتقديمه كاملاً ومتطابقاً مع ما أراده المؤلف وهدف إليه أو قريباً منه ، مع تعليقات وإضاءات مدروسة تنير غوامض بعض الألفاظ ، وتشع الضوء في مرامي جمله وعباراته .

☆ وأسهم التنضيد الحديث بإشراف وتنفيذ الأستاذ محمد إبراهيم شونو ، في تقديم النص بصورة متقدمة ومشرقة ، وأُخذت الآيات القرآنية مشكولة من المصحف الشريف ، مع فواصلها وأرقامها ، وتمَّ إدخال اللون الأحمر ، ليبرز العناوين والأرقام والفوائد المهمة .

☆ وربما أعرض كثير من المحققين عن التقديم للأجزاء التي أنجزوها ، حرصاً على وحدة الكتاب ، واكتفاء منهم بالمقدمة الضافية التي سبقت الجزء الأول ، وكانت بمثابة مقدمة للأجزاء كلها ، واستقر الرأي على الاستغناء عن كثير من المقدمات الفردية .

☆ وامتاز الكتاب في هذه الطبعة المشرِّفة بالجمع بين البداية والنهاية ، والتاريخ من بدء الخليقة إلى النهاية في أحوال الآخرة ، وحقَّق هذا الجزء السابع عشر وراجعه فضيلة الشيخ المحدث عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ وجزاه الله أعظم الأجر والثواب عن هذا العمل المبارك الموصول ، وإنه لفخر يستحق الذكر والشكر أن تصدر البداية والنهاية كاملة وافية .

☆ وخُتم الكتاب بثلاثة أجزاء اشتملت على الفهارس العلمية الوافية ، ولا شكَّ أن الفهارس مفاتيح ، تُيسِّر للقارىء الاستفادة من الكتاب ، والتجوال ضمن موضوعاته وكنوزه ، وتضمَّنت :

ـ فهارس الآيات القرآنية ، والأحاديث القولية والفعلية والآثار ، صنعة الأستاذ محمود الأرناؤوط .

ـ وفهارس الأعلام المترجم لهم ، وغير المترجم لهم ، صنعة الأستاذ أكرم البوشي .

ـ وفهرس الموضوعات ، وفهرس الشمائل والتاريخ ، وفهرس مصادر ابن كثير والكتب المذكورة في الكتاب ، وفهرس مشايخ ابن كثير ، وفهرس الأقوال والخطب والرسائل والوصايا والتوقيعات ، وفهرس الأماكن والبلدان والمواضيع ، وفهرس الحيوان والنبات ، وفهرس الشروح اللغوية ، وشروح الغريبين ، وفهرس القوافي والأشعار ، وفهرس الأمثال والحكم العربية والإسلامية ، وفهرس الأساليب العربية ، وفهرس الفوائد ، وفهرس الفهارس ، صنعة الدكتور رياض مراد .

• القراءات المتعددة للكتاب بكامله :

١ ـ قراءة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ وهو المشرف العام على الكتاب ، ومراجعة وتخريج الأحاديث ، واستدراك أي خلل أو تقصير ، والحكم على أحاديث غير الصحيحين . وهذه القراءة الأولى لمسوَّدة كل جزء ، والتعليقات لا تزال جذاذات وقصاصات ، مفخرة للكتاب وللعاملين في تحقيقه ؛ لما يحمله الشيخ بين جوانحه من علم وتواضع وإخلاص ، وأنفاس طاهرة وأخلاق رضية ، واختصاص حديثي مشهود له ، ويظهر جلياً من خلال التعليقات القيمة المختومة بحرف « ع » ، رحم الله تعالى المحدث الجليل الشيخ عبد القادر ، وأسكنه الله تعالى فسيح جناته ، وجمعنا به تحت لواء سيدنا محمد ﷺ .

٢ ـ قراءة الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف حفظه الله تعالى ، وهو غني عن التعريف في اختصاصه وأستاذيته في مادة التاريخ الإسلامي والحديث النبوي الشريف ، وأعماله الكثيرة في مجال التحقيق وخدمة الكتب التراثية ، والنصوص التاريخية والحديثية . وتصحيحاته المثبتة على التجارب الأخيرة من تصحيح أجزاء « البداية والنهاية » في الأجزاء الست عشرة تشهد بخبرة عالم متضلع في فن التاريخ والتراجم والحديث ، ومستحضر لأخطاء وتصحيفات يقع بها الرواة والنُّسَّاخ . وتعليقاته المختومة باسمه « بشار » تؤكد الحظ الباسم والوافر لهذا الكتاب .

٣ ـ قراءة الدكتور محيي الدين ديب مستو للكتاب في آخر تصحيح ، ولصورة كاملة للأجزاء التي اعتمدت في الفهرسة ، وكان الغرض منها : التنسيق العام في كل الأجزاء ، وتوحيد علامات الترقيم ، وتصحيح بعض الأخطاء المطبعية ، ومقارنة النص كاملاً مع نسخة مقروءة ومصححة بقلم أستاذنا وشيخنا نايف العباس ـ رحمه الله تعالى ـ ، والتوقف عند تصحيحات الشيخ والاستفادة منها ، ومعروف في دمشق اهتمام الشيخ نايف بالتاريخ الإسلامي وتدريسه له في معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء ، وقد قرأنا بين يديه السيرة النبوية لابن كثير بأجزائها الأربعة ، وكانت قراءته أو ضبطه لما نقرأ في البداية والنهاية ـ طبعة المعارف ـ بيروت ـ ١٩٦٦م ، وقد أحضرها لي كاملة ابنه عبد المؤمن العباس جزاه الله كل خير ، وجعله سلفاً صالحاً لوالده .

وقد أثمرت هذه القراءة فوائد عظيمة وفرائد جليلة ، فيها العبرة الصادقة والعظة المؤثرة ، أشرت إليها في دفتري ، وستُطبع في دار ابن كثير مستقبلاً تحت عنوان « فوائد وفرائد » من البداية والنهاية ، ولله الحمد والمنة .

٤ ـ قراءة الأستاذ أكرم البوشي للكتاب مرتين ، مرة أثناء الفهرسة ، ومرة أخيرة ؛ لتكون مسكَ الختام ، وقد أثبتَ تصحيحات مهمة بقلمه الأخضر ، فيها تقويم الشكل ، وتصحيح الخطأ ، وفيها استدراك بعض السقط ، جزاه الله كل خير ، ووفَّقه لكل صواب .

وختاماً :

أسأل الله الجواد الكريم أن يجزل الأجر العظيم ، والخير العميم لدار ابن كثير ممثلة بصاحبها الأستاذ علي ديب مستو الذي ضحَّى بماله ووقته ، وصبر وصابر ، معرضاً عن جهل الجاهلين ، وهفوات المتعالين والمتعالمين . . كما أشكر باسمه كل من أسهم في إنجاز هذا العمل أو شارك فيه ولو بالقليل . . اللهم تقبل منا هذا الجهد ـ وهو جهد المقل ـ واكتبه في صحائفنا ، وصحائف والدينا ومشايخنا . . يوم نلقى الأحبة محمداً ﷺ وصحبه ، ونلقى الحافظ ابن كثير . . والحمد لله ربِّ العالمين .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وكتب

الدكتور محيي الدين ديب مستو

أبو أديب

(٢)

دراسة شخصية المؤلف

الحافظ ابن كثير

أولًا : عصر المؤلف

ثانياً : اسمه ونسبه

ثالثاً : ولادته ونشأته

رابعاً : أسرته

خامساً : شيوخه وتلاميذه

سادساً : كتبه

سابعاً : مكانته العلمية والاجتماعية

ثامناً : وفاته

(٢)

دراسة شخصية المؤلف

الحافظ ابن كثير

أولًا : عصر المؤلف

تمهيد :

عاش الحافظ ابن كثير عمره البالغ (٧٤) عاماً ، في حكم دولة المماليك البحرية ، والممتد من عام ٦٤٨هـ إلى ٧٨٤هـ وقد انتزع هؤلاء السلطة والحكم من أسيادهم الأيوبيين ، وتسمَّوا بالسلاطين مع الاحتفاظ بكلمة مملوك ، وآثروا وجود الخلافة[1] العباسية شكلاً وصورة ، لتبرير حكمهم ، وإضافة شيء من الشرعية عليه ، وقد خلا لهم الجو بمصر ، وفرغت الساحة ، واستطاعوا بفروسيتهم أن يبنوا لهم مجداً جهادياً بهزيمة المغول في عين جالوت (٦٥٨هـ) والتتار في شقحب (٧٠٢هـ) ، وهزيمة لويس التاسع وأسره في دمياط (٦٤٨هـ) وفتح عكا (٦٩٠هـ) وتطهير جميع السواحل الشامية من الغزاة الصليبيين إلى الأبد .

واستمروا من عام (٧٠٣هـ) إلى (٧٨٤هـ) يخضعون البلاد والعباد بهاجس الخطر الصليبي ، الذي يغيب ويظهر ، بعد أن تجمعت فلوله في جزيرة قبرص .

وامتدت حدود الدولة المملوكية من اليمن جنوباً إلى حدود الدولة العثمانية شمالًا ، ومن الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ، وظهرت قوتهم في توحيد الشام ومصر ، والتشرف بإخضاع الحجاز ؛ لخدمة الحرمين الشريفين . أما بقية الأقاليم فتخضع لعاصمة الحكم في القاهرة بدرجات متفاوتة .

وقد عاصر ابن كثير من ولادته إلى وفاته (٥) خمسة من الخلفاء العباسيين ، و (١٥) خمسة عشر سلطاناً ، و (٢٠) عشرين نائباً في دمشق ، وسنلقي الضوء على هذه الفترة الزمنية من خلال التعرف على الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والفكرية .

---

(١) السلطان الظاهر بيبرس هو أول من عمل على إحياء الخلافة العباسية بمصر بدءاً من سنة ٦٥٩هـ .

١ ـ الحياة السياسية :

وقد بدأنا بها لأنها التي توجد الاستقرار والأمان ؛ لحياة اجتماعية فارهة ، وحياة علمية متوهجة ، وحياة فكرية متوقدة .

وهي التي إذا اضطربت وضعفت ، وانعدمت الشورى ، وافتقدت العدالة ، وخاب الرأي الحر الغيور عن الحكام ؛ انقلبت حياة الناس إلى ظلم وتعاسة ، وفقر بائس ، وركود علمي ، وجمود فكري .

ومن المؤسف حقاً أن المماليك البحرية بدأوا تفرُّدهم بالحكم بالخيانة والغدر والتآمر والقتل ، واستمر هذا حال الأمراء فيما بينهم ، لا يستثنى من ذلك سوى مدة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته للمرة الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ) ، ومدة حكم النائب سيف الدين تنكز في دمشق (٧١٢ ـ ٧٤٠هـ) .

فالخليفة : رمز شكلي يبايع السلطان ، ويعيش في ظله ، ولا يملك من أمور الدولة الداخلية أو الخارجية شيئاً ، ويحمل لقباً فخماً ، كما حمل أجداده من بني العباس ؛ كالمستكفي بالله الأول (٧٠١ ـ ٧٣٦) والواثق بالله الأول (٧٣٦ ـ ٧٤٢) والحاكم بأمر الله الثاني (٧٤٢ ـ ٧٥٣) والمعتضد بالله الأول (٧٥٣ ـ ٧٦٣) والمتوكل على الله الأول (٧٦٣ ـ ٧٨٥) .

والسلطان : هو الحاكم الفعلي ، والذي يملك مقاليد الأمور السياسية الداخلية والخارجية ، وتجبى الأموال إلى قصره ، ولذلك يكون عرضة للقتل أو الخنق إذا كان ضعيفاً أو صغيراً ، أو لم يستطع أن يلبي متطلبات الأمراء من حوله وفوق رأسه ، أو كان فاسقاً أو فاجراً يعلن مبررات خلعه ، أو كان خائناً غادراً يعرض الأمة والبلاد للخطر الداهم ، فتسقط عند الناس هيبته ، ويطيح المتربصون برأسه . وإذا كان السلطان المنصور قد تمكن من تأسيس أسرة حاكمة ، واستمرت في السلطنة (١٠٥) سنوات ، فإن ابنه محمد هو الوحيد الذي حكم بقوة ومات على فراشه ، وإن ستة من أولاد الناصر وأحفاده كانوا ضعافاً فخلعوا ، وأربعة قتلوا ، واثنان فقط ماتوا ميتة طبيعية .

والنائب في دمشق[١] : هو المتنفذ طالما استقر به الحال ، وهدأت من حوله العواصف ، وجمع الثروات والعقارات ، ولكن المؤامرات والوشايات له بالمرصاد ، فيأمر السلطان بمسكه ومصادرته وقتله ، وقد استثني النائب تنكز ، فقد طالت مدته ، وظهر العدل والاطمئنان في نيابته ، وأصبح السلطان يخطب وده ، ويكاتبه بألقاب الفخامة وعلو الجناب[٢] ، ولكن قبض عليه حين

---

(١) أكثر من نصف النواب الذين حكموا دمشق ، وعاصرهم ابن كثير كانوا يحملون لقب « سيف الدين » .
(٢) كتب له مرة يقول : « أعز الله أنصار المقر الكريم العالي » بدائع الزهور (ص ١٤٦) .

تغير خاطر الناصر عليه في أواخر نيابته ، ودبَّت عقارب الفتن بينهما ، فصودر وسُجن بالإسكندرية ، حيث مات ، قيل مخنوقاً ، وقيل : مسموماً ، وقيل : غير ذلك ، في المحرم سنة ٧٤١ هـ ، وتأسف الناس عليه كثيراً وطال حزنهم عليه[1] .

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

ارتاح الناس من الخطر القادم من الشرق أو الشمال بعد الانتصار على التتار في مرج الصفر جنوب دمشق سنة (٧٠٢هـ) ، وبقيت عيونهم مسَمَّرة على الساحل الغربي حيث طيف الخطر الصليبي . وآثار التدمير المغولي والتخريب الصليبي ماثل للعيان ، وأوصال الأمة متقطعة ، والأخبار منقطعة ، وبخاصة في هذا القرن الثامن ، فالقارىء لتاريخ ابن كثير لا يجد أي أخبار عن بغداد أو عن بلاد المغرب ، وكأن العالم اختصر في دمشق والقاهرة .

والبعد الزمني عن الهجرة النبوية والقرون الخيِّرة الأولى ، أدى إلى اختلاف وانقسام ، وضعف في التطبيق العملي لمبادىء الإسلام .

فالحاكم السلطان ونوابه يتفننون في فرض الضرائب ، ويتوسعون في منح الإقطاعات ، لضمان جمع أكبر قدر من الأموال ، مما يزيد في تراجع الزراعة ، وتخلف الصناعة ، وإفلاس التجارة ، وتفشي البطالة ، وغلاء الأسعار .

والمرأة يرتكس دورها في بناء الأسرة وصلاح المجتمع ، فتتطلع إلى حبس زوجها إذا عجز عن النفقة ، أو تأخر عن طلبها مؤخر صداقها ، وتلبس الثياب ذات الأكمام العريضة والأزرار الحريرية ، والأحذية المزركشة ، التي تثير الغرائز أو تكشف عن المفاتن ، مما يستدعي تدخل السلطان[2] ومنعها . وربما يسهم الفقر في انتشار البغاء ، وظهور نساء متنفذات يضمنَّ عمل البغايا ، ثم يُبطل السلطان ذلك ، وتنتشر الأغاني الخليعة وما يصاحبها من فسق وخمر ، رغم فتاوى العلماء بتحريم ذلك ، وكتابتهم أن هؤلاء المغنين هم « نوَّاحو جهنم » وأن السامعين لهم يُعذَّبون في قبورهم ، ويُحاسبون يوم حشرهم :

وتزداد الحياة الاجتماعية سوءاً بتعرُّض البلاد لكثير من الجوائح والكوارث الطبيعية ، كالفيضانات والزلازل والجراد ، وإصابتها بالمجاعات والأوبئة ؛ كالطاعون الذي يحصد الناس حصداً ، ويذهب منهم في اليوم الواحد بالمئات والألوف .

والناس الفقراء والمتبطلون يتبلَّد حسُّهم الجماعي ، ويرضون بالواقع المر والظلم الغاشم ،

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٢) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٥٢) .

ويغيبون عن المطالبة بأي تغيير ، أو إحداث أي تأثير ، مع أنهم في بعض الاستقبالات أو المآتم يحضرون ويتحركون .

٣ ـ الحياة العلمية :

وفي هذا الجو المظلم المكفهر كانت الحياة العلمية مزدهرة تعطي أطايب الثمار وأفضل النتائج ، والعلماء يتمتعون بتكريم الحكام ، واحترام الرعية ، والمدارس الكثيرة تُبنى وتوقف لها الأوقاف ، وتُرصد لها الأموال ، ذلك أن المماليك كانوا يتقرَّبون إلى الناس برفع منزلة العلماء وتقديم الجوائز والوظائف الدينية للمتفوقين وذوي السمعة الطيبة منهم ، وبخاصة في أوقات الشدة ، وعندما يحتاجون إلى تأثير العلماء ونفوذهم القوي على عامة المسلمين .

وتتجلى للمتأمل في الحياة العلمية خلال القرن الثامن الظواهر التالية :

الأولى : عظمة هذا الدين الإسلامي وخلوده ، وأنه صخرة منيعة ، تتحطم عليها مطامع الغزاة ومعاول الهدَّامين والمخربين ، لقد امتحن الإسلام في هذا العصر ، وخرج من أقسى المحن وأشد الخطوب سالماً منتصراً، وأثَّر حتى في أعدائه القساة الحاقدين عليه، فاعتنقوه وانضووا تحت لوائه.

الثانية : نشاط العلماء في هذا العصر ، وكثرتهم وكثرة تآليفهم ، وقد وصلوا بكتبهم بين ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها ، وأثبتوا صلابة مواقفهم وأنهم لم تقهرهم روح اليأس مما يُحيط بهم من ظلمات وأحوال .

الثالثة : الخلافات الاعتقادية لا سيما بين السنة والشيعة ، وبين المذاهب الفقهية ، كل ذلك أضعف الحياة العلمية ، واستنفد أوقاتاً وجهوداً عظيمة ، جعلت الماضي عبئاً على الحاضر ، ولم يُفد واقع الأمة ولا مستقبلها شيئاً مذكوراً .

الرابعة : بعض الفرق الصوفية التي لا تلتزم الكتاب والسنة ، حجرت على عقول الناس وأفكارهم ، ومنعت كل تطور وإصلاح ، واستهلكت أوقات العلماء وأعمارهم في تآليف وردود ؛ لكشف البدع ، وبيان زيف الخرافات ، وتجاوز المظاهر والقشور .

الخامسة : الاقتصار على العلوم الشرعية ، وعدم الاهتمام بالعلوم الكونية ، وغياب شمس الحضارة التي سبق وسطعت في بغداد ، وملأت الآفاق بنورها الشامل الوهَّاج .

علماً بأن تحصيل العلوم الدنيوية ، والنهوض بالصناعة وحيازة أسباب القوة مطلب شرعي ، إذ هي فروض الكفاية المضيعة ، والتي تزيد المسلمين ضعفاً وتخلُّفاً .

٤ ـ الحياة الفكرية :

لم تثمر الحياة العلمية في القرن الثامن الهجري حياة فكرية متوثبة أو متوقدة ، بل بقيت مظاهر

الجمود والتخلف الفكري واضحة وراسخة ؛ فالتعليم يقوم على حفظ المتون ، والتآليف قاصرة على الشرح أو الاختصار ، أو صنع الحواشي والهوامش ، والطلاب الجدد لا يعرفون أي تجديد وابتكار ، وهذا ما لاحظه الشيخ محمد أبو زهرة على الحياة العلمية وآثارها الفكرية ؛ فقال :

« وإذا كانت القرون الثلاثة ـ ٦ و ٧ و ٨ ـ قد امتازت بشيء ، فقد امتازت بكثرة العلم ، لا بعمق الفكر ، فقد كانت المعلومات كثيرة ، وتحصيلها كان بقدر عظيم ، وعكوف الناس عليها كان كبيراً . ولكن التفكير المطلق في مصادرها ومواردها ، والمقايسة بين صحيح الآراء وسقيمها مقايسة حرة نزيهة من التعصب الفكري ، والتحيز المذهبي ، بالنظر الفاحص المجرد ، أو النظر الذي يعم كلَّ الجوانب ، لم تكن بقدر يتناسب مع تلك الثروة المثرية التي توارثتها الأجيال »[1] .

ولا بد هنا ونحن نتصور الحياة الفكرية من تسجيل الملاحظات التالية :

الأولى : وجود التعصب المذهبي بين المذاهب الأربعة ، وبين أهل المذاهب الواحد أحياناً .

الثانية : الخلاف بين الشيخ ابن تيمية وتلاميذه وبين المتصوفة وبعض الفقهاء ، مما أدى إلى سجن ابن تيمية ثلاث مرات ، إحداهن بمصر ، وسجن الحافظ المزي ، وابن القيم في دمشق ، بسبب اجتهادات فرعية فقهية ، تدل على تحجر وضيق أفق .

الثالثة : الاهتمام بعلم التاريخ ، ولكن من غير تجديد ولا نقد ـ باستثناء ابن خلدون والمقريزي ـ والاقتصار على التذييل والاختصار ، مما عطَّل هذا العلم العظيم عن تحريك بناء الأمة ، وتوحيدها ، ودفعها إلى بناء الحضارة وتوحيد الشمل من جديد .

الرابعة : التأثر بعقائد الأمم والأجناس المختلفة ، والخوض في علم الكلام ، والتأثر بالمنطق الصوري ، والانزلاق إلى متاهات الجبر والاختيار ، والتأويل والتفويض ، والتجسيم والتعطيل . . والإبقاء على الآراء المختلفة معلَّقة ، تقسم الصف ، وتهدد المستقبل ، وتنذر بالفناء .



---

(١) ابن تيمية ، للدكتور محمد أبو زهرة (ص ١٥٤) .

ثانياً : اسمه ونسبه

هو الحافظ الحجَّة ، والمُفسِّر العمدة ، والمحدِّث الثقة ، والمؤرِّخ الموضوعيّ ، والفقيه المستحضر ، عماد الدين ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، بن ضَوْ بن درع[1] القرشي ، الحَصْلي ، البُصروي ، الدِّمشقي ، الشافعي ، المعروف بابن كثير .

فهو عربي « قرشي » لأن بني حَصْلة ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب ، وقد وقف على بعضها الشيخ أبو الحجاج جمال الدين المِزِّي ، فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسب ابن كثير « القرشي »[2] .

وهو « بُصروي » : لأن أباه من « بصرى » وهي بلدة قديمة بالشام من أعمال دمشق ، وتقع في الجنوب الشرقي من سورية ، وثاني مدينة بعد « درعا » في منطقة حوران ، وتبعد عن دمشق حوالي (١٣٧) كم .

وهو بعد ذلك « دمشقي » : لأنه سكن دمشق ، ونشأ فيها ، ثم توفي ودُفن فيها .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) كذا في طبقات المفسرين ؛ للداودي (١/ ١١١) وإنباء الغمر بأبناء العمر ، لابن حجر (١/ ٤٥) وفي شذرات الذهب ، لابن العماد (٨/ ١٩٧) وذيل تذكرة الحفاظ ؛ للحسيني (ص ٥٧) ابن ذُرَع . وفي الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ؛ لابن حجر (١/ ٣٩٩) « القيسي » وفي نسخة « العبسي » .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥) .

ثالثاً : ولادته ونشأته

• ولادته :

ولد ابن كثير بقرية « مَجْدَلْ »[1] وهي قرية شرقي مدينة « بصرى » سنة ٧٠١هـ ، ولم يُنقل لنا شيء عن تحديد اليوم أو الشهر الذي وُلد فيه ، بل إن بعض من ترجم له لم يجزم في تحديد سنة ولادته ، فالإمام الذهبي يقول في « طبقات الحفاظ » : ولد بعد السبعمئة أو فيها[2] . والحافظ ابن حجر يقول في « الدرر الكامنة » : ولد سنة سبعمئة أو بعدها بقليل[3] .

وهذا التاريخ لولادة ابن كثير مستنبط من كلامه هو ، حيث يقول في ترجمة أبيه المتوفىٰ سنة ٧٠٣ هـ : « وكنتُ إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم »[4] والذي يدقق النظر في كلامه : « ابن ثلاث سنين أو نحوها » يترجح لديه أن تكون ولادته في سنة ٧٠١هـ لا في سنة ٧٠٠هـ ، إلا أن يكون قد وُلد في أواخر السبعمئة ، وتوفي أبوه في أوائل سنة ٧٠٣هـ . ويرى أحمد محمد شاكر في « عمدة التفسير » : أن ولادة ابن كثير كانت سنة ٧٠٠هـ أو قبلها بقليل ، ورجَّح ذلك من عبارة ابن كثير نفسها : « لا أدركه إلا كالحلم » فقال : الذي هو في سن أقل من الثلاث ، ما أظنه يذكر شيئاً كالحلم ولا أبعد من الحلم ولا أقرب ، فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة في أكبر ظني[5] . وقال : وابن ثلاث سنين لا يعرف تواريخ السنين على اليقين في تلك السن ، فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة وأهل وجيران[6] .

ولكننا نعود فنؤكد سنة ٧٠١هـ ، لأنها من تحديد المؤلف ابن كثير ، حيث نجده يقطع الشك باليقين ، ويقول في أواخر سنة (إحدى وسبعمئة) : وفيها وُلد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي[7] .

---

(١) وتعرف الآن باسم (الجدل) وهي بجوار بلدة (القُرَيَّة) وكلتاهما تقعان في السفح الجنوبي الغربي لجبل العرب . وهما تابعتان إدارياً لمحافظة السويداء .

(٢) تذكرة الحفاظ ؛ للذهبي (٤/ ١٥٠٨) .

(٣) الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩) .

(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٠) .

(٥) عمدة التفسير (١/ ٢٣) .

(٦) عمدة التفسير (١/ ٢٣) .

(٧) البداية والنهاية (١٦/ ١٩) .

• نشأته :

أما نشأته الأولى فكانت في قرية « مَجْدل » أو « مِجْدل » أو « مجيدل القُرَيَّة »[(١)] وتقع شرقي مدينة بصرى ، وهي موطن أمه ، انتقل إليها والد ابن كثير في أواخر حياته ، وعمل بها إماماً للصلوات وخطيباً للجمع والأعياد ، وبقيت الأسرة بعد وفاته مقيمة بها حوالي أربع سنين ، ثم تحوَّلت إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ ، وغادر ابن كثير هذه القرية بعد أن ملأ قلبه وفكره من ذكريات الطفولة فيها ، وحفظ ما يتحدَّث الناس به عن خطب والده المؤثرة ، وسمع ما يحفظونه من أقواله وشعره ، وقصَّ عليه إخوته أن أباه سمَّاه إسماعيل تيمناً بأن يكون كأخيه الكبير طالب علم ، الذي اختطفته يد المنون بعد أن قطع في طريق طلب العلم شوطاً بعيداً ، فتطلَّعت نفسه منذ ذلك السن المبكر إلى السير في هذا الطريق ، والارتواء من منهله العذب ، فيقر بذلك عينَ والده في قبره ، ومن ثَمَّ يصبح بين الناس كأبيه شيئاً مذكوراً .

وأما نشأته الثانية والمؤثِّرة ، فكانت في دمشق الشام ، فارتحل إليها مع أخيه الشقيق عبد الوهاب المحب الشفوق ، الذي كان بمثابة الأب والمعلم الأول له ، واستمر في ملازمته والاستفادة منه مدة طويلة ، ولنسمع المؤرخ ابن كثير يحدثنا عن ذلك فيقول : « ثم تحوَّلنا من بعدُ ـ أي من بعد وفاة الوالد ـ في سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب ، وكان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوقاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين وسبعمئة ، فاشتغلت على يديه في العلم ، فيسَّر الله تعالى على يديه ما تيسَّر ، وسهَّل منه ما تعسَّر »[(٢)] .

ويُحدِّد ابن كثير مكان سكناهم في دمشق ، ولكن بأسماء قد تبدلت وعفَّى عليها الزمن فيقول :

« في هذه السنة ٧٠٧هـ كان قدومنا من بُصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد ، وكان أول ما سكنا بدرب سقُون الذي يُقال له درب ابن أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطيوريين »[(٣)] .

ويقول في ترجمة الشيخ محيي الدين بن عبد الله بن صفي الدين إبراهيم بن مرزوق المتوفى سنة ٦٦٢هـ :

« داره التي جعلت مدرسة للشافعية ، وقفها الأمير جمال الدين آقوش النَّجِيبي التي يقال لها « النجيبية » ـ تقبَّل الله منه ـ وبها كانت إقامتنا ، جعلها الله داراً تعقبها دار القرار في الفوز العظيم »[(٤)] .

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٣٦) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٧) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٦٤) .
(٤) المصدر السابق (١٥/ ٤٠١) .

ولم ينشأ أبو الفداء في دمشق غريباً ، ثم يرحل عنها غريباً ، بل قضى عمره في ربوع دمشق يكتب تاريخها ، فيُغني بكلماته أفراحها وانتصاراتها ، ويبكي أحزانها وأتراحها . ويصف لنا من خلال الصراع على الحكم قلعتها وأبوابها ، وطرقها وساحاتها ، ويترجم ما يراه في عيون سكانها وهم يودِّعون والياً مخلوعاً ، أو يستقبلون حاكماً جديداً ، أو يشهدون نائباً متمرِّداً أو آخر غادراً .

ويُدعى ابن كثير بعد أن تخرج من محراب العلم إلى مجالس العلم والتحكيم ، وهي تقام في بساتين دمشق الساحرة ، أو في قاعات قصورها الشامية الفسيحة .

ويتطلع أهل دمشق إلى الاستفادة من حفظ ابن كثير واستحضاره، فيعتلي منابر المساجد خطيباً، ويدخل المدارس المتخصصة مدرساً ورئيساً ، ويجلس في مسجد بني أمية تحت قبة النسر مفسِّراً ومحدِّثاً . فأيُّ مغاني خير وبركة كانت تنتظره في دمشق ، فتفتح نفسه على العلم بنهم زائد، وتمنحه قلم الفقيه الورع والمؤرخ المسؤول ، فيعيش للفيحاء أكثر مما يعيش فيها . ودمشق حين سكنها ابن كثير ونشأ فيها معدن العلم وموئل العلماء ، فتحت صدرها للأساتذة الكبار العائذين بها من وجه الفرنجة والتتار ، فأصبحت عشاً ومأمناً لهم ، وتلقتهم مدارسها بالترحاب ، فملؤوها علماً وكتباً ، وكان من علمائها الكبار المحدِّث الثقة أبو الحجاج المزي ، والفقيه الشافعي الحجة تاج الدين الفزاري ، والعالم المجدد ابن تيمية ومن جاء بعده من تلاميذه المشهورين كابن القيم وابن كثير .

ويهمنا أن نثبت هنا البدايات في تحصيله العلمي إبان نشأته :

- ختم القرآن الكريم حفظاً سنة ٧١١هـ على الشيخ محمد بن أبي الحسن البعلبكي[١] الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٠هـ .

- وتعلَّم القراءات على الشيخ محمد بن جعفر[١] اللَّبَّاد المتوفى سنة ٧٢٤هـ .

- وتعلَّم الكتابة على الشيخ نجم الدين موسى بن علي[١] المتوفى سنة ٧٢٣هـ .



(١) انظر ترجمة وافية لكل من هؤلاء الشيوخ في فقرة خامساً « شيوخه » الآتية (ص 23) .

رابعاً : أسرته

• ونبدأ بالتعرُّف على أفراد أسرته التي تحدَّر منها ، وهم :

أبـــوه :

قال ابنه : « الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير ، ولد في حدود سنة ٦٤٠هـ ، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى ، فقرأ « البداية » في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ « جمل الزجَّاجي » وعُني بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي ، وقليل من الهجاء ، وقرَّر بمدارس بصرى بمَبْرك الناقة[١] شمالي البلدة ، حيث يُزار ، وهو المَبْرك المشهور عند الناس ، والله أعلم بصحة ذلك . ثم انتقل إلى خطابة القُرَيَّة شرقي بصرى ، وتمذهب للشافعي ، وأخذ عن النواوي ، والشيخ تقي الدين الفزاري ـ وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلاَّمة ابن الزملكاني ـ فأقام بها نحواً من ١٢ سنة ، ثم تحوَّل إلى خطابة « مجدل » القرية التي منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة ، وكان يخطب جيداً وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ؛ لديانته ، وفصاحته ، وحلاوته . وكان يُؤثر الإقامة في البلاد ؛ لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله . توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ في قرية مجدل ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة »[٢] .

إخوته وأخواته :

ونستمر بالإصغاء إلى الحافظ ابن كثير وهو يُحدثنا عن إخوته وأخواته فيقول :

« وقد وُلد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها . أكبرهم إسماعيل ، ثم يونس ، ثم إدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عِدَّة . ثم أنا أصغرهم ، وسُمِّيتُ باسم الأخ « إسماعيل » لأنه كان قدم دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ « التنبيه » وشرْحَه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصَّل «المنتخب» في أصول الفقه ، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني . ثم إنه سقط من سطح الشَّامية البرانية ، فمكث أياماً ومات ، فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه بأبيات كثيرة ، فلما وُلدت أنا له بعد ذلك سمَّاني

---

(١) أي : ناقة النبي ﷺ .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٧) .

باسمه ، فأكبر أولاده إسماعيل ، وأصغرهم وآخرهم إسماعيل ، فرحم الله من سلف ، وختم بخير لمن بقي »[1] .

ولم يعرف من أحوال أفراد هذه الأسرة إلَّا ثلاثة : الأخ الأكبر إسماعيل من الزوجة الأولى ، والأخ الأصغر إسماعيل المؤلف والمؤرخ المشهور ، والأخ الثالث عبد الوهاب ، وهو الأخ الشقيق والأكبر من الزوجة الثانية ، الذي تحمَّل مسؤولية الأسرة ، وارتحل بهم إلى دمشق طلباً للرزق واستكمالاً للعلم ، ووصفه ابن كثير بالرفق والشفقة ، وقد اشتهرت من أولاد عبد الوهاب هذا بنت هي ست القضاة أم عيسى (٧٣٠ ـ ٨٠١هـ) التي تميزت بالعلم والمعرفة والثقافة الدينية ، فقد حدَّثت بالإجازة عن القاسم بن عساكر ، والحجَّار ، وعلي الواني ، والمِزّي ، والشرف ابن حافظ ، وغيرهم . وقد سمع منها الفضلاء ، وأجازت لابن حجر فيمن أجازت[2] .

• وأما أسرته التي أسسها في دمشق ، فاختار لها الزوجة الصالحة ، وأنجب الأولاد البررة ، وأفرادها هم :

زوجه :

أمة الرحيم زينب ، بنت الشيخ جمال الدين المِزِّي المتوفى سنة ٧٤٢هـ ، وهو شيخه في علم الحديث ، ولم يسجل ابن كثير في « البداية والنهاية » تاريخ زواجه ؛ وإنما ذكر اسمها ، وأنها حفظت القرآن مع أمها أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق ، على الشيخة الصالحة العابدة أم زينب فاطمة بنت عباس التي ختَّمت القرآن لنساء كثيرات[3] ، والمتوفاة سنة ٧١٤هـ ، وسمعتْ من والدها الكثير من الأجزاء والكتب الكبار ، منها « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » حيث نجد اسمها ضمن من سمعوا هذا الكتاب على المؤلف[4] . وقد أرَّخ ابن كثير لوفاة حماته سنة ٧٤١هـ . كما نقل عن زوجه زينب حادثة وفاة أبيها الشيخ أبي الحجاج[5] المزي ، يرحمه الله تعالى .

أولاده :

الأول : عمر ، وهو أكبر أولاده . قال ابن حجر في ترجمته : « عُني بالفقه ، وكتب تصانيف أبيه ، وولي الحِسْبة مراراً ، ونظرَ الأوقاف ، ودرَّسَ بعدة أماكن ، وعاش خمساً وأربعين سنة ، مات في رجب سنة ٧٨٣هـ »[6] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٣٦) .
(٢) الضوء اللامع ، للسخاوي (١٢/ ٥٧) وشذرات الذهب (٩/ ١٨) .
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .
(٤) تنظر مقدمة الدكتور بشار لكتاب تهذيب الكمال .
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر ؛ لابن حجر (٣/ ٧٥) .

وذكر ابن حجر في ترجمة ابن كثير[1] : أن ابنه عمر نسخ له مسند الإمام أحمد الذي رتبه ابن المحب الصامت المتوفى سنة ٧٨٩هـ على ترتيب حروف المعجم ، وكانت هذه النسخة أصلاً لأبيه في تأليف كتابه الكبير « جامع المسانيد والسنن » ثم بيَّض عمر هذا الكتاب الجامع ، ورأى ابن حجر النسختين بخط عمر .

الثاني : زين الدين عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، أشار إليه ابن فهد في كتابه « لحظ الألحاظ »[2] واكتفى بالتصريح بأنه مات ودفن في دمشق .

الثالث : بدر الدين أبو البقاء محمد بن الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ، ولادته بدمشق سنة ٧٥٩هـ ووفاته بها سنة ٨٠٣هـ . ذكر السخاوي في « الضوء اللامع » وابن العماد في « شذرات الذهب »[3] أنه وُلد بدمشق ، ونشأ بها ، واشتغل وطلب ، وتخرَّج بابن المحبّ ، وسمع الكثير من ابن أميلة ، والصلاح بن أبي عمر ، وغيرهما من أصحاب الفخر ، ورحل إلى القاهرة ، فسمع من بعض شيوخها ، وتميَّز في هذا الشأن قليلاً ، وشارك في الفضائل ، مع خط حسن معروف جيد الضبط[2] . إلا أنَّ ابن حجي قال : لم يكن محمود السيرة ، ودرَّس بعد أبيه في تربة أم صالح ، وعلَّق تاريخاً للحوادث التي في زمنه ، ذكر فيه أشياء غريبة . وقال الحافظ ابن حجر : سمعت من فوائده ، وسمع بقراءتي في دمشق ، ومات في سن الكهولة عن أربع وأربعين سنة بالرملة فاراً من دمشق »[2] . ولعله فرَّ من دمشق في الفتنة التيمورية ، حيث دخل تيمورلنك دمشق في ربيع الثاني من عام ٨٠٣ هـ ، ورحل عنها في شعبان من نفس السنة .

الرابع : تاج الدين عبد الوهاب ، وُلد سنة ٧٦٧هـ ، وتوفي سنة ٨٤٠هـ ، وقال السخاوي في ترجمته : « سمع من أبيه ، والمحب الصامت ، وأحمد بن عبد الغالب الماكسيني ، وابن أميلة ، وحدَّث فسمع منه الفضلاء »[4] .

الخامس : شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عمر بن كثير ، ذكره السخاوي[5] في ترجمة ابنته المحدثة أسماء التي كانت سبباً في ذكر اسم أبيها وعدم نسيانه للأجيال المتأخرة ، وهي التي تولَّت تربيتها وتعليمها ستُّ القضاة أم عيسى بنت عبد الوهاب ، والتي تقدم ذكرها قريباً[6] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٧) .
(٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفَّاظ ؛ لابن فهد (ص ١٧٨) .
(٣) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٧/ ١٣٨) ، وشذرات الذهب ، لابن العماد (٩/ ٥٧) .
(٤) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٥/ ٩٨) .
(٥) المصدر السابق (٥/ ٩٨) .
(٦) انظر المقدمات (ص 23) .

خامساً : شيوخه وتلاميذه

أ ـ شيوخه :

تمهيد : اتجه ابن كثير في دراسته إلى العلوم الشرعية ، وبخاصة الفقه والحديث ، وما يتصل بهما من علوم القرآن والسنة واللغة العربية ، وهو الاتجاه السائد في عصره ، يدفعه إلى ذلك نشأته الأولى في أسرته ، وبخاصة أخوه وشيخه الأول عبد الوهاب ، يضاف إلى ذلك أنه طالب علم نبيه ومتفوّق ، فهو كثير الحفظ ، قليل النسيان ، صحيح الذهن ، مما يفسر العلاقة الحميمة بينه وبين شيوخه ، الذين أحبُّوه وشجَّعُوه على الصبر والمثابرة ، وكان لهم أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية ؛ كالمؤرخ الذهبي ، والمحدِّث المزي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وسنذكر فيما يلي تعريفاً مختصراً بمشايخه ، وهم صفوة العلماء في عصره ، مرتبة أسماؤهم حسب سني وفاتهم ، فنبدأ بالأقدم وفاة ، حريصين كل الحرص على أن يكون التعريف بقلم ابن كثير ومن خلال تأريخه العظيم « البداية والنهاية » :

١ ـ موسى بن علي بن محمد الحَلَبي ، نجم الدين ، الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦هـ :

قال ابن كثير : « الكاتب الفاضل المعروف بالبُصْبُص ، شيخ صناعة الكتابة في زمانه ، لا سيما في المزوج والمثلث ، وقد أقام يُكتِّبُ الناسَ خمسين سنة ، وأنا ممن كتب على يديه أثابه الله ، وكان شيخاً حسناً ، بهيَّ المنظر . . توفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة ، ودفن بمقابر الباب الصغير ، وله خمس وستون سنة »[١] .

٢ ـ زكريا بن يوسف بن سليمان بن حمَّاد ، ركن الدين البجلي الشافعي ، المتوفى سنة ٧٢٢هـ :

لم يذكر ابن كثير العلم الذي أخذه عنه ، وإنما قال : « شيخنا العلامة الزاهد ركن الدين ، بقية السلف ، نائب الخطابة ، ومدرس الطيبية والأسدية ، وله حلقة للإشغال[٢] بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة، كان يشغل بالفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك ، توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى عن سبعين سنة ، ودفن قريباً من شيخه تاج الدين الفزاري ـ رحمهما الله ـ »[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٢١) .

(٢) الإشغال هو التعليم ، والاشتغال : طلب العلم .

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ١٥٩) .

٣ ـ عبد الله ، ضياء الدين ، الدَّرْبَنْدِي النحوي ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

أخذ عنه علم النحو ، وقال : « كان قد اضطرب عقله فسافر من دمشق إلى القاهرة ، فأشار شيخ الشيوخ القونوي فأُودع بالمارستان ، فلم يُوافق ، ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتلَ نصرانياً ، فحُمل إلى السلطان وظنوه جاسوساً ، فأمر بشنقه فشُنق ، وكنتُ ممن اشتغل عليه في النحو »[١] .

٤ ـ محمد بن محمد بن محمد ، شمس الدين ، أبو نصر الشيرازي ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

أخذ عنه الحديث ، وقال : « شيخنا الأصيل شمس الدين ، أبـو نصر محمد بن عمـاد الدين أبي الفضل محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله محمد بن يحيى بن بندار بن مميل الشيرازي ، مولده في شوال سنة تسع وعشرين وستمئة ، وسمع الكثير وأسمع ، وأفاد في عليَّة شيخنا المِزي تغمده الله برحمته ، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه ، وكان شيخاً حسناً خيِّراً ، متواضعاً ، مباركاً ، يُذَهِّبُ الربعات والمصاحف ، له في ذلك يد طولى ، ولم يتدنَّس بشيء من الولايات ، ولا تدنِّس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات إلى أن توفي يوم عرفة ببستانه من المزة ، وصلِّي عليه بجامعها ، ودُفن بتربتها ـ رحمه الله ـ »[٢] .

٥ ـ عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي ، المعروف بابن قاضي شهبة ، المتوفى سنة ٧٢٦هـ :

تفقَّه عليه ابن كثير ، لأنه كان ينوب عن الشيخ تاج الدين الفزاري في حلقته ، وله حلقة خاصة ، قال عنه : « وُلد بحوران في سنة ثلاث وخمسين وستمئة ، وقدم دمشق ، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري ولازمه ، وانتفع به ، وأعاد بحلقته ، وتخرَّج به ، وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين ، وأخذ عنه النحو واللغة ، وكان بارعاً في الفقه والنحو .. توفي بالمدرسة المجاهدية ، وبها كانت إقامته ، ليلة الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وصُلِّي عليه بعد صلاة الظهر ، ودُفن بمقابر باب الصغير »[٣] .

٦ ـ محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم ، كمال الدين ، أبو المعالي المعروف بابن الزملكاني ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

أخذ ابن كثير عنه الفقه وحضر دروسه ، وقال عنه : « انتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً وإفتاءً ومناظرة ، برع وساد أقرانه ، وحاز قصب السبق عليه بذهنه الوقَّاد ، وتحصيله الذي أسهرَه ومنعه الرقاد ، وعبارته التي هي أشهر من السهاد ، وخطه الذي هو أنضر من أزاهير المهاد .. وقال : أما

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٦٥) .
(٢) المصدرية السابق (١٦/ ١٦٩) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٩٦) .

دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس يُدرِّس أحسن منه ، ولا أحلى من عبارته ، وحسن تقريره ، وجودة احترازاته ، وصحة ذهنه ، وقوة قريحته ، وحسن نظمه ، توفي في رمضان سنة سبع وعشرين وسبعمئة ببليس ، وحُمل إلى القاهرة ، ودُفن جوار قبَّة الشافعي رضي الله عنه »[١] .

٧ ـ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تقي الدين ، أبو العباس ، الحراني الحنبلي ، شيخ الإسلام ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ :

لازم ابن كثير شيخه ابن تيمية ، وأحبه حباً عظيماً ، وأخذ عنه فأكثر من آرائه ، وكان يُفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذي .

ويقول ابن حجر العسقلاني : « وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامتحن بسببه »[٢] ورغم أن ابن كثير كان شافعي المذهب ، فإنه كان مخلصاً لابن تيمية ، تأثر به كل التأثر في نبذ البدع والضلالات المستحدثة ومناصرة السنة وأهلها . وفي الجزء السادس عشر من طبعتنا الجديدة للبداية والنهاية نجده يتتبع مواقف الشيخ ابن تيمية المشهودة ، وجهاده البطولي ، فيفرح لانتصاره على[٣] التتار وأهل البدع[٤] والزيغ ، ويحزن لسجنه ، ويحضر إلى قلعة دمشق عند وفاته ، ويقبل وجهه عند غسله[٥] ، ويصف جنازته الكبرى[٦] ، التي خرج فيها أهل دمشق ومن حولها من القرى يُودِّعون العالم المصلح المجاهد ، ويرى ابن كثير في هذه الحشود الحزينة أكبر انتصار لدعوة الشيخ الإصلاحية ، ولطمة مؤلمة لأعدائه وحسَّاده .

وقال ابن كثير بعد ترجمة حاشدة أخذها من تاريخ شيخه البِرْزَالي : « وعملت له ـ للشيخ ابن تيمية ـ ختمات كثيرة ورؤيت له منامات صالحة عجيبة ، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطوَّلة جداً ، وقد أُفردت له تراجم كثيرة ، وصنَّف في ذلك جماعة من الفضلاء ، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه ، وفضائله ، وشجاعته ، وكرمه ، ونصحه ، وزهادته ، وعبادته ، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة ، وصفاته الكبار والصغار ، التي احتوت على غالب العلوم ، ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة ، وأفتى بها »[٧] .

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يُخطيء ويُصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٩٧) .
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠) .
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٦) .
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٣) .
(٥) المصدر السابق (١٦/ ٢١٣) .
(٦) المصدر السابق (١٦/ ٢١٤) .
(٧) المصدر السابق (١٦/ ٢١٤) .

صوابه كنقطة في بحر لجيٍّ ، وخطؤه أيضاً مغفور له ، كما في صحيح البخاري « إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصاب له أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : كلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر[1] .

٨ - إبراهيم بن عبد الرحمن الفَزَاري ، برهان الدين ، الشهير « بابن الفركاح » ، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ :

سمع ابن كثير عليه « صحيح مسلم » وغيره في الحديث ، وتفقَّه عليه في المذهب الشافعي ، وقال عنه : « كان مقبلاً على شأنه ، عارفاً بزمانه ، مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والعبادة ، كثير المطالعة وإسماع الحديث ، وقد سمعنا عليه « صحيح مسلم » وغيره ، وكان يُدرِّس بالمدرسة البادرائية ، وله تعليق على « التنبيه » ، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره ، وله تعليق مختصر على « مختصر ابن الحاجب » في أصول الفقه ، وله مصنفات في غير ذلك كبار ، وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله ، وكان حسن الشكل ، عليه البهاء والجلالة والوقار ، حسن الأخلاق ، فيه حدَّة ثم يعود قريباً ، وكرمه زائد ، وإحسانه إلى الطلبة كثير . .

توفي بكرة يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بالمدرسة المذكورة ، وصُلِّي عليه عقب الجمعة بالجامع ، وحُملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل ، وكانت حافلة ، ودُفن عند أبيه وذويه بباب الصغير ، رحمه الله تعالى »[2] .

٩ - أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن نعمة ، شهاب الدين ، أبو العبَّاس ، الحجَّار ، المعروف « بابن الشحنة » المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

سمع عليه ابن كثير أجزاء حديثية بالإجازات والسَّماعات ، و « صحيح البخاري » ، وقال عنه : « كان شيخاً حسناً ، بهيَّ المنظر ، سليم الصدر ، ممتَّعاً بحواسِّه وقواه ، فإنه عاش مائة سنة مُحَقَّقاً وزاد عليها ، لأنه سمع « صحيح البخاري » من الزَّبِيدي في سنة ٦٣٠هـ ، وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمئة في ٩ صفر بجامع دمشق ، وسمعنا عليه يومئذ ، ولله الحمد .

توفي الحجار يوم الاثنين خامس وعشرين صفر من هذه السنة ، وصُلِّي عليه بالمظفري يوم الثلاثاء ، ودُفن بتربة له عند زاوية الدومي ، بجوار جامع الأفرم ، وكانت جنازته حافلة ، رحمه الله »[3] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢١٥) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٢٥) .
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٣٢) .

١٠ ـ محمد بن حسين بن غيلان ، شرف الدين ، أبو محمد ، البعلبكي الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

ختم عليه ابن كثير حفظ القرآن سنة ٧١١هـ ، قال عنه : « سمع الحديث وأسمعه ، وكان يُقرىء القرآن طرفي النهار ، وعليه ختمت القرآن . . ، وكان من الصالحين الكبار ، والعبَّاد الأخيار »[١] .

١١ ـ عبد الله بن يوسف ، شمس الدين ، أبو محمد المقدسي ، ابن العفيف ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ :

قرأ عليه ابن كثير كثيراً من الأجزاء الحديثية ، وقال عنه : « قرأتُ عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمئة ـ مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد ، وهو والد صاحبنا جمال الدين يوسف ، أحد مفتي الحنابلة وغيرهم ، والمشهورين بالخير والصلاح »[٢] .

توفي يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الآخر بنابلس ، ودفن بها ، وتأسف الناس عليه ، رحمه الله تعالى .

١٢ ـ القاسم بن محمد بن يوسف ، علم الدين ، أبو محمد البِرْزالي ، الإشبيلي الأصل ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٣٩هـ :

أخذ عنه ابن كثير علم التاريخ ، وقال : « هذا آخر ما أرَّخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيَّل به على تاريخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي[٣] ، وقد ذيَّلتُ على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة من سنة ٧٥١هـ».

توفي سنة ٧٣٩هـ وهو محرم فغُسِّل وكُفِّن ولم يُستر رأسه ، وحمله الناس على نعشه وهم يبكون حوله ، وكان يوماً مشهوداً . . ، توفي عن أربع وسبعين سنة[٤] ، رحمه الله .

١٣ ـ يوسف ابن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن ، أبو الحجاج ، المِزِّي ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ :

لازم ابنُ كثير هذا الشيخ الكبير ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وتخرَّج على يديه ، وقرأ عليه « صحيح البخاري » ، وقرأ عليه كتاب « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » واسمه مذكور في طباق السماعات ، وأصهر إليه فتزوَّج ابنته زينب ، وأصبح قريباً منه في حلقات دروسه ، وقريباً منه في

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٣١) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٢٧٨) .
(٣) المسمّى « الروضتين في أخبار الدولتين » .
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٢٨٨) .

بيته ، ومكثراً من الأخذ عنه ، وتأثر به تأثراً بيناً في العقائد ، فإن المزي كان من أخلص مؤيدي شيخ الإسلام ابن تيمية ، ووصف لنا مرضه الذي مات فيه ، وجنازته المهيبة ، فقال : « وفاة شيخنا أبي الحجّاج المزي : تمرَّضَ أياماً يسيرة ، لا يُشغله عن شهود الجماعة ، وحضور الدروس وإسماع الحديث ، فلما كان يوم الجمعة حادي عشر صفر أسمع الحديث إلى قريب وقت الصلاة ، ثم دخل منزله ليتوضأ ويذهب للصلاة ، فاعترضه في باطنه مغص عظيم ظنَّ أنه قولنج ، وما هو إلا طاعون ، فلم يقدر على حضور الصلاة ، فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع ، فذهبت إليه فدخلت عليه ، فإذا هو يرتعد رعدة شديدة من قوة الألم الذي هو فيه ، فسألته عن حاله ، فجعل يُكرِّر الحمدُ لله ، ثم أخبرني بما حصل له من المرض الشديد، وصلَّى الظهر بنفسه ، ودخل إلى الطهارة ، وتوضأ على البِرْكةِ وهو في قوة الوجع، ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم السبت ، فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك ، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتي ، أنه لما أذَّن الظهر تغيَّر ذهنه قليلاً ، فقالت : يا أبة أذَّن الظهر ! فذكر الله وقال : أريد أن أصلي ، فتيمَّم وصلَّى ، ثم اضطجع فجعل يقرأ آية الكرسي ، حتى جعل لا يفيض بها لسانه ، ثم قبضت روحه بين الصلاتين ، رحمه الله ، يوم السبت ثاني عشر صفر . . وفي يوم الأحد ثالث عشر صفر صبيحة ذلك اليوم ، غُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه بالجامع الأمَوِي . . ثم صُلِّي عليه خارج باب النصر . . ودفن في مقابر الصوفية إلى جانب زوجته الصالحة الحافظة لكتاب الله عائشة بنت إبراهيم بن صديق ، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية ـ رحمهم الله أجمعين ـ »[١] .

١٤ ـ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، أبو عبد الله الذهبي التركماني ، الفارقي ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٤٨هـ :

تتلمذ ابن كثير على هذا الشيخ الحافظ : في علوم التفسير ، والحديث ، والتاريخ ، وروى عنه ، وقال في ترجمته : « وفي ليلة الاثنين ثالث شهر ذي الحجة توفي الشيخ الحافظ الكبير ، مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، بتربة أم الصالح ، وصُلِّي عليه يوم الاثنين صلاة الظهر في جامع دمشق ، ودفن بباب الصغير ، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفَّاظه ، رحمه الله »[٢] .

١٥ ـ محمود بن عبد الرحمن ، شمس الدين ، أبو الثناء ، الأصبهاني ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ :

أخذ ابن كثير عنه علم أصول الفقه ، فقد كان بارعاً في العقليات ، صحيحَ الاعتقاد ، محباً لأهل الصلاح[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٤٠) .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٨١) والدرر الكامنة (٥/ ٩٥) والفتح المبين (٢/ ١٥٨) .

اشتغل بتبريز ، وتصدَّر للإقراء بها ، ثم قدم دمشق ٧٢٥هـ ، ودرَّس بالرواحية ، واشتهر أمره بمصر وصنَّف « التفسير الكبير » و « شرح مختصر ابن الحاجب » و « شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه » .

توفي بالقاهرة بالطاعون ، ودفن بها[١] .

• وسمع ابن كثير على عدد من الشيوخ كتباً ، ومشيخات ، وأجزاء وفوائد ، فحُقَّ أن يُذكروا مشايخ له ، وهم :

١ ـ عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد . . المسند ، شرف الدين ، أبو محمد السمسار في العقار ، مُطَعِّم الأشجار ، المتوفى سنة ٧١٩هـ :

سمع عليه ابن كثير معظم الصحيح ـ صحيح البخاري ـ[٢] .

٢ ـ القاسم بن مظفَّر بن محمود بن أحمد بن الحسن بن هبة الله ، بهاء الدين بن عساكر الدمشقي ، الطبيب ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

سمع عليه ابن كثير مشيخة في سنة وفاته ، خرَّجها له علم الدين البرزالي ، وقال عنه في « البداية والنهاية » : شيخنا الجليل ، الرُّحلة[٣] .

٣ ـ يحيى بن إسحاق بن خليل بن فارس ، محيي الدين ، أبو زكريا الشيباني الشافعي ، المتوفى سنة ٧٢٤هـ :

سمع عليه ابن كثير « سنن الدراقطني » وغيره[٤] .

٤ ـ محمد بن عمر بن عثمان بن عمر ، عفيف الدين ، الصقلي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٢٥هـ :

قال عنه ابن كثير : « إمام مسجد الرأس ، آخر من حدَّث عن ابن الصلاح » ببعض سنن البيهقي ، سمعنا عليه شيئاً منها »[٥] .

٥ ـ إسماعيل بن المسلم بن الحسن بن النصر ، ضياء الدين ، أبو الفداء الدمشقي ، المعروف بابن الحموي ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

سمع ابن كثير منه مشيخة خرَّجها له البِرْزَالي[٦] .

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٨١) والدرر الكامنة (٥/ ٩٥) والفتح المبين (٢/ ١٥٨) .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ١٤٥) .

(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٦٧) .

(٤) المصدر السابق (١٦/ ١٧٨) .

(٥) المصدر السابق (١٦/ ١٨٤) .

(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٢٠١) .

٦ ـ محمد بن عبد الملك بن إسماعيل بن العادل أبي بكر بن أيوب ، الملك الكامل ، ناصر الدين ، أبو المعالي ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

قال ابن كثير : كان له سماع كثير ، سمعنا عليه ، وكان يحفظ تاريخاً جيداً(١) .

٧ ـ حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد . . التميمي ، الدمشقي ، ابن القلانسي ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ :

قال الحافظ ابن كثير : سمع الحديث من جماعة ، ورواه ، وسمعنا عليه(٢) .

٨ ـ علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ :

سمع ابن كثير عليه مشيخة بين سنة ٧٢٣هـ وسنة ٧٢٩هـ حين قدم القُونَوي إلى دمشق قاضياً(٣) .

٩ ـ محمد بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي ، المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

سمع ابن كثير عليه « صحيح مسلم » بقراءته في تسعة مجالس قراءة صحيحة(٤) .

١٠ ـ أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله . . جمال الدين ، أبو العباس التميمي ، الدمشقي ، ابن القلانسي ، المتوفى سنة ٧٣١هـ :

سمع عليه مشيخة خرَّجها له فخر الدين البعلبكي(٥) .

١١ ـ سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان ، جمال الدين ، الأذرعي ، المتوفى سنة ٧٣٤هـ :

سمع ابن كثير عليه مشيخةً ، خرَّجها له البِرْزالي ، عن اثنين وعشرين شيخاً(٦) .

١٢ ـ عمر بن علي بن سالم بن عبد الله ، تاج الدين ، أبو حفص اللخمي ، الإسكندراني ، المعروف « بابن الفاكهاني » ، المتوفى سنة ٧٣٤هـ :

سمع ابن كثير عليه حين قدم دمشق سنة ٧٣٠هـ ، أيام قاضي القضاة الأخنائي ، فأنزله في دار السعادة ، وقال : وسمعنا عليه ومعه(٧) .

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٠٢) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٢٧) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٢٢٦) .
(٤) المصدر السابق (١٦/ ٢٣٠) .
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٢٤١) .
(٦) المصدر السابق (١٦/ ٢٥٩) .
(٧) المصدر السابق (١٦/ ٢٦١) .

١٣ ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم بن نعمة ، شمس الدين المقدسي ، النابلسي الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ :

سمع عليه سنة ٧٣٣هـ كثيراً من الأجزاء والفوائد[١] .

١٤ ـ عمر بن أبي بكر بن المِيْهنيّ، البسطي، فخر الدين ، ابن البخاري ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ:

قرأ عليه ابن كثير مختصر المشيخة[٢] .

١٥ ـ علم الدين الجاولي ، المتوفى سنة ٧٤٥هـ :

سمع عليه « مسند الإمام الشافعي » ، وذلك حين مرَّ من دمشق يوم الثلاثاء ٢٥ صفر سنة ٧٤٣هـ في طريقه إلى حماة لمباشرة نيابتها ، وقد رأى ابن كثير عمله في « المسند » ، وشرْحَه عليه ، وأثنى عليه حسن ترتيبه[٣] .

١٦ ـ يوسف بن عبد بن محمد بن يوسف ، جمال الدين ، أبو الحجاج المقدسي ، المتوفى سنة ٧٥٤هـ :

كان من العلماء العبَّاد الورعين محباً للحديث وأهله ، سمع « سنن ابن ماجه » من الحافظ ابن بدران النابلسي ، وسمع منه ابن كثير[٤] .

١٧ ـ أحمد بن عبد الله الجهني ، شهاب الدين البارزي الحموي ، نزيل دمشق ، المتوفى سنة ٧٥٥هـ :

سمع ابن كثير منه « الغيلانيات »[٥] ، وقد كان يُحدِّث بها عن غازي الحلاوي .

١٨ ـ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بركات بن شمس الدين المعروف « بابن الخباز » الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٥٦هـ :

سمع منه المِزي ، والذهبي ، والسبكي ، وابن جماعة ، وابن رافع ، وابن كثير ، وغيرهم[٦] .

١٩ ـ عبد العزيز بن محمد ، عز الدين ، أبو عمر بن جماعة ، المتوفى سنة ٧٦٧هـ :

سمع عليه ابن كثير بقراءته شيئاً كثيراً ، حين قدم دمشق في أواخر رجب سنة ٧٢٥هـ من

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٧٨) .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٠٥) .

(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣١١) .

(٤) ابن حجر : الدرر (١/ ١٩٠) . شذرات الذهب (٨/ ٣٠٢) .

(٥) ابن حجر : الدرر (١/ ١٩٠) . شذرات الذهب (٨/ ٣٠٣) .

(٦) شذرات الذهب (٨/ ٣١٠) .

مصر[١] ، ويبدو مما جاء عند ابن حجر أن ابن جماعة في هذه الرحلة انتفع بابن كثير ، في تخريج أحاديث الرافعي[٢] .

٢٠ ـ محمد بن موسى الأنصاري الدمشقي ، الشهير « بابن الشيرجي » ، المتوفى سنة ٧٧٠هـ :

سمع عليه ، وكان ابن الشيرجي سمع من الفخر ابن البخاري جزء الأنصاري ، وحدَّث به ، وتفرَّد به عنه[٣] .

ومن طرائف الأمور الدالة على فهم ابن كثير في تلقي العلم وحرصه عليه أنه لم يكن يأنف أن يأخذ ممن هو أصغر منه سناً حينما يكون ذلك الشاب متميزاً ، فقد عرفنا أن ابن كثير استفاد أشياء من الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المولود بمصر سنة ٧٢٥هـ والمتوفى سنة ٨٠٦هـ ، قال السخاوي : « كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي والعلائي وابن جماعة وابن كثير . . . وكذا صَرَّح ابن كثير باستفادته منه تخريج شيءٍ وقف على المحدثين ، وقرأ عليه شيئاً ، وذكر في شرحه للألفية أنه سمع منه حديثاً من مشيخة قاضي المارستان »[٤] .

• وأجاز لابن كثير :

من علماء بغداد ابن الدواليبي المتوفى سنة ٧٢٨هـ .

ومن علماء مصر أبو موسى القرافي ، وأبو الفتح محمد الدبوسي ، ويوسف الخُتَني ، وعلي بن عمر الوَاني[٥] ، وغير واحد .

• لم أجد في المصادر القديمة ـ التي وقفت عليها ـ ما يدل على أن ابن القيم محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١هـ كان شيخاً لابن كثير ، وإنما هو صاحبه ومعاصره ، ورفيقه في التلمذة والطلب على شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ، وفي ترجمة ابن كثير لابن القيم بعد وفاته يقول ابن كثير : « صاحبنا »[٦] ويقول : « وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه »[٧] .

ب ـ تلاميذه :

أثمر التلقي عن الشيوخ في حياة ابن كثير ؛ إلى التبكير بظهور الحافظ ابن كثير عالماً مشهوراً ،

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٨٣) .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .
(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٧٦) .
(٤) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٤/ ١٧٣) .
(٥) الدرر الكامنة ؛ لابن حجر (١/ ٤٠٠) ، ودرر العقود للمقريزي (١/ ٤٠١) .
(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٣) .
(٧) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٤) .

ومدرساً مرموقاً ، وشيخاً مقصوداً ، يدخل المدارس العامة بثقة واعتبار ، ويترأس المدارس المتخصصة بكفاءة واقتدار .

وأول مدرسة درَّس فيها المدرسة النجيبية ، وقد تقدم أنه سكنها مع أسرته ، وأول درس فيها كان يوم ١١ جمادى الأولى من سنة ٧٣٦هـ ، حيث فسَّر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] وقال في تاريخه : « وكان الدرس حافلاً أثنى عليه الحاضرون وتعجبوا من جمعه وترتيبه »[١] .

ثم ولي التدريس في المدرسة الفاضلية بعد أن شغرت عن الإمام الذهبي ، وتولَّى مشيخة الحديث في المدرسة الصالحية ، ودار القرآن والحديث التنكزية ، ودار الحديث الأشرفية الجوانية[٢] .

• وافتتح دروس التفسير في المسجد الأموي تحت قبة النسر صباح يوم ٢٨ شوال سنة ٧٦٧ هـ وكان درساً حافلاً ومشهوداً في تفسير سورة الفاتحة ، حضره الطلاب والقضاة والأعيان[٣] .

• وكان عضواً في لجان الامتحان ، لاختبار الطلاب والشبان النابهين في اللغة والحفظ ؛ فحضر يوم ٢٠ شعبان من سنة ٧٤٧ هـ لامتحان صبي عمرهُ ست سنين يحفظ القرآن ، ويؤدي القرآن بإتقان ، وفي يوم ٢٠ شعبان من سنة ٧٦٣ هـ حضر مع العلماء لامتحان بدر الدين محمد بن الشيخ كمال الدين بن الشربيني ، وكان يحفظ كثيراً من شواهد اللغة .

• وحضر شاب من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ « صحيح البخاري » و« صحيح مسلم » ، و« جامع المسانيد » لابن كثير ، و« الكشاف » للزمخشري ، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب سنة ٧٦٣هـ ، قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه ، عند باب الكلاَّسة ، من أول « صحيح البخاري » إلى أثناء كتاب العلم عنه من حفظه ، وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي[٤] .

وقال الشاب : أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزني ، وذكرك في بلادنا مشهور[٥] .

• كل هذا يجعل التلاميذ المتلقِّين عن ابن كثير لا يُحصون عدداً ، ولا يُعرفون كثرة ، فقال

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٦٩) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٢٦٩ و٣٤٠) .
(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٣٢١) .
(٤) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) .
(٥) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٣) .

مترجموه : « وتلامذته كثيرة »[1] و « أخذ عنه كثيرون »[2] و « خرَّج كثيراً من الطلاب »[3] .

ونجد هؤلاء المعرِّفين بابن كثير والمترجمين لحياته ومآثره يُغفلون أسماء تلاميذه ، ولا يذكرون إلا اسم تلميذه ابن حجي ! فأين ذهبت أسماء تلك الكثرة الكاثرة من التلاميذ والمريدين ؟! .

● وتعليل ذلك فيما نرى ـ والله أعلم ـ أن المشايخ والعلماء الكبار ينقسمون إلى ثلاثة أصناف :

الأول : ينشغل بالشأن العلمي العام ، وإلقاء الدروس الخاصة والعامة ، وممارسة الوظائف الرئاسية والإدارية ، ويتفرغون في بيوتهم وأوقاتهم الخاصة للتصنيف والتأليف .

والثاني : صنف يلقي دروسه الخاصة والعامة ، ويكرس كلَّ وقته لطلابه ومريديه ، ممن يختار من المتفوقين والنابهين . وهؤلاء يتشرَّبون علومه ومنهجه ، ويحملون اسمه ، ويُذيعون بين الناس دعوته وطريقته .

والثالث : صنف يجمع بين الأمرين ، ويُحقِّق الانتشار العام ، وتخريجَ التلاميذ الأَكْفَاء المتميزين .

ولعل شيخنا العلاَّمة ابن كثير من الصنف الأول ، ممن شغل الناس بدروسه في حياته ، وشغل الناس بكتبه ومصنفاته بعد مماته .

كما يلاحظ أن كتب التراجم إنما تُعنى بذكر التلاميذ الآخذين عن الشيوخ المُعَمَّرين ، ولم يكن ابن كثير منهم ، لأسانيدهم العالية ، فتأمل مثلاً أسماء المذكورين في الكتب من الآخذين عن الحَجَّار بسبب كونه معمراً عالي السنَد .

□ ومع ذلك فإننا نستطيع العثور على عدد من أسماء التلاميذ ممن نصَّت الكتب على أخذه أو سماعه أو إجازته من شيخه الكبير ابن كثير ، وهم :

١ ـ محمد بن موسى بن محمد بن سند بن نعيم ، شمس الدين أبو العباس اللخمي ، المتوفى سنة ٧٩٢هـ :

أذن له في الإفتاء العلائي ، وابن كثير[4] .

٢ ـ يحيى بن يوسف بن يعقوب بن أحمد بن يحيى ، محيي الدين ، أبو زكريا الرحبي ، المتوفى سنة ٧٩٤هـ :

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) .

(٢) عصر سلاطين المماليك ، لمحمود رزق سليم (٤/ ١٤٤) .

(٣) دائرة المعارف للبستاني (٣/ ٤٧٧) .

(٤) شذرات الذهب (٨/ ٥٥٨) .

قال الحافظ ابن حجر : لازم ابن كثير ، وكتب عنه فوائد حديثية ، أكثرها يتعلق بالصحيح[1] .

٣ ـ محمد بن بهادر بن عبد الله ، بدر الدين الزركشي التركي ، المتوفى سنة ٧٩٤هـ :

قال ابن حجر : « رحل إلى دمشق ، فأخذ عن ابن كثير الحديث ، وقرأ عليه مختصره في علوم الحديث ، ورثاه عند وفاته ببيتين من الشعر هما :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمعٍ لا يبيدُ غزير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلاً فيك يا بن كثير[2]

٤ ـ محمد بن محمد بن عنقة ، أبو جعفر البسكري ثم المدني ، المتوفى سنة ٨٠٤هـ :

قال ابن العماد : وحمل عن ابن رافع ، وابن كثير[3] .

٥ ـ سعد بن يوسف بن إسماعيل بن يوسف ، سعد الدين النواوي ، المتوفى سنة ٨٠٥ هـ :

قال النُّعيمي : حمل عن ابن كثير ، وقرأ عليه تأليفه « اختصار علوم الحديث » وأذن له ابن كثير بالفتوى[4] .

٦ ـ محمد بن محمد بن محمد بن الخضر ، شمس الدين الزبيري العيزري الغزي الشافعي المولود بالقدس سنة ٧٢٤هـ والمتوفى سنة ٨٠٨هـ .

قال السخاوي : « ودخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير و . . . إلخ »[5] .

٧ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان ، شهاب الدين الحريري ، الدمشقي ، المعروف بالسلاوي ، المتوفى سنة ٨١٣هـ :

قال السخاوي : سمع الحديث على التقي بن رافع ، وابن كثير ، وقرأ عليهما[6] .

٨ ـ علي بن زيد بن علوان بن صبرة بن مهدي بن حريز ، أبو الحسن ـ وكناه بعضهم أبا زايد ـ الردماوي الزُّبَيْدي ، وتسمَّى بأخرة عبد الرحمن ، المتوفى سنة ٨١٣هـ :

قال السخاوي : سمع من اليافعي ، والشيخ خليل ، وابن كثير[7] .

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٥٧٥) والدرر الكامنة (٤/ ٣٤٠) .

(٢) الدرر الكامنة ؛ لابن حجر (٣/ ٣٩٧) .

(٣) شذرات الذهب (٩/ ٧٣) .

(٤) الدارس في أخبار المدارس (١/ ٣٢٠) .

(٥) الضوء اللامع (٩/ ٢١٨) .

(٦) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٢/ ٨١) .

(٧) الضوء اللامع (٥/ ٢٢١) .

٩ ـ أحمد بن إسماعيل بن خليفة بن عبد العال ، أبو العباس ، شهاب الدين بن الحسباني ، المتوفى سنة ٨١٥هـ :

قال ابن فهد : وأخذ عن الحافظين : ابن كثير ، وابن رافع[١] .

١٠ ـ محمود بن عمر بن محمود بن إيمان ، شرف الدين الأنطاكي ثم الدمشقي الحنفي المتوفى في شعبان سنة ٨١٥هـ .

قال السخاوي : « قدم من بلده إلى حلب ثم إلى دمشق فسمع بها من ابن كثير والصلاح الصفدي وغيرهما »[٢] .

١١ ـ مسعود بن عمر بن محمود بن أنمار ، شرف الدين ، الأنطاكي النحوي ، نزيل دمشق ، المتوفى سنة ٨١٥هـ :

قال ابن العماد : قدم دمشق ، وأخذ عن الصَّفدي ، وابن كثير ، وغيرهما[٣] .

١٢ ـ أحمد بن العلاء حجِّي بن موسى بن أحمد . . شهاب الدين ، أبو العباس ، ابن حجّي السعدي الحُسْباني ، المتوفى سنة ٨١٦هـ :

تخرَّج في علوم الحديث بالحافظين : ابن كثير ، وابن رافع[٤] . وأثنى ابن حجي على شيخه ابن كثير ، وصرَّح بأنه لازمه ست سنين[٥] . وقد ذيّل على « البداية والنهاية » وسماه « تاريخ ابن حجي » وهو مطبوع .

١٣ ـ محمد بن سلمان بن محمد ، شمس الدين البغدادي الأصل الدمشقي الصالحي الشافعي الصوفي القادري ، نزيل القاهرة ، المولود في حدود سنة ٧٥٠هـ والمتوفى سنة ٨٢٠هـ .

قال السخاوي : « وطلب العلم ولازم التاج السبكي وفتح الدين ابن الشهيد والعماد ابن كثير ، وسمع منه مصنَّفه في علوم الحديث وفي فضل الجهاد وكتب له إجازة حسنة »[٦] .

١٤ ـ محمد بن أحمد بن معالي ، أبو المعالي ، شمس الدين الحَبَتِّي[٧] ، المتوفى سنة ٨٢٤هـ:

قال السخاوي : سمع بدمشق من متأخري أصحاب الفخر ، كابن أميلة ، وكذا سمع من

---

(١) لحظ الألحاظ (ص ٢٤٥) .
(٢) الضوء اللامع (١٠/ ١٤٢) .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ١٧٠) .
(٤) الدارس (١/ ١٤٢) .
(٥) شذرات الذهب (٩/ ١٧٣) .
(٦) الضوء اللامع (٧/ ٢٥٦) .
(٧) قيده السخاوي فقال : « بمهملة ثم موحدة مفتوحتين ثم مثناة مشددة » .

العماد ابن كثير[1] ، وقال ابن حجر : كان ينقل عن شيخه ابن كثير الفوائد الجليلة »[2] .

١٥ ـ محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف ، أبو الخير شمس الدين بن الجزري الشافعي ، المتوفى سنة ٨٣٣هـ :

صرَّح ابن الجزري بالسماع والرواية عن ابن كثير في كتابه « المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد »[3] . وذكر مترجموه أنه أخذ عنه الحديث ، وأذن له ابن كثير بالإفتاء[4] .

١٦ ـ محمد بن أحمد بن حاجي ، شمس الدين التبريزي ثم المقدسي الشافعي المعروف بابن عذيبة . ولد قبيل سنة ٧٥٥هـ بتبريز ، قال السخاوي : « ودخل مصر . . . وحلب . . . والشام في زمن ابن كثير وابن رافع وحضر عندهم » مات بمكة سنة ٨٣٥هـ[5] .

١٧ ـ أحمد بن علي ، تقي الدين المقريزي المولود سنة ٧٦٦هـ والمتوفى سنة ٨٤٥هـ ، قال في كتابه : « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » (١/ ٤٠١ ، الترجمة ٣٢٧) « سمعت عليه بعدما كُف بصره الحديث المسلسل بالأوليات ، وأجاز لي مسموعاته ومروياته » .

١٨ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عَيَّاش ، زين الدين أبو الفرج وأبو بكر الدمشقي الأصل ، المكي الشافعي المقرىء المتوفى سنة ٨٥٣هـ بمكة . قال السخاوي : « سمع حسبما كان يخبر على العمادين : ابن كثير وابن السراج »[6] .

وأجاز الحافظ ابن كثير لعدد من الطلبة ، منهم : محمد بن أحمد بن موسى بن نجاد ، ناصر الدين أبو عبد الله النابلسي المقدسي ، قال السخاوي : « أجاز له في سنة ست وخمسين الحفاظ الثلاثة : ابن كثير والعلائي والشهاب أبو محمود . . . إلخ »[7] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) الضوء اللامع (٧/ ١٠٧) .
(٢) إنباء الغمر (٧/ ٤٠٨) .
(٣) مسند الإمام أحمد ، لأحمد شاكر (١/ ٣١) .
(٤) مفتاح السعادة (١/ ٣٩٢) وذيل السيوطي (ص ٣٧٦) .
(٥) الضوء اللامع (٦/ ٣٠١) .
(٦) الضوء اللامع (٤/ ٥٩) .
(٧) الضوء اللامع (٧/ ١١٢) .

سادساً : كتبه

تمهيد :

عاش ابن كثير ـ رحمه الله ـ حياة علمية متنوعة ومتكاملة ، بدأها بنشأته الأولى في أسرته العلمية ، وانتهى بها بتعليمه العالي في دمشق الفيحاء التي تتسامى بالشيوخ والمؤلِّفين الكبار ، ويُحيط به عن ملاصقة وقرب : أستاذه ابن تيمية ، وحموه ـ أبو زوجه ـ أبو الحجاج المِزِّي ، وشيخه الذهبي ، وصاحبه ابن القيم ، وكلُّهم كتب وألَّف ، وشنَّف الآذان بما أملى وصنَّف .

وإذ تهيأ لابن كثير أن يدخل التدريس من أوسع أبوابه ، فإن منصب الأستاذية الرئيس الذي بلغه يستدعي الجمع والتأليف . وكان من الطبيعي جداً أن يكتب يراع الحافظ والمفسر المؤرِّخ الفقيه كتباً عديدة في موضوعاتها ، ومتميِّزة في أسلوبها ، ومتقدِّمة في جوهرها ، وفيها الرسائل الصغيرة ، والكتب الموسوعية الكبيرة .

• وكان من الملفت حقاً أن يبدأ ابن كثير بالتأليف مبكراً ، وقد ظهر هذا في تأليف كتاب « الأحكام على أبواب التنبيه » في صغره[1] ، ووقف عليه شيخه برهان الدين الفزاري ، وأُعجب به ، وأثنى عليه .

كما وضح في قدوم عز الدين بن جماعة ـ شيخ ابن كثير ـ إلى دمشق سنة ٧٢٥هـ ، واستقدم ابن كثير ، وانتفع به في تخريج أحاديث الرافعي[2] ، مما يدل على نبوغ في علم الحديث ، وسبق في فن تخريج الأحاديث .

واستمر هذا الشغف بالتأليف حتى نيف على السبعين ، وكُفَّ بصرُه في إتمام كتابه الحديثي الكبير ؛ كما صرح لتلميذه ابن الجزري حين قال له : « لا زلت أكتب فيه « جامع المسانيد » في الليل ، والسراج ينوص ، حتى ذهب بصري معه »[3] .

• وانتشرت كتبه في حياته ، فقُرئتْ عليه نسخٌ من كتابه « اختصار علوم الحديث » وقرئت « السيرة النبوية » من تأليفه في المسجد الأموي تحت قبة النسر[4] ، ووصل كتابه « جامع المسانيد »

---

(١) شذرات الذهب ؛ لابن العماد (٨/ ٣٩٧) .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٥) .
(٣) مسند الإمام أحمد ؛ لأحمد شاكر (١/ ٤٠) .
(٤) البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٤) .

إلى خراسان وادَّعى شاب أعجمي حفظ أجزاء منه ، وجاء إلى دمشق ليطلب إجازة مؤلفه[1] .

• وشهد العلماء الأفذاذ على جودة تآليفه وإتقانها ، كما شهدوا على انتشارها وشيوعها بين الناس ، فهذا الذهبي يقول : « له تصانيف مفيدة »[2] ويؤيد ذلك العيني فيقول : « له مصنفات عديدة ومفيدة »[3] . ويقول ابن حجر « وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام » ويقول : « وسارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد مماته »[4] .

ويقول ابن حبيب : « سمع وجمع وصنَّف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنَّف ، وحدَّث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسته العلم في التاريخ والحديث والتفسير »[5] .

• فاكتملت مؤهلات التأليف والعطاء عند ابن كثير ، وأصبح من أجلِّ العلماء المصنِّفين في موضوعات محبَّبة ومتنوعة ، تلقائية وغير متكلفة ، تهتدي بالكتاب والسنة ، وتتعدى حدود الزمن ، فتخاطب الأجيال المتتابعة ، وتظهر في العصور التالية وكأنها كُتبت لها !! .

فأي توفيق إلهي حالفه وهو يجمع مادة كتبه ، وأي إخلاص رافقه وهو يصوغ كلماته وجمله ، وأي نفَسٍ طاهر أجراه على أوراقه ، فكُتب له القَبُول عند الله وعند خلقه ؟! .

آ ـ الكتب المطبوعة والمخطوطة :

١ ـ تفسير القرآن العظيم :

ألَّفه في عشرة أجزاء قبل عام ٧٤٢هـ تقريباً[6] ، لكنه ظل ينقح فيه إلى آخر حياته وأحال إليه في « البداية والنهاية كثيراً » .

وطبع على حساب الملك عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ بتحقيق الشيخ رشيد رضا ، ومع تفسير البغوي في تسع مجلدات ، في مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ ـ ١٣٤٧هـ ، ومعه كتاب « فضائل القرآن » ملحقاً بالتفسير بعد أن عُثر عليه في آخر النسخة الخَطِّيَّة المَكِّيَّة . ثم أُعيد مستقلاً عن البغوي سنة ١٣٨٤هـ في أربع مجلدات من القطع الكبير عن طبعة المنار ، وعلَّق حواشيه عبد الوهاب

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٢) .
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٣٧٤) .
(٣) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣) .
(٤) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .
(٥) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) .
(٦) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢) طبعة دار ابن كثير ، تفسير الآية : ١٠٤ من سورة الأنبياء ، ففيها ذكر ابن كثير شيخه المزي ، ودعا له : « فسح الله له في عمره ، ونسأ في أجله » والشيخ المزي توفي سنة ٧٤٢هـ .

عبد اللطيف ، الأستاذ في كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، ونشرته مكتبة النهضة بمكة .

وطُبع في ثمان مجلدات « طبعة كتاب الشعب » بمصر ، بتحقيق البنا ، غنيم ، عاشور ، وألحقوا بها فهارس علمية وموضوعية . وطبع سنة ١٤١٨هـ في ثماني مجلدات في « دار طيبة » بالرياض ، بتحقيق سامي بن محمد السلامة ، عن نسختين كاملتين وأكثر من عشر نسخ أخرى ، يستوعب مجموعها التفسير كله .

وطبع في مصر ولبنان طبعات تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة .

وطبع في دار ابن كثير سنة ١٣١٥هـ في أربع مجلدات ، طبعة جديدة مصحَّحة ومنقحة ومضبوطة بالشكل ، ومقابلة على عدة طبعات . ويعاد طبعه الآن بتحقيق جديد ومقابلة على نسخة خطية . وفي مقدمته فضائل القرآن كما نصّ على ذلك المؤلف .

• وهو من أكثر كتب التفسير بالرواية فائدة ، لأن ابن كثير يتكلم على الأسانيد ، وينقد الرواة ، وينصفهم جرحاً وتعديلاً ، ولا يُرسل الأحاديث إرسالاً كما يفعل غالب المحدثين ، بل يتكلّم عليها تصحيحاً وتضعيفاً .

• وتتجلى أهميته بين كتب التفسير من خلال منهجه العلمي التالي :

١ ـ التفسير الجملي لمعاني الآيات ، بألفاظ فصيحة وعبارات رشيقة ، وأسلوب سهل ممتنع .

٢ ـ تفسير القرآن بالقرآن .

٣ ـ ذكر الأحاديث بأسانيدها ومصادرها .

٤ ـ الحكم على الأحاديث .

٥ ـ الإعراض عن كثير من الإسرائيليات .

٦ ـ المحاكمة والترجيح من غير غلو ولا عصبية .

٧ ـ التفويض في تفسير آيات الأسماء والصفات .

• وقد أثنى العلماء من قبلُ على تفسير ابن كثير ، فقال الذهبي عن المؤلف : كان « مُفسِّراً نقَّاداً »[١] وقال السيوطي : « لم يُؤلَّف على نمطه مثله »[٢] . وقال الشوكاني : « من أحسن التفاسير ، إن لم يكن أحسنها ، جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلَّم بأحسن الكلام وأنفسه »[٣] .

وقال الشيخ أحمد شاكر : « أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها بعد تفسير إمام

(١) ذيل الحسيني (ص ٥٨) .
(٢) ذيل السيوطي (ص ٣٦١) .
(٣) البدر الطالع (١/ ١٥٣) .

المفسِّرين أبي جعفر الطبري ، ولسنا نُوازن بينهما وبين أيِّ تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما ولا ما يُقاربهما »[1] وقال : « يعرف به ـ الطالب ـ كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يُميِّز الصحيح من غيره ، فهو كتاب في المعنى تعليميّ عظيم ، ونفعه جليل كثير »[2] .

• وكتب الله تعالى لهذا التفسير الانتشار والقبول في بلاد الشام ، وبخاصة في الخمسين سنة الأخيرة تقريباً ، وسمعت من شيخنا الشيخ نايف العباس ـ رحمه الله ـ تأكيد ذلك ، ولعلَّ مرجعَه النهضةُ الحديثية التي يشهدها العالم الإسلامي كله ، ولله الحمد والمِنَّة .

٢ ـ فضائل القرآن :

وُجد هذا الكتاب في ختام تفسير القرآن العظيم ، وتناول فيه ابن كثير الأحاديث الواردة في فضل القرآن ، وتاريخ القرآن ، وجمعه ، وكتابته ، والأحرف السبعة ، وكيفية ترتيله ، وسار فيه على منوال ما ذكره البخاري عقب كتاب التفسير في كتاب فضائل القرآن .

وطبع مع التفسير أحياناً ، وطبع مستقلاً أحياناً ، وقد نصّ ابن كثير في تفسيره على أن كتابَ فضائل القرآن هو مقدمة للتفسير .

كما أشار إلى ذلك في « البداية والنهاية ، حيث يقول أثناء الكلام على الاتفاق على مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه : « كما قررنا ذلك في كتاب « فضائل القرآن » الذي كتبناه مقدمة في أول كتاب التفسير »[3] .

ومنهجه يتضمن : ١ ـ البدء بآيات القرآن الكريم في موضوع الفصل . ٢ ـ حشد الروايات الكثيرة من الأحاديث بأسانيدها ، مبتدئاً بأحاديث البخاري ومسلم . ٣ ـ الاستشهاد بأقوال الصحابة والتابعين . ٤ ـ تصحيح بعض الأحاديث وبيان الراجح من الروايات والكلام على بعض رجال السند . ٥ ـ استنباط العبر والفوائد والأحكام .

وطُبع الكتاب مستقلاً في كل من بيروت ومصر (القاهرة) ومنها :

ـ طبعة مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت بتحقيق : محمد إبراهيم البنا .

ـ طبعة دار الحديث ـ القاهرة ـ تحقيق : سعيد عبد المجيد محمود .

٣ ـ البداية والنهاية :

هو كتاب في التاريخ الإسلامي العام ، ويشتمل على تاريخ ما قبل الإسلام من الأنبياء والأمم ،

---

(١) عمدة التفسير (١/ ٦) .
(٢) عمدة التفسير (١/ ٦) .
(٣) البداية والنهاية (٥/ ٣٤٧) .

وسيرة الرسول ﷺ ومعجزاته ، وتاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحوادثه مرتبة حسب السنين ، ونهايته إلى سنة ٧٧٤هـ كما نص عليه غير واحد من العلماء ، والموجود منه إلى حوادث سنة ٧٦٨هـ . أما « النهاية » ففي الملاحم والفتن وأشراط الساعة وأحوال الآخرة .

وهذا الكتاب التاريخي الكبير هو الذي تقوم كوكبة من العلماء والمحققين المتخصصين بتحقيقه ، وتضطلع دار ابن كثير بنشره موثقاً ومفهرساً وفق أحدث الطرق العلمية والموضوعية المعاصرة . وسنفرد لدراسته قسماً خاصاً من هذه المقدمات المهمة .

٤ ـ السيرة النبوية مبسوطة :

ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (٦/ ٢٧١) أنه كتب السيرة النبوية مطوَّلة ومختصرة .

كما ذكر ذلك في « تفسير القرآن العظيم »[1] في تفسير سورة الأحزاب (٣/ ٥٩٠) فقال : « وهذا كله مقرر مفصَّل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً ، ولله الحمد والمنَّة » .

ولم تصلنا هذه السيرة المبسوطة المطوَّلة ، ولم يذكرها المترجمون لابن كثير القدامى ، مما جعل الدكتور مصطفى عبد الواحد يستلُّ السيرة النبوية من « البداية والنهاية » معتقداً أن المجلدات الأربع التي أطلق عليها اسم السيرة النبوية هي السيرة النبوية المطوَّلة ، ولنسمعه يقول في المقدمة : « ويبدو أنه حين ألَّف كتابه الضخم « البداية والنهاية » قد أدمج تلك السيرة فيه : وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء قد جعل الناس يقرؤون تلك السيرة فيه ، ولم يعدلها كيان مستقل ككتاب ، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أن له السيرة النبوية مبسوطة ـ أي مطوَّلة ـ فإنه لا يُعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه « البداية والنهاية »[2] ، وهو استنتاج معقول .

٥ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ :

وهو السيرة المختصرة كما يشير المؤلف في تاريخه وتفسيره . أو « سيرة صغيرة »[3] كما ذكر مترجموه المتقدمون ، أما المتأخرون فيقولون : « الفصول في سيرة الرسول ﷺ »[4] وقد وصلتنا نسخها الخطية ولله الحمد .

وتشتمل على بابين : الأول في سيرة رسول الله ﷺ ، والثاني : في أحواله وأعلام نبوته وخصائصه .

---

(١) طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .
(٢) السيرة النبوية ؛ لابن كثير (١/ ١٢ ـ ١٣) .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) .
(٤) كشف الظنون ؛ لحاجي خليفة (٢/ ١٩٢) .

وطُبع الكتاب في القاهرة سنة ١٣٥٧هـ طبعة رديئة تحت اسم « الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ » عن مخطوطة مكتبة عارف حكمة بالمدينة المنورة ، وفيها تصحيف وتحريف ، وسقط وأخطاء مطبعية كثيرة .

وقد قام الدكتور محيي الدين ديب مستو والدكتور محمد العيد الخطراوي بتحقيق هذه السيرة الكاملة على ثلاث نسخ خطية ، واحدة من مكتبة عارف حكمة ، واثنتان من تركية ، ودوَّنا من خلال العمل الملاحظات التالية :

١ ـ الكتاب سيرة مختصرة قائمة بذاتها ، وليس اختصاراً لكتاب آخر ، والاسم هو « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » .

٢ ـ اشتمال هذه السيرة على فصل الخصائص النبوية ، وهو فصل يستحق أن يكون كتاباً مستقلاً ، وبخاصة إذا علمنا أن السيرة المبسوطة التي أُدرجت في البداية والنهاية ـ حسب رأي د. مصطفى عبد الواحد ـ قد خلت من هذا الفصل .

٣ ـ في الغالب إن ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ توقف في تأليف هذا الكتاب عند نهاية السيرة النبوية ، وما يتبعها من الدلائل ، والشمائل ، والخصائص ، ولم يترك شيئاً في اختصار أيام الإسلام كما وعد في المقدمة ؛ فقال : « فإنه لا يَجملُ بأولي العلم معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية ، وهي مشتملة على علوم جمَّة ، وفوائد مهمَّة ، لا يستغني عالم عنها ، ولا يُعذر في العروِّ منها . وقد أحببت أن أُعلِّق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه وأنموذجاً وعوناً له وعليه ، وعلى الله اعتمادي ، وإليه تفويضي واستنادي ؛ وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا ، مما يمسُّ حاجة ذوي الأرب إليه ، على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى »[١] .

٦ ـ « اختصار علوم الحديث » :

وهو كتاب في مصطلح الحديث ، سمَّاه ابن كثير « مختصر علوم الحديث » أو « اختصار علوم الحديث » .

قال ابن حجر في الدرر الكامنة : « وقد اختصر كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد »[٢] .

وقال حاجي خليفة في كشف الظنون : « أضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من « المدخل إلى كتاب السنن » ؛ للبيهقي » .

---

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ ـ الطبعة العاشرة ـ سنة ١٤٢٤هـ ـ دار الكلم الطيب بدمشق .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .

وسمّاه السيوطي في ذيل تذكرة الحفّاظ : « علوم الحديث » . ويُقدِّم ابن كثير ـ رحمه الله ـ لهذا الكتاب مبيِّناً منهجه فيقول :

« سلكت وراءه ـ يعني ابن الصلاح ـ واحتذيت حذاءَه ، واختصرتُ ما بسطه ، ونظمت ما فرَطه . . » ويفترض على ابن الصلاح تنويعه أقسام الحديث إلى خمسة وستين نوعاً ، وقابلية تقسيم هذه الأنواع إلى ما لا يُحصى ، فيقول : « وفي هذا كله نظر ، بل في بسطه هذه الأنواع إلى هذا العدد نظر ، إذ يمكن إدماج بعضها في بعض ، وكان ذلك أليق مما ذكره ، ثم إنه فرق بين متماثلات منها بعضها عن بعض ، وكان اللائق ذكر كل نوع إلى جانب ما يناسبه ، ونحن نُرتِّب ما نذكره على ما هو الأنسب ، وربما أدمجنا بعضها في بعض طلباً للاختصار والمناسبة ، وننبه على مناقشات لا بد منها »[1] .

وقد نشر الكتاب بمكة المكرمة سنة ١٣٥٣هـ بتصحيح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم « اختصار علوم الحديث ، أو الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » ، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر وطبع بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ باسم « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » ، ثم أعاد شرحه ، والتعليق عليه وتصحيحه ، وطُبع بالقاهرة سنة ١٣٧٠هـ ، ومما جاء في مقدمته : « وهو كتاب فذٌّ في موضوعه ، ألَّفه إمام عظيم من الأئمة الثقات المحقِّقين بهذا الفن ، ونسخه نادرة الوجود ، وكنا نسمع عنه في الكتب ، ثم رآه الأخ الأستاذ الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكي عندما كان بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٦هـ ، وكانت نسخته موجودة في مكتبة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمة ، تحت رقم ٥٧ مصطلح ، وهي نسخة قديمة مكتوبة في طرابلس الشام سنة ٧٦٥هـ منقولة عن نسخة أخرى قوبلت على نسخة صحيحة معتمدة ، قرئت على المصنف ، وعليها خطه كما أثبت ذلك ناسخها ـ رحمه الله ـ »[2] ، ثم نشر مؤخراً في مجلدين بتحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي في مكتبة المعارف بالرياض .

٧ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد :

وهو رسالة مطبوعة ، كتبها ابن كثير للأمير منجك نائب السلطنة بدمشق حين تولَّاها مرة ثانية (٧٧١ ـ ٧٧٥هـ) لإرسالها « إلى ما جاور البحر من البلاد ، ليأخذوا بحظهم من الجهاد »[3] .

وصرَّح ابن كثير في المقدمة بأنه كتبها بأمر نائب السلطان بدمشق « لأنه نائب الإمام ، وفيما أمر طاعة لله ولرسوله »[4] وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٤٧هـ ، وعنيت بنشرها جمعية النشر والتأليف الأزهرية .

---

(١) اختصار علوم الحديث (ص : ١٩) .
(٢) الباعث الحثيث ؛ للشيخ أحمد شاكر (ص : ٤ ـ ٥) .
(٣) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .
(٤) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .

وتوجد من الرسالة نسخة مخطوطة بمعهد المخطوطات ، في جامعة الدول العربية بالقاهرة .

وذكرها حاجي خليفة في « كشف الظنون » وقال : « رسالة لعماد الدين إسماعيل بن عمر ، المعروف بابن كثير ، كتبها للأمير منجك لما حاصرَ الفرنج قلعة إياس »[1] .

وكان الفرنج قد هاجموا ثغر الإسكندرية ، وانتقلت عصائبهم منها إلى طرابلس لترويعها مع أهلها الآمنين بالقتل والأسر والتشريد .

وتمثل وثيقةً تاريخية وعلمية في فضل عبادة الجهاد ووجوبها ، وارتباطها الوثيق بصيانة مجد الأمة وعزتها ، والدفاع عن حياضها ، كلما استباح حرماتها معتد أثيم ، أو طامع لئيم .

وهي مختصر من كتاب أشمل ، كما ذكر المؤلف « وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً ، فاختصرت منه وسطاً وسيطاً »[2] .

٨ ـ جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوى سَنَن :

وهو أكبر كتب الحافظ ابن كثير في الحديث النبوي ، وأكثرها نفعاً ، وآخرها تأليفاً في حياته ، ولنسمع العلماء الكبار قدماء ومعاصرين ممن يتكلم على هذا الكتاب العظيم :

قال ابن حجر في « إنباء الغمر بأنباء العمر » (١/ ٤٧) : « ولما رتب الحافظ شمس الدين بن المحب ـ المعروف بالصامت المتوفى سنة ٧٨٩هـ ـ مسند أحمد على ترتيب حروف المعجم ـ حتى في التابعين المكثرين عن الصحابة ـ أعجب ابن كثير ، فاستحسنه . ورأيت النسخة بدمشق بخط ولده « عمر » فألحق ابن كثير ما استحسنه في الهوامش من الكتب الستة ، ومسندي أبي يعلى والبزار ، ومعجمي الطبراني ، ما ليس في المسند ، وسمَّى الكتاب « جامع المسانيد والسنن » وكُتبت منه عدة نسخ نُسبت إليه . . وهو الآن في أوقاف « المدرسة المحمودية » المتن ترتيب ابن المحب ، والإلحاقات بخط ابن كثير في الهوامش والعصافير (الجذاذات)[3] وقد كنت رأيت منه نسخة بيَّضها عمر بن العماد بن كثير مما في المتن والإلحاق ، وكتب عليه الاسم المذكور » .

وقال ابن العماد في « شذرات الذهب » (٨/ ٣٩٨) : « من مصنفاته كتاب في جمع المسانيد العشرة » .

---

(١) كشف الظنون (١/ ١٠) .
(٢) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .
(٣) العصافير : الجذاذات ، لأنها إذا وقعت من الكتاب تطير كالعصافير ؛ وفي أساس البلاغة : الوريقات التي تعلق عليها الفوائد .

وقال الحسيني في « ذيل تذكرة الحفَّاظ » (ص : ٥٧٢) : « كتاب الهدي والسنن ، المعروف بجامع المسانيد ، رتَّبه على الأبواب[١] ، وهو من أنفع كتبه » .

وقال الشوكاني في « البدر الطالع » (١/ ١٥٣) : « الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن » ، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، وابن أبي شيبة ، إلى الكتب الستة » .

وقال حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١/ ٥٧٣) : « جامع المسانيد والسنن ، كتاب عظيم ، فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام » .

وقال أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفسير (ص : ٣٦) عن جامع المسانيد : منه في دار الكتب المصرية سبع مجلدات ، مجموع أوراقها (٢٢٨٠) ، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أجزاء منه .

وطُبع الكتاب في بيروت ـ بدار الفكر في سنة ١٩٩٩م في (٣٦) جزءاً ضمن (١٨) مجلداً + المقدمة ، وقد وثَّق أصوله وخرج حديثه وعلَّق عليه الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي .

وقد جاء في المقدمة[٢] :

كيف نبتت فكرة « جامع المسانيد والسنن » ؟

يدين ابن كثير في وضع هذا الكتاب إلى شيخه الحافظ جمال الدين المِزي ، ومما لا ريب فيه أن تطور فهرسة الأحاديث النبوية بطريقة صنع الأطراف لها قد نضج على يد الحافظ المِزي بمؤلفه النفيس « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » الذي وضعه للكتب الستة ولواحقها[٣] .

والعمل الذي شرع الحافظ ابن كثير به عملٌ واسع مترامي الأطراف وعملية خطيرة أقدم عليها في أخريات حياته ، فهو آخر كتاب صنَّفه ، وقد كلفه عناء كبيراً .

ولكن كيف نبتت فكرة هذا المصنف الشامل ؟

كان الحافظ ابن كثير قد استوعب « تحفة الأشراف » استيعاباً وافياً ، وكان يحتفظ بنسخة من التحفة ، وقد وضع عليها بعض التقييدات ، واستدرك عليها .

---

(١) الصحيح ترتيبه على أسماء التابعين الرواة عن الصحابي .

(٢) مقدمة جامع المسانيد (ص : ٢٣٦) .

(٣) نشر الشيخ عبد الصمد شرف الدين الكتاب لأول مرة في الهند ، ثم أعاد الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف تحقيقه على سبعة وثلاثين جزءاً بخط المؤلف وعلى نسخ لرفاقه وتلامذته كُتبت في حياته ، ومنها نسخة علم الدين البرزالي التي قابلها بنفسه . وربطت هذه الطبعة الأحاديث ببعضها ، كما ربطت بمُسند الإمام أحمد ، وأضيف إليها عشرة كتب أخرى ، ونشرته دار الغرب الإسلامي منذ سنة ١٩٩٩م في ثلاثة عشر مجلداً .

وكلنا نعرف ما لأهمية مسند الإمام أحمد في دواوين السنة ، وقد تمنى الحافظ الذهبي أن يُقيِّض الله لهذا المسند من يرتبه ويخدمه . وقد أقام الله لترتيبه الشيخ الإمام الصالح الورع أبا بكر بن عبد الله المحب الصامت ، فرتبه على معجم الصحابة ، ورتب الرواية كذلك كترتيب كتاب الأطراف ، وتعب به كثيراً .

ثم إن الشيخ الإمام مؤرخ الإسلام ، وحافظ الشام ، عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله ، أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه ، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة ، ومعجم الطبراني الكبير ، ومسند البزار ، ومسند أبي يعلى المَوْصلي ، وأجهد نفسه كثيراً ، وتعب فيه تعباً عظيماً ، فجاء لا نظير له في العالم[1] .

والحافظ ابن كثير كان يحفظ المسند عن ظهر قلب .

إذن فقد استبان منهج العمل أمام الحافظ ابن كثير ، ألا وهو تفريغ مسند الإمام أحمد على تحفة الأشراف ، وتفريغ معجم الطبراني الكبير ، وهو مصنف أساساً على أسماء الصحابة ، وليضف إليه مسند البزار من الزوائد على الكتب الستة ، وكذا مسند أبي يعلى الموصلي . وليكنْ كل هذا في قالب أسماء الصحابة ، وليكن أسد الغابة لابن الأثير هو أساس العمل .

٩ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل :

اتفق كثير من المترجمين لابن كثير على اسم هذا الكتاب « التكميل » ، صرح به ابن كثير في « البداية والنهاية (٨٠/ ١٥٠) . و (٩/ ٤١) و (١٠/ ٤١ ، ٧٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٩٧ ، ٣١٣) و (١١/ ٢٥٧ و٢٧٧) .

وذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » والبغدادي في « هدية العارفين » باسم « التكملة في معرفة الثقات والضعفاء »[2] قال الحسيني في ذيل تذكرة الحفَّاظ : « ومن تصانيفه : التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ، جمع بين كتاب التهذيب « تهذيب الكمال ؛ للمزي » والميزان « ميزان الاعتدال ؛ للذهبي » وهو في خمس مجلدات »[3] .

وقال ابن العماد في « شذرات الذهب » : واختصر « تهذيب الكمال » وأضاف إليه ما تأخَّر في

---

(١) لقد استفدنا من هذا الكتاب العظيم عند قيامنا بتأليف كتاب « المسند الجامع » لمعرفة ما سقط من الأحاديث في الطبعة الميمنية من مسند الإمام أحمد ، فاستدركناها منه ، وذلك ظاهر في حواشي « المسند الجامع » الذي نشرته دار الجيل سنة ١٩٩٢م (بشار) .

(٢) كشف الظنون (١/ ٤٧١) وهدية العارفين (١/ ٢١٥) .

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٥٧) .

« الميزان » سمَّاه « التكميل »[1] ، ولابن كثير إضافات وزيادات في الجرح والتعديل ، كما أنه رتبه على حروف المعجم .

والكتاب مخطوط ، وقد رأى الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المجلد الأخير منه في إحدى مكتبات المدينة المنورة بخط قديم ، منسوخ في حياة المؤلف من نسخته[2] .

وفي دار الكتب المصرية نسخة مصورة من نسخة خطية ناقصة رقمها (٢٤٢٧/ب) وتقع في مجلدين[3] .

وفي الرباط مخطوطة رقمها (٢١٩/ك) وتقع في (٩٩) ورقة مخرومة الآخر[4] . ويعتبر التكميل مقدمة لكتاب « جامع المسانيد » كما صرح ابن كثير ـ رحمه الله ـ في مقدمة « التكميل »[5] .

١٠ ـ مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأقواله على أبواب العلم :

ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى في «اختصار علوم الحديث» فقال : كما بسطناه في مسند عمر »[6] وقال في « البداية والنهاية » : « كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد ، ومسنده والآثار المروية عنه مرتباً على الأبواب في مجلد آخر ، ولله الحمد والمنة »[7] .

وقد بدأ الحافظ هذا المسند بأحكام الطهارة . . فالصلاة . . إلى آخر العبادات ، واشتمل على أبواب السير والملاحم ، والمعجزات ، والفضائل ، وغيرها . والكتاب مخطوط بخط ابن كثير ، بدار الكتب المصرية رقم (١٥٢) حديث تيمور ، ويقع في (٢٢٠) لوحة[8] .

وحققه الدكتور مطر الزاهراني ، وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة[9] . ولم نره مطبوعاً بعد .

١١ ـ طبقات الشافعية :

ألَّف الحافظ ابن كثير هذا الكتاب قبل « البداية والنهاية » لأنه أحال إليه فيها كثيراً كلما ذكر

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) .
(٢) مقدمة الباعث الحثيث (ص : ٢٠٢) .
(٣) تهذيب الكمال ، المقدمة (١/ ٦٤) .
(٤) جامع المسانيد ، المقدمة (١/ ٢٠٤) .
(٥) ابن كثير الدمشقي ، للدكتور محمد الزحيلي (ص : ١٧٠) .
(٦) الباعث الحثيث (ص : ٥٧) .
(٧) البداية والنهاية (١٠/ ٢٨) .
(٨) جامع المسانيد ، المقدمة (١/ ٢٠٤) .
(٩) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٢٨) .

أحد أصحاب الإمام الشافعي ، أو أحد العلماء الأعلام المصنِّفين في المذهب .

وقد ترجم في أوله لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي سنة ٢٠٥هـ وقال : « أفردنا له ترجمة مطوَّلة في أول كتابنا « طبقات الشافعيين . . »[(١)] ثم قال : « وقد ذكر من شعره في السُّنَّة وكلامه فيها، وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية»[(٢)] .

توجد من الكتاب نسخة خطية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، كما رأينا (١١١) لوحة بالجامعة الإسلامية ، مصورة من مكتبة الكتاني بالرباط[(٣)] .

وطبع حديثاً بمصر بتحقيق محمد علي زينهم والدكتور أحمد عمر هاشم ، كما طُبع قسم منه بعنوان : « المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي دون إخوانه من الأئمة » بقلم د . إبراهيم صندقجي ، مكتبة العلوم والحكم وحقَّق الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر « مناقب الإمام الشافعي » في مكتبة الإمام الشافعي ـ ١٤١٢هـ[(٤)] .

ب ـ الكتب المفقودة[(٥)] :

١ ـ الكواكب الدراري في التاريخ : وهو كتاب في التراجم ، ذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » (٢/ ١٥٢١) والبغدادي في « « هدية العارفين » (١/ ٢١٥) وقالا : « انتخبه ابن كثير من تاريخه الكبير » وهو في ثلاث مجلدات ، ولم يرد له أثر في فهارس المخطوطات ، إلا المجلد الثالث في تركيا ـ إستنبول عمومي برقم (٥٠١٦) .

٢ ـ سيرة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : ذكر ابن كثير كتابه هذا في « البداية والنهاية » في مواضع متفرقة ، وقال عنه في (٣/ ٢٢٤ و٢٣١) : وقد ذكرنا ترجمة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وسيرته ، وأيامه ، وما روى من الأحاديث ، وما روى من الأحكام في مجلد ، ولله الحمد والمنة » وأشار إلى هذا في التفسير (٤/ ٢٢٤) وفي اختصار علوم الحديث (ص : ١٨٣) .

٣ ـ سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ذكره في « البداية والنهاية » (١٠/ ٢٨) في مواضع أيضاً ، وقال عن أبي بكر وعمر : « وقد ذكرنا كيفية إسلامه في كتابنا الذي أفردناه في سيرته ،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٣و٢٠) و (١٣/ ٢١٣) و (١٣/ ١٤٣) و (١٥/ ٣٤) .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٣ و٢٠) و (١٣/ ٢١٣) و (١٣/ ١٤٣) و (١٥/ ٣٤) .
(٣) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص : ٥٠) .
(٤) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٢٤) .
(٥) هي كتب ذكرها المؤلف ، أو مترجموه ، ولم تظهر في فهارس المخطوطات حتى الآن ، ولم نفقد الأمل من وجودها أو بعضها على الأقل .

وأوردنا فضائله وشمائله، وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً، وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي ﷺ من الأحاديث ، وما روي عنه من الآثار والأحكام والفتاوى ، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ، ولله الحمد والمنة .

وأفاد الندوي[1] أن كلامه على الشيخين يتضمن كتابين في ثلاث مجلدات :

١ ـ كتاب في سيرة أبي بكر ومسنده ، في مجلد .

٢ ـ كتابه في سيرة عمر ومسنده ، في مجلدين : الأول في سيرته ، والثاني في مسنده ، وقد تقدم الكلام على مسنده برقم (١٠) .

٤ ـ أحاديث الأصول : ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥٥) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١١٥] وقال : وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، وقد ذكرنا طرفاً منها صالحاً في كتاب أحاديث الأصول » .

٥ ـ شرح البخاري : شرع ابن كثير في شرح البخاري ولم يكمله ، واتفق مترجموه على ذلك ، فقد ذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٠) والبغدادي في هدية العارفين (١/ ٢٥١) وقال ابن العماد في شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) والداودي في طبقات المفسِّرين (١/ ١١١) : « وشرح قطعة من البخاري » . وقال ابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩) : و« شرع في شرح البخاري » . وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١١/ ٢٥٠) أثناء ترجمة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري سنة (٢٥٦هـ) : صاحب الصحيح ، وقد ذكرنا له ترجمة حافلة في أول شرحنا لصحيحه » وقال فيها (٣/ ١٨٩) عند الكلام على حديث بدء الوحي : « وتكلَّمنا مطوَّلاً في أول شرح البخاري في كتابه بدء الوحي ، إسناداً ومتناً ، ولله الحمد والمِنَّة » . ونراه في التفسير (٣/ ٤٥٤) أيضاً يُحيل إلى « أول صحيح البخاري » ويتساءل الدكتور مسعود الندوي : إلى أي حد بلغ ابن كثير في شرحه؟ ويجيب بأنه لا يمكن الإجابة بيقين ، ولكنه يذكر بعض الإرشادات التي تفيد شرحه لما يلي :

ـ الباب الأول : كيف كان بدء الوحي ؟ .

ـ الكتاب الأول : كتاب الإيمان .

٦ ـ الأحكام الصغير ، أو أحكام التنبيه : ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتاب « اختصار علوم الحديث » (ص : ١٩١) فقال : « وقد تكلَّمنا على ذلك في كتاب الأحكام الكبير والصغير » .

وقال ابن العماد في الشذرات (٨/ ٣٩٧) : « وصنف في صغره كتاب الأحكام على أبواب التنبيه » .

---

(١) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٤٨) .

وقال ابن حجر في « إنباء الغمر بأبناء العمر » : « أَلَّف في صغره أحكام التنبيه » . وتقدم أنه عرضه على شيخه برهان الدين الفزاري فأُعجب به ، وأثنى عليه .

ونصل إلى نتيجة سليمة وسديدة[١] : أن « الأحكام الصغير » هو كتاب أحكام التنبيه ، أو الأحكام على أبواب التنبيه ، وقد طبع في مجلدين بمؤسسة الرسالة باسم « إرشاد الفقيه » والعنوان استظهره المؤلف .

٧ ـ الأحكام الكبير : شرع ابن كثير في تأليف كتاب كبير في الأحكام ، ولكنه لم يتمه ، وهو في الفقه . وقد ذكره في البداية والنهاية (٣/ ٣٣٣) فقال : « وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء مع خصائص نبينا في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمة المصنفون ، اقتداء بالإمام الشافعي ـ رحمه الله » .

وذكر الكتاب ابن العماد في شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) والداودي في طبقات المفسرين (١/ ١١١) وقالا : « وشرع في أحكام كثيرة حافلة ، كتب فيها مجلدات إلى الحج » .

وقال السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٣٦١) : « وشرع في كتاب كبير في الأحكام ولم يتمَّه » . وذكر المقريزي أنّه عمل منه مجلدين في الطهارة ومجلداً من الصلاة[٢] .

٨ ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب : أشار إليه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٥/ ٢٦٩) أثناء ترجمة ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ فقال : ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات ، انتظم فيه فوائد ابن شاس ، ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي ، وقد من الله تعالى عليَّ بحفظه ، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية ، ولله الحمد » .

وقال ابن قاضي شهبة في الطبقات (٣/ ١١٤) : « وخرج الأحاديث الواقعة في مختصر ابن الحاجب ، وكتب رفيقه الشيخ تقي الدين بن رافع لنفسه منه نسخة » .

٩ ـ كتاب الصيام : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢١٥) و (٣/ ٥١٢) وقال بسطنا هذه المسألة مستقصاة في « كتاب الصيام » الذي أفردناه ، ولله الحمد والمنة » .

١٠ ـ المقدِّمات : ذكره في مختصر مقدمة ابن الصلاح، وأحال إليه (ص: ٥٧): «وأما كون (المرسل) حجةً في الدين ، فذلك يتعلق بعلم الأصول ، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا «المقدمات».

وقد عدَّه محمد عبد الرزاق حمزة في كتبه (ص : ٢٧) من كتاب اختصار علوم الحديث ، وهو في علم أصول الفقه .

---

(١) انظر هذه الحقيقة مفصلة في كتاب « الإمام ابن كثير » ، للندوي (ص : ١٣٤) .
(٢) درر العقود الفريدة (١/ ٤٠١) .

١١ ـ مناقب الشافعي . ذكره تلميذه المقريزي في درر العقود الفريدة[1] .

١٢ ـ مناقب ابن تيمية : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢١٥) في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ فقال : « وسنفرد له ترجمة على حدة إن شاء الله تعالى » وقال : « وقد أُفردت له تراجم كثيرة ، وصنَّف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم ، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله ، وشجاعته وكرمه ، ونصحه ، وزهادته وعبادته ، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة ، وصفاته الكبار والصغار التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة ، وأفتى بها » .

ولا نستطيع الجزم بأن ابن كثير وفَّى بما وعد به ، ولا تسعفنا كتب التراجم بمعرفة ذلك .

١٣ ـ اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي : ذكره ابن كثير في مقدمة اختصار علوم الحديث ، لابن الصلاح (ص ٢٩) فقال : « وقد اختصرته ـ المدخل إلى كتاب السنن ـ أيضاً ، بنحو هذا النمط من غير وكس ولا شطط » وهذا يدل على تقدم على اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن . وقد عدَّه محمد عبد الرزاق حمزة في كتبه (ص ٢٧) من كتاب اختصار علوم الحديث .

١٤ ـ شرح التنبيه ؛ لأبي إسحاق الشيرازي : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » عند ترجمة أبي إسحاق الشيرازي ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، (١٣/ ٢١٢) وسمَّاه « شرح التنبيه » ، وكان يحفظ « التنبيه » ويستحضره إلى آخر وقت ، كما في الإنباه ، لابن حجر (١/ ٤٦) ، وقد خرج أحاديثه ورتبه على أبواب الفقه كما تقدم .

١٥ ـ بيع أمهات الأولاد : ذكره في « البداية والنهاية » (٥/ ٤٣١) في فصل سراري رسول الله ﷺ حين ولدت له جاريته مارية إبراهيم ، فقال ﷺ : « أعتقها ولدها » وقال ابن كثير : « وقد أفردنا لهذه المسألة ، وهي بيع أمهات الأولاد ، مصنَّفاً مفرداً على حدته ، وحكينا فيه أقوال العلماء ، بما حاصله يرجع إلى ثمانية أقوال ، وذكرنا مستند كل قول ، ولله الحمد والمنة » .

١٦ ـ سيرة منكلي بغا الشمسي : ذكره السخاوي في « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (ص ١٨٦) : « وأفرد العماد ابن كثير سيرة منكلي بغا سماها : ما ينتقى ويبتغى في سيرة المعز السيفي منكلي بغا » وهو أحد مماليك الملك الناصر حسن ، ونائبه على دمشق (٧١٤ ـ ٧٦٨هـ) وكان مهاباً عاقلاً يتكلم في عدة علوم ، ويحترم ابن كثير ويكرمه ويستشيره . توفي منكلي بغا سنة ٧٧٤هـ بمصر .

---

(١) درر العقود الفريدة (١/ ٤٠١) .

ج ـ الأجزاء الحديثية[1] :

١ ـ جزء في الأحاديث الواردة في المهدي : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦/ ٣٦٨) والنهاية (١/ ٣٠) .

٢ ـ جزء في حديث كفارة المجلس : ذكره في البداية والنهاية (١١/ ٢٧٢) في ترجمة مسلم بن الحجاج ، المتوفى سنة ٢٦١هـ .

٣ ـ جزء في فضل يوم عرفة : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٣٠) عند تفسيره الآية رقم ١٩٩ من سورة البقرة ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

٤ ـ جزء في الصلاة على النبي ﷺ في التشهد : ذكره ابن كثير في « مناقب الشافعي » في المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي ، وأنها فرض عند الشافعي (ص ٨٦) ـ والكتاب مأخوذ من « طبقات الشافعية » .

٥ ـ جزء في ذكر الأحاديث الواردة في قتل الكلاب : أشار إليه في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٤٣) معلقاً على أمر نائب السلطان بقتل الكلاب سنة ٧٤٩هـ ، بعد أن فشا الطاعون في الشام .

٦ ـ جزء في الصلاة الوسطى : ذكره في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢٩٤) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

٧ ـ جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة : ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٥٩) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ . . . فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ . . ﴾ [النساء : ١١] .

٨ ـ جزء في الرد على حديث السجل : ذكره في « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٠٠) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

٩ ـ جزء في حديث الصور : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٢/ ١٤٦) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] . وفي « النهاية » في الفتن والملاحم (١٧/ ١٨٠) .

١٠ ـ جزء في الذبيحة التي لم يُذكر اسم الله عليها : ذكره ـ رحمه الله ـ في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٧٠) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

---

(١) أشار إليها ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتبه ، أو ذكرها العلماء المترجمون له ، وهي مفقودة لم تصل إلينا بعد .

١١ ـ جزء في الأحاديث الواردة في فضل الأيام العشرة من ذي الحجة : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٧٢) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج : ٢٨] .

١٢ ـ جزء في الرد على كتاب رفع الجزية عن يهود خيبر : ذكره في البداية والنهاية (٤/ ٤٥٠) وقد ادعوا أن النبي ﷺ أسقط عنهم الجزية ، فقام العلماء يفندون دعواهم الباطلة ، وأسهم ابن كثير في إبطال ذلك .

١٣ ـ جزء في ذكر تطهير المساجد : ذكره الحافظ في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢٢٦) في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] و (٣/ ٣٦٤) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور : ٣٦] .

١٤ ـ جزء مفرد في فتح القسطنطينية : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٥١) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ . . ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

١٥ ـ جزء في زواج النبي ﷺ بأم سلمة : ذكره في كتاب « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » (ص : ٢٤٥) وبين فيه أن عمر المقول له : قم فزوِّج النبي ﷺ ، إنما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لا ابن أم سلمة عمر بن أبي سلمة ، فقد كان صغيراً لا يصح أن يكون وليّاً في عقد النكاح .

١٦ ـ جزء مفرد في حديث إنكار رسول الله ﷺ الزواج من عزَّة بنت أبي سفيان : ذكره الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » (ص : ٢٤٩) وفي « البداية والنهاية » (٨/ ١٧٤) والحديث في صحيح مسلم (٢٥٠١) وفيه أن أبا سفيان عرض على النبي ﷺ الزواج بأم حبيبة ، وهو خطأ ظاهر ، وإنما كانت (عزة) فاعتذر النبي ﷺ ، لأن الجمع بين الأختين حرام .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثامناً : مكانته العلمية والاجتماعية

تمهيد :

لقد تبوَّأ الحافظ المفسر المؤرِّخ الفقيه إسماعيل بن كثير مكان الصدارة والاحترام بتحصيله العلمي وتآليفه المدهشة ، وتسنَّم مكان الحفاوة والاهتمام بفتاويه الدقيقة ، ومواقفه الجريئة .

ورغم أنه أصبح من كبار العلماء ، فإنه لم يصل إلى التأثير في الشأن العام ، وبخاصة في الحياة الاجتماعية والسياسية كتأثير شيخه ابن تيمية ، ولكنه ترك تغييراً هادئاً ، ما زال يفعل فعله الثقافي والحضاري إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهو يتمتع بحضور تام ، وعقل وقَّاد ، وقلم سيَّال ، وشخصية محترمة ومتميزة ، لا يُداهن في الحق ، ولا يتهاون في إنكار البدع ، ولا يُماري في نبذ الخرافات ، وليس بخِبٍّ فلا يخدعُ ولا يُخادَع ، ولا يحني رأسه ، ولا يكسر قلمه ؛ مرائياً أو متطامناً .

لقد جمع بين الرزانة والقوة ، والرَّصانة والعزيمة ، وتجنَّب التطرف والحِدَّة ، وظهر في المجالس العلمية الخاصة والعامة شافعياً ملتزماً ، ومفكراً مصلحاً ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويثبت بقلمه ولسانه ما يُريد بتبصر وإخلاص ، لا يخاف في الله لومة لائم ، فينظر إليه الناس بالتقدير والمحبة والإعجاب ، وسنرقب ذلك عن كثب وتمعن في مكانته العلمية والاجتماعية .

أ ـ مكانته العلمية :

● الفتاوى : أصبح ابن كثير في دمشق من المفتين الكبار ، أذن له في الإفتاء الشيخ جمال الدين أحمد بن محمد المعروف بابن القلانسي المتوفى سنة ٧٣١هـ ، ووصفه أقرانه بالفقيه المفتي ، والإمام المفتي البارع ، وبأنه طارت فتاواه إلى البلاد ، ونجتزىء من سيرة حياته فتاوى تدلُّ على تضلع في الفقه مع الإنصاف والحصافة :

ـ قال الحافظ في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢٥١) : « وفي يوم الثلاثاء ٢٨ ذي القعدة سنة ٧٣٣هـ رُكِّب على الكعبة باب حديد أرسله السلطان مرصَّعاً من السنط الأحمر ، كأنه أبنوس ، مركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمئة وكسر ، وقُلع الباب العتيق ، وهو من خشب السَّاج ، وعليه صفائح ، تسلَّمها بنو شيبة ، وكان زنتها ستين رطلاً ، فباعوها كل درهم بدرهمين ، لأجل التبرك . وهذا خطأ وهو ربا ، وكان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا بذلك » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٠٦) : وفي سنة ٧٦١هـ صدر « الأمر بإلزام القلندرية بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم ، وذلك محرَّم بالإجماع حسب ما حكاه ابن حزم ، وإنما ذكره بعض الفقهاء بالكراهية » وكان اللائق أن يُؤمروا بترك الحشيشة الخسيسة ، وإقامة الحدِّ عليهم بأكلها وسكرها ، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٥٤) سنة ٧٥١هـ : ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها ، ولم يقع من نحو مئتي سنة وأكثر ، أنه أُبطل الوقيد بجامع دمشق ليلة النصف من شعبان ، فلم يزد في وقيده قنديل واحد ، على عادة لياليه في سائر السنة ، ولله الحمد والمنة ، وفرح أهل العلم بذلك ، وأهل الديانة ، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء ، التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد ، والاستئجار بالجامع الأموي ، وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلَّد الله ملكه ، وشيَّد أركانه ، وكان الساعي لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبي بيَّض الله وجهه ، وقد كان مقيماً في هذا الحين بالديار المصرية ، وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقي الدين بن تيمية ، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني وغيرهما في إبطال هذه البدعة ، فأنفذ الله ذلك ، ولله الحمد والمِنَّة » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣١٣) : في أحداث سنة ٧٤٣هـ : « وفي يوم الجمعة ١٦ صفر قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي[١] إليها حاكماً بها ، فذهب الناس للسلام عليه وتوديعه ، وذلك بعدما أرجف الناس به كثيراً ، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام . . وكُتبت فتوى عليه بذلك في ترغيمه ، وداروا على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي ، ورأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة ، وسئلت في الإفتاء عليها ، فامتنعت لما فيها من التشويش على الحكام » .

● مواقف علمية : صائبة وجريئة تدل على أن ابن كثير ليس بجمَّاع ولا حاطب ليل ، بل شخصيته حاضرة وشاهدة ، وعقله المتيقظ جلياً من خلال المواقف التالية :

ـ دفاعه عن الطبري : قال في « البداية والنهاية » (١٢/ ٥٩) : « وقد كانت وفاته ـ أبو جعفر الطبري ـ وقت المغرب عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة ٣١٠هـ . وقد جاوز الثمانين بخمس سنين أو ست سنين ، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير ، ودُفن في داره ؛ لأن بعض عوام

---

(١) علماً بأنه كان بين ابن كثير وتقي الدين السبكي خصومة فكرية ، وأبى أبو الفداء أن ينتقم لنفسه ، وأصرَّ على الإنصاف والتريث حتى يظهر وجه الحق .

الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً ، ونسبوه إلى الرفض ، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد ، وحاشاه من ذلك كله ، بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإنما تقلَّدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري ، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم والرفض . ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد ، وصلُّوا عليه بداره ، ودُفن فيها ، ومكث الناس يتردّدون إلى قبره شهوراً يُصلُّون عليه ، وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث « غدير خم » في مجلدين ضخمين ، وكتاباً جمع فيه طريق « الطير »[1] .

ـ نقده لابن خلكان : وقال ابن كثير في ذكر حوادث سنة ٢٩٨هـ ترجمة ابن الراوندي ، فقال : « أحد مشاهير الزنادقة ، كان أبوه يهودياً فأظهر الإسلام ، ويقال إنه حرَّف القرآن ، كما عارض ابنه القرآن بالقرآن وألحدَ فيه ، وصنف كتاباً في الردِّ على القرآن سمَّاه « الدامغ » وكتاباً في الردِّ على الشريعة والاعتراض عليها سمَّاه « الزمردة » وكتاباً يُقال له « التاج » في معنى ذلك . . » .

ثم قال : « وقد ذكره ابن خلكان في « الوفيات » وقلس عليه ، ولم يخرجه بشيء ، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً ، على عادته في العلماء والشعراء ، فالشعراء يطيل تراجمهم ، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة ، والزنادقة يترك ذكر زندقتهم . وأرَّخ ابن خلكان تاريخ وفاته في سنة ٢٤٥هـ ، وقد وهم وهماً فاحشاً ، والصحيح أنه توفي في هذه السنة ، كما أرَّخه ابن الجوزي وغيره » .

ـ نقده للخطيب البغدادي : قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « البداية والنهاية » (١٠/ ٣٣٥) : قال الخطيب في بناء أبي جعفر المنصور لمدينة بغداد : « وبناها مدوَّرة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدوَّرة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له « نوبخت » المُنجِّم . ثم ذكر عن بعض المنجِّمين قال : قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطَّالع لها ، فنظرتْ في طالعها ـ وكان المشتري في القوس ـ فأخبرته بما تدلُّ عليه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها ، وفقر الناس إلى ما فيها . قال : ثم قلتُ له : وأُبشّرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموتُ فيها أحدٌ من الخلفاء أبداً . قال : فرأيته يبتسم ، ثم قال : الحمدُ لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً ، منه :

قضى ربُّها أن لا يموت خليفةٌ ... بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرَّره على هذا الخطأ الخطيب ، وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء ، بل قرَّره مع اطلاعه ومعرفته !! » .

● قراءة صحيح البخاري ومسلم : في ستة مدارس ، وفي دور بعض الأمراء ، وفي أماكن

---

(١) أبو جعفر الطبري اثنان ، الأول هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، والثاني من الروافض واسمه أيضاً محمد بن جرير بن رستم ، ألف كتباً كثيرة في ضلالتهم انظر سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧) و(١٤/ ٢٨٢) .

متعددة من دمشق الفيحاء ، ولنسمعه يؤرخ لذلك في تاريخه (١٦/ ٤٥٧) في حوادث سنة ٧٦٦هـ :

« وخُتم « البخاري » بالجامع الأموي وغيره في عدة أماكن ، من ذلك ستة مواعيد ، تقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير في اليوم ، أولها بمسجد هشام بكرة قبل طلوع الشمس ثم تحت النسر ، ثم بالمدرسة النورية ، وبعد الظهر بجامع تنكز ، ثم بالمدرسة العزية ، ثم بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السَّلْعوس إلى أذان العصر ، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي بمحلَّة القصَّاعين إلى قريب الغروب ، ويقرأ « صحيح مسلم » بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة بعد قبة النسر ، وقبل النورية ، والله المسؤول ، وهو المعين الميسِّر المسهِّل . وقد قرىء في هذه الهيئة في عدة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم ، ولم يُعهد مثل هذا في السنين الماضية ، فلله الحمد والمِنَّة » .

• موقفه من الإسرائيليات : اهتم أبو الفداء رحمه الله للإسرائيليات ، ونبه على منهجه حيالها في أول تفسيره وفي أول تاريخه ، وتتبع روايات الحديث النبوي « بلِّغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبَّوأ مقعده من النار » ، فقسَّم[١] الأخبار عن بني إسرائيل إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الإسرائيليات التي يصدقها الكتاب والسنة ويشهدا لها ؛ ولا حاجة إليها « استغناء بما عندنا » .

٢ ـ الإسرائيليات التي لا يصدقها الكتاب والسنة ، ولا يشهدا لها ؛ « فذاك مردود ، لا تجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال » .

٣ ـ الإسرائيليات التي لا يُصدِّقها الكتاب والسنة ، ولا يكذبها ، تجوز روايتها للاعتبار ، لأن من فائدة هذا القسم « بسطٌ لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا ، مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلِّي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه ، وإنما الاعتماد والاستناد على الكتاب وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما صحَّ نقله أو حسن ، وما كان في ضعف بيِّنته » .

ونحن نتمنى أن يكون ابن كثير قد التزم هذا المنهج في أول كتابه « البداية والنهاية » وبخاصة في قسم بدء الخلق وقصص الأنبياء ، إذ لو فعل لأراح واستراح من كثير من الإسرائيليات المتهافتة التي لا تخرج عن القسم الثاني مما يجب رده وإنكاره وإبطاله ، والذي لا مبرر لتسطيره إلا داعي الجمع والنقل .

---

(١) انظر الإمام ابن كثير ، للندوي (ص : ٣١٥ ـ ٣١٦) .

• نظم الشعر : لا ريب أن ابن كثير غلب على أسلوبه أنه مفسر محدِّث فقيه ، لا شاعر ولا أديب ، ومن المحتمل أنه كان مقلاً جداً من قول الشعر ، لأنه يعتبر صناعة الشعر عملاً يستوجب الاستغفار والتوبة ، فقد روى قصيدة لوالده مطلعها :

نأى النومُ عن جفني فبتُّ مسهَّداً أخا كَلَفٍ ، حِلْفَ الصبابة مُوجَدا
سميرَ الثريا والنجوم ، مُدَلَّهاً فمن ولهي خِلْتُ الكواكب رُكَّدا

ثم قال بعدها : « وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً ، والله يغفر له ما صنع من الشعر » ، ومما يؤكد ذلك ما كتبه المترجمون لحياته :

قال ابن حجر في « الإنباه » (١/ ٤٦) : « وينظم نظماً وسطاً » وتبعه في ذلك ابن العماد في « الشذرات » (٨/ ٣٩٧) .

ومما نقل عنه من شعر الحكمة :

تمرُّ بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائدٌ ذلك الشبابُ الذي مضى ولا زائلٌ هذا المشيب المُكدَّر

ولاحظ ابن حجر في الإنباء (١/ ٤٧) : على البيت الثاني ، أنه لو قال : صَفو الشباب ، لكان أمتع » .

كما نظم قصيدة في « البداية والنهاية » (١٣/ ٢١٠) أتمَّ فيها ذكر الخلفاء العباسيين بعد المستعصم بالله ، وهي ضرب من الرجز ، ومنها :

ثمَّ ابتلاه الله بالتتار أتباع جنكيز خان الجبَّار
صحبته ابن ابنه هولاكو فلم يكن من أمره فكاك
فمزَّقوا جنوده وشملَه وقتلوه نفسهُ وأهله
ودمَّروا بغداد والبلادا وقتلوا الأحفادَ والأجدادا

وأجاز لأحدهم فقال :

أجزتهمُ ما قد سُئلتُ بشرطه وكاتبُه إسماعيلُ بن كثير

وحكم بفكر العالم الفقيه ، لا بحسِّ الأديب الأريب ، على قصيدة أبي العباس الناشي (٨٨) بيتاً ، بأنها قصيدة بليغة مع أنها منظومة علمية لا تحرك عاطفة ولا تمس شعوراً ، أورد فيها ناظمها النسب النبوي الشريف بكلام موزون ، ليكون هذا مساعداً على الحفظ والتذكر[1] .

---

(١) الفصول (ص : ٢٢ و ٨٨) .

• أقوال العلماء فيه : ومما يؤكد المكانة العلمية السامقة التي بلغها ابن كثير بالجد والمثابرة أقوال شيوخه وتلاميذه ومعاصريه ، ومنهم :

ـ فهذا الذهبي ـ أحد شيوخه كما تقدم يقول في « تذكرة الحفاظ » (٤/ ٥٠٨) : « وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي ، ولد بعد السبعمئة أو فيها ، وسمع من ابن الشحنة ، وابن الزرَّاد ، وطائفة ، وله عناية بالرجال والمتون ، والتفقه ، خرَّج وألف ، وصنَّف وفسَّر ، وتقدَّم » .

ويقول في « المعجم المختص » وهو معجم خاص بالطلبة : « الإمام الفقيه المحدث الأوحد البارع عماد الدين . . . يدري الفقه ويفهم العربية والأصول ، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم ، سمع مني ، وله حفظ ومعرفة[1] » .

ـ وهذا معاصره الحسيني يقول في ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٥٨) : « الشيخ الإمام العالم ، الحافظ المفيد البارع . . أفتى ودرَّس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل » .

ـ أما تلميذه ابن حجي فيقول كما في « الدارس » للنعيمي (١/ ٣٦) و « طبقات المفسرين » للداودي (١/ ١١١) : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ « التنبيه » إلى آخر وقت ، ويُشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به ـ على كثرة ترددي إليه ـ إلا واستفدت منه » .

وأما تلميذه الآخر العلامة تقي الدين المقريزي فيقول فيه : « الحافظ الفقيه العلامة ، شيخنا ذو الفنون . . . برع في فنون بملازمة شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وصنّف التصانيف المفيدة . . . وكان حافظاً متقناً حسن الأخلاق ، جميل المعاشرة ، متواضعاً ، كثير الاستحضار . . . ولم يخلف بعده مثله »[2] .

ـ وأما ابن حجر العسقلاني ، فيقول في الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠): « وكان كثير الاستحضار ،

---

(١) المعجم المختص ٧٤ ـ ٧٥ . ونقل ابن قاض شهبة وابن حجر عن « المعجم المختص » للذهبي أنه قال فيه : « فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقاد ـ في المطبوع وفي طبقات ابن قاضي شهبة (ص : ٤٧٤) والدرر الكامنة (١/ ٣٧٤) : « نقال » ، وهو تحريف واضح ، وخطأ فادح ـ وله تصانيف مفيدة » ولم نجد ذلك في معجمه . الضوء اللامع (٤/ ٥٩) .

(٢) درر العقود (١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) .

حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريقة المحدِّثين ، في تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ، ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدِّثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد . . . » .

ويرد السيوطي على ابن حجر في هذا الكلام الذي انتقص فيه من مكانة ابن كثير كمحدث ، فيقول في ذيله على التذكرة (ص : ٢٦١) : « العمدة في علم التفسير معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعلله ، واختلاف طرقه ورجاله جرحاً وتعديلاً ، وأما العالي والنازل ونحو ذلك ، فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » .

ب ـ مكانته الاجتماعية :

• صلته بنائب السلطنة : وهو مؤهَّل لهذه الصلة ، فمنصب الإفتاء ، والتدريس ، والتأليف التاريخي ، تمنحه المكانة الاجتماعية المرموقة والمحترمة ، فيُدعى إلى مجالس العلم والتحكيم ، والفصل في القضايا العلمية الدقيقة ، ولحضور المصالحات العامة ، والصلة المباشرة مع الحكام الذين تولوا نيابة السلطان في دمشق ، فقد ورد في البداية والنهاية (١٦/ ٤٢٧) خلال حوادث سنة ٧٦٣هـ : « وفي ثاني المحرم قدم نائب السلطنة ـ علاء الدين المارداني ـ بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوماً ، وقد أوطأ بلاد فرير بالرعب ، وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس ، وكان قد اشتهر أنه قصد العشيرات المواسين ببلاد عجلون ، فسألته عن ذلك حين سلَّمت عليه ، فأخبرني أنه لم يتعد ناحية فرير ، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا ، وأن التجريدة عندهم هناك » .

وتقدَّم أنه كتب سيرة لنائب السلطان على دمشق منكلي بغا المتوفى سنة ٧٧٠هـ ، وأنه كان يُكرم ابن كثير ويقرِّبه .

كما تقدَّم أنه كتب رسالة في الجهاد للأمير منجك حين تولَّى السلطنة مرة ثانية (٧٧١ ـ ٧٧٥هـ) .

• حضور مجالس كبار العلماء : ومن يتابع حوادث السنوات بدءاً من سنة ٧٣٠هـ يجد أن ابن كثير كان يحضر مجالس العلماء ، ويشارك في الحياة العامة ، وبخاصة قضايا التحكيم والاختلاف ، ويشهد لذلك ما قاله في البداية والنهاية (١٦/ ٤٥١) في حوادث سنة ٧٦٥هـ : « وفي الرابع عشر من جمادى الآخرة عُقد بدار السعادة مجلس حافل ، اجتمع فيه القضاة الأربعة ، وجماعة من المفتين ، وطُلبتُ فحضرت معهم ، بسبب المدرسة التدمرية ، وقربة الواقف ، ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث ، فوقف الحنبلي في أمرهم ، ودافعهم عن ذلك أشدَّ الدفاع . . » .

وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٦٢) في حوادث سنة ٧٦٧هـ : « ولما كان يوم الإثنين ، الرابع والعشرين من ربيع الأول ، عقد مجلس حافل بدار السعادة ، بسبب ما رمي به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة السبكي ، وكنت ممن طُلب إليه ، فحضرته فيمن حضر ، وقد

اجتمع فيه القضاة الثلاثة ، وخلق من المذاهب الأربعة ، وآخرون من غيره بحضرة نائب الشام سيف الدين مُنْكلي . . وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان ، أحدهما له ، والآخر عليه . . »
واستمر التداول إلى الشهر التالي ، وحضره ابن كثير ، وانتهى بالصلح استجابة لقوله تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

▫ اجتماعه بالخليفة المعتضد : قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٦٧) في حوادث سنة ٧٥٣هـ : « وفي يوم السبت عاشر شهر شعبان اجتمعنا بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد . وسلَّمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية ، داخل باب الفرج ، وقرأت عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده ، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضياء الحموي ، بسماعه من ابن البخاري ، وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب ، عن أبي بكر بن مالك ، عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه ، فذكرهما .

والمقصود أنه شابٌ حسن الشكل ، مليح الكلام ، متواضع ، جيِّد الفهم ، حلو العبارة ، رحم الله سلفه » .

▫ إنكاره على الأمر السلطاني بمسك النصارى من الشام : وأن يأخذ نائب السلطان منهم ربع أموالهم ؛ لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج ، فأهانوا النصارى ، وطُلبوا من بيوتهم بعنف ، وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يُراد بهم ، فهربوا كل مهرب .

يتابع ابن كثير ، وهو يؤرخ لهذه الحادثة في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٦٠) في سنة ٧٦٧هـ : « وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من شهر صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ـ الأمير سيف الدين منكلي بغا ـ وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنساً كثيراً ، ورأيته كامل الرأي والفهم ، حسن العبارة ، كريم المجالسة ، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى ، فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الله قائمة ، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية . . » .

وما زال يعرض الأدلة ، ويقترح الحل الأنسب بغزو قبرص ، حتى أقنع نائب السلطنة ، وكتب إلى مصر بذلك ، فجاء الجواب موافقاً لما اقترحه وارتآه .

▫ حضوره إعدام الزنديق عثمان الدَّكَّالي[1] : قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢٩٤)

---

(١) منسوب إلى دكَّالة ، بلد بالمغرب .

في أحداث سنة ٧٤١هـ : « وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة ، وحضرته يومئذ ، واجتمع القضاة والأعيان على العادة ، وأُحضر يومئذ عثمان الدَّكَّالي ـ قبحه الله تعالى ـ وادُّعِي عليه بعظائم من القول لم يُؤثر مثلها عن الحلاَّج ، ولا عن ابن أبي العَزَاقِر[1] الشَّلْمَغانيّ[2] ، وقامت عليه البينة بدعوى الإلهية ـ لعنه الله ـ وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ، ومخالطة أرباب الريب من الباجريقية[3] وغيرهم من الاتحادية ـ عليهم لعائن الله ـ . . فسئل القاضي المالكي الحكم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على رسوله ، ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب ، فأُخذ المذكور وضُربت عنقه بسوق الخيل ، ونودي عليه : هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية ، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة ، حضر خلق من الأعيان والمشايخ ، وحضر شيخنا جمال الدين المزي الحافظ ، وشيخنا شمس الدين الذهبي ، وتكلَّما وحرَّضا في القضية جداً ، وشُهد بزندقة المذكور بالاستفاضة ، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وخرج القضاة الثلاثة : المالكي والحنفي والحنبلي ، وهم نفذوا حكمه في المجلس ، فحضروا قتل المذكور . وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره » .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) قيده ياقوت في معجم البلدان (٣/ ٣٥٨) فقال : بفتح العين المهملة والزاي وبعد الألف قاف مكسورة ثم راء مهملة .

(٢) منسوب إلى شلمغان ، من نواحي واسط ، كما في معجم البلدان .

(٣) نسبة إلى الباجريقي محمد بن جمال الدين من الحلولية توفي سنة (٧٢٤) كما في البداية .

ثامناً : وفاته

وأخيراً انتهت رحلة هذا الشيخ الجليل ، وختمت حياته المثمرة وأيامه المليئة بجليل الأعمال ، وصالح الأفعال والأقوال . وكان قد أُضِرَّ في أواخر عمره ، فأقعده فقد البصر عن استكمال كتابه الكبير « جامع المسانيد » كما صرَّح بذلك لأحد تلاميذه ، وهو ابن الجزري ، فقال : « لا زلتُ أكتبُ فيه في الليل ، والسراج ينوصُ ، حتى ذهب بصري معه » . وهناك من يُقدِّر تاريخ ذلك في السنة الأخيرة من حياته ، أي : سنة ٧٧٤هـ .

واتفق المؤرخون على أنه توفي بدمشق في شهر شعبان من سنة ٧٧٤هـ . وحدَّد ابن حجر يوم الوفاة بخامس عشر شعبان ، وخالفه ابن تغري بردي فحدَّد ذلك في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان . وهو تحريف صوابه : سادس عشر شعبان[١] ، كما نص عليه تلميذه المقريزي[٢] وإنما الاختلاف في تحديد بداية الشهر .

وشيَّعت دمشق عالمها ومؤرِّخها في جنازة حافلة مهيبة ، ودُفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، بمقبرة الصوفية[٣] ، خارج باب النصر من دمشق .

ورثاه أحدُ تلاميذه ، وهو الشيخ محمد بن بهادر الزركشي ، كما تقدَّم ، فقال :

لفقدكَ طلابُ العلوم تأسَّفوا ... وجاؤوا بدمعٍ لا يبيدُ كثير

ولو مَزَجُوا ماء المدامعِ بالدِّما ... لكانَ قليلاً فيكَ يا ابنَ كثير

رحم الله الحافظ ابن كثير رحمةً واسعةً ، وجعل مثواه جنَّات النعيم ، وجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وآله وسلم .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) بعد الرجوع إلى كتاب « التوفيقات الإلهامية » تبين أن يوم الخميس من شعبان هو السادس عشر وهو ما أكده المقريزي رحمه الله تعالى .

(٢) درر العقود (١/ ٤٠١) .

(٣) مقبرة الصوفية : اندرست هذه المقبرة ، ولم يبق منها إلا ثلاثة قبور تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من حديقة إدارة جامعة دمشق (المستشفى الوطني سابقاً) .

(٣)

دراسة الكتاب

البداية والنهاية

تمهيد :

أولًا ـ المحتوى

١ ـ المبتدأ وقصص الأنبياء .

٢ ـ السيرة النبوية .

٣ ـ تايخ الإسلام :

أ ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية .

ب ـ الخلافة العباسية .

ج ـ دولة المماليك البحرية .

٤ ـ النهاية (ذكر الآخرة ، وأحوالها ، وعلامات الساعة ، ومظاهرها) .

ثانياً : منهج الكتاب .

ثالثاً : الأسلوب .

رابعاً : الموارد والمصادر .

خامساً : طبعات البداية والنهاية .

(٣)

دراسة الكتاب

البداية والنهاية

أولًا : المحتوى :

تمهيد :

« البداية والنهاية » كتاب تاريخيّ ، عالمي وإسلامي ، يؤرخ لمبدأ الخلق ، وللأنبياء والرسل ، وللسيرة النبوية ، وحوادث الحياة الإسلامية إلى عام ٧٧٤هـ ووصل منه إلينا إلى سنة ٧٦٨هـ ، وخاتمته ذكرُ الساعة وعلاماتها ، وأحوال الآخرة وأهوالها .

وهذه العالمية والشمولية في التاريخ الإسلامي إنما نزل بها القرآن الكريم ، ووجَّهت إليها السنة النبوية ، ممثلة في وحدة النبوات وتنزل الرسالات بالدين الحق ، وهو الاستسلام والانقياد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

كما أنَّ القرآن عرض لمصير العرب العاربة الذين أشركوا بالله تعالى ، وأكثروا في الأرض الفساد ، فعاقبهم الله في الدنيا قبل الآخرة ، وجعل مصيرهم وبلادهم عبرة لأولي البصائر والألباب .

وأشار القرآن الكريم ، إلى حروب الفرس والروم ، وعرّف بالحياة العربية وما فيها من شرك وجاهلية ، وسجَّل حوادث السيرة النبوية ، ووصف بدقة متناهية المواقف النبوية بمشاعرها الصادقة وعواطفها الدافقة .

وإذا كان لا بد لكل أمة من تاريخ تعتز به وتفتخر ، وتأخذ من خلاله الدروس والعبر ، والقدوة الحسنة ؛ فإن القرآن الكريم رسم للأمة المسلمة معالم تاريخ إنساني كامل وشامل .

وعلم التاريخ بهذا المعنى القرآني فن إسلامي ، لا يقوم على الانتقائية ، والتفسير المادي والفلسفة البشرية ، وإنما يؤرخ للحوادث والوقائع الحقيقية ويعرضها بحياد تام وإنصاف كامل ، ويُعرِّف بالأولياء الصالحين ، والعلماء العاملين ، والحكَّام والسلاطين ، وتختلط فيه علوم التفسير والحديث والفقه والاجتماع والأخلاق ، والدين والدنيا والآخرة .

ولذلك يقول الدكتور شاكر مصطفى : « إن التاريخ ـ في اعتقادي ـ علم عربي إسلامي ، أو يمكن اعتباره كذلك »[1] .

ومن قبلُ نقل السخاوي عن إبراهيم بن أبي الدم الحموي قوله : « إنما الفائدة في التاريخ الإسلامي ـ مع قربه من الصحة ـ ذكره لعلماء الأمة المحمدية ، وذكر محاسنهم وعلومهم ، ومواعظهم ، وحكمهم ، وسيرهم التي يستدل العامل بها في أموره ، ويتدبرها ويتفكر فيها ، فينتفع بما قالوه ، وما ينقل عنهم من المحاسن دنيا وأخرى »[2] .

وقد اهتم العلماء بهذا العلم ، ورووا الأخبار رواية شفوية ، ثم جاء التدوين للتاريخ من منتصف القرن الثاني الهجري ، كما يؤرخ لذلك الإمام الذهبي فيقول : « في سنة ثلاث وأربعين ومئة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير . . وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وقبلَ هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[3] .

وسبق ابن كثير في هذا المضمار التاريخي الإمام الطبري وابن الجوزي وابن الأثير ، وكلهم كتب تاريخاً إسلامياً جمع بين التفسير والتاريخ ، أو بين الحديث والتاريخ ، أو بين الفقه والتاريخ ، وتميز تاريخ ابن كثير في « البداية والنهاية » بالجمع بين التفسير والحديث والفقه والتاريخ .

وحياة ابن كثير في دمشق ، هيأته لكتابة التاريخ ، وحفزته لهذا الإنجاز العظيم تأسياً بشيخيْه المؤرخين : الذهبي والبِرْزَالي ، كما أن عصره الذي عاش فيه ، وهو عصر المماليك[4] تميز بالاهتمام بالتاريخ والتأليف فيه ، يقول الأستاذ محمود رزق سليم : « التاريخ في مقدمة الفنون التي سعدت بالعناية ، ورزقت الرعاية في هذا العصر ، فقد تضافرت الجهود ، وتضاعفت الهمم ، وتنافست العقول والأيدي على إخراج كتب تاريخية حافلة »[5] .

ولا ريب أن للسيرة النبوية أثراً عظيماً في نشأة علم التاريخ الإسلامي وتطوره في اتباع أسلوب المحدثين في جمع الروايات والأخبار[6] ، ولا ريب أيضاً أن ابن كثير كتب السيرة أولًا ، مما حمله

---

(١) التاريخ والمؤرخون العرب (١/ ٦) .
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ؛ للسخاوي (ص : ٤١٨) .
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠) .
(٤) عصر سلاطين المماليك (٣/ ٩٢) .
(٥) لعل البعد عن المنابع الأولى ولد الاهتمام بالتاريخ في هذا العصر ، وما جرى فيه من انتكاسات وانتصارات ، وانقطاع بين الماضي والحاضر ، والسلف والخلف .
(٦) انظر كتابنا « مناهج التأليف في السيرة النبوية خلال القرون الأربعة الأولى » (ص : ٥٨) طبعة دار الكلم الطيب الأولى .

على كتابة التاريخ ووصل السيرة بمبدأ الخليقة ، ووضعها في مجريات التاريخ الإسلامي العام .

ويبقى الحافظ ابن كثير مؤلِّفاً متفرداً عن غيره من المؤرخين ومتميزاً بهذه الخاتمة التي أنهى بها كتابه ، فكان منطقياً ومنسجماً مع اسم الكتاب حيث كان حقاً تأريخاً لبداية البشرية ، وتأريخاً لنهايتها في آن واحد ومؤلَّف واحد .

١ ـ المبتدأ وقصص الأنبياء :

ظهرت شخصية ابن كثير العلمية المتكاملة في هذا القسم من البداية والنهاية ، وهو متبع غير مبتدع في هذه البداءة للعلماء المصنفين قبله ؛ حيث يبدأون بالتأريخ لخلق الكون والسماوات والأرض ، ثم ينتقلون لخلق آدم ومن جاء بعده من الرسل .

ومن المؤكد أن تصنيفه لكتابه « تفسير القرآن العظيم » ، وإحالاته المتكررة له جعل الطريق ممهَّداً إلى كتابة « المبتدأ وقصص الأنبياء » ، كما جلَّى أبوابه وفصوله ، ومعالمه الثقافية ، ومستنداته الشرعية ؛ متضافرة ومتكاملة .

فبدأ بقوله الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

ويقوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

يُفسِّر القرآن بالقرآن ، وبالأحاديث المأثورة ، وبأقوال الصحابة ، ويُحرِّم التفسير بالرأي المحض ، ويصدر عن أشهر كتب التفسير المتقدمة والمطوَّلة بتأويلات موثَّقة وناضجة ، ويَرِدُ دواوين المحدِّثين ، ويدرس الأسانيد ، ويُميِّز الصحيح والحسن من الأحاديث عن الضعيف والموضوع . ويكشف عن الإسرائيليات ، ويقسمها إلى ثلاثة أقسام : ما يوافق الكتاب والسنة ؛ فلا حاجة له ، وما يُعارض الكتاب والسنة فهو مردود ، وما لا يُصدقه الكتاب والسنة ولا يكذبه فتجوز روايته للاعتبار . ويتوقف ملياً مع كل حكم فقهي ، حتى ينسى في بعض الأحيان أنه مؤرخ لا فقيه . وهو في كل ذلك حاضر بذهنه الوقّاد ، وثقافته الشاملة ، ينقد ويردُّ ويُرجح وينتقي ، ويُقارن الثابت في القرآن الكريم مع ما ورد في الكتب السماوية ، ويوضح ما طرأ على هذه الكتب من تغيير وتبديل ، ويستهجن من أهل الكتاب العصبية للباطل ، والتمسُّك به مع ظهور فساده وضلاله .

ويُلخِّص الحافظ ابن كثير هذا القسم في مقدمة « البداية والنهاية »[1] فيقول : « فهذا كتابٌ أذكر فيه ـ بعون الله وحسن توفيقه ـ ما يسَّره الله تعالى بحوله وقوته من مبدأ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي ، والسماوات والأرض وما فيهنَّ ، وما بينهنَّ من الملائكة والجانّ والشياطين ، وكيفية

---

(١) انظر البداية والنهاية (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٤) .

خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية ، حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبيّنا محمد ﷺ . . »[1] .

● وفي طبعتنا الجديدة جاء هذا القسم موزعاً على جزأين كما يلي :

١ ـ القسم الأول (المبتدأ وقصص الأنبياء	
الجزء	المحتوى
الجزء الأول (١)	مبدأ الخلق ـ الله خالق كل شيء ـ صفة خلق العرش والكرسي ـ اللوح المحفوظ ـ خلق السماوات والأرض ـ خلق الملائكة ـ خلق الجان وقصة الشيطان ـ خلق آدم . قصة إدريس ـ نوح ـ هود ـ صالح ـ إبراهيم ـ إسماعيل ـ إسحاق ـ إسرائيل ـ يوسف ـ أيوب ـ ذي الكفل ـ أصحاب الرس ـ قوم يس ـ يونس .
الجزء الثاني (٢)	قصة موسى ـ يوشع ـ الخضر وإلياس ـ حزقيل ـ اليسع ـ شمويل ـ داود ـ سليمان ـ زكريا ويحيى ـ عيسى أخبار الماضين : ذي القرنين ـ يأجوج ومأجوج ذكر أخبار العرب : قصة سبأ ـ قصة ربيعة .

٢ ـ السيرة النبوية :

وفي هذا القسم الثاني من « البداية والنهاية » يشتد ساعد ابن كثير ، ويسيل مداد قلمه ، فيكتب وكأنه يغرف من بحر . وهو اختصاصي في السيرة ، كتبها مبسوطة[2] ومختصرة ، وموارد السيرة عنده : القرآن أولاً ، والسُّنة ثانياً ، وكتب السيرة والمغازي ثالثاً ، وكتب الدلائل والشمائل رابعاً .

وحضور شخصية المفسر الألمعي في جميع أبواب السيرة وفصولها ، لا يقل عنه حضور شخصية المحدث الصيرفي وهو يوازن بين الروايات ، ويعرض لفنون تطبيقية ، من علوم الحديث متناً وإسناداً ، رواية ودراية .

كما أن وقائع السيرة لا تصرفه عن الاستطرادات الفقهية ، والتأصيل للقواعد الفقهية

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٧) .

(٢) أشار إلى ذلك الحافظ في تفسيره (٣/ ٤٧٨) فقال في قصة غزوة الخندق « وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً » .

والأصولية ، والاستدلال والانتصار لمذهبه الشافعي في أدق الأحكام والفروع ، وكأنه يكتب للمختصين في علوم التفسير والفقه والحديث ! وهو مع هذا كله يكتب التاريخ ! .

ومما انفرد به الحافظ ابن كثير في السيرة ؛ أنه أضاف كتابين : هما « الشمائل » و « دلائل النبوة » وكان قد أشار إلى إضافة كتابين آخرين في « الخصائص » و « الفضائل » ولكنه لم يفعل .

وقد كتب في المقدمة : « فنذكر سيرته ـ ﷺ ـ كما ينبغي ، فتشفي الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل »[1] .

وقد جاء محتوى هذا القسم موزعاً على أربعة أجزاء ، كما يلي :

٢ ـ القسم الثاني (السيرة النبوية)	
الجزء	المحتوى
الجزء الثالث (٣)	الحوادث زمن الفترة : تجديد حفر زمزم ـ نذر عبد المطلب ـ تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة . السيرة النبوية : المولد السنة الأولى من الهجرة ـ نهاية سرية عبيدة بن الحارث
الجزء الرابع (٤)	بداية السنة الثانية من الهجرة كتاب المغازي ـ ذكر ما كان من الأمور الحادثة سنة ٩ للهجرة .
الجزء الخامس (٥)	كتاب الوفود الواردين إلى رسول الله ﷺ ـ حج النبي ﷺ ـ وفاته ـ زوجاته وأولاده ـ إماؤه ـ خدَّامه ـ كتَّاب الوحي ـ آثار النبي ﷺ ـ ذكر أفراسه ومراكبه .
الجزء السادس (٦)	متعلقات السيرة : شمائله ﷺ ـ دلائل نبوَّته .

٣ ـ تاريخ الإسلام :

ويشتمل على :

أ ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية (١١ ـ ١٣٢ هـ) .

ب ـ الخلافة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) .

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٧) .

ج ـ دولة المماليك (٦٥٦ ـ ٧٦٨ هـ) .

وهذا القسم الثالث من « البداية والنهاية » من أوسع الأقسام زمناً ، وأعظمها حجماً ، وأغزرها مادة ، مليء بالحوادث والحروب الخارجية والداخلية ، والفتن الواقعة على المسلمين .

حفظ للمسلمين تاريخ ثمانية قرون ، وما اشتملت عليه من ثقافات متنوعة من الحديث والأدب والشعر والحكمة ، وخبرات العلماء وتجارب الأمم .

ويستوقفنا القرن الأول الذي جمع الحافظ ابن كثير مادته التاريخية من دواوين المحدثين وكتب التاريخ القديمة التي لم تصل إلينا مطبوعة ، وآراء الحافظ ابن كثير وتعليقاته حاضرة وظاهرة تثري الموضوعات المتنوعة ، وتظهر الحق وتكشف الخطل ، وتحرك العواطف المعبرة عن مواقف أهل السنة والجماعة .

اتبع طريقة الحوليات ، وذكر الحوادث على السنين ، وكل سنة موزعة إلى قسمين ، فيقول أولًا : ثم دخلت سنة كذا ، ويذكر الحوادث والحروب الخارجية والفتن الداخلية ، ثم يقول ثانياً : من توفي فيها من الأعيان .

● ويلاحظ أن نظام الحوليات يقطع الحادثة عند انتهاء السنة ، فلا يعرضها كاملة ومستوفاة في سنة وقوعها ، كما أنه في العصر العباسي زاد اهتمامه بذكر الحوادث الطبيعية من الزلازل والأمراض والأوبئة والمجاعات ، وغلاء الأسعار . ولم يسلم من ذكر الغرائب ، واهتم بأخبار القضاة وتعيينهم وعزلهم منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ) ، وبذكر المدارس وأخبار رؤسائها ومدرسيها منذ عصر الوزير نظام الملك (٤٥٦ ـ ٤٨٥هـ) .

● ويذكر في الوفيات تراجم الأعلام والأعيان من العلماء والمحدثين والشعراء والأدباء والمؤرخين والأمراء والسلاطين والخلفاء ، وكل من له أثر أو شهرة في المجتمع ، وهو بهذا الذكر المطول أو المختصر ينصفهم ويحفظ ذكرهم وآثارهم ، ولكنه من حيث الشكل يقطع التسلسل التاريخي ومجريات الحوادث والوقائع .

● يعتمد المصادر التاريخية التي سبقته أو عاصرته ، ويختصر ، ويصوغ الحوادث بالمعنى ، ويُحيل إلى الأصل والمصدر تخلصاً من الإطالة والإملال ، ويؤرخ عصره عن قرب ومشاهدة ، ويقدم للأجيال بعده صورة صادقة عن القرن الثامن الذي عاش عمره فيه .

وجاء محتوى هذا القسم موزعاً على عشرة أجزاء ، كما يلي :

٣ ـ القسم الثالث (تاريخ الإسلام)	
الجزء	المحتوى
الجزء السابع (٧)	سنة إحدى عشرة من الهجرة ـ الخلفاء الراشدون ـ خلافة الحسن بن علي ـ سنة ٤٠هـ
الجزء الثامن (٨)	خلافة معاوية ـ سنة ٤١هـ سنة ٦٥هـ ـ ترجمة مروان بن الحكم
الجزء التاسع (٩)	خلافة عبد الملك بن مروان ـ وفيات سنة ٦٥هـ وفيات سنة ١٠٠هـ
الجزء العاشر (١٠)	دخلت سنة ١٠١هـ . وفيات سنة ٢٠٠هـ .
الجزء الحادي عشر (١١)	دخلت سنة ٢٠١هـ وفيات سنة ٣٠٠هـ .
الجزء الثاني عشر (١٢)	دخلت سنة ٣٠١هـ وفيات سنة ٤٠٠هـ .
الجزء الثالث عشر (١٣)	دخلت سنة ٤٠١هـ وفيات سنة ٥٠٠هـ .
الجزء الرابع عشر (١٤)	دخلت سنة ٥٠١ هـ وفيات سنة ٦٠٠ هـ .
الجزء الخامس عشر (١٥)	دخلت سنة ٦٠١ هـ وفيات سنة ٧٠٠ هـ .
الجزء السادس عشر (١٦)	دخلت سنة ٧٠١ هـ وفيات سنة ٧٦٨ هـ .

وقد شاع بين بعض الباحثين أنَّ تاريخ ابن كثير ينتهي عند سنة ٧٣٨هـ بسبب إشارة للمؤلف في هذه السنة نصها : « كان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وسبعمئة » ، وهي إشارة إلى انتقائه من تاريخ شيخه علم الدين البِرْزالي الذي انتهى إلى هذه السنة ، ذلك أن عمدة ابن كثير في المدة ٦٦٥ ـ ٧٣٨هـ كانت على ما انتقاه من هذا التاريخ الذي ذيّل به مؤلفه على تاريخ أبي شامة وسماه « المقتفي لتاريخ أبي شامة » .

والحق الذي لا مراء فيه أن ابن كثير ظل يكتب الحوادث والوفيات في تاريخه إلى شهر وفاته

شعبان سنة ٧٧٤هـ ، وحينما كف بصره في أخريات أيامه كان يملي على ولده عبد الرحمن ، وأدلة ذلك صريحة ناصعة الدلالة من أبرزها :

١ ـ ظهور ذاتية المؤلف في كثير من الحوادث والتراجم لما بعد سنة ٧٣٨هـ وتصريح المؤلف باسمه .

٢ ـ تصريح العلماء الذين جاؤوا بعده واستفادوا من كتابه بالنقل منه في عشرات المواضع ، لاسيما المقريزي ، وابن حجر ، والسخاوي .

٣ ـ تصريح العلماء الثقات بأن ابن كثير أملى من تاريخه إلى شهر وفاته وهو شعبان من سنة ٧٧٤ ، قال السخاوي في حوادث سنة ٧٧٤ من كتابه « وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام » : « وفي أثناء شعبانها انتهى تاريخ العماد ابن كثير ، وكان من حين ضرره وضَعْفه يملي فيه على ولده عبد الرحمن » ، فهذا نص قاطع لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ولا يشك عاقل بأن السخاوي كان قد اطلع على نسخة من « البداية » إلى هذا التاريخ ، بدلالة نقله منه في سنتي ٧٧٣ و٧٧٤هـ ، فضلاً عن نصوص أخرى ذكرها المؤرخون أمثال الحافظ ابن حجر وغيره .

على أنَّ الذي وصل إلينا إلى سنة ٦٦٨هـ ، وقد تلاعب في هذا القسم النساخ والتلاميذ . فأضافوا إليه أشياء من عندهم ، فعسى أن نقف في قابل الأيام على نسخ أكثر دقة وإتقاناً لهذا القسم منه ، لكن المحقق والمراجع بذلا جهداً في تصفيته .

٤ ـ النهاية (ذكر الآخرة وأحوالها . .) :

وفي هذا القسم الأخير من « البداية والنهاية » يجد ابن كثير نفسه من جديد ، وتسعفه صفة الحافظ المحدث الجهبذ في ختم الكتاب بالنهاية ، حيث يسرد أهم أحاديث الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة ، ونهاية الدنيا ، وينتقل بعدها إلى استعراض حوادث الآخرة ، من النفخ في الصور مرتين ، مرة لقيام الساعة ومرة للبعث والنشور ، وما يجري في عرصات القيامة من أهوال ، وحساب ، وميزان ، وصحف ، وصراط ، وجنة أو نار .

وما أعظمها من نهاية مكملة للدنيا موفية لها ، اعتقدها الحافظ ابن كثير بكل جوارحه ، ويعتقدها كل مؤمن صادق ، ويشعر ببرد اليقين عندما يتحقق الوعد الحق للمؤمنين الأخيار ، والوعيد الصادق للكفار الأشرار ، ويتنعم الأتقياء الأنقياء في جنة الله الخالدة ، ويتقلب الضالون الخاطئون في نار جهنم خالدين فيها أبداً .

وإذا رجحت شخصية ابن كثير المفسر في مبدأ الخليقة ، فإن شخصية المحدث هي الراجحة والظاهرة في النهاية ، حيث النصوص الحديثية متلاحقة ومتواصلة ، ومع ذلك فإن العلامة ابن كثير لا تغيب عنه النصوص القرآنية ، بل هو يستحضرها ، ويوظفها في المشهد الأخروي المعروض ،

وبخاصة في مشاهد يوم القيامة ، وختامها بالمصير إلى الجنة وصفاتها الربانية المحببة ، أو النار وصفاتها الإلهية المرعبة .

ويشير ابن كثير إلى هذا القسم الأخير في المقدمة فيقول : « ولنذكر الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة ، ثم البعث والنشور ، وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك ، وما في ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان ، وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلّق به ، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة ، والأخبار المنقولة والمقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام »[1] .

وجاء محتوى هذا القسم في الطبعة الجديدة كما يلي :

٤ ـ القسم الرابع (النهاية)	
الجـــزء	المحتـــوى
الجزء السابع عشر (١٧)	الفتن والملاحم ـ أشراط الساعة ـ النفخ في الصور ـ أهوال يوم القيامة ـ صفة الجنة ـ صفة النار .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٨) .

ثانياً : منهج الكتاب :

إن المتتبع لكتاب « البداية والنهاية » ابتداء بمقدمة المؤلف وانتهاء بالخاتمة في الجزء السابع عشر ؛ لا يجد منهجاً واحداً قد التزمه المؤلف ، سوى موضوع واحد هو « الإسرائيليات » . وعذره في عدم تحديد معالم منهجه ضخامة الكتاب ، وتعدد موضوعاته ، وكثرة مصادره ، وامتداد أزمنته وتعاقب قرونه .

ـ ففي القسم الأول (مبدأ الخلق وقصص الأنبياء) كان منهجه جمع الروايات من كتب التفسير والحديث ، واختيار ما يتفق مع ثقافته النقدية العالية في علم مصطلح الحديث وتراجم الرجال ، واستبعاد ما يتعارض مع الكتاب والسنة من الإسرائيليات وغيرها من الأخبار الضعيفة والمتهافتة .

ـ وفي القسم الثاني (السيرة النبوية ، والخلفاء الراشدون) كان منهجه الاعتماد على رواة السيرة الأوائل ، وما سجّله ابن إسحاق والطبري وغيرهما ، ولكنه بقيت شخصيته في الاختيار والنقد ظاهرة ، يدرس الأسانيد ، ويتكلم على الرواة جرحاً وتعديلاً ، ولا يهمل المتن[1] إذا ظهرت عليه علائم الغرابة والنكارة .

ـ أما القسم الثالث (التاريخ الإسلامي العام) فهو مشتمل على عشرة أجزاء ، ومجموعة كتب ومصادر ، فلا عجب أن نجد تعدداً في المناهج واختلافاً في اللغة ، وتبايناً في الاختصار والتطويل ، والتقديم والتأخير .

وفي القسم الرابع (ذكر الآخرة وأحوالها) يعود حشد الروايات الحديثية ، ونقدها وتمحيصها ، واختيار الصحيح والحسن ، وبيان الضعيف منها ، وتظهر شخصية الحافظ ابن كثير محدثاً أولاً ومفسِّراً ثانياً ، وعالماً مستحضراً للكتب المتقدمة في علوم التفسير والحديث .

ونستطيع بعد التفحص الدقيق لهذه الأقسام وموضوعاتها أن نستنتج النقاط المنهجية التالية مع أمثلتها :

١ ـ الإسرائيليات : وهذا الموضوع هو الشرط الوحيد الذي اشترطه ، والمنهج الوحيد الذي رسمه[2] ، وأوضحه في المقدمة وخلال الجزء الأول والثاني من الكتاب ، بل والتزم به إلى حدٍّ بعيد ، فقال في المقدمة :

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٤٥٠) وكيف أثبت أن الكتاب بإسقاط الجزية عن اليهود مزورٌ وباطلٌ .

(٢) قال الندوي في كتابه « الإمام ابن كثير » (ص : ٣١٥) : شغل ابن كثير موضوع الإسرائيليات فنسي في بيان منهجه ذكر سواها . . » .

« ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله ، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو القسم الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب . . »[1] .

وقال في باب ما جاء في سبع أرضين : « وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه ، حتى آدم كآدمكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، فهذا ذكره ابن جرير مختصراً ، واستقصاه البيهقي في « الأسماء والصفات » ، وهو محمولٌ إنْ صحَّ نقله عنه ، على أنه أخذه ابن عباس عن الإسرائيليات ، والله أعلم »[2] .

وقال في باب ذكر ما يتعلق بخلق السماوات : « وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يعلِّماها الاسم الأعظم ، فعلَّماها ، فقالته ، فرُفعت كوكباً إلى السماء ، فهذا من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار »[3] .

ورغم ذلك فإن ابن كثير ـ رحمه الله ـ لم يسلم من إيراد بعض الإسرائيليات المحتوية على مبالغات وخرافات ، وتناقض مع القرآن والسنة ، وقد حمله على إيرادها شهوة الجمع ، ودافع التقليد لمن سبقه من المؤلفين .

٢ ـ ذكر المصدر : الذي يستقي منه أخباره ، وهذه أمانة علمية ، وقد سمعنا من شيوخنا ـ رحمهم الله ـ أن بركة العلم في أمانة النقل وصدق العزو . فالحافظ ابن كثير يختصر بعض المعارك ويشير إليها موسعة في ابن جرير الطبري[4] ، ويرد المنتظم لابن الجوزي ، ويصرح بذلك في مواضع متعددة[5] ويرد الكامل[6] لابن الأثير ويصرح بذلك أيضاً .

٣ ـ النقد : لأصحاب الكتب من الكبار ، وهذا النقد يدل على شخصية مستقلة ، وعقل حرّ ، وعدم السكوت عن إظهار الحق . فنراه يُظهر رأيه في المختار الثقفي ، ونقده للطبري[7] في شأنه ، وينتقد ابن خلكان[8] بمرارة لموقفه المريب من ابن الراوندي الزنديق ، كما ينتقد شيخه الذهبي[9] في اغتراره بصاحب العقد الفريد .

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٨) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٩) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٦٣) .
(٤) المصدر السابق (٧/ ٩٢) .
(٥) المصدر السابق (١١/ ٣٢٥) .
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ١٥٠) .
(٧) المصدر السابق (٩/ ٢٤) .
(٨) المصدر السابق (١١/ ٤٠٦) .
(٩) المصدر السابق (١٠/ ٢٣٦) .

٤ ـ الفقه : ويدلُّ على تعدد جوانب ثقافته ، ولم نتوقف عند بروز خبراته المدهشة في علوم التفسير والحديث، فهذه طبيعية في مقدمات الكتاب ونهايته، أما أن تطغى شخصية العالم الفقيه على المؤرخ ، فهذا منهج خاص يستحق التسجيل ، والتمثيل . وينظر في ذلك تحقيقه في من ولي تزويج أم سلمة رضي الله عنها[١] ، وتحقيقه حكم أكل لحوم الحمر الأهلية[٢] ، وبيان حكم نكاح المتعة[٣] .

٥ ـ التاريخ الحولي : والحول السنة ؛ اعتباراً بانقلابها ، ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿ مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

وأسلوب التاريخ الحولي ظهر عند المؤخين المسلمين منذ مدة مبكرة ، في المئة الثانية للهجرة ، وهذا يعني أنه ظهر في أوليات التدوين التاريخي ، فقد ذُكِرَ أنَّ الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ قد ألَّف تاريخاً على السنين[٤] ، وألف ابن سعد كاتب الواقدي ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ تاريخاً على السنين أيضاً[٥] ، ووصل إلينا تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ[٦] .

والتاريخ الحولي المرتب على السنين مرتبط بتاريخ الهجرة النبوية ، ولذلك فإن التأثيرات الأجنبية فيه تكاد أن تكون معدومة ، ومن ثم فهو مما اهتمَّ به المؤرخون المسلمون .

وكانت التواريخ الحولية الأولى ، ومن أعظمها تاريخ الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ، تعنى بالحوادث التاريخية بالدرجة الأولى ، وقلما أعطت أهمية كبيرة ومتميزة للتراجم . وقد ظهر تحوّل واضح منذ القرن السادس الهجري في هذا النمط من الكتب التاريخية لا سيما عند المؤرخين المحدِّثين حيث زاد اهتمامهم بذكر التراجم ، ويبدو ذلك واضحاً في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ حيث أدخل تقسيماً واضحاً بين الحوادث والوفيات ، فجعل التراجم تعقب حوادث كل سنة . وقد ظلت هذه الطريقة تؤثر في أطر الصور الحولية للمؤلفات التاريخية التي جاءت بعده ، ومنها كتاب البداية لابن كثير[٧] .

٦ ـ الوفيات : ويضعها في نهاية كل سنة تحت عنوان : « من توفي في هذه السنة » وقد يطيل

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٠) .
(٣) المصدر السابق (٤/ ٤١٢) .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء (٦/ ٢٧٩٢) (بتحقيق العلامة إحسان عباس) .
(٥) تنظر مقدمة الدكتور بشار عواد معروف لتاريخ مدينة السلام (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) ففيها تفصيل .
(٦) حققه الدكتور أكرم العمري ونشر غير مرة .
(٧) تنظر تفاصيل ذلك في كتاب الدكتور بشار عواد معروف : الذهبي ومنهجه (ص ٣٠٣) فما بعد (القاهرة ١٩٧٦م) .

في الترجمة ، وقد يختصر ، متبعاً في ذلك المصدر الذي يعتمد عليه ، وقد خالف الترتيب في الجزء الأخير من تاريخه ، فأصبح بدءاً من سنة (٧٣٨) يذكر الوفيات مع الحوادث .

ولئن انتقد ابن خلكان[١] بإطالة تراجم الشعراء واختصار تراجم العلماء ؛ فإنه لم يسلم من هذا المحذور ، وقد أطال في ترجمة الفرزدق[٢] وأبي نواس[٣] ، وغيرهما من الشعراء .

٧ ـ قوة الشخصية وظهورها : عند نهاية كل رواية ، يناقش ابن كثير ويرجح ، أو يحيل إلى كتبه ، وبخاصة في التفسير والأحكام والطبقات ، ويستفيد من حفظه المتين وذاكرته القوية ، ويسخر من الروايات الخرافية المكذوبة ، فيثبت أن حديثاً[٤] من أفراد البخاري يذهب إلى تقديم الإسراء والمعراج على وفاة عمه ﷺ أبي طالب ، وزوجه خديجة رضي الله عنها ، وأن حديثاً[٥] مكذوباً وموضوعاً يذكر أن القمر دخل في كم رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ١٠٨) .
(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١١٠) .
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٥٣٠) .
(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٤٩) .
(٥) المصدر السابق (٣/ ٣٦٠) .

ثالثاً : الأسلوب :

يتميز أسلوب الحافظ ابن كثير في كتاب « البداية والنهاية » عن غيره من الكتب ، باختيار التعبير السهل الواضح المشوق ، والبعد عن المحسنات البديعية ، والزخارف اللفظية ، وكل ما يتصل بالتكلف ، والاحتفال بأناقة الشكل ، مع الالتزام بسلامة المعنى وصحة العبارة . وهذا الاختيار للأسلوب العلمي المبسط الذي يوصل المعنى التاريخي بأوضح لفظ وأبسط تعبير ، يدلُّ على سلامة الاختيار والتوفيق في تحقيقه ، كما يثبت قوة المؤلف في ثقافته الأدبية وثروته اللغوية ، نلمحها في البداية والنهاية أحياناً ، وتظهر في باقي كتبه ـ كالتفسير ـ بكل وضوح .

يقول ابن العماد : « يشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر »[١] ويقول الشرباصي : « تشغله الفكرة والمعاني عن التكلف في الأسلوب والمباني »[٢] .

ومع التنوع الواضح في أجزاء الكتاب وأقسامه ؛ تبعاً لتنوع المصادر والأمكنة والأزمنة كما أشرنا في « المنهج » ، فإننا نستطيع أن نتلمس صوراً ومواقف ومشاعر لصيقة بأسلوب المؤلف وهويته ، وصدق من قال : الأسلوب هو الرجل :

١ ـ البعد عن تكلف السجع : وإذا سجع ورادف بين الجمل والكلمات ؛ فإنه لا يطيل ، وأقرب مثال على ذلك خطبة « البداية والنهاية » إذ يقول : « الحمد لله الأول والآخر ، الباطن الظاهر ، الذي هو بكل شيء عليم ، الأول فليس قبله شيء ، الآخر فليس بعده شيء ، الظاهر فليس فوقه شيء ، الباطن فليس دونه شيء ، الأزليّ القديم الذي لم يزل ولا زوال ، يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصمَّاء ، في الليلة الظلماء . . . »[٣] .

وحول بدعة خلق القرآن يقول : « وهذه بدعة صلعاء ، شنعاء ، عمياء ، صمَّاء ، لا مستند لها من كتاب ولا سنة ، ولا عقل صحيح ، ولا نقل صريح . . بل القرآن والسنة والعقل الصحيح على خلافها »[٤] .

وحين قصد صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام سنة (٥٧٠هـ) يقول : « وذلك حين مات سلطانها

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٠٢) .
(٢) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ٣٢٣) نقلاً عن مجلة الحج .
(٣) البداية والنهاية (١/ ٥) .
(٤) المصدر السابق (١١/ ١٢٤) .

نور الدين محمود بن زنكي ، وأخيف سكانها ، وتضعضعت أركانها ، واختلفت حكامها ، وفسد نقضها وإبرامها ، قصد لجمع شملها ، والإحسان إلى أهلها ، وأمن سهلها وجبلها ، ونصرة الإسلام ، ودفع الطغام . . »[1] .

٢ ـ لا ينقل حرفياً : وإنما يقرأ الواقعة في مصدره ، ويصوغه بعباراته وألفاظه ، ويضيف ما يجده مناسباً من انتقاداته وتعليقاته . وعندما أراد بعضهم مقارنة ما في البداية والنهاية مع تاريخ الطبري أو غيره ، ظنوا أن ابن كثير لم يرد إلى تاريخ الطبري مباشرة ، وإنما أخذ مادته من مصدر آخر ، وقد أخطأوا في ظنهم ؛ لأنهم لم يتثبتوا من أسلوبه ومنهجه .

وأوضح مثال على ذلك ما كتبه في ترجمة الحلاج[2] ، وما حلَّ ببغداد بعد دخول التتار من خراب ودمار[3] ، وما كتبه من وصف دمشق وبناء مسجدها[4] .

٣ ـ عاطفته الصادقة : في حبِّ الله تعالى ، وحب رسوله ﷺ ، وحب الصحابة جميعاً ومن تبعهم بخير وإحسان ، وكراهيته لأهل الكفر والزيغ والبطلان ، وتأثره بما وقع للمسلمين من فتن واختلاف ، مما أوقف الدعوة والفتوح ، ورد أسلحة المسلمين إلى نحورهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . . ونجد هذه العاطفة الصادقة تظهر عند ارتداد جبلة بن الأيهم الغساني ، ويصفه بأنه حيوان[5] ! ، كما تبدو عاطفته عارمة عند مقتل ابن الزبير ، ووصفه للحجَّاج القاتل بالمبير ، ولابن الزبير المقتول بأمير المؤمنين[6] .

وينقد بحرارة استدلال الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، ويستشهدون بقول الأخطل :

قد استوى بشرٌ على العراق   من غير سيف ودمٍ مهراق

ويقول : ولا دليل فيه ، والبيت للأخطل ، وهو نصراني[7] .

ولا ريب أن الأسلوب السهل الممتنع ، والخاص بالحافظ ابن كثير ، والمتجلي في « البداية والنهاية » ، والعاطفة الصادقة والمخلصة في الانتصار للفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة ، كل ذلك جعل هذا الكتاب مباركاً ومعاصراً في آن واحد ، وكأن مؤلفه كتبه للأجيال القادمة بلغتها وأسلوبها ومشاعرها !! .

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٣١) .
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٤٠) .
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٣٣٨) .
(٤) المصدر السابق (١٠/ ٣٣٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٩٠) .
(٦) المصدر السابق (٨/ ١٠٥ و ١٠٨ و ١٠٩) .
(٧) المصدر السابق (٩/ ١٣٨) .

رابعاً : الموارد والمصادر :

عني المؤرخ ابن كثير بجميع المصادر القديمة المتوافرة بين يديه في القرن الثامن الهجري ، وجمع في تاريخه بين أنواع العلوم الإسلامية المتعددة ، وموارده الأساس القرآن الكريم ، وكتب التفاسير القديمة ، وكتب الحديث ، وكتب التراجم ، وكتب المغازي والسِّير والتاريخ . مما يدل على تبحر وسعة اطلاع ، وسلامة منهج ، وقيمة أفكار وموضوعات ، وقد أحسن ابن كثير ـ رحمه الله ـ وأجاد ، وأتى بالمراد ، وعرَّفنا على كتب أمهات ، وبعضها لم يصلنا حتى الآن .

على أننا ينبغي أن نشير إلى أن الحافظ ابن كثير كان يتتبع المصادر الأصلية المعاصرة فيختصرها ، وربما يقتصر عليها في كثير من الأحيان ، من نحو عنايته البالغة بالنقل من تاريخ الطبري ، والمنتظم لابن الجوزي لاسيما في المدة التي عاصرها ، ثم بعده على تاريخ مؤرخ العراق تاج الدين ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ ، وتاريخ شيخه البرزالي الذي كاد أن يقتصر عليه في المدة التي تناولها ٦٦٥ ـ ٧٣٨هـ ونحو ذلك .

وكان من المعروف بين كثير من المؤرخين المسلمين عند النقل من مصدر معين أن ينقل مصادره أيضاً ، فيصبح من العسير في بعض الأحيان معرفة المصادر الحقيقية التي اطلع عليها المؤلف .

ومع كل ذلك فإننا سنحاول في هذه المقدمة المختصرة المعتصرة أن نضع بين يدي القارئ أسماء هذه الموارد[1] والمصادر ، وأسماء مؤلفيها ، وقد قسَّمناها إلى مواضيع موحدة ، ورتبناها حسب أهميتها ، وورود المؤلف إليها :

أ ـ كتب التفسير :

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) .
٢ ـ تفسير ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) .
٣ ـ تفسير السدي الكبير (ت ١٢٧ هـ) .
٤ ـ تفسير عبد الرزاق (ت ٢١١ هـ) .
٥ ـ تفسير ابن مردويه (ت ٤١٠ هـ) .
٦ ـ تفسير شجاع بن مخلد (ت ٣٥٥ هـ) .
٧ ـ تفسير محمد بن الحسن النقاش (ت ٣١٥هـ).
٨ ـ التعريف والإعلام ؛ للسهيلي (ت ٥٨١هـ).
٩ ـ تفسير القاضي بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥ هـ).
١٠ ـ تفسير ابن عطية (ت ٣٨٣ هـ) .
١١ ـ تفسير أبي عيسى الروياني (ت ٣٨٤ هـ) .
١٢ ـ تفسير القاضي الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) .
١٣ ـ تفسير فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) .
١٤ ـ تفسير القرطبي (ت ٦٧١ هـ) .

---

(١) انظر هذه الموارد مفصَّلة مع بيان أماكن ورود ابن كثير عليها في كتاب « الإمام ابن كثير » للندوي (ص : ١٦٠) وما بعدها .

ب ـ الكتب السماوية :

١ ـ ترجمة التوراة . ٢ ـ ترجمةالإنجيل .

ولم يعتمدها ابن كثير مصادراً لأخباره، وإنما أوردها ليثبت ما طرأ عليها من تحريف وتبديل.

ج ـ كتب الحديث ورجاله :

١ ـ الموطأ ، للإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) .
٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).
٣ ـ صحيح الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) .
٤ ـ صحيح الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) .
٥ ـ المستدرك للحاكم (ت ٤٠٥ هـ) .
٦ ـ صحيح ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ) .
٧ ـ سنن أبي داود (ت ٢٧٥ هـ) .
٨ ـ سنن ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) .
٩ ـ سنن النسائي (ت ٣٠٣ هـ) .
١٠ ـ سنن الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) .
١١ ـ الجامع الكبير ؛ للترمذي (ت ٢٧٩ هـ) .
١٢ ـ مسند أبي داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) .
١٣ ـ مسند الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) .
١٤ ـ مسند أبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) .
١٥ ـ مصنف ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) .
١٦ ـ معجم الطبراني الكبير (ت ٣٦٠ هـ) .
١٧ ـ معجم الصحابة ؛ للبغوي (ت ٣١٧ هـ) .
١٨ ـ الكامل ؛ لابن عدي (ت ٣٦٥ هـ) .
١٩ ـ أسد الغابة ؛ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) .
٢٠ ـ الاستيعاب؛ لابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) .
٢١ ـ شرح مشكل الآثار، للطحاوي (ت ٣٢١ هـ).
٢٢ ـ الموضوعات ؛ لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
٢٣ ـ تهذيب الكمال؛ لأبي الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ).
٢٤ ـ ميزان الاعتدال ؛ للذهبي (ت ٧٤٨هـ).

د ـ كتب السير والمغازي :

١ ـ سيرة ابن إسحاق[1] (ت ١٥١هـ) .
٢ ـ مغازي موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) .
٣ ـ سيرة ابن هشام (ت ٢١٨هـ) .
٤ ـ الروض الأُنف ؛ للسهيلي (ت ٥٨١هـ) .
٥ ـ مغازي الواقدي (ت ٢٠٧هـ) .
٦ ـ مغازي محمد بن عائذ (ت ٢٣٣هـ) .
٧ ـ طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) .
٨ ـ مغازي الأموي (ت ٢٤٩هـ) .

هـ ـ كتب الدلائل :

١ ـ دلائل النبوة ؛ للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
٢ ـ دلائل النبوة ، لأبي نعيم (ت ٤٣٠هـ) .
٣ ـ دلائل النبوة ؛ لابن حامد (ت ٤٠٣هـ) .
٤ ـ دلائل النبوة ؛ لأبي زرعة (ت ٢٦٤هـ) .
٥ ـ دلائلة النبوة ؛ لابن شاهين (ت ٣٨٥هـ) .
٦ ـ المبعث ؛ لهشام بن عمار (ت ٢٤٥هـ) .

---

(١) من المرجح أن ابن كثير رحمه الله رجع إلى روايات متعددة لسيرة ابن إسحاق ، سواء من طريق مباشر أم بالواسطة ، ولا سيما روايات : البكائي ـ وهي التي اختصرها ابن هشام ـ أو يونس بن بكير ، أو سلمة بن الفضل الأبرش وغيرهم .

٧ ـ الفتن والملاحم؛ لابن عماد الخزاعي (ت ٢٤٨هـ). ٨ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ؛ لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) .

و ـ كتب التاريخ الإسلامي :

١ ـ تاريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ) .
٢ ـ تاريخ دمشق ؛ لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) .
٣ ـ تاريخ الإسلام ؛ للذهبي (ت ٧٤٨هـ) .
٤ ـ سير أعلام النبلاء ، للذهبي (ت ٧٤٨هـ) .
٥ ـ المنتظم ؛ لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) .
٦ ـ الكامل ؛ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) .
٧ ـ مرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ).
٨ ـ كتاب الروضتين ؛ لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ).
٩ ـ البرق الشامي ؛ للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ).
١٠ ـ الجامع المختصر؛ لابن الساعي (ت ٦٧٤هـ).
١١ ـ تاريخ بغداد ؛ للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ).
١٢ ـ وفيات الأعيان؛ لابن خلكان (ت ٦٨١هـ).
١٣ ـ ذيل الروضتين ؛ لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) .
١٤ ـ ذيل مرآة الزمان ، لليونيني (ت ٧٢٩هـ) .
١٥ ـ المقتفى لتاريخ أبي شامة؛ لِلبِرزالي (ت ٧٣٩هـ).

خامساً : طبعات البداية والنهاية :

أ ـ البداية ، ويهمنا الطبعات المشهورة وهي :

١ ـ الطبعة التي أنفقت عليها مطبعة السعادة ، والمطبعة السلفية ، ومكتبة الخانجي ، وطُبعت في مطبعة السعادة بالقاهرة ، نقلاً عن مخطوطة المدرسة الأحمدية بمدينة حلب من الجمهورية العربية السورية ـ عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م في ١٤ مجلداً بدون النهاية . وهي أقدم الطبعات .

٢ ـ طبعة المعارف ببيروت ، بالاشتراك مع مكتبة النصر بالرياض عام ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م في ١٤ جزءاً ضمن ٧ مجلدات ، بدون النهاية ، وأُعيدت تصويراً سنوات متعددة .

٣ ـ طبعة دار هجر ، مكتوب على غلافها : تحقيق الدكتور عبد الله المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية في دار هجر بالقاهرة عام ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م في ٢١ مجلداً مع النهاية . وهي مقابلة على عدد من النسخ المخطوطة .

ب ـ أما طبعات النهاية (الفتن والملاحم) فهي :

١ ـ طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ بتحقيق الدكتور طه محمد الزيني ـ عام ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م في جزأين .

٢ ـ طبعة مكتبة النصر الحديثة بالرياض ، بتحقيق محمد فهيم أبو عبية عام ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م في ثلاثة أجزاء .

٣ ـ طبعة دار الإفتاء بالرياض ، قام بنشرها الشيخ إسماعيل الأنصاري عام ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م في جزأين .

(٤)

ثبت بأجزاء كتاب « البداية والنهاية » وأسماء المحققين لها

الرقم	اسم المحقق	رقم الجـزء
1-	د . محيي الدين ديب مستو	الأول
2-	د . علي أبو زيد أبو زيد	الثاني
3-	مأمون محمد سعيد صاغرجي	الثالث
4-	محمود عبد القادر الأرناؤوط	الرابع
5-	د . رياض عبد الحميد مراد	الخامس
6-	د . محيي الدين ديب مستو	السادس
7-	د . رياض عبد الحميد ومحمد حسان عبيد	السابع
8-	أكرم عبد اللطيف البوشي	الثامن
9-	محمد حسان عبيد	التاسع
10-	مأمون محمد سعيد صاغرجي	العاشر
11-	ياسين محمد السواس	الحادي عشر
12-	إبراهيم عمر الزيبق	الثاني عشر
13-	صلاح محمد الخيمي رحمه الله	الثالث عشر
14-	د . رياض عبد الحميد مراد	الرابع عشر
15-	د . رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد	الخامس عشر
16-	حسن إسماعيل مروة	السادس عشر
17-	الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله	السابع عشر
18-	محمود عبد القادر الأرناؤوط	الفهارس ـ الجزء الأول
19-	أكرم عبد اللطيف البوشي	الفهارس ـ الجزء الثاني
20-	د . رياض عبد الحميد مراد	الفهارس ـ الجزء الثالث

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(٥)

وصف النسخ المخطوطة

ونماذج من صورها

أولًا ـ النسخة الأحمدية :

ورُمز لها بحرف « أ » ، وهي نسخة الأحمدية بمدينة حلب المحمية رقم (١٢١٧) ، والمحفوظة الآن بمكتبة الأسد الوطنية في دمشق الفيحاء باسم « البداية والنهاية » للحافظ ابن كثير ، وتقع في عشرة أجزاء :

١ ـ الجزء الأول : (٢٩٢) ق ـ قياس ٣٠ × ٢١,٥سم في كل صفحة (٢٩) سطراً ، الرقم : ١٤٥٠٨ .

٢ ـ الجزء الثاني : (٢٥٠) ق ـ قياس ٣١ × ٢١,٥سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥٠٨ .

٣ و٤ ـ الجزء الثالث والرابع : (٥٥٦) ق ـ قياس ٢٤,٥ × ١٥سم في كل صفحة (٢٣) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٠ .

٥ ـ الجزء الخامس : (١٧٨) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٩) سطراً ، الرقم : ١٤٥١١ .

٦ ـ الجزء السادس : (٢٣٩) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٢ .

٧ ـ الجزء السابع : (٢٢٤) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٣) سطراً ، الرقم : ١٤٥٣ .

٨ ـ الجزء الثامن : (٢٨٣) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٤ .

٩ ـ الجزء التاسع : (٣٥٦) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٧) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٥ .

١٠ ـ الجزء العاشر : (٢٨٣) ق ـ قياس ٢٩ × ١٩,٥سم في كل صفحة (٢٧) سطراً ، ضمن مجموع ، الرقم : ١٤٥١٦ .

النهاية في الفتن والملاحم : (٢٨٥ ـ ٤٦٦) ق ـ من المخطوط رقم : ١٤٥١٦ ت١ ـ قياس ٢٩,٥ × ١٩,٥ سم في كل صفحة (٢٦) سطراً .

وتنتهي البداية في النسخة الأحمدية بوفيات سنة ٧٣٨هـ .

والنسخة الأحمدية كاملة إلى سنة ٧٣٨هـ ومصححة ، كتبت العناوين ورؤوس الفقرات بالحمرة ، الخط : نسخ معتاد ، لم نجد اسم الناسخ ، أو تاريخ النسخ .

الغلاف ـ مزخرف ـ وفي الصفحة الأولى من الجزء الأول تملكات في سنة ٨٧٤هـ وسنة ٩٢٣هـ ، وتملكات وقراءات غير مؤرخة .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثانياً ـ نسخة برلين :

ورُمز لها بحرف « ب » وهي نسخة محفوظة في مكتبة برلين الوطنية ، تبدأ بصفحة عليها تملكات ، والصفحة الثانية فيها عنوان الكتاب هكذا : الجزء الأول من البداية والنهاية ، للحافظ العلامة الكبير ، عماد الدين ، أبي الفداء ، إسماعيل بن كثير ـ رحمه الله ـ فهرست ما في هذا المجلد . .

وعلى يمين الصفحة ثلاثة أبيات في مدح التاريخ قرأها الناسخ بخط العلامة شمس الدين السخاوي ، نقلاً عن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ، من قول القاضي الأردالي [الطويل] :

إذا علـمَ الإنسـانُ أخبـارَ مـا مضـى ... تـوهمتَـه قـد عـاشَ مـن أوّلِ الـدهرِ
وتحسبُـه قـد عـاشَ أخـرَ عمـرِه ... إذا كان قد أبقى الجميلَ مِنَ الذكرِ
قد عاشَ كلَّ الدَّهرِ مَنْ كان عالِماً ... حليماً كريماً واغتنم أطول العمرِ

وهي نسخة تبدأ بأوائل الجزء الأول ، وتنتهي بوفيات سنة ٧٣٨هـ ، وبهامشها تعليقات ، وكتبت العناوين ورؤوس الفقرات بلون مغاير ، وخطها نسخي قديم ، (٧٨٠) ق ـ قياس ٢٠ × ١٣سم في كل صفحة (٣٠) سطراً ، كتبها محمد بن سلطان بن سعيد البعلي الحنبلي ـ عفا الله عنه بمنه وكرمه ـ ولم نجد تاريخ النسخ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثالثاً ـ نسخة الظاهرية :

ورُمز لها بحرف « ظ » ، وهي نسخة المكتبة الظاهرية سابقاً ، ومحفوظة بمكتبة الأسد الوطنية ، في دمشق المحمية ، برقم : ٦٧٩٧ .

وهي نسخة ناقصة ، تحتوي على (١٥٤) ق ـ قياس ٣١ × ٢٠سم في كل صفحة من (٣١) إلى (٣٣) سطراً ، ومؤطرة بالأحمر والأصفر والأسود ، وكتبت السنون بالمداد الأحمر . كتبها حبيب الله بن قمر الدين ، وتاريخ نسخها ١١٨١هـ ، وخطها نسخي جيد . .

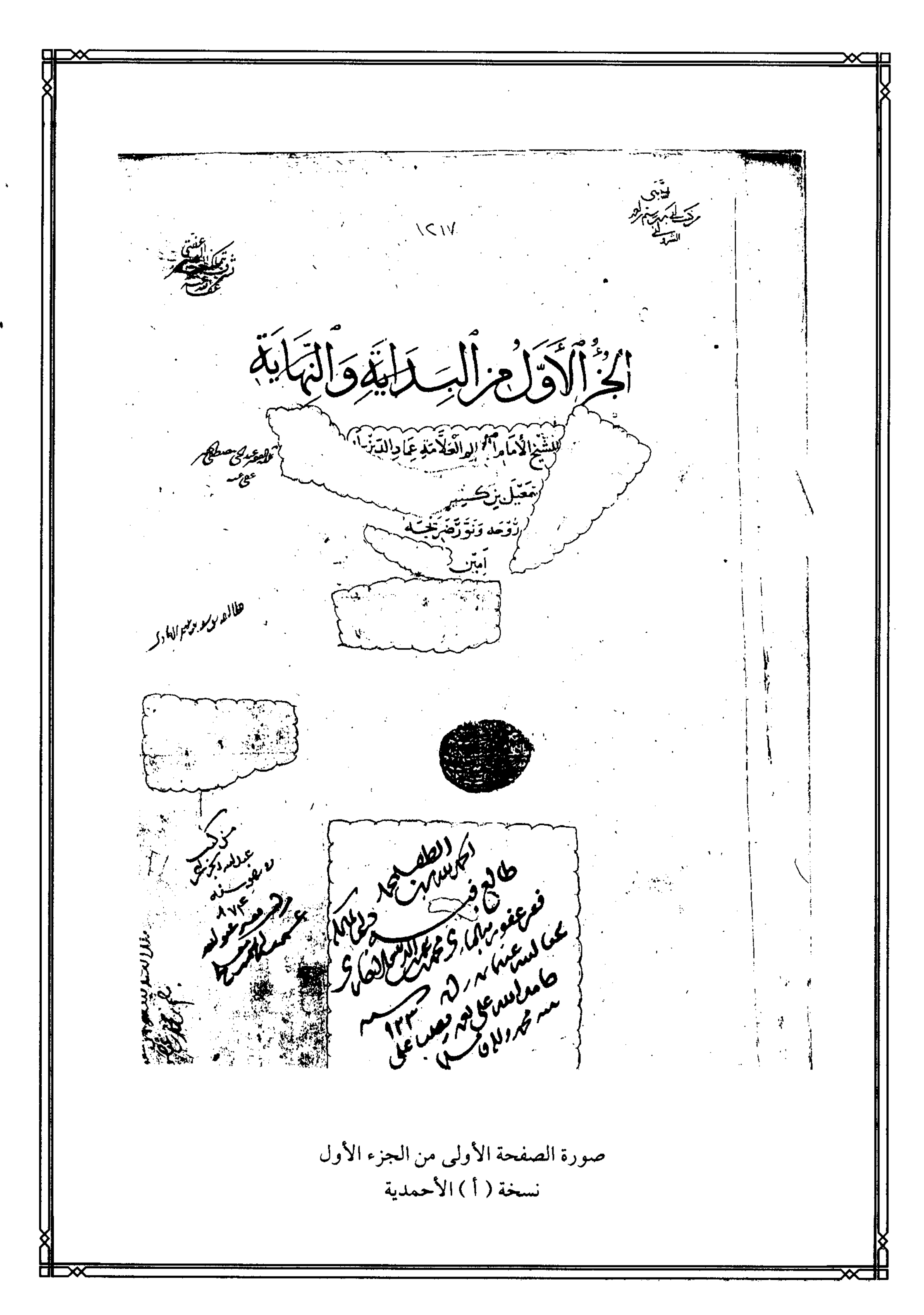
تبدأ بقول المؤلف : عبد الله بن علي « وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبيد الله بن الحسن الأعرج عن ولد جعفر بن أبي طالب » وتنتهي : قال يا هذا شققت عليَّ وضيقت عليها ، ولكن اذهب فتصدَّق بها . آخر المجلد ، والحمد لله وحده . الغلاف ـ مزخرف بالذهب ـ متأثرة بالرطوبة ، مما أدَّى إلى اهتراء أطرافها ، تملكها : أحمد بن إبراهيم بن نصر سنة ١٢٢٧هـ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

رابعاً : نسخة الرباط

وهو مجلد عثر عليه الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف في الخزانة الملكية بالرباط ، يبدأ من خلافة الحسن وينتهي بانتهاء الخلافة الأموية ، وكان يُظن أنه مجلد من تاريخ الإسلام . وقد أفاد منه الدكتور بشار عند مراجعة هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆



صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول

نسخة (أ) الأحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله عليه توكلت

الحمد لله الاول الاخر الباطن الظاهر الذي هو بكل شي عليم الاول فليس قبله شي الاخر فليس بعده شي
الظاهر فليس فوقه شي الباطن فليس دونه شي الازلي القديم الذي لم يزل موجودا موصوفا بصفات
الكمال ولا يزال دايما مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضا ولا انفصال ولا زوال يعلم دبيب النملة
على الصخرة في الليلة الظلما وعدد الرمال وهو العلي الكبير المتعال العلي العظيم الذي خلق
كل شي فقدره تقديرا ورفع السموات بغير عمد وزينها بالكواكب الزاهرات وجعل فيها سراجا وقمرا
منيرا وسوى فوقهن سريرا شرجعا عاليا منيفا متسعا مقببا مستديرا هو العرش العظيم له قوايم
عظام تحمله الملايكة الكرام وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ولهم زجل بالتقديس والتعظيم
وكذا ارجا السموات مشحونة بالملايكة ويفد منهم كل يوم سبعون الفا الى البيت المعمور بالسما السابعة
لا يعودون اليه اخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم ووضع الارض للانام على تيار
الما وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام قبل خلق السما وانبت فيها من
كل زوجين اثنين دلالة للالبا من جميع ما يحتاج العباد اليه في شتايهم وصيفهم ولكل ما يحتاجون اليه
ويملكونه من حيوان بهيم وبدأ خلق الانسان من طين وجعل نسله من سلالة من ما مهين في قرار مكين
فجعله سميعا بصيرا بعد ان لم يكن شيا مذكورا وشرفه بالعلم والتعليم خلق بيده الكريمة ادم ابا البشر
فصور جثته ونفخ فيه من روحه واسجد له ملايكته وخلق منه زوجه حوا ام البشر فانس بها وحدته
واسكنهما جنته واسبغ عليهما نعمته ثم اهبطهما الى الارض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم وبث منهما
رجالا كثيرا ونسا وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعايا وفقرا واغنيا واحرارا وعبيدا وحراير واما واسكنهم
ارجا الارض طولها والعرض وجعلهم خلايف فيها يخلف البعض البعض الى يوم الحساب والعرض على
الحكيم العليم وسخر لهم الانهار من ساير الاقطار تشق الاقاليم الى الامصار ما بين صغار وكبار على مقدار
الحاجات والاوطار وانبع لهم العيون والابار وارسل عليهم السحاب بالامطار فانبت لهم ساير صنوف الزروع
والثمار واتاهم من كل ما سالوه بلسان حالهم وقالهم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار
فسبحان الكريم العظيم الحليم وكان من اعظم نعمه عليهم واحسانه اليهم بعد ان خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل
وانطقهم ان ارسل رسله اليهم وانزل كتبه عليهم مبينة حلاله وحرامه واخباره واحكامه وتفصيل كل شي
في المبدا والمعاد يوم القيمة فالسعيد من قابل الاخبار بالتصديق والتسليم والاوامر بالانقياد والنواهي
بالتعظيم ففاز بالنعيم المقيم وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم والعذاب الاليم
احمده حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يملا ارجا السموات والارضين دايما ابد الابدين ودهر الداهرين
الى يوم الدين في كل ساعة وان ووقت وحين كما ينبغي لجلاله العظيم وسلطانه القديم ووجهه الكريم
واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له ولا نظير له ولا وزير له
ولا مشير له ولا عديد ولا نديد ولا قسيم واشهد ان محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله المصطفى من

خلاصة

صورة الصفحة الثانية من الجزء الأول

نسخة (أ) الأحمدية

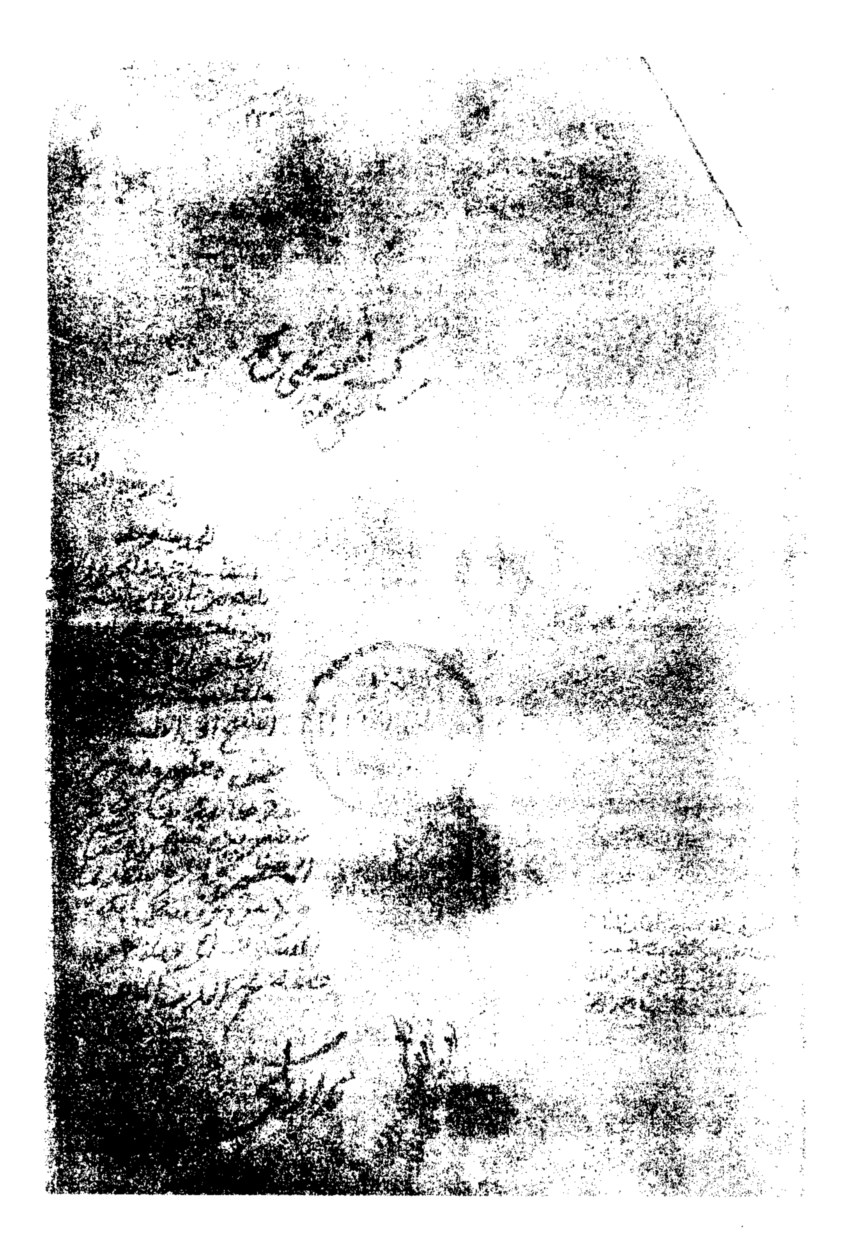
تاريخه رحمه الله الي زماننا هذا وكان فراغي من الانتقا من تاريخه في يوم الاربعا العشرين
من جمادي الاخر سنة احدي وخمسين وسبعمايه لحسن اسخاتمتها امين الي هنا انتهى
ما كتبته من لدن خلق ادم عليه وعلي نبينا افضل الصلاة والسلام الي زماننا هذا والحمد لله
رب العالمين وصلي الله علي سيدنا محمد واله وصحبه وتابعيهم باحسان الي يوم الدين

يتلوه ان شاء الله تعالى الجزو وهو النهايه في امور الآخره آخر
البدايه في البعث والنشور

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء العاشر
نسخة (أ) الأحمدية

زمانا لم يأذن لهم ثم جاء صهيب وبلال والمقداد وعمار فأذن لهم سريعا فدخلوا فوجدوا
الاشراف غيرهم من الضعفا الذين سبقوا واجابوا الرسول في اول ما دعاهم في انفسهم
حيث اذن للضعفا ولم يأذن للضعفا لهم وهم جلوس على الباب اذلا فقال لهم عمرو بن
العاص وقيل ان القايل حكيم بن حزام ان القوم دعوا ودعينا فاجابوا وتاخرنا ولين
حسدتموهم اليوم على باب عمر ودخولهم اليه لانتم غدا اشد حسدا لهم على باب الجنة ودخولهم
اليها قبلكم قال فاخذ القوم كلامه وبكوا حتى تخلفهم والله اعلم فصل قال الزهري
كلام اهل الجنة عربي وقال سفين بلغنا ان الناس يتكلمون يوم القيمة بالسريانية فاذا
دخلوا الجنة تكلموا بالعربية والله اعلم وقال ابن ابي الدنيا حدثني القسم بن هشام
حدثنا صفوان بن صالح حدثني داود بن الجراح العسقلاني حدثنا الاوزاعي عن هرون بن رياب
عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل اهل الجنة الجنة على طول
ادم ستون ذراعا بذراع الملك على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلث وثلثين سنة وعلى
لسان محمد صلى الله عليه وسلم جرد مرد مكحلين وقال ابن عباس لسان اهل الجنة عربي والله
اعلم فصل في المراة تتزوج في الدنيا بازواج ثم تدخل الجنة فلمن تكون منهم ذكر
القرطبي في التذكرة من طريق بن وهب عن مالك ان اسما بنت ابي بكر شكت زوجها الزبير
الى ابيها فقال يا بنية اصبري فان الزبير رجل صالح ولعله ان يكون زوجك في الجنة قال
ولقد بلغني ان الرجل اذا ابتكر المراة اي تزوجها بكرا تكون زوجته في الجنة قال ابو بكر
بن العربي هذا حديث غريب وقد روي عن ابي الدردا وحذيفة بن اليمان ان المراة تكون
لاخر ازواجها في الدنيا وجا انها تكون لاحسنهم خلقا قال ابو بكر البخاري حدثنا جعفر
بن محمد بن شاكر حدثنا عبيد بن اسحق العطار حدثنا سنان بن هرون عن حميد عن انس
ان ام حبيبة قالت يا رسول الله المراة يكون لها الزوجان في الدنيا فايهما يكون في الاخرة
فقال لاحسنهما خلقا كان معها في الدنيا ثم قال يا ام حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا
والاخرة وقد روي عن ام سلمة نحو هذا والله سبحانه اعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل
والحمد لله رب العالمين اخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

صورة الصفحة الأخيرة من النهاية في الفتن والملاحم
نسخة (أ) الأحمدية



صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول
نسخة (ب) برلين



صورة الصفحة الثانية من الجزء الأول

نسخة (ب) برلين

صورة الصفحة الأخيرة
نسخة (ب) برلين

وبعث المامون في هذه السنه يطلب جماعة من العباسيين واحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين الفا ما بين ذكر
وانثى وفي هذه السنه قتلت الروم ملكهم اليون وقد ملكهم سبع سنين وملكوا عليهم ميخاييل نابه وفيها قتل المامون يحيى
بن عامر بن اسمعيل وذلك لانه قال للمامون يا امير الكافرين فقتل صبرا بين يديه وفيها حج بالناس ابو اسحق محمد المعتصم
بن هرون الرشيد وفيها توفي من الاعيان اسباط بن محمد وابو ضمرة انس بن عياض ومسلم بن قتيبه وعمر بن عبد الواحد وابن
ابي فديك ومبشر بن اسمعيل ومحمد بن حمير ومعاذ بن هشام ثم دخلت سنه احدى ومائتين فيها راود اهل بغداد
منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك فراودوه على ان يكون نائبا للمامون يدعو اله في الخطبة فاجابهم الى ذلك
وذلك بعد اخراج اهل بغداد علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين اظهرهم فجرت حروب كثيرة بسبب ذلك وفي
هذه السنه عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى فكانوا ياتون الرجل بيا لونه ما لا يقرضهم
او يصلهم به فيمتنع عليهم فياخذون ما شاؤا من الغلمان والنسوان وانتهبوا اهل قطربل ولم يدعوا لهم شيا اصلا فا
نتدب رجل يقال له خالد الدريوشي واخر يقال له سهل بن سلامه ابو حاتم الانصاري من اهل خراسان والتفت
عليهما جماعة من العامه فردوا شرهم وقاتلوهم وقووا عليهم ومنعوهم من العبث في الارض فسادا واستقرت الامور
كما هي وذلك في شعبان ورمضان ولله الحمد والمنة وفي هذه السنه في شوال منها رجع الحسن بن سهل الى بغداد وصالح
الجند وانفصل منصور بن المهدي ومن التف معه من الامرا وفي هذه السنه بايع المامون لعلي الرضا بن موسى الكاظم
بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين الشهيد بن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنهم ان يكون ولي العهد من
بعده وسماه الرضا من ال محمد صلى الله عليه وطرح لبس السواد ولبس الخضرة والزم جنده بذلك وكتب به الى الافاق
والاقاليم وكان ما بعته له يوم الثلثا للليلتين خلتا من شهر رمضان من سنة احدى ومائتين وذلك ان المامون
راى ان عليا الرضا خير اهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه فجعله ولي عهده من بعده ذكر
بيعة اهل بغداد لابراهيم بن المهدي لما جا الخبر الى بغداد ان المامون بايع لعلي بن موسى بولاية العهد من بعده
اختلفوا فيما بينهم فمن مجيب ومن مانع وجمهور العباسيين على الامتناع وكان الباعث لهم والقايم في ذلك ابراهيم
ومنصور ابنا المهدي فلما كان يوم الثلثا لخمس بقين من ذي الحجة اظهر العباسيون البيعه لابراهيم بن المهدي
ولقبوه المبارك وكان اسود اللون ومن بعده لابن اخيه اسحق بن موسى بن المهدي وخلعوا المامون فلما
كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة ارادوا ان يدعوا للمامون ثم من بعده لابراهيم فقال العامه لا نريد
الا ابراهيم فقط واختلف الناس واضطربوا فيما بينهم ولم يصلوا الجمعة وصلى الناس فرادى اربع ركعات
وفي هذه السنه افتتح صاحب طبرستان جبالها وبلاد البلاد دروالشاهز فذكر ابن جرير ان سليمان الخاسر قال في ذلك
شعرا وقد ذكر ابن الجوزي وغيره ان سليمان توفي قبل ذلك بسنتين فالله اعلم وفي هذه السنه اصاب اهل خراسان
والري واصبهان مجاعة شديدة وعز الطعام جدا وفي هذه السنه تحرك بابك الخرمي واتبعه طوائف من السفلة والجهلة
وكان يقول بالتناسخ قبحه الله تعالى ولعنه وسياتي ما ال امره اليه وفيها حج بالناس اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى
بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وفيها توفي من الاعيان ابو اسامه وحماد بن مسعدة وحماد بن عمار وعلي بن عاصم
ومحمد بن محمد صاحب ابي السرايا الذي كان قد بايعه اهل الكوفة بعد ابن طباطبا ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين
في اول يوم منها بويع لابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المامون فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد ابراهيم
بن المهدي بالخلافة على المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك وغلب على الكوفة وارض السواد وطلب منه الجند ارزاقهم
فماطلهم ثم اعطاهم مائتي درهم لكل واحد وكتب لهم بتعويض من ارض السواد فخرجوا لا يمرون بشي من الزرع

صورة الصفحة رقم (٥٦)

نسخة (ظ) الظاهرية

فهرس موضوعات المدخل
إلى البداية والنهاية

مقدمة

ولا حول ولا قوة إلَّا بالله
عليه توكلت[(١)]

الحمدُ للهِ الأوَّلِ الآخِرِ ، الباطنِ الظَّاهرِ ، الذي هُو بكل شيءٍ عَليمٌ ، الأوَّلُ فليس قَبْلَهُ شيءٌ ، الآخِرُ فليس بَعْدهُ شيءٌ ، الظَّاهر فليس فَوْقَهُ شيءٌ ، الباطنُ فليس دونه شيءٌ[(٢)] ، الأزليُّ القديم الذي لم يزل موجوداً موصوفاً[(٣)] بصفاتِ الكمال ، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوالٍ . يعلمُ دَبيبَ النملةِ [السوداءِ][(٤)] ، على الصخرة [الصمَّاء] ، في الليلة الظلماء ، وَعَددَ الرِّمالِ ، وهو العلي الكبير المتعال ، العلي العظيم الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً .

فرفع السمواتِ بغير عمدٍ ، وزيَّنها بالكواكب الزَّاهرات ، وجعل فيها سِراجاً وقمراً منيراً ، وسوَّى فوقَهُنَّ سَريراً ، شَرْجَعاً[(٥)] عالياً مُنيفاً ، متَّسعاً مقبباً مستديراً ، هو العرش العظيم ، له قوائمُ عظامٌ ، تحمله

---

(١) سقطت هذه العبارة من المطبوع ، وجاء بعد هذا في ب : « اللهم صل وسلم على أشرف الخلق سيدنا محمد » ولعله من إضافات النساخ ، لأن المؤلف سيذكر ذلك بعد بتفصيل .

(٢) هو اقتباس من حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٧١٣) ، في الذكر والدعاء : باب ما يقول عند النوم ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم ربَّ السمواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ العرش العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كل شيء ، فالق الحبِّ والنَّوى ، ومُنْزِلَ التوراةِ والإنجيل والفرقان ، أعوذُ بكَ من شرِّ كل شيء أنت آخذٌ بناصيته ، اللهمَّ أنت الأولُ فليس قبلك شيءٌ ، وأنت الآخرُ فليس بعدك شيءٌ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقض عنا الدَّيْنَ وأغننا من الفقر » .
وهذا الحديث تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .
ومعنى (الأول) : السابق للأشياء . و(الآخر) : الباقي بعد فناء الخلق . و(الظاهر) بحججه الباهرة وبراهينه النَّيِّرة وشواهده الدالّة على صحة وحدانيته ، ويكون (الظاهر) فوق كل شيء بقدرته ، ويكون الظهور بمعنى العلو وبمعنى الغلبة . و(الباطن) : المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهُّم الكيفية ، أو الباطن على كل شيء علماً .

(٣) لفظة : موصوفاً ؛ سقطت من المطبوع .

(٤) زيادة من المطبوع . تكتمل بها السجعة .

(٥) الشرجع : الطويل ، وقد شرحه بقوله : هو العالي المنيف .

الملائكة الكرامُ تحفُّه الكُرُوبيُّونَ[١] ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولهم زَجَلٌ[٢] بالتقديس والتعظيم .

وكذا أرجاء السماوات مشحونة بالملائكة ، ويفدُ منهم في كل يوم سبعون[٣] ألفاً إلى البيت المعمور بالسماء السابعة[٤] ، لا يعودون إليه ، آخِرَ ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك [فيها][٥] وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام قبْل خلق السماء ، وأثبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للألبَّاء ، من جميع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم ، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكون من حيوان بهيم .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماءٍ مهينٍ ، في قرارٍ مَكِيْن ، فجعله سميعاً بصيراً ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وشرَّفه بالعلم والتعليم .

خلق بيده الكريمة آدمَ أبا البشر ، فصوَّر جُثَّته ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وخلق منه زوجَه حواء أُمّ البشر ، فآنس بها وحْدَتَه ، وأسكنهما جنته ، وأسبغ عليهما نعمته . ثم أهبطهما إلى الأرض ، لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم . وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، وقسمهم بقدره العظيم ملوكاً ورعايا[٦] ، وفقراء وأغنياء ، وأحراراً وعبيداً ، وحرائر وإماءً . وأسكنهم أرجاء الأرض ، طولها والعرض ، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعضُ البعض[٧] ، إلى يوم الحساب والعرض على الحكيم العليم[٨] . وسخَّر لهم الأنهار من سائر[٩] الأقطار ، تشقُّ[١٠] الأقاليم إلى الأمصار ، مابين صغار وكبار ، على مقدار الحاجات والأوطار ، وأنبع لهم العيون والآبار ، وأرسل عليهم السحاب[١١] بالأمطار ، فأنبت لهم سائر صنوف الزُّروع[١٢] والثمار . وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقالهم : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] فسبحان الكريم العظيم الحليم .

---

(١) الكروبيون : سادة الملائكة وهم المقربون . النهاية لابن الأثير (٤/ ١٦١) واللسان (كرب) .
(٢) الزجل : رفع الصوت الطَّرِب . وقال ابن الأثير : صوتٌ رفيع عالٍ . النهاية (٢/ ٢٩٧) .
(٣) في ب : سبعين ؛ وهو خطأ .
(٤) في المطبوع : الرابعة .
(٥) زيادة من ب .
(٦) في المطبوع : ورعاة .
(٧) في ب : « البعض منهم البعض » ، والعبارة من غير « منهم » أجود .
(٨) في ب : على العليم الحكيم .
(٩) سائر ، بمعنى الجميع ، خطأ شائع ، والصحيح استخدامها بمعنى البقية .
(١٠) قوله : تشق . والأوطار ؛ سقطت من « ب » .
(١١) في المطبوع : السحائب .
(١٢) في ب : الزرع .

وكان من أعظم نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسَّر لهم السبيل[١] ، وأنطقهم ، أن أرسل رُسُله إليهم ، وأنزل كُتُبهُ عليهم ، مبيِّنة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل كل شيءٍ في المبدأ والمعاد [إلى][٢] يوم القيامة ؛ فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد ، والنواهي بالتعظيم ، ففاز بالنعيم المقيم ، وزُحْزح عن مقام المكذِّبين في الجحيم ذات الزقّوم والحميم ، والعذاب الأليم .

أحمده حمداً كثيراً طيباً[٣] مباركاً فيه ، يملأ أرجاء السماوات والأرضين ، دائماً أبد الآبدين ، ودهرَ الداهرين ، إلى يوم الدِّين ، في كل ساعة وآنٍ ووقت وحين ، كما ينبغي لجلاله العظيم ، وسلطانه القديم ووجهه الكريم .

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له ، ولا ولد له ، ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا نظير له ، ولا وزير ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد[٤] ولا قسيم . وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله ، وحبيبه وخليله ، المصطفى من خُلاصة العرب العَرْباء من الصميم ، خاتم الأنبياء ، وصاحب الحوض الأكبر الرَّواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وحامل اللواء الذي يبعثه الله تعالى المقامَ المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلقُ كلُّهم ؛ حتى الخليل إبراهيم ﷺ وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلَّم وشرَّف وكرَّم أزكى صلاةٍ وتسليم ، وأعلى تشريف وتكريم ، ورضي الله عن جميع أصحابه الغرِّ الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الأنبياء ، ما اختلط الظلام بالضياء ، وما أعلن الداعي بالنداء ، وما نسخ النهارُ ظلام الليل البهيم .

أما بعد :

فهذا كتابٌ أذكر فيه ـ بعون الله وحسن توفيقه ـ ما يسَّره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن ، وما بينهنّ من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفيَّة خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية ، حتى تنتهي النبوّة[٥] إلى أيام نبيّنا محمد ﷺ[٦] ، فنذكر سيرته كما ينبغي ، فتشفي الصدور والغليل ، وتزيح الداءَ عن العليل .

---

١) في أ : ويسرهم .
٢) زيادة من المطبوع .
٣) قوله : كثيراً طيباً . سقطت من ب .
٤) في ب : ولا عديل ولا نديد له ولا قسيم . والعديد : النظير .
٥) في أ : النوبة .
٦) في ب : صلوات الله وسلامه عليه .

ثمَّ نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ، ونذكر الفِتن والملاحم وأشراطَ[١] الساعة ، ثمَّ البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثمَّ صفة ذلك وما في ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة . ثمَّ صفة النَّار ، ثمَّ صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وما ورد في ذلك من الكتاب والسُّنَّة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء ، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذِن الشارع في نقله ، مما لا يخالف كتابَ الله تعالى وسنةَ رسوله ﷺ ، وهو القسم الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب ، مما فيه بسطٌ لمختصر عِنْدَنا ، أو تسميةٌ لمبهم وَرَدَ به شرعُنا مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلِّي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه[٢] . وإنما العمدة والاستناد على كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله ﷺ ، ما صحّ[٣] نقله أو حَسُن ، وما كان فيه ضعفٌ نبيِّنه ، وبالله المستعان وعليه التُّكلان ، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العزيز الحكيم العليّ العظيم .

فقد قال الله تعالى في كتابه : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] وقد قصَّ الله على نبيِّه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات ، وذِكْر الأممِ الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحلَّ بأعدائه . وبيَّن ذلك رسولُ الله ﷺ لأمته بياناً شافياً ، سنورد عند كل فَصْلٍ ما وَصَلَ إلينا عنه ، صلواتُ الله وسلامُه عليه ، في ذلك تِلْوَ الآيات الواردات في ذلك ، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويَتَراجم[٤] في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب فيما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه ، وقد يستوعبُ[٥] نقلَه طائفةٌ من علمائنا أيضاً ، ولسنا نحذو حذوَهم ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ، ونبين ما فيه منها[٦] حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الإنكار .

فأما الحديث الذي رواه البخاري ـ رحمه الله ـ في « صحيحه »[٧] عن [عبد الله بن] عمرو بن العاص

---

(١) أشراط : جمع شرط : هو العلامة . والشرط ، بسكون الراء : هو إلزام الشيء والتزامه ، ج : شروط وشرائط .

(٢) كذا في ب . و أ : والاعتماد إليه ، يقال : اعتمد على الشيء : إذا اتكأ عليه واتّكل .

(٣) في ب : مما صح .

(٤) الرجم : القذف بالغيب والظن .

(٥) في ب : استوعب .

(٦) لفظة : منها ؛ سقطت من المطبوع ، وفي ب : بياض مكانها قدر كتابتها .

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٦١) في الأنبياء ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ « بلِّغوا عني ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وجملة : « وحدِّثوا عني ولا تكذبوا عليَّ » التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ في حديث البخاري ليست فيه . وإنما هي جملة من حديث رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ ولفظه بتمامه :=

ـ رضي الله عنهما[١] ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحدِّثُوا عَنْ بَني إسْرَائيلَ ولا حَرَجَ ، وحدِّثُوا عَنِّي ولا تكْذِبُوا عليَّ ، ومنْ كذب عليَّ مُتعمداً فَلْيَتبوأْ مَقْعَدَهُ منَ النَّارِ » فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت[٢] عنها عندنا . فليس عندنا ما يُصدِّقُها ولا [ما][٣] يُكذِّبُها ، فيجوز روايتُها للاعتبار . وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا[٤] .

[فأمَّا ما شهد له شرعُنا بالصدق ؛ فلا حاجة بنا إليه استغناءً بما عندنا][٥] ، وما شهد له شرعُنا منها بالبطلان ، فذاك مردودٌ لا يجوز حكايته ، إلا على سبيل الإنْكار والإبْطال .

فإذا كان اللهُ سبحانه ولهُ الحمدُ ، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما قد وَقَعَ فيه خَبْط وَخلْطٌ ، وكَذِبٌ ووضْعٌ ، وتحريفٌ وتبديلٌ ، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير .

فالمحتاجُ إليه قد بيَّنه لنا رسولُنا ، وشَرَحه ووضَّحه ، عَرفه من عَرَفه ، وجَهله [مَنْ جَهِلَهُ] . كما قال علي بن أبي طالب : كِتابُ الله فِيْه خَبَرُ ما قَبْلَكُمْ ، وَنَبأُ ما بَعْدكُم ، وحُكْمُ ما بَيْنكُمْ ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بالهزْلِ ، منْ تَرَكهُ من جَبَّار قَصَمهُ اللهُ ، ومَنِ ابْتَغَى الهُدَىٰ في غَيْرِهِ أضَلَّهُ[٦] الله[٧] .

= « وحدِّثوا عني ولا تكذبوا عليَّ ، ومن كذب عليَّ متعمداً فقد تبوَّأ مقعده من النار ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » .

وحديثنا الذي ذكره المؤلف من رواية البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ رواه أيضاً أحمد في المسند (٢/ ١٥٩ و٢٠٢ و٢١٤) والدارمي في سننه ، في المقدمة (١/ ١٣٦) باب : البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم السنن ، والترمذي في سننه (٢٦٦٩) ، في العلم ، باب : ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(١) في الأصل : عنه ؛ وعدلتها لتستقيم مع الزيادة التي أثبتُّها عن صحيح البخاري ، وسقطت من النسخ .

(٢) في ب : والمسكوت .

(٣) زيادة من المطبوع .

(٤) في ب : هذا منها .

(٥) زيادة من ب . سقطت من أ بنقلة عين .

(٦) في أ : أخبله ؛ وأثبت رواية ب ، وهي موافقة لما ورد في كتب الحديث .

(٧) قطعة من حديث أورده ابن كثير موقوفاً على عليّ رضي الله عنه . وقد ورد مرفوعاً عن رسول الله ﷺ وهو عند الترمذي في سننه (٢٩٠٦) في فضائل القرآن ، والدارمي في سننه (٢/ ٤٣٥) وأحمد في مسنده (١/ ٩١) .
وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال .
والحارث هو الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني ، وهو ضعيف الحديث ، وخاصة فيما يرويه عن عليٍّ رضي الله عنه ، ترجمته في ميزان الاعتدال ؛ للذهبي (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧) .

وقال أبو ذر ، رضي الله عنه : توفي رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا[١] منه علماً .

وقال البخاري في كتاب[٢] بدء الخلق : ورُوِي عن عيسى[٣] بن موسى غُنْجار ، عن رَقبة ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : سمعتُ عمر بن الخطاب يقول : قام فينا رسول الله ﷺ مَقَاماً ، فأَخْبَرنا عن بدْء الخلق ، حتّى دخل أهلُ الجنَّة منازِلَهُمْ ، وأهلُ النَّارِ مَنازِلَهم ، حَفِظَ ذلكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنسيهُ مَنْ نسيهُ[٤] . قال أبو مسعود[٥] الدمشقي [« في أطْرافه »][٦] : هكذا قال البخاري ، وإنما رواه عيسى غُنْجار عن أبي حمزة ، عن رقبة .

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ في « مسنده »[٧] : حدّثنا أبو عاصم ، حدَّثنا عَزْرة بن

---

(١) في ب : إلَّا ذكَّرنا .

(٢) في ب : كتابه .

(٣) هكذا بصيغة المبني للمجهول ، وكذلك هو بخط المزي في تحفة الأشراف (٧ / ٢٠٨ حديث ١٠٤٧٠) ، والذي في البخاري : وروى عيسى عن رقبة . وقد وضّحه المؤلف فقال : عيسى بن موسى غُنجار . وغنجار لقب لعيسى ، لقِّب به لحمرة لونه . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (٦/ ٢٠٧) قوله : وروى عيسى عن رقبة ؛ كذا للأكثر ، وسقط منه رجل ، فقال ابن الفلكي : ينبغي أن يكون بين عيسى ورقبة أبو حمزة ، وبذلك جزم أبو مسعود ، وقال الطرقي : سقط أبو حمزة من كتاب الفربْري وثبت في رواية حماد بن شاكر ، فعنده عن البخاري : روى عيسى عن أبي حمزة عن رقبة ، قال ، وكذا قال ابن رميح عن الفربري . قلت [القائل ابن حجر] : وبذلك جزم أبو نعيم في المستخرج ، وهو يروي الصحيح عن الجرجاني عن الفربري ، فالاختلاف فيه حينئذٍ عن الفربري ، ثمّ رأيته سقط أيضاً من رواية النسفي ، لكن جعل بين عيسى ورقبة : ضبة ، ويغلب على الظن أن أبا حمزة ألحق في رواية الجرجاني ، وقد وصفوه بقلّة الإتقان ، وعيسى المذكور هو ابن موسى البخاري ، ولقبه غنجار . . . وليس له في البخاري إلا هذا الموضع ، وقد وصل الحديث المذكور من طريق عيسى المذكور عن أبي حمزة ، وهو محمد بن ميمون السكري ، عن رقبة ، الطبراني في مسند رقبة المذكور وهو بفتح الراء والقاف والموحدة الخفيفة ، ابن مصقلة بفتح الميم وسكون الصاد المهملة ، وقد تبدل سيناً (مسقلة) ولم ينفرد به عيسى ، فقد أخرجه أبو نعيم من طريق علي بن الحسن بن شقيق ، عن أبي حمزة ، نحوه ، لكن بإسناد ضعيف .

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣١٩٢) ، باب : ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . . ﴾ [الروم : ٢٧] وهو من رواية حذيفة ، في مسند أحمد (٥/ ٣٨٥ و٣٨٩ ، ٤٠١) وأبي داود (٤٢٤٠) في الفتن : باب ذكر الفتن ودلائلها ، ومن رواية أبي سعيد الخدري في الترمذي (٢١٩١) في الفتن : باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح .

(٥) في ب : ابن مسعود ؛ وهو سهو . وأبو مسعود الدمشقي : هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي حافظ صدوق ورع . توفي سنة (٤٠١هـ) . ترجمته في السير للذهبي (١٧/ ٢٢٧) وكتابه : « أطراف الصحيحين » رتب فيه أحاديث كل صحابي على حدة . كشف الظنون (١/ ١١٦) ، وهو أحد الكتب الرئيسة التي أقام المزي عليها كتابه « تحفة الأشراف » .

(٦) زيادة من ب .

(٧) مسند أحمد (٥/ ٣٤١) .

ثابت، حدَّثنا عِلْباء بن أحمر[١] اليشكري ، حدَّثنا أبو زيد الأنصاري ، قال : صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاةَ الصُّبح ، ثُمَّ صَعِدَ المِنبَرَ ، فَخَطبنا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، ثُمَّ نزلَ فَصَلَّى الظُّهْرَ ، ثُمَّ صَعِدَ المِنبَرَ ، فَخَطبنا حَتَّى حَضَرتِ العصْرُ، ثُمَّ نزلَ فَصَلَّى العَصْر ، ثُمَّ صَعِدَ المِنبر فَخطبنا حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ ، فَحَدَّثَنا بما كانَ، وما هُوَ كائنٌ ، فأعلمُنا أحْفَظُنا . انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه في كتاب الفتن من « صحيحه »[٢] عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي وحجاج بن الشاعر ، جميعاً[٣] عن أبي عاصم الضحَّاك بن مخلد النبيل ، عن عزرة ، عن علباء ، عن أبي زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ بنحوه.

وقال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا يزيد بن هارون وعفَّان ، قالا: حدَّثنا حمَّاد بن سلَمة، أخبرنا علي بن زيد، عن [أبي نَضْرَة ، عن] أبي سعيد قال: خطبنا رسول الله ﷺ خُطْبَةً بعد العصْر إلى مُغَيْرِبان الشَّمْسِ ، حَفظها [منا] منْ حفظَها ، ونسِيَها من نسيها . قال عَفَّان : قال حمَّاد : وأكثر حفظي أنَّه قالَ : ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ، فحَمِدَ الله ، وأثنى عليه، ثمَّ قال : « أمَّا بَعْدُ فإنَّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوةٌ ، وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيْها فناظِرٌ كَيْفَ تَعْملونَ ، ألا فَاتَّقُوا الدُّنْيا ، وَاتَّقُوا النِّساءَ . . » وذكر تمام الخُطبة[٥] ، إلى أن قال : فلما كان عند مغيربان الشمس قال : « ألا إنَّ مثْلَ ما بَقيَ منَ الدُّنْيَا مِثْلُ ما بَقِيَ منْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيما مَضَى منْهُ » .

ثم قال الإمام أحمد[٦] : حدَّثنا عبدُ الرزَّاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن علي بن زيد بن جُدْعان ، عن

---

(١) في أ : أحمد ؛ وهو تحريف .
(٢) صحيح مسلم (٢٨٩٢) باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة .
(٣) كذا في صحيح مسلم وط . وفي أ وب : كلاهما .
(٤) مسند أحمد (٣/ ١٩) والزيادات منه . والكلام حتى نهاية الفصل سقط من المطبوع .
(٥) وتمام الخطبة فيه : « ألا إنَّ بني آدم خُلقوا على طبقات شتَّى ، منهم من يُولَد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموتُ مؤمناً ، ومنهم من يُولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يُولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموتُ مؤمناً .
ألا إنَّ الغضب جَمْرةٌ تُوقد في جَوف ابن آدَمَ ؛ ألا تَرَونَ إلى حُمْرة عينيه وانتفاخِ أوْدَاجِه ، فإذا وَجدَ أحدُكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرضَ .
ألا إنَّ خَيْرَ الرجالِ من كان بَطيءَ الغضب سريعَ الرِّضى ، وشَرّ الرِّجال من كانَ سَريعَ الغضب بطيءَ الرضى ، فإذا كان الرجلُ بطيءَ الغضب بطيءِ الفَيْء وسريعَ الغضب سريعَ الفيء فإنَّها بها .
ألا إنّ خيرَ التجّار من كان حسنَ القضاء ، حسن الطلب ، وشرَّ التجار من كان سيّء القضاء سيّء الطلب ، فإذا كان الرجل حسنَ القضاء سيّء الطلب ، أو كان سيّء القضاء حسن الطلب فإنها بها .
ألا إن لكل غادرٍ لواءً يوْم القيامة بقدْر غدرته ، ألا وأكبر الغدْر غدرُ أمير عامة . ألا لا يمنَعنَّ رجُلاً مهابةُ الناسِ أنْ يتكلم بالحقّ إذا علمه . ألا إنَّ أفضَل الجهادِ كلمةُ حقٍّ عند سُلطان جائر . . » .
أقول : وفي سنده علي بن زيد بن جُدعان ، وهو ضعيف بطوله ، ولكن أول الحديث الذي ذكره المؤلف صحيح ، وآخره صحيح من قوله : « ألا إن لكل غادر لواءً » إلى آخره .
(٦) مسند أحمد (٣/ ٦١) .

أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد قال : صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاةَ العَصْرِ ذاتَ يوم بِنهارٍ ، ثمَّ قام فَخطبنا إلى أنْ غَابَت الشَّمس ، فلم يَدَعْ شَيْئاً مما يَكُون إلى يوم القيامة إلا حدَّثناهُ ، حفِظ ذلكَ من حَفِظه ، وَنسيَ ذلك من نَسِيه ، فكان ممَّا قال : « يا أيها النَّاسُ ، إنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وَإنّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكمْ فيها فناظرٌ كيفَ تَعْملونَ ، فاتَّقوا الدُّنْيا وَاتَّقوا النساءَ . . . »[1] . وذكر تمامها إلى أن قال : ثمَّ دَنتِ الشَّمْسُ أن تغرب فقال : « وإنَّ ما بقي من الدُّنيا فيمَا مَضَى [منها] مثلُ ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وهذا هو المحفوظ . والله أعلم[2] .

فَصْــلٌ

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

فكل ما سواه تعالى مخلوق له ، مرْبوب مدبَّر مكوَّن بعد أن لم يكن ، محدث بعد عدمه فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثَّرىٰ ، وما بين ذلك من جمادٍ وناطق الجميعُ خَلْقهُ ، وملكهُ وعَبيده ، وتحت قَهْره وقُدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته[3] ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد : ٤] .

فقد أجمع علماء الإسلام قاطبةً ، لا يشُكّ في ذلك مسلم ، أنَّ الله تعالى خَلَقَ السماوات والأرضَ ، وما بينهما في ستة أيام ، كما دلَّ عليه القرآن العظيم[4] واختلفوا في هذه الأيام : أهي كأيامنا هذه ؟ أو كل يوم كألف سنة مما تعدّون[5] ؟ على قولين ، كما بيّنا ذلك في « التفسير »[6] ، وسنتعرض لإيراده في

---

(١) رواه أحمد مطولاً (٣/ ٦١) وإسناده ضعيف بطوله ، ولأوله وآخره شواهد .

(٢) قوله : والله أعلم ؛ ليس في ب .
وأدرج بعد هذا الحديث في نسخة (ب) حديث آخر في معناه ، وقال الإمام أحمد : حدَّثنا مكي بن إبراهيم ، حدَّثنا هاشم - يعني ابن هاشم - عن عمر بن إبراهيم بن محمد ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن المغيرة بن شعبة أنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبر بما يكون في أمته إلى يوم القيامة ، وعاه من وعاه ، ونسيه من نسيه ، وهو في مسنده (٤/ ٢٥٤) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .

(٣) كذا في ب وفي أ : خشيته .

(٤) في المطبوع : الكريم ، وسقط اللفظان من ب .

(٥) قال الله تعالى في كتابه العظيم : ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٢٠) في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ . . . ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

موضعه . واختلفوا : هل كان قبل[١] السموات والأرض شيء مخلوق قبلهما؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنَّه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا[٢] من العدم المحض .

وقال آخرون : بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أُخر ، لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٧] الآية .

وفي حديث عمران بن حُصَيْنٍ ـ كما سيأتي ـ : « كان اللهُ ولَمْ يَكُنْ شَيءٌ قَبْلَهُ وكَانَ عَرْشُهُ على الماءِ ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ »[٣] .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدثنا بهْزٌ ، حدثنا حمَّاد بن سلمة ، حدَّثنا يَعْلَى بن عَطَاء ، عن وكيع بن حُدُس[٥] ، عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي ، أنه قال : يا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ كَانَ رَبُّنا قَبْلَ أنْ يَخْلق السَّموات والأرْض ؟ قال : « في عماءٍ ما فوْقَهُ هواءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ »[٦] .

ورواه عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، ولفظه : « أيْنَ كَانَ رَبُّنا قَبْلَ أنْ يَخْلقَ خَلْقَهُ ؟ »[٧] ، وباقيه سواء .

وأخرجه الترمذي[٨] عن أحمد بن منيع ، وابن ماجه[٩] عن أبي بكر بن أبي شَيْبَة ، ومحمد بن الصبَّاح ، ثلاثتهم عن يزيد بن هارون ، وقال الترمذي : حسنٌ[١٠] .

واختلف هؤلاء في أيِّها خُلِق أولاً ؟ فقال قائلون : خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها ، وهذا هو اختيار

---

(١) في المطبوع : قبل خلق . . . وكُتب في « أ » : خلق ، ثمّ شطب عليها ، وهي ليست في (ب) .

(٢) في ب : خلقهما .

(٣) سيرد تخريجه (ص٣٠) .

(٤) المسند (٤/ ١١) .

(٥) ضبطه ابن حجر في التقريب : عُدُس ، بضمتين ، وقال : وقد يفتح ثانيه ، ويقال : [حُدُس] بالحاء بدل العين ، وقال الترمذي : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حُدُس ، ويقول شعبة وأبو عوانة وهُشيم : وكيع بن عُدُس ، وهو أصح .

(٦) العماء : السحاب ، وقيل : الضباب . قال أبو عبيد : لا يُدرى كيف كان ذلك العماء . النهاية لابن الأثير (٣/ ٣٠٤) .

(٧) مسند أحمد (٤/ ١١) رقم (١٦١٣٢) وإسناده ضعيف ، لجهالة وكيع بن عدس .

(٨) الجامع (٣١٠٩) في التفسير .

(٩) سنن ابن ماجه (١٨٢) في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية .

(١٠) زاد في نسخة ب هنا : وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب « صفة العرش » : حدَّثنا عبد الله بن مروان بن معاوية ، سمعت الأصمعي يقول ـ وذكر هذا الحديث فقال ـ : العماء في كلام العرب : السحاب الأبيض الممدود ، وأما العمى ، المقصور ، فهو البصر .

ويبدو أنَّ ناسخ (ب) وقف على كتاب « صفة العرش » ثمَّ أدرج منه ما يؤيد الأخبار والأحاديث التي يذكرها ابن كثير وهذا ما سنلاحظه في كثير من الزيادات التي تفردت بها نسخة (ب) في هذا الموضوع .

ابن جرير[1] ، وابن الجوزي ، وغيرهما . قال ابن جرير[2] : وبعد القلم السحاب الرقيق ، وبعده العرش.

واحتجوا بالحديث الذي رواه [الإمام][3] أحمد ، وأبو داود والترمذي[4] ، عن عُبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ . ثُمَّ قالَ لَهُ اكْتُبْ ، فجرى في تلك السَّاعة بما هُوَ كائنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ » لفظ أحمد .

وقال الترمذي : حسن صحيح غريب[5] .

والذي عليه الجمهور ، فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهَمَذَاني وغيره : أنَّ العرش مخلوق قبل ذلك ، وهذا هو الذي رواه ابن جرير[6] من طريق الضَّحاك عن ابن عباس ، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » حيث قال : حدّثني أبو الطاهر أحمدُ بْن عمرو بن السَّرْح ، حدَّثنا ابن وهب ، أخبرني أبو هانىء الخَوْلاني ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي[7] ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ وَالأرْضَ بخَمْسين ألْفَ سَنَةٍ ، قالَ : وعَرْشُهُ على المَاءِ »[8] ، قالوا : فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقاديرَ .

وقد دلَّ هذا الحديثُ أنَّ ذلك بعد خلق العرش ، فثبتَ تقدُّم العرش على القلم الذي كتبت به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . ويُحمل حديثُ القلم على أنَّه أوَّلُ المخلوقات من هذا العالم .

ويؤيد هذا ما رواه البخاري[9] ، عن عِمْران بن حصين : قال : قال أهلُ اليمن لرسول الله ﷺ : جِئْنَاكَ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٢) وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٣٧) وما بعدها .

(٣) زيادة من ب تجري على نسق أسلوب ابن كثير .

(٤) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣١٧) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) في السنة ، والترمذي في الجامع (٢١٥٥) في القدر ، وفي التفسير (٣٣١٩) .

(٥) الذي في الترمذي باب القدر : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وقال في التفسير : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وهو الذي اقتصر عليه المزي في التهذيب والتحفة ، وهو حديث صحيح .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٣٩) والصواب أن القلم أول ما خلق الله ولا نص عن رسول الله ﷺ صريح بأن العرش خلق أول ، وإنما هو استنباط واجتهاد . ومن ذلك يتبين خطأ من يقول : أول خلق الله صلّوا عليه ؛ وهو أفضل الخلق ، وليس أول الخلق ، وسيد ولد آدم .

(٧) في أ : الجبلي ، وفي ب : الختلي ، وفي ط : الجيلي ؛ وكله تصحيف . والحُبُلي ، بضم الحاء المهملة والباء المنقوطة بواحدة ، منسوب إلى حيٍّ من اليمن . وأبو عبد الرحمن الحبلي هو عبد الله بن يزيد ، من تابعي أهل مصر . الأنساب للسمعاني (٤/ ٥٠) . وقيل : الحَبَلي ، بفتح الباء .

(٨) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) في القدر ، والزيادة منه . وأخرجه الترمذي كذلك في السنن (٢١٥٦) في القدر.

(٩) رواه البخاري في صحيحه (٣١٩٠) و(٣١٩١) في بدء الخلق ، باب : ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم : ٢٧] ، و (٤٣٦٥) ، في المغازي ، و(٤٣٨٦) ، باب : قدوم الأشعريين وأهل اليمن ، و(٧٤١٨) في التوحيد ، وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٢٦، و٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦) والترمذي في =

لنَتفقَّه في الدِّيْن وَلنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ الأمْرِ . فقَالَ : « كانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ـ وفي رواية : معه ، وفي رواية : غيره ـ وكَان عَرْشُهُ عَلَى الماءِ ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وخَلَقَ السَّمٰواتِ والأرْضَ » ، وفي لفظ : « ثُمَّ خَلقَ السَّمواتِ والأرْضَ »[١] . فسألوه عن ابتداء خلق السَّمواتِ والأرض ، ولهذا قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، فأجابهم عمَّا سألوا فقط . ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رَزين المتقدم[٢] .

قال ابن جرير[٣] : وقال آخرون : بل خلقَ اللهُ ـ عَزَّ وجلَّ ـ الماءَ قَبْلَ العَرْشِ . رواه السُّدّي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مُرَّة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا[٤] : إنَّ الله كان عرشُه على الماء ، و لم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء .

وحكى ابن جرير[٥] عن محمد بن إسحاق أنَّه قال : « أول ما خلقَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النور والظلمة ، ثمَّ ميَّز بينهما ، فجعل الظلمة ليلاً أسودَ مظلماً ، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً » .

قال ابن جرير : وقد قيل : « إنَّ الذي خلقَ رَبُّنا بعدَ القلم الكرسيُّ ، ثمَّ خلق بعد الكرسيّ العرش . ثمَّ بعد ذلك خلق الهواء والظلمة . ثمَّ خلق الماء [فوضع عرشه على الماء] »[٦] .

[وروى الحافظ أبوالقاسم بن عساكر في ترجمة علي بن الحسن[٧] بن محمد بن أحمد بن جميع الغَسَّاني الصَّيْداوي[٨] ، من طريق الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي، عن أبيه[٩] ، عن جده أحمد بن جميع ؛ حدَّثنا محمد بن المعافى الصدوق، حدَّثنا محمد بن خلف ، حدَّثنا محمد بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو ، عن أبي أراكة قال : سأل رجلٌ عبدَ الله بن عمرو : ممَّ خُلق الخلق ؟ قال : من النور والظلمة والماء والثرى . وقال : إيت ابن عباس واسأله ؛ فأتاه وسأله ، فقال له مثل ذلك . فقال ارجع إليه فسلْه ممّ خلق ذلك كله ؟ فرجع إليه ، فسأله ، فتلا قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا

= الجامع (٣٩٥١) في المناقب ، والنسائي في التفسير (١١٢٤٠) .
(١) قوله : وفي لفظ : ثمَّ خلق السماوات والأرض ؛ ليس في ب .
(٢) تقدم ص(١٣) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٩) .
(٤) في ب : قال .
(٥) تاريخ الطبري (١/ ٣٤) .
(٦) زيادة من ب توافق المصدر السابق .
(٧) في ط : « الحُسين » ، وهو تحريف ، فالحسن هذا هو ابن محمد صاحب « المعجم » المشهور ، والحسن يعرف بالسكن ، وهو مترجم في تاريخ دمشق (١٣/ ٣٥٢) وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٥٦) وغيرهما .
(٨) تاريخ دمشق (٤١/ ٣٣٨) .
(٩) يعني : الحسن بن محمد بن أحمد بن جميع .

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] . قال : قال ابن معين : لم يرو الفريابي حديثا أغرب من هذا.

قلت : غالب هذه المذكورات من الإسرائيليات الذي لا يصدَّق ولا يكذَّب ، إلا ما قام دليل على صدق بعضها أو كذبه . والله أعلم][1] .

***

فصل

فيما ورد في صفة خلق[2] العرش والكرسي

قال الله تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [غافر : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] .

وقال الله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل : ٢٦] .

وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ [البروج : ١٤-١٥] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] .

وقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ في غير ما آيةٍ[3] منَ القُرْآنِ .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

وفي الدعاء المروي في « الصحيح »[4] ، في دعاء الكرب : « لا إلَهَ إلا الله العَظيم الحَليم[5] لا إلَهَ

---

(١) زيادة من ب ، وفي تاريخ الطبري : فوضع عرشه عليه .

(٢) في (ب) : في العرش .

(٣) في سورة الأعراف : ٥٤ ، ويونس : ٣ ، والرعد : ٢ ، والفرقان : ٥٩ ، والسجدة : ٤ ، والحديد : ٤ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٤٥) و(٦٣٤٦) في الدعوات ، باب : الدعاء عند الكرب ، و(٧٤٣١) في التوحيد ، باب : قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] . وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٣٠) ، في الذكر والدعاء ، باب : دعاء الكرب ، وأحمد في المسند (١/ ٢٢٨) كلهم من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . مع خلاف يسير في اللفظ .

(٥) في أ ، وب : الحليم العظيم . وأثبت رواية المطبوع ، لأنها موافقة لرواية الحديث في صحيح البخاري الذي ينقل منه المصنف .

إلا الله رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم ، لا إلَهَ إلا الله رَبّ السَّموات وَرَبُّ الأرْضِ رَبّ العَرْشِ الكَرِيم » .

وقال الإمام أحمد[١] : حدَّثنا عبدُ الرزاق ، حدَّثنا يحيى بنُ العلاء ، عن عمِّه شُعيب بن خالد ، حدَّثني سِمَاكُ بن حرب ، عن عبد الله بن عَميرةَ ، عن الأحنفِ بن قَيْسٍ[٢] ، عن عبَّاس بن عبد المطلب قال : كُنَّا جُلُوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء ، فمرَّتْ سحابةٌ ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أتَدْرُون ما هَذَا ؟ » قال : قُلْنا : السَّحابُ . قال : « والمزنُ » . قلنا : والمزْن . قال : « والعَنان » ، قال : فسكتنا ، فقال : « هَلْ تدْرُونَ كمْ بيْن السَّماءِ والأرْضِ » ؟ قال[٣] : قلنا : اللهُ وَرَسُولهُ أعلم . قال : « بَيْنهُما مَسِيرَة خَمْسمئة سنةٍ ، ومن[٤] كُلِّ سَماءٍ إلى سماء مَسيرة خمسمئة سَنَةٍ وكثف كُلِّ سَماء مَسِيْرة خَمْسمئَةِ سنةٍ ، وفوْق السَّماء السَّابعة بحْرٌ بين أسْفله وأعلاهُ كما بَيْن السَّماء والأرْضِ [ثُمَّ فوْق ذلكَ ثَمانيةُ أوْعَالٍ بيْن رُكبهن وأظلافهنَّ كما بينَ السَّماء والأرْضِ ، ثُمَّ على ظُهُورهم[٥] العَرْشُ بَيْنَ أسْفَلِهِ وَأعْلاهُ كمَا بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ][٦] . واللهُ فَوْقَ ذلك ، وليْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ منْ أعْمالِ بَني آدَمَ شَيْءٌ » . هذا لفظ الإمام أحمد .

ورواه أبو داود ، وابن ماجه ، والترمذي[٧] من حديث سماك بإسناده ، نحوه . وقال الترمذي[٨] : هذا حديث حسن . وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك وَوَقَفَهُ .

ولفظ أبي داود : « وهَلْ تَدْرُونَ بُعْدَ ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ ؟ » قالوا : لا نَدْري . قال : « بُعْدُ ما بَيْنَهُمَا إمَّا واحدةٌ أو اثنتان[٩] أو ثلاثة وسَبْعُونَ سَنَةً » ، والباقي نحوه[١٠] .

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧) .

(٢) ليست زيادة (للأحنف بن قيس) في المسند ، وقد صرح محمد بن عثمان بن أبي شيبة في « العرش » أن عبد الرزاق لم يذكر في حديثه الأحنف بن قيس ، ولكن روى الحديث بزيادة (الأحنف بن قيس) أبو داود (٤٧٢٣) والترمذي (٣٣٢٠) وغيرهما .

(٣) في ب : والأرض ؟ قلنا .

(٤) في ب : وبين .

(٥) في مسند أحمد : « ثم فوق ذلك العرش » وقوله : ثمَّ على ظهورهم . . والأرض . ليس في ب .

(٦) ما بين الحاصرتين سقط من أ ، وسقط بعضه من ب كما أشرتُ . وهو في المطبوع ، ومسند أحمد الذي نص المؤلف على أنَّه نقل لفظه .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٢٣) في السنة ، وابن ماجه في سننه (١٩٣) في المقدمة ، والترمذي في الجامع(٣٣٢٠) في التفسير . وإسناده ضعيف .

(٨) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وروى الوليد بن أبي ثور عن سماك نحوه ، ورفعه . وروى شريك عن سماك بعض هذا الحديث وأوقفه ولم يرفعه . .

(٩) كذا في ب ، وسنن أبي داود . والذي في أ ، والمطبوع : أو اثنتين ؛ وهو خطأ .

(١٠) أدرج ناسخ (ب) هنا القول : قال شهربن حوشب : حملةُ العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهمَّ وبحمدك على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهمَّ وبحمدك على عفوك بعد قدرتك . قال : وكانوا=

وقال أبو داود[١] : حدَّثنا عبد الأعلى بن حَماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار وأحمد بن سعيد الرِّباطي[٢] قالوا : حدَّثنا وَهْب بن جرير ـ قال أحمد : كتبناه من نسخته ، وهذا لفظه ـ قال : حدَّثنا أبي قال[٣] : سمعت محمد بن إسحاق يُحدِّث عن يعقوب بن عتبة ، عن جبير بن محمد بن جبير بن مُطعم ، عن أبيه ، عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال : يا رسولَ الله : جهِدَتِ الأنْفُسُ ، وَجَاعتِ[٤] العيالُ ، وَنُهكتِ الأمْوالُ [وهَلَكتِ الأنْعامُ] ، فاسْتَسْق اللهَ لَنا ، فإنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله ِ وَنَسْتَشْفعُ بالله عَلَيْكَ . فقال[٥] رسول الله ﷺ : « وَيحكَ ؛ أتَدْري ما تَقُولُ » ؟! وَسَبَّحَ رسولُ الله ﷺ فما زال يُسَبِّحُ حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه . ثمَّ قال : « وَيْحكَ ؛ إنَّهُ لا يُسْتَشْفعُ باللهِ على أحدٍ منْ خَلْقِهِ ، شَأْنُ الله ِ أعْظمُ منْ ذَلكَ . وَيْحكَ ، أتَدْري ما اللهُ ؟ إنَّ عَرْشَهُ على سَمواتِهِ لَهَكذا » ـ وقال بأصابعه مثل القبة عليه ـ « وَإنَّهُ لَيَئِطُّ بهِ أطِيْطَ الرَّحْل بالرَّاكب » . قال ابنُ بشار في حديثه : « إنّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ ، وَعرْشُهُ فَوْقَ سَمواتِهِ » ؛ وساق الحديث . وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عتبة وجبير بن محمد بن جبير ، عن أبيه عن جده . والحديث بإسناد أحمد بن سعيد أيضاً ، [هو الصحيح ، وافقه عليه جماعةٌ ، منهم يحيى بن معين ، وعلي بن المديني ، ورواه جماعة عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً][٦] وكان سَماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني[٧] . تفرد بإخراجه أبو داود .

= يرون أنَّهم يرون ذنوب بني آدم . رواه ابن أبي شيبة في (صفة العرش) . ورواه أيضاً من طريق الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] قال : الجن ، والإنس ، والشياطين ، و الملائكة ، والكرُوبيون ، ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعدّة هؤلاء فذلك قوله سبحانه : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ » .

(١) أبو داود (٤٧٢٦) .

(٢) الرباطي ، بكسر الراء المهملة ، وفتح الباء المنقوطة بواحدة : نسبة إلى الرباط ، وهو اسم لموضع رباط الخيل وملازمة أصحابها الثغر لحفظه من عدو الإسلام . وأحمد بن سعيد هذا ثقة ، وإنما قيل له الرباطي لأنه كان على الرباط وعمارته وتولّي الأوقاف التي له . وتصحّف في المطبوع من سنن أبي داود إلى : الرياطي بالياء آخر الحروف . أنساب السمعاني (٦/ ٧٠) .

(٣) في ب : أبي سمعت .

(٤) كذا في الأصول ، وفي سنن أبي داود : وضاعت .

(٥) ليست في أ ، وهي في ب وسنن أبي داود .

(٦) زيادة من ط ، موافقة لنص أبي داود ، ليست في أ و ب .

(٧) إسناده ضعيف ، ولا يصح في أطيط العرش حديث . والنهك : المرض ، المراد به هاهنا : التلف . والأطيط : صوت أقتاب الناقة ، أي : إنَّه ليعجز عن حمله وعظمته ، إذ كان معلوماً أنَّ أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتماله . النهاية لابن الأثير (١/ ٥٤) . وانظر ما نقله ابن الأثير عن الخطابي ، في هذا الحديث ، في جامع الأصول (٤/ ٢٤) .

وقد صنَّف الحافظ أبو القاسم بنُ عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث . سمَّاه : « بيانُ الوَهْمِ والتخليط الواقع في حديث الأطيط » ، واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن يسار راويه . وذكر كلام النَّاسِ فيه .

ولكنْ قد[١] رُوي هذا اللفظ من طريقٍ أخرى عن غير محمد بن إسحاق ؛ فرواه عَبْد بن حُميد[٢] ، وابن جرير[٣] في « تَفْسيريْهما » ، وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي « السُّنَّة » لهما ، والبَزّار في « مُسنده » ، والحافظ الضياء المقدسي في « مختاراته » من طريق أبي إسحاق السَّبيعي[٤] عن عبد الله بن خَليفة عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه قال : أَتَتِ امْرأةٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقالت : ادْعُ اللهَ أنْ يُدْخلني الجنَّةَ قال : فَعَظَّمَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعالى ، وقال : « إنَّ كُرْسيَّهُ وَسِعَ السَّمٰواتِ والأرْضَ ، وَإنَّ لَهُ أطيطاً كَأَطِيْط الرحل الجديد منْ ثقلِهِ » .

عبد الله بن خليفة ليس بذاك المشهور ، وفي سماعه من عمر نظر . ثمَّ منهم من يرويه موقوفاً ومُرْسلاً ، ومنهم من يزيد فيه زيادةً غريبةً . فالله أعلم .

وثبت في « صحيح البخاري »[٥] عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال : « إذا سَأَلْتُم اللهَ الجَنَّةَ فَسَلُوْهُ الفِرْدَوسَ فَإنَّهُ أعْلى الجنَّةِ[٦] ، وَفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ » . يُروى : « وفوقَه » بالفتح على الظرفية ، وبالضم[٧] ، قال شيخُنا الحافظُ المِزّي[٨] : وهو أحسن ، أي : وأعلاهما عَرْشُ الرحمنِ .

وقد جاء في بعض الآثار : أنَّ أَهْلَ الفِرْدَوْسِ يسمعون أطيطَ العَرْشِ ، وهو تَسْبِيْحُهُ وتعظيمه ، وما ذاك إلا لقربهم منه .

---

(١) في ب : ولكن روي .
(٢) هو أبو محمد عبد الحميد بن حُميد بن نصر الكِسِّي ، إمام جليل القدر ، يُعرف بعبد بن حميد له « تفسير » و« مسند » . توفي سنة (٢٤٩)هـ . أنساب السمعاني (١٠/ ٤٢٩) .
(٣) تفسير الطبري (٣/ ٨) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ من آية الكرسي في سورة البقرة .
(٤) كذا في ب وفي أ : السنبقي ؛ وهو خطأ . وأبو إسحاق السبيعي هو : عمرو بن عبد الله بن علي ، توفي سنة (١٢٧) .
(٥) الحديث كاملاً في صحيحه (٢٧٩٠) في الجهاد . و(٧٤٢٣) في التوحيد ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه الترمذي في الجامع (٢٥٣٠) في صفة الجنة ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٦) قوله : وأوسط الجنة ؛ سقط من ب .
(٧) على الابتداء أو الإخبار .
(٨) الحافظ المزي ، هو أبو الحجاج ، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف القضاعي المتوفى سنة (٧٤٢)هـ . إمام محدّث حافظ ، له مجموعة من الكتب على رأسها « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » . نُشر بتحقيق الدكتور بشار عواد معروف في مؤسسة الرسالة .

وفي « الصحيح »[(١)] أنَّ رسول الله ﷺ قال : « لَقَدِ اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحمنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعاذ » .

وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شَيْبةَ[(٢)] في كتاب « صِفَة العرش » عن بَعض السلف أنَّ العَرْشَ مخلوقٌ من ياقوتةٍ حَمْراء بُعْدُ ما بَيْنَ قُطْريه مسيرةُ خَمسين ألف سنةٍ[(٣)] .

وذكرنا[(٤)] عند قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] أنه بُعْد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرةُ خمسين ألف سنةٍ ، واتساعُه[(٥)] خمسون ألف سنة[(٦)] .

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أنَّ العرش فلكٌ مستدير من جميع جوانبه ، محيطٌ بالعالم من كل جهة ، وربما سَمَّوهُ : الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهذا ليس بجيدٍ ؛ لأنَّه قد ثبت في الشرع أنَّ له قوائمَ تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يُحمل ، وأيضاً فإنَّهُ فوق الجنَّة ، والجنةُ فوق السماوات ، وفيها مئةُ درجةٍ ، ما بين درجتين كما بين السماء والأرض ، فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك . وأيضاً فإنَّ العرش ، في اللغة : عبارة عن السرير الَّذي لِلْمَلِكِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] . وليس هو فلكاً ، ولا تَفهم منه العرب ذلك . والقرآن إنَّما نَزل بلغة العرب ، فهو سريرٌ ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقُبَّة على العالم ، وهو سقفُ المخلوقات[(٧)] .

---

(١) البخاري (٣٨٠٣) ، في مناقب الأنصار . وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٦٦) في فضائل الصحابة ، وابن ماجه في سننه (١٥٨) في المقدمة ، والترمذي في الجامع (٣٨٤٨) في المناقب ، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٦) كلهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) سيترجم له المؤلف في وفيات سنة (٢٩٧)هـ .

(٣) أورد المؤلف هذا النقل عن ابن أبي شيبة في تفسير قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ . . . ﴾ (٤/ ٤٩٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٩٢) وما بعدها . وقد أورد أربعة أقوال لتفسير مقدار اليوم .

(٥) كذا في المطبوع . وفي أ ،ب : الساعة . وعبارته في التفسير : . . . . وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة .

(٦) جاء في ب : زيادة مدرجة ليست في باقي الأصول : قال سهل بن أبي خلف : هو من ياقوتة حمراء . وقال وهب بن منبّه : هو مسيرة خمسين ألف سنة . رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح إليهما . وقال أيضاً : حدَّثنا قعنب بن محمد التيمي ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، حدّثنا داود بن عبد الرحمن المكّي ، عن محمد بن زاذان ، أنه أخبره عن أم سعد ـ امرأة من المهاجرات قالت : قال رسول الله ﷺ : « العرش على ملك في صورة ديك رجلاه في تخوم السفلى ، وعنقه مثبتة تحت العرش ، وجناحاه في المشرق والمغرب . فإذا سبّح ذلك الملك لم يبق شيء إلا سبح » .

(٧) أُدرجَ في ب . قوله : قال ابن أبي شيبة في صفة العرش : حدَّثنا إبراهيم بن أبي معاوية وهنَّاد بن السري قالا : حدَّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي نضرة ، عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ : « ما بين الأرض إلى السماء خمسمئة سنة ، وغلظ كل سماء خمسمئة سنة ، وما بين كل سماء إلى التي تليها خمسمئة سنة ، والأرضون مثل ذلك . وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك كله » .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] . وقد تقدَّم في حديث الأوعال[١] أنّهم ثمانية ، وفوق ظهورهنَّ العَرْشُ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وقال شهْرُ بْن حوْشب : حملةُ العرْش ثمانيةٌ ؛ أربعةٌ منهم يقولون : سُبْحانك اللّهُمَّ وبحَمْدكَ ، لَكَ الحمْدُ على حلْمكَ بَعْدَ عِلْمِكَ[٢] ، وأربعة يقولون : سُبْحانكَ اللّهُمَّ وبِحَمْدكَ لَكَ الحَمْدُ عَلَى عَفْوكَ بَعْدَ قُدْرَتكَ .

فأما الحديثُ الذي رواه الإمام[٣] أحمد[٤] : حدَّثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر [بن أبي شَيْبة][٥] ، حدَّثنا عبدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أنَّ رسول الله ﷺ صدَّق أمية بن أبي الصَّلْت[٦] في شيءٍ من شعره فقال : [من الكامل]

رَجُلٌ وثَوْرٌ تحْتَ رِجْلِ يَمينِهِ ... والنَّسْرُ للأُخْرَىٰ وَلَيْثٌ مُرْصدُ[٧]

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . فقال : [من الكامل]

والشَّمْسُ تَطْلعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... حَمْراءَ يُصْبِحُ لَوْنُها يَتَورَّدُ

تَأْبَى فما تَطلعُ لَنا في رِسْلِها ... إلا مُعَذَّبَةً وَإلا تُجْلَدُ[٨]

فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ » . فإنَّهُ حديثٌ صحيحُ الإسناد ، رجالُه ثقات[٩] . وهو يقتضي أنَّ

---

(١) تقدم الحديث ص١٥ وإسناده ضعيف .
(٢) في ب : لك الحمد على علمك ، وأربعة . . وهو سهو من الناسخ .
(٣) لفظة : الإمام ؛ سقطت من ب .
(٤) مسند أحمد (١/ ٢٥٦) وهو عند الدارمي في سننه (٢/ ٢٩٦) في الاستئذان ، باب في الشعر وفيه عنعنة ابن إسحاق ، وهو مدلس .
(٥) زيادة من ب ، وهو في مصنفه (٨/ ٥٠٥) .
(٦) شاعر جاهلي معروف ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وكان ينتظر أن تكون النبوّة له لما علم عن خبرها من رهبان النصارى وأحبار اليهود . انظر دراسة مفصلة عنه في ديوانه ، صنعة الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ السطلي .
(٧) البيت مع البيتين القادمين ، في ديوانه (ص٣٦٥) وهو من قصيدة طويلة مطلعها :
اعلم بأنَّ الله ليس كصُنْعِهِ ... صنْعٌ ، ولا يخفى عليه مُلْحد
وهي من شعره المتهم ، كما أشار الدكتور السطلي وسيأتي البيتان أيضاً ص (٥٤) .
(٨) أثبتُّ رواية ب ، وهي الموافقة للمصدر الذي ينقل منه المصنف وهو مسند أحمد .
(٩) أقول : لكن فيه محمد بن إسحاق مدلس ، وقد رواه بالعنعنة .

حَملة العرش اليومَ أربعةٌ[١] ، فيعارضه حديث الأوعال[٢] ؛ اللهمَّ إلا أن يُقال : إنَّ إثبات هؤلاء[٣] الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم ، والله أعلم .

ومن شعر أميَّة بن أبي الصَّلْت في العرش قولُه : [من الخفيف]

مجِّدُوْا اللهَ فَهْوَ للْمَجْد أهْلُ ... رَبُّنا في السَّماءِ أمْسَىٰ كَبيرا[٤]

بالبنَاءِ العَالي الَّذي بَهَرَ النَّا ... س وَسَوَّىٰ فَوْقَ السَّماءِ سَريرا[٥]

شَرْجعاً لا يَنالُهُ بَصَرُ العَيْـ ... ـنِ تَرَى حَوْلَهُ الملائِكَ صُوْرا[٦]

صُور : جمع أصْور ، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو[٧] . والشَّرْجعُ : هو العالي المنيف . والسرير : هو العرش ، في اللغة .

ومن شعر عبد الله بن رَوَاحة ـ رضي الله عنه ـ الذي عرَّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته[٨] : [من الوافر]

شهِدْتُ بأنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأنَّ النَّارَ مَثْوىٰ الكَافِرينا

وأنَّ العَرْشَ فوْقَ الماءِ طافٍ ... وفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالمينا

وتحْمِلُهُ ملائكةٌ كِرَامٌ ... مَلائكةُ الإلَهِ مُسَوَّمينا[٩]

ذكره ابن عبد البر[١٠] ، وغير واحد من الأئمة .

---

(١) في أ : أربع ، وهو سهو من الناسخ .

(٢) وحديث الأوعال ضعيف أيضاً ، على أن لفظ الثمانية في القرآن الكريم .

(٣) كذا ي ب ، وط . وفي أ : هذه الأربعة .

(٤) في ديوانه : . . . قديرا .

(٥) في ديوانه : بالبناء الأعلى الذي سبق . . .

(٦) الأبيات مطلع قصيدة في ديوانه (ص٣٩٩) وتخريجها فيه ، وهي من شعره المتهم ، كما أشار الدكتور السطلي .

(٧) الذي في النهاية لابن الأثير . واللسان : صور ، وهو المائل العنق لثقل حمله .

(٨) في أمالي اليزيدي (ص١٠٢) : كانت لعبد الله بن رواحة جارية يستسرها عن أهله ، فقالت له امرأته : لقد رأيتك دخلت مع جاريتك ، وإنك الآن لجنب ، فَجَاحَدَ ذلك . فقالت : فإن كنت صادقاً فاتلُ عليَّ القرآن . فقال : شهدت . . . [الأبيات] قالت : آمنت بالله وكذبت البصر . فأتى ابن رواحة رسولَ الله ﷺ ، فحدَّثه الحديث ، فضحك رسول الله ﷺ ، ولم يغير عليه . وكانت امرأته لا تحفظ القرآن ، ولا تقرؤه ، فظنته يقرأ منه . وانظر : سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٨) والأبيات في ديوان عبد الله بن رواحة (ص١٦٤) .

(٩) في أمالي اليزيدي : وتحمله ثمانية شداد . وفي ديوانه ، وأمالي اليزيدي ، والسير : مقرَّبينا .

(١٠) الاستيعاب (٦/ ١٧١) على هامش الإصابة (تحقيق . د . طه الزيني ـ القاهرة) .

وقال أبو داود[١] : حدَّثنا أحمد بن حفص بن عبد الله ، حدَّثني أبي ، حدَّثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، أنَّ النبي ﷺ قال : « أذنَ لي أنْ أُحدِّثَ عنْ مَلَكٍ منْ مَلائِكةِ اللهِ عَزَّ وجلَّ منْ حَملةِ العَرْشِ : إنَّ ما بينَ شَحْمةِ أُذُنهِ إلى عاتِقِهِ مَسِيرةُ سبعمئة عامٍ »[٢] .

ورواه ابن أبي حاتم ، ولفظه : « مخفق الطير مسيرة سبعمئة عام » .

وأمَّا الكُرْسي

فَرَوى ابن جرير[٣] من طريق جويبر ـ وهو ضعيف ـ عن الحسن البصري أنَّه كان يقول : الكرسي هو العَرش . وهذا لا يصح عن الحَسَن ، بل الصحيحُ عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره .

وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنَّهما قالا في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ؛ أي علمه[٤] .

---

(١) أبو داود في سننه (٤٧٢٧) في السنة ، وإسناده حسن . وانظر جامع الأصول (٤/ ١٩) .

(٢) زاد في ب : وقال محمد بن أبي شيبة : حدَّثنا يوسف بن يعقوب الصفّار ، حدَّثنا ابن أبي فُديك ، عن عبد الرحمن بن عبد المجيد ، عن هشام بن الغاز ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يُصبح وحين يُمسي : اللهمَّ إني أصبحت ؛ أُشهدك وأُشهد ملائكتك وحملة عرشك ، وجميع خلقك ؛ بأنَّك أنت الله لا إلَه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك . أعتق الله ربعه من النار . فإن قالها أربع مرات أعتقه الله من النار » .
طريق أخرى ، عن صحابي آخر : قال ابن أبي شيبة أيضاً : حدَّثنا عبيد بن يعيش ، حدَّثنا ابن خباب ، حدّثنا حميد مولى ابن علقمة المكي ، حدّثنا عطاء بن أبي رباح ، عن أبي هريرة ، حدَّثني سلمان بن الإسلام قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : اللهمَّ إني أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة العرش والسموات ومن فيهنّ والأرضين ، وأشهد جميع خلقك ؛ بأنَّك أنت الله ، وأكفّر من أبى ذاك من الأولين والآخرين ، وأشهد أنَّ محمداً عبدُك ورسولك . من قالها مرة أعتق الله ثلثه من النار ، ومن قالها مرتين أعتق الله ثلثيه ، ومن قالها ثلاثاً أعتقه الله من النار » .
طريق أخرى ، عن صحابي آخر : قال ابن أبي شيبة : حدَّثنا عبد الله ويحيى بن الربيع بن أبي راشد حدَّثنا محمود بن عطية ، عن أبيه ، عن أبي سعيد ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد يقول أربع مرات اللهمَّ إني أُشهدك ـ وكفى بك شهيداً ـ وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك ، وأنا أشهد أن لا إلَه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك . إلا كتب الله له فكاكه من النار » وهذه الروايات أسانيدها ضعيفة .

(٣) في تفسيره ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] (٣/ ٨) .

(٤) المصدر السابق (٣/ ٧) وفيه كثير من الآراء التي سيذكرها المؤلف هنا .

والمحفوظ عن ابن عباس ، كما رواه[١] الحاكم في « مستدركه »[٢] ـ وقال : إنَّه على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ـ من طريق سفيان الثوري ، عن عمار الدُّهْني[٣] ، عن مسلم البَطين[٤] ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس[٥] أنّه قال : الكرسي موضع القدمين[٦] ، والعرش لا يقدر قدره إلا اللهُ عَزَّ وجلّ[٧] . وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاَّس[٨] في « تفسيره » عن أبي عاصم النبيل ، عن الثوري ، فجعله مرفوعاً ، والصواب أنَّه موقوف على ابن عباس . وحكاه ابن جرير[٩] عن أبي موسى الأشعري ، والضحاك بن مزاحم ، وإسماعيل بن عبد الرحمن[١٠] السّدِّي : السماوات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش[١١] .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك ، عن ابن عباس أنَّه قال : لو أنَّ السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن ، ثمَّ وُصِلْن بعضهن إلى بعض ، ما كُنَّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة[١٢] .

وقال ابن جرير[١٣] : حدّثني يونس ، حدّثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدَّثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السمواتُ السَّبْع في الكرسي إلا كَدَراهمَ سَبْعَةٍ أُلْقيتْ في تُرسٍ » . قال : وقال أبو ذرّ : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ما الكُرْسيُّ في العَرْشِ إلا كَحلْقَةٍ منْ حَديدٍ أُلْقيتْ بَيْنَ

---

(١) في ب : كما رواه ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش والحاكم . . .

(٢) المستدرك (٢/ ٢٨٢) .

(٣) في أ : المديني . وهو : عمار بن معاوية الدهني البجلي الكوفي . والدُّهني : بضم المهملة وسكون الهاء : نسبة إلى دُهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس . . . بطن من بجيلة . تقريب التهذيب ، واللباب .

(٤) هو مسلم بن عمران البطين ، ويقال ابن أبي عمران . تقريب التهذيب .

(٥) زاد في ب في قوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ . وقد تقدم هذا قبل قليل .

(٦) تفسير الطبري (٣/ ٧) .

(٧) قال الطبري في تفسيره (٣/ ٧) : لما نزلت ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ قال أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله ؛ هذا الكرسي وسع السموات والأرض ، فكيف العرش ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . ﴾ [الأنعام : ٩١] .

(٨) في أ : لدلاس ؛ وهو خطأ .

(٩) تفسير الطبري (٣/ ٧) .

(١٠) قوله : وحكاه ابن جرير . . . عبد الرحمن . سقط من ب .

(١١) تتمة الخبر في تفسير الطبري : وهو موضع قدميه . أما قول أبي موسى فهو الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل . وقول الضحاك : كرسيه الذي يوضع تحت العرش الذي يجعل الملوك عليه أقدامهم .

(١٢) في ب : الفلاة . وانظر الدر المنثور (١/ ٣٢٨) فقد عزى الخبر إلى ابن مردويه ، وابن أبي حاتم ، ولم أجده في تفسير الطبري .

(١٣) تفسير الطبري (٣/ ٨) .

ظَهْرِي فَلاةٍ منَ الأَرْضِ[(١)] » .

أول الحديث مرسل ، وعن أبي ذر منقطع . وقد رُوي عنه من طريق أخرى موصولاً ، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في « تفسيره » : أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني ، أنبأنا عبد الله بن وهيب الغَزِّي[(٢)] ، أنبأنا محمد بن أبي السَّري العَسْقلاني ، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي ، عن القاسم بن محمد الثقفي ، عن أبي إدريس الخَوْلاني ، عن أبي ذر الغفاري أنَّه سال رسول الله ﷺ عن الكرسي ، فقال رسول الله[(٣)] ﷺ : « والذي نَفْسي بيدِهِ ما السَّماوات السَّبْعُ والأَرَضُون السَّبْعُ عِنْدَ الكُرْسي إلا كَحَلْقةٍ مُلْقاةٍ بأَرْضٍ فلاةٍ ، وإنَّ فَضْلَ العَرْش على الكُرْسي كفَضْلِ الفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ »[(٤)] .

وقال ابن جرير في « تاريخه »[(٥)] : حدَّثنا ابن وكيع [قال][(٦)] : حدَّثنا أبي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : سُئل ابن عباس عن قوله عَزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ على أي شيءٍ كانَ الماء ؟ قال : على متن الريح .

والسَّموات[(٧)] والأرضون[(٨)] وكل ما[(٩)] فيهنّ من شيء يحيط بها البحار ، ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل [ـ فيما قيل ـ][(١٠)] الكرسي .

وروى[(١١)] عن وهب بن منبه نحوه . وفسَّر وهْبٌ الهيكلَ فقال : شيءٌ[(١٢)] من أطراف السموات

---

(١) الحديث في تفسير الطبري (٣/ ٨) .

(٢) في أ : العربي ، وب : الفزي ، وفي ط : المغربي ، وكله تصحيف ، وما أثبتناه من معجم الطبراني الأوسط (٤٣٧٠) فما بعد ، والصغير (٥٩٩) .

(٣) الحديث في تفسير الطبري (٣/ ٨) بنحوه .

(٤) في نسخة ب ، زيادة : وروى محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب (صفة العرش) عن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أحمد بن علي الأسدي ، عن المختار بن غسان العبدي عن إسماعيل بن مسلم ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت رسول الله ﷺ وحده ، فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله ، أيّ آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : « آية الكرسي . ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » وهو حديث حسن بطرقه .

(٥) تاريخ الطبري (١/ ٤٠) .

(٦) زيادة في المطبوع : موافقة لنص ابن جرير في تاريخه .

(٧) في المطبوع : قال . والكلام من قول ابن عباس ، أورده ابن جرير كذلك (١/ ٤١) .

(٨) في تاريخ الطبري : والأرض .

(٩) في ب ، وتاريخ الطبري : من فيهن .

(١٠) زيادة من المطبوع . موافقة لرواية الطبري .

(١١) أي : الطبري ، وانظر قول وهب في تاريخه (١/ ٤١) .

(١٢) في أ : فقال : هو . . ، وفي ب : الهيكل الكرسي فقال : هو . وأثبت لفظ المطبوع ، وهو موافق لرواية الطبري .

محدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط[١] .

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أنَّ الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يُسَمُّونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر ؛ لأنه قد ثبت أنَّه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير كما ورد [في][٢] الحديث المتقدم بأنَّ نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة ، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك . فإن قال قائلُهم : فنحن نعترف بذلك ، ونسمّيه مع ذلك فلكاً ، فنقول : الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك ، وإنَّما هو ـ كما قال غير واحد من السلف ـ : بين يدي العرش كالمرقاة إليه . ومثل هذا لا يكون فلكاً . وزعمهم[٣] أنَّ الكواكب الثوابت مرصَّعة ، لا دليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً ، كما هو مقرر في كتبهم . والله أعلم .

* * *

ذِكْرُ اللَّوْح المحفُوْظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني[٤] : حدَّثنا محمد بن عثمان[٥] بن أبي شَيبة ، حدَّثنا مِنْجاب بن الحارث ، حدَّثنا إبراهيم بن يوسف ، حدَّثنا زياد بن عبد الله ، عن ليث ، عن عبد الملك بن سعيد[٦] بن جبير [عن أبيه][٧] ، عن ابن عباس أنَّ نبي الله ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحاً مَحْفوظاً منْ دُرَّةٍ بَيْضاءَ صَفحاتُها منْ يَاقُوتةٍ حَمْراءَ ، قَلَمُهُ نُوْرٌ ، وكِتَابُهُ نُوْرٌ ، للهِ فِيْهِ في كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلاثُ مئة لحظة[٨] يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُميتُ وَيُحْيي وَيُعزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعلُ ما يَشَاءُ »[٩] .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرني مُقاتل وابنُ جُرَيْج عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إنَّ في صَدْر اللَّوْح : لا إِلَهَ إلا اللهُ وحْدَهُ[١٠] ، دِيْنُهُ الإِسْلام ، ومُحمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَمنْ آمَنَ باللهِ وَصَدَّقَ بِوَعْدِهِ

---

(١) « الأطناب » : مفردها طُنُبٌ ، وهو حبل تشد به الخيمة إلى الأرض ، والفُسطاط : بيت من شعر .
(٢) زيادة من ب .
(٣) في ب : وزعم .
(٤) المعجم الكبير (١٢٥١١) .
(٥) في أ : سليمان ، خطأ ظاهر .
(٦) في ب : جي .
(٧) زيادة من ب والمطبوع ، والمعجم الكبير الذي ينقل منه المصنف .
(٨) في أ، ط : « نظرة » ، وما هنا من ب، وهو الموافق للمصدر الذي ينقل منه وهو المعجم الكبير للطبراني .
(٩) إسناده ضعيف ، محمد بن عثمان ضعيف ، وليث هو ابن أبي سليم ضعيف أيضاً .
(١٠) في ب : اللوح المحفوظ . . . وحده لا شريك له . . .

واتَّبَعَ رُسُلَه ، أدْخلَهُ[١] الجنَّةَ . قال : وَاللَّوْحُ : لَوْحٌ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ . طُولُهُ ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ ، وعَرْضُه ما بين المشرِقِ والمغْرب ، وحافتاهُ الدرُّ والياقوتُ ، ودفتاهُ ياقوتةٌ حَمراءُ ، وَقَلَمُهُ نُورٌ ، وكلامهُ مَعْقُودٌ بالعَرْشِ ، وأصْلُه في حجر ملك .

وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف : اللَّوْحُ المحفوظ في[٢] جبهةِ إسْرافيل .

وقال مقاتل : هو عن يمين العرش .

***

باب
ما ورد في خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الفرقان : ٥٩] في غير ما آية من القرآن[٣] .

وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين : فالجمهور على أنها كأيامنا هذه[٤] .

وعن ابن عبَّاس ، ومجاهد ، والضَّحَّاك ، وكعب الأحبار : [أن][٥] كلَّ يوم منها كألف سنةٍ مما تَعُدُّون . رواه ابن جرير[٦] ، وابن أبي حاتم . واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي رد

---

(١) في ب : أدخله الله الجنة .
(٢) في أ : من .
(٣) و [السجدة : ٤] .
(٤) قوله : هذه ؛ ليس في ب .
أقول : قال الخازن في تفسيره (٢/ ٩٥) : فتكامل جميع الخلق في ستة أيام ، كل يوم مقداره ألف سنة ، وهذا قول جمهور العلماء ، وقيل : في ستة أيام من أيام الدنيا . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١١) : قوله : في ستة أيام ، قال ابن عباس : مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة ، وبه قال كعب ، ومجاهد ، والضحاك ، ولا نعلم خلافاً في ذلك ، ولو قال قائل : إنها كأيام الدنيا ، كان قوله بعيداً . وانظر القرطبي (٧/ ٢١٩) .
(٥) زيادة من ب .
(٦) تفسير الطبري (٨/ ١٤٦ ـ ١٤٧ و١٧/ ١٢٩) وتاريخه (١/ ٤٤) وما بعدها : والقرطبي (٧/ ٢١٩) وابن كثير (٢/ ٢٢١) .

فيه على الجَهْمية[١] وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم[٢] . وسيأتي ما يدل على هذا القول .

وروى ابن جرير[٣] عن الضَّحَّاك بن مُزاحم ، وغيره أن أسماء الأيام الستة : أبجد ، هَوَّز ، حطّي ، كلمن ، سعفص ، قُرشت .

وحكى ابن جرير[٤] في أول الأيام ثلاثة أقوال ، فروي عن محمد بن إسحاق أنه قال : يقولُ أهل التوراة : ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الإنجيل : ابتدأ الله الخلقَ يومَ الإثنين . ونقول نحن المسلمين ، فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ : ابتدأ الله الخلقَ يَوْمَ السبت .

وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية ، وغيرهم . وسيأتي[٥] فيه حديث أبي هريرة « خَلَقَ اللهُ التربةَ يومَ السَّبتِ » .

والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير[٦] عن السُّدّي ، عن أبي مالك ، وأبي صالح عن ابن عبَّاس ، وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصَّحابة .

ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير[٧] . وهو نص التوراة ، ومال إليه طائفة آخرون[٨] من الفقهاء ، وهو أشبه بلفظ الأحد ، ولهذا كمل[٩] الخلق في ستة أيام ، فكان آخرهن الجمعة ، فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع ـ وهو اليوم الذي أضل اللهُ عنه أهلَ الكتاب قبلنا ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

---

(١) انظر « الرد على الزنادقة والجهمية » للإمام أحمد بن حنبل صفحة (١١) .

(٢) وقيل حديثاً : أما الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، فهي غيب لم يشهده أحد من البشر ، ولا من خلق الله جميعاً ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : ٥١] وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن .
إنها قد تكون ست مراحل ، وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشىء من قياس حركة الأجرام ـ إذا لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان ـ! وقد تكون شيئاً آخر . فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد . وكل حمل لهذا النص ومثله على تخمينات البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن ـ باسم (العلم !) ـ وهو محاولة تحكمية منشؤها الهزيمة الروحية أمام (العلم) الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٢) .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٤٤) .

(٥) (ص٣١ ، ت :٧) من هذا الجزء . ويأتي تخريجه والكلام عليه .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٤٧) .

(٧) تاريخ الطبري (١/ ٤٣ و٤٥) .

(٨) في ب : وآخرون ؛ وهو خطأ .

(٩) في ب : وهو أكمل .

وقال[1] تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩-١٢] .

فهذا يدل على أن الأرض خُلقت قبلَ السماء ، لأنها كالأساس للبناء ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا . . . ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ٦-١٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، أي : فصلنا ما بينَ السماءِ والأرضِ حتى هبَّتِ الرِّياحُ ونزلت الأمطارُ وجرتِ العيونُ والأنهار وانتعش الحيوان . ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] أي : عمَّا خلَق فيها من الكواكب الثوابت ، والسَّيَّاراتِ والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات ، وما في ذلك من الدلالة[2] على حكمة خالق الأرض والسماوات . كما قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥-١٠٦] .

فأما قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ[3] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ [4] وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٢٧-٣٣] . فقد تمسَّك بعضُ الناس بهذه الآية على تقدُّمِ خلقِ السماءِ على خلق الأرض ، فخالفوا صريحَ الآيتين المتقدمتين ، ولم يفهموا هذه الآية الكريمة ، فإنَّ مقتضى هذه الآية[5] أنَّ دَحْيَ الأرض ، وإخراج الماء

---

(١) على هامش أ ، عبارة : الدليل على خلق الأرض قبل السماء .
(٢) في ب : الدلالات .
(٣) في أ : أهم ؛ وهو خطأ .
(٤) في ب : فأخرج ليليها وأغطش ضحاها ؛ وهو خطأ .
(٥) في ب : الآية الكريمة أن . . .

والمرعى[١] منها بالفعل بعد خلق السماء ، وقد كان ذلك فيها[٢] مقدَّراً بالقوة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت : ١٠] . أي : هَيّأ أماكن الزرع ومواضعَ العيون والأنهار . ثم لما أكْمل خلقَ صورةِ العالم السفلي والعلوي ؛ دحَى الأرض فأخرج ما كان مُوْدَعاً فيها ، فخرجت العيون ، وجرت الأنهار ، ونبتت الزروع والثمار ، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أي : قرَّرها في أماكنها التي وضعها فيها وثبَّتها وأكدها وأطدها[٣] .

وقوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ ـ ٤٩] ، بأيدٍ ، أي : بقوة . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٤] ، وذلك أن كلَّ ما علا اتَّسعَ ، فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها . ولهذا كان المرسل أعلى من السماوات ، وهو أوسع منهن كلهن . والعرش أعظم من ذلك كله بكثير[٥] . وقوله بعد هذا : ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ أي : بَسَطناها وجعلناها مهداً ، أي : قارَّةً ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم . ولهذا قال : ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ ، والواو لا تقتضي الترتيب في الوقوع ، وإنما تقتضي الإخبار المطلق في اللغة[٦] . والله أعلم .

وقال البخاري[٧] : حدَّثنا عُمر بن حفص بن غياث[٨] ، حدَّثنا أبي ، حدَّثنا الأعمش ، حدَّثنا جامع بن شدَّاد ، عن صَفوان بن مُحْرز : أنه حدَّثه عن عِمْران بن حُصَيْن قال : دَخلتُ على النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وَعَقَلْتُ ناقتي بالباب ، فأتاهُ ناسٌ من بني تميم ، فقال : « اقبَلُوا البُشْرى يا بني تميم »[٩] ، قالوا : قد بَشَّرْتَنا[١٠] فأعطنا ـ مَرَّتين ـ ثم دخل عليه ناسٌ من اليمن فقال : « اقْبَلُوا البُشْرَى يا أَهلَ اليَمن إذْ[١١] لَمْ يَقْبَلها بَنُو تميم » ، قالوا[١٢] : قد قبلْنا يا رسولَ الله ، قالوا : جئناكَ نسألك عنْ هذا الأمر . قال : « كانَ اللهُ ولَمْ يكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وكَانَ عَرْشُهُ على المَاءِ ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ[١٣] كُلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السَّمواتِ

---

(١) كذا في ب ، وفي أ : والرعي .
(٢) في ب : ذلك مقدراً فيها بالقوة .
(٣) قوله : وأطدها ، ليس في ب .
(٤) هذا الجزء من الآية سقط من ب .
(٥) قال القرطبي (٧/ ٢١٩) : وخص العرش ، لأنه أعظم مخلوقات الله تعالى .
(٦) انظر : مغني اللبيب (ص٤٦٣) والجنى الداني (١٥٣) .
(٧) البخاري (٣١٩٠) في بدء الخلق .
(٨) في ب : حدثنا حفص بن عمر ؛ وهو خطأ .
(٩) قوله : فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، ليس في ب .
(١٠) كذا في ب وهي موافقة للفظ البخاري ، وفي أ : قد قبلنا .
(١١) في ب وهي موافقة لرواية البخاري ، وأشار ابن حجر في شرحه إلى رواية المتن .
(١٢) قوله قد ليس في ب .
(١٣) زاد في ب وخلق .

والأرْضَ » ، فنادى منادٍ : ذهبتْ ناقتُك يا ابْنَ الحُصَيْن ، فانْطلقتُ فإذا هي يقطع دُونها السراب ، فوالله لوَدِدْتُ أني كُنْتُ تركتها ، هكذا رواه هاهنا . وقد رواه في كتاب المغازي[١] ، وكتاب التوحيد[٢] ، وفي بعض ألفاظه : « ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْضَ » ، وهو لفظُ النَّسائي[٣] أيضاً .

وقال الإمامُ أحمدُ[٤] : حدَّثنا حجاج ، حدثني ابن جُريج ، أخبرني إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة ، عن أبي هريرة قال : أخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يومَ السَّبْتِ ، وخَلَقَ الجِبالَ فِيْها يومَ الأحدِ ، وخَلَقَ الشَّجَرَ فِيْها يَوْمَ الإثْنين ، وخلقَ المَكْرُوه فيها يومَ الثّلاثاءِ ، وخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأرْبعاءِ ، وَبثَّ الدَّواب فيها[٥] يومَ الخَميسِ ، وخَلَقَ آدمَ بعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعةِ آخر الخَلْقِ في آخِرِ ساعَةٍ منْ سَاعاتِ الجُمُعةِ فِيْما بينَ العَصْرِ إلى اللَّيْلِ » .

وهكذا رواه مسلم[٦] عن سُرَيْج بن يونس وهْرون بن عبد الله ، والنَّسائي[٧] عن هارون ويوسف بن سعيد ، ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المِصِّيصي[٨] الأعور ، عن ابن جُرَيْج ، به مثله سواء .

وقد رواه النَّسائي[٩] في التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجُوْزجَاني[١٠] ، عن محمد بن الصَّباح ، عن

---

(١) البخاري (٤٣٦٥) عن أبي نعيم ، و (٤٣٨٦) عن عمرو بن علي .
(٢) البخاري (٧٤١٨) عن عبدان .
(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٤٠) .
(٤) زاد في المطبوع : ابن حنبل ، والحديث في مسنده (٢/ ٣٢٧) .
(٥) كذا في أ ، ب وفي مسند أحمد ، ومسلم : « وبث فيها الدواب . . » .
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٨٩) في المنافقين : باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام .
ورواه أيضاً أحمد في المسند (٢/ ٣٢٧) والبيهقي في الأسماء والصفات صفحة (٣٨٣) ونقل تضعيفه عن بعض الأئمة ، وقد تقدم أن ابن كثير رحمه الله قال : وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم ، وقد تكلم عليه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ ، والحديث في صحيح مسلم سنده صحيح ، وقد صحَّحه الشوكاني في « فتح القدير » وإنما تكلم عليه بعض العلماء من جهة متنه ، ورأوا أنه معارض للقرآن ، والذي صحح الحديث سنداً ومتناً رأى أنه لا تعارض بينه وبين القرآن ، فإن الله تعالى ذكر في القرآن أنه خلق السماوات والأرض جميعاً في ستة أيام ، وخلق الأرض وحدها في يومين ، وهذا الحديث بين أن الله تعالى خلق ما في الأرض في سبعة أيام ، ويحتمل أن تكون هذه الأيام السبعة غير الأيام الستة التي ذكرها الله تعالى في خلق السماوات والأرض ، وحينئذ لا تعارض ، وإنما فصَّل هذا الحديث كيفية الخلق على الأرض وحدها ، والله تعالى أعلم .
(٧) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٠١٠) .
(٨) المصيصي ، بكسر الميم والصاد المشددة : نسبة إلى المصيصة ؛ مدينة على ساحل البحر . اللباب (٣/ ٢٢١) وضبطها ياقوت بفتح الميم . (معجم البلدان) .
(٩) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٩٢) .
(١٠) والجُوزَجاني ، بضم الجيم الأولى ، وسكون الواو ، وفتح الزاي : نسبة إلى مدينة بخراسان . الأنساب (٣/ ٣٦١) ومعجم البلدان (جوزجان) .

أبي عُبيدة الحدَّاد ، عن الأخضر[(١)] بن عجلان ، عن ابن جُريج ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن أبي هريرة : أنَّ رسولَ الله ﷺ ، أخذَ بيَدِهِ فقال : « يا أبا هُرَيْرَةَ إنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ وما بَيْنهما في ستَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتوى على العَرْشِ يَوْمَ السَّابعِ ، وخَلَقَ التُّرْبَةَ يومَ السَّبْتِ » ، وذكر تمامه بنحوه ، فقد اختلف فيه على ابن جريج[(٢)] .

وقد تكلم في هذا الحديث علي بن المديني والبخاري والبيهقي ، وغيرهم من الحفاظ[(٣)] .

قال البخاري في « التأريخ »[(٤)] : وقال بعضُهم : عن كعب ، وهو أصح ، يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقَّاه من كعب الأحبار ، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يُحدِّثُه عن صحفه ، وهذا يحدثه بما يصدّقه عن النبي[(٥)] ـ ﷺ ـ فكان هذا الحديث مما تلقّاه أبو هريرة ، عن كعب ، عن صحفه ، فوهم بعضُ الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ـ ﷺ ـ وأكَّدَ رفعَه بقوله : « أخَذَ رسول الله ـ ﷺ ـ بيدي » . ثم في متنه غرابة شديدة ، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات[(٦)] ، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام ، وهذا خلاف القرآن[(٧)] ، لأنَّ الأرض خُلقت في أربعة أيام ، ثم خُلقت السموات في يومين من دُخان ، وهو بُخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زُبدة[(٨)] الأرض بالقدرة العظيمة البالغة ، كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمْداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩]

---

(١) في أ : الأحصن ؛ وفيه تصحيف وتحريف . والأخضر بن عجلان الشيباني من رجال التهذيب ، قال ابن حجر في التقريب : (١/ ٥٠) صدوق .

(٢) زاد في ب : وقد أسنده الحافظ ابن عساكر في ترجمة غنايم بن أحمد : مسلسلاً يقول كل منهم شبك بيدي فلان .
وفي السند غرابة إلى إبراهيم بن أبي يحيى قال : شبك بيدي أيوب بن خالد وقال : شبك بيدي : أبو هريرة وقال : شبك بيدي رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : « خلق الله آدم يوم الجمعة ، والأرض يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والبحار يوم الخميس » . فهذا إسناد غريب ، وقد سقط منه عبد الله بن رافع وآخر في المتن ، ففيه نكارة شديدة سنداً ومتناً . والله أعلم .
ورواه الحاكم في علوم الحديث صفحة (٣٣) وأشار الحاكم إلى تضعيفه هكذا مسلسلاً بالتشبيك ، وعلته إبراهيم بن أبي يحيى ، فإنه متروك وأصله في صحيح مسلم غير مسلسل .

(٣) راجع الموضوع في جامع الأصول (٤/ ٢٥ ، ٢٦) وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٧/ ٢٤٣) .

(٤) راجع تاريخ البخاري (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤) .

(٥) في ب : عن رسول الله .

(٦) زاد في ب : والأرض .

(٧) وقد تقدم التعليق في الصفحة التي قبلها (٣١) أنه لا يخالف القرآن ، فانظره .

(٨) الزُّبدة : لون إلى الغُبرة .

قال : إن الله كان عرشُه على الماء ، ولم يخلق شيئاً مما خلَقَ قبل الماء[١] ، فلما أراد أن يخلُق الخلقَ أخرج من الماء دخاناً ، فارتفع فوق الماء ، فَسَما عليه ، فسمَّاه : سماءً ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعل سَبْع أرضين في يومين[٢] : الأحد والإثنين ، وخلق الأرض على حُوت ، وهو النون الذي قال[٣] الله تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ [القلم : ١] . والحوت في الماء ، والماء على صفاة[٤] ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح . وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض ، فتحرك الحوت ، فاضطرب[٥] ، فتزلزلت الأرض ، فأرسى عليها الجبال فَقَرَّت[٦] ، وخلق اللهُ يومَ الثلاثاء الجبالَ وما فيهن من المنافع ، وخلقَ يومَ الأربعاء الشجرَ والماءَ والمدائن والعمران والخراب ، وفتَقَ السماء وكانت رَتْقاً[٧] فجعلها سبعَ سمَاوات في يوم الخميس والجمعة . وإنما سُمّي : الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض . ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت : ١٢] . قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة [والخلق الذي فيها][٨] والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره[٩] . ثم زيَّن السماءَ [الدنيا] بالكواكب فجعلها زينةً وحفظاً تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش .

هذا الإسناد يَذْكُرُ به السّدّي أشياء كثيرة فيها غرابة ، وكأن كثيراً منها متلقى من الإسرائيليات ؛ فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب[١٠] ـ رضي الله عنه ـ بأشياء من علوم أهل الكتاب ، فيسمع له عمر تأليفاً له ، وتعجُّباً مما عنده مما يوافق كثيرٌ منه الحقَّ الذي ورد به الشرع المطهَّر ، فاستجاز كثيرٌ من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل[١١] ، لكن كثيراً ما يقع فيما يرويه غلط وليس هو منه ، ولكنه من الكتب التي ينقل عنها لأنها قد دخلها غلط كبير وخطأ كثير .

---

(١) في تفسير الطبري ، وابن كثير : ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء ،

(٢) في ب : في يوم الأحد والإثنين : وفي تفسير الطبري ، وابن كثير : في يومين في الأحد والإثنين .

(٣) في الطبري ، وابن كثير : هو الذي ذكره في القرآن .

(٤) « الصفاة » : الصخرة الملساء .

(٥) في ب : فاضطربن . ولا توافق لفظ الطبري ، وابن كثير .

(٦) أورده الطبري (١/ ١٥٢) وابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨) في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . . ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وتتمته فيهما يختلف لفظها عما في المتن .

(٧) « الرتق » : الالتئام .

(٨) زيادة من الطبري ، وابن كثير في تفسيره .

(٩) في الطبري : . . . وما لا يعلم ثم . . . وفي تفسير ابن كثير : ومما لا يعلم .

(١٠) قول : ابن الخطاب ؛ ليس في ب .

(١١) تقدم الحديث .

وقد روى البخاري في « صحيحه »[١] عن معاوية أنه كان يقول في كعب الأحبار : وإنْ كُنَّا لنَبْلُوَ عليه [الكذب][٢] ، أي فيما ينقله ؛ لا أنه يتعمد ذلك . والله أعلم .

ونحن نـورد ما نورده من الذي يسوقه كثيرٌ من كبار الأئمة المتقدمين عنهم ، ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يُكذبه ، ويبقى الباقي مما لا يصدَّق ولا يكذَّب ، وبالله المستعان ، وعليه التُّكلان .

قال البخاري : حدَّثنا قتيبة ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القُرشي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ في كتابِهِ ، فهوَ عِنْدهُ فَوْقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمتي غَلَبَتْ غَضَبي »[٣] . وكذا رواه مسلم ، والنَّسائي عن قتيبة به[٤] .

ثم قال البخاري[٥] :

* * *

باب[٦] ما جاء في سبع أرضين

وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ

---

(١) رواه البخاري كما في الفتح (١٣/ ٢٨٢) في الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، بلفظ : وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب .

(٢) من ط ، وهو موافق لرواية البخاري .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ، في بدء الخلق : باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ وقد أورده البخاري أيضاً من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه (٧٤٠٤) ، في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ ، و(٧٤٢٢) باب : ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ ، و(٧٤٥٣) باب : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ و(٧٥٥٣) باب : قوله الله تعالى : ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍ ﴾ .

(٤) مسلم في صحيحه (٢٧٥١) ، في التوبة : باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، وفيه : « إن رحمتي تغلب غضبي » والنسائي في الكبرى (٧٧٥٠) . وأخرجه ـ من طرق ـ ابن ماجه (١٨٩) في المقدمة : فيما أنكرت الجهمية و(٤٢٩٥) في الزهد : باب (٣٥) ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦) والترمذي (٣٥٤٣) في الدعوات : باب (١٠٠) خلق الله مئة رحمة ، كلهم من حديث أبي هريرة ، بنحوه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٥) البخاري (٣١٩٥) في بدء الخلق .

(٦) كلمة باب ؛ سقطت من المطبوع .

﴿ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] ثم قال : حدَّثنا[١] عليُّ بن عبد الله ، أخبرنا[٢] ابن عُلَيَّة ، عن عليّ بن المبارك ، حدَّثنا يحيى بن أبي كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض ، فدخل على عائشة فذكرَ لها ذلك . فقالت : يا أبا سلمة ! اجتنبِ الأرضَ ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « منْ ظلمَ قِيْدَ شِبْرٍ طُوِّقه منْ سبع أرضينَ »[٣] . ورواه أيضاً في كتاب المظالم[٤] ، ومسلم من طرقٍ[٥] ، عن يحيى بن أبي كثير به .

ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة به[٦] . ورواه أيضاً عن يونس ، عن أبان ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن عائشة بمثله[٧] .

ثم قال البخاري : حدَّثنا بشر بن محمد ، قال : حدَّثنا عبد الله ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن أبيه ، قال : قال النبيُّ ﷺ : « منْ أخذ شيئاً من الأرض بغير حقِّه خُسِفَ به يومَ القيامةِ إلى سبع أرضين »[٨] . ورواه في المظالم أيضاً[٩] : عن مسلم بن إبراهيم ، عن عبد الله ـ هو ابن المبارك ـ عن موسى بن عُقبة به ، وهو من أفراده .

وذكر البخاري هاهنا[١٠] حديث محمد بن سيرين ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ ، السنة اثنا عشرَ شهراً . . . » الحديث . ومراده ـ والله أعلم ـ تقرير قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] أي : في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقةٌ لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول ، فهذه[١١] مطابقة في الزمن ، كما أن تلك مطابقة في المكان .

---

(١) في ب : حدَّثني .
(٢) في أ و ب : « ثنا » ؛ وأثبت ما في البخاري والمطبوع .
(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣١٩٥) في بدء الخلق ، و (٢٤٥٣) في المظالم ، ومسلم (١٦١٢) في المساقاة .
(٤) البخاري (٢٤٥٣) في المظالم .
(٥) مسلم (١٦١٢) في المساقاة .
(٦) في المسند (٦/ ٧٨) و(٦/ ٢٥٢) .
(٧) رواه أحمد في المسند (٦/ ٦٤) .
(٨) رواه البخاري في صحيحه (٣١٩٦) في بدء الخلق .
(٩) البخاري (٢٤٥٤) في المظالم .
(١٠) أي في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٧) .
(١١) في أ : فهن .

ثم قال البخاري[١] : حدَّثنا عُبيد بن إسماعيل ، حدَّثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : أنَّه خاصمته أروى في حقٍّ زعمتْ أنه انتقصَه لها إلى مروان ، فقال سعيد رضي الله عنه : أنا أنتقصُ من حقِّها شيئاً ؟ أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « منْ أخذَ شِبْراً من الأرض ظُلماً فإنه يُطوَّقه يومَ القيامة من سبع أرضينَ » ورواه[٢] .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدَّثنا حسن ، وأبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ قالا : حدَّثنا عبد الله بن لَهيعة ، حدَّثنا عُبيد الله بن أبي جعفر ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ! أي الظلم أعظم ؟ قال : « ذراع من الأرض ينتقصُه المرءُ المسلمُ من حقِّ أخيه ، فليست حصاةٌ من الأرض يأخذها أحد إلا طُوِّقها يوم القيامة إلى قعرِ الأرضِ ، ولا يعلمُ قعرَها إلا الذي خلقَها » . تفرّد به أحمد ، وهذا إسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا عفان ، حدَّثنا وُهيب ، حدَّثنا سُهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « من أخذَ شِبْراً من الأرض بغير حقِّه طُوِّقه من سبع أرضين » تفرَّد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم .

وقال أحمد[٥] : حدَّثنا يحيى ، عن ابن عَجْلان ، حدَّثني أبي ، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : « منِ اقتطعَ شِبْراً من الأرض بغير حقِّه طُوِّقه إلى سبع أرضين » تفرَّد به أيضاً ، وهو على شرط مسلم .

وقال أحمد أيضاً[٦] : حدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا أبو عَوانة ، عن عمرَ بن أبي سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « منْ أخذَ من الأرض شِبْراً بغير حقِّه طُوِّقه من سبع أرضين » تفرَّد به أيضاً ،

---

(١) البخاري في صحيحه (٣١٩٨) في بدء الخلق .

(٢) كذا في الأصول . وفي البخاري : قال ابن أبي الزِّناد ، عن هشام ، عن أبيه ، قال : قال سعيد بن زيد : دخلت على النبي ﷺ ، فلعله يريد : ورواه البخاري معلقاً أو نحوه .

(٣) في المسند (١/ ٣٩٦) ، فيه ابن لهيعة ضعيف ، وأبو عبد الرحمن الحُبُلي ـ عبد الله بن يزيد ـ لم يرو عن ابن مسعود ، وإنما روى عن صغار الصحابة . وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٤) وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير (١٠٥١٦) وإسناد أحمد حسن ، وحسنه المنذري في الترغيب (٢٧٨٥) ولعل التحسين بسبب الشواهد المتقدمة في الصحيحين .

(٤) في المسند (٢/ ٣٨٨) وهو عند مسلم في صحيحه (١٦١١) في المساقاة .

(٥) في المسند (٢/ ٤٣٢) .

(٦) في المسند (٢/ ٣٨٧) وانظره في الترغيب (٢٧٨٢) .

وقد رواه الطبرانيُّ[١] من حديث مُعاوية بن قُرَّة عن ابن عباس مرفوعاً مثله .

فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين ، والمراد بذلك أن كلَّ واحدة فوقَ الأخرى ، والتي تحتَها في وسطها عند أهل الهيئة ، حتى ينتهيَ الأمر إلى السابعة ، وهي صمَّاء لا جوفَ لها ، وفي وسطها المركز ، وهي نقطة مقدَّرة متوهَّمة . وهو محطُّ الأثقال ، إليه ينتهي ما يَهبطُ من كلِّ جانب إذا لم يُعاوقه مانع . واختلفوا هل هنَّ متراكمات بلا تفاصل ، أو بين كلِّ واحدة والتي تليها خَلاء[٢] ؟ على قولين . وهذا الخلاف جارٍ في الأفلاك أيضاً .

والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة ، لظاهر قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] الآية .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدَّثنا سُريج، حدَّثنا الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرَّت سحابة ، فقال : « أتدرون ما هذه ؟ » قال : قلنا : الله ورسوله أعلمُ. قال : العَنان ، ورَوايا[٤] الأرض يسوقُه إلى من لا يشكرونَه من عباده ولا يَدْعونه ، أتدرون ما هذه فوقكم ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلمُ . قال : الرَّقيع[٥] ، موجٌ مكفوفٌ وسقفٌ محفوظٌ . أتدرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلم . قال : مسيرة خمسمئة عام . ثم قال : أتدرون ما الذي فوقَها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : مسيرة خمسمئة عام ، حتى عدَّ سبعَ سموات . ثم قال : أتدرونَ ما فوقَ ذلك ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلمُ . قال : العرش . أتدرونَ كم بينَه وبين السماء السابعة ؟ قلنا : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : مسيرة خمسمئة عام . ثم قال : أتدرون ما هذه تحتكم ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلم . قال : أرض ، أتدرونَ ما تحتها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : أرض أخرى ، أتدرون كم بينهما ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : مسيرة سبعمئة عام ، حتى عدَّ سبع أرضين . ثم قال : وايم الله لو دلَّيتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبطَ . ثم قرأ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

ورواه الترمذي[٦] : عن عبد بن حميد ، وغيرُ واحد عن يونسَ بن محمد المؤدب ، عن شيبانَ بن عبد الرحمن ، عن قتادةَ ، قال : حدَّث الحسنُ ، عن أبي هريرة . . وذكرَه ، إلا أنه ذكرَ أن بُعدَ ما بين كل

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩٢١) وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٥) وفيه محمد بن الفضل بن عطية ، وهو متروك كذاب ، ولفظه : « من أخذ شبراً من مكَّة . . . » .

(٢) في ب والمطبوع : مسافة .

(٣) في المسند (٢/ ٣٧٠) .

(٤) الروايا من الإبل : الحوامل للماء ، واحدتها راوية ، فشبهها بها . انظر النهاية ، لابن الأثير (٢/ ٢٧٩) .

(٥) الرقيع : السماء ، وقيل : هو اسم سماء الدنيا . انظر جامع الأصول (٤/ ٢٣) .

(٦) الجامع (٣٢٩٨) في التفسير .

أرضين خمسمئة عام ، وذكرَ في آخره كلمةً ذكرناها[١] عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد ، ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، قال : ويُروى عن أيوب ، ويونسَ بن عُبيد ، وعلي بن زيد أنهم قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة[٢] .

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في « تفسيره » من حديث أبي جعفر الرازي ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ، فذكرَ مثل لفظ الترمذي سواء بدون الزيادة في آخره[٣] .

ورواه ابن جرير في « تفسيره » عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة مرسلاً[٤] . وقد يكون هذا أشبه والله أعلم .

ورواه الحافظان أبو بكر البزّار والبيهقيُّ من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ[٥] بنحوه . و لكن لا يصح إسناده والله أعلم .

وقد تقدَّم[٦] عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يُخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له . وفيه : وبعدُ ما بين كلِّ سماءين خمسمئة عام ، وكثفها ، أي : سمكها خمسمئة عام . وأما ما ذهبَ إليه بعض المتكلِّمين على حديث « طُوِّقهُ من سَبْعِ أَرْضِيْنَ »[٧] أنها سبعة أقاليم . فهو قول يُخالف ظاهرَ الآية والحديثَ الصحيح ، وصريحَ كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة . ثم إنه حَمْلٌ للحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل ، والله أعلم .

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب ، وتلقَّاه عنهم طائفة من علمائنا ، من أن هذه الأرض من تراب ، والتي تحتَها من حديد ، والأخرى من حجارة من كبريت ، والأخرى من كذا ، فكلُّ هذا إذا لم يُخْبر به ويصح سندُه إلى معصوم فهو مردود على قائله .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ؛ لابن كثير (٤/ ٣٥٩) وقال الترمذيُّ : وفسَّر بعضُ أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف في كتابه .

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣٢٩٨) في التفسير ، قلت : وإسناده ضعيف .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٤/ ٣٠٣) عن الحسن عن أبي هريرة .

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (١١/ ٦٧٠) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٥٩) وقال الحافظ ابن كثير : رواه البزار في مسنده ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات ، وفي متنه غرابة ونكارة .

(٦) تقدم الحديث (ص١٧) .

(٧) تقدم الحديث (ص٣٥) .

وهكذا الأثر المرويُّ عن ابن عباس أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه ، حتى آدم كآدمكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، فهذا ذكرهُ ابن جرير[١] مختصراً ، واستقصاه البيهقي في « الأسماء والصفات »[٢] وهو محمولٌ ـ إن صحَّ نقلُه عنه ـ على أنه أخذَه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا يزيد ، حدَّثنا العوَّام بن حَوْشب ، عن سُليمان بن أبي سُليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبيِّ ﷺ قال : « لما خلق الله الأرضَ جعلتْ تميدُ[٣] ، فخلقَ الجبالَ ، فألقاها عليها فاستقرَّتْ ، فتعجبتِ الملائكةُ من خَلْق الجبالِ ، فقالتْ : يا ربِّ : هل من خلقكَ شيءٌ أشدُّ من الجبال ؟ قال : نعم الحديدُ . فقالت : يا ربِّ : فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الحديد ؟ قال : نعم النَّار . قالت : يا ربِّ ! فهلْ من خَلقكَ شيءٌ أشدُّ من النَّار ؟ (قالَ : الماء . قالت : يا ربّ ! فهل من خلقك شيء أشدُّ من الماء ؟)[٤] ؛ قال : نعم الرِّيحُ . قالت : يا ربِّ ! فهل من خلقكَ شيءٌ أشدُّ من الريح ؟ قال : نعم ابنُ آدمَ يتصدَّق بيمينهِ يُخفيها من شمالِه » . تفرَّد به أحمد[٥] .

وقد ذكرَ أصحابُ الهيئة أعدادَ جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً ، وذكروا أطوالَها وبُعدَ امتدادها وارتفاعها ، وأوسعوا القولَ في ذلك بما يطول شرحه هاهنا . وقد قالَ الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : ٢٧] قال ابن عباس وغير واحد : الجُدَدُ : الطرائقُ . وقال عكرمة وغيره : الغرابيب : الجبال الطِّوال السُّود[٦] . وهذا هو المشاهدُ من الجبال في سائر الأرض ، تختلفُ باختلاف بقاعها وألوانها .

وقد ذكرَ الله تعالى في كتابه ﴿ ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٤][٧] على التعيين ، وهو جبل عظيم[٨] شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة ، عند الموصل ، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاعه مسيرة نصف يوم ، وهو أخضرُ لأن فيه شجراً من البلُّوط ، وإلى جانبه قرية يُقال لها : قرية « الثمانين »[٩]

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٢/ ١٤٥) .
(٢) الأسماء والصفات ، للبيهقي (٢/ ١٣١) وقال : إسناد هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما صحيح ، وهو شاذ بمرة ، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً ، والله أعلم .
(٣) تميد : من الميد : وهو اضطراب الشيء العظيم ؛ كاضطراب الأرض . قاله الأصفهاني في مفرداته .
(٤) سقطت من أ والمطبوع ، وأثبتها من ب والمسند .
(٥) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٤) ولم يتفرد به ، بل رواه الترمذي في جامعه (٣٣٦٦) في التفسير ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . أقول : وإسناده ضعيف .
(٦) انظر تفسير الطبري (١٠/ ٤٠٩) وتفسير القرآن العظيم ؛ لابن كثير (٣/ ٦٧٨) .
(٧) قال الله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٤] .
(٨) انظر معجم البلدان ؛ لياقوت الحموي (٢/ ١٧٩) .
(٩) معجم البلدان (٢/ ٨٤) .

لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها ، فيما ذكره غيرُ واحد من المفسرين[١] ، والله أعلم .

وذكر تعالى ﴿ طور سيناء ﴾ وقد روى[٢] الحافظُ البهاء ابن عساكر في كتابه (المستقصى في فضائل المسجد الأقصى) في ترجمة الجبال المقدسة من طريق عمرو بن بكر ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أبي هريرة قال : أقسمَ ربُّنا عز وجل بأربعة أجبل ، فقال : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [التين : ١ - ٣] فالتين : طور زيتا مسجدُ بيت المقدس ، والزيتون : طور تينا ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين : جبل مكة[٣] .

وقال قتادة : التين جبل عليه دمشق ، والزيتون : جبل عليه بيت المقدس[٤] .

وروى الحافظ ابن عساكر عن كعب الأحبار أنَّه قال : أربعة أجبل يوم القيامة : جبل الخليل ، والتين ، والطور ، والجودي ، يكون كل واحد منها يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء ما بين السماء والأرض ، يرجعن إلى بيت المقدس حتى تجعل في زواياه ، ويضعُ (الجبَّارُ جلَّ جلاله)[٥] عليها كرسيَّه حتى يُقضى بين أهل الجنة والنار ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٦] [الزمر : ٧٥] .

ومن طريق الوليد بن مسلم ، حدثنا عمَّار بن أبي العالية ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم أبي عبد الرحمن قال : أوحى الله إلى جبل قاسيون أن هَبْ ظلَّكَ وبركتكَ لجبل بيت المقدس ، قال : ففعلَ ، فأوحى الله إليه : أما إذ فعلتَ فإني سأبني لي في حضنكَ بيتاً ؛ يعني مسجدَ دمشق ، أُعْبَدُ فيه بعد

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٢/ ٤٨) والقرطبي (٩/ ٤٤) .
(٢) في أ : ذكر .
(٣) ذكره الشمس السيوطي في « إتحاف الأخصَّا بفضائل المسجد الأقصى » (١/ ٢٢١) بلفظ : فالتين مسجد دمشق ، والزيتون طور زيتا مسجد بيت المقدس ، وطور سنين حيث كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مكة .
وانظره في « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور (١/ ٢٥٥) عن يزيد بن ميسرة بلفظ « أربعة أجبل مقدسة بين يدي الله عز وجل : طور زيتا ، وطور سينا ، وطور تينا ، وطور تيمنانا . قال : فطور زيتا : بيت المقدس ، وطور سينا : طور موسى ، وطور تينا : مسجد دمشق ، وطور تيمنانا : مكة » .
وحديث البهاء ابن عساكر عن أبي هريرة فيه عمرو بن بكر : ضعيف ، وخالد بن معدان يرسل عن الصحابة الكبار .
(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر : لابن منظور (١/ ٢٥٥) ولفظه : أقسم الله تعالى بمساجد أربعة : قال : ﴿ وَالتِّينِ ﴾ وهو مسجد دمشق ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وهو مسجد بيت المقدس ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وهو حيث كلَّم الله موسى ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ وهو مكة .
(٥) سقط من ب واستدركته من مختصر تاريخ دمشق .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٨٧) .

خراب الدنيا أربعين عاماً ، ولا تذهبُ الأيام والليالي حتى أردَّ عليكَ ظلَّك وبركتَك ، قال : فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرّع[١] .

وعن خليد بن دَعْلَج : أنَّ صفية زوج النبي ﷺ أتتْ طرفَ بيت المقدس فصلّتْ فيه ، وصعِدت إلى طور زيتا فصلَّت فيه ، وباتت على طرف الجبل ، فقالتِ : (من هاهنا يتفرَّقُ النَّاسُ يومَ القيامة إلى الجنة وإلى النار[٢])[٣] .

فصل في البحار والأنهار

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٤ ـ ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر : ١٢] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢٠] فالمراد بالبحرين : البحر الملح المرُّ ، وهو الأجاج ، والبحر العَذْبُ ، هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد ؛ قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٢ ـ ٣٤] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣١ـ٣٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

---

(١) ذكره ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٥٥ـ٢٥٦) وفي سنده علي بن يزيد الألهاني ، وهو ضعيف . ولم يرفعه .

(٢) ذكره الشمس السيوطي في « إتحاف الأخصّا » (١/ ٢٢١) وخليد بن دعلج السدوسي : ضعيف . انظر ميزان الاعتدال (١/ ٣٠٩) والتقريب ص(١٩٥) .

(٣) ما بين قوسين أثبته من ب ، وهو ساقط من أ والمطبوع .

وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

فامتنَّ تعالى على عباده بما خلقَ لهم من البحار والأنهار ، فالبحرُ المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبثقُ منه في جوانبها ، الجميع مالحُ الطعم ، مُرٌّ ، وفي هذا حكمة عظيمة لصحَّة الهواء ، إذ لو كان حلواً لأنتنَ الجوُّ وفسدَ الهواء بسبب ما يموتُ فيه من الحيوانات ، فكان يُؤَدِّي إلى تفاني بني آدم ، ولكن اقتضت الحكمةُ البالغةُ أن يكونَ على هذه الصفة لهذه المصلحة . ولهذا لما سُئلَ رسول الله ﷺ عن البحر قال : « هو الطَّهُورُ ماؤه الحِلُّ مَيْتَتُهُ »[١] .

وأما الأنهار ، فماؤُها حلوٌ عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُها لمن أراد ذلك . وجعلَها جاريةً سارحةً يُنْبِعُها تعالى في أرضٍ ويسوقُها إلى أخرى رزقاً للعباد . ومنها كبارٌ ومنها صغارٌ بحسب الحاجة والمصلحة .

وقد تكلَّم أصحابُ علم الهيئة والتسبير[٢] على تعداد البحار والأنهار الكبار ، وأصول منابعها ، وإلى أن ينتهي سيرُها بكلام فيه حكمٌ ودلالاتٌ على قدرةِ الخالق تعالى ، وأنَّه فاعلٌ بالاختيار والحكمة وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور : ٦] فيه قولان : أحدُهما أنَّ المرادَ به البحر الذي تحتَ العرش المذكور في حديث الأوعال[٣] . وأنه فوقَ السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماءٍ إلى سماء ، وهو الذي ينزلُ منه المطرُ قبلَ البعث فتحيا منه الأجسادُ من قبورها . وهذا القولُ هو اختيار الربيع بن أنس[٤] . والثاني أنَّ البحرَ اسمُ جنس يعمُّ سائرَ البحار التي في الأرض ، وهو قول الجمهور .

واختلفوا في معنى ﴿ المسجور ﴾ فقيل : المملوء ، وقيل : الذي يصيرُ يومَ القيامة ناراً تأجَّجُ ، فيُحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في « التفسير »[٥] عن عليّ ، وابن عباس ، وسعيد بن جُبير ، وابن مجاهد ، وغيرهم . وقيل : المراد به الممنوع المكفوفُ المحروسُ عن أن يطغى فيغمرَ الأرضَ ومنْ عليها

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٧٧ و٣٦١ و٣٧٨ و٣٩٣) وأبو داود في سننه (٨٣) في الطهارة ، والترمذي في جامعه (٦٩) في الطهارة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه في سننه (٣٨٦) في الطهارة ، و(٣٢٤٦) في الصيد والنسائي في المجتبى (١/ ٥٠ و١٧٦) و(٧/ ٢٠٧) . كلهم من حديث أبي هريرة ، وهو حديث صحيح .
ورواه أحمد في المسند (٣/ ٣٧٣) وابن ماجه (٣٨٨) في الطهارة . من حديث جابر بن عبد الله . ورواه ابن ماجه (٣٨٧) من حديث الفراسي . ورواه أحمد في المسند (٥/ ٣٦٥) من حديث عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة .

(٢) كذا في الأصول : من السبر ، وهو امتحان غور الجرح وغيره ، فالمراد منه : العلم الذي يكشف عن أعماق الأنهار والبحار وأغوارها في الأرض ، وفي المطبوع : التفسير .

(٣) تقدم تخريج حديث الأوعال ص١٧ وهو ضعيف .

(٤) انظره في تفسير القرآن العظيم ؛ لابن كثير (٤/ ٢٨٢) .

(٥) المصدر السابق (٤/ ٢٨٣) .

فيغرقوا[١] . رواه الوالبي[٢] عن ابن عباس ، وهو قول السُّدِّي وغيره ، ويُؤيِّده الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد : حدَّثنا يزيدُ ، حدَّثنا العوَّام ، حدَّثني شيخٌ كان مرابطاً بالساحل ، قال : لقيتُ أبا صالحٍ مولى عمرَ بن الخطاب ، فقال : حدَّثنا عمرُ بن الخطَّاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليسَ من ليلةٍ إلا والبحرُ يُشرفُ فيها ثلاثَ مراتٍ يستأذنُ الله عزَّ وجلَّ أن ينفضح[٣] عليهم ، فيكُفُّه الله عزَّ وجلَّ »[٤] .

ورواه إسحاق بن راهويه : عن يزيد بن هارون ، عن العوَّام بن حَوْشب ، حدَّثني شيخ مرابط ، قال : خرجتُ ليلةً لمحرسٍ لم يخرجْ أحدٌ من الحرس غيري ، فأتيتُ الميناءَ فصَعِدتُ ، فجعل ، يخيَّلُ إليَّ أن البحرَ يشرفُ يُحاذي برؤوس الجبال ، فعلَ ذلك مراراً وأنا مستيقظٌ ، فلقيتُ أبا صالح ، فقال : حدَّثنا عمرُ بن الخطَّاب أن رسولَ الله ﷺ قال : « ما منْ ليلةٍ إلا والبحرُ يُشرفُ ثلاثَ مَرَّاتٍ يستأذنُ اللهَ أن يَنْفَضِحَ عليهم فيكُفَّه الله عزَّ وجلَّ »[٥] في إسناده رجل مبهم ، والله أعلم .

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كفَّ شرَّ البحر عن أن يطغى عليهم ، وسخَّره لهم يحمل مراكبَهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية[٦] بالتجارات وغيرها ، وهداهم فيه بما خلقَه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلَها لهم علاماتٍ يهتدون بها في سيرهم ، وبما خلقَ لهم فيه من اللآلىء الحسنة الثمينة والجواهر النفيسة العزيزة التي لا تُوجد إلا فيه وبما خلقَ فيه من الدوابِّ الغريبة ، وأحلَّها لهم حتى مَيْتَتِها ، كما قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾ [المائدة : ٩٦] وقال النبي ﷺ : « هو الطَّهُورُ ماؤُه الحِلُّ مَيْتَتُه »[٧] وفي الحديث الآخر « أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتَانِ ودَمَانِ : السَّمكُ والجَرادُ ، والكَبِدُ ، والطُّحَالُ » رواه أحمد[٨] وابن ماجه[٩] ، وفي إسناده نظر[١٠] .

---

(١) في التفسير (٤/ ٢٨٣) عن عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . وعلي هذا قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب (ص٤٠٢) : مولى ابن العباس ، سكن حمص ، أرسل عن ابن عباس ولم يره ، صدوق قد يخطىء ، مات سنة ٤٣هـ .

(٢) الوالبي: هو علي بن سالم بن مخارق الوالبي، مولى العباس بن عبد المطلب، له تفسير القرآن، توفي سنة (١٢٣هـ).

(٣) ينفضح : ينفتح ويسيل .

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٣) وإسناده ضعيف لجهالة الشيخ الذي روى عنه العوَّام بن حوشب ، ولجهالة أبي صالح أيضاً .

(٥) ذكره المؤلف في التفسير (٤/ ٢٨٣) : وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي : حدثنا الحسن بن سفيان ، عن إسحاق بن راهويه والحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٢/ ١٧٦) في قصة طويلة عن إسحاق بن راهويه .

(٦) في ب : المباينة . وفي أ : البائنة .

(٧) سلف تخريجه قبل قليل .

(٨) في المسند (٢/ ٩٧) .

(٩) في سننه (٣٢١٨) و(٣٣١٤) .

(١٠) في إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف .

وقد قال الحافظُ أبو بكر البَزَّارُ في « مسنده »[١] : وجدتُ في كتابي، عن محمد بن معاوية البغداديِّ، حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رفعه، قال : « كلَّم الله هذا البحر الغربيَّ، وكلَّم البحرَ الشرقيَّ، فقالَ للغربيِّ : إنِّي حاملٌ فيكَ عِباداً من عبادي، فكيفَ أنت صانعٌ بهم ؟ قال : أُغْرِقُهم. قال : بأسُكَ في نواحيكَ، فَحَرمهُ الحِلْيَةَ والصَّيْدَ، وكلَّم هذا البحرَ الشَّرْقيَّ، فقال : إني حاملٌ فيكَ عباداً من عبادي فما أنتَ صانعٌ بهم ؟ قال : أحملُهم على يدي، وأكونُ لهم كالوالدةِ لولدِها، فأثابَه الحِلْيَة والصَّيْد ». ثم قال[٢] : لا نعلمُ أحداً رواه عن سُهَيْل إلا عبدُ الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث. قال : وقد رواه سُهيل، عن النعمان بن أبي عيَّاش، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً.

قلتُ : الموقوفُ على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبهُ، فإنه قد كان وجدَ يومَ اليرموك زاملتين[٣] مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكانَ يُحدِّث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات، منها المعروفُ والمشهورُ والمنكورُ والمردود. فأما المرفوع فتفرَّد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطَّاب، أبو القاسم المدنيّ، قاضيها ؛ قال فيه الإمام أحمد[٤] : ليس بشيء، وقد سمعتُ منه، ثم مزَّقتُ حديثه، كان كذَّاباً، وأحاديثه مناكير. وكذا ضعَّفه ابن معين[٥]، وأبو زُرعة[٦]، وأبو حاتم[٧]، والجوزجاني[٨]، والبخاري[٩]، وأبو داودُ[١٠]، والنَّسائي[١١]، وقال ابن عديّ[١٢] : عامَّة أحاديثه مناكير، وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التفسير المتكلِّمون على العُروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات، وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم، والأقاليم

---

(١) كما في كشف الأستار (١٦٦٩).

(٢) أي : البزار.

(٣) زاملتين : الزاملة : الدابَّة التي يُحمل عليها.

(٤) العلل (١/ ٣٦٦)، وتاريخ الخطيب (١١/ ٥٠١)، وتهذيب الكمال (١٧/ ٢٣٥).

(٥) تاريخ يحيى برواية الدوري (٢/ ٣٥١) وسؤالات ابن طهمان (١٨) و(٢٩٠)، وتهذيب الكمال (١٧/ ٢٣٦).

(٦) الجرح والتعديل ٥/ الترجمة (١٢٠٢).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) أحوال الرجال (١٢٠٢).

(٩) تاريخه الصغير (٢/ ٢٤٠).

(١٠) سؤالات الآجري لأبي داود (٣/ ١٠٨).

(١١) الضعفاء والمتروكون الترجمة (٣٥٦).

(١٢) الكامل في الضعفاء (٤/ ١٥٨٨، ١٥٩٠).

المتعدِّدة العرفية ، وما في البلدان والأقاليم من الخواصّ والنباتات ، وما يُوجد في كل قطر من أصناف[١] المعادن والتجارات ، قالوا : الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها ، وهو تسعون درجة ، والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء على هذا القدر منها لتعيشَ الحيوانات عليها ، وتنبت الزرع والثمار منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٠ ـ ١٣] .

قالوا : والمغمور من هـذا البادي منها قريبُ الثلثين منه أو أكثر قليلاً . وهو خمس وتسعون[٢] درجة .

قالوا: فالبحر المحيط الغربيّ ، ويُقال له : أوقيانوس ، وهو الذي يُتاخمُ بلادَ المغرب ، وفيه الجزائرُ الخالدات ، وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريباً ، وهو بحر لا يُمكن سلوكه ولا ركوبه ؛ لكثرة هيجه واغتلامه[٣] ، واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج، وليس فيه صيد[٤] ، ولا يُستخرجُ منه شيء ، ولا يُسافَر فيه لمتجر ولا لغيره، وهو آخذٌ في ناحية الجنوب حتى يُسامتَ الجبال القُمْر، ويُقال: جبال القمر التي منها منبع أصل نيل مصر، ويتجاوز خطَّ الاستواء. ثم يمتد مُشَرِّقاً، ويصير جنوبي الأرض . وفيه هناك جزائر الزنج[٥] ، وعلى سواحله خراب كثير. ثم يمتدُّ شرقاً وشمالاً حتى يتصلَ ببحر الصين والهند. ثم يمتدُّ شرقاً حتى يُسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة ، وهناك بلاد الصين . ثم ينعطفُ في شرقي الصين إلى جهة الشمال حتى يُجاوزَ بلاد الصين، ويُسامتَ سد[٦] يأجوج ومأجوج. ثم ينعطفُ ويستديرُ على أرضٍ غير معلومة الأحوال . ثم يمتدُّ مُغَرِّباً في شمالي الأرض ويُسامتُ بلادَ الروس ويتجاوزها ، ويعطف مُغَرِّباً وجنوباً ، ويستديرُ على الأرض ويعودُ إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي العربي[٧] إلى متن الأرض الزقاق ، الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب . ثم يأخذُ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقي بحارٌ أُخر ، فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال : إن في بحر الهند ألفا جزيرة وسبعمئة جزيرة ، فيها مدن وعمارات سوى المدن العاطلة ، ويقال لهذا البحر : الأخضر ، فشرقيُّه بحرُ الصين ، وغربيُّه بحر اليمن ، وشماليه بحر الهند ، وجنوبيه غير معلوم .

---

(١) في ب : « صنوف » ، وهو جمع صحيح أيضاً .
(٢) في ب : خمس وستون .
(٣) الهيج والاهتياج والهيجان بمعنىً ، واغتلام البحر : هيجانه واضطراب أمواجه .
(٤) في ب : وليس يُصاد منه .
(٥) في المطبوع : الزابج ، وفي معجم البلدان (المقدمة ص٢١) : وفي هذا البحر من النواحي المشرق جزائر الزانج ، ثم جزائر الديبجات ، وقُمير : ثم جزائر الزابج . .
(٦) انظر التعريف بهذا السد وما قيل عنه في معجم البلدان ، لياقوت (٣/ ١٩٧) .
(٧) أثبتها من أ .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهما ، وفيها فجاج تسلك المراكب بينها ، يسَّرها لهم الذي خلقَها ، كما جعل مثلها في البر أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقد ذكرَ بطليموس[١] في كتابه المسمَّى «بالمجسطي» الذي عُرِّبَ[٢] في زمان المأمون، وهو أصلُ هذه العلوم: أن البحار المتفجِّرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً. ومنها ما هو واحد، ولكن يُسمَّى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القُلْزُم . والقُلْزُم[٣] : قريةٌ على ساحله قريب من أيلة . وبحر فارس وبحر الخزر ، وبحر وَرَنْك ، وبحر الروم ، وبحر بُنْطش ، وبحر الأزرق ، مدينة على ساحله ، وهو بحر القَرْم أيضاً ، ويتضايق حتى يصبَّ في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية ، وهو الخليج القسطنطيني[٤] ، ولهذا تُسرعُ المراكبُ في سيرها من القَرْم إلى بحر الروم ، وتُبطىء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القَرْم ، لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب في الدنيا ، فإنَّ كلَّ ماءٍ جارٍ فهو حلوٌ إلا هذا ، وكلُّ بحر راكد فهو ملحٌ أجاجٌ ، إلا ما يُذكر عن بحر الخزر ، وهو بحر جرجان وبحر طبرستان ، أنَّ فيه قطعةً كبيرة ماءً حلواً فُراتاً ، على ما أخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة : وهو بحرٌ مستديرُ الشكل إلى الطول ما هو . وقيل : إنَّه مثلث كالقِلَع[٥] ، وليس هو متصلاً بشيءٍ من البحر المحيط ، بل منفردٌ وحده ، وطوله ثمانمئة ميل وعرضه ستمئة ، وقيل : أكثر من ذلك ، والله أعلم .

ومن ذلك البحرُ الذي يخرجُ منه المدُّ والجَزْرُ عند البصرة ، وفي بلاد المغرب نظيرُه أيضاً ، يتزايدُ الماء من أوّل الشهر ، ولا يزالُ في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشرة منه [وهو المدُّ][٦] . ثم يشرعُ في النقص وهو الجَزْرُ إلى آخر الشهر[٧] . وقد ذكروا تحديدَ هذه البحار ومسراها[٨] ومنتهاها ، وذكروا ما في

---

(١) في الأصل: أحد ملوك الهند، وهي جملة مقحمة، وبطليموس يونانيٌ، كان واحداً من أكبر علماء الفلك والجغرافيا في العصور القديمة، والمجسطي: اصطلاح مزيج من اليونانية والعربية، بمعنى المجيد. انظر الموسوعة العربية العالمية (٤/ ٤٦٦) . .

(٢) في الفهرست (ص٣٢٧) : أول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك (ت١٩٠هـ) ففسَّره جماعة فلم يتقنوه ، فندب لتفسيره غير واحد من أصحاب بيت الحكمة .

(٣) انظر التعريف بها في معجم البلدان (٤/ ٣٨٨) .

(٤) معجم البلدان ؛ لياقوت (المقدمة ص٢١) ومادة البحار فيه .

(٥) القِلَع : جمع قِلْع وقلاعة ؛ شراع السفينة .

(٦) أثبتها من ب .

(٧) المد والجزر: ارتفاع وانخفاض مسطحات مائية واسعة على فترات زمنية محدودة، وتتم مرتين خلال الفترة الزمنية الواقعة بين طلوعين متتاليين للقمر، وهي تعادل ٢٤ ساعة و٢٥ دقيقة. انظر الموسوعة العربية العالمية (٢٢/ ٤٦٢).

(٨) في المطبوع : ومبتداها .

الأرض من البُحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول ، وهي البطائح[١] .

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار ، وذكروا ابتداءَها وانتهاءَها ، ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه ، وإنما نتكلَّم على ما يتعلَّق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث . وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

وفي الصحيحين[٢] : من طريق قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة ، أن رسول الله ﷺ لما ذكرَ سِدْرة المنتهى ، قال : « فإذا يخرجُ من أصلها نهرانِ باطنان ، ونهرانِ ظاهران . فأمَّا الباطنان ففي الجنَّة ، وأما الظاهران فالنيلُ والفراتُ » .

وفي لفظ في البخاري[٣] : « عنصرُهما » أي : مادَّتُهما ، أو شكلُهما ، وعلى صفتهما ونعتهما ، وليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

وفي صحيح مسلم[٤] : من حديث عُبيد الله بن عمر ، عن خُبيب بن عبد الرحمن ، عن حَفْص بن عاصم ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « سَيْحانُ وجَيْحان والفرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنة » .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا ابن نُميرٍ ويزيد ، أنبأنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فُجِّرَتْ أربعةُ أنهارٍ من الجنة : الفراتُ ، والنيلُ ، وسَيْحان وجَيْحان » . وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تُشبه أنهارَ الجنَّة في صَفائها وعُذوبتها وجَريانها، ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها ، كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي وصحَّحه[٦] : من طريق سعيد بن عامر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « العَجْوةُ من الجَنَّة، وفيها شِفَاءٌ من السُّمِّ[٧] » أي: تُشبه ثمرَ الجنَّة. فإنَّ الحسَّ يشهدُ بخلاف ذلك، فتعيَّن أن المرادَ غيره.

---

(١) البطائح : جمع بَطيحة والبَطيح : مسيل واسع فيه رمل ودُقاق الحصى .

(٢) البخاري في صحيحه (٣٢٠٧) في بدء الخلق، ومسلم في صحيحه (١٦٤) في الإيمان . وهو بعض حديث الإسراء .

(٣) في ب : ولفظ البخاري . وهذا اللفظ الذي أشار إليه المصنف ليس من الطريق الذي ذكره قبل قليل ، بل هو من طريق شريك بن أبي نمر عن أنس وهو في التوحيد من صحيح البخاري (٧٥١٧).

(٤) (٢٨٣٩) في الجنة .

(٥) في المسند (٢/ ٣٠١ و٣٠٥) .

(٦) في جامعه (٢٠٦٦)، ووقع في بعض الطبعات « حسن غريب » .

(٧) في ب : الحر ، ولا يستقيم مع سائر ألفاظ الحديث .

وكذا قولـه ﷺ : « الحمَّى من فَيْـح جهنَّم فأبردُوهـا بالماء[١] »[٢] وكذا قوله : « إذا اشتدَّ الحَرُّ فأبردُوا بالصَّلاة ، فإن شدة الحرِّ من فَيْحِ جهنَّم »[٣] . وهكذا هذه الأنهار أصلُ منابعها مُشاهدٌ من الأرض .

أما النيل ، وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبُعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه ، فمبتداه من الجبال القُمْر ، أي : البيض ، ومنهم من يقول : جبال القَمَر[٤] ، بالإضافة إلى الكوكب ، وهي في غربيّ الأرض وراءَ خطِّ الاستواء إلى الجانب الجنوبي . ويُقال : إنَّها حُمْر يَنبعُ من بينها عيون ، ثم يجتمعُ من عشر مَسِيلاتٍ متباعدة ، ثم يجتمعُ كلُّ خمسة منها في بحرةٍ ، ثم يخرجُ منها أنهارٌ ستة ، ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى ، ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل ، فيمرُّ على بلاد السُّودان بالحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العُظمى دُمْقُلة ، ثم على أسوان ، ثم يفد على ديار مصر . وقد يحمل إليها من بلاد الحبشة زياداتِ أمطارها ، وما اجترفَ[٥] من ترابها وهي محتاجة إليهما معاً ، إن مطرَها قليلٌ لا يكفي زروعَها وأشجارَها ، وتربتُها رمالٌ لا تُنبتُ شيئاً حتى يجيءَ النيل بزيادته وطينه ، فينبتُ فيه ما يحتاجون إليه ، وهي من أحق الأراضي بدخولها في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] ثم يجاوزُ النِّيلُ مصرَ قليلاً ، فيفترقُ شطرين عند قرية على شاطئه ، يقال لها : شَطَنُوف[٦] ، فيمرُّ الغربيّ منه على رشيد ويصبُّ في البحر المالح . وأماالشرقيُّ فيفترقُ أيضاً عند جَوْجرَ فرقتين ، تمرُّ الغربيّةُ منهما على دِمياط من غربيِّها ، ويصبُّ في البحر ، والشرقية منهما تمرُّ على أشْمُون[٧] طَنَّاح ، فيصبُّ هناك في بحيرة شرقي دِمْياط ، يُقال لها : بحيرة تِنِّيس ، وبحيرة دمياط . وهذا بُعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه ، ولهذا كان ألطف المياه . قال ابن سينا : له خصوصيات دون سائر مياه الأرض ، فمنها : أنه أبعدها مسافة من مجراه

---

(١) وقع في بعض الأصول : « بالماء البارد » ، وليست في المطبوع ولا في روايات الحديث كلمة (البارد) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٢٦٢) في بدء الخلق وفي الطب (٥٧٢٦)، ومسلم (٢٢١٢) في الطب ، والترمذي في جامعه (٢٠٧٣) في الطب ، وابن ماجه في سننه (٣٤٧٢) في الطب ، كلُّهم عن رافع بن خديج بلفظ « فأبردوها بالماء » . وهو في الصحيحين أيضاً من حديث ابن عمر (البخاري ٣٢٦٤ ومسلم ٢٢٠٩)، وهو في البخاري (٣٢٦١) من حديث ابن عباس، و(٣٢٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنهم .

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٨ و٢٦٦) والبخاري في صحيحه (٥٣٣ و٥٣٤) في مواقيت الصلاة ، ومسلم في صحيحه (٦١٥) (١٨٢ و١٨٣) في المساجد .

(٤) انظر ما قيل في تسمية جبال القمر حسن المحاضرة (٢/ ٣٤٩) ؛ للسيوطي .

(٥) في ب : واجتراف من .

(٦) انظر ما قاله ياقوت عن هذه القرية في معجم البلدان (٣/ ٣٤٤) .

(٧) في معجم البلدان (١/ ٢٠٠) : أُشْموم .

إلى أقصاه . ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ، ومنها أنه لا يخضؤ فيه حجر ولا حصاة ، وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته ، ومنها أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار ، ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها ، وأما ما يذكره بعضُهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطَّلع عليه بعضُ الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواريَ حِساناً وأشياءَ غريبةً ، وأن الذي اطَّلعَ على ذلك[١] لم يمكنْه الكلامُ بعد هذا ، فهو من خرافاتِ المؤرِّخين وهذيانات الأفَّاكين[٢] .

وقد قال عبدُ الله بن لَهِيْعةَ[٣] : عن قيس بن الحجَّاج ، عمَّن حدثه قال : لمّا فُتحتْ مصر ، أتى أهلها عمرَو بن العاص حين دخلَ بؤنة ـ من أَشْهُرِ العجم ـ فقالوا : أيُّها الأمير ! إن لنيلنا هذا سُنَّةً لا يجري إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لِثنتي عشرة ليلةً خلتْ من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جاريةٍ بكْرٍ بين أبويها ، فأرْضَيْنا أبويْها وجعلنا عليها من الحليِّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام . إنَّ الإسلامَ يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤنةَ ، والنِّيلُ لا يجري قليلاً ولا كثيراً . وفي رواية : فأقاموا بؤنةَ وأبيب ومِسْرى[٤] وهو لا يجري ، حتَّى همُّوا بالجلاء . فكتبَ عمرو إلى عمرَ بن الخطَّاب بذلك . فكتب إليه إنَّك قد أصبتَ بالذي فعلتَ ، وإني قد بعثتُ إليكَ ببطاقةٍ داخلَ كتابي هذا فألقِها في النيل . فلما قدمَ كتابُه ، أخذَ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد : فإن كنتَ لا تجري إلا من قِبَلكَ فلا تَجْرِ ، وإن كان الله الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجريك فنسألُ اللهَ أنْ يُجريَكَ . قال : فألقى البطاقةَ في النيل ، فأصبحَ يومَ السبت قد زادَ ستةَ عشرَ ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطعَ الله سبحانه وتعالى[٥] تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم[٦] .

وأما الفرات : فأصلُها من شمال أَرْزَن الروم ، فتمرُّ إلى قرب مَلطية ثم تمر على سُمَيْساط ، ثم على إلبيرة[٧] قِبْليِّها ، ثم تُشَرِّقُ إلى بالس[٨] وقلعة جعبر[٩] ، ثم الرَّقّة ، ثم إلى الرحبة شماليِّها ، ثم إلى

---

(١) في ب : وأن الذي اطَّلعَ عليها لم يمكنه .

(٢) انظر حسن المحاضرة ؛ للسيوطي (٢/ ٣٥٠) .

(٣) عبد الله بن لهيعة بن عقبة ، أبو عبد الرحمن الحضرمي المصري ، قاضي مصر ، توفي سنة ١٧٤هـ كان شيخاً صالحاً ، ولكن خلط بعد احتراق كتبه . واحترقت كتبه قبل موته بأربع سنين . انظر المجروحين ؛ لابن حبان (٢/ ١١) .

(٤) أسماء أشهر قبطية .

(٥) زيادة من ب .

(٦) كانت هذه الحادثة سنة (٢٣هـ) كما في بدائع الزهور (١/ ١١١) . وانظر حسن المحاضرة (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) . وإسناد هذه الحكاية ضعيف ، لضعف ابن لهيعة عند التفرد وجهالة من روى عنه شيخ قيس بن الحجاج .

(٧) إلبيرة : من نواحي حلب .

(٨) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة . معجم البلدان (١/ ٣٢٨) .

(٩) قلعة على الفرات ، بين بالس والرقة ، قرب صِفِّين . معجم البلدان (٢/ ١٤٢) .

عانة ، ثم إلى هيت ، ثم إلى الكوفة ، ثم تخرجُ إلى فضاء العراق ، وتصبُّ في مصالح كبار ، أي : بحيرات وترد إليها ، ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سَيحان : ويُقال له : سَيْحون أيضاً ، فأوَّلُه من بلاد الروم ، ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق ، وهو غربيّ مجرى جيحان ، ودونَه في القدْر ، وهو ببلاد الأرمن التي تُعرف اليوم ببلاد سِيس ، وقد كانت في أول الدولة الإسلامية ، فلما تغلَّب الفاطميون[1] على الديار المصرية ، وملكوا الشام وأعمالَها عجزوا عن صَوْنها عن الأعداء ، فتغلب أليقفور الأرمني على هذه البلاد ، أعني بلادَ سيس في حدود الثلاثمئة ، وإلى يومنا هذا ـ والله المسؤول عودُها إلينا بحوله وقوته ـ ثم يجتمعُ سَيحان وجَيحان عند أذنَةَ ، فيصيران نهراً واحداً ، ثم يَصُبَّان في بحر الروم بين إياسَ وطرَسوس .

وأما جيحان : ويُقال له : جيحون أيضاً ، وتسمية العامة جاهان . وأصلُه في بلاد الروم ، ويسير في بلاد سِيس من الشمال إلى الجنوب ، وهو يُقارب الفرات في القدر ، ثم يجتمعُ هو وسيحان عند أذنَة فيصيران نهراً واحداً . ثم يَصُبَّان في البحر عند إياسَ وطرَسوس ، والله أعلم .

***

فصل

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٢ ـ ٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٠ ـ ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ـ ١٣] .

---

(١) في أ : تعدت القاطنون .

يذكر[١] تعالى ما خلقَ في الأرض من الجبال والأشجار والثِّمار والسهول والأوعار ، وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري ، والقِفار والبر والبحار مما يدلُّ على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه ، وما سهَّل لكلِّ دابّة من الرزق الذي هي محتاجة إليها في ليلها ونهارها ، وصيفها وشتائها ، وصباحها ومسائها ، كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقد روى الحافظُ أبو يعلى عن محمد بن المثنى ، عن عُبيد بن واقد ، عن محمد بن عيسى بن كَيْسان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، عن عمر بن الخطَّاب ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « خلقَ الله ألفَ أُمَّة : منها ستمئة في البحر ، وأربعمئة في البرِّ ، وأوَّلُ شيءٍ يهلكُ من هذه الأمم الجرادُ ، فإذا هلكَ تتابعتْ مِثْل النِّظام إذا قُطِعَ سِلْكُه »[٢] .

عبيد بن واقد : أبو عبَّاد البَصْري ، ضعَّفهُ أبو حاتم[٣] ، وقال ابن عديّ[٤] : عامَّة ما يرويه لا يُتابع عليه ، وشيخه أضعف منه[٥] . قال الفَلاَّس[٦] والبخاري[٧] : منكر الحديث . وقال أبو زُرْعة[٨] : لا ينبغي أن يُحدَّث عنه . وضعَّفه ابنُ حِبَّان[٩] والدارقطني[١٠] ، وأنكر عليه ابن عديّ هذا الحديث بعينه وغيره[١١] ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

* * *

(١) في ب : وذكرَ .
(٢) رواه أبو يعلى (٢٣٩٩ ـ المطالب العالية، النسخة المسندة) وحكم عليه ابن حبان بالوضع في ترجمته لابن كيسان .
(٣) الجرح والتعديل (٦/ الترجمة ١٨) .
(٤) الكامل (٥/ ١٩٩٠) .
(٥) يعني : محمد بن عيسى بن كيسان .
(٦) ساقه ابن عدي في الكامل عن الفلاس (٦/ ٢٢٤٩) .
(٧) تاريخه الكبير (١/ الترجمة ٦٣٥)، والصغير (٢/ ٢٧١) .
(٨) سؤالات البرذعي (٢/ ٥١٧) .
(٩) المجروحين (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦) بتحقيق السلفي .
(١٠) الضعفاء والمتروكون (٤٩٤) .
(١١) الكامل (٦/ ٢٢٥٠) .

باب ذكر ما يتعلَّق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدَّمنا أنَّ خلقَ الأرض قبل خلق السماء ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٣٠] . وقد أجبنا عن قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ . بأنَّ الدحي[1] غير[2] الخلق ، وهو بعد خلق السماء .

وقال تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١ ـ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٢ ـ ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ـ ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦١ ـ ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ ـ ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٨] .

---

(١) الدَّحي : والدَّحْو : البسط والتوسع . (٢) في ب : هو غير .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢ـ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ـ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٦ـ٩٧] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

والآيات في هذا كثيرة جداً ، وقد تكلَّمنا على كل منها في « التفسير » .

والمقصود أنه تعالى يُخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها ، وأنها في غاية الحسن والبهاء ، والكمال والسناء ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧] ، أي : الخلق الحسن ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ ـ ٤] ، أي : خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً ، وهو حسير ، أي : كليل ضعيف ، ولو نظر حتى يعيا ويكلَّ ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب ، لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزيَّن بالكواكب أُفقها ، كما قال : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج : ١] أي: النجوم . وقيل : محالّ الحرس التي يُرمَى منها بالشهب لمسترقي السمع ، ولا منافاة بين القولين، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ [1] وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٧] . فذكرَ أنَّه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسَّيَّارات : الشمس ، والقمر ، والنجوم الزاهرات . وأنه صانَ حوزتَها[2] عن حلول الشياطين بها ، وهذا زينة معناها ، فقال : ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ كما قال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصافات : ٦ـ٨] .

قال البخاري في كتاب بدء الخلق[3] : وقال قتادة : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك : ٥] خلق هذه النجوم لثلاث : جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهتدَى بها . فمن تأول

---

(١) في أ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ . . . ﴾ [الملك : ٥] وهو سهو من الناسخ .

(٢) حوزتها : حوزة الشيء : حدوده ونواحيه .

(٣) انظر فتح الباري (٦/ ٢٩٥) باب في النجوم .

فيهـا بغير ذلك فقد أخطأ وأضاعَ نصيبَه ، وتكلَّفَ ما لا علم له به .

وهذا الذي قاله قتادة مصرَّح به في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧] . فمن تكلَّف غير هذه الثلاث ، أي : من عِلْم أحكامِ ما تدلُّ عليه حركاتها ومقارناتها[1] في سيرها ، وأن ذلك يدلُّ على حوادث أرضية فقد أخطأ ؛ وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حَدْسٌ وظنون كاذبة ودَعاوى باطلة .

وذكرَ تعالى أنَّه خلقَ سبع سموات طباقاً ، أي : واحدة فوق واحدة . واختلف أصحابُ الهيئة هل هُنَّ متراكمات[2] ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؛ على قولين : والصحيح الثاني ، لما قدَّمنا من حديث عبد الله بن عَميرة ، عن الأحنف ، عن العباس في حديث الأوعال ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « أتدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلم . قال : بينها مسيرة خمسمئة عام . ومن كل سماء إلى سماء خمسمئة سنة . وَكُثُفُ[3] كلِّ سماءٍ خمسمئة سنة . . » الحديث[4] بتمامه . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسَّنه .

وفي الصحيحين : من حديث أنسٍ في حديث الإسراء ، قال فيه : ووجدَ في السماء الدنيا آدمَ ، فقال له جبريل : « هذا أبوكَ آدمُ فسَلِّم عليه ، فسلَّمَ عليه[5] ، فردَّ عليه السلام ، وقال : مرحباً وأهلاً بابني ، نعم الابنُ أنت . . إلى أنْ قالَ : ثم عرجَ إلى السماء الثانية ، وكذا ذكرَ في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة » .

فدلَّ على التَّفاصل بينها ، لقوله : « ثُمَّ عُرِجَ بنا حتى أتينا السَّماءَ الثانية ، فاستفتحَ ، فقيل : منْ هذا » الحديث[6] . وهذا يدلُّ على ما قلناه ، والله أعلم .

وقد حكى ابنُ حزم ، وابنُ المُنَيِّر ، وأبو الفرج بن الجوزي ، وغيرُ واحد من العلماء : الإجماعَ على أنَّ السمواتِ كُرَيَّةٌ[7] مستديرة . واستُدلّ على ذلك بقوله : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] . قال

---

(١) في ب : ومقارباتها .
(٢) في ب : متراكبات .
(٣) « وَكُثُفُ » : سماكة .
(٤) تقدم الحديث وتخريجه ص ١٧ .
(٥) سقطت من المطبوع .
(٦) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٩) في الصلاة ، ومسلم في صحيحه (١٦٣) في الإيمان .
(٧) في المطبوع : كرة .

(الحسن)[١] : يدورون، وقال ابن عباس : في فلكةٍ مثل فَلْكةِ المِغزل[٢] . قالوا : ويدلُّ على ذلك أن الشَّمسَ تغربُ كلَّ ليلة من المغرب ، ثم تطلعُ في آخرها منَ المشرق ، كما قال أميَّةُ بن أبي الصلت : [من الكامل]

والشمس تبدو كلَّ آخِرِ ليلةٍ حمـراءَ تصبـحُ لـونهـا يتـوَرَّدُ
تَأبى فما تبدُو لنا في رسلها إلَّا مُعَـــذَّبـــةً وإلَّا تُجْلَـــدُ

فأما الحديث الذي رواه البخاريُّ ، حيث قال[٣] : حدَّثنا محمد بن يوسف ، حدَّثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التَّيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذرٍّ ، قال : قال رسولُ الله ﷺ لأبي ذرٍّ حينَ غربتِ الشَّمسُ : « تدري أينَ تذهبُ ؟ قلت : الله ورسولُه أعلمُ . قال : فإنَّها تذهبُ حتى تسجدَ تحتَ العرش فتستأذنُ ، فيُؤذنُ لها ، ويُوشكُ أنْ تسجدَ فلا يُقبل منها ، وتستأذنُ فلا يُؤذنُ لها . ويُقالُ لها : ارجعي من حيثُ جئتِ ، فتطلعُ منْ مَغْربها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] »[٤] .

هذا لفظه في بدء الخلق ، ورواه في التفسير[٥] ، وفي التوحيد[٦] : من حديث الأعمش أيضاً . ورواه مسلمٌ في الإيمان : من طريق الأعمش[٧] ، ومن طريق يُونس[٨] بن عبيد[٩] ، وأبو داودَ[١٠] : من طريقِ الحَكمِ بن عُتَيْبة ، كلُّه من [حديث] إبراهيم بن يزيد بن شَريك ، عن أبيه ، عن أبي ذرٍّ به ، نحوه . وقال الترمذيُّ[١١] : حسن صحيح .

إذا عُلمَ هذا فإنه حديث لا يُعارِضُ ماذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السموات على أشهر القولين، ولا يدلُّ على كرية العرش ، كما زعمه زاعمون . قد أبطلنا قولهم فيما سلفَ ، ولا يدلُّ على أنه تصعدُ إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجدَ تحتَ العرش، بل هي تغربُ عن أعيننا ، وهي مستمرَّة في فلكها الذي هي فيه ، وهو الرابع فيما قاله غيرُ واحد من علماء التفسير[١٢] . وليس في الشرع ما ينفيه ، بل في الحسِّ ،

---

(١) أثبتها من ب .
(٢) «فلكة المغزل»: قطعة مستديرة من الخشب ونحوه تُجعل في أعلاه، وتثبت السِّنَّارة من فوقها وعود المِغْزل من تحتها.
(٣) ديوانه (ص٣٦٥) وتقدم (ص٢١) .
(٤) صحيح البخاري (٣١٩٩) .
(٥) نفسه (٤٨٠٢) و(٤٨٠٣) .
(٦) نفسه (٧٤٢٤) و(٧٤٣٣) .
(٧) صحيح مسلم (١٥٩) (٢٥١) .
(٨) في أ : « ابن يونس » ، وهو سهو .
(٩) صحيح مسلم (١٥٩) (٢٥٠) .
(١٠) أبو داود (٤٠٠٢) في الحروف والقراءات .
(١١) الترمذي (٢١٨٦) في الفتن ، و(٣٢٢٧) في التفسير .
(١٢) في بعض النسخ : التسبير .

وهو الكسوفات ما يدلُّ عليه ويقتضيه، فإذا ذهبتْ فيه حتى تتوسَّطه ، وهو وقتُ نصف الليل مثلاً في اعتدال الزمان ، بحيث يكونُ بينَ القُطْبين الجنوبي والشمالي، فإنها تكونُ أبعدَ ما يكونُ من العرش، لأنه مُقَبَّبٌ من جهة وجه العالم ، وهذا محلُّ سجودها كما يُناسبها ، كما أنها أقربُ ما تكونُ من العرشِ وقتَ الزوالِ من جهتنا ، فإذا كانت في محلِّ سجودِها استأذنتِ الرَّبَّ جلَّ جلالُه في طلوعها من الشرق[١] فيؤذَنُ لها ، فتبدو من جهة الشرق ، وهي مع ذلك كارهةٌ لِعُصاةِ بني آدمَ أنْ تطلعَ عليهم ، ولهذا قال أميةُ[٢] بن أبي الصَّلْتِ : [من الكامل]

تأبى فما تبدو لنا في رِسْلها ... إلَّا مُعـذَّبـة وإلَّا تُجلَـدُ

فإذا كانَ الوقتُ الذي يُريدُ الله طلوعَها من جهة مغربها ، تسجدُ على عادتها ، وتستأذنُ في الطُّلوع من عادتِها ، فلا يُؤذَنُ لها ، فجاء أنها تسجدُ أيضاً ، ثم تستأذن فلا يُؤذن لها ، وتطولُ تلك الليلة ـ كما ذكرنا في « التفسير »[٣] فتقول : يا ربِّ ! إن الفجرَ قد اقتربَ ، وإنَّ المدى بعيد . فيُقال لها : ارجعي منْ حيثُ جئتِ ، فتطلعُ من مَغْربها ، فإذا رآها النَّاسُ آمنوا جميعاً . وذلك قوله تعالى : حينَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . وفسَّروا بذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قيل : لوقتها الذي تُؤمَر فيه أنْ تطلعَ من مغربها . وقيل : مستقرُّها : موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش . وقيل : منتهى سيرها ، وهو آخر الدنيا .

وعن ابن عباس أنه قرأ[٤] : (والشمس تجري لا مستقرَّ لها) أي : ليست تستقرُّ ، فعلى هذا تسجدُ وهي سائرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] أي : لا تُدرك الشمسُ القمرَ فتطلعُ في سلطانه ودولته ، ولا هو أيضاً ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي : ليس يسبقُه بمسافة يتأخَّرُ ذاك عنه فيها ، بل إذا ذهبَ الليلُ جاءَ النهار في إثره متعقباً له ، وإذا ذهب النهار جاءَ الليل في إثره متعقِّباً له ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] . أي : يخلفُ هذا لهذا ، وهذا لهذا ، كما قال رسولُ الله ﷺ : « إذا أقبلَ اللَّيلُ من هاهنا وغربت الشَّمْسُ

---

(١) في ب : المشرق .

(٢) في ب : قال أميَّةُ ، دون نسب .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/ ٧٠١) .

(٤) شواذ القرآن ؛ لابن خالويه (ص١٢٦) وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٨ ـ ٢٩) وهي قراءة ابن مسعود أيضاً ، ونقل القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري أنه قال : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن عباس ، وابن كثير روى عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ فهذان السندان عن ابن عباس ـ اللذان يشهد بصحتهما الإجماع ـ يبطلان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة وما اتفقت عليه الأمة .

فقد أفطرَ الصائمُ »[1] والزمانُ المحقَّق ينقسمُ إلى ليل ونهار ، ليس[2] بينهما غيرهما . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ[3] مُّسَمًّى ﴾ [لقمان : ٢٩] فيُولج من هذا في هذا ، أي : يأخذ من طول هذا في قِصَر هذا فيعتدلان ، كما في أول فصل الربيع يكونُ الليل قبل ذلك طويلاً والنَّهارُ قصيراً ، فلا يزالُ اللَّيْلُ ينقصُ ، والنَّهارُ يتزايدُ حتى يعتدلا ، وهو أول الربيع . ثم يشرعُ النَّهارُ يطول ويتزايد والليل يتناقصُ [إلى آخر فصل الربيع ، ثم يتراجعُ الأمر ، وينعكس الحالُ ، فيشرع النهار يتناقصُ والليل في ازدياد][4] حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف . ثم يشرعُ الليلُ يطولُ ويقصرُ النهار إلى آخر فصل الخريف . ثم يترجَّح النَّهار قليلاً قليلاً ، ويتناقصُ الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع ـ كما قدَّمنا ـ وهكذا في كل عام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ [المؤمنون : ٨٠] أي : هو المتصرِّفُ في ذلك كلِّه ، الحاكمُ الذي لا يُخالَف ولا يُمانع ، ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السمٰوات والنجوم والليل والنهار ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦][5] أي : العزيز الذي قد قهرَ كلَّ شيء ، ودانَ له كلُّ شيء ، ولا[6] يُمانَع ولا يُغالَبُ ، العليمُ بكلِّ شيءٍ ، فقدَّر تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب .

وقد ثبتَ في الصحيحين : من حديث سفيان بن عُيَيْنَةَ ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عزَّ وجلَّ[7] : يؤذيني ابنُ آدمَ يسبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ ، بيدي الأمر أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ »[8] وفي رواية : « وأنا الدهرُ أُقلِّبُ ليلَه ونهاره »[9] .

قال العلماء : كالشافعي ، وأبي عُبيد القاسم بن سلام ، وغيرهما : يسبُّ الدهرَ ؛ أي : يقولُ : فعلَ بنا الدَّهرُ كذا ، يا خيبةَ الدَّهر ! أيتمَ الأولادَ ، أرْمَلَ النساءَ . قال الله تعالى : « وأنا الدهر » أي : أنا الدهرُ الذي يعنيه ، فإنَّه فاعلٌ ذلك الذي أُسْنِدُه إلى الدهرِ ، والدَّهرُ مخلوقٌ ، وإنما فعلَ هذا هو الله ، فهو

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٩٥٤) في الصوم ، ومسلم في صحيحه (١١٠٠) في الصيام ، وأبو داود (٢٣٥١) في الصوم ، والترمذي (٦٩٨) في الصوم . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) في ب : وليس .

(٣) في الأصول : لأجل ؛ ولا وجه لها هنا ، ولعلها التبست بآية أخرى ، كالآية رقم (٢) من سورة الرعد ، أو الآية (١٣) من سورة فاطر .

(٤) مابين حاصرتين سقط من المطبوع .

(٥) و [يس : ٣٨] و [فصلت : ١٢] .

(٦) في ب : فلا .

(٧) زيادة من ب .

(٨) رواه البخاري في صحيحه (٤٨٢٦) في التفسير ، و(٧٤٩١) في التوحيد ، ومسلم في صحيحه (٢٢٤٦) (٢) في الألفاظ .

(٩) رواها مسلم في صحيحه (٢٢٤٦) (٣) في الألفاظ .

يسبُّ فاعلَ ذلك ويعتقدُه الدهر . والله هو الفاعلُ لذلك، الخالقُ لكلِّ شيءٍ ، المتصرِّفُ في كلِّ شيءٍ ، كما قال : « وأنا الدَّهرُ بيدي الأمرُ أُقلِّبُ ليله ونهارَه » وكما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥ ـ ٦] أي : فاوتَ[١] بين الشمس والقمر في نورهما ، وفي شكلهما ، وفي وقتهما ، وفي سيرهما ، فجعلَ هذا ضياءً ، وهو شعاعُ الشمس برهانٌ ساطعٌ وضوءٌ باهرٌ ظاهرٌ ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي : أضعف من برهان الشمس ، وجعله مستفاداً من ضوئها ، وقدَّرها منازلَ ، أي : يطلعُ أوَّل ليلةٍ من الشهر صغيراً ضئيلاً ، قليلَ النور لقربهِ من الشمس ، وقلَّةِ مقابلته لها ، فبقدر مقابلتهِ لها يكونُ نورُه ، ولهذا في الليلة الثانية يكونُ أبعدَ منها بضعفِ ما كان في الليلة الأولى ، فيكون نورُه بضعفِ النُّور أوَّل ليلةٍ ، ثمَّ كلما بَعُدَ ازدادَ نورُه ، حتى يتكاملَ إبدارُه ليلةَ مقابلتهِ إيَّاها من المشرقِ ، وذلك ليلةَ أربعَ عشرةَ من الشهر . ثم يشرعُ في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيَسْتَسِرُّ[٢] حتى يعودَ كما بدأ في أول الشهر الثاني . فبه[٣] تُعرف الشهورُ ، وبالشمس تُعرف الليالي والأيام ، وبذلك تعرفُ السنينُ والأعوامُ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وقد بسطنا القول على هذا كله في « التفسير »[٤] . فالكواكبُ التي في السماء منها سيَّارات ، وهي المتحيزة[٥] في اصطلاح علماء التفسير ، وهو علم غالبُه صحيح ، بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ، ودعوى ما لا دليل عليه ، وهي سبعة : القمر في سماء الدنيا ، وعُطارد في الثانية ، والزَّهرة في الثالثة ، والشَّمس في الرابعة ، والمرِّيخ في الخامسة ، والمُشْتري في السادسة ، وزُحَل في السابعة . وبقية الكواكب يُسمونها الثوابت ، وهي عندهم في الفلك الثامن ، وهو الكرسيُّ في اصطلاح كثير من المتأخرين .

وقال آخـرون : بل الكواكبُ كلُّها في السماء الدنيا ، ولا مانعَ من كون بعضها فوقَ بعضٍ ، وقد

---

(١) في ب : قارب .
(٢) في المطبوع : فيستتر ، واستسرَّ الشيءُ : اختفى ولم يظهر .
(٣) في ب : به .
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٠٢) .
(٥) في ب : المتحيِّرة . وفي المطبوع : المتخيرة .

يُستدلُّ على هذا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] . وبقوله : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] فخصَّ سماءَ الدنيا من بينهنَّ بزينةِ الكواكب ، فإنْ دلَّ هذا على كونها مرصَّعةً فيها فذاك ، وإلا فلا مانعَ مما قاله الآخرون ، والله أعلم .

وعندهم أنَّ الأفلاكَ السبعةَ ، بل الثمانية ، تدورُ بما فيها من الكواكب الثوابت والسيَّارات [في اليوم والليلة دورة كليَّة من الشرق إلى الغرب ، وعندهم أن كل واحد من الكواكب السيَّارات][1] يدورُ على خلاف فلكهِ من الغرب إلى الشرق ، فالقمرُ يقطع فلكه في شهر ، والشمس تقطع فلكها ـ وهو الرابع ـ في سنة . فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوتٌ ، وحركاتُهما متقاربةٌ ، كان قدرُ السماء الرابعة بقدر السماء الدُّنيا ثنتيْ عشرة مرةً ، وزُحلُ يقطعُ فلكه ـ وهو السابع ـ في ثلاثين سنةً ، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمئة وستين مرة .

وقد تكلَّموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها ، وتوسَّعوا في ذلك[2] حتَّى تعدَّوا إلى علم الأحكام ، وما يترتَّبُ على ذلك من الحوادث الأرضيَّة ، بما لا علمَ لكثيرٍ منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنونَ الشام قبل زمنِ المسيح ـ عليه السلام ـ بدهور لهم في هذا كلامٌ كثير يطولُ بَسْطُه ، وهم الذين بنوا مدينةَ دمشق ، وجعلوا لها أبواباً سبعةً ، وجعلوا على رأسِ كلِّ بابٍ هيكلاً على صفة الكواكب السَّبْعة ، يعبدونَ كلَّ واحدٍ في هيكلِه ، ويدعونه بدعاءٍ يأثره عنهم غيرُ واحد من أهلِ التواريخ[3] وغيرهم .

وذكره صاحبُ كتاب « السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم »[4] وغيره من علماء الحرنانيين[5] ـ فلاسفة حرَّان في قديم الزمان ـ وقد كانوا مشركين يعبدونَ الكواكبَ السبعة ، وهم طائفة من الصابئين ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] وقال تعالى إخباراً عن الهُدْهُدِ أنَّه قال لسليمان عليه السلام ، مخبراً عن بلقيسَ وجنودِها ، ملكة سبأ في اليمن وما والاها : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع .

(٢) في ب : في هذه الأشياء .

(٣) انظر مختصر تاريخ دمشق ؛ لابن منظور (١/ ٤٦) .

(٤) نُسب الكتاب إلى الفخر الرازي ، وقيل : ليس له ، وعليه ردود . انظر كشف الظنون (٢/ ٩٨٩) .

(٥) الحرنانيون : جمع حرنانيّ ؛ نسبة إلى حرَّان ـ على غير القياس ـ وهي مدينة في الجزيرة الفراتية ، بينها وبين الرقة يومان . قال ياقوت : وكانت منازل الصابئة ، وهم الحرَّانيون الذين يكرههم أصحاب كتب الملل والنحل . انظر معجم البلدان (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) والفهرست ؛ لابن النديم (ص٣٨٣) .

وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل : ٢٣ ـ ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل : ٤٨ ـ ٥٠] وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد : ١٥] وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] [والآيات في هذا كثيرة جداً][1] .

ولما كان أشرفُ الأجرام المشاهدة في السمٰوات والأرض هي الكواكبُ ، وأشرفهن منظراً ، وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر ، استدلَّ الخليلُ على بطلان إلٰهية شيءٍ منهنَّ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] أي : الغائبين : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧ ـ ٧٩] فبيَّنَ بطريق البرهان القطعيّ أن هذه الأجرامَ المشاهدة من الكواكب والشمس والقمر لا يصلحُ شيءٌ منها للإلٰهية ، لأنها كلها مخلوقة مربوبةٌ ، مدبَّرة مسخَّرة في سيرها لا تحيدُ[2] عما خُلقتْ له، ولا تزيغ[3] عنه إلا بتقدير مبيَّن[4] محرَّرٍ لا يضطرب ولا يختلف. وذلك دليلٌ على كونها مربوبة مصنوعة ، مسخَّرة مقهورة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] وثبتَ في الصحيحين في صلاة الكسوف : من حديث ابن عمر[5] ، وابن عباس[6] ، وعائشة[7] ، وغيرهم من الصحابة[8] : أنَّ رسولَ الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ الله عزَّ وجلَّ ، وإنَّهما لا ينكسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ » .

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من « ب » .
(٢) في أ : لا محيد .
(٣) لا تزيغ : لا تميل .
(٤) في المطبوع : متقن .
(٥) البخاري (١٠٤٢) ، ومسلم (٩١٤) .
(٦) البخاري (١٠٤٦) و(١٠٥٢) و(١٠٥٩) ، ومسلم (٩٠٢) .
(٧) البخاري (١٠٤٦) و(١٠٤٧) و(١٠٥٨) ، ومسلم (٩٠١) .
(٨) ينظر جامع الأصول (٦/١٦٦ ـ ١٩٠) .

وقال البخاري في بدء الخلق[١] : حدَّثنا مُسَدَّد ، حدَّثنا عبدُ العزيز بن المختار ، حدَّثنا عبدُ الله الدَّاناج ، حدَّثني أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الشمسُ والقمرُ مُكوَّرانِ يومَ القيامة » انفرد به البخاري .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزَّار بأبسطَ من هذا السياق، فقال: حدَّثنا إبراهيمُ بن زياد البغدادي، حدَّثنا يونسُ بن محمد ، حدَّثنا عبدُ العزيز بن المختار ، عن عبد الله الدَّاناج ، سمعتُ أبا سلمة بن عبد الرحمن زمنَ خالد بن عبد الله القَسْري في هذا المسجد مسجدِ الكوفةِ ، وجاء الحسنُ فجلسَ إليه ، يُحدِّث[٢] ، قال : حدَّثنا أبو هريرة ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ الشمسَ والقمرَ ثورانِ في النَّارِ يومَ القيامة »[٣] فقال الحسن : وما ذنبُهما ؟ فقال : أُحدِّثُكَ عن رسول الله ﷺ وتقولُ : وما ذنبُهما ؟ ثم قال البزار : لا يُروىٰ عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، ولم يروِ عبدُ الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث .

وروى الحافظ أبو يعلى المَوْصليّ : من طريق زيد الرقاشي ـ وهو ضعيف ـ عن أنس ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الشَّمسُ والقمرُ ثوران عقيران في النار »[٤] .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأوديّ ، قالا : حدَّثنا أبو أسامة ، عن مجالد ، عن شيخ من بجيلَةَ ، عن ابن عباس ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] قال : يُكوِّرُ الله الشمسَ والقمرَ والنجومَ يوم القيامة في البحر ، ويبعثُ الله ريحاً دبوراً ، فتضرمها ناراً[٥] .

فدلَّتْ هذه الآثارُ أنَّ الشمسَ والقمرَ من مخلوقاتِ الله خلقَها[٦] لما أراد ، ثم يفعلُ فيها ما يشاء ، وله الحجَّةُ الدامغة والحكمة البالغة ، فلا يُسألُ عما يفعل لعلمه وحكمته ، وقدرته ومشيئته النافذة ، وحكمه الذي لا يُردُّ ولا يُمانَع ولا يُغالَب .

وما أحسنَ ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب « السيرة »[٧] من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل ، في خلق السماء والأرض والشمس والقمر ، وغير ذلك . قال ابن هشام هي لأمية بن أبي الصلت : [من الطويل]

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٠) .
(٢) في ب : فحدَّث .
(٣) ذكره الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٦ ـ ٦٧) وإسناده صحيح .
(٤) رواه أبو يعلى في المسند (٤١١٦) وإسناده ضعيف جداً ، فيه : يزيد الرقاشي ضعيف ، ودُرُست بن زياد : منكر الحديث .
(٥) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٢١) طبعة دار الأندلس بيروت .
(٦) في ب : خلقها الله .
(٧) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩) .

إلى اللهِ أُهدي مدحتي وثنائيا وقوْلًا رَصِيناً[١] لا يني الدَّهرَ باقيا
إلى الملكِ الأعلى الذي ليسَ فوقَه إلّهٌ ولا ربٌّ يكونُ مُدانيا
ألا أيُّها الإنسانُ إيّاك والرَّدىٰ فإنَّك لا تُخفي من الله خافيا
وإياكَ لا تجعلْ معَ اللهِ غيره فإنّ سبيلَ الرُّشْدِ أصبح بادِيا
حنَانيْكَ إنَّ الجِنّ[٢] كانت[٣] رجاءَهم وأنتَ إلّهي ربُّنا ورَجائيا
رضيتُ بك اللّهم ربّاً فلن أرىٰ أدينُ إلّهاً غيرك الله ثانيا
وأنتَ الذي من فضلِ مَنٍّ ورحمةٍ بعثتَ إلى موسى رَسُولًا مُنادياً
فقلت له : ياذهب[٤] وهْرون فادعُوَا إلى اللهِ فرعونَ الذي كانَ طاغيا
وقُولا له أأنت سوّيتَ هذه[٥] بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أأنتَ رفّعتَ هَذِهِ بلا عَمدٍ أرْفِقْ إذاً بكَ بَانيا
وقولا له أأنتَ سوّيتَ وَسْطها مُنيراً إذا ما جنَّه اللَّيْلُ هَادِيا
وقُولا له : منْ يرسلُ الشَّمْسَ غُدْوةً فيُصبح ما مسَّتْ منَ الأرضِ ضَاحِيا
وقولا له : منْ يُنبتُ الحبَّ في الثَّرىٰ فيُصبح منه البَقْلُ يهتزُّ رَابيا
ويُخرجُ منه حبَّهُ في رؤوسِه وفي ذاكَ آياتٌ لمنْ كانَ واعِيا
وأنتَ بفضلٍ منكَ نَجيّتَ يُونُساً وقد باتَ في أضْعافِ حُوْتٍ لياليا[٦]
وإني وإنْ[٧] سبّحتُ باسمك ربَّنا لأُكْثِرَ إلا ما غفرتَ خَطائيا
فربَّ العِبَادِ ألْقِ سَيْباً ورحمةً عليَّ وباركْ في بَنيَّ ومَاليا[٨]

فإذا عُلم هذا ، فالكواكبُ التي في السماء من الثوابت والسيَّارات الجميع مخلوقةٌ منذ خلقها الله تعالى ، كما قال : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

---

(١) في ب : رضيّاً .
(٢) في السيرة : الحنّ ؛ بالحاء . وفي اللسان : الحنُّ : بالكسر ، حيٌّ من الجن ، يُقال : منهم الكلاب السود البهم ، وقيل : ضرب من الجن .
(٣) في الديوان : كنت رجاءهم .
(٤) ياذهبْ : على تقدير : يا هذا اذهبْ . وفي المطبوع : اذهبْ .
(٥) المراد بـ هذه : الأرض .
(٦) أضعاف حوت : جوف الحوت .
(٧) في الديوان والمطبوع : ولو .
(٨) سَيْباً : عطاء .

وأما ما يذكره كثيرٌ من المفسرين[١] في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراودَاها على نفسها ، فأبتْ إلا أن يعلِّماها الاسم الأعظم ، فعلَّماها ، فقالتْه ، فرُفعتْ[٢] كوكباً إلى السماء ، فهذا أظنُّه من وضع الإسرائيليِّين ، وإن كان قد أخرجَه كعبُ الأحبار ، وتلقَّاه عنه طائفةٌ من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية والتَّحديث عن بني إسرائيل .

وقد روى الإمام أحمد[٣] ، وابن حبَّان في « صحيحه »[٤] : في ذلك حديثاً ، رواه أحمد عن يحيى بن أبي بُكير ، عن زهير بن محمد ، عن موسى بن جبير ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ ، وذكرَ القِصَّةَ بطولها . وفيه : « فمثِّلَتْ لهما الزهرةُ امرأةً من أحسن البشر ، فجاءَتْهما ، فسألاها نفسها . . » وذكرَ القصةَ[٥] .

وقد رواه عبد الرزاق في « تفسيره »[٦] عن الثوري ، عن موسى بن عُقْبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار ، به . وهذا أصحُّ وأثبتُ .

وقد روى الحاكم في « مستدركه » ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » : عن ابن عباس . . فذكرَه ، وقال فيه : وفي ذلك الزمان امرأة حسنُها في النساء كحُسْن الزهرة في سائر الكواكب . . وذكرَ تمامه[٧] . وهذا أحسنُ لفظٍ روي في هذه القصة ، والله أعلم .

وهكذا الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو بكر البزَّار : حدَّثنا محمد بن عبد الملك الواسطي ، حدَّثنا يزيد ابن هارون ، حدَّثنا مبشر بن عُبيد ، عن يزيد بن أسلم ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ (ح) وحدَّثنا عمرو ابن عيسى حدَّثنا عبد الأعلى ، حدثنا إبراهيمُ بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عمر : أنَّ رسولَ الله ﷺ ذكرَ سُهيلاً فقال : « كان عشَّاراً ظلوما ، فمسَخه الله شهاباً »[٨] ثم قال : لم يروه عن يزيد بن أسلم إلا

---

(١) انظر تفسير الطبري (١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤) .
(٢) في ب : فرجعتْ كوكباً في السماء .
(٣) في المسند (٢/ ١٣٤) .
(٤) ابن حبان (٦١٨٦) .
(٥) إسناده ضعيف ومتنه باطل ، وهو من قصص كعب الأحبار المنقولة عن كتب يهود .
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٥٣) ورواه الطبري (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢) وابن كثير في التفسير (١/ ١٧٤) وقال : فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر ، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع ، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار ، عن كتب بني إسرائيل .
(٧) المستدرك (٤/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨) وصححه ، وتعقبه الذهبي فقال : وتركُ حديث يحيى من المحالات التي يردُّها العقل ، قال النسائي : متروك . وقال أبو حاتم : منكر الحديث .
(٨) كما في كشف الأستار (٩٠٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٨٨) : رواه البزار وضعَّفه ، لأن في روايته إبراهيم بن يزيد الخوزي وهو متروك ، وفي الأخرى مُبَشِّر بن عُبيد ، وهو متروك أيضاً .

مبشر بن عبيد ، وهو ضعيف الحديث ، ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لَيِّن الحديث .

وإنما ذكرناه على ما فيه من عِلَّة ، لأنا لم نحفظْه إلا من هذين الوجهين .

قلت : أما مُبَشِّرُ بن عُبيد القرشي ، أبو حفص الحمصي ، وأصلُه من الكوفة ، فقد ضعَّفه الجميع[١] ، وقال فيه الإمام أحمد[٢] والدارقطني[٣] : كان يضعُ الحديثَ ويكذبُ .

وأما إبراهيم بن يزيد هذا فهو الخوزيّ ، وهو ضعيفٌ باتفاقهم ، قال فيه أحمد[٤] والنسائي[٥] : متروك . وقال ابن مَعين[٦] : ليس بثقة وليس بشيء ، وقال البخاريُّ[٧] : سكتوا عنه . وقال أبو حاتم وأبو زُرْعة[٨] : منكرُ الحديث ضعيف .

ومثلُ هذا الإسناد لا يثبتُ به شيء بالكُلِّية : وإذا حسَّنا[٩] الظنَّ قلنا : هذا من أخبار بني إسرائيل ، كما تقدَّم من رواية ابن عمر عن كعبِ الأحبار . ويكونُ من خرافاتهم التي لا يُعوَّلُ عليها ، والله أعلم .

الكلام على المَجَرَّة وقَوْس قُزَح

قال أبو القاسم الطبراني[١٠] : حدَّثنا عليُّ بن عبد العزيز ، حدَّثنا عارمُ أبو النعمان ، حدَّثنا أبو عَوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : أنَّ هرقلَ كتبَ إلى معاويةَ ، وقال : إنْ كان قد بقيَ فيهم شيء من النبوة فسَيُخْبِرُني عما أسألُهم عنه . قال : فكتب إليه يسألُه عن المجرَّة ، وعن القوس ، وعن البقعة التي لم تُصبها الشَّمْسُ إلا ساعة واحدةً . قال : فلما أتى معاويةَ الكتابُ والرسولُ ، قال : إنَّ هذا لشيءٌ ما كنتُ آبَهُ له أن أسألَ عنه إلى يومي هذا ؟ منْ لهذا ؟ قيل : ابن عباس ، فطوى معاويةُ كتابَ هرقل ، فبعثَ به إلى ابن عباس ، فكتبَ إليه : إنَّ القوسَ أمانٌ لأهل الأرض من الغَرَق ، والمجرَّة بابُ السماء الذي تنشقُّ[١١] منه . وأما البقعةُ التي لم تُصِبْها الشَّمْسُ إلا ساعةً من النهار فالبحرُ الذي أُفرجَ عن بني إسرائيل . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه .

---

(١) ينظر تهذيب الكمال (٢٧/ ١٩٥ ـ ١٩٦) .
(٢) العلل ومعرفة الرجال (١/ ٣٨٢) .
(٣) الضعفاء والمتروكون ، الترجمة (٥٠٠) .
(٤) الجرح والتعديل ١/ الترجمة (٤٨٠) وتهذيب الكمال (٢/ ٢٤٣) .
(٥) الضعفاء والمتروكون ، الترجمة (١٤) .
(٦) تاريخ الدوري عن ابن معين (٢/ ١٨) .
(٧) تاريخه الكبير ١/ الترجمة (١٠٥٨) .
(٨) الجرح والتعديل ١/ الترجم (٤٨٠) .
(٩) في ب : أحسنا .
(١٠) المعجم الكبير (١٠٥٩١) .
(١١) وكذا في المعجم الكبير ، وفي أ : ينشق ، وفي ب : ينبثق .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني[(١)] : حدَّثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفَرَج ـ حدَّثنا إبراهيم بن مَخْلد ، حدَّثنا الفضلُ بن المختار ، عن محمد بن مسلم الطَّائفي ، عن ابن أبي نجيح ، عن مُجاهد ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ !! إنِّي مُرْسلكَ إلى قوم أهل كتاب ، فإذا سُئلتَ عن المجرَّة التي في السماء ، فقل : هي لُعابُ حَيَّة ، تحتَ العرشِ » ، فإنه حديث منكر جداً ، بل الأشبهُ أنه موضوعٌ[(٢)] ، وراويه الفضلُ بن المختار هذا أبو سهل البصري ، ثم انتقلَ إلى مصر ، قال فيه أبو حاتم الرازي[(٣)] : هو مجهول حدَّث بالأباطيل . وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي[(٤)] : منكر الحديث جداً . وقال ابن عديّ[(٥)] : لا يُتابع على أحاديثه لا متناً ولا إسناداً .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٢ ـ ١٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وروى الإمام أحمد[(٦)] : عن يزيد بن هارون ، عن إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ، عن شيخ من بني غِفَار ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « إنَّ الله يُنشيء السَّحابَ ، فينطقُ أحسنَ النُّطقِ ، ويضحكُ أحسنَ الضَّحكِ » .

وروى موسى بن عُبيدة : عن سعد بن إبراهيم ؛ أنه قال : إنَّ نُطْقَه الرَّعْدُ وضَحِكَهُ البرقُ[(٧)] .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا هشامُ بن عُبيد الله الرازي ، عن محمد بن مسلم ، قال : بلغنا أنَّ البرقَ مَلكٌ ، له أربعةُ وجوه : وجهُ إنسانٍ ، ووجهُ ثوْرٍ ، ووجهُ نَسْرٍ ، ووجهُ أسدٍ ، فإذا مَصَعَ[(٨)] بذنبهِ فذاكَ[(٩)] البرق[(١٠)] .

---

(١) المعجم الكبير (١٧٥٤) .

(٢) وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢١٠) رقم (٢٩٦) .

(٣) العلل لابنه (٢٣٤٩) ، وميزان الاعتدال (٣/ ٣٥٨) .

(٤) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥٨) .

(٥) الكامل (٦/ ٢٠٢٤) .

(٦) في المسند (٥/ ٤٣٥) وإسناده صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضر .

(٧) موسى بن عبيدة الربذي ضعيف ، لكن رواه أبو الشيخ في العظمة (٧٢٣) من طريق سليمان بن داود الهاشمي ـ وهو ثقة ـ قال : سألنا إبراهيم بن سعد ، فذكره .

(٨) مصع : مَصَعت الدَّابَّة بذنبها : حرَّكته وضربت به . ومصعَ البرقُ : لمع .

(٩) في ب : فذلك .

(١٠) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٢٢) .

وقد روى الإمام أحمد[١] والترمذي[٢] والنسائي[٣] والبخاري في كتاب الأدب[٤] والحاكم في « مستدركه »[٥] من حديث الحجَّاج بن أرطاة، حدَّثني ابن مطر، عن سالم، عن أبيه، قال: كان رسولُ الله إذا سمعَ الرعدَ والصَّواعقَ قال : « اللَّهُمَّ لا تقتلْنا بغضبكَ ، ولا تُهْلكنا بعذابك ، وعافِنا قبلَ ذلكَ »[٦] .

وروى ابنُ جرير : من حديث ليث ، عن رجل ، عن أبي هريرة رفعَه ، كان إذا سمعَ الرعدَ قال : « سبحانَ منْ يُسَبِّحُ الرّعدُ بحمدِه »[٧] .

وعن عليّ أنه كان يقول : سبحانَ منْ سَبَّحْتَ له . وكذا عن ابن عباس ، والأسود بن يزيد ، وطاووس ، وغيرهم[٧] .

وروى مالك[٨] : عن عامرِ بن عبد الله بن الزبير : أنه كانَ إذا سمعَ الرعدَ تركَ الحديثَ ، وقال : سبحانَ منْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمدِه والملائكةُ من خيفته ، ويقول : إنَّ هذا وعيدٌ شديدٌ لأهلِ الأرض .

وروى الإمام أحمد[٩] : عن أبي هريرة ؛ أن رسولَ الله ﷺ قال : « قال ربُّكم : لو أنَّ عبيدي أطاعُوني لأسقيتُهم المطرَ باللَّيل ، وأطلعتُ عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتُهم صوتَ الرَّعْدِ . [وروى الطبراني عن ابن عبَّاس مرفوعاً : إذا سمعتُم الرعدَ] فاذكروا الله ، فإنه لا يُصيب ذاكراً »[١٠] . وكلُّ هذا مبسوطٌ في « التفسير »[١١] ولله الحمدُ والمنَّة .

***

---

(١) في مسنده (٢/ ١٠٠) .
(٢) في جامعه (٣٤٥٠) .
(٣) في عمل اليوم والليلة (٩٢٧) و(٩٢٨) .
(٤) الأدب المفرد (٧٢١) .
(٥) المستدرك (٤/ ٢٨٦) .
(٦) في إسناده أبو مطر ، شيخ الحجاج بن أرطاة ، وهو مجهول ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
(٧) تفسير الطبري (٧/ ٣٦٠) وحديث أبي هريرة في إسناده رجل مبهم .
(٨) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٢) وفيه : ثم يقول : إنَّ هذا لوعيدٌ لأهل الأرض شديدٌ . وهو موقوف ، من كلام عبد الله بن الزبير رضي الله عنه .
(٩) في المسند (٢/ ٣٥٩) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥٦) وصححه ، وتعقبه الذهبي فقال : صدقة بن موسى الدقيقي ؛ ضعفوه .
(١٠) رواه الطبراني في الدعاء (٩٨٢) وفي المعجم الكبير (١١/ ١٦٤) وإسناده ضعيف ، فيه يحيى بن كثير ، وعبد الكريم أبو أمية ؛ ضعيفان . وانظره في المجمع (١٠/ ١٣٦) .
وما بين حاصرتين سقط من المطبوع .
(١١) انظر تفسير القرآن العظيم ؛ للحافظ ابن كثير (٢/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣) .

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر : ٧-٨] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴾ [فصلت : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩-٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٤-١٦٦] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠-١٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] وقال تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٥-٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢١-٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً ، يصفُهم تعالى بالقوة في العبادة ، وفي الخَلْق وحسن المنظر ، وعظمة الأشكال ، وقوة التشكُّل[1] في الصور المتعدِّدة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٧ ـ ٧٨] الآيات ، فذكرنا في « التفسير »[2] ما ذكرَه غيرُ واحد من العلماء ، من أن الملائكة تَبَدَّوْا لهم في صورة شبابٍ حِسَانٍ امتحاناً واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجَّة ، وأخذَهم الله أخذَ عزيز مقتدر .

وكذلك كان جبريلُ يأتي إلى النبيِّ ﷺ في صفاتٍ متعدِّدة ، فتارةً يأتي في صورة دِحْيةَ بن خليفة الكَلْبيِّ ، وتارةً في صورة أعرابيٍّ ، وتارةً في صورتِه التي خُلِقَ عليها ، له ستمئة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما رآه على هذه الصفة مرتين ، مرَّة منهبطاً من السماء إلى الأرض ، وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وهو قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٥ ـ ٨] أي : جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة ، منهم : ابن مسعود ، وأبو هريرة ، وأبو ذر ، وعائشة ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٩ ـ ١٠] أي : إلى عبد الله محمد ﷺ ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ ـ ١٧] .

وقد ذكرنا في أحاديث[3] الإسراء في سورة « سبحان » أنَّ سدرةَ المنتهى في السماء السابعة . وفي رواية : في السادسة ، أي : أصلُها وفروعها في السابعة . « فلما غشيها من أمر الله ما غشيَها » قيل : غشيَها نورُ الرب ـ جلَّ جلاله ـ وقيل : غشيها فراش من ذهب . وقيل : غشيَها ألوانٌ متعدِّدة كثيرة غير منحصرة . وقيل : غشيَها الملائكة مثل الغربان . وقيل : غشيها من الله[4] أمرٌ فلا يستطيعُ أحدٌ أن ينعتَها . أي : من حسنها وبهائها .

---

(١) في المطبوع : الشكل .

(٢) تفسير القرآن العظيم ؛ للحافظ ابن كثير (٢/ ٥٥٨) .

(٣) المصدر السابق (٣/ ٦ ـ ٣١) .

(٤) في المطبوع : من نور الله تعالى .

ولا منافاة بين هذه الأقوال ، إذ الجميع ممكنٌ حصوله في حال واحدة .

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : « ثم رُفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نَبْقُها كالقلال » . وفي رواية : « كقِلال هَجَرَ ، وإذا ورقُها كآذان الفيلة ، وإذا يخرجُ من أصلِها نهران باطنان ، ونهران ظاهران ؛ فأما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وتقدَّم الكلامُ على هذا في ذكر خلق الأرض[١] وما فيها من البحار والأنهار . وفيه : « ثم رُفِعَ لي البيتُ المعمورُ ، وإذا هو يدخلُه في كلِّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم »[٢] .

وذكر أنه وجد إبراهيمَ الخليل عليه السلام مُسْنِداً[٣] ظهرَه إلى البيت المعمور .

وذكرنا[٤] وجهَ المناسبة في هذا : أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض .

وقد روى سفيانُ الثوريُّ ، وشعبةُ ، وأبو الأحوص : عن سماك بن حرب ، عن خالد بن عَرْعرةَ ، أن ابن الكَوَّاء سألَ عليَّ بن أبي طالب عن البيت المعمور ، فقال : هو مسجد في السماء ، يُقالُ له « الضُّراح » وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمتُه في السماء كحرمةِ البيت في الأرض ، يُصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعون ألفاً من الملائكة ، لا يعودون فيه أبداً[٥] .

وهكذا روى عليُّ بن ربيعة وأبو الطفيل ، عن عليٍّ ، مثله[٦] .

وقال الطبراني[٧] : حدثنا الحسنُ بن علويه القطَّان ، حدَّثنا إسماعيلُ بن عيسى العطَّار ، حدَّثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة ، حدَّثنا ابن جُرَيْج ، عن صفوان بن سليم ، عن كريب ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « البيتُ المعمورُ في السماء يُقال له : الضُّرَاحُ ، وهو على مثل البيت الحرام بحياله ، لو سقط لسقط عليه ، يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك ، ثم لا يرونه قطُّ ، فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة » . يعني في الأرض .

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه (ص٤٦) .

(٢) حديث الإسراء بعد مجاوزته ﷺ السماء السابعة ، وبلوغه سدرة المنتهى . . . أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩) ومسلم في الإيمان (١٦٢) .

(٣) في المطبوع : مستنداً .

(٤) انظر تفسيره (٤/ ٢٨٢) .

(٥) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٢) .

(٦) المصدر السابق (٤/ ٢٨٢) .

(٧) في المعجم الكبير (١٢١٨٥) ، وفي ألفاظه خلاف يسير ، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٤) وفيه إسحاق بن بشر ـ أبو حذيفة ـ وهو متروك . وفيه عنعنة ابن جريج .

وهكذا قال العُوفيُّ : عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والربيع بن أنس ، والسُّدي ، وغير واحد[١] .

وقال قتادةُ : ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيتُ المعمورُ ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم . قال : فإنه مسجدٌ في السماء بحيال الكعبة ، لو خرَّ لخرَّ عليها ، يُصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَكٍ ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخرَ ما عليهم »[٢] .

وزعمَ الضَّحاكُ أنه تعمره طائفةٌ من الملائكة يُقال لهم الجِنُّ ، من قبيلة إبليس[٣] ـ لعنه الله ـ كأنه يقول : سدنته وخدَّامه منهم . والله أعلم .

وقال آخرون : في كل سماء بيت يعمـره ملائكتُه بالعبادة فيه ، ويفدون إليه بالنَّوبة والبدل ، كما يعمرُ أهلُ الأرض البيتَ العتيقَ بالحجِّ في كل عام ، والاعتمار في كل وقت ، والطواف والصلاة في كل آن .

قال سعيدُ بن يحيى الأموي في أوائل كتابه « المغازي » : حدَّثنا أبو عبيد في حديث مجاهد « أن الحَرَمَ حرام ، مناه ـ يعني قدره ـ من السموات السبع والأرضين السبع ، وأنه رابع أربعة عشر بيتاً ، في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت ، لو سقطت سقطَ بعضُها على بعض » .

ثم روى عن مجاهد أنه قال : مناه ؛ أي : مقابله ، وهو حرف مقصور .

ثم قال : حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمش ، عن أبي سليمان ـ مؤذِّن الحجَّاج ـ سمعتُ عبدَ الله بن عمرو يقول : إنَّ الحرمَ لمُحرَّمٌ في السموات السبع ، مقدارُه من الأرض ، وإنَّ بيت المقدسِ يُقَدَّسُ في السمواتِ السبع ، مقدارُه من الأرض . قال بعض الشعراء : [من الكامل]

إنّ الذي سَمكَ السّماء بَنى لنا   بَيْتـاً دَعـائمـهُ أشـدُّ وأطْـولُ

واسمُ البيت الذي في السماء الدنيا بيتُ العزة ، واسم الملك الذي هو مُقدَّم الملائكة فيها إسماعيل .

فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم ، أي : لا يحصلُ لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر ، يكونون من سكان السماء السابعة وحدها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا أسودُ بن عامر ، حدَّثنا إسرائيلُ ، عن إبراهيمَ بن مُهَاجر ، عن مُجاهد ، عن مُورِّق ، عن أبي ذرٍّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٢) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٨٢) .
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٨٢) .

أطّتِ السَّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ ، لو علمتُم ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً ، ولما تلذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشات ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرونَ إلى الله عزَّ وجلَّ »[١] . فقال أبو ذر : واللهِ لوددتُ أني شجرةٌ تُعْضَدُ[٢] .

ورواه الترمذي وابنُ ماجهَ من حديث إسرائيل، فقال الترمذي: حسن غريب ويُروى عن أبي ذر موقوفاً[٢] .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدَّثنا حُسين بن عرفةَ المصري ، حدَّثنا عُروةُ بن مروان العِرْقي ، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم بن مالك ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في السمواتِ السبع موضعُ قَدَمٍ ولا شِبْرٍ ولا كفٍّ إلا وفيه مَلَكٌ قائم ، أو مَلَكٌ ساجدٌ[٣] ، أو ملَكٌ راكعٌ ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : ما عبدناك حقَّ عبادتِكَ إلا أنّا لا نُشرِكُ[٤] بكَ شيئاً »[٥] .

فدلَّ هذان الحديثان على أنَّه ما من موضع في السمواتِ السبع إلا وهو مشغول بالملائكة ، وهم في صنوف العبادات، منهم من هو قائم أبداً ، ومنهم من هو راكعٌ أبداً ، ومنهم من هو ساجدٌ أبداً ، ومنهم من هو في صنوفٍ أُخر . اللهُ أعلمُ بها . وهم دائبونَ في عبادتهم وتسبيحِهم وأذكارِهم وأعمالِهم التي أمرَهم الله بها ، وهم منازلُ عندَ ربِّهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٤ ـ ١٦٦] . وقال ﷺ: « ألا تَصُفُّونَ كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّهم » . قالوا: وكيفَ يصفُّون [عند ربِّهم][٦] قال: « يُكمِّلونَ الصفوفَ الأُوَل، ويتراصُّون في الصف »[٧] . وقال: « فُضِّلنا على الناس بثلاث. جُعِلَتْ لنا الأرضُ مَسْجداً، وتُرْبَتُها لنا طَهوراً، وجُعلتْ صفوفُنا كصفوفِ المَلائكة »[٨] .

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ١٧٣) والترمذي في الجامع (٢٣١٢) في الزهد ، وابن ماجه في سننه (٤١٩٠) وهو حديث حسن، دون قوله: والله لوددت أني شجرة تعضد، فهي مدرجة من قول أبي ذر في الزهد ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .
وتجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء . تُعضد : تُقطع .

(٢) هذه الجملة مدرجة من كلام أبي ذر .

(٣) في المعجم الكبير (٢/ ١٨٤) : أو ملكٌ راكعٌ ، أو مَلكٌ ساجدٌ .

(٤) في المعجم الكبير : إلا أنّا لم نُشرك .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢) وقال : فيه عروة بن مروان . قال الدارقطني : كان أميا وليس بالقوي في الحديث . ميزان الاعتدال (٣/ ٦٤) .

(٦) ما بين حاصرتين سقط من أ .

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٣٠) في الصلاة ، وأبو داود في سننه (٦٦١) في الصلاة ، والنسائي في سننه (٢/ ٩٢) في الإمامة .

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٢٢) (٤) في المساجد ، عن حذيفة رضي الله عنه .

وكذلك يأتونَ يومَ القيامةِ بين يدي الربِّ جلَّ جلالُه صفوفاً كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] ويقفونَ صفوفاً بين يديْ ربِّهم عزَّ وجلَّ يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] . والمرادُ بالروح هاهنا : بنو آدم ، قاله ابن عباس والحسنُ وقتادةُ[(١)] . وقيل : ضربٌ من الملائكة يُشبهون بني آدم في الشكل ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش . وقيل : جبريل ، قاله الشعبيُّ ، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحَّاك . وقيل : مَلَكٌ يُقال له : الروح ، بِقَدْرِ جميع المخلوقات . قال عليُّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : قوله ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ [النبأ : ٣٨] قال : هو مَلَكٌ من أعظم الملائكة خَلْقاً[(٢)] .

وقال ابنُ جرير[(٣)] : حدَّثني محمد بن خلف العسقلاني ، حدَّثنا روَّاد بن الجرَّاح ، عن أبي حمزةَ ، عن الشعبيِّ ، عن علقمةَ ، عن ابن مسعود ، قال : الرُّوح في السماء الرابعة ، هو أعظم من السماواتِ ومن الجبالِ ، ومن الملائكةِ ، يُسبِّح كلَّ يومٍ اثنيْ عشرَ ألف تسبيحةٍ ، يخلقُ الله من كُلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً من الملائكة ، يجيءُ يومَ القيامة صفّاً وحدَه . وهذا غريب جداً .

وقال الطبراني[(٤)] : حدَّثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصريّ ، حدَّثنا وَهْبُ الله بن رزق أبو هُبيرة ، حدَّثنا بِشْرُ بن بكْر ، حدَّثنا الأوزاعيُّ ، حدَّثني عطاء ، عن عبد الله بن عباس ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إنَّ لله مَلكاً لو قيلَ له التقمِ السمواتِ والأرضينَ بلقمةٍ واحدةٍ لفعلَ ، تسبيحُه : سبحانَكَ حيثُ كنتَ » وهذا أيضاً حديث غريب جداً ، وقد يكون موقوفاً .

وذكرنا في صفةِ حمَلَة العرش : عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « أُذِنَ لي أنْ أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ الله من حملةِ العَرْش ، إنَّ ما بينَ شحمة أذنهِ إلى عاتقهِ مسيرةُ سبعمئة عام » . رواه أبو داودُ[(٥)] ، وابن أبي حاتم ، ولفظه : « مَخْفقُ الطَّيْرِ سبعمئة عام »[(٦)] .

وقد وردَ في صفة جبريلَ عليه السلام أمرٌ عظيمٌ ، قال الله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٥] قالوا : كان من شدة قوَّتهِ أنه رفعَ مدائنَ قوم لوط ، وكُنَّ سبعاً ، بمن فيها من الأمم ، وكانوا قريباً من

---

(١) تفسير القرآن العظيم ؛ لابن كثير (٤/ ٥٤٩) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٤٩) .
(٣) في تفسيره (١٢/ ٤١٥) .
(٤) في المعجم الكبير (١١/ ١٩٥) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠) وقال : تفرَّد به وَهْبُ الله بن رزق ، وهو مجهول .
(٥) في سننه (٤٧٢٧) في السنة ، وأخرجه أبو يعلى في المسند (٦٦١٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣٥) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .
(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٩) وقال : وهذا إسناد جيد ، رجاله كلهم ثقات .

أربعمئة ألف ، وما معهم من الدوابِّ والحيوانات ، وما لتلكَ المدنِ من الأراضي والمعتملات والعمارات ، وغير ذلك . رفعَ ذلكَ كلَّه على طرفِ جناحه حتى بلغَ بهنَّ عَنانَ السماءِ ، حتى سمعتِ الملائكةُ نُباح كلابهم ، وصياح ديكتهم ، ثم قلبَها ، فجعلَ عاليَها سافلَها ، فهذا هو شديدُ القوى .

وقوله ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم : ٦] أي : ذو خُلُقٍ حسن وبَهاءٍ وسَناءٍ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٤٠] أي : جبريل ، رسولٌ من الله ، كريمٌ : أي : حسن المنظر ، ذي قُوَّة : أي : له قوَّةٌ وبأسٌ شديد ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٠] أي : له مكانةٌ ومنزلةٌ عالية رفيعة عند الله ذي العرش المجيد . ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾ [التكوير : ٢١] أي : مُطاعٍ في الملأ الأعلى ﴿ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢١] أي : ذي أمانةٍ عظيمةٍ ، ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام ، الذي ينزلُ عليهم بالوحي ، فيه الأخبارُ الصَّادقةُ ، والشرائعُ العادلة . وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ ، وينزلُ عليه في صفاتٍ متعدِّدة كما قدَّمنا . وقد رآه على صفته التي خلقَه الله عليها مرتين ، له ستمئة جناح ، كما روى البخاري[1] : عن طَلْقِ بن غَنَّام عن زائدةَ ، عن الشَّيْبانيّ ، قال : سألتُ زِرّاً عن قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٩ ـ ١٠] . فقال : حدَّثنا عبدُ الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ أنَّ محمّداً[2] ﷺ رأى جبريلَ له ستمئة جناح .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا يحيى بن آدم ، حدَّثنا شريك ، عن جامع بن أبي راشد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، قال : رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ في صورته وله ستمئة جناح ، كلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأفقَ ، يسقط من جناحه من التهاويل ، من الدرِّ والياقوت ما الله به عليم[3] .

وقال أحمد أيضاً[4] : حدَّثنا حسن بن موسى ، حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة ، عن عاصِم بن بَهْدلةَ ، عن زِرِّ بن حُبَيْش ، عن ابن مسعود في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ ـ ١٤] قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريلَ وله ستمئة جناح ، يَنْتَثِرُ من ريشِه التَّهاويلُ ، الدُّرُّ والياقُوت » .

وقال أحمد[5] : حدَّثنا زيدُ بن الحباب ، حدَّثنا الحسينُ ، حدَّثني عاصمُ بن بَهْدلة ، سمعتُ شقيقَ بن سَلَمة ، يقولُ : سمعتُ ابن مسعود يقول : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريلَ على سِدْرة المُنْتهى ، وله

---

(١) في صحيحه (٤٨٥٧) في التفسير .
(٢) في البخاري (أنه محمد ﷺ) .
(٣) لم أجده في المسند بهذا الإسناد ، وإنما أخرجه (١/ ٣٩٥) رقم (٣٧٤٨) عن حجَّاج ، عن شريك ، عن عاصم ، به . وأخرجه (١/ ٤٠٧) رقم (٣٨٦٢) عن زيد بن حباب ، عن حسين ، عن عاصم ، عنه ، نحوه .
وانظر أطراف المسند ، للحافظ ابن حجر (٤/ ١٥٨) رقم (٥٥٥٠) طبعة دار ابن كثير ودار الكلم الطيب (١٤١٤هـ) . والتهاويل : الأشياء المختلفة الألوان .
(٤) في المسند (١/ ٤٦٠) وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٤٢). (٥) في المسند (١/ ٤٠٧) .

سِتُّمئةِ جَناح » قال : فسألتُ عاصماً عن الأجنحة ؟ فأبى أن يُخبرني ، قال : فأخبرني بعضُ أصحابه : أنَّ الجناحَ ما بينَ المَشْرِقِ والمغربِ .

وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد .

وقال أحمد[١] : حدَّثنا زيدُ بن الحباب ، حدَّثني حسين ، حدَّثني حُصَيْن ، حدَّثني شقيق ، سمعتُ ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريلُ في خُضرٍ[٢] مُعلَّقٍ به الدُّرُّ » . إسناده صحيح .

وقال ابن جرير[٣] : حدَّثنا ابن بزيع البغدادي ، قال : حدَّثنا إسحاق بن منصور ، قال : حدَّثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] قال : رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه حلَّتا رفرف قد ملأ ما بينَ السماء والأرض . إسناد جيد قوي .

وفي الصحيحين[٤] : من حديث عامر الشعبيّ ، عن مسروق ، قال : كنتُ عند عائشةَ فقلتُ : أليسَ الله يقولُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] فقالت : أنا أوَّلُ هذه الأمة سألَ رسولَ الله ﷺ عنها ، فقال : « إنما ذاك جبريلُ » لم يره في صورته التي خُلِقَ عليها إلا مرتين ، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ، ساداً عظمُ خلقه ما بينَ السماء والأرض .

وقال البخاريُّ[٥] : حدَّثنا أبو نُعيم ، حدَّثنا عمرُ بن ذرّ (ح) وحدَّثني يحيى بن جعفر ، حدَّثنا وكيعٌ ، عن عمرَ بن ذرٍّ ، عن أبيه ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ألا تزورنا أكثرَ مما تزورُنا ؟ قال : فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ [مريم : ٦٤] الآية » .

وروى البخاريُّ[٦] : من حديث الزهريّ ، عن عُبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس ، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريلُ ، وكان يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضان ، فيدارسُه القرآنَ ، فلرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الرِّيح المرسلة .

وقال البخاري[٧] : حدَّثنا قُتَيْبة ، حدَّثنا اللَّيْثُ ، عن ابن شهاب ، أن عمرَ بن عبد العزيز أخَّر العصرَ شيئاً ، فقال له عروةُ : أما إنَّ جبريلَ قد نزلَ فصلَّى أمامَ رسول الله ﷺ ، فقالَ عمر : أعلمُ ما تقولُ يا عروةُ : قال : سمعت بشير بن أبي مسعود يقولُ : سمعتُ أبا مسعود يقولُ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ

---

(١) في المسند (١/ ٤٠٧) .

(٢) معنى : في خُضْرٍ : في ثياب خضر .

(٣) في تفسيره (١١/ ٥١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٥٥) في التفسير ، ومسلم (١٧٧) في الإيمان .

(٥) في صحيحه (٣٢١٨) في بدء الخلق .

(٦) في صحيحه (٦) في بدء الوحي .

(٧) في صحيحه (٣٢٢١) في بدء الخلق .

يقول : « نزلَ جبريلُ فأمَّني ، فصلَّيْتُ معه ، ثمَّ صلَّيتُ معه ، ثم صلَّيتُ معه ، ثم صلَّيتُ معه ، يحسبُ بأصابعه خمسَ صلواتٍ » .

ومن صفة إسرافيل عليه السلام ، وهو أحدُ حملةِ العرش ، وهو الذي ينفخُ في الصُّور بأمر ربِّه نفخاتٍ ثلاثة : أولاهنَّ نَفْخةُ الفَزع ، والثانية نَفخةُ الصَّعْق ، والثالثة نَفْخةُ البَعْث ، كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه .

والصُّور : قَرْنٌ ينفخُ فيه ، كلُّ دارة منه كما بين السماء والأرض ، وفيه موضعُ أرواح العباد حينَ يأمرُه الله بالنفخ للبعث ، فإذا نفخَ تخرجُ الأرواحُ تتوهجُ فيقولُ الربُّ جلَّ جلالُه : وعِزَّتي وجَلالي لترجعنَّ كلُّ روحٍ إلى البَدنِ الذي كانت تعمُره في الدنيا ، فتدخلُ على الأجساد في قبورها ، فتدبُّ فيها كما يدبُّ السُّمُّ في اللَّديْغ ، فتحيا الأجسادُ وتنشقُّ عنهم الأجداث ، فيخرجونَ منها سِراعاً إلى مقام المحشر ، كما سيأتي تفصيله في موضعه[1] .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعمُ وصاحبُ القَرْنِ قد التقمَ القَرْنَ وحنَى جبهتَهُ وانتظرَ أن يُؤذَنَ له » . قالوا : كيف نقولُ يا رسول الله ؟ قال : « قولوا حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ، على الله توكَّلْنا » . رواه أحمد والترمذي من حديث عطيَّة العوفيِّ ، عن أبي سعيد الخدري[2] .

وقال الإمام أحمد[3] : حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمشُ ، عن سعد الطَّائيِّ ، عن عطيَّةَ العوفيِّ ، عن أبي سعيد ، قال : ذكرَ رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور فقال : عن يمينه جبريلُ ، وعن يساره ميكائيلُ عليهم السلام .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني[4] : حدَّثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدَّثنا محمد بن عمر بن أبي ليلى ، حدَّثني أبي عن ابن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس ، قال : بينا رسولُ الله ﷺ ومعه جبريلُ بناحيةٍ إذ انشقَّ أفقُ السَّماء ، فأقبلَ إسرافيلُ[5] يدنو من الأرضِ ويتمايلُ ، فإذا مَلَكٌ قد مَثُلَ بين يدي النبيِّ ﷺ ، فقال : يا محمد! إن الله يأمرُكَ أن تختارَ بين نبيٍّ عَبْدٍ أو ملكٍ نبيٍّ . قال : فأشارَ جبريلُ إليَّ بيده : أنْ تواضعْ . فعرفتُ أنه لي ناصحٌ . فقلتُ : عبدٌ نبيٌّ . فعرجَ ذلكَ الملكُ إلى السماء . فقلتُ : يا جبريلُ : قد كنتُ أردْتُ أنْ أسألَكَ عن هذا ، فرأيتُ منْ حَالِكَ ما شغلَني عن

---

(١) النهاية للحافظ ابن كثير (١/ ٢٧٣) .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٧) والترمذي في الجامع (٢٤٣٣) وإسناده ضعيف ، وله شواهد يتقوّى بها ، ذكرها الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١١/ ٣١٧) .
(٣) في المسند (٣/ ١٠) .
(٤) المعجم الكبير (١١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) .
(٥) في المعجم : « فأخذ جبريل يدنو » .

المسألةِ ، فمَنْ هذا يا جبريلُ ؟ فقال : هذا إسرافيل عليه السلام خلقَه الله يومَ خلقَه بين يديْه صَافاً قدميْه لا يرفعُ طَرْفهُ ، بينه وبين الربِّ سبعون نوراً ، ما منها من نورٍ يكادُ يدنو منه إلا احترقَ ، بين يديه لوحٌ ، فإذا أذنَ الله في شيء من السماء أو في الأرض ارتفعَ ذلك اللَّوْحُ فضرب جبهتَه ، فينظر ، فإنْ كان من عملي أمرني به ، وإنْ كان من عمل ميكائيلَ أمرَه به ، وإن كان من عمل مَلَكِ الموت أمره به . فقلت : يا جبريل وعلى أيِّ شيءٍ أنت ؟ قال : على الريح والجنود . قلت : وعلى أيِّ شيءٍ ميكائيلُ ؟ قال : على النبات والقَطْر . قلتُ : وعلى أيِّ شيءٍ مَلَكُ الموت ؟ قال : على قَبْضِ الأنْفُسِ ، وما ظننتُ أنه نزل إلا لقيام السَّاعةِ ، وما الذي رأيتَ منِّي إلا خوفاً من قيامِ السَّاعة . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وفي صحيح مسلم[١] : عن عائشة ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ : كان إذا قامَ من اللَّيل يُصلِّي يقول : « اللَّهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السمواتِ والأرض ، عالمَ الغيبِ والشَّهادة ، أنتَ تحكمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفونَ ، اهـدني لما اختُلفَ فيه من الحقِّ بإذنكَ ، إنَّكَ تهدي منْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ » .

وفي حديث الصُّور : أن إسرافيلَ أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصُّور[٢] .

وذكر محمد بن الحسن النقَّاش : أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجُوزي بولاية اللوح المحفوظ . حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه « التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأعلام »[٣] .

وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة : ٩٨] عطفَها على الملائكة لشرفهما ، فجبريلُ مَلَكٌ عظيم قد تقدَّم ذِكرُه . وأما ميكائيلُ ، فموكَّل بالقَطْر والنبات ، وهو ذو مَكانةٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ ، ومن أشراف الملائكة المقرَّبين .

وقد قال الإمامُ أحمد[٤] : حدَّثنا أبو اليمان ، حدَّثنا ابنُ عيَّاش ، عن عُمارة بن غَزيَّة الأنصاري ؛ أنه سمع حُميد بن عُبيد مولى بني المُعلَّى يقولُ : سمعتُ ثابتاً البُناني يُحدِّثُ عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ : أنه قال لجبريلَ : « ما لي لم أرَ ميكائيلَ ضاحكاً قطُّ ؟ فقال : ما ضحكَ ميكائيلُ منذ خُلقتِ النَّارُ »[٥] .

---

(١) (٧٧٠) في صلاة المسافرين ، وفيه قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته .

(٢) حديث الصُّور أخرجه البيهقي (٦٦٨) في « البعث والنشور » والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٢٥) والطبراني (٣٦) في المطولات ، عن أبي هريرة . قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث مشهور ، وهو غريب جداً ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة .

(٣) التعريف والإعلام ؛ للسهيلي (ص١٨) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ .

(٤) في المسند (٣/ ٢٢٤) وهو حسن بطرقه وشواهده .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٢٤) ، وإسناده ضعيف .

فهؤلاء الملائكةُ المصرَّح بذكرهم في القرآن .

وفي الصِّحاح هم المذكورون في الدعاء النبويِّ « اللهم رب جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل » . فجبريلُ ؛ ينزلُ بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيلُ : موكَّل بالقَطْر والنبات اللَّذين يُخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوانٌ يفعلون ما يأمرهم به بأمرِ ربِّه ، يصرفونَ الرِّياحَ والسَّحابَ كما يشاءُ الربُّ جلَّ جلاله ، وقد روينا أنه ما من قطرةٍ تنزلُ من السماء إلا ومعها مَلَكٌ يُقرِّرُها في موضعها من الأرض . وإسرافيلُ : مُوكَّل بالنفخ في الصُّور ، للقيام من القبور ، والحضور يوم البعث والنشور ، ليفوزَ الشَّكُور ، ويُجازى الكفور ، فذاك ذنبه مغفور ، وسعيه مشكور ، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور ، وهو يدعو بالويل والثبور . فجبريلُ عليه السلام يحصلُ مما هو[1] موكَّلٌ به الهدى ، وميكائيلُ يحصلُ مما[2] هو موكّل به الرزق ، وإسرافيلُ يحصلُ مما هو موكَّلٌ به النصر والجزاء .

وأما مَلَكُ الموت ، فليس بمصرَّح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصِّحاح ، وقد جاء تسميتُه في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] وله أعوانٌ يستخرجون روحَ العبد من جثَّته حتى تبلغَ الحلقومَ ، فيتناولُها مَلَكُ الموت بيده ، فإذا أخذَها لم يدَعُوها في يده طَرْفَةَ عَيْنٍ حتَّى يأخذوها منه فيلقوها في أكفان تليق بها ، كما قد بُسط عند قوله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . ثم يصعدونَ بها ، فإن كانت صالحةً فُتحتْ لها أبوابُ السماء وإلا غُلِّقَتْ دونَها ، وأُلقيَ بها إلى الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١ ـ ٦٢] .

وعن ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحد ؛ أنهم قالوا : إنَّ الأرضَ بين يديْ مَلَكِ الموت مثل الطَّسْتِ يتناولُ منها حيث يشاء ، وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتونَ الإنسانَ على حَسَبِ عملهِ ، إنْ كان مؤمناً أتاه ملائكةٌ بيضُ الوجوه ، بيضُ الثياب ، طَيِّبةُ الأرواح . وإن كان كافراً فبالضدِّ من ذلك ؛ عياذاً بالله العظيم من ذلك .

وقد قال ابنُ أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا يحيى بن أبي يحيى المُقرىء ، حدَّثنا عَمْرو بن شمر[3] ، قال : سمعتُ جعفرَ بن محمّد ، قال : سمعتُ أبي يقولُ : نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى مَلَكِ الموتِ عندَ رأسِ

(١) كذا في الأصول ، وفي المطبوع : بما ينزل .
(٢) في المطبوع : بما .
(٣) في الأصول : سمر ؛ والتصحيح من « المعجم الكبير » (٤/ ٢٢٠) و« تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٥٦٥) .

رجلٍ من الأنصار ، فقال له النبيُّ ﷺ : يا مَلَكَ الموتِ ارفُقْ بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال مَلَكُ الموت : يا محمَّدُ ! طِبْ نفساً وقرَّ عيناً فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيق ، واعلم أنَّ ما في الأرض بَيْتَ مَدرٍ ولا شَعرٍ في برٍّ ولا بحرٍ ، إلا وأنا أتصَفَّحُهم[١] في كلِّ يوم خمسَ مرَّاتٍ ، حتى إني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمَّد ؛ لو أني أردتُ أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدرتُ على ذلك حتى يكونَ الله هو الآمر بقبضها . قال جعفرُ بن محمد : أي : هو الصادق . بلغني : يتصفَّحُهم عندَ مواقيتِ الصلاة ، فإذا حضرَ عند الموتِ فإذا كان ممن يحافظُ على الصَّلاة دنا منه الملَكُ ودفعَ عنه الشيطانَ ، ولقَّنه الملَكُ : لا إله إلا الله محمَّد رسولُ الله . في تلك الحال العظيمة[٢] .

هذا حديث مرسلٌ وفيه نظر .

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاصِّ ، عن محمد بن يزيد بن أبي زياد[٣] ، عن محمد بن كعب القُرَظيّ ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ . . . الحديث بطوله . وفيه : ويأمرُ الله إسرافيل بنفْخةِ الصَّعْقِ ، فينفخُ نفخةَ الصَّعْق ، فيَصْعقُ أهلُ السموات وأهلُ الأرض إلا منْ شاء الله ، فإذا هم خَمدُوا ، جاء مَلَكُ الموت إلى الجبَّار عزَّ وجلَّ ، فيقول : يا ربّ قد ماتَ أهلُ السمواتِ والأرض إلا من شئتَ . فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بقي ـ : فمن بقيَ ؟ فيقولُ : بقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ ، وبقيتْ حملة عرشك ، وبقيَ جبريلُ وميكائيلُ . فيقول : ليمتْ[٤] جبريلُ وميكائيلُ . فيُنطِقُ اللهُ العرشَ ، فيقولُ : يا رب ! يموت جبريل وميكائيل ؟! فيقول : اسكتْ فإني كتبتُ الموتَ على كلِّ منْ كان تحتَ عرشي ، فيموتان . ثم يأتي ملَكُ الموتِ إلى الجَبَّارِ عَزَّ وجلَّ ، فيقولُ : يا ربّ قد ماتَ جبريلُ وميكائيل . فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بقي ـ فمنْ بقيَ ؟ فيقولُ : بقيتَ أنتَ الحيَّ الذي لا يموتُ ، وبقيت حملةُ عرشك ، وبقيتُ أنا ، فيقول الله : لتمت حملة عرشي ، فتموتُ . ويأمرُ الله العرشَ فيقبضُ الصُّورَ من إسرافيل ، ثم يأتي مَلَكُ الموت فيقولُ : يا ربِّ قد مات حملة عرشكَ ، فيقول الله : ـ وهو أعلم بمن بقي ـ : فمن بقي ؟ فيقولُ : بقيتَ أنتَ الحيَّ الذي لا يموتُ ، وبقيتُ أنا ، فيقول الله : أنتَ خلْقٌ من خَلْقي ، خلقتُك لما أردتُ ، فمتْ ، فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهَّار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحد ، فكان آخراً كما كان أوَّلاً . . وذكر تمام الحديث بطوله . رواه الطبراني

---

(١) في المطبوع : أتفحصهم . وفي المعجم الكبير : أتصفحهم في كل يوم خمس مرات .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٢٠) وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٢٦) وقال : وفيه عمرو بن شمر الجعفي ، ضعيف جداً ، والحارث بن الخزرج مجهول .
وبيت المَدَر : مبني من الطين .
(٣) في المطبوع : محمد بن زياد .
(٤) في أ : فيمت .

وابن جرير والبيهقي[١] ، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « الطوالات »[٢] وعنده زيادة غريبة ، وهي قوله : فيقول الله له : « أنت خَلْقٌ من خَلْقي خلقتُك لما أردتُ ، فمتْ موتاً لا تحيا بعده أبداً » .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن : هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السَّلف . وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبُها إسرائيليات .

وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصحَّحه ابن حبان في « تقاسيمه »[٣] . وفي صحَّته عندي نظر ، والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ، ويكون مما تلقَّاه عن كعب الأحبار ، كما سيأتي بيانه ، والله أعلم . وفيه : أنه تمثلت لهما الزهرة امرأةً من أحسن البشر .

وعن عليٍّ وابن عبَّاس وابن عمر أيضاً : أن الزهرة كانت امرأة ، وأنهما لما طلبا منها ما ذُكِر أبت إلا أن يُعلِّماها الاسمَ الأعظمَ ، فعلَّماها ، فقالته ، فارتفعت إلى السماء ، فصارتْ كوكباً[٤] .

وروى الحاكم في « مستدركه » : عن ابن عباس ، قال : وفي ذلك الزمان امرأة حسنُها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب[٥] . وهذا اللفظ أحسنُ ما ورد في شأن الزهرة .

ثم قيل : كان أمرهما وقصَّتهما في زمان إدريس . وقيل : في زمان سليمان بن داود كما حرَّرنا ذلك في التفسير[٦] .

وبالجملة فهو خبرٌ إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار ، كما رواه عبدُ الرزاق في تفسيره ، عن الثوريِّ ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار بالقِصَّة[٧] . وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالاً والله أعلم .

ثم قد قيل : إن المراد بقوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] قبيلان من الجَانِّ ، قاله ابن حزم ، وهذا غريب وبعيد من اللفظ .

---

(١) رواه الطبراني في المطولات (٣٦) وابن جرير في التفسير (٣٠/ ١٨٦) والبيهقي (٦٦٨) في البعث والنشور .

(٢) قال في كشف الظنون : الطوالات ؛ للحافظ الكبير أبي موسى محمد بن أبي بكر عمر المديني المتوفى سنة (٥٨١هـ) وهي في مجلدين .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٣٤) وابن حبان في صحيحه ، الإحسان (٦١٨٦) والبزار (٢٩٣٨) كما في كشف الأستار ، والبيهقي في السنن (١٠/ ٤ ـ ٥) . وفي إسناده موسى بن جبير : يخطىء ويخالف ، وزهير بن محمد التيميُّ ؛ في حفظه شيء وله أغاليط .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٦) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٢) .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٩٧) .

ومن الناس من قرأ (وما أُنزل على الملِكين) بالكسر ، ويجعلهما علجين من أهل فارس ، قاله الضحَّاك[١] . ومن الناس من يقول : هما مَلَكان من السماء ، ولكن سبقَ في قدر الله ما ذكره من أمرهما إن صحَّ به الخبر ، ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل : إنه من الملائكة ، لكن الصحيح أنه من الجنِّ كما سيأتي تقريره .

ومن الملائكة المسمَّيْن في الحديث : منكر ونكير عليهما السلام . وقد استفاضَ في الأحاديث ذِكْرُهما في سؤال القبر . وقد أوردناها[٢] عند قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] وهما فتَّانا القبر ، موكَّلان بسؤال الميت في قبره عن ربِّه ودينه ونبيه ، ويمتحنان البرَّ والفاجرَ ، وهما أزرقان أفرقان ، لهما أنيابٌ وأشكالٌ مزعجة ، وأصواتٌ مفزعة ، أجارنا الله من عذاب القبر ، وثبَّتنا بالقول الثابت آمين .

وقال البخاري[٣] : حدَّثنا عبدُ الله بن يُوسف ، حدَّثنا ابنُ وَهْب ، حدَّثني يونسُ ، عن ابن شهاب ، حدَّثني عروةُ ؛ أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ حدَّثته أنَّها قالتْ للنبي ﷺ : هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ[٤] ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبدِ كُلال فلم يُجبْني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ ، فناداني ، فقال : إنَّ الله قد سمعَ قولَ قومِكَ لكَ وما ردُّوا به عليكَ ، وقد بعثَ اللهُ إليكَ[٥] ملَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم ، فناداني ملَكُ الجبال فسَلَّم عليّ ، ثم قال : يا محمَّد ! فقال ذلك ، فما شئتَ ، إنْ شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهم الأخشبين . فقال النبي ﷺ : « بلْ أرجو أنْ يُخْرِجَ الله من أصلابهم منْ يَعْبُدُ اللهَ وحدَه ولا يُشركُ به شيئاً » . ورواه مسلم[٦] من حديث ابن وهب به .

فصل : ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيَّأهم الله له أقسام :

فمنهم حَمَلةُ العرشِ ، كما تقدَّم ذكرهم ، ومنهم الكروبيون الذين هم حولَ العرش ، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقرَّبون ، كما قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [النساء : ١٧٢] . ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام ، وقد ذكر الله عنهم

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٥٢) والعلج : الرجل من كفار العجم .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥٥ ـ ٦٦٣) وفي أ : وقد أوردنا .
(٣) في صحيحه (٣٢٣١) .
(٤) سقطت من الأصول ، وأثبتها من صحيح البخاري .
(٥) في ب : والمطبوع : بعث لك .
(٦) في صحيحه (١٧٩٥) في الجهاد .

أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ ـ ٩] . ولما كانت سجاياهم[١] هذه السجية الطاهرة كانوا يُحِبُّونَ من اتَّصفَ بهذه الصفة ، فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال : « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثل »[٢] .

ومنهم : سكَّان السموات السبع ، يعمرونها عبادة دائبة ، ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً ، كما قال [تعالى] : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] . فمنهم الراكعُ دائماً ، و [ومنهم][٣] القائمُ دائماً ، والساجدُ دائماً . ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعدَ زمرةٍ إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم . ومنهم الموكَّلون بالجنان ، وإعداد الكرامة لأهلها ، وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر .

وخازنُ الجنَّة مَلكٌ يقالُ له : رضوان ، جاء مصرَّحاً به في بعض الأحاديث .

ومنهم الموكَّلون بالنَّار وهم الزبانية ، ومقدَّموهم تسعة عشر ، وخازنُها مالكٌ ، وهو مُقدَّم على جميع الخزنة ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٩] الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ـ ٧٨] وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [المدثر : ٣٠ ـ ٣١] .

ومنهم[٤] : الموكَّلون بحفظ بني آدم ، كما قال تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١٠ ـ ١١]

---

(١) سجاياهم : طباعهم .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٣٢) في الذكر والدعاء ، وأبو داود في سننه (١٥٣٤) في الصلاة ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) ما بين حاصرتين أثبته من أ .

(٤) في المطبوع : وهم ، وهو خطأ .

قال الوالبي[١] ؛ عن ابن عباس : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد : ١١] [والمعقبات من أمر الله][٢] هي الملائكة . وقال عكرمة عن ابن عباس ؛ يحفظونه من أمر الله : قال : ملائكة يحفظونه من بين يديْه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه[٣] . وقال مجاهد : ما من عبد إلا ومَلَكٌ موكَّلٌ بحفظِه في نومِه ويقظتِه من الجنِّ والإنسِ والهوامّ ، وليس شيء يأتيه يُريده إلا قال : وراءَك ، إلا شيء يأذنُ الله فيه فيصيبه[٤] . وقال أبو أمامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلِّمه للذي قدِّر له[٥] . وقال أبو مجلز : جاء رجلٌ إلى علي فقال : إن نفراً من مراد يُريدون قتلكَ ، فقال : إن مع كلِّ رجلٍ مَلَكين يحفظانِه مما لم يُقدَّر ، فإذا جاءَ القدَرُ خلَّيا بينَه وبينه ، إنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينة[٦] .

ومنهم : الموكَّلون بحفظ أعمال العباد ، كما قال تعالى : ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [ق : ١٧ ـ ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١٢] . قال الحافظُ أبو محمد عبدُ الرحمن بن أبي حاتم الرازيّ في تفسيره : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا علي بن محمد الطَّنافسيّ ، حدَّثنا وكيعٌ ، حدَّثنا سفيان ومِسْعر ، عن علقمةَ بن مَرْثد ، عن مجاهد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرامَ الكاتبينَ الذين لا يُفارقونكُم إلا عندَ إحدى حالتين ؛ الجنَابة والغَائط ، فإذا اغتسلَ أحدُكم فليستترْ بجِذْمِ حائطٍ ، أو ببعيره ، أو ليستُرْه أخوه »[٧] .

هذا مرسلٌ من هذا الوجه ، وقد وصلَه البزَّارُ في « مسنده » : من طريق حفص[٨] بن سليمان القارىء ، وفيه كلام عن علقمة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التَّعرِّي ، فاستحيوا من ملائكة الله الذينَ معكم الكرام الكاتبين ، الذين لا يفارقُونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل . فإذا اغتسلَ أحدُكم بالعَراء فَلْيَسْتَتِرْ بثوبهِ ، أو بجِذْمِ حائطٍ ، أو ببعيره »[٩] . ومعنى إكرامهم أن يُستحيا منهم فلا يُمْلى عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها ، فإن الله خلقَهم كراماً في خَلْقهم وأخلاقِهم .

---

(١) الوالبي : هو أبو خالد الوالبي المفسر ، يروي عن عبد الله بن عباس ، وجابر بن سمرة ، وعنه فِطْرُ بن خليفة ، وعطية العوفي ، وغيرهما . انظر تاريخ الطبري (١/ ١٢) .

(٢) ما بين حاصرتين أثبته من ب .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٣٥١) .

(٤) المصدر السابق (٧/ ٣٥٢) والهوامّ : السِّباع .

(٥) المصدر السابق (٧/ ٣٥٥) . ويذود : يُدافع .

(٦) المصدر السابق (٧/ ٣٥٤) . وجُنَّة : درع .

(٧) تفسير القرآن العظيم ؛ للحافظ ابن كثير (٤/ ٥٦٩) وجِذْمُ الحائط : أصله ، أو قطعة منه .

(٨) في المطبوع : جعفر ، وهو خطأ .

(٩) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣١٧) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٢٦٨) وقال البزار : لا نعلمه يُروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه ، وحفصٌ : ليِّنُ الحديث . والعراء : الفضاء من الأرض .

ومن كرمهم أنه قد ثبتَ في الحديث المرويّ في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيه صورةٌ ولا كَلْبٌ ولا جُنُبٌ »[(١)] وفي رواية : عن عاصم بن ضَمْرة ، عن عليّ : « ولا بَوْلٌ »[(٢)] . وفي رواية رافع ، عن أبي سعيد ، مرفوعاً : « لا تدخلُ الملائكة بيتاً فيه صورةٌ ولا تِمْثالٌ »[(٣)] . وفي رواية مجاهد : عن أبي هريرة ، مرفوعاً « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيه كَلْبٌ أو تمثالٌ »[(٤)] . وفي رواية ذكوان أبي صالح السَّمَّان : عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تصحبُ الملائكةُ رُفقةً معهم كَلْبٌ أو جَرَسٌ »[(٥)] . ورواه زُرارة بن أوفى عنه « لا تصحب الملائكةُ رِفقةً معهم جَرَسٌ »[(٦)] .

وقال البزار[(٧)] : حدَّثنا إسحاق بن سليمان البغدادي ، المعروف بالفلوسيّ . حدَّثنا بيانُ بن حمران ، حدَّثنا سَلاَّم ، عن منصور بن زاذان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ملائكةَ الله يعرفون بني آدم ـ وأحسبه قال : ـ ويعرفون أعمالَهم ، فإذا نظروا إلى عبدٍ يعملُ بطاعة الله ذكروه بينهم ، وسمَّوه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان ، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصيةِ الله ذكرُوه بينَهم وسمَّوْهُ ، وقالوا : هلكَ فلانٌ الليلةَ » . ثم قال : سلاَّم ـ أحسبه ـ سَلاَّم المدائني ، وهو لَيِّنُ الحديث .

وقد قال البخاري[(٨)] : حدَّثنا أبو اليمان ، حدَّثنا شُعَيْبٌ ، حدَّثنا أبو الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الملائكةُ يتعاقبون ، ملائكةٌ باللَّيل وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعونَ في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يعرجُ إليه الذين باتوا[(٩)] فيكم فيسألهم ـ وهو أعلم ـ فيقول : كيف

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٢٧) في الطهارة ، و(٤١٥٢) في اللباس والنسائي في المجتبى (١/١٤١) في الطهارة ، عن عليٍّ رضي الله عنه وفي إسناده ضعف وقد صح دون الجنب ، فهو في الصحيحين من حديث عائشة وأبي طلحة .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٤٦) وإسناده ضعيف جداً ، فيه الحسن بن ذكوان : ليس بالقوي ، وعمرو بن خالد القرشي ؛ متروك .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٥) والترمذي في الجامع (٢٨٠٥) في الأدب وقال : حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٤١٥٨) في اللباس ، والترمذي في الجامع (٢٨٠٦) في الأدب .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١١٣) في اللباس وأبو داود في سننه (٢٥٥٥) في الجهاد ، والترمذي في الجامع (١٧٠٣) في الجهاد .

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٨٥ و٤١٤) من حديث زرارة بن أوفى عن أبي هريرة ، وهو حديث صحيح .

(٧) كما في كشف الأستار (٣٢١٤) وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٦) وقال : رواه البزار وفيه من لم أعرفهم .

(٨) في صحيحه (٣٢٢٣) في بدء الخلق .

(٩) في البخاري : كانوا ، وفي أ : يأتون .

تركتُم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يُصَلُّون ، وأتيناهم وهُم يُصَلُّون » . هذا لفظه في كتاب بدء الخلق بهذا السياق ، وهذا اللفظ تفرَّد به دون مسلم من هذاالوجه .

وقد أخرجاه في الصحيحين[١] : من حديث مالك عن أبي الزناد به .

وقال البَزَّار[٢] : حدَّثنا زيادُ بن أيوب ، حدَّثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي ، حدَّثنا تمام بن نَجِيْح ، عن الحسن - يعني البَصْري - عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين ، يرفعانِ إلى الله عزَّ وجلَّ ما حفظا في يوم ، فيرى الله تبارك وتعالى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً ، إلا قال الله : قد غفرتُ لعبدي ما بينَ طرفي الصحيفة » . ثم قال : تفرَّد به تمَّام بن نَجيح ، وهو صالح الحديث .

قلت : وقد وثَّقه ابنُ مَعين[٣] ، وضعَّفه البخاري[٤] وأبو حاتم[٥] وأبو زُرْعة[٦] والنَّسائي[٧] وابن عديّ[٨] ، ورماه ابن حبان بالوضع[٩] . وقال الإمام أحمد[١٠] : لا أعرف حقيقة أمره .

والمقصودُ أنَّ كلَّ إنسانٍ له حافظان مَلَكان اثنان ، واحدٌ من بين يديه ، وآخرُ من خلفه ، يحفظانِه من أمر الله بأمر الله عزَّ وجلَّ . ومَلَكان كاتبانِ عن يمينِه وعن شمالِه ، وكاتبُ اليمين أميرٌ على كاتبِ الشمال، كما ذكرْنا[١١] ذلك عند قوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١٢] : حدَّثنا أسود بن عامر ، حدَّثنا سفيان ، حدَّثنا منصور ، عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن أبيه ، عن عبد الله هو - ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكةِ » قالوا : وإيَّاكَ يا رسولَ الله ؟ قال : « وإياي ، ولكنَّ الله أعانني عليه فلا يأمُرني إلا بخيرٍ » .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٥٥) في الصلاة . ومسلم في صحيحه (٦٣٢) في المساجد ومواضع الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) كما في كشف الأستار (٣٢٥٢) .
(٣) تاريخ الدوري عن ابن معين (٢/ ٦٦) .
(٤) تاريخه الكبير ٢/ الترجمة (٢٠٤٦) .
(٥) الجرح والتعديل ٢/ الترجمة (١٧٨٨) .
(٦) سؤالات البرذعي (٢/ ٥٤٨) والجرح والتعديل ٢/ الترجمة (١٧٨٨) .
(٧) الضعفاء والمتروكون (٩٢) .
(٨) الكامل (٢/ ٥١٤) .
(٩) المجروحين (١/ ٢٠٤) .
(١٠) تهذيب الكمال (٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥) .
(١١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٣) .
(١٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٥) .

انفردَ بإخراجه مسلم[١] : من حديث منصور به .

فيحتملُ أنَّ هذا القرينَ من الملائكة غير القرين لحفظِ الإنسان ، وإنما هو موكَّل به ليرشده ويهديَه بإذن ربِّه إلى سبيلِ الخير وطريق الرشاد ، كما أنه قد وُكِّل به القرينُ من الشياطين لا يألوه جهداً في الخَبال[٢] والإضلال ، والمعصومُ من عصم الله عزَّ وجلَّ ، وبالله المستعان .

وقال البخاري[٣] : حدَّثنا أحمد بن يونس ، حدَّثنا إبراهيمُ بن سعدٍ ، حدَّثنا ابنُ شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والأغرِّ ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يومُ الجمعةِ ، كانَ على كلِّ بابٍ من أبوابِ المسجدِ ملائكةٌ يكتبونَ الأوَّلَ فالأوَّلَ ، فإذا جلسَ الإمامُ طَوَوُا الصُّحفَ ، وجَاؤُوا يستمعونَ الذِّكْرَ » .

وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه ، وهو في الصحيحين[٤] من وجه آخر .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا أسباط ، حدَّثنا الأعمشُ ، عن إبراهيمَ ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ . وحدَّثنا الأعمشُ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : « ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ » [الإسراء : ٧٨] قال : « تشهدُه ملائكةُ اللَّيلِ وملائكةُ النَّهار » . ورواه الترمذيُّ[٦] ، والنَّسائيُّ[٧] ، وابن ماجه ، من حديث أسباط . وقال الترمذي : حسن صحيح . قلت : وهو منقطع[٨] .

وقال البخاري[٩] : حدَّثنا عبدُ الله بن محمّد ، حدَّثنا عبدُ الرَّزاق ، أنبأنا مَعْمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمةَ وسعيدِ بن المُسَيَّب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : قال : « فضلُ صلاة الجَمْعِ على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة ، ويجتمعُ ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » . يقول أبو هريرة : اقرؤُوا إن شئتم : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

وقال البخاري[١٠] : حدَّثنا مُسَدَّد ، قال أبو عَوانة ، عن الأعمش ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨١٤) (٦٩) في المنافقين .
(٢) « الخبال » : الفساد .
(٣) في صحيحه (٣٢١١) في بدء الخلق .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩٢٩) في الجمعة ، ومسلم في صحيحه (٨٥٠) في الجمعة .
(٥) في المسند (٢/ ٤٧٤) أقول : لكنه حديث صحيح ، تشهد له الروايات التي ذكرها المصنف بعدها .
(٦) في جامعه (٣١٣٥) في التفسير .
(٧) في التفسير (٣١٣) .
(٨) في سننه (٦٧٠) في الصلاة .
(٩) في صحيحه (٤٧١٧) في التفسير وفيه : في صلاة الصبح .
(١٠) في صحيحه (٣٢٣٧) في بدء الخلق و (٥١٩٣) في النكاح .

قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجلُ امرأته إلى فراشه فأبتْ فباتَ غضبانَ عليها ، لعَنَتْها الملائكةُ حتَّى تُصْبحَ » . تابعه شعبةُ ، وأبو حمزة ، وأبو داود ، وأبو معاوية ، عن الأعمش .

وثبت في الصحيحين : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنُوا ، فإن منْ وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه »[١] .

وفي لفظٍ : « إذا قالَ الإمامُ : آمين[٢] ، فإنَّ الملائكةَ تقولُ في السماء : آمين ، فمنْ وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه »[٣] .

وفي صحيح البخاري[٤] : حدَّثنا إسماعيل، حدَّثني مالك، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إذا قال الإمام سمعَ الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، فإنَّ من وافقَ قولُه قولَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه » . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك[٥] .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمشُ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ـ أو عن أبي سعيد ـ هو شكَّ ـ يعني الأعمش ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ لله ملائكةً سيَّاحينَ في الأرض فُضُلاً عن كتّاب النَّاس ، فإذا وجدُوا أقواماً يذكرونَ اللهَ تَنادوا هَلُمُّوا إلى بُغيتكم فيجيئون [فيحفُّون][٧] بهم إلى السماء الدنيا ، فيقول الله : أيَّ شيءٍ تركتُم عبادي يصنعونَ ؟ فَيَقُولون : تركنَاهُم يحمدونك ويمَجّدُونك ويذكرونَكَ . فيقول : وهل رأوني ؟ فيقولونَ : لا ، فيقول : كيفَ لو رأوْني ؟! فيقولون : لو رأوكَ لكانُوا أشدَّ تحميداً وتمجيداً وذكراً . قال : فيقول : فأيَّ شيءٍ يطلبونَ ؟ فيقولون : يطلبونَ الجنَّةَ ، فيقول : وهل رأوْها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقول : فكيفَ لو رأوْها ؟! فيقولون : لو رأوها لكانوا أشدَّ عليها حِرْصاً وأشدَّ لها طلباً . قال : فيقول : من أيِّ شيءٍ يتعوَّذون ؟ فيقولون : منَ النَّارِ ؟ فيقول : وهلْ رَأوْها ؟ فيقولون : لا ، فيقول : فكيفَ لو رأوها . فيقولون : لو رأوْها كانوا أشدَّ منها هرباً وأشدَّ منها خوفاً . قال : فيقول : أشهدُكم أنِّي قد غفرتُ لهم . قال : فيقولون : إن فيهم فلاناً الخطَّاء لم يُرِدْهُم ، إنما جاءَ لحاجةٍ . فيقول : هُمُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم » .

وهكذا رواه البخاري[٨] عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به . وقال : رواه شعبة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٨٠) في صفة الصلاة ، ومسلم في صحيحه (٤١٠) في الصلاة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) لفظ البخاري : « إذا قال الإمام ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقولوا : آمين » .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٨٢) في صفة الصلاة و(٤٤٧٥) في التفسير .

(٤) (٣٢٢٨) في بدء الخلق .

(٥) مسلم (٤٠٩)، وأبو داود (٨٤٨)، والترمذي (٢٦٧)، والنسائي (٢/ ١٩٦) وفي الكبرى (٦٥٠) كلهم في الصلاة .

(٦) في المسند (٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) وهو حديث صحيح .

(٧) أثبتها من المسند (٢/ ٢٥١) .

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٠٨) في الدعوات .

عن الأعمش ولم يرفعه ، ورفعه سهيل عن أبيه .

وقد رواه أحمد[١] : عن عفَّان ، عن وُهيب ، عن سُهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، كما ذكره البخاري معلَّقا عن سهيل[٢] . ورواه مسلم[٣] : عن محمّد بن حاتِم ، عن بَهْز بن أسد ، عن وُهَيْبٍ به .

وقد رواه الإمام أحمد[٤] أيضاً : عن غُنْدَر ، عن شُعبة ، عن سليمانَ ـ هو الأعمش ـ عن أبي صالحٍ ، عن أبي هُريرة [لم يرفعه نحوه][٥] ، كما أشارَ إليه البخاريُّ رحمه الله[٦] .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمش ، وابنُ نمير ، أخبرنا الأعمشُ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : « من نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا ، نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَبِ يومِ القيامة ، ومنْ سترَ مسلماً ستره الله في الدُّنيا والآخرة ، [ومن يسَّر عن مُعْسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة][٨] والله في عونِ العَبْدِ ما كانَ العبدُ في عونِ أخيه ، ومن سلكَ طريقاً يلتمسُ به علماً سهَّلَ الله له به طريقاً إلى الجنَّة ، وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلونَ كتابَ اللهِ ويتدارسونَه بينهم ، إلا نزلتْ عليهم السكينةُ ، وغشيتْهم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وذكرَهم الله فيمن عنده ، ومنْ بَطَّأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه » .

وكذا رواه مسلم[٩] من حديث أبي معاوية .

وقال الإمام أحمد[١٠] : حدَّثنا عبد الرزاق ، حدَّثنا مَعْمر ، عن أبي إسحاق ، عن الأغرّ ـ أبي مسلم ـ عن أبي هريرة وأبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « ما اجتمعَ قومٌ يذكرونَ اللهَ إلا حفَّتهم الملائكةُ ، وغشيتهم[١١] الرحمةُ ، ونزلتْ عليهم السَّكينةُ ، وذكرَهم الله فيمن عندَه » .

وكذا رواه[١٢] أيضاً : من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة ، عن أبي إسحاق به ، نحوه .

---

(١) في المسند (٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩) .
(٢) أخرجه عقيب الحديث (٦٤٠٨) .
(٣) في صحيحه (٢٦٨٩) في الذكر والدعاء .
(٤) في المسند (٢/ ٢٥٢) .
(٥) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع .
(٦) عقيب الحديث (٦٤٠٨) من صحيحه .
(٧) في المسند (٢/ ٢٥٢) .
(٨) ما بين حاصرتين أثبته من المسند .
(٩) في صحيحه (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء .
(١٠) في المسند (٣/ ٩٤) .
(١١) في المسند : وتغشتهم .
(١٢) في المسند (٣/ ٩٤) .

ورواه مسلم : من حديث شعبة[١] ، والترمذي من حديث الثوري[٢] وقال : حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه[٣] عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يحيى بن آدم ، عن عمَّار بن زريق ، عن أبي إسحاق ، بإسناده نحوه .

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وفي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدرداء ، مرفوعاً : « وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالبِ العلم رضاً بما يصنعُ »[٤] أي : تتواضع له ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٢٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا وكيع ، عن سُفيان ، عن عبد الله بن السَّائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة سيَّاحينَ في الأرضِ ، لِيُبلِّغوني عن أمتي السَّلام »[٥] .

وهكذا رواه النسائي[٦] من حديث سفيان الثوريّ وسُليمان الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السَّائب به .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدَّثنا عبد الرزاق ، حدَّثنا مَعْمر ، عن الزهريّ ، عن عروةَ ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلقتِ الملائكةُ من نورٍ ، وخُلِقَ الجَانُّ من مَارِجٍ من نارٍ ، وخُلِقَ آدمُ مما وُصفَ لكم » .

وهكذا رواه مسلم[٨] : عن محمد بن رافع ، وعَبْدِ بن حُمَيْد ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً ، وقد ذكرنا ما يسَّره الله تعالى ، وله الحمد .

فصل : وقد اختلفَ الناس في مسألة تفضيل الملائكة على البشر على أقوال ؛ فأكثرُ ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلّمين ، والخلاف فيها مع المعتزلة ومَنْ وافقهم ، وأقدمُ كلامٍ رأيتُه في هذه المسألة ما ذكرَه الحافظ ابن عساكر في « تاريخه »[٩] في ترجمة أميَّة بن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ أنَّه حضرَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٠٠) في الذكر والدعاء .
(٢) في جامعه (٣٣٧٨) في الدعوات .
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٧٩١) في الأدب .
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٣٩ و٢٤١) وأبو داود في سننه (٣٦٤١) في العلم ، والترمذي (٢٦٨٢) في العلم ، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة .
(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٥٢) .
(٦) أخرجه النسائي في المجتبى (٣/ ٤٣) وفي السنن الكبرى (١٢٠٥) .
(٧) في ا لمسند (٦/ ١٥٣ و١٦٨) .
(٨) في صحيحه (٢٩٩٦) في الزهد والرقائق .
(٩) تاريخ دمشق (٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) .

مجلساً لعمرَ بن عبد العزيز ، وعندَه جماعةٌ ، فقال عمرُ : ما أحدٌ أكرمُ على الله من كريم بني آدم ، واستدلَّ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٧] ووافقه على ذلك أميَّةُ بن عمرو بن سعيد ، فقال عِرَاكُ بن مالك : ما أحدٌ أكرمُ على الله من ملائكته ، هم خزنة داره ، ورسلُه إلى أنبيائه . واستدلَّ بقوله تعالى : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرظي : ما تقولُ أنتَ يا أبا حمزة ! فقال : قد أكرمَ الله آدمَ ، فخلقَه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجدَ له ملائكته ، وجعلَ من ذريَّتِه الأنبياء والرسل ، ومن يزورُه الملائكةُ[١] . فوافقَ عمرَ بن عبد العزيز في الحكم ، واستدلَّ بغير دليله . وأضعفُ دلالةٍ ما نزعَ به من الآية ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البينة : ٧] بما مضمونُه أنَّها ليست بخاصَّة بالبشر ، فإنَّ الله قد وصفَ الملائكةَ بالإيمان في قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [غافر : ٧] وكذلك الجانّ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن : ١٣] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ ﴾ [الجن : ١٤] .

قلت : وأحسنُ ما يُستدلُّ به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدَّارميّ : عن عبد الله بن عمرو ، مرفوعاً ، وموقوفاً ، وهو أصحُّ ، قال : « لمَّا خلقَ الله الجنَّة قالتِ الملائكةُ : يا ربَّنا اجعلْ لنا هذه نأكلُ منها ونشربُ ، فإنَّك خلقتَ الدنيا لبني آدم ، فقالَ الله : لنْ أجعلَ صالحَ ذرِّيةِ منْ خلقتُ بيدي كمَنْ قلتُ له : كنْ فكان »[٢] .

***

باب خلق الجان وقصّة الشيطان

قال الله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٤ ـ ١٦] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ ـ ٢٧] وقال ابن عبَّاس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : ١٥] قالوا : من طَرَفِ اللَّهَب ، وفي رواية : من خالصِه وأحسنِه .

وقد ذكرنا آنفاً : من طريق الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتِ الملائكةُ منْ نُورٍ ، وخُلِقت الجَانُّ من مَارج من نار ، وخُلِقَ آدمُ مما وُصفَ لكم » رواه مسلم[٣] .

---

(١) في المصدر السابق « وجعل من ذريته من تزوره الملائكة » .

(٢) عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني ، محدث ، حافظ ، له كتاب المسند الكبير ، مخطوط ، ولم أجد الحديث في المصادر الحديثية المطبوعة .

(٣) في صحيحه (٢٩٩٦) في الزهد ، وتقدم (ص٦٥) .

قال كثير من علماء التفسير[١] : خُلِقتِ الجِنُّ قبلَ آدمَ عليه السلام ، و كان قبلَهم في الأرض الجن والبِنُّ ، فسلَّط الله الجن عليهم فقتلوهم وأخلوهم عنها ، وأبادوهم منها ، وسكنوها بعدهم .

وذكر السُّدِّي[٢] في تفسيره : عن أبي مالك ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرَّة ، عن ابن مسعود . وعن أناس من أصحابِ رسول الله ﷺ : لما فرغَ الله من خلق ما أحبَّ استوى على العرش فجعلَ إبليسَ على مُلْك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم : الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خُزَّان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقعَ في صدره : إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة .

وذكر الضحَّاك[٣] : عن ابن عباس : أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعثَ الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق[٤] : عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاووس ، عن ابن عباس : كان اسم إبليس قبل أن يرتكبَ المعصية عزَازيل . وكان من سكَّان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً ، وأكثرهم علماً ، وكان من حيٍّ يقال لهم : الجن .

وروى ابن أبي[٥] حاتم : عن سعيد بن جُبير ، عنه : كان اسمه عزازيل ، وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة .

وقال سُنَيْد[٦] : عن حجَّاج ، عن ابن جُريج ، قال ابن عباس : كان إبليسُ من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلةً ، وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض .

وقال صالحٌ مولى التوأمة : عن ابن عباس ، كان يسوسُ ما بينَ السَّماء والأرض . رواه ابن جرير[٧] .
وقال قتادة[٨] : عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا .

وقال الحسن البصري[٩] : لم يكنْ من الملائكةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وإنَّه لأصلُ الجنِّ ، كما أن آدم أصل البشر .

---

(١) انظر تفسير الطبري (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٧) .
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٤١) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٣٩) وتاريخ الطبري (١/ ٨٥) .
(٤) أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٨٦) وفيه : فذلك الذي دعاهُ إلى الكبر ، وكان من حيٍّ يُسمَّون جناً .
(٥) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٤) مختصراً .
(٦) المصدر السابق (٣/ ١١٤) وأخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٣٥) وفي المطبوع : وقد أسند .
(٧) تفسير الطبري (٨/ ٢٣٦) ، وفي هامش أ : والجن قبيلة من الملائكة ، وربما سموا الجن ؛ لأنهم خزَّان الجنة .
(٨) المصدر السابق (٨/ ٢٣٥) .
(٩) المصدر السابق (٨/ ٢٣٦) .

وقال شهر بن حوشب ، وغيره : كان إبليس من الجنِّ الذينَ طردتهم[١] الملائكة فأسرَه بعضهم فذهبَ به إلى السماء . رواه ابن جرير .

قالوا : فلما أراد الله خلقَ آدمَ ليكونَ في الأرض هو وذريَّته من بعده ، وصوَّر جثَّته منها ، جعلَ إبليسُ ـ وهو رئيسُ الجَانِّ وأكثرُهم عبادةً إذ ذاك ، وكانَ اسمُه عزازيل ـ يطيفُ به ، فلما رآه أجوفَ علم[٢] أنه خَلْقٌ لا يتمالك ، وقال : أما لئن سُلِّطْتُ عليكَ لأهلكنَّكَ ، ولئن[٣] سُلِّطْتَ عليَّ لأعصينَّك ، فلما أنْ نفخَ الله في آدم من روحه ، كما سيأتي[٤] ، وأمر الملائكة بالسجود له دخلَ إبليسَ منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فخالفَ الأمرَ ، واعترضَ على الربِّ عزَّ وجلَّ ، وأخطأ في قوله ، وابتعد من رحمة ربِّه ، وأُنزلَ من مرتبتِهِ التي كان قد نالَها بعبادتِه ، وكان قد تشبَّه بالملائكة ، ولم يكنْ من جنسهم ، لأنه مخلوقٌ من نار ، وهم من نور ، فخانَه طبعُه في أحوج ما كان إليه ، ورجعَ إلى أصله الناريّ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص : ٧٣ ـ ٧٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فأُهْبِطَ إبليسُ من الملأ الأعلى وحُرِّمَ عليه قدراً أن يسكنه ، فنزلَ إلى الأرض ذليلاً حقيراً[٥] مذؤوماً مدحوراً[٦] ، متوعَّداً بالنار هو ومن اتَّبعه من الجن والإنس ، إلا أنه مع ذلك جاهدَ كلَّ الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكلّ مَرْصدٍ[٧] ، كما قال : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢ ـ ٦٥] .

وسنذكر القصة مستقصاة[٨] عند ذكر خلق آدم عليه السلام . والمقصود أنَّ الجانَّ خُلقوا من النَّار ، وهم كبني آدمَ ، يأكلونَ ويشربونَ ويتناسلونَ ، ومنهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ، كما أخبرَ تعالى عنهم

---

(١) في الأصول : طردوهم ، و التصحيح من تفسير الطبري (٨/ ٢٣٦) .
(٢) في المطبوع . عرف .
(٣) في أ : وإن .
(٤) سيأتي في باب خلق آدم عليه السلام (ص١٠٩) .
(٥) في المطبوع : حقيراً ذليلاً .
(٦) مدحوراً : مطروداً .
(٧) مرصد : الطريق والمكان يُرصد منه العدوُّ .
(٨) في المطبوع : مستفاضة . وانظر القصة في باب خلق آدم (ص١٠٩) وما بعدها .

في سورة الأحقاف ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١ ـ ١٧] .

وقد ذكرنا تفسيرَ هذه السورة[١] ، وتمامَ القِصَّة في آخر سورة الأحقاف ، وذكرنا الأحاديثَ المتعلِّقة بذلك هنالك ، وأنَّ هؤلاء النَّفرَ كانوا من جن « نصيبين » وفي بعض الآثار من جن « بصرى » ، وأنَّهم مرُّوا برسولِ الله ﷺ وهو قائمٌ يُصلِّي بأصحابه ببطنِ نخلةَ منْ أرضِ مكَّة ، فوقفُوا فاستمعُوا لقراءته[٢] .

ثم اجتمعَ بهم النبيُّ ليلةً كاملةً ، فسألوه عن أشياءَ أمرهم بها ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : « كلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه ، تجدونَه أوفرَ ما يكون لحماً ، وكلُّ روثةٍ علفٌ لدوابِّكم » ونهى النبيُّ ﷺ النَّاسَ أن يستنجوا بهما ، وقال : « إنَّهما زادُ إخوانكم الجِنّ »[٣] .

ونهى عن البول في الأسواق[٤] ، لأنَّها مساكنُ الجنِّ .

وقرأ رسولُ الله ﷺ عليهم سورةَ الرحمن ، فما جعلَ يمرُّ بآية فيها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٣] . إلا قالوا : ولا بشيءٍ من آلائكِ ربَّنا نُكذِّبُ ، فلكَ الحمدُ .

وقد أثنى عليهم النبيُّ ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتُوا . فقال : « الجنُّ كانوا

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ؛ للمؤلف الحافظ ابن كثير (٤/ ١٩٢ ـ ٢٠٢) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٩٣) .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٥٠) في الصلاة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٤) في المطبوع : السرب .

أحسنَ منكم ردّاً ، ما قرأت عليهم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيءٍ من آلائك ربَّنا نُكذِّبُ ولكَ الحمدُ » . رواه الترمذيُّ : عن جابر ، وابنُ جرير والبزَّار عن ابن عمر[١] .

وقد اختلفَ العلماءُ في مؤمني الجنِّ هل يدخلون[٢] الجنة ، أو يكونُ جزاء طائعهم أن لا يعذَّبَ في النار فقط . على قولين : الصحيحُ أنهم يدخلون الجنَّة لعمومات[٣] القرآن ، ولخصوص قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦ ـ ٤٧] فامتنَّ تعالى عليهم بذلك ، فلولا أنهم ينالونه لما ذكرَه وعدَّه عليهم من النِّعمِ ، وهذا وحدَه دليلٌ مستقلٌّ كافٍ في المسألة ، والله أعلم .

وقال البخاري[٤] : حدَّثنا قُتَيْبة ، عن مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، عن أبيه ، أن أبا سعيدٍ الخدريَّ قال له : إني أراك تُحبُّ الغنمَ والباديةَ ، فإذا كنتَ في غنمكَ وباديتك فأذَّنتَ بالصَّلاة ، فارفعْ صوتك بالنِّداء ، فإنَّه لا يسمعُ مدَى صوتِ المؤذِّن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهدَ له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعتُه من رسولِ الله ﷺ . انفردَ به البخاري دون مسلم .

وأما كافرو الجِنِّ فمنهم الشياطين ، ومقدَّمهُم الأكبرُ إبليسُ عدوُّ آدم أبي البشر ، وقد سُلِّطَ[٥] هو وذريَّته على آدمَ وذريَّته ، وتكفَّل الله عزَّ وجلَّ بعصمةِ منْ آمنَ به ، وصدَّق رسلَه ، واتَّبع شرعه منهم ، كما قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢٠] وقال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع (٣٢٩١) في التفسير عن جابر وقال : « هذا حديث غريب » ، وابن جرير في التفسير (١١ / ٥٨٢) عن ابن عمر ، أقول : وهو حديث حسن .

(٢) في هامش أ : بيان هل يدخل الجنة أم لا ؟ .

(٣) في المطبوع : لعموم القرآن ، ولعموم قوله تعالى .

(٤) في صحيحه (٣٢٩٦) في بدء الخلق .

(٥) كذا في الأصول ، وفي المطبوع : سلَّطه .

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٨ـ٤٤] .

وقد ذكرَ تعالى هذه القصَّةَ في سورة البقرة ، وفي الأعراف ، وهاهنا[١] ، وفي سورة سبحانَ ، وفي سورة طه ، وفي سورة ص . وقد تكلَّمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد . وسنوردها في قصة آدمَ إن شاء الله تعالى[٢] .

والمقصودُ أنَّ إبليسَ أنظرهَ الله إلى يوم القيامة محنةً لعباده ، واختباراً منه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢ـ٢٣] .

فإبليسُ لعنه الله حيٌّ الآن ، منظَرٌ إلى يوم القيامة بنصِّ القرآن، وله عرشٌ على وجه البحر، وهو جالسٌ عليه ، ويبعثُ سراياه يُلقون بينَ النَّاس الشَّرَّ والفتنَ . وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] وكان اسمُه قبلَ معصيته العظيمة عزازيل ، قال النَّقَّاشُ : وكنيته : أبو كردوس ، ولهذا لما قال النبيُّ لابن صيَّاد : « ما ترى ؟ »[٣] قال : أرى عرشاً على الماء . فقال له النبيُّ ﷺ : « اخسأْ فلنْ تعدو قَدْرَكَ »[٤] فعرفَ أن مادَّة مكاشفته التي كاشفَه بها شيطانيَّة ، مستمدَّة من إبليس الذي هو يُشاهد عرشَه على البحر ، ولهذا قال له : « اخسأ فلنْ تعدو قَدْرَكَ »[٤] أي : لن تُجاوزَ قيمتك الدنيَّة الخسيسة الحقيرة .

والدليلُ على أنَّ عرشَ إبليسَ على البحر الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد : حدَّثنا أبو المغيرة ، حدَّثنا صفوان ، حدَّثني ماعز التميمي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عرشُ إبليس [على] البحر ، يبعثُ سراياه في كلِّ يوم يفتنون النَّاسَ ، فأعظمُهم عنده منزلةً أعظمُهم فتنةً للناس »[٥] .

وقال أحمد[٦] : حدَّثنا روح ، حدَّثنا ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير ، أنَّه سمعَ جابرَ بن عبد الله

---

(١) أي : في سورة الحجر .
(٢) انظر باب خلق آدم عليه السلام (ص١٠٩) .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٦٦ و٩٧) عن أبي سعيد الخدري و(٣/ ٣٨٨) عن جابر .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٣٠) في الفتن وأشراط الساعة .
(٥) في المسند (٣/ ٣٥٤) .
(٦) في المسند (٣/ ٣٨٤) .

يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « عرشُ إبليسَ على البحر ، يبعثُ سراياه ، فيفتنون النَّاس ، فأعظمُهم عنده أعظمهم فتنةً » تفرَّد به من هذا الوجه .

وقال أحمد[١] : حدَّثنا مُؤمَّل ، حدَّثنا حمَّاد ، حدَّثنا علي بن زَيْد ، عن أبي نضرة ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : « ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ـ أو على البحر ـ حولَه حيَّات » قال ﷺ : ذاك عرش إبليس . هكذا رواه في مسند جابر .

وقال في مسند أبي سعيد[٢] : حدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة ، أنبأنا عليُّ بن زَيْد ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لابن صيَّاد : « ما ترى ؟ » قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيَّات . فقال رسول الله ﷺ : « صَدقَ ، ذاك عرشُ إبليس » .

وروى الإمام أحمد[٣] : من طريق ماعز التَّميميّ وأبي الزُّبير ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشيطانَ قد يئسَ أن يعبدَه المُصلُّونَ ، ولكن في التحريش بينهم » .

وروى الإمام مسلم[٤] : من حديث الأعمش ، عن أبي سفيان ـ طلحة بن نافع ـ عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « إنَّ الشيطانَ يضعُ عرشَه على الماء ، ثم يبعثُ سَراياه في النَّاسِ ، فأقربُهم عندَه منزلةً أعظمهم عنده فتنة ، يجيءُ أحدُهم فيقول : ما زلتُ بفلانٍ حتى تركته وهو يقول : كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعتَ شيئاً . ويجيءُ أحدُهم فيقول : ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله ، قال : فيُقرِّبه ويُدنيه . ويلتزمه . ويقول : نِعْم أنتَ » .

يُروى بفتح النون بمعنى نَعَمْ أنت ذاك الذي تستحقُّ الإكرامَ ، وبكسرها ، أي : نِعْمَ منْكَ . وقد استدلَّ به بعضُ النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً ، وهو قليل . واختارَ شيخُنا الحافظ أبو الحجَّاج الأوَّلَ ، ورجَّحه ، ووجَّهه بما ذكرْناه ، والله أعلم .

وقد أوردنا هذا الحديث[٥] عند قوله تعالى : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [البقرة : ١٠٢] يعني : أنَّ السحرَ المتلقَّى عن الشياطين من الإنس والجنِّ ، يُتوصَّل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف ، المتوادِّين المتحابَّين ، لهذا يشكرُ إبليسُ سعيَ من كان السبب في ذلك . فالذي ذمَّه الله يمدحُه ، والذي يُغْضِبُ الله يُرْضيه ، عليه لعنة الله .

وقد أنزل الله عزَّ وجلَّ سورتي المعوِّذتين مطردةً لأنواع الشر وأسبابه وغاياته ، ولا سيما سورة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٦٦ و٣٨٨) .
(٢) من المسند (٣/ ٩٦) .
(٣) في المسند (٣/ ٣٥٤) عن ماعز التميميّ وهو في صحيح مسلم (٢٨١٢) في صفات المنافقين .
(٤) في صحيحه (٢٨١٣) (٦٧) في صفات المنافقين وقد ذكره المؤلف بالمعنى .
(٥) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٠) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ١ ـ ٦] .

وثبتَ في الصحيحين[١] عن أنس ، وفي صحيح البخاري[٢] عن صفيَّة بنت حيي أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدم مجرى الدم » .

وقال الحافظ أبو يعلى المَوْصلي[٣] : حدَّثنا محمد بن بحر ، حدَّثنا عديّ بن أبي عمارة ، حدَّثنا زياد النُّمَيْري ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشيطانَ واضع خَطْمه على قَلْب ابن آدم ، فإن ذكر الله خَنَسَ ، وإن نسيَ التقمَ قلبه ، فذلك الوسواسُ الخنَّاسُ » .

ولما كانَ ذكرُ الله مطردةً للشيطان عن القلب ، كان فيه تذكار للنَّاس ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] وقال صاحب موسى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف : ٦٣] وقال تعالى : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف : ٤٢] يعني الساقي لما قال له يوسف : اذكرني عند ربِّكَ ، نسيَ الساقي أن يذكرَه لربِّه ، يعني مولاه الملك ، و كان هذا ا لنسيانُ من الشيطان ، فلبثَ يوسفُ في السجن بضع سنين ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] أي : مدة . وقُرِىء ﴿ بعد أَمَّة ﴾ أي : نسيان . وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين ، كما قرَّرناه في التفسير[٤] ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا محمد بن جعفر ، حدَّثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعتُ أبا تميمة يُحدِّث عن رديف رسول الله ﷺ ، قال : عثرَ بالنبيِّ ﷺ حمارُه ، فقلت : تَعِسَ الشَّيطانُ ، فقال النبيُّ ﷺ : « لا تقلْ : تَعِسَ الشيطانُ ، فإنَّك إذا قلتَ : تَعِسَ الشيطانُ تعاظَمَ ، وقال : بقوَّتي صرعتُه . وإذا قلتَ : بسم الله ، تصاغرَ حتى يصيرَ مثلَ الذباب » .

انفرد به أحمد ، وهو إسناد جيد .

وقال أحمد[٦] : حدَّثنا أبو بكر الحنفي ، حدَّثنا الضحَّاك بن عثمان ، عن سعيد المَقْبُريّ ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدَكم إذا كان في المسجد جاءه الشيطانُ فأبَسَ به كما يَأْبِسُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٧٤) في السلام ولم يخرجه البخاري عن أنس ، لكن أخرجه في كتاب الأدب المفرد (١٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢١٩) في الأدب ومسلم (٢١٧٥) في السلام .

(٣) في المسند (٤٣٠) وفي إسناده زياد النميري ، ضعيف .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩١) .

(٥) في المسند (٥/ ٥٩) .

(٦) في المسند (٢/ ٣٣٠) .

الرجلُ بدابَّتِهِ ، فإذا سكنَ له زَنَقه أو ألجَمَه »[١] . قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك . أما المَزنوقُ : فتراه مائلاً كذا لا يذكر الله ، وأما المُلْجم : ففاتحٌ فاه لا يذكر الله عزَّ وجلَّ . تفرَّد به أحمد .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا ابنُ نُمَير ، حدَّثنا ثَوْر - يعني ابن يزيد - عن مكحول ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العينُ حقٌّ ، ويحضرُ بها الشيطان وحسدُ ابن آدم »[٣] .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا وكيع ، عن سفيانَ ، عن منصور ، عن ذرِّ بن عبد الله الهَمْدانيّ ، عن عبدِ الله بن شَدَّاد ، عن ابن عبَّاس قال : جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! إنِّي أُحدِّثُ نفسي بالشيء ، لأَنْ أخِرَّ من السَّماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ به . [قال :][٥] فقال النبي ﷺ : « الله أكبرُ[٦] ، الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوَسْوسة » .

ورواه أبو داود والنسائي[٧] من حديث منصور ، زاد النسائي : والأعمش ، كلاهما عن أبي ذر به .

وقال البخاري[٨] : حدَّثنا يحيى بن بُكَير ، حدَّثنا اللَّيْثُ ، عن عقيل ، عن ابن شِهاب ، قال : أخبرني عُرْوةُ ، قال : قال أبو هريرة : قالَ رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ من خلقَ كذا ؟ من خلقَ كذا ؟ حتى يقولَ : من خلقَ ربَّك ، فإذا بلغَ فليستعذْ بالله وَلْيَنْتَهِ » .

وهكذا رواه مسلم[٩] من حديث اللَّيث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة وكلاهما عن عروة به .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] . وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧ - ٩٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ - ١٠٠] .

---

(١) « أبَسه » : زَجره . « وزَنقه » : أماله . « وألْجمَ » : يقال : ألجمت فلاناً عن حاجته : كففته ومنعته .
(٢) في المسند (٢/ ٤٣٩) .
(٣) إسناده ضعيف لانقطاعه فإن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة، وقوله « العين حق » صحيح .
(٤) في المسند (١/ ٢٣٥) وهو حديث صحيح .
(٥) زيادة من المسند .
(٦) في المسند : « اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ » .
(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٥١١٢) في الأدب ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٨) .
(٨) في صحيحه (٣٢٧٦) في بدء الخلق .
(٩) في صحيحه (١٣٢) .

وروى الإمام أحمد[١] وأهل السنن[٢] : من حديث أبي المتوكل ، عن أبي سعيد ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ »[٣] . وجاء مثلُه من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أمامة الباهلي .

وتفسيرُه في الحديث : فهمزه الموتة ، وهو الخَنْقُ الذي هو الصَّرْع . ونفخُه : الكِبَرُ . ونَفْثُه : الشِّعْرُ .

وثبتَ في الصحيحين[٤] : عن أنس ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا دخل الخَلاء قال : « أعوذُ بالله من الخُبْثِ والخَبائِثِ » قال كثيرٌ من العلماء : استعاذ من ذُكرانِ الشياطينِ وإناثهم .

وروى الإمام أحمد[٥] : عن سُرَيْج ، عن عيسى بن يُونس ، عن ثَوْر ، عن الحُصَيْن ، عن أبي سعدِ الخير ـ وكان من أصحاب عمرَ ـ عن أبي هريرة ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « ومنْ أتى الغائطَ فليستتر ، فإن لم يجدْ إلا أن يجمعَ كثيباً من رملٍ فليستدبرْه ، فإنَّ الشيطان يلعبُ بمقاعدِ بني آدمَ ، منْ فعلَ فقد أحسنَ ، ومنْ لا فلا حَرَج » .

ورواه أبو داود وابن ماجه[٦] من حديث ثور بن يزيد به .

وقال البخاري[٧] : حدَّثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ ، حدَّثنا جريرٌ ، عن الأعمش ، عن عديِّ بن ثابت ، قال : قال سليمانُ بن صُرَد : استبَّ رجلان عند النبيِّ ﷺ ونحنُ عندَه جلوسٌ ، فأحدُهما يسبُّ صاحبَه مُغضَباً قد احمرَّ وجهُه ، فقال النبيُّ ﷺ : « إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالَها لذهبَ عنه ما يجدُ ، لو قالَ : أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم » فقالوا للرجل : ألا تسمعُ ما يقولُ النبيُّ ﷺ ؟ فقال : إني لستُ بمجنون .

ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنَّسائي من طرقٍ عن الأعمش[٨] .

وقال الإمام أحمد[٩] : حدَّثنا محمد بن عُبيد ، حدَّثنا عُبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « لا يأكلْ أحدُكم بشمالِه ولا يشربْ بشمالِه ، فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشمالِه ، ويشربُ

---

(١) في مسنده (٣/ ٥٠ و٦٩) .
(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٤)، والنسائي (٢/ ١٣٢) .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٨) وأبو داود في سننه (٧٧٥) في الصلاة ، والترمذي (٢٤٢) في الصلاة . أقول: وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٢) في الوضوء ، ومسلم في صحيحه (٣٧٥) في الحيض .
(٥) في المسند (٢/ ٣٧١) رقم (٨٨٢٤) ، وإسناده ضعيف .
(٦) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥) في الطهارة ، وابن ماجه في الطهارة (٣٣٧) وفي (٣٤٩٨) في الطب مختصراً ، وإسناده ضعيف .
(٧) في صحيحه (٣٢٨٢) في بدء الخلق .
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦١٠) في البر ، وأبو داود (٤٧٨١) في الأدب ، والنسائي (١٠٢٢٤) في السنن الكبرى .
(٩) في المسند (٢/ ٨٠) .

بشماله » . وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد ، وهو في الصحيح من غير هذا الوجه[(١)] .

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم ، عن عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « منْ أكلَ بشمالِه أكلَ معه الشيطانُ ، ومنْ شَرِبَ بشمالِهِ شربَ معه الشيطانُ »[(٢)] .

وقال الإمام أحمد[(٣)] : حدَّثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبةُ ، عن أبي زياد الطحَّان ، قال : سمعتُ أبا هريرة يقولُ : عن النبيِّ ﷺ ؛ أنَّه رأى رجلاً يشربُ قائماً ، فقال له : « قِهْ » قال : لمَ ؟ قال : « أيسُرك أنْ يشربَ معكَ الهِرُّ ؟ . » قال : لا . قال : « فإنَّه قد شربَ معكَ من هو شرٌّ منه ، الشَّيطانُ » . تفرَّد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أيضاً[(٤)] : حدَّثنا عبد الرزَّاق ، قال معْمَرٌ ، عن الزهريِّ ، عن رجلٍ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلمُ الذي يشربُ وهو قائمٌ ما في بطنِهِ لاستقاءَه » . قال : وحدَّثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري[(٥)] .

وقال الإمام أحمد[(٦)] : حدَّثنا موسى ، حدَّثنا ابن لهيعة ، عن أبي الزبير ، أنه سألَ جابراً : أسمعت النبيَّ ﷺ قال[(٧)] ؟ « إذا دخلَ الرجل بيتَه فذكرَ اسمَ الله حين يدخلُ وحين يَطْعمُ ، قال الشيطان : لا مبيتَ لكم ولا عشاء هاهنا ، وإن دخلَ ولم يذكرِ اسمَ الله عند دخولِه ، قال : أدركتمُ المبيتَ ، وإن لم يذكر اسمَ الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيتَ والعَشَاء ؟ » . قال : نعم .

وقال البخاري[(٨)] : حدَّثنا محمد ، أخبرنا عَبْدةُ ، عن هشام بن عُرْوةَ ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طلعَ حاجبُ الشمس فدَعُوا الصَّلاةَ حتى تبرُزَ ، وإذا غابَ حَاجِبُ الشَّمس فدعُوا الصلاةَ حتى تغيبَ ، ولا تحيَّنوا بصلاتِكم طلوعَ الشمس ولا غُروبها ، فإنها تطلعُ بين قَرْني شيطان » أو « الشيطان » لا أدري أيَّ ذلك قال هشام ؟ .

---

(١) هو في صحيح مسلم (٢٠٢٠) (١٠٥) في الأشربة ، من طريق سالم عن ابن عمر وغيره .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧٧) .

(٣) في المسند (٢/ ٣٠١) .

(٤) في المسند (٢/ ٢٨٣) وفي الإسناد الأول انقطاع .

(٥) في هامش أ : شربُ الماء قائماً مكروه .

(٦) في المسند (٣/ ٣٤٦) ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠١٨) في الأشربة ، وأبو داود (٣٧٦٥) في الأدب ، وابن ماجه (٣٨٨٧) والنسائي (١٧٨) في عمل اليوم والليلة .

(٧) في ا لمسند : أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول ؟

(٨) في صحيحه (٥٨٣) في مواقيت الصلاة ، و(٣٢٧٢) في بدء الخلق ، وفي المطبوع : « تطلع بين قرني الشيطان » أو « الشياطين » .

ورواه مسلم والنسائي[١] من حديث هشام به .

وقال البخاري[٢] : حدَّثنا عبد الله بن سلَمة ، عن مالك ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمرَ ، قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُشيرُ إلى المشرق ، فقال : « ها إنَّ الفتنةَ هاهنا ، إن الفتنة هاهنا ، من حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطان » . هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه .

وفي السنن أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلسَ بين الشمس والظِلِّ ، وقال : « إنَّهُ مجلسُ الشيطان »[٣] . وقد ذكروا في هذا معاني ، من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يُرى ، كان يُحبُّه الشيطان ، لأن خِلْقته في نفسه مشوَّهة ، وهذا مستقرٌّ في الأذهان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٥] الصحيح أنَّهم الشياطينُ لا ضَرْبٌ من الحيَّات ، كما زعمه من زعمه من المفسرين . والله أعلم . فإن النفوس مغروزٌ فيها قبحُ الشياطين ، وحُسْنُ خَلْقِ الملائكة ، وإن لم يُشاهدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٥] وقال النسوة لمَّا شاهدْنَ جمالَ يوسفَ ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

وقال البخاريُّ[٤] : حدَّثنا يحيى بنُ جعفرٍ ، قال محمّد بن عبد الله الأنصاريُّ ، قال ابنُ جريج ، أخبرني عطاءٌ ، عن جابرٍ ، عن النبي ﷺ ، قال : « إذا استجنحَ [اللَّيْلُ][٥] أو كان جُنْحُ اللَّيْلِ ـ فكفُّوا صبيانَكم ، فإنَّ الشياطينَ تنتشرُ حينئذ ـ ، فإذا ذهبَ ساعةٌ من العشاء فخلُّوهم ، وأغلقْ بابَكَ ، واذكر اسمَ الله ، وأطفىءْ مصباحَكَ ، واذكرِ اسمَ الله ، وأوكِ سِقَاءكَ واذكرِ اسمَ الله ، وخمِّرْ إناءكَ واذكرِ اسمَ اللهِ ، ولو تَعْرُضُ عليه عُوداً » .

ورواه أحمد[٦] : عن يحيى ، عن ابن جُريج ، وعندَه : « فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ مُغْلقاً » .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدَّثنا وكيع ، عن مطر ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « أغلقُوا أبوابَكم ، وخمِّروا آنيتكم ، وأوْكُوا أسقيتكم ، وأطفِئُوا سُرُجكم ، فإن الشيطان لا يفتحُ باباً مُغلقاً ، ولا يكشفُ غِطاءً ، ولا يحلُّ وِكَاءً[٨] ، وإن الفويسقةَ تضرمُ البيتَ على أهله » يعني : الفأرة .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٢٨) في صلاة المسافرين ، والنسائي (١/ ٢٧٧) في المواقيت .
(٢) في صحيحه (٣٢٧٩) في بدء الخلق .
(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤١٣) بتمامه . وروى منه أبو داود رقم (٤٨٢١) وغيره النهي فقط .
(٤) في صحيحه (٣٢٨٠) في بدء الخلق .
(٥) زيادة من البخاري .
(٦) في المسند (٣/ ٣٠١) .
(٧) في المسند (٣/ ٣٠١) .
(٨) في ب : وعاءً ، وأثبت ما في أ والمسند ، والمطبوع .

وقال البخاري[١] : حدَّثنا آدمُ ، حدَّثنا شعبةُ ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن كُرَيْب ، عن ابن عبَّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنَّ أحدكم إذا أراد أنْ يأتيَ أهلَه قال : اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطانَ ما رزقتني ، فإن كان بينهما ولدٌ لم يضرَّه الشيطان ولم يُسلَّطْ عليه » . قال : وحدَّثنا الأعمشُ ، عن سالم ، عن كُرَيْب ، عن ابن عبَّاس ، مثله .

ورواه أيضاً[٢] : عن موسى بن إسماعيل ، عن همَّام ، عن منصورٍ ، عن سالم ، عن كُرَيب ، عن ابن عبَّاس ، عن النبيِّ ﷺ قال : « أما لو أنَّ أحدَكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللَّهُمَّ جَنِّبنا الشيطانَ ، وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتنا ، فرُزقا ولداً لم يضرَّه الشيطانُ » .

وقال البخاري[٣] : حدَّثنا إسماعيلُ ، قال أخي ، عن سليمانَ ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المَسيّب ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقدٍ ، يضربُ على كلِّ عُقْدةٍ مكانَها : عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقدْ . فإن استيقظَ فذكرَ الله انحلَّت عُقْدةٌ ، فإنْ توضَّأ انحلَّت عُقْدةٌ ، فإن صلَّى انحلَّتْ عُقَدُهُ كلُّها ، فأصبحَ نشيطاً طَيِّبَ النَّفسِ ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفْس كسلانَ » هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال البخاري[٤] : حدَّثنا إبراهيم بن حمزة ، حدَّثني ابن أبي حازم ، عن يزيدَ - يعني ابن الهاد - عن محمد بن إبراهيمَ ، عن عيسى بن طلحةَ ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ قال : « إذا استيقظَ أحدُكم من منامِه فتوضَّأ فليستنثرْ ثلاثاً ، فإن الشيطانَ يبيتُ على خَيْشُومِهِ » .

ورواه مسلم[٥] : عن بشر بن الحكم ، عن الدراوردي ، والنسائي[٦] عن محمد بن زنبور ، عن عبد العزيز بن أبي حازم ، كلاهما عن يزيد بن الهاد به .

وقال البخاريُّ[٧] : حدَّثنا عثمان بن أبي شيبةَ ، قال جريرٌ ، عن منصورٍ ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، قال : ذُكِرَ عند النبيِّ ﷺ رجلٌ نامَ ليلة حتى أصبحَ ، قال : « ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أذنيْه » أو قال : « في أُذنِهِ » .

ورواه مسلم[٨] : عن عثمان وإسحاق ، كلاهما عن جرير ، به .

---

(١) في صحيحه (٣٢٨٣) في بدء الخلق .
(٢) في صحيحه (٣٢٧١) في بدء الخلق .
(٣) في صحيحه (٣٢٦٩) في بدء الخلق .
(٤) في صحيحه (٣٢٩٥) في بدء الخلق .
(٥) في صحيحه (٢٣٨) في الطهارة .
(٦) في المجتبى (١/ ٦٧) في الطهارة .
(٧) في صحيحه (٣٢٧٠) في بدء الخلق .
(٨) في صحيحه (٧٧٤) في صلاة المسافرين .

وأخرجه البخاريُّ أيضاً ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه[(١)] ، من حديث منصور بن المعتمر به .

وقال البخاري[(٢)] : حدَّثنا محمد بن يُوسف ، أخبرنا الأوزاعيُّ ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمةَ ، عن أبي هريرة ، قالَ : قالَ رسول الله ﷺ : « إذا نُودي بالصَّلاة أدبرَ الشيطانُ وله ضُراطٌ ، فإذا قُضِيَ أقبلَ ، فإذا ثُوِّبَ بها أدبرَ ، فإذا قُضِيَ أقبلَ حتَّى يخْطِرَ بين الإنسان وقلبهِ ، فيقولُ : اذكرْ كذا وكذا ، حتى لا يَدري أثلاثاً صلَّى أم أربعاً ، فإذا لم يدرِ أثلاثاً صلَّى أم أربعاً سجدَ سجدتَي السَّهْو » هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال أحمد[(٣)] : حدَّثنا أسودُ بن عامر ، حدَّثنا جعفر ـ يعني الأحمر ـ عن عطاء بن السائب ، عن أنس ، قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ : « راصُّوا الصفوفَ فإن الشيطانَ يقومُ في الخلل » .

وقال أحمد[(٤)] : حدَّثنا أبان ، حدَّثنا قتادة ، عن أنس بن مالك ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقولُ : « راصُّوا صُفوفكم وقاربُوا بينها ، وحاذُوا بين الأعناق ، فو الذي نفسُ محمَّدٍ بيده إني لأرى الشيطان يدخل بين خلل الصف كأنَّهُ الحَذَف » .

وقال البخاري[(٥)] : حدَّثنا أبو مَعْمر ، حدَّثنا عبدُ الوارث ، حدَّثنا يونسُ ، عن حُميدِ بن هلالٍ ، عن أبي صالحٍ ، عن أبي سعيدٍ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إذا مرَّ بين يديْ أحدكُم شيء [وهو يُصلِّي] فليمنعْه ، فإن أبى فليمنعْه ، فإن أبى فليقاتلْه ، فإنما هو شيطان » .

ورواه أيضاً مسلم وأبو داود[(٦)] من حديث سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال به .

وقال الإمام أحمد[(٧)] : حدَّثنا أبو أحمد ، حدَّثنا مسرَّةُ بن مَعْبد ، حدَّثنا أبو عُبيد حاجب سُليمان ، قال : رأيتُ عطاءَ بن يزيد الليثي قائماً يُصلّي ، فذهبتُ أمرُّ بين يديْه فردَّني ، ثم قال : حدَّثني أبو سعيد الخُدْريّ ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قام يُصلِّي صلاةَ الصُّبْح وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبستْ عليه القراءةُ ، فلما فرغَ من صلاتِه قال : « لو رأيتموني وإبليس ، فأهويتُ بيدي ، فما زلتُ أخنقه حتى وجدتُ بردَ لُعابهِ بين إصبعيَّ هاتين : الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوةُ أخي سُليمان لأصبحَ مربوطاً بساريةٍ من سَواري

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٤) في التهجد ، والنسائي (٣/ ٢٠٤) في قيام الليل ، وابن ماجه (١٣٣٠) في إقامة الصلاة .

(٢) في صحيحه (٣٢٨٥) في بدء الخلق .

(٣) في المسند (٣/ ١٥٤) وفيه : فإن الشياطين .

(٤) في المسند (٣/ ٢٦٠) وفيه : فإن الشياطين تدخل . والحَذَفُ : هي الغنم الصِّغار الحجازية ، واحدتها حَذَفة .

(٥) في صحيحه (٣٢٧٤) في بدء الخلق .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٥١٠ و٢٦٥) في الصلاة ، وأبو داود (٧٠٢) في الصلاة .

(٧) في المسند (٣/ ٨٢) .

المسجد ، يتلاعبُ به صِبْيانُ المدينة ، فمنِ استطاعَ منكم ألّا يحولَ بينه وبينَ القِبْلة أحدٌ فليفعلْ »[١] .

وروى أبو داودَ[٢] : « فمن استطاعَ . . . » إلى آخره ، عن أحمد بن سريج ، عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن الزبير به .

وقال البخاري[٣] : حدَّثنا محمود ، حدَّثنا شبَابة ، حدَّثنا شعبة ، عن محمّدِ بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : أنه صلَّى صلاةً ، فقال : « إنَّ الشيطانَ عرضَ لي ، فشدَّ عليّ يقطعُ الصَّلاة عليّ ، فأمكنني الله منه » ، فذكر الحديث .

وقد رواه مسلم والنسائي[٤] من حديثِ شعبةَ به مطوَّلاً .

ولفظ البخاري : عند تفسير قوله تعالى إخباراً عن سليمان عليه السلام ؛ أنه قال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] من حديثِ روحٍ ، وغُنْدَر عن شُعبةَ ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجنِّ تفلَّت عليَّ البارحة ـ أو كلمةً نحوها ـ ليقطعَ عليَّ الصَّلاة ، فأمكنني الله منه ، فأردتُ أن أربطه إلى ساريةٍ من سواري المسجد ، حتَّى تُصبحوا وتَنظروا إليه كُلُّكم ، فذكرتُ قولَ أخي سليمانَ ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] »[٥] قال رَوْحٌ : فردَّه خَاسِئاً .

وروى مسلم[٦] : من حديث أبي إدريس ، عن أبي الدرداء ، قال : قامَ رسولُ الله ﷺ يُصلِّي فسمعناه يقولُ : « أعوذُ بالله منكَ » ثم قال : « ألعنُكَ بلعنةِ الله » ثلاثاً ، وبسطَ يدَه كأنَّه يتناولُ شيئاً ، فلمَّا فرغَ من الصَّلاة ، قلنا : يا رسولَ الله قد سمعناكَ تقولُ في الصَّلاة شيئاً لم نَسمعْكَ تقولُه قبلَ ذلكَ ، ورأيناك بسطتَ يدكَ ، فقال : « إنَّ عدوَّ الله إبليسَ ، جاءَ بشهابٍ من نار ، ليجعلَه في وَجْهي ، فقلتُ : أعوذ بالله منك ، ثلاث مراتٍ ، ثم قلتُ : ألعنُكَ بلعنةِ الله التَّامَّة ، فلم يستأخر ، ثم أردتُ أخذه ، والله لولا دعوةُ أخينا سليمانَ لأصبحَ مُوثَقاً يلعبُ به وِلْدانُ أهلِ المدينة » .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] يعني الشيطان ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] فالشيطانُ لا يألو الإنسانَ خبالاً جهده وطاقته ، في جميع أحواله وحركاته وسكناته ، كما صنَّف الحافظ

---

(١) إسناده حسن .

(٢) في سننه (٦٩٩) في الصلاة .

(٣) في صحيحه (٣٢٨٤) في بدء الخلق .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٤١) في المساجد ، والنسائي في سننه الكبرى (١١٤٤٠) في التفسير .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٠٨) في التفسير .

(٦) في صحيحه (٥٤٢) في المساجد ومواضع الصلاة .

أبوبكر بن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ كتاباً في ذلك سمَّاه « مكائد الشيطان »[(١)] وفيه فوائد جمَّة .

وفي سنن أبي داود[(٢)] : أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ في دعائه : « وأعوذُ بكَ أن يتخبَّطني الشيطان عند الموت » وروينا في بعض الأخبار أنه قال : يا رب ! وعزَّتك وجلالكَ لا أزالُ أُغويهم ما دامتْ أرواحُهم في أجسادِهم ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي ولا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفروني[(٣)] . وقال الله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] فوعدُ الله هو الحقُّ الصِّدْقُ ، ووعدُ الشيطان هو الباطل .

وقد روى الترمذيُّ ، والنَّسائي ، وابنُ حبَّان في « صحيحه »[(٤)] ، وابن أبي حاتم في تفسيره : من حديث عطاءِ بن السَّائبِ ، عن مُرَّة الهَمْداني ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إن للشيطانِ لَمَّة بابن آدمَ ، وللملك لمَّة ، فأما لمَّةُ الشيطان فإيعاد بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ ، وأما لمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقِّ ، فمن وجدَ ذلك فليعلمْ أنَّه من الله فليحمدِ الله ، ومن وجدَ الأخرى فليتعوّذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] » .

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة[(٥)] ؛ أنَّ الشيطانَ يفرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه ، وذكرنا في فضل آية الكرسي[(٦)] ؛ أنَّ من قرأها في ليلةٍ لا يقربُه الشيطان حتَّى يُصبحَ .

وقال البخاري[(٧)] : حدَّثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن سُمَيٍّ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « منْ قالَ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير مئةَ مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مئة حسنة ومحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك ، حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاءَ به إلا رجل عملَ أكثر من ذلك » .

---

(١) في المطبوع : « مصائد الشيطان » ، والكتاب مطبوع بالقاهرة سنة ١٤١٠هـ بتحقيق مجدي السيد إبراهيم ١٩٢ص ، واسمه « مكائد الشيطان » كما أثبتناه .

(٢) سنن أبي داود (١٥٥٢) في الصلاة .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » ص٤٣ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٨٨) في التفسير ، والنسائي (١١٠٥١) في الكبرى ، والطبري في التفسير (٣/ ٨٨) وابن حبان في صحيحه (٩٩٧) الإحسان . وقال الترمذي : حسن غريب . أقول : وإسناده ضعيف . واللَّمَّة من الشيطان ، مسٌّ ، واللَّمة : الشدة .

(٥) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٦ ـ ٤٧) .

(٦) المصدر السابق (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) .

(٧) في صحيحه (٣٢٩٣) في بدء الخلق .

وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه[١] من حديث مالك ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال البخاريُّ[٢] : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال ﷺ : « كلُّ ابن آدمَ يطعُنُ الشيطانُ في جَنْبيهِ بإصبَعِهِ ، حينَ يُولَدُ ، غيرَ عيسى بن مريم ، ذهبَ يطعنُ ، فطعنَ في الحجاب » . تفرَّد به من هذا الوجه .

وقال البخاري[٣] : حدَّثنا عاصمُ بن عليّ ، حدَّثنا ابنُ أبي ذئب ، عن سعيد المَقْبريِّ ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ قال : « التثاؤبُ منَ الشيطان ، فإذا تثاءبَ أحدُكم فليردَّه ما استطاعَ ، فإن أحدَكم إذا قال : ها ، ضحكَ الشيطانُ » .

ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه ، والنسائي[٤] من حديث ابن أبي ذئب به ، وفي لفظ : « إذا تثاءب أحدُكم فليكظم ما استطاع ، فإن الشيطانَ يدخلُ » .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا عبدُ الرزاق ، أنبأنا سفيان ، عن محمّد بن عجلان ، عن سعيدِ المَقْبري ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اللهَ يُحبُّ العُطاسَ ، ويبغضُ أو يكرهُ التثاؤبَ ، فإذا قال أحدُكم : ها ، ها ، فإن ذلك الشيطان يضحكُ من جوفه » . ورواه الترمذي والنسائي[٦] ، من حديث محمد بن عجلان ، به .

وقال البخاريُّ[٧] : حدَّثنا الحسنُ بن الربيع ، حدَّثنا أبو الأحوص ، عن أشعث ، عن أبيه ، عن مسروق ، قال : قالت عائشةُ : سألتُ النبيَّ ﷺ عن التفات الرجل في الصَّلاة ؟ فقال : « هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطانُ من صلاة أحدِكُم » . وكذا رواه أبو داود والنسائي[٨] من رواية أشعث بن أبي الشعثاء ، سليم بن أسود المحاربي ، عن أبيه ، عن مسروق ، به .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩١) في الذكر ، والترمذي في جامعه (٣٤٦٤) في الدعوات ، وابن ماجه (٣٧٩٨) في ثواب التسبيح .
(٢) في صحيحه (٣٢٨٦) في بدء الخلق .
(٣) في صحيحه (٣٢٨٩) في بدء الخلق .
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٩٧ و٥١٧) وأبو داود (٥٠٢٨) في الأدب ، والترمذي في جامعه (٢٧٤٦) في الأدب ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢١٦) .
(٥) في المسند (٢/ ٢٦٥) .
(٦) في جامعه (٢٧٤٦) في الاستئذان ، والنسائي في اليوم والليلة (٢١٧) .
(٧) في صحيحه (٧٥١) في صفة الصلاة ، و(٣٢٩١) في بدء الخلق .
(٨) أخرجه أبو داود في سننه (٩١٠) في الصلاة ، والنسائي (٣/ ٨) في السهو .

وروى البخاريُّ[١] : من حديث الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، حدَّثني عبدُ الله بن أبي قتادة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصَّالحةُ من الله ، والحُلمُ من الشيطان ، فإذا حَلَمَ أحدُكم حُلُماً يخافُه فليبصقْ عن يساره ، وليتعوَّذ بالله من شرِّها فإنها لا تضرُّه » .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا عبد الرزاق ، حدَّثنا مَعْمرٌ ، عن همَّام ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُشيرنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدُكم لعلَّ الشيطان أن ينزعَ في يده ، فيقع في حفرةٍ من النَّار » .

أخرجاه[٣] من حديث عبد الرزاق .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ ـ ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ ـ ٢١٢] وقال تعالى إخباراً عن الجان : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٨ ـ ٩] .

وقال البخاري[٤] : وقال الليث : حدَّثني خالدُ بن يزيد ، عن سعيدِ بن أبي هلال : أنَّ أبا الأسود أخبرَه ، عن عروةَ ، عن عائشةَ ، عن النبيِّ ﷺ قال : « الملائكةُ تتحدَّثُ في العنَان ـ والعَنانُ : الغمام ـ بالأمر يكونُ في الأرضِ فتستمعُ الشياطينُ الكلمةَ ، فتقرُّها في أذنِ الكاهن ، كما تُقرُّ القارورة ، فيزيدونَ معها مئة كذبةٍ » . هكذا رواه في صفة إبليس معلَّقاً ، عن الليث به . ورواه في صفة الملائكة[٥] : عن سعيد بن أبي مريم ، عن الليث ، عن عُبيد الله بن أبي جعفر ، عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه . تفرَّد بهذين الطريقين دون مسلم .

وروى البخاري في موضع آخر ، ومسلم من حديث الزهري ، عن يحيى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، قال : قالت عائشة : سأل أناسٌ النبيَّ ﷺ عن الكُهَّان ، فقال : « إنهم ليسوا بشيء » فقالوا :

---

(١) في صحيحه (٣٢٩٢) في بدء الخلق، وأخرجه (٦٩٨٦) في التعبير من حديث عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه.

(٢) في المسند (٢/ ٢١٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧٢) في الفتن ، ومسلم (٢٦١٧) في البر والصلة .

(٤) في صحيحه (٣٢٨٨) .

(٥) من صحيحه (٣٢١٠) .

يا رسول الله! إنَّهم يُحدِّثوننا أحياناً بشيءٍ فيكون حقّاً، فقال ﷺ: « تلكَ الكلمةُ من الحقِّ يخطَفُها من الجنِّيِّ فيُقرْقِرُها في أذن وليّه كقَرْقرةِ الدَّجاجة، فيخلطونَ معها [أكثر من] مئة كذبةٍ »[1] . هذا لفظ البخاري .

وقال البخاري[2] : حدَّثنا الحميديُّ ، حدَّثنا سفيانُ ، حدَّثنا عمرو ، قال : سمعتُ عكرمةَ ، يقول : سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ : إنَّ نبيَّ الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ في السَّماء ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضعاناً لقوله ، كأنه سلسلةٌ على صَفْوان ، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قالَ ربُّكم ؟ قالوا : للذي قال الحقّ ، وهو العليُّ الكبيرُ . فيسمعُها مسترقُ السمع ، ومسترقُ السَّمع هكذا بعضُه فوقَ بعضٍ ـ ووصفَ سفيانُ بكفِّه فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمعُ الكلمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتهَ ، ثم يُلقيها الآخرُ إلى مَنْ تحته ، حتى يُلقيها على لسان الساحرِ أو الكاهنِ ، فربما أدركَ الشِّهابُ قبلَ أنْ يُلقيها ، وربما ألقاهَا قبلَ أنْ يُدركه ، فيكذبُ معها مئة كذبةٍ ، فيقال : أليسَ قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا وكذا ، فيُصدَّق بتلكَ الكلمة التي سُمعتْ من السماء » انفرد به البخاري .

وروى مسلم[3] : من حديث الزهري ، عن عليِّ بن الحسين زين العابدين ، عن ابن عبَّاس ، عن رجال من الأنصار ، عن النبي ﷺ نحو هذا . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : ٣٦ـ٣٨] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : ٢٥] الآية . وقال تعالى : ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٧ـ٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢ـ١١٣] .

وقد قدَّمنا في صفة الملائكة ، ما رواه أحمد ومسلم[4] : من طريق منصور ، عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن أبيه ، ـ واسمهُ رافع ـ عن ابن مسعود ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة ، قالوا : وإيَّاك يا رسولَ الله ؟ قال : وإيَّاي ، ولكنَّ الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدَّثنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه ـ واسمه حُصَيْنُ بن جُنْدب ، وهو أبو ظَبْيان الجَنبيُّ ـ عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منكم من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦١) في التوحيد ، ومسلم (٢٢٢٨) في السلام .

(٢) في صحيحه (٤٨٠٠) في التفسير . وأخرجه (٤٧٠١) في التفسير ، و(٧٤٨١) في التوحيد عن علي ابن المديني عن سفيان .

(٣) في صحيحه (٢٢٢٩ و١٢٤) في السلام .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٥ و٣٩٧ و٤٠١) ومسلم (٢٨١٤) في صفات المنافقين .

أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الشياطين ، قالوا : وأنتَ يا رسولَ الله ؟ قال : نعم ، ولكنَّ الله أعانني عليه فأسلم »[١] . تفرَّد به أحمد ، وهو على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا هارون ، حدَّثنا عبد الله بن وَهْب ، أخبرني أبو صخر ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط ، حدَّثه أن عروة بن الزبير حدَّثه ، أنَّ عائشة زوج النبي ﷺ حدَّثته ؛ أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ من عندها ليلاً ، قالتْ : فغرتُ عليه ، قالت : فجاءَ فرأى ما أصنعُ ، فقال : « مالكِ يا عائشةُ أغرْت ؟ قالت : فقلت : ومالي ألَّا يغار مِثْلي على مِثْلِك ؟ فقال رسول الله ﷺ : أفأخذك شيطانُكِ ؟ » قالت : يا رسول الله أو معي شيطان . قال : « نعم » . قلت : ومع كلِّ إنسان . قال : نعم . قلتُ : ومعكَ يا رسولَ الله ؟ قال : « نعم ، ولكنَّ ربِّي أعانني عليه حتَّى أسلمَ »[٢] .

وهكذا رواه مسلم[٣] عن هارون ـ وهو ابن سعيد الأيلي ـ بإسناده نحوه .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا قتيبة بن سعيد ، حدَّثنا ابنُ لهيعة ، عن مُوسى بن وَرْدان ، عن أبي هريرة ؛ أن النبيَّ ﷺ قال : « إن المؤمنَ ليُنْصي شيطانه كما يُنْصي أحدُكم بعيرَه في السفر » تفرَّد به أحمد من هذا الوجه .

ومعنى لينصي شيطانه : ليأخذ بناصيته ، فيغلبَه ويقهرَه ، كما يُفْعلُ بالبعير إذا شردَ ، ثم غلبَه . وقوله تعالى : إخباراً عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ـ ١٧] .

قال الإمام أحمد : حدَّثنا هاشم بن قاسم ، حدَّثنا أبو عقيل ـ هو عبد الله بن عقيل الثقفي ـ حدَّثنا موسى بن المسيَّب ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن سبرةَ بن أبي فاكه ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ : قال : « إنَّ الشيطانَ قعدَ لابن آدمَ بأطرقه ، فقعدَ له بطريق الإسلام ، فقال له : أتُسلمُ وتذرُ دينكَ ودينَ آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم ، قال : وقعد له بطريق الهجرة ، فقالَ : أتهاجر وتذر أرضكَ وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول . فعصاه وهاجرَ ، قال : ثم قعدَ له بطريق الجهاد ، فقال له : هو جهاد النفس والمال ، فقال : أتقاتل فتقتل ، فتُنكحُ المرأةُ ويُقسمُ المالُ ؟ قال : فعصاه وجاهدَ » قال رسول الله ﷺ : « فمنْ يفعلْ ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنَّة ، وإن كان غرقَ كان حقاً

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٥٧) وهو حديث حسن .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١٥) . وفيه : عن ابن قسيط (في المطبوع من سند أحمد : أبي قسيط ، خطأ) ، وهو يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط ، يكنى أبا عبد الله وانظر التقريب ترجمة (٧٧٤١) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .

(٣) في صحيحه (٢٨١٥) (٧٠) في صفات المنافقين .

(٤) في المسند (٢/ ٣٨٠) .

على الله أنْ يُدْخله الجنَّة ، وإن وقصتْه دابَّتُه كان حقاً على الله أن يُدْخله الجنَّة »[١] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا وكيع ، حدَّثنا عبادة بن مسلم الفزاري ، حدَّثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم ، سمعتُ عبد الله بن عمر ، يقول : لم يكن رسول الله يدعُ هذه الدعوات حين يُصبحُ وحينَ يُمسي : « اللهم إني أسألُك العافية في الدنيا والآخرة ، اللَّهمَّ إني أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللَّهُمَّ استرْ عَوْراتي وآمنْ رَوْعاتي ، اللَّهُمَّ احفظْني من بين يديَّ ومن خلفي ، وعن يميني وعن شِمالي ومنْ فَوْقي ، وأعوذُ بعظمتك أنْ أُغتالَ منْ تحتي »[٢] . قال وكيع : يعني الخسف .

ورواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم[٣] : من حديث عبادة بن مسلم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

***

باب
ما وردَ في خلق آدمَ عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠ ـ ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٣) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥) .

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤) في الأدب ، وابن ماجه (٣٨٧١) في الدعاء ، والنسائي (٨/ ٢٨٢) في الاستعاذة ، و(٥٦٦) في عمل اليوم والليلة ، وابن حبان في صحيحه (٩٦١) الإحسان ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٧ و٥١٨) وصححه وهو كما قال .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] . كما قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومٗا مَّدْحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : ١١ ـ ٢٥] . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنْهُمْ جُزْءٞ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٦ ـ ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءٗ مَّوْفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٦١ ـ ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ

وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ][١] ﴾ [الكهف : ٥٠ ـ ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١١٥ ـ ١٢٦] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٦٧ ـ ٨٨] .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن ، وقد تكلَّمنا على ذلك كلِّه في التفسير ، ولنذكر هاهنا مضمون ما دلَّت عليه هذه الآيات الكريمات ، وما يتعلَّق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ ، وبالله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطبَ الملائكة قائلاً لهم ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة : ٣٠] أعلمَ بما يُريد أن يخلقَ من آدمَ وذريَّته الذين يخلفُ بعضُهم بعضاً ، كما قال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] . [وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ .. ﴾ [النمل : ٦٢]][٢] . فأخبرَهم بذلك على سبيل التنويه بخَلْق آدمَ وذريَّته ، كما يُخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقُّص لبني آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهَّمه بعضُ جهلة المفسرين ، قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع .
(٢) سقط من المطبوع .

قيل : علموا أن ذلك كائنٌ بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن[١] ، قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر ، وكانت الجنُّ قبلَ آدمَ بألفيْ عامٍ ، فسفكُوا الدِّماءَ ، فبعثَ الله إليهم جنداً من الملائكة فطردُوهم إلى جزائر البحور .

وعن ابن عباس نحوه . وعن الحسن : أُلهموا ذلك .

[وقيل : لما اطَّلعوا عليه من اللوح المحفوظ ، فقيل : أطلعَهم عليه هاروتُ وماروتُ ، عن مَلَكٍ فوقَهما يُقال له السِّجلُّ . رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر][٢] .

وقيل : لأنهم علموا أن الأرضَ لا يُخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : نعبدُك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المرادُ بخلق هؤلاء أنْ يعبدُوك فها نحنُ لا نفترُ ليلاً ولا نهاراً .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : أعلمُ من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أي : سيُوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون .

ثم بيَّن لهم شرفَ آدمَ عليهم في العلم ، فقال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابّة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وفي رواية : علَّمه اسم : الصَّحْفة ، والقدر ، حتى الفَسْوة والفُسيَّة . وقال مجاهد : علَّمه اسم كلِّ دابَّةٍ وكلِّ طير ، وكل شيء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد . وقال الربيع : علَّمه أسماء الملائكة .

وقال عبد الرحمن بن زيد : علَّمه أسماءَ ذريَّته .

والصحيح : أنه علَّمه أسماءَ الذوات وأفعالها ، مُكبَّرها ومُصغَّرها ، كما أشار إليه ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما .

وذكر البخاريُّ هاهنا ما رواه هو ومسلم : من طريق سعيد وهشام ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمعُ المؤمنون يومَ القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربِّنا حتى يُريحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدمَ فيقولون : أنت أبو البشر ، خلقكَ الله بيده ، وأسجدَ لكَ

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق (١/ ٤٢) ومرآة الزمان (١/ ٢٥) .

(٢) ما بين حاصرتين أثبته من المطبوع .

ملائكته ، وعلَّمك أسماءَ كلِّ شيء . . . »[1] وذكرَ تمام الحديث .

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] قال الحسن البصري : لما أراد الله خلقَ آدمَ قالتِ الملائكةُ : لا يخلقُ ربُّنا خَلْقاً إلا كنَّا أعلم منه ، فابتلوا بهذه . وذلك قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

وقيل : غير ذلك ، كما بسطناه في « التفسير »[2] .

قالوا ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] أي : سبحانك أن يُحيطَ أحدٌ بشيء من علمك من غير تعليمكَ ، كما قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] أي : أعلم السر كما أعلم العلانية .

وقيل : إن المراد بقوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ ما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وبقوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس ، حين أسرَّ الكِبْرَ[3] على آدم عليه السلام ، قاله سعيدُ بن جُبير ومجاهد والسُّدِّي والضَّحَّاك والثوري ، واختاره ابنُ جرير[4] .

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قولهم : لن يخلقَ ربُّنا خلقاً إلا كنا أعلم منه ، وأكرم عليه منه .

وقوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة : ٣٤] هذا إكرامٌ عظيم من الله تعالى لآدمَ ، حين خلقَه بيده ، ونفخَ فيه من روحه ، كما قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] فهذه أربع تشريفات : خَلْقُهُ له بيده الكريمة ، ونَفْخُه فيه من روحه ، وأمْرُهُ ملائكته بالسجود له ، وتعليمُه أسماءَ الأشياء .

ولهذا قال له موسى الكليمُ حين اجتمعَ هو وإيَّاه في الملأ الأعلى وتناظرا ، كما سيأتي : أنت آدم أبو البشر ، الذي خلقكَ الله بيده ، ونفخَ فيك من رُوحه ، وأسجدَ لكَ ملائكتَه ، وعلَّمكَ أسماءَ كل شيء . وهكذا يقولُ أهلُ المحشر يومَ القيامة كما تقدَّم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤١٠) في التوحيد ، ومسلم (١٩٣) في الإيمان .
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٩٥) .
(٣) في تفسير الطبري (١/ ٢٥٩) وعند ابن كثير (١/ ٩٦) والاغترار .
(٤) تفسير الطبري (٥/ ٤٤١) .

يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١١ـ١٢] .

قال الحسن البصري : قاسَ إبليسُ وهو أول من قاس .

وقال محمد بن سيرين : أوَّلُ منْ قاسَ إبليسُ ، وما عُبدت الشمسُ ولا القمرُ إلا بالمقاييس . رواهما ابن جرير[١] .

ومعنى هذا أنه نظرَ نفسَه بطريق المقايسة بينه وبين آدمَ ، فرأى نفسه أشرفَ من آدمَ ، فامتنعَ من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياسُ إذا كان مقابلاً للنَّص كان فاسدَ الاعتبار ، ثم هو فاسدٌ في نفسه ، فإنَّ الطينَ أنفعُ وخيرٌ من النَّار ، فإنَّ الطينَ فيه الرَّزانةُ والحِلْمُ والأناةُ والنموُّ ، والنَّارُ فيها الطَّيْشُ والخِفَّةُ والسُّرعةُ والإحراقُ .

ثم آدمُ شرَّفه الله بخَلْقِه له بيده ، ونَفْخه فيه من روحِه ، ولهذا أمرَ الملائكةَ بالسجود له ، كما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٢٨ـ٣٥] . استحقَّ هذا من الله تعالى ، لأنه استلزمَ تنقُّصه لآدمَ وازدراؤهُ به ، وترفُّعه عليه مخالفةَ الأمر الإلٓهي ، ومعاندةَ الحقِّ في النَّص على آدمَ على التَّعيين ، وشرعَ في الاعتذار بما لا يُجدي شيئاً ، وكان اعتذارُه أشدَّ من ذنبه ، كما قال تعالى في سورة سبحان : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ـ٦٥] وقال في سورة الكهف : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف : ٥٠] أي : خرجَ عن طاعة الله عَمْداً وعِناداً ، واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاكَ إلا لأنه خانه طَبْعه ، ومادَّتُه الخبيثة أحوج ما كان إليها فإنَّه مخلوقٌ من نارٍ كما قال، وكما قدَّمنا في صحيح مسلم[٢] : عن عائشةَ، عن رسول الله ﷺ قال: « خُلِقت الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم » .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليسُ من الملائكة طَرْفة عين قط .

وقال شهر بن حوشب : كان من الجنِّ ، فلما أفسدوا في الأرض بعثَ الله إليهم جنداً من الملائكة

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) في صحيحه (٢٩٩٦) في الزهد والرقائق ، وأخرجه أحمد (٦/ ١٦٨) .

فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليسُ ممن أُسِرَ ، فأخذوه معهم إلى السماء فكانَ هناك ، فلما أُمِرَتِ الملائكةُ بالسجود امتنعَ إبليسُ منه .

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيدُ بن المسيَّب وآخرون : كان إبليسُ رئيسَ الملائكة بالسماء الدنيا[١] .

قال ابنُ عبَّاس[٢] : وكان اسمه عزازيل . وفي رواية : الحارث ، قال النقَّاش : وكنيتُه « أبو كردوس » قال ابن عباس : وكان من حيٍّ من الملائكة يُقال له الجنُّ ، وكانوا خُزَّان الجِنانِ ، وكان من أشرفهم ، ومن أكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخَه الله شيطاناً رجيماً .

وقال في سورة ص : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٨٥] .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ـ ١٧] أي : بسبب إغوائك إيَّاي لأقعدنَّ لهم كل مَرْصد ولآتينَّهم من كلِّ جهة منهم ، فالسعيدُ من خالفَه والشقيُّ من اتَّبعه .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا أبو عقيل ـ هو عبدُ الله بن عقيل الثقفيّ ـ حدَّثنا موسى بن المسيَّب[٤] ، عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن سَبْرة بن أبي الفاكه ، قال : سمعت رسولَ الله ﷺ ، قال : « إنَّ الشيطانَ يقعدُ لابن آدمَ بأطرقهِ . . » وذكرَ الحديث كما قدَّمناه[٥] في صفة إبليس .

وقد اختلفَ المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدمَ، أهم جميع الملائكة، كما دلَّ عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور ، أو المرادُ بهم ملائكةُ الأرض ، كما رواه ابنُ جرير[٦] : من طريقِ الضَّحاك ،

---

(١) ولا دليل على ذلك .
(٢) تفسير الطبري (١/ ٢) .
(٣) في المسند (٣/ ٤٨٣) .
(٤) في المسند : موسى بن المثنى ، والصحيح ما أثبته ، وهو موسى بن المسيَّب الثقفي البزار . وانظر الكاشف ؛ للذهبي (٢/ ٣٠٨) . وأطراف المسند للحافظ ابن حجر ، تحقيق د . زهير الناصر (٢/ ٤٢٥) .
(٥) تقدم ذلك ص(١٠٨) .
(٦) في تفسيره (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) .

عن ابن عبَّاس ؟ وفيه انقطاعٌ ، وفي السياق نكارةٌ ، وإن كان بعضُ المتأخرين قد رجَّحه ، ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث : وأسجد له ملائكته ، وهذا عموم أيضاً والله أعلم .

وقوله تعالى لإبليس ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] و ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨] دليلٌ على أنَّه كان في السماء ، فأُمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتشبُّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سُلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأُهبط إلى الأرض مذؤوماً[1] مدحوراً[2] .

وأمرَ الله آدمَ عليه السلام أن يسكن هو وزوجه الجنَّة ، فقال : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] . وقال في الأعراف : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨ ـ ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٦ ـ ١١٩] وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلقَ حواء كان قبلَ دخول آدم إلى الجنَّة [لقوله : ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3] [البقرة : ٣٥]] .

وهذا قد صرَّح به إسحاقُ بن يَسار ، وهو ظاهرُ هذه الآيات .

ولكن حكى السُّدِّي : عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عبَّاس ، وعن مُرَّة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ؛ أنَّهم قالوا : أُخرجَ إبليس من الجنَّة ، وأُسكنَ آدمُ الجنَّة ، فكان يمشي فيها وحشيّاً ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنامَ نومةً فاستيقظَ ، وعند رأسه امرأةٌ قاعدةٌ ، خلقَها الله من ضِلْعه ، فسألَها : منْ أنتِ ؟ قالت : امرأةٌ . قال : ولمَ خُلقتِ ؟ قالت : لتسكنَ إليَّ . فقالت له الملائكةُ ينظرونَ ما بلغَ من علمه : ما اسمُها يا آدمُ ؟ قال : حوَّاء . قالوا : ولمَ كانتْ حوَّاء ؟ قال : لأنها خُلِقتْ من شيءٍ حيٍّ[4] .

وذكر محمد بن إسحاق : عن ابن عبَّاسٍ : إنَّها خُلقتْ من ضِلْعه الأقصرِ الأيسرِ وهو نائمٌ ، ولأَمَ[5] مكانَه لحماً ، ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] الآية . وفي قوله تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا .

---

(١) مذؤوماً : مذموماً بأبلغ الذم .
(٢) مدحوراً : مقصيّاً ، مُبعداً .
(٣) ما بين الحاصرتين سقط من « ب » .
(٤) تفسير الطبري (٣/ ٥٧٨) .
(٥) لأمَ : أصلح .

زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآية . وسنتكلّم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الصحيحين(١) : من حديث زائدةَ ، عن مَيْسرة الأشجعيِّ ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « استوصُوا بالنساء خيراً ، فإنَّ المرأةَ خُلِقتْ من ضِلَعٍ ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلعِ أعلاه ، فإن ذهبتَ تُقيمه كسرتَه ، وإن تركتَه لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » لفظ البخاري .

وقد اختلف المفسرون(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] فقيل : هي الكَرْمُ ، ورُوي عن ابن عبَّاس ، وسعيد بن جُبَيْر ، والشعبي ، وجَعْدَةَ بن هُبيرة ، ومحمد بن قَيْس ، والسُّدِّي ، ورواه عن ابن عبَّاس ، وابن مسعود ، وناس من الصحابة ، قال : وتزعمُ يهودُ أنَّها الحنطةُ ، وهذا مرويٌّ عن ابن عبَّاس ، والحسن البصري ، ووهب بن منبِّه ، وعطية العوفي ، وأبي مالك ، ومحارب بن دِثار ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

قال وهب : والحبَّةُ(٣) منه ألينُ من الزبد وأحلى من العسل .

وقال الثوريُّ : عن حُصَيْن ، عن أبي مالك : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ هي النَّخْلةُ(٤) .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد : هي التِّينةُ ، وبه قال قتادةُ(٢) .

وقال أبو العالية : كانت شجرةً منْ أكلَ منها أحدثَ ، ولا ينبغي في الجنَّة حدَثٌ(٥) .

وهذا الخلاف قريبٌ ، وقد أبهمَ اللهُ ذِكرَها وتعيينَها ، ولو كان في ذكرها مصلحةٌ تعودُ إلينا لعيَّنَها لنا ، كما في غيرها من المَحالِّ التي تُبْهمُ في القرآن .

وإنما الخلافُ الذي ذكروه في أنَّ هذه الجنَّة التي أُدْخِلها آدمُ ؛ هل هي في السماء(٦) أو في الأرض ؟ هو الخلاف الذي ينبغي فَصْلُه والخروج منه ، والجمهورُ على أنها هي التي في السماء ، وهي جنَّة المأوى ؛ لظاهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذِهْني ، وهو المستقر شرعاً من جنَّة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام « علامَ أخرجْتنا ونفسكَ من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣١) في الأنبياء ، ومسلم (١٤٦٨) (٦٠) في الرضاع .
(٢) انظر تفسير الطبري (١/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣) .
(٣) في ب : والخبز ، وما أثبتناه من أ ، والمطبوع ، والتفسير (١/ ١٠٢) .
(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠) .
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢) .
(٦) في ب : السموات .

الجنة . . »[١] الحديث ، كما سيأتي الكلام عليه .

ورواه مسلم في صحيحه[٢] : من حديث أبي مالك الأشجعيّ ، ـ واسمه : سعدُ بن طارق ـ عن أبي حازم سلمةَ بن دينار ، عن أبي هريرة . وأبو مالك ، عن ربعي ، عن حذيفة ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمعُ الله النَّاسَ ، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدمَ فيقولون : يا أبانا ! استفتح لنا الجنَّة ، فيقول : وهل أخرجَكم من الجنة إلَّا خطيئة أبيكم . . » وذكر الحديث بطوله .

وهذا فيه قوة جيِّدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنَّة المأوى ، وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التي أُسكنها آدمُ لم تكنْ جنَّةَ الخلد ، لأنه كُلِّفَ فيها ألا يأكلَ من تلك الشجرة ، ولأنه نامَ فيها وأُخرجَ منها ، ودخلَ عليه إبليسُ فيها ، وهذا مما يُنافي أن تكونَ جنَّة المأوى . وهذا القول محكيٌّ عن أُبيِّ بن كعب ، وعبد الله بن عبَّاس ، ووهْبِ بن مُنَبِّه ، وسفيان بن عُيَيْنة ، واختارَه ابنُ قُتيبة في « المعارف »[٣] والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في « تفسيره » وأفرد له مصنفاً على حدة ، وحكاه عن أبي حنيفة[٤] الإمام وأصحابِه ، رحمهم الله .

ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الريّ في « تفسيره »[٥] عن أبي القاسم البَلْخي وأبي مُسلم الأصبهاني .

ونقله القرطبيُّ في « تفسيره »[٦] عن المعتزلة والقدرية ، وهذا القول هو نصُّ التوراة التي بأيدي أهل الكتاب .

وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في « الملل والنحل »[٧] وأبو محمد بن عطيَّة في « تفسيره »[٨] وأبو عيسى الرُّمَّاني في « تفسيره » . وحكى عن الجمهور الأوَّل ، وأبو القاسم الراغب ، والقاضي الماوردي في « تفسيره » فقال : واختُلف في الجنة التي أسكناها ، يعني آدم وحواء على قولين . أحدُهما : أنَّه[٩] جنَّةُ الخلد . الثاني : أنَّه جنَّة أعدها الله لهما وجعلَها دار ابتلاء ، وليست جنَّة الخلد التي جعلَها دار جزاء .

---

(١) انظر الحديث وتخريجه (ص١٣١) .
(٢) صحيح مسلم (١٩٥) في الإيمان . وتزلف : تقترب .
(٣) المعارف لابن قتيبة (٦٩) .
(٤) في هامش « أ » : روى عن أبي حنيفة أن الجنة التي أدخل فيها آدم ليست جنة الخلد .
(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣/ ٤) .
(٦) تفسير القرطبي (١/ ٣١٥) .
(٧) الملل والنحل لابن حزم الأندلسي (١/ ١٨) .
(٨) المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية (١/ ٢٤٩) .
(٩) في المطبوع : أنها .

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين :

أحدُهما : أنها في السماء ، لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول الحسن . والثاني : أنها في الأرض ، لأنه امتحنَهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهذا قول ابن يحيى ، وكان ذلك بعد أن أُمر إبليسُ بالسجود لآدم ، والله أعلم بصواب[1] ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمَّن كلامُه حكايةَ ثلاثةِ أقوالٍ ، وأشعرَ كلامُه أنَّه متوقف في المسألة . ولهذا حكى أبو عبد الله الرازي في « تفسيره »[2] في هذه المسألة أربعةَ أقوال ، هذه الثلاثة التي أوردَها الماوردي . ورابعُها : الوقف . وحكى القولَ بأنها في السماء ، وليست جنَّة المأوى عن أبي علي الجُبَّائي .

وقد أوردَ أصحابُ القول الثاني سؤالاً يحتاج مثلُه إلى جواب ، فقالوا : لا شكَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى طردَ إبليسَ حين امتنع من السجود عن[3] الحضرة الإلَهية ، وأمره بالخروج عنها ، والهبوط منها ، وهذا الأمرُ ليس من الأوامر الشرعية بحيثُ يُمكن مخالفتُه ، وإنما هو أمر قدَريٌّ لا يُخالفُ ولا يُمانَعُ ، ولهذا قال : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨] وقال : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] وقال : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص : ٧٧] والضميرُ عائدٌ إلى الجنة أو السماء أو المنزلة ، وأيًّا ما كان فمعلومٌ أنه ليس له الكونُ قدراً في المكان الذي طُرد عنه وأُبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز . قالوا : ومعلومٌ من ظاهر سياقاتِ القرآن أنَّه وسوسَ لآدمَ وخاطبَه بقوله له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] وبقوله : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ـ ٢٢] الآية . وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنَّتهما . وقد أُجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمعَ بهما في الجنَّة على سبيل المرور فيها ، لا على سبيل الاستقرار بها ، أو أنَّه وسوسَ لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء .

وفي الثلاثة نظر ، والله أعلم .

ومما احتجَّ به أصحابُ هذه المقالة : ما رواه عبدُ الله بن الإمام أحمد في الزيادات ، عن هُدبة بن خالد ، عن حمَّاد بن سلمةَ ، عن حُميد ، عن الحسن البصريّ ، عن عُتَيّ بن ضَمْرة السعديّ ، عن أُبيّ بن كعب ، قال : إنَّ آدمَ لما احتُضرَ اشتهى قِطْفاً من عِنَب الجنَّة ، فانطلقَ بنوه ليطلبوه له ، فلقيتْهم الملائكةُ ، فقالوا : أينَ تُريدونَ يا بني آدمَ ؟! فقالوا : إنَّ أبانا اشتهى قِطْفاً من عِنَبِ الجنَّة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد

---

(١) في المطبوع : والله أعلم بالصواب من ذلك .
(٢) انظر التفسير الكبير ؛ للفخر الرازي (٣/ ٣ ـ ٤) .
(٣) في أ : وعن .

كُفيتمُوه . فانتهوا إليه فقَبضُوا روحَه ، وغسَّلوه وحنَّطوه وكفَّنوه ، ، وصلَّى عليه جبريلُ ومنْ خلفَه من الملائكة ، ودفنوه . وقالوا : هذه سُنَّتكم في موتاكم . وسيأتي الحديث بسنده ، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام .

قالوا : فلولا أنَّه كان الوصولُ إلى الجنَّة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القِطْفَ ممكناً لما ذهبوا يطلبونَ ذلك ، فدلَّ على أنها في الأرض لا في السماء ، والله تعالى أعلم .

قالوا : والاحتجاجُ بأنَّ الألفَ واللام في قوله : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] لم يتقدَّم عهد يعود عليه ، فهو المعهود الذهني مُسلَّم ، ولكن هو ما دلَّ عليه سياق الكلام ، فإن آدمَ خُلِقَ من الأرض ، ولم يُنقل أنه رُفِعَ إلى السماء ، وخُلِقَ ليكونَ في الأرض ، وبهذا أعلمَ الربُّ ، حيث قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

قالوا : وهذا كقوله تعالى : ﴿ بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم : ١٧] فالألفُ واللام ليس للعموم ولم يتقدَّم معهودٌ لفظيٌّ ، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دلَّ عليه السياق ، وهو البستان .

قالوا : وذِكرُ الهبوط لا يدلُّ على النزول من السماء ، قال الله تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : ٤٨] الآية . وإنما كانَ في السفينة[١] حين استقرت على الجوديِّ ، ونضبَ الماءُ عن وجه الأرضِ ، أُمرَ أن يهبطَ إليها هو ومن معه ، مباركاً عليه وعليهم ، وقال الله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : ٦١] الآية وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] الآية . وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا : ولا مانعَ ـ بل هو الواقع ـ أن الجنَّة التي أُسكنها آدمُ كانت مرتفعةً على سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونُضْرة وسرور ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه : ١١٨] أي : لا يذلُّ باطنُكَ بالجوع ، ولا ظاهرُك بالعُرْي : ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٩] أي : لا يمسُّ باطنك حرُّ الظمأ ولا ظاهرك حرُّ الشمس . ولهذا قرنَ بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ؛ لما بينهما من المقابلة[٢] .

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نُهي عنها ؛ أُهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنَّصب والكدّ[٣] والسعي والنَّكد والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان دِيناً وأخلاقاً وأعمالاً

---

(١) في نسخة : السفين .
(٢) في المطبوع : الملائمة .
(٣) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : والكَدَر .

وقصوداً[١] وإراداتٍ وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] ولا يلزمُ من هذا أنهم كانوا في السماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] ومعلومٌ أنهم كانوا فيها ولم يكونوا في السماء .

قالوا : وليس هذا القولُ مُفرَّعاً على قول من يُنكر وجود الجنَّة والنَّار اليوم ، ولا تلازم بينهما ، فكلُّ منْ حُكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ، ممن يُثبتُ وجودَ الجنَّة والنَّار اليومَ ، كما دلَّتْ عليه الآياتُ والأحاديثُ الصِّحاحُ ، كما سيأتي إيرادُها في موضعها ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصواب .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة : ٣٦] أي : عن الجنة ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٦] أي : من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والتنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزيَّنه في صدورهما ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] يقول : ما نهاكُما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين ، أي : لو أكلتُما منها لصرتُما كذلك .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ [الأعراف : ٢١] أي : حلف لهما على ذلك ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] أي : هل أدلُّك على الشجرة التي إذا أكلتَ منها حصلَ لك الخلدُ فيما أنت فيه من النعيم ، واستمرَّ[٢] لك مُلْكٌ لا يبيدُ ولا يَنقضي ، وهذا من التغرير والتزوير ، والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصودُ أنَّ قوله شجرة الخلد التي إذا أكلتَ منها خُلِّدْتَ ، وقد تكونُ هي الشجرةُ التي قالَ الإمامُ أحمد[٣] : حدَّثنا عبدُ الرحمن بن مَهْدي ، حدَّثنا شُعبةُ ، عن أبي الضَّحَّاك ، سمعتُ أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئةَ عام لا يقطعها ، شجرةُ الخلد » .

وكذا رواه[٤] أيضاً : عن غندر وحجَّاج ، عن شعبة .

ورواه أبو داود الطيالسي في « مسنده »[٥] عن شعبة أيضاً به .

قال غُنْدر[٦] : قلت لشعبةَ : هي شجرةُ الخلد ؟ رواه[٧] : ليس فيها « هي » . تفرَّد

---

(١) في أ والمطبوع : وتصوُّراً .
(٢) في المطبوع : واستمررت في مُلكٍ .
(٣) في المسند (٢/ ٤٥٥) .
(٤) في المسند (٢/ ٤٦٢) .
(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (ص٣٣٢) .
(٦) في المسند : قال حجاج .
(٧) في المسند : قال .

به الإمامُ أحمد . وقوله : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ ﴾ [الأعراف : ٢٢] كما قالَ في « طه » : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ ﴾ [طه : ١٢١] وكانت حواء أكلتْ من الشجرة قبل آدمَ ، وهي التي حدَتْه[١] على أكلها ، والله أعلم .

وعليه يُحمل الحديث الذي رواه البخاري : حدَّثنا بشر بن محمد ، حدَّثنا عبدُ الله ، أنبأنا مَعْمر ، عن همَّام بن مُنبّه ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ نحوَه : « لولا بنو إسرائيل لم يَخْنزِ اللَّحمُ ، ولولا حَوَّاءُ لم تخُنْ أنثى زوجَها »[٢] . تفرد به من هذا الوجه .

وأخرجاه في الصحيحين[٣] : من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همَّام ، عن أبي هريرة به .

ورواه أحمد ومسلم[٤] : عن هارون بن معروف ، عن أبي وهب ، عن عمرو بن حارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة به .

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دلَّ حوَّاءَ على الأكل من الشجرة هي الحيَّةُ ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلتْ حوَّاءُ عن قولها ، وأطعمتْ آدمَ عليه السلام ، وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحتْ أعينُهما ، وعلما أنَّهما عُريانان ، فوصلا من ورق التين ، وعملا مآزرَ ، وفيها أنَّهما كانا عُرْيانين .

وكذا قال وَهْبُ بن منبِّهْ : كان لباسُهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلطٌ منهم و تحريفٌ ، وخطأ في التعريب ، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكادُ يتيسَّر لكلِّ أحد ، ولا سيما ممن لا يعرفُ كلامَ العرب جيداً ، ولا يُحيط علماً بفهم كتابه أيضاً ، فلهذا وقعَ في تعريبهم لها[٥] خطأ كثير لفظاً ومعنى ، وقد دلَّ القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ ﴾ [الأعراف : ٢٧] فهذا لا يُردُّ لغيره من الكلام ، والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا علي بن الحسين بن إشكاب ، حدَّثنا عليّ بن عاصم ، عن سعيد بن

---

(١) حدَتْه : حثَّته وحرَّضَتْه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣٠) في أحاديث الأنبياء . وقوله ﷺ « يخنز » : ينتن ويتغير ، و« لولا حواء لم تخن أنثى زوجها » . قال الحافظ ابن حجر : ليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش ، حاشا وكلاً ، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة ، وحسَّنت ذلك لآدم ، عُدَّ ذ لك خيانة له . وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها . وانظر الفتح (٦/ ٣٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩٩) في أحاديث الأنبياء . ومسلم (١٤٧٠) (٦٣) في الرضاع .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٠٤ و٣١٥) ومسلم (١٤٧٠) (٦٢) في الرضاع .

(٥) أي : للتوراة .

أبي عَرُوبة ، عن قتادةَ ، عن الحسن ، عن أبيّ بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلقَ آدمَ رجلاً طوالاً ، كثيرَ شعر الرأس ، كأنَّه نخلةٌ سحُوق ، فلما ذاقَ الشجرةَ سقطَ عنه لباسه ، فأوَّلُ ما بدا منه عورته ، فلما نظرَ إلى عورتِه جعلَ يشتدُّ في الجنة ، فأخذتْ شعرَه شجرةٌ فنازعَها ، فناداه الرحمنُ عزَّ وجلَّ : يا آدم ! منيّ تفرُّ . فلما سمعَ كلامَ الرحمن ، قال : يا ربِّ لا ! ولكن استحياءً »[١] .

وقال الثوري : عن ابن أبي ليلى ، عن المِنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] قال : ورق التين[٢] . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكأنَّه مأخوذ من أهل الكتاب ، وظاهر الآية يقتضي أعمَّ من ذلك ، وبتقدير تسليمه فلا يضرُّ ، والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر : من طريق محمَّد بن إسحاق ، عن الحَسن بن ذَكْوان ، عن الحسن البَصْريِّ، عن أُبيِّ بن كعب ، قال : قال رسولُ الله ﷺ: « إنَّ أباكم آدمَ كان كالنخلة السَّحوق ستين ذراعاً ، كثيرَ الشعر ، مُوارى العورة ، فلما أصابَ الخطيئةَ في الجنَّة بدتْ له سوأتُه ، فخرجَ من الجنَّة ، فلقيتهُ شجرةٌ فأخذتْ بناصيتهِ، فناداه ربُّه : أفراراً مني يا آدمُ ؟ قال : بل حياءً منكَ والله يا ربِّ مما جئتُ به »[٣] .

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عُتيِّ بن ضَمْرة ، عن أُبيِّ بن كعب ، عن النبي ﷺ ، بنحوه وهذا أصحُّ ، فإن الحسنَ لم يُدركْ أبيّاً .

ثم أوردَه أيضاً : من طريق خيثمةَ بن سُليمان الإطرابلسي ، عن محمد بن عبد الوهاب أبي قِرْصافةَ العسقلاني ، عن آدمَ بن أبي إياس ، عن شيبانَ ، عن قتادةَ ، عن أنس مرفوعاً بنحوه[٤] .

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٢ ـ ٢٣] وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابة ، وتذلُّلٌ وخضوعٌ واستكانةٌ ، وافتقارٌ إليه تعالى في الساعة الراهنة ، وهذا السِّرُّ ما سرَى في أحد من ذريَّته إلا كانت عاقبتُه إلى خير في دنياه وأخراه .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤] وهذا خطابٌ لآدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ ، قيل : والحيَّة معهم ، أُمروا أن يَهبطوا من الجنَّة في حال كونهم متعادينَ متحاربينَ .

وقد يُستشهد لذكر الحيَّة معهما ، بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ : أنه أمر بقتل الحيَّات ،

---

(١) ذكرَه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٢) وقال : وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن ، عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ والموقوف أصح إسناداً . والحسن لم يدركْ أبياً ، وانظره في الدر المنثور (١/ ١٣٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٢) .

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ؛ لابن منظور (٤/ ٢٢٢) .

(٤) المصدر السابق (٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) .

وقال : « ما سالَمْناهُنَّ منذُ حارَبْناهنَّ »[١] .

وقوله في سورة طه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣] هو أمرٌ لآدم وإبليس ، واستتبع آدمُ حوَّاءَ ، وإبليسُ الحيَّة ، وقيل : هو أمرٌ لهم بصيغة التثنية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

والصحيح أن هذا لما كان الحاكمُ لا يحكم إلا بينَ اثنين مُدَّعٍ ومُدَّعىً عليه ، وقال : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

وأما تكريرُه الإهباط في سورة البقرة في قوله : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٦ ـ ٣٩] فقال بعض المفسرين : المرادُ بالإهباط الأوّل الهبوطُ من الجنَّة إلى السماء الدنيا ، وبالثاني من السماء الدنيا إلى الأرض . وهذا ضعيفٌ ، لقوله في الأول ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] فدلَّ على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأوّل ، والله أعلم .

والصحيحُ أنه كرَّره لفظاً وإن كان واحداً ، وناط مع كل مرة حُكماً ، فناطَ بالأوّل عداوتهم فيما بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم : أنَّ منْ تبعَ هُداه الذي يُنزِّله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقيّ ، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم .

وروى الحافظ ابن عساكر : عن مجاهد ، قال : أمرَ الله مَلَكين أن يُخرجا آدمَ وحوَّاءَ من جِواره ، فنزعَ جبريلُ التَّاجَ عن رأسهِ ، وحلَّ ميكائيلُ الإكليلَ عن جبينه ، وتعلَّق به غصنٌ ، فظنَّ آدمُ أنه قد عُوجلَ بالعقوبة ، فنكَّسَ رأسَه يقولُ : العفوَ العفوَ ، فقال الله : أفراراً مني ؟ قال : بل حياءً منك يا سيدي[٢] !

وقال الأوزاعي : عن حسان ـ هو ابن عطيَّة ـ مكثَ آدمُ في الجنَّة مئةَ عام ، وفي روايةٍ ستين عاماً ، وبكى على الجنَّة سبعينَ عاماً ، وعلى خطيئته سبعينَ عاماً ، وعلى ولده حينَ قُتِلَ أربعين عاماً[٣] . رواه ابن عساكر .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبو زُرْعَةَ ، حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدَّثنا جرير ، عن سعيد ، عن ابن عبَّاس قال : أُهبطَ آدمُ عليه السلام إلى أرض يُقالُ له دَحْنا بين مكَّة والطائف[٤] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٤٧) وأبو داود (٥٢٤٨) في الأدب .

(٢) لم أجده فيما طبع من تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٣) لم أجده فيما طبع من تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٣٥) .

وعن الحسن قال : أهبط آدمُ بالهند ، وحوَّاء بجدة ، وإبليس بدست مَيْسان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحيَّة بأصبهان[١] . رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال السدي : نزلَ آدمُ بالهند ، ونزل معه بالحجر الأسود ، وبقبضةٍ من ورق الجنة ، فبثَّه في الهند ، فنبتتْ شجرةُ الطِّيب هناك[٢] .

وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة . رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال عبد الرزاق : قال معمر : أخبرني عوف ، عن قسامة بن زهير ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : إن الله حينَ أهبط آدمَ من الجنَّة إلى الأرض علَّمه صنعةَ كلِّ شيء ، وزوَّدهَ من ثمار الجنَّة ، فثمارُكم هذه من ثمار الجنَّة ، غير أن هذه تتغيرُ وتلك لا تتغير[٣] .

وقال الحاكم في « مستدركه »[٤] : أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، عن محمد بن أحمد بن النضر ، عن معاوية بن عمرو ، عن زائدة ، عن عمَّار بن أبي معاوية البَجليّ ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : ما أُسكنَ آدمُ الجنَّة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرِّجاه .

وفي صحيح مسلم[٥] : من حديث الزهري ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلقَ آدمُ ، وفيه أُدخلَ الجنَّة ، وفيه أخرج منها » .

وفي الصحيح من وجه آخر « وفيه تقوم الساعة »[٦] .

وقال أحمد[٧] : حدَّثنا محمد بن مصعب ، حدَّثنا الأوزاعي ، عن أبي عمَّار ، عن عبد الله بن فَرُّوخ ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : « خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشمسُ يومُ الجمعة ، فيه خُلِقَ آدمُ ، وفيه أدخلَ الجنَّة ، وفيه أخرجَ منها ، وفيه تقومُ السَّاعةُ » على شرط مسلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر : من طريق أبي القاسم البَغَوي ، حدَّثنا محمد بن جعفر الوركاني ، حدَّثنا سعيد بن ميسرة ، عن أنس ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « هبطَ آدم وحواء عُريانين جميعاً ، عليهما ورق الجنَّة ، فأصابه الحرُّ حتى قعد يبكي ويقولُ لها : يا حوَّاء ! قد آذاني الحرُّ ، قال :

---

(١) الدر المنثور (١/ ١٣٧) وقال : أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر عن الحسن .
(٢) الدر المنثور (١/ ١٣٩) وقال : أخرجه ابن أبي حاتم عن السدِّيِّ .
(٣) الدر المنثور (١/١٣٧) وقال: أخرجه البزار وابن أبي حاتم والطبراني وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣) وصححه.
(٤) المستدرك (٢/ ٥٤٢) .
(٥) أخرجه مسلم (٨٥٤) (١٧) في الجمعة .
(٦) أخرجه مسلم (٨٥٤) (١٨) .
(٧) في المسند (٢/ ٥٤٠) .

فجاءه جبريلُ بقُطنٍ ، وأمرَها أنْ تغزلَ ، وعلَّمها ، وأمرَ آدمَ بالحياكة ، وعلَّمه أن ينسجَ . قال : وكان آدمُ لم يُجامع امرأتَه في الجنَّة حتى هبطَ منها ، للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة . قال : وكان كلُّ واحد منهما ينامُ على حدَةٍ ، ينامُ أحدُهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى ، حتى أتاه جبريلُ فأمرَه أن يأتيَ أهله . قال : وعلَّمه كيف يأتيها ، فكلما أتاها جاءه جبريلُ ، فقال ؛ كيف وجدتَ امرأتَكَ ؟ قال : صالحة »[1] فإنه حديث غريبٌ ، ورفعُه منكرٌ جداً ، وقد يكون من كلام بعض السلف ، وسعيدُ بن مَيْسَرة هذا ، هو أبو عمران البَكْري البَصْري ، قال فيه البخاري[2] : منكر الحديث ، وقال ابن حِبَّان[3] : يروي الموضوعات . وقال ابن عديّ[4] : مظلم الأمر .

وقوله ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] قيل : هي قوله ﴿ ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] . رُوي هذا عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وخالد بن مَعْدان ، وعطاء الخُراساني ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[5] .

وقال ابنُ أبي حاتم : حدَّثنا عليُّ بن الحسين بن إشكاب ، حدَّثنا عليُّ بن عاصم ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أُبيِّ بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قالَ آدمُ عليه السلام : أرأيتَ يا ربِّ إن تبتُ وراجعتُ ، أعائدي إلى الجنة ؟ قال : نعم »[6] فذلك قوله ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وهذا غريب من هذا الوجه ، وفيه انقطاع .

وقال ابن أبي نَجيح : عن مجاهد ، قال : الكلمات « اللهم لا إله إلا أنت سبحانَكَ وبحمدكَ ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي إنك خير الغافرين . اللَّهُمَّ لا إله إلا أنت سبحانكَ وبحمدك ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي إنك خيرُ الراحمين . اللَّهُمَّ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَكَ وبحمدكَ ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فتبْ عليّ إنَّك أنت التَّواب الرحيم »[7] .

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٢/ ٣٥٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٣٨) وقال : وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أنس .
(٢) تاريخه الكبير ٣/ الترجمة (١٧٢٣) .
(٣) المجروحين (١/ ٣١٦) .
(٤) الكامل (٣/ ١٢٢٤) .
(٥) انظر الدر المنثور ، للسيوطي (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) .
(٦) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٢٨١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٢) .
(٧) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٢٨٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٥) وقال : أخرجه البيهقي في الشعب ، وابن عساكر عن أنس .

وروى الحاكم في « مستدركه »[1] : من طريق سعيد بن جُبير ، عن ابن عبّاس ، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] قال : قال آدم : يا ربِّ ! ألم تَخْلُقني بيدكَ ؟ قيل له : بلى . ونفختَ فيَّ من روحكَ ؟ قيل له : بلى . وعطستَ ، فقلتَ : يرحمُك الله ، وسبقتْ رحمتك غضبَكَ ؟ قيل له : بلى . وكتبتَ عليَّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أفرأيتَ إن تبتُ ، أفراجعي إلى الجنة ؟ . قال : نعم . ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه .

وروى الحاكم أيضاً ، والبيهقيُّ ، وابن عساكر ، من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جدِّه ، عن عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترفَ آدمُ الخطيئةَ قال : يا ربِّ أسألُكَ بحقِّ محمَّد أن غفرتَ لي . فقال الله : فكيفَ عرفتَ محمَّداً ولم أخْلُقْه بعدُ ؟ فقال : يا ربِّ لأنك لما خلقتني بيدكَ ، ونفختَ فيَّ من روحكَ ، رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله . فعلمت أنَّك لم تُضِفْ إلى اسمكَ إلا أحبَّ الخلق إليكَ . فقال الله : صدقتَ يا آدمُ! إنَّه لأحبُّ الخلق إليّ ، وإذ سألتني بحقِّه فقد غفرتُ لكَ ، ولولا محمَّدٌ ما خلقتُك »[2] . قال البيهقي : تفرَّد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه ، وهو ضعيف ، والله أعلم .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١ ـ ١٢٢] .

***

ذكرُ
احتجاج آدمَ وموسى عليهما السلام

قال البخاري[3] : حدثنا قتيبة ، حدَّثنا أيوب بن النجار ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام ، فقال له : أنتَ الذي أخرجتَ النَّاس بذنبكَ من الجنَّة وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى! أنت الذي اصطفاكَ الله برسالاته وبكلامِه ، أتلُومني على أمر قد كتبَه الله عليّ قبل أن يَخْلُقني أو قدَّره عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسولُ الله ﷺ : فحجَّ آدمُ موسى » .

---

(١) المستدرك (٢/ ٥٤٥) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٥) وصححه ، وتعقبه الذهبي فقال : بل موضوع ، وعبد الرحمن واهٍ ، ورواه عبد الله بن مسلم الفهري ، ولا أدري من ذا ؟ وانظره في تهذيب ابن عساكر (٢/ ٢٥٩) .
(٣) في صحيحه (٤٧٣٨) في التفسير .

وقد رواه مسلم[١] : عن عمرو الناقد ، والنسائي[٢] عن محمد بن عبد الله بن يزيد ، عن أيوب بن النجار ، به . قال أبو مسعود الدمشقي[٣] : ولم يُخرّجا عنه في الصحيحين سواه . وقد رواه أحمد[٤] عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن هَمَّام ، عن أبي هريرة . وقد رواه مسلم[٥] عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، به .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدَّثنا أبو كامل ، حدَّثنا إبراهيمُ ، حدَّثنا ابن شهاب ، عن حُميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقال له موسى : أنتَ آدمُ الذي أخرجتْكَ خطيئتُكَ من الجنَّة ؟ فقال له آدم : وأنتَ موسى الذي اصطفاكَ الله برسالاتِه وبكلامِه ، تلومُني على أمر قُدِّر عليَّ قبل أن أخلقَ ؟ قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى ». مرتين.

قلت : وقد روى هذا الحديثَ البخاريُّ ومسلم[٧] من حديث الزهري ، عن حُميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه .

وقال الإمام أحمد[٨] : حدَّثنا معاويةُ بن عمرو ، حدَّثنا زائدةُ ، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى : يا آدم! أنت الذي خلقكَ الله بيده ونفخَ فيك من رُوحه ، أغويتَ النَّاس وأخرجتهم من الجنَّة . قال : فقالَ آدمُ : وأنت موسى الذي اصطفاكَ الله بكلامِه تلومُني على عملٍ أعملُه، كَتَبهُ اللهُ عليّ قبل أنْ يخلقَ السَّموات والأرض. قال: فحجَّ آدمُ موسى ».

وقد رواه الترمذي[٩] والنسائي جميعاً : عن يحيى بن حبيب بن عربيّ ، عن مَعْمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الأعمش به . قال الترمذي : وهو غريبٌ[١٠] من حديث سُليمان التَّيميِّ ، عن الأعمش ، قال : وقد رواه بعضُهم عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد .

قلت : هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في « مسنده »[١١] : عن محمد بن مثنى ، عن معاذ بن أسد ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢) في القدر .
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٩) ، في التفسير .
(٣) انظر قول أبي مسعود في تحفة الأشراف ؛ للمزيّ (١٠/ ٤٦٧) عقيب حديث (١٥٣٦١) .
(٤) في المسند (٢/ ٢٦٨) .
(٥) في صحيحه (٢٦٥٢) في القدر .
(٦) في المسند (٢/ ٢٦٤) .
(٧) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) في الأنبياء و (٧٥١٥) في التوحيد ، ومسلم (٢٦٥٢) في القدر .
(٨) في المسند (٢/ ٣٩٨) .
(٩) أخرجه الترمذي (٢١٣٤) في القدر ، والنسائي في التفسير (٤٦٣) في الكبرى .
(١٠) في بعض النسخ : حسن غريب .
(١١) كما في كشف الأستار (٢١٤٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩١) : رواه أبو يعلى والبزار مرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح .

عن الفضل بن موسى ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد .

ورواه البزار[١] أيضاً : حدَّثنا عمرو بن عليّ الفلاس ، حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ـ أو أبي سعيد ـ عن النبيِّ ﷺ فذكره .

وقال أحمد[٢] : حدَّثنا سفيان ، عن عمرو ، سمعَ طاووساً ، سمع أبا هريرة ، يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقالَ موسى : يا آدمُ أنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنَّة . فقال له آدم : يا موسى ! أنت الذي اصطفاكَ الله بكلامِهِ ـ وقال مرة : حجَّ آدمُ موسى ، حجَّ آدمُ موسى » .

وهكذا رواه البخاريُّ[٣] : عن عليِّ بن المديني ، حدَّثنا سفيان ، قال : حفظناهُ من عمرٍو ، عن طاووس ، قال : سمعتُ أبا هريرةَ عن النبيِّ ﷺ ، قال : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى : يا آدمُ : أنت أبونا ، خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنَّة . فقال له آدمُ : يا موسى ! اصطفاكَ الله بكلامِه ، وخطَّ لكَ بيدِه ، أتلومني على أمرٍ قدَّرَه الله عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً ؟ فحجَّ آدمُ موسى ، فحجَّ آدمُ موسى » هكذا ثلاثاً . قال سفيان : حدَّثنا أبو الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ مثله .

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه[٤] من عشر طرق عن سفيان بن عُيَيْنَة[٥] ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن طاووس ، عن أبيه[٦] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد[٧] : حدَّثنا عبد الرحمن ، حدَّثنا حمَّاد ، عن عمَّار ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ قال : « لقيَ آدمُ موسى فقالَ : أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ الله بيده ، وأسجدَ لكَ ملائكته ، وأسكنَكَ الجنَّة ، ثم فعلتَ ؟ فقال : أنتَ موسى الذي كلَّمك الله ، واصطفاكَ برسالتِه ، وأنزلَ عليكَ التوراةَ ، ثم أنا أقدمُ أم الذِّكر ؟ قال : لا ، بل الذِّكر ، فحجَّ آدمُ موسى »[٨] .

---

(١) أخرجه البزار (٢١٤٨) كما في كشف الأستار ، وقال الهيثمي : حديث أبي هريرة في الصحيح ، وأما حديث أبي سعيد فقد تقدم إسناده برقم (٢١٤٧) من غير شك .

(٢) في المسند (٢/ ٢٤٨) .

(٣) في صحيحه (٦٦١٤) في القدر .

(٤) أخرجه البخاري (٦٦١٤) في القدر ، ومسلم (٢٦٥٢) في القدر . والموطأ (٢/ ٨٩٨) في القدر ، وأبو داود (٤٧٠١) في السنة ، والنسائي في التفسير (٢٠٧) أقول : ورواه ابن ماجه رقم (٨٠) ولم أقف عليه عند الترمذي .

(٥) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٠٦) : وقع لنا من طرق عشرة عن أبي هريرة .

(٦) عمرو بن دينار إنما رواه عن طاووس عن أبي هريرة ، وعبد الله بن طاووس لم يرو هذا الحديث عن أبيه في أي من الكتب الستة .

(٧) في المسند (٢/ ٤٦٤) .

(٨) في المسند : « فحجَّ آدمُ موسى ، فحج آدمُ موسى » مكررة ، وهو حديث صحيح .

قال أحمد : وحدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا حَمَّاد ، عن عمَّار بن أبي عمَّار ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ ، وحُمَيْد ، عن الحسن ، عن رجلٍ ـ قال حمَّاد : أظنُّه جُنْدُبَ بن عبد الله البجلي ـ عن النبي ﷺ ، قال : « لقيَ آدمُ موسى . . . » فذكرَ معناه[١] . تفرَّد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدَّثنا حُسين ، حدَّثنا جرير ـ هو ابن حازم ـ عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ عن أبي هريرة ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لقيَ آدمُ موسى ، فقالَ : أنت آدمُ الذي خلقكَ الله بيده ، وأسكنكَ جنَّته ، وأسجد لك ملائكته ، ثمَّ صنعتَ ما صنعتَ ؟ قال آدمُ : يا موسى[٢] أنتَ الذي كلَّمه الله ، وأنزلَ عليه التوراةَ ؟ قال : نعم . قال : فهل تجده مكتوباً عليّ قبل أن أُخلقَ ؟ قال : نعم . قال : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى »[٣] .

وكذا رواه حمَّاد بن زيد ، عن أيوب وهشام ، عن محمَّد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، رفعه . وكذا رواه عليُّ بن عاصم ، عن خالد وهشام ، عن محمد بن سيرين . وهذا على شرطهما من هذه الوجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا يونسُ بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابنُ وَهْبٍ ، أخبرني أنس بن عياض ، عن الحارث بن أبي ذُباب ، عن يزيدَ بن هُرْمزٍ ، سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ : قال رسول الله ﷺ : « احتجَّ آدمُ وموسى عند ربِّهما ، فحجَّ آدمُ موسى . قال موسى : أنتَ الذي خلقكَ الله بيده ، ونفخَ فيكَ من روحِه ، وأسجدَ لك ملائكتَه ، وأسكنكَ جنَّته ، ثم أهْبَطْتَ النَّاسَ إلى الأرض بخطيئتكَ ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاكَ الله برسالتِه وكلامِه ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كلِّ شيء ، وقرَّبك نجيّاً ، فبكم وجدتَ اللهَ كتبَ التوراةَ ؟ قال موسى : بأربعين عاماً . قال آدم : فهل وجدتَ فيها ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبَ الله عليّ أن أعمَله قبل أن يخلُقَني بأربعين سنة ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : فحجَّ آدمُ موسى »[٤] .

قال الحارثُ : وحدَّثني عبدُ الرحمن بن هُرْمزَ بذلكَ ، عن أبي هريرةَ ، عن رسول الله ﷺ .

وقد رواه مسلم[٥] : عن إسحاق بن موسى الأنصاري ، عن أنس بن عِياض ، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذُباب ، عن يزيد بن هُرْمز والأعرج ، كلاهما عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدَّثنا عبدُ الرزاق ، أنبأنا مَعْمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ،

---

(١) في المسند (٢/ ٤٦٤) ، وهو حديث بطرقه .
(٢) في المسند : فقال آدم لموسى :
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٩٢) ، وهو حديث صحيح .
(٤) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢/ ٣٤٦) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢١٢) .
(٥) في صحيحه (٢٦٥٢) (١٥) في القدر .

قال : قال رسول الله ﷺ : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى لآدم : يا آدم ! أنتَ الذي أدخلتَ ذرِّيتكَ النَّارَ . فقال آدمُ : يا موسى ! اصطفاكَ الله برسالاتِه وبكلامِه ، وأنزلَ عليكَ التوراةَ ، فهل وجدتَ أني أهبطُ ؟ قال : نعم . قال : فحجَّه آدمُ »[(١)] وهذا على شرطهما ، ولم يُخرِّجاه من هذا الوجه . وفي قوله : أدخلتَ ذرِّيتك النَّار ، نكارة .

فهذه طرقُ هذا الحديث عن أبي هريرة ، رواه عنه حُمَيْد بن عبد الرحمن ، وذَكْوان أبو صالح السَّمَّان ، وطاووس بن كَيْسان ، وعبدُ الرحمن بن هُرْمُز الأعرج ، وعمَّار بن أبي عمَّار ، ومحمّدُ بن سيرين ، وهمَّام بن مُنبّه ، ويزيدُ بن هُرْمز ، وأبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يَعلى المَوْصلي في « مسنده »[(٢)] : من حديث أمير المؤمنين عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه فقال : حدَّثنا الحارثُ بن مسكين المصري ، حدَّثنا عبدُ الله بن وَهْب ، أخبرني هشامُ بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمرَ بن الخطَّاب ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « قال موسى عليه السلام : يا ربِّ أرنا آدمَ الذي أخرجنَا ونفسَه من الجنَّة . فأراه آدمَ عليه السلام . فقال : أنت آدمُ ؟ فقال : نعم . قال : أنتَ الذي نفخَ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكتَه ، وعلَّمك الأسماء كلّها ؟ قال : نعم . قال : فما حملكَ على أنْ أخرجتَنا ونفسَك من الجنَّة ؟ فقال له آدم : منْ أنتَ ؟ قال : أنا موسى . قال : أنت موسى نبيُّ بني إسرائيل ؟ أنتَ الذي كلَّمكَ الله من وراءالحجاب ، فلم يجعلْ بينك وبينَه رسولاً من خَلْقِه ؟ قال : نعم . قال : تلومُني على أمرٍ قد سبقَ من الله عزَّ وجلَّ القضاءُ به قبلُ ؟! قال رسول الله ﷺ : فحجَّ آدمُ موسى ، فحجَّ آدمُ موسى » .

ورواه أبو داود[(٣)] : عن أحمد بن صالح المِصْري ، عن ابن وَهْب ، به[(٤)] .

قال أبو يعلى : وحدَّثنا محمد بن المثنَّى ، حدَّثنا عبدُ الملك بن الصباح المِسْمعيّ ، حدَّثنا عِمْران ، عن الرُّدَيْنيِّ بن أبي مِجْلزٍ ، عن يحيى بن يعمَر ، عن ابن عمرَ ، عن عمرَ ـ قال أبو محمد : أكبرُ ظنِّي أنَّه رفعه ـ قال : « التقى آدمُ وموسى ، فقالَ موسى لآدمَ : أنتَ أبو البشر ، أسكنكَ الله جنَّته ، وأسجدَ لكَ ملائكتَه ؟ قال آدمُ : يا موسى ! أما تجدُه عليَّ مكتوباً ؟ قال : فحجَّ آدمُ موسى ، فحجَّ آدمُ موسى »[(٥)] . وهذا الإسناد أيضاً لا بأسَ به ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٦٨) ، وهو حديث صحيح دون قوله : « أدخلتَ ذريتك الجنة » .
(٢) (٢٤٣) وهو حديث حسن .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٠٢) في القدر .
(٤) في إسناده ضعف ، ولكن له شواهد يقوى بها .
(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٢٤٤) وهو حديث حسن .

وقد تقدَّم[١] روايةُ الفضل بن موسى لهذا الحديث ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد . وروايةُ الإمام[٢] أحمد له عن عفَّان ، عن حمَّاد بن سلمة ، عن حُمَيْد ، عن الحسن ، عن رجلٍ . قال حمَّاد : أظنُّه جُنْدُب بن عبد الله البَجَليّ ، عن النبي ﷺ : « لقيَ آدمُ موسى . . . » فذكرَ معناه .

وقد اختلفتْ مسالكُ النَّاس في هذا الحديث ؛ فردَّه قومٌ من القدريَّة ، لما تضمَّن من إثبات القدر السابق .

واحتجَّ به قومٌ من الجبرية ، وهو ظاهر لهم باديء الرأي ، حيث قال : فحجَّ آدمُ موسى ، لمَّا احتجَّ عليه بتقديم كتابه ، وسيأتي الجوابُ عن هذا .

وقال آخرون[٣] : إنما حجَّه لأنه لامَه على ذَنْبٍ قد تابَ منه ، و التَّائبُ من الذنب كمن لا ذَنْبَ له . وقيل : إنما حجَّه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل : لأنه أبوه . وقيل : لأنهما في شريعتين متغايرتين . وقيل : لأنهما في دار البرزخ ، وقد انقطعَ التكليف فيما يزعمونه .

والتحقيقُ أنَّ هذا الحديث رُوي بألفاظٍ كثيرةٍ بعضُها مرويٌّ بالمعنى ، وفيه نظر . ومدارُ معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنَّه لامَه على إخراجه نفسَه وذريَّته من الجنَّةِ ، فقال له آدم : أنا لم أخرجْكم ، وإنما أخرجَكم الذي رتَّب الإخراج على أكلي من الشجرة ، والذي رتَّب ذلك وقدَّره وكتبَه قبلَ أنْ أُخلقَ هو الله عز وجل ، فأنتَ تلومُني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر ما أنِّي نُهيتُ عن الأكل من الشجرة ، فأكلتُ منها ، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجْكم ولا نفسي من الجنَّة ، وإنما كان هذا من قدرة الله وصُنْعه ، وله الحكمةُ في ذلك ، فلهذا حجَّ آدمُ موسى .

ومن كذَّب بهذا الحديث فمعاندٌ ، لأنه متواترٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وناهيك به عدالةً وحفظاً وإتقاناً . ثم هو مرويٌّ عن غيره من الصحابة كما ذكرنا .

ومن تأوَّله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً فهو بعيدٌ من اللفظ والمعنى . وما فيهم منْ هو أقوى مَسْلكاً من الجبريَّة ، وفيما قالوه نظرٌ من وجوه :

أحدها : أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تابَ منه فاعلهُ .

الثاني : أنه قد قتلَ نفساً لم يُؤمر بقتلها ، وقد سأل اللهَ في ذلك بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص : ١٦] الآية .

الثالث : أنه لو كان الجواب عن اللَّوْم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد ، لانفتحَ هذا لكل

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه ص(١٢٨) .

(٢) تقدم الحديث وتخريجه ص(١٣٠) .

(٣) في هامش « أ » : كلام في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام .

من لِيَمَ على أمر قد فعلَه ، فيحتج بالقدر السابق ، فينسدُّ باب القصاص والحدود . ولو كان القَدَر حجَّةً ، لاحتجَّ به كلُّ أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار ، وهذا يُفضي إلى لوازم فظيعة ، فلهذا قال من قال من العلماء : بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقَدَر على المصيبة لا المعصية ، والله أعلم .

ذكر
الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد : حدَّثنا يحيى ومحمد بن جعفر ، حدَّثنا عَوْف ، حدَّثني قَسامة بن زُهير ، عن أبي موسى ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ من قَبْضةٍ قبضَها من جميعِ الأرض ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ ، جاءَ منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذلك . والخبيثُ والطَّيِّبُ والسَّهْلُ والحَزنُ وبين ذلك »[1] .

ورواه أيضاً[2] : عن هوذةَ ، عن عَوْف ، عن قَسامة بن زُهير ، قال : سمعتُ الأشعريَّ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قبضَها من جميع الأرضِ ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ ، فجاءَ منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلك . والسَّهْلُ والحَزْنُ ، وبين ذلك ، والخبيثُ والطَّيِّبُ ، وبينَ ذلكَ » .

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حِبَّان في « صحيحه »[3] : من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي ، عن قَسامة بن زُهير المازني البَصْري ، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشْعري ، عن النبيِّ ﷺ بنحوه . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ذكر السُّدِّي : عن أبي مالك ، وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحابِ رسول الله ﷺ ، قال : « فبعثَ الله عزَّ وجلَّ جبريلَ في الأرض ، ليأتيَه بطينٍ منها ، فقالت الأرضُ : أعوذُ بالله منكَ أن تنقص مني أو تشينني ، فرجعَ ولم يأخذ ، وقال : ربِّ إنها عاذتْ بكَ فأعذتُها ، فبعث ميكائيلَ فعاذتْ منه فأعاذَها ، فرجعَ فقال كما قالَ جبريلُ ، فبعَثَ مَلَكَ الموتِ فعاذتْ منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجعَ ولم أُنفِّذْ أمرَه ، فأخذَ من وجه الأرض وخلَطه ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذَ من تربةٍ بيضاءَ وحمراء وسوداءَ ، فلذلكَ خرجَ بنو آدم مختلفينَ ، فصَعِدَ به فَبَلَّ الترابَ حتى

---

(١) في المسند (٤/ ٤٠٠) .
(٢) في المسند (٤٠٦) .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣) في السنة ، والترمذي (٢٩٥٥) في التفسير ، وابن حبَّان في صحيحه (٦١٦٠) الإحسان .

عاد طيناً لازباً ـ واللازب ؛ هو الذي يلزق بعضه ببعض ـ ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ـ٧٢] » .

فخلقَه الله بيده لئلا يتكبَّرَ إبليس عنه ، فخلقَه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكةُ ، ففزِعُوا منه لمَّا رأَوْه ، وكان أشدَّهم منه فزعاً إبليسُ ، فكان يمرُّ به فيضربه ، فيُصَوِّتُ الجسدُ كما يُصوِّتُ الفُخَّارُ ، يكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤] ويقول : لأمرٍ ما خُلِقْتَ ، ودخلَ من فيه وخرجَ من دُبُره ، وقال للملائكة : لا تَرْهَبُوا من هذا فإن ربّكم صمَدٌ وهذا أجوفُ ، لئن سُلِّطْتُ عليه لأهلكنَّه .

فلما بلغ الحين الذي يُريد الله عزَّ وجلَّ أنْ ينفخَ فيه الرُّوحَ ، قال للملائكة : إذا نفختُ فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخَ فيه الروحَ ، فدخلَ الرُّوحُ في رأسِه عطسَ ، فقالت الملائكة : قل الحمد الله ، فقال : الحمد الله ، فقال له الله : رحمكَ ربُّكَ . فلما دخلتِ الرُّوح في عينيْه نظرَ إلى ثمار الجنَّة ، فلما دخلتِ الرُّوح في جوفه ، اشتهى الطعام ، فوثبَ قبلَ أن تبلغَ الرُّوحُ إلى رجليْه ، عجلانَ إلى ثمار الجنَّة ، وذلك حين يقولُ الله تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٣٠ـ٣١] وذكرَ تمامَ القِصَّة[١] .

ولبعض هذا السِّياق شاهدٌ من الأحاديث ، وإن كانَ كثير منه مُتلقًى من الإسرائيليات .

فقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا عبدُ الصمد ، حدَّثنا حمَّاد ، عن ثابت ، عن أنس ، أن النبيَّ ﷺ قال : « لما خلق الله آدمَ تركَه ما شاء أن يدَعَه ، فجعل إبليسُ يطيفُ به ، فلما رآه أجوفَ عرفَ أنَّه خَلْقٌ لا يتمالكُ » .

وقال ابن حبَّان في « صحيحه »[٣] : حدَّثنا الحسنُ بن سفيان ، حدَّثنا هُدْبة بن خالد ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « لما نُفِخَ في آدمَ ، فبلغَ الروحُ رأسَه عطسَ ، فقال : الحمد الله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدَّثنا يحيى بن محمد بن السَّكَن ، حَدَّثنا حَبَّان بن هِلال ، حدَّثنا مبارك ابن فَضَالة ، عن عُبيد الله ، عن خُبيب ، عن حَفْص ـ هو ابن عاصم بن عمر بن الخطاب ـ عن أبي هُريرة ، رفَعه ، قال : « لمّا خلقَ الله آدمَ عطسَ ، فقال : الحمدُ لله ، فقال له ربُّه : رحمكَ ربُّك يا آدم »[٤] . وهذا الإسناد لا بأس به ، ولم يُخرِّجوه .

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٩٠) .

(٢) في المسند (٣/ ١٥٢) .

(٣) الإحسان (٦١٦٥) وإسناده صحيح ، رجاله رجال مسلم .

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي عروبة الحراني، عن يحيى بن محمد، به (٦١٦٤) الإحسان، وهو حديث حسن.

وقال عمر بن عبد العزيز : لما أُمرتِ الملائكةُ بالسجود ، كان أوَّلُ من سجدَ منهم إسرافيل ، فآتاه الله أن كتبَ القرآن في جبهته . رواه ابن عساكر[١] .

وقال الحافظ أبو يعلى[٢] : حدَّثنا عقبةُ بن مُكْرَم ، حدَّثنا عمرو بن محمد ، عن إسماعيل بن رافع ، عن المَقْبُري ، عن أبي هريرة ، أن رسولَ الله ﷺ ، قال : « إن الله خلقَ آدمَ من ترابٍ ، ثم جعلَه طيناً ، ثم تركَه حتى إذا كان حمأً مسنوناً ، خلقَه وصوَّره ، ثم تركَه ، حتَّى إذا كان صَلْصَالاً كالفَخَّار » . قال : فكان إبليسُ يمرُّ به ، فيقولُ له : لقد خُلِقتَ لأمرٍ عظيم . ثم نفخَ الله فيه من رُوحه ، فكان أوَّل ما جرى فيه الرُّوح بصرَه وخياشيمَه ، فعطسَ فلقَّاه الله[٣] رحمةَ ربِّه ، فقال الله : يرحمك ربك . ثم قال الله : يا آدم ! اذهبْ إلى هؤلاءِ النَّفَر فانظرْ ماذا يقولونَ ؟ فجاءَ فسلَّمَ عليهم ، فقالوا : وعليكَ السَّلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه . فقال : يا آدمُ ! هذا تحيَّتُك وتحيَّةُ ذريَّتِك . قال : يا ربِّ وما ذريَّتي ؟ قال : اخترْ يدي يا آدمُ ! قال : أختارُ يمينَ ربِّي وكلتا يَدَيْ ربِّي يمين ، وبسط [الله][٤] كفَّه ، فإذا منْ هو كائنٌ من ذريَّته في كفِّ الرحمن ، فإذا رجالٌ منهم أفواهُهم النُّور ، فإذا رجلٌ يَعْجبُ آدمُ من نوره . قال : يا ربِّ ! من هذا ؟ قال : ابنك داود . قال : يا ربِّ ! فكم جعلتَ له من العمر . قال : جعلتُ له ستين . قال : يا ربِّ فأتِمَّ له من عُمري حتى يكونَ له من العمر مئة سنة ، ففعلَ الله ذلك وأشهد على ذلك .

فلما نَفِدَ عمرُ آدم بعثَ الله [إلَيْه][٤] مَلَكَ الموتِ ، فقال آدمُ : أو لم يبقَ من عُمُري أربعون سنة ؟ قال له المَلَك : أو لم تُعْطها ابنكَ داودَ ؟ فجحدَ ذلك ، فجحدتْ ذريَّته ، ونسي فنسيتْ ذريَّتُه[٥] .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، والترمذي[٦] ، والنَّسائي ، في « اليوم والليلة » من حديث صفوان ابن عيسى ، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذُباب ، عن سعيد المَقْبري ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وقال النسائيُّ[٧] : هذا حديث منكر ، وقد رواه محمد بن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُري ، عن أبيه ، عن عبد الله بن سلام قولَه[٨] .

---

(١) في تاريخه ؛ كما في الدر المنثور (١/ ١٢٣) .
(٢) في مسنده ١٤/ حديث (٦٥٧٩) .
(٣) في المسند : حمدَ ربَّه .
(٤) ما بين الحاصرتين أثبته من المسند .
(٥) في إسناده : إسماعيل بن رافع ، ضعيف الحفظ .
(٦) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) في التفسير ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢١٨) .
(٧) انظر عمل اليوم والليلة (ص٢٣٨) .
(٨) المقصود : من قول عبد الله بن سلام ، فهو موقوف ، وقد سقطت كلمة : « قوله » من المطبوع .

وقد رواه أبو حاتم بن حِبّان في « صحيحه » ، فقال[١] : حدَّثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدَّثنا محمَّد بن بشَّار ، حدَّثنا صَفْوانُ بن عيسى ، حدَّثنا الحارثُ بن عبد الرحمن بن أبي ذُباب ، عن سَعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلقَ الله آدمَ ونفخَ فيه الرُّوحَ عطسَ ، فقال : الحمدُ الله ، فحمدَ الله بإذن الله . فقال له ربُّه : يرحمُك ربُّك يا آدم ، اذهبْ إلى أولئكَ الملائكة ، إلى ملأٍ منهم جلوسٌ ، فسلِّم عليهم ، فقال : السَّلام عليكم . فقالوا : وعليكم السَّلام ورحمة الله . ثم رجعَ إلى ربِّه ، فقال : هذه تحيَّتُك وتحيَّةُ بنيكَ بينهم . وقال الله ـ ويداهُ مقبوضتان ـ اخترْ أيهما شئتَ . فقال : اخترتُ يمينَ ربِّي ، وكلتا يديْ ربِّي يمينٌ مباركة . ثمَّ بسطَهما فإذا فيهما آدمُ وذريَّتُه . فقال : أي ربِّ : ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريَّتُك ، وإذا كلُّ إنسان منهم مكتوبٌ عمرُه بين عينيْه ، وإذا فيهم رجل أضْوَؤُهم ـ أو منْ أضْوئِهم ـ لم يُكتبْ له إلا أربعونَ سنة . قال : يا ربِّ ! ما هذا ؟ قال : هذا ابنُك داود ، وقد كتبَ الله داود ، وقد كتبَ الله عمرَه أربعين سنة . قال : أي ربِّ : زدْ في عُمُره . فقال : ذاكَ الذي كُتِبَ له . قال : فإنِّي قد جعلتُ له من عُمُري ستينَ سنة . قال : أنتَ وذاك ، اسكن الجنَّة ، فسكنَ الجنَّة ما شاءَ الله ، ثم أُهبطَ منها .

وكان آدمُ يعدُّ لنفسه ، فأتاه مَلَكُ الموتِ ، فَقالَ له آدمُ : قد عجلتَ قد كتبَ لي ألفَ سنةٍ . قال : بلى ، ولكنَّك جعلتَ لابنكَ داودَ منها ستينَ سنةً ، فجَحَدَ آدمُ فجَحَدَتْ ذرِّيته ، ونسيَ فنسيتْ ذريَّته ، فيومئذ أمر بالكتابِ والشُّهود » هذا لفظه .

وقال الترمذي[٢] : حدَّثنا عبدُ بن حُميد ، حدَّثنا أبو نُعَيْم ، حدَّثنا هشام بن سَعْد ، عن زيد بن أسلمَ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلقَ الله آدمَ مسحَ ظهرَه ، فسقطَ من ظهره كلُّ نَسَمةٍ هو خالقُها من ذريَّته إلى يوم القيامة ، وجعلَ بينَ عينيْ كلِّ إنسانٍ منهم وَبِيْصاً[٣] من نور ، ثم عرضَهم على آدمَ ، فقال : أيْ ربِّ ! منْ هَؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريَّتُك . فرأى رجلاً منهم فأعجبَه وبيصُ ما بينَ عينيْه ، فقال : أي ربّ ! منْ هذا ؟ قال : هذا رجلٌ من آخر الأمم من ذريَّتِكَ ، يقال له : داود . قال : ربِّ وكم جعلتَ عمرَه . قال : ستينَ سنة . قال : أي ربّ زِدْه من عُمري أربعين سنةً . فلما انقضى عمرُ آدمَ جاءَه مَلَكُ الموت . قال : أو لم يبقَ من عُمُري أربعونَ سنة . قال : أو لم تُعْطِها ابنك داود . قال : فجحدَ فجَحَدتْ ذريَّته ، ونسي آدمُ ، فنسيتْ ذريَّته ، وخَطِىءَ آدمُ فَخطئتْ ذريَّتهُ » ثم قال الترمذي : حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

---

(١) الإحسان (٦١٦٧) .

(٢) في جامعه (٣٠٧٦) في التفسير .

(٣) الوبيص : البريق .

ورواه الحاكم في « مستدركه »[١] : من حديث أبي نُعيم الفَضْل بن دُكَيْن ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يُخرِّجاه .

وروى ابن أبي حاتم : من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يَسار ، عن أبي هريرة مرفوعاً . . . فذكرَه ، وفيه : « ثم عرضهم على آدمَ ، فقال : يا آدم هؤلاء ذريَّتُك ، وإذا فيهم الأجْذم والأبْرص والأعمى ، وأنواع الأسقام . فقال آدم : يا ربِّ! لمَ فعلتَ هذا بذريَّتي ؟ قالَ : كيْ تشكرَ نعمتي »[٢] .

ثم ذكرَ قصة داود ، وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً .

وقال الإمام أحمد في « مسنده »[٣] : حدَّثنا الهيثمُ بن خارجة ، حدَّثنا أبو الربيع ، عن يونسَ بن ميسرة ، عن أبي إدريس ، عن أبي الدرداء ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « خلقَ الله آدمَ حين خلقَه ، فضربَ كتفَه اليُمْنى ، فأخرجَ ذريَّةً بيضاءَ كأنَّهم الذرُّ ، وضربَ كتفه اليُسْرى فأخرجَ ذريَّةً سوداءَ كأنَّهم الحُمَمُ[٤] . فقالَ للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أُبالي ، وقال للذي في كَفِّه اليُسْرى : إلى النَّار ولا أُبالي » .

وقال ابن أبي الدنيا[٥] : حدَّثنا خَلفُ بن هشام ، حدَّثنا الحَكم بن سِنَان ، عن حَوْشب ، عن الحسن ، قال : خلقَ الله آدمَ حين خلقَه ، فأخرجَ أهلَ الجنَّة من صَفْحته اليُمنى ، وأخرجَ أهلَ النَّار من صَفْحَته اليُسْرى ، فأُلقُوا على وجه الأرض ، منهم الأعمى والأصمُّ والمبتلى . فقال آدم : يا ربِّ ! ألا سوَّيتَ بينَ ولدي ؟! قال : يا آدم إني أردتُ أنْ أُشكَر .

وهكذا روى عبدُ الرَّزاق : عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، بنحوه .

وقد قال البخاري[٦] : حدَّثنا عبدُ الله بن محمد ، حدَّثنا عبدُ الرزاق ، أخبرنا مَعْمر ، عن هَمَّام بن مُنبِّه ، عن أبي هُريرة ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « خلقَ الله آدمَ وطولُه ستونَ ذراعاً ، ثم قال : اذهبْ فسلِّم على أولئكَ من الملائكة ، واستمعْ ما يجيبونكَ ، فإنها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذريَّتِك . فقال : السَّلام عليكمُ . فقالوا : السلام عليكَ ورحمةُ الله . فزادوه : ورحمةُ الله . فكلُّ منْ يدخلُ الجنَّةَ على صُورة آدمَ ، فلم يزلِ الخلقُ ينقصُ حتَّى الآن » .

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٢٥) .
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في علل الحديث (٢/ ٨٨) .
(٣) المسند (٦/ ٤٤١) . وإسناده ضعيف .
(٤) الحُمَم : جمع الحُمَمة ، وهي الفحم .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا (١٦٢) في كتاب الشكر ، وفي إسناده : الحكم بن سنان الباهلي ، أبو عون البصري . ضعيف . انظر ميزان الاعتدال (١/ ٥٧١) .
(٦) في صحيحه (٣٣٢٦) في الأنبياء .

وهكذا رواه البخاريُّ في كتاب الاستئذان[١] : عن يحيى بن جعفر ، ومسلم : عن محمد بن رافع ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا رَوْح ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمةَ ، عن عليِّ بن زيد ، عن سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هريرة ؛ أن رسولَ الله ﷺ قال : « كانَ طولُ آدمَ ستينَ ذِراعاً في سبع[٣] أذرعٍ عرضاً » . انفردَ به أحمد .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمةَ ، عن عليِّ بن زيد ، عن يُوسف بن مِهْران ، عن ابن عبَّاس ، قال : لما نزلتْ آيةُ الدين قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ أوَّلَ من جحدَ آدمُ ، إنَّ أوَّلَ من جحدَ آدمُ ، إنَّ أوَّلَ من جحدَ آدمُ[٥] ، إنَّ اللهَ لما خلقَ آدمَ ، مسحَ ظهرَه ، فأخرجَ منه ما هو ذاريءٌ[٦] إلى يوم القيامة ، فجعلَ يعرضُ ذُرِّيَّتَه عليه ، فرأى فيهم رجلاً يَزْهرُ[٧] . قال : أي ربِّ ! منْ هذا ؟ قال : هذا ابنُك داود . قال : أي ربِّ ! كم عمرُه ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رب زِدْ في عُمُره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عُمُركَ . وكان عمرُ آدمَ ألفَ عام ، فزادهَ أربعين عاماً . فكتبَ الله عليه بذلك كتاباً ، وأشهدَ عليه الملائكة ، فلما احْتُضِرَ آدمُ أتته الملائكة لِقَبْضِه . قال : إنه قد بقيَ من عُمْري أربعونَ عاماً . فقيل له : إنك قد وهبتَها لابنكَ داود . قال : ما فعلتُ . وأبرزَ الله عليه الكتابَ ، وشهدتْ عليه الملائكة »[٨] .

وقال أحمد[٩] : حدَّثنا أسودُ بن عامر ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة ، عن عليِّ بن زيد ، عن يوسفَ بن مِهْران ، عن ابن عبَّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أوَّلَ منْ جحدَ آدمُ ـ قالها ثلاث مرَّات ـ إنَّ الله عزَّ وجلَّ لما خلقَه مسحَ ظهرَه ، فأخرجَ ذريَّتَه ، فعرضَهم عليه ، فرأى فيهم رجلاً يَزْهرُ ، فقال : أي ربِّ ! زِدْ في عُمُره . قال : لا ، إلا أن تزيدَه أنت من عُمُرك . فزادَه أربعينَ سنةً من عُمُره ، فكتبَ

---

(١) في صحيحه (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٣٥) وفي إسناده : علي بن زيد بن جدعان ؛ ضعيف ، وفي حديثه نكارة .
(٣) في المسند : سبعة .
(٤) في المسند (١/ ٢٥٢) .
(٥) كذا في الأصل ، كررها ثلاثاً وفي المسند : « إن أوَّل من جحدَ آدم عليه السلام ـ أو أول من جحد آدم. . . إلخ » ، فالتكرار ثلاث مرات ليس في حديث عفان ، وإنما في حديث أسود بن عامر الآتي بعده .
(٦) ذاريءٌ : خالق ، من صفات الله عزَّ وجلَّ .
(٧) يَزْهَرُ : يتلألأ ، ويُضيء حسناً .
(٨) وفي إسناده : علي بن زيد بن جدعان ، ويوسف بن مهران ، ضعيفان . وحديث ابن حبان (٦١٦٧) المتقدم شاهد قوي يعضده ويُقوِّيه .
(٩) في المسند (١/ ٢٩٩) .

الله تعالى عليه كتاباً ، وأشهدَ عليه الملائكةَ ، فلما أراد أن يقبضَ روحَه ، قال : إنَّه بقيَ من أجلي أربعونَ سنةً ، فقيل له : إنَّك قد جعلتَها لابنكَ داود . قال : فجحدَ . قال : فأخرجَ الله الكتابَ وأقامَ عليه البيِّنة ، فأتمَّها لداودَ مئة سنةٍ ، وأتم لآدمَ عمرَه ألفَ سنةٍ » . تفرد به أحمد وعلي بن زيد في حديثه نكارة[١] .

ورواه الطبراني[٢] : عن علي بن عبد العزيز ، عن حجَّاج بن مِنْهال ، عن حمَّاد بن سلمةَ ، عن عليِّ بن ز يد ، عن يوسفَ بن مِهْران ، عن ابن عبَّاس . وغير واحد : عن الحسن ، قال : لما نزلتْ آيةُ الدَّيْن قالَ رسولُ الله ﷺ : « إنَّ أوَّلَ من جحدَ آدم » ثلاثاً . وذكرَه .

وقال الإمام مالك بن أنس في « موطئه » : عن زيد بن أبي أُنَيْسَةَ ، أن[٣] عبدَ الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطَّاب أخبرَه ، عن مسلم بن يَسارَ الجهني : أن عمرَ بن الخطَّاب سُئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . الآية . فقال عمرُ بن الخطَّاب : سمعتُ رسول الله ﷺ سُئل عنها ، فقال : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ عليه السلام ، ثمَّ مسحَ ظهرَه بيمينه ، فاستخرجَ منه ذريَّةً . قال : خلقتُ هؤلاء للجنَّة ، وبعملِ أهلِ الجنَّةِ يعملونَ ، ثم مسحَ ظهرَه فاستخرجَ منه ذريَّةً . قال : خلقتُ هؤلاء للنَّار وبعملِ أهل النَّار يعملون » . فقال رجلٌ : يا رسول الله ! ففيمَ العملُ ؟ قال رسولُ الله ﷺ : « إذا خلقَ الله العبدَ للجنَّة استعمَله بعمل أهل الجنَّة ، حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنَّة . وإذا خلقَ الله العبدَ للنَّار استعملَه بعملِ أهلِ النَّار حتَّى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النَّار فيدخل به النَّار »[٤] .

وهكذا رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذيُّ ، والنَّسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو حاتم بن حِبَّان في صحيحه ، من طرق عن الإمام مالك[٥] ، به . وقال الترمذيُّ : هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة .

وقد رواه أبو داود[٦] عن محمَّد بن مُصفَّى ، عن بقية ، عن عمر بن جُعْثُم ، عن زيد بن أبي أُنَيْسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يَسار ، عن نعيم بن ربيعة ، قال :

---

(١) وهو ضعيف، ويوسف بن مهران ؛ ليِّن . وبهامش المسند : حسن لغيره ، دون قوله : « فأتمها لداود مئة سنة ، وأتمَّ لآدم عمره ألف سنة » .

(٢) في الكبير (١٢٩٢٨) وذكره البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٤٦) والطيالسي في المسند (ص٣٥٠) والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١١٧) وفي إسناده عدة من الضعفاء .

(٣) في الموطأ : (٢/ ٨٩٨) عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ؛ أنه أخبره عن مسلم بن يسار .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٤ـ٤٥) وأبو داود (٤٧٠٣) في السنة ، والترمذي (٣٠٧٥) في التفسير ، والنسائي في تفسيره (٢١٠)، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٣) وفي تاريخه (١/ ١٣٥) وابن حبان في صحيحه (٦١٦٦) في الإحسان.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٧٠٤) في السنة .

كنتُ عند عمر بن الخطاب وقد سُئل عن هذه الآية . . فذكر الحديث .

قال الحافظ الدارقطني[١] : وقد تابعَ عمر بن جُعْثُم أبو فروة يزيد بن سنان الرهاوي ، عن زيد بن أبي أُنيسة ، قال : وقولُهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله[٢] .

وهذه الأحاديث كلُّها دالَّة على استخراجه تعالى ذريَّة آدمَ من ظهره كالذَّرِّ ، وقسمتهم قسمين : أهل اليمين وأهل الشمال ، وقال : هؤلاء للجنَّة ولا أُبالي ، وهؤلاء للنَّار ولا أُبالي .

فأما الإشهادُ عليهم واستنطاقُهم بالإقرار بالوحدانية ، فلم يجىء في الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملُها على هذا فيه نظرٌ كما بيَّناه[٣] هناك . وذكرنا الأحاديثَ والآثار مستقصاةً بأسانيدها وألفاظ متونها . فمن أراد تحريره فليراجعه ثمَّ ، والله أعلم .

فأما الحديثُ الذي رواه أحمدُ[٤] : حدَّثنا حُسَيْنُ بن محمَّد ، حدَّثنا جريرٌ ـ يعني ابن حازم ـ عن كُلثوم بن جَبْر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عبَّاس ، عن النبيِّ ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاقَ من ظهرِ آدمَ عليه السلام بنُعْمان يوم عرفة ، فأخرجَ من صُلْبه كلَّ ذريَّةٍ ذرأها ، فنثرَها بين يديْه ، ثم كَلَّمَهُم قُبُلاً ، قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣] » فهو بإسناد جيد قويّ على شرط مسلم .

رواه النَّسائي ، وابن جرير ، والحاكم في « مستدركه »[٥] من حديث حُسين بن محمد المروزي ، به ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يُخرِّجاه ، إلا أنه اختلف فيه على كُلثوم بن جَبْر ، فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً . وهكذا رُوي عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس موقوفاً[٦] . وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحَّاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله . وهذا أكثرُ وأثبتُ ، والله أعلم . وهكذا رُوي عن عبد الله بن عمر[٧] موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصحُّ[٨] .

---

(١) انظر العلل ؛ للدارقطني (٢/ ٢٢٢) .
(٢) قال ابن عبد البر في التمهيد بعد أن ساق حديث مسلم بن يسار عن عمر المنقطع، وبيّن أن بينهما دحيم بن ربيعة: « وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا تقوم به حجة، ومسلم بن يسار هذا مجهول، وقيل: إنه مدني، وليس بمسلم بن يسار البصري » ثم قال: « زيادة من زاد في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة، لأن الذي لم يذكره أحفظ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن » (التمهيد ٦/ ٣ـ ٦) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٩ـ٣٣١) .
(٤) خرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٢) مرفوعاً ، ورجَّح الحافظ ابن كثير بعد قليل وقفه .
(٥) أخرجه النسائي (١١١٩١) في الكبرى ، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٠ ـ ١١١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٤) .
(٦) في أ : مرفوعاً .
(٧) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١) .
(٨) قال النسائي عن الحديث المرفوع : ليس بالمحفوظ .

واستأنسَ القائلون بهذا القول ، وهو أخذُ الميثاق على الذريَّة ، وهم الجمهور ، بما قال الإمام أحمد[١] : حدَّثنا حجَّاج ، حدَّثني شعبةُ ، عن أبي عمران الجَوْني ، عن أنس بن مالك ، عن النبيِّ ﷺ قال : « يُقالُ للرجل من أهل النَّار يومَ القيامة : لو كان لك ما على الأرضِ من شيءٍ أكنتَ مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم . فيقولُ : قد أردتُ منكَ ما هو أهونُ من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً ، فأبيتَ إلا أن تُشركَ بي » .

أخرجاه من حديث شعبة[٢] ، به .

وقال أبو جعفر الرازيّ : عن الربيع[٣] بن أنس ، عن أبي[٤] العالية ، عن أُبيِّ بن كَعْب ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآية والتي بعدها . قال : فجمَعهم له يومئذٍ جميعاً ما هو كائنٌ منه إلى يوم القيامة ، فخلقهم ثم صوَّرَهم ، ثم استنطقَهم ، فتكلَّمُوا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآية . قال : فإنِّي أشهدُ عليكم السمواتِ السبع والأرضين السبع ، وأُشهد عليكم أباكم ألا تقولوا يومَ القيامة : لم نعلمْ بهذا، اعلموا أنه لا إلَهَ غيري ، ولا ربَّ غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإنِّي سأرسلُ إليكم رسلاً يُنذرونَكم عَهْدي وميثاقي ، وأُنزلُ عليكم كتابي . قالوا : نشهدُ أنَّكَ ربُّنا وإلَهنا ، لا ربَّ لنا غيركَ ، ولا إلَه لنا غيرك ، فأقروا له يومئذٍ بالطَّاعة . ورفعَ أباهم آدم فنظرَ إليهم ، فرأى فيهم : الغنيَّ والفقيرَ ، وحَسَنَ الصورة ودون ذلك . فقال : يا ربِّ لو سوَّيتَ بين عبادكَ ؟ فقال : إنِّي أحببتُ أن أشكرَ . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج ، عليهم النُّور ، وخُصُّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] . وهـو الذي يقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] وفي ذلك قال : ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم : ٥٦] وفي ذلك قال : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] » . رواه الأئمة : عبد الله بن أحمد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، في تفاسيرهم ، من طريق أبي جعفر[٥] .

ورُوي : عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبير ، والحسن البَصْري ، وقتادة ، والسُّدِّي ، وغير

---

(١) في مسنده (٣/ ١٢٧ ، ١٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣٤) في الأنبياء ، ومسلم (٢٨٠٥) في صفات المنافقين .

(٣) في « ب » والمطبوع : عن أبي الربيع عن أنس .

(٤) في « ب » والمطبوع : العالية .

(٥) أي من طريق الرازي ، وقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١١٥) وذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٣١) . والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٠٠) .

واحد من علماء السلف ، بسياقات تُوافق هذه الأحاديث ، وتقدَّم أنه تعالى لما أمرَ الملائكةَ بالسجود لآدمَ امتثلوا كلُّهم الأمرَ الإلّهي ، وامتنعَ إبليس من السجود[١] حسداً وعداوة له ، فطردَه الله وأبعدَه وأخرجَه من الحضرة الإلهية ، ونفاه عنها ، وأهبطَه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .

وقد قال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا وكيع ويعلى ومحمد ابنا عُبيد ، قالوا : حدَّثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة فسجدَ ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي ، يقول : يا ويله ، أُمرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجدَ ، فله الجنَّة ، وأُمرتُ بالسجود ، فعصيت ، فلي النَّار » . ورواه مسلم[٣] : من حديث وكيع وأبي معاوية ، عن الأعمش ، به .

ثم لما أُسكن آدم الجنة التي أُسكنها ، سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدَّم من الخلاف فيه ، أقام بها هو وزوجتُه حوَّاء عليهما السلام يأكلان منها رغداً[٤] حيث شاءا ، فلما أكلا من الشجرة التي نُهيا عنها، سُلبا ما كانا فيه من اللِّباس ، وأُهبطا إلى الأرض ، وقد ذكرنا الاختلافَ في مواضع هبوطه منها.

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنَّة ، فقيل : بعضُ يوم من أيام الدنيا ، وقد قدَّمنا ما رواه مسلم : عن أبي هريرة مرفوعاً « وخُلِقَ آدمُ في آخر ساعةٍ من ساعاتِ يوم الجمعة »[٥] وتقدَّم أيضاً حديثه عنه وفيه ـ يعني[٦] : يوم الجمعة ـ خلق آدم ، وفيه أُخرج منها[٧] . فإن كان اليومُ الذي خُلِقَ فيه أُخرجَ ، وقلنا إنَّ الأيام الستة كهذه الأيام ، فقد لبثَ بعضَ يوم من هذه ، وفي هذا نظر . وإن كان إخراجُه في غير اليوم الذي خُلِقَ فيه ، أو قلنا بأنَّ تلك الأيام مقدارُها ستة آلاف سنة ، كما تقدَّم عن ابن عباس ومجاهد والضحَّاك ، واختاره ابن جرير ، فقد لبثَ هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير[٨] : ومعلومٌ أنه خُلِقَ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فمكث مصوَّراً طيناً قبل أن يُنفخ فيه الروح أربعين سنة ، وأقام في الجنَّة قبلَ أن يهبطَ ثلاثاً وأربعينَ سنة وأربعة أشهر . والله تعالى أعلم .

---

(١) في المطبوع : من السجود له .
(٢) في المسند (٢/ ٤٤٣) .
(٣) في صحيحه (٨١) في الإيمان .
(٤) رغداً : طيِّباً .
(٥) تقدم الحديث وتخريجه (ص١٢٥) .
(٦) في الأصل : معين .
(٧) تقدم الحديث وتخريجه (ص١٢٥) .
(٨) في تاريخه (١/ ١٢٣) .

وقد روى عبد الرزاق : عن هشام بن حسَّان ، عن سوَّار ، خَبر عطاءَ بن أبي رباح : أنه كان لما أُهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، فحطَّه الله إلى ستين ذراعاً . وقد رُوي عن ابن عباس نحوه[١] .

وفي هذا نظر لما تقدَّم من الحديث المتفق على صحته : عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله خلقَ آدمَ وطولُه ستونَ ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقصُ حتى الآن » . وهذا يقتضي أنه خُلِقَ كذلك لا أطول من ستين ذراعاً ، وأنَّ ذرِّيته لم يزالوا يتناقصُ خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير[٢] : عن ابن عبَّاس : إن الله قال : يا آدم ! إنَّ لي حَرَماً بحيال عرشي ، فانطلقْ فابن لي فيه بيتاً ، فطُفْ به كما تطوفُ ملائكتي بعرشي . وأرسلَ الله له مَلَكاً فعرَّفه وعلَّمه المناسك . وذكرَ أنَّ موضعَ كلِّ خطوة خطاها آدم صارت قريةً بعد ذلك .

وعنه[٣] : أنَّ أوَّل طعام أكلَه آدمُ في الأرض ، أنْ جاءَه جبريلُ بسبع حبَّات من حِنْطةٍ ، فقال : ما هذا ؟ قال : هذا من الشجرة التي نُهيتَ عنها فأكلتَ منها . فقال : وما أصنعُ بهذا ؟ قال : ابذرْه في الأرض ، فبذرَه ، وكان كلُّ حبَّةٍ ، منها زِنتُها أزيدُ من مئة ألف ، فنبتتْ ، فحصدَه ، ثم درسَه ، ثم ذرَّاه ، ثم طحنَه ، ثم عجنَه ، ثم خبزَه فأكلَه بعد جَهْد عظيم وتَعَبٍ ونَكَد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن ، جزَّاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبة ، ولِحَوَّاءَ درعاً وخماراً .

واختلفوا : هل وُلد لهما بالجنَّة شيءٌ من الأولاد ، فقيل : لم يُولد لهما إلا في الأرض . وقيل : بل وُلد لهما فيها ، فكان قابيلُ وأختُه ممن وُلد بها ، فالله أعلم .

وذكروا أنه كان يُولد له في كلِّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى ، وأُمِرَ أنْ يُزوِّجَ كلَّ ابنٍ أختَ أخيه التي وُلدت معه والآخر بالأخرى وهلمَّ جرّاً ، ولم يكن تحلُّ أختٌ لأخيها الذي وُلدت معه .

ذكر
قصَّةِ ابنيْ آدمَ قابيل وهَابيل

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٣٦) .
(٢) في التفسير (١٧/ ١٤٢) .
(٣) في تاريخه (١/ ١٢٨) .

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ ـ ٣١] . قد تكلَّمنا على هذه القصَّة في سورة المائدة في التفسير[١] بما فيه كفاية ، ولله الحمد .

ولنذكر هاهنا ملخص ما ذكرَه أئمةُ السَّلف في ذلك .

فذكرَ السُّدِّي : عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عبَّاس . وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناسٍ من الصحابة : أنَّ آدم كان يُزوِّجُ ذكرَ كلِّ بطنٍ بأنثى الآخر ، وأنَّ هابيلَ أراد أن يتزوَّجَ بأخت قابيل ، وكان أكبرَ من هابيل ، وأختُ هابيل أحسنُ ، فأراد هابيلُ أنْ يستأثرَ بها على أخيه ، وأمرَه آدمُ عليه السلام أن يزوِّجه إيَّاها فأبَى ، فأمرَهما أن يُقرِّبا قرباناً ، وذهبَ آدمُ ليحجَّ إلى مكَّة ، واستحفظ السموات على بنيه فأبينَ ، والأرضين والجبال فأبينَ ، فتقبَّل قابيلُ بحفظ ذلك . فلما ذهبَ قرَّبا قربانَهما ، فقرَّبَ هابيلُ جَذْعةً سمينة ، وكان صاحبَ غنم ، وقرَّبَ قابيلُ حزمةً من زَرْعٍ ، من رديء زَرْعه ، فنزلت نارٌ فأكلتْ قربانَ هابيل ، وتركتْ قربانَ قابيل ، فغضبَ وقالَ : لأقتلنَّكَ حتى لا تنكحَ أختي . فقال : إنما يتقبَّلُ الله من المتقين[٢] .

ورُوي عن ابن عباس من وجوه أُخر ، وعن عبد الله بن عمرو ، وقال عبد الله بن عمرو : وايم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين ، ولكن منعَه التحرُّج أن يبسطَ إليه يدَهُ[٣] .

وذكر أبو جعفر الباقر : أنَّ آدمَ كان مباشراً لتقرُّبهما القربانَ والتَّقبُّل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم : إنما تَقبَّلَ منه لأنَّكَ دعوتَ له ولم تدعُ لي ، وتوعَّد أخاه فيما بينَه وبينَه ، فلما كان ذات ليلةٍ أبطأ هابيلُ في الرعي ، فبعثَ آدمُ أخاه قابيلَ لينظرَ ما أبطأ به ، فلما ذهبَ إذا هو به ، فقال له : تقبَّل منكَ ولم يتقبلْ منِّي . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ، فغضبَ قابيلُ عندَها وضربَه بحديدةٍ كانت معه ، فقتلَه . وقيل : إنه إنما قتلَه بصخرة رماها على رأسِه وهو نائمٌ فشدختهُ[٤] . وقيل : بل خنقَه خنقاً شديداً وعضّاً كما تفعلُ السِّباعُ فمات[٥] . والله أعلم .

وقوله له لما توعَّده بالقتل : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] دلَّ على خُلُقٍ حَسَن ، وخَوفٍ من الله تعالى وخشية منه ، وتورُّعٍ أن يُقابلَ أخاه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥ ـ ٦٠) .
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٤/ ٥٢٥) وابن كثير في التفسير (٢/ ٥٥) .
(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٤/ ٥٣٢) وابن كثير في التفسير (٢/ ٥٦) .
(٤) « فشدخته » : كسرته وشقَّته .
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ؛ كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦) .

بالسوء الذي أراد منه أخوه مثلَه ، ولهذا ثبتَ في الصحيحين[١] : عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النّار » . قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتلُ فما بالُ المقتول ؟ قال : « إنَّه كانَ حريصاً على قتلِ صاحبه » .

وقوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٩] أي : إني أُريدُ تركَ مقاتلتكَ ، وإنْ كنتُ أشدَّ منكَ وأقوى ، وإذ قد عزمتَ على ما عزمتَ عليه أن تبوءَ بإثمي وإثمكَ ، أي : تتحمَّلُ إثمَ قتلي مع مالكَ من الآثام المتقدِّمة قبل ذلك . قاله مجاهد ، والسُّدِّي ، وابن جرير ، وغيرُ واحد .

وليس المرادُ أنَّ آثام المقتول تتحوَّل بمجرد قتلهِ إلى القاتل ، كما قد توهَّمه بعضُ الناس ، فإنَّ ابنَ جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذي يُورده بعضُ من لا يعلم ، عن النبيِّ أنه قال : « ما تركَ القاتلُ على المقتول من ذنبٍ » فلا أصلَ له ولا يُعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً[٢] . ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يومَ القيامة أن[٣] يُطالب المقتولُ القاتلَ ، فتكونُ حسناتُ القاتل لا تفي بهذه المظلمة ، فتُحوَّلُ من سيِّئات المقتول إلى القاتل ، كما ثبتَ به الحديث الصحيح في سائر المظالم ، والقتل من أعظمها ، والله أعلم . وقد حرَّرنا هذا كله في التفسير[٤] ولله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي[٥] : عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشهدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة القاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائمُ خيرٌ من الماشي ، والماشي خيرٌ من الساعي » قال : أفرأيتَ إن دخل عليّ بيتي فبسطَ يدَه إليَّ ليقتلني ؟ قال : كن كابن آدم .

ورواه ابن مردويه : عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وقال : « كن كخير ابني آدم »[٦] .

---

(١) البخاري (٦٨٧٥) في الديات ، ومسلم (٢٨٨٨) في الفتن .

(٢) وانظره في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٨) والمقاصد الحسنة (٩٥٠) والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (٧٧٩) .

(٣) سقطت من الأصل ، وأثبتها من المطبوع .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٦٩ و١٨٥) وأبو داود (٤٢٥٧) في الفتن والملاحم ، والترمذي (٢١٩٤) في الفتن .

(٦) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٣/ ٥٩) وانظره بتمامه في تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨) .

وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي : عن أبي ذرٍّ نحو هذا[١] .

وأما الآخر ، فقد قال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : حدَّثنا الأعمشُ ، عن عبد الله بن مرّة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُقتلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ[٣] من دمها ، لأنه كان أول منْ سنَّ القتلَ » .

ورواه الجماعة سوى أبي داود[٤] : من حديث الأعمش به .

وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وإبراهيم النخعي ، أنهما قالا مثل هذا سواء .

[وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارةٌ يقال لها : مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قَتَلَ قابيلُ أخاه هابيلَ عندها ، وذلك مما تَلَقَّوه من أهل الكتاب ، فالله أعلمُ بصحة ذلك .

وقد ذكر الحافظُ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير ـ وقال : إنه كان من الصالحين ـ أنه رأى النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمرَ وهابيلَ ، وأنَّه استحلفَ هابيلَ أنَّ هذا دمه ، فحلفَ له ، وذكرَ أنَّه سألَ الله تعالى أن يجعلَ هذا المكان يُستجابُ عنده الدعاء ، فأجابَه إلى ذلك ، وصدَّقه في ذلك رسولُ الله ﷺ ، وقال : إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس[٥] . وهذا منامٌ لو صحَّ عن أحمد بن كثير هذا لم يترتبْ عليه حكمٌ شرعيٌّ ، والله أعلم][٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١] ذكرَ بعضُهم أنه لما قتلَه حملَه على ظهره سنةً . وقال آخرون : حملَه مئة سنة ، ولم يزل كذلك حتى بعثَ الله غرابين ـ قال السُّدِّي[٧] بإسناده عن الصحابة ـ أخوين ، فتقاتلا ، فقتلَ أحدهُما الآخرَ ، فلما قتلَه عَمدَ إلى الأرض يحفرُ له فيها ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦١ و٤٤٠٩) في الفتن والملاحم ، وابن ماجه (٣٩٥٨) وفي تحفة الأشراف (٩/ ١٧٣) : لم يعزه المزي إلا إلى أبي داود وابن ماجه . وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٥٧) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٣ و٤٣٠ و٤٣٣) وبهامش الحديث رقم (٣٦٣٠) : إسناده صحيح على شرط الشيخين [طبعة مؤسسة الرسالة] .

(٣) كِفْلٌ : نصيب .

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣٥) في الأنبياء ، ومسلم (١٦٧٧) (٢٧) في القسامة ، والترمذي (٢٦٧٣) في العلم ، والنسائي في الكبرى (١١١٤٢) وابن ماجه (٢٦١٦) في الديات .

(٥) انظر مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣/ ٢١٨) .

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من ب .

(٧) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤/ ٥٣٨) وذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٦٠) .

ثم ألقاه ودفنَه وواراه ، فلما رآه يصنعُ ذلك ، قال : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة : ٣١] . ففعلَ مثلَ ما فعلَ الغرابُ ، فواراه ودفنَه .

وذكر أهلُ التواريخ والسِّير ؛ أنَّ آدمَ حَزِنَ على ابنه هابيل حزناً شديداً ، وأنَّه قال في ذلك شعراً ، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير(١) ، عن ابن حميد : [من الوافر]

تَغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ
تغيَّرَ كلُّ ذي لَوْنٍ وطَعْمٍ ... وقلَّ بشاشةُ الوَجهِ المليحِ

فأُجيب آدم : [من الوافر]

أبا هابيلَ قدْ قُتلا جميعاً ... وصارَ الحيُّ كالميْتِ الذَّبيحِ
وجاءَ بشرَّةٍ قدْ كان منْها ... على خَوْفٍ ، فجاءَ بها يصيحُ

وهذا الشعرُ فيه نظر ، وقد يكونُ آدمُ عليه السلام قال كلاماً يتحزَّن به بلغتِه ، فألَّفه بعضُهم إلى هذا ، وفيه أقوال ، والله أعلم .

وقد ذكر مجاهدٌ : أنَّ قابيلَ عُوجل بالعقوبة يومَ قتلَ أخاه ، فعلقتْ ساقُه إلى فخذه ، وجُعِلَ وجهُه إلى الشمس كيفما دارتْ تنكيلاً به ، وتعجيلاً لذنبه وبغيهِ وحسده لأخيه لأبويه(٢) .

وقد جاء في الحديث : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما منْ ذَنْبٍ أجدر أن يُعجِّلَ الله عقوبتَه في الدنيا مع ما يدَّخرُ لصاحبه في الآخرة من البَغْي وقطيعةِ الرحم »(٣) .

والذي رأيتُه في الكتابِ الذي بأيدي أهلِ الكتاب ، الذين يزعمونَ أنه التوراة ، أنَّ الله عزَّ وجلَّ أجَّله وأنظرَه ، وأنَّه سكنَ في أرض « نَوْد » في شرق عَدن ، وهم يُسمُّونه « قنين » وأنه ولد له « خنوخ » ولخنوخ « عندر » ولعندر « محوايل » ولمحوايل « متوشيل » ولمتوشيل « لامك » وتزوَّجَ هذا امرأتين « عذا » « وصلا » فولدت عذا ولداً اسمه « إبل » وهو أوَّلُ من سكنَ القِباب واقتنى المالَ ، وولدت أيضاً « نويل » وهو أوَّل من أخذَ في ضَرْبِ الوَنج والصَّنَج(٤) . وولدت صلا ولداً اسمه « شوبلتين » وهو أوَّلُ من صنعَ النحاس والحديد ، وبنتاً اسمها « نعمى » .

---

(١) في التفسير (٤/ ٥٣٠ـ٥٣١) وفي التاريخ (١/ ١٤٥) . وفي التفسير : فلونُ الأرض .
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤/ ٥٢٨) .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٦ و٣٨) وأبو داود (٤٩٠٢) في الأدب ، والترمذي (٢٥١١) في صفة القيامة ، وابن ماجه (٤٢١١) في الزهد ، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٢) وابن حبان في صحيحه (٤٥٥) الإحسان ، كلهم عن أبي بكرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : صحيح .
(٤) الوَنْج : ضرب من الأوتار أو العود أو المعزف . والصَّنجُ : شيء يتخذ من صُفْر (نحاس) يُضرب أحدهما على الآخر .

وفيها[١] أيضاً أن آدم طافَ على امرأته فولدتْ غلاماً ، ودعت اسمه « شيث » وقالت : من أجل أنه قد وهبَ لي خَلْفاً من هابيل الذي قتلَه قابيل ، ووُلد لشيث « أنوش » .

قالوا : وكان عمرُ آدم يوم وُلد له شيث مئة وثلاثين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمئة سنة ، وكان عمرُ شيث يومَ ولد له أنوش مئة وخمساً وستين وعاش بعد ذلك ثمانمئة سنة وسبع سنين ، ووُلد له بنون وبنات غير أنوش .

فولد لأنوش « قَيْنان » وله من العمر تسعون سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمئة سنة وخمس عشرة سنة ، ووُلد له بنون وبنات .

فلما كان عمر قَيْنان سبعين سنة ولد له « مهلاييل » وعاش بعد ذلك ثمانمئة سنة وأربعين سنة ، وولد له بنون وبنات .

فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وسبعون[٢] سنة ولد له « يرد » وعاشَ بعد ذلك ثمانمئة وثلاثين سنة ، ووُلد له بنون وبنات .

فلما كان ليرد مئة سنة واثنتان وستون سنة ولد له « خنوخ » وعاش بعد ذلك ثمانمئة سنة ، وولد له بنون وبنات .

فلما كان لخنوخ خمس وسبعون[٣] سنةً ولد له « متوشلح » وعاش بعد ذلك ثلاثمئة[٤] سنة ، ووُلد له بنون وبنات .

فلما كان لِمُتَوَشْلِخ مئة وسبع وثمانون سنة ولد له « لامك » وعاش بعد ذلك سبعمئة واثنتين وثمانين سنة ، وولد له بنون وبنات .

فلما كان للامك من العمر مئة واثنتان وثمانون سنة ولد له « نوح » وعاش بعد ذلك خمسمئة وخمساً وتسعين سنة ، وولد له بنونَ وبنات ، فلما كان لنوحٍ خمسمئة سنة ، وُلد له بنوه « سام » و« حام » و« يافث » .

هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً[٥] .

(١) أي : في التوراة .
(٢) في المطبوع خمس وستون .
(٣) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : خمس وستون .
(٤) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : ثمانمئة .
(٥) انظر قريباً من هذا النص المنقول من التوراة في سفر التكوين ـ الإصحاح الخامس ـ .

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزلَ من السماء نظرٌ كما ذكرَه غيرُ واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك ، والظاهر أنها مقحمة فيها ، ذكرَها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير ، وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إنْ شاء الله تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في « تاريخه » عن بعضهم[1] : أنَّ حواءَ ولدت لآدم أربعينَ ولداً في عشرين بطناً ، قاله ابن إسحاق ، وسمَّاهم ، والله تعالى أعلم . وقيل : مئة وعشرين بطناً ، في كلِّ واحدٍ ذكرٌ وأنثى . أولهم « قابيل » وأخته « قليما » وآخرهم « عبد المغيث » وأخته « أم المغيث » . ثم انتشرَ النَّاسُ بعد ذلك وكثروا ، وامتدُّوا في الأرض ونموا ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] الآية .

وقد ذكرَ أهلُ التاريخ أنَّ آدمَ عليه السلام لم يمتْ حتَّى رأى من ذرِّيتهِ من أولاده وأولاد أولاده أربعمئة ألف نسمة ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ـ ١٩٠] . الآيات فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ، ثم استطرد إلى الجنس ، وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء ، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ومعلوم أن رجومَ الشياطين ليست هي أعيانُ مصابيح السماء ، وإنما استطردَ من شخصها إلى جنسها .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[2] : حدَّثنا عبد الصمد ، حدَّثنا عمر بن إبراهيم ، حدَّثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرةَ ، عن النبي ﷺ ، قال : « لما ولدت حوَّاءُ طافَ بها إبليسُ ، وكان لا يعيشُ لها ولد ، فقال : سمِّيه عبدَ الحارث فإنَّه يعيشُ ، فسمَّته عبدَ الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » . وهكذا رواه الترمذي[3] ، وابن جرير[4] ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه[5] في تفاسيرهم عند هذه الآية . وأخرجه الحاكم[6] في مستدركه ، كلُّهم من حديث

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٤٠) .
(٢) في المسند (٥/ ١١) .
(٣) في جامعه (٣٠٧٧) في التفسير .
(٤) في تفسيره (٦/ ١٤٣) .
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه ، كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٣) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) .

عبد الصمد بن عبد الوارث ، به ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه .

وقال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه[١] .

فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه[٢] ، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا رُوي موقوفاً على ابن عباس . والظاهر أن هذا مُتلقًّى عن كعب الأحبار ودوّنه ، والله أعلم . وقد فسَّر الحسنُ البصريُّ هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سَمُرة مرفوعاً لما عدلَ عنه إلى غيره ، والله أعلم . وأيضاً فالله تعالى إنما خلقَ آدم و حوَّاء ليكونا أصلَ البشر ، وليبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، فكيف كانت حوَّاء لا يعيشُ لها ولد كما ذُكرَ في هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟! والمظنون بل المقطوع به أن رفعَه إلى النبي ﷺ خطأ ، والصوابُ وقفه ، والله أعلم . وقد حرَّرنا هذا في كتابنا التفسير[٣] ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا ، فإنَّ آدمَ أبو البشر الذي خلقَه الله بيده ونفخَ فيه من روحه ، وأسجدَ له ملائكته ، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء ، وأسكنَه جنَّته .

وقد روى ابنُ حبَّان في صحيحه : عن أبي ذر ، قال : قلت يا رسول الله! كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت : يا رسول الله ! كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمئة وثلاثة عشر جمٌّ غفير » . قلت : يا رسول الله ! من كان أوَّلهم ؟ قال : آدم . قلت : يا رسول الله ! نبي مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه الله بيده ، ثم نفخَ فيه من رُوحه ، ثم سوَّاه قُبُلاً »[٤] .

وقال الطبراني[٥] : حدَّثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدَّثنا شيبان بن فرُّوخ ، حدَّثنا نافع أبو هرمز ، عن عطاء بن أبي رَباح ، عن ابن عبَّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضلِ الملائكةِ جبريل ، وأفضلِ النبيِّين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور شهر رمضان ، وأفضل اللَّيالي ليلة القدر ، وأفضلُ النِّساء مريمُ بنت عمران »[٦] . وهذا إسنادٌ ضعيفٌ ، فإنَّ نافعاً أبا هرمز

---

(١) انظر جامع الترمذي (٥/ ٢٦٨) .

(٢) وهذا هو الصواب؛ فالموقوف علة للمرفوع، وليس كما شاع عند المتأخرين، واقتصار الترمذي على تحسينه يعني أنه عنده معلول، وهو معلول هنا بالوقف، وهذا من عمر بن إبراهيم فإنه ضعيف في قتادة خاصة مع صدقه عموماً. ثم إن الحسن لم يسمع كل ما رواه عن سمرة كما قرره الإمام الذهبي .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥) .

(٤) رواه ابن حبان (٣٦١) وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨) من حديث أبي ذر ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده .

(٥) في الكبير (١١٣٦١) .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٣٦١) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٤٠) فيه نافع أبو هرمز ، وهو ضعيف وقال أيضاً (٨/ ١٩٨) : فيه نافع أبو هرمز ؟ ؛ وهو متروك .

هذا كذَّبه ابن مَعين ، وضعَّفه أحمد ، وأبو زُرْعة ، وأبو حاتم ، وابن حبان وغيرهم[١] ، والله أعلم .

وقال كعب الأحبار : ليس أحدٌ في الجنَّة له لحيةٌ إلا آدم ، لحيتُه سوداء إلى سُرَّته ، وليس أحدٌ يكتني في الجنَّة إلا آدم ، كنيتُه في الدنيا أبو البشر وفي الجنَّة أبو محمد .

وقد روى ابنُ عديّ : من طريق شيخ[٢] بن أبي خالد ، عن حمَّاد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله ، مرفوعاً « أهلُ الجنَّةِ يُدعونَ بأسمائهم إلا آدم ، فإنه يُكنَّى أبا محمد »[٣] . ورواه ابن عديّ[٤] أيضاً : من حديث علي بن أبي طالب ، وهو ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ ، والله أعلم .

وفيه حديث الإسراء الذي في الصحيحين : أنَّ رسولَ الله ﷺ لما مرَّ بآدمَ وهو في السماء الدنيا ، قال له : « مرحباً بالابن الصالح ، قال : وإذا عن يمينه أسْودةٌ وعن يساره أسودة ، فإذا نظرَ عن يمينه ضحكَ ، وإذا نظرَ عن شمالِه بكى ، فقلت : يا جبريل ! ما هذا ؟ قال : هذا آدمُ وهؤلاء نسم بنيه ، فإذا نظرَ قِبَلَ أهل اليمين وهم أهلُ الجنَّة ضحكَ ، وإذا نظرَ قِبَلَ أهلِ الشمالِ وهم أهل النار بكى »[٥] هذا معنى الحديث .

وقال أبو بكر البزار : حدَّثنا محمد بن المثنى ، حدَّثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام بن حسان ، عن الحسن ، قال : كانَ عقلُ آدمَ مثلَ عَقْل جميعِ ولدِه[٦] .

وقال بعض العلماء : في قوله ﷺ : « فمررتُ بيوسفَ ، وإذا هو قد أُعطي شَطْرَ الحُسْنِ » . قالوا : معناه أنه كان على النِّصْفِ من حُسْن آدمَ عليه السلام . وهذا مناسب ، فإنَّ اللهَ خلقَ آدمَ وصوَّره بيده الكريمة ونفخَ فيه من رُوحه ، فما كان ليخلُقَ إلا أحسنَ الأشباه .

وقد روينا : عن عبد الله بن عمرو ، وابن عمر أيضاً ، موقوفاً ومرفوعاً : « إنَّ الله تعالى لما خلقَ الجنَّة ، قالت الملائكة : يا ربَّنا اجعلْ لنا هذه فإنَّكَ خلقتَ لبني آدمَ الدنيا يأكلون فيها ويشربونَ . فقالَ الله تعالى : وعزَّتي وجَلالي لا أجعلُ صالحَ ذريَّةِ منْ خلقتُ بيدي كمن قلتُ له كن فكان »[٧] .

وقد وردَ الحديثُ المرويُّ في الصحيحين وغيرهما من طرق أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ الله خلقَ آدمَ

---

(١) ينظر ميزان الاعتدال (٤/ ٢٤٣) .
(٢) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : سبح .
(٣) أخرجه ابن عديّ في الكامل (٤/ ١٣٦٨) .
(٤) أخرجه ابن عديّ في الكامل (٦/ ٢٣٠٣) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٢) في الأنبياء ، ومسلم (١٦٣) في الإيمان . وأسودة : جمع سواد ، وهو الشخص : أي جمع من الأشخاص . ونسم بنيه : جمع نسمة ، وهي نفس الإنسان ، أي : أرواح بني آدم .
(٦) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٣١٨) وقال : في رواية هشام بن حسان عن الحسن مقال .
(٧) ذكره ابن كثير في البداية (١/ ٤٩) وقال : رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً ، وهو أصحُّ .

على صُورته »[١] وقد تكلَّم العلماء على هذا الحديث، فذكروا فيه مسالكَ كثيرة ، ليس هذا موضع بسطها .

[وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد ربه بن صالح القرشي الدمشقي[٢] ، يروي عن مكحول وغيره ، وعبد الحكيم ، ومروان الطاطري ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وهشام بن عمار ، وهشام بن خالد ، روى من طريق هشام بن عمَّار ، أنه سمعَ عروةَ بن رويم ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « لما خلق الله آدم وذريَّته ، قالت الملائكة : يا ربنا خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله عز وجلَّ : لا أجعلُ منْ خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي ، كمن قلت له كن فكان »][٣] .

***

ذكرُ وَفَاة آدم وَوَصيّته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنى شيث : هبة الله ، وسمَّياه بذلك لأنهما رُزقاه بعد أن قُتِلَ هابيل .

قال أبو ذرّ في حديثه عن رسول الله ﷺ : « إنَّ الله أنزلَ مئة صحيفةٍ وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة »[٤] .

قال محمد بن إسحاق : ولما حضرتْ آدمَ الوفاةُ عَهِدَ إلى ابنه شيث ، وعلَّمه ساعاتِ الليل والنهار ، وعلَّمه عباداتِ تلك الساعات ، وأعلمَه بوقوع الطُّوفان بعدَ ذلك . قال : ويُقال : إنَّ أنسابَ بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث ، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادُوا[٥] ، والله أعلم .

ولما تُوفي آدمُ عليه السلام ـ وكان ذلك يوم الجمعة ـ جاءته الملائكة بحَنُوط وكَفَن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزَّوا فيه ابنَه ووصيَّهُ شيثاً ، عليه السلام .

قال ابن إسحاق[٦] : وكُسِفت الشمسُ والقمر سبعة أيَّام بلياليهن .

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٤٢٠) ومسلم في البر والصلة (٢٦١٢) .
(٢) تاريخ دمشق (٣٤/ ١١٠) .
(٣) زيادة من ب .
(٤) تقدم الحديث وتخريجه (ص١٥٠) .
(٥) تاريخ الطبري (١/ ١٥٢) .
(٦) المصدر السابق (١/ ١٥٩) .

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد[١] : حدَّثنا هدبة بن خالد ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة ، عن حُميد ، عن الحسن ، عن عُتَي ـ هو ابن ضمرة السعدي ـ قال : رأيتُ شيخاً بالمدينة يتكلَّمُ فسألتُ عنه : فقالوا : هذا أُبيُّ بن كعب ، فقال : إن آدمَ لما حضرَه الموتُ قالَ لبنيه : أيْ بنيّ إني أشتهي من ثمارِ الجنَّة . قال : فذهبوا يطلبونَ له فاستقبلتْهم الملائكة ومعهم أكفانُه وحنُوطه ، ومعهم الفؤوس والمساحي والمَكاتل ، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تُريدون وما تطلبون ؟ ـ أو ما تُريدون وأين تطلبون ـ قالوا : أبونا مريضٌ واشتهى من ثمار الجنة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى[٢] أبوكم . فجاؤوا ، فلما رأتهم حوَّاء عَرَفتهم ، فلاذت بآدمَ ، فقال : إليكِ عنّي فإني إنما أُتيت من قبلك ، فخلّي بيني وبين ملائكة ربِّي عزَّ وجلَّ ، فقبضُوه وغسَّلوه وكفَّنوه وحنَّطوه ، وحفروا له ولحدوه ، وصلّوا عليه ، ثم أدخلوه قبرَه فوضعوه في قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم هذه سنتكم . إسناد صحيح إليه .

وروى ابن عساكر : من طريق شيبان بن فَرُّوخ ، عن محمّد بن ز ياد ، عن ميمونَ بن مِهْران ، عن ابن عبَّاس أن رسولَ الله ﷺ قال : « كبَّرتِ الملائكةُ على آدمَ أربعاً ، وكبَّر أبو بكرٍ على فاطمةَ أربعاً ، وكبَّر عمرُ على أبي بكرٍ أربعاً ، وكبَّر صُهَيْبٌ على عمرَ أربعاً »[٣] . قال ابنُ عساكر : ورواه غيره ، عن ميمون ، فقال : عن ابن عمر .

واختلفوا في موضع دفنه : فالمشهور أنه دُفنَ عند الجبل الذي أُهبط منه في الهند . وقيل : بجبل أبي قُبَيْس بمكة .

ويقال : إن نوحاً عليه السلام لما كانَ زمن الطُّوفان حملَه هو و حوَّاء في تابوت ، فدفنَهما ببيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير[٤] .

وروى ابنُ عساكر : عن بعضهم : أنه قال : رأسُه عند مسجد إبراهيم ، ورجلاه عند صَخْرة بيتِ المقدس . وقد ماتت بعده حوَّاء بسنة واحدة .

واختُلف في مقدار عُمُره عليه السلام ، فقدَّمنا في الحديث عن ابن عبَّاس ، وأبي هريرة ، مرفوعاً : أنَّ عُمُره اكْتُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ ألفَ سنةٍ[٥] . وهذا لا يُعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمئة وثلاثين سنة ؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه ، مردود إذا خالفَ الحقَّ الذي بأيدينا ، مما هو المحفوظ عن

---

(١) في زياداته على مسند أبيه (٥/ ١٣٦) .

(٢) في « أ » فقد قضي قضاء أبيكم .

(٣) وإسناده ضعيف جداً .

(٤) في تاريخه (١/ ١٦١) .

(٥) تقدم الحديث .

المعصوم . وأيضاً فإنَّ قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث ، فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً محمولٌ على مدَّة مُقامه في الأرض بعد الإهباط ، وذلك تسعمئة وثلاثون سنة شمسية ، وهي بالقمرية تسعمئة وسبع وخمسون سنة ، ويُضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مُدَّة مقامه في الجنَّة قبلَ الإهباط على ما ذكرَه ابنُ جرير وغيره ، فيكون الجميع ألف سنة .

وقال عطاء الخراساني : لما مات آدمُ بكتِ الخلائقُ عليه سبعةَ أيَّام . رواه ابن عساكر[١] .

فلما ماتَ آدمُ عليه السلام قامَ بأعباء الأمر بعدَه ولدُه شيث عليه السلام ، وكان نبيَّاً بنصِّ الحديث الذي رواه ابن حِبَّان في صحيحه[٢] : عن أبي ذر ، مرفوعاً : أنه أُنزلَ عليه خمسون صحيفة .

فلما حانتْ وفاتُه أوصى إلى ابنه « أنوش » فقامَ بالأمر بعدَه ، ثم بعده ولده « قينن » . ثم من بعده ابنه « مهلاييل » وهو الذي يزعمُ الأعاجم من الفرس أنه ملَكَ الأقاليمَ السبعة ، وأنَّه أوَّلُ من قطعَ الأشجار ، وبنى المدائن والحصون الكبار ، وأنَّه هو الذي بنى مدينةَ بابل ، ومدينة السوس الأقصى ، وأنه قهرَ إبليسَ وجنودَه وشرَّدهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها ، وأنه قتلَ خَلْقاً من مرَدة الجنِّ والغيلان ، وكان له تاج عظيم ، وكان يخطبُ النَّاس ، ودامت دولتُه أربعينَ سنة .

فلما ماتَ قامَ بالأمر بعدَه ولدُه « يرد » فلما حضرتْه الوفاة أوصى إلى ولده « خنوخ » وهو إدريسُ عليه السلام ، على المشهور .

ذِكرُ
إدريس عَلَيه السَّلام

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦ ـ ٥٧] . فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفَه بالنبوة والصِّدِّيقيَّة ، وهو « خنوخ » هذا ، وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكرَه غير واحد من علماء النسب .

وكان أوَّل بني آدم أُعطي النبوة بعد آدمَ وشيث عليهما السلام . وذكر ابن إسحاق : أنَّه أوَّلُ من خطَّ بالقلم ، وقد أدركَ من حياة آدم ثلاثمئة سنة وثماني سنين .

وقد قال طائفة من الناس : إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي ، لما سألَ رسولَ الله

---

(١) أخرجه ابن عساكر ، كما في مختصر تاريخ دمشق ؛ لابن منظور (١٤/ ٢٢٦) .
(٢) تقدم الحديث وتخريجه .

ﷺ عن الخطِّ بالرمل ، فقال : « إنَّه كان نبيٌّ يخطُّ به ، فمن وافقَ خطَّه فذاك »[١] .

ويزعمُ كثيرٌ من علماء التفسير والأحكام : أنَّه أوَّل من تكلَّم في ذلك ، ويُسمُّونه هرمس[٢] الهرامسة ، ويكذبون عليه أشياءَ كثيرةً ، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] هو كما ثبتَ في الصحيحين في حديث الإسراء : أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ به وهو في السماء الرابعة .

وقد روى ابن جرير[٣] : عن يونس ، عن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن جرير بن حازم ، عن الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف ، قال : سألَ ابنُ عبَّاس كَعْباً وأنا حاضر ، فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] فقال كعبٌ : أما إدريس فإن الله أوحى إليه أنِّي أرفعُ لك كلَّ يوم مثل جميع عمل بني آدم ـ لعله من أهل زمانه ـ فأحب أن يزدادَ عملاً ، فأتاه خليلٌ له من الملائكة ، فقال : إنَّ الله أوحى إلي كذا وكذا فكلِّم فيَّ ملكَ الموت حتى أزداد عملاً ، فحملَه بين جناحيْه حتى صَعِد به إلى السماء ، فلما كان في السماء الرابعة تلقَّاه مَلَكُ الموتِ منحدراً ، فكلَّم مَلَك الموتِ في الذي كلَّمه فيه إدريس ، فقال : وأينَ إدريسُ ؟ قال : هو ذا على ظهري . فقال مَلكُ الموتِ : فالعجبُ بُعثتُ وقيل لي : اقبضْ روحَ إدريس في السماء الرابعة ، فجعلتُ أقولُ كيف أقبضُ روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ فقبضَ روحَه هناك ، فذلك قول الله عز وجل ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] .

ورواه ابن أبي حاتم[٤] عند تفسيرها ، وعنده ، فقالَ لذلك الملك : سلْ لي ملَك الموت : كم بقيَ من عُمري ؟ فسألَه وهو معه : كم بقيَ من عُمره ؟ فقال : لا أدري ، حتى أنظرَ ، فقال : إنَّك لتسألُني عن رجلٍ ما بقيَ من عُمره إلا طَرْفَةَ عَيْن فنظرَ الملك إلى تحت جناحِه إلى إدريس ، فإذا هو قد قُبِضَ وهُو لا يشعرُ .

وهذا من الإسرائيليات ، وفي بعضه نكارةٌ .

وقولُ ابن أبي نجيْح ، عن مجاهد[٥] ، في قوله ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ ﴾ [مريم : ٥٧] قال : إدريسُ رُفعَ ولم يمتْ ، كما رُفعَ عيسى ؛ إنْ أرادَ أنه لم يمت إلى الآنَ ففي هذا نظرٌ ، وإنْ أرادَ أنَّه رُفعَ حيّاً إلى السماء ، ثم قُبضَ هناكَ ، فلا يُنافي ما تقدَّم عن كعب الأحبار ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٣٧) في المساجد .
(٢) « هرمس » : الأسد القوي الشديد .
(٣) في تفسيره (٨/ ٣٥٢) .
(٤) كما في الدر المنثور (٥/ ٥١٨) .
(٥) أخرجه مجاهد في تفسيره (١/ ٣٨٧) .

وقال العَوْفي[١] : عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] رُفع إلى السماء السادسة فمات بها . وهكذا قال الضَّحَّاك .

والحديثُ المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصحُّ ، وهو قول مجاهد ، وغير واحد .

وقال الحسن البصري ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] قال : إلى الجنة . وقال قائلون : رُفعَ في حياة أبيه يَرد بن مَهلاييل ، والله أعلم .

وقد زعمَ بعضُهم أنَّ إدريسَ لم يكنْ قبلَ نوح ، بل في زمان بني إسرائيل .

قال البخاري[٢] : ويُذكر عن ابن مسعود ، وابن عباس ؛ أنَّ إلياس هو إدريس ، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري ، عن أنس في الإسراء ؛ أنه لما مرَّ به عليه السلام قال له : « مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصالح ، ولم يقل كما قال آدمُ وإبراهيم : مرحباً بالنَّبيِّ الصَّالح والابن الصَّالح » قالوا : فلو كانَ في عمود نسبه لقال له كما قال له .

وهذا لا يدلُّ ولا بُدَّ ، لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيِّداً ، أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصبْ له في مقام الأبُوَّة كما انتصبَ لآدمَ أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمَّدٍ ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* * *

(١) انظر الدر المنثور ؛ للسيوطي (٥/ ٥١٩) .

(٢) في صحيحه (٣٣٤٢) في الأنبياء .

قِصَّةُ نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك ، بن متوشلخ ، بن خنوخ - وهو إدريس - بن يَرد ، بن مهلاييل ، بن قَيْنن ، بن أنوش ، بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام .

وكان مولدُه بعد وفاة آدم بمئة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير[1] وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مئة وست وأربعون سنة .

وكان بينهما عشرة قرون ، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه[2] : حدَّثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدَّثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدَّثنا أبو توبة ، حدَّثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعتُ أبا سلام ، سمعتُ أبا أمامة : أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ! أنبيٌّ كانَ آدمُ ؟ قال : « نعم ، مُكلَّم » . قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : « عشرة قرون » . قلت : وهذا على شرط مسلم ، ولم يخرِّجوه .

وفي صحيح البخاري[3] : عن ابن عبَّاس ؛ أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلُّهم على الإسلام.

فإن كان المراد بالقرن مئة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس ، فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عبَّاس بالإسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون أُخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام ، لكن حديث أبي أمامة يدلُّ على الحصر في عشرة قرون ، وزادَنا ابنُ عبَّاس أنهم كلهم كانوا على الإسلام . وهذا يردُّ قولَ من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهلِ الكتاب : أنَّ قابيلَ وبنيه عَبدُوا النَّار ، والله أعلم .

وإن كانَ المرادُ بالقَرْن الجيلَ من الناس ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] وقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] وقال تعالى : ﴿ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨] وقال ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم : ٧٤] وكقوله عليه السلام : « خيرُ القرونِ قرني »[4] الحديث . فقد كان الجيل قبلَ نوح يُعمَّرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين ، والله أعلم .

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري (١/ ١٧٨) .

(٢) الإحسان (٦١٩٠) ، وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ١٧٨) عن ابن عباس وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤٢) عن عكرمة ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦) عن ابن عباس ، ولم أجده في صحيح البخاري ، وأظنه سبق قلم .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٩) في الرقاق ، ومسلم (٢٥٣٣) (٢١٢) في فضائل الصحابة ، بلفظ « خير الناس قرني » .

وبالجملة : فنوحٌ عليه السلام إنما بعثَه الله تعالى لمَّا عُبِدتِ الأصنامُ والطواغيتُ ، وشرعَ النَّاسُ في الضلالة ، والكفر ، فبعثَه الله رحمةً للعباد ، فكان أوَّلَ رسول بُعِثَ إلى أهل الأرض ؛ كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة . وكان قومُه يُقال لهم : بنو راسب ، فيما ذكرَه ابن جُبير وغيره .

واختلفوا في مقدار سِنِّه يومَ بُعِثَ فقيل : كان ابن خمسين سنة . وقيل : ابن ثلاثمئة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمئة وثمانين سنة . حكاها ابن جرير[1] ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان[2] ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز .

ففي الأعراف ، ويُونس ، وهود ، والأنبياء ، والمؤمنون ، والشعراء ، والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت ، وأنزلَ فيه سورة كاملة .

فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٩ ـ ٦٤] .

وقال في سورة يونس : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧١ ـ ٧٣] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن

---

(١) في تاريخه (١/ ١٧٩) .
(٢) سقطت من ب .

كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٢٥ـ٤٩] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٦ـ٧٧] .

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣ ـ ٣٠] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا۟ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا۟ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي

وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٠٥ ـ ١٢٢] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٤ ـ ١٥] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات : ٧٥ ـ ٨٢] .

وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٩ ـ ١٧] وقال تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ [نوح : ١ ـ ٢٨] .

وقد تكلّمنا على كل موضع من هذه في التفسير ، وسنذكرُ مضمون القصّة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرّقة ، ومما دلّت عليه الأحاديث والآثار ، وقد جرى ذكره أيضاً في مواضعَ متفرّقة من القرآن فيها مَدْحه وذمُّ منْ خالفه ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ـ١٦٥] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٣ـ٨٧] الآيات .

وتقدّمت قصته في الأعراف ، وقال في سورة براءة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٧٠] .

وتقدّمت قصّته في سورة هود ، وقال في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

وقال في سورة سبحان : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] وقال فيها أيضاً ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] .

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت . وقال في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] وقال في سورة صٓ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : ١٢ـ١٤] .

وقال في سورة غافر : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر : ٥ـ٦] .

وقال في سورة الشورى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] . وقال تعالى في سورة قٓ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ـ١٤] وقال في الذاريات : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات : ٤٦] وقال في النجم : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم : ٥٢] وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة . وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] وقال تعالى في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] .

وأما مضمونُ ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسُّنَّة والآثار ، فقد قدَّمنا عن ابن عباس ؛ أنه كان بين آدمَ ونوح عشرةُ قرون ، كلُّهم على الإسلام . رواه البخاري[١] .

وذكَرْنا أنَّ المرادَ بالقرن : الجيل ، أو المدة على ما سلف .

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمورٌ اقتضت أنْ آلَ الحالُ بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سببُ ذلك ما رواه البخاري[٢] : من حديث ابن جُريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] قال : هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ من قومِ[٣] نوح ، فلما هَلكُوا أوحى الشيطانُ إلى قومِهم أن انصبُوا إلى مجالسِهم التي كانوا يجلسونَ فيها أنصاباً ، وسَمُّوها بأسمائِهم ، ففعلُوا ، فلم تُعْبدْ حتَّى إذا هلكَ أولئكَ ، وتَنسَّخَ[٤] العلمُ عُبِدتْ .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ . وهكذا قال عكرمة والضَّحَّاك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق[٥] .

وقال ابن جرير[٦] في تفسيره : حدَّثنا ابن حُميد ، حدَّثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس ، قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم ، فلما ماتوا ، قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوَّروهم ، فلما ماتوا وجاءَ آخرون ، دبَّ إليهم إبليسُ فقال : إنما كانوا يَعبدونهم وبهم يُسقون المطرَ ، فعبدوهم .

وروى ابن أبي حاتم[٧] : عن عروة بن الزبير ؛ أنَّه قالَ : ود ، ويغوث ، ويَعُوق ، وسُواع ، ونَسْر ، أولاد آدم ، وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به .

---

(١) لم أجده في البخاري كما سبق ص١١٠ .
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) في التفسير موقوفاً على ابن عباس . وقال الحافظ ابن حجر : قيل : هذا منقطع ؛ لأن عطاءَ المذكور هو الخراساني ، ولم يلق ابن عباس . . . ثم قال : لكن الذي قوي عندي أن هذا الحديث بخصوصيته عند ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، وعن عطاء بن أبي رباح جميعاً . . وانظر فتح الباري (٨/ ٦٦٧ ـ ٦٦٨) .
(٣) في أ : رفقة .
(٤) في ب : ونسخ .
(٥) تفسير الطبري (٢/ ٢٥٤) .
(٦) المصدر السابق (٢/ ٢٥٤) .
(٧) كما في الدر المنثور (٨/ ٢٩٣) .

وقال ابن أبي حاتم[(١)] : حدَّثنا أحمد بن منصور ، حدَّثنا الحسن بن موسى ، حدَّثنا يعقوب ، عن أبي المُطهَّر ، قال : ذكروا عند أبي جعفر ـ هو الباقر ـ وهو قائمٌ يُصلِّي يزيدَ بن المُهلَّب ، قال : فلما انفتل[(٢)] من صلاته ، قال : ذكرتُم يزيدَ بن المُهلَّب ، أما إنه قُتِلَ في أوَّل أرضٍ عُبِدَ فيها غيرُ الله . قال : ذكر ودَّاً رجلاً صالحاً ، وكان محبَّباً في قومِه ، فلما ماتَ عكفُوا[(٣)] حولَ قبره في أرضِ بابلَ وجَزِعُوا عليه ، فلما رأى إبليسُ جزعَهم عليه ، تشبَّه في صورة إنسان ، ثم قال : إنِّي أرى جزعَكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصوِّر لكم مثلَه ، فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصوَّرَ لهم مثلَه . قال : ووضعوه في ناديهم ، وجعلوا يذكرونَه . فلما رأى ما بهم من ذكرِه . قال : هل لكم أن أجعلَ في منزل كلِّ واحدٍ منكم تمثالاً مثلَه ، ليكونَ له في بيتهِ فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . قال : فمثَّل لكلِّ أهلِ بيتٍ تمثالاً مثلَه ، فأقبلوا فجعلُوا يذكرونَه به . قال : وأدرك أبناؤُهم ، فجعلُوا يرون ما يصنعونَ به ، قال : وتناسلوا ، ودرس[(٤)] أثرُ ذكرهم إيَّاه حتَّى اتَّخذوه إلَهاً يعبدونَه من دون الله أولاد أولادِهم ، فكانَ أوَّلَ ما عُبد غير اللهِ « ودٌّ » الصنمُ ، الذي سمَّوه وَدَّاً .

ومقتضى هذا السياق : أنَّ كلَّ صنمٍ من هذه عبدَه طائفةٌ من الناس ، وقد ذُكرَ أنَّه لما تطاولتِ العهودُ والأزمانُ جعلوا تلك الصُّورَ تماثيلَ مجسَّدةً ، ليكونَ أثبتَ لها ، ثم عُبِدتْ بعد ذلك من دون الله عزَّ وجلَّ ، ولهم في عبادتِها مسالكُ كثيرةٌ جداً قد ذكرناها في مواضِعها من كتابنا التفسير[(٥)] ، ولله الحمد والمنة .

وقد ثبتَ في الصحيحين[(٦)] : عن رسول الله ﷺ : أنه لما ذَكرت عندَه أمُّ سلمةَ وأُمُّ حبيبةَ تلك الكنيسةَ التي رأينَها بأرضِ الحبشة ، يُقالُ لها : مارية ، فذكرتَا من حُسْنِها وتصاويرَ فيها ، قال : « أولئكَ إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصَّالحُ بنوْا على قبره مسجداً ، ثم صوَّرُوا فيه تلك الصُّورة ، أولئك شِرارُ الخلق عند الله عزَّ وجلَّ » .

والمقصودُ أنَّ الفسادَ لما انتشرَ في الأرض وعمَّ البلاءُ بعبادة الأصنام فيها ، بعثَ الله عبدَه ورسولَه نوحاً عليه السلام ، يدعو إلى عبادةِ الله وحده لا شريكَ له ، وينهى عن عبادةِ ما سواه .

فكان أوَّلَ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبتَ في الصحيحين[(٧)] : من حديث أبي حيَّان ، عن

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٢٩٤) وعزاه لعبد بن حميد أيضاً .
(٢) انفتل : انصرف من صلاته .
(٣) في أ : عسكروا .
(٤) درسَ : انمحى .
(٥) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٣) .
(٦) أخرجه البخاري (٤٢٧) و(٤٣٤) في الصلاة ، ومسلم (٥٢٨) في المساجد .
(٧) أخرجه البخاري (٤٧١٢) في التفسير ، ومسلم (١٩٤) في الإيمان .

أبي زُرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في حديث الشفاعة، قال: «فيأتون آدمَ فيقولون: يا آدمُ أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخَ فيكَ من روحه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ، وأسكنكَ الجنَّة، ألا تشفعُ لنا إلى ربِّك؟ ألا ترى ما نحنُ فيه وما بَلَغنا؟ فيقول: ربِّي قد غضبَ غَضَباً شديداً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعدَه مثلَه، ونهاني عن الشجرة، فعصيتُ، نفسي نفسي، اذهبُوا إلى غيري، اذهبُوا إلى نوح. فيأتونَ نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمَّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بَلَغنا، ألا تشفعُ لنا إلى ربِّك عز وجل؟ فيقولُ: ربِّي قد غضبَ اليومَ غَضَباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه ولا يغضبُ بعدَه مِثْله، نفسي نفسي». وذكر تمامَ الحديث بطوله، كما أورده البخاريُّ[1] في قصة نوح.

فلما بعثَ الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحدَه لا شريكَ له، ألَّا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنَّه لا إلهَ غيره ولا ربَّ سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلُّهم من ذريَّته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] أي: كل نبيّ من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح[2] لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الآيات الكريمات [نوح: ٢-١٤].

فذكرَ أنَّه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسِّرِّ والإجهار بالترغيب تارةً والترهيب

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) في الأنبياء.
(٢) في ب: ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ...﴾.

أخرى ، وكلُّ هذا ، فلم ينجحْ فيهم ، بل استمرَّ أكثرُهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونَصَبُوا له العداوةَ في كلِّ وقتٍ وأوان ، وتَنقَّصُوه وتنقَّصُوا منْ آمنَ به ، وتوعَّدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ أي : السادة الكبراء منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٠ ـ ٦١] أي : لست كما تزعمونُ من أني ضالٌّ ، بل على الهدي المستقيم رسولٌ من رب العالمين ، أي : الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] . وهذا شأنُ الرسول أن يكونَ بليغاً ، أي : فصيحاً ناصحاً ، أعلم الناس بالله عز وجل .

وقالوا له فيما[١] قالوا : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] تعجَّبُوا أن يكونَ بشراً رسولاً ، وتنقَّصُوا بمن اتَّبعه ، ورأوهم أراذلَهم . وقد قيل : إنهم كانوا من أفناد[٢] النَّاس وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقل : وهم أتباعُ الرسل . وما ذاك إلا لأنه لا مانعَ لهم من اتباع الحقِّ .

وقولهم : ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧] أي : بمجرد ما دعوتُهم استجابوا لكَ من غير نظر ولا رويّة ، وهذا الذي رموهم به هو عين ما يُمدحون بسببه رضي الله عنهم ، فإن الحقَّ الظاهرَ لا يحتاجُ إلى رويّةٍ ولا فكر ولا نظر ، بل يجبُ اتّباعه والانقياد له متى ظهرَ .

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصدِّيق : « ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت كبوة[٣] ، غير أبي بكر فإنه لم يتلعثمْ »[٤] ولهذا كانت بيعتُه يوم السقيفة أيضاً سريعةً ، من غير نظرٍ ولا رويّة ، لأن أفضليتَه على من عداه ظاهرةٌ جليّةٌ عند الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتبَ الكتابَ الذي أراد أن ينصَّ فيه على خلافته ، فتركَه وقال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضي الله عنه »[٥] .

وقول كَفَرةِ قوم نوحٍ له ولمن آمنَ به : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : ٢٧] أي : لم يظهرْ لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزيّة علينا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ۝ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٧ ـ ٢٨] .

---

(١) في ب : مما قالوا .
(٢) أفناد : ضعفاء الرأي من الناس .
(٣) « كبوة » : وقفة وتردُّد .
(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٦٢٨٦) عن ابن مسعود ، وذكره رزين كما في جامع الأصول (٨/ ٥٨٥) والشوكاني (ص١٤٢) في درِّ السحابة ، والمتقي الهندي (١١/ ٥٥٥) في كنز العمال .
(٥) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٠٦) ومسلم في صحيحه (٢٣٨٧) في فضائل الصحابة .

وهذا تلطُّفٌ في الخطاب معهم ، وترفُّق بهم في الدعوة إلى الحقّ ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] وهذا منه ، يقول لهم : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [هود : ٢٨] أي : النبوة والرسالة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي : أنغصبكم بها ، ونجبركم عليها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ أي : ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود : ٢٩] أي : لستُ أريد منكم أجرةً على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، إن أطلبُ ذلك إلا من الله الذي ثوابه خيرٌ لي وأبقى مما تُعطوني أنتم .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يُبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ أي : فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٣٠] ولهذا لما سأل كفّارُ قريش رسولَ الله ﷺ : أن يطردَ عنه ضعفاءَ المؤمنين ، كعمّار ، وصُهيب ، وبلال ، وخبّاب ، وأشباههم ، نهاه الله عن ذلك كما بيَّناه في سورتي الأنعام والكهف .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود : ٣١] أي : بل أنا عبدٌ رسولٌ ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ، ولا أقدرُ إلا على ما أقدرني عليه ، ولا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا ما شاء الله .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ يعني من أتباعه ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] أي : لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر ، كما قالوا في المواضع الأخر ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ١١١ـ١١٥] .

وقد تطاولَ الزمانُ والمجادلة بينه وبينهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] أي : ومع هذه المدة الطويلة فما آمنَ له إلا القليل منهم ، وكان كلُّ ما انقرضَ جيلٌ وصَّوا منْ بعدَهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغَ ولدُه وعقلَ عنه كلامه وصَّاه فيما بينَه وبينه ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقي .

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحقّ ، و لهذا قال ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧]

ولهذا قالوا : ﴿ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود : ٣٢-٣٣] أي : إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه الذي لا يُعجزه شيءٌ ولا يكترثه أمر ، بل هو الذي يقولُ للشيء كن فيكون . ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] أي : من يُرد الله فتنتَه فلن يملكَ أحدٌ هدايتَه ، هو الذي يَهدي منْ يشاءُ ويُضلُّ من يشاء ، وهو الفعَّال لما يُريد ، وهو العزيز الحكيم ، العليمُ بمن يستحقُّ الهداية ومنْ يستحقُّ الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجَّة الدامغة .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] [هود : ٣٦] وهذه تعزيةٌ لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمنَ منهم إلا منْ قد آمنَ ، وتسليةٌ له عما كان منهم إليه ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : لا يسوأنَّكَ ما جرى فإنَّ النصرَ قريبٌ ، والنبأ عجيب ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئسَ من صَلاحهم وفَلاحِهم ، ورأى أنَّهم لا خيرَ فيهم ، وتوصلوا إلى أذيَّته ومخالفتِه وتكذيبه بكلِّ طريق من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوةَ غضبٍ[2] ، فلبّى الله دعوتَه ، وأجابَ طلبتَه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ٧٥-٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] . وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٧-١١٨] وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون : ٢٦] وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥-٢٧] .

فاجتمعَ عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورِهم ودعوة نبيِّهم عليهم ، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنعَ الفلكَ ، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظيرٌ قبلَها ، ولا يكون بعدَها مثلها .

وقدَّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمرُه ، وحلَّ بهم بأسُه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين ، أنه لا يُعاوده فيهم ولا يُراجعه ، فإنَّه لعلّه قد تُدركه رقّة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنَّه ليس الخبرُ كالمعاينة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن

---

(١) في تفسير هذه الآية تقديم وتأخير وقع في أ والمطبوع ، وأثبت ما ورد في ب ؛ لأنه أقوم .
(٢) في ب : دعوة غضبِ لله عليهم .

قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ [هود : ٣٧ ـ ٣٨] أي : يستهزئون به استبعاداً[١] لوقوع ما توعَّدهم به ، ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] أي : نحن الذين نسخرُ منكم ، ونتعجَّبُ منكم في استمراركم على كُفركم وعنادِكم الذي يقتضي وقوعَ العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٩] .

وقد كانت سجاياهم الكفرَ الغليظ ، والعنادَ البالغَ في الدنيا ، وهكذا في الآخرة ، فإنَّهم يَجْحدون[٢] أيضاً أن يكونَ جاءَهم[٣] رسولٌ .

كما قال البخاري[٤] : حدَّثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبدُ الواحد بن زياد ، حدَّثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيءُ نوحٌ عليه السلام وأمَّتُه ، فيقولُ الله عزَّ وجلَّ : هل بلَّغتَ ؟ فيقولُ : نعم أي ربّ ، فيقولُ لأمَّته : هل بلَّغكُم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبيٍّ . فيقولُ لنوح : منْ يشهدُ لكَ ؟ فيقول : محمَّدٌ وأمَّتُه . فنشهدُ أنه قد بلَّغَ » . وهو قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . والوسط : العدل .

[٥] فهذه الأمة تشهدُ على شهادة نبيِّها الصَّادق المصدوق ، بأنَّ الله قد بعثَ نوحاً بالحقِّ ، وأنزلَ عليه الحقَّ ، وأمره به ، وأنه بلَّغه إلى أمَّته على أكمل الوجوه وأتمِّها ، ولم يدعْ شيئاً مما ينفعُهم في دينهم إلا وقد أمرَهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرُّهم إلا وقد نهاهم عنه ، وحذَّرهم منه .

وهكذا[٦] شأنُ جميع الرسل ، حتَّى أنه حذَّر قومه المسيحَ الدَّجَّال ، وإن كان لا يتوقَّعُ خروجَه في زمانهم ، حذراً عليهم وشفقةً ورحمةً بهم .

كما قالَ البخاريُّ : حدَّثنا عَبْدان ، حدَّثنا عبدُ الله ، عن يُونس ، عن الزُّهريِّ ، قال سالم : قال ابنُ عمر : قامَ رسولُ الله ﷺ في النَّاسِ فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثم ذكرَ الدَّجَّال ، فقال : « إنِّي لأنذركُموهُ ، وما من نبيٍّ إلا وقد أنذرَه قومَهُ ، لقد أنذرَ نوحٌ قومَهُ ، ولكني أقولُ لكم فيه قولاً لم يَقُلْه نبيٌّ لقومِه ، تعلمونَ أنَّه أعورُ ، وأنَّ الله ليسَ بأعور »[٧] .

---

(١) في المطبوع : استعباداً ؛ وهو تصحيف ظاهر .
(٢) « يجحدون » : يُنكرون .
(٣) في أ : من رسول .
(٤) في صحيحه (٣٣٣٩) في الأنبياء .
(٥) في أ : وهكذا رواه .
(٦) في ب : وهذا .
(٧) أخرجه البخاري (٣٣٣٧) في الأنبياء .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً : من حديث شَيْبان بن عبد الرحمن ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « ألا أحَدِّثكم عن الدَّجَّال حديثاً ما حدَّث به نبيٌّ قومه ، إنَّه أعورُ ، وإنَّه يجيءُ معه بمثالِ الجنَّة والنَّار ، فالتي يقولُ إنها[1] الجنَّة هي النَّار ، وإني أنذركُم كما أنذرَ به نوحٌ قومَه »[2] لفظ البخاري .

وقد قال بعضُ علماءِ[3] السَّلف : لما استجابَ الله له أمرَه أن يغرسَ شجراً ليعملَ منه السفينة ، فغرسَه وانتظره مئة سنة ، ثم نجره في مئة أخرى ، وقيل : في أربعينَ سنةً ، فالله أعلم .

قال محمد بن إسحاق : عن الثوري ، وكانت من خشب السَّاج . وقيل : من الصنوبر ، وهو نصُّ التوراة .

قال الثوري : وأمره أن يجعلَ طولها ثمانينَ ذراعاً وعرضَها خمسينَ ذراعاً ، وأن يطليَ ظاهرَها وباطنَها بالقار ، وأن يجعلَ لها جؤجؤاً أزورَ[4] يشقُّ الماء ، وقال قتادة : كان طولُها ثلثمئة ذراع في عرض خمسين ذراعاً ، وهذا الذي في التوراة على ما رأيته . وقال الحسن البصري : ستمئة في عرض ثلاثمئة ذراع . وعن ابن عباس : ألف ومئتا ذراع في عرض ستمئة ذراع . وقيل : كان طولها ألفيْ ذراع وعرضُها مئة ذراع . قالوا كلُّهم : وكان ارتفاعُها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات ، كلُّ واحدة عشرة أذرع ، فالسُّفلى للدَّوابِّ والوحوش ، والوسطى للنَّاس ، والعُليا للطيور ، وكان بابُها في عرضها ، ولها غِطاءٌ من فوقها مُطبقٌ عليها .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [المؤمنون : ٢٦ - ٢٧] أي : بأمرنا لكَ ، وبمرأى منَّا لصَنْعَتِكَ لها ، ومُشاهدتِنا لذلك ، ولنرشدكَ إلى الصَّواب في صنعتِها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] فتقدَّم إليه بأمره العظيم العالي أنَّه إذا جاء أمرُه وحلَّ بأسُه أن يحملَ في هذه السفينة من كلِّ زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روحٌ ، ومن المأكولات وغيرها ، لبقاءِ نَسْلِها ، وأن يحملَ معه أهلَه ، أي : أهل بيتِه ، إلا منْ سبقَ عليه القولُ منهم ، أي : إلا من كانَ كافراً ، فإنَّه قد نفذتْ فيه الدعوة التي لا تُردُّ ، ووجبَ عليه حلولُ البأسِ الذي لا يُردُّ ، وأمر أنَّه لا يُراجعه فيهم إذا حلَّ بهم ما يُعاينه من العذاب العظيم ، الذي قد حتَّمه عليهم الفعَّالُ لما يُريد ، كما قدَّمنا بيانه قبل .

---

(١) في أ والمطبوع : عليها .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٨) في الأنبياء ، والبخاري (٢٩٣٦) في الفتن وأشراط الساعة .

(٣) في أ : بعض السَّلف .

(٤) « جُؤجؤاً أزور » : الجؤجؤ : صدر السفينة . والأزور : المنحرف المائل . وانظر هذه الأقوال عن طول السفينة وعرضها في تفسير الطبري (٧/ ٣٥ - ٣٦) والدر المنثور (٤/ ٤١٩) .

والمرادُ بالتَّنُّور عند الجمهور : وجهُ الأرض ، أي : نبعتِ الأرضُ من سائر أرجائِها ، حتَّى نبعتِ التنانيرُ التي هي محالُّ النَّار . وعن ابن عباس : التَّنُّور : عينٌ في الهند . وعن الشعبي : بالكوفة ، وعن قتادة : بالجزيرة . وقال عليُّ بن أبي طالب : المرادُ بالتَّنُّور : فَلَقُ الصُّبْحِ وتنويرُ الفجر ، أي : إشراقه وضِيَاؤه . أي : عندَ ذلك فاحملْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين . وهذا قولٌ غريب .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] هذا أمرٌ بأنَّه عندَ حلول النقمة بهم ؛ أن يحملَ فيها من كلٍّ زوجين اثنين . وفي كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ، ومما لا يؤكل زوجين : ذكراً وأنثى . وهذا مغايرٌ لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق : ﴿ اثنين ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به ، وأما إنْ جعلناه توكيداً لزوجين ، والمفعول به محذوف ، فلا ينافي والله أعلم .

وذكر بعضُهم ، ويُروى عن ابن عباس : أنَّ أوَّل ما دخلَ من الطُّيور الدُّرَّة[1] ، وآخر ما دخلَ من الحيوانات الحِمار . و دخلَ إبليسُ متعلِّقاً بذنبِ الحمار .

وقال ابنُ أبي حاتم[2] : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا عبد الله بن صالح ، حدَّثني الليث ، حدَّثني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : « لما حملَ نوحٌ في السفينة منْ كلٍّ زوجين اثنين ، قال أصحابه : وكيف نطمئن ـ أو كيف تطمئنُّ المواشي ـ ومعنا الأسد ؟ فسلَّط الله عليه الحُمّى ، فكانت أوَّل حمَّى نزلتْ في الأرض . ثم شَكوا الفأرةَ ، فقالوا : الفُويسقة تُفْسدُ علينا طعامنا ومتاعَنا . فأوحى الله إلى الأسد فعطسَ ، فخرجتِ الهِرَّة منه ، فتخبَّأت الفأرةُ منها » . هذا مرسل .

وقوله ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود : ٤٠] أي : من استُجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر ، فكان منهم ابنه يام الذي غَرِقَ كما سيأتي بيانه ﴿ ومن آمن ﴾ أي : واحمل فيها منْ آمنَ بكَ من أُمَّتكَ ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] هذا مع طول المُدَّةِ والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلاً نهاراً بضروبِ المَقال وفُنون التلطُّفاتِ ، والتهديد والوعيد تارةً ، والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلفَ العلماءُ في عِدَّة منْ كان معه في السفينة : فعن ابن عباس كانوا ثمانينَ نَفْساً ، معهم نساؤهم . وعن كعبِ الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نَفْساً . وقيل : كانوا عشرة . وقيل : إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام ، الذي انخزل[3] وانعزلَ ، وسلكَ عن طريق النجاة ، فما عدلَ إذ عدل . وهذا القولُ فيه مخالفةٌ لظاهر الآية ، بل هي نصٌّ في أنه قد ركبَ معه غير أهله طائفةٌ

---

(١) « الدُّرَّة » : نوع من الببغاوات ، جميل الشكل حسن الصوت .

(٢) كما في الدر المنثور (٤/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨) وهو خبر مرسل ، كما قال المصنف .

(٣) « انخزل » : ارتدَّ عن الإيمان والركوب .

ممن آمنَ به ، كما قال ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] وقيل : كانوا سبعة .

وأما امرأة نوح ، وهي أمُّ أولادِه كلِّهم ، وهم : حَام ، وسَام ، ويافث ، ويَام ؛ وتُسمِّيه أهلُ الكتاب كنعان[١] ، وهو الذي قد غَرِقَ ، وعابر ؛ وقد ماتتْ قبلَ الطُّوفان ، قيل : إنها غرقتْ مع منْ غَرِقَ ، وكانت ممن سَبَقَ عليه القولُ لكفرها ، وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة ، فيُحتمل أنها كفرتْ بعد ذلك ، أو أنَّها أنظرت ليومِ القيامة ، والظاهرُ الأوَّلُ ، لقوله ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨ ـ ٢٩] أمره أن يحمد ربَّه على ما سخَّر له من هذه السفينة ، فنجَّاه بها ، وفتحَ بينه وبينَ قومه ، وأقرَّ عينَه ممن خالفَه ، وكذَّبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢ ـ ١٤] .

وهكذا يُؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكونَ عاقبتُها محمودةً ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

وقد امتثلَ نوحُ عليه السلام هذه الوصيَّةَ ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : ٤١] أي : على اسم الله ابتداءُ سيرها وانتهاؤه ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : وذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيماً ، لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحلَّ بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢] . وذلك أنَّ الله تعالى أرسلَ من السماء مطراً لم تعهدْه الأرض قبلَهُ[٢] ولا تمطره بعدهُ[٣] ، كان كأفواه القِرَب ، وأمرَ الأرضَ فنبعتْ من جميع فِجاجها وسائر أرجائِها ، كما قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٣] . والدُّسُر : السابر[٤] . ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بحفظنا وكلاءَتنا[٥] وحراستنا ومُشاهدتنا لها ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٤] .

---

(١) في المطبوع : كعنان ؛ وهو تصحيف .
(٢) في أ : قبلها .
(٣) في أ : بعدها .
(٤) كذا في الأصول ، وفي المطبوع : المسامير .
(٥) « وكَلاءَتنا » : حفظنا .

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أنَّ الطُّوفانَ كان في ثالث عشر شهر آبٍ في حمارَّة[١] القيظ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] أي : السفينة . ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٢] .

قال جماعة من المفسرين : ارتفعَ الماءُ على أعلى جبل بالأرض خمسةَ عشرَ ذراعاً ، وهو الذي عند أهل الكتاب ، وقيل : ثمانين ذراعاً . وعمَّ جميعَ الأرض طولَها والعرضَ ، سهلَها وحَزْنَها[٢] وجبالَها وقِفارها ورِمالها . ولم يبقَ على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عينٌ تَطْرُفُ ، ولا صغيرٌ ولا كبير .

قال الإمام مالك : عن زيد بن أسلم ؛ كان أهلُ ذلك الزمان قد مَلؤوا السَّهلَ والجبلَ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكنْ بقعةٌ في الأرض إلا ولها مالكٌ وحائز ؛ رواهما ابن أبي حاتم[٣] .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٢ـ٤٣] .

وهذا الابن هو يام ، أخو سام وحام ويافث . وقيل : اسمه كنعان . وكان كافراً عَمِلَ[٤] عملاً غير صالح ، فخالفَ أباه في دينه ومذهبِ فهلكَ مع من هَلَك . هذا وقد نجا مع أبيه الأجانبُ في النسب لما كانوا موافقينَ في الدِّين والمذهب .

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤] . أي : لما فرغَ من أهل الأرض ولم يبق منها أحدٌ ممن عبد غيرَ الله عزَّ وجلَّ ، أمرَ الله الأرضَ أن تبلعَ ماءَها ، وأمرَ السَّماءَ أنْ تُقْلعَ ، أي : تُمْسكَ عن المطر ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أي : نقصَ عمَّا كان ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي : وقعَ بهم الذي كان قد سبقَ في عِلْمه وقَدره ، من إحلاله بهم ما حلَّ بهم ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : نُودي عليهم بلسان القُدْرة[٥] : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣] . وقال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝

---

(١) في المطبوع : في حساب القبط . وحمارَّة القيظ : شدَّة حرِّه ، وقد تُخفَّف الراء .

(٢) « حَزْنها » : ما خشن من الأرض وغلظ .

(٣) كما في الدر المنثور (٤/ ٤٢٧) .

(٤) في أ : وكان كافراً عملاً غير صالح .

(٥) في أ : القَدَر .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١١٩ ـ ١٢٢] وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٤ ـ ١٥] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٥ ـ ١٧] وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥ ـ ٢٧] وقد استجاب الله تعالى ـ وله الحمد والمنَّة ـ دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير[١] ، وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما : من طريق يعقوب بن محمد الزُّهري ، عن فائد مولى عُبيد الله بن أبي رافع : أن إبراهيمَ بن عبد الرحمن بن أبي رَبيعة أخبره ، أن عائشةَ أم المؤمنين أخبرتْه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فلو رحمَ الله من قوم نوحٍ أحداً لرحمَ أمَّ الصبيِّ » . قال رسولُ الله ﷺ : « مكث نوحٌ عليه السلام في قومه ألفَ سنةٍ ـ يعني إلا خمسينَ عاماً ـ وغرسَ مئة سنةِ الشجرَ ، فَعظُمَتْ ، وذهبتْ كلَّ مذهبٍ ، ثم قطعَها ، ثم جعلَها سفينةً ، ويمرُّون عليه ، ويَسْخرون منه ، ويقولون : تعملُ سفينةً في البرِّ كيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغَ ، ونبعَ الماءُ وصارَ في السِّكك ، خشيتْ أمُّ الصَّبيِّ عليه ، وكانتْ تُحبّه حُبّاً شديداً ، خرجت به إلى الجبل حتَّى بلغت ثلثَه ، فلما بلغَها الماءُ خرجتْ به حتَّى استوتْ على الجَبَلِ ، فلمَّا بلغَ الماءُ رقبتَها رَفعتْه بيديْها ، فغرقا ، فلو رحمَ الله منهم أحداً لرحمَ أُمَّ الصَّبيِّ » . وهذا حديث غريب .

وقد رُوي عن كعب الأحبار ، ومُجاهد[٢] ، وغير واحد ، شبيهٌ لهذه القصة ، وأحرى بهذا الحديث أن يكونَ موقوفاً مُتلقًّى عن مثل كعب الأحبار ، والله أعلم .

والمقصودُ أنَّ الله لم يُبقِ من الكافرين ديّاراً فكيف يزعمُ بعضُ المُفسِّرين أنَّ عَوجَ بن عَنَق[٣] ـ ويقال ابن عَناق ـ كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى ؟ ويقولون : كان كافراً مُتمرِّداً جبّاراً عنيداً ، ويقولون : كان لغير رشدة ، بل ولدتْه أُمُّه عَنَقَ بنت آدم ، من زنى ، وإنه كان يأخذُ من طوله السَّمَك من قَرار البحار ، ويشويه في عَيْن الشمس ، وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القُصَيْعة التي لكَ ؟ ويستهزىءُ به ، ويذكرون أنه كان طولُه ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مئة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً ، إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مُسَطَّرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيَّام النَّاس ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٧/ ٣٥) وتاريخ الطبري (١/ ١٨٠) .

(٢) انظر الدر المنثور ؛ للسيوطي (٤/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠) .

(٣) انظر خبر عَوجَ بن عَنَق هذا في التاريخ للطبري (١/ ١٨١ و٤٣١) . والكامل لابن الأثير (١/ ٧٢) وبهامشه : عَوج بن أعنق .

لما تعرَّضنا لحكايتها ؛ لسُقاطَتِها[١] ورَكاكَتها ، ثم إنَّها مخالفةٌ للمعقول والمنقول .

أما المعقولُ : فكيف يسوغُ فيه أن يُهْلِكَ الله ولدَ نوحٍ لكفره وأبوه نبيُّ الأمة وزعيمُ أهل الإيمان ، ولا يُهْلِكَ عَوجَ بن عَنق ـ ويقال عناق ـ وهو أظلمُ وأطغى على ما ذكروا ؟! وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أُمَّ الصَّبيِّ ولا الصَّبيَّ ، ويترك هذا الدَّعيَّ الجبَّار العنيدَ الفاجرَ الشديدَ الكافرَ الشيطانَ المريدَ ، على ما ذكروا ؟!

وأما المنقولُ : فقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٦] ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالفٌ لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله خلقَ آدمَ وطولُه ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلقُ ينقصُ حتى الآن »[٢] .

فهذا نصُّ الصَّادقِ المصدوقِ المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى ؛ أنَّه لم يزلِ الخلقُ ينقصُ حتَّى الآن ، أي : لم يزل النَّاس في نقصان طُولهم من آدمَ إلى يوم إخباره بذلك ، وهلُمَّ جراً إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضي أنه لم يُوجد من ذريَّة آدم من كان أطول منه ، فكيف يُتركُ هذا ويُذْهلُ عنه ، ويُصار إلى أقوال الكَذَبة الكَفَرةِ من أهل الكتاب ، الذين بدَّلوا كُتُب الله المنزلة وحرَّفوها وأوَّلوها ، ووضعُوها على غير مواضِعها ، فما ظنُّك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ، [وهم الخونة والكذَبة ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ][٣] وما أظنُّ أن هذا الخبر عن عَوج بن عَناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفُجَّارهم الذين كانوا أعداءَ الأنبياء ، والله أعلم .

ثم ذكرَ الله تعالى مناشدةَ نوح ربَّه في ولده ، وسؤاله له عن غرقِه ، على وجه الاستعلام والاستكشاف ، ووجه السؤال : أنَّك وعدَتني بنجاة أهلي معي ، وهو منهم وقد غرقَ ، فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أي : الذين وعدتُ بنجاتهم ، أي : أما قُلنا لكَ ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] فكانَ هذا ممن سبقَ عليه القولُ منهم بأنه سيغرق بكفره ، ولهذا ساقتْه الأقدارُ إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، فغرِقَ مع حزبه أهل الكفر والطغيان ، ثم قال تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٤٨] هذا أمرٌ لنوحٍ عليه السلام لمَّا نضبَ الماءُ عن وجهِ الأرض ، وأمكنَ السَّعي فيها والاستقرار عليها ، أنْ يهبطَ من السفينة التي

---

(١) كذا في ب والمطبوع . والسُّقاطة : ما سقط من الشيء . وفي أ وسطالتها : والساطل من الغبار المرتفع ، والسَّاطلُ : المُلْبسُ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٦) في الأنبياء ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٣) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع ، وأثبته من أ وب .

كانت قد استقرَّتْ بعد سيرها العظيم على ظهر جَبَلِ[(١)] الجوديّ . وهو جبلٌ بأرضِ الجزيرة مشهورٌ ، وقد قدَّمنا ذكرَه عند خَلْقِ الجبال ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ أي : اهبطْ سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أيٍّ من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عَقِباً سوى نوح عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] فكلُّ منْ على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينتسبون[(٢)] إلى أولاد نوح الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث .

قال الإمام [أحمد][(٣)] : حدَّثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سَمُرة ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « سَامٌ أبو العرب ، وحَامٌ أبو الحبش ، ويافثُ أبو الروم » .

ورواه الترمذيُّ[(٤)] : عن بشر بن مُعاذ العَقَديّ ، عن يزيدَ بن زُرَيْع ، عن سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قَتادة ، عن الحسن ، عن سَمُرة مرفوعاً ، نحوه .

وقال الشيخ أبو عمر[(٥)] بن عبد البر : وقد روي عن عمران بن حُصَيْن ، عن النبي ﷺ ، مثله . قال : والمرادُ بالروم هنا الرومُ الأوَلُ ، وهم : اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يُونان بن يافث بن نوح عليه السلام . ثم رَوَى من حديث إسماعيل بن عيَّاش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : ولدَ نوحٌ ثلاثةً : سام ، ويافث ، وحام . وولدَ كلُّ واحدٍ من هذه الثلاثة ثلاثةً ، فولدَ سامُ العربَ ، وفارسَ والرُّومَ . وولدَ يافثُ التُّركَ والسَّقالبةَ ويأجوجَ ومأجوجَ . وولدَ حامُ القِبْطَ والسُّودان والبَرْبر .

قلت : وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده[(٦)] : حدَّثنا إبراهيم بن هانىء وأحمدُ بن الحُسين بن عبَّاد ـ أبو العبَّاس ـ قالا : حدَّثنا محمَّد بن يزيد بن سنان الرَّهاوي ، حدَّثني أبي ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المُسيِّب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وُلدَ لنوحٍ : سام ، وحام ، ويافث . فوُلد لسامٍ : العربُ وفارسُ ، والرومُ ، والخيرُ فيهم . ووُلد ليافث : يأجوجُ ومأجوجُ ، والتُّركُ والسَّقَالبة ، ولا خير فيهم . وَوُلد لحام : القِبْطُ ، والبَرْبرُ والسُّودان » ثم قال : لا نعلم يُروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، تفرَّد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه ، وقد حدَّث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيرُه عن يحيى بن سعيد مرسلاً ، ولم يُسنده وإنما جعلَه من قول سعيد .

---

(١) في أ : على ظهر الجوديّ .
(٢) في المطبوع : ينسبون .
(٣) في أ : قال الإمام ، وهو في المسند (٥/ ٩ ـ ١١) .
(٤) في الجامع (٣٢٣١) في التفسير ، و (٣٩٣١) في المناقب ، وقال : هذا حديث حسن .
(٥) في أ : عمرو ؛ وهو خطأ .
(٦) كما في كشف الأستار (٢١٨) .

قلت : وهذا الذي ذكرَه أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله[١] ، وهكذا رُوي عن وهب بن منبه مثله ، والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيفٌ بمرَّة ، لا يُعتمد عليه .

وقد قيل : إنَّ نُوحاً عليه السلام لم يُولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطُّوفان ، وإنما وُلد له قبل السفينة كنعان الذي غَرِقَ ، وعابر مات قبل الطُّوفان . والصحيحُ أن الأولادَ الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم ، وهو نصُّ التوراة . وقد ذُكرَ أنَّ حاماً واقعَ امرأتَه في السفينة ، فدعا عليه نوحٌ أنْ تُشوَّهَ خِلْقَةُ نطفتِه ، فوُلد له ولدٌ أسود ، وهو كنعان بن حام جدُّ السودان . وقيل : بل رأى أباه نائماً وقد بدتْ عورتُه فلم يسترْها ، وسترَها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تُغَيَّر نُطْفته ، وأن يكونَ أولادُه عبيداً لإخوته .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير : من طريق عليّ بن زيد بن جُدعان ، عن يوسفَ بن مِهْران ، عن ابن عبَّاس ، أنه قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : لو بعثتَ لنا رجلاً شهدَ السفينة فحدَّثنا عنها ! فانطلقَ بهم حتى أتى إلى كثيبٍ[٢] من تُرابٍ ، فأخذَ كفًّا من ذلك التراب بكفِّه ، قال : أتدرون من هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعبُ[٣] حام بن نوح . قال : وضربَ الكثيبَ بعصاه ، وقال : قمْ بإذن الله ، فإذا هو قائمٌ ينفضُ الترابَ عن رأسِه قد شابَ . فقال له عيسى عليه السلام : هكذا هلكتَ ؟ قال : لا ولكنِّي متُّ وأنا شابٌّ ، ولكنِّي ظننتُ أنَّها السَّاعة ، فمن ثَمَّ شِبْتُ . قال : حدَّثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولُها ألفَ ذراع ومائتي ذراع ، وعرضُها ستمئة ذراع ، وكانت ثلاثَ طبقاتٍ ، فطبقةٌ فيها الدوابُّ والوحشُ ، وطبقةٌ فيها الإنس وطبقةٌ فيها الطير . فلما كثرَ أرواثُ الدوابِّ أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نوح عليه السلام أن اغمزْ[٤] ذنبَ الفيل ، فغمزَه فوقعَ منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ ، فأقبلا على الرَّوْث ، ولما وقعَ الفأرُ بخرز السفينة يقرضُه ، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضربْ بينَ عيني الأسدِ ، فخرجَ من منخره سنُّور وسنُّورة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى : كيف عرفَ نوحٌ عليه السلام أن البلاد قد غَرِقتْ ؟ قال : بعثَ الغراب يأتيه بالخبر ، فوجدَ جيفةً فوقعَ عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فذلك لا يألفُ البيوتَ . قال : ثم بعثَ الحمامةَ فجاءت بورقِ زيتونٍ بمنقارها وطيْنٍ برجلِها ، فعلمَ أنَّ البلادَ قد غَرِقَتْ ، فطوَّقها الخضرةَ التي في عُنُقِها ، ودعا لها أن تكونَ في أُنسٍ وأمانٍ ، فمن ثمَّ تألفُ البيوتَ . قال : فقالوا : يا رسول الله : ألا ننطلقُ به إلى أهلينا ، فيجلسُ معنا ويُحدِّثنا ؟ قال : كيف يتبعُكم منْ لا رزقَ له . قال : فقال له : عُدْ بإذن الله ، فعادَ تراباً[٥] . وهذا أثر غريب جداً .

---

(١) أي من قول سعيد بن المسيب .

(٢) « كثيب » : تل من رمل .

(٣) كذا في الأصول ، وفي تاريخ الطبري : هذا قبر .

(٤) « اغمز » : انخسْ .

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ١٨١ ـ ١٨٢) .

وروى علباءُ بن[1] أحمر : عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس ، قال : كان مع نوحٍ في السفينة ثمانونَ رجلاً معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا في السفينة مئة وخمسين يوماً ، وإن الله وجَّهَ السفينةَ إلى مكَّة ، فدارت بالبيتِ أربعينَ يوماً ، ثم وجَّهها إلى الجُودِيّ[2] فاستقرَّتْ عليه ، فبعثَ نوحٌ عليه السلام الغراب ليأتيَه بخبر الأرض ، فذهبَ فوقعَ على الجِيفَ فأبطأ عليه ، فبعثَ الحمامةَ فأتته بورقِ الزيتونِ ولطختْ رِجْلَيْها بالطِّين ، فعرفَ نوحٌ أنَّ الماءَ قد نضبَ ، فهبط إلى أسفلِ الجُوديِّ ، فابتنى قريةً وسمَّاها ثمانينَ ، فأصبحوا ذاتَ يومٍ وقد تبلبلتْ ألسنتُهم على ثمانينَ لغةً ، إحداها العربيُّ ، وكان بعضُهم لا يَفْقهُ كلامَ بعضٍ ، فكانَ نوحٌ عليه السلام يُعبِّرُ عنهم[3] .

وقال قتادةُ وغيره : ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب ، فسارُوا مئة وخمسين يوماً ، واستقرَّت بهم على الجوديّ شهراً ، وكان خروجُهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم[4] .

وقد روى ابن جرير[5] خبراً مرفوعاً يُوافق هذا وأنهم صامُوا يومَهم ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا أبو جعفر ، أخبرنا عبدُ الصمد بن حَبيب الأزدي ، عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شُبَيْل ، عن أبي هريرة ، قال : مرَّ النبيُّ بأناسٍ من اليهود وقد صامُوا يومَ عاشُوراء ، فقال : « ما هذا من الصوم ؟ » فقالوا : هذا اليوم الذي نجَّا الله موسى وبني إسرائيلَ من الغرَقِ ، وغرَّقَ فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينةُ على الجُوديِّ ، فصامَ نوحٌ وموسى عليهما السلام شكراً لله عزَّ وجلَّ ، فقال النبيُّ : « أنا أحقُّ بموسى وأحقُّ بصومِ هذا اليوم »[6] .

وقال لأصحابه : « مَنْ كانَ منكم أصبحَ صائماً فليتمَّ صومَه ، ومَنْ كان منكم قد اصابَ من غداءِ أهلِه فليتمَّ بقيَّةَ يومِه »[7] .

وهذا الحديث له شاهدٌ في الصحيح[8] من وجه آخر ، والمستغرب ذكرُ نوحٍ أيضاً ، والله أعلم .

وأما ما يذكرُه كثيرٌ من الجهلة أنهم أكلوا من فُضولِ أزوادِهم ومِنْ حُبوبٍ كانت معَهم قد

---

(١) علباء بن أحمر : اليشكري روى عن عمرو بن أخطب ، وعكرمة ، وثقه ابن معين وأبو زرعة الرازي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أحمد : لا بأس به لا أعلم إلا خيراً ، وهو من رجال مسلم (تهذيب الكمال ٢٠/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) .

(٢) « الجوديّ » : اسم جبل بالجزيرة ، استوت عليه سفينة نوح .

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير أيضاً (٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥١) ولم يعزه لكتاب .

(٤) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٥٥١) .

(٥) في التاريخ (١/ ١٩٠) عن عبد العزيز بن عبد الغفور ، عن أبيه .

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) ، وإسناده ضعيف ، ولكن لقصة موسى دون نوح شواهد يقوى بها .

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٩) ، وإسناده ضعيف ، ولكن له شواهد يقوى بها .

(٨) أخرجه البخاري (٤٦٨٠) في التفسير ، ومسلم (١١٣٠) في الصيام .

استصحبُوها ، واطَّحنُوا الحبوبَ يومئذ ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لمَّا انهارتْ من الضِّياء بعد ما كانوا في ظُلْمة السفينة ، فكلُّ هذا لا يصحُّ فيه شيء ، وإنما يُذكر فيه آثارٌ منقطعة عن بني إسرائيل ، لا يُعتمدُ عليها ولا يُقتدى بها ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : لما أرادَ الله أن يكفَّ ذلك الطُّوفان أرسلَ ريحاً على وجه الأرض ، فسكنَ الماءُ وانسدَّتْ ينابيعُ الأرض ، فجعلَ الماء ينقصُ ويغيض ويُدْبرُ ، وكان استواءُ الفُلْكِ فيما يزعمُ أهلُ التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئيَتْ رُؤوس الجبال .

فلما مضى بعد ذلكَ أربعونَ يوماً فتحَ نوحٌ كُوَّةَ الفُلْكِ التي صنعَ فيها ، ثم أرسلَ الغُرابَ لينظرَ له ما فعلَ الماء ، فلم يرجع إليه ، فأرسلَ الحمامةَ فرجعتْ إليه لم يجد لرجلِها موضعاً ، فبسط يدَه للحمامة فأخذَها فأدخلَها ، ثم مضت سبعة أيام ، ثم أرسلها لتنظر له ما فعلَ الماءُ فلم ترجع ، فرجعتْ حينَ أمستْ وفي فيها ورقُ زيتونةٍ ، فعلمَ نوحٌ أنَّ الماء قد قلَّ عن وجه الأرض ، ثم مكثَ سبعة ايام ، ثم أرسلَها ، فلم ترجع إليه ، فعلم نوحٌ أنَّ الأرض قد برزتْ ، فلما كملت السنة ـ فيما بين أنْ أرسلَ الله الطُّوفان إلى أن أرسلَ نوحٌ الحمامةَ ـ ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين ، برزَ وجهُ الأرضِ ، وظهرَ البرُّ ، وكشفَ نوحٌ غطاءَ الفلك .

وهذا الذي ذكرَه ابنُ إسحاق هو بعينه مضمونُ سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب .

قال ابن إسحاق : وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٤٨] .

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلَّم نوحاً قائلاً له : اخرجْ من الفُلْك أنتَ وامرأتك وبنوكَ ونساءُ بنيكَ معكَ ، وجميع الدواب التي معك ، ولينموا وليكثروا في الأرض ، فخرجوا ، وابتنى نوحٌ مذبحاً لله عزَّ وجل ، وأخذ من جميع الدوابِّ الحلال والطير الحَلال فذبحها قرباناً إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعَهدَ الله إليه ألا يعيدَ الطُّوفان على أهل الأرض ، وجعلَ تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام ، وهو قوس قزح الذي قدَّمنا[١] عن ابن عباس أنه أمان من الغرق . قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوسٌ بلا وتر ، أي : أن هذا الغمام لا يُوجد منه طوفان كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابرٍ من لدن كنوفرت[٢] ـ يعني آدم ـ إلى زماننا هذا . وهذا قاله من زنادقة المجوس عبَّاد النيران وأتباع الشيطان .

---

(١) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : روى .
(٢) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : كيومرث .

وهذا سفسطة ، وكفرٌ فظيع ، وجهل بليغ ، ومكابرةٌ للمحسوسات ، وتكذيبٌ لربِّ الأرض والسموات ، وقد أجمعَ أهلُ الأديان الناقلون عن رسلِ الرحمن مع ما تواتر عندَ الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنَّه عمَّ جميعَ البلاد ولم يُبْقِ اللهُ أحداً من كفرة العباد ، استجابةً لدعوة نبيِّه المؤيد المعصوم ، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم .

ذكرُ
شيء من أخبار نوح نفسه عليه السَّلام

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ [الإسراء : ٣] قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله[١] .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا أبو أسامة ، حدَّثنا زكريا بن أبي زائدة ، عن سعيد بن أبي بردة ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله ليَرضى عن العبد أنْ يأكلَ الأكْلة فيحمدَه عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

وكذا رواه مسلم والترمذي والنَّسائي[٣] من حديث أبي أسامة : والظاهر أن الشكور هو الذي يعملُ بجميع الطَّاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكرَ يكون بهذا وبهذا وبهذا ، كما قال الشاعر : [من الطويل]

أفادتكُمُ النعماءُ منّي ثلاثةً ... يدي ولِساني والضميرَ المُحجَّبا[٤]

ذِكرُ
صومه[٥] عليه السلام

وقال ابن ماجة[٦] ـ باب صيام نوح عليه السلام ـ : حدَّثنا سهلُ بن أبي سَهْل ، حدَّثنا سعيد بن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤) .
(٢) في المسند (٣/ ١١٧) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر والدعاء ، والترمذي (١٨١٦) في الأطعمة ، والنسائي (٦٨٩٩) في السنن الكبرى .
(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٨) وابن القيم في كتابه طريق الهجرتين (ص٦٢١) فقال : فاليد : للطاعة ، واللسان للثناء ، والضمير : للحب والتعظيم .
(٥) في أ : صيامه .
(٦) في سننه (١٧١٤) في الصيام ، وفي مصباح الزجاجة : في إسناده ابن لهيعة ، وهو ضعيف وقد ثبت النهي عن صيام الدهر في غير ما حديث .

أبي مَرْيم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعةَ ، عن أبي فراس ، أنَّه سمعَ عبدَ الله بن عمرو يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « صامَ نوحٌ الدَّهرَ إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة ، بإسناده ولفظه .

وقد قال الطبراني : حدَّثنا أبو الزِّنباع روح بن الفَرَج ، حدَّثنا عمرو بن خالد الحرَّاني ، حدَّثنا ابن لهيعة ، عن أبي قنان ، عن يزيد بن رباح أبي فراس ؛ أنَّه سمعَ عبدَ الله بن عمرو يقول : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « صامَ نوحٌ الدَّهْرَ إلا يوم الفطر ويوم الأضحى ، وصامَ داودُ نصفَ الدهر ، وصامَ إبراهيمُ ثلاثةَ أيَّامٍ منْ كُلِّ شهر ، صامَ الدَّهرَ وأفطرَ الدَّهْرَ »[١] .

***

ذِكْرُ
حَجِّه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى : حدَّثنا سفيان بن وكيع ، حدَّثنا أبي ، عن زمعة ، هو ابن أبي صالح ـ عن سلمةَ بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : حجَّ رسولُ الله ﷺ ، فلما أتى وادي عسفانَ ، قال : « يا أبا بكر ! أي وادٍ هذا ؟ » قال : هذا وادي عسفان ، قال : « لقدْ مرَّ بهذا الوادي نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ على بكرات[٢] لهم حمر ، خُطُمهم الليف ، أُزرهم العباء ، وأرديتهم النِّمار ، يحجُّون البيتَ العتيق » . فيه غرابة .

***

ذِكْرُ
وصيَّتِه لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد[٣] : حدَّثنا سليمان بن حرب ، حدَّثنا حمَّاد بن زيد ، عن الصَّقْعب بن زُهير ، عن زيد بن أسلم ، قال حمَّاد ـ أظنُّه عن عطاء بن يسار ـ عن عبد الله بن عمرو ، قال : كنَّا عند رسولِ الله ﷺ ، فجاءَ رجلٌ من أهل البادية عليه جُبَّة سيجان[٤] مزرورةٌ بالديباج ، فقال : ألا إنَّ صاحبَكم هذا قد وضعَ كلَّ

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٩٥) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : أبو قنان ، ولم أعرفه .
(٢) بكرات : جمع بكرة ، وهي الفتية من الإبل . والخطم : كل ما وضع في أنف البعير ليُقتاد منه .
(٣) في المسند (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) رقم (٦٥٨٣) .
(٤) وسيجان : جمع ساج ، وهو الطيلسان الأخضر . وسفه الحق : جهله ، والاستخفاف به وغَمْص النَّاس : الاستهانة=

فارس ابنَ فارس ، قال : يُريدُ أن يضعَ كل فارس ابن فارس ، ويرفعَ كلَّ راع ابن راع . قال : فأخذَ رسولُ الله ﷺ بمجامع جُبَّتِه ، وقال : « ألا أرى عليكَ لباسَ منْ لا يعقل ؟ » . ثم قال : « إنّ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاةُ قال لابنه : إنِّي قاصٌّ عليكَ الوصيةَ : آمُرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ؛ آمرك بلا إلّه إلا الله ، فإنَّ السموات السبع والأرضينَ السبعَ لو وُضِعتْ في كفَّةٍ ، ووُضعتْ لا إلّه إلا الله في كفَّةٍ رجحتْ بهنَّ لا إلّه إلا الله ، ولو أنَّ السمواتِ السبع والأرضينَ السبع كنَّ حلقةً مبهمةً فضمَّتهنَّ لا إلّه إلا الله وسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يُرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر » . قال : قلت ـ أو قيل ـ يا رسولَ الله هذا الشركُ قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكونَ لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا حلَّة يلبسها ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا دابّة يركبها ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه ؟ قال : « لا » قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله ! فما الكبر ؟ قال : « سَفهُ الحَقِّ وغَمْصُ النَّاس » وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبراني : من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « كان في وصية نوح لابنه : أُوصيكَ بخصلتين ، وأنهاكَ عن خصلتين »[1] فذكرَ نحوَه .

وقد رواه أبو بكر البزار : عن إبراهيم بن سعيد ، عن أبي معاوية الضرير ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ بنحوه[2] . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني ، والله أعلم .

ويزعمُ أهلُ الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركبَ في السفينة كان عمره ستمئة سنة . وقدَّمنا عن ابن عبَّاس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلثمئة وخمسين سنة ، وفي هذا القول نظر ، ثم إن لم يمكن الجمعُ بينه وبينَ دلالة القرآن فهو خطأٌ محضٌ ، فإنَّ القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطُّوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] ثمَّ الله أعلمُ كم عاشَ بعد ذلك ، فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس ، من أنه بعث وله أربعمئة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان

= بهم واحتقارهم وازدراؤهم .

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٧١٤) وفيه إسحاق بن إبراهيم الحنيني ، وهو ضعيف ، وابن إسحاق مدلس وقد عنعنه .

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٠٦٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٤) : فيه محمد بن إسحاق ، وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وأخرجه ابن عساكر ، كما في مختصر تاريخ دمشق ؛ لابن منظور (٢٦/ ٢١٧) .

ثلاثمئة وخمسين سنة ، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمئة وثمانين سنة .

وأما قبرُه عليه السلام ، فروى ابنُ جرير والأزرقي : عن عبد الرحمن بن سابط ـ أو غيره من التابعين مرسلاً ـ أنَّ قبرَ نوح عليه السلام بالمسجد الحرام[١] .

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تُعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامعٌ قد بُني بسبب ذلك فيما ذكر ، والله أعلم .

* * *

(١) لم أجده فيهما ، وانظره في مختصر تاريخ دمشق ؛ لابن منظور (٢٦/ ٢١٨) .

قصّة هود عليه السلام

وهو هودُ بن شالخ بن أرفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ويُقال : إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفَخْشَذ بن سام بن نوح . ويُقال : هود بن عبد الله بن رَباح بن الجارود بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . ذكرَه ابن جرير(١) .

وكان من قبيلة يُقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح ، كانوا عرباً يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت بأرضٍ مُطلّةٍ على البحر ، يقال لها : الشحر ، واسم واديهم مغيث .

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضِّخام ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٦ ـ ٧] أي : عاد إرم ، وهم عاد الأولى . وأما عادُ الثانية فمتأخرة ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه .

وأما عاد الأولى ، فهم عاد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٧ ـ ٨] أي : مثل القبيلة . وقيل : مثل العمد . والصحيح الأول ، كما بيّناه في التفسير .

ومن زعمَ أنَّ إرمَ مدينةٌ تدور في الأرض ، فتارةً في الشام ، وتارةً في اليمن ، وتارة في الحجاز ، وتارةً في غيرها ، فقد أبعدَ النُّجْعةَ ، وقال ما لا دليلَ عليه ، ولا برهانَ يُعوَّلُ عليه ، ولا مستندَ يُركنُ إليه .

وفي صحيح ابن حبّان : عن أبي ذرٍّ ، في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين ، قال فيه : « منهم أربعةٌ من العرب ، هُودٌ ، وصالحٌ ، وشُعيب ، ونَبيُّكَ يا أبا ذر »(٢) .

ويُقال : إن هُوداً عليه السلام أوّلُ من تكلّم بالعربية ، وزعمَ وهبُ بن مُنبِّه أنَّ أباه أوّلُ من تكلّم بها . وقال غيره : أوّلُ من تكلَّم بها نوح . وقيل : آدمُ ، وهو الأشبه . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

ويُقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام : العربُ العاربةُ ، وهم قبائلُ كثيرةٌ منهم : عاد ، وثمود ، وجُرْهم ، وطَسْم ، وجَديس ، وأميم ، ومَدْين ، وعِمْلاق ، وعَبيل ، وجَاسم ، وقَحْطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم .

---

(١) ذكره ابن جرير في التاريخ (١/ ٢١٦) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٩٤) موارد ، وفي المجروحين (٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠) والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥١) . . وإسناده ضعيف جداً ، فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني ، كذاب ، وقال الذهبي : أحد المتروكين .

وأما العرب المستعربة : فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وكان إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام أوّلَ من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد أخذَ كلامَ العرب من جُرْهم الذين نزلوا عند أُمّه هاجرَ بالحرم ، كما سيأتي بيانُه في موضعه إن شاء الله تعالى ، ولكنْ أنطقَه الله بها في غاية الفَصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفَّظُ بها رسولُ الله ﷺ .

والمقصودُ أنَّ عاداً وهم عادٌ الأولى كانوا أوّل من عبدَ الأصنام بعد الطُّوفان ، وكانت أصنامُهم ثلاثة : صداً ، وصموداً ، وهراً[1] . فبعثَ الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام ، فدعاهم إلى الله ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٥ ـ ٧٢] .

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود : ٥٠ ـ ٦٠] . وقال تعالى في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا

(١) في تاريخ الطبري (١/٢١٦) : صدَّاء ، وصمود ، والهباء . وفي إحدى النسخ المخطوطة : الهناء .

مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١ ـ ٤١] . وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة نوح أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٢٣ ـ ١٤٠] .

وقال تعالى في سورة حم السجدة : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٥ ـ ١٦] وقال تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢١ ـ ٢٥] وقال تعالى في الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤١ ـ ٤٢] وقال تعالى في النجم : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم : ٥٠ ـ ٥٣] وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٨ ـ ٢٢] وقال في الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ ـ ٨] وقال في سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ٦ ـ ١٤] .

وقد تكلّمنا على كلٍّ من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير ، ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، والعنكبوت ، وفي سورة (ص) ، وفي سورة (ق) ، ولنذكر مضمون القِصّة مجموعاً من هذه السياقات ، مع ما يُضاف إلى ذلك من الأخبار .

وقد قدَّمنا أنهم أوَّل الأمم عبدوا الأصنامَ بعد الطُّوفان ، وذلك بيِّنٌ في قوله لهم : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف : ٦٩] . أي : جعلهم أشدَّ أهل زمانهم في الخلقة والشِّدَّة والبطش . وقال في المؤمنون : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] وهم قوم هود على الصحيح .

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ [المؤمنون : ٤١] قالوا : وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصَّيْحة ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦] وهذا الذي قالوه لا يمنعُ من اجتماع الصَّيْحة والرِّيح العاتية عليهم ، كما سيأتي في قصَّة أهل مَدْين أصحاب الأيكة ، فإنَّه اجتمعَ عليهم أنواعٌ من العقوبات ، ثم لا خلافَ أن عاداً قبلَ ثمود .

والمقصودُ أنَّ عاداً كانوا عَرباً جُفاةً كافرين ، عُتاةً متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسلَ الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله ، وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له ، فكذَّبوه وخالفوه وتنقَّصوه ، فأخذهم اللهُ أخذَ عزيز مقتدر ، فلما أمرهم بعبادة الله ورغَّبهم في طاعته واستغفاره ، ووعدَهم على ذلك خيرَ الدنيا والآخرة وتوعَّدهم على مخالفة ذلك عقوبةَ الدنيا والآخرة : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦] أي : هذا الأمرُ الذي تدعونا إليه سَفهٌ بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يُرتجى منها النصرُ والرزقُ ، ومع هذا نظنُّ أنَّكَ تكذبُ في دعواكَ أنَّ الله أرسلكَ : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٧] أي : ليس الأمرُ كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] والبلاغُ يستلزمُ عدمَ الكذب في أصل المُبلَّغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزمُ إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعةٍ مانعة ، لا لَبْسَ فيها ولا اختلافَ ولا اضطرابَ ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النُّصْح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم ، لا يبتغي منهم أجْراً ولا يطلب منهم جُعْلاً ، بل هو مخلصٌ لله عزَّ وجلَّ في الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لا يطلبُ أجرَه إلا من الذي أرسلَه ، فإنَّ خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ، ولهذا قال : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] أي : ألكم عقل تُميِّزونَ به وتفهمونَ أني أدعوكم إلى الحقِّ المبين الذي تشهد به فِطَرُكم التي خُلقتم عليها وهو دينُ الحقِّ الذي بعثَ الله به نوحاً ، وأهلكَ من خالفَه من الخلق ، وها أنا أدعوكُم إليه ، ولا أسألُكم أجراً عليه ، بل أبتغي ذلك عند الله مالكِ الضُّرِّ والنَّفْع ، ولهذا قال مؤمنُ يس ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٢١ ـ ٢٢] وقال قوم هود له فيما قالوا : ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود : ٥٣ ـ ٥٤] يقولون : ما جئتنا بخارقٍ يشهدُ لك بصدقِ ما جئت به وما نحن بالذين نتركُ عبادةَ أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمتَه ولا برهان نصبتَه ، وما نظنُّ إلا أنَّكَ مجنون فيما تزعمُه ،

وعندنا إنما أصابَك هذا أنَّ بعضَ آلهتنا غضبَ عليك فأصابك في عَقْلك فاعتراكَ جنونٌ بسبب ذلك ، وهو قولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٥] وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرّؤ من آلهتم وتنقُّص منه لها ، وبيان أنها لا تنفعُ شيئاً ولا تضرُّ ، وإنها جمادٌ حكمُها حكمُه وفعلُها فعله ، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضرُّ ، فها أنا بريء منها لا عنٌ لها فكيدوني ثم لا تنظرون . أنتم وهي جميعاً بجميع ما يُمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ، ولا تُؤخِّروني ساعةً واحدةً ولا طَرْفة عين ، فإني لا أُبالي بكم ولا أُفكِّرُ فيكم ولا أنظر إليكم ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود : ٥٦] أي : أنا متوكِّلٌ على الله ومتأيِّدٌ به ، وواثق بجنابه الذي لا يضيعُ من لاذَ به واستندَ إليه ، فلستُ أبالي مخلوقاً سواه ، ولستُ أتوكَّل إلَّا عليه ، ولا أعبدُ إلَّا إياه .

وهذا وحدهُ برهانٌ قاطعٌ على أن هوداً عبدَ الله ورسولَه ، وأنهم على جهل وضلال في عبادتِهم غير الله ، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً ، فدلَّ على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدلَّ به نوحٌ عليه السلام قبله في قوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] .

وهكذا قال الخليلُ عليه السلام : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام : ٨٠ ـ ٨٣] .

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٤] استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً ، وهذه الشبهةُ أدلى بها كثيرٌ من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً ، كما قال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء : ٩٤ ـ ٩٥] ولهذا قال لهم هود عليه السلام : ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ ﴾ [الأعراف : ٦٣] أي : ليس هذا بعجيب فإن الله أعلمُ حيث يجعلُ رسالاته[1] ،

---

(١) كذا في الأصل ، وفي المطبوع رسالته .

وقوله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ [المؤمنون : ٣٥ ـ ٣٩]. استبعدوا المعاد وأنكروا قيامَ الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: هيهات هيهات : أي : بعيدٌ بعيدٌ هذا الوعد ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٧] أي : يموت قومٌ ويحيى آخرون ، وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعضُ الجهلة من الزنادقة : أرحامٌ تدفعُ وأرضٌ تبلعُ .

وأما الدَّورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودونَ إلى هذه الدار بعد كلِّ ستة وثلاثين ألف سنة ، وهذا كلُّه كذب وكفر وجَهْل وضلال ، وأقوال باطلة ، وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل ، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم ، الذين لا يعقلون ولا يهتدون ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٣] وقال لهم فيما وعظهم به : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٢٩] يقول لهم : أتبنون بكلِّ مكان مرتفع بناءً عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها ، تعبثون ببنائها ، لأنه لا حاجةَ لكم فيه ، وما ذاكَ إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيامَ ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٦ ـ ٨] فعادُ إرم هم[1] عادُ الأولى ، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحملُ الخيام .

ومَنْ زعم أن إرم مدينة من ذهب وفِضَّة ، وهي تنتقل في البلاد ، فقد غلطَ وأخطأ ، وقال ما لا دليلَ عليه ، وقوله : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ [الشعراء : ١٢٩] قيل : هي القصور . وقيل : بروج الحمام . وقيل : مآخذ الحمام ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٩] أي : رجاءَ منكم أن تُعمَّروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٣٠ ـ ١٣٥] وقالوا له مما قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] أي : أجئتنا لنعبدَ الله وحدَه ونخالفَ آباءَنا وأسلافنا وما كانوا عليه ، فإن كنتَ صادقاً فيما جئتَ به فأتنا بما تعدُنا من العذاب والنَّكال ، فإنَّا لا نُؤمنُ بك ولا نتبعكَ ولا نُصدِّقك ، كما قالوا ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٦ ـ ١٣٨] إمَّا على قراءة فتح الخاء ، فالمراد به اختلاق الأولين ، أي : إن هذا الذي جئتَ به إلا اختلاقٌ منك وأخذتَه من كتب الأوَّلين . هكذا فسَّره غير واحد من الصحابة والتابعين . وإمَّا على قراءة الخاء واللام ، فالمراد به الدِّين ، أي : إن هذا الدِّين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ، ولن نتحوَّلَ عنه ، ولا نتغيَّرَ ، ولا نزالُ مُتمسِّكين به . ويُناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٨] قال : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) في أ : هو .

رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي : قد استحققتم[1] بهذه المقالة الرجسَ والغضبَ من الله ، أتعارضون عبادةَ الله وحدَه لا شريكَ له بعبادة أصنام أنتم نحتُموها وسمَّيتمُوها آلهةً من تلقاء أنفسكم ، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ، ما نزَّل الله بها من سلطان ، أي : لم يُنزلْ على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا بُرهاناً ، وإذا أبيتم قَبُولَ الحقِّ وتماديتم في الباطل ، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذابَ الله الواقع بكم ، وبأسه الذي لا يُردُّ ، ونكَاله الذي لا يُصدّ ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٩ـ٤١] وقال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٢ـ٢٥] وقد ذكرَ الله تعالى خبرَ إهلاكهم في غير ما آية ، كما تقدَّم مجملاً ومفصَّلاً ، كقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٢] وكقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : ٥٨ـ٦٠] . وكقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤١] وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٣٩ـ١٤٠] .

وأما تفصيل إهلاكهم ، فكما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مستتين[2] ، فطلبوا السُّقيا ، فرأوا عارضاً[3] في السماء وظنُّوه سقيا رحمة ، فإذا هو سقيا عذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] أي : من وقوع العذاب ، وهو قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٢] ومثلها في الأعراف .

وقد ذكرَ المفسرون وغيرُهم هاهنا الخبرَ الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار ، قال : فلما أبوا إلا الكفرَ بالله عزَّ وجلَّ أمسكَ عنهم القَطْرَ[4] ثلاثَ سنين ، حتى جَهدَهم ذلك ، قال : وكانَ النَّاسُ إذا

---

(١) في أ : استحقيتم .

(٢) ممحلين مستتين : أصابهم الجدب والقحط .

(٣) عارضاً : سحاباً .

(٤) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : المطر .

جَهْدهم أمرٌ في ذلك الزمان ، فطلبوا من الله الفرجَ منه ، إنما يطلبونَه بحرمِهِ ومكانِ بيته ، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكانَ سيدهم إذ ذاك رجلاً يُقال له معاوية بن بَكْر ، وكانت أمُّه من قوم عاد ، واسمها جلهدة ابنة الخيبري . قال : فبعثَ عادٌ وفداً قريباً من سبعينَ رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمَرُّوا بمعاوية بن بكر بظاهر مكَّة ، فنزلوا عليه ، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمرَ ، وتُغنيهم الجرادَتان ـ قَيْنتان لمعاوية ـ وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلمَّا طالَ مقامُهم عندَه وأخذته شفقةٌ على قومِه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ، عمِلَ شعراً ، فعرَّضَ[١] لهم بالانصراف ، وأمرَ القينتين أن تغنِّيهم به ، فقال : [من الوافر]

ألا يـا قيـلُ ويحـك قـمْ فهَيْنـمْ ... لعـلّ الله يُصبحنـا غمـامـا[٢]

فيسقـي أرضَ عـادٍ إنَّ عَـادا ... قـد امسـوا لا يُبِينُـونَ الكَـلامـا

مِن العَطَشِ الشديدِ فليسَ نرجو ... بـه الشيـخَ الكبيـرَ و لا الغُـلامـا

وقـد كـانـتْ نسـاؤُهـمُ بخيـرٍ ... فقـد أمسـتْ نساؤهـمُ عَيامَى[٣]

وإنَّ الـوحـشَ تـأتيهـم جهـاراً ... ولا يخشـى لعـاديٍّ سهـامـا

وأنتـم هـاهنـا فيمـا اشتهيتـم ... نهـارَكُـمُ وليلَكُـمُ التمـامـا

فقُبِّـحَ وفـدُكـم مـن وَفْـدِ قـومٍ ... ولا لقُّـوا التَّحيّـةَ والسَّـلامـا

قال : فعندَ ذلكَ تنبَّه القومُ لما جاؤوا له ، فنَهضوا إلى الحرَم ودَعَوا لقومِهم ، فدعا داعيهم ، وهو قيْل بن عتر ، فأنشأ الله سحاباتٍ ثلاثاً : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه مُنادٍ من السماء : اخترْ لنفسك ولقومِك من هذا السحاب . فقال : اخترتُ السَّحابة السَّوْداءَ ، فإنها أكثرُ السَّحاب ماءً ، فناداه : اخترتَ رماداً رِمْدداً لا تُبقي من عاد أحداً ، لا والداً تتركُ ولا ولداً ، إلا جعلته هَمِداً ، إلا بني اللُّوذية المُهْدَى[٤] . قال : وهو بطنٌ من عادٍ كانوا مقيمينَ بمكَّة ، فلم يُصبهم ما أصابَ قومَهم . قال : ومَنْ بقي من أنسالهم وأعقابهم هم عاد الآخرة .

قال : وساق الله السَّحابة السَّوداءَ التي اختارَها قَيْلُ بن عتر بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرجَ عليهم من واد يقال له المغيث ، فلما رأوْها استبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥] أي : كل شيء أمرت به .

---

(١) في المطبوع : فيعرض .

(٢) فهينم : من الهينمة ، وهي الكلام الخفي . وفي تاريخ الطبري : يسقينا غماماً ، وفي المطبوع : يمنحنا .

(٣) كذا في الأصل وتاريخ الطبري ، وفي المطبوع : أياما . وعَيَامى : جمع عيمىٰ ، وهي المرأة التي مات عنها زوجها ولا مال لها .

(٤) في المطبوع : الهمدا .

فكان أوّل من أبصر ما فيها وعرفَ أنها ريحٌ ـ فيما يذكرون ـ امرأةٌ من عاد يُقال لها « قهد »[١] فلما تبيَّنت ما فيها صاحتْ ثم صُعِقَتْ ، فلمَّا أفاقت ، قالوا : ما رأيت يا قهد ؟ قالت : رأيتُ ريحاً فيها كشُهُبِ النَّار أمامَها رجال يَقُودونها ، فسخَّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حسوماً ، والحسوم : الدائمة . فلم تدعْ من عاد أحداً إلا هلكَ .

قال : واعتزلَ هودٌ عليه السلام فيما ذُكر لي في حظيرةٍ هو ومن معه من المؤمنينَ ، ما يُصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفسُ ، وإنها لتمرُّ على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغُهم بالحجارة ، وذكر تمامَ القصة[٢] .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يُشبه هذه القِصَّة ، فقال[٣] : حدَّثنا زيدُ بن الحُبَاب ، حدَّثني أبو المنذر سَلاَّمُ بن سُليمان النَّحْوي ، حدَّثنا عاصمُ بن أبي النَّجُود ، عن أبي وائل ، عن الحارث ـ وهو ابن حسَّان ، ويقال : ابن يزيد البَكْري ـ قال : خرجتُ أشكو العلاءَ بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررتُ بالرَّبَذة ، فإذا عجوزٌ من بني تميم منقطَعٌ بها ، فقالت لي : يا عبد الله ! إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجةً ، فهل أنت مُبْلغي إليه ؟ قال : فحملتُها ، فأتيتُ المدينةَ ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِه ، وإذا رايةٌ سوداءُ تَخْفقُ ، وإذا بلالٌ مُتقلِّدٌ السيفَ بينَ يديْ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : ما شأنُ الناس ؟ قالوا : يُريدُ أن يبعثَ عمرو بن العاص وَجْهاً . قال : فجلست .

قال : فدخلَ منزله ـ أو قال : رَحْله ـ فاستأذنتُ عليه ، فأُذنَ لي ، فدخلتُ ، فسلَّمتُ ، فقال : « هل كانَ بينكم وبينَ بني تميم شيءٌ ؟ » فقلت : نعم ، وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميم منقطَع بها ، فسألتني أن أحملَها إليكَ ، وهاهي بالباب ، فأذنَ لها فدخلتْ ، فقلت : يا رسول الله ! إن رأيتَ أن تجعلَ بيننا وبين بني تميم حاجزاً ، فاجعل الدهناء ، فإنَّها كانت لنا . قال : فحميتِ العجوزُ واستوفزتْ ، وقالت : يا رسول الله ! فإلى أين تضطر مضرك ؟ قال : فقلتُ : إن مثلي ما قال الأول : مِعْزى حملتْ حتفَها ، حملتُ هذه الأمَة ولا أشعرُ أنها كانت لي خصماً ، أعوذُ بالله ورسوله أن أكونَ كوافد عادٍ . قال : « هيه ، وما وافدُ عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث مني ، ولكن يستطعمه .

قلت : إن عاداً قُحطوا فبعثوا وفداً لهم يُقال له : قَيْل ، فمرَّ بمعاوية بن بكر ، فأقام عندَه شهراً يَسقيه الخمرَ ، وتُغنِّيه جاريتان يُقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهرُ خرجَ إلى جبال تِهامة[٤] ، فقال : اللَّهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسقِ عاداً ما كنتَ تسقيه ،

---

(١) في تاريخ الطبري : مَهْدد .
(٢) انظر القصة في تاريخ الطبري كاملة (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٢) .
(٣) في المسند (٣/ ٤٨٢) .
(٤) في الأصل : إلى جبال مهرة ، وأثبت ما في المسند .

فمرَّتْ به سحاباتٌ سُودٌ ، فنُودي منها : اخترْ . فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداءَ ، فنُودي منها : خذها رماداً رَمْدداً ، لا تُبقي من عادٍ أحداً . قال : فما بلغني أنه بُعث عليهم من الرِّيح إلا كَقَدْر ما يَجري في خَاتمي هذا من الرِّيح حتَّى هلكُوا . قال أبو وائل : وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد[1] عاد .

وهكذا رواه الترمذي[2] : عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحُباب به . ورواه النسائي[3] : من حديث سلاَّم أبي المنذر ، عن عاصم بن بَهْدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجه .

وهكذا أوردَ هذا الحديثَ وهذه القِصَّة عند تفسير هذه القصة غيرُ واحد من المُفسِّرين : كابن جرير[4] وغيره .

وقد يكونُ هذا السِّياق لإهلاك عاد الآخرة ، فإن فيما ذكرَه ابنُ إسحاق وغيرُه ذكراً لمكَّةَ ، ولم تُبنَ إلا بعد إبراهيم الخليل حينَ أسكنَ فيها هاجرَ وابنَه إسماعيل ، ونزلت جرهُم عندَهم كما سيأتي ، وعادٌ الأولى قبلَ الخليل ، وفيه : ذِكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخِّر عن زمان عادٍ الأولى ، لا يُشبه كلامَ المتقدِّمين ، وفيه : أن في تلك السحابة شررَ نارٍ ، وعادٌ الأولى إنما أُهلكوا بريح صرصر[5] .

وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هي الباردةُ والعاتية الشديدة الهبوب : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] أي : كوامل متتابعات . قيل : كان أولها الجمعة ، وقيل : الأربعاء ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] شبَّههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريحَ كانت تجيءُ إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى جثَّةً بلا رأس ، كما قال ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٩] أي : في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : ٢٠] ومن قال : إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به فهذا إليهم[6] ، فقد أخطأ وخالفَ القرآن فإنه قال في الآية الأخرى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة في الثمانية مشؤومة ، وهذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٢) رقم (١٥٨٩٦) وهو حديث حسن .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٧٤) في التفسير وهو حديث حسن .

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٦٠٧) وابن ماجه (٢٨١٦) في الجهاد وهو حديث حسن .

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٧/ ٦٧) والدر المنثور (٤/ ٤٤٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٩) .

(٥) الريح الصرصر : هي الريح الباردة الشديدة .

(٦) كذا في الأصل ، وفي المطبوع : لهذا الفهم ، وما يذكر عن التشاؤم بيوم الأربعاء ، فهو غير صحيح .

لا يقولُه أحدٌ ، وإنماالمراد في أيام نحسات ، أي : عليهم . وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات : ٤١] أي : التي لا تنتج خيراً ، فإن الريحَ المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً ، بل هي عقيم لا نتيجةَ خيرٍ لها ، ولهذا قال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤٢] أي : كالشيء البالي الفاني ، الذي لا يُنتفع به بالكلية .

وقد ثبتَ في الصحيحين : من حديث شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبُور »[١] .

وأما قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢١] فالظاهرُ أنَّ عاداً هذه هي عادٌ الأولى ، فإنَّ سياقَها شبيهٌ بسياق قوم هود وهم الأولى ، ويحتمل أن يكونَ المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ، ويدلُّ عليه ما ذكرنا ، وما سيأتي من الحديث[٢] عن عائشة رضي الله عنها . وأما قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء في الجوِّ كالسحاب ظنُّوه سحابَ مطرٍ ، فإذا هو سحابُ عذابٍ اعتقدوه رحمةً ، فإذا هو نقمةٌ ، رجوا فيه الخير ، فنالوا منه غايةَ الشر ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] . أي : من العذاب ، ثم فسَّره بقوله : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب ، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية ، فلم تُبْق منهم أحداً ، بل تتبَّعتهم حتى كانت تدخلُ عليهم كهوفَ الجبال والغيران[٣] ، فتلفُّهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتُدمِّر عليهم البيوتَ المحكمة والقصورَ المشيَّدة ، فكما مُنوا بقوتهم وشدتهم ، قالوا : من أشدُّ منا قوة ؟ سلَّط الله عليهم الذي هو أشد منهم قوَّةً وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

ويحتمل أن هذه الريح أثارتْ في آخر الأمر سحابةً ظنَّ منْ بقيَ منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم ، وغياث لمن بقيَ منهم ، فأرسلَها الله عليهم شرراً وناراً ، كما ذكره غير واحد ، ويكون هذا كما أصابَ أصحابَ الظُّلَّة من أهل مدينَ ، وجمع لهم بين الرياح الباردة و عذاب النار ، وهو أشدُّ ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادَّة ، مع الصيحة التي ذكرَها في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ والله أعلم .

وقد قال ابنُ أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا محمد بن يحيى بن الضريس ، حدَّثنا ابن فضيل ، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتحَ الله على عادٍ من الريح التي

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٥) في الاستسقاء ، ومسلم (٩٠٠) في صلاة الاستسقاء .
(٢) انظر حديث عائشة رضي الله عنها في ص١٩٤ .
(٣) الغيران : المغاور ، جمع مغارة .

أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرَّتْ بأهل البادية فحملتْهم ومواشيَهم وأموالَهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهلُ الحاضرة من عاد الريحَ وما فيها ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فألقتْ أهل الباديةِ ومواشيَهم على أهل الحاضرة » .

وقد رواه الطبراني[١] : عن عبدان بن أحمد ، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي ، عن أبي مالك ، عن مسلم الملائي ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتحَ الله على عادٍ من الريح إلا مثلَ موضعِ الخاتم ، ثم أرسلتْ عليهم البدوَ إلى الحضَر ، فلما رآها أهلُ الحَضَر ، قالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها ، فألقي أهلُ لبادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا » . قال : عَتتْ على خُزَّانها حتى خرجتْ من خِلال الأبواب[٢] . قلت : وقال غيره : خرجت بغير حساب .

والمقصودُ أن هذا الحديث في رفعه نظرٌ . ثم قد اختلف فيه على مسلم الملائي ، وفيه نوع اضطراب ، والله أعلم .

وظاهرُ الآية أنهم رأوا عارضاً ، والمفهوم منه لمعة السحاب ، كما دلَّ عليه حديث الحارث بن حسَّان البكري إن جعلناه مفسراً لهذه القصة .

وأصرحُ منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال : حدَّثنا أبو الطاهر ، حدَّثنا ابنُ وهب ، سمعتُ ابنَ جريج ، يُحدِّثنا ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفتِ الريحُ قال : « اللهمَّ إني أسألُك خيرها وخير ما فيها وخيرَ ما أُرسلَتْ به ، وأعوذُ بكَ من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلتْ به » ؟ قالت : وإذا عَبَبتِ[٣] السَّماءُ تَغيَّرَ لونُه وخرجَ ودخلَ ، وأقبلَ وأدبرَ ، فإذا أمطرتْ سُرِّي عنه ، فعرفتْ ذلكَ عائشةُ فسألْته ، فقال : « لعلَّه يا عائشةُ كما قال قوم عاد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] »[٤] .

ورواه التِّرمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه[٥] ، من حديث ابن جريج .

---

(١) وأخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٧/ ١١٣) عن ابن عمر وفيه مسلم الملائي ؛ ضعيف ، وفيه : ابن فضيل ، بعضهم لا يحتج به . انظر المغني في الضعفاء (٢/ ٦٢٤) .

(٢) أخرجه الطبراني (١٢٤١٦) في الكبير ، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٣) وقال : فيه مسلم الملائي ، وهو ضعيف .

(٣) في صحيح مسلم (تخيَّلت) أي يخيل إليه أنها ماطرة .

(٤) أخرجه مسلم (٨٩٩) في صلاة الاستسقاء .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٤٩) في الدعوات . وقال : حديث حسن ، والنسائي (٩٤٠) في عمل اليوم والليلة ، والبيهقي (٣/ ٣٦٠) في السنن الكبرى .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدَّثنا هارون بن معروف ، أنبأنا عبد الله بن وهب ، أنبأنا عمرو ـ هو ابن الحارث ـ أن أبا النضر حدَّثه عن سليمان بن يسار ، عن عائشة ؛ أنها قالت : ما رأيتُ رسول الله ﷺ : مستجمعاً ضاحكاً قطُّ حتى أرى منه لهواتِه ، إنما كان يَتَبَسَّمُ . وقالت : كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرفَ ذلك في وجهه . قالت : يا رسولَ الله ! الناسُ إذا رأوا الغيمَ فَرِحوا رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ ، وأراكَ إذا رأيته عُرفَ في وجهكَ الكراهية ؟ فقال : « يا عائشة ! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عُذِّبَ قومُ نوحٍ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذابَ » فقالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[١] .

فهذا الحديثُ كالصريح في تغاير القِصَّتين كما أشرنا إليه أولاً ، فعلى هذا تكون القِصَّة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية ، وتكون بقيَّةُ السياقات في القرآن خبراً عن عادٍ الأولى ، والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم[٢] عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخاري وأبو داود[٣] من حديث ابن وهب .

وقد قدمنا حجَّ هودٍ عليه السلام عند ذكر حجِّ نوح عليه السلام .

ورُوي عن أميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب أنه ذكرَ صفةَ قبر هُودٍ عليه السلام في بلاد اليمن .

وذكرَ آخرون أنه بدمشقَ ، وبجامِعها مكانٌ في حائطِه القِبْليّ يزعمُ بعضُ النَّاس أنَّه قبرُ هودٍ عليه السلام ، والله أعلم .

* * *

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٦٦) رقم (٢٤٢٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٩) (١٦) في صلاة الاستسقاء .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٨ و٤٨٢٩) في التفسير ، وأبو داود (٥٠٩٨) في الأدب .

قصّة صالح نبي ثمود عليه السَّلام

وهم قبيلة مشهورة يقال [لهم][١] : ثمود ، باسم جدِّهم ثمود أخي جَديس ، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح .

وكانوا عَرباً من العاربة يسكنونَ الحِجْرَ الذي بينَ الحجاز وتبوك . وقد مرَّ به رسولُ الله ﷺ وهو ذاهبٌ إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانُه ، وكانوا بعدَ قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنامَ كأولئك .

فبعثَ الله فيهم رجلاً منهم ، وهو عبدُ الله ورسولُه صالحُ بن عُبيدِ بن مَاشِخ بن عُبيد بن حاجِر بن ثمود بن عاثر بن إرمَ بن سام بن نوح ، فدعاهُم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، وأن يخلعُوا الأصنامَ والأندادَ ولا يُشركوا به شيئاً ، فآمنتْ به طائفةٌ منهم ، وكفرَ جمهورُهم ، ونالوا منه بالمقال والفِعال ، وهَمُّوا بقتله ، وقَـتَلُوا النَّاقة التي جعلَها اللهُ حجَّةً عليهم ، فأخذَهم الله أخذَ عزيزٍ مُقتدر ، كما قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٣ـ٧٩] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ

---

(١) سقطت من أ .

مكذوب ﴿٦٥﴾ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴿٦٦﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿٦٧﴾ كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ [هود : ٦١ ـ ٦٨] وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴿٨٠﴾ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴿٨١﴾ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴿٨٢﴾ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴿٨٣﴾ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٨٠ ـ ٨٤] وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ [الإسراء : ٥٩] وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴿١٤١﴾ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴿١٤٢﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٤٣﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٤٤﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٤٥﴾ أتتركون في ما هاهنا آمنين ﴿١٤٦﴾ في جنات وعيون ﴿١٤٧﴾ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴿١٤٨﴾ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴿١٤٩﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٥٠﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴿١٥١﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿١٥٢﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿١٥٣﴾ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴿١٥٤﴾ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿١٥٥﴾ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴿١٥٦﴾ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴿١٥٧﴾ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٥٨﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٤١ ـ ١٥٩] وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴿٤٥﴾ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴿٤٦﴾ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴿٤٧﴾ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿٤٨﴾ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴿٤٩﴾ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴿٥٠﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿٥١﴾ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴿٥٢﴾ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [النمل : ٤٥ ـ ٥٣] وقال تعالى في سورة حم السجدة : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴿١٧﴾ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [فصلت : ١٧ ـ ١٨] وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴿٢٣﴾ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ﴿٢٤﴾ أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴿٢٥﴾ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴿٢٦﴾ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴿٢٧﴾ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴿٢٨﴾ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴿٢٩﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿٣٠﴾ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿٣١﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : ٢٣ ـ ٣٢] وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴿١١﴾ إذ انبعث أشقاها ﴿١٢﴾ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴿١٣﴾ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴿١٤﴾ ولا يخاف عقباها ﴾ [الشمس : ١١ ـ ١٥] . وكثيراً ما يقرنُ الله في كتابه بينَ ذكرِ عادٍ وثمود ، كما في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفُرقان ، وسورة (ص) وسورة (ق) والنجم ، والفجر .

ويُقال : إن هاتين الأمتين لا يعرفُ خبرَهما أهلُ الكتاب ، وليس لهما ذِكر في كتابهم التوراة ، ولكن

في القرآن ما يدلُّ على أن موسى أخبرَ عنهما ، كما قال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [إبراهيم : ٨ ـ ٩] الآية . الظاهرُ أنَّ هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرَهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرُهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام ، وقد تكلَّمنا على هذا كلِّه في التفسير متقصَّياً ، ولله الحمد والمنَّة .

والمقصود الآن ذكرُ قِصَّتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجَّى الله نبيَّه صالحاً عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابرَ القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوِّهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام .

قد قدمنا أنهم كانوا عَرباً ، وكانوا بعد عاد ، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٣ ـ ٧٤] أي : إنما جعلَكم خلفاءَ من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم ، وأباحَ لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] أي : حاذقين في صَنْعَتها وإتقانها وإحكامِها ، فقابِلُوا نعمةَ الله بالشكر و العمل الصَّالح والعبادة له وحدَه لا شريكَ له ، وإيَّاكم ومخالفته والعدول عن طاعته ، فإنَّ عاقبةَ ذلك وخيمةٌ ، ولهذا وَعَظهم بقوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ ـ ١٤٨] أي : متراكم كثير ، حسنٌ بهيٌّ ناضج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩ ـ ١٥٢] .

وقال لهم أيضاً : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] أي : هو الذي خلقَكم فأنشأكُم من الأرض وجعلكم عمَّارها ، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرازق فهو الذي يستحق العبادة وحدَه لا سواه . ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٦١] أي : أقلعوا عما أنتم فيه ، وأقبلوا على عبادته فإنَّه يقبلُ منكم ويتجاوزُ عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] .

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود : ٦٢] أي : قد كنا نرجو أن يكونَ عقلكَ كاملاً قبل هذه المقالة ، وهي دعاؤُك إيَّانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنَّا نعبدُه من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد ، ولهذا قالوا : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : ٦٢ ـ ٦٣] .

وهذا تلطُّف منه لهم في العبارة ، ولين الجانب ، وحُسن تأتٍّ في الدعوة لهم إلى الخير ، أي : فما

ظنُّكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ، ماذا عذركم عند الله ؟ وماذا يُخلِّصكم بين يديْه ؟ وأنتم تطلبونَ منِّي أن أتركَ دعاءَكم إلى طاعته ، وأنا لا يُمكنني هذا لأنَّه واجبٌ عليَّ ، ولو تركته لما قدر أحدٌ منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني ، فأنا لا أزالُ أدعوكم إلى الله وحدَه لا شريكَ له ، حتى يحكمَ الله بيني وبينكم .

وقالوا له أيضاً : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٣] أي : من المسحورين ، يعنونَ مسحوراً لا تدري ما تقولُ في دعائِك إيَّانا إلى إفراد العبادة لله وحده ، وخلع ما سواه من الأنداد ، وهذا القولُ عليه الجمهور ، وهو أنَّ المراد بالمُسَحَّرين المَسْحُورين . وقيل : من المُسَحَّرين ، أي : ممن له سحر ، وهي الرئة ، كأنهم يقولون : إنما أنت بشر له سحر ، والأول أظهر لقولهم بعد هذا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] وقولهم : ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] سألوا منه أنْ يأتيَهم بخارقٍ يدلُّ على صدق ما جاءَهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥ ـ ١٥٦] وقال : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقد ذكر المفسرون[1] أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءَهم رسولُ الله صالحٌ فدعاهم إلى الله وذكَّرهم وحذَّرهم ، ووعظَهم وأمرَهم . فقالوا له : إنْ أنتَ أخرجتَ لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صَخْرَةٍ هناكَ ـ ناقةً من صِفَتها كَيْتَ وكَيْتَ ، وذكروا أوصافاً سمَّوها ونعتوها ، وتعنَّتوا[2] فيها ، وأن تكون عُشَرَاءَ[3] طويلةً ، من صفتها كذا وكذا .

فقال لهم النبيُّ صالحٌ عليه السلام : أرأيتم إنْ أجبتُكم إلى ما سألتُم ، على الوجه الذي طلبتُم أتؤمنونَ بما جئتكُم به وتصدقوني فيما أُرسلتُ به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودَهم ومواثيقَهم على ذلك ، ثمَّ قامَ إلى مُصلاَّه ، فصلَّى لله عزَّ وجلَّ ما قُدِّرَ له ، ثم دعا ربَّه عزَّ وجلَّ أن يُجيبَهم إلى ما طلبُوا ، فأمرَ الله عزَّ وجلَّ تلكَ الصَّخرة أن تنفطرَ عن ناقةٍ عظيمةٍ عُشَراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصِّفة التي نعَتُوا .

فلما عاينُوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ، ومَنْظراً هائلاً ، وقدرةً باهرةً ، ودليلاً قاطعاً ، وبُرهاناً ساطعاً ، فآمنَ كثيرٌ منهم ، واستمَرَّ أكثرُهم على كفرهم وضلالهم وعِنادهم، ولهذا قال: ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] أي : جَحدوا بها ولم يتَّبعوا الحقَّ بسببها ، أي : أكثرهم .

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٣٢) .
(٢) « تعنتوا » : تشدَّدوا .
(٣) « عشراء » : الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر .

وكانَ رئيسَ الذين آمنوا جندعُ بن عمرو بن محلاة بن لَبيد بن جواس ، وكان من رؤسائِهم ، وهم بقيَّةُ الأشراف بالإسلام ، فصدَّهم ذؤابُ بن عمرُو بن لَبيد والحُباب ، صاحبا أوثانهم ، ورباب بن صمعر بن جلمس ، ودعا جندعُ بْن عمِّه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهمَّ بالإسلام ، فنهاه أولئك ، فمال إليهم ، فقال في ذلك رجل من المسلمين ـ يُقالُ له : مهرش بن غنمة بن الذميل ـ رحمه الله : [من الوافر]

وكانتْ عصبةٌ من آل عمرٍو ... إلى دينِ النبيِّ دَعَوْا شِهابا
عـزيـز ثمـودَ كُلهـمُ جميعـاً ... فهـمَّ بـأنْ يُجيب ولـو أجابـا
لأصبـحَ صـالـحٌ فينـا عـزيـزاً ... وما عَدَلوا بصاحِبِهمْ ذؤابا[1]
ولكـنّ الغُـواة مـن آلِ حجْـرٍ ... تولّوا بعدَ رُشدِهمُ ذئابا[2]

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود : ٦٤] أضافها الله سبحانه وتعالى إضافةَ تشريف وتعظيم ، كقوله : بيتُ الله ، وعبدَ الله ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أي : دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] .

فاتفقَ الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيثُ شاءتْ من أرضِهم ، وتردُ الماء يوماً بعد يوم ، وكان إذا وردتِ الماءَ تشربُ ماءَ البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعونَ حاجَتهم من الماء في يَومهم لغدِهم ، ويُقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتَهم ، ولهذا قال : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ [القمر : ٢٧] أي اختباراً لهم ، أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون : ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ أي : انتظر ما يكونُ من أمرهم ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبرُ على جَليَّة . ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر : ٢٨] .

فلمَّا طالَ عليهم الحالُ هذا ، اجتمعَ مَلؤُهم ، واتَّفقَ رأيُهم على أن يَعْقِرُوا هذه النَّاقة ليستريحوا منها ، ويتوفَّر عليهم ماؤُهم ، وزَينَ لهم الشيطانُ أعمالَهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

وكان الذي تولَّى قتلَها منهم رئيسُهم قُدارُ بن سالف بن جندع ، وكان أحمرَ أزرقَ أصهبَ ، وكان يُقالُ : إنه ولد زانيةٍ ، وُلد على فراش سالف ، وهو من رجلٍ يُقال له : صبيان . وكان فعلُه ذلك باتِّفاقِ جميعهم ، فلهذا نُسِبَ الفعلُ إليهم كلِّهم .

---

(١) « ذؤابا » : الذؤاب : أعلى كل شيء وذروته .
(٢) كذا في الأصل ، وفي المطبوع ذآبا ، وفي بعض النسخ : ذباباً .

وذكر ابنُ جرير[١] وغيرُه من علماء المفسرين : أنَّ امرأتين من ثمودَ اسمُ إحداهما : صدوق ابنة الحيا بن زهير بن المختـار ، وكانت ذاتَ حَسَبٍ ومـال ، وكانت تحتَ رجلٍ ممن أسلمَ ، ففارقته ، فدعت ابنَ عمٍّ لها يُقال له : مصرع بن مهرج بن المحيا ، وعرضتْ عليه نفسَها إن هو عقرَ النَّاقةَ . واسم الأخرى عُنيزة بنت غنيم بن مجلز ، وتُكنَّى أمَّ عثمـان ، وكانت عجوزاً كافرةً لها بناتٌ من زوجها ذؤاب بن عمرو ، أحد الرؤساء ، فعرضتْ بناتِها الأربع على قُدَار بن سالف إن هو عقرَ النَّاقةَ ، فله أيُّ بناتها شاءَ ، فانتُدبَ هذان الشَّابَّان لعقْرِها ، وسَعَوْا في قومِهم بذلك ، فاستجابَ لهم سبعةٌ آخرونَ ، فصَاروا تسعةً ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] .

وسَعَوْا في بقيَّة القبيلةِ ، وحسَّنوا لهم عقرَها ، فأجابوهم إلى ذلك ، وطاوعُوهم في ذلك ، فانطلقوا يرصُدُون النَّاقةَ ، فلما صدرتْ من وِردها[٢] كمَنَ لها مصرعٌ ، فرماها بسهم ، فانتظمَ عظمَ ساقِها ، وجاء النساء يزمرنَ[٣] القبيلة في قتلها وحسرنَ[٤] عن وجُوهِهنَّ ، ترغيباً لهم في ذلك ، فابتدرَهم قُدارُ بن سالف ، فشدَّ عليها بالسيف فكشفَ عن عرقوبها[٥] ، فخرَّت ساقطةً إلى الأرض ، ورغت[٦] رغاةً واحدةً عظيمةً تُحذِّرُ ولدَها ، ثم طعن في لبَّتِها[٧] ، فنحرَها ، وانطلقَ سَقْبُها ـ وهو فصيلُها[٨] ـ فصَعِدَ جبلاً منيعاً ، ورغا ثلاثاً .

وروى عبد الرزاق[٩] : عن معمر ، عمَّن سمع الحسنَ ؛ أنه قال : يا ربِّ أينَ أُمِّي ؟ ثم دخلَ في صَخرةٍ ، فغابَ فيها . ويُقال : بل اتَّبعُوه ، فعقروه أيضاً . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٢٩ ـ ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس : ١٢ ـ ١٣] أي : احذرُوها فكذَّبُوه فعقروها ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس : ١٤ ـ ١٥] .

قال الإمام أحمد : حدَّثنا عبدُ الله بن نُمَيْر ، حدَّثنا هشام ـ هو ابن عُروة ـ عن أبيه ، عن عبد الله بن

---

(١) انظر تفسير الطبري (٥/ ٥٣٢) .
(٢) صدرتْ من وردها : ارتوت ورجعت .
(٣) في الأصل : يذمون ـ ويذمرن : يحضُّنَّ ويُشجعنَّ على القتال .
(٤) وحَسَرْنَ : كشفن الغطاء عن وجوههنَّ .
(٥) عُرْقُوبها : ما يكون في رجل الدابة بمنزلة الركبة في يدها .
(٦) رغتْ : صوتت وضجَّت ، والرُّغاء : صوت الإبل .
(٧) لَبَّتها : اللبَّة : موضع القلادة من العنق .
(٨) فصيلُها : الفصيل : ابن الناقة .
(٩) تفسير الطبري (٥/ ٥٣٥) .

زمعة ، قال : خطبَ رسولُ الله ﷺ ، فذكر النَّاقة ، وذكر الذي عقرَها ، فقال : ﴿ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١٢] انبعثَ لها رجلٌ عَارِمٌ عزيزٌ منيع في رهطه ، مثل ابن زمعة[١] .

أخرجاه[٢] من حديث هشام به . عارم : أي : شهمٌ عزيز ، أي : رئيس منيع ، أي : مطاع في قومه .

وقال محمد بن إسحاق : حدَّثني يزيدُ بن محمد بن خثيم[٣] ، عن محمد بن كعب ، عن محمد بن خُثيم ، عن يزيد ، عن عمَّار بن ياسر ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « ألا أُحدثُك بأشقى الناس ؟ » قال : بلى . قال : رجلان أحدُهما أُحيمرُ ثمود الذي عقرَ النَّاقة ، والذي يضربُكَ يا عليُّ على هذا ـ يعني : قَرْنه ـ حتى تَبْتلَّ منه هذه ـ يعني لحيته ـ » رواه ابن أبي حاتم[٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] فجمَعُوا في كلامِهم هذا بين كفرٍ بليغٍ من وجوه :

منها أنهم خالفوا الله ورسولَه في ارتكابهم النهي الأكيد في عَقْر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها أنهم استعجلوا وقوعَ العذاب بهم ، فاستحقُّوه من وجهين : أحدهما : الشرط عليهم في قوله : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] وفي آية ﴿ عظيم ﴾ [الشعراء : ١٥٩] وفي الأخرى ﴿ أليم ﴾ [الأعراف : ٧٣] والكلُّ حقٌّ . والثاني : استعجالهم على ذلك .

ومنها أنهم كذَّبوا الرسولَ الذي قد قامَ الدليلُ القاطعُ على نبوَّته وصِدْقه ، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملَهم الكفرُ والضَّلالُ والعِنادُ على استبعاد الحقِّ ، ووقوع العذاب بهم . قال الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] .

وذكروا أنَّهم لما عَقَروا النَّاقَة كان أوَّل من سطا[٥] عليها قُدارُ بن سالف ـ لعنه الله ـ فعرقَبها ، فسقطت إلى الأرض ، ثم ابتدرُوها بأسيافهم يُقطِّعُونها ، فلما عاينَ ذلك سَقْبُها ـ وهو ولدها ـ شَرَدَ عنهم ، فعلا أعلى جبلٍ هناك ، ورغا ثلاثَ مرارٍ[٦] .

فلهذا قال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : ٦٥] أي : غير يومهم ذلك ، فلم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٧) ، وهو حديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٢) في التفسير ، ومسلم (٢٨٥٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٣) كذا في ب وهو الصحيح ، وفي المطبوع وأ : خيثم ، مصحف .

(٤) ورواه أيضاً أحمد في المسند (٤/ ٢٦٣) وهو حديث حسن .

(٥) سطا : بطش بشدَّة .

(٦) في المطبوع : مرات .

يُصدِّقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد ، بل لما أمسوا همُّوا بقتله ، وأرادوا فيما يزعمون أن يُلحقوه بالناقة ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [النمل : ٤٩] أي : لنكبسنَّه في داره مع أهله فلنقتلنه ، ثم لنجحدنَّ قتله ، ولننكرنّ ذلك ، إنْ طالبنا أولياؤه بدمه ، ولهذا قالوا : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٥٠ ـ ٥٣] .

وذلك أنَّ الله تعالى أرسلَ على أولئك النفر الذين قصدوا قتلَ صالح حجارةً رضختْهم سلفاً وتعجيلاً قبلَ قومهم ، وأصبحتْ ثمودُ يومَ الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النَّظْرة ـ ووجوهُهم مُصْفَرَّةٌ ، كما أنذرهم صالح عليه السلام ، فلمَّا أمسَوا نادَوْا بأجمعِهم : ألا قد مضى يوم من الأجل .

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل ، وهو يوم الجمعة ، ووجوهُهُم مُحمَرَّة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى يومان من الأجل .

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع ، وهو يوم السبت ، ووجوهُهم مُسودَّة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضَى الأجل .

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنَّطوا وتأهَّبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحُلُّ بهم من العذاب والنَّكال والنقمة ، لا يدرون كيف يفعل بهم ! ولا من أي جهة يأتيهم العذاب ! فلما أشرقت الشمسُ جاءَتْهم صَيْحةٌ من السماء مِن فوقهم ، ورجفةٌ شديدةٌ من أسفل منهم ، ففاضتِ الأرواحُ ، وزهقتِ[1] النفوس ، وسكنتِ الحركاتُ ، وخَشَعتِ الأصواتُ ، وحقَّتِ الحقائقُ ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، جثثاً لا أرواحَ فيها ، ولا حَرَاكَ بها . قالوا : ولم يبق منهم أحدٌ إلَّا أن جاريةً كانت مُقْعَدَةً ، واسمها كلية ابنة السلق ، ويُقال لها : الذريعة ، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأتِ العذاب أُطْلِقَتْ رجلاها ، فقامتْ تسعى كأسرع شيء ، فأتتْ حيّاً من العرب فأخبرتْهم بما رأتْ ، وما حلَّ بقومها ، واستسقتهم ماءً ، فلما شربتْ ماتتْ .

قال الله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾ [هود : ٦٨] أي : لم يُقيموا فيها في سَعة ورزق وغَناء ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٨] أي : نادى عليهم لسانُ القَدَر بهذا .

قال الإمام أحمد[2] : حدَّثنا عبدُ الرزاق ، حدَّثنا معمر ، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن

---

(١) زهقت النفوس : خرجت .

(٢) في المسند (٣/٢٩٦) رقم (١٤٠٩٢) .

أبي الزبير ، عن جابر ، قال : لما مرَّ رسولُ الله ﷺ بالحِجْر ، قال : « لا تسألوا الآياتِ ، فقد سألها قومُ صالح ، فكانتْ ـ يعني الناقة ـ تَرِدُ من هذا الفَجِّ ، وتصدرُ من هذا الفجِّ ﴿ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف : ٧٧] فكانت تشربُ ماءَهم يوماً ويشربون لبنَها يوماً ، فعقروها ، فأخذتْهم صيحةٌ أهمد الله عزَّ وجلَّ من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عزَّ وجلَّ . فقالوا : منْ هُو يا رسول الله ؟ قال : هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابَه ما أصابَ قومَه »[1] . وهذا الحديث على شرط مسلم ، وليس هو في شيء من الكتب الستة ، والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً[2] : قالَ مَعْمر : أخبرني إسماعيل بن أُميَّة : أن النبيَّ ﷺ مرَّ بقبر أبي رِغال ، فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم . قال : هذا قبر أبي رِغال ، رجلٌ من ثمودَ كان في حَرَمِ الله فمنعَه حَرَمُ الله عذابَ الله . فلما خرجَ أصابَه ما أصابَ قومَه ، فدُفن هاهنا ودُفن معه غُصْنٌ من ذَهب ، فنزلَ القومُ فابتدرُوه بأسيافهم ، فبحثُوا عنه ، فاستخرجوا الغصنَ . قال عبد الرزاق : قال معمر : قال الزهري : أبو رغال : أبو ثقيف .

هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد جاءَ من وجهٍ آخر متصلاً ، كما ذكرَه محمَّد بن إسحاق في السيرة : عن إسماعيل بن أمية ، عن بجير بن أبي بجير ، سمعتُ عبدَ الله بن عمرو ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبرٍ ، فقال : « إن هذا قبرُ أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمودَ ، وكان بهذا الحرم ، يدفعُ عنه ، فلمَّا خرجَ منه ، أصابتْه النقمة التي أصابتْ قومَه بهذا المكان ، فدُفن فيه ، وآية ذلك أنه دُفن معه غصنٌ من ذهب ، إنْ أنتم نبشتُم عنه أصبتموه معه » . فابتدرَه النَّاسُ فاستخرجوا منه الغصن[3] .

وهكذا رواه أبو داود[4] : من طريق محمد بن إسحاق .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجَّاج المزِّي ـ رحمه الله[5] ـ : هذا حديث حسن عزيز .

قلت : تفرَّد به بُجَيْر بن أبي بُجَيْر هذا ، ولا يُعرف إلا بهذا الحديث ، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن

---

(١) وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٦١٩٧) الإحسان ، والبزار (١٨٤٤) كما في كشف الأستار ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) .
والفجُّ : الشَّقُّ ، والطريق الواضح بين جبلين .

(٢) في مصنفه (٢٠٩٩) .

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٩٧) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٨٨) في الخراج والإمارة والفيء .

(٥) تهذيب الكمال (٤/ ١١) .

أمية . قال شيخنا : فيحتمل أنه وَهم في رفعه ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو عن زاملتيه[١] ، والله أعلم .

قلتُ : لكن في المرسل الذي قبلَه ، وفي حديثِ جابرٍ أيضاً شاهدٌ له[٢] ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] إخبارٌ عن صالحٍ عليه السلام أنَّه خاطبَ قومه بعد هَلاكهم ، وقد أخذ في الذَّهاب عن محلَّتهم إلى غيرها ، قائلاً لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٧٩] : أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] أي : لم تكن سجاياكُم تَقْبَلُ الحقَّ ولا تُريده ، فلهذا صرتُم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمرّ بكم ، المتصل إلى الأبد ، وليس لي فيكم حيلة ، ولا لي بالدفع عنكم يدان ، والذي وجبَ عليّ من أداء الرسالة والنُّصْح لكم قد فعلتُه وبذلتُه لكم ، ولكنَّ الله يفعلُ ما يريد .

وهكذا خاطبَ النبيُّ ﷺ أهل قَلِيْبِ بَدْرٍ بعد ثلاث ليالٍ ، وقف عليهم ، وقد ركبَ راحلتَه ، وأمر بالرحيل من آخر الليل ، فقال : « يا أهلَ القَليب ! هل وجدتُم ما وعدَكم ربُّكم حَقّاً ، فإني قد وجدتُ ما وَعدني ربِّي حقاً » وقال لهم فيما قال : « بئسَ عشيرةُ النبيِّ كُنتم لنبيِّكم ، كذَّبتموني وصدَّقني النَّاسُ ، وأخرجتموني وآواني النَّاسُ ، وقاتلتمُوني ونَصرني النَّاسُ ، فبئس عشيرةُ النبيِّ كنتُم لنبيِّكم » فقال له عمر : يا رسول الله ! تخاطبُ أقواماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يُجيبون »[٣] . وسيأتي بيانُه في موضعه إن شاء الله .

ويُقال : إنَّ صالحاً عليه السلام انتقلَ إلى حَرَمِ الله فأقامَ به حتَّى ماتَ .

قال الإمام أحمد[٤] : حدَّثنا وكيع ، حدَّثنا زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لما مرَّ النبيُّ ﷺ بوادي عُسْفان حينَ حجَّ ، قال : « يا أبا بكر ! أيّ وادٍ هذا ؟ قال : وادي عُسْفان . قال : « لقد مرَّ به هودٌ وصالحٌ عليهما السلام على بكرات خُطُمُها اللِّيف ، أُزُرُهم العباء ، وأرديتهم النِّمار ، يُلَبُّون ، يَحُجُّونَ البيتَ العتيق » . إسناد حسن[٥] .

---

(١) زاملتيْه : الزاملة : ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها .
(٢) قول ابن كثير هذا سقط من أ ، وأثبته من ب .
(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٩١) من حديث عبد الله بن مسعود وقال : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .
(٤) في المسند (١/ ٢٣٢) .
(٥) أقول : فيه زمعة بن صالح ضعيف ، كما قال الحافظ في « التقريب » .

وقد تقدَّم في قصَّة[١] نوحٍ عليه السلام من رواية الطبراني ، وفيه : نوح وهود وإبراهيم .

مرور النبيِّ بوادي الحِجْر من أرض ثمودَ عام تبوك

قال الإمام أحمد : حدَّثنا عبدُ الصمد ، حدَّثنا صَخْرُ بن جويرية ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال لما نزل رسولُ الله ﷺ بالناس على تبوكَ ، نزل بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود ، فاستقى النَّاسُ من الآبار التي كانت تشربُ منها ثمود ، فعجنُوا منها ، ونصبُوا القُدور [باللحم] ، فأمرَهم رسولُ الله فأهراقوا القدورَ ، وعلفُوا العجينَ الإبلَ ، ثم ارتحلَ بهم حتَّى نزل بهم على البئر التي كانت تشربُ منها النَّاقةُ ، ونهاهُم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا فقال : « إني أخشى أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم »[٢] .

وقال أحمد أيضاً : حدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا عبدُ العزيز بن مسلم ، حدَّثنا عبدُ الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسولُ الله ﷺ وهو بالحِجْر : « لا تدخلوا على هؤلاء المُعذَّبين إلا أنْ تكونوا باكينَ ، فإن لم تكونوا باكينَ فلا تدخلوا عليهم ، أن يُصيبكُم مثل ما أصابهم »[٣] .

أخرجاه في الصحيحين[٤] من غير وجه .

وفي بعض الروايات : أنه عليه الصلاة والسلام لما مرَّ بمنازلهم قنَّع رأسه وأسرع راحلته ، ونهى عن دخولِ منازلهم إلا أن يكونوا باكين . وفي رواية : « فإنْ لم تبكوا فتباكوا ، خشيةَ أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابَهم » . صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا المَسعودي ، عن إسماعيل بن أوسط ، عن محمد ابن أبي كبشة الأنماري ، عن أبيه ـ واسمه عمرو بن سعد ، ويُقال : عامر بن سعد رضي الله عنه ـ قال : لما كان في غزوة تبوك تسارعَ النَّاسُ إلى أهل الحجْر يدخلون عليهم ، فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فنادى في النَّاس : الصَّلاةُ جامعة . قال : فأتيتُ النبيَّ ﷺ ، وهو يمسك بعيرَه ، وهو يقول : « ما تدخلون على قومٍ غضبَ الله عليهم ، فناداه رجلٌ نعجبُ يا رسول الله ! قال : أفلا أُنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجلٌ من أنفسكم يُنبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائنٌ بعدَكم ، فاستقيمُوا وسدِّدوا ، فإنَّ اللهَ لا يعبأُ بعذابِكم شيئاً ، وسيأتي قومٌ لا يدفعونَ عن أنفسهم شيئاً »[٥] . إسنادٌ حسنٌ ولم يُخرِّجوه .

---

(١) تقدم ص١٨٠ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٧٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٠٢) في التفسير ، ومسلم (٢٩٨٠) في الزهد والرقائق .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٣١) . قلت : فيه محمد بن أبي كبشة الأنماري ، وهو مجهول .

وقد ذُكرَ أنَّ قومَ صالح كانت أعمارُهم طويلةً ، فكانوا يبنون البيوتَ من المدر[١] ، فتخربُ قبلَ موتِ الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال .

وذكروا أنَّ صالحاً عليه السلام لما سألوه آيةً ، فأخرجَ الله لهم النَّاقةَ من الصَّخرة ، أمرهم بها وبالولد الذي كان في جَوْفها ، وحذَّرهم بأسَ الله إن هم نالوها بسوء ، وأخبرَهم أنهم سيعقرونها ، ويكونُ سببُ هلاكهم ذلك ، وذكرَ لهم صفةَ عاقرها ، وأنَّه أحمرُ أزرقُ أصْهبُ ، فبعثوا القوابلَ في البلد ، متى وجدوا مولوداً بهذه الصِّفة يقتلنَّه ، فكانوا على ذلك دهراً طويلاً ، وانقرضَ جيلٌ وأتى جيلٌ آخر .

فلمَّا كان في بعضِ الأعصارِ ، خطبَ رئيسٌ من رُؤسائهم على ابنه بنتَ آخرَ مثله في الرياسة ، فزوَّجه ، فولدَ بينهما عاقرُ النَّاقة، وهو قُدَار بن سَالف، فلم تتمكَّن القوابلُ من قتله، لشرفِ أبويْه وجدَّيْه فيهم، فنشأ نشأةً سريعةً، فكان يشبُّ في الجمعة كما يشبُّ غيرُه في شَهْرٍ ، حتى كان منْ أمره أن خرجَ مُطاعاً فيهم رئيساً بينهم ، فسوَّلت له نفسُه عَقْرَ النَّاقةِ، واتَّبعه على ذلك ثمانيةٌ من أشرافِهم، وهم التسعة الذين أرادوا قتلَ صالح عليه السلام.

فلمَّا وقع من أمرِهم ما وقعَ من عَقْرِ النَّاقة ، وبلغَ ذلك صالحاً عليه السلام ، جاءهم باكياً عليها ، فتلقَّوه يعتذرون إليه ، ويقولون : إن هذا لم يقعْ عن ملأٍ منا ، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا ، فيُقال : إنه أمرَهم باستدراكِ سَقْبها[٢] حتى يُحسنوا إليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءَه ، فصعدَ جبلاً ، فلما تصاعدوا فيه وراءَه ، تعالى الجبلُ حتى ارتفعَ فلا ينالُه الطَّيْرُ ، وبكى الفصيلُ ، حتى سالت دموعه .

ثم استقبلَ صالحاً عليه السلام ، ودعا ثلاثاً ، فعندها قالَ صالح : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] وأخبرَهم أنَّهم يُصبحون من غَدِهم صُفْراً ، ثم تَحْمَرُّ وجوههم في الثاني ، وفي اليوم الثالث تَسْوَدُّ وجوههم ، فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صَيْحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ ، فأخذتْهم فأصبحوا في دارهم جاثمين .

وفي بعض هذا السياق نظرٌ ومخالفةٌ لظاهر ما يُفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم ، كما قدَّمنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

***

(١) المدر : الطين .
(٢) سَقبها : السَّقْب : ولد الناقة .

قصة إبراهيم الخليل
عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ (٢٥٠) ، بن ناحور[١] (١٤٨) ، بن ساروغ (٢٣٠) ، بن أرغو[٢] (٢٣٩) ، ابن فالغ[٣] (٤٣٩) ، بن عابر[٤] (٤٦٤) ، بن شالخ[٥] (٤٣٣) ، بن أرفخشد[٦] (٤٣٨) ، بن سام (٦٠٠) ، بن نوح عليه السلام .

هذا نصُّ أهل الكتاب في كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي ، كما ذكروه من المُددِ ، وقدَّمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته .

وحكى الحافظُ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه : عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب « المبتدأ » : أن اسمَ أم إبراهيم « أميلة » . ثم أورد عنه في خبر ولادتها[٧] له حكايةً طويلة[٨] ، وقال الكلبيُّ : اسمها : « بونا » بنت كربنا بن كرلي ، من بني أرفخشد بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه : عن عكرمة ؛ أنه قال : كان إبراهيمُ عليه السلام يُكنَّى أبا الضِّيفان[٩] .

قالوا : ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام ، وناحور وهاران ، ووُلد لهاران لوط .

وعندهم : أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران ماتَ في حياة أبيه في أرضه التي وُلد فيها ، وهي أرض الكلدانيين ، يعنون أرضَ بابل .

وهذا هو الصحيحُ المشهورُ عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحَّحَ ذلك الحافظ ابن عساكر[١٠]

---

(١) في أ : باحور .
(٢) في أ وب : راغو ؛ وأثبت ما في هامش أ . وما يتفق مع تاريخ الطبري ومختصر تاريخ دمشق .
(٣) في نسخة : فالاغ .
(٤) في نسخة : غيبر ، وفي نسخة : عابار .
(٥) في نسخة سالاخ .
(٦) في نسخة : أرفخشاذ .
(٧) في أ : ولادها .
(٨) أخرجه ابن عساكر ، كما في التهذيب (٢/ ١٤١) .
(٩) المصدر السابق (٢/ ١٤٠) .
(١٠) المصدر السابق (٢/ ١٣٧) .

بعدما روى من طريق هشام بن عمَّار ، عن الوليد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، عن ابن عباس ، قال : وُلد إبراهيم بغوطةِ دمشقَ في قريةٍ يُقال لها : برزة . في جبل يُقال له : قاسيون . ثم قال : والصحيحُ أنه وُلد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنَّه صلَّى فيه إذ جاءَ مُعينا للوط عليه السلام .

قالوا : فتزوَّج إبراهيمُ سارَة ، وناحور ملكا ابنة هاران ، يعنون بابنة أخيه .

قالوا : وكانت سارَةُ عاقراً لا تلد . قالوا : وانطلقَ تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارَة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حرَّان ، فمات فيها تارخ وله مئتان وخمسون سنة ، وهذا يدلُّ على أنه لم يُولد بحرَّان ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين ، وهي أرضُ بابلَ وما والاها .

ثم ارتحلوا قاصدينَ أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحرَّان ، وهي أرضُ الكلدانيين[1] في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً ، وكانوا يعبدون الكواكبَ السبعة .

والذين عمروا مدينةَ دمشق كانوا على هذا الدِّين ، يستقبلونَ القطبَ الشمالي ، ويعبدون الكواكبَ السبعةَ بأنواع من الفِعال والمقال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشقَ السبعة هيكلٌ لكوكبٍ منها ، ويعملونَ لها أعياداً وقرابينَ .

وهكذا كانَ أهلُ حرَّان يعبدونَ الكواكبَ والأصنامَ ، وكلُّ من[2] على وجه الأرض كانوا كفَّاراً ، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام .

وكان الخليلُ عليه السلام هو الذي أزالَ الله به تلك الشرور ، وأبطلَ به ذاك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشدَه في صِغره ، وابتعثه رسولاً ، واتَّخذه خليلاً في كِبَره ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] أي : كان أهلاً لذلك . وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

(١) كذا في أ وب ، وفي المطبوع : الكشدانيين .
(٢) كذا في أ وب : وفي المطبوع : وكلُّ من كان .

يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ ـ ٢٧] ثم ذكرَ الله تعالى مناظرته لأبيه وقومه ، كما سنذكرُه إن شاء الله تعالى .

وكان أوّل دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنامَ ، لأنه أحقُّ النَّاس بإخلاص النصيحة له ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٨] . فذكرَ تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة ، وكيف دعا أباه إلى الحقِّ بألطفِ عبارةٍ وأحسنِ إشارةٍ وبيَّنَ له بطلانَ ما هو عليه[١] من عبادةِ الأوثان ، التي لا تسمعُ[٢] دعاءَ عابدِها ، ولا تُبصر مكانه ، فكيف تُغني عنه شيئاً أو تفعلُ له خيراً من رزقٍ أو نصر ؟ ثم قال مُنبِّهاً[٣] على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع ، وإن كان أصغرَ سِناً من أبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] أي : مستقيماً واضحاً سَهْلاً حنيفاً[٤] ، يُفْضي بكَ إلى الخير في دنياكَ وأُخراكَ ، فلما عرضَ هذا الرشدَ عليه ، وأهدى هذه النصيحةَ إليه ، لم يقبلْها منه ولا أخذَها عنه ، بل تهدَّده وتوعَّده ، قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم: ٤٦] قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعال . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] أي : واقطعني ، وأطل هجراني ، فعندها قال له إبراهيم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ أي : لا يَصِلُكَ مني مكروهٌ ، ولا ينالُكَ مني أذىً ، بل أنت سالمٌ من ناحيتي ، وزاده خيراً فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] قال ابن عباس وغيره : أي لطيفاً ، يعني في أن هداني لعبادتِه والإخلاص له ، ولهذا قال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] وقد استغفرَ إبراهيم عليه السلام ، كما وعده في أدعيته ، فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله ، تَبَرَّأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

---

(١) في أ : إليه .
(٢) كذا في ب ، وهي في أ غير مقروءة .
(٣) كذا في ب ، وهي في أ غير مقروءة .
(٤) حنيفاً : مستقيماً على الحق ، مائلاً عن المعتقدات الباطلة .

وقال البخاري[١] : حدَّثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدَّثني أخي عبدُ الحميد ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المَقْبُري ، عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ قال : « يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة ، وعلى وجهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ ، فيقول له إبراهيم : ألم أقلْ لكَ : لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقولُ إبراهيم : يا ربِّ ! إنَّكَ وعَدْتني أن لا تُخزني يومَ يُبعثون ، وأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقولُ الله : إنِّي حرَّمتُ الجنَّة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيمُ ما تحتَ رِجْلَيْكَ ؟ فينظرُ فإذا هو بذيخٍ مُلْتَطِخٍ ، فيُؤخذُ بقوائمِه فيُلقى في النَّار » هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً .

وقال في التفسير[٢] وقال إبراهيمُ بن طَهْمان ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المَقْبُري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة .

وهكذا رواه النسائي[٣] : عن أحمد بن حَفْص[٤] بن عبد الله ، عن أبيه ، عن إبراهيمَ بن طَهْمان ، به .

وقد رواه البزار[٥] : من حديث حمَّاد بن سلمةَ ، عن أيُّوب ، عن محمّد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، بنحوه . وفي سياقه غرابةٌ . ورواه أيضاً[٦] : من حديث قتادة ، عن عُقْبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ : بنحوه .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] هذا يدلُّ على أنَّ اسمَ أبي إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب ـ منهم ابن عباس ـ على أن اسم أبيه تارح ، وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة ، فقيل : إنه لُقِّبَ بصنم كان يعبدُه اسمه آزر .

وقال ابن جرير[٧] : والصواب أن اسمَه آزر ، ولعلَّ له اسمان علمان ، أو أحدهما لقب والآخر علم .

وهذا الذي قاله محتمل ، والله أعلم .

---

(١) في صحيحه (٣٣٥٠) في الأنبياء .
وقتَرَة : غبرة شديدة ، بحيث يسوِّد الوجه . وغَبَرة : ما يعلو الوجه من الغبار . بذيخ : الذِّيْخ : ذكرُ الضِّباع .
(٢) من صحيحه (٤٧٦٨) .
(٣) في السنن الكبرى (١١٣٧٥) .
(٤) في أ : أحمد بن عبد الله بن حفص ، وهو خطأ .
(٥) كما في كشف الأستار (٩٧) .
(٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٩٤) وقال البزار : لا نعلم رواه إلا التيمي ، ولا عنه إلا ابنه ، وهو حديث غريب .
(٧) في تفسيره (٥/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٧٥ ـ ٨٣] وهذا المقامُ مقام مناظرةٍ لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المُشاهدة من الكواكب النَّيِّرة لا تصلحُ للألوهية ، ولا أن تُعبد مع الله عزَّ وجلَّ ، لأنها مخلوقةٌ مربوبةٌ مصنوعةٌ ، مُدبَّرةٌ مُسخَّرة ، تطلعُ تارة ، وتأفل[1] أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والربُّ تعالى لا يغيبُ عنه شيءٌ ، ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائمُ الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه .

فبيَّن لهم أولاً عدمَ صلاحيةِ الكواكب[2] لذلك ، قيل : هو الزهرة ، ثم ترقَّى منها إلى القَمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقَّى إلى الشمس التي هي أشدُّ الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً ، فبيَّن أنها مُسخَّرة مُقدَّرة مربوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أي : طالعة ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام : ٧٨ ـ ٨٠] . أي : لستُ أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ، فإنها لا تنفع شيئاً ، ولا تسمع ، ولا تعقل ، بل هي مربوبة مُسخَّرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعةٌ منحوتة منجورة .

والظاهر أنَّ موعظتَه هذه في الكواكب لأهل حرَّان ، فإنهم كانوا يعبدُونها ، وهذا يردُّ قولَ منْ زعمَ أنَّه قال هذا حين خرجَ من السرب لما كانَ صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وهو مستندٌ إلى أخبار إسرائيلية لا يُوثَق بها ، ولا سيما إذا خالفتِ الحقَّ .

---

(١) تأفل : تغيب .

(٢) في الأصل : عدم صلاحية الكوكب ، قيل هو الزهرة لذلك . وأثبت ما في المطبوع .

وأما أهلُ بابلَ فكانوا يعبدونَ الأصنامَ ، وهم الذين ناظرَهم في عبادتِها وكسَّرها عليهم ، وأهانَها وبيَّنَ بطلانَها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ ـ ٧٠] .

وقال في سورة الشعراء : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٨٣] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ۝٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٨٣ ـ ٩٨] .

يخبرُ اللهُ تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنَّه أنكرَ على قومه عبادةَ الأوثان ، وحقَّرها عندَهم ، وصغَّرها وتنقَّصها ، فقال : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] أي : مُعتكفون عندَها ، وخاضعون لها ، قالوا : ﴿ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] ما كانَ حجَّتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] كما قال تعالى : ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ٨٥ ـ ٨٧]

قال قتادة : فما ظنُّكم به أنَّه فاعلٌ بكم إذا لقيتُموه وقد عبدتُم غيره[(١)] ؟

وقال لهم ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢ ـ ٧٤] سلَّموا له أنها لا تسمعُ داعياً ولا تنفعُ ، ولا تضرُّ شيئاً ، وإنما الحاملُ لهم على عبادتِها الاقتداء بأسلافهم ، ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهَّال ، ولهذا قال لهم ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧] وهذا برهانٌ قاطعٌ على بطلان إلٰهية ما ادَّعَوه من الأصنام ، لأنه تبرَّأ منها وتنقَّصَ بها ، فلو كانت تضرُّ لضرَّته ، أو تُؤثِّرُ لأثَّرتْ فيه .

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٥] يقولون : هذا الكلام الذي تقوله لنا وتتنقَّصُ به آلهتنا ، وتطعنُ بسببه في آبائنا ، تقولُه مُحقّاً جادّاً فيه أم لاعباً ؟ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] يعني بل أقول لكم ذلك جادّاً مُحقّاً ، وإنما إلٰهكم الله الذي لا إلَه إلا هو ، هو ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحقُّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

وقوله : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] أقسمَ ليكيدنَّ هذه الأصنامَ التي يَعبدونها بعدَ أن يولُّوا مدبرينَ إلى عيدهم . قيل : إنه قال هذا خفيةً في نفسه . وقال ابن مسعود : سمعَه بعضُهم وكان لهم عيدٌ يذهبون إليه في كلِّ عام مرَّةً إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضرَه ، فقال : إني سقيم ، كما قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٨ ـ ٨٩] عرَّض لهم في الكلام حتى توصَّل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونُصرة دين الله الحقِّ في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام ، التي تستحقُّ أن تُكسرَ ، وأن تُهانَ غايةَ الإهانة .

فلمَّا خرجوا إلى[(٢)] عيدهم ، واستقرَّ هو في بلدهم : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ [الصافات : ٩١] أي : ذهبَ إليها مُسرعاً مُستخفياً ، فوجدَها في بهوٍ عظيمٍ ، وقد وَضعُوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها ﴿ فَقَالَ ﴾ لها على سبيل التَّهكُّم والازدراء : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩١ ـ ٩٣] لأنها أقوى وأبطشُ وأسرعُ وأقهرُ ، فكسَّرها بقَدُوم في يده كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ [الأنبياء : ٥٨] أي : حُطاماً ، كسَّرها كلَّها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨] قيل : إنه وضعَ القَدُوم في يد الكبير ، إشارةً إلى أنَّه غارَ أن تُعبدَ معه هذه الصغار ، فلما رجعُوا من عيدهم ووجدوا ما حلَّ بمعبودهم ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٩]

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٧٨) .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : من عيدهم .

وهذا فيه دليلٌ ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حلَّ بآلهتهم التي كانوا يعبدُونها ، فلو كانت آلهةً لدفعتْ عن أنفسها منْ أرادَها بسوءٍ ، لكنَّهم قالوا من جهلهم وقلَّة عقلهم ، وكثرةِ ضلالهم وخبَالهم ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٥٩ ـ ٦٠] أي : يذكرها بالعيب والتَّنقُّص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والكاسرُ لها . وعلى قول ابن مسعود ، أي : يذكرُهم بقوله : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦١] أي : في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلَّهم يشهدونَ مقالتَه ، ويسمعونَ كلامَه ، ويُعاينون ما يحلُّ به من الاقتصاص منه .

وكان هذا أكثرَ مقاصدِ الخليل عليه السلام أن يجتمعَ النَّاسُ كلُّهم ، فيقيمَ على جميع عُبَّاد الأصنام الحجَّةَ على بُطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] .

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٢ـ٦٣] قيل : معناه هو الحامل لي على تكسيرها ، وإنما عرَّضَ لهم في القول ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وإنما أرادَ بقوله هذا أن يُبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطقُ ، فيعترفوا بأنَّها جمادٌ كسائرِ الجمادات ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٤] أي : فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، أي : في تركها لا حافظَ لها ، ولا حارسَ عندها ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ قال السُّدي : أي : ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قولهم ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : في عبادتها . وقال قتادة : أدركتِ القومَ حيرةُ سوء ، أي : فأطرقوا ثم قالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٥] أي : لقد علمت يا إبراهيمُ أن هذه لا تنطقُ ، فكيف تأمرُنا بسؤالها ؟ فعندَ ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٦ ـ ٦٧] كما قال : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ [الصافات : ٩٤] قال مجاهد : يُسرعون . قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥] أي : كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصوِّرونها وتُشكِّلونها كما تُريدون ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] وسواءٌ كانت ما مصدرية ، أو بمعنى الذي ، فمقتضى الكلام أنَّكم مخلوقون ، وهذه الأصنامُ مخلوقةٌ ، فكيف يعبدُ مخلوقٌ لمخلوقٍ مثله ؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتِها لكم . وهذا باطلٌ ، فالآخر باطل للتحكُّم ، إذ ليست العبادة تصلحُ ولا تجبُ إلا للخالق وحده لا شريكَ له .

﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧ ـ ٩٨] عَدلُوا عن الجِدال والمناظرة لمَّا انقطعوا وغُلبوا ، ولم تبقَ لهم حجَّة ولا شُبهة إلا استعمال قوَّتهم وسلطانهم ،

لينصروا ما هم عليه من سَفَههم وطُغيانهم ، فكادَهم الربُّ جلَّ جلالُه ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانَه ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨ـ٧٠] .

وذلك أنَّهم شرعوا يجمعون حَطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثُوا مدَّة يجمعون له ، حتى أن المرأة منهم كان إذا مرضت تنذرُ لئن عُوفيت لتحملنَّ حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا إلى جَوْبَة[1] عظيمةٍ ، فوضعوا فيها ذلك الحطبَ ، وأطلقوا فيه النّار ، فاضطّرمتْ وتأجَّجتْ والتهبتْ ، وعلا لها شَرَرٌ لم يُرَ مثله قط .

ثم وضعوا إبراهيمَ عليه السلام في كِفَّة مَنْجنيق[2] ، صنعَه لهم رجلٌ من الأكراد[3] ، ويُقال له : « هيزن » ، وكان أوَّلَ من صنعَ المجانيقَ ، فخسفَ الله به الأرضَ فهو يتجلجلُ[4] فيها إلى يوم القيامة .

ثم أخذوا يُقيِّدونه ويُكتِّفُونهُ ، وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريكَ لك . فلما وُضعَ الخليلُ عليه السلام في كِفَّة المَنْجنيق مُقيَّداً مكتوفاً ، ثم ألقَوه منه إلى النار ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . كما روى البخاريُّ[5] : عن ابن عباس : أنه قال : حسبُنا الله ونعمَ الوكيل ، قالها إبراهيمُ حين أُلقيَ في النَّار ، وقالها محمَّد حين قيل له ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ـ ١٧٤] الآية .

وقال أبو يعلى : حدَّثنا أبو هشام الرفاعي ، حدَّثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبي جعفر الرازي ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال ﷺ : « لما أُلقي إبراهيمُ في النَّار قال : اللَّهُمَّ إنك في السماء واحدٌ ، وأنا في الأرض واحدٌ ، أعبدُك »[6] .

وذكر بعضُ السَّلف : أنَّ جبريلَ عرضَ له في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أمَّا إليكَ فلا[7] .

---

(١) جَوْبة : الجَوْبة : هي الحفرة المستديرة الواسعة ، وكلُّ مُنْفتق بلا بناءٍ جَوْبة . وبهامش ب : قال الجلال السيوطي في مختصر النهاية : وصارت المدينة مثل الجوبة ، هي الحفرة الواسعة ، وكل منفتق بلا بناء جوبة .
(٢) مَنجنيق : بفتح الميم وكسرها : آلة قديمة من آلات الحصار ، تُرمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها .
(٣) انظر تفسير الطبري (٩/ ٤٢) .
(٤) يتجلجلُ : يغوص في الأرض حين يُخسف به ، والجلجلة : حركة مع صوت .
(٥) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) في التفسير .
(٦) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٩) ، والبزار كما في كشف الأستار (٢٣٤٩) وفي سنده عاصم بن أبي النجود ، وهو عاصم بن بهدلة ، وهو صدوق له أوهام . حجة في القراءة ، وحديثه في الصحيحين مقرون .
(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠) من قول مقاتل وسعيد ، وهذا من الإسرائيليات ، من رواية كعب الأحبار ، وهو غير صحيح ، ومخالف لما رواه البخاري كما تقدم قبل قليل .

ويُروى عن ابن عبَّاس وسعيد بن جُبَيْر : أنَّه قال : جعل ملَكُ المَطر يقولُ : متى أُومرُ فأُرسِلُ المَطَرَ ؟ فكانَ أمرُ الله أسرعَ[١] .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] قال عليُّ بن أبي طالب : أي : لا تضرّيه[٢] .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال ﴿ وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لأذى إبراهيم بردُها .

وقال كعبُ الأحبار : لم ينتفعْ أهلُ الأرض يومئذٍ بنارٍ ، ولم يُحْرقْ منه سوى وَثَاقه[٣] .

وقال الضحاك : يروى أنَّ جبريل عليه السلام كان معه يمسحُ العرقَ عن وجههِ لم يصبْه منها شيءٌ غيره[٤] .

وقال السُّدّي : كان معه أيضاً مَلَكُ الظّل[٥] .

وصارَ إبراهيمُ عليه السلام في مثل الجُوبة حولَه النار ، وهو في روضةٍ خضراءَ ، والنَّاسُ ينظرون إليه لا يَقْدرونَ إلى الوصول إليه ، ولا هو يخرجُ إليهم ، فعن أبي هريرة أنه قال : أحسنُ كلمةٍ قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيم[٦] .

وروى ابن عساكر عن عكرمة ، أنَّ أمَّ إبراهيم نظرتْ إلى ابنها عليه السلام ، فنادته : يا بُنيَّ إنِّي أُريد أن أجيءَ إليكَ ، فادعُ اللهَ أنْ يُنجيَني من حرِّ النَّارِ حولك . فقال : نعم ، فأقبلتْ إليه لا يمسُّها شيءٌ من حرِّ النَّار ، فلما وصلتْ إليه اعتنقتْه وقبَّلته ، ثم عادت[٧] .

وعن المِنْهال بن عمرو أنَّه قال : أخبرتُ أنَّ إبراهيم مكثَ هناكَ إمَّا أربعين وإما خمسينَ يوماً ، وأنَّه قال : ما كنتُ أياماً ولياليَ أطيبَ عيشاً ، إذ كنتُ فيها ، ووددتُ أنَّ عيشي وحياتي كلَّها مثل إذ كنت فيها[٨] ، صلوات الله وسلامه عليه .

فأرادوا أن ينتصروا فخذلُوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضعُوا ، وأرادوا أن يَغْلبُوا فغُلبوا . قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠] وفي الآية الأخرى ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٨]

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٤٣) .
(٢) المصدر السابق (٩/ ٤٣) .
(٣) المصدر السابق (٩/ ٤٣) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٤٠) .
(٥) المصدر السابق (٥/ ٦٤٠) .
(٦) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٤٣) .
(٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢/ ١٤٥) تهذيب .
(٨) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٩/ ٤٣) .

ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هي كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] .

قال البخاري[١] : حدَّثنا عبدُ الله بن موسى ـ أو ابنُ سلام عنه ـ أنبأنا ابنُ جريج ، عن عبدِ الحميدِ بن جُبَيْر ، عن سعيدِ بن المُسَيِّب ، عن أمِّ شُرَيْك ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ أمرَ بقتل الوَزَغِ ، وقال : « كانَ ينفخُ على إبراهيم عليه السلام » .

ورواه مسلم[٢] : من حديث ابن جُرَيْج .

وأخرجاه ، والنسائي ، وابن ماجه[٣] : من حديث سُفيان بن عُيَيْنة ، كلاهما عن عبد الحميد بن جُبَيْر بن شَيْبَة به .

وقال أحمد[٤] : حدَّثنا محمَّدُ بن بَكْر ، حدَّثنا ابن جُرَيْج ، أخبرني عبدُ الله بن عبد الرحمن بن أبي أُمَيَّة ، أنَّ نافعاً مولى ابن عمر أخبرَه ، أنَّ عائشةَ أخبرته ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « اقتلُوا الوَزَغَ ، فإنَّه كانَ ينفخُ النَّارَ على إبراهيم » . قال : فكانتْ عائشةُ تقتلُهنَّ .

وقال أحمد[٥] : حدَّثنا إسماعيلُ ، حدَّثنا أيُّوب ، عن نافع ؛ أنَّ امرأةً دخلتْ على عائشةَ ، فإذا رمحٌ منصوبٌ ، فقالت : ما هذا الرُّمحُ ؟ فقالت : نقتلُ به الأوزاغ . ثمَّ حدَّثتْ عن رسول الله ﷺ أنَّ إبراهيمَ لما أُلقي في النَّار ، جعلتِ الدوابُّ كُلها تُطفىء عنه إلا الوَزَغ ، فإنَّه جعلَ ينفخُها عليه .

تفرَّد به أحمدُ من هذين الوجهين .

وقال أحمد[٦] : حدَّثنا عفَّان ، حدَّثنا جريرُ ، حدَّثنا نافعُ ، حدَّثتني سائبةُ[٧] ـ مولاة الفاكِه بن المغيرة ـ قالت : دخلتُ على عائشةَ فرأيتُ في بيتها رُمحاً موضوعاً ، فقلت : يا أمَّ المؤمنينَ ما تصنعينَ بهذا الرُّمحِ ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغِ نقتلُهنَّ به ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثنا أنَّ إبراهيمَ حين أُلقيَ في النَّار ، لم يكنْ في الأرض دَابَّةٌ إلا تُطفىءُ عنه النَّار ، غيرَ الوَزغ كانَ ينفخُ عليه ، فأمرنا رسولُ الله ﷺ بقتله .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٩) في الأنبياء ، والوزغ : سامٌّ أبرص .
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣٧) (١٤٣) في السلام .
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٩) في أحاديث الأنبياء ، ومسلم (٢٢٣٧) (١٤٣) في السلام ، والنسائي (٥/ ٢٠٩) في مناسك الحج ، وابن ماجه (٣٢٢٨) في الصيد .
(٤) في المسند (٦/ ٢٠٠) .
(٥) في المسند (٦/ ٢١٧) .
(٦) في المسند (٦/ ٨٣) ، وهو حديث حسن .
(٧) في أ : سمامة ، وفي ب : شماسة ، والتصحيح من المسند (٦/ ٨٣) .

ورواه ابن ماجه[١] : عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يونس بن محمد ، عن جرير بن حازم ، به .

***

ذكرُ مناظرة إبراهيم الخليل مع مَنْ أرادَ أن ينازعَ العظيمَ الجليلَ في إزار العظمة ورداء الكبرياء ، فادَّعى الربوبيّة ، وهو أحدُ العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

يذكرُ تعالى مناظرةَ خليله مع هذا المَلكِ الجبّار المتمرِّد ، الذي ادَّعى لنفسه الربوبيةَ ، فأبطلَ الخليلُ عليه السلام دليلَه ، وبيَّن كثرةَ جَهْلِه ، وقِلّةَ عَقْلِه ، وألجمَه الحُجَّة ، وأوضحَ له طريقَ المحجَّة .

قال المفسرون وغيرُهم من علماء النسب والأخبار : وهذا المَلكُ هو مَلِكُ بابلَ ، واسمُه النمرود بن كنعانَ بن كوش بن سام بن نوح ، قاله مجاهد[٢] . وقال غيرُه[٣] : نمرود بن فالح بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح .

قال مجاهد[٤] وغيره : وكان أحدَ ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعةٌ ، مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القَرْنين وسُليمان . والكافران : النمرود وبختنصر . وذكروا أن نمرودَ هذا استمرَّ في ملكه أربعمئة سنة ، وكان قد طغى وبغى ، وتجبَّر وعتى وآثر الحياةَ الدنيا .

ولما دعاه إبراهيمُ الخليلُ إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، حملَه الجهلُ والضَّلالُ وطولُ الآمالِ على إنكار الصانع ، فحاجَّ إبراهيمَ الخليلَ في ذلك ، وادَّعى لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال قتادة والسُّدِّي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أُتي بالرجلين قد تحتَّم قَتْلُهما ، فإذا أمرَ بقتل أحدهما وعفا عن الآخر ، فكأنَّه قد أحيا هذا وأمات الآخر[٥] .

وهذا ليس بمعارضةٍ للخليل ، بل هو كلام خارجيٌّ عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة ، بل

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٢٣١) في الصيد ، وهو حديث حسن .

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥) .

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٢٥) .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٧) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥) .

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٢٧) والدر المنثور (٢/ ٢٥) .

هو تشغيب[1] محض ، وهو انقطاعٌ في الحقيقة ، فإن الخليلَ استدلَّ على وجود الصانع بحدوثِ هذه المشاهداتِ ، من إحياء الحيواناتِ وموتِها على وجود فاعل ذلك الذي لا بُدَّ من استنادِها إلى وجوده ضرورةً عدم قيامها بنفسها ، ولا بدَّ من فاعلٍ لهذه الحوادث المشاهدة من خَلْقِها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرِّياح والسَّحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي تُوجد مشاهدةً ، ثم إماتتُها ، ولهذا ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فقول هذا الملك الجاهل : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] إنْ عنى أنَّه الفاعلُ لهذه المشاهدة ، فقد كابرَ وعاندَ ، وإن عنى ما ذكرَه قتادةُ والسُّدِّي ومحمد بن إسحاق ، فلم يقلْ شيئاً يتعلَّقُ بكلام الخليل ؛ إذ لم يمنع مُقدِّمةً ، ولا عارضَ الدليلَ .

ولما كانَ انقطاعُ مناظرة هذا المَلِكِ قد تخفَى على كثيرٍ من النَّاس ممن حضرَه وغيرهم ، ذكرَ دليلاً آخرَ بيَّنَ وجودَ الصَّانع ، وبُطلان ما ادَّعاه النمرودُ ، وانقطاعَه جهرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] أي : هذه الشمس مُسخَّرةٌ كلَّ يوم تطلعُ من المشرقِ كما سخَّرها خالقُها ومُسَيِّرُها وقاهرُها ، وهو الله الذي لا إلهَ إلا هو خالقُ كلِّ شيء ، فإن كنتَ كما زعمتَ من أنَّكَ الذي تُحيي وتُميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي يُحيي ويُميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ ، ولا يُمانَعُ ولا يُغالبُ ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ ، ودانَ له كلُّ شيءٍ ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعلْ هذا ، فإن لم تفعله فلستَ كما زَعمْتَ ، وأنت تعلمُ وكلُّ أحد أنَّك لا تقدرُ على شيءٍ من هذا ، بل أنت أعجزُ وأقلُّ من أنْ تخلقَ بعوضةً أو تنتصرَ منها . فبيَّن ضلالَه وجهلَه وكذبَه فيما ادَّعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجَّح به عند جَهلة قومه ، ولم يبق له كلامٌ يُجيب الخليلَ به ، بل امتنعَ وسكتَ ، ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وقد ذكرَ السُّدِّي[2] : أنَّ هذه المناظرة كانت بين إبراهيمَ وبينَ النمرود يومَ خرجَ من النَّارِ ، ولم يكن اجتمعَ به يومئذٍ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روى عبدُ الرزاق : عن معمر ، عن زيد بن أسلم ؛ أن النمرودَ كان عندَه طعامٌ ، وكان النَّاسُ يَفِدُون إليه للميرة ، فوفدَ إبراهيمُ في جملة منْ وفدَ للمِيرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يُعْطَ إبراهيمُ من الطعام كما أُعطي النَّاسُ بل خرجَ وليس معه شيءٌ من الطعام ، فلما قربَ من أهله عمدَ إلى كثيبٍ من التراب فملأ منه عدليْه[3] ، وقال : أشغل أهلي إذا قدمتُ عليهم ، فلما قدمَ وضعَ رحالَه وجاء فاتَّكأ فنامَ ، فقامتْ امرأتُه سارَةُ إلى العِدْلين ، فوجدتهما ملآنين طعاماً طيِّباً ، فعملت منه طعاماً . فلما استيقظَ إبراهيمُ

---

(١) تشغيب : تهييج للشر ، وتشويه للحقيقة .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) .
(٣) عدليْه : العِدْل : الكيس والحِمْل يكونُ على أحد جنبي البعير .

وجدَ الذي قد أصلحُوه ، فقال : أنَّى لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئتَ به ، فعرفَ أنَّه رزقٌ رزَقَهموه الله عز وجل .

قال زيدُ بن أسلم : وبعثَ الله إلى ذلك المَلِك الجبَّار ملَكا فأمره بالإيمان بالله ، فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية ، فأبى عليه ، ثم الثالثة ، فأبى . وقال : اجمعْ جموعَك وأجمعُ جموعي ، فجمعَ النمرودُ جيشَه وجنودَه وقتَ طُلوع الشمس ، فأرسلَ الله عليه ذباباً من البَعوض ، بحيثُ لم يروا عينَ الشمسَ ، وسلَّطها الله عليهم ، فأكلتْ لحومَهم ودماءَهم ، وتركتْهم عظاماً باديةً ، ودخلتْ واحدةٌ منها في مِنْخر المَلكِ ، فمكثتْ في منخريه أربعمئة سنة ، عذَّبه الله تعالى بها ، فكان يضربُ رأسه بالمرازب[١] في هذه المدة كلها حتى أهلكَه الله عزَّ وجلَّ بها[٢] .

* * *

ذكرُ هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية ، واستقرارِه بالأرض المقدَّسة

قال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١ ـ ٧٣] لما هجرَ قومَه في الله ، وهاجرَ من بين أظهرهم ، وكانت امرأتُه عاقراً لا يُولد لها ، ولم يكنْ له من الولد أحدٌ ، بل معه ابنُ أخيه لوطُ بن هاران بن آزر ، وهبَه الله تعالى بعد ذلك الأولادَ الصالحينَ ، وجعلَ في ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ، فكلُّ نبيٍّ بُعِث بعدَه من ذُرِّيَّته ، وكلُّ كتابٍ نزلَ من السماء على نبيٍّ من الأنبياء منْ بعدِه ، فعلى أحد نسلِه وعَقِبه خِلعةً[٣] من الله وكرامةً له حين تركَ بلادَه وأهلَه وأقرباءَه وهاجرَ إلى بلد يتمكَّن فيها من عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ ، ودعوةِ الخلق إليه ، والأرضُ التي قصدَها بالهجرة أرضُ الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١] قاله أُبيُّ بن كعب[٤] ، وأبو العالية ، وقتادة وغيرهم . وروى[٥] العوفي عن ابن عباس قوله :

(١) « المرازب » : جمع مِرْزبة : وهي المطرقة الكبيرة ، ويقال له : الإرزبَّة : بالهمز والتشديد .
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٧) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤ ـ ٢٥) .
(٣) « خِلْعةً » : عطيَّة .
(٤) انظر الدر المنثور ؛ للسيوطي (٥/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣) .
(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٤٦) .

﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١] مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] . وزعم[١] كعبُ الأحبار أنها حرَّان .

وقد قدَّمنا عن نقل أهل الكتاب : أنَّه خرجَ من أرض بابلَ ، هو وأبوه وابن أخيه لوط ، وأخوه ناحور ، وامرأة إبراهيم سارَة ، وامرأة أخيه ملكا ، فنزلوا حرَّان ، فمات تارخُ أبو إبراهيمَ بها .

وقال السُّدِّي[٢] : انطلقَ إبراهيم ولوط قِبَلَ الشَّام فلقِيَ إبراهيمُ سارَةَ ـ وهي ابنة مَلِكِ حرَّان ـ وقد طعنت على قومِها في دينهم[٣] ، فتزوَّجها على ألَّا يُغَيِّرَها[٤] . رواه ابن جرير وهو غريب .

والمشهورُ أنها ابنة عمِّه هاران ، الذي تُنسب إليه حرَّان ، ومنْ زعمَ أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط ، كما حكاه السُّهيلي عن القُتَيبيِّ وَالنَّقَّاش ، فقد أبعدَ النُّجْعَة ، وقال بلا علم ؛ وادَّعى أن تزويجَ بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً ، فليس له على ذلك دليل . ولو فُرِضَ أن هذا كان مشروعاً في وقتٍ كما هو منقولٌ عن الربَّانيِّين من اليهود ، فإن الأنبياءَ لا تتعاطاه ، والله أعلم .

ثم المشهورُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا هاجرَ من بابلَ خرجَ بسارَةَ مهاجراً من بلاده كما تقدَّم ، والله أعلم .

وذكرَ أهلُ الكتاب أنَّه لما قدمَ الشام أوحى الله إليه : إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيمُ مذبحاً لله ، شكراً على هذه النعمة ، وضربَ قبَّته شرقي بيت المقدس ، ثم انطلقَ مُرتحلاً إلى التيمُّن ، وأنه كان جوعٌ ، أي : قَحْطٌ وشِدَّةٌ وغَلاء ، فارتحلَ إلى مصرَ ، وذكروا قصَّة سارَة مع ملكها ، وأن إبراهيمَ قال لها قولي : أنا أُختُه ، وذكروا إخدامَ الملك إياها هاجرَ ، ثم أخرجهم منها ، فرجعوا إلى بلاد التَّيمن ـ يعني أرض بيت المقدس وما والاها ـ ومعه دوابّ وعبيدٌ وأموال .

وقد قال البخاري : حدَّثنا محمد بن محبوب ، حدَّثنا حمَّاد بن زيدٍ ، عن أيوب ، عن محمد ، عن أبي هريرةَ قال : لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كَذبات : ثنتان منهنَّ في ذاتِ الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وقال : بينا هو ذات يومٍ وسارَةُ إذ أتى على جبَّار من الجبَابرة ، فقيل له : هاهنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسن الناس ، فأرسلَ إليه وسأله عنها ، فقال : منْ هذه ؟ قال : أختي ، فأتى سارَة ، فقال : يا سارَةُ ليس على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيري

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥/٦٤٣) .
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/٤٥ ـ ٤٦) .
(٣) كذا في ب . وفي أ : على قومها دينهم .
(٤) كذا في أ وب وتفسير الطبري (٩/٤٦) وبهامشه : كذا في الأصل ، وفي ابن كثير على أن يفرَّ بها .
ومعنى : ألا يُغيِّرها : ألا يُطلِّقها ، ولا يتزوج عليها غيرها إلا بإذنها .

وغيركِ ، وإنَّ هذا سألني فأخبرتُه أنَّك أُختي فلا تُكذِّبيني ، فأرسلَ إليها ، فلما دَخلَتْ عليه ذهبَ يتناولُها بيده ، فأخـذ . فقال : ادعي اللهَ لي ولا أضرُّك ، فدعت اللهَ فأُطلقَ ، ثمَّ تناولَها الثانيةَ فأُخذَ مثلها أو أشدَّ ، فقـال : ادعي الله لي ولا أضرُّكِ فدعتْ فأطلق ، فدعـا بعضَ حَجَبَتِه ، فقال : إنكم لم تأتوني بإنسانٍ وإنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمَها هاجرَ ، فأتته وهو قائمٌ يُصلِّي ، فأومأ بيده : مَهْيم . فقالت : ردَّ الله كيدَ الكافر ـ أو الفاجر ـ في نَحْرِه ، وأخدمَ هاجرَ . قال أبو هريرة : فتلكَ أمُّكم يا بني ماء[1] السماء[2] . تفرَّد به من هذا الوجه موقوفاً .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزَّار : عن عمرو بن علي الفَلاس ، عن عبد الوهاب الثقفي ، عن هشام بن حسَّان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنَّ إبراهيمَ لم يكذبْ قطُّ إلا ثلاثَ كذبات ، كلُّ ذلك في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وبينما هو يسيرُ في أرضِ جبَّار من الجَبابرة ، إذ نزلَ منزلاً ، فأتي الجبَّارُ فقيل له : إنَّه قد نزلَ هاهنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسنِ النَّاس . فأرسلَ إليه ، فسأله عنها ، فقال : إنَّها أُختي . فلما رجعَ إليها ، قال : إنَّ هذا سألني عنكِ ، فقلتُ : إنَّكِ أختي ، وإنه ليس اليومَ مسلمٌ غيري وغيرك ، وإنك أختي فلا تُكذِّبيني عندَه ، فانطلقَ بها ، فلما ذهبَ يتناولها أُخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرُّك فدعتْ له فأُرسل ، فذهبَ يتناولُها فأُخذ مثلَها أو أشدَّ منها ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعتْ فأُرسل ، ثلاث مرات . فدعا أدنى حَشَمِه ، فقال : إنك لم تأتني بإنسان ولكنْ أتيتني بشيطان ، أخرجْها وأعطِها هاجرَ . فجاءتْ وإبراهيمُ قائمٌ يُصلِّي ، فلمّا أحسَّ بها انصرفَ ، فقال : مَهْيَم ؟ فقالت : كفى الله كَيْدَ الظَّالمِ ، وأخْدمني هاجرَ[3] .

---

(١) في هامش ب : قال الجلال السيوطي في « مختصر النهاية » يا بني ماء السماء : يُريد العربَ ، لأنهم كانوا يتبعون قطرَ الماء ، فينزلون حيث كان .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٨) في الأنبياء . وقوله : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات » قال ابن عقيل : دلالة بالعقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم . وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع ، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعني إطلاق الكذب على ذلك ـ إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه ، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما ، وأما تسمية إياها كذبات ، فلا يريد أنها تذم ، فإن الكذب وإن قبيحاً مخلاً ، لكنه قد يحسن في مواضع ، وهذا منها . فتح الباري (٦/ ٣٩٢) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه بإسناده عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ (٥٧٣٧) الإحسان وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠١٩٥) ومن طريقه أخرجه أحمد (٦/ ١٥٢) وأبو داود (٢٢١٢) في الطلاق ، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٩٦) ، والبيهقي (١٠/ ١٩٦) في السنن الكبرى .

وأخرجاه[١] من [غير] حديث هشام .

ثم قال البزار : لا نعلمُ أسندَه عن محمد ، عن أبي هريرة ، إلا هشام ، ورواه غيره موقوفاً[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا عليُّ بن حَفْص ، عن ورقاء ـ هو ابن عمر اليشكري[٣] ـ عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات : قوله حين دُعي إلى آلهتهم ، فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وقوله لسارة : إنها أختي . قال : ودخلَ إبراهيمُ قريةً فيها مَلِكٌ من الملوك ـ أو جبَّار من الجبابرة ـ فقيل : دخلَ إبراهيمُ الليلةَ بامرأةٍ من أحسنِ النَّاس . قال : فأرسل إليه المَلكُ ـ أو الجبَّارُ ـ مَنْ هذه معكَ ؟ قال : أختي . قال : فأرسلْ بها . قال : فأرسلَ بها إليه ، وقال : لا تُكذِّبي قَوْلي فإني قد أخبرتُه أنَّكِ أختي ، إنْ على الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك . فلما دخلتْ عليه قامَ إليها ، فأقبلتْ توضأ وتُصلِّي ، وتقول : اللهم إن كنتَ تعلمُ أني آمنتُ بك وبرسولكَ، وأحصنتُ فرجي إلا على زَوْجي، فلا تُسلِّط عليَّ الكافر. قال : فغطَّ[٤] حتَّى ركضَ برجله ». قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة : إنها قالت : اللَّهُمَّ إن يمتْ يُقَل : هي قتلته . قال : فأُرسل . قال : ثم قام إليها . قال : فقامتْ توضَّأ وتُصلِّي وتقول : اللهم إن كنتَ تعلمُ أني آمنتُ بكَ وبرسولكَ ، وأحصنتُ فَرْجي إلا على زَوْجي فلا تُسلِّطْ عليَّ الكافرَ . قال : فغطَّ حتى ركضَ برجلِهِ . قال أبو الزناد : وقال أبو سلمة : عن أبي هريرة : إنها قالت : « اللهم إن يمتْ يقل هي قتلته » . قال : فأُرسل ، قال : فقال في الثالثة ـ أو الرابعة ـ ما أرسلتُم إليّ إلا شيطاناً ، أرجعوها إلى إبراهيمَ ، وأعطوها هاجرَ . قالَ : فرجعتْ ، فقالت لإبراهيم : أشَعَرْتَ أن الله ردَّ كيدَ الكافرين ، وأخدم وليدةً[٥] . تفرَّد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

وقد رواه البخاري[٦] عن أبي اليمان ، عن شُعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ به مختصراً .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا سفيان ، عن عليِّ بن ز يد بن جدعان ، عن أبي نَضْرة ، عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨٤) في النكاح ، ومسلم (٢٣٧١) في الفضائل .

(٢) أقول: رواه مرفوعاً أيضاً جرير بن حازم عن أيوب، عن ابن سيرين، وروايته في الصحيحين كما في الذي قبله .

(٣) كذا في ب ، وفي أ : هو ابن عمر التسكيك ، وهو خطأ .

(٤) « فغطَّ » : أي نام حتى سُمعَ غطيطه ، والغطيط : الصوت الذي يخرجُ مع نَفَس النائم ، وهو ترديده حيث لا يجدُ مساغاً . وركض برجله : ضرب بها ، وهو دليل الاستغراق بالنوم .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) ، وهو حديث صحيح .

(٦) أخرجه البخاري (٣١٦٦) في التفسير .

أبي سعيد ، قال : قالَ رسولُ الله ﷺ في كلماتِ إبراهيمَ الثلاث التي قال : « ما منها كلمةٌ إلا ما حلَ[١] بها عن دين الله ، فقال : (إني سقيم) وقال : (بل فعلَه كبيرهم هذا) وقال للمَلك حين أراد امرأته : هي أختي »[٢] .

فقوله في الحديث : « هي أُختي » أي : في دين الله ، وقوله لها : « إنه ليس على وجهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك » يعني : زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، ويتعيَّنُ حملُه على هذا ، لأنَّ لوطاً كانَ معهم ، وهو نبيٌّ عليه السلام .

وقوله لها لما رجعتْ إليه : مَهْيَم ، معناه : ما الخبرُ ؟ فقالت : إن الله رد كيد الكافرين . وفي رواية : الفاجر ، وهو الملك ، وأخدمَ جاريةً .

وكان إبراهيمُ عليه السلام من وقتِ ذهبَ بها إلى الملك قامَ يُصلِّي لله عزَّ وجلَّ ، ويسألُه أن يدفعَ عن أهله ، وأن يردَّ بأسَ هذا الذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلتْ هي أيضاً ، فلما أرادَ عدوُّ الله أن ينالَ منها أمراً ، قامت إلى وضوئها وصَلاتها ، ودعتِ الله عزَّ وجلَّ بما تقدَّم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] فعصمها الله وصانَها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهبَ بعضُ العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارَة ، وأمُّ موسى ، ومريم عليهنَّ السلام . والذي عليه الجمهور أنهنَّ صِدِّيقَات رضي الله عنهن وأرضاهن .

ورأيتُ في بعض الآثار : أنَّ الله عزَّ وجلَّ كشف الحجابَ فيما بين إبراهيمَ عليه السلام وبينَها ، فلم يزلْ يراها منذ خرجتْ من عنده إلى أن رجعتْ إليه ، وكان مُشاهداً لها وهي عند المَلِكِ ، وكيف عصمَها الله منه ، ليكون ذلك أطيبَ لقلبه وأقرَّ لِعَيْنه ، وأشدَّ لطمأنينته ، فإنه كان يُحبُّها حبّاً شديداً لدينها ، وقرابتها منه ، وحُسْنها الباهر ، فإنَّه قد قيل : إنه لم تكن امرأةٌ بعد حوَّاء إلى زمانها أحسنَ منها رضي الله عنها ، ولله الحمدُ والمنَّةُ .

وذكر بعضُ أهل التواريخ : أن فرعونَ مصرَ هذا كان أخاً للضحَّاك الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملاً لأخيه على مصر .

ويُقال : كان اسمُه سنان بن عُلوان بن عُبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح .

وذكرَ ابن هشام في «التيجان» : أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ ، وكان على مصر ، نقله السهيلي ، فالله أعلم .

---

(١) في هامش ب قال السيوطي في « مختصر النهاية » : ما حلَ : أي دافعَ وجادلَ .

(٢) ذكره السهيلي في الروض الأنف (١/ ٩٤) .

ثم إن الخليل عليه السلام رجعَ من بلاد مصر إلى أرض التَّيمُّن ، وهي الأرض المقدسة ، التي كان فيها ، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجرُ القبطية المصرية .

ثمَّ إنَّ لوطاً عليه السلام نزحَ بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور ، المعروف بغور زغر[١] ، فنزل بمدينة سدوم[٢] ، وهي تلك البلاد في ذلك الزمان ، وكان أهلها أشراراً كفَّاراً فجَّاراً ، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمدَّ بصرَه وينظرَ شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشَّره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر ، وسأكثر ذُرِّيَّتكَ حتَّى يَصيروا بعدد تُراب الأرض .

وهذه البشارة اتَّصلتْ بهذه الأمة ، بل ما كملتْ ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمَّدية ، يُؤيِّد ذلك قولُ رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها ، وسيبلغُ ملكُ أمَّتي ما زوي لي منها »[٣] .

قالوا : ثمَّ إنَّ طائفة من الجبَّارين تسلَّطوا على لوط عليه السلام فأسروه ، وأخذوا أموالَه ، واستاقوا أنعامه ، فلما بلغَ الخبرُ إبراهيمَ الخليل ، سارَ إليهم في ثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً ، فاستنقذ لوطاً عليه السلام ، واسترجعَ أموالَه ، وقتل من أعداء الله ورسولِه خلقاً كثيراً ، وهزمَهم ، وساقَ في آثارِهم حتى وصلَ إلى شرقيّ دمشق ، وعسكرَ بظاهرها عند برزة[٤] ، وأظنُّ مقام إبراهيم إنما سُمِّي ، لأنه كان موقفَ جيش الخليل ، والله أعلم .

ثم رجعَ مؤيَّداً منصوراً إلى بلاده ، وتلقَّاه ملوكُ بلاد بيت المقدس مُعظِّمين له ، مُكرِّمين ، خاضعين ، واستقرَّ[٥] ببلاده ، صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

---

(١) في هامش أ : صغر .

(٢) « سدوم » : مدينة من مدائن قوم لوط .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٧٨ و٢٨٤) ومسلم (٢٨٨٩) في الفتن وأشراط الساعة ، والترمذي (٢١٧٦) في الفتن ، وابن ماجه (٣٩٥٢) في الفتن ، من حديث ثوبان، وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٤) « برزة » : قرية من غوطة دمشق ، تقع في الشمال الشرقي من المدينة ، وقد اتصل بناء المدينة بها .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : استتر ، وهو تصحيف .

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهلُ الكتاب : إنَّ إبراهيمَ عليه السلام سألَ الله ذريَّةً طيِّبةً ، وإنَّ اللهَ بشرَّه بذلك ، وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشر سنين ، قالتْ سارَة لإبراهيم عليه السلام : إنَّ الربَّ قد أحرمني الولدَ ، فادخلْ على أَمَتِي هذه لعلَّ الله يرزقنا منها ولداً ، فلمَّا وهَبَتْهَا له دخلَ بها إبراهيم عليه السلام ، فحين دخلَ بها حملتْ منه . قالوا : فلما حمَلَتْ ارتفعتْ نفسُها ، وتعاظمتْ على سيِّدتها ، فغارتْ منها سارَةُ ، فشكتْ ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلي بها ما شئتِ ، فخافتْ هاجرُ فهربتْ فنزلتْ عند عَيْنٍ هناكَ ، فقال لها ملَكٌ من الملائكة : لا تخافي فإنَّ الله جاعلٌ من هذا الغلام الذي حمَلْتِ خيراً ، وأمرَها بالرجوع ، وبشَّرها أنها ستلدُ ابناً وتُسمِّيه إسماعيل ، ويكونُ وحشَ النَّاس ، يدهُ على الكُلِّ ، ويدُ الكُلِّ به ، ويملكُ جميعَ بلاد إخوته . فشكرتِ الله عزَّ وجلَّ على ذلك .

وهذه البشارةُ إنما انطبقتْ على ولدِه محمَّد صلواتُ الله وسلامه عليه ، فإنه الذي سادتْ به العربُ ، وملكت جميعَ البلاد غرباً وشرقاً ، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤْتَ أُمَّة من الأمم قبلَهم ، وما ذاكَ إلا بشرفِ رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالتِه ، ويُمْن بشارتِه ، وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعتْ هاجَرُ وضعتْ إسماعيلَ عليه السلام . قالوا : وولدتْه ولإبراهيمَ من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة .

ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يُبَشِّرُه بإسحاق من سارَة ، فخرَّ لله ساجداً ، وقال له : قد استجبتُ لك في إسماعيل ، وباركتُ عليه وكثَّرتُه ونمَّيتُه جدّاً كثيراً ، ويُولد له اثنا عشر عظيماً ، وأجعله رئيساً لشعب عظيم .

وهذه أيضاً بشارةٌ بهذه الأمَّة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون ، الاثنا عشرَ المُبشَّر بهم في حديث عبد الملك بن عُمير ، عن جابر بن سَمُرة ، عن النبيِّ ﷺ قال : « يكونُ اثنا عشرَ أميراً » ثم قالَ كلمةً لم أفهمْها ، فسألتُ أبي : ما قال؟ قال : « كلهم من قريشٍ » أخرجاه في الصحيحين[١] .

وفي رواية : « لا يزالُ هذا الأمرُ قائماً ـ وفي رواية : عزيزاً ـ حتى يكونَ اثنا عشرخليفة ، كلُّهم من قريش »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢ و٧٢٢٣) في الأحكام ، ومسلم (١٨٢١) في الإمارة عن جابر بن سَمُرة .
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢١) (٦) في الإمارة .

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة : أبو بكر ، وعمرُ ، وعثمانُ ، وعلي !. ومنهم : عمر بن عبد العزيز أيضاً . ومنهم بعضُ بني العبَّاس ، وليس المرادُ أنهم يكونون اثني عشر نسقاً ، بل لا بُدَّ من وجودِهم .

وليس المرادُ الأئمة الاثني عشر الذين يعتقدُ فيهم الرافضةُ ، الذين أوَّلُهم عليُّ بن أبي طالب ، وآخرُهم المنتظَرُ بسِرْدابِ سامراء[١] ، وهو محمَّدُ بن الحسن العسكري فيما يزعمون ، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من عليّ ، وابنه الحسن بن عليٍّ حين تركَ القِتالَ وسلَّمَ الأمر لمعاوية ، وأخمدَ نار الفتنة ، وسَكَّنَ رحى الحروب بين المسلمين ، والباقون من جُملة الرعايا ، لم يكن لهم حكمٌ على الأمة في أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونَه بسرداب سامراء ، فذاكَ هَوَسٌ في الرؤوس ، وهَذَيانٌ في النفوس ، لا حقيقةَ له ولا عين ولا أثر .

والمقصودُ أنَّ هاجرَ عليها السلام لما وُلدَ لها إسماعيلُ ، اشتدَّتْ غيرةُ سارَةَ منها ، وطلبتْ من الخليل أن يُغيِّبَ وجهَها عنها ، فذهبَ بها وبولدِها ، فسارَ بهما حتى وضعَهما حيث مكَّة اليوم . ويُقال : إنَّ ولدَها كان إذ ذاكَ رضيعاً .

فلمَّا تركَهما هناكَ وولَّى ظهرَه ، قامت إليه هاجرُ ، وتعلَّقتْ بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم ! أين تذهبُ وتدَعُنا هاهنا ؟ وليس معنا ما يكفينا ، فلم يُجبْها ، فلمَّا ألَحتْ عليه وهو لا يُجيبها ، قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : فإذاً لا يُضيِّعُنا .

وقد ذكرَ الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب « النوادر » أنَّ سارَةَ تغضَّبتْ على هاجرَ ، فحلفتْ لتقطعنَّ ثلاثةَ أعضاء منها ، فأمرَها الخليلُ أن تَثقب أُذنيها ، وأن تخفضَها[٢] ، فتبرَّ قَسَمها .

قال السهيلي : فكانت أوَّلَ من اختتن من النساء ، وأوَّلَ من ثُقبت أُذُنُها منهنَّ ، وأوَّل من طَوَّلت ذَيْلها .

***

ذكر مُهاجرة إبراهيمَ بابنه إسماعيل وأمّه هاجر إلى جبال فاران ، وهي أرضُ مكّة وبنائه البيتَ العتيق

قال البخاري[٣] : قال عبدُ الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدَّثنا عبد الرزَّاق ، حدَّثنا مَعْمرُ ، عن أيُّوبَ السَّختيانيِّ وكثيرِ بن كَثير بن المُطَّلب بن أبي وَداعة ـ يزيدُ أحدُهما على الآخر ـ عن سعيدِ بن

---

(١) « سامراء » : وهي مدينة سُرَّ من رأى ، وتقع شرقي دجلة ، بناها المعتصم ، وفيها السرداب المعروف في جامعها ، الذي تزعم الشيعة أنَّ مهديَّهم يخرج منه .

(٢) « تخفضها » : من الخَفْض وهو الختان للنساء ، يُقال : خفض الصبيَّة ، ختنها .

(٣) في صحيحه (٣٣٦٤) في الأنبياء .

جُبَيْرٍ ، عن ابن عبَّاس ، قال : أوّلُ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ[١] من قِبَلِ أُمِّ إسماعيلَ ، اتَّخذتْ مِنْطقاً ، لتُعفِّيَ أثرَها على سارَة ، ثمَّ جاءَ بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيلَ ، وهي تُرضِعُه ، حتَّى وضعَهما عندَ البيت ، عند دَوْحةٍ[٢] فوق زمزمَ في أعلى المسجد ، وليس بمكَّةَ يومئذٍ أحدٌ ، وليس بها ماءٌ ، فوضعَهما هنالك ، ووضعَ عندَهما جراباً فيه تمرٌ ، وسِقاءً[٣] فيه ماءٌ ، ثم قفَّى[٤] إبراهيمُ مُنْطلقاً ، فتبعتْه أمُّ إسماعيلَ ، فقالتْ : يا إبراهيمُ أين تذهبُ وتترُكنا بهذا الوادي الذي ليس به إنسٌ ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفتُ إليها ، فقالتْ له : آللهُ أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيِّعُنا ، ثم رجعتْ .

فانطلقَ إبراهيمُ حتَّى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يَرَونه ، استقبلَ بوجههِ البيتَ ، ثم دعا بهؤلاء الدَّعواتِ ، ورفع يدَيْه ، فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وجعلتْ أمُّ إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيلَ وتشربُ من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السِّقاء عَطِشتْ ، وعَطِشَ ابنُها ، وجعلتْ تنظرُ إليه يتلوَّى ـ أو قال يتلبَّط[٥] ـ فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه ، فوجدت الصَّفا أقربَ جَبَلٍ في الأرض يليها ، فقامتْ عليه ثمَّ استقبلتِ الوادي تنظرُ هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، فهبطتْ من الصَّفا حتى إذا بلغتِ الوادي رفعتْ طرفَ دِرْعها ، ثم سعتْ سعيَ الإنسانِ المجهودِ ، حتى إذا جاوزتِ الوادي ، ثم أتتِ المروةَ فقامتْ عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً ، ففعلتْ ذلك سبعَ مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ « فلذلك سعى الناس بينهما »[٦] .

فلما أشرفتْ على المروة سمعتْ صوتاً ، فقالت : صهٍ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمَّعتْ فسمعتْ أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ ، فإذا هي بالملك عند مَوْضعِ زمزمَ ، فبحثَ بعَقِبه ـ أو قال بجناحه ـ حتَّى ظهرَ الماءُ ، فجعلتْ تحوِّضه[٧] ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلتْ تغرفُ من الماء في سِقائها ، وهي تفورُ بعدما تَغْرِفُ .

---

(١) « المِنْطَق » : ما يُشدُّ به الوسط .
(٢) « دوحة » : شجرة كبيرة .
(٣) « سقاء » : قربة صغيرة .
(٤) « قفَّى » : ولَّى راجعاً .
(٥) « يتلبَّط » : يتمرَّغ ، ويضرب بنفسه الأرض .
(٦) في أ : عليهما .
(٧) « تحوِّضه » : تجعله مثل الحوض .

قال ابن عباس قال النبي ﷺ : « يرحمُ الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم » أو قال : « لو لم تغرفْ من الماء ، لكانت زمزمُ عيناً معيناً »[١] .

فشربتْ وأرضعتْ ولدَها ، فقال لها الملَكُ : لا تخافي الضَّيْعة[٢] ، فإن هاهنا بيتَ الله ، يبني هذا الغلامُ وأبوه ، وإنَّ الله لا يُضيْعُ أهله . وكانَ البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السُّيولُ ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مَرَّتْ بهم رُفْقةٌ من جُرْهم ـ أو أهل بيتٍ من جرهم ـ مقبلينَ من طريق كَداء ، فنزلوا في أسفل مكَّة ، فرأوا طائراً عائفاً[٣] ، فقالوا : إنَّ هذا الطائرَ ليدورُ على الماء ، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريّاً[٤] ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا . قال : وأُمُّ إسماعيل عند الماء ، فقالوا : تأذنينَ لنا أن ننزلَ عندك ؟ قالت : نعم ، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال عبد الله بن عبَّاس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أُمَّ إسماعيلَ وهي تُحبُّ الأُنْسَ » .

فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان لها أهلُ أبياتٍ منهم ، وشبَّ الغُلامُ ، وتعلَّمَ العربيةَ منهم ، وأنفسهم وأعجبَهم حينَ شبَّ فلما أدركَ زوَّجُوهُ امرأةً منهم .

وماتتْ أُمُّ إسماعيل ، فجاء إبراهيمُ بعدما تزوَّجَ إسماعيل يُطالعُ تَرِكته ، فلم يجدْ إسماعيلَ ، فسألَ امرأته عنه ، فقالتْ : خرجَ يبتغي لنا . ثمَّ سألَها عن عَيْشهم وهَيْئَتهم ، فقالت : نحن بشَرٍّ ، نحن في ضيقٍ وشدَّةٍ ، وشَكَتْ إليه . قال : فإذا جاء زوجُكِ فاقرئي عليه السلام وقولي له يُغَيِّرْ عَتَبة بابه . فلما جاء إسماعيلُ كأنَّهُ آنسَ شيئاً ، فقال : هل جاءَكُمْ من أحدٍ ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فسألنا عنكَ فأخبرتُه ، وسألني كيف عَيْشُنا ، فأخبرتُه أنَّا في جَهْدٍ وشدَّةٍ . قال : فهل أوصاك بشيءٍ ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأَ عليكَ السَّلام ويقولُ لك : غَيِّر عتبةَ بابكَ . قال : ذاكَ أبي ، وأمرني أن أُفارقَكِ ، فالحقي بأهلِكِ . فطلَّقها ، وتزوَّج منهم أخرى ولبثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله .

ثم أتاهم بعدُ فلم يجدْه ، فدخلَ على امرأتِه ، فسألَها عنه ، فقالت : خرجَ يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألَها عن عَيْشهم وهَيْئَتهم ، فقالت : نحنُ بخيرٍ وسَعَةٍ ، وأثنتْ على الله ، فقال : ما طعامُكم ؟ قالت : اللَّحْمُ . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللَّهُمَّ باركْ لهم في اللَّحم والماء .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ ، ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه ، فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكَّةَ إلا لم يوافقاه » .

---

(١) « معيناً » : ظاهراً جارياً على وجه الأرض .
(٢) « الضيعة » : الهلاك .
(٣) « عائفاً » : الطائر الذي يحوم على الماء ، ويتردد فوقه ، ولا يمضي عنه .
(٤) « جريّاً » : رسولاً .

قال : فإذا جاء زوجُكِ فاقرئي عليه السلام ، ومُريه يُثبِّتْ عَتَبَة بابه . فلمَّا جاءَ إسماعيلُ قال : هل أتاكُم من أحدٍ ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهيئةِ ، وأثنتْ عليه ، فسألني عنكَ فأخبرته ، فسألني كيف عَيْشُنا ، فأخبرتُه أنَّا بخيرٍ قال : فأوصاكِ بشيءٍ ؟ قالت : نعم ، وهو يقرأ عليكَ السَّلام ، ويأمُركَ أنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بابكَ . قالَ : ذاك أبي ، وأمرني أن أُمْسكَكِ .

ثم لبثَ عنهم ما شاءَ الله ، ثم جاءَ بعد ذلك وإسماعيلُ يبري نَبْلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزمَ ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنعُ الولدُ بالوالد والوالدُ بالولد . ثم قال : يا إسماعيلُ ! إنَّ الله أمرني بأمرٍ . قال : فاصنعْ ما أمركَ به ربُّك . قال : وتُعينني ؟ قال : وأُعينك . قال : فإنَّ اللهَ أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمةٍ[1] مرتفعةٍ على ما حَوْلها . قال : فعند ذلك رفعا القواعدَ من البيتِ ، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يبني ، حتَّى إذا ارتفعَ البناءُ جاء بهذا الحَجَر فوضعَه له ، فقامَ عليه وهو يبني ، وإسماعيلُ يُناوله الحجارةَ ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] قال : وجعلا يَبنيان حتى يدورا حولَ البيت ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] » .

ثم قال[2] : حدَّثنا عبدُ الله بن محمّد ، حدَّثنا أبو عامر عبدُ الملك بن عمرو ، حدَّثنا إبراهيمُ بن نافع ، عن كثيرِ بن كثيرٍ ، عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ ، عن ابن عبَّاس قالَ : لما كان من إبراهيم وأهله ما كان ، خرجَ بإسماعيل وأمِّ إسماعيل ومعهم شَنَّة[3] فيها ماء . . وذكرَ تمامه بنحو ما تقدَّم .

وهذا الحديثُ من كلام ابن عباس ، وموشَّحٌ برفع بعضِه ، وفي بعضه غَرَابةٌ ، وكأنَّه مما تلقَّاه ابنُ عبَّاس عن الإسرائيليات ، وفيه : أنَّ إسماعيلَ كان رضيعاً إذ ذاك .

وعند أهل التوراة أنَّ إبراهيمَ أمره بأن يختنَ ولدَه إسماعيل ، وكلَّ منْ عنده من العبيد وغيرهم ، فختنَهم ، وذلك بعد مُضيِّ تسع وتسعينَ سنةً من عُمره ، فيكونُ عمرُ إسماعيلَ يومئذٍ ثلاثَ عشرة سنة ، وهذا امتثالٌ لأمر الله عزَّ وجلَّ في أهله ، فيدلُّ على أنَّه فعله على وجْهِ الوجوب ، ولهذا كانَ الصحيحُ من أقوالِ العلماء أنَّه واجبٌ على الرجال ، ما هو مقرَّر في موضعه .

وقد ثبتَ في الحديث الذي رواه البخاريُّ[4] : حدَّثنا قُتيبة بن سعيد ، حدَّثنا مغيرةُ بنُ عبد الرحمن القُرشيُّ ، عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال النبيُّ ﷺ : « اختتنَ إبراهيمُ النبيُّ

(١) « أكمة » : المرتفع من الأرض .
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٥) في الأنبياء .
(٣) « شنة » : قربة عتيقة .
(٤) في صحيحه (٣٣٥٦) .

عليه السلام وهو ابنُ ثمانين سنةً بالقَدُوم » . تابعَه عبدُ الرحمن بن إسحاق ، عن أبي الزِّناد ، وتابعَه عَجْلان عن أبي هريرة ، ورواه محمَّدُ بن عمرٍو عن أبي سلمةَ عن أبي هريرة .

وهكذا رواه مسلم[١] : عن قُتَيْبة به .

وفي بعض الألفاظ : « اختتن إبراهيمُ بعدما أتتْ عليه ثمانونَ سنةً ، واختتنَ بالقَدُوم »[٢] والقَدُوم هو الآلة ، وقيل : موضع .

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين ، والله أعلم ، لما سيأتي من الحديث عند ذِكر وفاته عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اختتن إبراهيمُ وهو ابنُ مئةٍ وعشرينَ سنةً ، وعاشَ بعد ذلك ثمانينَ سنة » رواه ابن حبَّان في « صحيحه »[٣] .

وليس في هذا السِّياق ذِكْرُ قصَّة الذبيح ، ولم يذكره في قدماتِ إبراهيمَ عليه السلام إلا ثلاثَ مرات ، أُولاهنَّ بعد أن تزوَّج إسماعيلُ بعدَ موت هاجرَ ، وكيف تركهم من حيث صِغَر الولد على ما ذكرَ إلى حين تزويجه ، لا ينظر في حالهم . وقد ذُكرَ أن الأرض كانت تُطوى له ، وقيل : إنه كان يركبُ البراقَ إذا سارَ إليهم ، فكيف يتخلَّفُ عن مُطالعة حالهم وهم في حال الضَّرورة الشديدة والحاجة الأكيدة . وكأنَّ بعضَ هذا السِّياق مُتلقًّى من الإسرائيلياتِ ، ومُطرَّزٌ بشيءٍ من المرفوعاتِ ، ولم يذكرْ فيه قصَّة الذبيح ، وقد دلَّلنا على أن الذبيحَ هو إسماعيلُ على الصحيح في سورة[٤] الصافات .

* * *

قصة الذبيح

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٠) في الفضائل .

(٢) أخرجه مسدد في مسنده ، كما في فتح الباري (٦/ ٣٩٠) .

(٣) الإحسان (٦٢٠٤) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) .

مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٩٩ ـ ١١٣] . يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لمَّا هاجرَ من بلاد قومِه سألَ ربَّه أن يهبَ له ولداً صالحاً ، فبشَّره الله تعالى بغلامٍ حليمٍ ، وهو إسماعيلُ عليه السلام ، لأنه أوَّلُ منْ وُلد له على رأسِ ستٍّ وثمانين سنةً من عُمُرِ الخليل ، وهذا ما لا خلافَ فيه بين أهلِ المِلَلِ ، لأنَّه أوَّلُ ولدِه وبِكرُه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] أي شبَّ وصار يَسعى في مَصالحه كأبيه ، قال مجاهدٌ[1] : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] أي : شبَّ وارتحلَ ، وأطاقَ ما يفعلُه أبوه من السعي والعمل .

فلما كان هذا أُري إبراهيمُ عليه السلام في المنام أنَّه يُؤمر بذبح ولده هذا ، و في الحديث عن ابن عبَّاس مرفوعاً « رؤيا الأنبياء وحي »[2] قاله عُبيد بن عُمَيْر[3] أيضاً .

وهذا اختبارٌ من الله عزَّ وجلَّ لخليله في أنْ يذبحَ هذا الولد العزيز ، الذي جاءه على كِبَرٍ وقد طَعَن في السِّنِّ ، بعدما أُمر بأن يُسْكنه هو وأمَّه في بلادٍ قَفْرٍ ، ووادٍ ليس به حسيسٌ ولا أنيس ، ولا زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ . فامتثلَ أمرَ الله في ذلك ، وتركَهما هناكَ ثقةً بالله وتوكُّلا عليه ، فجعلَ الله لهما فَرَجاً ومَخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أُمرَ بعد هذا كلِّه بذبح ولدِه هذا الذي قد أفردَه عن أمر ربه ، وهو بِكْرُه ووحيدُه الذي ليس له غيره ، أجابَ ربَّه وامتثلَ أمرَه ، وسارعَ إلى طاعتِه ، ثم عرضَ ذلك على ولدِه ليكونَ أطيبَ لقلبه وأهونَ عليه يأخذَه قَسْراً ويذبَحه قَهْراً ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فبادرَ الغلامُ الحليمُ سرُّ والدِه الخليل إبراهيم فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] وهذا الجواب في غاية السَّداد والطاعة للوالدِ ولربِّ العباد .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : ١٠٣] قيل : أسلما ، أي : استسلما لأمر الله وعزَما على ذلك ، وقيل : هذا من المقدَّم والمؤخَّر ، والمعنى : تلَّه للجبين : أي ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحَه من قفاه لئلا يُشاهده في حال ذَبْحِه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضَّحَّاك . وقيل : بل أضجعه كما تُضْجَعُ الذبائحُ ، وبقي طرفُ جبينه لاصقاً بالأرض . وأسلما : أي سمَّى إبراهيم وكبَّر ، وتشهَّد الولدُ للموت . قال السُّدِّي وغيره : أمرَّ السكينَ على حَلْقِه فلم تقطعْ شيئاً . ويُقال : جعلَ بينها وبين حلقه صفيحةً منْ نُحاسٍ ، فالله أعلم .

---

(١) تفسير مجاهد (٢/ ٥٤٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٧/ ١٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨) في الوضوء . قال عمرو : سمعتُ عبيدَ بن عمرو يقول : رؤيا الأنبياء وحيٌ . ثم قرأ : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

فعند ذلك نُودي من الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ [الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٥] أي : قد حصلَ المقصودُ من اختبارِكَ وطاعتكَ ومبادرتكَ إلى أمر ربّكَ ، وبَذْلكَ ولدَكَ للقربان ، كما سمحتَ ببدنِكَ للنيران ، وكما مَالُكَ مبذولٌ للضّيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] أي : الاختبار الظاهر البيِّن . وقوله : ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ [الصافات : ١٠٧] أي : وجعلنا فداءَ ذبح ولدِه ما يسَّره الله تعالى له من العِوَضِ عنه . والمشهورُ عن الجمهور أنه كَبْشٌ أبيضُ أعيَنُ[١] أقْرَنُ[٢] ، رآه مربوطاً بسمُرةٍ[٣] في ثبير[٤] .

قال الثوري : عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كَبْشٌ قد رعى في الجنَّة سبعين خريفاً[٥] .

وقال سعيد بن جبير : كان يرتعُ[٦] في الجنَّة حتى تشقَّقَ عنه ثبير ، وكان عليه عِهْنٌ[٧] أحمر .

وعن ابن عباس : هبطَ عليه من ثبير كَبْشٌ أعينُ أقرنُ له ثُغاءٌ فذبحَه ، وهو الكبشُ الذي قرَّبه ابنُ آدم ، فَتُقُبِّلَ منه . رواه ابن أبي حاتم[٨] .

قال مجاهد[٩] : فذبحَه بمنى . وقال عبيد بن عُمير[١٠] : ذبح بالمقام .

فأما ما رُوي عن ابن عبَّاس : أنَّه كان وعلاً ، وعن الحسن : أنَّه كان تَيْساً من الأروى ، واسمه جرير ، فلا يكاد يَصِحُّ عنهما ، ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذٌ من الإسرائيليات ، وفي القرآن كفايةٌ عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فُدِيَ بذبحٍ عظيمٍ ، وقد وردَ في الحديث أنَّه كان كبشاً .

قال الإمام أحمدُ[١١] : حدَّثنا سفيان ، حدَّثنا منصور ، عن خاله نافع ، عن صفيَّة بنت شيبةَ ، قالت : أخبرتني امرأة من بني سُليم وَلَّدَتْ عامَّة أهل دارنا ، قالت : أرسلَ رسول الله ﷺ إلى عثمانَ بن طلحة .

---

(١) « أعين » : واسع العينين .
(٢) « أقرن » : طويل القرنين .
(٣) « سَمُرة » : شجرة من شجر السَّمُر .
(٤) « ثبير » : جبل بمكة .
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٧/ ١١٣) وفيه : أربعين خريفاً .
(٦) يرتع : يأكل ويشرب ما شاء في خصب وسعة .
(٧) « عهن » : صوف .
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٧/ ١١٣) .
(٩) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥١٥) .
(١٠) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥١٥) .
(١١) في المسند (٤/ ٦٨) و(٥/ ٣٨٠) .

وقالت مرَّة : إنَّها سألتْ عثمانَ : لِمَ دعاكَ رسولُ الله ﷺ ؟ قال : « إنِّي كنتُ رأيتُ قَرْني الكبش حين دخلتُ البيتَ ، فنسيتُ أنْ آمرَكَ أنْ تُخمِّرَهُما فَخَمِّرْهُما ، فإنَّه لا ينبغي أن يكونَ في البيت شيءٌ يَشغلُ المصلِّي » . قال سفيان : لم تزلْ قرنا الكبش في البيت حتَّى احترقَ البيتُ فاحترَقا .

وهذا رُوي عن ابن عبَّاس : أنَّ رأسَ الكَبْش لم يزلْ مُعلَّقاً عند ميزاب الكعبة قد يبسَ .

وهذا وحده دليلٌ على أنَّ الذبيحَ إسماعيلُ ، لأنه كانَ هو المقيمُ بمكَّةَ ، وإسحاقُ لا نعلمُ أنَّه قدمها في حال صِغَره ، والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنَّه نصٌّ على أنَّ الذبيحَ هو إسماعيلُ ، لأنه ذكرَ قِصَّةَ الذبيح ، ثم قال بعده : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] ومنْ جعله حالاً فقد تكلَّف ، ومستنده أنَّه إسحاق إنما هو إسرائيليات ، وكتابُهم فيه تحريفٌ ، ولاسيما هاهنا قطعاً لا محيدَ عنه ، فإنَّ عندهم أنَّ الله أمرَ إبراهيمَ أنْ يذبحَ ابنَه وحيدَه ، وفي نسخة من المعرَّبة : بِكْرَه إسحاق . فلفظة إسحاق هاهنا مقحمةٌ مكذوبةٌ مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيدُ ولا البِكْرُ ، ذاكَ إسماعيل .

وإنما حملَهم على هذا حَسْدُ العربِ ، فإنَّ إسماعيلَ أبو العرب الذين يسكنون الحجازَ ، الذين منهم رسولُ الله ﷺ ، وإسحاقُ والد يعقوب ، وهو إسرائيل ، الذين ينتسبونَ إليه ، فأرادوا أنْ يجرُّوا هذا الشرفَ إليهم ، فحرَّفوا كلامَ الله ، وزادُوا فيه ، وهم قومٌ بُهتٌ[1] ، و لم يُقرُّوا بأنَّ الفضلَ بيد الله يُؤتيه من يشاءُ .

وقد قال بأنَّه إسحاق طائفةٌ كثيرةٌ من السَّلف ، وغيرهم ، وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الأحبار ، أو صُحُف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم حتَّى نتركَ لأجله ظاهرَ الكتاب العزيز ، ولا يُفهم هذا من القرآن بل المفهومُ ، بل المنطوقُ ، بل النَّصُّ عند التَّأمُّل على أنه إسماعيل .

وما أحسن ما استدلَّ محمَّدُ بن كعب القرظي[2] على أنه إسماعيل ، وليس بإسحاق ، من قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] قال : فكيفَ تقعُ البشارةُ بإسحاق ، وأنَّه سيولدُ له يعقوب ، ثم يُؤمرُ بذبح إسحاق وهو صغيرٌ قبلَ أن يُولد له ، هذا لا يكون ، لأنَّه يُناقضُ البشارةَ المتقدِّمة ، والله أعلم .

---

(١) « بهت » : باطل .

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن إسحاق (١٠/ ٥١٣) .

[وقد اعترضَ السُّهيلي[١] على هذا الاستدلال بما حاصلُه: أن قوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾[هود : ٧١] جملة تامة وقوله : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود : ٧١] جملة أخرى ليست في حيِّز البشارة . قال : لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكونَ مخفوضاً إلا أنْ يُعادَ معه حرفُ الجرِّ ، فلا يجوز أن يُقالَ : مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتى يُقال : ومن بعده بعمرو . وقال : فقوله : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود : ٧١] منصوبٌ بفعل مُضمَر ، تقديرُه : ووهبنا لإسحاق يعقوبَ . وفي هذا الذي قالَه نظر .

ورجَّح أنّه إسحاق ، واحتجَّ بقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾[الصافات : ١٠٢] قال : وإسماعيلُ لم يكن عندَه ، إنما كان في حال صِغَرِه هو وأمُّه بحيالِ مكَّةَ ، فكيف يبلغُ معه السعي ؟! وهذا أيضاً فيه نظرٌ ، لأنه قد رُوي أنَّ الخليلَ كان يذهبُ في كثيرٍ من الأوقاتِ راكباً البراقَ إلى مكَّة ، يَطلع على ولده وأمته ثم يرجع ، والله أعلم[٢] .

فمن حُكي القولُ عنه بأنّه إسحاق كعبُ الأحبار ، ورُوي عن عمرَ ، والعبَّاس ، وعليّ ، وابن مسعود ، ومَسروق ، وعِكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومُجاهد ، وعَطاء ، والشَّعبي ، ومُقاتل ، وعُبيد بن عمر ، وأبي مَيْسرة ، وزيد بن أسلم ، وعبد الله بن شَقيق ، والزُّهْري ، والقاسم ، وابن أبي بُرْدة ، ومكحول ، وعُثمان بن حاضر ، والسُّدِّي ، والحَسن ، وقتادة ، وأبي الهُذَيل ، وابن سابط ، وهو اختيارُ ابن جرير[٣] ، وهذا عَجبٌ منه ، وهو إحدى الروايتين عن ابن عبَّاس ، ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد ، وسعيد ، والشعبي ، ويُوسف بن مهران ، وعطاء ، وغير واحد ، عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدَّثني يُونس ، أنبأنا ابنُ وَهْب ، أخبرني عَمْرو بن قَيْس : عن عطاء بن أبي رَباح ، عن ابن عبَّاس : أنه قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنَّه إسحاق ، وكذبت اليهودُ[٤] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد ، عن أبيه : هو إسماعيل .

وقال ابنُ أبي حاتم : سألتُ أبي عن الذبيح ، فقال : الصَّحيحُ أنه إسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن عليٍّ ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وأبي الطُّفَيْل ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جُبير ، والحسن ، ومجاهد ، والشَّعبي ، ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي صالح ؛ أنَّهم قالوا : الذبيحُ هو إسماعيل عليه السلام .

---

(١) انظر « التعريف والإعلام » بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلي (ص١١١) طبعة مكتبة الأزهر ١٣٥٦هـ.

(٢) ما بين قوسين أثبته من ب وهو في المطبوع ، وقد سقط من أ .

(٣) انظر تفسير الطبري (١٠/ ٥١٠ـ ٥١٣) .

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٥١٣) .

وحكاه البغويُّ أيضاً : عن الربيع بن أنس ، والكلبي ، وأبي عمرو بن العلاء .

قلت : ورُوي عن معاويةَ ، وجاءَ عنه : أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ : « يا ابنَ الذبيحين » فضحكَ رسولُ الله ﷺ[١] .

وإليه ذهبَ عمرُ بن عبد العزيز ، ومحمَّد بن إسحاق بن يسار .

وكان الحسنُ البصري يقول : لا شكَّ في هذا .

وقال محمَّدُ بن إسحاق : عن بريدة بن سفيان بن فروةَ الأسلميّ ، عن محمد بن كعب : أنَّه حدَّثهم ، أنَّه ذكرَ ذلك لعمرَ بن عبد العزيز وهو خليفةٌ ، إذ كانَ معه بالشام [يعني استدلالَه بقوله بعد العصمة ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١]][٢] فقال له عمر : إنَّ هذا الشيءَ ما كنتُ أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلتَ ، ثم أرسلَ إلى رجلٍ كان عنده بالشام ، كان يهودياً فأسلمَ وحَسُنَ إسلامُه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، قال : فسأله عمرُ بن عبد العزيز : [عن ذلك . قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر بن عبد العزيز :][٣] أيُّ ابني إبراهيم أُمرَ بذبحِه ؟ فقال : إسماعيلُ والله يا أمير المؤمنين ، وإنَّ يهودَ لتعلمُ بذلك ، ولكنَّهم يحسدونَكم معشرَ العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكرَه الله منه لصبره لما أُمرَ به ، فهم يَجحدون ذلك ، ويزعمونَ أنَّه إسحاق ، لأنَّ إسحاقَ أبوهم[٤] .

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلَّتها وآثارها في كتابنا التفسير[٥] ، ولله الحمد والمنة .

* * *

ذكرُ مولد إسحاق

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ـ ١١٣] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٤) وتعقبه الذهبي فقال : إسناده واهٍ .

(٢) ما بين الحاصرتين سقط من أ وب وأثبته من المطبوع ، والعصمة : هي عصمة إسحاق من الذبح .

(٣) ما بين الحاصرتين سقط من المطبوع .

(٤) أخرج القصة ابن جرير الطبري في تاريخه (١/ ٢٧٠) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيمَ وسارَة لما مرُّوا عليهم[1] مجتازينَ ذاهبينَ إلى مدائنِ قومِ لوط ليدمِّروا عليهم لكفرهم وفُجورهم ، كما سيأتي بيانُه في موضِعه إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٦٩ ـ ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥١ ـ ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠] .

يذكرُ تعالى أنَّ الملائكةَ ـ قالوا : وكانوا ثلاثةً : جبريلُ ، وميكائيلُ وإسرافيلُ ـ لما وردُوا على الخليل ، حَسِبهم أولاً أضيافاً ، فعاملَهم معاملةَ الضيوف ، شوى لهم عِجلاً سميناً من خيار بقره ، فلمَّا قرَّبه إليهم وعرضَ عليهم ، لم يرَ لهم همَّةً إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوّة الحاجة إلى الطعام ، فنكرهم إبراهيمُ ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٠] أي : لندمِّرَ عليهم ، فاستبشرتْ عند ذلكَ سارَةُ غضباً لله عليهم ، وكانت قائمةً على رؤوس الأضياف ، كما جرتْ به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشاراً ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] أي : بشَّرتها الملائكةُ بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : ٢٩] أي : في صرخة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات : ٢٩] أي : كما يفعلُ النساء عند التعجُّب ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود : ٧٢] أي : كيف يلدُ مثلي وأنا كبيرةٌ وعقيمٌ أيضاً ، وهذا بعلي ، أي : زوجي شيخاً ، تعجَّبت من وجود ولدٍ والحالة هذه ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] .

وكذلك تعجَّب إبراهيمُ عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة ، وتثبيتاً لها وفرحاً بها ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ [الحجر : ٥٤ ـ ٥٥] أكّدوا الخبرَ بهذه

---

(١) كذا في ب ، وفي أ : بهم .

البشارة ، وقرَّروه معه ، فبشَّروهما ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣] وهو إسحاق ، وأخوه إسماعيل غلام حليم ، مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفَه ربُّه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] وهذا مما استدلَّ به محمَّدُ بن كعب القُرَظي وغيره ، على أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوزُ أن يُؤمرَ بذبحه بعدَ أنْ وقعتِ البشارةُ بوجوده ووجود ولده يعقوب ، المشتق من العَقِب من بَعْده .

وعند أهل الكتاب : أنَّه أَحضرَ مع العِجْل الحَنِيذِ(١) ـ وهو المشويُّ ـ رغيفاً من مَلَّةٍ ، فيه ثلاثة أكتالٍ وسَمْنٍ ولبن . وعندهم : أنَّهم أكلوا ، وهذا غَلَطٌ مَحْضٌ . وقيل : كانوا يُورُون(٢) أنَّهم يأكلونَ والطَّعامُ يتلاشى في الهواء .

وعندهم : أنَّ الله تعالى قال لإبراهيم : أمَّا سارا امرأتك ، فلا يُدعى اسمُها سارا ، ولكنْ اسمُها سارَة ، وأُباركُ عليها وأُعطيك منها ابناً وأباركه ، و يكونُ الشُّعوب وملوكُ الشعوب منه . فخرَّ إبراهيم على وجهه ـ يعني ساجداً ـ وضحكَ قائلاً في نفسه : أبعد مئة سنةٍ يُولد لي غلامٌ ، أو سارَةُ تلدُ وقد أتتْ عليها تسعونَ سنة ؟!

وقال إبراهيمُ لله تعالى : ليتَ إسماعيلَ يعيشُ قدَّامكَ . فقال الله لإبراهيمَ : بحقِّي إنَّ امْرأتك سارَة تلدُ لكِ غلاماً ، وتدعو اسمَه إسحاق إلى مثلِ هذا الحينِ من قابل ، وأوثقُه ميثاقي إلى الدهر ، ولخلفِه من بعده . وقد استجبت لكَ في إسماعيلَ ، وباركتُ عليه وكبَّرتُه ونمَّيتُه جداً كثيراً ، ويُولد له اثنا عشرَ عظيماً ، وأجعلُه رئيساً لشعبٍ عظيم . وقد تكلَّمنا على هذا بماتقدَّم ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] دليلٌ على أنها تستمتعُ بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده بولد ولده يعقوب ، أي : يُولد في حياتِهما لتقرَّ أعينُهما به كما قرَّتْ بوالده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكرِ يعقوبَ وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولما عيَّن بالذكر دلَّ على أنهما يتمتعان به ويُسرَّان بولده ، كما سُرَّا بمولد أبيه من قبله . وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٤٩] .

وهذا إن شاء الله ظاهرٌ قويٌّ ، ويُؤيِّده قوة ما ثبت في الصحيحين : من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلتُ يا رسول الله ! أيُّ مسجد وُضعَ أوَّل ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أيّ ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم بينهما ؟

---

(١) الحنيذ : المشوي على الحصى المحمي بالنار .

(٢) كذا في أ و ب ، وفي المطبوع : يودون ، وهو تصحيف .

قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم حَيْثُ أدركت الصَّلاةَ فصلِّ ، فكلُّها مسجد »[١] .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوبَ عليه السلام هو الذي أسَّس المسجدَ الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس ، شرَّفه الله .

وهذا مُتَّجِهٌ ، ويشهدُ له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكونُ بناء يعقوبَ ـ وهو إسرائيل عليه السلام ـ بعد بناءِ الخليل وابنه إسماعيل المسجدَ الحرام بأربعينَ سنةً سواء ، وقد كان بناؤُهما ذلك بعد وجود إسحاق ، لأن إبراهيمَ عليه السلام لمَّا دَعا قال في دعائه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ـ٤١] .

وما جاء في الحديث[٢] : من أنَّ سُليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنَى بيتَ المقدس سألَ الله خِلالًا ثلاثاً ، كما ذكرناه عند قوله : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص : ٣٥] وكما سنُورده في قصَّته . فالمرادُ من ذلك أنَّه جدَّد بناءَه ، كما تقدَّم من أنَّ بينهما أربعينَ سنةً ، ولم يقلْ أحدٌ إنَّ بين سليمان وإبراهيم أربعينَ سنةً ، سوى ابن حِبَّان في « تقاسيمه » وأنواعه ، وهذا القولُ لم يُوافق عليه ، ولا سُبِقَ إليه .

***

ذكر بناية[٣] البيت العتيق

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٦ـ٢٧] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦) في الأنبياء ، ومسلم (٥٢٠) في المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/١٧٦) والنسائي في سننه (٢/١٧٦) في المساجد ، وابن حبان في صحيحه (١٦٣٣) الإحسان .

(٣) في المطبوع : بناء .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ـ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٤ـ١٢٩] .

يذكرُ تعالى عن عبده ورسوله وصفيِّه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم[1] عليه أفضل صلاة وتسليم أنَّه بنى البيتَ العتيقَ الذي هو أوَّلُ مسجدٍ وُضِعَ لعموم النَّاس ، يعبدون الله فيه ، وبوَّأه الله مكانَه ، أي : أرشدَه إليه ودلَّه عليه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب وغيره ؛ أنَّه أُرشد إليه بوحي من الله عزَّ وجلَّ ، وقدَّمنا في صفة خلق السموات أنَّ الكعبةَ بحيالِ البيت المَعْمُور ، بحيث إنَّه لو سقط لسقطَ عليها ، وكذلك معابدُ السموات ، كما قال بعض السلف : إنَّ في كلِّ سماءٍ بيتاً يعبدُ اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض .

فأمرَ الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبنيَ له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات ، وأرشدَه الله إلى مكان البيتِ المهيّأ له ، المعيَّن لذلك ، منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبتَ في الصحيحين : « إن هذا البلدَ حرَّمه الله يومَ خلقَ السموات والأرض ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة » .

ولم يجىء في خبر صحيح عن معصوم أنَّ البيتَ كان مبنيّاً قبلَ الخليل عليه السلام . ومن تمسَّك في هذا بقوله : ﴿ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] فليس بناهضٍ ولا ظاهرٍ ، لأن المراد مكانه المقدَّر في علم الله ، المقرَّر في قدرته ، المعظَّم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدمَ إلى زمان إبراهيم .

وقد ذُكِرَ أنَّ آدم نصب عليه قُبَّةً ، وأن الملائكة قالوا له : قد طُفْنا قبلَك بهذا البيت ، وأنَّ السفينة

---

(١) سقطت من المطبوع .

طافتْ به أربعين يوماً أو نحو ذلك ، ولكن كلُّ هذه الأخبار عن بني إسرائيل . وقد قرَّرنا أنها لا تصدَّقُ ولا تكذبُ ، فلا يُحتجُّ بها ، فأما إن ردَّها الحقُّ فهي مردودة .

وقد قال الله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] أي : أوّل بيت وُضعَ لعموم النَّاس للبركة والهدى البيت الذي ببكة . قيل : مكة ، وقيل : محل الكعبة : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٩٧] أي : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده ، وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدونَ به ويتمسَّكون بسنَّته ، ولهذا قال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] أي : الحجَر الذي كان يقف عليه قائماً ، لما ارتفعَ البناءُ عن قامَته ، فوضعَ له ولدُه هذا الحجرَ المشهورَ ليرتفعَ عليه لمَّا تعالى البناءُ ، وعَظُمَ الفناء ، كما تقدَّم في حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان الحجَر مُلصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيّام عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخّره عن البيت قائلاً : لئلا يَشغل المصلين عندَه الطائفين بالبيت ، واتُّبعَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في هذا ، فإنه قد وافقه ربُّه في أشياءَ ، منها : في قوله لرسوله ﷺ لو اتَّخَذْنا مِن مقام إبراهيمَ مُصلًّى ، فأنزل الله : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] [البقرة : ١٢٥] .

وقد كانتْ آثارُ قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أوّل الإسلام ، و قد قال أبو طالب في قصيدته[2] اللاميَّة المشهورة : [من الطويل]

وثــورٍ ومَــنْ أرســى ثَبِيْـراً مكــانَــه	وراقٍ لِيَـرْقـى فـي حِـراءَ ونــازِلِ[3]
وبالبيتِ ، حق البيت ، من بطنِ مكَّةٍ	وبــالله إنّ اللهَ ليــس بغَــافِــلِ
وبــالحَجـر المُسْـوَدِّ إذ يَمْسَحُـونـه	إذا اكتنفُـوه بـالضُّحـى والأصـائلِ[4]
ومَوْطِىء إبراهيمَ في الصَّخرِ رَطْبةٌ	علـى قَـدَمَيْـهِ حَـافيـاً غيـرَ نـاعِـل

يعني أنَّ رجلَه الكريمة غاصتْ في الصخرة ، فصارتْ على قَدْر قَدَمه حافيةً لا مُنتعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] أي : في حال قولهما ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عزَّ وجلَّ ، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٩) في الجزية والموادعة ، ومسلم (١٣٥٣) في الحج ، عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه .

(٢) انظر القصيدة في السيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/ ٢٧٢ ـ ٢٨٠) .

(٣) ثور وثبير وحِراء : جبال بمكة .

(٤) « اكتنفوه » : أحاطوا به .

والمقصودُ أن الخليلَ بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع ، في وادٍ غير ذي زَرْعٍ ، ودعا لأهلها بالبركة وأن يُرزقوا من الثمرات ، مع قلّة المياه وعدم الأشجار والزروع والثِّمار ، وأن يجعلَه حَرَماً مُحرَّماً ، وآمناً مُحتّماً ، فاستجابَ الله وله الحمدُ له مسألته ، ولبّى دعوتَه ، وآتاه طلبته ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : ٥٧] وسألَ الله أنْ يبعثَ فيهم رسولاً منهم ، أي : من جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصحية ، لتتمَّ عليهم النعمتان الدنيوية والدينية ، سعادة الأولى والأخرى .

وقد استجابَ الله له ، فبعثَ فيهم رسولاً وأيّ رسول ، ختمَ به أنبياءَه ورسلَه ، وأكملَ له من الدِّين ، ما لم يُؤتِ أحداً قبلَه ، وعمَّ بدعوتِه أهلَ الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائِصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفِه في نفسه ، وكمالِ ما أُرسلَ به ، وشَرفِ بُقعتهِ ، وفصاحة لغتِه ، وكمال شَفقتِه على أُمَّته ، ولطفه ورحمته ، وكريم مَحْتِدِه[١] ، وعظيم مولده ، وطيب مَصْدَرِه ومَوْرده .

ولهذا استحقَّ إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام إذ كان باني كعبة أهل الأرضِ أن يكونَ منصبُه ومحلُّه وموضعُه في منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور ، الذي هو كعبةُ أهل السماء السابعة المُبارك المبرور ، الذي يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يتعبَّدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور ، وقد ذكرنا في التفسير[٢] من سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما وردَ في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية ، فمن أرادَه فليراجعْه ثَمَّ ولله الحمد .

فمن ذلك ما قال السُّدِّي : لما أمرَ الله إبراهيمَ وإسماعيلَ أن يبنيا البيتَ ، ثم لم يدريا أين مكانه ، حتى بعثَ الله ريحاً يُقال له « الخجوج »[٣] لها جناحان ورأس ، في صورة حيَّة ، فكنستْ لهما ما حولَ الكعبة عن أساس البيت الأوّل ، واتَّبعَاهَا بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساسَ ، وذلك حين يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] »[٤] .

فلما بلغا القواعدَ وبنيا الركنَ ، قال إبراهيمُ لإسماعيل : يا بني اطلبْ لي [حجراً حسَناً أضعُه هاهنا . قال : يا أبتِ ! إني كسلان لَغِبٌ . قال : عليَّ ذلكَ . فانطلقَ ، وجاءَه جبريلُ][٥] بالحَجَرِ الأسودِ من

(١) « محتده » : أصله وحسبه ونسبه .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢١٩ـ ٢٢٥) .
(٣) « الخجوج » : الريح الشديد المَرُّ .
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (١/ ٢٥٢) .
(٥) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع .

الهِنْد ، وكان أبيضَ ياقوتة بيضاء مثل الثَّغامة[١] . وكان آدمُ هبطَ به من الجنَّة ، فاسوَدَّ من خطايا النَّاسَ ، فجاءَه إسماعيلُ بحجر ، فوجدَه عند الركن . فقال يا أبتِ مَنْ جاءك بهذا ؟ قال : جاء به مَنْ هو أنشطُ منك . فبنيا وهما يدعوان الله : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وذكرَ ابنُ أبي حاتم : أنَّه بناه من خمسة أجبل ، وأنَّ ذا القرنين ـ وكان مَلِكَ الأرضِ إذ ذاك ـ مرَّ بهما وهم يبنيانه ، فقال : مَنْ أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم : الله أمرنا به . فقال : وما يُدريني بما تقولُ ، فشهدتْ خمسةُ أكبشٍ أنَّه أمرَه بذلك ، فآمنَ وصدَّق . وذكر الأزرقي : أنَّه طافَ مع الخليل بالبيت .

وقد كانت الكعبة[٢] على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بَنَتْها قريش ، فقصَّرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال ، ممايلي الشام ، على ما هي عليه اليوم .

وفي الصحيحين[٣] : من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم ؛ أنَّ عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبرَ ابن عمر ، عن عائشةَ ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « ألم تريْ إلى قومِك حين بنوا الكعبةَ اقتصروا عن قواعد إبراهيم » فقلتُ : يا رسولَ الله : ألا تردَّها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومِك بالكفر لفعلتُ » وفي رواية : « لولا أنَّ قومَك حديثو عهد بجاهلية ، أو قال : بكفر ، لأنفقت كنزَ الكعبة في سبيل الله ، ولجعلتُ بابَها بالأرض ، ولأدخلتِ فيها الحِجْرَ » .

وقد بناها ابنُ الزبير رحمه الله في أيَّامه على ما أشار إليه رسولُ الله ﷺ ، حسبما أخبرتْه خالتُه عائشة أمُّ المؤمنين عنه ، فلما قتلَه الحجَّاجُ في سنة ثلاثٍ وسبعين ، كتبَ إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أنَّ ابنَ الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسِه ، فأمرَ بردِّها إلى ما كانت عليه ، فنقضُوا الحائطَ الشَّاميَّ ، وأخرجوا منها الحِجْرَ ، ثم سَدُّوا الحائط وردَموا الأحجارَ في جَوْفِ الكعبة ، فارتفعَ بابُها الشرقيّ ، وسدُّوا الغربيَّ بالكُلّيَّة ، كما هو مشاهد إلى اليوم .

ثم لما بلغَهم أنَّ ابن الزبير إنما فعلَ هذا لما أخبرتْه عائشة أم المؤمنين نَدِموا على ما فَعلوا ، وتأسَّفوا أن لو كانوا تركوه وما تولَّى من ذلك .

ثم لما كان في زمن المَهْدي بن المنصور استشارَ الإمامَ مالكِ بن أنس في ردِّها على الصِّفة التي بناها ابن الزبير ، فقال له : إني أخشى أن يتخذَها الملوكُ لعبةً ، يعني كلَّما جاءَ مَلِكٌ بناها على الصِّفَة التي يُريد ، فاستقرَّ الأمرُ على ما هي عليه اليوم .

***

(١) « الثغامة » : شجرة بيضاء الثمر والزهر .
(٢) أثبتها من المطبوع .
(٣) أخرجه البخاري (١٥٨٣) في الحج ، ومسلم (١٣٣٣) في الحج .

ذكر ثناء الله ورسولِه الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . لما وفَّى ما أمرَه ربُّه به من التكاليف العظيمة ، جعلَه للناس إماماً يقتدون به ، ويأتمُّون بهديْه ، وسألَ اللهَ أن تكونَ هذه الإمامة متصلةً بسببه ، وباقيةً في نسبه ، وخالدةً في عَقبه ، فأُجيبَ إلى ما سأل ورامَ ، وسُلِّمَتْ إليه الإمامة بزمام ، واستثني من نيلها الظالمون ، واختُصَّ بها من ذرِّيته العلماءُ العاملون ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٧] .

فالضميرُ في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ عائدٌ على إبراهيم على المشهور ، ولوطٌ وإن كان ابنَ أخيه ، إلا أنَّه دخلَ في الذريَّة تغليباً ، وهذا هو الحاملُ للقائل الآخر : إن الضميرَ على نوحٍ كما قدَّمنا في قصته ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ ﴾ [الحديد : ٢٦] . الآية .

فكلُّ كتاب أُنزل من السماء على نبيٍّ من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خِلْعةٌ سنيَّة لا تُضاهى ، ومرتبةٌ عليَّةٌ لا تُباهى . وذلك أنَّه وُلدَ له لصُلبِهِ ولدان ذكران عظيمان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارَة ، ووُلد لهذا يعقوبُ ، وهو إسرائيل الذي ينتسبُ إليه سائرُ أسباطِهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلمُ عددَهم إلا الذي بعثهم ، واختصَّهم بالرسالة والنبوة حتى خُتِمُوا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل .

وأما إسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، كما سنبيِّنه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، ولم يُوجد من سُلالتِهِ من الأنبياء سوى خاتَمهم على الإطلاق وسيدهم ، وفخر بني آدمَ في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشيّ الهاشميّ المكيّ ، ثم المدنيّ صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يُوجد من هذا الفرع الشريف والغُصْن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدُّرَّة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السَّيِّد الذي يفتخرُ به أهلُ الجمع ، ويغبطُه الأوَّلون والآخرون يوم القيامة .

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم ، كما سنُورده أنه قال : « سأقومُ مقاماً يرغبُ إليَّ الخَلْقُ كلُّهم حتى إبراهيم »[١] فمدحَ إبراهيمَ أباه مِدْحةً عظيمةً في هذا السياق ، ودلَّ كلامه على أنه أفضلُ الخلائق بعده على الإطلاق ، في هذه الحياة الدنيا ويومَ يُكشفُ عن سَاق .

وقال البخاري[٢] : حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدَّثنا جريرٌ ، عن منصور ، عن المِنهال ، عن سعيد ابن جُبَيْر ، عن ابن عبَّاس ، قال : كان رسولُ الله ﷺ يُعوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْن ويقول : « إنَّ أباكما كان يُعوِّذ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ : أعوذُ بكلماتِ الله التَّامة ، من كُلِّ شَيْطانٍ وهامَّة ، ومنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّة » .

ورواه أهل السنن[٣] : من حديث منصور به .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير[٤] . وقرَّرناها بأتمِّ تقرير ، والحاصلُ : أنَّ الله عزَّ وجلَّ أجابَه إلى ما سألَ ، فأمرَه أن يعمد إلى أربعةٍ من الطيور ، واختلفوا في تعيينها[٥] على أقوال ، والمقصود حاصل على كلِّ تقدير ، فأمره أن يُمزِّقَ لحومَهنَّ وريشهنَّ ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ، ويجعل على كلِّ جبل منهنَّ جزءاً ، ففعل ما أُمِرَ به ، ثم أُمِرَ أن يدعوهنَّ بإذن ربهنَّ ، فلما دعاهنَّ ، جعلَ كلُّ عضوٍ يطيرُ إلى صاحبه ، وكلُّ ريشة تأتي إلى أختها ، حتى اجتمعَ بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقولُ للشيء : كن فيكون . وأتينَ إليه سعياً ، ليكونَ أبينَ له وأوضحَ لمشاهدته يأتين طيراناً .

ويقال : إنه أُمر أن يأخذَ رؤوسهنَّ في يده ، فجعلَ كلُّ طائر يأتي فيُلقي رأسَه ، فيتركَّبُ على جثَّته كما كان ، فلا إله إلا الله .

وقد كان إبراهيمُ عليه السلام يعلمُ قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً ، لا يحتمل النقيضَ ، ولكنْ أحبَّ أنْ يُشاهدَ ذلك عياناً ، ويترقَّى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله ، وأعطاه غاية مأموله .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٢٠) في صلاة المسافرين .

(٢) في صحيحه (٣٣٧١) في الأنبياء .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٧٣) في السنة ، والترمذي (٢٠٦٠) في الطب ، والنسائي (١٠٠٦) في عمل اليوم والليلة ، وابن ماجه (٣٥٢٥) في الطب . والهامة : واحدة الهوام ذوات السموم ، « واللاَّمَّة » : الداء والآفة .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) .

(٥) في المطبوع : تعيُّنها .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٥ ـ ٦٨] يُنكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين ، كون الخليل على ملَّتِهم وطريقتهم ، فبرَّأه الله منهم ، وبيَّن كثرةَ جهلهم وقلة عقلهم في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [آل عمران : ٦٥] أي : فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعدَه بمدد متطاولة ، ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٥] إلى أن قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] فبيَّن أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصدُ إلى الإخلاص والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٤١] . فنزَّه الله عزَّ وجلَّ خليلَه عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبيَّن أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران : ٦٨] يعني الذين كانوا على مِلَّتِه من أتباعه في زمانه ، ومن تمسَّك بدينه من بعدهم ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [آل عمران : ٦٨] يعني محمداً ﷺ ، فإن الله شرعَ له الدِّينَ الحنيف الذي شرعه للخليل ، وكمَّله الله تعالى له وأعطاه ما لم يُعْط نبياً ولا رسولاً قبلَه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ

ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣] .

وقال البخاري[١] : حدَّثنا إبراهيم بن موسى ، حدَّثنا هشام ، عن مَعْمر ، عن أيُّوب ، عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس : أنَّ النبيَّ ﷺ لما رأى الصُّورَ في البيت لم يدخلْ حتى أُمِر بها فمُحيت ، ورأى إبراهيمَ وإسماعيلَ بأيديهما الأزلامُ ، فقال : « قاتلَهم الله ، والله إن استقسما بالأزلام قطّ » . لم يخرِّجْه مسلم .

وفي بعض ألفاظ البخاري[٢] : « قاتلَهم الله ، لقد علموا أن شيخنا لم يستقسمْ بها قطُّ » .

وقوله : ﴿ أُمَّةً ﴾ أي : قدوة ، إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير ، يُقتدى به فيه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أي : خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي مخلصاً على بصيرة : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ قائماً بشكر ربِّه بجميع جوارحِه من قلبه ولسانه وأعمالِه ﴿ ٱجْتَبَٰهُ ﴾ أي : اختاره الله لنفسه واصطَفَاه لرسالته ، واتَّخذه خليلاً ، وجمعَ له بين خيري الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] يرغِّب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام ، لأنه كان على الدِّين القويم والصِّراط المستقيم ، وقد قام بجميع ما أَمر به ربُّه ، ومدحَه تعالى بذلك ، فقال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] ولهذا اتَّخذه الله خليلاً ، والخُلَّةُ هي غاية المحبَّة ، كما قال بعضُهم : [من الخفيف]

قد تَخَلَّلْتَ مَسْلك الرُّوحِ مني وبـذا سُمِّي الخليـلُ خليـلا[٣]

وهكذا نالَ هذه المنزلة خاتمُ الأنبياء وسيِّدُ الرسل محمد صلواتُ الله وسلامه عليه ، كما ثبت في الصحيحين[٤] وغيرهما : من حديث جُنْدب البَجليّ ، وعبد الله بن عمرو ، وابن مسعود ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس إن الله اتَّخذني خليلاً ، كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً » .

وقال أيضاً في آخرِ خطبةٍ خطبَها : « ايُّها النَّاسُ لو كنتُ مُتَّخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنَّ صاحبَكم خليلُ الله » . أخرجاه من حديث أبي سعيد[٥] .

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود .

---

(١) في صحيحه (٣٣٥٢) في الأنبياء .
(٢) أخرجه البخاري (١٦٠١) في الحج بلفظ « قاتلهم الله ، أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط » .
(٣) ذكره ابن القيم في روضة المحبين (ص٨٢) طبعة دار الكلم الطيب تحقيق د. محيي الدين ديب مستو .
(٤) ليس في الصحيحين بهذا اللفظ وإنما رواه المؤلف بالمعنى .
(٥) أخرجه بالمعنى البخاري رقم (٣٩٠٤) في فضائل الصحابة ، ومسلم (٢٣٨٣) في فضائل الصحابة .

وروى البخاريُّ في « صحيحه »[١] : حدَّثنا سليمان بن حرب ، حدَّثنا شعبة ، عن حبيب بن جُبير ، عن عمرو بن ميمون ، قال : إنَّ معاذا لما قدمَ اليمن صلَّى بهم الصُّبح ، فقرأ ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] . فقال رجل من القوم : لقد قرَّت عينُ أُمِّ إبراهيم .

وقال ابن مردويه[٢] : حدَّثنا عبدُ الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدَّثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد ، حدَّثنا إبراهيمُ بن يعقوب الجُوزجاني بمكَّة ، حدَّثنا عبدُ الله الحنفي ، حدَّثنا زَمْعة بن صالح ، عن سلمةَ بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : جلسَ ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرجَ حتى إذا دنا منهم سمعَهم يتذاكرون ، فسمعَ حديثَهم ، وإذا بعضُهم يقول : عَجباً ، إن الله اتَّخذَ من خلقه خليلاً ، فإبراهيم خليله . وقال آخر : ماذا بأعجبَ الله كَلَّمَ موسى تكليماً . وقال آخر : فعيسى روحُ الله وكلمتُه . وقال آخر : آدمُ اصطفاه الله . فخرجَ عليهم فسلَّم ، وقال : « قد سمعتُ كلامَكم وعجبَكم أن إبراهيمَ خليلُ الله ، وهو كذلك ، وموسى كليمُه ، وهو كذلك ، وعيسى رُوحه وكلمتُه ، وهو كذلك ، وآدمُ اصطفاه الله ، وهو كذلك . ألا وإني حبيبُ الله ولا فخرَ ، ألا وإني أوَّلُ شافع وأوَّلُ مُشفَّع ولا فخر ، وأناأوَّلُ منْ يُحرِّك حلقةَ باب الجنَّة فيفتحه الله ، فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأوَّلينَ والآخرين يوم القيامة ، ولا فخر » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وله شواهدُ من وجوه أخر ، والله أعلم .

ورواه الحاكم في مستدركه[٣] : من حديث قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أتنكرون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم ، والكلامُ لموسى ، والرؤية لمحمَّد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا محمود بن خالد السُّلمي ، حدَّثنا الوليد ، عن إسحاق بن بشَّار ، قال : لما اتَّخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل ، حتى إنْ كان خفقانُ قلبه ليُسمع من بُعد كما يُسمع خفقان الطير في الهواء[٤] .

وقال عُبيد بن عُمير : كان إبراهيمُ عليه السلام يُضيِّفُ النَّاسَ ، فخرجَ يوماً يلتمسُ إنساناً يُضيِّفه ، فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجعَ إلى داره ، فوجدَ فيها رجلاً قائماً ، فقالَ : يا عبد الله ما أدخلكَ داري بغير إذني ؟ قال : دخلتها بإذن ربِّها . قال : ومنْ أنتَ ؟ قال : أنا مَلَكُ الموتِ ، أرسلني ربِّي إلى عبد من عباده أبشِّره بأن الله قد اتخذه خليلاً ، قال : منْ هو ؟ فوالله إنْ أخبرتني به ، ثم كان بأقصى البلاد لآتينَّه ،

---

(١) البخاري (٤٣٤٨) في المغازي .
(٢) كما في الدر المنثور (٢/ ٧٠٥) والترمذي (٣٦١٦) في المناقب ، وقال : هذا حديث غريب .
(٣) المستدرك (١/ ٦٥ و٢/ ٤٦٩) .
(٤) كما في الدر المنثور (٢/ ٧٠٦) .

ثم لا أبرحُ له جاراً ، حتَّى يُفرِّقَ بيننا الموتُ . قال : ذلك العبدُ أنتَ . قال : أنا ؟ قال : نعم . قال : فبم اتَّخذني ربِّي خليلاً ؟ قال : بأنَّك تُعطي النَّاسَ ولا تسألُهم . رواه ابن أبي حاتم[١] .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه . والمدح له . فقيل[٢] : إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر في البقرة وحدها .

وهو أحدُ أولي العزم الخمسة ، المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] وقوله : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] الآية .

ثم هو أشرفُ أُولي العزم بعد محمَّدٍ ﷺ ، وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة ، مسنداً ظهره بالبيت المعمور ، الذي يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

وما وقع في حديث شريك بن أبي نَمِر ، عن أنس ، في حديث الإسراء[٣] : من أنَّ إبراهيمَ في السادسة ، وموسى في السابعة ، فممَّا انتُقد على شريكٍ في هذا الحديث ، والصحيح الأول .

وقال أحمدُ[٤] : حدثنا محمد بن بشر ، حدَّثنا محمد بن عمرو ، حدَّثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الكريمَ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن » . تفرَّد به أحمدُ[٥] .

ثم مما يدلُّ على أنَّ إبراهيمَ أفضلُ من موسى على الصحيح الحديث الذي قال فيه : « وأخَّرتُ الثالثة ليوم يرغبُ إليّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيم » رواه مسلم من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه[٦] .

وهذا هو المقامُ المحمودُ الذي أخبرَ عنه صلواتُ الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يوم القيامة ولا فخر » . ثم ذكرَ استشفاع الناس بآدمَ ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلُّهم يحيدُ عنها ، حتى يأتوا محمداً ﷺ : « فيقول : أنا لها ، أنا لها » . . . الحديث[٧] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) في ب : يُقال .
(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٧) في التوحيد ، ومسلم (١٦٢) (٢٦٢) في الإيمان .
(٤) في المسند (٢/ ٣٣٢) وهو حديث صحيح .
(٥) بل رواه الترمذي رقم (٣١٦٦) وهو حديث حسن .
(٦) أخرجه مسلم (٨٢٠) (٢٧٣) في صلاة المسافرين ، وتقدَّم .
(٧) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) في الأنبياء و(٤٧١٢) في التفسير .

وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر[١] ، ومسلم[٢] ، والنسائي[٣] ، من طرقٍ عن يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن عُبيد الله ، وهو ابن عمر العُمَريّ به .

قال البخاريُّ[٤] : حدَّثناعليُّ بن عبد الله ، حدَّثنا يحيى بن سعيد ، حدَّثنا عبيد الله ، حدَّثني سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قيل : يا رسول الله ! من أكرم الناس ؟ قال : « أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله ؟ » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ». ثم قال البخاري : قال أبو أسامة ومعتمر ، عن عبيد الله ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ .

قلت : وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما[٥] ، وحديث عبدة بن سليمان[٦] ، والنسائي من حديث محمد بن بشر[٧] ، أربعتُهم عن عبيد الله بن عمر ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ[٨] .

وقال أحمد[٩] : حدَّثنا محمد بن بشر ، حدَّثنا محمد بن عمرو ، حدَّثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريمَ ابنَ الكريمَ ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله » . تفرَّد به أحمد .

وقال البخاريُّ[١٠] : حدَّثنا عبدة ، حدَّثنا عبد الصمد عن[١١] عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « الكريمُ ابنُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . تفرَّد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، به .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١٢] : حدَّثنا يحيى ، عن سفيان ، حدَّثني مغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « يُحشرُ النَّاس حفاة عراة غرلاً ، فأول من يُكسى إبراهيم

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٥٣) في أحاديث الأنبياء و(٣٤٩٠) في مناقب قريش .
(٢) صحيح مسلم (٢٣٧٨) في المناقب .
(٣) في التفسير (٢٦٩) ، وهو في الكبرى (١١٢٤٩) .
(٤) في صحيحه (٣٣٥٣) .
(٥) أخرج البخاري حديث أبي أسامة في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٣٣٨٣) . وأخرج حديث معتمر بن سليمان في (٣٣٧٤).
(٦) أخرجه البخاري في التفسير من صحيحه (٤٦٨٩) .
(٧) في التفسير (٢٧٠) وهو في سننه الكبرى برقم (١١٢٥٠) .
(٨) فروى سعيد بن أبي سعيد هذا الحديث عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه عن أبي هريرة مباشرة ، وكله صحيح كما هو معروف .
(٩) في المسند (٢/ ٣٣٢) وتقدم قريباً .
(١٠) البخاري (٣٣٩٠) في الأنبياء .
(١١) في المطبوع : « بن » خطأ بيّن ، وعبد الرحمن هو ابن عبد الله بن دينار .
(١٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٩) وغرلاً : غير مختونين .

عليه السلام » ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] » فأخرجَاه في الصحيحين[١] : من حديث سفيان الثوري ، وشعبة بن الحجّاج[٢] ، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عبّاس به .

وهذه الفضيلة المعيَّنة لا تقتضي الأفضليةَ بالنسبة إلى ما قابلَها مما ثبتَ لصاحب المقام المحمود ، الذي يغبطُه به الأوّلون والآخرون .

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد : حدَّثنا وكيع وأبو نعيم ، حدَّثنا سفيان هو الثوري ، عن مختار بن فُلْفلٍ ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : يا خيرَ البريَّة ! فقال : « ذاكَ إبراهيم »[٣] ، فقد رواه مسلم[٤] من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس وعلي بن مسهر ومحمد بن فضيل أربعتُهم ، عن المختار بن فلفل . وقال الترمذي[٥] : حسن صحيح .

وهذا من باب الهَضْم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام ، كما قال : « لا تُفضِّلوني على الأنبياء ، وقال : لا تُفضِّلوني على موسى فإن الناس يُصعقونَ يومَ القيامة ، فأكونُ أوّلَ من يفيقُ ، فأجدُ موسى باطشاً بقائمةِ العَرْشِ ، فلا أدري أفاقَ قبلي أم جُوزي بصَعْقةِ الطُّور »[٦] .

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صَلواتُ الله وسلامُه عليه ، من أنه سيد ولد آدم يومَ القيامة[٧] . وكذلك حديث أُبيٍّ بن كعب في صحيح مسلم : « وأخَّرْتُ الثالثةَ ليومٍ يرغبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيم »[٨] .

ولما كان إبراهيمُ عليه السلام أفضلَ الرسل وأولي العزم بعد محمّد صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين ، أُمر المُصلِّي أن يقولَ في تشهده ما ثبتَ في الصحيحين : من حديث كعب بن عُجْرة وغيره ، قال : قلنا : يا رسولَ الله ! السلام عليك قد عرفناه ، فكيفَ الصَّـلاةُ عليك ؟ قال : « قولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ على محمّد وعلى آل محمد ، كما صَلَّيتَ على إبراهيـمَ وآل إبراهيم ، وبارِكْ على محمَّد وعلى آل

---

(١) تفرد البخاري بإخراج حديث سفيان في صحيحه (٣٣٤٩) و(٣٤٤٧) و(٤٦٢٦) .

(٢) حديث شعبة أخرجه البخاري (٤٦٢٥) و(٤٧٤٠) و(٦٥٢٦) ، ومسلم (٢٨٦٠) (٥٨) .

(٣) في المسند (٣/ ١٧٨) .

(٤) مسلم (٢٣٦٩) في الفضائل .

(٥) الترمذي (٣٣٥٢) في التفسير .

(٦) أخرجه البخاري (٣٤١٤) في الأنبياء ، ولفظه : « لا تفضلوا بين أولياء الله . . . » ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل ، بلفظ : « لا تفضلوا بين أنبياء الله . . . » .

(٧) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) في الأنبياء ، ومسلم (٣٢٧) (١٩٤) في الإيمان ، وهو من الأحاديث المتواترة انظر « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » للسيوطي (ص١٤٩) مصورة دار المعارف بحلب ـ سورية .

(٨) أخرجه مسلم (٨٢٠) في صلاة المسافرين ، وقد تقدم .

محمد ، كما باركتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ[١] » .

وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] قالوا : وفي جميع ما أُمر به ، وقامَ بجميع خصال الإيمان وشُعبه ، وكان لا يَشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا يُنسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصِّغار .

قال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس [في قوله تعالى][٢] : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] قال : ابتلاه الله بالطَّهارة : خمسٌ في الرأس ، وخمسٌ في الجسد ، في الرأس : قصُّ الشارب ، والمضمضة ، والسِّواك ، والاستنشاق ، وفَرْقُ الرأس . وفي الجسد : تقليمُ الأظفار ، وحَلْقُ العانة ، والخِتان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم[٣] ، وقال : وروي عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك .

قلت : وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الفطرةُ خمسٌ : الختان ، والاستحداد ، وقصُّ الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط »[٤] .

وفي صحيح مسلم وأهل السنن[٥] : من حديث وكيع ، عن زكريا بن أبي زائدة ، عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي ، عن طلق بن حبيب العَنَزي ، عن عبد الله بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « عَشْرٌ من الفِطرة : قصُّ الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسِّواك ، واستنشاق الماء ، وقصُّ الأظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحَلْق العانة ، وانتقاص الماء » ـ يعني : الاستنجاء[٦] ـ قال مصعب : ونسيتُ العاشرةَ إلا أن تكون المضمضة . قال وكيع : انتقاص الماء . وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الخِتان .

والمقصودُ أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يَشغله القيامُ بالإخلاص لله عزَّ وجلَّ وخشوع العبادة العظيمة ، عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كلِّ عضوٍ ما يستحقُّه من الإصلاح والتحسين ، وإزالة ما له

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧) في الدعوات ، ومسلم (٤٠٦) في الصلاة .
(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل ، وأثبته من المطبوع .
(٣) كما في الدر المنثور (١/ ٢٧٣) وأخرجه البيهقي (٨/ ٣٢٥) في السنن الكبرى، والحاكم (٢/ ٢٦٦) في المستدرك.
(٤) أخرجه البخاري (٥٨٩١) في اللباس ، ومسلم (٢٥٧) في الطهارة .
(٥) أخرجه مسلم (٢٦١) في الإيمان، وأبو داود (٥٣) في الطهارة ، والترمذي (٢٧٥٧) في الأدب، وابن ماجه (٢٩٣) في الطهارة وسننها ، والنسائي (٨/ ١٢٦) و(١٢٨) في الزينة، وهو في الكبرى (٩٢٨٦) و(٩٢٨٧) و(٩٢٨٨) .
(٦) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع .

يُشيْن[١] من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قَلْحٍ[٢] أو وَسَخٍ ، فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] .

ذكر قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزَّار[٣] : حدَّثنا أحمد بن سنان القطَّان الواسطي ، ومحمد بن موسى القَطَّان ، قالا : حدَّثنا يزيد بن هارون ، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنَّةِ قصراً ـ أحسبه قال ـ من لؤلؤة ليس فيه فَصْمٌ[٤] ولا وَهْيٌ[٥] ، أعدَّه الله لخليله إبراهيم عليه السلام نُزُلاً » .

قال البزار : وحدَّثناه أحمد بن حُمَيْد[٦] المروزي ، حدَّثنا النَّضْر بن شُمَيْل ، حدَّثنا حماد بن سَلمة ، عن سِماك ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه . ثم قال : وهذا الحديث لا نعلمُ رواه عن حمَّاد بن سلمةَ فأسندَه إلا يزيد بن هارون والنَّضْر بن شُمَيْل ، وغيرهما يرويه موقوفاً .

قلتُ : لولا هذه العِلَّة لكان على شرط الصحيح ولم يُخرِّجوه .

ذكر صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد[٧] : حدَّثنا يونس وحُجَين ، قالا : حدَّثنا الليث ، عن أبي الزُّبير ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عُرِضَ عليّ الأنبياءُ ، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال كأنَّه من رجالِ شنوءةَ ، ورأيتُ عيسى ابن مريم فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شبَهاً عروةُ بن مسعود ، ورأيتُ إبراهيمَ ، فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شبَهاً دِحْية » . تفرَّد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وبهذا اللفظ .

وقال أحمد[٨] : حدَّثنا أسودُ بن عامر ، حدَّثنا إسرائيلُ ، عن عثمان ـ يعني ابن المغيرة ـ عن مُجاهد ، عن ابن عبَّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ عيسى ابن مريم ، وموسى ، وإبراهيم ، فأما عيسى : فأحمرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدْر . وأما موسى : فآدمُ ، جَسِيْمٌ . قالوا له : فإبراهيمُ . قال : انظرُوا إلى صاحِبكم » . يعني نفسه .

---

(١) كذا في أ و ب وفي المطبوع : ما يشين .
(٢) « قلح » : تغير الأسنان بصفرة وخضرة تعلوها .
(٣) كما في كشف الأستار (٢٣٤٦) و(٢٣٤٧) .
(٤) « فَصْم » : كَسْرٌ .
(٥) « وَهيٌ » : ضعف . وفي هامش أ : وهَن ، وكذلك في المعجم الأوسط وكشف الأستار .
(٦) كذا في ب وكشف الأستار ، وفي أ والمطبوع : جميل ، وهو تصحيف .
(٧) في المسند (٣/ ٣٣٤) .
(٨) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٩٦) وإسناده صحيح على شرط البخاري .

وقال البخاري[١] : حدَّثنا بيانُ بن عمرو ، حدَّثنا النَّضْر ، أنبأنا ابنُ عون ، عن مجاهد ، أنَّه سمعَ ابن عبَّاس ، وذكروا له الدجَّال بين عينيْه [مكتوب] كافر ، أو (ك ف ر) . فقال : لم أسمعْه ، ولكنَّه قال ﷺ : « أما إبراهيمُ : فانظروا إلى صاحبكم . وأما موسى : فجَعْدٌ آدمُ ، على جَملٍ أحمرَ مَخْطومٌ بخُلْبةٍ[٢] ، كأني أنظرُ إليه انحدرَ في الوادي » .

وهكذا رواه البخاريُّ أيضاً في كتاب الحج[٣] وفي اللباس ، ومسلم ، جميعاً : عن محمد بن المثنى ، عن ابن أبي عديّ ، عن عبد الله بن عون به .

* * *

ذكر وفاة إبراهيم ، وما قيل في عمره

ذكرَ ابنُ جرير في تاريخه[٤] : أن مولدَه كان في زمن النمرود بن كنعان ، وهو فيما قيل : الضَّحَّاك المَلِكُ المشهورُ الذي يُقال : إنه مَلكَ ألف سنة ، وكان في غاية الغشم والظلم .

وذكرَ بعضُهم أنه من بني راسب الذين بُعثَ إليهم نوحُ عليهم السلام ، وأنه كان إذ ذاكَ مَلكَ الدنيا .

وذكروا أنه طلعَ نجمٌ أخفى ضوءَ الشمس والقمر ، فهالَ ذلك أهلَ ذلك الزمان ، وفزع النمرودُ ، فجمعَ الكهنةَ والمُنجِّمينَ وسألَهم عن ذلك ، فقالوا : يُولد مولود في رَعيَّتكَ يكونُ زوالُ مُلْككَ على يديْه ، فأمرَ عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يُقتَلَ المولودون من ذلك الحين ، فكان مولدُ إبراهيم الخليل في ذلك الحين ، فحماه الله عزَّ وجلَّ وصانَه عن كيد الفُجَّار ، وشبَّ شباباً باهراً ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، حتى كان من أمره ما تقدَّم ، وكان مولدُه بالسوس ، وقيل : ببابلَ ، وقيل : بالسواد من ناحية كُوْثى[٥] . وتقدَّم عن ابن عباس أنه وُلدَ ببرزةَ شرقيّ دمشق .

فلما أهلك الله نمرودَ على يديْه وهاجرَ إلى حرَّان ، ثم إلى أرض الشام ، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا ، ووُلد له إسماعيل وإسحاق ، وماتت سارَة قبلَه بقرية حَبْرُون التي في أرض كنعان ، ولها من العمر مئة

(١) في صحيحه (٣٣٥٥) في الأنبياء .

(٢) الخُلْبَةُ : الليف .

(٣) البخاري (١٥٥٥) في الحج و(٥٩١٣) في اللباس ، ومسلم (١٦٦) (٢٧٠) في الإيمان .

(٤) انظر تاريخ ابن جرير الطبري (١/ ٢٣٣) .

(٥) « كُوثى » : قال ياقوت : كوثى العراق : كوثيان ؛ أحدهما كوثى الطريق ، والآخر كوثى رَبَّى ، وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وبها مولده ، وهما من أرض بابل ، وبها طُرحَ إبراهيم في النار ، وهما ناحيتان . معجم البلدان (٤/ ٤٨٧) .

وسبع وعشرون سنة، فيما ذكر أهل الكتاب، فحزنَ عليها إبراهيمُ عليه السلام ورثاها رحمها الله، واشترى من رجل من بني حيث، يقال له: عفرون بن صخر مغارةً بأربعمئة مثقال، ودفنَ فيها سارَة هنالك.

قالوا: ثم خطبَ إبراهيمُ على ابنه إسحاقَ، فزوَّجه «رفقا» بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه فحملَها من بلادها ومعها مُرضعتها وجواريها على الإبل.

قالوا: ثم تزوَّج إبراهيم عليه السلام «قنطورا» فولدت له: زمران، ويقشان، وماذان، ومدين، وشياق، وشوح. وذكروا ما ولدَ كلُّ واحد من هؤلاء أولاد «قنطورا».

وقد روى ابنُ عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء مَلَكِ الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها.

وقد قيل: إنَّه مات فجأةً، وكذا داودُ وسليمان، والذي ذكرَه أهلُ الكتاب وغيرُهم خلافُ ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام وماتَ عن مئة وخمس وسبعين، وقيل: وتسعينَ سنة، ودُفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي، عند امرأته سارَة، التي في مزرعة عفرون الحيثي، وتولَّى دفنه إسماعيلُ وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد وردَ ما يدلُّ أنه عاشَ مئتي سنة، كما قاله ابن الكلبي.

وقال أبو حاتم بن حِبَّان في صحيحه[1]: أخبرنا المُفضَّل بن محمد الجَنَديُّ بمكة، حدَّثنا علي بن زياد اللَّحَجيُّ، حدَّثنا أبو قرَّة، عن ابن جُرَيْج، عن يحيى بن سعيدٍ، عن سعيدِ بن المسيِّب، عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اختتنَ إبراهيمُ بالقَدُوم وهو ابن عشرين ومئة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانينَ سنة» وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم، وجعفر بن عَوْن العَمْري، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد، عن أبي هريرة موقوفاً[2].

ثم قال ابن حبان[3]: ذكر الخبر المدحض[4] قول من زعمَ أنَّ رفعَ هذا الخبر وَهمٌ: أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد بِبُسْتَ، حدَّثنا قتيبةُ بن سعيد، حدَّثنا الليثُ، عن ابن عَجْلانَ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «اختتنَ إبراهيمُ حين بلغَ مئة وعشرين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، واختتن بقَدُوم».

---

(١) الإحسان (٦٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه كما في مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٣٥٨).

(٣) الإحسان (١٤/ ٨٦) قبل حديث (٦٢٠٥).

(٤) «المُدحِض»: المُبْطِل.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر : من طريق يحيى بن سعيد ، عن ابن عجلان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ وقد أتت عليه ثمانون سنة[١] .

ثم روى ابن حِبَّان[٢] عن عبد الرزاق : أنه قال : القَدُوم : اسم القرية .

قلت : الذي في الصحيح[٣] أنه اختتنَ وقد أتتْ عليه ثمانون سنة ، وفي رواية « وهو ابن ثمانين سنة » ولس فيهما تعرُّض لما عاش بعد ذلك ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسماعيل الحيَّاني[٤] الواسطي : زاد في تفسير وكيع عنه ـ فيما ذكره من الزيادات ـ حدَّثنا أبو معاوية ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المُسَيِّب ، عن أبي هريرة ، قال : كان إبراهيمُ أوَّل من تسرولَ ، وأوَّل من فرَق ، وأوَّل من استحدَّ ، وأوَّل من اختتنَ بالقَدُوم ، وهو ابن عشرين ومئة سنة ، وعاشَ بعد ذلك ثمانينَ سنة ، وأوَّل من قرى[٥] الضيف ، وأوَّلَ من شابَ[٦] .

هكذا رواه موقوفاً ، وهو أشبهُ بالمرفوع ، خلافاً لابن حِبَّان ، والله أعلم .

وقال مالك : عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المُسيَّب ، قال : كان إبراهيمُ أوَّلَ من أضافَ الضيفَ ، وأوَّل النَّاسِ اختتنَ ، وأوَّل الناس قصَّ شاربَه ، وأوَّل النَّاسِ رأى الشَّيْبَ . فقال : يا ربِّ ما هذا ؟ فقال الله : « وقارٌ » فقال : يا رب زِدْني وقاراً[٧] .

وزادَ غيرهما : وأوَّل منْ قصَّ شاربَه ، وأوَّل من استحدَّ ، وأولَ من لبس السراويلَ .

فقبرُه وقبرُ ولده إسحاق ، وقبرُ وَلَدِ وَلدِهِ يعقوبَ في المُرَبَّعةِ التي بناها سليمانُ بن داود عليه السلام ببلد حَبْرون ، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم ، وهذا تُلُقِّيَ بالتواتر أُمَّةً بعد أُمةٍ وجيلاً بعد جيل ، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا ؛ أن قبرَه بالمربعة تحقيقاً . فأمَّا تعيينه منها فليس فيه خبرٌ صحيح عن معصوم ، فينبغي أنْ تُراعى تلك المَحَلَّة وأنْ تُحترم احترامَ مثلِها ، وأن تُبَجَّل ، وأنْ تُجلَّ أن يُداس في أرجائها خشيةَ أن يكونَ قبرُ الخليل ، أو أحدٌ من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتَها .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ، كما في مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٣٥٨) .
(٢) الإحسان (١٤/ ٨٥) .
(٣) يعني : صحيح البخاري (٣٣٥٦) في الأنبياء .
(٤) في المطبوع : الحساني ، وهو تصحيف .
(٥) قرى الضيف : أطعمه .
(٦) انظر هذه الأوليات في كتاب « محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر » للسكتواري البسنوي (ص٣٧ ـ ٣٩) وعزاه لتاريخ القدس .
(٧) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٢٢) .

وروى ابن عساكر[١] بسنده إلى وَهْبِ بن مُنَبِّه قال : وُجِد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلفه[٢] : [من الرجز]

أَلهـىٰ جَهُـولًا أَمَلُـهْ يموتُ مَنْ جَا أَجَلُهْ
ومَنْ دَنا من حَتْفِهِ لـم تُغـنِ عَنْـه حِيَلُـهْ
وكيـفَ يَبْقَـى آخِـرٌ مَـنْ مـاتَ عَنْـهُ أَوّلُـهْ
والمَـرْءُ لا يَصْحَبُـهُ في القبرِ إلا عَمَلُهْ[٣]

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أوَّل من وُلد له إسماعيلُ من هاجَرَ القِبْطيَّة المِصريَّة ، ثم وُلد له إسحاق من سارَة بنت عمِّ الخليل ، ثم تزوَّجَ بعدها « قنطورا » بنت يقطن الكنعانية ، فولدتْ له ستةً : مدين ، وزمران ، وسرج ، ونقشان ، ونشق ، ولم يُسمِّ السادسَ ، ثم تزوَّجَ بعدها « حجون » بنت أهين ، فولدت له خمسة : كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ، ونافس . هكذا ذكره أبو القاسم[٤] السهيلي في كتابه « التعريف والإعلام » .

* * *

[قصة قوم لوط عليه السلام][٥]

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصَّة قوم لوط عليه السلام ، وما حلَّ بهم من النقمة الغميمة[٦] ، وذلكَ أنَّ لوطاً بن هاران بن تارح ـ وهو آزر ـ كما تقدَّم ، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل ، فإبراهيم وهاران وناحور إخوةٌ كما قدَّمنا ، ويُقال : إن هاران هذا هو الذي بنى حَرَّان ، وهذا ضعيفٌ لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب ، والله أعلم .

وكان لوطٌ قد نزحَ عن محلَّة عمِّه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزلَ بمدينة سَدُوم من أرض

---

(١) في تاريخه ؛ كما في مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٣٧٦) .
(٢) في مختصر تاريخ دمشق : أُصيبَ على قبر إبراهيم الخليل مكتوب خلفه في حجر . وفي ب : خلقة : وفيها تصحيف .
(٣) في المختصر : أن هذا البيت من زيادة بعض أهل العلم .
(٤) انظر « التعريف والإعلام » للسهيلي (ص٣٥) وفيه : مدين ، وزمران ، وسبرج ، ونقشان ، ونشق .
(٥) ما بين حاصرتين أضفته عنواناً تمشياً مع ما صنعه المؤلف سابقاً ولاحقاً .
(٦) الغميمة : من الغمِّ والكَرْب .

غور زغر ، وكان أَمَّ تلك المَحلَّة ، ولها أرضٌ ومعتملات وقرى مضافة إليها ، ولها أهلٌ من أفجرِ النَّاس وأكفرِهم وأسوئهم طويَّةً ، وأردَاهم سريرةً وسيرةً ، يقطعونَ السبيلَ ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . ابتدعوا فاحشةً لم يسبقْهم إليها أحدٌ من بني آدم ، وهي إتيانُ الذُّكْران من العالمين ، وتركُ ما خلقَ الله من النِّسوان لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات ، فتمادَوْا على ضلالهم وطُغيانهم ، واستمرُّوا على فُجورهم وكُفْرَانهم ، فأحلَّ الله بهم من البأس الذي لا يُردُّ ما لم يكن في خَلَدِهم وحُسْبَانهم ، وجعلَهم مُثْلةً في العالمين ، وعبرةً يتعظُ بها الألبَّاءُ من العالمين ، ولهذا ذكرَ الله تعالى قِصَّتهم في غير ما موضع من كتابه المبين ، فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ـ٨٤] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩ـ٨٣] .

وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ

وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٥١ ـ ٧٧] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[الشعراء : ١٦٠ ـ ١٧٥] .

وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل : ٥٤ ـ ٥٨] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨ ـ ٣٥] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ ـ ١٣٨] .

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم ، وبشارتهم إياه بغلام عليم : ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣١ ـ ٣٧].

وقال في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٣٣ ـ ٤٠].

وقد تكلَّمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير .

وقد ذكرَ الله لوطاً وقومَه في مواضع أُخرَ من القرآن ، تقدَّمَ ذِكرها مع قوم نوح وعادٍ وثمود ، والمقصودُ الآن إيـرادُ مـا كانَ من أمرهم ، وما أحلَّ الله بهم مجموعاً من الآيات والآثار ، وبالله المستعان .

وذلك أنَّ لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكرَ الله عنهم من الفواحش ، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به ، حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركُوا ما عنه نهُوا ، بل استمرُّوا على حالهم ، ولم يرعووا[١] عن غيِّهم وضَلالهم وهمُّوا بإخراج رسولهم من بين ظَهْرَانيهم ، وما كانَ حاصلُ جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] فجعلوا غاية المدح ذمّاً يقتضي الإخراج ، وما حملَهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج .

فطهَّره الله وأهلَه إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسنَ إخراج ، وتركَهم في محلَّتهم خالدين ، لكنْ بعدما صيَّرها عليهم بحرةً منتنةً ذات أمواج ، لكنَّها عليهم في الحقيقة نار تأجَّج ، وحرٌّ يتوهَّجُ ، وماؤها مِلْحٌ أجاج .

وما كان هذا جوابُهم إلا لما نهاهم عن الطَّامَّةِ العظمى والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من أهل الدنيا ، ولهذا صاروا مُثْلةً فيها ، وعبرةً لمن عليها .

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريقَ ، ويخونونَ الرفيقَ ، ويأتون في ناديهم ـ وهو مجتمعهم ومحلّ حديثهم وسمرهم ـ المنكرَ من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه ، حتى قيل : إنهم كانوا يتضارطُون في مجالسِهم ولا يستحيُونَ من مُجالسيهم ، وربما وقعَ منهم الفعْلةُ العظيمةُ في المحافل ، ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نميمة من ناقل[٢] ، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً ، ولم يُقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ، ولا ندموا على ما سلفَ من الماضي ، ولا رامُوا في المستقبل تحويلاً ، فأخذَهم الله أخذاً وبيلاً ، وقالوا له فيما قالوا : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] فطلبوا منه وقوعَ ما حذَّرهم من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم ، فعند ذلك

---

(١) كذا في أ و ب . وفي المطبوع : ولم يرتدعوا .
(٢) كذا في أ و ب وفي المطبوع : ولا نصيحة من عاقل . ولعلها الأصوب .

دعا عليهم نبيُّهم الكريم ، فسألَ من ربِّ العالمين وإلَه المرسلين ، أن ينصرَه على القوم المفسدين ، فغارَ لغَيْرتِه وغضب لغَضْبَتهِ ، واستجابَ لدعوتِه ، وأجابه إلى طُلْبَتِهِ ، وبعثَ رسلَه الكرام وملائكتَه العظام ، فمرُّوا على الخليل إبراهيم ، وبشَّرُوه بالغلام العليم ، وأخبرُوه بما جاؤوا له من الأمر الجَسيم والخَطْب العَميم . ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : ٣١ـ٣٤] .

وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣١ـ٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٤] . وذلك أنه كان يرجو أن يُنيبوا ويُسلموا ، ويُقلعوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۝ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : ٧٥ـ٧٦] أي : أعرضْ عن هذا وتكلَّمْ في غيره ، فإنه قد حتمَ أمرُهم ، ووجبَ عذابُهم وتدميرُهم وهلاكُهم ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٧٦] أي : قد أَمر به من لا يُردُّ أمرُه ، ولا يُردُّ بأسه ، ولا مُعقِّبَ لحكمِه ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : ٧٦] .

وذكر سعيدُ بن جُبير ، والسُّدِّي وقتادة ومحمد بن إسحاق : أنَّ إبراهيمَ عليه السلام جعلَ يقول : « أتُهلكون قريةً فيها ثلاثمئة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : فمئتا مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : فأربعة عشرَ مؤمناً ؟ قالوا : لا » قال ابن إسحاق إلى أن قال « أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا : لا . ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ [العنكبوت : ٣٢] الآية[١] » .

وعند أهل الكتاب أنه قال : يا ربِّ أتُهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً ؟ فقال الله : لا أُهلكهم وفيهم خمسونَ صالحاً . ثم تنازلَ إلى عشرة فقال الله : لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] قال المفسرون : لما فصلتِ الملائكةُ من عند إبراهيم : جبريل وميكائيل وإسرافيل ، أقبلوا حتى أتوا أرض سدُوم في صُور شبَّان حِسَان ، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامةً للحجَّة عليهم ، فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس ، فخشيَ إنْ لم يُضفهم يُضَيِّفهم غيرُه ، وحسبَهم بشراً من النَّاس ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] . قال ابن عبَّاس[٢] ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديدٌ بلاؤه . وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنعُ بهم في

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التاريخ (١/ ٢٩٧) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٧/ ٨٠ ـ ٨١) .

غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يُضَيِّفَ أحداً ، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة : أنَّهم وَرَدُوا عليه وهو في أرضٍ له يعملُ فيها ، فتضيَّفُوا ، فاستحيا منهم ، وانطلقَ أمامَهم ، وجعلَ يُعرِّضُ لهم في الكلام لعلَّهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا في غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهلَ بلد أخبثَ من هؤلاء ، ثم مشى قليلاً ، ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرَّره أربعَ مرَّات ، قال : وكانوا قد أمروا ألا يُهلكوهم حتى يشهدَ عليهم نبيُّهم بذلك(١) .

وقال السُّديّ : خرجتِ الملائكةُ من عند إبراهيم نحوَ قوم لوط ، فأتَوْها نصفَ النَّهار ، فلما بلغوا نهرَ سَدُوم لقوا ابنةَ لوط تَسْتقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان ، اسم الكبرى « ريثا » والصُّغرى « زغْرتا » فقالوا لها : يا جاريةُ : هل من منزلٍ ؟ فقالت لهم : مكانَكم لا تدخلوا حتى آتيكم ، فَرِقَتْ عليهم من قومها ، فأتتْ أباها ، فقالت : يا أبتاه أرادَكَ فتيانٌ على باب المدينة ، ما رأيتُ وجوهَ قومٍ قطُّ هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم . وقد كان قومُه نهوه أن يُضيِّفَ رجلاً ، فجاء بهم فلم يعلم أحدٌ إلا أهلُ البيت ، فخرجتْ امرأتُه فأخبرتْ قومَها ، فقالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثلَ وجوههم قطُّ ، فجاءَه قومُه يُهرعون إليه(٢) .

وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ٧٨] أي : هذا مع ما سلفَ لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : ٧٨] يُرشدهم إلى غشيان نسائهم وهنَّ بناته شرعاً ، لأن النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، وكما قال تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وكهذا كقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦] وهذا هو الذي نصَّ عليه مجاهد وسعيد بن جُبَيْر والربيع بن أنس وقتادة والسُّدِّي ومحمد بن إسحاق ، وهو الصواب .

والقولُ الآخر خطأ ، مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحَّفَ عليهم ، كما أخطؤوا في قولهم : إن الملائكة كانوا اثنين ، وإنهم تَعَشَّوْا عنده ، وقد خبطَ أهلُ الكتاب في هذه القِصَّة تخبيطاً عظيماً .

وقوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] نهيٌ لهم عن تعاطي ما لا يليقُ من الفاحشة ، وشهادةٌ عليهم بأنه ليس فيهم رجلٌ له مُسْكةٌ ولا فيه خير ، بل الجميعُ سفهاء ، فجرةٌ أقوياء ، كفرةٌ أغبياء .

وكان هذا من جملة ما أرادَ الملائكةُ أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه ، فقال قومه : ـ عليهم لعنة

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٧/ ٧٩ ـ ٨٠) .
(٢) أخرجه ابن جرير في التاريخ (١/ ٣٠٠) .

الله الحميد المجيد ـ مجيبينَ لنبيِّهما فيما أمرَهم به من الأمر السديد ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] يقولون ـ عليهم لعائن الله ـ لقد علمتَ يا لوط إنه لا أربَ لنا في نسائنا ، وإنك لتعلَمُ مُرادنا وغَرضنا . واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولَهم الكريم ، ولم يخافوا سَطْوةَ العظيم ، ذي العذاب الأليم ، ولهذا قال عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] ودَّ أن لو كان له بهم قوَّة ، أو منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحلَّ بهم ما يستحقُّونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزُّهري : عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة : عن أبي هريرة مرفوعاً : « نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم ، ويرحمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ر كن شديد ، ولو لَبِثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي »[١] ورواه أبو الزِّناد : عن الأعرج ، عن أبي هريرة .

وقال محمد بن عمرو بن علقمة : عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « رحمةُ الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عزَّ وجلَّ ـ فما بعثَ الله بعدَه من نبيٍّ إلا في ثروة من قومه »[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر : ٦٧ ـ ٧١] فأمرهم بقُربان نسائِهم وحذَّرهم الاستمرار على طريقتهم وسيِّآتهم ، هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون ، بل كلَّما نصحَ لهم يُبالغون في تحصيل هؤلاء الضِّيفان ويُحرِّضون ، ولم يعلموا ما حُمَّ به القَدَرُ مما هم إليه صائرون ، وصبيحةَ ليلتهم إليه مُنقلبون ، ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيِّه محمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٣٦ ـ ٣٨] ذكرَ المفسرون[٣] وغيرُهم : أن نبيَّ الله لوطاً عليه السلام جعلَ يُمانعُ قومَه الدخولَ ، ويُدافعُهم ، والبابُ مغلقٌ ، وهم يرومون فتحَه وولوجَه ، وهو يعظُهم وينهاهُم من وراء الباب ، وكل ما لهم في إلحاح وإنفاج[٤] ، فلما ضاقَ الأمرُ وعَسُرَ الحالُ ، قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] لأحللتُ بكم النَّكال .

قالت الملائكة : ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ ﴾ [هود : ٨١] وذكروا أن جبريلَ عليه السلام خرجَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) في الأنبياء .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٠٥) والترمذي (٣١١٦) في التفسير ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦١) .

(٣) انظر تفسير الطبري (٧/ ٨٥ ـ ٨٦) .

(٤) إنفاج : تعاظم وتكبُّر .

عليهم فضربَ وجوهَهم خفقةً بطرف جناحِه ، فطمست أعينَهم ، حتى قيل : إنها غارت بالكلية ، ولم يبق لها محلٌّ ولا عينٌ ولا أثر ، فرجعوا يتحسَّسون مع الحيطان ، ويتوعَّدون رسولَ الرحمن ، ويقولون : إذا كان الغدُ كان لنا وله شأنٌ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٣٧ ـ ٣٨] فذلك أن الملائكة تقدَّمت إلى لوط عليهم السلام ، آمرينَ له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود : ٨١] يعني عند سماع صوت العذاب إذا حلَّ بقومه ، وأمروه أن يكونَ سيرُه في آخرهم كالساقة لهم . وقوله : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ كأنه يقول : إلَّا امرأتك فلا تسرِ بها ، ويحتمل أن يكونَ من قوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أي : فإنها ستلتفت فيُصيبها ما أصابَهم ، ويُقوِّي هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر في المعنى ، والله أعلم .

قال السهيلي[(١)] : واسم امرأة لوط « والهة » واسم امرأة نوح « والغة » .

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه ، الذين جعلَهم الله سلفاً لكلِّ خائن مُريب : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] فلما خرجَ لوطٌ عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ، ولم يتبعْه منهم رجلٌ واحد ، ويُقال : إن امرأتَه خرجتْ معه ، فالله أعلم . فلما خَلَصوا من بلادهم وطلعتِ الشَّمْسُ ، فكان عند شروقها جاءَهم من أمر الله ما لا يُردُّ ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصدَّ .

وعند أهل الكتاب : أن الملائكة أمروه أن يصعدَ إلى رأس الجبل الذي هناك ، فاستبعده ، وسأل منهم أن يذهبَ إلى قرية قريبة منهم . فقالوا : اذهب فإنا ننتظرُك حتى تصيرَ إليها وتستقرَّ فيها ، ثم نُحلّ بهم العذابَ ، فذكروا أنه ذهبَ إلى قرية « صغر » التي يقول النَّاس « غور زغر » فلما أشرقتِ الشَّمْسُ نزلَ بهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٢ ـ ٨٣] .

قالوا : اقتلعَهنَّ جبريلُ بطرف جناحِه منْ قَرارهنَّ ، وكنَّ سبعَ مُدُنٍ بمن فيهنَّ من الأمم ، فقالوا : إنَّهم كانوا أربعمئة نسمة . وقيل : أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبعُ تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفعَ الجميعَ حتى بلغَ بهنَّ عنانَ السماء ، حتى سمعتِ الملائكةُ أصواتَ ديكتهم ونُباح كلابهم ، ثم قلبَها عليهم ، فجعل عاليها سافلَها . قال مجاهد : فكان أوَّل ما سقط منها شرفاتها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] والسِّجِّيل[(٢)] : فارسي مُعرَّب ، وهو الشديد

---

(١) التعريف والإعلام ؛ للسهيلي (ص٥٣) .
(٢) سقطت من أ .

الصُّلْبُ القويُّ ﴿ مَنضُودٍ ﴾ أي يتبعُ بعضُها بعضاً في نزولها عليهم من السماء ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي : معلمة ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه كما قال : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ [النجم : ٥٣ ـ ٥٤] يعني قلبَها فأهوى بها منكَّسة عاليها سافلها ، وغشَّاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة ، على كل حجر اسم صاحبه الذي سقطَ عليه ، من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذِّين منها . ويقال : إن امرأةَ لوطٍ مكثتْ مع قومها ، ويُقال : إنها خرجتْ مع زوجها وبنتيها ، ولكنَّها لما سمعت الصَّيْحة وسقوطَ البلدة التفتتْ إلى قومها ، وخالفتْ أمرَ ربِّها قديماً وحديثاً ، وقالت : واقوماه ! فسقطَ عليها حجرٌ فدمغَها[١] ، وألحقَها بقومها إذ كانت على دينهم ، وكانت عَيْناً لهم على منْ يكونُ عند لوطٍ من الضِّيفان ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] أي : خانتاهما في الدين ، فلم يتَّبعاهُما فيه . وليس المرادُ أنهما كانتا على فاحشةٍ ، حاشا وكلا ولمَّا ، فإنَّ الله لا يُقدِّرُ على نبيٍّ أن تبغيَ امرأتُهُ ، كما قال ابن عبَّاس وغيره من أئمة السلف والخلف : ما بغت امرأةُ نبيٍّ قط . ومنْ قال خلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً . قال الله تعالى في قصة الإفك ، لما أنزل براءة أمِّ المؤمنين عائشة بنت الصِّدِّيق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فعاتبَ الله المؤمنين وأنَّبَ وزجرَ ووعظَ وحذَّر ، وقال فيما قال : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥ ـ ١٦] أي : سبحانَكَ أن تكون زوجة نبيِّك بهذه المثابة . وقوله هاهنا ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] أي : وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم .

ولهذا ذهبَ منْ ذهبَ من العلماء إلى أن اللائط يُرجمُ سواءٌ كان مُحْصناً أو لا ، نصَّ عليه الشافعيُّ وأحمد بن حنبل ، وطائفةٌ كثيرة من الأئمة ، واحتجُّوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهلُ السُّننَ : من حديث عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس : أن رسول الله ﷺ قال : « منْ وجدتُموه يعملُ عملَ قومِ لوط فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ به »[٢] وذهبَ أبو حنيفة إلى أن اللائطَ يُلقى من شاهق جبل ويُتْبعُ بالحجارة ، كما فُعِلَ بقوم لوط ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] .

وجعلَ الله مكانَ تلك البلاد بحرةً منتنةً ، لا يُنتفع بمائها ، ولا بما حولَها من الأراضي المتاخمة

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠١) وفيه : فأدركها حجرٌ فقتلها .
(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٠٠) وأبو داود (٤٤٦٢) في الحدود ، والترمذي (١٤٥٦) في الحدود ، وابن ماجه (٢٥٦١) في الحدود وهو حديث صحيح بشواهده .

لفنائها ، لرداءتها ودناءتها ، فصارتْ عبرةً ومُثْلةً وعِظَةً وآيةً على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزَّته في انتقامه ممن خالفَ أمرَه وكذَّبَ رسلَه واتَّبعَ هواه وعصى مولاه ، ودليلاً على رحمتِه بعباده المؤمنينَ في إنجائه إيَّاهم من المهلكات ، وإخراجه إياهم من النُّور إلى الظلمات ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٨ ـ ٩] وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٣ ـ ٧٧] أي : منْ نَظرَ بعين الفراسة والتوسُّم فيهم ، كيف غيَّر الله تلك البلاد وأهلَها ، وكيف جعلَها بعدما كانت آهلةً عامرة ، هالكةً غامرة ؛ كما روى الترمذيُّ وغيرُه مرفوعاً : « اتقوا فراسةَ المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله »[1] ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] .

وقوله ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] أي : لطريق مهيعٍ مسلوك إلى الآن ، كما قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ـ ١٣٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ ـ ٣٧] أي : تركناها عبرةً وعظةً لمن خافَ عذابَ الآخرة ، وخشي الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربّه ، ونهى النفس عن الهوى ، فانزجرَ عن محارم الله ، وتركَ معاصيه ، وخاف أن يُشابه قومَ لوط : « ومن تشبَّه بقوم فهو منهم »[2] وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض ا لوجوه ، كما قال بعضهم : [من الطويل]

فإنْ لم تكونوا قومَ لوطٍ بعينهم فمـا قـومُ لـوطٍ منكـمُ ببعيـد

فالعاقلُ اللَّبيبُ الخائفُ من ربِّه ، الفاهمُ ، يمتثلُ ما أمرَه الله به عزَّ وجلَّ ، ويقبلُ ما أرشده إليه رسولُ الله من إتيان ما خلقَ له من الزوجات الحلال ، والجواري من السَّراري ذوات الجمَال ، وإيَّاه أن يتَّبعَ كلَّ شيطان مريد ، فيحقّ عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] .

***

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) في التفسير وقال : هذا حديث غريب (يعني : ضعيف) ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١٣) وسنده حسن ، وصححه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ، وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٧٢) ورواه أبو داود (٤٠٣١) في اللباس وله شاهد من حديث حذيفة ، انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧١) وعلق طرفاً منه البخاري ، وله شاهد مرسل ، فالحديث صحيح بطرقه وشواهده .

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصّة قوم لوط : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

[الأعراف : ٨٥ـ٩٣] .

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

[هود : ٨٤ـ٩٥] .

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ـ٧٩] .

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٧٦ـ ١٩١] .

كان أهل مدين قوماً عَرباً ، يَسكنونَ مدينتَهم « مدينَ » التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، ممايلي ناحية الحجاز ، قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدَهم بمدَّة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة ، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل ، وشعيبُ نبيُّهم هو ابن ميكيل بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق ، قال : ويقال له بالسريانية : « ينزون » وفي هذا نظر ، ويُقال : شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ، ويقال : شعيب بن نويب بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم . ويقال : شعيب بن ضيفور بن عيتا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم . وقيل : غير ذلك في نسبه .

قال ابن عساكر[١] : ويُقال جدَّتُه ، ويُقال : أمه بنت لوط .

وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجرَ معه ، ودخلَ معه دمشقَ .

وعن وهْب بن مُنبه أنه قال : كان شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أُحرقَ بالنار ، وهاجرا معه إلى الشام فزوَّجهما بنتيْ لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة[٢] .

وفي هذا كله نظر أيضاً والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب »[٣] في ترجمة سلمةَ بن سعد العَنزي، قدمَ على رسول الله ﷺ فأسلمَ وانتسبَ إلى عنزةَ ، فقال : « نعم الحيُّ عنزةَ ، مبغيٌّ عليهم ، منصورون ، رهطُ شعيب وأختانُ[٤] موسى » فلو صحَّ هذا لدلَّ على أنَّ شُعيباً صهر موسى ، وأنه من قبيلة من العرَب العاربة يُقال

(١) في تاريخه ، كما في المختصر (١٠/٣٠٧) .
(٢) انظر كتاب « المعارف » ، لابن قتيبة (ص٤١) .
(٣) « الاستيعاب » (٢/٩١) .
(٤) الذي في الاستيعاب : وأحبار موسى .

لهم : عَنَزةَ ، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان ، فإن هؤلاء بعدَه بدهرٍ طويل ، والله أعلم .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حِبَّان في ذكر الأنبياء والرسل ، قال : « أربعةٌ من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيُّك يا أبا ذر »[١] .

وكان بعضُ السلف يُسمِّي شعيباً خطيبَ الأنبياء ، يعني لفصاحته وعلوِّ عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته .

وقد روى ابن إسحاق بن بشر : عن جويبر ومقاتل ، عن الضَّحَّاك ، عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكرَ شعيباً قال : « ذاكَ خطيبُ الأنبياء »[٢] .

وكان أهلُ مَدْين كفَّاراً يقطعونَ السبيلَ ، ويُخيفون المارَّة ، ويعبدون الأيكةَ ، وهي شجرةٌ من الأيك حولَها غيضة[٣] ملتفَّة بها ، وكانوا من أسوأ الناس معاملةً ، يبخسون المِكْيال والميزان ، ويُطفِّفونَ فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعونَ بالنَّاقص ، فبعثَ الله فيهم رجلاً منهم ، وهو رسول الله ﷺ شُعيب عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحةِ من بَخْسِ النَّاس أشياءهم وإخافتهم لهم في سُبُلهم وطُرُقاتِهم ، فآمن به بعضُهم وكفرَ أكثرُهم ، حتى أحلَّ الله بهم البأسَ الشديدَ ، وهو الولي الحميد ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ٨٥] أي : دلالة وحجَّة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تُنقل إلينا تفصيلاً ، وإن كانَ هذا اللَّفظ قد دلَّ عليها إجمالاً : ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ﴾ [الأعراف : ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعَّدَهم على [خلاف ذلك][٤] فقال : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ أي : طريق ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٥ ـ ٨٦] أي : تتوعدون الناس بأخذ أموالِهم من مُكوسٍ وغير ذلك ، وتُخيفون السُّبُل .

قال السُّدِّي في تفسيره عن الصحابة : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أنهم كانوا يأخذونَ العشورَ من أموال المارة .

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٨٣) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ؛ كما في الدر المنثور (٣/ ١٩٠) .

(٣) غيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر .

(٤) ما بين حاصرتين سقط من أ .

وقال إسحاق بن بشرٍ : عن جُويبر عن الضَّحاك ، عن ابن عباس ، قال : كانوا قوماً طغاةً بغاةً ، يجلسون على الطريق ، ويبخسون الناس ، يعني : يُعشِّرونهم ، وكانوا أوَّلَ من سَنَّ ذلك . ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦] فنهاهم عن قطع الطريقِ الحِسِّيَّةِ الدنيويَّة والمعنويَّة الدينية : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القِلَّة ، وحذَّرهم نقمةَ الله بهم إن خالفوا ما أرشدَهم إليه ودلَّهم عليه ، كما قال لهم في القِصَّة الأخرى : ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود : ٨٤] أي : لا تركبُوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق[1] الله بركةَ ما في أيديكم ويُفقرُكم ، ويُذهبُ ما به يغنيكم ، وهذا مضافٌ إلى عذاب الآخرة ، ومنْ جُمع له هذا وهذا فقد باءَ بالصفقة الخاسرة ، فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليقُ من التطفيف ، وحذَّرهم سَلْبَ نعمةِ الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أُخراهم ، وعنَّفهم أشدَّ تعنيف .

ثم قال لهم آمراً بعدما كان عن ضِدِّه زاجراً ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٥ ـ ٨٦] قال ابن عباس والحسن البصري : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [هود : ٨٦] أي : رزق الله خير لكم من أخذ أموال النَّاس .

وقال ابن جرير : ما فضلَ لكم من الربح بعدَ وفاء الكيل والميزان خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف ، قال : وقد رُوي هذا عن ابن عبَّاس .

وهذا الذي قاله وحكاه حسن ، وهو شبيهٌ بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] يعني : أن القليل من الحلال خيرٌ لكم من الكثير من الحرام ، فإنَّ الحلالَ مباركٌ وإن قلَّ ، والحرامَ ممحوقٌ وإن كثرَ ، كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الرِّبا وإنْ كَثُرَ فإنَّ مصيره إلى قُلٍّ » رواه أحمد[2] . أي : إلى قلة . وقال رسول الله ﷺ : « البَيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا ، فإن صدَقَا وبيَّنابُورِكَ لهما في بَيْعهما ، وإنْ كتما وكذَبا مُحِقَتْ بركةُ بيعهما »[3] .

والمقصود : أنَّ الربحَ الحلال مُباركٌ فيه وإنْ قَلَّ ، والحرامُ لا يجدي وإن كثر ، ولهذا قال نبي الله شُعيب : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٨٦] .

---

(١) كذا في ب ، وفي أ : فيمحو .

(٢) في المسند (١/ ٣٩٥ ، ٤٢٤) وابن ماجه (٢٢٧٩) في التجارات .

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٤) في البيوع ، ومسلم (١٥٣٢) في البيوع .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [هود : ٨٦] أي : افعلوا ما آمرُكم به ابتغاءَ وجه الله ، ورجاءَ ثوابه ، لا لأرَاكم أنا وغيري .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] يقولونَ هذا على سبيل الاستهزاء والتنقُّص والتَّهكُّم : أصلاتُك هذه التي تُصلِّيها هي الآمرةُ لك بأن تحجزَ علينا فلا نعبدُ إلا إلّهك ، ونتركُ ما يعبدُ آباؤنا الأقدمون وأسلافُنا الأوَّلون ، أو ألَّا نتعاملَ إلا على الوجه الذي ترتضيه أنتَ ، ونتركُ المعاملاتِ التي تأباها ، وإن كنا نحن نرضاها ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] قال ابن عباس وميمونُ بن مِهْران وابن جُرَيْج وزيد بن أسلم وابن جرير[1] : يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء .

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] هذا تلطُّفٌ معهم في العبارة ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأبينِ إشارةٍ ، يقول لهم : أرأيتُم أيُّها المكذِّبون : ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود : ٨٨] أي : على أمر بيِّنٍ من الله تعالى ، أنه أرسلني إليكم ﴿ وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ ﴾ [هود : ٨٨] يعني النبوة و الرِّسالة ، يعني وعَمِيَ عليكم معرفتها ، فأيُّ حيلةٍ لي لكم . وهذا كما تقدَّم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء .

وقوله : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [هود : ٨٨] أي : لستُ آمرُكم بالأمر إلا وأنا أوَّلُ فاعلٍ له ، وإذا نهيتُكم عن الشيء فأنا أوَّلُ منْ يتركُه ، وهذه هي الصفة المحمودةُ العظيمة ، وضدُّها هي المردودة الذميمة ، كما تلبَّسَ بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون ، قال الله تعالى : ﴿ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

وذكرَ عندها في الصحيح : عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « يُؤتى بالرجل فيُلقى في النار فتندلقُ أقتابُ بطنِه ـ أي : تخرجُ أمعاؤه من بطنِه ـ فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ برحاه ، فيجتمعُ أهلُ النَّار ، فيقولون : يا فلان مالكَ ؟ ألم تكن تأمرُ بالمعروف وتَنْهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنتُ آمرُ بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »[2] .

وهذه صفة مُخالفي الأنبياء من الفُجّار والأشقياء ، فأمّا السادةُ من النُّجباء والألبّاء من العلماء ، الذين يخشونَ ربَّهم بالغيب ، فحالُهم كما قال نبي الله شعيب : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾ [هود : ٨٨] أي : ما أُريد في جميع أمري إلا الإصلاحَ في الفعال والمقال بجهدي

---

(١) انظر تفسيره (٧/ ١٠١) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) في بدء الخلق ، ومسلم (٢٩٨٩) في الزهد والرقائق .

وطاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ ﴾ أي : في جميع أحوالي ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] أي : عليه أتوكّل في سائر الأمور وإليه مَرْجعي ومَصيري في كلِّ أمري ، وهذا مقامُ ترغيب .

ثم انتقلَ إلى نوعٍ من الترهيب ، فقال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩] أي : لا تحملنَّكم مخالفتي ، وبغضُكم ماجئتكم به على الاستمرار على ضلالِكم وجهلِكُم ومخالفتِكم ، فيحلّ الله بكم من العذاب والنَّكال نظيرَ ما أحلَّه بنُظرائكم وأشباهِكم من قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح من المكذِّبين المخالفين .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩] قيل : معناه في الزمان ، أي : ما بالعهد من قدم ، مماقد بلغكم ما أحلَّ بهم على كفرهم وعُتوِّهم . وقيل : معناه : وما هم منكم ببعيد في المحلَّة والمكان . وقيل : في الصفات والأفعال المُستقبحات ، من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرةً وخفيةً ، بأنواع الحيل والشبهات ، والجمعُ بين هذه الأقوال ممكن ، فإنَّهم لم يكونوا بعيدينَ منهم ، لا زماناً ولا مكاناً ولا صفاتٍ .

ثم مزجَ الترهيب بالترغيب ، فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] أي : أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربِّكم الرحيم الودود ، فإنَّه منْ تابَ إليه تابَ عليه ، فإنَّه رحيمٌ بعباده ، أرحمُ بهم من الوالدة بولدها ﴿ وَدُودٌ ﴾ وهو المجيبُ ، ولو بعد التوبة على عبده ، ولو من المُوبقات العظام ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود : ٩١] روي[١] عن ابن عبَّاس ، وسعيد بن جُبَيْر ، والثوريّ : أنهم قالوا : كان ضريرَ البَصَر .

وقد رُوي في حديث مرفوع أنه بكى من حبِّ الله حتى عَمِيَ ، فردَّ الله عليه بصرَه ، وقال : « يا شعيبُ أتبكي من خوفِك من النَّار أو مِن شوقِك إلى الجنَّة ؟ فقال : بل من محبَّتِكَ ، فإذا نظرتُ إليكَ فلا أُبالي ماذا يُصنعُ بي . فأوحى إليه الله : هنيئاً لك يا شُعيب لقائي ، فلذلكَ أخدمتُك موسى بن عمران كليمي » .

رواه الواحدي[٢] عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن الحسن بن بندار ، عن أبي عبد الله بن محمد بن إسحاق الرملي ، عن هشام بن عمَّار ، عن إسماعيل بن عيَّاش ، عن بحير بن سعيد ، عن شدَّاد بن أوس ، عن النبي ﷺ بنحوه ، وهو غريبٌ جداً ، وقد ضعَّفه الخطيب[٣] البغدادي .

---

(١) أخرج هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٧/ ١٠٣ ـ ١٠٤) .

(٢) في تفسيره ، كما في الدر المنثور (٤/ ٤٧٠) وأخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ، كما في المختصر ؛ لابن منظور (١٠/ ٣١٢) .

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٣٢٠) وقال : « إسماعيل بن علي بن الحسن بن بندار بن المثنى ، أبو سعد الواعظ الاستراباذي ، قدم علينا بغدادَ حاجّاً ، وسمعتُ منه بها حديثاً واحداً مسنداً منكراً » ثم ساقه . وقال الذهبي في الميزان (١/ ٣٢٩) : « هذا الحديث باطل لا أصل له » .

وقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] وهذا من كُفْرهم البليغ وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ اي : ما نفهمه ولا نتعقّله ، لأنا لا نُحبُّه ولا نُريده ، وليس لنا همَّةٌ إليه ، ولا إقبال عليه ، وهو كما قال كفّارُ قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أي : مُضْطَهداً مهجوراً ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أي : قبيلتُك وعشيرتُك فينا ﴿ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ٩١ ـ ٩٢] أي : تخافونَ قبيلتي وعشيرتي ، وتراعوني بسببهم ولا تخافونَ جَنْبةَ[1] الله ، ولا تراعوني لأني رسول الله ، فصارَ رهطي أعزّ عليكم من الله : ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [هود : ٩٢] أي : جعلتم جانب الله وراءَ ظهوركم ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢] أي : هو عليمٌ بما تعملونَه وما تصنعونه ، محيطٌ بذلك كله ، وسيجزيكم عليه يوم تُرجعون إليه ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] وهذا أمر تهديد شديد ووعيدٍ أكيد ، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتِهم ، فسوفَ تعلمونَ من تكونُ له عاقبةُ الدار ، ومن يحلّ عليه الهلاك والبَوَار ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي : في هذه الحياة الدنيا ﴿ ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم ﴾ أي : في الأخرى ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ أي : مني ومنكم فيما أخبر وبشّر وحذّر ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] وهذا كقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٧] .

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨ ـ ٨٩] . طلبوابزعمهم أن يردُّوا من آمن منهم إلى ملّتهم ، فانتصب شعيب للمحاجّة عن قومه فقال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي : هؤلاء لا يعودونَ إليكم اختياراً وإنما يعودونَ إليه إن عادُوا اضْطراراً مُكرهينَ ، وذلك لأن الإيمان إذا خالطتْه بشاشةُ القلوبِ لا يسخطُه أحدٌ ، ولا يرتدُّ أحدٌ عنه ، ولا محيدَ لأحد منه . ولهذا قال : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف : ٨٩] أي : فهو كافينا وهو العاصمُ لنا وإليه مَلْجَؤُنا في جميع أمرنا .

ثم استفتحَ على قومِه واستنصرَ ربّه عليهم في تعجيل ما يستحقُّونه إليهم ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] أي : الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يردُّ دعاء رسله

---

(١) جَنبة : جانب الشيء وناحيته . وفي المطبوع : جَنْب .

إذا استنصروه على الذين جَحدُوه وكفَروه ، ورسوله خالفوه ، ومع هذا صَمَّمُوا على ما هم عليه مشتملون وبه مُتلبِّسونَ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي : رجفت بهم أرضهم ، وزُلزلت زلزالاً شديداً أزهقتْ أرواحَهم من أجسادها ، وصَيَّرت حيواناتِ أرضهم كجمادِها ، وأصبحت جُثثُهم جاثيةً لا أرواحَ فيها ، ولا حركات بها ، ولا حوَّاس لها .

وقد جمعَ الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البَليَّاتِ ، وذلك لما اتَّصفُوا به من قبيح الصِّفاتِ ، سَلَّطَ الله عليهم رجفةً شديدةً ، أسكنتِ الحركاتِ ، وصيحةً عظيمةً أخمدتِ الأصواتَ ، وظُلَّة أُرسلَ عليهم منها شررُ النَّارِ من سائر أرجائِها والجهات .

ولكنَّه تعالى أخبرَ عنهم في كلِّ سورة بما يُناسب سياقها ويُوافق طباقها ، في سياق قصَّة الأعراف أرجفوا نبيَّ الله وأصحابه ، وتوعَّدُوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودُنَّ في مِلَّتهم راجعين ، فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] فقابلَ الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسبٌ لهذا السياق ، ومُتعلِّق بما تقدَّمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكرَ أنَّهم أخذتْهم الصَّيْحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا لنبيِّ الله على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء والتنقُّص : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] فناسبَ أنْ يذكرَ الصيحةَ التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسولَ الكريم الأمين الفصيحَ ، فجاءتهم صيحةٌ أَسْكَتَتْهُمْ مع رجفةٍ أسْكنتْهُم .

وأما في سورة الشعراء : فذكرَ أنه أخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّة ، وكان ذلك إجابةً لما طَلبُوا ، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا .

فإنهم قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١٨٥ ـ ١٨٨] قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ومن زعمَ من المفسرين ، كقتادة وغيره : أن أصحابَ الأيكة أُمة أخرى غير أهل مَدْين ، فقوله ضعيف . وإنَّما عمدتهم شيئان : أحدهما : أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ [الشعراء : ١٧٦ ـ ١٧٧] ولم يقل أخوهم ، كما قال ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف : ٨٥] والثاني : أنه ذكرَ عذابَهم بيوم الظُّلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة . والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٦]

لأنه وصفَهم بعبادة الأيكة ، فلا يُناسبُ ذكرَ الأخوة هاهنا ، ولمَّا نسبَهم إلى القبيلة شاعَ ذكرُ شعيب بأنَّه أخوهم . وهذا الفرقُ من النفائس اللَّطيفةِ العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجُهم بيوم الظُّلَّةِ فإن كان دليلاً بمجرَّده على أن هؤلاء أُمة أخرى ، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أُمتان أخريان [وهذا لا يقولُه أحدٌ يفهم شيئاً من هذا الشأن][1] .

فأما الحديثُ الذي أوردَه الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة النبيِّ شعيب عليه السلام[2] : من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن شقيق بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو ، مرفوعاً : « إن قومَ مدين وأصحابَ الأيكةِ أمَّتان ، بعثَ الله إليهما شعيباً النبيَّ عليه السلام » . فإنَّه حديثٌ غريبٌ ، وفي رجاله من تكلِّم فيه ، والأشبهُ أنَّه كلام عبد الله بن عمرو ، مما أصابَه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل ، والله أعلم .

ثم قد ذكرَ الله عن أهل الأيكة من المذمَّة ما ذكرَه عن أهل مدينَ من التطفيف في المِكيال والميزان ، فدلَّ على أنهم أُمة واحدة أُهلكوا بأنواعٍ من العذاب . وذَكرَ في كلِّ موضعٍ ما يُناسب من الخطاب .

وقوله ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ذكروا أنَّهم أصابَهم حرٌّ شديد ، وأسكنَ الله هبوبَ الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعُهم مع ذلك ماءٌ ولا ظِلٌّ ، ولا دخولهم في الأسراب ، فهربوا من محلَّتهم إلى البرِّيَّة ، فأظلَّتهم سحابة ، فاجتمعُوا تحتَها ليستظِلُّوا بظِلِّها ، فلما تكاملوا فيه أرسلَها الله ترميهم بشررٍ وشُهُبٍ ، ورجفتْ بهم الأرضُ ، وجاءتْهم صيحةٌ من السماء ، فأزهقتِ الأرواحَ ، وخرَّبت الأشباح ، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١ ـ ٩٢] ونجَّى اللهُ شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٩٤ ـ ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٠ ـ ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] ثم ذكر تعالى عن نبيِّهم أنه نعاهم إلى أنفسهم مُوبِّخاً ومُؤنِّباً ومُقرِّعاً ، فقال تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصول ؛ وأثبته من المطبوع .
(٢) في تاريخه ، كما في المختصر (١٠/ ٣٠٩) .

﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٣] أي : أعرضَ عنهم مُولِّياً عن محلَّتهم بعد هلكتهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٩٣] أي : قد أدَّيْتُ ما كان واجباً عليّ من البلاغ التامِّ والنُّصح الكامل ، وحرصتُ على هدايتكم بكلِّ ما أقدرُ عليه ، وأتوصّل إليه ، فلم ينفعْكم ذلك ، لأن الله لا يهدي منْ يُضلُّ ، وما لهم من ناصرين ، فلستُ أتأسَّف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلونَ النصيحةَ ، ولا تخافونَ يومَ الفضيحة ، ولهذا قال : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ ﴾ أي : أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أي : لا تقبلون الحقَّ ولا ترجعون إليه ، ولا تلتفتونَ ، فحلَّ بهم من بأسِ الله الذي لا يُردُّ ما لا يُدافعُ ولا يُمانَعُ ، ولا محيد لأحدٍ أريد به عنه ولا مناص[١] منه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه[٢] : عن ابن عباس ؛ أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام .

وعن وَهْب بن مُنَبِّه[٣] أنَّ شُعيباً عليه السلام ماتَ بمكَّة ومنْ معه من المؤمنينَ ، وقبورهم غربيّ الكعبة بين دار النَّدْوة ودار بني سَهْم .

***

باب
ذكر ذريّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٤]

قد قدَّمنا قصَّته مع قومه وما كان من أمرهم ، وما آلَ إليه أمره عليه السلام والتحيَّة والإكرام ، وذكرنا ما وقعَ في زمانهِ من قصَّة قوم لوط ، وأتبعنا ذلك بقصَّة مدينَ قوم شعيب عليه السلام ؛ لأنها قرينتها في كتاب الله عزَّ وجلَّ في مواضعَ مُتعدِّدة ، فذكرَ تعالى بعدَ قِصَّة قوم لوطٍ قصَّة مدينَ ، وهم أصحابُ الأيكة على الصحيح ، كما قدَّمنا ، فذكرناها تبعاً لها اقتداءً بالقرآن العظيم .

ثم نشرعُ الآن في الكلام على تفضيل ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام ، لأنَّ الله جعلَ في ذريَّته النبوةَ والكتابَ ، فكلُّ نبيٍّ أُرسلَ بعدَه فمن وَلَده .

---

(١) كذا في الأصول ، وفي المطبوع : ولا مناص عنه ، ومعنى : لا مناص : لا رجعة ولا عودة .
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ، كما في المختصر (١٠/ ٣٠٨) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ، كما في المختصر ؛ لابن منظور (١٠/ ٣١٤) .
(٤) كذا في ب ، وفي أ : والتسليم .

ذكرُ
إسماعيل عليه السّلام

وقد كان للخليل بنونَ كما ذكرنا ، و لكنَّ أشهرَهم الأخوان النَّبيَّان العظيمان الرسولان ، أسنُّهما وأجلُّهما الذي هو الذبيحُ على الصحيح إسماعيل ، بكرُ إبراهيم الخليل من هاجرَ القِبْطيَّة المصرية عليها السلام من العظيم الجليل .

ومنْ قال : إنَّ الذبيحَ هو إسحاقُ فإنما تلقَّاه من نَقَلةِ بني إسرائيلَ الذين بدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا التوراةَ والإنجيلَ ، وخالفواما بأيديهم في هذا من التنزيل . فإنَّ إبراهيمَ أُمرَ بذبح ولده البكر ، وفي روايةٍ الوحيد .

وأيّاً ما كان فهو إسماعيلُ بنصِّ الدليل ، ففي نصِّ كتابهم إن إسماعيلَ وُلدَ ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، وإنما وُلدَ إسحاق بعد مضي مئة سنةٍ من عمر الخليل ، فإسماعيلُ هو البِكْرُ لا محالة ، وهو الوحيد في الصورة والمعنى[(١)] على كل حالة . أما في الصورة فلأنَّه كان وحدَه ولدَه أزيدَ من ثلاثة عشر سنة ، وأما أنه وحيدٌ في المعنى فإنه هو الذي هاجرَ به أبوه ومعه أمّه هاجرُ ، وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل ، فوضعهما في وهاد جبال فاران ، وهي الجبال التي حولَ مكَّة نعم المقيل ، وتركَهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل ، وذلك ثقةً بالله وتوكُّلاً عليه . فحاطَهُما الله تعالى بعنايته وكفايتِه ، فنعمَ الحسيبُ والكافي والوكيلُ والكفيلُ ، فهذا هو الولدُ الوحيدُ في ا لصورة والمعنى ، ولكنْ أين من يتفطَّنُ لهذا السر ؟ وأين منْ يحلُّ بهذا المحل ، والمعنى لا يُدركُه ويُحيط بعلمه إلا كلُّ نبيهٍ نبيل .

وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفَه بالحِلْم والصَّبْر وصِدْقِ الوعد ، والمحافظة على الصلاة ، والأمر بها لأهله ليقيهم العذابَ ، مع ما كانَ يدعو إليه من عبادة ربِّ الأرباب .

قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠١ ـ ١٠٢] فطاوعَ أباه على ما إليه دعاه ، ووعدَه بأنْ سيصبر ، فوفى بذلك ، وصبرَ على ذلك .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ ـ ٤٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ

---

(١) كذا في ب ، وفي أ : ضرورة ، وفي المطبوع : صورة ومعنى .

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية . وقال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] الآية ، ونظيرتها من السورة الأخرى . وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة : ١٤٠] الآية .

فذكرَ الله عنه كلَّ صفةٍ جميلةٍ ، وجعله نبيَّه ورسولَه وبرَّأه من كل ما نَسبَ إليه الجاهلون ، وأمرَ بأن يُؤمنَ بما أُنزلَ عليه عباده المؤمنون .

وذكر علماءُ النسب وأيّام النّاس أنَّه أوّلُ من ركبَ الخيلَ ، وكانت قبلَ ذلك وُحُوشاً فآنسها وركبَها .

وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدَّثنا شيخٌ من قُريش ، حدَّثنا عبدُ الملك بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن عمر ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « اتَّخذوا الخيلَ واعتقِبُوها ، فإنَّها ميراث أبيكم إسماعيل »(١) وكانت هذه العرابُ وحشاً فدعا لها بدعوتِه التي كان أعطي فأجابته .

وأنَّه أولُ من تكلَّم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد تعلَّمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جُرهم والعماليق ، وأهل اليمن من الأمم المتقدِّمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموي : حدَّثني عليُّ بن المغيرة ، حدَّثنا أبو عُبيدة ، حدَّثنا مِسْمَعُ بن مالك ، عن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال : « أوَّلُ من فُتِق لسانُه بالعربية البيِّنة إسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة »(٢) فقال له يونس : صدقت يا أبا سيار ، هكذا أبو جريّ حدَّثني .

وقد قدَّمنا أنَّه تزوَّجَ لما شبَّ من العماليق امرأةً ، وأنَّ أباه أمرَه بفراقِها ، ففارقَها .

قال الأموي : هي عمارةُ بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي(٣) . ثم نكحَ غيرَها فأمرَه أن يستمرَّ بها ، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي . وقيل : هذه ثالثة ، فولدت له اثني عشرَ ولداً ذكراً ، وقد سمَّاهم محمد بن إسحاق رحمه الله ، وهم : نابت وقيذر وازبل وميشى ومسمع وماش ودوصا وآزر ويطور ونبش وطيما وقيذما(٤) . وهكذا ذكرَهم أهلُ الكتاب في كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشَّر بهم ، المتقدِّم ذكرهم ، وكذبوا في تأويلهم ذلك .

---

(١) لم أجده ، وفي إسناده رجل مجهول ، فهو منقطع .

(٢) أخرجه الشيرازي في الألقاب والزبير بن بكار في النسب ، من حديث علي ، كما في فيض القدير (٣/ ٩٢) وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٤٨) من حديث ابن عباس ، وذكره القرطبي في التفسير (١/ ٢٨٣) .

(٣) في ب : العملاقي .

(٤) الذي في الطبري : نابت ، وقيدر ، وأدبيل ، ومبشا ، ومسمع ، ودما ، وماس ، وأدد ، ووطور ، ونفيس ، وطما ، وقيدمان .

وكان إسماعيلُ عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلواتُ الله وسلامه عليه ، ولما حضرتْه الوفاةُ أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته « نسمة » من ابن أخيه العيص بن إسحاق ، فولدت له الروم ، يقال لهم : بنو الأصفر ، لصفرةٍ كانت في العيص . وولدتْ له اليونان في أحد الأقوال . ومن ولد العيص الأشبان ، قيل : منهما أيضاً . وتوقَّفَ ابن جرير[1] رحمه الله .

ودُفنَ إسماعيلُ نبيُّ الله بالحجر مع أمِّه هاجرَ ، وكان عمرُه يوم مات مئة وسبعاً وثلاثين سنة[2] .

ورُوي عن عمرَ بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيلُ عليه السلام إلى ربِّه عزَّ وجلَّ حرَّ مكَّةَ ، فأوحى الله إليه أنِّي سأفتحُ لك باباً إلى الجنَّةِ ، إلى الموضع الذي تُدفنُ فيه ، تجري عليك روحُها إلى يوم القيامة[3] .

وعربُ الحجاز كلُّهم ينتسبون إلى ولديْه نابت وقيذار . وسنتكلَّم على أحياء العرب وبطونها وعمائِرها وقبائِلها وعشائِرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ . وذلك إذا انتهينا إلى أيَّامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى ابن مريم خاتم أنبيائهم ومحقِّق أنبائهم ، ثم نذكرُ ما كان في زمن بني إسرائيل ، ثم ما وقعَ في أيَّام الجاهلية ، ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبيِّنا رسولِ الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم من الأمم ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم .

***

ذكرُ
إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصّلاة والتسليم

قد قدَّمنا أنه ولد ولأبيه مئة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة ، وكان عمرُ أمِّه سارَة حين بُشِّرَتْ به تسعين سنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ـ ١١٣] .

---

(١) انظر تاريخ الطبري (١/ ٣١٤) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٣١٤) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٣١٥) .

وقد ذكرَه الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز ، وقدَّمنا في حديث أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ: « إنَّ الكريمَ بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[١] .

وذكرَ أهلُ الكتاب أنَّ إسحاقَ لما تزوَّج « رفقا » بنت بثوابيل في حياة أبيه ، كان عمرُه أربعينَ سنة ، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملَتْ ، فولدت غلامين توأمين : أولهما سمَّوه « عيصو » وهو الذي تُسميه العربُ العيصَ ، وهو والد الروم الثانية[٢] . والثاني خرجَ وهو آخذٌ بعقبِ أخيه فسمَّوه « يعقوبَ »[٣] وهو إسرائيل الذي ينتسبُ إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحبُّ « العيصو » أكثر من « يعقوب » لأنه بِكرُه ، وكانت أُمُّهما « رفقا » تحبُّ يعقوبَ أكثر ؛ لأنَّه الأصغرُ .

قالوا : فلما كبرَ إسحاق وضعفَ بصرُه ، اشتهى على ابنه « العيص » طعاماً وأمرَه أن يذهبَ فيصطادَ له صيداً ويطبخَه له ، ليُباركَ عليه ويدعوَ له . وكان العيص صاحبَ صيد ، فذهبَ يبتغي ذلك ، فأمرت « رفقا » ابنَها يعقوب أن يذبحَ جديين من خيار غنمه ، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ، و يأتي إليه به قبل أخيه ليدعوَ له ، فقامت فألبستْه ثيابَ أخيه ، وجعلتْ على ذراعيْه وعُنُقه من جلدِ الجَدْيَيْنِ ، لأن العيصَ كان أشعرَ الجسد ، ويعقوبُ ليس كذلك ، فلما جاء به وقرَّبه إليه ، قال : من أنت ؟ قال : ولدُك. فضمَّه إليه وجسَّه ، وجعلَ يقولُ : أما الصوتُ فصوتُ يعقوب ، وأما الجسُّ والثياب فالعيصُ ، فلما أكلَ وفرغَ دعا له أن يكونَ أكبرَ إخوتِه قَدْراً ، وكلمتُه عليهم وعلى الشعوب بعدَه ، وأن يكثرَ رزقُه وولدُه .

فلما خرجَ من عنده جاء أخوه العيصُ بما أمرَه به والده ، فقرَّبه إليه ، فقال له : ما هذا يا بنيَّ ؟ قال : هذا الطعام الذي اشتهيتَه . فقال : أما جئتني به قبلَ الساعة وأكلتُ منه ، ودعوتُ لك ؟ فقال : لا والله ، وعرفَ أنَّ أخاه قد سبقَه إلى ذلك ، فوجَدَ في نفسه عليه وَجْداً كثيراً . وذكروا أنَّه تواعده بالقتل إذا مات أبوهُما ، وسألَ أباه فدعا له بدعوةٍ أخرى ، وأن يجعلَ لذريَّته غليظَ الأرض ، وأنْ يُكثِرَ أرزاقهم وثمارَهم ، فلما سمعت أمُّهما ما يتواعدُ به العيصُ أخاه يعقوبَ ، أمرت ابنهَا يعقوبَ أن يذهبَ إلى أخيها « لابان » الذي بأرض حرَّان ، وأن يكونَ عندَه إلى حين يسكنُ غضبُ أخيه عليه ، وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمرَه بذلك ويُوصيه ويدعو له ففعلَ .

فخرجَ يعقوبُ عليه السلام من عندِهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركَه المساء في موضعٍ فنامَ فيه ، وأخذ

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه .

(٢) سقطت من المطبوع .

(٣) في هامش ب : ذكر يعقوب ، وهو إسرائيل عليه السلام .

حجراً فوضعَه تحت رأسِه ونام ، فرأى في نومه ذلك مِعْراجاً[(١)] منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكةُ يصعدون فيه وينزلون ، والربُّ تباركَ وتعالى يخاطبُه ، ويقولُ له : إني سأُباركُ عليك وأكثِر ذريَّتك ، وأجعلُ لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

فلما هبَّ من نومه فرحَ بما رأى ، ونذرَ لله لَئن رجعَ إلى أهله سالماً ليبنينَّ في هذا الموضع معبداً لله عزَّ وجلَّ ، وأن جميع ما يُرزقه من شيء يكونُ لله عشره ، ثم عمدَ إلى ذلك الحجر فجعلَ عليه دُهناً يتعرَّفه به ، وسمَّى ذلك الموضعَ « بيت إيل » أي : بيت الله ، وهو موضع بيت المقدس اليوم ، الذي بناه يعقوبُ بعد ذلك كما سيأتي .

قالوا : فلما قدمَ يعقوبُ على خاله أرضَ حرَّان إذا له ابنتان ، اسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى « راحيل » [فخطب إليه راحيل][(٢)] ، وكانت أحسنهما وأجملهما ، فأجابه إلى ذلك بشرط أنْ يرعى على غنمه سبع سنين ، فلما مضت المدة على خاله « لابان » صنعَ طعاماً وجمعَ النَّاس عليه ، وزفَّ إليه ليلاً ابنته الكبرى « ليا » وكانت ضعيفةَ العينين قبيحة المنظر . فلما أصبحَ يعقوبُ إذا هي « ليا » فقال لخاله : لم غدرتَ بي ؟ وأنت إنما خطبتُ إليكَ « راحيل » فقال : إنه ليس من سنَّتنا أن نُزوِّجَ الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببتَ أختَها فاعملْ سبعَ سنين أخرى ، وأزوِّجكها . فعملَ سبع سنين وأدخلَها عليه مع أُختها ، وكان ذلك سائغاً في ملَّتهم ثم نُسخ في شريعة التوراة .

وهذا وحده دليلٌ كافٍ على وقوع النسخ ، لأن فعلَ يعقوب عليه السلام دليلٌ على جواز هذا وإباحتِه ، لأنه معصوم .

ووهبَ « لابان » لكلٍّ واحدة من ابنتيْه جاريةً ، فوهبَ لليا جاريةً اسمها « زلفى » ووهب لراحيل جاريةً اسمها « بلهى » . وجبرَ الله تعالى ضعفَ « ليا » بأن وهبَ لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوي ، ثم يهوذا . فغارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحبلُ ، فوهبت ليعقوبَ جاريتها « بلهى » فوطئِها فحملتْ ، وولدتْ له غلاماً سمَّته « دان » وحملتْ وولدتْ غلاماً آخر سمَّته « نيفتالي » فعمدتْ عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتَها « زلفى » من يعقوب عليه السلام ، فولدت له « حاد » و« أشير » غلامين ذكريْن ، ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمَّته « إيساخر » . ثم حملتْ وولدت غلاماً سادساً سمته « زابلون » ثم حملت وولدت بنتاً سمَّتها « دنا » فصار لها سبعة من يعقوب . ثم دعتِ الله تعالى « راحيل » وسألته أن يهبَ لها غلاماً من يعقوب ، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبيِّ الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلا سمَّته يوسفَ ، كل هذا وهم مقيمون بأرض حرَّان ،

---

(١) معراجاً : المعراج : ما يُرتقى به .
(٢) ما بين حاصرتين سقط من المطبوع ومن أ ، وأثبتهما من ب .

وهو يرعى على خاله غنمَه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدَّة مقامه عشرين سنة .

فطلبَ يعقوبُ من خاله « لابان » أن يُسرِّحه ليمرَّ إلى أهله . فقال له خاله : إنِّي قد بُورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئتَ . فقال : تعطيني كلّ حَملٍ يُولد من غنمك هذه السنة أبقعَ[1] ، وكلَّ حَمْل ملمع أبيض بسواد ، وكلّ أملحَ[2] ببياض ، وكل أجلحَ[3] أبيض من المعز . فقال : نعم . فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كانَ على هذه الصفات من التُّيوس ، لئلا يُولد شيء من الحملان على هذه الصفات ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم .

قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ودلب ، فكان يُقشِّرها بُلْقاً وينصبها في مساقي الغنم من المياه ، لينظرَ الغنمُ إليها فتفزعَ وتتحرَّك أولادُها في بطونها ، فتصيرُ ألوان حملانها كذلك ، وهذا يكونُ من باب خوارق العادات ، وينتظمُ في سلْكِ المعجزات ، فصار ليعقوبَ عليه السلام أغنامٌ كثيرة ودوابٌّ وعبيد ، وتغيَّر له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوبَ أن يرجعَ إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعدَه بأن يكون معه ، فعرضَ ذلك على أهله فأجابُوه مبادرينَ إلى طاعته ، فتحمَّلَ بأهله ومالِه ، وسرقت « راحيل » أصنام أبيها ، فلما جاوزوا وتحيَّزوا عن بلادهم ، لحقَهم « لابان » وقومُه ، فلما اجتمع « لابانُ » بيعقوبَ عاتبَه في خروجه بغير علمه ، وهلاَّ أعلمَه فيُخرجهم في فرحٍ ومزاهرَ وطُبولٍ ، وحتَّى يُودِّعَ بناتِه وأولادهنَّ ، ولما أخذوا أصنامَه معهم ، ولم يكن عند يعقوبَ علمٌ من أصنامِه ، فأنكرَ أن يكونَ أخذوا له أصناماً ، فدخلَ بيوتَ بناتِه وإمائهنَّ يفتش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيلُ قد جعلتهنَّ في بَرْدَعةِ[4] الحِمْل وهي تحتَها ، فلم تقمْ واعتذرتْ بأنَّها طامِثٌ ، فلم يقدرْ عليهنَّ ، فعند ذلك تواثقُوا على رابية هناكَ ، يُقال لها « جلعاد » على أنَّه لا يهين بناته ولا يتزوَّج عليهن ، ولا يُجاوز هذه الرابية إلى بلادِ الآخر ، لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعاماً وأكلَ القومُ معهم وتودَّعَ كلٌّ منهما من الآخر ، وتفارقوا راجعينَ إلى بلادهم .

فلما اقتربَ يعقوبُ من أرض « ساعير » تلقَّتْه الملائكةُ يُبشِّرونه بالقدوم ، وبعثَ يعقوب البرد إلى أخيه العيص يترفَّق له ويتواضع له ، فرجعت البرد وأخبرتْ يعقوبَ بأن العيص قد ركبَ إليك في أربعمئة راجل ، فخشيَ يعقوبُ من ذلك ودعا الله عزَّ وجلَّ وصلَّى له وتضرَّع إليه وتمسكنَ لديْه ، وناشدَه عهدَه ووعدَه الذي وعدَه به ، وسأله أن يكفَّ عنه شرَّ أخيه العيص ، وأعدَّ لأخيه هديَّةً عظيمةً ، وهي مئتا شاة ،

---

(١) أبقع : خالط لونه لونٌ آخر .
(٢) أملح : خالط بياضَه سوادٌ .
(٣) أجلح : لا قرنَ له .
(٤) برْدعة : هي ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه ، كالسَّرْج للفرس .

وعشرون تيساً ومئتا نعجةٍ ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لَقْحَةً[1] ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتاناً ، وعشرة من الحُمُر ، وأمرَ عبيدَه أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحدَه ، وليكنْ بين كلِّ قطيعٍ وقطيعٍ مسافةٌ ، فإذا لقيهم العيصُ ، فقال : للأوّل لمن أنت ؟ ولمن هذه معكَ ؟ فليقل : لعبدك يعقوبَ أهداها لسيِّدي العيصُ . وليقل الذي بعدَه كذلك ، وكذا الذي بعدَه ، ويقولُ كلٌّ منهم وهو جاءٍ بعدنا .

وتأخَّر يعقوبُ بزوجتيْه وأمتيْه وبنيه الأحد عشرَ بعد الكلِّ بليلتين ، وجعل يسيرُ فيهما ليلاً ، ويكمنُ نهاراً ، فلما كان وقتُ الفجر من الليلة الثانية تبدَّى له ملَكٌ من الملائكة في صُورة رجلٍ ، فظنَّه يعقوبُ رجلاً من النَّاس ، فأتاه يعقوبُ ليُصارعه ويُغالبه ، فظهرَ عليه يعقوبُ فيما يرى ، إلا أنَّ المَلَك أصابَ وِركَه ، فعرجَ يعقوبُ ، فلما أضاءَ الفجر قال له الملك ما اسمكَ ؟ قال : يعقوب . قال : لا ينبغي أن تُدعى به اليوم إلا إسرائيل . فقال له يعقوب : ومنْ أنتَ وما اسمكَ ؟ فذهبَ عنه ، فعلمَ أنَّه مَلَكٌ من الملائكة ، وأصبحَ يعقوبُ وهو يعرجُ من رِجْلِه ، فلذلك لا يأكلُ بنو إسرائيل عِرْقَ النَّسَا ، ورفعَ يعقوبُ عينيْه فإذا أخوه « عيصو » قد أقبلَ في أربعمئة راجل ، فتقدَّم أمام أهله ، فلما رأى أخاه العيص سجدَ له سبع مرَّاتٍ ، وكانت هذه تحيَّتُهم في ذلك الزمان ، وكان مشروعاً لهم ؛ كما سجدتِ الملائكةُ لآدمَ تحيَّة له ، وكما سجدَ إخوةُ يوسفَ وأبواه له كما سيأتي ، فلما رآه العيص تقدَّم إليه واحتضنَه وقبَّله وبكى ، ورفعَ العيصُ عينيْه ونظرَ إلى النساء والصِّبيان ، فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهبَ الله لعبدكَ ، فدنتِ الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له ، ودنت « راحيل » وابنها يوسف فخرَّا سُجَّداً له ، وعرضَ عليه أن يقبلَ هديَّته وألحَّ عليه ، فقبلَها ورجعَ العيصُ ، فتقدَّم أمامَه ولحقَه يعقوبُ وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدينَ جبالَ ساعير .

فلما مرَّ بساحور ابتنى له بيتاً ولدوابّه ظلالاً ، ثم مرَّ على أورشليم قرية شخيم ، فنزل قبل القرية ، واشترى مزرعةَ شخيم بن جمور بمئة نعجة ، فضربَ هنالك فسطاطَه ، وابتنى ثَم مذبحاً ، فسمَّاه « إيل إلّه إسرائيل » ، وأمر الله ببنائه ليُستعلنَ له فيه . وهو بيتُ المقدس اليوم ، الذي جدَّده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام ، وهو مكان الصخرة التي أعلمَها بوضع الدُّهن عليها قبل ذلك ، كما ذكرنا أولاً .

[وذكر أهلُ الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » وما كان من أمرها مع « شخيم » بن جمور الذي قهرَها على نفسها ، وأدخلَها منزلَه ثم خطبها من أبيها وإخوتها ، فقال إخوتها : إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نُصاهر قوماً غلفاً ، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلُّهم ، فلما كان اليوم الثالث واشتدَّ وجعُهم من ألم الخِتان ، مالَ عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا

---

(١) لَقْحة : ناقة حلوب غزيرة اللبن .

« شخيماً » وأباه « جمور » لقبيح ما صنعوا إليهم ، مضافاً إلى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب ، وأخذوا أموالهم غنيمة][1] .

ثم حملت « راحيل » فولدت غلاماً وهو « بنيامين » إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه ، فدفنَها يعقوبُ في « أفراث » وهي بيت لحم ، وصنعَ يعقوبُ على قبرها حجراً ، وهي الحجارةُ المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم .

وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً ؛ فمن « ليا » : روبيل ، وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وايساخر ، وزايبلون . ومن راحيل : يوسف ، وبنيامين . ومن أمة راحيل : دان ، ونيثالي . ومن أمة « ليا » : جاد وأشير ، عليهم السلام .

وجاء يعقوبُ إلى أبيه إسحاق ، فأقام عنده بقرية حبرون ، التي في أرض كنعان ، حيث كان يسكنُ إبراهيم ، ثم مرضَ إسحاقُ ومات عن مئة وثمانين سنة ، ودفنَه ابناه العيصُ ويعقوبُ مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها ، كما قدَّمنا .

***

(١) ما بين حاصرتين سقط من أ ، وهو في ب والمطبوع .

ذكرُ
ما وقعَ من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل
فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل

وقد أنزل الله عزَّ وجلَّ في شأنه ، وما كان من أمره ، سورة من القرآن العظيم ليتدبَّر ما فيها من الحِكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ١ ـ ٣] .

وقد تكلَّمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظرْه ثَمَّ ، وتكلَّمنا على هذه السورة مستقصىً في موضعها من التفسير ، ونحن نذكرُ هاهنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملةُ القول في هذا المقام : أنه تعالى يمدحُ كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسانٍ عربيٍّ فصيح بيِّنٍ واضح جليّ ، يفهمُه كلُّ عاقل ذكيّ زكي ، فهو أشرف كتابٍ نزلَ من السماء ، أنزلَه أشرف الملائكة على أشرفِ الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان ، فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية : ذكرَ أحسنها وأبينها ، وأظهرَ الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغَ الباطلَ وزيَّفه وردَّه ، وإن كان في الأوامر والنواهي : فأعدلُ الشرائع وأوضحُ المناهج ، وأبْيَنُ حكماً وأعدلُ حكماً ، فهو كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] . يعني صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي . ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه : ٩٩ ـ ١٠١] .

يعني : منْ أعرضَ عن هذا القرآن واتَّبعَ غيرَه من الكتب فإنه ينالُه هذا الوعيد ، كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي : عن أمير المؤمنين عليٍّ مرفوعاً وموقوفاً : « من ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩١) والترمذي (٢٩٠٦) في فضائل القرآن ، وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال . فهو ضعيف في المرفوع ، وبعضهم وقفه على علي رضي الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا سريج بن النعمان : حدَّثنا هشيم ، أخبرنا مجالد ، عن ا لشعبي ، عن جابر : أنَّ عُمَرَ بن الخطاب أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبيِّ ﷺ : قال فغضبَ وقال : « أتتهوكون[١] فيها يا بن الخطاب ! والذي نفسي بيده لقد جئتُكم بها بيضاء نقيَّة ، لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبرونكم بحقٍّ فتكذِّبونه ، أو بباطل فتُصدِّقونه ، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى كان حيّاً ما وسعَه إلا أن يتبعني » . إسناد صحيح[٢] .

ورواه أحمد من وجهٍ آخر[٣] : عن عمر ، وفيه فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبحَ فيكم موسى ثم اتَّبعتمُوه وتركتُموني لضَلَلْتُم . إنَّكم حَظِّي من الأمم وأنا حَظُّكم من النبيِّين » .

وقد أوردتُ طرقَ هذا الحديث وألفاظَه في أول سورة يوسف[٤] ، وفي بعضها أن رسول الله ﷺ خطبَ النَّاسَ ، فقال في خطبته : « أيُّها الناس ! إني قد أوتيتُ جوامعَ الكلم وخواتيمَه ، واختُصرَ لي اختصاراً ، ولقد أتيتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً فلا تتهوَّكوا ، ولا يغرَّنكم المُتَهوِّكون »[٥] . ثم أمر بتلك الصحيفة فمُحيت حرفاً حرفاً .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٤ ـ ٦] .

[قد قدَّمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسمَّيناهم ، وإليهم تُنسب أسباط بني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفَهم وأجلَّهم وأعظمَهم يوسفُ عليه السلام ، وقد ذهبَ طائفةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبيٌّ غيره ، وباقي إخوته لم يُوحَ إليهم . وظاهرُ ما ذُكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصَّة يدلُّ على هذا القول .

ومن استدلَّ على نبوَّتهم بقوله : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [آل عمران : ٨٤] وزعمَ أن هؤلاء هم الأسباط ، فليس استدلاله بقوي ، لأن المرادَ

---

(١) « أتتهوكون » : التهوُّك : كالتهوّر ، وهو الوقوع في الأمر بغير روية ، والمُتهوِّك : المتحيِّر .
(٢) في المسند (٣/ ٣٨٧) وفيه : أمتهوِّكون ، أقول : وإسناده ضعيف .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٧١) و (٤/ ٢٦٦) وإسناده ضعيف .
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٦) .
(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٣) وقال : رواه أبو يعلى ، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق ، ضعَّفه أحمد وجماعة .

بالأسباط شعوبُ بني إسرائيل ، وما كان يُوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزلُ عليهم الوحي من السماء ، والله أعلم .

ومما يؤيِّد أن يوسف عليه السلام هو المختصُّ من بين إخوته بالرسالة والنبوة ، أنه نصَّ على واحد من إخوتِه سواه ، فدلَّ على ما ذكرناه ، ويُستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدَّثنا عبدُ الصمد ، حدَّثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « الكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[١] . انفردَ به البخاريُّ ، فرواه عن عبد الله بن محمد ، وعبدة ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به .

وقد ذكرنا طرقَه في قصَّة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هاهنا ـ ولله الحمد والمنة[٢] ـ .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسفُ عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ [يوسف : ٤] وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [يوسف : ٤] وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدوا له ، فهالَه ذلك ، فلما استيقظَ قصَّها على أبيه ، فعرفَ أبوه أنَّه سينالُ منزلةً عاليةً ورِفْعةً عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضعُ له أبواه وإخوته فيها ، فأمرَه بكتمانها ، وألَّا يقصَّها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل[٣] ، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر ، وهذا يدلُّ على ما ذكرناه . ولهذا جاء في بعض الآثار : استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود[٤] .

وعند أهل الكتاب أنه قصَّها على أبيه وإخوته معاً وهو غلطٌ منهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي : وكما أراكَ هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتَها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي : يخصُّك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي : يُفهمُكَ من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمُه غيرك ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي : بالوحي إليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ أي : بسببك ويحصل لهم بك خيرُ الدنيا والآخرة ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ أي : يُنعم عليك ويُحسن إليك بالنبوة ، كما أعطاها أباك يعقوب وجدَّك إسحاق ، ووالد جدِّك إبراهيم الخليل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٨٢) و(٣٣٩٠) .

(٢) ما بين الحاصرتين سقط من أ ، وأثبته من هامش ب وهو في المطبوع .

(٣) « الغوائل » : الدواهي والمصائب .

(٤) رواه العقيلي وابن عديٍّ والطبراني وأبو نعيم والبيهقي ، عن معاذ بن جبل ، كما في فيض القدير (١/ ٤٩٣) والمقاصد الحسنة (ص٥٦) ، وتمييز الطيب من الخبيث (ص٢٧) وكشف الخفاء (١/ ١٣٥) وفي إسناده ضعف .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : لما سُئل أيُّ النَّاس أكرم ؟ قال : « يوسفُ نبيُّ الله ابن نبيِّ الله ابن نبيِّ الله ابن خليل الله »[١] .

وقد روى ابن جرير[٢] ، وابن أبي حاتم ، في تفسيريهما ، وأبو يعلى ، والبزَّار ، في مسنديهما : من حديث الحكم بن ظُهَير ـ وقد ضعَّفه الأئمة ـ عن السُّدِّي ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر ، قال : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من يهود يقال له : « بستانة اليهودي » فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسفُ أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكتَ النبيُّ ﷺ فلم يُجبْه بشيء . ونزلَ جبريلُ عليه السلام بأسمائها . قال : فبعثَ إليه رسولُ الله ، فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتُك بأسمائها ؟ قال : نعم . فقال : هي حرثان ، والطارق ، والذيَّال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثَّاب ، وعمردان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، والضياء ، والنور » . فقال اليهوديُّ : إي والله إنها لأسماؤها[٣] .

وعند أبي يعلى فلما قصَّها على أبيه . قال : هذا أمرٌ مُشتَّتٌ يجمعُه الله . والشمس : أبوه ، والقمر : أمه .

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧ ـ ١٠] .

يُنبِّه تعالى على ما في هذه القصَّة من الآيات والحِكم والدَّلالاتِ والمواعظ والبيِّنات ، ثم ذكرَ حسدَ إخوة يوسف له على محبَّة أبيه له ولأخيه ـ يعنونَ شقيقَه لأمِّه بنيامين ـ أكثر منهم ، وهم عُصْبة ، أي : جماعة . يقولون : فكنّا نحن أحقُّ بالمحبَّة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بتقديمه حبَّهما علينا .

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسفَ أو إبعاده إلى أرضٍ لا يرجعُ منها ، ليخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، أي : لتتمحَّضَ[٤] محبَّتُه لهم ، وتتوفر عليهم ، وأضمَروا التوبةَ بعد ذلك ، فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال مجاهد: هو شمعون . وقال السُّدِّي : هو يهوذا . وقال قتادة ومحمد ابن إسحاق : هو أكبرُهم روبيل : ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي : المارة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤) في الأنبياء .

(٢) انظر تفسير الطبري (٧/ ١٤٨) .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في دلائل النبوة ؛ كما في الدر المنثور (٤/ ٤٩٨) . أقول : وإسناده ضعيف كما قال المصنف .

(٤) « لتتمحَّض محبَّتُه » : لتكون خالصة ، لا تشوبها شائبة .

من المسافرين ﴿ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقربُ حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه ، فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [يوسف : ١١ـ١٤] .

طلبوا من أبيهم أن يرسلَ معهم أخاهم يوسفَ ، وأظهروا له أنهم يُريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعبَ وينبسطَ ، وقد أضمروا له ما الله به عليم ، فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بنيَّ يشقُّ عليّ أن أفارقَه ساعةً من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه ، فيأتي الذئبُ فيأكلَه ، ولا يقدرُ على دفعه عنه لصغره وغفلتِكم عنه . ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ أي : لئن عدا عليه الذئبُ فأكلَه من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقعَ هذا ونحن جماعة ، إنا إذاً لخاسرون ، أي : عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسلَه وراءَهم يتبعُهم ، فضلَّ عن الطريق ، حتى أرشدَه رجلٌ إليهم . وهذا أيضاً من غَلطِهم وخَطئِهم في التعريب ، فإن يعقوبَ عليه السلام كان أحرصَ عليه يبعثَه معهم ، فكيف يبعثه وحده ؟!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۝ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٥ـ١٨] . لم يزالوا بأبيهم حتى بعثَه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيْه ، فجعلوا يشتمونَه ويُهينونه بالفِعال والمقال ، وأجمعُوا على إلقائه في غيابت الجبِّ ، أي : في قعره ، على راعوفته ـ وفي الصخرة التي تكون في وسطه ، يقف عليها المائحُ ، وهو الذي ينزل ليملي الدِّلاء إذا قلَّ الماء ، والذي يرفعُها بالحبل يُسمَّى الماتح ـ فلما ألقوْه فيه أوحى الله إليه أنَّه لا بُدَّ لك من فرجٍ ومخرجٍ من هذه الشِّدَّة التي أنت فيها ، ولتخبرنَّ إخوتك بصنيعهم هذا في حالٍ أنت فيه عزيزٌ ، وهم محتاجون إليك ، خائفونَ منكَ ، وهم لا يشعرون .

قال مجاهد وقتادة : لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك[1] . وعن ابن عباس : وهم لا يشعرون أي : لتخبرنَّهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها . رواه ابن جرير[2] عنه . فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصَه فلطَّخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عِشَاءً وهم يبكون ، أي : على أخيهم . و لهذا

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٥٨) والتاريخ (١/ ٣٣٢) .
(٢) أخرجه ابن جرير في التاريخ (١/ ٣٣٣) .

قال بعضُ السلف : لا يغرَّنكَ بكاءُ المتظلّم ، فرُبَّ ظالم وهو باكٍ . وذكرَ بكاء إخوة يوسف ، و قد جاءوا أباهم عشاءً يبكون ، أي : في ظلمة الليل ، ليكون أمشى لغدرهم لا لعُذْرهم ﴿ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي : ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ أي : في غيبتنا عنه في استباقنا ، وقولهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي : وما أنت بمصدِّقٍ لنا في الذي أخبرناكَ من أكل الذئب له ولو كنَّا غير مُتَّهمين عندك ، فكيف وأنت تتَّهمنا في هذا ؟! فإنك خشيتَ أن يأكلَه الذئبُ ، وضمنَّا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مُصدَّقين عندكَ ، فمعذورٌ أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ ﴾ أي : مكذوب مُفتعل ؛ لأنهم عمَدوا إلى سخلةٍ ذبحوها ، فأخذوا من دمِها فوضعُوه على قميصه ، ليُوهموا أنَّه أكله الذئبُ . قالوا : ونسوا أن يَخْرِقُوهُ ، وآفةُ الكذب النسيان . ولما ظهرتْ عليهم علائمُ الرِّيبة لم يَرُجْ صنيعُهم على أبيهم ، فإنه كان يفهم عداوتَهم له وحسدَهم إيَّاه على محبَّتِه له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسَّم فيه من الجَلالة والمَهابة التي كانت عليه في صغره ، لما يُريد الله أن يخصَّه به من نبوته . ولما راودُوه عن أخذِه ، فبمجرَّد ما أخذوه أعدموه وغيَّبوه عن عينيْه ، جاؤوا وهم يتباكون ، وعلى ما تمالؤوا عليه يتواطؤون ، ولهذا ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن « روبيل » أشار بوضعه في الجُبِّ ليأخذه من حيث لا يشعرون ، ويردَّه إلى أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاءَ « روبيلُ » من آخر النهار ليخرجَ يوسفَ لم يجدْه ، فصاحَ وشقَّ ثيابَه ، وعمدَ أولئك إلى جَدْيٍ فذبحوه ولطَّخوا من دمه جبَّة يوسف . فلما علمَ يعقوبُ شقَّ ثيابه ولبسَ مِئْزراً أسودَ ، وحزنَ على ابنه أيَّاماً كثيرة ، وهذه الركاكة جاءتْ من خطئهم في التعبير والتصوير .

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٩ ـ ٢٢] يُخبر تعالى عن قصَّة يوسفَ حين وُضع في الجُبِّ ، أنَّه جلسَ ينتظرُ فرجَ الله ولُطْفه به ، فجاءتْ سيَّارة ، أي : مسافرون .

قال أهلُ الكتاب : كانت بضاعتُهم من الفُستق والصَّنوبر والبُطْم[1] ، قاصدينَ ديار مصر من الشام .

---

(١) « البُطْمُ » : الحبة الخضراء ، من الفصيلة الفستقية ، شجرتها من أربعة إلى ثمانية أمتار ، تنبت في الأراضي الجبلية ، ثمرتها حَسَكَةٌ مفرطعةٌ خضراء ، تنقشر عن غلاف خشبي يحوي ثمرة واحدة ، تُؤكل في بلاد الشام والعراق .

فأرسلوا بعضَهم ليستقُوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدُهم دلوه تعلَّق فيه يوسفُ ، فلما رآه ذلك الرجلُ ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ ﴾ أي : يا بشارتي ﴿ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة مَتْجَرهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : هو عالمٌ بما تمالأ عليه إخوته وبما يسَّره واجدوه ، من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لا يغيره تعالى ؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقَدر السابق والرحمة بأهل مصرَ ، بما يجري الله على يديْ هذا الغلام ، الذي يدخلُها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يُملِّكه أزمَّة الأمور ، وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يُحدُّ ولا يُوصف .

ولما استشعرَ إخوةُ يوسفَ بأخذ السيَّارة له لحقُوهم ، وقالوا : هذا غلامنا أبَقَ منا فاشتروه منهم بثمنٍ بخسٍ ، أي : قليل نَزْر ، وقيل : هو الزيف ﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ .

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطيَّة العوفي : باعوه بعشرين درهماً ، اقتسموها درهمين درهمين .

وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق : أربعون درهماً ، فالله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ أي : أحسني إليه ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وهذا من لُطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يُؤهِّلَه له ويُعطيه من خيري الدنيا والآخرة .

قالوا : وكان الذي اشتراه من أهل مصرَ عزيزُها ، وهو الوزيرُ بها ، الذي الخزائنُ مُسلَّمة إليه . قال ابن إسحاق : واسمه إطفير[١] بن رُوحيب . قال : وكان مَلِكُ مصرَ يومئذ الريَّان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال : واسم امرأة العزيز « راعيل » بنت رعاييل . وقال غيره : كان اسمها « زليخا » [والظاهر أنه لقبها][٢] . وقيل : « فكا » بنت ينوس . رواه الثعالبي عن أبي هشام الرفاعي .

وقال محمد بن إسحاق : عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، كان اسم الذي باعَه بمصر يعني الذي جلبَه إليها مالكَ بن زعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم ، فالله أعلم .

وقال ابن إسحاق : عن أبي عبيدة ، عن ابن مسعود ، قال : أفرسُ الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف : ٢١] والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلفَ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنهما .

---

(١) في هامش أ و ب : قطفير .
(٢) ما بين الحاصرتين سقط من أ ، وهو في ب والمطبوع .

ثم قيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً . وقيل : بوزنه مِسْكاً ، ووزنه حريراً ، ووزنه وَرِقاً . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : وكما قيَّضْنا هذا العزيز وامرأته يُحسنان إليه ويعتنيان به ، مكنَّا له في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي : فهمها . وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي : إذا أراد شيئاً فإنه يُقيِّضُ له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] فدلَّ على أن هذا كلَّه كان وهو قبل بلوغ الأشدِّ ، وهو حدُّ الأربعينَ الذي يُوحي الله فيه إلى عباده النَّبيِّينَ عليهم الصلاة والسلام من ربِّ العالمين .

وقد اختلفوا في مُدَّة العمر الذي هو بلوغُ الأشُدّ[1] ، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضَّحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السُّدِّي : ثلاثون سنة . وقال ابن عبَّاس ومُجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة . ويشهدُ له قولُه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٢٣ ـ ٢٩] . يذكرُ تعالى ما كان من مُراودة امرأة العزيز ليوسفَ عليه السلام عن نفسه ، وطلبها منه ما لا يليقُ بحاله ومَقامه ، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب ، وكيف غلَّقتِ الأبوابَ عليها وعليه ، وتهيَّأتْ له ، وتصنَّعتْ ، ولبستْ أحسنَ ثيابها ، وأفخرَ لباسها ، وهي مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريَّان بن الوليد صاحب مصر .

وهذا كلُّه مع أنَّ يوسفَ عليه السلام شابٌّ بديعُ الجمال والبَهاء إلا أنَّه نبيٌّ من سُلالة الأنبياء ، فعصمَه ربُّه عن الفحشاء ، وحماه عن مَكْر النساء ، فهو سَيِّدُ السادة النُّجباء السبعة الأتقياء ، المذكورينَ في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام من ربِّ الأرض والسماء : « سبعةٌ يُظلُّهم الله

(١) انظر أقوال السلف في معنى الأشد في تفسير الطبري (٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧) .

في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلاظِلُّه : إمامٌ عادل ، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه ، ورجلٌ مُعلَّقٌ قلبُه[١] بالمسجد إذا خرجَ منه حتَّى يعودَ إليه ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تنفقُ يمينُه ، وشابٌ نشأ في عبادة الله ، ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال : إنِّي أخافُ الله »[٢] .

والمقصود : أنها دعتْه إليها وحرصتْ على ذلك أشدَّ الحِرْص ، فقال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيِّدي ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ أي : أحسنَ إليّ وأكرمَ مقامي عنده ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وقد تكلَّمنا على قوله ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثرُ أقوال المفسرين هاهنا متلقَّى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا . والذي يجبُ أن يُعتقد أنَّ الله تعالى عصمَهُ[٣] وبرَّأه ، ونزَّهه عن الفاحشة ، وحماه عنها ، و صانَه منها . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ أي : هربَ منها طالباً إلى الباب ليخرجَ منه فِراراً منها ، فاتَّبعتْه في أثره ﴿ وَأَلۡفَيَا ﴾ [أي : وجدا][٤] .

﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي : زوجَها لدى الباب ، فبدرتْه بالكلام وحرَّضْته عليه ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

اتَّهمته وهي المتَّهَمة ، وبرَّأتْ عِرْضَها ونزَّهَتْ ساحتَها . فلهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾ احتاج إلى أن يقولَ الحقَّ عند الحاجة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ قيل : كان صغيراً في المهد ، قاله ابن عباس . ورُوي عن أبي هريرة ، وهلال بن يساف ، والحسن البصري ، وسعيد بن جُبير ، والضَّحَّـاك ، واختاره ابن جرير[٥] . وروى فيه حديثـاً مرفوعاً عن ابن عباس[٦] ، ووقفَه غيرُه عنه .

وقيل : كان رجلاً قريباً إلى « أطفير » بعلها . وقيل : قريباً إليها . وممن قال : إنه كان

---

(١) في هامش ب : في نسخة : بالمساجد ، وفيها : متعلق .
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠) في الأذان ، ومسلم (١٠٣١) في الزكاة .
(٣) انظر عصمة الأنبياء للفخر الرازي ، ففيه ما يشفي الغليل من إثبات عصمة يوسف عليه السلام (ص٥١) .
(٤) سقطت من الأصول ، وأثبتها من المطبوع .
(٥) انظر تفسير الطبري (٧/ ١٩٤) .
(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٩٢) .

رجلاً[1] : ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق ، وزيد بن أسلم .

فقال : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : لأنه يكونُ قد راودَها فدافعتْه حتى قَدّتْ[2] مُقدَّم قميصه ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي : لأنه يكونُ قد هربَ منها ، فاتَّبعتْه وتعلَّقتْ فيه ، فانشقَّ قميصُه لذلك ، وكذلك كان .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي جرى من مكركنَّ ، أنتِ راودتِه عن نفسه . ثم اتَّهمْتِه بالباطل ، ثم ضربَ بعلُها عن هذا صفحاً ، فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ ﴾ أي : لا تذكرْه لأحدٍ ، لأنَّ كتمانَ مثل هذه الأمور هو الأليقُ والأحسنُ ، وأمرَها بالاستغفار لذنبها الذي صدرَ منها ، والتوبة إلى ربِّها ، فإنَّ العبدَ[3] إذا تاب إلى الله تابَ الله عليه .

وأهلُ مصرَ وإن كانوا يعبدون الأصنامَ إلا أنَّهم يعلمونَ أنَّ الذي يغفرُ الذنوبَ ويُؤاخذ بها هو الله وحدَه لا شريكَ له في ذلك ، ولهذا قالَ لها بعلها ، وعذرَها من بعض الوجوه ، لأنها رأتْ ما لا صبرَ لها على مثله ، إلا أنه عفيفٌ نزيهٌ بريءُ العِرْضِ ، سليم الناحية ، فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] .

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠ ـ ٣٤] . يذكرُ تعالى ما كان من قِبَل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز ، وعيبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحُبِّها الشديد له ، تعنين : وهو لا يساوي هذا ؛ لأنه مولى من الموالي ، وليس مثله أهلاً لهذا ، ولهذا قلن ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : في وضعِها الشيء في غير محلّه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي : بتشنيعهنَّ عليها ، والتنقُّص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمَّة بحبِّ مولاها وعِشْقِ فتاها ، فأظهرنَ ذمّاً وهي معذورةٌ في نفس الأمر ، فلهذا أحبَّتْ أن تبسطَ عذرَها عندهنَّ ، وتُبيِّن أنَّ هذا الفتى ليس كما حسبنَ ، ولا من قبيل ما لديهنَّ . فأرسلتْ إليهنَّ فجمعتهنَّ في منزلها ،

---

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٧/ ١٩٢ ـ ١٩٣) .

(٢) « قدَّت » : قطعت ومزَّقت .

(٣) كذا في أ و ب ، وفي المطبوع : العبد المذنب .

وأعتدت لهنَّ ضِيافة مثلهنَّ ، وأحضرتْ في جملة ذلك شيئاً مما يُقَطَّعُ بالسكاكين ؛ كالأُتْرُجِّ[١] ونحوه . وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكِّيناً ، وكانت قد هيَّأتْ يوسفَ عليه السلام ، وألبستْه أحسنَ الثياب ، وهو في غاية طراوة الشباب ، وأمرتْه بالخروج عليهنَّ بهذه الحالة . فخرجَ وهو أحسنُ من البَدْر لا محالة ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي : أعظمنَه وأجللنَه وهِبْنه ، وما ظننَّ أن يكونَ مثل هذا في بني آدم ، وبهرهنَّ حُسْنه ، حتى اشتغلنَ عن أنفسهن ، وجعلنَ يحززنَ في أيديهنَّ بتلك السكاكين ، ولا يشعرنَ بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . وقد جاء في حديث الإسراء « فمررتُ بيوسفَ وإذا هو قد أعطي شَطْرَ الحُسْن »[٢] .

قال السهيلي[٣] وغيره من الأئمة : معناه أنَّه كان على النِّصْفِ من حُسْن آدمَ عليه السلام ، لأن الله تعالى خلقَ آدمَ بيده ، ونفخَ فيه من روحه ، فكان في غاية نهايات الحُسْنِ البشريِّ ، ولهذا يدخلُ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ على طُولِ آدمَ وحُسْنه ، ويُوسف كان على النِّصفِ من حُسْنِ آدمَ ، ولم يكن بينهما أحسن منهما ، كما أنَّه لم تكن أنثى بعد حوَّاء أشبه بها من سَارَة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجهُ يوسفَ مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأةٌ لحاجةٍ غطَّى وجهه . وقال غيره : كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه النَّاسُ ، ولهذا لمَّا قام عذرن امرأة العزيز في محبَّتِها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهنَّ وعليهنَّ ما جرى من تقطيعِ أيديهنَّ بجِراح السكاكين ، وما ركبهنَّ من المهابة والدَّهش عند رؤيته ومعاينته .

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعِفَّة[٤] التَّامَّة ، فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي : امتنع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ وكان بقيَّةُ النساء حرَّضْنَهُ على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشدَّ الإباء ، ونأى لأنه من سُلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يعني إن وَكلْتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاء الله ، فأنا ضعيفٌ إلا ما قوَّيتني وعصمتني وحفظتني ، وحُطتني بحولك وقوّتك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ

---

(١) « الأُتْرُجّ » : شجر يحمل ثمراً كالليمون ، حامض الطعم ، ويُسمَّى : تفاح العجم .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٤٨ و٢٨٦) ومسلم (١٦٢) في الإيمان .

(٣) انظر الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٢٩) .

(٤) كذا في أ وب ، وفي المطبوع : بالعصمة .

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٣٤ ـ ٤١] . يذكرُ تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم ، أي : ظهرَ لهم من الرأي بعدما علموا براءةَ يوسفَ أن يسجنوه إلى وقتٍ ، ليكونَ ذلك أقلّ لكلام الناس في تلك القضية وأخمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودَها عن نفسها فسُجن بسببها ، فسجنوه ظلماً وعدواناً ، وكان هذا مما قدَّر الله له ، ومن جملة ما عصمَه به ، فإنَّه أبعدُ له عن معاشرتِهم ومخالطتِهم ، ومن هاهنا استنبطَ بعضُ الصوفية ، ما حكاه عنهم الشافعي : أن من العصمة ألّا تجد[1] !.

قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ قيل : كان أحدُهما ساقي الملك واسمه فيما قيل « نبو » ، والآخر خبَّازه ، يعني الذي يلي طعامَه ، وهو الذي يقول له الترك « الجاشنكير » واسمه فيما قيل « مجلث » كان الملك قد اتَّهمَهما في بعض الأمور فسجنَهما . فلما رأيا يوسفَ في السجن أعجبَهما سَمْتُه وهديُه ودلُّه ، وطريقته وقولُه وفعلُه ، وكثرةُ عبادته ربَّه ، وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كلُّ واحد منهما رؤيا تُناسبُه .

قال أهلُ التفسير : رأيا في ليلة واحدة ، أما الساقي فرأى كأن ثلاثَ قضبان من حَبَلةٍ[2] ، وقد أورقت وأينعتْ عناقيدَ العِنبِ[3] ، فأخذَها فاعتصرَها في كأسِ الملك وسقاه . ورأى الخبّازُ على رأسه ثلاثَ سِلالٍ من خبزٍ وضواريَ الطيور تأكلُ من السَّلِّ الأعلى ، فقصَّاها عليه ، وطلبا منه أن يُعبِّرهما لهما وقالا : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرَهما أنه عليمٌ بتعبيرها ، خبيرٌ بأمرها و ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ . قيل : معناه مهما رأيتُما من حلم فإني أعَبِّره لكم قبلَ وقوعه ، فيكونُ كما أقول .

وقيل : معناه إني أخبرُكما بما يأتيكما من الطعام قبل مَجيئهِ حلواً أو حامضاً ، كما قال عيسى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياي ، لأني مؤمنٌ به مُوحِّد له ، مُتَّبعٌ مِلَّة آبائي الكرام إبراهيم

---

(١) أي : ألا تجد ما فيه الابتلاء .
(٢) « الحَبَلة » : الأصل أو القضيب من شجرة الأعناب .
(٣) كذا في ب ، وفي أ : عنباً ، فبدا العنبُ .

الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أي : بأن هدانا لهذا ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : بأن أمرنا أن ندعوَهم إليه ، ونرشدَهم وندلَّهم عليه ، وهو في فِطَرِهم مركوزٌ وفي جِبِلَّتِهم مغروزٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم دعاهم إلى التوحيد ، وذمّ عبادة ما سوى الله عزَّ وجلَّ ، وصغَّر أمرَ الأصنام وحقَّرَها ، وضعَّفَ أمرَها ، فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩ ـ ٤٠] أي : هو المتصرف في خلقه ، الفعَّال لما يُريد ، الذي يَهدي منْ يشاءُ ، ويُضلُّ منْ يشاء ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ أي : وحدَه لا شريك له و ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي : المستقيم والصراط القويم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فهم لا يَهتدون إليه ، مع وضوحه وظهوره ، وكانت دعوتُه لهما في هذه الحال في غاية الكمال ، لأنَّ نفوسَهما مُعظِّمةٌ له ، منبعثة على تلقِّي ما يقول بالقَبول ، فناسبَ أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه .

ثمَّ لما قام بما وجبَ عليه وأرشدَ إلى ما أرشدَ إليه ، قال : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ ﴾ قالوا : وهو الساقي ، ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ ﴾ قالوا : وهو الخبّاز ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي : وقعَ هذا لا محالةَ ، ووجبَ كونُه على حالة ، و لهذا جاء في الحديث « الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَّرْ فإذا عُبِّرَتْ وقعتْ »[1] .

وقد رُوي عن ابن مسعود ، ومجاهد ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أنهما قالا لم نرَ شيئاً . فقال لهما : ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . يُخبر تعالى أنَّ يوسفَ عليه السلام قال للذي ظنَّه ناجياً منهما وهو الساقي ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني : اذكرْ أمري وما أنا فيه من السجن بغير جُرْمٍ عند الملك . وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب . ولا ينافي ذلك التوكل على ربِّ الأرباب . وقوله ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : فأنسى النَّاجي منهما الشيطانُ أن يذكرَ ما وصَّاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو الصواب، وهو منصوصُ أهل الكتاب ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع . وقيل : إلى السبع . وقيل : إلى الخمس . وقيل : ما دون العشرة . حكاها الثعلبي . ويقال : بضع نسوة ، وبضعة رجال . ومنعَ الفرَّاءُ استعمالَ البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يُقال : نيف .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠)، وابن ماجه (٣٩١٤) في تعبير الرؤيا، والدارمي (٢/ ١٢٦) في الرؤيا ، وهو حديث صحيح .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٤] وهذا رد لقوله . قال الفراء : ويُقال بضعة عشر ، وبضعة وعشرون إلى التسعين ، ولا يُقال : بضع ومئة ، وبضع وألف . وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر ، فمنعَ أن يُقال : بضعة وعشرون إلى تسعين . وفي الصحيح : « الإيمان بضعٌ وستون » وفي رواية : « وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[١] .

ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على يوسفَ ، فقد ضُعِّفَ ما قاله ، وإن كان قد رُوي عن ابن عباس وعكرمة ، والحديث الذي رواه ابنُ جرير[٢] في هذا الموضع ضعيفٌ من كل وجه . تفرَّد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي[٢] المَكِّيّ ، وهو متروك . ومُرسلُ الحسن وقتادة لا يُقبل ولا هاهنا بطريق الأولى والأحرى ، والله أعلم .

فأما قول ابن حبَّان في صحيحه[٣] عند ذكر السبب الذي من أجله لبثَ يوسف في السجن ما لبثَ : أخبرنا الفضل بن الحباب الجُمحيّ ، حدَّثنا مُسدَّد بن مُسَرهدٍ ، حدَّثنا خالدُ بن عبدِ الله ، حدَّثنا محمّدُ بن عمرٍو ، عن أبي سلمةَ ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحمَ الله يوسفَ لولا الكلمة التي قالها ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما لبثَ في السجن ما لبثَ ، ورحمَ الله لوطاً إنْ كان ليأوي إلى رُكْنٍ شديد ، إذ قال لقومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] قال : فما بعثَ الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » . فإنه حديث منكر من هذا الوجه ، ومحمد بن عمرو بن علقمة ، له أشياء ينفردُ بها ، وفيها نكارة ، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدِّها . والذي في الصحيحين[٤] يشهدُ بغلطها ، والله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي

(١) أخرجه البخاري رقم (٩) ومسلم (٣٥) في الإيمان ، وأحمد (٢/ ٤٤٥) وأبو داود (٤٦٧٦) في السنة ، والترمذي (٢٦١٧) في الإيمان ، والنسائي (٨/ ١١٠) في الإيمان ، وابن ماجه (٥٧) في المقدمة .
(٢) في التفسير (٧/ ٢٢١) .
(٣) الإحسان (٦٢٠٦) وهو حديث حسن . والثروة : الكثرة والمنعة .
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) في الأنبياء ، ومسلم (١٥١) (٢٣٨) في الإيمان .

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣ ـ ٤٩] هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن مَلِكَ مصرَ ، وهو الريَّان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا .

قال أهل الكتاب : رأى كأنَّه على حافَة نهر ، وكأنَّه قد خرجَ منه سبع بقرات سمان ، فجعلنَ يرتعنَ في روضة هناك ، فخرجتْ سبْعٌ هُزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعنَ معهنَّ ، ثم مِلْنَ عليهنَّ فأكلنهنَّ ، فاستيقظ مذعوراً ، ثم نامَ فرأى سبعَ سنبلات خُضْرٍ في قصبةٍ واحدةٍ ، وإذا سبع أُخرُ دقاقٌ يابسات ، يأكلنهنَّ ، فاستيقظَ مذعوراً .

فلما قصَّها على ملئِه وقومِه ، لم يكن فيهم من يُحسنُ تعبيرَها ، بل ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ ﴾ أي : أخلاط أحلام من الليل ، لعلَّها لا تعبيرَ لها ، ومع هذا فلا خبرةَ لنا بذلك ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ فعند ذلك تذكَّرَ النَّاجي منهما الذي وصَّاه يوسفُ بأن يذكرَه عند ربِّه فنسيَه إلى حينه هذا ، وذلك عن تقدير الله عزَّ وجلَّ، وله الحكمة في ذلك، فلما سمعَ رؤيا الملكِ ورأى عَجْزَ النَّاس عن تعبيرها، تذكَّرَ أمرَ يوسف ، وما كان أوصاه به من التَّذْكار ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ ﴾ أي : تذكَّر ﴿ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾ أي : بعدَ مدَّةٍ من الزمان ، وهو بضعُ سنينَ ، وقرأ بعضهُم كما حُكيَ عن ابن عبَّاس وعكرمة والضَّحَّاك ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أَمَةٍ ﴾ أي : بعد نسيان ، وقرأها مجاهد (بعد أمْهٍ) بإسكان الميم ، وهو النسيان أيضاً ، يقال : أمِهَ الرجلُ يأمَهُ أمْهاً وأمَهاً : إذا نسي ، قال الشاعر : [من الوافر]

أمِهْتُ وكنتُ لا أنسى حديثاً كذاكَ الدهرُ يردي بالعقول[1]

فقال لقومه وللملك : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾ أي : فأرسلوني إلى يوسفَ ، فجاءه فقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب أن الملكَ لما ذكرَه له الساقي استدعاه إلى حضرتِه ، وقصَّ عليه ما رآه ، ففسَّره له . وهذا غَلَطٌ ، والصوابُ ما قصَّه الله في كتابه القرآن، لا ما غُرَّ به هؤلاء الجهلة الثيران، من قرَّايٍ وَربَّان[2] . فبذلَ يوسفُ عليه السلام ما عندَه من العلم بلا تأخُّرٍ ولا شرطٍ ، ولا طلبٍ للخروج[3] سريعاً ، بل أجابَهم إلى ما سألوا ، وعبَّرَ لهم ما كان من منام الملك الدَّالِّ على وقوع سبع سنين من الخصب ، ويعقُبها سبعُ جدب . ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني : يأتيهم الغيث والخِصْبُ والرفاهية

---

(١) أمِهْتُ : نسيتُ . وفي تفسير القرطبي (٩/ ٢٠١) : يُودي بالعقول .
(٢) كذا في أ وب ؛ وقرَّاي : كثير القراءة ، والمراد : القرّاء والعلماء من يهود .
(٣) في المطبوع : ولا طلبَ الخروجَ . وفي « أ » كلمة « الخروج » غير واضحة .

﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعني : ما كانوا يعصرونَه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسُّمْسُم وغيرها ، فعبَّرَ لهم ، وعلى الخير دلَّهم وأرشدَهم إلى ما يعتمدون في حالتيْ خِصْبهم وجَدْبهم ، وما يفعلونه من ادِّخار حبوبِ سنيِّ الخِصْب في السبع الأول في سنبله ، إلا ما يُرصدُ بسبب الأكلِ ، ومن تقليل البذر في سنيِّ الجَدْب في السبع الثانية ، إذ الغالبُ على الظَّنِّ أنه لا يردُّ البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠ ـ ٥٣] . لما أحاطَ الملكُ علماً بكمال علم يُوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه ، أمرَ بإحضاره إلى حضرتِه ، ليكونَ من جملة خاصَّتِه . فلما جاءه الرسولُ بذلك أحبَّ ألا يخرجَ حتى يتبينَ لكلِّ أحد أنه حُبسَ ظلماً وعدواناً ، وأنه بريءُ السَّاحة مما نسبوه إليه بهتاناً ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني : الملك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قيل : معناه إنَّ سيدي العزيز يعلمُ براءتي مما نُسبَ إليَّ . أي : فمر الملكَ فليسألهنَّ : كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهنَّ إيايَ وحثِّهنَّ لي على الأمر الذي ليس برشيدٍ ولا سديدٍ ؟ فلما سُئلنَ عن ذلك اعترفنَ بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ وهي « زليخا » ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : ظهرَ وتبيَّنَ ووضحَ ، والحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبعَ ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي : فيما يقوله من أنه بريء ، وأنه لم يُراودني ، وأنه حُبِسَ ظلماً وعدواناً وزوراً وبهتاناً ، وقوله ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ قيل : إنه من كلام يوسفَ ، أي : إنما طلبتُ تحقيق هذا ، ليعلمَ العزيزُ أني لم أخنْهُ بظهر الغيب . وقيل : إنه من تمام كلام « زليخا » أي : إنما اعترفتُ بهذا ليعلمَ زوجي أني لم أخنْه في نفسِ الأمر ، وإنما كان مُراودةً لم يقع معها فعل فاحشةٍ ، وهذا القولُ هو الذي نصرَه طائفةٌ كثيرةٌ من أئمة المتأخِّرين وغيرهم ، ولم يحكِ ابنُ جرير وابن أبي حاتم سوى الأول .

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف ، وقيل : من كلام « زليخا » وهو مُفرَّع على القوليْن الأوَّلين ، وكونُه من تمام كلام « زليخا » أظهرُ وأنسبُ وأقوى ، والله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : ٥٤ ـ ٥٧] . لما ظهرَ للملك براءةُ عِرْضِه

ونزاهةُ ساحتِه عمَّا كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أي : أجعله من خاصَّتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي . فلما كلَّمه وسمعَ مقالَه ، وتبيَّنَ حالَه ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي : ذو مكانة وأمانة ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلبَ أن يولّيه النظر فيما يتعلق بالأهراء[١] ؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضيّ سبع سنيِّ الخِصْبِ ، لينظرَ فيها بما يرضي الله في خَلْقِه من الاحتياط لهم والرِّفْق بهم ، وأخبر المَلِكَ : إنه حفيظ ، أي : قوي على حفظ ما لديه أمين عليه ، عليمٌ بضبط الأشياء ومصالح الأهراء ، وفي هذا دليلٌ على جواز طلب الولاية لمن علمَ من نفسه الأمانةَ والكفاءة .

وعند أهل الكتاب أنَّ فرعونَ عظَّمَ يوسف عليه السلام جداً وسلَّطَه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتَمه الحريرَ ، وطوَّقَه الذهبَ ، وحملَه على مركبه الثاني ، ونُودي بين يديْه : أنتَ ربٌّ ومُسلَّط . وقال له : لستُ أعظمَ منكَ إلا بالكرسيّ . قالوا : وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثينَ سنة وزوَّجه امرأةً عظيمةَ الشأن .

وحكى الثعالبيُّ[٢] : أنه عزلَ « أطفيرَ » عن وظيفته وولاها يوسف . وقيل : إنه لما مات زوَّجه امرأته « زليخا » فوجدَها عذراءَ ، لأن زوجَها كان لا يأتي النساءَ ، فولدتْ ليوسفَ عليه السلام رجلين ، وهما : « أفرايم » و « منشا » قال : واستوثقَ ليوسفَ مِلْكُ مصرَ ، وعمل فيهم بالعدل ، فأحبَّه الرجال والنساء .

وحُكي أنَّ يوسفَ كان يوم دخلَ على الملك عمرُه ثلاثين سنة ، وأن المَلِكَ خاطبَه بسبعين[٣] لغةً ، وكلُّ[٤] ذلك يُجاوبه بكلِّ لغةٍ منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة[٥] سنه ، فالله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي : بعد السجن والضيق والحَصْر ، صار مطلقَ الرِّكاب بديار مصرَ ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي : أين شاء حلَّ منها مكرَّماً محسوداً معظَّماً ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : هذا كلُّه من جزاء الله وثوابه للمؤمن ، مع ما يدَّخرُ له في آخرتِه من الخير الجزيل والثواب الجميل ، ولهذا قال : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

ويقال : إن « أطفير » زوج « زليخا » كان قد ماتَ ، فولاه الملك مكانَه ، وزوَّجه امرأته « زليخا » فكان وزيرَ صدق .

---

(١) الأهراء : جمع الهُرْي ، وهو بيت ضخم يُجمع فيه طعام السلطان (مخزن أو مستودع) .
(٢) انظر قصص الأنبياء ؛ للثعالبي (ص ١٢٨) .
(٣) هذه من المبالغات التي تتسم بها الحكايا الإسرائيلية ؛ مما يدل على الوضع والكذب فيها .
(٤) في المطبوع : وفي كلِّ .
(٥) كذا في ب ، وفي أ : حذاقة .

وذكر محمد بن إسحاق : أن صاحبَ مصر الوليد بن الريّان أسلم على يديْ يوسف عليه السلام ، فالله أعلم ، وقد قال بعضُهم : [من الطويل]

ووراءَ مضيقِ الخوفِ متّسعُ الأمنِ وأوّلُ مفـروحٍ بـه غـايـةُ الحُـزْنِ
فلا تيأسنْ ، فاللهُ مَلَّكَ يوسفاً خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨ ـ ٦٢] يُخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه[1] إلى الديار المصريّة يمتارون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سنيّ الجَدْب وعمومِها على سائر البلاد والعباد ، وكان يوسفُ عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا ، فلما دخلوا عليه عرفَهم ولم يعرفوه ، لأنهم لم يخطرْ ببالهم ما صارَ إليه يوسفُ عليه السلام من المكانة والعَظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الكتاب : أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأرادَ ألا يعرفوه ، فأغلظَ لهم في القول ، وقال : أنتم جواسيسُ جئتُم لتأخذوا خبرَ بلادي . فقالوا : معاذَ الله ! إنما جئنا نمتارُ[2] لقومنا من الجَهْد والجُوع الذي أصابنا ونحنُ بنو أب واحدٍ من كنعانَ ، ونحنُ اثنا عشرَ رجلاً ، ذهبَ منا واحدٌ ، وصغيرُنا عند أبينا . فقال : لا بُدَّ أن أستعلمَ أمرَكم .

وعندهم : أنه حبسَهم ثلاثةَ أيّام ، ثم أخرجهم ، واحتبسَ شمعونَ عندَه ليأتوه بالأخ الآخر . وفي بعض هذا نظر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي : أعطاهم من الميرة ما جرتْ به عادته في إعطاء كل إنسان حملَ بعير ، لا يزيدُه عليه ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلاً ، فذهبَ منّا واحدٌ وبقيَ شقيقُه عند أبينا ، فقال : إذا قدمتُم من العام المقبل فأْتوني به معكم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ أي : قد أحسنت نزلكم وقِراكم ، فرغّبهم ليأتوه به ، ورهّبهم إن لم يأتوه به قال ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي : فلستُ أعطيكم ميرةً ، ولا أقربُكم بالكُلّيّة ، عكسَ ما أسدى إليهم أولاً ، فاجتهدَ في إحضاره معهم لِيَبُلَّ شوقه منه بالترغيب والترهيب ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنجتهدُ في مجيئه معنا وإتيانِه إليكَ بكلِّ ممكن ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أي : وإنا لقادرون على تحصيله .

---

(١) في المطبوع : عليه السلام .
(٢) نمتار : نجلب الميرة ، وهي الطعام .

ثم أمر فتيانَه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعوَّضون به عن الميرةِ في أمتعتهم من حيثُ لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قيل : أراد أن يردُّوها إذا وجدوها في بلادهم . وقيل : خشيَ ألا يكونَ عندهم ما يرجعون به مرة ثانية . وقيل : تذمَّم[1] أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة . وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرُها . وعند أهل الكتاب أنها كانت صُرراً من وَرِق ، وهو أشبه ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣ ـ ٦٨] .

يذكرُ تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم . وقولهم له : ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ أي : بعد عامنا هذا إن لم تُرسلْ معنا أخانا ، فإن أرسلتَه معنا لم يُمنعْ منَّا ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ أي : أي شيء نُريد وقد رُدَّتْ إلينا بضاعتنا ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي : نمتارُ لهم ونأتيهم بما يُصلحُهم في سَنَتهم ومَحْلهم ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي : في مقابلة ذهاب ولده الآخر ، وكان يعقوبُ عليه السلام أضنَّ شيءٍ بولده « بنيامين » لأنه كان يشمُّ فيه رائحةَ أخيه ، ويتسلَّى به عنه ، و يتعوَّض بسببه منه ، فلهذا قال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي : إلا أن تُغلبوا كلُّكم عن الإتيان به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أكَّد المواثيقَ وقرَّرَ العهودَ ، واحتاطَ لنفسه في ولده ، ولن يُغني حَذَرٌ من قَدَر . ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعثَ الولد العزيز ، ولكنَّ الأقدار لها أحكامٌ ، والربُّ تعالى يُقدِّرُ ما يشاءُ ويختارُ ما يُريد ، ويحكم ما يشاءُ ، وهو الحكيم العليم .

ثم أمرَهم ألَّا يدخلوا المدينةَ من بابٍ واحدٍ ، ولكنْ ليدخلوا من أبوابٍ مُتفرِّقةٍ . قيل : أراد ألَّا يُصيبَهم أحدٌ بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنةً ، وصوراً بديعة ، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسُّدِّي والضَّحَّاك . وقيل : أراد أن يتفرَّقوا لعلَّهم يجدون خبراً ليوسفَ أو يُحدَّثون عنه بأثر ، قاله إبراهيم النخعي ، والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾

(١) تذمَّم : امتنع واستنكف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أنه بعثَ معهم هديَّةً إلى العزيز من الفُستق واللَّوز والصَّنوبر والبُطْم والعسل ، وأخذوا الدراهمَ الأولى وعوضاً آخرَ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩ـ٧٩] .

يذكرُ تعالى ما كانَ من أمرهم حين دخلوا بأخيهم « بنيامين » على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه وإخباره له سرّاً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتمِ ذلك ، وسلاَّه عما كان منهم من الإساءة إليه . ثم احتالَ على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمرَ فتيانه بوضع سقايته ـ وهي التي كان يشربُ بها ، ويكيلُ بها للناس الطعام ـ عن غِرَّته في متاع بنيامين .

ثم أعلمَهم بأنهم قد سرقوا صُواع الملك ، ووعدَهم جُعالةً على ردِّه حِمْلَ بعير ، وضمنه المنادي لهم ، فأقبلوا على من اتَّهمهم بذلك فأنَّبوه وهجَّنوه[1] فيما قاله لهم و ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خِلافَ ما رميتمُونا به من السرقة ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وهذه كانت شريعتهم : أنَّ السارقَ يدفعُ إلى المسروق منه ، ولهذا قالوا : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ، ثم قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ . أي : لولا اعترافُهم بأن جزاءه من وُجد في رَحْله فهو جزاؤه ، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أي : في العلم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ وذلك لأن يوسفَ كان أعلم

(١) هجَّنوه : عابوه ، من هجَّن الأمرَ : إذا قبَّحه وعابه .

منهم وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً ، وإنما فعلَ ما فعلَ عن أمر الله له في ذلك ، لأنه يترتبُ على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه ، فلما عاينوا استخراجَ الصُّواع من حمل بنيامين : ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يعنون يوسفَ . قيل : كان قد سرقَ صنمَ جدِّه أبي أمه فكسرَه . وقيل : كانت عمَّتُه قد علَّقتْ عليه بين ثيابه وهو صغير منطْقَةً كانت لإسحاق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعتْ ، وإنما أرادتْ أن يكونَ عندها وفي حضانتها لمحبَّتها له . وقيل : كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل : غير ذلك فلهذا ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ وهي كلمته بعدها ، وقوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أجابَهم سرّاً لا جهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه في الترفُّق والتعطُّف ، فقالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي : إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء . هذا ما لا نفعله ولا نسمحُ به ، وإنما نأخذُ من وجدْنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف تعرَّفَ إليهم حينئذ ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيِّداً[١] .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٠ ـ ٨٧] .

يقول تعالى مخبراً عنهم : إنهم لما استيأسوا من أخذه منه خَلَصُوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرُهم وهو روبيل ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ لقد أخلفتُم عهدَه وفرَّطتم فيه كما فرَّطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبقَ لي وجهٌ أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لا أزالُ مقيماً هاهنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في القدوم عليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ بأن يقدِّرني على ردِّ أخي إلى أبي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي : أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ

---

(١) كذا في ب : والمطبوع . وفي أ : جداً .

﴿ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ ﴾ أي : فإن هذا الذي أخبرناكَ من أخذهم أخانا لأنَّه سرقَ أمر اشتهرَ بمصر ، وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ ﴾ أي : ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجيّةً له ولا خلقه ، وإنَّما سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل .

قال ابن إسحاق وغيره : لما كان التفريط منهم في « بنيامين » مترتباً على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعضُ السلف : إنَّ من جزاء السيئة السيئة بعدَها ، ثم قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي : بحالي ، وما أنا فيها من فراق الأحبة ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيما يُقدِّره ويفعله ، وله الحِكمةُ البالغة ، والحجّة القاطعة ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ ﴾ أي : أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ذكَّره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرَّكَ ما كان كامناً ، كما قال بعضهم : [من الكامل]

نقِّل فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... مـا الحـبُّ إلا للحبيـبِ الأوّلِ(١)

وقال آخر : [من الطويل]

لقد لامَني عندَ القُبور على البُكا ... رفيقي لتذرافِ الدُّموع السَّوافِكِ(٢)
فقـالَ أتبكـي كـلَّ قَبْـرٍ رأيتَـهُ ... لقبرٍ ثوى بينَ اللِّوى فالدكادكِ(٣)
فقلتُ له إن الأسى يبعثُ الأسى ... فَـدَعْني فهـذا كلّـهُ قبـرُ مـالِـكِ(٤)

وقوله ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾ أي : من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ أي : مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف ، فلما رأى بنوه ما يُقاسيه من الوَجْد وألم الفراق ﴿ قَالُواْ ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ يقولون لا تزالُ تتذكره حتى ينحلَ جسدُك ، وتضعف قوَّتُك ، فلو رَفقْتَ بنفسك كان أولى بك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكو إلى الله عزَّ وجلَّ ، وأعلم أنَّ الله سيجعلُ لي مما أنا فيه فَرَجاً ومخرَجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسفَ لا بُدَّ أن تقعَ ، ولا بُدَّ أن أسجدَ له أنا وأنتم حسبَ ما رأى ، ولهذا قال : ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ثم قال لهم مُحرِّضاً على تطلُّبِ يوسفَ وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ

---

(١) البيت في العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٣/ ٤٧٠) .
(٢) السَّوافك : المنصبّة ، يقال سفكَه : إذا صبَّه وأراقه .
(٣) اللِّوى : ما التوى من الرمل واعوجَّ ، والدَّكادكِ : جمع الدك : وهو ما استوى من الرمل والأرض .
(٤) الأبيات لمتمم بن نُويرة . انظر حماسة أبي تمام (٢/ ٢٩٠) .

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي : لا تيئسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا ييأسُ من رَوْح الله وفَرَجه وما يقدره من المَخْرجِ في المضايق إلا القوم الكافرون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨-٩٣] .

يُخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه ، وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصَّدقة عليهم بردِّ أخيهم « بنيامين » إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي : من الجَدْب وضيق الحال وكثرة العِيال ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أي : ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يُتجاوزَ عنها . قيل : كانت دراهم رديئة . وقيل : قليلة . وقيل : حبّ الصنوبر وحبّ البُطْم ، ونحو ذلك . وعن ابن عباس : كانت خلق الغرائر[1] والحبال ونحو ذلك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ قيل : بقبولها . قاله السُّدِّي . وقيل : برد أخينا إلينا . قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عُيينة : إنما حرمت الصَّدقةُ على نبيِّنا محمد ﷺ ونزعَ بهذه الآية . رواه ابن جرير .

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبقَ عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرَّف إليهم وعطفَ عليهم قائلاً لهم عن أمر ربِّه وربِّهم وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال الذي يعرفون ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ وتعجَّبوا كلَّ العجب ، وقد تردَّدوا إليه مراراً عديدة ، وهم لا يعرفون أنه هو ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتُم معه ما صنعتُم ، وسلفَ من أمركم فيه ما فرَّطتم ، وقوله : ﴿ وهـذا أخي ﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد ، وعملوا في أمرهما من الاحتيال ، ولهذا قال ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ أي : بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا ، وشدة معاقد عِزِّنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربِّنا ، وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا ، وشفقته علينا ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : فضَّلكَ وأعطاكَ ما لم يُعطِنا ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ أي : فيما أسدينا إليكَ ، وهانحن بين يديك ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي : لستُ أُعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ، ثم زادَهم على ذلك فقال ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

---

(١) « الغرائر » : جمع الغرارة ، وهي وعاء من الخيش ونحوه ، يُوضع فيه القمح ونحوه .

ومن زعم أن الوقفَ على قوله لا تثريبَ عليكم ، وابتدأ بقوله ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقوله ضعيف ، والصحيح الأول . ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسدَه ، فيضعوه على عينيْ أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهبَ بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات .

ثم أمرَهم أن يتحمَّلوا بأهلهم أجمعينَ إلى ديار مصرَ ، إلى الخير والدَّعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٤ ـ ٩٨] .

قال عبدُ الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، سمعت ابنَ عبَّاس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ قال : لما خرجتِ العيرُ ، هاجتْ ريحٌ فجاءتْ يعقوبَ بريحِ قميص يوسف ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال : فوجد ريحَه من مسيرة ثمانية أيام[1] . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم : عن أبي سنان ، به . وقال الحسنُ البصري وابن جُريج المكِّي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة .

وقوله ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي : تقولون إنما قلتَ هذا من الفند ، وهو الخَرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جُبير وقتادة : تفندون : تسفهون . وقال مجاهد أيضاً والحسن تهرمون[2] .

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ قال قتادة والسُّدِّي : قالوا له كلمة غليظة . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي : بمجرد ما جاءَ ألقى القميصَ على وجه يعقوبَ ، فرجعَ من فوره بصيراً بعدما كان ضريراً ، وقال لبنيه عند ذلك ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : أعلمُ أنَّ الله سيجمعُ شَمْلي بيوسفَ ، وستقرُّ عيني به ، وسيُريني فيه ومنه ما يسرُّني ، فعند ذلك ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ . طلبوا إليه أن يستغفرَ لهم الله عزَّ وجلَّ عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيَّتهم التوبةُ قبلَ الفعل قيَّضهُم الله للاستغفار عند

(١) أخرجه عبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، كما في الدر المنثور (٤/ ٥٨١) .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٥٨١) .

وقوع ذلك منهم ، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوه وما عليه عوَّلوا قائلاً ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن مسعود ، وإبراهيم التَّيميُّ ، وعمرو بن قيس ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السَّحر[١] . قال ابن جرير : حدَّثني أبو السَّائب ، حدَّثنا ابنُ إدريس ، سمعتُ عبدَ الرحمن بن إسحاق يذكرُ عن مُحارب بن دِثَار ، قال : كان عمٌّ لي[٢] يأتي المسجدَ ، فسمعَ إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبتُ ، وأمرتني فأطعتُ ، وهذا السَّحرُ فاغفرْ لي . قال : فاستمعَ الصوتَ فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسألَ عبدَ الله عن ذلك ، فقال : إنَّ يعقوبَ أخَّرَ بنيه إلى السَّحر بقوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾[٣] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] .

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائلٍ فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له »[٤] .

وقد وردَ في حديثٍ أنَّ يعقوبَ أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة . قال ابن جرير : حدَّثني المثنَّى ، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي ، حدَّثنا الوليد ، أنبأنا ابن جُرَيْج ، عن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ يقولُ : « حتى تأتيَ ليلةُ الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبنيه »[٥] . وهذا غريب من هذا الوجه . وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩-١٠١] .

هذا إخبارٌ عن حال اجتماع المتحابّين بعد الفُرْقة الطويلة التي قيل : إنها ثمانون سنة ، وقيل : ثلاث

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ٣٠٠) .
(٢) كذا في تفسير الطبري (٧/ ٣٠٠) وفي الأصول : عمر ، خطأ ، ومحارب بن دثار توفي سنة ١١٦هـ ، وروى عن جابر وابن عمر . انظر سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٧) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩) .
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٧/ ٣٠٠) .
(٤) أخرجه البخاري (١١٤٥) في التهجد ، ومسلم (٧٥٨) في صلاة المسافرين وقصرها .
(٥) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٠٠) .

وثمانون سنة ، وهما روايتان عن الحسن . وقيل : خمس وثلاثون سنة ، قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غابَ عنه ثماني عشرة سنة . قال : وأهلُ الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة .

وظاهر سياق القصة يُرشد إلى تحديد المدة تقريباً ، فإن المرأة راودتْه وهو شابٌّ ابن سبع عشرة فيما قاله غير واحد ، فامتنع فكان في السجن بضع سنين ، وهي سبع عند عكرمة وغيره . ثم أُخـرج فكانت سنواتُ الخِصْب السبع ، ثم لما أمحل النَّاسُ في السبع البواقي ، جاء إخوتُه يمتارون في السنة الأولى وحدَهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفي الثالثة تعرَّف إليهم وأمرَهم بإحضار أهلهم أجمعين ، فجاؤوا كلُّهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ اجتمع بهما خصوصاً وحدَهما دون إخوته ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ قيل هذا من المقدَّم والمؤخَّر ، تقديرُه : ادخلوا مصرَ وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير ، وهو معذور .

قيل : تلقَّاهما وآواهما في منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ قاله السُّدِّي . ولو قيل : إن الأمرَ لا يحتاجُ إلى هذا أيضاً ، وإنه ضمَّن قوله ادخلوا معنى اسكنوا وأقيموا بها ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوبَ لما وصلَ إلى أرض « جاشر » وهي أرض « بلبيس » خرج يوسف لتلقِّيه ، وكان يعقوبُ قد بعثَ ابنه يهوذا بين يديه مُبشِّراً بقدومه . وعندهم : أنَّ الملك أطلقَ لهم أرضَ « جاشر » يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعَمهم ومواشيهم .

وقد ذكرَ جماعةٌ من المفسِّرين أنه لما أزفَ قدومُ نبيِّ الله يعقوب وهو إسرائيل ، أرادَ يوسفُ أن يخرجَ لتلقِّيه ، فركبَ معه الملكُ وجنودُه خدمةً ليوسف ، وتعظيماً لنبيِّ الله إسرائيل ، وأنه دعا للملك ، وأنَّ الله رفعَ عن أهل مصرَ بقيَّة سنيّ الجَدْب ببركة قدومه إليهم ، فالله أعلم .

وكان جملة منْ قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم، فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود : ثلاثة وستين إنساناً . وقال موسى بن عبيدة : عن محمد بن كعب ، عن عبد الله بن شدَّاد ، كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً . وقال أبو إسحاق ، عن مسروق : دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً . قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمئة ألف مقاتل . وفي نص أهل الكتاب : أنَّهم كانوا سبعين نفساً ، وسمَّوهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قيل : كانت أُمه قد ماتت ، كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : فأحياها الله تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالتُه ليلى ، والخالةُ بمنزل الأم .

وقال ابن جرير[١] وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمِّه إلى يومئذ ، فلا يُعوَّل على نقل أهل الكتاب فيما خالفَه ، وهذا قوي ، والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٧/ ٣٠٢) .

ورفعهما على العرش أي : أجلسهما معه على سريره ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي : سجدَ له الأبوان والإخوة الأحدَ عشر تعظيماً وتكريماً ، وكان هذا مشروعاً لهم ، ولم يزلْ تلك معمولاً به في سائر الشرائع حتَّى حَرُمَ في مِلَّتنا .

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : هذا تعبير ما كنتُ قَصَصْتُه عليكَ من رؤيتي الأحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجدين ، وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ أي : بعد الهمِّ والضِّيق جعلني حاكماً نافذَ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ وجاء بكم من البدو ﴾ أي : البادية وكانوا يسكنون أرضَ العربات من بلاد الخليل ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ أي : فيما كان منهم إليّ من الأمر الذي تقدَّم وسبقَ ذكره . ثم قال ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أي : إذا أراد شيئاً هيَّأ أسبابه ويسَّرها وسهَّلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد ، بل يقدرها ويُيَسِّرها بلطيف صُنْعه وعظيم قُدْرته ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : بجميع الأمور ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب : أن يوسفَ باع أهلَ مصرَ وغيرَهم ، من الطعام الذي كان تحتَ يده ، بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث ، وما يملكونه كله ، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء . ثم أطلقَ لهم أرضهم ، وأعتقَ رقابهم ، على أن يعملوا ويكون خُمُسُ ما يستغلُّون من زَرْعهم وثمارهم للملك ، فصارت سُنَّةَ أهل مصرَ بعده .

وحكى الثعالبيُّ[1] : أنه كان لا يشبعُ في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعانَ ، وأنه إنما كان يأكل أكلةً واحدة نصفَ النهار . قال : فمن ثمَّ اقتدى به الملوكُ في ذلك . قلت : وكان أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبعُ بطنه عام الرمادة حتى ذهبَ الجدْبُ وأتى الخِصْبُ .

قال الشافعي : قال رجلٌ من الأعراب لعمرَ بعدما ذهب عام الرمادة : لقد انجلتْ عنك ، وإنَّك لابن حرَّة .

ثم لما رأى يوسفُ عليه السلام نعمتَه قد تمَّت ، وشملَه قد اجتمعَ ، عرفَ أن هذه الدار لا يُقَرّ بها قرار ، وأنَّ كلَّ شيء فيها ومنْ عليها فان . وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثنى على ربِّه بما هو أهله ، واعترفَ له بعظيم إحسانه وفضله . وسألَ منه وهو خيرُ المسؤولين أن يتوفَّاه ـ أي : حينَ يتوفَّاه ـ على الإسلام ، وأن يُلحقه بعبادِه الصَّالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفَّنا

(١) قصص الأنبياء ؛ للثعالبي (ص ١٢٩) .

مسلمين »[١] . أي : حين تتوفانا .

ويُحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سألَ النبيُّ ﷺ عند احتضاره أن يرفعَ روحَه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصَّالحين من النَّبيِّين والمرسلين ، كما قال : « اللهم في الرفيق الأعلى »[٢] ثلاثاً ، ثم قضى .

ويُحتمل أنَّ يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام مُنْجزاً في صحَّة منه وسلامةٍ ، وأن ذلك كان سائغاً في ملَّتهم وشِرْعتهم ، كما روي عن ابن عباس أنه قال : ما تمنَّى نبيّ قط الموتَ قبل يوسف[٣] .

فأمَّا في شريعتنا فقد نُهي عن الدعاء بالموت إلَّا عند الفتن ، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد[٤] : « وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فتوفَّنا إليكَ غير مفتونين » وفي الحديث الآخر : « ابن آدمَ الموتُ خيرٌ لك من الفِتْنة » وقالت مريم عليها السلام : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] وتمنَّى الموتَ عليُّ بن أبي طالب لما تفاقمتِ الأمورُ ، وعظمتِ الفِتنُ ، واشتدَّ القتالُ ، وكَثُرَ القيلُ والقالُ ، وتمنَّى ذلك البخاريُّ أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتدَّ عليه الحالُ ، ولقيَ من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية : فقد روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما : من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزلَ به ، إما مُحسناً فيزدادُ ، وإما مُسيئاً فلعلَّهُ [أنْ] يَسْتَعْتِبَ ، ولكن ليقلْ اللَّهُمَّ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي ، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي »[٥] والمرادُ بالضُّرِّ هاهنا ما يخصُّ العبدَ في بدنه من مرضٍ ونحوه لا في دينهِ . والظاهرُ أن نبيَّ الله يوسفَ عليه السلام سألَ ذلك إما عند احتضارِه أو إذا كان ذلك أن يكونَ كذلك .

وقد ذكرَ ابنُ إسحاق عن أهل الكتاب : أنَّ يعقوبَ أقام بديار مصر عند يوسف سبعَ عشرة سنة ، ثم توفي عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى يوسفَ عليه السلام أن يُدفنَ عند أبويْه إبراهيم وإسحاق . قال السُّدِّي : فصبرَ ، وسَيَّره إلى بلاد الشام فدفنَه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجدِّه الخليل ، عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمرَ يعقوبَ يوم دخلَ مصرَ مئة وثلاثون سنة . وعندهم : أنه أقام بأرض مصر سبعَ عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مئة وأربعين سنة . هذا نصُّ كتابهم ، وهو غلط إما في النسخة أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسرَ ، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون هذه

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٤) وغيره عن عبيد بن رِفاعة الزُّرَقي رقم (١٥٤٣١). قال الذهبي في السيرة (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠): غريب منكر .

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٧) في المغازي ، ومسلم (٢١٩١) في السلام .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٥٩١) .

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٤٣) والترمذي (٣٢٣٥)، وقال: حسن صحيح. من حديث معاذ.

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٧١) في المرض ، ومسلم (٢٦٨٠) في الذكر والدعاء .

الطريقة هاهنا . وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] يُوصي بنيه بالإخلاص ، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكرَ أهل الكتاب أنَّه أوصى بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، وبشَّرَ يهوذا بخروج نبيٍّ عظيم من نسله تُطيعه الشعوب ، وهو عيسى ابن مريم ، والله أعلم .

وذكروا : أنه لمَّا ماتَ يعقوبُ بكى عليه أهلُ مصرَ سبعين يوماً ، وأمرَ يوسفُ الأطبَّاءَ فطيَّبوه بطيبٍ ومكثَ فيه أربعين يوماً ، ثم استأذن يوسفُ ملكَ مصرَ في الخروج مع أبيه ليدفنَه عند أهله ، فأذنَ له ، وخرجَ معه أكابرُ مصرَ وشيوخُها ، فلما وصلوا « حبرون »[1] دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيمُ الخليل من عفرون بن صخر الحيثي ، فدُفنَ فيها ، وعملوا له سبعة أيام . قالوا : ثم رجعوا إلى بلادهم ، وعزَّى إخوةُ يوسفَ ليوسفَ في أبيهم وترفَّقوا له ، فأكرمهم وأحسنَ منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر .

ثم حضرتْ يوسفَ عليه السلام الوفاةُ ، فأوصى أن يُحملَ معهم إذا خرجوا من مصرَ فيدفن عند آبائه ، فحنَّطوه ووضعُوه في تابوت ، فكان بمصرَ حتى أخرجَه معه موسى عليه السلام ، فدفنَه عند آبائه كما سيأتي .

قالوا : فماتَ وهو ابن مئة سنة وعشر سنين . هذا نصُّهم فيما رأيته ، وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك بن فَضَالة ، عن الحسن : أُلقي يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانينَ سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرينَ سنة ، ومات وهو ابن مئة سنة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصى إلى أخيه يهوذا صلواتُ الله عليه وسلامُه .

* * *

(١) في هامش ب : قال في القاموس : باب الراء فصل الفاء : حبرون ؛ بلد الخليل إبراهيم ﷺ .

قصّة أيوب
عليه السلام

قال ابن إسحاق[(١)] : كان رجلاً من الروم ، وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيس بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب . وقيل : غير ذلك في نسبه .

وحكى ابن عساكر[(٢)] : أنَّ أُمَّه بنت لوط عليه السلام . وقيل[(٣)] : كان أبوه ممن آمنَ بإبراهيم عليه السلام يومَ أُلقي في النار ، فلم تحرْقه ، والمشهور الأول ، لأنه من ذريَّة إبراهيم ، كما قرَّرنا عند قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] الآيات ؛ من أنَّ الصحيحَ أنَّ الضميرَ عائدٌ على إبراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية . فالصحيحُ أنَّه من سُلالة العِيص بن إسحاق ، وامرأتُه قيل : اسمها[(٤)] « ليا » بنت يعقوب . وقيل : « رحمة » بنت أفرائيم ، وقيل : منشا[(٥)] بن يوسف بن يعقوب . وهذا أشهرُ ، فلهذا ذكرناه هاهنا ، ثم نعطفُ بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصَّته إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤] وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤١ ـ ٤٤] .

وروى ابنُ عساكر[(٦)] : من طريق الكلبي ، أنه قال : أوَّلُ نبيٍّ بُعث : إدريس ، ثم نوح ، ثم

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٢٢) .
(٢) تاريخ دمشق (١٠/ ٥٨) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٣٢٢) .
(٤) المصدر السابق (١/ ٣٢٢) .
(٥) ذكره ابن عساكر في تاريخه (١٠/ ٥٨) .
(٦) تاريخ دمشق (١٠/ ٥٨ ـ ٥٩) .

إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم شُعيب ، ثم موسى وهارون ، ثم إلياس ، ثم اليسع ثم عزى بن شوتلح بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، ثم يُونس بن متى من بني يعقوب ، ثم أيوب بن رازح بن آموص بن ليفزتا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم .

وفي بعض هذا الترتيب نظر ، فإن هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح ، وقبل إبراهيم ، والله أعلم.

قال علماء التفسير[١] والتاريخ وغيرهم : كان أيوبُ رجلاً كثيرَ المال من سائر صنوفه وأنواعه ؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البَثْنيَّة[٢] ، من أرض حوران .

وحكى ابن عساكر[٣] : أنها كلَّها كانت له ، وكان له أولاد وأهلون كثير ، فسُلِبَ من ذلك جميعه ، وابتُلي في جسده بأنواع من البلاء ، ولم يبق منه عضو سليمٌ سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عزَّ وجلَّ بهما ، وهو في ذلك كلِّه صابرٌ محتسبٌ ، ذاكرٌ لله عزَّ وجلَّ في ليله ونهاره وصباحِهِ ومسائه .

وطال مَرضُه حتى عافَه الجليسُ ، وأوحش منه الأنيس ، وأُخرجَ من بلده ، وأُلقي على مِزْبلةٍ[٤] خارجَها ، وانقطعَ عنه النَّاسُ ، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجتِهِ كانت ترعى له حقَّه ، وتعرف قديمَ إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردَّد إليه ، فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجتِهِ ، وتقوم بمصلحته ، وضعفَ حالها وقلَّ مالُها حتى كانت تخدمُ النَّاسَ بالأجر لتُطعمه ، وتقومَ بأودِهِ رضي الله عنها وأرضاها ، وهي صابرةٌ معه على ما حلَّ بهما من فِراق المال والولد ، وما يختصُّ بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والحرمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجلُ على حَسْب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه »[٥] . ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً ، حتى أنَّ المثلَ ليضربُ بصبره عليه السلام ، ويُضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٩/ ٥٦) وتاريخه (١/ ٣٢٢) .

(٢) ويقال : البَثنة : قرية من قرى حَوْران ، تقع بين دمشق وأذرعات .

(٣) حكاه ابن عساكر في تاريخه ؛ كما في المختصر (٥/ ١٠٩ ـ ١١١) .

(٤) هذا من الإسرائيليات التي تتعارض مع عصمة يونس عليه السلام وليس في الذكر الحكيم ولا في السنة النبوية ما يُؤيِّدها .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٧٢) عن مصعب بن سعد ، عن أبيه ، والدارمي في سننه (٢٧٨٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٤١) ولم أجده في الصحيح .

وقد رُوي عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبرٌ طويل[١] في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده ، والله أعلم بصحته .

وعن مُجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أوّلَ من أصَابه الجُدريُّ .

وقد اختلفوا في مدَّة بلواه على أقوال ، فزعمَ وَهْبٌ أنه ابتُلي ثلاثَ سنين لا تزيدُ ولا تنقصُ .

وقال أنس : ابتُلي سبعَ سنين وأشهراً ، وأُلقي على مِزْبلة لبني إسرائيل ، تختلف الدوابُّ في جسدِه حتى فرَّج الله عنه ، وعظُمَ له الأجرُ ، وأحسنَ الثناء عليه .

وقال حميد : مكثَ في بلواه ثمانية عشرة سنة .

وقال السُّدِّي : تساقطَ لحمُه حتى لم يبقَ إلا العظم والعصبُ ، فكانت امرأتُه تأتيه بالرَّماد تفرشُه تحتَه ، فلما طال عليه ، قالت : يا أيوبُ لو دعوتَ ربَّك لفرَّجَ عنك ؟ فقال : قد عشتُ سبعينَ سنة صحيحاً ، فهو قليلٌ لله أن أصبرَ له سبعينَ سنة . فجزعتْ من هذا الكلام وكانت تخدمُ النَّاسَ بالأجر وتُطعم أيوب عليه السلام .

ثم إنَّ الناسَ لم يكونوا يستخدمونَها لعلمهم أنَّها امرأةُ أيوبَ ، خوفاً أن ينالَهم من بلائه ، أو تُعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمُها عمدتْ فباعت لبعض بناتِ الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيِّب كثير ، فأتتْ به أيوبَ ، فقال : من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت : خدمتُ به أناساً . فلما كان الغد لم تجد أحداً ، فباعتِ الضفيرة الأخرى بطعامٍ ، فأتتْه به ، فأنكرَه أيضاً ، وحلفَ لا يأكلُه حتى تُخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارَها ، فلما رأى رأسها محلوقاً ، قال في دعائه : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا أبو سلمة ، حدَّثنا جرير بن حازم ، عن عبد الله بن عُبيد بن عُمير ، قال : كان لأيوبَ أخوان ، فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدُهما لصاحبه : لو كان الله علمَ من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزعَ أيوب من قولهما جزعاً لم يجزعْ من شيء قط . قال : اللَّهُمَّ إن كنتَ تعلمُ أني لم أبتْ ليلةً قطُّ شبعاناً وأنا أعلمُ مكانَ جائعٍ فصدِّقني . فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللَّهُمَّ إن كنتَ تعلمُ أني لم يكن لي قميصان قطُّ وأنا أعلمُ مكان عار فصدِّقني ، فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزَّتِكَ ، وخرَّ ساجداً ، فقال : اللَّهُمَّ بعزَّتك لا أرفعُ رأسي أبداً حتى تكشفَ عني ، فما رفعَ رأسَه حتى كشفَ عنه[٢] .

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٥٥ _ ٦٢) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥/ ٦٥٤) .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدَّثنا يونسُ ، عن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد ، عن عقيل ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إن نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضَه القريبُ والبعيد إلَّا رجلين من إخوانه ، كانا من أخصِّ إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : يعلمُ الله لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً ما أذنبَه أحدٌ من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاكَ . قال من ثماني عشر سنة لم يرحمْه ربُّه فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبرِ الرجلُ حتى ذكرَ ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقولُ ، غير أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلمُ أني كنت أمرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأُكفِّر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلَّا في حقّ . قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجعَ ، فلما كان ذاتَ يومٍ أبطأتْ عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانِه أنْ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأتْه ، فتَلقَّته تنظر ، وأقبلَ عليها قد أذهبَ الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأتْه ، قالت : أي باركَ الله فيك ؟ هل رأيتَ نبيّ الله هذا المبتلى ؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو . قال : وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعثَ الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الوَرِقَ حتى فاض » .

هذا لفظ ابن جرير[١] ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في « صحيحه »[٢] عن محمد بن الحسن بن قتيبةَ عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جداً ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم[٣] : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا موسى بن إسماعيل ، حدَّثنا حمَّاد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : وألبسَه الله حُلَّةً من الجنَّة ، فتنحَّى أيوب وجلسَ في ناحية ، وجاءت امرأتُه فلم تعرفْه ، فقالت : يا عبد الله هذا المبتلى الذي كان هاهنا لعل الكلاب ذهبت به ، أو الذئاب ؟ وجعلت تكلمه ساعةً . قال : ولعلَّ أنا أيوب . قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوبُ ، قد ردَّ الله عليّ جسدي .

قال ابن عباس : وردَّ الله عليه مالَه وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم[٤] .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إليه قد رددتُ عليك أهلكَ ومالكَ ومثلَهم معهم ، فاغتسلْ بهذا

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥٩٠) والأندر : البيدر .
(٢) الإحسان (٢٨٩٨) .
(٣) كما في الدر المنثور (٧/ ١٩٢) .
(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٦٩) .

الماء ، فإن فيه شفاءَك ، وقرِّبْ عن صحابتِك قرباناً ، واستغفرْ لهم فإنهم قد عصوني فيكَ . رواه ابن أبي حاتم[١] .

وقال ابن أبي حاتم[٢] : حدَّثنا أبو زرعة ، حدَّثنا عمرو بن مرزوق ، حدَّثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ؛ عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لما عافى الله أيوبَ عليه السلام أمطرَ عليه جراداً من ذهب ، فجعلَ يأخذُ بيده ويجعلُ في ثوبه . قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبعُ ؟ قال : يا ربِّ ومن يشبعُ من رحمتِك » .

وهكذا رواه الإمام أحمد[٣] : عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد ، عن همَّام ، عن قتادة ، به .

ورواه ابن حبَّان في « صحيحه »[٤] : عن محمد بن عبد الله الأزدي ، عن إسحاق بن راهويه ، عن عبد الصمد ، به .

ولم يُخرِّجْه أحدٌ من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أُرسل على أيوب رِجْلٌ[٦] من جراد من ذهب ، فجعلَ يقبضُها في ثوبه ، فقيل : يا أيُّوب ! ألم يَكْفِكَ ما أعطيناكَ ؟ قال : أي ربِّ ! ومن يستغني عن فضلكَ . هذا موقوف ، وقد رُوي عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدَّثنا عبد الرزاق ، حدَّثنا معمر ، عن همَّام بن مُنبِّه ، قال : هذا ما حدَّثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوبُ يغتسلُ عُرْياناً خرَّ عليه جرادٌ من ذهب ، فجعل أيوبُ يحثي في ثوبه ، فناداه ربُّه عزَّ وجلَّ : يا أيوبُ ! ألم أكنْ أغنيتُك عما ترى ؟ قال : بلى أي رب ! ولكن لا غنى لي عن بركتِكَ » .

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق ، به[٨] .

وقوله ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص : ٤٢] أي : اضرب الأرض برجلك ، فامتثلَ ما أمرَ به ، فأنبعَ الله له عيناً باردة الماء ، وأُمرَ أن يغتسلَ فيها ويشربَ منها ، فأذهبَ الله عنه ما كان يجدُه من الألم والأذى والسَّقم ، والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدلَه الله بعد ذلك كلِّه صِحَّةً ظاهرة وباطنةً ، وجمالاً تاماً ،

---

(١) كما في الدر المنثور (٧/١٩٣) .
(٢) كما في الدر المنثور (٧/١٩٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/٥١١) وهو عند الطيالسي في مسنده (ص٣٢٢) .
(٤) الإحسان (٦٢٣٠) .
(٥) في المسند (٢/٢٤٣) .
(٦) الرِّجل : الطائفة العظيمة .
(٧) في المسند (٢/٣١٤) .
(٨) أخرجه البخاري (٣٣٩١) في الأنبياء .

ومالاً كثيراً ، حتى صبَّ له من المال صبّاً ، مطراً عظيماً جراداً من ذهب ، وأخلفَ الله له أهلَه ، كما قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فقيل : أحياهم الله بأعيانهم ، وقيل : آجرَه فيمن سلفَ وعوَّضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكُلِّهم في الدار الآخرة . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي : رفعنا عنه شدَّته ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ رحمةً منا ، ورأفةً وإحساناً ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] أي : تذكرةً لمن ابتُلي ببلاءٍ في جسدِه أو مالِه أو ولدِه ، فله أسوةٌ بنبيِّ الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبرَ واحتسبَ حتّى فرَّجَ الله عنه .

ومنْ فهمَ من هذا اسمَ امرأته ، فقال : هي رحمة ، من هذه الآية ، فقد أبعدَ النُّجعة وأغرقَ النَّزْعَ . وقال الضَّحَّاك ، عن ابن عباس : ردَّ الله إليها شبابَها وزادَها ، حتى ولدتْ له ستةً وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعينَ سنة بأرض الروم ، على دين الحنيفية ، ثم غيَّروا بعدَه دين إبراهيم .

وقوله : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حَلْفه ليضربنَّ امرأته مئة سوطٍ . فقيل : حَلْفُه ذلك لبيعها ضفائرَها . وقيل : لأنه اعترضها الشيطانُ في صورة طبيبٍ يصفُ لها دواءً لأيوب ، فانتبه فأخبرتْه ، فعرفَ أنه الشيطان ، فحلفَ ليضربنها مئة سوط . فلما عافاه الله عزَّ وجلَّ أفتاه أن يأخذَ ضغثاً ـ وهو كالعثكال ـ الذي يجمع الشماريخَ ، فيجمعها كلَّها ويضربها به ضربةً واحدةً ، ويكون هذا مُنزَّلاً منزلة الضرب بمئة سوْطٍ ويبرّ ولا يحنث .

وهذا من الفَرج والمَخْرج لمن اتَّقى اللهَ وأطاعَه ، ولاسيما في حقِّ امرأتِه الصابرةِ المُحتسبةِ المكابدةِ الصِّدِّيقةِ البَارَّة رضي الله عنها .

ولهذا عقَّبَ الله هذه الرخصة ، وعلَّلها بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعملَ كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور ، وتوسَّع آخرون فيها حتى وضعوا كتابَ الحيل في الخَلاص من الأيمان ، وصدَّروه بهذه الآية الكريمة ، وأتَوْا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكرُ طرفاً من ذلك في كتاب « الأحكام »[١] عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكرَ ابنُ جرير[٢] وغيرُه من علماء التاريخ : أنَّ أيوبَ عليه السلام لما تُوفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة . وقيل : إنه عاشَ أكثرَ من ذلك . وقد روى ليثٌ عن مجاهد ما معناه : أنَّ الله يحتجُّ يومَ القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء ، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام على أهلِ البلاء .

---

(١) كتاب « الأحكام » من الكتب التي بدأها ولم يتمَّها الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .
(٢) ذكره ابن جرير في التاريخ (١/ ٣٢٤) .

رواه ابن عساكر[١] بمعناه .

وأنَّه أوصى إلى ولده « حومل »[٢] وقام بالأمر بعده ولده « بشر » بن أيوب ، وهو الذي يزعمُ كثير من الناس أنه ذو الكفل ، فالله أعلم . وماتَ ابنُه هذا وكان نبياً فيما يزعمون ، وكان عمرُه من السنين خمساً وسبعين ، ولنذكر هاهنا قصَّة ذي الكِفْل ، إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام .

***

وهذه قصة ذي الكفل
الذي زعم قومٌ أنَّه ابن أيُّوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ ـ ٤٨] فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء ، أنه نبيٌّ عليه من ربِّه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور .

وقد زعمَ آخرون أنَّه لم يكن نبيّاً وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مُقْسطاً عادلاً . وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وروى ابن جُريج[٣] وابن أبي نَجيح : عن مجاهد : أنه لم يكن نبيّاً وإنما كان رجلاً صالحاً ، وكان قد تكفَّلَ لبني قومه أن يكفيَه أمرَهم ويقضي بينهم بالعدل ، فسُمِّي ذا الكفل[٤] .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم : من طريق داود بن أبي هند : أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفتُ رجلاً على النَّاس يعملُ عليهم في حياتي ، حتى أنظرَ كيف يعملُ ، فجمعَ النَّاسَ ، فقال : منْ يتقبَّلْ لي بثلاث أستخلفْه ؟ يصومُ النهارَ ، ويقومُ اللَّيلَ ، ولا يغضب . قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنتَ تصومُ النَّهارَ ، وتقومُ الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم . قال : فردَّهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكتَ النَّاس ، وقام ذلك الرجل ، فقال : أنا . فاستخلفَه . قال :

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٠/ ٨٢) .
(٢) انظر تاريخ الطبري (١/ ٣٢٥) .
(٣) في المطبوع : ابن جرير .
(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٧١) .

فجعلَ إبليسُ يقولُ للشياطين : عليكم بفلان . فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإيَّاه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينامُ اللَّيلَ والنَّهارَ إلا تلك النومة ، فدقَّ البابَ ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم . قال : فقامَ ففتحَ البابَ ، فجعلَ يقصُّ عليه . فقال : إن بيني وبين قومي خصومةً ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، حتى حضرَ الرَّواح وذهبتِ القائلة ، وقال : إذا رحتُ فأْتني آخذ لك بحقِّك ، فانطلقَ وراح ، فكان في مجلسه فجعلَ ينظرُ هل يرى الشيخ فلم يره ، فقامَ يتبعُه فلما كان الغد جعلَ يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه . فلما رجعَ إلى القائلة فأخذَ مضجعَه ، أتاه فدقَّ البابَ ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتحَ له ، فقال : ألم أقل لك إذا قعدتُ فأْتني ؟ فقال : إنهم أخبثُ قوم ، إذا عرفوا أنَّك قاعدٌ قالوا : نحن نُعطيك حقَّكَ ، وإذا نمتَ جَحدوني . قال : فانطلقْ ، فإذا رحت فأْتني . قال : ففاتته القائلةُ فراحَ ، فجعلَ ينتظر فلا يراه ، وشقَّ عليه النُّعاسُ ، فقال لبعض أهله : لا تدعُنَّ أحداً يقربُ هذا الباب حتى أنام ، فإني قد شقَّ علي النوم . فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل : وراءَك وراءَك . قال : إني قد أتيتُه أمس فذكرتُ له أمري . فقال : لا والله لقد أمرنا ألا ندعَ أحداً يقربه ، فلما أعياه نظر فرأى كوَّةً في البيت ، فتسوَّر منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدقُّ البابَ من داخل . قال : فاستيقظَ الرجل ، فقال : يا فلان ألم آمرك ؟ قال : أما من قبلي والله فلم تُؤْت فانظرْ من أين أُتيت . قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقَه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرَفه ، فقال : أعدوَّ الله ؟ قال : نعم ، أعييتني في كلِّ شيء ، ففعلتُ ما ترى لأغضبنَّك ، فسمَّاه الله ذا الكفل لأنه تكفَّل بأمر فوفَّى به[١] .

وقد روى ابن أبي حاتم[٢] أيضاً عن ابن عبَّاس قريباً من هذا السياق .

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ، ومحمد بن قيس ، وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحوُ هذا .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا أبو الجماهر ، أنبأنا سعيد بن بشير ، حدَّثنا قتادة ، سمعت الأشعري ـ يعني أبا موسى رضي الله عنه وهو على هذا المنبر ـ يقول : ما كان ذو الكفل نبيّاً ، ولكن كان رجلاً صالحاً ، يُصلِّي كلَّ يوم مئة صلاة ، فتكفَّل له ذو الكفل من بعده ، يُصلِّي كلَّ يوم مئة صلاة فسُمِّي ذا الكفل[٣] .

ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : قال أبو موسى الأشعري : فذكره منقطعاً .

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٧١) وابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٥/ ٦٦١) .
(٢) كما في الدر المنثور (٥/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣) .
(٣) المصدر السابق (٥/ ٦٦٤) .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١] : حدَّثنا أسباط بن محمد ، حدَّثنا الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن سعد مولى طلحة ، عن ابن عمر ، قال : سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعْه إلا مرَّةً أو مرتين ، حتى عدَّ سبع مرار ، ولكن قد سمعتهُ أكثرَ من ذلك قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنب عملَه ، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستينَ ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعدَ الرجل من امرأته أرعدتْ وبكت ، فقال لها : ما يُبكيك أكرهتُك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عملٌ لم أعملْه قطُّ ، وإنمـا حملتني عليه الحاجةُ . قال : فتفعلينَ هذا ولم تفعليه قطّ . ثم نزل ، فقال : اذهبي بالدنانير لكِ . ثم قال : والله لا يَعصي الله الكِفْلُ أبداً ، فمـات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل »[٢] .

ورواه الترمذي[٣] من حديث الأعمش به وقال حسن ، وذَكَرَ أن بعضَهم رواه فوقفه على ابن عمر ، فهو حديثٌ غريب جداً . وفي إسناده نظر ، فإن سعداً هذا قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد ، ووثَّقه ابنُ حبَّان ، ولم يروه عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا ، والله أعلم .

[وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل ، وإنما لفظ الحديث : الكفل ، من غير إضافة ، فهو رجلٌ آخر غير المذكور في القرآن ، فالله أعلم][٤] .

* * *

باب ذكر أممٍ أُهلكوا بعامّة

وذلك قبل نزول التوارة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] الآية . كما رواه ابن جرير[٥] وابن أبي حاتم[٦] والبزار[٧] : من حديث عوف الأَعرابي ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : ما أهلكَ الله قوماً بعذابٍ من السَّماء أو من

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٧٢) .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣) رقم (٤٧٤٧) .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٨) في صفة القيامة .
(٤) ما بين الحاصرتين سقط من المطبوع وأثبته من أ وب .
(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٧٦) .
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٦/ ٤١٧) .
(٧) أخرجه البزار (٢٢٤٧ و٢٢٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٨) رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح .

الأرضِ بعدما أُنزلت التوارة على وجه الأرض ، غير القرية التي مُسِخوا قردةً ، ألم ترَ أنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] .

ورفعه البزار في رواية له ، والأشبه والله أعلم وقفه ، فدلَّ على أن كل أمة أُهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام ، فمنهم :

أصحاب الرس :

قال الله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨ ـ ٣٩] . وقال تعالى في سورة قٓ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ ـ ١٤] وهذا السياق والذي قبلَه يدلُّ على أنهم أُهلكوا ودُمِّروا وتُبِّرُوا ، وهو الهلاك .

وهذا يردُّ اختيارَ ابن جرير[١] من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذُكروا في سورة البروج ، لأنَّ أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعدَ المسيح عليه السلام ، وفيه نظر أيضاً .

وروى ابن جريج قال : قال ابن عباس : أصحابُ الرَّسِّ أهلُ قريةٍ من قُرى ثمودَ[٢] .

وقد ذكرَ الحافظُ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق[٣] ، عن تاريخ أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة وغيره ؛ أنَّ أصحابَ الرَّسِّ كانوا بحَضُور[٤] ، فبعثَ الله إليهم نبياً يُقال له : حنظلة بن صفوان ، فكذَّبوه وقتلوه ، فسارَ عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرسِّ ، فنزلَ الأحقاف ، وأهلكَ الله أصحابَ الرَّسِّ ، وانتشروا إلى اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك في الأرضِ كلِّها ، حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق ، وبنى مدينتها وسمَّاها جيرون ، وهي إرم ذات العماد ، وليس أعمدة الحجارة في موضعٍ أكثر منها بدمشق ، فبعثَ الله هودَ بن عبد الله بن رَباح بن خالد بن الخلود بن عاد إلى عاد ، يعني أولاد عاد بالأحقاف ، فكذَّبوه ، وأهلكهم الله عزَّ وجلَّ ، فهذا يقتضي أنَّ أصحابَ الرسِّ قبلَ عادٍ بدهور متطاولة ، فالله أعلم .

وروى ابن أبي حاتم : عن أبي بكر بن أبي عاصم ، عن أبيه ، عن شَبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : الرَّسُّ بئر بأذربيجان .

---

(١) ذكره ابن جرير في التفسير (١١/ ٤١٢) .

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٣٩٠) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٥٦) .

(٣) تاريخ دمشق (١/ ١٢) .

(٤) بلدة باليمن من أعمال زَبيد قيدها ياقوت في معجم البلدان وابن عبد الحق في مراصد الاطلاع، قال: بالفتح ثم الضم وسكون الواو وراء .

وقال الثوري : عن أبي بكر ، عن عكرمة ، قال : الرَّسُّ بئر رسُّوا فيها نبيّهم ، أي : دفنوه فيها .

وقال ابن جُرَيْج : قال عكرمة : أصحابُ الرَّسِّ بفَلَج ، وهم أصحاب يسٓ .

وقال قتادة : فَلَج : من قرى اليمامة .

قلت : فإن كانوا أصحاب يسٓ كما زعمَه عكرمة ، فقد أُهلكوا بعامَّة ، قال الله تعالى في قصتهم : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس : ٢٩] وستأتي قصَّتُهم بعد هؤلاء ، وإن كانوا غيرَهم ـ وهو الظاهر ـ فقد أُهلكوا أيضاً وتُبِّروا . وعلى كلِّ تقديرٍ فيُنافي ما ذكرَه ابن جرير .

وقد ذكرَ أبو بكر محمد بن الحسن النَّقَّاش : أنَّ أصحابَ الرَّسِّ كانت لهم بئر ترويهم ، وتكفي أرضَهم جميعها ، وكان لهم مَلِكٌ عادلٌ حَسَنُ السِّيرة ، فلما ماتَ وجدوا عليه وَجْداً عظيماً ، فلما كان بعد أيام تصوَّر لهم الشيطان في صورته ، وقال : إني لم أمتْ ، ولكنْ تغيَّبتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم ، ففرحوا أشدَّ الفَرح ، وأمر بضربِ حجابٍ بينهم وبينَه ، وأخبرَهم أنَّه لا يموتُ أبداً ، فصدَّق به أكثرُهم ، وافتتنوا به وعبدوه ، فبعثَ الله فيهم نبيّاً وأخبرَهم أنَّ هذا شيطانٌ يُخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادِته وأمرهم بعبادة الله وحدَه لا شريك له .

قال السهيلي : وكان يُوحى إليه في النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلُوه وألقَوه في البئر ، فغارَ ماؤُها ، وعطشوا بعد ريِّهم ، ويَبِسَتْ أشجارُهم ، وانقطعتْ ثمارُهم ، وخربت ديارُهم ، وتبدّلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم وسكنَ في مساكنهم الجنُّ والوحوش ، فلا يُسمع ببقاعهم إلا عزيف الجنِّ وزئير الأسود ، وصوتُ الضِّباع .

فأما ما رواه ـ أعني ابن جرير ـ عن محمد بن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أوَّل الناس يدخل الجنَّة يوم القيامة العبدُ الأسود » . وذلكَ أنَّ الله تعالى بعثَ نبيّاً إلى أهل قرية ، فلم يؤمنْ به من أهلها إلا ذلك الأسود .

ثم إنَّ أهلَ القرية عَدَوْا على النبيِّ فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصمّ . قال : فكان ذلك العبدُ يذهبُ فيحتطبُ على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ، ويُعينه الله عليها ، ويُدلِّي إليه طعامه وشرابه ، ثم يردُّها كما كانت . قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون .

ثم إنه ذهبَ يوماً يحتطبُ كما كان يصنعُ ، فجمعَ حطبَه ، وحزمَ حِزمته ، وفرغَ منها ، فلما أراد أن يحملها وجد سنةً ، فاضطجعَ ينامُ ، فضربَ الله على أذنه سبعَ سنين نائماً ، ثمّ إنَّه هبَّ فتمطَّى ، وتحوَّل لشقِّه الآخر ، فاضطجعَ فضربَ الله على أذنه سبعَ سنين أخرى ، ثم إنَّه هبَّ واحتملَ حزمته ولا يحسبُ أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباعَ حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهبَ

إلى الحفرة ، إلى موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسَه فلم يجدْه ، وقد كان بدا لقومه فيه بِدَاءٌ ، فاستخرجُوه وآمنوا به وصدَّقوه . قال : فكان نبيُّهم يسألُهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندري حتّى قبضَ الله النبيَّ عليه السلام ، وأهبَّ الأسودُ من نومه بعد ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ ذلك الأسود لأوَّل من يدخل الجنَّة »(١) ، فإنَّه حديثٌ مرسلٌ ، ومثله فيه نظر . ولعلَّ بَسْطَ قِصَّته من كلام محمد بن كعب القرظي ، والله أعلم .

ثم قد ردَّه ابن جرير(٢) نفسه ، وقال : لا يجوز أن يُحملَ هؤلاء على أنهم أصحابُ الرسِّ المذكورون في القرآن . قال : لأن الله أخبرَ عن أصحاب الرَّسِّ أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيِّهم ، اللَّهُمَّ إلا أن يكونَ حدثت لهم أحداثٌ آمنوا بالنبيِّ بعد هلاك آبائهم ، والله أعلم .

ثم اختارَ أنَّهم أصحابُ الأخدود(٣) ، وهو ضعيفٌ لما تقدم ، ولما ذُكرَ في قصَّة أصحاب الأخدود حيث تُوعِّدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكرْ هلاكَهم ، وقد صرَّح بهلاك أصحاب الرَّسِّ ، والله أعلم .

***

ومنهم أصحابُ القرية أصحاب يسٓ

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس : ١٣ـ٢٩] .

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب القرظي (٩/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٩/ ٣٩١) .

(٣) المصدر السابق (٩/ ٣٩١) .

اشتُهر عن كثير من السلف والخلف ؛ أنَّ هذه القرية « أنطاكية » رواه ابن إسحاق[١] ، فيما بلغَه عن ابن عبَّاس ، وكعب الأحبار ، وَوَهْبِ بن مُنَبِّه ، وكذا رُوي عن بُريدة بن الحصيب ، وعكرمة ، وقتادة ، والزُّهْري وغيرهم ، قال ابن إسحاق ، فيما بلغه عن ابن عبَّاس وكعب ووهْب أنهم قالوا : وكان لها مَلِكٌ اسمُه « أنطيخس »[٢] بن أنطيخس ، وكان يعبدُ الأصنامَ ، فبعثَ الله إليه ثلاثاً من الرسل ، وهم : صادق ، وصدوق ، وشلوم ، فكذَّبهم .

وهذا ظاهرٌ أنهم رسلٌ من الله عزَّ وجلَّ ، وزعمَ قتادة[٣] أنهم كانوا رسلاً من المسيح .

وكذا قال ابن جرير[٤] : عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجُبَّائي : كان اسم المرسلين الأوَّليين : شمعون ، و يوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيفٌ جداً ؛ لأن أهل « أنطاكية » لما بعثَ إليهم المسيحُ ثلاثةً من الحواريِّينَ كانوا أوَّلَ مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركةُ النَّصارى وهن : أنطاكية ، والقدس ، وإسكندرية ، ورومية . ثم بعدها إلى القسطنطينية ، ولم يهلكوا ، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أُهلكوا كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس : ٢٩] لكنْ إن كانت الرسلُ الثلاثة المذكورون في القرآن بُعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذَّبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمُرتْ بعد ذلك ؛ فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ، فلا يمنع هذا ، والله أعلم .

فأما القولُ بأن هذه القصَّة المذكورة في القرآن هي قصَّةُ أصحاب المسيح ، فضعيف لما تقدَّم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعني المدينة ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي : أيدناهما بثالث في الرسالة ﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فردُّوا عليهم بأنَّهم بشرٌ مثلُهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم يستبعدونَ أنْ يبعثَ الله نبياً بشرياً ، فأجابوهم بأن الله يعلمُ أنَّا رسلُه إليكم ، ولو كنَّا كذَّبنا عليه لعاقبَنا وانتقم منَّا أشدَّ الانتقام ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : إنما علينا أن نُبلِّغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله هو الذي يَهدي منْ يشاءُ ويُضلُّ منْ يشاء ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : تشاءمنا بما جئتمونا به ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قيل :

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٤٣١) والتاريخ (٢/ ١٨) .

(٢) في تفسير الطبري : أبطيحس بن أبطيحس ، وفي التاريخ (٢/ ١٨) كما في أصولنا .

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٤٣١) .

(٤) لم أجده في التاريخ والتفسير ؛ لابن جرير ، وإنما هو لابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٧/ ٥٠) .

بالمقال ، وقيل : بالفعال ، ويؤيِّد الأوّلَ قوله : ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فوعدُوهم بالقتل والإهانة . ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي : مردودٌ عليكم ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي : بسبب أنَّا ذكَّرناكم بالهدى ، ودعوناكم إليه تَوعَّدْتُمونا بالقتل والإهانة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ يعني لنصرة الرُّسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : يدعونكم إلى الحقِّ المَحْضِ بلا أجرة ولا جُعالة ، ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريكَ له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفعُ شيئاً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إن تركتُ عبادة الله وعبدتُ معه ما سواه . ثم قال مخاطباً للرسل : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قيل : فاسمعوا مَقالتي واشهدوا لي بها عندَ ربِّكم . . وقيل : معناه : فاسمعوا يا قومي إيماني برسُلِ الله جهرةً . فعند ذلك قتلوه ، قيل : رجماً ، وقيل : عضّاً . وقيل : وثبوا إليه وثبةَ رجُلٍ واحدٍ فقتلُوه . وحكى ابن إسحاق : عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود ، قال : وَطِئوه بأرجلهم حتَّى أخرجوا قُصْبَهُ[1] .

وقد روى الثوري[2] : عن عاصم الأحول ، عن أبي مَجْلز ، كان اسمُ هذا الرجل حبيب بن مُرِّي . ثم قيل : كان نجّاراً . وقيل : حبّالاً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصّاراً . وقيل : كان يتعبَّدُ في غار هناك ، فالله أعلم .

وعن ابن عبَّاس[3] : كان حبيبُ النَّجّارُ قد أسرعَ فيه الجُذام ، و كان كثيرَ الصَّدقة ، قتلَه قومه . ولهذا قال تعالى : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ يعني لما قتله قومُه أدخلَه الله الجنَّة ، فلما رأى فيها من النُّضْرة والسرور ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنتُ به ، فيحصل لهم ما حصلَ لي .

قال ابن عباس : نصحَ قومه في حياته ﴿ يا قومِ اتَّبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته (يا ليتَ قومي يعلمون بما غفرَ لي ربي وجعلني من المكرمين) رواه ابن أبي حاتم[4] .

وكذلك قال قتادة[5] : لا يُلقى المؤمنُ إلا ناصحاً ، لا يُلقى غاشًّا لما عاين من كرامة الله . ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنَّى والله أن يعلمَ قومه بما عاينَ من كرامة الله ، وما هو عليه . قال قتادة : فلا والله ما عاتبَ الله قومَه بعد قتله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ وقوله

---

(١) « أخرجوا قصْبَه » : أمعاءَه . وانظر تفسير الطبري (١٠/٤٣٦) .
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/٤٣٣) .
(٣) المصدر السابق (١٠/٤٣٣ـ٤٣٤) .
(٤) كما في الدر المنثور (٧/٥١) .
(٥) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/٤٣٦) .

تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي : ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جُنْدٍ من السماء عليهم ، هذا معنى ما رواه ابن إسحاق[1] : عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود .

وقال مجاهد وقتادة : وما أنزلَ عليهم جُنْداً ، أي : رسالةً أخرى . قال ابن جرير[2] : والأوَّلُ أولى . قلت : وأقوى . ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي : وما كنا نحتاجُ في الانتقام إلى هذا حين كذَّبوا رسلنا ، وقتلوا وَليَّنا ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ .

قال المفسرون : بعثَ الله إليهم جبريلَ عليه السلام ، فأخذَ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ، ثم صاحَ بهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون ، أي : قد أُخمدتْ أصواتُهم ، وسكنتْ حركاتُهم ، ولم يبق منهم عينٌ تَطْرُفُ .

وهذا كلُّه مما يدلُّ على أن هذه القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أُهلكوا بتكذيبهم رسلَ الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتَّبعوا رسلَ المسيح من الحواريِّين إليهم ، فلهذا قيل : إن أنطاكية أوَّلُ مدينة آمنتْ بالمسيح .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني : من حديث حسين الأشقر ، عن سُفيان بن عُيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مُجاهد ، عن ابن عبَّاس ، عن النبي ﷺ قال : « السَّبْقُ ثلاثة : فالسابق إلى موسى يُوشع بن نون ، والسابقُ إلى عيسى صاحب يسٓ ، والسابق إلى محمد عليٌّ بن أبي طالب »[3] فإنه حديث لا يثبتُ ، لأن حُسيناً هذا متروك وشيعيٌّ من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدلُّ على ضعفه بالكليَّة ، والله أعلم .

***

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٤٣٧) .
(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٤٣٧) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١١١٥٢) .

قصة يونس
عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٨] . وقال تعالى في سورة نون : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم : ٤٨ ـ ٥٠] .

قال علماءُ التفسير : بعثَ الله يونسَ عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض المَوْصل ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، فكذَّبوه وتمرَّدوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم ، خرج من بين أظهرِهم ، ووعدَهم حلولَ العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرجَ من بين ظهرانيهم وتحقَّقوا نزولَ العذاب بهم قذفَ الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوحَ ، وفرَّقوا بين كلِّ بهيمةٍ وولدها ، ثم عجُّوا[1] إلى الله عزَّ وجلَّ ، وصرَخوا وتضرَّعوا إليه ، وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجالُ والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجأرت الأنعام والدوابُّ والمواشي ، فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة .

فكشفَ الله العظيمُ بحوله وقوَّته ورأفتِه ورحمتِه عنهم العذابَ الذي كان قد اتَّصَلَ بهم بسببه ، و دار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ [يونس : ٩٨] أي : هلا وجدت فيما سلف من القرون قريةً آمنت بكمالها ، فدلَّ على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال

---

(١) عجُّوا بالدعاء : تضرَّعوا ورفعوا أصواتهم به .

تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] . وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] أي آمنوا بكمالهم .

وقد اختلفَ المفسرون هل ينفعُهم هذا الإيمان في الدار الآخرة ، فينُقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذَهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين : الأظهرُ من السياق نعم والله أعلم ، كما قال تعالى : ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٤٧ ـ ١٤٨] وهذا المتاعُ إلى حين ، لا ينفي أن يكونَ معه غيرُه من رفع العذاب الأخرويّ ، والله أعلم .

وقد كانوا مئة ألف لا محالة ، واختلفوا في الزيادة ، فعن مكحول[١] عشرة آلاف .

وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم : من حديث زهير ، عمن سمع أبا العالية ، حدَّثني أبيّ بن كعب : أنه سألَ رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٧] قال : « يزيدون عشرين ألفاً »[٢] . فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

وعن ابن عباس : كانوا مئة ألف وثلاثين ألفاً . وعنه : وبضعة وثلاثين ألفاً . وعنه : وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مئة ألف وسبعين ألفاً[٣] .

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ، أو هما أُمَّتان ؟ على ثلاثة أقوال ، هي مبسوطة في التفسير[٤] .

والمقصودُ أنَّه عليه السلام لما ذهبَ مُغاضباً بسبب قومِه ، ركبَ سفينةً في البحر فلجَّت[٥] بهم واضطربتْ وماجتْ بهم وثَقُلتْ بما فيها ، وكادُوا يغرقونَ على ما ذكره المفسرون . قالوا : فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخفَّفوا[٦] منه . فلما أقرعوا[٧] وقعت القرعة على نبيِّ الله يونس ، فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانيةً فوقعت عليه أيضاً ، فشمَّر[٨] ليخلعَ ثيابه ويُلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٣٢) .
(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩) في التفسير ، وابن جرير في التفسير (١٠/ ٥٣٢) .
(٣) انظر أقوال ابن عباس وسعيد بن جُبير في تفسير الطبري (١٠/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠) .
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨) .
(٥) فلجَّتْ : خاضت اللجة ، ووصلت إلى الأعماق .
(٦) في المطبوع : ليتحفظوا ، وهو تحريف .
(٧) في المطبوع : فاقترعوا .
(٨) في بعض النسخ : فتشمَّر .

ثم أعادوا القرعةَ ثالثةً فوقعتْ عليه أيضاً ، لما يُريده الله به من الأمر العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٢] . وذلك أنه لما وقعتْ عليه القُرْعة أُلقيَ في البحر ، وبعثَ الله عزَّ وجلَّ حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمَه ، وأمره الله تعالى ألَّا يأكلَ له لحماً ولا يهشمَ له عظماً ، فليس لك برزقٍ ، فأخذه فطافَ به البحار كلَّها . وقيل : إنه ابتلعَ ذلك الحوتَ حوتٌ آخرُ أكبر منه .

قالوا : ولما استقرَّ في جَوْفِ الحوت حَسِبَ أنَّه قد ماتَ ، فحرَّكَ جوارحَه فتحرَّكتْ ، فإذا هو حيٌّ ، فخرَّ لله ساجداً ، وقال : يا ربِّ اتَّخذتُ لك مسجداً [في موضع][1] لم يعبدْكَ أحدٌ في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار[2] لُبْثِه في بطنه ، فقال مجالدٌ عن الشعبي : التقمه ضُحىً ولفظه عشيَّةً . وقال قتادة : مكث فيه ثلاثاً . وقال جعفر الصادق : سبعة أيام . ويشهدُ له شعر أُميَّة بن أبي الصلت : [من الطويل]

وأنتَ بفضلٍ منكَ نجَّيت يُونُساً وقدْ باتَ في أضعافِ حُوتٍ لياليا[3]

وقال سعيدُ بن أبي الحسن ، وأبو مالك : مكثَ في جوفه أربعينَ يوماً . والله أعلمُ كم مقدار ما لبثَ فيه .

والمقصود أنَّه لما جعل الحوتُ يطوفُ به في قرار البحار ، ويقتحمُ به لُجج المَوْجِ الأجاجيّ ، فسمعَ تسبيح الحِيتان للرحمن ، وحتى سمعَ تسبيحَ الحصى لفالق الحَبِّ والنَّوى وربِّ السموات السبع والأرضين السبع ، وما بينهما وما تحتَ الثرى . فعندَ ذلك وهنالكَ قال ما قال بلسان الحال والمقَال ، كما أخبرَ عنه ذو العِزَّة والجلال ، الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضرَّ والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفتْ ، وعالم الخفيَّات وإن دقَّت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين وربّ العالمين وإله المرسلين : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ إلى أهله ﴿ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] فظنَّ أن لن نقدر عليه : أن نضيق ، وقيل معناه : نقدر من التقدير ، وهي لغة مشهورة قدر وقدّر ، كما قال الشاعر : [من الطويل]

فلا عائدٌ ذاك الزمانُ الذي مضى تباركْتَ ، ما يُقدَرْ يكُنْ ، فلَكَ الأمرُ

﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عبَّاس ، وعمرو بن ميمون ، وسعيد بن جُبير ،

(١) زيادة من المطبوع والدر المنثور (٧/ ١٢٧) .
(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٠/ ٥٢٩) والدر المنثور (٧/ ١٢٧) .
(٣) أضعاف حُوتٍ : جوفه .

ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل[١] . وقال سالم بن أبي الجعد : ابتلعَ الحوتَ حوتٌ آخر فصارتا : ظلمة الحُوتين مع ظُلْمة البحر[٢] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ ـ ١٤٤] قيل : معناه لولا أنه سبَّح اللهَ هنالك وقالَ ما قالَ من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه ، للبث هنالك إلى يوم القيامة ، ولبُعثَ من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ما رُوي عن سعيد بن جبير[٣] في إحدى الروايتين عنه ، وقيل : معناه ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي : المطيعين المصلِّين الذاكرينَ الله كثيراً ، قاله : الضَّحاكُ بن قيس ، وابن عبَّاس ، وأبو العالية ، ووهْبُ بن مُنبِّه ، وسعيد بن جبير ، والضَّحاك ، والسُّدِّي ، وعطاء بن السَّائب ، والحسن البصري ، وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير[٤] .

ويشهدُ لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن : عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال لي : « يا غلام إنِّي مُعلِّمكَ كلماتٍ : احفظ الله يحفظْكَ ، احفظِ الله تجدْه تُجاهَكَ ، تعرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يعْرفكَ في الشِّدَّة »[٥] .

وروى ابنُ جرير في تفسيره ، والبزَّار في مسنده ، من حديث محمد بن إسحاق ، عمن حدَّثه ، عن عبد الله بن رافع مولى أُمِّ سلمة ، سمعتُ أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أرادَ الله حبسَ يونسَ في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ، ولا تخدشْ لحماً ، ولا تكسرْ عظماً . فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمعَ يونسُ حسَّاً ، فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوتِ : إن هذا تسبيح دوابِّ البحر . قال : فسبَّح وهو في بطن الحوت ، فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه ، فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يُونس عصاني ، فحبستُه في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبدُ الصَّالحُ الذي كان يصعدُ إليك منه في كلِّ يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحُوتَ فقذَفه في السَّاحل ، كما قال الله : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ » .

هذا لفظ ابن جرير[٦] إسناداً ومتناً .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٩/ ٧٦ ـ ٧٧) .
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٧٧) .
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٥٢٩) .
(٤) المصدر السابق (١٠/ ٥٢٩) .
(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٠٧) والترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة ، وهو حديث صحيح .
(٦) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٧٧ ـ ٧٨) .

ثم قال البزّار[١] : لا نعلمه يُروى عن النبيِّ إلا بهذا الإسناد ، كذا قال .

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن أخي ابن وَهْب ، حدَّثنا عمِّي ، حدَّثني أبو صخر ؛ أن يزيدَ الرقاشيّ حدَّثه ، سمعت أنسَ بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أن يونسَ النبيَّ عليه السلام حين بدا له أن يدعوَ بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت ، قال : اللهم ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] فأقبلتِ الدعوةُ تحنّ بالعرش ، فقالت الملائكة : يا ربِّ ! صوتٌ ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : يا ربِّ ومن هو ؟ قال : عبدي يُونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم يزلْ ترفع له عملاً متقبلاً ، ودعوة مجابة ، قالوا : يا ربَّنا أو لا ترحم ما كان يصنعُه في الرخاء فتُنجيه من البلاء ؟ قال : بلى فأمرَ الحوتَ فطرحَه في العراء[٢] .

ورواه ابن جرير[٣] : عن يونسَ ، عن ابن وَهْب ، به .

زاد ابن أبي حاتم[٤] : قال أبو صخر حميد بن زياد : فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدِّثه هذا الحديث ، أنه سمع أبا هريرة يقول : طُرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة [قلنا : يا أبا هريرة وما اليقطينةُ ؟][٥] قال شجرة الدُّبَّاء . قال أبو هريرة : وهيَّأ الله له أرويةً[٦] وحشيَّةً ، تأكلُ من خشَاش الأرض ـ أو قال : هشاش الأرض ـ قال : فتفشخُ[٧] عليه ، فترويه من لبنها كل عشيَّة وبكرة ، حتى نبتَ .

وقال أميَّةُ بن أبي الصَّلْتِ في ذلك بيتاً من شعره : [من الطويل]

فأنبَتَ يقطيناً عليهِ برحمةٍ مِنَ اللهِ لولا اللهُ أصبحَ ضاوياً[٨]

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه ، ويزيد الرَّقاشيّ ضعيف ، ولكنْ يتقوَّى بحديث أبي هريرة المتقدّم ، كما يتقوَّى ذاك بهذا ، والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ ﴾ أي : ألقيناه (بالعَراء) وهو المكان القَفْر الذي ليس فيه شيءٌ من الأشجار ، بل هو عارٍ منها ﴿ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴾ أي : ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهيئة الفَرْخ ، ليس

---

(١) كما في كشف الأستار (٢٢٥٤) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٩٨) وقال : رواه البزار عن بعض أصحابه ، ولم يُسمِّه ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٥/٦٦٨) .

(٣) في التفسير (٩/٧٦) .

(٤) أخرجه ابن جرير كما في الدر المنثور (٧/١٣٠) .

(٥) ما بين حاصرتين أثبته من ب .

(٦) أروية : في هامش ب . قال الجلال السيوطي في مختصر النهاية : الأروية : هي الأيائل ، وقيل : غنم الجبل .

(٧) فتفشخ : تقف فوقه ، وتباعد بين رجليها .

(٨) في الدر المنثور « ألقى ضاحياً » ومعنى : ضاوياً : هزيلاً .

عليه ريش . وقال ابن عبَّاس[١] والسُّدِّي وابنُ زيد : كهيئة الصَّبيّ حين يُولد وهو المنفوس ليس عليه شيء ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عبَّاس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبير ، ووهْب بن منبه ، وهلال بن يساف ، وعبد الله بن طاووس ، والسُّدِّي ، وقتادة ، والضَّحَّاك ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد : هو القَرْع[٢] .

قال بعض العلماء : في إنبات القَرْع عليه حِكم جَمَّة : منها : أن ورقه في غاية النعومة ، وكثير وظليل ، ولا يقربه ذبابٌ ، ويُؤكل ثمرُه من أوَّل طلوعه إلى آخره نِيئاً ومطبوخاً ، وبقشره وببزره أيضاً . وفيه نفع كثير وتقوية للدِّماغ وغير ذلك .

وتقدَّم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت تُرضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرةً وعشيَّةً . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ أي : الكرب والضِّيق الذي كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي : وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجارَ بنا .

قال ابن جرير[٣] : حدَّثني عمران بن بكَّار الكُلاعي ، حدَّثنا يحيى بن صالح ، حدَّثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدَّثني بشر بن منصور ، عن عليِّ بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : سمعتُ سعدَ بن مالك ، ـ وهو ابن أبي وقَّاص ـ يقول : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دُعي به أجابَ ، وإذا سُئل به أَعْطى ؛ دعوةُ يونسَ بن متَّى » ، قال : فقلت : يا رسولَ الله ! هي ليونسَ خاصَّة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هي ليونسَ بن متَّى خاصَّة ، وللمؤمنين عامَّة إذا دَعَوْا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] فهو شرطٌ من الله لمن دعاه به » .

وقال ابن أبي حاتم[٤] : حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ ، حدَّثنا أبو خالد الأحمر ، عن كثير بن زيد ، عن المطلب بن حَنْطَب ، قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب ، يعني ابن سعد ، عن سعدٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « منْ دَعا بدعاءِ يُونس استجيبَ له » قال أبو سعيد الأشجُّ : يُريد به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسنُ منهما :

قال الإمام أحمد[٥] : حدَّثنا إسماعيل بن عمر ، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق الهَمْداني ، حدَّثنا

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥٢٩) .
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥٣٠) ، والدر المنثور (٧/ ١٣٠) .
(٣) في التفسير (٩/ ٧٨) .
(٤) كما في الدر المنثور (٥/ ١٧) .
(٥) في المسند (١/ ١٧٠) .

إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدَّثني والدي محمد ، عن أبيه سعد ـ وهو ابن أبي وقَّاص ـ قال : مررتُ بعثمانَ بن عفَّان في المسجد ، فسلَّمتُ عليه ، فملأ عينيه منِّي ثم لم يردَّ عليّ السلام ، فأتيتُ عمرَ بن الخطَّاب ، فقلت : يا أمير المؤمنين : هل حدثَ في السلام شيءٌ ؟ قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أني مررتُ بعثمان آنفاً في المسجد فسلَّمت عليه ، فملأ عينيْه منِّي ثم لم يردّ عليّ السلام . قال : فأرسلَ عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعكَ ألا تكونَ رددتَ على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلتُ ، قال سعد : قلت : بلى ، حتى حلفَ وحلفتُ ، قال : ثم إنَّ عثمانَ ذكرَ فقال : بلى ، وأستغفرُ الله وأتوبُ إليه . إنك مررتَ بي آنفاً ، وأنا أُحدِّث نفسي بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ : لا والله ما ذكرتُها قط إلا تغشَّى بصري وقلبي غشاوة . قال سعد : فأنا أُنبئك بها ، إنَّ رسول الله ﷺ ذكرَ لنا أوَّلَ دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغلَه حتى قام رسول الله ﷺ فاتَّبعتُه ، فلما أشفقتُ أن يَسبقني إلى منزله ضربتُ بقدمي الأرضَ ، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ فقال : « منْ هذا ؟ أبو إسحاق » قال : قلت : نعم يا رسول الله ! قال : « فمه ؟ » قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابيُّ فشغلكَ ، قال : « نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيء قطُّ إلا استجابَ له » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به[١] .

***

ذكر
فضل يونس ـ عليه السلام ـ

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٩] وذكرَه تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدَّثنا وكيع ، حدَّثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : « لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ أنا خير من يُونس بن متَّى » .

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به[٣] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) في الدعوات ، والنسائي (٦٥٦) في عمل اليوم والليلة ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥) و(٢/ ٣٨٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) في المسند (١/ ٣٩٠) وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٤) في التفسير .

وقال البخاري أيضاً[١] : حدَّثنا حفصُ بن عمرَ ، حدَّثنا شعبة ، عن قتادةَ ، عن أبي العالية ، عن ابن عبَّاس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقولَ إنِّي خير من يونسَ بن متى » ونسبه إلى أبيه .

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به[٢] . قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدُها .

وقد رواه الإمام أحمد[٣] عن عفَّان ، عن حمَّاد بن سلمة ، عن عليِّ بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « وما ينبغي لعبدٍ أن يقولَ أنا خير من يونسَ بن متَّى » تفرّد به أحمد[٤] .

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني[٥] : حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن كَيْسان ، حدَّثنا عبد الله بن رجاء ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي يحيى القتَّات ، عن مجاهد ، عن ابن عبَّاس أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « لا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ أنا عند الله خيرٌ من يونسَ بن متَّى » .

إسناده جيد ولم يُخرِّجوه[٦] .

وقال البخاري[٧] : حدَّثنا أبو الوليد ، حدَّثنا شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، سمعت حُميدَ بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ أنا خيرٌ من يونسَ بن متَّى » .

وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به[٨] .

وفي البخاري ومسلم[٩] : من حديث عبد الله بن الفضل ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة ، في قصة المسلم الذي لطمَ وجهَ اليهوديّ حين قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين . قال البخاري في آخره : « ولا أقول : إن أحداً أفضلُ من يونس بن متَّى » ، وهذا اللفظ يقوّي أحدَ القولين من المعنى : لا ينبغي لأحد أن يقولَ : أنا خيرٌ من يونسَ بن متَّى ، أي : ليس لأحد أن يُفضِّل نفسَه على يونسَ .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٠) في التفسير .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٤٢) ومسلم (٢٣٧٧) في الفضائل وأبو داود (٤٦٦٩) في السنة .

(٣) في المسند (١/ ٢٤٢) .

(٤) في إسناده عبد الله بن زيد هو ابن جدعان ، ضعيف الحديث .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١١١٢٢) .

(٦) أقول : في إسناده أبو يحيى القتات ، لين الحديث ، لكن متنه صحيح كما سيأتي .

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٣١) في التفسير .

(٨) أخرجه مسلم (٢٣٧٦) في الفضائل .

(٩) أخرجه البخاري (٣٤١٤) في الأنبياء ، ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل .

والقولُ الآخر : لا ينبغي لأحدٍ أن يُفضِّلني على يونسَ بن متَّى ، كما قد وردَ في بعض الأحاديث : « لا تُفضِّلُوني على الأنبياء ولا على يونسَ بن متَّى » ، وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائر أنبياء الله المرسلين .

●●●

انتهى الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية

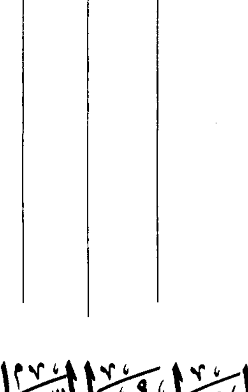
ويليه الجزء الثاني وأوله :

ذكر قصة موسى عليه السلام

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

***



قصص الأنبياء ـ أخبار الماضين



الطبعة الأولى

1428 هـ ــ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ــ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : البداية و النهاية 20/1

التأليف : الإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 10128

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 16 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ايبكس

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ــ حلبوني ــ جادة ابن سينا ــ بناء الجابي

ص.ب : 311 ــ هاتف : 2225877 ــ 2228450 ــ فاكس : 2243502

بيروت ــ برج أبي حيدر ــ خلف دبوس الأصلي ــ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ــ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



قصص الأنبياء - أخبار الماضين

تأليف

الإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ - ٧٧٤هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

د. علي أبو زيد أبو زيد

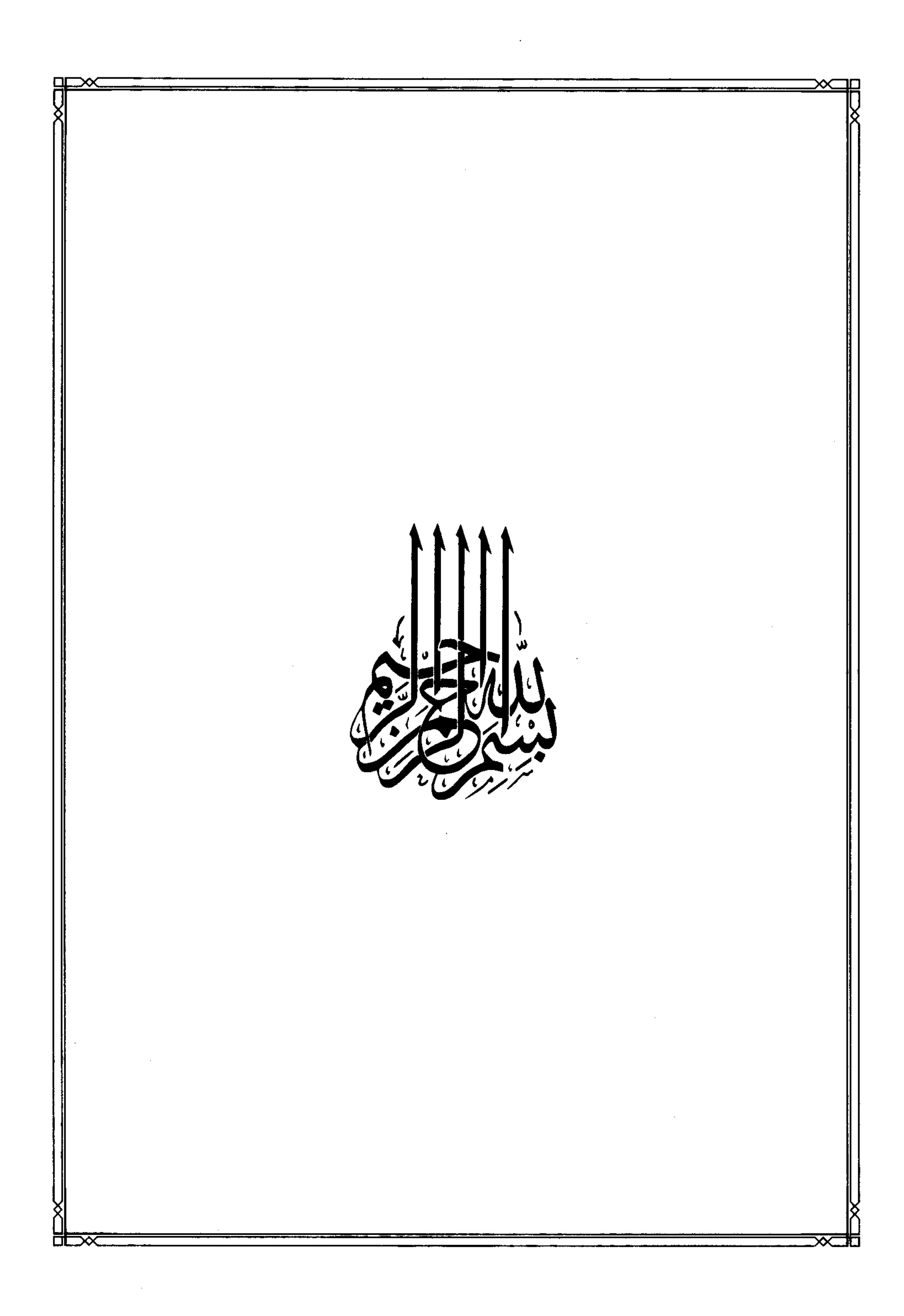
راجعه

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط | الدكتور بشار عواد معروف

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى الكليم

وهو موسى بن عِمْرَان بن يافث[١] بن عازَر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السَّلام .

قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] .

وقد ذكره الله تعالى في مواضعَ كثيرةٍ متفرِّقةٍ من القرآن . وذكر قصّته في مواضع متعدّدةٍ مبسوطةٍ مطوَّلةٍ وغيرِ مطوّلة ، وقد[٢] تكلّمنا على ذلك كلّه في مواضعه من (التفسير)[٣] ، وسنوردُ سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسُّنَّة ، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السَّلَف وغيرهم إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التُّكلان[٤] .

قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦] .

يذكر تعالى ملخَّص القصّة ، ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنّه يتلو على نبيّه خبر موسى وفرعونَ بالحقِّ ، أي : بالصدق الذي كأنَّ سامعه مشاهد للأمر معاين له : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ ، أي : تجبَّر ، وعتا ، وطغى ، وبغى ، وآثر الحياة الدُّنيا ، وأعرض عن طاعة الرَّبِّ الأعلى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي قسم رعيته إلى أقسامٍ وفرقٍ وأنواعٍ يستضعف طائفةً منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سُلالة نبيِّ الله يعقوب بن نبي الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيارَ أهل الأرض . وقد سُلِّطَ عليهم هذا الملكُ الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخسِّ الصنائع والحِرفِ ، وأرداها وأدناها ، ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكان الحاملَ له على هذا الصنيعِ القبيحِ أنّ بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما كانوا يأثرونه عن

---

(١) في الأصول : قاهث . والتصويب من : التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام . الورقة ٦٨ .

(٢) في ب : أماكن متعددة مبسوطة مطولة ، وقد تكلمنا .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٥٠) .

(٤) قوله : « وبه الثقة وعليه التكلان » ليس في ب .

إبراهيم عليه السَّلام من أنّه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاكُ ملك مِصْرَ على يديه ، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارَة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادتِهِ إيّاها على السوء[١] ، وعصمةِ الله لها . وكانت هذه البِشارة مشهورةً في بني إسرائيل فتحدَّث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أُمرائه وأَساورته[٢] وهم يسمُرون عنده ؛ فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ، (ولَنْ يُغْني حَذَرٌ مِنْ قَدَر)[٣] .

وذكر السُّدِّي[٤] ، عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عَبَّاس ، وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأنّ ناراً قد أقبلت من نحو بيت المَقْدس فأحرقت دور مصر وجميعَ القبط ، ولم تضرَّ بني إسرائيل ، فلما استيقظ هالَه ذلك ، فجمع الكهنةَ والحَزَأَة[٥] والسَّحرة ، وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلامٌ يولد من هؤلاء يكون سببُ هلاكِ أهل مِصْرَ على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي الذين يؤول ملك مِصْرَ وبلادها إليهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ أي : سنجعل الضعيفَ قوياً ، والمقهورَ قاهراً ، والذليلَ عزيزاً ، وقد جرى هذا كلّه لبني إسرائيل كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ . . . ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٧ ـ ٥٩] ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

---

(١) في ب : السفه .

(٢) أساورته : مفردها أسوار ، بضم الهمزة وكسرها ، وهو القائد ، أو بمنزلة الأمير عند العرب . التاج .

(٣) قطعة من حديث جرى مجرى المثل ، رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٤) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ : « لن ينفع حذر من قدر » وذكره بهذا اللفظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٦) من حديث معاذ وقال : رواه أحمد والطبراني ، وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ ، ورواية إسماعيل بن عيَّاش عن أهل الحجاز ضعيفة . وساق رواية أخرى له من حديث عائشة رضي الله عنها وهو عند البزار وإسناده ضعيف جداً ، وهو عنده بنحوه (٧/ ٢٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي (٤/ ٣٧) ، وذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص(٣٤٠) ، وإسناده ضعيف جداً فيه إبراهيم بن خثيم متروك .
وهو في الأمثال لأبي عبيد ص(٣٢٧) ، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٢٣٧) ولفظه فيهما : لا ينفع حذر من قدر .

(٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي ثم الكوفي الأعور السُّدِّي ، أبو محمد ، أحد موالي قريش ، وأحد الأئمة المفسرين الكبار ، مات سنة (١٢٧)هـ . ترجمته في طبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٠٩) . وتفسيره مخطوط لم يطبع بعد ، والنقل الذي أورده ابن كثير ساقه بنحوه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٩) وفي تاريخه (١/ ٣٨٨) .

(٥) الحزأة : جمع حَزَّاء ، وهو الذي ينظر النُّجوم وأحكامها بظنِّه وتقديره فربما أصاب . النهاية : (حزأ) .

والمقصودُ أنّ فرعون احترز كُلَّ الاحتراز أن لا يوجدَ موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابلَ يدورون على الحبالى ، ويَعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأةٌ ذكراً إلا ذبحه أولئك الذبّاحون من ساعته .

وعند أهل الكتاب : أنّه إنّما كان يأمر بقتل الغلمان ليُضعف شوكةَ بني إسرائيلَ فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم . وهذا فيه نظرٌ ، بل هو باطلٌ ، وإنّما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر : ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، فالصّحيح أن فرعون إنّما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى ـ كما قدمناه ـ[١] .

هذا والقدر يقول : يا أيّهاذا الملكُ الجبّار المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه ، واتّساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يغالَب ، ولا يمانَع ، ولا تخالَف أقدارُه ، أنّ هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذّى إلّا بطعامك ، وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبنّاه ، وتربّيه ، وتتعدّاه[٢] ، ولا تطّلع على سرِّ معناه ، ثم يكون هلاكُك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحقِّ المبين ، وتكذيبك ما أُوحيَ إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن ربَّ السماوات والأرض هو الفعّال لما يريدُ ، وأنّه هو القويُّ الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول ، والقوّة ، والمشيئة التي لا مردّ لها .

وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسّرين أن القِبْط شكوا إلى فرعون قِلّة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشوا[٣] أن تتفانى الكبار مع قتل الصّغار ، فيصيرون هم الذين يلُون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ، فأمر فرعونُ بقتل الأبناء عاماً وأن يُتركوا عاماً ، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلِهم ، فضاقت أمُّه به ذَرْعاً ، واحترزت من أوّل ما حَبِلت ، ولم يكن يظهر عليها مخاييل الحبل[٤] ، فلما وضعت أُلهمت أنِ اتخذتْ له تابوتاً ، فربطته في حبلٍ ، وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ؛ فإذا خشيت من أحدٍ وضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته[٥] إليها به .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ

---

(١) من قوله : وعند أهل الكتاب . . . إلى هنا زيادة من ب وط ، وقوله : كما قدمناه . ليس في ط .

(٢) أي تتجاوزه إلى غيره فتقتل غيره وتُمنع منه . قال ابن منظور : التَّعدِّي مجاوزة الشيء إلى غيره . اللسان (عدا) .

(٣) كذا في ب ، وفي أ وط : وخشي .

(٤) مخاييل الحبَل : علاماته ودلائله .

(٥) في ب : استخرجته .

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٧ ـ ٩] .

هذا الوحي : وحيُ إلهام وإرشادٍ كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .. ﴾ الآية [النحل : ٦٨ ـ ٦٩] ، وليس هو بوحي نبوّةٍ ، كما زعمه ابن حَزْمٍ . وغير واحدٍ من المتكلّمين ، بل الصّحيح الأول ؛ كما حكاه أبو الحسن الأشعريّ عن أهل[١] السُّنّة والجماعة .

قال السُّهَيلي[٢] : واسم أم موسى أيارخا . وقيل : أياذخت . والمقصود أنها أُرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وأُلقيَ في خَلَدها ورَوْعها أنْ لا تخافي ، ولا تحزني ؛ فإنه إنْ ذَهَب فإن الله سيردّه إليك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً يُعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أُمرت به ، فأرسلته ذاتَ يومٍ وذَهَلَتْ أن تربط طرف الحبل عندها ، فذهب مع النيل ، فمرّ على دارِ فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ . قال بعضهم[٣] : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلّقاً بقوله ﴿ فَالْتَقَطَهُ ﴾ ، وأمّا إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أنَّ آل فرعون قُيِّضوا لالتقاطه ليكونَ لهم عدوّاً وحزَناً ، صارت اللاّم معلِّلةً كغيرها ، والله أعلم . ويقوّي هذا التقدير[٤] الثاني قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ؛ أي : هم أهلٌ لهذا التقييض ليكون أبلغ في إهانتهم ، وأقوى في حسرتهم ؛ أن يربّوا عدوَّهم في دارهم . ولهذا قال : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾[٥] . وهو الوزير السَّوْء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ المتابعين لهما ﴿ كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ؛ أي كانوا على خلاف الصّواب ، فاستحقّوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسّرون[٦] : أنّ الجواري التقطْنه من البحر في تابوتٍ مغلق عليه ، فلم يتجاسرْنَ على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عُبَيْد بن الرَّيَّان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف ، وقيل : إنّها كانت من بني إسرائيل من سِبط موسى ، وقيل : بل كانت عمته . حكاه السُّهيلي[٧] ، فالله أعلم .

---

(١) في ب : عن مذهب أهل .
(٢) في التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام (مخطوط) الورقة (٤٦) .
(٣) كأبي حيان في البحر المحيط (٧/ ١٠٥) ، والزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٦) .
(٤) ليست في ب .
(٥) من قوله : إن فرعون وهامان وجنودهما .. إلى قوله : ... عدواً وحزناً . سقط من ط .
(٦) كالطبري في : تفسيره (٢٠/ ٢١) .
(٧) التعريف والإعلام الورقة (٤٦) .

وسيأتي مدحُها والثناءُ عليها في قصّة مريمَ بنتِ عمران ، وأنّهما يكونان يوم القيامة من أزواجِ رسولِ الله ﷺ في الجنَّة . فلما فتحتِ الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبويّة ، والجلالة الموسويّة ، فلمّا رأته ووقع نظرها عليه أحبَّته حبّاً شديداً جداً ، فلما جاء فرعونُ قال : ما هذا ؟ وأمَرَ بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودفعت عنه ﴿ وَقَالَتِ . . . قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، فقال لها فرعون : أمّا لكِ فنعم ، وأمّا لي فلا ، أي : لا حاجة لي به . والبلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطِقِ[1] .

وقولها : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ، وقد أنالها الله ما رَجَت منه من النفع ، أمّا في الدُّنيا فهداها الله به ، وأمّا في الآخرة فأسكنها جنته بسببه ، ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ ؛ وذلك أنّهما تبنّياه لأنه لم يكن يولد لها[2] ولد .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ؛ أي : لا يدرون ماذا يريد الله بهم أَنْ قيّضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده[3] . ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٠ ـ ١٣] .

قال ابن عبّاس ، ومجاهد ، وعكرمة[4] ، وسعيد بن جُبير ، وأبو عُبيدة ، والحسن[5] ، وقتادة ،

---

(١) قطعة من حديث جرى مجرى المثل ، ذكره السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص(١٤٧ ـ ١٤٨) وأطال الكلام عليه ، والسيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٣٥) .
وأورده أبو عبيد (٧٥) بلفظ : « البلاء موكل بالقول » . وهو في : الفاخر (٢٣٥) وجمهرة الأمثال (١/ ٢٠٧) وفصل المقال (٩٥) والمستقصى (١/ ٣٠٥) ومجمع الأمثال (١/ ١٧) ونهاية الأرب (١٦/ ٣٠٨) وتمثال الأمثال (١/ ٢٦٣) .
ـ وهو يضرب في كلمة يتكلم بها الرجل فتكون باعثة للبلاء . وأوله : « ما من طامة إلا وفوقها طامة . والبلاء . . » وهو حديث ضعيف .
ـ وقد اختلف فيمن هو قائله ، فذكر صاحب الفاخر ، وعنه أخذ الميداني أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أول من قاله ، عندما عرض النبي ﷺ نفسه على وفد ربيعة ، وأخذ أبو بكر يسألهم عن أنسابهم ، ونسبه في الجمهرة إلى الرسول ـ ﷺ ـ .
وقد نظمه بعضهم في بيت شعر فقال :
احفظ لسانك أن تقول فتُبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق
(٢) كذا في أ . وفي ب ، وط : لهما .
(٣) زاد في ب : وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى وربته ابنة فرعون . وليس لامرأته ذكر بالكلية . وهذا في غلطهم على كتاب الله عز وجل .
(٤) هو عكرمة البربري .
(٥) إذا أطلق الحسن فهو الحسن بن يسار البصري .

والضحّاك ، وغيرهم ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أي : من كلِّ شيءٍ من أمور الدنيا إلّا من موسى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ ﴾ أي : لتظهر أمرَه وتسأل عنه جهرةً ، ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي : صبّرناها وثبّتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقالت لأخته ، وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي : اتّبعي أثره واطلبي لي[١] خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بُعدٍ . وقال قتادة : جَعَلَتْ تنظر إليه وكأنّها لا تريده ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقرَّ بدار فرعون أرادوا أن يغذّوه برضاعةٍ ، فلم يقبل ثدياً ، ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ ، فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلّ يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ؛ إذ بصُرت به أخته فلم تُظْهِرْ أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لمّا قالت ذلك قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في صهر الملك[٢] ، ورجاء منفعته . فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمّه ، فلمّا أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى آسية يُعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي ، فأرسلته معها ، ورتَّبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات ، والكسا[٣] ، والهبات فرجعت به تحوزه[٤] إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، أي : كما وعدناها بردِّه ورسالته ، فهذا ردُّه ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلَّمه[٥] فقال له فيما قال له : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى[٦] وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٧ ـ ٣٩] ، إذ قال قتادة ، وغير واحد من السَّلف[٧] : أي تُطْعَم وتُرفَّه وتُغذى

(١) في ب : واطلعي . وفي ط : واطلبي له .
(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٣٩٤) . ورغبتهم في ظؤورة الملك .
(٣) في أصولنا : والكساوي ، وهو خطأ . فالكساء جمعه : أكسية وهو اللباس . والكُسْوَة : الثوب يستتر به ويتحلى ، وجمعه : كُساً . أما النسبة إلى الكساء فهي : كِساويّ ، ولا مكان لها هنا .
(٤) تحوزه : تضمه .
(٥) في ب : وقد امتن الله تعالى بهذا على موسى ليلة كلمه . . .
(٦) زاد في ب : وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه .
(٧) كابن زيد ، وابن جريج ، وأبي نُهيك . كما في تفسير الطبري (١٦/ ١٢٣) .

بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس[١] بمرأىً مني ، وذلك كلّه بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ[٢] إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه : ٤٠] ، وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التُّكلان .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٤ ـ ١٧] .

لما ذكر تعالى أنّه أنعم على أمّه بردّه[٣] لها ، وإحسانه بذلك ، وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ وهو احتكام[٤] الخَلْق والخُلُق ، وهو سنّ الأربعين في قول الأكثرين ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوّة والرسالة التي كان بَشّر بها أمّه حين قال : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] . ثم شرع في ذِكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مَدين ، وإقامته هنالك حتى كمل الأجل ، وانقضى الأمد[٥] ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به ، كما سيأتي . فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . قال ابن عبّاس ، وسعيد بن جُبير ، وعِكْرمة ، وقَتادة ، والسُّدّي[٦] : وذلك نصف النهار .

وعن ابن عبّاس : بين العشاءين ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي : يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي : إسْرائيلي ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي : قبطي . قاله ابن عبّاس ، وقتادة ، والسّدّي ، ومحمد بن إسحاق . ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مِصْرَ صَولةٌ بسبب نسبته إلى تبنّي فرعون له ، وتربيته في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهةٌ ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنّهم أرضعوه وهم أخواله ، أي : من الرَّضاعة .

فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ . قال

---

(١) في ب : أشرف الملابس .
(٢) في الأصل : فرددناك . وهو سهو ، التبس بقوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا . . . ﴾ الآية : [القصص : ١٣]
(٣) في ب : بوصالها .
(٤) في ب : إحكام .
(٥) في ب : الأمل .
(٦) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٩) .

مجاهد[١] : أي : طعنه بجُمعِ كفِّه . وقال قتادة : بعصاً كانت معه ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ، أي : فمات منها .

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ، ولم يُرِدْ موسى قتله بالكلّية ، وإنما أراد زَجْره ورَدْعَه ، ومع هذا قال موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي : من العزِّ والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ١٨ ـ ٢١] .

يخبر تعالى أنّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ، أي : من فرعون ومَلَئِهِ أن يعلموا أنَّ هذا القتيل الذي رُفِع إليه أمرُه إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أنّ موسى منهم ، ويترتَّب على ذلك أمرٌ عظيم ، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفتُ[٢] ، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي : يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنَّفه موسى ، ولامه على كثرة شرّه ومخاصمته ، قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌّ لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ، ويخلّصه منه ، فلما عزم على ذلك ؛ وأقبل على القبطي ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس ، وكأنّه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنّه جاء إليه لمّا عنَّفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمرَ الذي كان وقع بالأمس ، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون ، وهذا الذي لم يذكر كثيرٌ من النّاس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيّته انتصاراً جيداً للإسرائيلي ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعلّه قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعلّه فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا . والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجلٌ ناصحٌ من طريق أقرب ، وجاءه من أقصى المدينة ساعياً إليه مشفقاً عليه ، فقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ

---

(١) في تفسيره : (١/ ٤٨٢) . وقول ابن كثير : أي طعنه . لم يرد فيه ، وعنده : بجميع كفه ، والذي عند الطبري (٢٠/ ٣٠) : بجمع كفه .

(٢) في ط : يلتفت .

يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أي : من هذه البلدة[١] ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، أي : فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ، أي : فخرج من مدينة مِصْرَ من فوره على وجهه ، لا يهتدي إلى طريقٍ ولا يعرفه قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[٢] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢١ ـ ٢٤] .

يخبر تعالى عن خروج[٣] عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقّب ؛ أي : يتلفّت خشية أن يدركه أحدٌ من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجّه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنّه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : اتجه له طريقٌ يذهب فيه ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . أي : عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود ، وكذا وقع ، أوصلته[٤] إلى مقصودٍ ، وأي مقصود .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئراً يستقون منها ، ومَدْيَنُ[٥] هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأَيْكة ، وهم قوم شعيب ، عليه السَّلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السَّلام في أحد قولي العلماء[٦] ، ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم النَّاس[٧] . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

---

(١) قوله : أي : من هذه البلدة . زيادة في ب ، وط .

(٢) الرعاء ، بكسر الراء المهملة : جمع راعٍ ، ويجمع أيضاً على رُعاة ، ورُعيان . تفسير الطبري (٢٠/ ٣٦) .

(٣) ليست في ب .

(٤) في ب : ووصلته .

(٥) مدين : على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك على نحو ست مراحل ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام للسائمة .

(٦) وهو قول ابن عبَّاس وقتادة ، وقد نقله المؤلف عن تفسير الطبري (٢٠/ ٣٥) بتصرف .
وأما القول الثاني فقد قال الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٤) : وقوله : (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) يقول : عسى ربي أن يبين لي قصد السبيل إلى مدين ، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها ، وذُكر أن الله قيض له إذ قال : (رب نجني من القوم الظالمين) فهيأ الله الطريق إلى مدين ، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم ولا رغيف خائفاً يترقب حتى وقع إلى أمة من الناس يسقون بمدين .

(٧) زاد في ب : وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعله كان له سبع ، وإنما كان يستقي منهن اثنتان ، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى اثنتين .
وزاد مثل هذا في ط ، وفيهما : . . الغلط وكأنه كُنَّ سبعاً ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن . . سوى بنتان . وواضح في هذه الزيادة الضعف والخطأ .

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : لا نقدر على وِرد الماء إلّا بعد صدور الرِّعاء لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعْية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال المفسرون[١] : وذلك أن الرِّعاء كانوا إذا فرغوا من وِردهم وضعوا على فم البئر صخرةً عظيمةً ، فتجيء هاتان المرأتان ، فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس . فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى ، فرفع تلك الصخرة وحدَه ، ثم استقى لهماوسقى غنمهما ، ثم ردَّ الحجر كما كان .

قال أمير المؤمنين عمر[٢] : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذَنُوباً[٣] واحداً فكفاهما . ثمّ تولّى إلى الظلّ ، قالوا : وكان ظلّ شجرة من السَّمُرِ[٤] .

روى ابن جرير[٥] ، عن ابن مسعود ؛ أنه رآها خضراء ترفّ[٦] ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس : سار من مصر إلى مَدْيَن لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه[٧] من الحفاء ، وجلس في الظِّل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإنّ خُضْرَةَ البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنّه لمحتاج إلى شقّ تمرة .

قال عطاء بن السّائب : لما قال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٥ـ٢٨] .

لَمَّا جلس موسى عليه السَّلام في الظلّ ، وقال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ سمعته

---

(١) كالطبري (٢٠/ ٣٧) ، والقرطبي (١٣/ ٢٦٩) والزمخشري (٣/ ١٧٠) .
(٢) ساق المؤلف هذا الخبر هنا باختصار وبالمعنى ، ولكنه ساقه بتمامه في تفسيره (٣/ ٣٨٣) .
(٣) الذنوب : الدلو .
(٤) السمر ، بفتح السين وضم الميم : ضرب في شجر الطلح ، واحدته : سَمُرة .
(٥) في تفسيره (٢٠/ ٣٧) وذكر الخبر فيه بسياق أطول من هذا .
(٦) يقال : رفّ لونه يرفُّ ، بالكسر ، رفّاً ورفيفاً ، بَرَقَ وتلألأ ، اللسان (رفف) .
(٧) أورد الخبر المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) وفيه : . . . وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل . . . وإن بطنه للاصق .

المرأتان[١] ـ فيما قيل ـ فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال : إنّه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السَّلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ ، أي : مَشْيَ الحرائِرِ ، قالت : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ صرَّحت له بهذا لئلاّ يوهم كلامُها ريبةً . وهذا من تمام حيائها وصيانتها . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مِصْرَ فراراً من فرعونها ﴿ قَالَ لَهُۥ ﴾ ذلك الشيخ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، أي : خرجت من سلطاتهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيبٌ عليه السَّلام ، وهذا هو المشهور عند كثيرين[٢] .

وممَّن نصّ عليه : الحسن البصري ، ومالك بن أنس . وجاء مصرحاً به في حديث[٣] ، ولكن في إسناده نظر .

وصرّح طائفةٌ بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوّج بابنته[٤] .

وروى ابن أبي حاتم وغيره ، عن الحسن البصري ، أن صاحب موسى عليه السَّلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيّد الماء ، ولكن ليس بالنَّبيِّ صاحب مَدْيَن .

وقيل : إنّه ابن أخي شعيب .

وقيل : ابن عمه .

وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب .

وقيل : رجل اسمه يثرون ، هكذا هو في كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مَدْين ؛ أي : كبيرها وعالمها . قال ابن عبَّاس وأبو عُبَيْدة بن عبد الله : اسمه بترون[٥] . زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب . زاد ابن عبَّاس : صاحب مَدين[٦] .

---

(١) قال السُّهيلي في التعريف والإعلام الورقة (٤٦) : هما صَفُوريَا ولَيا ابنتا بترون ، وبتَرون هو شعيب ، وقيل : ابن أخي شعيب وأن شعيباً كان قد مات ، وأكثر المفسرين على أنهما ابنتا شعيب وقال بعضهم : ليستا ابنتي شعيب ، وهو الصواب .

(٢) في ب : الأكثرين ، وقد أورد المؤلف هذه الأقوال في تفسيره (٣/ ٤٨٣) .

(٣) وقد ساقه المؤلف في تفسيره (٣/ ٤٨٣) من رواية الطبراني (وهو في معجمه الكبير ٦٣٦٤) عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى » .

(٤) وهي ابنته صَفوريَا كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام الورقة (٤٧) وزاد : وهي أهله التي قال [الله تعالى] فيها : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا ﴾ [طه : ١٠] .

(٥) في أصولنا يثرون . وفي تاريخ الطبري (١/ ٣٨٥) : يترون ، وكلاهما مصحف ، والتصويب من التعريف والإعلام : للسهيلي الورقة (٤٦) .

(٦) ما قاله ابن عباس رضي الله عنه : الذي استأجر موسى يثربي صاحب مدين كما أورده ابن كثير في تفسيره =

والمقصود أنّه لما أضافه ، وأكرم مثواه ، وقصَّ عليه ما كان من أمره ، بشَّره بأنّه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ ، أي : لرعي غنمك ، ثم مدحته بأنه قويٌّ أمينٌ .

قال عَمْرو[١] وابن عبَّاس ، وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لمّا قالت ذلك قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنّه رفع صخرةً لا يطيق رفعها إلا عشرة . وإنّه لما جئت معه تقدمتُ أمامه ، فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت الطريق فاحذفي[٢] لي بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرسُ النَّاس ثلاثة : صاحب يُوسف حين قال لامرأته ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ [يوسف : ٢١] . وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ . وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطَّاب[٣] .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ ﴾ .

استدلّ بهذا جماعةٌ من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحّة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ، ونحو ذلك أنّه يصحُّ لقوله : ﴿ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ . وفي هذا نظر ؛ لأنّ هذه مُراوضةٌ لا معاقدةٌ . والله أعلم .

واستدلّ أصحابُ أحمد على صحّة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في « سننه » مترجماً عليه كتابه[٤] : باب استئجار الأجير على طعام بطنه .

حدثنا محمد بن مصفّى[٥] الحمصي ، حدثنا بقيَّة بن الوليد ، عن مَسْلَمة بن علي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن عُلَي بن رباح قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر[٦] يقول : كُنَّا عند

= (٣/ ٣٨٥) . والخبر ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٠) ، وفيه : يثري .

(١) في أصولنا ، وتفسيره : عمرو ابن عباس ، وعمرو هو ابن ميمون . وقد أورد قوله الطبري في تفسيره : (٢٠/ ٤١) ، مع بقية الأقوال .

(٢) الحذف : الرمي عن جانب .

(٣) هو في تفسير المؤلف (٣/ ٣٨٥) .

(٤) في ب : مترجماً عليه في باب استئجار . . وفي ط : . . . مترجماً في كتابه . . .

(٥) في أصولنا : ابن الصفي وهو سهو ، ومحمد بن مصفى بن بُهلول ، الحمصي القرشي ، قال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق ، له أوهام ، وكان يدلس (٢/ ٢٠٨) .

(٦) في ط : ابن الدر وهو تحريف . وعتبة بن النُّدَّر ، بضم النون ، وتشديد الدال المهملة المفتوحة . صحابي شامي ، توفي سنة (٨٤هـ) . مترجم في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٧) ومصادر ترجمته ثمة .

رسول الله ﷺ فقرأ ﴿ طس ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إنَّ موسى عليه السَّلام أجَرَ نفسه ثماني سنين أو عشرةً[١] على عِفَّةِ فَرْجِهِ وطعام بطنِهِ[٢] » .

وهذا من هذا الوجه لا يصح ؛ لأن مَسْلَمة بن عُلي الخشني[٣] الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمَّةِ لا يُحتج بتفرّدهِ[٤] ولكن قد روي من وجهٍ آخر .

وقال ابن أبي حاتم :

حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدّثني ابن لَهيعة . (ح)[٥] ، وحدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا صفوان ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عُلَي بن رَباح اللَّخْمي ، قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر السّلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدِّث أن رسول الله قال : « إنَّ مُوسَى عليه السلام أجرَ نَفْسَه لِعِفةِ فَرْجِهِ وَطعْمَةِ بَطْنِهِ »[٦] .

ثم قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٨] . يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت ، فأيّهما قضيت[٧] فلا عدوان عليّ ، والله على مقالتنا سامع ، ومشاهد ، ووكيل عَلَيَّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكملَ الأجلين وأتمّهما ، وهو العشر سنين كوامل تامّة .

قال البخاري : حدَّثنا محمد بن عبد الرَّحيم ، حدثنا سعيد بن سُليمان ، حدّثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفْطس ، عن سعيد بن جُبير ، قال : سألني يَهودي من أهل الحِيْرةِ : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حَبرِ العرب فأسأله ، فقدمتُ ، فسألت ابنَ عبَّاس ، فقال : قَضَى أكثرَهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل[٨] . تفرّد به البخاري من هذا الوجه .

---

(١) في سنن ابن ماجه : أو عشراً .

(٢) سنن ابن ماجه رقم (٢٤٤٤) في الرهون : باب إجارة الأجير على طعام بطنه ، وإسناده ضعيف .

(٣) في أصولنا : الحسني وهو تصحيف ، والخُشَني ، بضم الخاء ، وفتح الشين المعجمتين ، كما ضبطه ابن حجر وقال : متروك . التقريب (٢/ ٢٤٩) . وقال ابن حبَّان : كان ممن يقلب الأسانيد ، ويروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم توهمّاً ، فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به . المجروحين (٣/ ٣٣) .

(٤) وفي إسناده أيضاً بقية بن الوليد وهو ضعيف ، أيضاً قالوا فيه : احذر أحاديث بقية ، وكن منها على تقية ، فإنها غير نقية . الأمصار ذوات الآثار ، للذهبي ص(٣٦ ـ ٣٧) .

(٥) علامة التحويل هذه في السند لم ترد في النسخة ب .

(٦) وهذه الرواية ضعيفة أيضاً في سندها عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف عند التفرد ، وفي غير رواية العبادلة عنه ، كما في تحرير التقريب (٢/ ٢٥٨) .

(٧) من قوله : واللهُ على . . . إلى قوله : فأيهما قضيت . سقط من ب ، بنقلة عين .

(٨) رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٤) .

وقد رواه النسائي في حديث الفتون ـ كما سيأتي ـ من طريق القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير[١] .

وقد رواه ابن جرير[٢] عن أحمد[٣] بن محمد الطُّوسي ، وابن أبي حاتم عن أبيه ، كلاهما عن الحُميدي ، عن سفيان بن عُيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس : أن رسول الله ﷺ قال : « سألتُ جِبْرِيلَ : أيَّ الأَجَلَيْن قَضَى مُوْسَى ؟ قَالَ : أَتَمَّهُمَا وَأَكْمَلَهُمَا »[٤] . وإبراهيم هذا غير معروف إلّا بهذا الحديث .

وقد رواه البزّار عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عُيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحاكم بن أَبَان ، عن عِكْرمة ، عن ابن عبَّاس ، عن النَّبيِّ ﷺ[٥] فذكره .

وقد رواه سُنيد ، عن حجّاج ، عن ابن جُريج ، عن مُجاهدٍ مرسلاً ، أن رسول الله سأل عن ذلك جبريلَ ، فسأل جبريلُ إسرافيلَ ، فسأل إسرافيلُ الربَّ عَزَّ وجلَّ فقال : « أبرّهما وأوفاهما » .

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مُرسلاً .

ورواه ابن جرير[٦] من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سُئِل : أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأتمّهما .

وقد رواه البزّار وابن أبي حاتم من حديث عُوْبَد[٧] بن أبي عمران الجَوْني ، وهو ضعيف عن أبيه ، عن عبد الله بن الصَّامت ، عن أبي ذَرٍّ ، أن رسول الله ﷺ سُئِل : أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) .
(٢) في تفسيره (٢٠/ ٤٤) ، ولهذا الخبر روايات أخرى عنده .
(٣) في أ و ب . محمد بن محمد الطوسي . وهو تحريف لأنه متوفى سنة (٣٤٤)هـ . الأنساب (٨/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) أي عقب وفاة الطبري . والصواب ما جاء في ط ، وهو كذلك عند الطبري وعند المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٦) وهو الذي أثبتناه . وأحمد بن محمد الطوسي توفي سنة (٢٤٨)هـ .
(٤) في أ : أو أكملها . والصواب ما جاء في ب وط وهو ما أثبتناه ، وهو موافق لما في تفسير الطبري .
(٥) في ب : أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ . . . فذكره ، وفي سنده إبراهيم بن أعين ، ضعيف .
(٦) في تفسيره (٢٠/ ٤٤) .
(٧) في ب : عوف ، وهو تحريف ، وعند المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٦) : عويذ . وكذلك في التاريخ الصغير للبخاري (٢/ ٢٠٥) ، والكبير (٧/ الترجمة ٤١٣) ، وما أثبتناه هو الصواب كما جاء في تهذيب الكمال (١٨/ ٢٩٩)، والضعفاء للنسائي (٤٦٥)، والضعفاء الصغير للبخاري (الترجمة ٢٩٠)، وميزان الاعتدال للذهبي (٣/ ٣٠٤)، وهو كذلك بخطه في النسخة الخطية من « الميزان » .

وأبرّهما » . قال : وإن سُئِلتَ : أيَّ المرأتين تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما[١] .

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم ، من طريق عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عُلَيّ بن رَباح ، عن عُتبة بن النُّدّر ، أن رسول الله قال : « إنَّ مُوسى أجَرَ نَفْسَه بِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعامِ بَطْنِهِ » فلمّا وفّى الأجل ، قيل : يا رسول الله أيَّ الأجلين ؟ قال : « أبرَّهما وأوفاهما » . فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون[٢] من وُلْدِ ذلك العام ، وكانت غنمه سوداً حساناً ، فانطلق موسى عليه السَّلام إلى عصا قسمها من طرفها ، ثمّ وضعها في أدنى الحوض ، ثمّ أوردها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها شاةً شاةً ، قال فأتأمت وألبنت[٣] ووضعت كلّها قوالب ألوان ، إلا شاةً أو شاتين ، ليس فيها فَشُوش ولا ضَبُوب ولا عَزُوز ولا ثَعُول ، ولا كَمْشَةٌ[٤] تفوت الكف ، قال النبي ﷺ : لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السّامرية .

قال ابن لَهيعة : الفَشُوش : واسعة الشَّخْب[٥] ، والضَّبوب : طويلة الضَّرع تجرُّه[٦] . والعَزُوز : ضيِّقة الشخب[٧] . والثَّعُول : الصغيرة الضَّرع كالحلمتين[٨] . والكَمْشة : التي لا يحكم الكفُّ على ضرعها لصغره[٩] .

وفي صحّة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير ؛ حدثنا محمد بن المثنى ، حدّثنا مُعاذ بن هشام ، حدّثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : لما دعا نبيُّ الله موسى صاحبَه

---

(١) وهو مخالف لما ذكره السهيلي في التعريف والإعلام . الورقة ص(٤٧) من أن موسى عليه السلام تزوج صَفُوريَا وهي الكبرى .

(٢) قالب لون : قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٩٧) تفسيره في الحديث : أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها ، كأن لونها قد انقلب .

(٣) في ط وأ : فأتمأت وآنثت . وفي ب : فأنمت وأنبتت . وأثبتنا رواية التفسير (٣/ ٣٨٧) .

(٤) في ط : ولا كموش . وفي تفسيره : ولا كميشة ، والكموش والكمشة بمعنى .

(٥) الشخب : ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتُلب . وعبارة النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٤٨) : وهي التي ينفشُّ لبنها من غير حلب ؛ أي : يجري ، وذلك لِسَعة الإحْليل . ومثله في اللسان (فش) .

(٦) وكذلك قال في تفسيره . والذي في النهاية (٣/ ٧٠) : الضَّبوب : الضيقة ثقب الإحليل . ومثله في اللسان (ضبب) .

(٧) وفي النهاية (٣/ ٢٢٩) : والعزوز : الشاة البكيئة القليلة اللبن الضيقة الإحليل .

(٨) عبارته في التفسير (٣/ ٣٨٧) : التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . وفي النهاية (١/ ٢١٢) : الثعول : الشاة التي لها زيادة حَلَمة ، وهو عيب .

(٩) وفي النهاية (٤/ ٢٠٠) : الكموش : الصغيرة الضرع ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها ؛ وهو تقلصه . ومثله في اللسان (كمش) .

إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبُه : كلّ شاةٍ ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد فوضع خيالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت ، فجالت جولة ، فولدت كلهن بلقاً إلا شاةً واحدةً ، فذهب بأولادهن ذلك العام . وهذا إسناد رجاله ثقات . والله أعلم .

وقد تقدّم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنّه أطلق له ما يولد من غنمه بُلقاً ، ففعلَ نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام . فالله أعلم .

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص : ٢٩ ـ ٣٢] .

تقدم أنّ موسى قضى أَتمَّ الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ . وعن مجاهد أنّه أكمل عشراً وعشراً بعدها .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي : من عند صهره ذاهباً ، فيما ذكره غير واحد من المفسّرين وغيرهم ، أنّه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختفٍ ، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها في مدّة مقامه ، قالوا : واتّفق ذلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ ، وتاهوا في طريقهم ، فلم يهتد إلى السّلوك في الدّرب المألوف ، وجعل يوري[1] زناده فلا يوري شيئاً ، واشتدّ الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعدٍ ناراً تأجّج في جانب[2] الطّور ، وهو الجبل الغربيّ منه عن يمينه ، فقال لأهله : ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ، وكأنّه ـ والله أعلم ـ رآها دونهم ، لأنّ هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا تصلح رؤيتها لكلّ أحدٍ ، ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ، أي : لعلّي أستعلم من عندها عن الطريق ، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدلّ على أنّهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ ؛ لقوله في الآية الأخرى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ ـ ١٠] ، فدلّ على وجود الظلام ، وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع الكلّ في قوله في النمل : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

(١) يوري : يقدح .

(٢) جبل الطور : جبل بالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين ، وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عليه السلام عند خروجه من مصر ببني إسرائيل .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [الآية : ٧] . وقد أتاهم منها بخبرٍ ، وأي خبرٍ ، ووجد عندها هُدًى ، وأي هدًى ، واقتبس منها نوراً ، وأي نور .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وقال في النمل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٨] أي : سبحان الله الذي يفعلُ ما يشاء ، ويحكم ما يريد . ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٩] .

وقال في سورة طه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [الآيات : ١١ـ١٦] .

قال غير واحدٍ من المفسّرين من السّلف والخلف[١] : لمّا قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها ، وجدها تأجّج في شجرةٍ خضراء من العَوْسَج[٢] ، وكلّ ما لتلك النار في اضطرام ، وكلّ ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد ، فوقف متعجّباً ، وكانت تلك الشجرة في لِحْف[٣] جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾[٤] [القصص : ٤٤] وكان موسى في وادٍ اسمه طُوى ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب[٥] ، فناداه ربّه بالواد[٦] المقدّس طُوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيّما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب : أنّه وضع يده على وجهه من شدّة ذلك النور مهابةً له ، وخوفاً على بصره ، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ أي : أنا رب العالمين[٧] الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلّا له . ثمّ أخبره أنّ هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنّما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بدّ من كونها ووجودها ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي : من خيرٍ وشرٍ . وحضّه وحثّه على العمل لها ، ومجانبة مَن لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتّبع هواه .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٠٨ـ١٠٩) .
(٢) العوسج : شجر كثير الشوك ، واحدته عوسجة .
(٣) اللِّحْف : أصل الجبل .
(٤) زاد في ط تتمة الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .
(٥) في ب : الغربي .
(٦) الوادي : معروف . وربما اكتفوا بالكسرة عن الياء . اللسان .
(٧) زاد في ط : ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيّناً له أنّه القادر على كلِّ شيء ، الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي : أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صَحِبْتها !؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ . أي : بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ، ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٩ ـ ٢٠] . وهذا خارقٌ عظيم ، وبرهانٌ قاطعٌ على أن الذي يكلِّمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنّه الفعّال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سألَ برهاناً على صِدْقه عند مَن يكذِّبُه من أهل مصر ، فقال له الربّ عز وجل : ما هذه التي في يدك ؟ قال : عصا . قال : ألقها إلى الأرض ، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ﴾ ، فهرب موسى من قدَّامها ، فأمره الربّ عز وجل أن يبسط يده ، ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصاً في يده ، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ، أي : قد صارت حيَّةً عظيمةً لها ضخامةٌ هائلةٌ وأنيابٌ تصطك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ ، وهو ضرب من الحيّات[1] ، يقال : الجانّ والجِنّان ، وهو لطيف لكنه سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامةَ والسرعةَ الشديدة ، فلمّا عاينها موسى عليه السلام ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي : هارباً منها ، لأن طبيعة البشريّة تقتضي ذلك ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : ولم يلتفت ، (فناداه ربُّهُ) قائلاً له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فلمّا رجَعَ أمَرَهُ اللهُ تعالى أَنْ يمسكها ، ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٢١] . فيقال : إنّه هابَها شديداً ، فوضع يده في كمّ مِدْرَعَته[2] ، ثم وضع يده في وسط فمها . وعند أهل الكتاب : بذنبها . فلمّا استمكن منها ، إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين . فسبحان القدير العظيم ربّ المشرقين والمغربين .

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزْعها ، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ، أي : من غير برص ولا بَهَق[3] ، ولهذا قال : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص : ٣٢] قيل : معناه إذا خِفتْ فضع يدك على فؤادك يسكن جأشُك . وهذا وإن كان خاصاً به ، إلا أنّ بركة الإيمان به حق بأنْ[4] تنفع من استعمال ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء[5] .

وقال في النمل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [آية : ١٢] أي : هاتان الآيتان ، هما : العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله : ﴿ فَذَٰنِكَ

---

(١) في اللسان ، والجانُّ : ضرب من الحيات أكحل العينين ، يَضرِب إلى الصفرة ، لا يؤذي . . والجمع جِنّان .
(٢) المدرعة : ضرب من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف ، اللسان : درع .
(٣) البهق ، بفتحتين : بياض يعتري الجسد بخلاف لونه ؛ ليس من البرص .
(٤) في ب : حق الإيمان ينفع من استعمل .
(٥) من قوله : ثم أمره تعالى . . . إلى هنا زيادة من ب وط .

بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ومع ذلك سبع آيات أُخر ، فذلك تسع آياتٍ بيّنات ، وهي المذكورة في آخر سورة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١ ـ ١٠٢] وهي المبسوطة في سورة الأعراف ، في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٣] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه ، وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات ، في التسع من كلمات الله القدرية ، والعشرة من كلماته الشّرعية ، وإنما نبهنا على هذا لأنّه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظنّ أنّ هذه هي هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل[1] .

---

(١) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ .

وتوهَّم بعض الرواة أن الكلمات هن الآيات ، مصدره الحديث الذي روي من طرق ، عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسّال المرادي قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ . فقال : لا تقل له نبي ، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين . فسألاه ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ـ أو قال : لا تفرُّوا من الزحف ـ (شعبةُ الشاكُّ) وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت . فقبّلا يديه ورجليه ، وقالا : نشهد أنك نبي . قال : « فما يمنعكما أن تتبعاني؟ قالا : لأن داود ـ عليه السلام ـ دعا أن لا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود » .

وهذا الحديث أورده ابن كثير في تفسيره ، كما أورده من طرق الطبري (١٥/ ١١٥ ـ ١١٦) في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ . . ﴾ .

وهو في : مسند أحمد (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) والترمذي : (٣١٤٤) ، في التفسير : باب (١٨) ومن سورة بني إسرائيل ، والنسائي (٧/ ١١١) في التحريم باب السحر .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقال ابن كثير : وهو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء ، وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا في التوراة لا تَعَلُّقَ لها بقيام الحجة على فرعون ، والله أعلم .

وقال ابن كثير أيضاً (٣/ ٦٦ ـ ٦٧) : وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أُخَر كثيرة ، منها : ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر ههنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

=

والمقصود أنّ الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٣ـ٣٥].

يقول تعالى، مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربّه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوّه الذي خرج من ديار مصر، فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾. أي: اجعله معي مُعيناً، ورِدْأً، ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم، فإنّه أفصح مني لساناً، وأبلغ بياناً. قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي: برهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أي: فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل: ببركة آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ [الآيات: ٢٤ـ٢٨].

قيل: إنّه أصابه في لسانه لثغةٌ بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه؛ التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهمَّ بقتله فحاجَّت عنه[1] آسية، وقالت: إنّه طفلٌ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهمّ بأخذ التمرة، فصرفَ الملكُ يدَه إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه، فأصابه لثغةٌ بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالَها بالكليّة.

قال الحسن البصري: والرّسل إنّما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقيةٌ، ولهذا قال فرعون قبّحه الله فيما زعم أنّه يعيب به الكليم: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يُفصح عن مراده ويعبّر عمّا في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى عليه السلام ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩ـ٣٦]. أي: قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذي طلبت، وهذا من وَجاهته عند ربّه عزَّ وَجلَّ حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه، فأوحى إليه، وهذا جاهٌ عظيمٌ. قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] وقد سمعت

= وقد نظم بعضهم هذه الآيات التسع فقال:

عصا، سَنَةٌ، بَحْرٌ، جَرادٌ وقُمَّلٌ دَمٌ، ويَدٌ، بعد الضفادع، طوفانُ

القاموس المحيط للفيروزأبادي (تسع).

(١) في ط: فخافت عليه.

أمّ المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحجّ : أي أخ أمَنُّ على أخيه؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة : لمن حولَ هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون ، فأوحي إليه[1] ، قالَ الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ ، وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الآيات : ١٠ ـ ٢٠] تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلّغاه ما أُرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريك له ، وأن يفكَّ أسارى بني إسرائيل من قبضته ، وقهره ، وسطوته ، وتركهم يعبدون ربّهم حيث شاؤوا ، ويتفرّغون لتوحيده ، ودعائه ، والتضرُّع لديه ، فتكبَّر فرعون في نفسه ، وعتا ، وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقّص قائلاً له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي : أما أنت الذي ربّيناه في منزلنا وأحسنّا إليه ، وأنعمنا عليه مدةً من الدّهر ؟ وهذا يدلّ على أنَّ فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرَّ منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فرَّ منه مات في مُدّة مقامه بِمَدْين ، وأن الذي بُعِث إليه فرعونٌ آخر .

وقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منّا ، وجحدت نعمتنا ، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي : قبل أن يوحَى إليَّ وينزل عليَّ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ أي : نبوّة ، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١] . ثم قال ، مجيباً لفرعون عما امتنّ به من التربية والإحسان إليه : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] ، أي : وهذه النعمة التي ذكرت من أنّك أحسنت إليّ ، وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك ، وخدمِك ، وأشغالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة ، والمحاجّة ، والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعونَ اللئيمِ من الحجّة العقليّة المعنوية ثم الحسيّة . وذلك أنَّ فرعون قبّحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٤] . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٦٧) .

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] . وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبدٌ مربوب ، وأنّ الله هو الخالق البارىء المصوِّر الإله الحقُّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] ، ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنّه ما ثَمَّ ربٌّ أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟ لأنّهما قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فكأنه يقول لهما : ومَن ربّ العالمين الذي تزعمان أنّه أرسلكما وبعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ يعني : ربُّ العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجدّدة من السّحاب ، والرياح ، والمطر والنبات ، والحيوانات التي يعلم كلّ موقن أنّها لم تحدث بأنفسها ، ولا بدّ لها من موجدٍ ومُحْدِثٍ وخالقٍ ، وهو الله الذي لا إلّه إلا هو ربُّ العالمين ﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون لمن حوله من أُمرائه ومَرَازِبته[1] ووزرائه على سبيل التهكّم والتنقّص لما قرّره موسى عليه السلام : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعني كلامه هذا ، قال موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السّالفة في الآباد ، فإنّ كلّ أحدٍ يعلم أنّه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولم يَحدُث من غير مُحدِث ، وإنّما أوجده وخلقه الله ربُّ العالمين .

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، ومع هذا كلّه لم يستفق فرعون من رَقدته ، ولا نزع عن ضلالته ؛ بل استمرّ على طُغيانه ، وعِناده ، وكفرانه ، ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أي : هو المسخِّر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسيِّرُ للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، وربُّ الأرض والسماء ، ربُّ الأوّلين والآخِرين ، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق اللّيل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكلُّ تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفي فلك يَسبحون ؛ يتعاقبون في سائر الأوقات ، ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرِّف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون ، وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قولٌ سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه ، وجاهه ، وسطوته ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣] . وهذان هما البرهانان اللذان أيّده الله بهما ، وهما العصا واليد . وذلك مقامٌ أظهر فيه الخارقَ العظيم الذي بَهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه ؛ فإذا هي ثعبان مبين ، أي : عظيم الشكل ، بديعُ

---

(١) المرازبة : واحدها : مرزبان ، وهو الفارس الشجاع المقدَّم على القوم ، دون الملك ، وهو معرَّب . اللسان .

في الضخامة ، والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتى قيل : إنّ فرعون لمّا شاهد ذلك وعاينه أخذه رَهَبٌ شديد ، وخوف عظيم ، بحيث إنه حصل له إسهالٌ عظيم أكثر من أربعين مرّة في يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرّز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة ، فانعكس عليه الحال . وهكذا لما أَدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفِلْقَةِ القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ، ومع هذا كلّه لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أنّ هذا كلّه سحر ، وأراد معارضته بالسَّحَرة ، فأرسل يجمعهم من سائر[1] مملكته ، ومن في رعيته ، وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجّة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملّته ، ولله الحمد والمِنَّةُ .

وقال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [الآيات : ٤٠ ـ ٤٦] .

يقول تعالى مخاطباً لموسى ، فيما كلّمه به لَيلة أَوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلّمه منه إليه : قد كنتُ مشاهداً لكَ وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفي ولطفي ، ثمّ أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مَدين بمشيئتي وقَدَري وتدبيري ، فلبثت فيها سنين . ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ ، أي : منّي لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي : اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ يعني : ولا تفترا في ذِكري إذا قَدِمتما عليه ، ووفدتما إليه ، فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبته ، ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه ، وإقامة الحجّة عليه .

وقد جاء في بعض الأحاديث : « يقول الله تعالى : إنَّ عَبْدي كُلَّ عَبْدي الذي يذكرني وهو ملاق[2] قِرْنه » .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا . . . ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وهذا من حلمه تعالى[3] ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوّه ، وتجبُّره وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي

---

(١) سائر الشيء : بقيته .

(٢) في ب : كل عبدي لمن يذكرني وهو مناجز قرنه ، والحديث رواه الترمذي : (٣٥٨٠) في الدعوات ، باب ١١٩ ، وقال : « هذا حديث غريب (ضعيف) لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوي . . . ومعنى قوله : وهو ملاق قِرنه ، إنما يعني عند القتال ، يعني أن يذكر الله في تلك الساعة » .

(٣) في ب : وهذا من حكمة الله تعالى .

هي أحسن ؛ برفقٍ ولين ، ويعاملاه معاملةَ مَنْ يرجو أن يتذكّر أو يخشى ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ . . . ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

قال الحسن البصري : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ : أعذرا إليه ، قُولا له : إن لك ربّاً ولك معاداً ، وإن بين يديك جنةً ونار[١] .

وقال وهْب بن مُنَبِّه : قولا له : إنّي إلى العفو والمغفرة أقرب منّي إلى الغضب والعقوبة[٢] .

وقال يزيد الرَّقَاشي[٣] عند هذه الآية : يا من يتحبّب إلى من يعاديه ؛ فكيف بمن يتولّاه ويناديه .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ وذلك أنّ فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مَريداً ، له سلطان في بلاد مِصر ، طويل عريض ، وجاه وجنود وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشريةُ ، وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر ، فثبّتهما سبحانه وتعالى وهو العليُّ الأعلى فقال : ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥] .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٧ ـ ٤٨] .

يذكر تعالى أنّه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبُدَه وحده لا شريك له ، وأن يرسل معهم بني إسرائيل ، ويُطلقهم من أسره وقهره ، ولا يعذبهم ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ ، وهو البرهان العظيم في العصا واليد ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ تقييدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ . ثم تهدّداه وتوعّداه على التكذيب فقالا : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : كذّب بالحق بقلبه ، وتولّى عن العمل بقالَبه .

وقد ذكر السُّدِّي وغيره أنه لما قدم من بلاد مَدين دخل على أمّه وأخيه هارون ، وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل[٤] ؛ وهو اللِّفْتُ ، فأكل معهما . ثم قال : يا هارون إنَّ الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٣) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الخبر في المصدر السابق . والرَّقَاشي ، بفتح الراء المهملة ، والقاف المخففة : نسبة إلى امرأة اسمها : رَقَاش ، كثرت أولادها حتى صاروا قبيلة ، وهي من قيس عيلان . الأنساب (٦/ ١٤٦) .
ويزيد بن طهمان الرقاشي ، أبو المعتمر ، من أهل البصرة .

(٤) في المحيط : الطَّفَيْشل ، بالمعجمة ، كَسَميدع : نوع من المرق . وفي تفسيره (٣/ ١٥٤) : وكان طعامهما ليلتئذٍ الطفيل ، وهو اللفت .

عبادته ، فقم معي ، فقاما يقصدان باب فرعون ، فإذا هو مغلق ، فقال موسى للبوّابين والحجَبة : أعلموه أنَّ رسولَ الله بالباب ، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

وقد زعم بعضهم أنّه لم يؤذَن لهما عليه إلّا بعد حينٍ طويلٍ .

وقال محمد بن إسحاق : أُذن لهما بعد سنتين ، لأنّه لم يكُ أحدٌ يتجاسر على الاستئذان لهما(١) ، فالله أعلم .

ويقال : إنّ موسى تقدَّم إلى الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون ، وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه ، فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : أن الله قال لموسى عليه السلام : إن هارون اللاوي ، يعني الذي من نسل لاوي بن يعقوب ، سيخرج ويتلقّاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون ، وأمره أن يُظهر ما أتاه من الآيات ، وقال له : سأُقسّي قلبه فلا يرسل الشعب ، وأُكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر .

وأوحى الله تعالى إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقّاه بالبرّيّة عند جبل حوريب ، فلما تلقّاه أخبره موسى بما أمره به ربّه ، فلما دخلا مِصر جمعا شيوخ بني إسرائيل ، وذهبا إلى فرعون ، فلما بلَّغاه رسالة الله ، قال : مَنْ هو الله ؟ لا أعرفه ، ولا أُرسِلُ بني إسرائيل .

وقال الله تعالى مخبراً عن فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٥] .

يقول تعالى ، مخبراً عن فرعون : إنّه أنكر إثبات الصّانع تعالى قائلاً : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، أي : هو الذي خلق الخلق ، وقدَّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللّوحِ المحفوظ ، ثمّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى ما قدَّره له ، فطابَقَ عمله فيهم على الوجه الذي قدّره وعَلِمَه لكمال علمه وقدرته وقدره .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ١ ـ ٣] أي : قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يقول فرعونُ لموسى : فإذا كان ربُّك هو الخالق المقدِّر ، الهادي الخلائق لما قَدَّره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحقُّ العبادة سواه ، فلِمَ عبد الأوّلون غيرَه ، وأشركوا به من

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٠٥) .

الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلاّ اهتدى إلى ما ذكرته القرونُ الأولى؟! ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي : هم وإن عبدوا غيرَه ، فليس ذلك بحجةٍ لك ، ولا يدلُّ على خلافِ ما أقول ؛ لأنّهم جهلة مثلك ، كل شيءٍ فعلوه مستطرٌ عليهم في الزُّبر من صغيرٍ وكبيرٍ ، وسيجزيهم على ذلك ربّي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرّة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتابٍ لا يضلُّ عنه شيءٌ ، ولا ينسى ربي شيئاً .

ثمّ ذكر له عظمة الرَّبّ وقدرته على خلق الأشياء ، وجَعْلِه الأرضَ مهاداً والسماءَ سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابّهم وأنعامهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾ أي : لذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، والفِطَر القويمة غير السّقيمة[1] ، فهو تعالى الخالق الرازق .

وكما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَٰشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١ ـ ٢٢] ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه ، نبّه به على المعاد فقال : ﴿ مِنْهَا ﴾ ، أي : من الأرض خلقناكم ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٦ ـ ٥٩] .

يخبر تعالى عن شَقاء فرعون ، وكثرة جهله ، وقلّة عقله في تكذيبه بآيات الله ، واستكباره عن اتّباعها ، وقوله لموسى : إنّ هذا الذي جئت به سحرٌ ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقتٍ معلومٍ ، ومكان معلومٍ ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السّلام أن يُظهر آياتِ الله وحججه ، وبراهينه جَهْرة بحضرة النّاس ، ولهذا قال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ ، وكان يوم عيدٍ من أعيادهم ، ومجتمعٍ لهم ، ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أي : من أوّل النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحقّ أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلامٍ ، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرةً لأنه على بصيرة من ربّه ، ويقينٍ أن الله سيظهرُ كلمته ودينه ؛ وإن رغمت أنوف القبط .

---

(١) قوله : والفطر . . . السقيمة . سقط من ب .
(٢) قوله : ثم قال تعالى . . . زيادة من ط .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٠ ـ ٦٤] .

يخبر تعالى عن فرعون أنّه ذهب فجمع من كان ببلاده من السّحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءةً سَحَرَةً فضلاء في فنّهم غاية ، فجمعوا له من كلِّ بلدٍ ، ومن كلِّ مكان ، فاجتمع منهم خلقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ ، فقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، قاله محمد بن كعب . وقيل : سبعين ألفاً ، قاله القاسم بن أبي بَزَّة[(١)] . وقال السُّدِّي : بضعة وثلاثين ألفاً . وعن أبي أمامة : تسعة عشر ألفاً . وقال محمد بن إسحاق : خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً[(٢)] . وروى ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروي عنه أيضاً : أنّهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلّموا السّحر ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ [طه : ٧٣] وفي هذا نظر .

وحضر فرعون ، وأمراؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بَكرة أبيهم[(٣)] . وذلك أنّ فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين . وتقدّم موسى عليه السلام إلى السّحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السِّحر الباطل الذي فيه معارضةٌ لآيات الله وحججه فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : معناه أنّهم اختلفوا فيما بينهم ؛ فقائل يقول : هذا كلام نبيٍّ وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم .

وأسرّوا التناجي بهذا وغيره ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ يقولون : إنَّ هذا وأخاه هارون ساحرانِ[(٤)] عليمان مطبقان متقنان لهذه الصّناعة ، ومرادهم أن يجتمع النّاس عليهما ، ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ، ويستأمرا[(٥)] عليكم بهذه الصناعة ، ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ .

---

(١) في ط : أبي بردة ، وهو خطأ . والقاسم بن أبي بَزَّة ـ بفتح الموحدة وتشديد الزاي ـ المكي ، مولى بني مخزوم . قارىء ، ثقة . تقريب التهذيب (٢/ ١١٥) .

(٢) قوله : ألفاً . ليس في ب ، ورواية المتن موافقة لما أورده في تفسيره (٣/ ١٥٨) .

(٣) يقال : جاؤوا على بكرة أبيهم : إذا جاؤوا جميعاً على آخرهم . اللسان (بكر) .

(٤) قوله : ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم . . ﴾ . . هارون ساحران سقط من ب بنقلة عين .

(٥) في ب : وليستأصلاكم . . وليستأمرا .

وإنما قالوا الكلام الأوّل ليتدبّروا ويتواصَوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة ، والمكر ، والخديعة ، والسِّحر ، والبُهتان ، وهيهات ، كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء . أنّى يعارِضُ البهتان ، والسحرُ والهذيان ، خَوارقَ العادات التي أجراها الدَّيّان ، على يدي عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار ، وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أي : جميع ما عندكم ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ أي : جملةً واحدةً ، ثمّ حَضُّوا بعضهم بعضاً على التقدّم في هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومنّاهم ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٥ ـ ٦٩] .

لما اصطفّ السَّحرةُ ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إمّا أن تلقيَ قبلنا ، وإما أن نلقيَ قبلك . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبالٍ وعِصِيٍّ ، فأودعوها الزئبقَ وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيّل للرائي أنّها تسعى باختيارها ، وإنّما تتحرّك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين النّاس ، واسترهبوهم ، وألقَوا حبالهم وعصيَّهم وهم يقولون : بعزَّة فرعون إنّا لنحن الغالبون[1] .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي : خاف على النّاس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يُلْقِيَ ما في يده فإنّه لا يصنع شيئاً قبل أن يُؤمَر ، فأُوحيَ إليه في السّاعة الراهنة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ما جئتم به السِّحرُ إن الله سيُبْطِله إنَّ الله لا يُصْلِحُ عمل المفسدين ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ[2] عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٥] ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ ـ ١٢٢] وذلك أنّ موسى عليه السلام لمَّا ألقاها صارت حيةً عظيمةً ذات قوائم ـ فيما ذكره غيرُ

---

(١) قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

(٢) كلمة ﴿ موسى ﴾ ليست في ب . وبذلك تكون الآية من قوله عزّ وجل في سورة الأعراف : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

واحد من علماء السّلف ـ وعُنُقٍ عظيم ، وشكلٍ هائلٍ مزعجٍ ، بحيث إنّ النّاس انحازوا منها وهَربوا سِراعاً ، وتأخروا عن مكانها ، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعِصيّ فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والنّاس ينظرون إليها ويتعجّبون منها .

وأما السَّحَرة فإنهم رأوا ما هالَهم وحيّرهم في أمرهم ، واطّلعوا على أمر لم يكن في خَلَدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فعند ذلك ، وهنالك تحقّقوا بما عندهم من العلم أنّ هذا ليس بسحر ، ولا شَعْبَذة ، ولا محالٍ ، ولا خيالٍ ، ولا زورٍ ، ولا بهتانٍ ، ولا ضلالٍ ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحقّ الذي ابتعث هذا المؤيَّدَ به بالحقّ ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خَلَق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربِّهم وخرّوا لهُ ساجدين ، وقالوا جَهْرةً للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبةً ولا بلوىٰ ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٠ـ٧٦] .

قال سعيد بن جُبير ، وعكرمة ، والقاسم بن أبي بَزَّة ، والأوزاعي ، وغيرُهم : لمّا سجد السَّحَرة رأوا منازلَهم وقصورَهم في الجنة تُهَيّأ لهم ، وتُزَخْرَف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون ، وتهديده ، ووعيده ، وذلك لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السَّحرةَ قد أسلموا ، وأشهروا ذِكر موسى وهارون في النّاس على هذه الصِّفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيدٌ ، ومكرٌ ، وخداع ، وصنعة بليغة في الصدّ عن سبيل الله ، فقال مخاطباً للسَّحرة بحضرة النّاس : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾ أي : هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيّتي ، ثمّ تهدَّدَ ، وتوعّد ، وأبرق ، وأرعد ، وكذَّب فأبعد قائلاً : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ . وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل عاقل(١) ما فيه من الكفر ، والكذب ، والهذيان ، بل لا يروج مثله(٢) على الصِّبيان ، فإنَّ النّاس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أنّ موسى لم يَرَه هؤلاء يوماً من الدّهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السِّحر . ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان

---

(١) في ط : البهتان يعلم كل فرد عاقل . . .

(٢) كذا في ب وط . وفي أ : قيله .

فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، ووادٍ سحيقٍ ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الآيات : ١٠٣ ـ ١٢٦] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الآيات : ٧٥ ـ ٨٢] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الآيات : ٢٩ ـ ٥١] .

والمقصود أنّ فرعون كذب وافترى ، وكفر غاية الكفر في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، وأتى ببهتان يعلمه العالِمون ، بل العالَمون في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ يعني : يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : ليجعلهم مثلةً ونكالاً لئلاّ يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل مِلّته ، ولهذا قال : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي : على جذوع النّخل ؛ لأنّها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ يعني : في الدنيا .

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : لن نُطيعَكَ وَنَترك ما وَقَر في قلوبنا من البيّنات والدّلائل القاطعات ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل : معطوف ، وقيل : قَسَم ، ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي : فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : إنّما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ؛ صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له ، واتّبعنا رسله ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي : وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي : وأدوم من هذه الدار الفانية .

وفي الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أي : ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ أي : ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتّباعنا آيات ربنا لمّا جاءتنا ، ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي : ثَبّتنا على ما ابتُلينا به من عقوبة هذا الجبّار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقالوا له[1] أيضاً يعظونه ، ويخوّفونه بأس ربّه العظيم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ، يقولون له : فإيّاك أن تكون منهم ، فكان منهم ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ أي : المنازل العالية ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ ، فاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تُغالَب ولا تمانَع ، وحكم العليُّ العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يُصبُّ من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على

(١) في ط : وقالوا أيضاً .

وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح[١] الذّميم اللّئيم : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والظّاهر من هذه السياقات[٢] أن فرعون لعنه الله ، صلبهم وعذَّبهم ، رضيَ الله عنهم . قال عبد الله بن عباس ، وعُبيد بن عُمير : كانوا من أوّل النّهار سَحَرةً فصاروا من آخره شهداء بَرَرة . ويؤيّد هذا قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ .

***

فصل

ولمّا وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغَلَبُ الذي غُلِبَتْهُ القِبط في ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السَّحَرة الذين استنصروا بهم[٣] ، لم يزِدْهم ذلك إلا كُفراً وعِناداً وبُعداً عن الحقِّ .

قال الله تعالى بعد قَصَصٍ ما تقدّم في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الآيات : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

يخبر سبحانه وتعالى عَنِ الملأ من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنّهم حرَّضوا ملِكهم فرعون على أذيّة نبيّ الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والردِّ والأذى فقالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾ ، يعنون ـ قبّحهم اللهُ ـ أنّ دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهيَ عن عبادة ما سواه ، فسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القِبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم[٤] :

---

(١) المنبوح : المشتوم . يقال : نبحتني كلابك : أي لحقتني شتائمك . وأصله من نباح الكلب ، وهو صياحه . اللسان .

(٢) في ب : الآيات .

(٣) في ط : استنصروا ربهم . وهو خطأ . وقراءة نافع وابن كثير : ﴿ سَنَقۡتُلُ ﴾ بالتخفيف . حجة القراءات : (٢٩٤) والنشر (٢/ ٢٧١) .

(٤) قال عبد الفتاح القاضي في القراءات الشاذة (ص٤٨) : وقرأ الحسن وابن محيصن : ﴿ وإلَٰهتك ﴾ ، بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وألف بعدها ، فقيل : إنه مصدر بمعنى العبادة مضاف لمفعوله ، أي : ويترك عبادته لك ، وقيل : مصدر أريد به المفعول ، أي : ويترك المعبود الذي تعبده . وكذا في : شواذ ابن خالويه (٤٥) ، وتفسير الطبري (٩/ ١٧) ، وفيه : والقراءة التي لا نرى القراءة بغيرها هي القراءة التي عليها قرّاء الأمصار ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها .

﴿ ويذرك وإلَهتك ﴾ أي : وعبادتك[١] ، ويَحتمل شيئين : أحدهما : ويذر دينك ، وتقوّيه القراءة الأخرى . الثاني : ويذر أنْ يعبدَك ، فإنّه كان يزعم أنّه إلَهٌ ، لعنه الله .

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ، أي : لئلاّ يكثر مقاتِلتهم ، ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ ، أي : غالبون .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، أي : إذا همّوا هم بأذيّتكم ، والفتكِ بكم ، فاستعينوا أنتم بربّكم ، واصبروا على بليّتكم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، أي : فكونوا أنتم من[٢] المتقين لتكونَ لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٤-٨٦] .

وقولهم : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي : قد كانت[٣] الأبناء تُقَتَّل قبل مجيئك ، وبعد مجيئك إلينا ﴿ جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى في سورة ﴿ حمٓ ﴾ المؤمن : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣-٢٤] وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون[٤] إسرائيلياً من قوم موسى ، إلاّ أنه كان على دين فرعون ومَلَئِهِ ، وكان ذا مالٍ جَزيلٍ جداً ، كما ستأتي قِصّته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر : ٢٥] وهذا القتلُ للغلمان من بعد بعثة موسى إنّما كان على وجه الإهانة ، والإذلال ، والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلاّ يكون لهم شوكةٌ يمتنعون بها ، أو يصولون على القِبْط بسببها ، وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يردّ عنهم قدر الله الذي يقول للشيء كُنْ فيَكون .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] . ولهذا يقول النّاس على سبيل التهكّم : صار فرعون مُذَكِّراً ، وهذا منه ، فإنّ فرعون في زعمه يخاف على النّاس أن يضلهم موسى عليه السّلام .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] . أي : عذت

---

(١) في تاريخ الطبري (١/ ٤١٣) وآلهته ـ فيما زعم ابن عباس ـ كانت البقر ، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ، فلذلك أخرج لهم عجلاً بقرة .

(٢) الحرف (من) ليس في ط .

(٣) في ب : أي كانت .

(٤) في ب : وقارون كان . .

بالله، ولجأت إليه واستجرت[١] بجنابه من أن يَسْطُوَ فِرْعَونُ وغيرُه عليَّ بسوء . وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي : جبّار عنيدٍ لا يَرْعَوي ، ولا ينتهي ، ولا يخافُ عذابَ الله وعقابَه[٢] ؛ لأنّه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً . ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٢٧ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٧ ـ ٢٩] . هذا الرجل هو ابن عمٍّ فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه . وزعم بعض النّاس أنّه كان إسرائيلياً ، وهو بعيدٌ ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

قال ابن جُرَيج : قال ابن عباس : لم يُؤْمِن من القِبط بموسى إلّا هذا ، والذي جاء من أَقْصى المدينة ، وامرأةُ فرعون . رواه ابن أبي حاتم . قال الدَّارَقُطْني : لا يُعْرف من اسمُه شمعان ، بالشين المعجمة ، إلا مؤمن آل فرعون ، حكاه السّهيلي[٣] .

وفي تاريخ الطبري أن اسمه : خير ، فالله أعلم .

والمقصود أنّ هذا الرجل كان يكتم إيمانَه ، فلما هَمَّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطّف في ردِّ فرعون بكلامٍ جمع فيه الترغيبَ والترهيبَ ، فقال على وجه المشورة والرّأي ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَفْضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائرٍ »[٤] . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لأشد جَوْراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبي . ويحتمل أنّه كاشرهم[٥] بإظهار إيمانه ، وصرّح لهم بما كان يكتمه ، والأوّل أظهر . والله أعلم .

قال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي : من أجل أنّه قال : ربي الله ، فمثل هذا لا يقابَل بهذا ؛ بل بالإكرام والاحترام ، أو الموادعة وترك الانتقام ، يعني لأنه إن ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي :

---

(١) قوله : واستجرت ليس في ط .

(٢) في ب : ولا عقابه .

(٣) في التعريف والإعلام فيما أبهم من القرآن : ورقة ٥٥ .

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٧٤) في الفتن، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل وأبو داود (٤٣٤٤) في الملاحم ، وابن ماجه (٤٠١١)، في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله. وأخرجه أحمد (٤/ ٣١٤) وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي، راويه عن أبي سعيد النسائي (٧/ ١٦١) عن طارق بن شهاب أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، وهذا مرسل لأن طارق بن شهاب رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه (وينظر تهذيب الكمال (١٣/ ٣٤١ ـ ٣٤٣) والتعليق عليه) لكنه مرسل صحابي، فيصح به الحديث كما قال المصنف .

(٥) كاشرهم : ضحك في وجههم وباسطهم .

بالخوارق التي دلّت على صدقه فيما جاء به عمّن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامةٍ لأنه ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ ، ولا يضرّكم ذلك ، ﴿ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا ﴾ وقد تعرّضتم له ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ أي : وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاءٍ مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حلَّ جميعه عليكم .

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطُّف ، والاحتراز ، والعقل التّام .

وقوله : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يُحذِّرهم أن يُسلبوا هذا الملك العزيز فإنّه ما تعرّض الدول للدِّينِ إلا سُلبوا مُلْكَهم وذلّوا بعد عزِّهم ، وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا في شكٍّ ، وريبٍ ، ومخالفةٍ ، ومعاندةٍ لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك ، والدُّور والقصور والنِّعمة والحبور ، ثمّ حوِّلوا إلى البحر مهانين ، ونُقِلَتْ أرواحهم بعد العلوِّ والرِّفعة إلى أسفل السّافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن الصّادق[١] البارُّ الراشد ، التابع للحقّ ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي : لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدّة ، والقوّة والشدّة لما نفعنا ذلك ، ولا ردّ عنا بأس مالك الملك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي : في جواب هذا كلِّه : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي : ما أقول لكم إلا ما عندي ، ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، وكذب في كلٍّ من هذين القولين ، وهاتين المقدِّمتين ، فإنّه قد كان يتحقّق في[٢] باطنه وفي نفسه أنّ هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنّما كان يُظْهِرُ خلافه بغياً وعدواناً وعتوّاً وكفراناً .

قال الله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال له[٣] : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢ ـ ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٣ ـ ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، فقد كذب أيضاً ، فإنّه لم يكن على رشادٍ من الأمر ، بل كان على سَفَهٍ وضلالٍ وخَبَلٍ وخَيالٍ ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجَهلَةَ الضُّلاّلَ إلى أن اتّبعوه وطاوعوه وصدّقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنّه ربٌّ ، تعالى الله ذو الجلال[٤] .

---

(١) في ط : المصدق .

(٢) في ب : يتحقق ويعلم في . .

(٣) قوله : أنه قال له . زيادة من ب .

(٤) في ب : مولانا ذو الجلال .

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥١ـ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٠ـ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٦ـ٩٩] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٩ـ٣٥] .

يحذِّرهم وليُّ الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يَحُلَّ بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم من النقمات والمثُلات[١] ، مما تواتر عندهم ، وعند غيرهم ما حلَّ بقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم إلى زمانهم ، ذلك مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبةً في صدق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذِّبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتَّبعهم من الأولياء ، وخوّفهم يومَ القيامة ، وهو ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ أي : حين ينادي الناسُ بعضهم بعضاً ، حين يولون ـ إن قدروا على ذلك ـ ، ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠ـ١٢] . وقال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ـ٣٦] .

وقرأ بَعْضُهُم[٢] ﴿ يوم ٱلتنادّ ﴾ ، بتشديد الدال : أي : يوم الفرار ، ويحتمل أن يكون يوم القيامة ،

---

(١) المثُلات : مفردها مَثُلَة وهي النقمة تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يرتدع به غيره ، وذلك كالنكال . مفردات الراغب الأصفهاني .

(٢) هي قراءة ابن عباس والضحاك . قال : أي يندون كما تند الإبل . شواذ ابن خالويه (١٣٢) .

ويحتمل أن يكون يوم يُحِلُّ الله بهم البأس فيريدون[١] الفرار ولاتَ حِيْنَ مَناص . ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٢ ـ ١٣] .

ثم أخبرهم عن نبوّة يوسف في بلاد مصر وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم ، وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو النّاس إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريّته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، أن من سجيّتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أي : وكذّبتم في هذا ، ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي : يردّون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجّة ولا دليلٍ عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته[٢] الله غاية المقت ، أي يبغض من تلبّس به من الناس ، ومن اتّصف به من الخلق ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، قُرِىء بالإضافة وبالنعت[٣] ، وكلاهما متلازم ، أي : هكذا إذا خالفت القلوب الحقّ ولا تخالفه إلا بلا برهان ، فإن الله يطبع عليه أي يختم عليها[٤] .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧] .

كذّب فرعونُ موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزَعَمُ فرعونَ لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي : طُرُقها ومَسَالِكها ، ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ . ويحتمل هذا معنيين : أحدهما : وإني لأظنه كاذباً في قوله : إن للعالم ربّاً غيري . والثاني : في دعواه أن الله أرسله . والأوّل أشبه بظاهر حال فرعون ، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع[٥] ، والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أي : فأسأله . هل أرسله أم لا ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ أي : في دعواه ذلك .

وإنما كان مقصود فرعون أن يَصُدَّ النّاس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثّهم على تكذيبه . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ،

---

(١) في ط : فيودون .

(٢) في ب : فإن هذا مما يمقت الله . وفي ط : فإن هذا أمر يمقته .

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ ﴾ بالنعت . وقرأ الباقون بغير تنوين ، على الإضافة . حجة القراءات (٦٣٠ ـ ٦٣١) ، النشر (٢/ ٣٦٥) .

(٤) زاد هاهنا في ب : بما فيها .

(٥) من قوله : والثاني في دعواه . . . . إلى هنا سقط من أ بنقلة عين .

وقُرىء[1] : ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلّا في خسار ، أي : باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه ، فإنّه لا سبيل للبشر أن يتوصّلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً ، أعني السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السماوات العُلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ[2] . وذكر غير واحد من المفسّرين أن هذا الصرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له ، لم يُرَ بناءٌ أعلى منه ، وإن كان مبنياً من الآجرِّ المشويِّ بالنار ، ولهذا قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ .

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرون في ضرب اللَّبِن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنّهم لا يُساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون تُرابه وتِبنه ومَاءه ، ويُطلب منهم في كلٍّ يوم قسط معين ، إنْ لم يفعلوه وإلّا ضُربوا وأُهينوا غاية الإهانة ، وأُوذوا غاية الأذيّة . ولهذا قالوا لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن ، وموعظته ، واحتجاجه قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٤٠] يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق ، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهّدهم في الدنيا الدنيّة الفانية المنقضية لا محالة ، ورغّبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه ، الذي يعطي على القليل كثيراً ، ومِن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها . وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ؛ التي مَن وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد . والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في بيان إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال : ﴿ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ

---

(١) قرىء ﴿ صَدَّ ﴾ بالبناء للمعلوم ، وهي قراءة الجمهور إلا عاصماً وحمزة والكسائي ، فقد قرؤوها بالبناء للمجهول . حجة القراءات (٦٣٢) وتفسير الطبري (٢٤/ ٤٣) .

(٢) تفسير الطبري : (٢٤/ ٤٣ ـ ٤٤) .

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[١] [غافر : ٤١ ـ ٤٦] .

كان يدعوهم إلى عبادة ربّ السماوات والأرض ، الذي يقول للشيء : كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضّال الملعون ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ ، ثمّ بيّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنّها لا تملك من نفع ولا إضرار[٢] فقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي : لا تملك تصرّفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار . وأمّا الله عزّ وجلّ فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجّار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثمّ توعّدهم إنْ هم استمروا على العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ . قال الله : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي : بإنكاره سَلِم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدّهم عن سبيل الله ، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي لبّسوا بها على عوامّهم وطَغامهم[٣] ، ولهذا قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : أحاط ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي : تُعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ . وقد تكلّمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في « التفسير »[٤] ولله الحمد .

والمقصود أنّ الله تعالى لم يُهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشُبه عنهم ، وأخذ الحجّة عليهم منهم ، فبالترهيب تارةً والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٣] .

---

(١) الآية الأخيرة لم ترد في ب .

(٢) في ب : لا تملك نفعا ولا ضرا .

(٣) الطغام : أرذال الناس وأوغادهم ، الواحد والجمع سواء .

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٠ ـ ٨١) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون ، وهم قومه من القبط ، بالسّنين : وهي أعوام الجَدْب التي لا يُستغل فيها زرع ولا يُنتفع بضرع ، وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ . وهي قلّة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : فلَم ينتفعوا ولم يرعَوُوا ، بل تمرّدوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ وهو الخصب ونحوه ، ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي : هذا الذي نستحقّه ، وهذا الذي يليق بنا ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أي : يقولون : هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأوّل إنه بركتُهم وحسن مجاورتهم ، ولكنْ قلوبهم منكرة مستكبرة ، نافرة عن الحق ، إذا جاء الشرُّ أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادّعوه لأنفسهم .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : مهما جئتنا به من الآيات ، وهي الخوارق للعادات ، فلسنا نؤمن بك ولا نتّبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكلِّ آية .

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أما الطّوفان ، فعن ابن عباس : هو كَثْرةُ الأمطار المُتْلِفَةِ للزروع والثمار . وبه قال سعيد بن جُبير وقتادة والسُّدّي والضحّاك . وعن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت[(١)] . وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كلِّ حال . وعن ابن عباس : أمرٌ طافَ[(٢)] بهم .

وقد روى ابن جرير ، وابن مردويه ، من طريق يحيى بن يَمَان ، عن المنهال بن خليفة ، عن الحجّاج ، عن الحكم بن مِينا ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ « الطُّوفانُ الموْتُ »[(٣)] وهو غريب .

وأما الجراد : فمعروف . وقد روى أبو دَاودَ[(٤)] ، عن أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي قال : سُئل رسول الله عن الجراد فقال : « أكْثَرُ جُنُودِ اللهِ لا آكُلُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ » وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذُّر له ، كما ترك أكلِ الضَّبِّ ، وتنزّه عن أكل البَصَل والثوم والكرّاث ؛ لما ثبت في « الصحيحين »[(٥)] عن عبد الله بن أبي أَوْفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكلُ الجراد .

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٢ ـ ٢٧) .
(٢) في ب : حاق بهم .
(٣) هو في تفسيره : (٩/ ٢٧) من طريق أخرى عن مجاهد . وهو عن عائشة في الجامع الصغير (٢/ ١٠٨) .
(٤) سنن أبي داود رقم (٣٨١٣) في الأطعمة ، باب في أكل الجراد ، وإسناده ضعيف .
(٥) في البخاري (٥٤٩٥) في الذبائح والصيد ، باب أكل الجراد ، ومسلم (١٩٥٢) في الصيد ، باب إباحة الجراد .

وقد تكلّمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآراء في « التفسير »[١] والمقصود أنه استاف[٢] خضراءهم فلم يترك لهم زروعاً ولا ثماراً ولا سَبَداً[٣] ولا لَبَداً . وأما القُمَّل[٤] : فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه : أنّه الجرادُ الصغار الذي لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير ، والحسن : هو دوابٌّ سودٌ صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي البراغيث .

وحكى ابن جَرير[٥] عن أهل العربية أنها الحَمْنان ، وهو صغار القِرْدان ، فوق القَمْقَامة ، فدخل معهم البيوت والفُرش ، فلم يَقِرَّ لهم قرارٌ ، ولم يُمكنْهم معه الغمض ولا العيش . وفسَّره عطاء بن السائب بهذا القَمْل المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

وأمّا الضفادع : فمعروفة ، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم[٦] وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعامٍ أو شرابٍ سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأمّا الدم : فكان قد مَزج ماءهم كلّه[٧] ، فلا يستقُون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عَبِيطاً[٨] ، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ، ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلّية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجّة القاطعة ، أن هذا كلّه يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام . فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحدٍ من بني إسرائيل ، وفي هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحاق : فَرَجع عدوُّ الله فرعونُ حين آمنت السّحرة مغلوباً مفلولاً ، ثمّ أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه[٩] بالسنين ، فأرسل عليه الطّوفان ، ثمّ الجراد ، ثم القُمَّل ، ثمّ الضفادع ، ثمّ الدم ، آيات مفصلات .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢) .
(٢) في ط استاق . واستاف : أهلك .
(٣) السبد : ما يطلع من رؤوس النبات قبل أن ينتشر ، والسبد : الوبر ، وقيل : الشعر . والعرب تقول : ماله سَبَد ولا لَبَد ؛ أي : ماله وبر ولا صوف متلبد ، يكنى بهما عن الإبل والغنم . وقيل : أي ماله قليل ولا كثير . اللسان (سبد).
(٤) تفسيره (٩/ ٢٢) ، وقد أورد مختلف الأراء في تفسير القمل .
(٥) القُراد أول ما يكون وهو صغير لا يكاد يرى من صِغره يقال له : قمقامة ، ثم يصير حمنانة ، ثم قراداً ، ثم حلمة . اللسان (حمن) .
(٦) جمع طعام : أطعمة ، وجمع الجمع : أطعمات .
(٧) في ط : مُزج ماؤهم كله به .
(٨) دم عبيط : طري .
(٩) كذا في ط . وفي أ وب : فواخذه . قال ابن منظور : آخذه ، كأخذه . وفي التنزيل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ . والعامة تقول : واخَذَه . اللسان (أخذ) .

فأرسل الطوفان ، وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثمّ ركد . لا يقدرون على أن يخرجوا[١] ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا مُوْسَى رَبَّه فكشفه عنهم ، فلم يفوا له بشيء ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر ـ فيما بلغني ـ حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربّه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فذُكر لي أن موسى عليه السلام أُمر أن يَمْشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النومَ والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربّه فكشفه عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل[٢] الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلم يكشف أحدٌ ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب[٣] عليه ، فلمّا جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربّه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدمَ ، فصارت مياه آل فرعون دماً ؛ لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون[٤] من إناءٍ إلا عاد دماً عَبِيْطاً . وقال زيد بن أسْلم : المراد بالدم : الرعاف ، رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤ ـ ١٣٦] .

يخبر سبحانه وتعالى عن كفرهم ، وعتوّهم ، واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتّباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أُيّد به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عَياناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً . وكلّما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حَلَفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنُنَّ به وليرسلُنَّ معه مَن هو من حِزبه ، فكلّما رُفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل . ثمّ

---

(١) في ب : يحرثوا .
(٢) في ط : فكشف عنهم فلما لم . . . أرسل .
(٣) في ب : علت .
(٤) كذا في ب . وفي أ : ولا نهر يعرفون . . . ، وفي ط : ولا نهر يفترقون .

يعودون إلى جهلهم العريض الطويل ، هذا والعظيم الحليم القدير يُنظرهم ولا يُعَجّل عليهم ، ويؤخِّرهم ويتقدَّم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخْذَ عزيز مقتدر ، فجعلهم عِبرةً ونَكالاً وسلفاً[١] لمن أشبههم من الكافرين ، ومَثَلاً لمن اتّعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ في سورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦ـ٥٦] .

يذكر تعالى إرسالَه عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنّه تعالى أيّد رسولَه بآيات بيّنات واضحات تستحق أن تقابَل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عمّا هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحقّ والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزؤون ، وعن سبيل الله يصدّون ، وعن الحق يصدّون ، فأرسل الله عليهم الآيات تَتْرى يتبع بعضُها بعضاً ، وكلّ آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ . لم يكن لفظ السّاحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السَّحَرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى عن تبجُّح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها ، وتخرُّق الأنهار فيها ، وهي الخلجانات التي يكسرونها أمام[٢] زيادة النيل ، ثمّ تبجّح بنفسه وحِلْيته ، وأخذ يتنقّص رسولَ الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني : كلامه ؛ بسبب ما كان في لسانه من بقيّة تلك اللثْغة التي هي شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعةً له ، أن كلمه الله تعالى ، وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقَّصه فرعون ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه[٣] ، وإنما ذلك من حلية النِّساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين

---

(١) قال الله تعالى في سورة الزخرف : ٥٥ ـ ٥٦ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ أي : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخِرون .

(٢) في ب : أيام .

(٣) في ب : ولا زينة على موسى .

هم أكمل عقلاً ، وأتمّ معرفة ، وأعلى همَّة ، وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعدّ الله لأوليائه في الأخرى .

وقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان إنما المراد أن تعظِّمه الملائكة ، فالملائكة يعظّمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء في الحديث : « إنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضىً بما يَصْنَعُ »[١] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم ، عليه الصلاة والتسليم والتكريم .

وإن كان إنما المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيّد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ، ولمن قصد إلى الحقّ والصواب ، ولعمي عما جاء به من البيِّنات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك اللباب ، وطبع على قلبه ربّ الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشكِّ والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذّاب .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ، أي : استخف عقولهم الفاسدة[٢] ، ودرَجهم من حالٍ إلى حالٍ إلى أن صدَّقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبّحهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي : أغضبونا ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[٣] أي : بالغرق والإهانة ، وسَلْب العزِّ ، والتبدّل بالذُّلِّ ، وبالعذاب بعد النِّعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ أي : لمن اتبعهم في الصفات ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي : لمن اتَّعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بَلَغه جليَّةُ خبرهم ، وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٣٨ ـ ٤٢] .

يخبر سبحانه وتعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادَّعى مَلِكُهم الباطلَ ، ووافقوا عليه

---

(١) قطعة من حديث صفوان بن عسال المرادي ، أخرجه الترمذي (٣٥٣٦) في الدعوات ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٢) قوله : الفاسدة . زيادة في ب .

(٣) في ب : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الربّ القدير العزيز الذي لا يُغَالَب ولا يمانَع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحدٌ ولم يبق[1] منهم ديَّار ، بل كلٌّ قد غرق فدخل النار ، وأُتبعوا لعنة في هذه الدار بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده[2]

لما تمادىٰ قبطُ مصر على كفرهم وعتوِّهم وعنادهم ، متابعةً لملكهم فرعون ، ومخالفةً لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج[3] العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بَهر الأبصار وحيَّر العقول ، وهم مع ذلك لا يرعوون ، ولا ينتهون ، ولا ينزعون ، ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل : ثلاثة ، وهم : امرأة فرعون ـ ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ـ ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ، ومشورته ، وحجّته عليهم ، والرجل الناصح الذي جَاءَ يَسْعَى من أقصى المدينة فقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] قاله ابن عباس ؛ فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، ومراده غيرَ السَّحَرةِ ، فإنّهم كانوا من القبط .

وقيل : بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسّحرة كلّهم ، وجميع شعب بني إسرائيل . ويدلُّ على هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس : ٨٣] فالضمير في قوله : ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ عائدٌ على فرعون ، لأن السياق يدلُّ عليه ، وقيل : على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في « التفسير »[4] . وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسَطوته وجبروته وسلطته ، ومن ملئهم أن ينمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم . قال الله تعالى مخبراً عن فرعون ، وكفى بالله شهيداً : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جبّارٍ عنيدٍ مستعلٍ بغير الحقّ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : في جميع أموره ، وشؤونه ، وأحواله ، ولكنّه جرثومةٌ قد حان انجعافها[5] ، وثمرةٌ خبيثة قد آن قطافها ، ومهجةٌ ملعونة قد حُتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا

---

(١) كذا في ب وط . وفي أ : ولا يبقى .
(٢) في ط : هلاك فرعون وجنوده .
(٣) في ب : الحجج البالغة العظيمة .
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٧) .
(٥) انجعافها : انقلاعها . يقال : جعفه فانجعف : أي صرعه وضرب به الأرض فانصرع .

تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴿٨٥﴾ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ [يونس : ٨٤ ـ ٨٦] ، يأمرهم بالتوكّل على الله ، والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمَروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فَرَجاً ومخرجاً .

﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾(١) [يونس : ٨٧] .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتَّخذا لقومهما بيوتاً متميّزة فيما بينهم عن بيوت القبط ؛ ليكونوا على أُهبة في الرحيل إذا أُمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض .

وقوله : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ قيل : مساجد . وقيل : معناه كثرة الصلاة فيها . قاله مجاهد ، وأبو مالك ، وإبراهيم النَّخعي ، والربيع ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن ، وغيرهم . ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضرّ والشّدة والضّيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [سورة البقرة : ٤٥] وكان رسول الله ﷺ إذا حزَبه أمر صلّى(٢) .

وقيل : معناه أنّهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون على إظهار عباداتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأُمروا أن يصلّوا في بيوتهم عوضاً عمّا فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالُهم إخفاءَه خوفاً من فرعون وملئه . والمعنى الأول أقوى ، لقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً ، والله أعلم .

وقال سعيد بن جبير ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ : أي متقابلة .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴿٨٨﴾ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ [يونس : ٨٨ ـ ٨٩] هذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها كَليمُ الله موسى على عدوّ الله فرعون ، غضباً لله عليه لتكبّره عن اتباع الحق ، وصدّه عن سبيل الله ، ومعاندته وعتوّه وتمرُّده واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسّي والمعنوي ، والبرهان القطعي فقال : ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون

---

(١) زاد في (ب) الآية التي تليها : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩) والطبري في تفسيره (١/ ٢٦٠)، وأبو عوانة (٦٨٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٥١)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٢٥٨) (ط. د. بشار) وغيرهم من طرق عن عكرمة بن عمار عن محمد ابن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، ويقال: أخيه، عن حذيفة، به. وهذا إسناد ضعيف، محمد بن عبد الله، ويقال: ابن عُبيد، مجهول لم يرو عنه سوى عكرمة بن عمار ولم يوثقه أحد، ولذلك ذكره الذهبي في الميزان (تحرير التقريب ٢/ ٢٧٢)، وعبد العزيز روى عنه اثنان من المجهولين، وقال الذهبي: لا يعرف (تحرير التقريب ٢/ ٣٧٥). وأيضاً فإن الحديث قد اختلف فيه على عكرمة . أقول: ولكن له شاهد عند الطبراني في «الأوسط» رقم (٨٩٠) من حديث عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة، ثم قرأ ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه : ١٣٢] فهو به حسن .

وَمَلَأَهُۥ ﴾ يعني قومَه من القبط ومَن كان على ملّته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي: وهذا يغترُّ به من يُعظِّم أمرَ الدنيا فيحسب الجاهلُ أنّهم على شيء لكون هذه الأموال، وهذه الزِّينة من اللباس ، والمراكب الحسنة الهنيَّة، والدُّور الأنيقة، والقصور المبنيَّة، والمآكل الشهية، والمناظر البهية، والمُلك العزيز والتمكين، والجاه العريض في الدنيا لا الدين ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، والضحاك : اجعلها حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانت . وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حِجارةً . وقال محمد بن كعب : جعل سُكَّرَهُمْ حجارةً، وقال أيضاً: صارت أموالهم كلّها حجارة. ذُكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام[1] : قم إيتني بكيس ، فجاءه بكيس ، فإذا فيه حِمّصٌ وبَيضٌ قد قطع وقد حُوّل حجارة، رواه ابن أبي حاتم. وقوله : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ، وهذه دعوةُ غضبٍ لله تعالى ولدينه ولبراهينه ، فاستجاب الله تعالى لها وحقّقها وتقبّلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦ـ٢٧] ولهذا قال تعالى، مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئهِ وأَمَّن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال المفسرون[2] وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيدٍ لهم ، فأذن لهم وهو كارهٌ ، ولكنّهم تجهّزوا للخروج ، وتأهّبوا له ، وإنّما كان في نفس الأمر مكيدةٌ بفرعون وجنوده ليتخلّصوا منهم ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى ـ فيما ذكره أهل الكتاب ـ أن يستعيروا حليّاً منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليلٍ ، فساروا مستمرّين ذاهبين من فورهم ، طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعونُ حَنِق عليهم كلّ الحنق ، واشْتَدَّ غضبه عليهم ، وشرع في استحثاث جيشه ، وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم[3] .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٥٢ ـ ٦٨] .

---

(١) في ط : لغلام له . وقد ساق الطبري الكثير من الآراء في تفسير ذلك (١١/ ١٠٨) وما بعدها .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١١/ ٢٣٥) .
(٣) من قوله : واشتد غضبه . . . إلى هنا زيادة من ب وط .

قال علماء التفسير[١] : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم ، كان في جيشٍ كثيفٍ عرمرم ، حتى قيل : إنه كان في خيوله مئة ألف فحلٍ أدْهَم ، وكانت عدّة الجنود تزيد على ألف ألف وستمئة ألف . فالله أعلم . وقيل : إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمئة ألف مقاتل غير الذرّية ، وكان بين خروجهم من مصر[٢] صحبة موسى عليه السلام ، ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمئة سنة وست وعشرون سنة شمسية .

والمقصود أنّ فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثَمَّ ريب ولا لَبس ، وعاين كلٌّ من الفريقين صاحبه ، وتحقّقه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجاولة والمحاماة ، فعندها قال أصحاب موسى ، وهم خائفون : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضْطُرّوا في طريقهم إلى البحر ، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكُه وخوضه[٣] . وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم ، وهي شاهقةٌ منيفةٌ ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدَده وعُدَده ، وهم منه في غاية الخوف والذُّعر لِما قاسوا في سلطانه من الإهانة والنّكر ، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه ، فقال لهم الرسول الصّادق المصدوق : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، وكان في السّاقة[٤] فتقدّم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زَبَدُ أُجاجه[٥] ، وهو يقول : هاهنا أمرت ، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعُبّادهم الكبار ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوفٌ ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عُكوف ، ويقال : إن مؤمن آل فرعون جَعلِ يَقْتَحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ، ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله أهاهُنا أُمِرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر ، وضاق الحالُ ، واشتد الأمرُ ، واقترب فرعون وجنوده في جَدّهم ، وحَدّهم ، وحَديدهم ، وغضبهم ، وحنقهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ربُّ العرش الكريم إلى موسى الكليم : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فلمّا ضربه يقال : إنّه قال له : انفلق بإذن الله ، ويقال : إنّه كنّاه بأبي خالد[٦] ، فالله أعلم .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٨٩) .
(٢) قوله : مصر . سقط من ب .
(٣) في ب : وخروجه .
(٤) الساقة : مؤخرة الجيش .
(٥) الأجاج : الماء الملح . والأجيج : صوت انصباب الماء .
(٦) في ط : خلد . وأبو خالد : كنية البحر . المرصع (١٥٢) .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . ويقال : إنّه انفلق اثنتي عشرةَ طريقاً ، لكلِّ سِبطٍ[1] طريقٌ يسيرون منه ، حتى قيل : إنّه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً ، وفي هذا نظر ، لأنّ الماء جُرم شفَّاف إذا كان من ورائه ضياءٌ حَكَاه .

وهكذا كان ماءُ البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرةِ العظيمةِ الصّادرة من الذي يقول للشيء: كن، فيكون، وأَمَرَ الله ريحَ الدّبور[2] فلقحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٧ ـ ٧٩] .

والمقصود أنّه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الربّ العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحيّر الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين ، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه ، كان ذلك عند قدوم أوّل جيش فرعون إليه ووفودهم عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القديرُ ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال ، وهو الصّادق في المقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٣٣] .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي : ساكناً على هيئته لا تغيّره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والربيع ، والضحاك ، وقتادة ، وكعب الأحبار ، وسِمَاك بن حرب ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، فلما تركه على هيئته وحالته ، وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين ، هالَهُ هذا المنظر العظيم ، وتحقّق ما كان يتحققه قبل ذلك من أنّ هذا من فِعل ربّ العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدّم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم ، والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنّه أظهر لجنوده تجلّداً ، وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النّفس الكافرة ، والسجيّة الفاجرة على أن قال

---

(١) الأسباط من اليهود : كالقبائل من العرب ، الذين يرجعون إلى أب واحد . وقيل : السبط : الفرقة .
(٢) ريح الدبور : الريح الغربية .

لمن استخفّهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحرُ لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين عن طاعتي وبلدي ، وجعلَ يوري[١] في نفسه أن يذهب خلفهم ويُجوّز[٢] أن ينجو ، وهيهات ، ويقدم تارة ولكنه يحجم تارات . فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدَّى في صورة فارسٍ راكبٍ على رَمَكَةٍ حائل[٣] ، فمرّ بين يدي فحلِ فرعون لعنه الله فَحمحم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه ، فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد ، فبادر مسرعاً هذا وفرعون لا يملك من نفسه شيئاً ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين[٤] ، حتى هَمَّ أولُهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمَه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فارتَطَم عليهم البحرُ كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : في إنجائه أولياءه فلم يَغْرَق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحدٌ ، آيةٌ عظيمةٌ ، وبرهانٌ قاطعٌ على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربّه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٠ ـ ٩٢] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كَفَرة القبط ، وأنّه لما جعلت الأمواج تخفضه تارةً وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم ، والخطب الجسيم ، ليكون أقرّ لأَعْيُن بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلَكة ، وأُحيط به ، وباشر سكرات الموت ، أناب حينئذٍ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانُها[٥] ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ـ ٨٥] .

---

(١) في ب : يروّي .
(٢) في ط : ويرجو .
(٣) الرمكة : الفرس ، والحائل : التي لم تحمل .
(٤) من صيغ التوكيد في العربية .
(٥) قال عز وجل في سورة الأنعام : ١٥٨ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي : حين لا ينفعهم ذلك[1] ، ويكون حسرة عليهم ، وقد قال تعالى لهما ، أي لموسى وهارون ، حين دعوا بهذا ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ ، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام .

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد[2] ؛ حدّثنا سليمان بن حَرب ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مِهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : قالَ لي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَدَسَسْتُهُ في فِيْهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ » ورواه الترمذي[3] ، وابن جرير[4] ، وابن أبي حاتم عند هذه الآية ؛ من حديث حمّاد بن سلمة . وقال الترمذي : حديث حسن[5] .

وقال أبو داود الطيالِسِي[6] : حدَّثنا شعبة ، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنا آخُذُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسّه في فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الرَّحْمَةُ » . ورواه الترمذي[7] ، وابن جرير[8] ، من حديث شعبة[9] ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، وأشار ابن جرير في روايةٍ إلى وقفه[10] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما غرّق الله فرعون ، أشار بإصبعه ورفع صوته : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : فخافَ جبريل أن تسبق رحمةُ الله فيه غضَبَه ، فجعل يأخذ الحالَ بجناحَيه فيضرب به وجهه فيرمسه ، ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به . وقد رواه ابن جرير[11] من طريق كثير بن زاذان ، وليس بمعروف ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال

---

(١) في ب : فلم يكن ينفعهم إيمانهم ذلك . . .
(٢) مسند أحمد (١/ ٣٠٩) .
(٣) سنن الترمذي رقم (٣١٠٧) ، في التفسير ، باب ومن سورة يونس ، وهو حديث صحيح بطرقه .
(٤) تفسيره (١١/ ١١٢) .
(٥) إسناده ضعيف ، لضعف علي بن زيد بن جدعان ، وقد صح موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .
(٦) في مسنده (٢٦١٨) .
(٧) سنن الترمذي رقم (٣١٠٨) وهو حديث صحيح بطرقه ولكن الصحيح وقفه .
(٨) في تفسيره (١١/ ١١٢) .
(٩) من قوله : شعبة عن عدي . . . إلى هنا سقط من ب بنقلة عين .
(١٠) أكثر أصحاب شعبة أوقفوه، فالموقوف أصح .
(١١) في تفسيره (١١/ ١١٢ ـ ١١٣) .

رسول الله ﷺ : « قال لي جِبْرِيلُ : يا مُحمد لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنا أَغُطّهُ وَأَدُسُّ مِنَ الحالِ في فِيْهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللهِ فَيَغْفِر لَهُ » . يعني : فرعون[١] .

وقد أرسله غير واحد من السّلف كإبراهيم التيمي ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ويقال : إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفي بعض الروايات أنّ جبريل قال : ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، ولقد جعَلت أدسُّ في فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكارٍ ، ونصٌّ على عدم قبوله تعالى منه ذلك ، لأنه ـ والله أعلم ـ لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعادَ إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفّار إذا عايَنوا النارَ وشاهدوها أنّهم يقولون : ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ ـ ٢٨] وقوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شكَّ بعضُ بني إسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم : إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل : على وجه الماء ، وقيل : على نَجْوَةٍ[٢] من الأرض وعليه درعُه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي : مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أي أنت آية ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أي من بني إسرائيل ، دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه . ولهذا قرأ بعض السلف : ﴿ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾[٣] .

ويحتمل أن يكون المراد ننجّيك مصاحباً درعك لتكون درعُك علامةً لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنّك هُلِكْت . والله أعلم .

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء ، كما قال الإمام البخاري في « صحيحه » : حدّثنا محمد بن بشّار[٤] ، حدّثنا غُندَر ، حدّثنا شعبة ، عن أبي بشرٍ ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة واليهودُ تصوم عاشوراء[٥] فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، قال

---

(١) ورواه الطبراني في « الأوسط » رقم (٥٨٢٣) وفي سنده قيس بن الربيع ، وثقه شعبة والثوري ، وضعفه جماعة ، والصحيح وقفه على ابن عباس كما مر .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) في حاشية أ : بالقاف ، أي : ولتكون لخالقك آية كسائر آياته . وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه . البحر المحيط (٥/ ١٨٩) .

(٤) هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري أبو بكر ، لقبه بندار ، لأنه كان بندار حديث بلده ، أي جمع حديث بلده .

(٥) في ط : يوم عاشوراء .

النبي ﷺ[١] : « أَنْتُم أَحَقُّ بموسَى مِنْهُم[٢] فَصَامُوا » . وأصل هذا الحديث في « الصحيحين » وغيرهما[٣] . والله أعلم .

***

فصل

فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون[٤]

قال الله تعالى : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٦ ـ ١٤١] .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم ، وكيف سلبهم عِزَّهم ومالَهم وأنفسهم ، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ، كما قال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، وقال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] ، وقال هاهنا : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ أي : أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزَّهم العزيزَ العريضَ في الدنيا ، وهلك الملك ، وحاشيته ، وأمراؤه ، وجنودُه ، ولم يبقَ ببلد مصرَ سوى العامّة والرعايا . فذكر ابن عبد الحكم[٥] في « تاريخ مصر » أنّه من ذلك الزمان تسلَّط نساءُ مصر على رجالها ؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجْن بمن دونَهُنَّ

---

(١) زاد في ب : لأصحابه .

(٢) في ط : فصوموا .

(٣) رواه البخاري : رقم (٢٠٠٤) في الصوم ، باب صيام يوم عاشوراء ، ومسلم (١١٣٠) في الصيام ، باب صوم يوم عاشوراء ، وأبو داود رقم (٢٤٤٤) ، في الصوم ، باب في صوم يوم عاشوراء .

(٤) في ط : أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ، فقيه عصره . له عدة مؤلفات ، منها « تاريخ مصر » ، و « أدب القضاة » و « سيرة عمر بن عبد العزيز » . توفي سنة (٢٦٨هـ) . كشف الظنون (١/ ٣٠٤) والأعلام (٦/ ٢٢٣) .

من العامة ، فكانت لهنَّ السَّطوة عليهم ، واستمرت هذه سُنَّة نساء مصر إلى يومك هذا .

وعند أهل الكتاب : أنّ بني إسرائيل لما أُمِروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سَنَتهم ، وأُمروا أن يذبح كلُّ أهل بيت حَمَلاً من الغنم ، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حَمَل فليشترك الجار وجاره فيه ، فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلوه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يُبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يُخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم ، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأوّل من سَنتهم ، وكان ذلك في فصل الربيع ، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودةً ، وخفافهم في أرجلهم ، وعصيّهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعةٍ قياماً . ومهما فَضُل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار ، وشُرِعَ هذا لهم عيداً لأعقابهم مادامت التوراة معمولاً بها ، فإذا نُسخت بَطَل شرعُها . وقد وقع .

قالوا : وقتل الله عزّ وجلّ في تلك الليلة أبكارَ القِبط وأبكارَ دوابهم ؛ ليشتغلوا عنهم ، وخرج بنو إسرائيل حتى انتصف الليل(١) ، وأهل مصر في مناحةٍ عظيمةٍ على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا وفيه عويلٌ . وحين جاء الوَحي إلى موسى خرجوا مُسرعين ، فحملوا العجينَ قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم . وكانوا استعاروا من أهل مصر حُلياً كثيراً ، فخرجوا وهم ستمئة ألف رجلٍ سوى الذراري بما معهم من الأنعام ، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمئة سنةٍ وثلاثين سنةً . هذا نصُّ كتابهم .

وهذه السَّنة عندهم تسمى سنة الفسخ ، وهذا العيد عيد الفسخ(٢) . ولهم عيد الفَطير وعيد الحَمَل وهو أوّل السنة . وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم ، منصوص عليها في كتابهم .

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف . وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم ، فيه عامود نور ، وبالليل أمامهم عامود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر ، فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطىء اليمِّ ، فقلق كثير من بني إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحبَّ إلينا من الموت بهذه البرِّيّة . وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشَوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا .

قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ولِيَدْخُلَ بنو إسرائيل في البحر

---

(١) في ط : النهار .

(٢) في حاشية أ وب : الفصح ، وفي اللسان : والفِصح ، بالكسر : فطر النصارى ، وهو عيد لهم . وأفصحوا : جاء فصحهم ، وهو إذا أفطروا وأكلوا اللحم (فصح) .

واليَبَس[١] . وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين ، وصار وسطه يَبَساً ، لأن الله سلّط عليه ريحَ الجنوب والسَّموم[٢] ، فجاز بنو إسرائيل البحر واتَّبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسّطوه[٣] أمر الله موسى فضرب[٤] البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم .

لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح ، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم ، والله أعلم .

قالوا : ولما أغرق الله تعالى فرعون وجنوده ، حينئذٍ سبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للربّ وقالوا : نسبّح الربّ البهيَّ الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر ، المنيع المحمود . وهو تسبيحٌ طويلٌ . قالوا : وأخذت مريم النبيّة[٥] أختُ هارون دُفّاً بيدها ، وخرج النساء في أثرها كلهنّ بدفوف وطبول ، وجعلت مريم ترتّل لهنّ وتقول : سبحان الربّ القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاءً في البحر . هكذا رأيته في كتابهم . ولعلّ هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القُرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هارون وموسى مع قوله : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ [مريم : ٢٨] وقد بيَّنّا غلطه في ذلك ، وأن هذا لا يمكن أن يقال ، ولا يتابعه أحدٌ عليه ، بل كل أحدٍ خالفه فيه ، ولو قدِّر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام ، وأم عيسى عليهما السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ ، لأنّهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهلُ نجران عن قوله : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ ، فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُم كانُوا يُسَمُّونَ بأسْماءِ أَنْبِيَائِهِم » ، رواه مسلم[٦] .

وقولهم : النبيّة ، كما يقال للمرأة من بيت الملك : ملكة ، ومن بيت الإمرة : أميرة ، وإن لم تكن مباشِرَةً شيئاً من ذلك ، فكذا ، هذه استعارة لها لا أنّها نبيّة حقيقة يوحى إليها ، وضَرْبُها بالدُّفِّ في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليلٌ على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدُّف في العيد . وهذا مشروع لنا أيضاً في حقّ النِّساء ، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدّف في أيام مِنى ، ورسول الله ﷺ مضطجعٌ مولٍّ ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط ، فلما دخل أبو بكر زَجَرهن وقال : أبمزمور

---

(١) اليَبَس ، بفتحتين : المكان يكون رطباً ثم ييبس .
(٢) السَّموم : الريح الحارة ، وقيل : الباردة ليلاً كان أو نهاراً . اللسان .
(٣) أي فلما توسط فرعون وجنوده البحر .
(٤) كذا في ب ، وط . وفي أ : يضرب .
(٥) كما يقال للمرأة من بيت الملك : ملكة ، أميرة وليس المقصود أنها نبية يوحى إليها ، وسيذكر المؤلف ذلك بعد قليل .
(٦) صحيح مسلم رقم (٢١٣٥) في الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء .

الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : « دَعْهُنَّ يا أبا بَكْرٍ ، فإنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيْداً ، وَهذا عِيْدُنا »[١] .

وهكذا يُشرع عندنا في الأعراس ، ولقُدُوم الغُيَّاب ، كما هو مقرر في موضعه . والله أعلم .

وذكروا أنّهم لما جاوزوا البحر ، وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام ، مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماءً ، فتكلّم من تكلّم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماءً زعاقاً أُجاجاً[٢] لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى فأخذ خشبةً فوضعها فيه فحَلا وساغ شربه . وعلّمه الربُّ هنالك فرائضَ وسنناً ، ووصاه وصايا كثيرةً .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩] .

قالوا : هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلَّهم على ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنّهم مَرُّوا على قوم يعبدون أصناماً ، قيل : كانت على صور البقر ، فكأنهم سألوهم لِمَ يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتنصرهم[٣] ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهّال منهم صدَّقوهم في ذلك ، فسألوا نبيَّهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم مبيّناً لهم أنّهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكَّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إيّاهم على عالمي زمانهم بالعلم ، والشرع ، والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم ، وما امتنَّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبّار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ وبين لهم أنّه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهّار ، وليس كلّ بني إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل الضمير عائد على الجنس في قوله : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله[٤] : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٨] فالذين زعموا هذا بعضُ الناس لا كلُّهم ، وقد قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥٢) في العيدين ، باب : سنة العيدين لأهل الإسلام ، وابن ماجه (١٨٩٨) ، في النكاح ، باب الغناء والدف .

(٢) كذا في ب ، وط . وفي أ : زهاقا .
وماء زعاق : مرٌّ غليظ لا يطاق شربه . وماءٌ أُجاج : ملح . وقيل شديد المرارة .

(٣) في ط : وتضرهم . وكتب في حاشية ب لعله : وتضرهم .

(٤) في ب : كما قال بعضهم في قوله .

(٥) في مسنده (٥/٢١٨) .

عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزُّهري ، عن سِنان الدِّيْلي[١] ، عن أبي واقد اللَّيثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حُنَيْن ، فمررنا بسِدْرَة[٢] ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « اللهُ أَكْبَرُ ! هذا كَما قَالَتْ بَنُو إِسْرائِيْلَ لِموسَى ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ إِنَّكُم تَرْكَبُونَ سُنَنَ الذيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ » .

ورواه النسائي[٣] عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق[٤] ، به .

ورواه الترمذي[٥] ، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، به . ثم قال : حسن صحيح .

وقد روى ابن جرير[٦] من حديث محمد بن إسحاق ومَعْمر ، وعقيل ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد الليثي أنّهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن[٧] ، قال : وكان للكفار سِدرة يعكُفون عندها ويعلِّقون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمةٍ ، قال : فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قُلْتُم ـ وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ كما قَالَ قَوْمُ مُوسَى لموسَى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

والمقصود أنّ موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر ، وواجه بلاد بيت المقدس ، وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم ، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إيّاه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل ، فأبَوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلّط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التيه يسيرون ويحلّون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدّة من السنين طويلة ، هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الدِّيْلي ، بكسر الدال المهملة وسكون الياء ، وكسر اللام . لغة في الدؤلي . اللباب (١/ ٥١٤) الدؤلي .
(٢) السِّدْر : شجر النبق .
(٣) في تفسيره (٢٠٥)، وهو في الكبرى (١١١٨٥).
(٤) وهو في مصنفه (٢٠٧٦٣) .
(٥) في الفتن من جامعه (٢١٨٠) .
(٦) تفسيره (٩/ ٣١) .
(٧) في المطبوع: « خيبر » خطأ، والصواب ما أثبتناه، وينظر تعليق الدكتور بشار على طبعته في جامع الترمذي (٤/ ٥٠).

يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠ ـ ٢٦] .

يذكّرهم نبيُّ الله نعمةَ الله عليهم، وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي: تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم، ﴿ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي: فتخسروا بعد الربح، وتنقصوا بعد الكمال.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي: عتاة كفرة متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾. خافوا من هؤلاء الجبارين، وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جنداً، وهذا يدلّ على أنّهم ملومون[١] في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة من الذلّة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المَرَدة الأشقياء.

وقد ذكر كثيرٌ من المفسّرين[٢] هاهنا آثاراً فيها مجازفاتٌ كثيرةٌ باطلةٌ، يدلّ العقل والنقل على خلافها، من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً، حتى إنهم ذكروا أن رُسَل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقّاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفُّهم[٣] في أكمامه وحجزة سراويله[٤]، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبّارين، قال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنّهم من بني آدم حتى عرفوه. وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها، وأن الملك بعث معهم عنباً، كل عنبة تكفي الرجل، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم. وهذا ليس بصحيح.

وذكر هاهنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمئة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، هكذا ذكره البغوي وغيره، وليس بصحيح كما قدمنا بيانه[٥] عند قوله ﷺ: « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ طُولُه سِتُّونَ ذِراعاً »، ثمّ لم يزل الخلق ينقص حتى الآن. قالوا: فعمد عوج إلى قلة جبل[٦] فاقتلعها، ثمّ أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها، فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق، ثمّ عمد موسى إليه فوثب في الهواء

---

(١) كذا في ب، وط. وأ: ملزمون.
(٢) انظر القرطبي وابن كثير.
(٣) في ب: ويجعلهم.
(٤) حُجْزة السراويل: موضع التِّكَّة.
(٥) في الجزء الأول من هذا الكتاب، في الأحاديث الواردة في خلق آدم.
(٦) في ط: قمة. والقلَّة: أعلى الجبل، وقلَّة كل شيء: أعلاه.

عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله .

يروى هذا عن نوف[(١)] البِكَالي ، ونقله ابن جرير[(٢)] عن ابن عباس . وفي إسناده إليه نظر . ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل ، فإن الأخبار الكذب قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثمّ لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمّهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام . ويقال : إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسُّدّي والربيع بن أنس وغير واحد[(٣)] .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله ، وقرأ بعضهم[(٤)] : ﴿ يُخافون ﴾ أي : يهابون ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي : بالإسلام والإيمان والطّاعة والشجاعة : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوّكم وأيّدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فصمّم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمرٌ عظيمٌ وَوَهَنٌ كبيرٌ . فيقال : إن يوشع وكالب لمّا سمعا هذا الكلام شقّا ثيابهما ، وإنّ موسى وهارون سَجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عزَّ وجلَّ وشفقةً عليهم من وبيل هذه المقالة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم[(٥)] . ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض ، يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً ، ويقال : إنّه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلّهم في مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلّا ذراريهم ، سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب

---

(١) في الأصل « عوف »، وهو تحريف ، وهو نَوْف بن فَضَالة البِكالي ، ابن امرأة كعب ، مات بعد سنة (٩٠هـ) . قال في تقريب التهذيب : شامي مستور ، وإنما كذّب ابن عباس ما رواه عن أهل الكتاب (٢/ ٣٠٩) . والبِكالي : نسبة إلى بني بِكال ، بطن من حمير . اللباب (١/ ١٦٨) ، ولا نعرف في الرواة من اسمه عوف البكالي .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٤٣١) .

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١١٣) .

(٤) هي قراءة ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير . تفسير الطبري (٦/ ١١٣ ـ ١١٤) والبحر المحيط (١/ ١٢٣) .

(٥) تفسير الطبري (٦/ ١١٦) .

إلى النفير تكلّم الصِّدِّيقُ فأحْسَنَ، وغيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: « أشِيْروا عَلَيَّ » حتى قال سعدُ بن مُعاذ: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق[١] لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللِّقاء، لعلّ اللهَ يريكَ منّا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك[٢].

وقال الإمام أحمد[٣]: حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحْمسي[٤]، عن طارق ـ هو ابن شهاب ـ أن المِقْداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله إنّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

وهذا إسنادٌ جيِّدٌ من هذا الوجه، وله طريق[٥] أخرى: قال أحمد[٦]: حدّثنا أسود بن عامر، حدّثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه[٧] أحبّ إليَّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، قال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يُشْرِق لذلك، وسُرَّ بذلك. رواه البخاري في التفسير، والمغازي من طرق، عن مخارق، به[٨].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَردويه: حدّثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إيّاكم يريدُ رسول الله ﷺ. قالوا: إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربتَ أكبادَها إلى بَرْك الغِمَاد[٩] لاتّبعناك.

---

(١) كذا في ب، وط. وفي أ: فوالذي نفسي بيده.

(٢) انظر سيرة ابن هشام. غزوة بدر.

(٣) في مسنده (٤/ ٣١٤).

(٤) (الأَحْمَسِي): نسبة إلى أحمس، وهي طائفة من بجيلة نزلوا الكوفة. الأنساب (١/ ١٤٦).

(٥) في ط: طرق.

(٦) في مسنده (١/ ٣٩٠).

(٧) في ب: لأن أكون صاحبه.

(٨) قوله: به، ليس في ب. والحديث في البخاري برقم (٣٩٥٢) في المغازي، باب قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾، و (٤٦٠٩)، في التفسير سورة المائدة، باب ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾.

(٩) في حاشية ب: برك الغماد: مدينة النجاشي ملك الحبشة.
وقيل: هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر. وموضع في أقاصي أرض هجر. وقيل: هو أقصى حَجْر =

ورواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس[١] ، ورواه النسائي عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس ، به نحوه[٢] .

وأخرجه ابن حبّان في « صحيحه »[٣] عن أبي يعلى[٤] ، عن عبد الأعلى بن حمّاد ، عن معتمر ، عن حميد عن أنس ، به نحوه .

***

فصل

في دخول بني إسرائيل التِّيه ومَا جرى لهم من الأمور العجيبة[٥]

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبّارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنّهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ، ولم أرَ في كتاب أهل الكتاب قصّة نكولهم عن قتال الجبّارين ، ولكن[٦] فيها أن يوشع جهّزه موسى لقتال طائفةٍ من الكفّار ، وأن موسى وهارون وخور[٧] جلسوا على رأس أَكَمَةٍ ، ورفع موسى عصاه ، فكلّما رفعها انتصرَ يوشَعُ عليهم ، وكلّما مالت يدُه بها من تعبٍ أو نحوِه غلبهم أولئك ، وجعل هارون وخور يدعَمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام .

وعندهم : أن يثرون كاهن مدين وخَتَن[٨] موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى ، وكيف أظفره الله بعدوّه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته صفُّورا[٩] زوجة موسى وابناها منه جِرْشُون

= باليمن . معجم البلدان .

(١) المسند (٣/ ١٠٥ و١٨٨) .

(٢) أخرجه في السير (٨٥٨٠) والمناقب (٨٣٤٨)، والتفسير (١١١٤١) من سننه الكبرى .

(٣) ابن حبان (٤٧٢١) .

(٤) وهو في مسنده (٣٨٠٣) وهو حديث صحيح .

(٥) كذا في الأصل ، وفي ب : فصل في دخول بني إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه . . وفي ط : دخول بني إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة .

(٦) وردت هذه القصة في العهد القديم ، سفر الخروج ، الإصحاح السابع عشر .

(٧) كذا في أصولنا . (خور) بالخاء المعجمة . وفي العهد القديم : (حور) بالمهملة .

(٨) الخَتَنُ : أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته ، وكل من كان من قبل امرأته . والجمع : أختان ، والأنثى خَتَنَة . اللسان .

وهذا الخبر في سفر الخروج ، الإصحاح الثامن عشر .

(٩) كذا في أصولنا . وفي العهد القديم : صفُّورة .

وعازر[١] ، فتلقّاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظّموه وأجلّوه .

وذكروا أنّه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفّاء ، يبغضون الرِّشَا والخيانة ، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ، ورؤوس مئين ، ورؤوس خمسين ، ورؤوس عشرة ، فيقضون بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك ففصلْتَ بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا[٢] ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر ، وكان خروجهم في أوّل السنة التي شُرِعت لهم ، وهي أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم .

قالوا[٣] ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصَعِد موسى الجبلَ فكلّمه ربُّه ، وأمره أن يذكّر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إيّاهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناحَي نسرٍ من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطّهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابَهم ، وليستعدّوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربنَّ أحدٌ منهم إليه ، فمن دنامنه قُتِل ، حتى ولا شيء من البهائم ماداموا يسمعون صوت القرن ، فإذا سكن القرن فقد حلّ لكم أن ترتقوه[٤] ؛ فسمع بنو إسرائيل ذلك ، وأطاعوا ، واغتسلوا ، وتنظّفوا ، وتطيّبوا ، فلما كان اليوم الثالث ركب الجبلَ غمامةٌ عظيمةٌ وفيها أصواتٌ وبروقٌ وصوت الصور شديدٌ جداً ، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشي الجبلَ دخانٌ عظيمٌ في وسطه عمود نور ، وتزلزل الجبل كلّه زَلزلةً شديدةً ، واستمر صوت الصور ـ وهو البوق[٥] ـ واشتد ، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلّمه ويناجيه ، وأمر الربّ عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصيّة الله ، ويأمر الأحبار ـ وهم علماؤهم ـ أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدّسوا[٦] بالقرب ، وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة ، فقال موسى : يا رب إنّهم لا يستطيعون أن يَصْعدوه ، وقد نَهيتَهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بهارون أخيه ، وليكن الكهنة ـ وهم العلماء ـ والشعب ـ وهم بقية بني إسرائيل ـ غير بعيد ففعل موسى ، وكلّمه ربّه عز وجل فأمره حينئذٍ بالعشر كلمات .

---

(١) في المصدر السابق : جرشوم ؛ لأنه قال : كنت نزيلاً في أرض غريبة . واسم الآخر : أليعازر ؛ لأنه قال : إلّه أبي كان عوني وأنقذني من سيف فرعون .

(٢) في سفر الخروج ، الإصحاح التاسع عشر .

(٣) في المصدر السابق نفسه .

(٤) في العهد القديم : أما عند صوت البوق فهم يصعدون إلى الجبل .

(٥) في ب : وهو القرن .

(٦) في ط : ليتقدموا .

وعندهم[١] أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى ، وجعلوا يقولون لموسى : بلِّغنا أنتَ عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت ، فبلّغهم عنه ، فقال هذه العشر الكلمات وهي : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنّهي عن الحلف بالله كذباً ، والأمر بالمحافظة على السّبت ، ومعناه تفرُّغ يومٍ من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السَّبت .

كرّم[٢] أباك وأمك ليطول عمرك بالأرض[٣] الذي يعطيك الله ربك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على صاحبك شهادة زور ، لا تمدّ عينك إلى بيت صاحبك ، ولا تشْتَهِ امرأة صاحبك ولا عبدَه ولا أَمته ولا ثورَه ولا حمارَه ولا شيئاً من الذي لصاحبك ، ومعناه النّهي عن الحسد .

وقد قال كثيرٌ من علماء السلف وغيرهم[٤] : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ . . . ﴾ الآية [: ١٥١ـ١٥٣] .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرةً وأحكاماً متفرّقةً عزيزةً كانت فزالت ، وعملت بها حيناً من الدهر ، ثمّ طرأ عليها عصيانٌ من المكلّفين بها ، ثمّ عمدوا إليها فبدّلوها وحَرَّفوها وأَوّلوها . ثمّ بعد ذلك كلّه سَلَبوها فصارت منسوخةً مبدَّلة بعد ما كانت مشروعةً مكملة ، فلله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ألا له الخَلْقُ والأمر ، تبارك الله ربُّ العالمين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٠ـ٨٢]

يذكر تعالى منّته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم ، وخلّصهم من الضيق والحرج ، وأنه وعدهم صحبة نبيهم كليمه إلى جانب الطور الأيمن ؛ أي : منهم ، لينزّل عليه أحكاماً عظيمةً فيها مصلحةٌ لهم في دنياهم وأخراهم ، وأنّه تعالى أنزل عليهم في حال شدَّتهم وضرورتهم في سفرهم في

(١) سفر الخروج ، الإصحاح العشرون .
(٢) كذا في أ ، وب . وفي ط : أكرم ، وكذلك لفظ العهد القديم .
(٣) في ب ، وط : في الأرض . وفي العهد القديم : على الأرض .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٨١) .

الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادّخر منه لأكثر من ذلك فسد . ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه ، فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غَشِيَهم طيرُ السَّلْوى ، فيقتنصون منه بلا كُلْفةٍ ما يحتاجون إليه بحسب كفايتهم لعشاهم ، وإذا كان فصل الصيف ظلَّل الله عليهم الغمامَ ، وهو السّحاب الذي يستر عنهم حرّ الشمس وضوأها الباهر . كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ . . . إلى أن قال : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [٤٠ - ٦١] .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم بما يسّر لهم من المَنِّ والسَّلوى طعامين شهيّين بلا كُلفةٍ ولا سعيٍ لهم فيه ، بل ينزّل اللهُ المنَّ باكراً ، ويرسل عليهم طير السلوى عشياً . وأنبع الماءَ لهم بضرب موسى عليه السلام حَجَراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سِبْط عينٌ منه تَنْبَجِس ، ثمّ تتفجر ماءً زُلالاً فيستقون فيشربون[1] ويسقون دوابهم ، ويدّخرون كفايتهم . وظلّل عليهم الغمامَ من الحرّ ، وهذه نعمٌ من الله عظيمةٌ ، وعطيّات جسيمةٌ ، فما رَعَوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ، ثمّ ضجر كثيرٌ منها ، وتبرّموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ فقرّعهم الكليمُ ووبّخهم وأنّبهم على هذه المقالة وعنّفهم

(١) قوله : فيشربون . ليس في ط .

قائلاً ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أي : هذا الذي تطلبونه وتريدونه ، بدل هذه النعم التي أنتم فيها ، حاصلٌ[1] لأهل الأمصار الصغار والكبار ، موجودٌ بها ، وإذا هبطتم إليها ، أي : ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها ، تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدَّنِيَّةِ والأغذية الرديّة ، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ، ولا أبلّغكم ما تعنتم به من المنى ، وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدلّ على أنّهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه : ٨١] أي : فقد هلك ، وحُقّ له ـ والله ـ الهلاكُ والدمار . وقد حلّ عليه غضب الملك الجبّار ، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أنابَ وتاب ، ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد ، فقال : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

***

سؤال الرُّؤية

قال تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢ ـ ١٤٧] .

قال جماعةٌ من السّلَف ، منهم ابن عباس ومَسْروقٌ ومجاهدٌ[2] : الثلاثون ليلةً : هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأُتِمّت أربعين ليلةً بعشر ذي الحجة ، فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النّحر ، وفي مثله أكمل الله عزَّ وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حججه وبراهينه .

والمقصود أنّ موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً ، يقال : إنّه لم يستطعم

---

(١) في ب : بل هذه النعم التي أنتم تطلبونها حاصلة لأهل . . .

(٢) جمع هذه الأقوال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٢ ـ ٣٣) .

بطعام ، فلما كَمُلَ الشهر أخذ لِحاء شجرةٍ[١] فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمر الله أن يُمْسِك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلةً . ولهذا ثبت في الحديث[٢] أن خُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك[٣] . فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبّب المبجّل الجليل ، وهو ابن أمّه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مُصْطَفِيه ، فوصّاه وأمره[٤] ، وليس في هذا لِعُلُوّ منزلته في نبوته منافاةٌ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أي : في الوقت الذي أُمِر بالمجيء فيه ، ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ أي : كلّمه الله من وراء الحجاب إلا أنّه أسمعه الخطابَ ، فناداه ، وناجاه ، وقرّبه ، وأدناه ، وهذا مقامٌ رفيعٌ ، ومعقلٌ منيعٌ ، ومنصبٌ شريفٌ ، ومنزلٌ منيفٌ ، فصلوات الله عليه تَتْرى ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى .

ولما أُعطي هذه المنزلةَ العليّة ، والمرتبة السّنية ، وسمع الخطاب ، سأل رفعَ الحجاب ، فقال للعظيم الذي لا تُدركه الأبصارُ ، القويِّ البرهان : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ . ثم بيّن تعالى أنّه لا يستطيع أن يثبت عند تجلِّيه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً ، وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلّي من الرحمن . ولهذا قال : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ .

وفي الكتب المتقدّمة أن الله تعالى قال له : يا موسى إنّه لا يراني حيٌّ إلا ماتَ ، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَه[٥] .

وفي الصحيحين[٦] : عن أبي موسى ، عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « حِجَابُهُ النُّوْرُ » . وفي رواية : « النار . لَوْ كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَره من خلقه » .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ذاك نورُه الذي هو نورُه ، إذا تجلّى لشيءِ لا يقوم له شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

(١) لحاء كل شجرة : قشرها .

(٢) قوله : الحديث زيادة من ط . وفي ب : ثبت الحديث في أن خلوف . . .

(٣) أخرجه البخاري : برقم (١٨٩٤) في الصوم ، باب فضل الصوم . و(١٩٠٤) باب هل يقول الصائم إني صائم إذا شتم ، و(٥٩٢٧) في اللباس ، باب ما يذكر في المسك ، و(٧٤٩٢) في التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ و(٧٥٣٨) في التوحيد ، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه . ومسلم برقم (١١٥١) في الصيام ، باب فضل الصيام .

(٤) في ب : وأمره ونهاه .

(٥) في ب : يَدَّهده . والدهدهة : الدحرجة .

(٦) أخرجه مسلم (١٧٩) في الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ، ولم يرد في البخاري خلافاً لقول المؤلف وفي الصحيحين .

قال مجاهد ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ : فإنه أكبر منك ، وأشدّ خلقاً ، فلما تجلّى ربّه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدُكَّ على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل ، فخر صَعِقاً .

وقد ذكرنا في « التفسير »[1] ما رواه الإمام أحمد[2] ، والترمذي[3] وصحّحه ، وابنُ جرير[4] والحاكم[5] ، من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ـ زاد ابن جرير وليث ـ عن أنس : أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ قال : هكذا بإصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل . لفظ ابن جرير .

وقال السُّدِّي عن عكرمة ، وعن ابن عباس : ما تجلّى ـ يعني من العظمة ـ إلّا قدر الخنصر ، فجعل الجبل دكاً ، قال : تراباً ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ أي : مَغْشِيّاً عَلَيه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول ؛ لقوله ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي .

قال ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ تنزيهٌ وتعظيمٌ وإجلالٌ أن يراه بعظمته أحدٌ ﴿ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ أي : فلستُ أسأل بعد هذا الرؤيةَ ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أنّه لا يراك حيٌّ إلا مات ، ولا يابس إلا تَدَهْدَهَ[6] .

وقد ثبت في « الصحيحين » من طريق عمرو بن يحيى بن عُمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُخَيِّرُوني مِنْ بَيْنِ الأَنْبياءِ ، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُوْنَ يَوْمَ القِيامَةِ فَأكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيْقُ ، فإذا أنا بِمُوْسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ[7] فلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ[8] جُوْزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ »[9] . لفظ البخاري . وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاريُّ حين قال :

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤) وما بعدها .
(٢) في مسنده (٣/ ١٢٥ . و٢٠٩) .
(٣) سنن الترمذي رقم (٣٠٧٤) في التفسير ، باب ومن سورة الأعراف .
(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٧) .
(٥) المستدرك (١/ ٢٥ و٢/ ٣٢٠ و٥٧٧) .
(٦) في ب : يَدَّهْدَه .
(٧) في ب : فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، وسيرد الحديث بعد قليل بهذا اللفظ .
(٨) كذا في ب ، والبخاري ، وهو وفاق ما عليه أهل النحو . وفي أ ، وط : أو
(٩) في البخاري : برقم (٢٤١٢) في أول الخصومات . و (٣٣٩٨) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ ۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ ﴾ ، و (٤٦٣٨) في تفسير سورة الأعراف ، باب ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ ، و (٦٩١٦ و٦٩١٧) في الديات ، باب إذا لطم المسلم يهودياً عند الغضب . و (٧٤٢٧) في التوحيد ، باب ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ .
ومسلم رقم (٢٣٧٤) في الفضائل ، باب من فضائل موسى عليه السلام . وفي الروايات بعض اختلاف .

لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فقال رسول الله : « لا تخيِّروني مِن بين الأنبياءِ » .

وفي « الصحيحين »[١] من طريق الزُّهْري ، عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، بنحوه وفيه : « لا تُخَيِّروني عَلَى مُوسى » وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أو ليس هذا إليكم ، بل اللهُ هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس يُنالُ هذا بمجرد الرأي ، بل بالتوقيف . ومن قال : إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نُسخ باطّلاعه على أفضليته عليهم كلّهم ، ففي قوله نظر ؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلّا عام حُنَين متأخِّراً ، فيبعد أنّه لم يعلم بهذا إلّا بعد هذا . والله أعلم .

ولا شك أنّه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر ، بل الخليقة . قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيّهم . وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوْمَ القِيامَةِ وَلَا فَخْر »[٢] ، ثمّ ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبِطُه به الأوّلون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولو العزم الأكملون نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم .

وقوله ﷺ : « فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى باطِشاً بِقائِمَةِ العَرْشِ » أي : آخذاً بِها « فلا أدْرِي أَفَاقَ قَبْلي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ » دليلٌ على أنّ هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عَرَصَات القيامة حين يتجلّى الربُّ لِفَصْل القضاء بين عباده ، فيُصْعَقون من شدّة الهيبة والعَظَمةِ والجلال فيكون أوَّلَهم إفاقةً محمدٌ خاتم الأنبياء ومصطفى ربِّ الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، قال الصّادق المصدوق : « لا أدْري أَصعق فأفاقَ قَبْلي » أي : كانت صعقته خفيفة ، لأنّه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، أو جوزي بصعقة الطور ، يعني فلم يصعق بالكلّية ، وهذا فيه شرفٌ كبيرٌ لموسى عليه السلام من هذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كلِّ وجه . ولهذا نَبَّه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصّفة ، لأن المُسْلِم لمّا ضرب وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس بعض المشاهدين لذلك هضمٌ بجناب موسى عليه السلام فبيّن النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

---

(١) في البخاري : برقم (٢٤١١) في أول الخصومات . ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ .

(٢) اللفظ للترمذي . وهو قطعة من حديث فيه من طريق أبي سعيد الخدري ، رقم (٣١٤٨) في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل .
وأخرجه البخاري : برقم (٣٣٤٠) في الأنبياء ، باب قوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ومسلم (١٩٤) في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة ، باب ما جاء في الشفاعة . من طريق أبي هريرة .

ـ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ أي : في ذلك الزمان لا ما قبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضلُ منه ـ كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم[١] ـ ولا ما بعده لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سَأَقُومُ مَقَاماً يَرْغَبُ إليَّ الخَلْقُ حَتَّى إبْرَاهِيم »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ وكانت الألواح من جوهرٍ نفيسٍ . ففي « الصحيح » أنّ الله كتب له[٣] التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيلٌ لكلِّ ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام : ﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾ أي : بعزمٍ ونيّةٍ صادقةٍ قويّةٍ ﴿ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ أي : يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذّبين لرسلي . ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ﴾ عن فهمها وتدبُّرها وتعقُّل معناها الذي أريد منها ، ودلّ عليه مقتضاها ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾ أي : ولو شاهدوا مهما شاهدوه من الخوارق والمعجزات لا ينقادون لاتّباعها ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ أي : لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكّر في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

***

---

(١) في الجزء الأول .

(٢) ورد تخريجه في الجزء الأول .

(٣) في ب : كتب التوراة . والحديث في البخاري (٦٦١٤) ، ومسلم (٢٦٥٢) .

قصَّة عِبادتهم العجْل في غيبَـة كليم الله عنهم(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨ ـ ١٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٨٣ ـ ٩٨] .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه ، فمكث على الطور يناجيه ربُّه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياءَ كثيرةٍ ، وهو تعالى يجيبه عنها ، فعمد رجلٌ منهم يقال له : هارون السّامري(٢) ، فأخذ ما كان استعاروه من الحليّ ، فصاغ منه عجلاً ، وألقى فيه قبضةً من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرقَ الله فرعونَ على يديه ، فلما ألقاها فيه خارَ كما

---

(١) في ب : في غيبة كليم الله موسى عليه السلام عنهم . وفي ط : في غيبة موسى .

(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٤٢٥) : وكان اسم السامري موسى بن ظفر .

يخور العجل الحقيقي . ويقال : إنّه استحال عجلاً جسداً ، أي : لحماً ودماً حيّاً يخور . قاله قتادة وغيره .

وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دُبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ أي : فنسي موسى ربّه عندنا ، وذهب يتطلّبه وهو هاهنا ، تعالى الله عما يقولون[١] علوّاً كبيراً ، وتقدّست أسماؤه وصِفاته ، وتضاعفت آلاؤه وعِداته .

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عوّلوا عليه من إلٰهية هذا الذي قُصاراه أن يكون حَيواناً بَهيماً ، وشيطاناً رجيماً ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ فذكر أنّ هذا الحيوان لا يتكلّم ولا يردّ جواباً ، ولا يملك ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلى رشدٍ ، اتخذوه وهم ظالمون لأنْفُسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

ولمّا رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمّنة التوراة ، ألقاها ، فيقال : إنّه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب[٢] ، وأن الله أبدله غيرها . وليس في اللفظ القرآني ما يدلّ على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب أنّهما كانا لوحين[٣] وظاهر القرآن أنّها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرّد[٤] الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره[٥] بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٦] ، وابن حِبّان[٧] . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الخُبْرُ كالمُعَايَنَةِ » ، ثمّ أقبل عليهم فعنّفهم ، ووبّخهم ، وهجّنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ، ﴿ حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ تحرّجوا من تملّك حُليّ آل فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرّجوا بجهلهم وقلّة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خُوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهّار .

ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له : ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي : هَلاّ لما رأيت ما صنعوا اتّبعتني فأعلمتني بما فعلوا ؟ فقال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ

---

(١) في ب : تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .
(٢) سفر الخروج : الإصحاح الثاني والثلاثون .
(٣) المصدر السابق .
(٤) في ب : بوجود .
(٥) في ب : عن عبادتهم العجل تأثره بمعاينة ذلك .
(٦) مسند أحمد (١/ ٢٧١) .
(٧) صحيح ابن حبان (٢٤١٣) في كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

﴿ إِسْرَاءِيلَ ﴾ أي : تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشدَّ النهي ، وزجرهم عنه أتمَّ الزجر . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي : إنّما قدّر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنةً واختباراً لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي : لا هذا ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أي : فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام وكفى بالله شهيداً ، أنّه نهاهم ، وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ، ولم يتّبعوه .

ثم أقبل موسى على السّامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ أي : ما حملك على ما صنعت ؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : من أثر فرس جبريل .

وقد ذكر بعضهم أنّه رآه وكلّما وطئت بحوافرها على موضع اخضرَّ وأعشبَ ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المَصُوْغ[1] من الذهب كان من أمره ما كان ، ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يَمَسَّ أحداً معاقبة له على مسّه مالم يكن له مسّه . هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعّده في الأخرى فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ وقرىء ﴿ لَنْ تُخْلِفَه ﴾[2] ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . قال : فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرّقه بالنار كما قاله قتادة وغيره . وقيل : بالمبارد ، كما قاله علي وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل الكتاب[3] ، ثمّ ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه عَلِق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه ، وقيل : بل اصفرّت ألوانهم .

ثمّ قال تعالى إخباراً عن موسى أنّه قال لهم : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

---

(١) في ط : المصنوع .

(٢) قوله : وقرىء : لن تخلفه . سقط في ب . وفي ط : نخلفه : بالنون .
وقراءة ﴿ لن تُخْلَفه ﴾ بفتح اللام هي قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ تُخْلِفه ﴾ بكسر اللام . أي : لن تغيب عنه . على وجه التهديد . أي : ستصير إليه مريداً أو كارها ، فلا يكون لك سبيل إلى أن تخلفه . حجة القراءات (٤٦٢ ـ ٤٦٣) .

(٣) الذي قاله أهل الكتاب في سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثين : ثم أخذَ العجلَ الذي صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعماً ، وذراه على الماء ، وسقى بني إسرائيل .

وهكذا وقع. وقد قال بعض السلف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ مسجّلةٌ لكلّ صاحب بِدعةٍ إلى يوم القيمة.

ثمّ أخبر تعالى عن حلمه، ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لكنْ لم يقبلِ اللهُ توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] فيقال: إنّهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضَباباً حتى لا يعرف القريبُ قريبَه ولا النسيب نسيبه، ثمّ مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم. فيقال: إنّهم قتلوا في صبيحةٍ واحدة سبعين ألفا.

ثمّ قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ استدلّ بعضهم بقوله: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ على أنّها تكسّرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدلّ على أنّها تكسّرت. والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون ـ كما سيأتي[1] ـ أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد؛ لأنهم حين خرجوا ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾.

وهكذا عند أهل الكتاب أن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس، وذلك أنّهم لما أُمروا بقتل من عبد العجل قَتَلوا في أول يومٍ ثلاثة آلاف. ثمّ ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدّسة.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥ـ١٥٧].

ذكر السُّدّي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماءَ بني إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجلَ، وكانوا قد أُمروا أن يتطيّبوا ويتطهّروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل، وعليه

---

(١) صفحة: (٩٢) من هذا الجزء.

الغمام ، وعمود النور ساطعٌ ، وصعد موسى الجبل ، فذكر بنو إسرائيل أنّهم سمعوا كلام الله ، وهذا قد وافقهم عليه طائفةٌ من المفسّرين وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] ، وليس هذا بلازمٍ ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي مبلَّغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلَّغاً من موسى عليه السلام ، وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا اللهَ ، وهذا غلط منهم ، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفةُ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥ ـ ٥٦] وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾[١] .

قال محمد بن إسحاق : اختار مُوسى من بني إسرائيلَ سَبعينَ رجُلاً الخيِّر فالخيِّر ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا ، وتطهّروا ، وطهّروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وَقَّته له ربُّه ، وكان لا يأتيه إلا بإذنٍ منه وعلم ، فقال له طلب مني السبعون أن يسمعوا كلامَ الله ، فقال : أَفْعَلُ ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلَّه ، ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلِّم موسى ؛ يأمره[٢] وينهاه ، افعل ، لا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشفَ عن موسى الغمام ، وأقبل عليهم ، قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ ، وهي الصّاعقة ، فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربّه ، ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ أي : لا تؤاخذْنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منّا فإنا براءٌ مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنّما أخذتهم الرجْفة لأنهم لم ينْهَوا قومهم عن عبادة العجل[٣] . وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي : اختبارُك وابتلاؤك وامتحانك ، قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السّلف والخلف . يعني : أنت الذي قدّرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ أي : اختُبرتم ، ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ أي : من شئتَ أضللته باختبارك إياه ، ومن شئتَ هديته ، لك الحكم والمشيئة ، ولا مانع ولا رادّ لما حكمت وقضيت ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

---

(١) ساق الطبري عدداً من الآراء في تفسيره (٩/ ٥٠) .
(٢) في ط : يأمر ، والخبر في تفسير الطبري (٩/ ٥٠) .
(٣) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٩٥) .

أي : تبنا إليك ، ورجعنا ، وأنبنا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبو العالية ، وإبراهيم التيمي ، والضحَّاك ، والسُّدّي ، وقتادة ، وغير واحد . وهو كذلك في اللغة[1] .

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ أي : أنا أعذِّب من شئتُ بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدِّرها ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ كما ثبت في « الصحيحين »[2] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ اللهَ لَما فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ كَتَبَ كِتاباً فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتي تَغْلِبُ غَضَبِي » ﴿ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي : فسأُوحيها حتماً لمن اتصف بهذه الصفات ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾ الآية . وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأُمَّته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به ، وأعلمه ، وأطلعه عليه . وقد تكلّمنا على هذه الآية وما بعدها في « التفسير »[3] بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمِنَّة .

وقال قتادة : قال موسى يا رب أجد في الألواح أمّةً خير أمّةٍ أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ربّ اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً هم الآخِرون في الخلق ، السابقون في دخول الجنة ، ربِّ اجعلهم أمتي . قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمّةً أناجِيْلُهم في صدورهم يقرؤونها وكان مَن قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : ربّ اجعلهم أمتي : قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضَّلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذّاب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّة أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجَرون عليها ، وكان مَن قبلهم إذا تصدَّق بصدقةٍ فقُبِلتْ منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن رُدَّت عليه تُركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيِّكم لفقيركم ، قال : ربِّ فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال ربِّ فإني أجد في الألواح أمّةً إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثمّ لم يعملها كُتبت له حسنةً فإن عملها كُتِبت له عشرُ أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، قال : ربِّ اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً هم المشفَّعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال قتادة فذُكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمّةِ أحمد .

وقد ذكر كثيرٌ من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياءَ كثيرةً لا أصل لها ،

---

(١) في جمهرة اللغة (٢/ ٣٠٦) : هاد الرجل يهود هَوداً : إذا أناب ورجع . ومنه قول الله جل وعزّ : ﴿ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ﴾ أي : أنبنا ورجعنا . اللسان (هود) ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب (٥٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري : برقم (٧٤٠٤) في التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ ﴾ ، ومسلم برقم (٢٧٥١) في التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥١) .

ونحن نذكر ما تيسّر ذِكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ، ومعونته ، وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حِبان في « صحيحه »[١] : ذِكْرُ سؤال كليم الله ربّه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة : أخبرنا عمر بن سعيد الطّائي بمَنْبِج ، حدّثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا مُطَرِّف بن طريف وعبد الملك بن أبْجر ـ شيخان صالحان ـ سمعا الشعبيَّ يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربَّهُ عز وجل : أيُّ أهل الجنّة أدنى منزلةً ؟ قال : رجلٌ يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنةَ ، فيقال: ادخل الجنة . فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل النّاس منازلهم ، وأخذوا إخاذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك من الجنة مثلُ ما كان لملكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم ! أي ربّ . فيقال : لك هذا ومثله ومثله ومثله فيقول : أي ربّ ، رضيت . فيقال له : إنّ لك هذا وعشرة أمثاله ، فيقول : أي ربّ ، رضيت . فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذّت عينك . وسأل ربّه : أيُّ أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : سأحدِّثك عنهم : غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية [السجدة : ١٧] » .

وهكذا رواه مسلم والترمذي[٢] ، كلاهما عن ابن أبي عمر ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ به . ولفظ مسلم : « فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ الدُّنْيا ؟ فيقولُ : رَضِيتُ رَبِّ . فَيَقولُ : لَكَ ذلكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فيقول في الخامسة : رضِيتُ ربِّ . فيقال : هذا لك وعشرةُ أمثالِه ، وَلكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيْتُ رَبِّ . قالَ رَبِّ فأعْلاهُم منزلةً ؟ قالَ : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

وقال الترمذي : حسن صحيح قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان[٣] : ذِكْرُ سؤال الكليم ربّه عن خصالٍ سبع . حدّثنا عبد الله بن محمد بن سِلم ببيت المقدس ، حدّثنا حَرْمَلة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا السَّمْح حدَّثه عن ابن حُجَيْرة[٤] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنّه قال : سأل مُوسى رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ عَنْ سِتّ خِصَالٍ كانَ

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٢١٦) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

(٢) صحيح مسلم (١٨٩) في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . سنن الترمذي (٣١٩٨) في التفسير ، باب ومن سورة السجدة .

(٣) صحيح ابن حبان (٦٢١٧) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

(٤) هو عبد الرحمن بن حُجَيرة ، البصري القاضي ، الثقة . مات سنة (٨٣هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٤٧٧) .

يَظُنُّ أنَّها لَهُ خالِصَةٌ والسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوْسَى يُحِبُّها . قال : يا رَبِّ أيُّ عِبادِكَ أتْقى ؟ قالَ : الذي يَذْكُرُ ولا يَنْسى ، قال : فأيُّ عِبادِكَ أَهْدَى ؟ قالَ : الذي يَتَّبِعُ الهُدَى . قالَ : فأيُّ عِبادِكَ أحكم ؟ قالَ : الذي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَما يَحْكُمُ لِنَفْسِه . قالَ : فأيُّ عِبادِكَ أَعْلَم ؟ قالَ : عالِمٌ لا يَشْبَعُ مِنَ العِلْمِ يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ . قالَ : فأيُّ عبادِكَ أعَزّ ؟ قال : الذي إذا قَدَرَ غَفَر . قال : فأيُّ عبادِكَ أغْنَى ؟ قال : الذي يَرْضَى بما يُؤْتى . قالَ : فأيُّ عبادِكَ أفْقَرُ ؟ قالَ : صاحِبُ مَنْقُوصٍ . قالَ رَسُولُ الله ﷺ « لَيْسَ الغنى عَنْ ظهر ، إنّما الغنى غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ، جعل غناه في نفسه ، وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً جَعَل فَقْرَه بين عينيه » .

قال ابن حِبّان : قوله : صاحب منقوص يريد به : منقوص حالته يستقل ما أوتي ، ويطلب الفضل .

وقد رواه ابن جرير في « تاريخه »[١] عن ابن حميد ، عن يعقوب القُمّي[٢] ، عن هارون بن عنترة[٣] ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل موسى ربّه عز وجل ، فذكر نحوه ، وفيه قال : (أي ربّ ! فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم النّاس إلى علمه عسى أن يجدَ[٤] كلمةً تهديه إلى هُدى ، أو تردُّه عن ردى . قال : أي ربّ ! فهل في الأرض أحدٌ أعلم مني ؟ قال : نعم الخضر ، فسأل السبيل إلى لُقْيِهِ ، فكان ما سنذكره بَعْدُ إن شاء الله وبه الثقة .

ذكر
حديث آخر في معنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدّثنا يحيى بن إسحاق ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخُدْري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أي ربّ عبدك المؤمن مُقتَّرٌ عليه في الدُّنيا ، قال فَفُتِحَ لَهُ باب من الجنة ، فنظر إليها ، قال : يا مُوسَى هذا ما أعْدَدْتُ لَهُ . فَقالَ مُوسَى : يا رَبِّ ، وعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لو كَانَ مُقطَّعَ[٥] اليَدَيْن والرِّجلَين ، يُسْحَبُ على وجْهِه منْذُ يَوْم خَلَقْتَه إلى يوم القيامةِ ، وكانَ هذا مَصِيْره لَم يَرَ بُؤساً قَطُّ . قال : ثُمَّ قَال : أي ربِّ عَبْدك الكافِر مُوَسَّعٌ عَلَيْه في الدُّنيا . قال : ففُتح له بابٌ إلى النارِ ، فيقولُ : يا موسَى هذا ما أعْدَدْتُ لَه ، فقال : أي ربّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لَوْ كانَتْ لَهُ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٧١) ، وفي لفظه اختلاف عما هنا .

(٢) في ط : التميمي . وهو تحريف . وهو يعقوب بن عبد الله بن سعد العجمي القمي ، توفي سنة (١٧٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٦) .

(٣) في ط : عبيرة . وهو تصحيف .

(٤) في ب : أن يصيب .

(٥) في ب : أقطع .

الدُّنْيا منذُ يَوْمِ خَلَقْتَهُ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، وكانَ هذا مَصِيْرهُ لَمْ يَرَ خَيْراً قط » . تفرّد به أحمد من هذا الوجه(١) ، وفي صحته نظر . والله أعلم .

وقال ابن حبان(٢) : ذِكْرُ سُؤالِ كليم الله ربّه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به . حدَّثنا ابن سلم(٣) حدّثنا حَرْملة بن يحيى ، حدّثنا ابن وهْب ، أخبرني عمرو بن الحارث أنَّ درّاجاً حدَّثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قال مُوسَى : يا رَبِّ عَلِّمْني شَيْئاً أَذْكُركَ بهِ وَأَدْعُوْكَ بهِ . قالَ : قُلْ يا مُوسى : لا إلَهَ إلَّا اللهُ . قال يا رَبِّ كُلُّ عِبادِكَ يقولُ هذا . قالَ : قُلْ : لا إلَهَ إلَّا اللهُ . قالَ : إنَّما أُرِيْدُ شَيْئاً تَخُصُّني بهِ . قالَ يا مُوسَى لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمواتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِيْن السَّبْعِ في كِفَّةٍ ، ولَا إلَهَ إلَّا اللهُ في كِفَّةٍ مالَتْ بِهِمْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ » .

ويشهد لهذا الحديث حديث البِطاقة(٤) . وأقرب شيء إلى معناه الحديثُ المروي في السنن(٥) عن النبي ﷺ أنه قال : « أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعاءُ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ ما قُلْتُ أنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلي : لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر » . وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية

---

(١) المسند (٣/ ٨١) .

(٢) صحيح ابن حبان (٦٢١٨) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق ، وإسناده ضعيف ، فإن دراجاً ضعيف لا سيما في روايته عن أبي الهيثم .

(٣) في ط : ابن سلمة . وهو سهو . وابن سلم هو عبد الله بن محمد بن سلم الفريابي المقدسي . سمع من حرملة بن يحيى بمصر ، وحدّث عنه ابن حبان ووثقه ، توفي سنة نيف عشرة وثلاثمئة . سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٠٦) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) و (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، ومن حديثه أخرجه ابن ماجه برقم (٤٣٠٠) في الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة . والترمذي برقم (٢٦٣٩) في الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله .

(٥) هكذا قال، وفي قوله نظر، فإن هذا الحديث لم يخرجه من أصحاب السنن سوى الترمذي (٣٥٨٥) في الدعوات من جامعه من حديث حماد بن أبي حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وضعفه بحميد هذا فقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه وحماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني وليس هو بالقوي عند أهل الحديث». ومن هذا الطريق أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢١٠). ومن العجب أن الهيثمي أورده في مجمع الزوائد (٣/ ٢٥٢) وقال: رواه أحمد ورجاله موثقون! والصحيح في هذا أنه مرسل كما في الموطأ من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز (٥٧٢ برواية الليثي من ط. د. بشار). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٩): «لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسنداً من وجه يحتج بمثله. وقد جاء مسنداً من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص، فأما حديث علي فإنه يدور على دينار أبي عمرو عن ابن الحنفية وليس دينار ممن يحتج به. وحديث عبد الله بن عمرو من حديث عمرو بن شعيب، وليس دون عمرو من يحتج به فيه» ثم ساقه موصولاً من هذه الطرق وقال: «ومرسل مالك أثبت من تلك المسانيد» (٦/ ٤١) . أقول: وللحديث شاهد من حديث علي عند الطبراني في « الدعاء » رقم (٨٧٤) وفي إسناده قيس بن الربيع، وحديثه يصلح للمتابعات والشواهد، وشاهد آخر موقوف من حديث ابن عمر عند الطبراني في «الدعاء» رقم (٨٧٨) وإسناده صحيح، وشاهد ثالث مرسل من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز عند مالك (١/ ٢١٤) ومن طريقه عبد الرزاق رقم (٨١٢٥) فهو حديث حسن لغيره .

الكُرْسِي : حدّثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكي[١] ، حدّثني أبي ، عن أبيه ، حدّثنا أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينامُ رَبُّك ؟ قال : اتقوا الله . فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوكَ هل ينامُ ربك ، فخذ زُجاجتين في يديك ، فقُم الليلَ ، ففعلَ موسى ، فلما ذهب من الليل ثلثٌ نَعَسَ فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فَضَبَطَهما ، حتى إذا كان آخر الليل نَعَسَ فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنتُ أنامُ لسقطتِ السماواتُ والأرضُ فهلكن كما هلكتِ الزجاجتان في يديك . قال وأنزل الله على رسوله آية الكرسي .

وقال ابن جرير : حدّثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدّثنا هشام بن يوسف ، عن أمية بن شِبْل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : وقَعَ في نَفْسِ مُوسى عليه السلام هَلْ يَنامُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فأَرْسَلَ الله عز وجل إليه مَلَكاً فَأَرَّقَهُ ثَلاثاً ، ثُمَّ أَعْطاهُ قَارُورَتَيْنِ في كُلِّ يَدٍ قارُوْرَةٌ ، وأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا ، قالَ : فَجَعَلَ يَنامُ وكادت يَدَاهُ تَلْتَقِيان فَيَسْتَيْقِظ فَيَحْبِسُ إحْداهُما عَلى الأُخرى حَتَّى نامَ نَومَةً فاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ ، فانْكَسَرَتِ القارُوْرَتان . قالَ : ضَرَبَ اللهُ لَهُ مَثَلاً أَنْ لَوْ كَانَ يَنامُ لَمْ يَسْتَمْسِك السَّماءُ والأَرْضُ .

وهذا حديث غريبٌ رفعه ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصلُه إسرائيلياً[٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٣ ـ ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] قال ابن عباس[٣] وغير واحد من السّلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة ، أمرهم بقَبولها والأخذ بها بقوةٍ وعزم ، فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سَهلةً قبلناها ، فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مِراراً ، فأمر الله الملائكة فرفَعوا الجبلَ على رؤوسهم حتى صار ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ أي : غمامة على رؤوسهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلّا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأُمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سُنَّة لليهود إلى اليوم يقولون : لا سجدة أعظم من سجدةٍ رفعت عنا العذاب .

---

(١) الدشتكي : نسبة إلى دشتك : قرية بالري من بلاد فارس .
(٢) العلة فيه من أمية بن شبل ، قال الإمام الذهبي في الميزان (١/ ٢٧٦) : « له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً ، قال : وقع في نفس موسى : هل ينام الله . . . الحديث رواه عنه هشام بن يوسف . وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله ، وهو أقرب » .
(٣) تفسير الطبري (٩/ ٧٤) .

وقال سُنَيْد بن داود ، عن حَجَّاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبلٌ ، ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهوديٌّ صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه[١] .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم ، والأمر الجسيم ، نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بأن تداركُكم بالإرسال إليكم ، وإنزال الكُتُبِ عليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

***

(١) المصدر السابق (٩/ ٧٥) .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٦٧ ـ ٧٣] .

قال ابن عباس وعَبِيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسُّدّي ، وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بَنو أخٍ ، وكانوا يتمنَّوْن موته ليرثوه ، فعمد أحدُهم فقتله في الليل ، وطرحه في مجمع الطريق[١] ، ويقال على باب رجل منهم ، فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلَّم ، فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبيَّ الله ، فجاء ابن أخيه ، فشكى أمرَ عمه إلى رسول الله موسى ﷺ فقال موسى عليه السلام : أنشد الله رجلاً عنده عِلمٌ من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به ، فلم يكن عند أحد منهم علمٌ منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربّه عز وجل فسأل ربه عز وجل في ذلك ، فأمره الله تعالى أن يأمرهم بذبح بقرة ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول لنا هذا . ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ أي : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أُوحيَ إليَّ . وهذا هو الذي أجابني حين سألته عمَّا سألتموني عنه أن أسأله فيه .

قال ابن عباس وعَبِيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية ، وغير واحد : فلو أنّهم عَمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصودُ منها ، ولكنهم شددوا ، فشدَّد عليهم . وقد ورد فيه حديث مرفوع[٢] ، وفي إسناده ضعف ، فسألوا عن صفتها ، ثمّ عن لونها ثمّ عن سنّها ، فأجيبوا بما عزّ وجودُه عليهم ، وقد ذكرنا تفسير ذلك كلّه في « التفسير »[٣] .

---

(١) في ط : الطرق .

(٢) انظر الدر المنثور (١/ ١٩٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٨) .

والمقصود أنهم أُمروا بذبح بقرة عوان ، وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة ، والبكر وهي الصغيرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة .

ثمّ شدّدوا وضيّقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأُمروا بصفراء فاقعٌ لونها ، أي مُشربٌ بحمرةٍ تسرُّ الناظرين . وهذا اللون عزيز . ثمّ شدّدوا أيضاً ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا » وفي صحته نظر[1] . والله أعلم . ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم ، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذَّلول ، وهي المذلّلة بالحراثة ، وسقي الأرض بالسانية[2] ، مسلّمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ أي : ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هي مسلَّمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها ، فلمّا حدّدها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ ويقال : إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفات إلا عند رجلٍ منهم كان بارّاً بأبيه ، فطلبوها منه فأبى عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه ـ فيما ذكره السُّدّي ـ بوزنها ذهباً ، فأبى عليهم ، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم ، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي : وهم يتردَّدون في أمرها .

ثمّ أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها . قيل : بلحم فخذها . وقيل بالعظم الذي يلي الغُضْروف . وقيل بالبضعة التي بين الكتفين ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو تشخب أوداجه[3] فسأله نبي الله : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثمّ عاد ميتاً كما كان . قال الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : كما شاهدتم إحياء هذا القتيلِ عن أمر الله له ، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءَهم أحياهم في ساعةٍ واحدة كما قال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ الآية : [لقمان : ٢٨] .

***

---

(١) أورده المؤلف في تفسيره (١/ ١١٥) ، عن أبي هريرة ، وقال : وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة .

(٢) السانية : الدلو الكبير يُستقى بها .

(٣) الأوداج : عروق في العنق . وقد ساق المؤلف في تفسيره (١/ ١١٢) الكثير من الآراء حول هذه القصة .

قِصّة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ[1] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠ ـ ٨٢] .

قال بعضُ أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن[2] إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم ، وينقل عن كتبهم ، منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البِكَالي . ويقال : إنّه دمشقي ، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار . والصحيح الذي دلَّ عليه ظاهر سياق القرآن ، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه ، أنّه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل .

---

(١) في أ : ﴿ زاكية ﴾ ، وما أثبتناه قراءة الجمهور .

(٢) قوله : إسحاق بن زيادة من ط ، وفي ب توقف عند يعقوب .

قال البخاري[1] : حدّثنا الحميدي ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا عمرو بن دينار ، أخبرني سعيد بن جُبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البِكَالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدّثنا أُبَي بن كعب أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ مُوْسَى قامَ خَطِيباً في بَني إسْرَائِيْلَ فَسُئِلَ : أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فقَالَ : أنا . فعَتِبَ اللهُ عَلَيْهِ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْه ، فأوْحَى اللهُ إلَيْه : إنَّ لي عَبْداً بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ . قالَ موسَى : يا رَبِّ وَكَيْفَ لي بهِ ؟ قالَ : تَأْخُذُ مَعَكَ حُوْتاً فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ[2] فَحَيثما فقَدْتَ الحوتَ فهُوَ ثَمَّ . فأَخَذَ حُوتاً فَجَعلَه بِمِكْتَلٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوْشَعُ بنُ نُونٍ حَتّى إذا أَتَيا الصَّخْرَةَ وَضَعا رُؤُوسهما فَناما ، واضْطَرَبَ الحوتُ في المِكْتَلِ ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ وَاتّخذَ سَبِيْلَه في البَحْرِ سَرَباً . وأمْسَكَ اللهُ عَنِ الحوتِ جرية الماءِ فَصارَ عَلَيْهِ مِثْل الطاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بالحوتِ فانْطَلقا بَقِيَّة يَوْمِهِما وَلَيْلَتهما حَتّى إذا كانَ مِنَ الغَدِ ﴿ قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوْسَى النَّصَبَ حَتَّى جاوَزَ المَكانَ الذي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ ﴿ قَالَ ﴾ له فتاه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قال : فكان للحوت سَرَباً ولموسى ولفتاه عجباً ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجلٌ مُسَجًى بثوب ، فسلّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلامُ . قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما عُلّمت رُشْداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه اللهُ لا تعلمه أنتَ ، وأنتَ على علم من علم الله علّمَكه الله لا أعلمه ، فقال موسى ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ . قال له الخضر : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينةٌ فكلّمهم أن يحملوهم ، فعرَفوا الخضر ، فحملوهم بغير نَوْل . فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم . فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ « وكانتِ الأولى مِنْ مُوسى نسياناً ، قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل

---

(١) سقطت صفحة كاملة من ب ، وعوض عنها صفحة بخط مغاير ، ووقع فيها اختلاف كثير عن نسخة الأصل ، لم أشر إليه لأنه لا يفيد في اختلاف النسخ .

(٢) المكتل : الزنبيل الذي يعمل من الخوص .

لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال : مائل ، فقال الخضر بيده ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ فقال موسى : قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله ﷺ « ودِدْنا أنَّ مُوسَى كانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنا مِنْ خَبَرِهِما »[(١)] .

قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم مَلِك يأخذ كلّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً ، وكان يقرأ : وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين .

ثم رواه البخاري[(٢)] أيضاً عن قُتيبة ، عن سُفيان بن عُيَيْنة بإسناده ، نحوه . وفيه : فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة ، فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان : وفي حديث غير عَمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها : الحياة ، لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرّك وانْسَلَّ من المِكتل ، ودخل البحرَ ، فلما استيقظ ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا ﴾ وساق الحديث وقال : ووقع عصفور على حرف السفينة ، فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره . . . وذكر تمام الحديث .

وقال البخاري : حدّثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جُريج أخبرهم قال : أخبرني يعلى بن مسلم ، وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جُبير يزيد أحدهما[(٣)] على صاحبه ، وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لَعند ابن عباس في بيته إذ قال : سَلوني ، فقلت : أي أبا عباس ـ جعلني الله فداك ـ بالكوفة رجل قاصٌ يقال له : نوف ، يزعم أنّه ليس هو نبي بني إسرائيل ، أما عمرو فقال لي : قال : كذب عدوُّ الله . وأمّا يعلى فقال لي : قال ابن عباس : حدّثني أُبَي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : مُوسى رسول الله ذَكَّرَ الناسَ يوماً حتى إذا فاضت العيونُ ، ورقّت القلوبُ ، ولّى فأدركه رَجُل ، فقال : أي رسول الله هل في الأرض رجل أعلم منك ؟ قال : لا ، فَعَتِبَ اللهُ عَلَيْه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلْم إلى الله . قيل : بلى . قال : أي ربّ فأين ؟ قالَ : بِمَجْمَع البَحْرَيْن . قالَ أي رَبّ اجْعَل لي علماً أعلم ذلك به . قال : قال لي عمرو : حيث يفارقك الحوت . وقال لي يعلى : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه البخاري : رقم (١٢٢) ، في العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ؟ فيكل العلم إلى الله . وفيه اختلاف عما هاهنا .

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٧٢٧) في تفسير سورة الكهف ، باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ . صحيح البخاري (٤٧٢٦) .

(٣) قوله : يزيد أحدهما . . . إلى هنا . زيادة من ط . وهي في البخاري .

الروح ، فأخذ حوتاً فجعله في مِكتل فقال لفتاه : لا أُكلّفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفتَ كبيراً ، فذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ يوشع بن نون . ليست عن سعيد بن جبير . قال : فبينما هو في ظلّ صخرةٍ في مكان ثَرْيَان إذ تَضَرَّبَ[١] الحوت ، وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أُوقظه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر ، قال : فقال لي عمرو : هكذا كان أثره في حجر ، وحلّق بين إبهاميه واللتين تليان . ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ . وقد قطع الله عنك النصب . ليست هذه عن سعيد . أخبره ، فرجعا فوجدا خضراً قال : قال عثمان بن أبي سليمان على طنفسة[٢] خَضْراء على كبد البحر . قال سعيد : مُسجّى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضٍ من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ قال : أما يكفيك أنّ التوراة بيديك ، وأنّ الوحي يأتيك ، يا موسى إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائرٌ بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلمك في جَنْب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وجدا معابر صغاراً تحمل أهل الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح . قال : فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال : نعم . لا نحمله بأجر . فـ ﴿ خَرَقَهَا ﴾ ووتّد فيها وَتَداً ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قال مجاهد : منكراً ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ . كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً . ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ قال يعلى[٣] : قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون ، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً ، فأضجعه ، ثمّ ذبحه بالسكين . ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ لم تعمل بالخبث . ابن عباس قرأها ﴿ زكية ﴾ زاكية مسلمة كقولك : غلاماً[٤] زكياً . ﴿ فَٱنطَلَقَا . . . فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام ، قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسحه بيده فاستقام . ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . قال سعيد : أجراً نأكله . ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ . وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس أمامهم ﴿ مَّلِكٌ ﴾ يزعمون عن غير سعيد أنّه هدد بن بدد ، والغلام المقتول [اسمه][٥] يزعمون جيسور . ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فإذا هي

---

(١) ثريان : مبلول . وتَضَرَّب ، تَحرَّكَ وسار في الأرض .

(٢) الطنفسة : البساط .

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٥) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سقطت من ط ، وهي في أ وفي صحيح البخاري الذي ينقل منه المصنف .

مرّت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . منهم من يقول : سدُّوها بقارورة ، ومنهم من يقول : بالقار.

﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافراً ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي : يحملهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ لقوله : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ . ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر . وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جاريةً . وأما داود[١] بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : إنها جارية .

وقد رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خطب موسى بني إسرائيل فقال : ما أحدٌ أعلم بالله وبأمره مني ، فأُمِرَ أن يلقى هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدّم . وهكذا رواه محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن عمارة ، عن الحَكَم بن عُتَيْبَة ، عن سعيد بن جبير ، عن أُبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً . ورواه العَوْفي عنه موقوفاً .

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس[٢] أنه تمارى هو والحرُّ بن قيس بن حصن الفزازي في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضرٌ ، فمر بهما أُبي بن كعب ؛ فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقْيِهِ ، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً ؟ قال : نعم . وذكر الحديث[٣] .

وقد تقصَّينا طُرق هذا الحديث ، وألفاظه في تفسير سورة الكهف[٤] . ولله الحمد .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قال السُّهيلي : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح . ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل : كان ذهباً ، قاله عكرمة ، وقيل : علماً ، قاله ابن عباس . والأشبه أنّه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزّار[٥] : حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدّثنا بِشْر بن المنذر ، حدّثنا الحارث بن عبد الله اليَحْصُبي[٦] ، عن عيّاش بن عباس القتباني ، عن ابن حُجَيرة عن

---

(١) في ط : وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية ، وأما داود . وهو تحريف ، وما هنا موافق لما في صحيح البخاري .

(٢) حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أخرجه أحمد (٥/ ١١٦) والبخاري (٧٤) و(٧٨) في العلم ، و(٣٤٠٠) في أحاديث الأنبياء ، و(٧٤٧٨) في التوحيد ، ومسلم (٢٣٨٠) (١٧٤) ، والنسائي في العلم من سننه الكبرى (٥٨٤٤) ، وفي التفسير المفرد (٣٢٧) و(٣٢٨) و(٣٢٩) وهو في الكبرى (١١٣٠٧) و(١١٣٠٨) و(١١٣٠٩) (وينظر المسند الجامع ١/ ٧٥ ـ ٧٦ حديث ٧٥) .

(٣) إلى هنا نهاية الصفحة المخالفة لخط ب .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٨) .

(٥) انظر كشف الأستار (٢٢٢٩) ، وفي إسناده ضعف .

(٦) اليَحصِبي ، بفتح الياء وسكون الحاء ، وكسر الصاد المهملة ، وقيل : بضمها : نسبة إلى يحصب : قبيلة من حِمْيَر . اللباب (٣/ ٤٠٧) .

أبي ذر رَفَعه قال : إن الكَنْز الذي ذَكَرَ اللهُ في كتابه لوح من ذهب[١] مصمت ، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب[٢] ؛ وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ، لا إلّه إلا الله .

وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة ، وجعفر الصادق نحو هذا .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ وقد قيل : إنه كان الأب السابع ، وقيل : العاشر . وعلى كلّ تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته ، فالله المستعان .

وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليلٌ على أنّه كان نبياً ، وأنّه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه ، بل بأمر ربّه ، فهو نبي ، وقيل : رسول ، وقيل : وليٌّ . وأغرب من هذا من قال : كان ملكاً والله أعلم[٣] .

وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا[٤] .

---

(١) في ط : من الذهب . وذهب مُصْمَت : لا يخالطه شيء .

(٢) كذا في أ ، وط . وتفسير المؤلف . وفي ب : يغضب .

(٣) جاء في المطبوع من البداية والنهاية هنا زيادة لم ترد في أ وب . وهي :
قلت : وقد أغرب جداً من قال : هو ابن فرعون . وقيل : إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة .
قال ابن جرير : والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ، ويقال : إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل : إنه كان أفريدون ، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل .
وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باقٍ إلى الآن . وقيل : إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل . وقيل : اسمه : ملكان ، وقيل : أرميا بن خلقيا . وقيل : كان نبياً في زمن سباسب بن لهراسب .
قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب .
قال ابن جرير : والصحيح : أنه كان في زمن أفريدون ، واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى في زمن منوشهر الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده ، وكان عادلاً ، وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل في كل قرية دهقاناً . وكانت مدة ملكه قريباً من مئة وخمسين سنة . ويقال : إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم . وقد ذكر عنه من الخطب الحسان ، والكليم (كذا في ط) البليغ النافع الصحيح ما يبهر العقل ويحير السامع ، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم .
وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ . . الآية [آل عمران : ٨١] .
فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره ، فلو كان الخضر حياً في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان مِن جملة مَن تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة . وقصارى الخضر ـ عليه السلام ـ أن يكون نبياً ، وهو الحق ، أو رسولاً ، كما قيل ، أو ملكاً ـ فيما ذكر ـ وأياً كان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ، فأولى أن يدخل في عموم البعثة ، وأحرى ، ولم ينقل في حديث حسن ، بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به . وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه ، فإسناده ضعيف . والله أعلم .

(٤) في ب : على حدة بعد هذا .

ذكر الحديث الملقب بحديث الفُتُوْن

المتضمّن قصّة موسى مبسوطة من أوّلها إلى آخرها[١]

قال الإمام أبو عبد الرحمن النَّسائي في كتاب التفسير من « سننه »[٢] ، عند قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [الآية : ٤٠] : (حديث الفتون) :

أخبرنا عبد الله بن محمد ، حدّثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا أَصْبَغ بن زيد[٣] ، حدّثنا القاسم بن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جُبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قوله تعالى لموسى ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنفِ النهارَ يا بنَ جُبير ، فإن لهذا حديثاً طويلاً ، فلما أصبحتُ غدوتُ إلى ابن عباس لأَنْتَجِزَ منه ما وعدني من حديث الفُتون فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وَعَدَ إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذُرِّيّته أنبياءَ وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكُّون فيه ، وكانوا يظنُّون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلَكَ قالوا : ليس هكذا وعد إبراهيم . فقال فرعون : فكيف تَرَون ؟ فأتَمَرُوا وأجْمعوا أمرَهم على أن يبعث رجالًا معهم الشِّفار[٤] يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلّا ذبحوه ، ففعلوا ذلك . فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغارَ يُذبحون ، قالوا : توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخِدْمة الذي كانوا يكفونكم ، فاقْتُلوا عاماً كلَّ مولود ذكر ، فيقل أبناؤهم[٥] ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشبّ الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إيّاكم ، ولن يفنوا[٦] بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان ، فولدته علانيةً آمنةً . فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهمُّ والحزَن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، ما دخل عليه في

---

(١) في ب : المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها . وسقط من العنوان أوله . وفي ط : حديث الفنون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها .

(٢) هو في كتاب التفسير من السنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي (٤/٤٣٨) . وتحرفت فيه الفتون ، إلى القنوت ، وانظره في تفسير النسائي (٣٤٦) وهو قطعة من سننه الكبرى .

(٣) في ب : يزيد . وأصبغ بن زيد بن علي الجهني ، الوراق ، كاتب المصاحف . صدوق . من السادسة . مات سنة (١٥٧هـ) تقريب التهذيب (١/ ٨١) .

(٤) الشفار : جمع شفرة ، وهي السِّكين العظيم ، وحدُّ السيف .

(٥) في المطبوع من التفسير : « نباتهم » .

(٦) في ط . « تفتنوا » تحريف .

بطن أمّه مما يراد به فأوحى الله إليها أن ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوتٍ ، وتلقيه في اليمِّ ، فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : ما فعلت بابني ؟ لو ذُبح عندي فواريتُه ، وكفَّنتُه كان أحبَّ إليَّ من أن ألقيه إلى دوابّ البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضةٍ تستقي منها جواري امرأة فرعون ، فلما رأينَه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدِّقْنا امرأةُ الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يُخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى عليه منها محبةً لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص : ١٠] من ذكر كلِّ شيءٍ إلّا من ذكر موسى .

فلما سمع الذَّبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت لهم : أقرُّوه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أَلُمكم، فأتت فرعون فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : يكون لك ، فأمّا لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَما أَقَرَّتِ امْرأَتُهُ لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاها ، ولَكِنْ حَرَمَهُ ذلكَ »[1] فأرسلت إلى مَن حولها ، إلى كلِّ امرأة لها لبن تختار ظِئْراً[2] ، فجعل كلّما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يُقْبِل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأُخرج إلى السوق ومجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظِئراً تأخذه منها فلم يقبل ، وأصبحت أمّ موسى والهاً ، فقالت لأخته قصِّي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذِكراً أحيّ ابني أم قد أكلته الدواب ، ونسيت ما كان الله وعدها فيه ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ أخته ﴿ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ١١] والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيءٍ بعيدٍ وهو إلى جنبه لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا ﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] فقالوا ما يدريك ما نصحهم هل يعرفونه ؟ حتى شكّوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له ، وشفقتهم عليه ، ورغبتهم في صهر الملك ، ورجاء منفعة الملك ، فأرسلوها ، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمّه فلما وضعته في حجرها نزا[3] إلى ثديها فمصه[4] حتى امتلأ جنباه ريّاً .

---

(١) تقدم الحديث .
(٢) في ب : كل امرأة لها ولد لأن تختار له ظئراً ، وفي ط : « الى كل امرأة لها لأف » ولا معنى لها . والظئر : المرضعة لغير ولدها .
(٣) نزا : وثب .
(٤) وفي ب : يمُصّنّه .

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظِئراً ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه . فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئاً حبّه قطّ . قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلتُ ، فإني غيرُ تاركة بيتي وولدي ، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجزٌ موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظ لما قد قضى فيه ، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأمّ موسى : أزيريني ابني . فوعدتها يوماً تزيرها[١] إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزّانها ، وظؤورها ، وقَهَارمتها[٢] : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديةٍ وكرامةٍ لأرى ذلك فيه ، وأنا باعثة أميناً يحصي كلّ ما يصنع كلّ إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنُّحْل[٣] تستقبله من حين خرج من بيت أمّه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نَحَلَتْه وأكرمتهُ وفرحت به ، ونحلَت أمّه بحسن أثرها عليه . ثمّ قالت : لآتين به فرعون فلينحلنّه وليكرمنّه ، فلما دخلت به عليه ، جعله في حجره ، فتناول موسى لحيةَ فرعون فمدّها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيّه أنّه زعم أن يرثك[٤] ويعلوك ويصرعك ، فأَرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا بن جبير ، يُعدُّ كلُّ بلاءٍ ابتُلي به وأريد به فتوناً . فجاءت امرأة فرعون تسعى[٥] إلى فرعون فقالت : ما بدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يُزْعَمُ أنه يصرعني ويعلوني . فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقربْهن إليه ، فإن بطش[٦] باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفتَ أنّه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يُردِ اللؤلؤتين علمتَ أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين ، وهو يعقل ، فقرّب إليه فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟! فصرفه الله عنه بعد ما كان هَمَّ به وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشدّه ، وكان من الرّجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحدٍ من بني إسرائيل معه بظلمٍ ولا سخرةٍ حتى امتنعوا كلّ الامتناع ؛ فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برَجُلين يقتتلان ، أحدهما فرعوني ، والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى

---

(١) في ط : تريها ، وما هنا من النسخ ، وهو الذي في تفسير النسائي الذي ينقل منه المصنف .

(٢) قهارمة : جمع قهرمان ، وهو من أمناء الملك وخاصته . (فارسي) .

(٣) النُّحْل : إعطاؤك الإنسان شيئاً بلا استعاضة ، ومهر المرأة .

(٤) هكذا هنا وفي تفسيره أيضاً ، وفي تفسير النسائي : « يَرُبَّك » ولعله الأوجه .

(٥) في ب : تبكي ، وما هنا يعضده ما في التفسير .

(٦) بطش بالشيء : أخذه بعنف وشدة .

غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم [لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع إلا أمُّ موسى ، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى عليه السلام من ذلك على][١] ما لم يطّلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحدٌ إلا الله عَزَّ وجلَّ والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ١٦ ـ ١٨] الأخبارَ ، فأُتي فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقّنا ولا ترخّص لهم ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ؟ فإن الملك وإن كان صغوه[٢] مع قومه لا ينبغي له أن يقتل بغير بيِّنةٍ ولا ثبتٍ، فاطلبوا لي علمَ ذلك آخذْ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون لا يجدون بيِّنةً إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد نَدِم على ما كان منه ، وكره الذي رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يَبْطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨]. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعد ما قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده إنّما أراد الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي . وقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] وإنّما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا . وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرْسَل فرعون الذّباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسلُ فرعون الطريق الأعظم يمشون على هِينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجلٌ من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجِّهاً نحو مَدين لم يلق بلاءً قبلَ ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حُسنُ ظنّه بربّه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : ٢٢ ـ ٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس ، قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما ننتظر فضول حياضِهم ، فسقى لهما ، فجعل يغرف في الدلو ماءً كثيراً حتى كان أول الرعاءِ . وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظلّ بشجرةٍ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، واستنكر أبوهما سرعة صَدَرِهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً فقال : إن لكما اليوم لشأناً ، فأخبَرَتاه بما صنع

---

(١) زيادة من تفسير النسائي . وقريب منها في ب .

(٢) في ط والمطبوع من تفسير النسائي : صفوه ، بالفاء وهو تصحيف . والصغو . . الميل .

موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلَّمه ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ، ولسنا في مملكته ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فاحتملته الغَيْرَةُ على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أمّا قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه . وأما الأمانة فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسَه فلم يرفعه حتى بلَّغته رسالتَك ، ثمّ قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسُرِّي عن أبيها وصدَّقها وظنّ به الذي قالت ، فقال له : هل لك ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٧] ففعل ، فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة ، وكانت السنتان عِدَةً منه ، فقضى الله عنه عِدَته فأتمها عشراً .

قال سعيد ـ هو ابن جبير[1] ـ : فلقيني رجلٌ من أهل النصرانية من علمائهم قال : هل تدري أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابنَ عبَّاس ، فذكرت ذلك له فقال : أما علمتَ أن ثمانيةً كانت على نبي الله واجبةً لم يكن نبيُّ الله ليُنقِص منها شيئاً ، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عِدَته التي وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قصّ الله عليك في القرآن . فشكا إلى الله تعالى ما يتخوَّف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنّه كان في لسانه عقدةٌ تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربّه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ، ويتكلّم عنه بكثيرٍ مما لا يُفصح به لسانه ، فآتاه الله عز وجل سؤله وحلَّ عقدةً من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه فاندفع[2] موسى بعصاه حتى لقي هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذَن لهما . ثمّ أُذِن لهما بعد حِجاب شديد، فقالا : إنا رسولا ربّك . فقال : فمن ربّكما ؟ فأخبره بالذي قصّ الله عليك في القرآن . قال فما تريدان ؟ وذكَّره القتيل ، فاعتذر بما قد سمعت . قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ، فأبى عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي حية[3] عظيمةٌ فاغرةٌ فاها مسرعة إلى فرعون ، فلمَّا رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، واقتحم عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ، ففعل . ثمّ أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعني من غير بَرَصٍ . ثمّ ردَّها فعادت إلى لونها الأول .

---

(١) في ب : سعيد بن جبير .
(٢) في ب : فانتفع .
(٣) في أ وط : « ثعبان » وما هنا من ب ، وهو الذي عند النسائي .

فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له : ﴿ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣] يعني مُلْكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السّحرة فإنّهم بأرضك كثيرٌ حتى تغلب بسحرك سحْرَهما ، فأرسل إلى المدائن فحشر له كلّ ساحرٍ متعالم . فلمّا أتوا فرعون قالوا : بم يعمل الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيّات . قالوا : فلا والله ما أحدٌ في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل . وما أَجْرُنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصّتي ، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شيء أحببتم ، فتواعدوا يومَ الزينة ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] .

قال سعيد : فحدّثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسّحرة هو يوم عاشوراء ، فلمّا اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلّنا نتَّبِعُ السّحرة إن كانوا هم الغالبين . يعنون موسى وهارون استهزاءً بهما ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ - بعد تريثهم بسحرهم - ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] قالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] فرأى مُوسى من سحرهم ما أوجَسَ في نفسه خيفةً ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغِرةً فاها ، فجعلت العصي تَلَبَّسُ بالحبال حتى صارت جُرَزاً على الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته ، فلما عرف السّحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ[١] من سحرنا كلّ هذا ، ولكنّه أمرٌ من الله تعالى ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنّا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وامرأة فرعون بارزةٌ متبذِّلة[٢] تدعو الله بالنّصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظنّ أنها إنّما ابتذلت[٣] للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنّما كان حزنها وهمّها لموسى .

فلما طال مكثُ موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ؛ كلّما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف من غده ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادِعَ ، والدَّمَ آياتٍ مفَصَّلاتٍ ، كلّ ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفّها عنه ، ويوافقه[٤] على أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كفّ ذلك عنه أخلف بوعده ، ونكث عهده حتى أُمِرَ موسى بالخروج بقومه ، فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنّهم قد مضوا ، أرسل في المدائن

---

(١) في ط : « تبلغ » ، وما هنا يعضده ما في تفسير النسائي ، وب .
(٢) في ط : مبتذلة .
(٣) هكذا في أ وط وتفسير النسائي ، وفي ب : تبذلت .
(٤) في ب : ويطلب إليه أن يوافقه .

حاشرين ، فتبعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقةً حتى يجوز موسى ومن معه ، ثمّ الْتقِ على من بقي بعد من فرعون وأشياعه ، فنسي[١] موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قَصيف[٢] مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل ، فلما تراءى الجمعان ، وتقاربا قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] افعل ما أمرك به ربّك فإنه لم يكذب ، ولم تكذب ، قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثمّ ذكر بعد ذلك العَصَا ، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربّه ، وكما وعد موسى ، فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلّهم البحر ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أُمرَ .

فلما جاوز موسى قال أصحابه : إنّا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه[٣] ، فدعا ربّه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثمّ مرّوا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩] قَدْ رأيتم من العبر ، وسمعتم ما يكفيكم .

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون فإنّ الله قد استخلفه عليكم ، فإنّي ذاهب إلى ربّي وأجّلَهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربّه عزّ وجلّ وأراد أن يكلّمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهنّ ليلَهنَّ ونهارَهنَّ ، وكره أن يكلّم ربّه وريح فِيه ريح فم الصّائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربّه حين أتاه : لم أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال يا ربّ إني كرهت أن أكلّمك إلّا وفمي طيّب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك . ارجع فصُم عشراً ، ثمّ ائتني . ففعل موسى ما أمره به ربُّه ، فلما رأى قومُ موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ، ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم فقال : إنّكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار وودائعُ ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ، ولا أحلّ لكم وديعة استُودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برَادّين إليهم شيئاً من ذلك ، ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيراً وأَمَرَ كلَّ قومٍ عندهم من ذلك من متاعٍ أو حليةٍ أن يقذفوه في ذلك الحفير . ثمّ أوقد عليه النار فأحرقه فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

---

(١) في ب : فأنسي .
(٢) القصيف : الصوت الهائل يشبه صوت الرعد .
(٣) في ب : ولا نأمن بهذا له .

وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيرانٌ لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً ، فقبض منه قبضةً ، فمرّ بهارون ، فقال له هارون : يا سامري ألا تلقي ما في يديك ، وهو قابض عليه لا يراه أحدٌ طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا أُلقيها لشيءٍ إلا أن تدعو اللهَ إذا ألقيتُها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن تكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاعٍ ، أو حليةٍ ، أو نحاسٍ ، أو حديدٍ ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ، له خُوار . قال ابن عباس : لا والله ما كان فيه صوت قط ، إنّما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك .

فتفرّق بنو إسرائيل فِرَقاً ، فقالت فرقةٌ : يا سامري ما هذا ـ وأنت أعلم به ـ قال : هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقةٌ : لا نكذّب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه ، وعجزنا فيه حتى رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى . وقالت فرقةٌ : هذا من عمل الشيطان وليس بربّنا ، ولا نؤمن به ، ولا نصدّق . وأسرّت فرقةٌ في قلوبهم الصّدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون عليه السلام : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه : ٩٠] ليس هذا . قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثمّ أخلفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت . فقال سفهاؤهم : أخطأ ربّه فهو يطلبه ويبتغيه .

فلمّا كلّم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي قومه من بعده ، فرجع إلى قومه غضبان أسفاً ، فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن ؟! ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] وألقى الألواح من الغضب . ثمّ إنّه عَذَرَ أخاه بعذره ، واستغفر له ، فانصرف إلى السامري ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت ﴿ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ وفطنت لها ، وعَميت عليكم ، فقذفتها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه : ٩٦ ـ ٩٧] ولو كان إلّهاً لم يخلص إلى ذلك منه .

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا أن يُفتح لنا بابُ توبةٍ نصنعها فتكفّر عنّا ما عملنا ، فاختار ﴿ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] لذلك لا يألو الخير خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فُعل بهم ما فُعل ، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] وفيهم من كان الله تعالى اطلع منه على ما أُشرب قلبه من حُبّ العجل وإيمانٍ به ، فلذلك رجفت بهم الأرض ، فقال : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦-١٥٧] فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي ، فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي ، فليتك أخّرتني حتى تخرجني في أمّة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إنّ توبتهم أن يقتل كلّ رجلٍ من لقي من والدٍ وولدٍ فيقتله بالسيف ، لا يبالي مَن قتل في ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أُمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثمّ سار بهم موسى عليه السلام متوجّهاً نحو الأرض المقدّسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أُمِر به من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم وأبَوا أن يقرّوا بها ، ونَتَقَ الله عليهم الجبل كأنّه ظلّةٌ ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، وأخذوا الكتاب بأيمانهم ، وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافةَ أن يقع عليهم ، ثمّ مضوا حتى أتوا الأرض المقدّسة ، فوجدوا مدينة فيها قومٌ جبارون ، خَلْقُهم خَلْقٌ منكر ، وذكر من ثمارهم أمراً عجباً من عِظَمها ، فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ ـ قيل ليزيد : هكذا قرأه ؟ قال : نعم ـ من الجبارين آمَنَا بموسى وخرجا إليه فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ؛ فإنهم لا قلوب لهم ، ولا منعة عندهم ، فادخلوا ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ﴾ ويقول أُناس : إنهم من قوم موسى . فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[1] [المائدة : ٢٢ ـ ٢٤] فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسمَّاهم فاسقين ، ولم يدعُ عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ ، فاستجاب الله له وسمَّاهم كما سمَّاهم فاسقين ، فحرّمها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض ، يصبحون كلّ يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، ثمّ ظلّل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربّعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كلّ ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كلّ سبطٍ عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من مَنْقَلَةٍ[2] إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان منهم فيه بالأمس .

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ، وصدَّق ذلك عندي أن معاوية سمع من ابن عباس هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل ، فقال : كيف يفشي عليه ، ولم يكن عَلم به ، ولا ظهر عليه إلاّ الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عبّاس ، فأخذ بيد

---

(١) من قوله : قيل ليزيد : هكذا . . . إلى . . . إنا هاهنا قاعدون . سقط من ب .

(٢) في ب : منزلة . وفي ط : محلة . والمنقلة : المرحلة من مراحل السفر .

معاوية ، فانطلق به إلى سعد بن مالك الـزُّهْري ، فقال له : يا أبا إسحـاق ، هل تذكـر يوم حدّثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره .

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي . وأخرجه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم في « تفسيريهما » من حديث يزيد بن هارون . والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر ، وغالبه متلقى من الإسرائيليات ، وفيه شيء يسير مصرّح برفعه في أثناء الكلام ، وفي بعض ما فيه نظرٌ ونكارةٌ ، والأغلب أنه كلام كعبِ الأحبار .

وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّي يقول ذلك . والله أعلم .

***

ذكر
بناء قبّة الزمان

قال أهل الكتاب[٢] : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبّة من خشب الشمشار[٣] ، وجلود الأنعام ، وشعر الأغنام ، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضّة على كيفيات مفصّلة عند أهل الكتاب ولهـا عشر سُرادقـات ؛ طول كلٍّ واحدٍ ثمـانية وعشرون ذراعـاً ، وعرضه أربعة أذرعٍ ، ولها أربعةُ أبوابٍ وأطنابٌ من حريرٍ ، ودمقس مصبغ ، وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضّة ، وفي كلِّ زاوية بابان ، وأبوابٌ أُخر كبيرةٌ ، وستورٌ من حريرٍ مصبغ وغير ذلك مما يطول ذِكره .

وبعمل تابوتٍ[٤] من خشب الشمشار ، يكون طولُه ذراعين ونصفاً وعرضه ذراعين وارتفاعُه ذراعاً ونصفاً ، ويكون مضبَّباً[٥] بذهبٍ خالصٍ من داخله وخارجه وله أربع حَلَقٍ في أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان[٦] من ذهبٍ ، يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان ، صنعه رجل اسمه بصليال .

وأمره أن يعمل مائدةً من خشب الشمشار طولها ذراعان وعرضهـا ذراع ونصف لها ضِبَاب ذهب

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) وابن جرير (١٦/ ١٦٤) وفي إسناده ضعف .
(٢) العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح السادس والعشرون .
(٣) في المصدر السابق : شجر السنط . وهو نوع من الشجر يكثر في مصر . القاموس المحيط .
(٤) سفر الخروج ، الإصحاح الخامس والعشرون .
(٥) ضبَّبَ الخشب : ألبسه الحديد أو الذهب أو نحوهما .
(٦) الكروبيون : الملائكة المقربون .

وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليلٍ من ذهب وأربع حَلق من نواحيها من ذهب مُغرزة في مثل الرمّان ، من خشب ملبّس ذهباً ، واعمل صِحافاً[١] ومصافي وقصاعاً على المائدة .

واصنع منارة من ذهبٍ دليّ[٢] ، وفيها ست قصبات من ذهب من كلِّ جانب ثلاث ، على كلِّ قصبة ثلاثة سُرُج ، وليكن في المنارة أربعة قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً ، وهو الذي عمل المذبح أيضاً ، ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أوّل يومٍ من الربيع ، ونصب تابوت الشهادة ، وهو ـ والله أعلم ـ المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وقد بُسط هذا الفصل في كتابهم مطوّلاً جدّاً ، وفيه شرائع لهم ، وأحكام ، وصفة قربانهم وكيفيته . وفيه أن قبّة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدِّم على مجيء بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلّون فيها وإليها ، ويتقرّبون عندها . وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها[٣] ، وينزل عمود الغمام على بابها فيخرّون عند ذلك سُجَّداً لله عزّ وجلّ ، ويكلم اللهُ موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نورٌ ، ويخاطبه ، ويناجيه ، ويأمره ، وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامدٌ إلى ما بين الكَرُوبِيِّيْنَ ، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه اللهُ عزَّ وجلَّ إليه من الأوامر والنواهي . وإذا تحاكموا إليه في شيءٍ ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبّة الزمان ، ويقف عند التابوت ، ويصمد لما بين ذينك الكروبِيِّيْنَ ، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة[٤] .

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم ، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم وعند مصلاّهم ، فأمّا في شريعتنا فلا ، بل قد نُهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لِئَلا تشغل المصلّين ؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسّع في مسجد رسول الله ﷺ للّذي وكّله على عمارته : ابنِ للناسِ ما يُكنُّهم ، وإياكَ أن تُحمِّر أو تُصَفِّر فتفتن الناس . وقال ابن عباس : لا تُزَخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسَهم[٥] ، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه لهذه الأمّة عن مشابهة من كان قبلهم من الأمم ، إذ جمع الله همّهم في صلاتهم على التوجّه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكّر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة . فلله الحمد والمِنَّة .

---

(١) الصحاف : جمع صَحْفَة ، وهي آنية الطعام . والمصافي : جمع مصفاة .
(٢) في العهد القديم : ذهب نقي .
(٣) في ب : حَوْلها .
(٤) في ب : الخصومة .
(٥) رواه البخاري تعليقاً (١/ ٥٣٩) .

وقد كانت قبّة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يُصلُّون إليها وهي قبلتهم ، وكعبتهم ، وإمامُهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومُقدِّم القربان أخوه هارون عليه السلام . فلما مات هارون ثمّ موسى عليهما السلام ، استمرّت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان . وهو فيهم إلى الآن .

وقام بأعباء النبوّة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشَع بن نون عليه السلام ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس ، كما سيأتي بيانه .

والمقصود هنا أنّه لما استقرّت يده على البيت المقدّس نصب هذه القبّة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يصلّون إليها ، فلما بادت صلوا إلى محلّتها ، وهي الصخرة ، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه . فلما هاجر أُمِر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فصلّى إليها ستة عشر ، وقيل : سبعة عشر شهراً[1] . ثم حُوّلت القبلة إلى الكعبة ، وهي قبلة إبراهيم ، في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، كما بسطنا ذلك في « التفسير »[2] عند قوله تعالى : ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الآيات[3] [البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٤] .

* * *

(١) في ب : ستة عشر شهراً ، وقيل : سبعة عشر .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩) .

(٣) زاد في ب : والله أعلم .

قصة قارون مع موسى عليه السّلام

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٧٦-٨٣] .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباسٍ قال : كان قارون ابنَ عم موسى . وكذا قال إبراهيم النَّخَعِي[١] ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسِماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وزاد فقال : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث[٢] .

قال ابن جرير[٣] : وهذا قول أكثر أهل العلم أنّه كان ابن عمّ موسى . وردَّ قولَ ابن إسحاق : إنه كان عم موسى .

قال قتادة : وكان يُسمّى النُّورَ لِحُسْنِ صوته بالتوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السّامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفُّعاً على قومه .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزة حتى إن مفاتحه لكان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد . وقد قيل : إنها كانت من الجلود ، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم .

---

(١) النَّخَعي ، بفتح النون والخاء المعجمة : نسبة إلى النخع ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج . اللباب (٣/ ٣٠٤) .
(٢) في ب : وموسى بن عمران بن يصهر بن قاهث . وط : هافث .
(٣) كذا في ب . وفي أ وط : جريج . والخبر في تاريخ الطبري (١/ ٤٤٣) ، وفيه : وأما أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتابين فعلى ما قال ابن جريج .

وقد وعظه النّصحاء من قومه قائلين : ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي : لا تبطر بما أُعطيت ، وتفخر على غيرك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ . يقولون : لتكن همّتك مصروفةً إلى تحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنّه خيرٌ وأبقى ، ومع هذا ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : وتناول منها بمالك ما أحلّ الله لك فتمتّع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : وأحسن إلى خَلق الله كما أحسن الله خالقُهم وبارئُهم إليك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : ولا تُسيء إليهم ، ولا تفسد فيهم ، فتقابلهم ضدّ ما أُمرت فيهم فيعاقبك ، ويسلبك ما وهبك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فما كان جوابه لهذه النّصيحة الصّحيحة الفصيحة إلا أن ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ، ولا إلى ما إليه أشرتم ، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهلٌ له ، ولولا أني حبيب إليه ، وحَظِيٌّ عنده لما أعطاني ما أعطاني .

قال الله تعالى راداً عليه ما ذهب إليه : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له ، واعتنائنا به كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [سبا : ٣٧] وقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] . وهذا الردّ عليه يدلّ على صحّة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ . وأمّا من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صَنْعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح ؛ لأن الكيمياء تخييل وصبغة ، لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق ، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاءُ به مِن كافر به ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثمّ لا يصح جوابه لهم لهذا على التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم . وقد وضحنا هذا في كتابنا « التفسير »[1] ولله الحمد .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمُّلٍ عظيمٍ من ملابس ، ومراكب ، وخدمٍ ، وحشمٍ ، فلما رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله ، وغَبَطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفَهم الصحيح الزهّاد الألبّاءُ قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أي : ثواب الله في الدار الآخرة خيرٌ وأبقى وأجلُّ وأعلى . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ أي : وما يلقّى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمّة السامية

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩) .

إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنيّة إلّا مَن هدى اللهُ قلْبَهُ ، وثبّت فؤاده ، وأيّد لُبّه ، وحقق مراده . وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ لما ذكر الله تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ كما روى البخاري[1] من حديث الزهري عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إزارَهُ إذْ خُسِفَ بهِ فَهُو يَتَجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يَومِ القيامَةِ » ثمّ رواه البخاري[2] من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحوه .

وقد ذُكر عن ابن عباس والسُّدي أن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأٍ من الناس : إنّك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال : إنّها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق ، وصلّى ركعتين ، ثمّ أقبل عليها فاستحلفها مَنْ دَلّكِ على ذلك وما حملك عليه ؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله ، وتابت إليه ، فعند ذلك خرّ موسى لله ساجداً ، ودعا الله على قارون ، فأوحى الله تعالى إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك . فالله أعلم[3] .

وقد قيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينته مرّ بجحفله[4] ، وبغاله ، وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكّر قومه بأيام الله ، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه ، فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنتَ فُضِّلت عليَّ بالنبوة فلقد فُضِّلتُ عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعُوَن عليّ ، ولأدعون عليك ، فخرج وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو ؟ قال : أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يُجَب في موسى . فقال موسى : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مُرِ الأرض فلتطغى[5] اليوم ، فأوحى الله تعالى إليه : إني قد فعلتُ ، فقال موسى : يا أرضُ خذيهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثمّ قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثمّ إلى مناكبهم ، ثمّ قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثمّ أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوي ، فاستوت بهم الأرض .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٥) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٢) صحيح البخاري رقم (٥٧٩٠) في اللباس ، باب من جرّ ثوبه خيلاء .
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٥) .
(٤) في ب : بخيله .
(٥) في ب : فلتطعني . وهو أشبه .

وقد روي عن قتادة أنّه قال : يُخسف بهم كلَّ يوم قامةٌ إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنّه قال : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] ولمّا حلّ به ما حلّ من الخسف ، وذهاب الأموال ، وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم[1] من كان تمنى مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى الذي يدبّر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . وقد تكلّمنا على لفظ (ويك) في « التفسير »[2] ، وقد قال قتادة : (ويكأن) بمعنى : ألم ترَ أنّ ، وهذا قولٌ حسنٌ من حيثُ المعنى والله أعلم .

ثمّ أخبر تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهي دار القرار ، وهي الدار التي يُغْبَط من أُعطيها ، ويُعزَّى من حُرمها إنّما هي معدّة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ فالعلوُّ هو التكبُّر ، والفخر ، والأشر ، والبطر ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ وهو عمل المعاصي اللازمة والمتعدّية من أخْذِ أموال الناس ، وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم ، وعدم النّصح لهم ، ثمّ قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقصّة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التِيه ، وتكون الدار عِبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام كما قال عنترة : [من الكامل]

يـا دارَ عَبْلـةَ بـالجِـوَاءِ تَكلَّمـي وَعِمي صَباحاً دارَ عَبْلةَ واسْلَمي[3]

والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمّة قارون في غير ما آية من القرآن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت ، بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

---

(١) في ب : تدبّر .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١) .

(٣) من معلقته التي مطلعها : [من الكامل]

هَـلْ غـادَرَ الشعـراءُ مِـن مُتَـرَدَّمِ أم هـلْ عـرفـتَ الـدارَ بعـدَ تـوَهُـم

ديوانه (١٨٣) . والجِواء : موضع .

أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٣٩ ـ ٤٠] .

فالذي خسف الله به الأرض قارون ـ كما تقدّم ـ والذي أغرق فرعون وهامان وجنودَهما أنّهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد[1] : حدّثنا أبو عبد الرحمن ، حدّثنا سعيد ، حدّثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى ابن هلال الصَّدَفي[2] ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنّه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حَافَظَ عَلَيْها كانَتْ لَهُ نُوراً وبُرْهَاناً ونجاةً يومَ القِيامة ، ومَنْ لَم يُحَافِظْ عَلَيْها لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهانٌ ولا نَجَاةٌ ، وكانَ يَوْمَ القيامةِ مَعَ قَارُونَ وفِرْعَونَ وهامان وأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ » . انفرد به أحمد ، رحمه الله .

***

باب
ذِكْر فضَائِل موسى عليه السّلام وَشمائِله وصفاته ووفاته[3]

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وتقدّم في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تُفَضِّلُوني عَلَى مُوسَى ، فإنّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القيامَةِ فأكُونُ أوّلَ مَنْ يفِيْقُ فأجِدُ مُوْسَى باطِشاً بِقائمةِ العَرْشِ فَلا أدْرِي أَصعِقَ فأفاقَ قَبْلي أمْ جُوزي بِصَعْقَةِ الطُّورِ »[4] . وقدّمنا أنه مِنْ رسول الله ﷺ مِنْ باب الهَضْم والتواضع ، وإلّا فهو صلوات الله وسلامُه عليه خاتم الأنبياء ، وسيّد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

---

(١) في مسنده (٢/ ١٦٩) ، وهو حديث حسن .
(٢) الصدفي : نسبة إلى الصَّدِف ، بكسر الدال ، وهي قبيلة من حمير نزلت مصر . اللباب (٢/ ٢٣٦) .
(٣) في ط : باب فضائل . . . ووفاته .
(٤) تقدم تخريجه ص (٧١) .

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدّثنا إسحاق[١] بن إبراهيم ، حدّثنارَوح بن عبادة ، عن عوف ، عن الحسن ومحمد وخِلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مُوسَى كانَ رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لا يَرَى جِلْدَهُ شَيْءٌ استحياءً منه ، فآذاهُ مَن أذاه مِن بني إسْرائيلِ ، فقالوا : ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلّا مِن عَيْبِ بِجلْدِهِ إمّا بَرَصٌ وإما أُدْرَةٌ[٢] وإمّا آفةٌ . وإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أرادَ أنْ يُبَرِّأَهُ مِمَّا قالُوا لِموسى ، فَخَلا يَوْماً وَحْدَهُ ، فَوَضَعَ ثِيابَهَ عَلى الحَجَرِ ، ثُمَّ اغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيابِهِ لِيَأْخُذَها ، وأنّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فأخَذَ مُوسى عَصَاهُ وطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَل يَقُولُ : ثَوبي حَجَرٌ ، ثوبي حَجَرٌ ، حَتّى انْتَهَى إلى مَلأٍ مِن بني إسْرائيل ، فَرَأَوْهُ عُرْياناً أحْسَنَ ما خَلَقَ اللهُ وبرّأه[٣] مِمّا يَقُولُونَ . وقامَ الحجَرُ فأخَذَ ثَوبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بالحجَرِ ضَرْباً بعصاهُ ، فوالله إنَّ بالحجَرِ لَنَدباً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثلاثاً أوْ أرْبعاً أو خَمْساً[٤] » ، قال : فذلك قولُه عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[٥] .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق ، وهمّام بن منبه ، عن أبي هريرة ، به[٦] .

وهو في « الصحيحين »[٧] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه ، به .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه[٨] .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنّه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلى سُؤاله ، وأعطاه طَلِبَتَهُ ، وجعله نبياً كما قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ . ثم قال

---

(١) في ط : ابن .
وفي ب ، هنا ، خمسة أسطر كتبت بخط مخالف ، لخط الأصل ، وفيها نص مخالف لنص أ وط . وهو : (حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي - ﷺ - قال : « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى - ﷺ - يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر فذهب مرة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى في إثره يقول : ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا : والله ما بموسى من بأس . وأخذ ثوبه ، فطفق بالحجر ضرباً » . قال أبو هريرة : والله إنه لندب بالحجر ستة أو سبعة ضرباً بالحجر) .
وهذا الحديث رواه البخاري (١/ ٣٨٥) ، في الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده . وهو فيه عن إسحاق بن نصر عن عبد الرزاق .

(٢) في ط : أو . والأدرة ، بضم الهمزة وسكون الدال ، وقيل بفتحتين : نفخة في الخصية .

(٣) كذا في ط . وفي أ : وأبرأه وهذا مما زاده ابن كثير هنا في النص وليس في لفظ البخاري .

(٤) نهاية الخلاف مع ب .

(٥) أخرجه البخاري : برقم (٣٤٠٤) في الأنبياء ، باب (٢٨) .

(٦) المسند (٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥) .

(٧) رواه البخاري رقم (٢٧٨) ومسلم برقم (٣٣٩) في الحيض ، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة .

(٨) في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٣٣٩) (١٥٦) .

البخاري[١] : حدّثنا أبو الوليد ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا الأعمش : سألت أبا وائل قال سمعت عبد الله قال : قَسَم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل : إنّ هذه قِسْمةٌ ما أُريد بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه . ثم قال : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسى ، قَدْ أوْذِيَ بأكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَرَ » . وكذا رواه مسلم[٢] من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش ، به .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا حجاج[٣] ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هشام مولى لهمْدان ، عن زيد بن أبي زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً فإنِّي أُحِبُّ أنْ أَخْرُجَ إلَيْكُم وَأنا سَلِيْمُ الصَّدْرِ » . قال وأتى رسولَ الله ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررتُ برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمدٌ بقسمته وجه الله ولا الدارَ الآخرة ، فثبتُّ حتى سمعتُ ما قالا . ثمّ أتيت رسولَ الله فقلت : يا رسول الله إنّك قلتَ لنا : « لا يُبَلِّغُني أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابي شَيْئاً » وإني مررتُ بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا . فاحمرَّ وجهُ رسول الله ﷺ وشقّ عليه . ثمّ قال : « دعْنا مِنْكَ فَقَدْ أوْذِيَ مُوسَى أَكْثَرَ مِنْ ذلكَ فَصَبَرَ »[٤] .

وهكذا رواه أبو داود والترمذي[٥] من حديث إسرائيل ، عن الوليد بن أبي هاشم ، به . وفي رواية للترمذي[٦] ولأبي داود[٧] من طريق ابن العبد ، عن إسرائيل ، عن السُّدّي ، عن الوليد ، به . وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقد ثبت في « الصحيحين » في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره . ورواه مسلم عن أنس .

وفي « الصحيحين »[٨] من رواية قتادة عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبي ﷺ أنّه مرّ ليلة أُسْرِي به بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى فسلِّم عليه ، قال : « فَسَلَّمْتُ عَلَيْه ، فَقَال : مَرْحَباً بالنبي الصَّالح والأخ الصَّالِحِ ، فَلَمَّا تجاوَزْتُ بَكَى ، قيلَ له : ما يُبْكِيك ؟ قالَ : أبْكي لأنَّ غُلاماً بُعِثَ بَعْدي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أمّتهِ أكْثَرُ مما يَدْخُلها من أمّتي » ، وذكر إبراهيم في السماء السابعة .

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٠٥) في الأنبياء ، باب (٢٨) .
(٢) صحيح مسلم رقم (١٠٦٢) في الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه .
(٣) في ط : أحمد بن حجاج .
(٤) المسند (١/ ٣٩٦) .
(٥) أخرجه أبو داود رقم (٤٨٦٠) في الأدب ، باب رفع الحديث من المجلس ، والترمذي برقم (٣٨٩٧) في المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ .
(٦) الترمذي (٣٨٩٦) في المناقب أيضاً .
(٧) ينظر تحفة الأشراف ، حديث (٩٢٢٧) .
(٨) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق ، ومسلم (١٦٤) (٢٦٤) في الإيمان .

وهذا هو المحفوظ ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ، بتفضيل كلام الله ، فقد ذكر غير واحد من الحفّاظ أن الذي عليه الجادة أن موسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسندٌ ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثمّ لا يعودون إليه آخر ما عليهم[١] .

واتفقت الروايات كلّها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاةً في اليوم والليلة ، فمرّ بموسى قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشدّ المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعاً ، وأبصاراً ، وأفئدة ، فلم يزل يترددُ بين موسى وبين الله عزّ وجلّ ويخفّف عنه كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون ، أي بالمضاعفة ، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً . وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخاري[٢] : حدّثنا مُسَدَّد ، حدّثنا حُصَين بن نمير ، عن حُصين بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ وَرَأَيْتُ سَواداً كَثيراً سَدَّ الأُفُقَ ، فَقِيلَ : هذا مُوسَى في قَوْمه » . هكذا روى[٣] البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدّثنا شَريح ، حدّثنا هشيم[٤] ، حدّثنا حُصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جُبير فقال : أيُّكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحة ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : إني لم أكن في صلاة ولكن لُدغت . قال : وكيف فعلت ؟ قلت : اسْتَرْقَيْتُ . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : قلت : حديثٌ حدَّثناه الشعبي عن بُريدة الأسلمي أنه قال : « لا رُقْيَةَ إلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حمَةٍ » . فقال سعيد ـ يعني ابنَ جُبير ـ قد أحسن منِ انتهى إلى ما سمع . ثمّ قال : حدّثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنبي ومعه الرَّجُل والرجلان ، والنّبي وَلَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ ، إذْ رُفع لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقُلْتُ : هذِهِ أُمَّتي ؟ فقيلَ : هذا مُوسى وقومُه ، ولكِنِ انْظُرْ إلى الأفُقِ فإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ . ثُمَّ قِيلَ : انْظُرْ إلى هذا الجانِبِ فإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فقيلَ : هذه أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبْعُون ألفاً يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ » . ثمّ نهض رسول الله ﷺ فَدَخَلَ ، فخاض القوم في ذلك فقالوا : مَن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذابٍ ؟ فقال بعضهم : لعلّهم الذين صحبوا النبي ﷺ .

---

(١) حديث شريك في البخاري (٧٥١٧) في التوحيد ، وهذا واحد من الأخطاء التي أخطأ فيها شريك في هذا الحديث ، وبينها الحافظ ابن حجر في الفتح .

(٢) صحيح البخاري (٣٤١٠) في الأنبياء ، و(٥٧٥٢) في الطب .

(٣) في ب : رواه .

(٤) في ط : هشام ، وهو تحريف .

وقال بعضهم : لعلّهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قطُّ ، وذكروا أشياء . فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا الذي كُنْتُم تَخُوضُوْنَ فيه » ؟ فأخبروه بمقالتهم ، فقال : « هُمُ الذينَ لا يَكْتَوُوْنَ وَلا يَسْتَرْقُوْنَ وَلَا يَتَطَيَّرُوْنَ وَعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ » ، فقام عُكاشة بن مِحْصَن[1] الأسدي فقال : أنا منهم يا رسولَ الله ؟ قال : « أَنْتَ مِنْهُم » . ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال « سبَقَكَ بها عُكَاشَةُ »[2] .

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً ، وهو في الصحاح والحسان وغيرها ، وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صِفَة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها[3] .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً ، مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله تعالى ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه ، كما قال في سورة البقرة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٤] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الآيتان : ٩١ ـ ٩٢] .

فأثنى تعالى على التوراة ، ثمّ مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً ، وقال تعالى في آخرها : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٤ ـ ١٥٥] .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا

---

(١) في ط : محيصن . وعكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي ، صحابي من أمراء السرايا . استشهد في حروب الردة . الإصابة (٢/ ٤٩٤) ترجمة رقم (٥٦٣٢) والأعلام (٤/ ٢٤٤) .

(٢) مسند أحمد (١/ ٢٧١) ، وفيه اختلاف يسير بالألفاظ .

(٣) في النهاية من هذا الكتاب . وتخريجه ثمة .

تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . . ﴾ [الآية : ٤٤ ـ ٤٨] . فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدِّقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ، فإن أهل الكتاب استُحفِظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ، ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومِهم ، وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم ، وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيّن على الله وعلى رسله ما لا يحدُّ ولا يوصف ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الآيات : ٤٨ ـ ٥٠] .

وقال الله تعالى في سورة القَصص : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الآيتان : ٤٨ ـ ٤٩] . فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين ، عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى . وقال ورقة بن نوفل لما قصَّ عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول[1] الوحي ، وتلا عليه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] قال : سُبُّوحٌ سبوح ، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة[2] ، وأمته كانت أمّة كثيرة ، ووجد فيهم أنبياء وعلماء وعبّاد وزهاد[3] وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنّهم كانوا فبادوا ، وتبدّلوا كما بُدِّلت شريعتهم ، ومُسخوا قِردة وخنازير ، ثمّ نسخت بعد كل حساب ملّتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ، ولكن سنورد ما فيه مَقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله . وبه الثقة وعليه التُّكلان .

* * *

(١) السيرة النبوية (١/ ٢٣٨) .
(٢) في ب : كانت شريفة عظيمة .
(٣) زاد في ب هنا : وأولياء . وفي ط : وألباء .

ذكر
حجّته عليه السلام إلى البيت العتيق[١]

قال الإمام أحمد : حدّثنا هُشَيم[٢] ، حدّثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : « أيُّ وادٍ هذا » ؟ قالوا : وادي الأزرق . قال : « كأنّي أَنْظُرُ إلى مُوْسَى وَهُوَ هابِطٌ مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤارٌ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالتَّلْبِيَةِ » حَتَّى أتى على ثنيَّة هَرْشَى . فقال : « أيُّ ثَنِيَّةٍ هذِهِ » ؟ قالوا : هذه ثنيَّة هَرْشَى . قال : « كأنّي أَنْظُرُ إلى يُوْنُس بنِ مَتَّى عَلَى ناقَةٍ حَمْراءَ ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوْفٍ ، خِطَامُ ناقَتِهِ خلبةٌ » . قال هُشيم : يعني ليفاً ، « وهو يلبِّي »[٣] .

وأخرجه مسلم[٤] من حديث داود بن أبي هند ، به .

وروى الطبراني[٥] عن ابن عباس مرفوعاً أن موسى حج على ثور أحمر . وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس ، فذكروا الدجّال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون : مكتوب بين عينيه (ك ف ر) ، فقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ولكن قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جملٍ أحمرَ مَخْطوم بخُلْبة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبّي .

قال هشيم : الخُلْبَةُ : الليف .

ثمّ رواه الإمام أحمد[٧] ، عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيْتُ عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ ومُوسى وإبراهيمَ ، فأمّا عِيْسَى فأبْيَضُ جَعْدٌ عَرِيْضُ الصَّدْرِ . وأمّا مُوْسَى فآدَمُ جَسِيْمٌ » . قالُوا : فإبراهيمُ ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا يونس ، حدّثنا شيبان قال : حدّث قتادة ، عن أبي العالية ، حدّثنا ابنُ عَمّ

---

(١) في ب : ذكر حج موسى . . . وصفته . وفي ط : حجته . . .
(٢) في ط : هشام ، خطأ بيّن .
(٣) مسند أحمد (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦) . وفي النهاية لابن الأثير (٥/ ٢٦٠) ، ثنية هرشى : هي ثنية بين مكة والمدينة ، وقيل : هرشى جبل قرب الجحفة .
(٤) صحيح مسلم رقم (١٦٦) (٢٦٩) في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ، وفرض الصلوات .
(٥) المعجم الكبير (١٢٥١٠) وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف .
(٦) في مسنده (١/ ٢٧٧) .
(٧) المسند (١/ ٢٩٦) .

نبيِّكم ابنُ عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بي مُوْسَى بنَ عِمْرانَ رَجُلاً طوالاً جَعْدَاً كأنهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، ورَأيْتُ عِيْسَى بنَ مَرْيم مَرْبُوعَ الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ ، سَبطَ الرأسِ »[١] .

وأخرجاه[٢] من حديث قتادة ، به .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمَر ، قال الزُّهري : وأخبرني سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : حينَ أُسْرِي به : « لقيتُ مُوسَى » فنعَتَهُ . فقالَ رَجُلٌ قالَ حسِبْتُه قال : مُضْطَرِبَ ـ يعني طويلاً ـ رَجْلَ الرأس ، كأنه من رجال شَنُوءَةَ . « وَلَقِيْتُ عِيْسَى » . فَنَعَتَهُ رسولُ الله ﷺ فقال : « رَبعةٌ أحمر كأنّما خَرَجَ مِنْ دِيماسٍ » يعني : حماماً . قال : « ورأيْتُ إبْراهِيْمَ وأنا أشْبَهُ وَلَدِهِ به » . . الحديث[٣] .

وقد تقدَّم غالبُ هذه الأحاديث في ترجمة الخليلِ[٤] .

***

ذكر
وفاته عليه السّلام

قال البخاري في « صحيحه » : (وفاة موسى عليه السلام) .

حدّثنا يحيى بن موسى ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : أُرسِل مَلَكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكَّهُ[٥] . فرجع إلى ربّه عز وجل فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطّت يدُه بكلِّ شعرة سَنَة . قال : أيْ رب ، ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ الموت . قال : فالآن ، قال : فسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بحَجر . قال أبو هريرة فقال رسول الله ﷺ « فَلو كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُم قَبْرَهُ إلى جَانِبِ الطَّرِيْقِ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأحْمَرِ »[٦] .

قال : وأخبرنا معمر ، عن همّام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه .

---

(١) المسند (١/ ٢٤٥) . والسبط هو المسترسل ، ليس فيه تكسر .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٦٥) في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ وهو عند البخاري : برقم (٣٤٣٠) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ من حديث مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) المسند (٢/ ٢٨٢) .

(٤) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٥) صكّه : ضربه ودفعه .

(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٧) في الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعده .

وقد روى مسلم[١] الطريق الأول من حديث عبد الرزاق ، به .

ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، وسيأتي[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا الحسن ، حدّثنا ابن لَهِيْعَة ، حدّثنا أبو يونس ـ يعني سليم بن جبير ـ عن أبي هريرة . قال الإمام أحمد : لم يرفعه . قال : جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال : أجب ربك . فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فرجَع الملك إلى الله عز وجل فقال : إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت . قال : وقد فقأ عيني . قال : فرد الله عينَه وقال : ارجع إلى عبدي فقل له ألحياةَ تُريد ؟ فإنْ كنتَ تريدُ الحياةَ فضع يدَكَ على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة . قال : ثمّ مَهْ ؟ قال : ثمّ الموت . قال : فالآن يا ربِّ من قريب . تفرّد به أحمد[٣] ، هو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حِبان في « صحيحه »[٤] من طريق معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة . قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله ، فذكره ، ثمّ استشكله ابن حِبّان ، وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً ، وكذلك موسى لعلّه لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه ؛ لأنه دخل داره بغير إذنه . وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقوء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن[٥] .

ثمّ أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « جاءَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى لِيَقْبِضَ رُوحَه قال له: أجِبْ رَبَّك. فَلَطَم مُوسى عينَ مَلَكِ المَوْتِ فَفَقَأَ عَيْنَه » ، وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري ، ثمّ تأوّله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له : أجب ربّك ، وهذا التأويل لا يتمشّى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله : أجب ربك ، بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشّى له وكأنّه لم يعرفه في تلك الصورة ، ولم يحمل قوله هذا على أنّه مطابق إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنّه ملَك كريم ؛ لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته من خروجهم من التيه ، ودخولهم الأرض المقدّسة ، وكان قد سبق في قدر[٦] الله

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٢) في الفضائل ، باب فضائل موسى ﷺ .

(٢) وهو في المسند (٢/ ٢٦٩) .

(٣) المسند (٢/ ٣٥١) .

(٤) ابن حبان (٦٢٢٤) .

(٥) قوله : وهذا موافق . . . بغير إذن . سقط من ب .

(٦) في ط : « قدرة » . والحديث ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح برقم (٥٧١٣) . وقال : متفق عليه .

أنّه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدّسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدلّ على ذلك قوله لما اختار الموتَ : ربّ أدنني إلى الأرض المقدّسة رميةً بحجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ، ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحبَّ أن يتقرّب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحثّ قومه عليها ، ولكن حال بينهم وبينها القدر رميةً بحجر ، ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر[١] : « فلو كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُم قَبْرَهُ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأحْمرِ » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عفان ، حدّثنا حمّاد ، حدّثنا ثابت وسليمان التَّيْمي ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أُسْرِي بي مَرَرْتُ بموسَى وهُو قائِمٌ يُصَلّي في قَبْرِهِ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأحْمَرِ »[٢] .

ورواه مسلم من حديث حمّاد بن سلمة[٣] ، به .

وقال السدّي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرّة عن ابن مسعود ، وعن ناسٍ من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى: إني متوفٍّ هارون فائتِ به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم يُرَ شجرةٌ مثلها، وإذا هم ببيتٍ مبني، وإذا هم بسريرٍ عليه فرش، وإذا فيه ريحٌ طيبةٌ، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ ، قال له : لا ترهب ، أنا أكفيك ربَّ هذا البيت ، فنم . قال : يا موسى نم معي فإن جاء ربّ هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ فلما وجدَ حسّه قال : يا موسى خدعتني . فلما قُبض رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء ، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا : فإن موسى قتل هارون ، وحسده حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكفَّ عنهم وألينَ لهم من موسى ، وكان في موسى بعضُ الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم كان أخي أفتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه ، قام فصلّى ركعتين ثمّ دعا اللهَ فنزل السريرُ حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثمّ إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشَع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها [يوشع][٤] ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبيّ الله، فاستل[٥] موسى عليه السلام

---

(١) المدر : الطين اليابس . ويراد به أهل المدينة الذين يبنون بيوتهم به .

(٢) المسند (٣/ ٢٤٨) .

(٣) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٥) في الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ .

(٤) زيادة من ط ، وتاريخ الطبري .

(٥) في ب : فانسل .

من تحت القميص ، وترك القميص في يدي يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله ؟ فقال : لا والله ما قتلته ولكنه استل مني . فلم يصدّقوه وأرادوا قتله ، قال : فإذا لم تصدقوني فأخّروني ثلاثة أيام ، فدعا الله ، فأُتي كلّ رجلٍ ممن كان يحرسه في المنام ، فأُخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنّا قد رفعناه إلينا ، فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ، ولم يشهد الفتح[١] .

وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم .

وقد قدّمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون ، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مرّ بملأٍ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم يَرَ أحسن منه ، ولا أنضر ، ولا أبهج ، فقال : يا ملائكةَ الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه ، وتوجّه إلى ربك ، وتنفَّس أسهل تنفسٍ ، ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فَصَلَّتْ عليه الملائكة ودفنوه[٢] .

وذكر أهل الكتاب وغيرُهم أنه مات وعمره مئة وعشرون سنةً .

وقد قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا أمية بن خالد ويونس قالا : حدّثنا حمّاد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : « كان مَلَكُ الموتِ يأتي الناسَ عِياناً ، قال : فأتى مُوسَى عليه السلامُ ، فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ، فأتى رَبَّه فقال : يا رَبِّ عَبْدُك مُوسَى فَقَأَ عَيْني ولولا كَرامَتُهُ عَلَيْكَ لَعَتِبْتُ عَلَيْهِ[٤] » . وقال يونس : « لشققتُ عليه » . قال له : « اذْهَب إلى عَبدي ، فَقُلْ له فَلْيَضع يَدَه على جلد (أو مسْك) ثور فَلَه بكُل شَعْرَةٍ وَارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ ، فأتاه فقال له ، فقال : ما بعد هذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن . قال : فشمه شمة فَقَبَضَ رُوْحَه » . قال يونس : فردّ الله عليه عينه ، وكان يأتي الناس خفية .

وكذا رواه ابن جرير[٥] عن أبي كريب عن مُصعب بن المقدام عن حمّاد بن سلمة ، به ، فرفعه أيضاً[٦] .

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٣) .

(٣) في المسند (٢/ ٥٣٣) .

(٤) هكذا في الأصول ، وفي مسند أحمد : « لعَنَّفْتُ به » وهو أحسن .

(٥) في تاريخه (١/ ٤٣٤) .

(٦) في هذا الحديث مقال من وجهين : الأول أنه قد اختلف في رفعه ووقفه ، والثاني : نكارة عبارة : «كان ملك الموت يأتي الناس عياناً» وهي مما تفرد بها حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار ، ولكل من هذين الراويين بعض ما يُستنكر كما هو معروف من ترجمتيهما .

ذكر
نبوّة يوشع وقيامه بأعبَاء بني إسرَائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام[١]

هو يوشع بن نون بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام[٢] .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غيرَ مُصَرّح باسمه في قصّة الخضرِ ، كما تقدم من قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ﴾ وقدّمنا[٣] ما ثبت في الصحيح من رواية أُبي بن كعب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : من أنه يوشع بن نون ، وهو متفق على نبوّته عند أهل الكتاب ، فإن طائفة منهم ـ وهم السامرة ـ لا يقرّون بنبوّة أحدٍ بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرّح به في التوراة ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق من ربّهم ، فعليهم لعائن الله البالغة[٤] إلى يوم القيامة .

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين ، عن محمد بن إسحاق من أن النبوة[٥] حُولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشَع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهي حتى قال له : يا كليم الله ، إني كُنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك ، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت[٦] ، ففي هذا نظر ، لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر ، والوحي ، والتشريع ، والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفّاه الله عزّ وجلّ ، ولم يزل معزّزاً مكرّماً مدلَّلاً وجيهاً عند الله ، كما قدّمنا في الصحيح من قصّة فقْئه عَين مَلك الموت ، ثمّ بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكلِّ شعرة وارَتْ يدُه سنةٌ يعيشها ، قال : ثمّ ماذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن يا رب . وسأل الله أن يُدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه[٧] .

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنّما يقوله من كتب أهل الكتاب ، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة : أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كلّ حينٍ يحتاجون إليه إلى آخر مدّة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبّة الزمان .

---

(١) قوله : ذكر عليهم السلام ليس في ط . وفي ب : عليهما . .
(٢) زاد في ب : وأهل الكتاب يقولون : يشوع بن عم هود . وفي ط : وأهل كتاب . . . يوشع بن عم هود .
(٣) ص (٨٦) من هذا الجزء . في (ذكر قصة موسى والخضر) .
(٤) في ط : المتتابعة .
(٥) زاد في أ هنا : من أن التوراة .
(٦) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٣) وما بعدها .
(٧) هكذا في الأصل، وهذه القطعة التي أشار إليها المصنف ليست في صحيح البخاري وإنما تفرد بها مسلم من حديث سليمان التيمي عن أنس فأخرجها في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٢٣٧٥)، فلعل صواب العبارة: « وقد ثبت في الصحيح في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره؛ رواه مسلم عن أنس » ، وإلا فإن ما ذكر غير صحيح .

وقد ذكروا في السفر الثالث[١] : أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّا بني إسرائيل على أسباطهم ، وأن يجعلا على كلِّ سبطٍ من الاثني عشر أميراً ـ وهو النقيب ـ[٢] وما ذاك إلّا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنةً . ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملَك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أُمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قَدَر الله أن يقع ذلك في زمانه بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام ، فوصل إلى تبوك ثمَّ رجع عامه ذلك في سنة تسعٍ . ثمّ حجّ في سنة عشر ، ثمّ رجع فجهَّز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثمّ كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . ولما جهّز رسولُ الله جيشَ أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيِّم بالجُرْفِ[٣] ، فنَفَّذَهُ صِدِّيقُه وخليفته أبو بكر الصدّيق[٤] رضي الله عنه . ثمّ لمّا لمّ شعث جزيرة العرب ، وما كان وهَى من أمر أهلها ، وعاد الحقّ إلى نصابه ، جهّز الجيوش يمنةً ويسرةً إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ، ومكّن لهم وبهم ، وملَّكهم نواصي أعدائهم ، كما سنورده في موضعه إذا انتهينا إليه مفصّلاً إن شاء الله ، بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده .

وهكذا موسى عليه السلام كان الله تعالى قد أمره أن يجنّد بني إسرائيل ، وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ وقال الله : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ، ولم تَنكِلُوا عن القتال كما نَكَلتم أوَّلَ مرة ، لأجعلن ثواب هذه مكفّراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلَّف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة[٥] الحديبية : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٦] .

---

(١) في سفر العدد ، وهو الرابع ، الإصحاح الأول .
(٢) قوله : وهو النقيب . زيادة من ب وط .
(٣) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .
(٤) انظر ما قاله المؤلف في خبر (تنفيذ جيش أسامة بن زيد) من هذا الكتاب . ومطلع حديثه من أخبار سنة (١٣هـ) .
(٥) في ب : عمرة . ويقال : غزوة الحديبية ، وعمرة الحديبية ، لأن رسول الله ﷺ إنما كان قصده العمرة .

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل[١] : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ . ثمّ ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم ، كما ذمّ مَن بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك في « التفسير » مستقصى ولله الحمد[٢] .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً ، وأن يجعل على كلّ سِبطٍ نقيباً منهم .

السبط الأول : سبط روبيل[٣] لأنه بِكر يعقوب ، كان عدّة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمئة ، ونقيبهم منهم وهو أليصور بن شَدَيْئور[٤] .

السبط الثاني : سبط شمعون ، وكانوا تسعة وخمسين ألفاً[٥] ، ونقيبهم شلوميئيل بن صُوريشَدَّاي[٦] .

السبط الثالث : سبط يهوذا ، وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمئة ، ونقيبهم نحشون بن عَمِّيناداب .

السبط الرابع : سبط إيساخر[٧] ، وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمئة ، ونقيبهم نثنائيل بن صوغر[٨] .

السبط[٩] الخامس : سبط يوسف عليه السلام ، وكانوا أربعين ألفاً وخمسمئة ، ونقيبهم يوشع بن نون[١٠] .

السبط السادس : سبط ميشا ، وكانوا أحداً[١١] وثلاثين ألفاً ومئتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور[١٢] .

السبط السابع : سبط بنيامين ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمئة ونقيبهم أبيدن بن جِدعون .

السبط الثامن : سبط جاد ، وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمئة وخمسين رجلاً ، ونقيبهم أَلياساف بن دعوئيل .

---

(١) قوله : لبني إسرائيل . زيادة من ب وط .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤) .
(٣) في التوراة : رأوبين .
(٤) كذا في ط . والتوراة . وفي أ وب : أليصون بن سادور .
(٥) زاد في ط : وثلاثمئة . وهي في التوراة أيضاً .
(٦) كذا في التوراة ، وفي أ وب : ساموال بن صورشدي . وفي ط : هو ريشداي .
(٧) في التوراة : يسَّاكر .
(٨) كذا في التوراة ، وط . وفي أ وب : شال بن صاعون .
(٩) قوله : السبط . زيادة من ب وط .
(١٠) في التوراة : لابني يوسف : لافراييم ؛ أليشمَع بن عمّيهود . ولمنسَّى : جملئيل بن مذهصور .
(١١) في التوراة : اثنان وثلاثون .
(١٢) في أ وب : يرضون .

السبط التاسع : سبط أَشِير ، وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمئة ونقيبهم فجعيئيل بن عُكْرَن[١] .

السبط العاشر : سبط دان ، وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمئة ونقيبهم أَخِيعَزَر ابن عَمّيشدّاي[٢] .

السبط الحادي عشر : سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وعشرين[٣] ألفاً وأربعمئة ونقيبهم أخيرَع بن عينن[٤] .

السبط الثاني عشر : سبط زبولون[٥] ، وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمئة ، ونقيبهم أَلياب بن حِيلون[٦] . هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم .

وليس منهم بنو لاوي . فأمر الله موسى أن لا يعدَّهم معهم لأنّهم موكّلون بحمل قُبة الشهادة ، وضربها ، ونصبها ، وحملها إذا ارتحلوا ، وهو سبط موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شَهْرٍ فما فوق ذلك . وهم في أنفسهم قبائل إلى كلِّ قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ، ويحفظونها ، ويقومون بمصالحها ، ونصبها وحملها ، وهم كلّهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشأمتها[٧] ووراءها .

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمئة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمئة وخمسون[٨] ، لكن قالوا : فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمئة ألف وثلاثة آلاف وخمسمئة وخمسين[٩] رجلاً سوى بني لاوي ، وفي هذا نظر ، فإن جميع الجمل المتقدّمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم[١٠] لا تطابق الجملة التي ذكروها . والله أعلم .

فكان بنو لاوي الموكّلون بحفظ قبّة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو دان، وبنو نفتالي يكونون ساقة[١١] . وقَرَّر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى

---

(١) كذا في ط . والتوراة . وفي أ وب مخابيل بن عجران .

(٢) كذا في ط . والتوراة . وفي أ : جعيدر بن عيشدي . وفي ب : جعيدر بن عمشيد .

(٣) في ط : وخمسي ، وهي كذلك في التوراة .

(٤) كذا في التوراة . وفي أ وب : أخدع بن عنيان . وفي ط : عين .

(٥) كذا في ط . التوراة . وفي أ وب : زايلون .

(٦) في أ . الباب بن جالون . وفي ب . بإليان بن جالون . وفي ط : ألباب . وأثبتنا ما في التوراة .

(٧) في ط : وشمالها . والشأمة : الميسرة . وقال : قعد فلان يمنة ، وقعد فلان شأمة . اللسان .

(٨) في ط : خمسمئة ألف وأحد وسبعون ألفا وست مئة وخمسون . وهذا الرقم الذي ورد أقل من مجموع ما ذكر مفصلاً قبل قليل .

(٩) هذا ما ورد في التوراة . وفي ب : ألف ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين . وفي ط : ... وخمسة وخمسين .

(١٠) بل ليست مطابقة لما في المطبوع من التوراة اليوم .

(١١) في ب : يلتقون : ساقة . والساقة : مؤخرة الجيش .

له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم ناداب وهو بِكره وأبيهو والعازر ويثمر[١] .

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] قاله الثوري : عن أبي سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . وقاله قتادة وعكرمة . ورواه السُّدّي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً[٢] .

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدّمته ، وذكر في مروره إليها قصّة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧] وقد ذكرنا قصته في « التفسير »[٣] ، وأنّه كان فيما قاله ابن عباس وغيرُه يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ، ولما ألحّوا عليه ركب حمارة له . ثمّ سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته ، فضربها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها ضرباً أشدّ من الأول ، فقامت ثمّ ربضت ، فضربها ، فقالت له : يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا ! أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به ، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حُسْبان ، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه ، فلاموه على ذلك ، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا ، واندلع لسانُه حتى وقع على صدره ، وقال لقومه : ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة . ثمّ أمر قومه أن يزيّنوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم ، حتى لعلّهم يقعون في الزنا فإنه متى زنى رجلٌ منهم كُفيتموهم ، ففعلوا وزيّنوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر ، فمرّت امرأة منهم اسمها كُسْتَى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زَمري بن شَلوم ، يقال : إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب ، فدخل بها قُبّته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يجوس[٤] فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون

---

(١) في التوراة : إيثاما .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤) وما بعدها .

(٤) يجوس : يتردد ويتنقل .

أخذ حربته ـ وكانت من حديد ـ فدخل عليهما القُبَّةَ ، فانتظمهما جميعاً فيها ، ثمّ خرج بهما على الناس ، والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته ، وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء ، وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ، ورُفع الطاعونُ .

فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلِّلُ يقول : عشرون ألفا . وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون ، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة أليته والذراع واللحى ، ولهم البكر من كلِّ أموالهم وأنفسهم .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصّة بلعام صحيح ، قد ذكره غير واحد من علماء السّلف . لكن لعلّه لما أراد موسى دخول بيت المقدس [أول مقدمه من الديار المصرية ، ولعلّه مراد ابن إسحاق ، ولكن ما فهمه بعض الناقلين عنه . وقد قدّمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم . أو لعلّ هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه ، فإن في هذا السياق ذكر حُسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعلّه كان هذا بجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس] كما صرح به السُّدِّي . والله أعلم .

وعلى كلّ تقدير فالذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين . وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدّمنا ، وأنه سأل ربّه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك . فكان الذي خرج بهم من التيه ، وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سوراً ، وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلاً ، فحاصرها ستة أشهر . ثمّ إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون ـ يعني الأبواق ـ وكبّروا تكبيرةَ رجلٍ واحدٍ ، فتفسّخ سورها ، وسقط وجبة واحدة ، فدخلوها ، وأخذوا ما وجدوا فيها من المغانم ، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرةً .

ويقال : إن يوشع ظهر على أحدٍ وثلاثين ملكاً من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته له إلى يوم جمعةٍ بعد العصر . فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان ، قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ ، فحبسها الله عليه حتى تمكّن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عن الطلوع ، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر .

والأول ، وهو قضية الشمس ، مذكورة في الحديث الذي سأذكره . وأما قضية القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافي الحديث ، بل فيه زيادة تستفاد فلا تُصدق ولا تُكذب ، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه . والله أعلم .

قال الإمام أحمد: حدّثنا أسود بن عامر ، حدّثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشَّمسَ لم تُحْبَسْ لِبَشرٍ إلاّ لِيوشع لَيالِيَ سَارَ إلى بَيْتِ المقْدِس »[١] . انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاري . وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشَع عليه السلام ، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته ، فسأل رسول الله أن يردّها عليه حتى يصلّي العصر فرجعت[٢] . وقد صححه أحمد بن صالح المصري[٣] ، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله . وتفرّدت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لا يَتْبَعني رَجُلٌ قد مَلكَ بُضْعَ امرأةٍ وهُو يُريدُ أن يَبْنيَ بها ولَمَّا يَبْنِ ، ولا آخرُ قَدْ بَنَى بنياناً ولم يَرْفَع سُقُفَها ، ولا آخرُ قَدِ اشْتَرى غنماً أو خَلِفاتٍ[٤] وهو يَنْتَظِرُ أولادَها . فغزا فدنا منَ القَريةِ حِينَ صُلي العصر أو قريباً من ذلكَ ، فقال للشمسِ : أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ ، اللهم احْبِسْها عَلَيَّ شَيئاً ، فَحُبِسَتْ عَلَيه حتّى فَتَحَ اللهُ عليه ، فَجَمَعُوا ما غَنِموا فأتت النارُ لتأكُلَه ، فأبت أنْ تطعمَه ، فقالَ : فِيكُم غُلولٌ[٥] فلْيبايِعْني مِن كُلِّ قَبيلةٍ رَجُلٌ ، فبايعوهُ ، فلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيدِهِ ، فقالَ : فيكُمُ الغُلُولُ ، ولْتُبايعني قبيلَتُكَ ، فبايعَتْهُ قبيلَتُه ، فلَصِقَ بيدِ رَجُلَين أو ثلاثةٍ ، فقالَ: فيكُم الغُلولُ ، أنتم غَللتم ، فأخْرَجُوا له مثلَ رأسِ بَقَرَةٍ من ذهب ، قالَ : فوضَعُوه بالمالِ وهو بالصَّعِيْد ، فأقبلتِ النارُ فأكَلَتْهُ ، فلم تحلَّ الغنائمُ لأحَدٍ مِنْ قَبْلنا ، ذلك بأنّ الله رأى ضَعْفَنا وَعَجْزَنا فطيَّبَها لَنا » . انفرد به مسلم[٦] من هذا الوجه[٧] .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢٥) .

(٢) الحديث في شرح الزرقاني (٥/ ١١٣) ومشكل الآثار (٢/ ٨) والشفا (١/ ٥٤٨) وفي الحديث كلام . انظر شرح الزرقاني .

(٣) في أ : علي بن صالح المصري ، والصواب ما أثبتناه فهو أحمد بن صالح المصري أبو جعفر الحافظ المعروف بابن الطبري كان أبوه من أهل طبرستان، ولد بمصر (١٧٥هـ) وتوفي فيها (٢٤٨هـ). قال ابن حبان في كتاب الثقات: كان أحمد بن صالح في الحديث وحفظه عند أهل مصر كأحمد بن حنبل عند أهل العراق . تهذيب التهذيب (١/ ٣٩).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣١٨) والخَلِفَات : جمع خلفة ، وهي الحامل من النوق .

(٥) الغُلول : الخيانة في المغنم ، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة .

(٦) هو في مسند أحمد (٢/ ٣١٨) كما قال في بداية الحديث . وأخرجه مسلم أيضاً كما قال هنا ، رقم (١٧٤٧) في الجهاد والسير ، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة .

(٧) لعله يريد من حديث عبد الرزاق عن معمر ، وإلا فإن البخاري أخرجه من حديث عبد الله بن المبارك عن معمر به (٣١٢٤) و(٥١٥٧) .

وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله ، عن سعيد المقْبُري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوهُ[١] ، قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري[٢] . قال : ورواه قتادة ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ[٣] .

والمقصود أنّه لما دخل بهم باب المدينة أُمروا أن يدخلوها سُجَّدا ، أي : ركّعا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم : حِطّة ، أي : حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدّم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقتَه ، وهو متواضعٌ حامدٌ شاكرٌ حتى أن عُثنونه ، وهو طرف لحيته ، ليمس مورك رحله مما يطأطىء رأسَه خضعاناً لله عز وجل ، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ ، ثمّ لما دخلها اغتسل وصلّى ثماني ركعات ، وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء . وقيل : إنّها صلاة الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى .

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً، دخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة. وحاصله أنّهم بدّلوا ما أُمروا به واستهزؤوا به، كما قال الله تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف ، وهي مكية : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الآيتان : ١٦١ ـ ١٦٢] وقال تعالى في سورة البقرة ، وهي مدنية مخاطباً[٤] لهم : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الآيتان : ٥٨ ـ ٥٩] .

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : رُكّعاً من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم .

وكذا روى العوفي عن ابن عباس . وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق عن البراء .

قال مجاهد والسدي والضحاك : الباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس .

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق مبارك بن فضالة ، به (٢/ ١٣٩) .

(٢) لم أقف عليه من هذا الوجه .

(٣) أخرجه النسائي في السير من سننه الكبرى (٨٨٧٨) ، وابن حبان (٤٨٠٧) .

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٣٨) .

قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أُمروا به . وهذا لا ينافي قول ابن عباس إنهم دخلوا يزحفون على أستاهم . وهكذا في الحديث الذي سنورده بعدُ فإنّهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم .

وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة ، أي : ادخلوا سُجَّداً في حال قولكم حطّة .

قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا[١] .

قال البخاري[٢] : حدّثنا محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن ابن المبارك ، عن مَعْمر ، عن همّام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قيلَ لِبَني إسْرائيلَ : ادْخُلوا البابَ سُجَّداً ، وقُولُوا : حِطَّة ، فَدَخلوا يَزْحَفُونَ عَلَى أسْتَاهِهِم ، فَبَدَّلُوا وقالُوا : حِطّة حَبة في شَعرة » .

وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه[٣] . ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي ، به موقوفاً[٤] . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن همام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « قالَ اللهُ لِبَني إسْرائيلَ : ادْخُلوا البابَ سُجَّدا وقُولُوا حِطَّة نغفرْ لَكم خَطَاياكُم ، فَبَدَّلوا فَدَخَلوا البابَ يَزْحَفُونَ على أسْتَاهِهِم ، فقالوا : حَبّة في شَعرة » . ورواه البخاري[٥] ، ومسلم[٦] ، والترمذي ، من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذي[٧] : حسن صحيح .

وقال محمد بن إسحاق : كان تبديلهم كما حدّثني صالح بن كَيْسان ، عن صالح مولى التَّوْءَمة[٨] ، عن أبي هريرة وعمَّن لا أتَّهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دَخَلوا البابَ الذي أُمِرُوا أن يَدْخُلوا فيه سُجَّداً يَزْحَفُونَ على أسْتَاهِهِم وهُم يقولُونَ : حِنْطة في شَعيرة »[٩] .

وقال أسباط ، عن السُّدي ، عن مُرة ، عن ابن مسعود قال في قوله : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ

(١) انظر تفسير الطبري (١/ ٢٣٨) .
(٢) صحيح البخاري رقم (٤٤٧٩) في تفسير سورة البقرة ، باب ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ . . ﴾ .
(٣) في تفسيره (١٠) ، وهو في الكبرى (١٠٩٩٠) .
(٤) في تفسيره (٩) ، وهو في الكبرى (١٠٩٨٩) .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٣) في الأنبياء ، باب (٢٨) ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ ، و(٤٦٤١) في التفسير .
(٦) صحيح مسلم رقم (٣٠١٥) في التفسير .
(٧) الترمذي رقم (٢٩٥٦) ، في التفسير ، باب ومن سورة البقرة .
(٨) هو صالح بن نبهان المدني ، مولى التَّوْءمَة ، صدوق ، اختلط بأخرة . توفي سنة خمس أو ست وعشرين . وهو من رجال التهذيب .
(٩) تفسير الطبري (١/ ٢٤٠) .

﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قال : قالوا « هطي سمقاثا ازمه مزبا » فهي في العربية : (حَبَّة حِنْطَة حَمْراء مَثْقُوبة فيها شَعْرة سَوْداء)[1] .

وقد ذكر الله تعالى أنّه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرِّجْز الذي أنزله عليهم ، وهو الطاعون ، كما ثبت في « الصحيحين » من حديث الزهري عن عامر بن سعد[2] ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنْكَدِر وسالم أبي النضر[3] ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ هذا الوَجَع (أو السّقم) رِجْزٌ عُذِّبَ بهِ بَعْضُ الأمَم قَبلَكم » .

وروى النسائي[4] وابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ من حديث الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعُونُ رِجْزٌ عَذابٌ عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم »[5] .

وقال الضحاك عن ابن عباس : الرِّجْز : العذاب . وكذا قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدي ، والحسن ، وقتادة . وقال أبو العالية : هو الغضب .

وقال الشعبي : الرِجْز : إمّا الطاعون ، وإما البرد .

وقال سعيد بن جبير : هو الطاعون .

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مئة وسبع وعشرين سنة ، فكان مدةُ حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

* * *

(١) المصدر السابق (١/ ٢٤١) .
(٢) أخرجه البخاري في ترك الحيل من صحيحه (٦٩٧٤) من حديث شعيب عن الزهري ، به ، وأخرجه مسلم من حديث يونس ومعمر عن الزهري (٢٢١٨) (٩٦) .
(٣) أخرجه البخاري في ذكر بني إسرائيل من صحيحه (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) (٩٢) .
(٤) في الطب من سننه الكبرى (٧٥٢٣) .
(٥) قصَّر المصنف رحمه الله في تخريج هذه الطريق ، فقد رواه مسلم من حديث الثوري ، به (٢٢١٨) (٩٧) .

ذكر قصتي
الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخَضر فقد تقدّم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللَّدُنّي ، وقصّ الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرّح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك هاهنا ، إن شاء الله وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال : إنّه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه . ثمّ روى من طريق الدارقُطني : حدّثنا محمد بن الفتح القَلانِسي[١] ، حدّثنا العباس بن عبد الله التَّرْقُفي[٢] ، حدّثنا رَوَّاد بن الجرَّاح ، حدّثنا مقاتل بن سليمان ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونُسىءَ له في أجله حتى يُكذِّبَ الدجَّال[٣] . وهذا منقطع وغريب .

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني : سمعت مشيختنا ، منهم أبو عبيدة وغيره ، قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . قال : وذكر ابن إسحاق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة ، وأن يدفنوه في مكان عيَّنه لهم[٤] . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة[٥] ، فحرّضهم وحثّهم على ذلك ، وقال : إن آدم دعا لمن يلي دفْنه بطول العمر ، فهابوا المسير

---

(١) القَلاَنسي ، بفتح القاف وتخفيف اللام : نسبة إلى القلانس وعملها . والقلنسوة : لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال ج : قلانس ، وقلانيس ، وقلاسٍ ، وقلاسي .

(٢) في ط : الرومي . وهو خطأ . وعباس بن عبد الله بن أبي عيسى الواسطي ، الترقُفي ، نزيل بغداد ، ثقة عابد ، مات سنة سبع أو ثمان وستين ومئتين . وهو من رجال التهذيب .
والتَّرقفي ، بفتح التاء ، وسكون الراء ، وضم القاف ، نسبة إلى ترقف من أعمال واسط . كذا ضبطه السمعاني ، وابن حجر في التقريب ، وياقوت في معجم البلدان ، وضبطه ابن الأثير في اللباب بضم التاء .

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ٥٧ ـ ٥٨) .

(٤) أمرهم أن يحملوا جسده معهم في المغارة ، حتى إذا هبطوا أمرهم أن يدفنوه في الشام . كما في المعمرون .

(٥) في المعمرون : فقالوا : الأرض وَحِشة ، ولا أنيس بها ، ولا نهتدي الطريق ، ولكن نكف حتى يأمن الناس ويكثروا ، وتأنس البلاد ، وتجف .

إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله له ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا[١] .

وذكر ابن قتيبة في (المعارف) عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا ، ويقال إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام[٢] .

وقال إسماعيل بن أبي أويس : اسم الخضر ـ فيما بلغنا والله أعلم ـ المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لازد . وقال غيره : هو خضرون بن عميائيل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن طبقا[٣] . فالله أعلم .

وقيل : إنّه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر . وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي : رواه محمد بن أيوب ، عن ابن لهيعة ، وهما ضعيفان . وقيل : إنه ابن مالك ، وهو أخو إلياس . قاله السدي كما سيأتي . وقيل : كان على مقدمة ذي القرنين . وقيل : كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل : كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب[٤] .

قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون[٥] حتى أدركه موسى عليهما السلام[٦] .

وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيِّب أنه قال : الخضر أمه رومية وأبوه فارسي[٧] .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً . قال أبو زرعة في « دلائل النبوة » : حدّثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أُسري به وجَدَ رائحة طيبةً فقال « يا جِبْريلُ ما هذِهِ الرائِحَةُ الطَّيِّبَةُ ؟ قالَ : هذهِ رِيحُ قَبْرِ الماشِطَةِ وابنتِها وزَوْجِها » . قال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل ، وكان ممره براهب في صومعته[٨] ، فتطلّع عليه الراهب فعلّمه الإسلام ، فلما بلغ الخضر زوَّجه أبوه امرأة ، فعلّمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلِّمه أحداً ، وكان لا يقرب النساء . ثمّ طلّقها ، ثمّ زوجه أبوه بأخرى ، فعلّمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلِّمه أحداً ، ثمّ

---

(١) نقل ابن كثير كلام أبي حاتم في : المعمرون ص (٣) ، مختصراً .
(٢) المعارف : (٤١ ـ ٤٢) .
(٣) كذا في أ وب . وفي ط : خلقيا . وكذا في حاشية أ : خلقيا . وفي تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦) .
(٤) أورد الطبري هذه الأقوال عند ذكره لقصة الخضر عليه السلام (١/ ٣٦٥) .
(٥) في ط : أفريدون بن أثفيان .
(٦) تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦) وفيه زيادة .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٥٨) .
(٨) في ب : وجاز مرة براهب في صومعة .

طلّقها . فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى . فانطلق هارباً حتى أتى جزيرةً في البحر ، فأقبل رجلان يَحْتَطِبان ، فرأياه ، فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر ؛ قال قد رأيت العزقيل[١] : ومن رآه معك ؟ قال : فلان ، فسُئل فكتم ، وكان من دِينهم أنه من كذب قُتِل ، فقتل . وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة . قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تَعِس فرعون . فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوجٌ ، فأرسل إليهم ، فراوَد المرأةَ وزوجَها أن يرجعا عن دينهما ، فأبيا ، فقال : إني قاتلكما . فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد ، فجعلهما في قبر واحد . فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة[٢] .

وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون . وهذا البسط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أُبي بن كعب أو عبد الله بن عباس ، والله أعلم .

وقال بعضهم : كنيته أبو العباس . والأشبه ـ والله أعلم ـ أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخاري ـ رحمه الله ـ : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن مَعْمر ، عن هَمام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمّي الخَضِر لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ فإذا هي تهْتَزُّ من خَلْفِه خَضْرَاءَ » . تفرد به البخاري[٣] .

وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر ، به[٤] . ثم قال عبد الرزاق : الفَرْوة : الحشيش الأبيض وما أشبهه ، يعني الهَشِيم اليابس .

وقال الخطّابي : وقال أبو عُمر : الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها ، وقال غيره : هو الهشيم اليابس ، شَبَّهه بالفروة ، ومنه قيل : فروة الرأس ، وهي جلدته بما عليها من الشعر ، كما قال الراعي :

ولقدْ تَرى الحبَشيَّ حولَ بُيوتِنا جَذِلًا إذا ما نالَ يوماً مأكلاً[٥]
صَعْلاً أصكَّ كأنّ فروةَ رأسِه بُذِرَت فأَنبتَ جَانباهُ فُلفُلاً[٦]

---

(١) في ب : الخضر .
(٢) وأخرجه من طريق آخر عن أبي بن كعب ، ابنُ ماجه (٤٠٣٠) في الفتن ، باب الصبر على البلاء وفي إسناده ضعف . ومن طريق آخر أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) .
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٢) في الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام .
(٤) حديث عبد الرزاق أخرجه الترمذي (٣١٥١) في التفسير ، وقال : صحيح غريب .
(٥) في ب : نائلاً . والجَذِل : الفرِح .
(٦) في ط : جعداً أصك . وفي ب : أسك . والصَّعْل : الدقيق الرأس والعنق ، والأصك : الملتصق الأسنان والأضراس ، والأسك : من السَّكَك ، وهو الصمم ، وقيل : صغر الأذن ولزوقها بالرأس . والبيتان ليسا في المطبوع من شعر الراعي ـ جمع ناصر الحاني ـ طبع مجمع اللغة العربية ، دمشق (١٣٨٣هـ) وديوانه ـ جمع راينهرت ـ بيروت ـ المعهد الألماني ـ (١٤٠١هـ) .

قال الخطابي : وإنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه . قلت : وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح ، فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما ، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى ، بل لا يلتفت إلى ما عداه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر[١] هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأَيْلي[٢] ، حدّثنا عثمان وأبو جُرَي[٣] وهمام بن يحيى ، عن قتادة ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمي الخَضِرُ خَضِراً لأنَّهُ صَلّى عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فاهْتَزَّتْ خَضْراء » . وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال قبيصة ، عن الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلّى اخضرّ ما حولَه[٤] .

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجَعا يقُصَّان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجًّى بثوب قد جُعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم عليه موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال : أنّى بأرضك السلام من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها : قولـه تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

الثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٦٥ ـ ٧٠] فلـو كان ولياً وليس بنبي لم يخـاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يردّ على موسى هـذا الردّ ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصّه الله به دونه ، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً ولم تكن لموسى ـ وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة ـ كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمـة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضي حقباً من الزمان ، قيل : ثمانين سنة ، ثمّ لما اجتمع به تواضع له وعظّمه واتّبعه في صورة مستفيد منه ، دلّ على أنه نبي مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية[٥]

---

(١) في ب : ابن عساكر الحافظ . والخبر في مختصر تاريخه (٨/ ٥٨) .
(٢) الأيلي ، بفتح الألف وسكون الياء : نسبة إلى بلدة على ساحل بحر القلزم مما يلي ديار مصر . اللباب .
(٣) في ط : أبو جزي ، بالزاي .
(٤) أورده ابن عساكر . مختصر تاريخه (٨/ ٥٨) .
(٥) في ب : الدينية .

والأسرار النبوية بما لم يُطْلِع اللهُ عليه موسى الكليمَ نبي بني إسرائيل الكريم .

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرُّمّاني[1] على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاّم . وهذا دليلٌ مستقلٌّ على نبوّته ، وبرهانٌ ظاهرٌ على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرّد ما يلقى في خَلَده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة ؛ إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلْم علماً منه أنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدّة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحةٌ عظيمةٌ تربو على بقاء مهجته ، صيانةً لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دلّ ذلك على نبوته وأنه مؤيَّد من الله بعصمته .

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوّة الخضر وصحّحه ، وحكى الاحتجاج عليه عن الرُّمَّاني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضَّح له عن حقيقة أمره وجلّى قال بعد ذلك كله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ [الكهف : ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أُمرت به وأُوْحِي إليَّ فيه ، فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون .

وأما كونه مَلَكاً من الملائكة ، فقول غريب جداً . وإذا ثبتت نبوته ـ كما ذكرناه ـ لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستَندٌ يستندون إليه ، ولا معتمدٌ يعتمدون عليه[2] .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ؛ فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم . قيل : لأنه دَفَن آدم بعد خروجهم من الطوفان ، فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة . وقيل : لأنه شرب من عين الحياة فحيي .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن ، وسنوردها[3] إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وهذه وصيته لموسى حين قال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ ﴾ [الكهف : ٧٨] .

---

(١) هو علي بن عيسى الرُّمَّاني النحوي المعتزلي . صنف في التفسير واللغة والنحو والكلام والاعتزال . توفي سنة (٣٨٤هـ) . سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٣٣) .

(٢) زاد هنا في ب : وأيضاً فلو قيل بأنه كان ولياً فقد يكون على شريعة نبي غير موسى ، فإن موسى لم يكن مرسلاً إلى أهل الأرض قاطبة ، فليس لولي في هذه الأمة التي نبيها رسولُ الله إلى جميع الثقلين أن يدعي علماً لا تسيغهُ هذه الشريعة المحمدية التي هي عامة شاملة لجميع المكلفين إلى يوم الدين .

(٣) زاد في ب : مع غيرها .

رُوي في ذلك آثار منقطعة كثيرة :

قال السهيلي : أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو ، حدّثنا أبو عبد الله الصفّار ، حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدّثنا جرير ، حدّثني أبو عبد الله المَلَطي[١] قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى : أوصني . قال : كُنْ نفّاعاً ، ولا تكن ضَرَّاراً . كن بشّاشاً ، ولا تكن غضبانَ . ارجع عن اللّجاجة ، ولا تمش في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : ولا تضحك إلا من عجبٍ[٢] .

وقال وهب بن مُنبه : قال الخضر : ؛ يا موسى إن الناس معذَّبون في الدنيا على قدر همومهم بها .

وقال بشر بن الحارث الحافي : قال موسى للخضر : أوصني . فقال نشر[٣] الله عليك طاعته . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوَقَار[٤] إلّا أنه من الكذَّابين الكبار ، قال : قرىء على عبد الله بن وهب وأنا أسمع قال الثوري : قال مجالد ، قال أبو الودّاك ، قال أبو سعيد الخدري : قال عمر بن الخطاب : قال قال رسول الله ﷺ : « قالَ أخي مُوسى : يا رَبّ ، ذكر كلمة ، فأتاه الخَضِرُ وهو فتًى طيّبُ الرِّيح ، حَسَنُ بياضِ الثياب مشمِّرُها ، فقال : السلامُ عليكَ ورحمةُ الله يا موسى بن عمران ، إنّ ربَّك يَقرَأ عَلَيك السلامَ . قال موسى : هو السَّلامُ وإلَيه السَّلامُ ، والحمد لله رَبِّ العالمينَ الذي لا أُحْصي نِعَمَهُ ولا أَقْدِرُ على أداءِ شُكْرِه إلا بمعونته . ثمّ قال موسى : أريدُ أن توصيني بوصيةٍ ينفَعُني اللهُ بها بعدَك . فقالَ الخضِر : يا طالِبَ العِلْم إنّ القائِلَ أقلُّ ملامة من المستمع ، فلا تملَّ جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أنَّ قلبك وعاءٌ فانظر ماذا تحشو به وعاءك . واغرف من الدنيا[٥] ، وانبذها وراءك ، فإنها لَيسَت لك بدار ، ولا لك فيها محل قرار . وإنما جعلت بُلْغةً[٦] للعباد والتزود منها ليوم المعاد . ورُضْ نفسك على الصبر تخلص من الإثم .

يا موسى تفرَّغ للعلم إنْ كنت تريدُه ، فإنما العلمُ لمن تَفَرَّغ له . ولا تكن مكثاراً للعلم[٧] مهذاراً فإن

---

(١) المَلَطي ، بفتح الميم واللام : نسبة إلى مدينة مَلَطْية من ثغور الروم . اللباب (٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥) .

(٢) في ب : ولا تضحك من غير عجب . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢) وزاد في آخره : ولا تعيّر امرأً بخطيئة ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران .

(٣) في ط : يسر . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢) .

(٤) في أ : الوتار ، وفي ب الوقّار بتشديد القاف . وفي ط : الوقاد . والوَقَار ، بفتح الواو والقاف المخففة ، وبعد الألف راء ، قال ابن الأثير : اشتهر بهذه الصفة أبو يحيى زكريا بن يحيى بن إبراهيم بن عبد الله الوقار مولى قريش ، إنما قيل له ذلك لسكونه وثباته ، وهو مصري ولد سنة (١٧٤هـ) ومات سنة (٢٥٤هـ) . اللباب (٣/ ٣٧٠) .

(٥) كذا في أ وط . وفي ب وابن عساكر : واعزف عن الدنيا .

(٦) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

(٧) في ب : بالعلم . وفي ابن عساكر : بالمنطق .

كثرة المنطق تشين العلماء ، وتبدي مساوىء السخفاء . ولكن عَليكَ بالاقتصادِ ، فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرِض عن الجهَّال وماطلهم واحلم عن السفهاء[١] فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء . إذا شتمك الجاهلُ فاسكتْ عنه حِلماً ، وجانبه حَزْماً ، فإنّ ما بقي من جهله عليك وسبّه إياك أكثر وأعظم .

يا ابن عِمْران ولا تَرى أنك أُوْتيتَ من العلم إلا قليلاً . فإن الاندلاث[٢] والتعسُّف من الاقتحام والتكلّف . يا ابن عمران لا تفتحن باباً لا تدري ما غَلْقه ، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه . يا ابن عمران من لا ينتهي من الدنيا نَهْمَتُه ، ولا تنقضي منها رغبته ، ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً ؟! هل يكف عن الشهوات[٣] من غلب عليه هواه . أو ينفعه[٤] طلب العلم والجهل قد حواه ، لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه .

يا موسى تعلّم ما تعلمت لتعملَ به ولا تعلَّمه لتحدّث به فيكون عليك بوارُه ولغيرك نوره . يا موسى بن عمران اجعلِ الزهدَ والتقوى لباسَك ، والعلمَ والذِّكْر كلامَك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يُرضي ربَّك ، واعمل خيراً فإنك لا بد عاملٌ سوءاً . قد وعظت إن حفظتَ . قال : فتَولّى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي »[٥] .

لا يصح هذا الحديث . وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقّار المصري ، كذّبه غير واحد من الأئمة[٦] . والعجب أن الحافظ ابن عساكر سَكَت عنه .

وقال الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني : حدّثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدّثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدّثنا محمد بن الفضل بن عمران الكِنْدي ، حدّثنا بَقِيَّة بن الوليد ، عن محمد بن زياد ، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الخَضِرِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « بينَما هُو ذاتَ يوم يَمشي في سُوقِ بَني إسْرائيلَ أبْصَره رَجُلٌ مُكَاتَب[٧] فقال : تَصَدَّقْ عَلَيَّ بارَكَ اللهُ فيكَ . فقالَ الخضِرُ : آمنتُ باللهِ ما شاءَ اللهُ من أمرٍ يَكُونُ ، ما عندي من شيءٍ أُعْطِيكَهُ . فقالَ المسكينُ : أسألكَ بوجهِ اللهِ لَمَا تَصَدَّقْتَ عليَّ ، فإني نظرتُ إلى السيماء في وجهك

(١) في ب وابن عساكر : وأعرض عن الجهال وباطلهم ، واحلم على السفهاء .
(٢) الاندلاث : السرعة والاندفاع . يقال : اندلث الرجل : إذا مضى على وجهه ، أو أسرع وركب رأسه ، فلم ينهنهه شيء في قتال . اللسان .
(٣) قوله : ومن يحقر حاله . . . عن الشهوات . سقط من ب .
(٤) في ب : أو كيف .
(٥) الوصية في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦١ ـ ٦٢) .
(٦) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٧٧) .
(٧) المكاتَبة : أن يكاتبك عبدُك على نفسه بثمنه ، فإذا أدّاه عتق .

ورجَوتُ البرَكَةَ عِندك . فقالَ الخضِر : آمنتُ باللهِ ما عِنْدي من شيء أعطيكه إلّا أنْ تأخذَني فتبيعني . فقال المسكينُ : وهلْ يَستقيمُ هذا ؟ قالَ : نعم. الحقَّ أقولُ لكَ ، لَقَدْ سألتني بأمرٍ عظيم أمَا إني لا أُخيّبكَ بوجه ربي ، بعني . قال : فقدَّمه إلى السُّوقِ فباعه بأربع مئة درهم . فمكث عند المشتري زماناً لا يَستعملُه في شيء . فقال له : إنما ابتعتني التماسَ خيرٍ عندي ؛ فأوصني بعملٍ . قال : أكرهُ أن أشُقَّ عليكَ إنكَ شَيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ . قال : ليس تشق عليَّ . قال : فانقلْ هذه الحجارةَ ، وكان لا ينقلها دون ستةِ نفرٍ في يوم ، فخرجَ الرجل لبعض حاجته ، ثمّ انصرف وقد نقلَ الحجارة في ساعة . فقال : أحسنتَ وأجملتَ وأطقتَ ما لم أرَكَ تُطيقه . ثمّ عرضَ للرجلِ سفرٌ فقال : إني أَحْسبك أميناً فاخلُفني في أهلي خِلافةً حسنةً . قال : فأوصني بعملٍ. قال: إني أكره أن أشقَّ عليكَ. قال : ليس تَشُقُّ عليَّ . قال : فاضرب من اللَّبِن لبيتي حتى أقدم عليكَ . فمضى الرجل لسفره ، فرجَع وقد شُيِّد بناؤه ، فقال : أسألك بوجه الله ما سبيلُكَ وما أمرك ؟ فقال : سألتني بوجهِ اللهِ ، والسؤالُ بوجهِ اللهِ أوقعني في العُبُودِية ، سأُخبركَ مَنْ أَنَا ، أنا الخضِر الذي سمعت به ، سألني مسكينٌ صدقةً فلم يكن عندي من شيء أُعْطيه ، فسألني بوجهِ اللهِ فأمْكَنْتُه من رَقَبتي فباعني ، وأُخبرُكَ أنه من سُئِل بوجهِ اللهِ فردَّ سائلَه وهو يقدر وقفَ يومَ القيامةِ جلْدُه لا لَحم له ولا عظمَ يتقعقع[1] . فقالَ الرجلُ : آمنتُ باللهِ ، شَقَقْتُ عليكَ يا نَبيَّ اللهِ ولم أَعْلَم . فقالَ : لا بأسَ ، أحْسَنْتَ وأبقَيتَ . فقال الرجلُ : بأبي وأمي يا نبي اللهِ احكُم في أهلي ومالي بما أراكَ[2] الله ، أو أُخيّرك فأُخلي سبيلك ؟ فقال : أُحِبُّ أن تُخليَ سبيلي فأعْبُدَ ربي . فخلّى سبيله . فقال الخضر : الحمدُ لله الذي أوْقَعني في العبوديةِ ثمّ نجّاني منها » .

وهذا حديث رفْعُه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً . وفي رجاله من لا يُعْرف ، فالله أعلم[3] .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه (عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضِر)[4] من طريق عبد الوهاب بن الضحاك[5] ، وهو متروك ، عن بقية .

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السُّدّي أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملِكاً ، فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضِر لا رغبة له في الملك فلو أنك زوجته لعل يجيء منه ولدٌ يكون المُلْكُ

---

(١) يتقعقع : يضطرب .

(٢) في ب : أمرك .

(٣) الخبر مرفوعاً إلى النبي ﷺ في المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٧٥٣٠) وفي مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢ ـ ٦٣) .

(٤) ذكره حاجي خليفه في كشف الظنون (١١٢٥) .

(٥) عبد الوهاب بن الضحاك العُرْضي ، أبو الحارث السُّلَمي من أهل حمص ، قال النَّسائي : عنده عجائب . وقال ابن حِبّان : لا يحل الاحتجاج به ، ولا الذكر عنه إلا على جهة الاعتبار . مات سنة (٢٤٥هـ) .
الضعفاء والمتروكين للنسائي (٦٩) ، والمجروحين ، لابن حبان (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨) والتقريب (١/ ٥٢٧) .

له ، فزوَّجه أبوه بامرأةٍ حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لي في النساء ، فإن شئتِ أطلقتُ سراحَك ، وإن شئتِ أقمتِ معي تعبدين الله عزَّ وجلَّ وتكتمين عليَّ سِرِّي . فقالت : نَعَم ، وأقامت معه سنةً . فلما مضت السنة دعاها الملكُ فقال : إنك شابة وابني شاب فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ، إن شاءَ كانَ و إن لم يشأ لم يكن . فأمره أبوه فطلّقها وزوَّجه بأخرى ثَيِّباً قد وُلد لها ، فلما زُفَّت إليه قال لها كما قال للتي قَبْلَها ، فأجابت إلى الإقامة عندَه . فلما مضت السنة سألها الملكُ عن الولد ، فقالت : إن ابنَك لا حاجة له بالنساء . فتطلبه أبوه ، فهربَ ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال : إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سرَّه فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأُخرى فأقامت تعبدُ الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمرّ بها رَجُل يوماً فسمعته يقول : بسم الله ، فقالت له : أنَّى لك هذا الاسم ؟ فقال : إني من أصحاب الخضِر ، فتزوجته فولدت له أولاداً[1] .

ثم صار[2] من أمرها أن صارت ماشِطةَ بنتِ فِرعون ، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ، ربي وربّك وربّ أبيك ، الله . فأعلمت أباها ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأُحميت ، ثمّ أمر بها فأُلقيت فيها ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها، فقال لها ابنٌ معها صغير : يا أماه اصبري فإنك على الحق ، فألقت نفسها في النار فماتت[3] رحمها الله .

وقد روى ابن عساكر ، عن أبي داود الأعمى نُفيع ـ وهو كذاب وضاع[4] ـ عن أنس بن مالك . ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ـ وهو كذاب أيضاً ـ[5] عن أبيه عن جدّه : أن الخضر جاء ليلة فسمع النبيُّ ﷺ كلامهُ[6] وهو يدعو ويقول : اللهم أعني على ما ينجّيني مما خوَّفتني ، وارزقني شوقَ الصالحين إلى ما شوَّقْتَهم إليه ، فبعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك فسلم عليه ، فرد عليه السلامَ وقال : قل له : إن الله فضَّلك على الأنبياء كما فضَّل شهرَ رمضان على سائر الشهور ، وفضّل أُمتك على

---

(١) الخبر مفصل عن السدي ، في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٣ ـ ٦٤) .

(٢) تتمة الخبر هذه عند ابن عساكر عن ابن عباس . مختصره (٨/ ٦٤) .

(٣) سياق الخبر عند ابن عساكر يختلف عما هنا . ففيه : وأخذ بعض ولدها فرمى به في البقرة وهي تغلي ، ثم قال : ترجعين؟ قالت : لا . فأخذ الولد الآخر حتى ألقى أولادها أجمعين ، ثم قال لها : ترجعين ؟ قالت : لا . فأمر بها ، قالت : إن لي حاجة ، فقال : وما هي : قالت : إذا ألقيتني في البقرة تأمر بالبقرة أن تُحمل ثم تكفأ في بيتي الذي على باب المدينة ، وتنحّي البقرة وتهدم البيت علينا حتى يكون قبورَنا . فقال : نعم ، إن لك علينا حقاً . قال : ففعل بها ذلك . مختصر تاريخ ابن عساكر (٨/ ٦٤) .

(٤) وقال النسائي : متروك الحديث . الضعفاء ، له (١٠٢) . والضعفاء للبخاري (١١٥) ، والمجروحين ، لابن حبان (٣/ ٥٥ ـ ٥٦) ، والتقريب (٢/ ٣٠٦) .

(٥) وقال النسائي : متروك الحديث . (ص٨٩) . والمجروحين ، لابن حبان (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) والتقريب (٢/ ١٣٢) .

(٦) لفظ كلامه . سقط من ط .

الأمم كما فضّل يوم الجمعة على غيره[١] . الحديث ـ وهو مكذوب ـ لا يصح لا سنداً ولا متناً ، لا يتمثَّل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلّماً ومتعلّماً وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضِر يأتي إليهم ، ويسلّم عليهم ، ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالّهم ، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على مَن سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل . وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي ، بعد إيراده حديث أنس هذا : وأهل الحديث متفقون على أنه حديثٌ منكر الإسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[٢] قائلاً : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر ابن بالويه ، حدّثنا محمد بن بشر بن مطر ، حدّثنا كامل بن طلحة ، حدّثنا عباد بن عبد الصمد ، عن أنس ابن مالك قال: لما قُبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حولَه واجتمعوا ، فدخل رجلٌ أشْهَب اللحية جسيمٌ صَبيح ، فتخطّى رقابَهم ، فبكى ثمّ التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن في الله عَزاءً من كلِّ مصيبةٍ ، وعِوَضاً من كلِّ فائت ، وخَلَفاً من كلِّ هالك ، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ، ونظره إليكم في البلاء ، فانظروا فإن المصاب من لم يُجْبَر ، وانصرف . فقال بعضهم لبعض : تعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلي : نعم هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة ، به ، وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي ، ثم قال البيهقي : عباد بن عبد الصمد ضعيفٌ ، وهذا منكر بمرة .

قلت : عباد بن عبد الصمد هذا هو أبو معمر البصري ، روى عن أنس نسخه ؛ قال ابن حِبان[٣] ،

---

(١) اختصر ابن كثير النص هاهنا فالتبس مضمونه . والذي عند ابن عساكر ، في المختصر (٨/ ٦٥) : عن أنسٍ قال : كان رسول الله ﷺ يتوضأ من الليل إلى الليل ، فخرجتُ معه ذات ليلة في بعض طرق المدينة ومعي الطَّهُور ، فسمعت صوت رجل يدعو : اللهم أعني على ما ينجيني مما خوّفتني . فقال رسول الله ﷺ : لو دعا بالتي تليها ـ قال : وفّق الله على لسان الداعي الذي كان في نفس رسول الله ﷺ ـ فقال : اللهم ارزقني شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه . فقال : دع الطهور يا أنس ، جُمعتا له وربِّ الكعبة ، ائت هذا الداعي فقل له : ادع لرسول الله ﷺ فليُعنه الله على ما بعثه ، وادع لأمته أن يأخذوا ما آتاهم نبيهم . قال : من أرسلك؟ ـ قال : ولم يكن النبي ﷺ قال لي : أخبره من أرسلني ـ قال : فقلت : وما عليك؟ قال : لست أدعو حتى تخبرني من أرسلك . فقلت : وما عليك؟ قال : لست أدعو حتى تخبرني من أرسلك . قال : فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إنه أبى حتى أخبره من أرسلني . قال : قل له : « رسول الله ﷺ » . فأتيت فقلت له : رسول الله ﷺ أرسلني . قال : مرحباً برسول الله ﷺ ، وبرسوله ، أنا أحق أن آتي رسولَ الله ﷺ ، فائت رسول الله ﷺ وقل له : أنا أخوك الخضر ، وإن الله فضلك على النبيين كما فضّل رمضان على سائر الشهور ، وفضل أمتك على سائر الأمم ، كما فضل الجمعة على سائر الأيام . قال : فلما ولّيت سمعته يقول : اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المرشدة المتاب عليها .

(٢) في دلائل النبوة (٧/ ٢٦٩) .

(٣) المجروحين (٢/ ١٧١) .

والعقيلي[١] : أكثرها موضوع . وقال البخاري[٢] : منكر الحديث . وقال أبو حاتم[٣] : ضعيف الحديث جداً منكره . وقال ابن عدي[٤] : عامّة ما يرويه في فضائل علي ، وهو ضعيف غالٍ في التشيع .

وقال الشافعي في « مسنده »[٥] : أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدّه علي بن الحسين قال : لما توفي رسولُ الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن في الله عزاءً من كلّ مصيبة ، وخلَفاً من كل هالك ، ودرَكاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِمَ الثواب . قال علي بن الحسين : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر .

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك ؛ قال أحمد بن حنبل[٦] ويحيى بن معين[٧] : يكذب . زاد أحمد : ويضع الحديث . ثمّ هو مرسل ، ومثله لا يعتمد عليه هاهنا ، والله أعلم .

وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن أبيه ، عن علي . ولا يصح .

وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدّثه ، عن محمد بن عجلان ، عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصفّ ، فذكر دعاءه للميت : إنْ تعذبه فكثيراً عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دُفن قال : طوبى لك يا صاحبَ القبر إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً ، فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صَلاته وكلامه عمَّن هو . قال : فتوارى عنهم ، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عُمر : هذا ـ والله ـ الخضر الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ[٨] . وهذا الأثر فيه متهم ، وفيه انقطاع ، ولا يصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري ، عن عبد الله بن مُحَرَّر ، عن يزيد بن الأصم ، عن علي بن أبي طالب قال : دخلت الطوافَ في بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلقٍ بأستار الكعبة وهو يقول : يا من

---

(١) الضعفاء الكبير (٣/ ١٣٩) وعبارته : « وله عن أنس مناكير كثيرة » .

(٢) عده البخاري اثنين في تاريخه الكبير ؛ عباد بن منصور أبو معمر ، وقال : فيه نظر ، وعباد بن عبد الصمد ، سمع أنساً ، وقال فيه : منكر الحديث (٦/ الترجمتان ١٦٢٩ و١٦٣٠) وهما واحد إن شاء الله ، كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وغيره .

(٣) الجرح والتعديل (٦/ الترجمة ٤٢١) .

(٤) الكامل في الضعفاء (٤/ ١٦٤٨) .

(٥) مسند الشافعي (٣٦١) وليس فيه قول علي بن الحسين بأن القائل هو الخضر .

(٦) العلل (٢/ ١٩٨) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ الترجمة ٦٤٣) .

(٧) هذا نقله من الميزان للذهبي (٣/ ٣٧٢) ، ولم نقف على ذلك في تاريخ الدوري (٢/ ٤٨١) وسؤالات ابن الجنيد (الترجمة ٢١٧) ، بل فيهما : ليس بشيء .

(٨) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٥) .

لا يمنعه سَمْع من سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحّين ، ولا مسألة السائلين ، ارزقني بَرْدَ عفوك ، وحلاوة رحمتك . قال : فقلت : أَعِد عليَّ ما قلت . فقال لي : أوسمعتَه ؟ قلت : نعم . فقال لي : والذي نفس الخضر بيده ـ قال : وكان هو الخضر ـ لا يقولها عبدٌ خلفَ صلاة مكتوبة إلا غَفَر الله له ذنوبه . ولو كانت مثل زبد البحر ، وورق الشجر ، وعدد النجوم ، لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرَّر فإنه متروك الحديث[١] . ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ، ومثل هذا لا يصح . والله أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي حدّثنا مالك بن إسماعيل ، حدّثنا صالح بن أبي الأسود ، عن محفوظ ابن عبد الله الحَضْرَمي ، عن محمد بن يحيى قال : بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلطه السائلون ، ويا من لا يتبرَّم بإلحاح الملحِّين ، أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال : فقال له علي : يا عبد الله أعِد دعاءك هذا . قال : وقد سمعتَه ؟ قال : نعم . قال : فادع به في دُبر كلِّ صلاة ، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عددُ نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها ، لغفر لك أسرع من طرفة عين[٢] .

وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يُعرف ، والله أعلم .

وقد أورده ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا يعقوب بن يوسف ، حدّثنا مالك بن إسماعيل ، فذكر نحوه ، ثمّ قال : وهذا إسنادٌ مجهولٌ منقطعٌ ، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أخبرنا أبو القاسم بن الحصين ، أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد ، أخبرنا أبو إسحاق المُزَكِّي[٣] ، حدّثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدّثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملَّهُ[٤] علينا بعبّادان ، أخبرنا عمرو بن عاصم ، حدّثنا الحسن بن رَزِيْن[٥] ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال ـ ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ قال : يلتقي الخضرُ وإلياس كلّ عام في الموسم ، فيحلق كلُّ واحد منهما رأس صاحبه ، ويَتَفَرَّقان عن هؤلاء الكلمات : بسمِ اللهِ ، ما شاء الله ،

---

(١) تقريب التهذيب ، والضعفاء والمتروكين للبخاري (٦٧) ، وللنسائي (٦٣) ، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٢٢ ـ ٢٤) .

(٢) أورد ابن منظور هذه الرواية في مختصره لابن عساكر (٨/ ٦٦) .

(٣) المزَكّي ، بضم الميم وفتح الزاي ، وكاف مشددة ، يقال هذا لمن يزكي الشهود ويبحث عن حالهم ويعرفه القاضي . وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي شيخ نيسابور في عصره ، وكان من العبّاد المجتهدين . كثير الحج . رحل في طلب الحديث . وتوفي سنة (٣٦٢هـ) . اللباب (٣/ ٢٠٤) .

(٤) في ب وط : أملاه ، وهو أصوب .

(٥) في ط : « الحسن بن زريق » خطأ بيّن ، فإن الحسن بن زريق الطهوي يروي عن ابن عيينة ، والحسن بن رزين هذا يروي عن ابن جريج ، وقد ساق كل من العقيلي وابن عدي والذهبي في الميزان هذا الحديث في ترجمته كما سيأتي .

لا يسوق الخيرَ إلا الله ، ما شاء الله ، لا يَصْرفُ السوء إلا الله ، ما شاء الله ، ما كان من نِعمة فمن الله ، ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : وقال ابن عباس : من قالهنَّ حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات آمَنَه اللهُ من الغَرق والحرق والسَّرَق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسُّلطان والحية والعقرب[1] .

قال الدارقطني في « الأفراد » : هذا حديث غريب من حديث ابن جُريج لم يُحدِّث به غير هذا الشيخ عنه ، يعني الحسن بن رَزِين هذا . وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي[2] : ليس بالمعروف . وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي[3] : مجهول وحديثه غير محفوظ . وقال أبو الحُسين[4] ابن المنادي : هو حديث واهٍ بالحسن بن رَزِين .

وقد روى ابن عساكر نحوه[5] من طريق علي بن الحسن الجهضمي ـ وهو كذاب ـ عن ضَمرة بن حبيب المقدسي ، عن أبيه ، عن العلاء بن زياد القُشَيْري ، عن عبد الله بن الحسن ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كلَّ يوم عَرَفة بعرفات جِبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر . . . وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً ، ولله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنِي ، عن ابن أبي رَوّاد قال : إلياس والخضِر يصومان شهرَ رمضان في بيت المقدس ، ويحجان في كلِّ سنة ، ويشربان من ماء زمزم شَربةً واحدةً تكفيهما إلى مثلها من قابل[6] .

وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان باني جامع دمشق أحبَّ أن يتعبَّدَ ليلةً في المسجد ، فأمر القَوَمَة[7] أن يخلوه له ، ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقال للقَوَمة : ألم آمركم أن تخلوه ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضِر يجيء كلَّ ليلة يصلي هاهنا .

وقال ابن عساكر أيضاً : أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد ، أخبرنا أبو بكر بن الطبري ، أخبرنا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٦) .
(٢) الكامل (٢/ ٧٤٠) .
(٣) الضعفاء الكبير (١/ ٢٢٤) .
(٤) في ط : « الحسن » ، محرف ، وهو أبو الحسين أحمد بن جعفر بن محمد المعروف بابن المنادي المتوفى سنة ٣٣٦ كما في تاريخ الخطيب (٥/ ١١٠) (ط . د. بشار) والسير (١٥/ ٣٦١) وغيرهما .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٦ ـ ٦٧) ، وذكره المزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦) ، والذهبي في الميزان (٢/ ٣٣٠) .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٧) .
(٧) القومة : الخدم .

أبو الحسين بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدّثنا يعقوب ـ وهو ابن سفيان الفَسَوي ـ حدّثني محمد بن عبد العزيز ، حدّثنا ضَمْرة[١] ، عن السري بن يحيى ، عن رياح بن عَبيدة قال : رأيتُ رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل جاف ، قال[٢] : فلما انصرف من الصلاة قلت : مَن الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال : وهل رأيته يا رياح ؟ قلت : نعم . قال : ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضِر بشّرني أني سألي وأعدل[٣] .

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي[٤] : الرَّملي مجروح عند العلماء[٥] . وقد قدح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة ، والسري ، ورياح[٦] . ثمّ أورد من طرق أُخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر ، وضعَّفها كلَّها[٧] .

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمي ، وبسفيان بن عُيينة وجماعة يطول ذكرهم[٨] . وهذه الروايات والحكايات هي عُمدة مَن ذهب إلى حياته إلى اليوم ، وكُلٌّ من الأحاديث المرفوعة ضعيفة

---

(١) في أوط : (حمزة) وهو سهو ، وأثبتنا ما في ب ، وسيذكره المؤلف بعد قليل على الصواب .

(٢) في ط : حافي . وفي ب : حافٍ فلما .

(٣) مختصر ابن عساكر (٨/ ٦٩ ـ ٧٠) .

(٤) كلام ابن الجوزي صحيح، وقد ذكره في كتابه الضعفاء (٣/ ٧٧)، وهو محمد بن عبد العزيز العمري الرملي، قال أبو زرعة: ليس بالقوي، وقال أبو حاتم: كان عنده غرائب ولم يكن عندهم بالمحمود هو إلى الضعف ما هو، وقال البزار: لم يكن بالحافظ، لكن وصفه يعقوب بن سفيان بالحفظ ووثقه العجلي وحده، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف. وقد انتقى الإمام البخاري حديثين من حديثه أحدهما في التفسير والثاني في الاعتصام (تحرير التقريب ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

(٥) هو محمد بن عبد العزيز الرملي . قال ابن حجر : صدوق يهم . التقريب (٢/ ١٨٦) .

(٦) كلام ابن المنادي هذا، إن صح عنه، فيه نظر، فإن ضمرة وهو ابن ربيعة الفلسطيني ثقة يهم قليلاً وإن قال الحافظ ابن حجر: « صدوق يهم قليلاً » فقد وثقه الأئمة: ابن معين، وأحمد، والنسائي، وآدم بن أبي إياس، وابن سعد، وابن حبان، والعجلي، ولم يتكلم فيه سوى زكريا الساجي، وله أوهام قليلة (تحرير التقريب ٢/ ١٥١ ـ ١٥٢). أما السري ابن يحيى فهو ثقة ولم يضعفه سوى الأزدي، وتضعيفه شبه لا شيء لأنه متكلم فيه كما في التقريب، ورياح بن عبيدة ثقة أيضاً كما في التقريب.

(٧) زاد هنا في ب : وذكر ابن عساكر في ترجمة رجل تطلبه سليمان بن عبد الملك أنه فرّ منه في البلاد يميناً وشمالاً ، فبينما هو يوماً في بعض الأماكن إذا رجل يصلي ، فاقترب ، فلما سلّم قال له : لعل هذا الطاغي أخافك؟ قال : نعم . فقال : قل : سبحان الله الواحد الذي ليس غيره إله ، سبحان القديم الذي لا بادىء له . سبحان الدائم الذي لا نفاد له . سبحان الذي كل يوم هو في شأن . سبحان الذي يحيي ويميت . سبحان الذي خلق ما يُرى وما لا يُرى . سبحان الذي علِمَ كل شيء بغير تعَلُّم . قال : فلما قلتها أمن قلبي ورجعت إلى سليمان فأجلسني معه على الفراش وقال : ساحر والله لقد أردت قتلك فما تمالكت إذ رأيتك أني أجلستك معي . فقلت : إن من قصتي كذا وكذا . فقال : الخضر والله ، والله الخضر ، والله .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٨ ـ ٧٠) .

جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد . وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره لأنه يجوز عليه الخطأ . والله أعلم .

وقال[١] عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر ، عن الزُّهْري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجّال ، وقال فيما يحدثنا : يأتي الدجّال وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجلٌ هو خير الناس أو من خيرهم ، فيقول : أشهدُ أنك أنت الدجّال الذي حدّثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه . فيقول الدجّال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكّون في الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ثم يُحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنتُ أشدَّ بصيرة فيك مني الآن . قال : فيريد قتله الثانية فلا يُسلَّط عليه . قال مَعْمَر : بلغني أنه يجعل على حلقه صفيحة نحاس . وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجّال ثمّ يُحييه .

وهذا الحديث مخرج في « الصحيحين » من حديث الزُّهري ، به[٢] .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سُفيان الفقيه الراوي عن مسلم : الصحيح أن يقال : إن هذا الرجل الخضر . وقول معمر وغيره : « بلغني » ، ليس فيه حجة . وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث : فيأتي بشابٍ ممتلىء شباباً فيقتله . وقوله : « الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ » لا يقتضي المشافهةَ ، بل يكفي التواتر .

وقد تصدَّى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه (عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضِر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات ، فبيَّن أنها موضوعات ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، فبيّن ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ، ومنهم البخاري ، وإبراهيم الحربي ، وأبو الحسين بن المنادي ، والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي ؛ وقد انتصر لذلك وصنَّف فيه كتاباً سماه (عجالة المنتظِر في شرح حال الخضر)، فيحتج لهم بأشياء كثيرة. منها قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح . والأصل عدمه حتى يثبت ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١]

---

(١) في ب : قال . والحديث في مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٩٣) رقم (٢٠٨٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٨٨٢)، وفي الفتن (٧١٣٢) من طريق عقيل وشعيب، عن الزهري. وأخرجه مسلم في الفتن (٢٩٣٨) (١١٢) من طريق صالح بن كيسان عن الزهري .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به وينصرنه . ذكره البخاري عنه ، فالخضر إن كان نبياً أو ولياً، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمان رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ، لأنه إن كان ولياً فالصِّدِّيق أفضلُ منه ، وإن كان نبياً فموسى أفضلُ منه . وقد روى الإمام أحمد في (مسنده) : حدّثنا شُريح بن النعمان ، حدّثنا هُشيم ، أنبأنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كانَ حَيّاً ما وَسِعَه إلّا أنْ يَتَّبِعَني »[1] . وهذا الذي يُقطع به ، ويُعلم من الدين علم الضرورة .

وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلّهم لو فرض أنهم أحياء مكلّفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلّهم أتباعاً له وتحت أوامره وفي عموم شرعه ، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لمّا اجتمع معهم ليلة الإسراء رُفع فوقهم كلّهم ، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة ، أمره جبريل عن أمر الله أن يَؤُمَّهم ، فصلّى بهم في محلِّ ولايتهم ، ودار إقامتهم ، فدلّ على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجَّل ، المقدَّم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا عُلم هذا ، وهو معلوم عند كلِّ مؤمن ، علم أنه لو كان الخضِر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه ، لا يسعه إلّا ذلك . هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهّرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أُولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بني إسرائيل ، والمعلوم أن الخضِر لم يُنقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد ، وهذا يوم بدر يقول الصَّادِق المصدوقُ فيما دعا به لربه عزّ وجلّ، واستنصره ، واستفتحه على من كفره : « اللهمَّ إنْ تهلِكْ هذهِ العِصَابَةُ لا تُعْبَدُ بَعْدَها في الأرْضِ »[2] وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة ، حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال : إنه أفخر بيت قالته العرب : [من الكامل]

وبِثرُ بـدْرٍ إذْ يـردّ وُجـوهَهـم جِبْريلُ تحتَ لِوائِنا ومحمدُ[3]

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته ، وأعظم غزواته .

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفرّاء الحنبلي : سُئل بعض أصحابنا عن الخضِر هل ماتَ ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري ، قال : وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في « العُجالة » .

---

(١) الحديث بتمامه في مسند أحمد (٣/ ٣٨٧) . (وسيأتي في ٤/ ٦٩) من هذا الكتاب .

(٢) الحديث بتمامه أخرجه مسلم (١٧٦٣) في الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر .

(٣) ليس في ديوانه . وفي ب : وبيوم بدر .

فإن قيل : فهلا يقال : إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلّها ولكن لم يكن أحدٌ يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرّد التوهُّمات . ثمّ ما الحامل له على هذا الاختفاء ، وظهوره أعظم لأجره ، وأعلى في مرتبته ، وأظهر لمعجزته . ثمّ لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، وإنكاره لِمَا وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة ، والآراء البدعية ، والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم ، وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقديره الأدلة والأحكام أفضل ما يقال عنه من كونه في الأمصار ، وجَوْبه الفيافي والأقطار . واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لا يتوقّف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدي من يَشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت في (الصحيحين) وغيرهما عن عبد الله بن عُمر ، أن رسول الله ﷺ صلّى ليلةَ العِشاءَ ثم قال : «أرأيْتُم لَيْلَتكُم هذِهِ فإنَّهُ إلى مِئة سَنَةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُو عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ اليَوْمَ أَحَدٌ»[١] . وفي رواية : « عَيْنٌ تَطرفُ » . قال ابن عمر : فَوَهَلَ[٢] الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد انخرام قرنه .

قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا عبد الرزاق[٤] ، أنبأنا مَعمر ، عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَةَ أن عبد الله بن عمر قال : صلّى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلّم قام فقال : « أرأيْتُم لَيلتكم هذهِ فإنَّ عَلَى رأسِ مِئة سَنَةٍ لا يَبْقَى ممن على ظهر الأرض أحدٌ » . وأخرجه البخاري[٥] ، ومُسلم[٦] من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ ، أو ما مِنْكُم مِنْ نَفْسٍ اليومَ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مئة سَنَةٍ وهيَ يَوْمَئذٍ حَيَّة » .

---

(١) أخرجه البخاري : برقم (١١٦) ، في العلم ، باب السمر في العلم ، ومسلم رقم (٢٥٣٧) في فضائل الصحابة عن الزهري ، باب قوله ﷺ : « لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم » .

(٢) وَهَلَ : غلط ، يقال : وهل يهل وَهْلاً ، أي : غلط وذهب وهمه إلى غير الصواب . أما وَهِلت بكسر الهاء ، فمعناه : فزعت .

(٣) في مسنده (٢/ ٨٨) .

(٤) وهو في مصنفه (٢٠٥٣٤) .

(٥) البخاري (١١٦) و(٥٦٤) .

(٦) مسلم (٢٥٣٧) .

(٧) المسند (٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) .

وقال أحمد[١] : حدّثنا موسى بن داود ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « تَسْأَلونَني عَنِ السَّاعَةِ وَإنّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ . أُقْسِمُ باللهِ ما عَلَى الأرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ اليومَ يأتي عَلَيْها مئة سَنَةٍ » . وهكذا رواه مسلم[٢] من طريق أبي نَضرة وأبي الزبير كلٌّ منهما عن جابر بن عبد الله ، به[٣] نحوه .

وقال الترمذي[٤] : حدّثنا هنّاد ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان[٥] ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مئة سَنَةٍ » . وهذا أيضاً على شرط مسلم[٦] .

قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصِّحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر عليه السلام .

قالوا : فالخَضِر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع ، فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه ، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مئة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ، لأنه داخل في هذا العموم ، والأصل عدم المخصِّص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله . والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السُّهيلي في كتابه « التعريف والإعلام »[٧] عن البخاري ، وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث ، وفي كون البخاري ـ رحمه الله ـ يقول بهذا ، وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر . ورجّح السهيلي بقاءه ، وحكاه عن الأكثرين . قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعدَه ، فمروي من طُرق صِحاح[٨] . ثمّ ذكر ما تقدّم مما ضعّفناه ، ولم يورد أسانيدها . والله أعلم .

* * *

(١) المسند (٣/ ٣٤٥) . وأخرجه من طريق آخر هو (٣٨٥) .
(٢) مسلم رقم (٢٥٣٨) في فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ : « لا تأتي مئة سنة وعلى هذه الأرض نفس منفوسة اليوم » .
(٣) قوله : به ، ليس في ب .
(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٢٥٠) في الفتن ، باب (٦٤) .
(٥) في ب : أبي شعيب ، خطأ .
(٦) لكن الترمذي اقتصر على تحسينه .
(٧) التعريف والإعلام الورقة (٣٥) .
(٨) انظر ص٩٦ .

وأمّا إلياس عليه السّلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ١٢٣ ـ ١٣٢] .

قال علماء النسب : هو إلياس بن تشبين . ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون . وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران .

قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلَبَك غربي دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وأن يتركوا عبادة صَنَم لهم كانوا يسمونَه : بَعلاً[١] . وقيل : كانت امرأة اسمها : بعل[٢] ، والأول أصح . ولهذا قال لهم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فكذّبوه ، وخالفوه ، وأرادوا قتله ، فيقال : إنه هرب منهم ، واختفى عنهم .

قال أبو يعقوب الأذرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم[٣] عشر سنين حتى أهلَكَ اللهُ الملِكَ وولّى غيرَه ، فأتاه إلياس ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم وأسلم من قومه خلقٌ عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم[٤] .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدّثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة ، أو قال أربعين ليلة ، تأتيه الغربان برزقه[٥] .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، عن أبيه قال : أول نبي بُعث إدريس ، ثمّ نوح ، ثمّ إبراهيم ، ثمّ إسماعيل وإسحاق ، ثمّ يعقوب ، ثمّ يوسف ، ثمّ لوط ، ثمّ

---

(١) استدركه محقق كتاب الأصنام لابن الكلبي (ص١٠٨) ، عن تاج العروس : (بعل) . وفي تاريخ الطبري (١/ ٤٦١) . وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له : بعل .

(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٤٦١) عن ابن إسحاق .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٢) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) .

هود ، ثمّ صالح ، ثمّ شعيب ، ثمّ موسى وهارون ابنا عمران ، ثمّ إلياس بن تشبين بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال[١] . وفي هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول ، عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ، اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى[٢] .

وقد قدّمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كلِّ عام في شهر رمضان في بيت المقدس ، وأنّهما يحجّان كلّ سنة ، ويشربان من زمزم شَربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كلّ سنة ، وبيّنا أنه لم يصح شيء من ذلك ، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر ماتَ ، وكذلك إلياس عليهما السلام . وما ذكره وهب بن منبّه وغيره أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونُها لون النار ، فركبها وجعل الله له ريشاً وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب[٣] ففي هذا نظر ، وهو من الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة . والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدّثني أبو العباس أحمد بن سعيد المَعْداني[٤] ببخارى ، حدّثنا عبد الله بن محمود ، حدّثنا عبدان بن سنان ، حدّثني أحمد بن عبد الله البَرْقي ، حدّثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدّثنا أبو إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فإذا رجلٌ في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمّة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها . قال : فأشرفت على الوادي فإذا رجلٌ طوله أكثر من ثلاثمئة ذراع ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامَك . قال : فأته فأقرئه السلامَ ، وقل له : أخوك إلياس يُقرئك السلامَ . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلّم ، ثمّ قعدا يتحادثان ، فقال له : يا رسول الله إني ما آكل في سنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطري ، فآكل أنا وأنت . قال : فنزلتْ عليهما مائدةٌ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) . وانظر الطبقات لابن سعد (١/ ٤٠) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٤) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٣) . ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٥ ـ ٢٧) .
(٤) المَعْداني ، بفتح الميم وسكون العين : نسبة إلى مَعْدان وهو اسم لجد أبي العباس أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد بن معدان . ترجمته في اللباب (٣/ ٢٣٢) . وفي دلائل النبوة : البغدادي ، وهو تحريف ، والحديث فيه (٥/ ٤٢١) .

من السماء عليها خبزٌ وحوت وكَرَفس[١] ، فأكلا وأطعماني وصلّيا[٢] العصر ، ثم ودَّعه . ورأيته مرّ في السحاب نحو السماء . فقد كفانا البيهقي أمره وقال : هذا حديث ضعيف بمرّة ، والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في « مستدركه »[٣] على الصحيحين ، وهذا مما يُستدرك به على « المستدرك » فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً ، فقد تقدم في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدم طُوْلُه سِتُّون ذراعاً في السماء » إلى أن قال : « ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ »[٤] وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه . وهذا لا يصح ، لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كلّ سَنةٍ شربةً تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر . وهذه أشياء متعارضة ، وكلّها باطلة لا يصح شيءٌ منها .

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر ، واعترف بضعفها ، وهذا عجب منه كيف تكلّم عليه ، فإنه أورده من طريق حسن بن عَرفة ، عن هانىء بن الحسن ، عن بقية ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولاً[٥] ، وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة ، واعتذر بعدم قدومه لئلا تنفر الإبل ، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنَّة وقال : إن لي في كلِّ أربعين يوماً أكلةً ، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورُطَب وبقل ماعدا الكُرّاث ، وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال : عهدي به عام أول ، وقال لي : إنك ستلقاه قبلي ، فأقرئه مني السلام[٦] .

وهذا يدلّ على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما ، وصحّة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسعٍ من الهجرة ، وهذا لا يسوغ شرعاً ، وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد[٧] ، وكلّها لا يُفرَح بها ، إمّا لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثني بشر بن مُعاذ ، حدّثنا حماد بن واقد ، عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي فيه

---

(١) الكَرَفْس : بقل كثير المنافع .
(٢) في ط : وصلينا .
(٣) المستدرك (٢/ ٦١٧) . والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٢١) وقال الذهبي في تلخيص المستدرك : إنه حديث موضوع .
(٤) تقدم تخريج هذا الحديث .
(٥) زاد في ب هاهنا : وهذا موضوع أيضاً .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٧ ـ ٢٩) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٩) .

ركعتين ، فافتتحت : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] . فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباءَ ، عليه مقطعات يمنية ، فقال لي : إذا قلت : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي . وإذا قلت : ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ فقل : يا قابل التوب تقبل توبتي . وإذا قلت : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني . وإذا قلت : ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ فقل : يا ذا الطول تطوّل عليّ برحمةٍ ، فالتفتُّ فإذا لا أحد ، وخرجت فسألت : مرَّ بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا : ما مرَّ بنا أحد ، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : للعذاب ، إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة ، والأوّل أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون .

وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : إلا من آمن منهم .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي : أبقينا بعده ذِكراً حسناً له في العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي : سلام على إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها ، كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، إسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين . ومن قرأ : ﴿ سَلامٌ على آلِ يَاسِين ﴾[2] أي على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : ﴿ سَلامٌ على إدراسِين ﴾ ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق ، والصحيح أنه غيره كما تقدم . والله أعلم .

* * *

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٩ ـ ٣٠) ، وهذا في إسناده حماد بن واقد وهو ضعيف .

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر ويعقوب ، حجة القراآت (٦١٠ ـ ٦١١) والنشر (٢/ ٣٦٠) .

باب
ذكر[١] جَماعَة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السّلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام .

قال ابن جرير في « تاريخه » : لا خلافَ بينَ أهلِ العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القيِّم[٢] بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كان كالب بن يوفنا[٣] ـ يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام ـ وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] قال ابن جرير[٤] : ثمّ من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حِزْقيل بن بوذي ، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

***

قصة حزقيل

قال الله تعالى ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٣] .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن مُنَبِّه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حِزقيل بن بوذي ، وهو ابن العجوز ، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه ـ فيما بلغنا ـ ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ قال ابن إسحاق : فروا من الوباء ، فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله : موتوا ، فماتوا جميعاً ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة ، فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً ، فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم . فأُمِر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً ، وأن يتصل العصبُ بعضه ببعض ، فناداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون وكبّروا تكبيرة رجلٍ واحدٍ[٥] .

---

(١) قوله : باب ـ ذكر ، ليس في ب ، وط .
(٢) في ط : القائم ، وهو لا يوافق نص الطبري .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٧) .
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٥٧) .
(٥) اختصر ابن كثير هنا فأخل بمضمونه وقد ذكره الطبري مفصلاً في تاريخه (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) وتفسيره أيضاً (٥/ ٢٦٨).

وقال أسباط ، عن السدّي ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها : دَاوَرْدَان[1] قِبَل واسط وقَع بها الطاعون فهرب عامة أهلها ، فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقي في القرية وسَلِم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابُنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو واد أفيح[2] ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخرُ من أعلاه : أن موتوا ، فماتوا حتى إذا هلكوا ، وبقيت أجسادهم مرَّ بهم نبي يقال له : حِزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكّر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه : تريد أن أُريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم . وإنما كان تفكره من قدرة الله عليهم . فقيل له : نادِ ، فنادى يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي ، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام ، ثمّ أوحى الله إليه أن نادِ : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً ، فاكتست لحماً ودماً ، وثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له : ناد ، فنادى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي ، فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنّهم قالوا حين أُحيوا : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، فرجعوا إلى قومهم أحياء يُعرفون أنهم كانوا موتى ، سَحْنَةُ[3] الموت على وجوههم ، لا يلبسون ثوباً إلا عاد كفناً وسخاً[4] حتى ماتوا بآجالهم التي كُتبت لهم[5] .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف . وعنه : ثمانية آلاف . وعن أبي صالح : تسعة آلاف . وعن ابن عباس أيضاً : كانوا أربعين ألفاً .

وعن سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذْرِعات[6] . وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مَثَل ، يعني أنه سيق مثلاً مبيناً أنه . « لن يغني حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ »[7] ، وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع[8] .

---

(١) في أ وب وراوردان وفي بعض النسخ : دراوَرْدان ، وأثبتنا ما في ط . وهو موافق لما في المطبوع من تاريخ الطبري ، ومعجم البلدان ، وفيه : داوَردان : . . من نواحي شرقي واسط ، بينهما فرسخ . ثم أورد رأي ابن عباس وتفسيره للآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ . . ﴾ .

(٢) الأفيح : كل موضع واسع .

(٣) السحنة : الهيئة واللون والحال .

(٤) في ب ، والطبري : دسما وفي ط : إلا عاد رسماً حتى ماتوا . والدسم : الدنس والوسخ .

(٥) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٩) .

(٦) مدينة في أطراف الشام ، تبعد عن دمشق نحو (١٠٠) كيلو متر جنوباً تعرف اليوم ب : درعا .

(٧) قطعة من حديث ، جرت مجرى المثل . تقدم تخريجها .

(٨) أورد الطبري في تفسيره (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٩) ، معظم الآراء التي قيلت في تفسير هذه الآية وعددهم .

وقد روى الإمام أحمد، وصاحبا «الصحيح» من طريق الزُّهري[١]، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب، عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ[٢] لقِيَه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. فذكر الحديث، يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار، فاختلفوا عليه، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، ـ وكان متغيّباً ببعض حاجته ـ فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كانَ بأرْضٍ وأنْتُم بها فَلا تَخْرُجُوا فِراراً مِنه، وإذا سَمِعْتُم بهِ بأرضٍ فلا تَقْدموا عَلَيه» فحمِدَ اللهَ عمرُ ثم انصرف.

وقال الإمام[٣]: حدّثنا حجاج ويزيد المعني[٤] قالا: حدثنا ابن أبي ذِئْب[٥]، عن الزهري، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عُمر وهو في الشام[٦] عن النبي ﷺ: «إنّ هذا السقمَ عُذِّبَ بهِ الأُمَمُ قَبْلَكُم، فإذا سَمِعْتُم بهِ في أرْضٍ فلا تَدْخُلُوها، وإذا وَقَع بأرْضٍ وأنْتُم بها فَلاَ تَخْرُجُوا فِراراً مِنه». قال: فرجع عمر من الشام. وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري، بنحوه[٧].

قال محمد بن إسحاق، ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل، ثمّ إن الله قبضه إليه، فلما قُبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث، وعبدوا الأوثان، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يسمونه بعلاً، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

قلت: لم يذكر ابن عساكر ترجمة حزقيل في «تاريخه»[٨] وقد قدّمنا قصة إلياس تبعاً لقصّة الخضر لأنهما يُقرنان في الذكر غالباً، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصّافات، فتعجلنا قصته لذلك. والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذُكر له عن وهب بن منبه قال: ثمّ تنبأ فيهم بعد إلياس وصيُّه اليسع بن أخطوب عليه السلام.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢ و١٩٤) والبخاري: رقم (٥٧٢٩) في الطب، باب ما يذكر في الطاعون. ومسلم رقم (٢٢١٩) في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

(٢) سَرْغ: أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك، من منازل حاج الشام معجم البلدان، وفيه خبر عمر رضي الله عنه.

(٣) المسند (١/ ١٩٣).

(٤) في أ: العنى. وفي ب: المغني، بإعجام الغين. وفي ط: المفتي. وما أثبتناه عن المطبوع من مسند أحمد (١/ ١٩٣)

(٥) في ط: «ذؤيب» وهو تحريف بيّن.

(٦) في المطبوع من مسند أحمد: وهو يسير في طريق الشام.

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٣٠)، و(٦٩٧٣)، ومسلم (٢٢١٩).

(٨) قوله: ولم يذكر ابن عساكر ترجمة حزقيل في تاريخه، زيادة من ب، وهو كما قال.

وهذه قصّة اليسع عَليه السّلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام [الآية : ٨٦] في قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [الآية : ٤٨] .

قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة : أخبرنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث ، يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته ، حتى قبضه الله عزّ وجلّ إليه ، ثمّ خلف فيهم الخلُوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثرت الجبابرة ، وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك جبار[١] عنيدٌ طاغ . ويقال : إنه الذي تكفّل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسُمّي : ذا الكِفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف الياء من « تاريخه » : اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال : هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام . ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بَعْلَبَك ، ثم ذهب معه إليها ، فلما رُفع إلياس خلفه اليسع في قومه ، وتنبّاه[٢] الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس[٣] عن أبيه عن وهب بن منبه . قال : وقال غيره : وكان الأسباط[٤] ببانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ ﴿ اليسع ﴾ بالتخفيف وبالتشديد ، ومن قرأ ﴿ واللَّيْسَعَ ﴾[٥] وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء .

قلت : وقد قدمنا قصة ذي الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام ، لأنه قد قيل : إنه ابن أيوب . فالله أعلم .

فصْلٌ

قال ابن جرير[٦] وغيره : ثم مرج أمر بني إسرائيل ، وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من

---

(١) قوله : جبار ، زيادة من ب .

(٢) في ط : ونبأه وهي أصوب . انظر مختصر تاريخ ابن عساكر (٢٨/ ٣٦) .

(٣) في ب : عبد المنعم بن إدريس بن سنان . ذكره ابن حِبان في المجروحين (٢/ ١٥٧) ، وقال : يضع الحديث على أبيه وعلى غيره من الثقات ، لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه . . . مات سنة (٢٢٨) ببغداد .

(٤) لفظ : الأسباط . سقط من ط .

(٥) حجة القراءات (٢٥٩) والنشر (٢/ ٢٦٠) .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٤) .

قتلوا من الأنبياء ، وسلَّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلّط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قُبة الزمان ـ كما تقدم ذِكره ـ فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة ، والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزّة وعسقلان غلبوهم عليه وقهروهم على أخذه ، فانتزعوه من أيديهم . فلما علم بذلك مَلِك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقُه فمات كمداً ، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له : شمويل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قصَّ الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان بين وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عزّ وجلّ شمويل بن بالي أربعمئة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً[١] ، تركنا ذِكرهم قصداً .

* * *

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٥) .

قصّة شمويل عليه السلام

وفيها بدء أمر داود عليه السلام[١]

هو شمويل ، ويقال له : أشمويل بن بالي بن علقمة بن حام[٢] بن اليهو بن تهو بن صوف[٣] بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة[٤] هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا[٥] ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السُّدِّي[٦] بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، والثعلبي ، وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوّة من سبط لاوي ، ولم يبق فيهم إلا امرأة حُبلى ، فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً ، فسمَّته أشمويل[٧] ، ومعناه بالعبرانية : إسماعيل ، أي سمع الله دعائي . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد ، وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته ، فكان عنده . فلما بلغ أشده[٨] بينما هو ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخَ يدعوه ، فسأله أدعوتني ؟ فكره أن يُفزعه ، فقال : نعم نَمْ ، فنامَ . ثمّ ناداه الثانية فكذلك ، ثمّ الثالثة[٩] فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك . فكان من أمره معهم ما قصَّ الله في كتابه .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا

---

(١) في ب : عليهما الصلاة والسلام ، وفي ط : قصة شمويل وفيها بدء أمر داود عليهما السلام .

(٢) في ط : يرخام . وهو موافق لما في تاريخ الطبري (١/ ٤٦٧) . وفي تفسير الطبري (٢/ ٣٧٣) : برحام ، بالباء الموحدة والحاء المهملة .

(٣) في تفسير الطبري (٢/ ٣٧٣) : ابن اليهو بن يهوصوق . . .

(٤) في ب : ذرية .

(٥) في بعض النسخ : هلفايا .

(٦) ونقله الطبري مفصلاً في تاريخه (١/ ٤٦٧) .

(٧) في تاريخ الطبري : سمعون .

(٨) في الطبري : فلما بلغ الغلام أن يبعثه الله نبياً . . .

(٩) في الطبري : فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني .

مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥١] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع ، وهذا بعيد ، لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في « تاريخه »[١] أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمئة سنة وستين سنة . فالله أعلم .

والمقصود : أن هؤلاء القوم لمّا أنهكتهم الحروب ، وقهرهم الأعداء ، سألوا نبيَّ الله في ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصِّب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ، ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : وأيُّ شيءٍ يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ ، يقولون : نحن محروبون موتورون[٢] ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين[٣] المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهرَ مع الملك إلا القليل ، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ . قال الثَّعلَبي : وهو طالوت بن قيش بن

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٥) . وتفسيره (٢/ ٣٧٣) والقرطبي (٣/ ٢٤٣) .
(٢) في ب : محزونون مقهورون .
(٣) في ب : المنهوبين .

أبيال بن ضرار[١] بن لحوب بن أفيح بن أريش بن بنيامين[٢] بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدي : كان سقَّاءً . وقال وهب بن منبه : كان دبَّاغاً . وقيل غير ذلك[٣] ، فالله أعلم . ولهذا ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ . وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي ، وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم ، وقالوا : ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكاً ؟! .

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ . قيل : كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أيّ بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم ، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا ، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه ، وعيَّنه للملك[٤] عليهم ، وقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ قيل : في أمر الحروب ، وقيل : بل مطلقاً ﴿ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ قيل : الطول . وقيل : الجمال . والظاهر من السياق أنه كان أجملهم ، وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويُمْنِهِ عليهم أن يردَّ اللهُ عليهم التابوتَ الذي كان سُلب منهم وقَهرهم الأعداءُ عليه ، وقد كانوا يُنصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : طست من ذهب كان يُغْسَل فيه صدور الأنبياء . وقيل : السكينةُ[٥] مثل الريح الخَجُوج[٦] . وقيل : صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر .

﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ قيل : كان فيه رُضَاض[٧] الألواح وشيء من المنِّ

---

(١) في بعض النسخ : أنيال بن صرار .

(٢) في ط : طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين . . . وفي تاريخ الطبري : (١/ ٤٧٥) . شاول بن قيس . . . بن بحرت بن أفيح بن أيش . . .

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) .

(٤) في ط : الملك .

(٥) قد ساق الطبري عدداً من الآراء في تأويل السكينة تفسيره (٢/ ٣٨٥) . وما بعدها .

(٦) ريح خجوج : أي شديدة المرور في غير استواء . وخَجَّتِ الريح في هبوبها تَخُجّ خُجوجاً : التوت .

(٧) الرضّ : دقّك الشيءَ . ورُضَاضه : قِطَعُه وكسرُه .

الذي كان نزل عليهم بالتيه[١] ﴿ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ ﴾ أي: تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آيةً لله عليكم وحُجةً باهرةً على صدق ما أقوله لكم وعلى صحّة ولاية هذا الملِك الصالح عليكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ . وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة. وقيل : كان فيه التوراة أيضاً ، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته ، فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما ؛ فيقال : إن الملائكة ساقتهما[٢] حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك ، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة . والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم[٣] من الآية ، والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم[٤] .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ . قال ابن عباس ، وكثير من المفسرين[٥] : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريعة[٦] ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أنّ من شَرِب من هذا النهر اليوم فلا يصحبْني في هذه الغزوة ، ولا يصحبني إلا مَن لم يَطْعمْه إلا غرفة في يده . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ ﴾ .

قال السدّي : كان الجيش ثمانين ألفاً ، فشرب منه ستةٌ وسبعونَ ألفاً ، وتبقّى معه أربعة آلاف . كذا قال[٧] .

وقد روى البخاري في « صحيحه » من حديث إسرائيل ، وزهير ، والثوري ، عن أبي إسحاق ، عن البَراء بن عازب قال : كنا ـ أصحابَ مُحمد ﷺ ـ نتحدث أنَّ عِدَّة أصحاب بدرٍ على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعةَ عشرَ وثلاثمئة مؤمن[٨] .

---

(١) ساق الطبري عدداً من الآراء في تأويل البقية ، تفسيره (٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) .
(٢) في ب : ساقوهما وفي بعض النسخ : ساقتها .
(٣) في ط : كما هو مفهوم بالجنود من الآية ، بزيادة لفظ (الجنود) هنا وحذفه من الآية القادمة .
(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩) .
(٥) من بداية الآية الكريمة ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾ إلى قوله : وكثير من المفسرين ؛ ليس في ب .
(٦) الآراء في تأويل قوله ﴿ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ ﴾ في تفسير الطبري (٢/ ٣٩١) .
(٧) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٢) .
(٨) الحديث في البخاري : رقم (٣٩٥٨) في المغازي ، باب عدة أصحاب بدر . وهو عند الطبري أيضاً في تفسيره (٢/ ٣٩٣) .

وقول السدّي إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً ، فيه نظر ، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً . والله أعلم[١] .

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾ أي: استقلّوا أنفسَهم واستضعفُوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلّتهم وكثرة عدد عدوهم . ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يعني بها : الفرسان منهم[٢] . والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجِلادِ[٣] والجدال والطِّعان .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ طلبوا من الله أن يُفرغ عليهم الصبرَ، أي: يغمُرُهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبّت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحَومة الوغى ، والدعاء إلى النِّزال ، فسألوا التثبّت الظاهرَ والباطنَ ، وأن يُنزل عليهم النصر على أعدائهم ، وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا ، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ، ولهذا قال : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام ، وأنه قتله قتلاً أذلّ به جُنْدَهُ وكسره ، ولا أعظم من غزوة يُقتل مَلِكُ عدوّها فَيُغْنَمُ بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويُؤسَر الشجعان والأقران[٤] ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويُدالُ أولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السُّدّي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه ، وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، وكان سمع طالوتَ ملك بني إسرائيل وهو يُحرّض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زَوّجْتُه بابنتي ، وأشركته في ملكي ، وكان داود عليه السلام يرمى بالقَذّافة ، وهو المقلاع ، رمياً عظيماً ، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حَجَر أن خُذني فإنّ بي تَقْتل جالوتَ ، فأخذه . ثم حجر آخر كذلك ، ثم آخر كذلك . فأخذ الثلاثة في مِخْلاته . فلما تواجه الصفّان برز جالوتُ ودعا إلى نفسه ، فتقدَّم

---

(١) للطبري رأي في من جاوز مع طالوت النهر (٢/ ٣٩٤) .
(٢) في ب : يعني بهم الشجعان منهم .
(٣) في ب : الجهاد . والجلاد : الضرب بالسيف في القتال .
(٤) في ب : ويؤسر الشجعان والأبطال . وفي ط : ويأسر الأبطال والشجعان والأقران .

إليه داود ، فقال له : ارجع فإني أكره قتلَك . فقال : لكني أُحب قتلك ، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضَعها في القَذَّافة ، ثمّ أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً ، ثمّ رمى بها جالوتَ ففلق رأسَه وفرَّ جيشُه منهزماً ، فوفى له طالوت بما وعدَه ، فزوَّجه ابنته ، وأجرى حكمه في ملكه ، وعظُم داودُ عليه السلام عند بني إسرائيل ، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت . فذكروا أن طالوت حَسَده وأراد قتله ، واحتال على ذلك فلم يصل إليه . وجعل العلماءُ ينهون طالوتَ عن قتل داود ، فتسلّط عليهم ، فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليلُ . ثمّ حصل له توبةٌ وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يُكثر من البكاء ويخرج إلى الجبَّانة فيبكي حتى يبلَّ الثرى بدموعه ، فنودي ذاتَ يوم من الجبانة : أن يا طالوت قَتَلتنا ، ونحن أحياء ، وآذيتنا ، ونحن أموات ، فازداد لذلك بكاؤه وخوفه ، واشتد وجله ، ثمّ جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة ، فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟! حتى دُل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشَع عليه السلام . قالوا : فدعتِ الله ، فقام يوشع من قبره فقال : أقامتِ القيامة ؟ فقالت : لا ، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم . ينخلع من الملك ، ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يُقتل . ثمّ عاد مَيْتاً . فترك الملكَ لداود عليه السلام ، وذهب ومعه ثلاثةَ عشرَ من أولاده ، فقاتلوا في سبيل الله حتى قُتلوا . قالوا : فذلك قوله : ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ .

هكذا ذكره ابن جرير في « تاريخه »[1] من طريق السدّي بإسناده . وفي بعض ذلك[2] نظر ونكارة والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب . حكاه ابن جرير[3] أيضاً .

وذكر الثعلبي أنها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور . وهذا أنسب . ولعلّه إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حياً ، فإن هذا إنما يكون معجزةً لنبي ، وتلك المرأة لم تكن نبيَّةً . والله أعلم . قال ابن جرير[4] : وزعم أهل التوراة أن مدّة ملك طالوت إلى أن قُتل مع أولاده كانت[5] أربعين سنةً . فالله أعلم .

* * *

---

(١) (١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥) وفيه تفصيل وتوضيح كثير لما أوجزه ابن كثير هنا .

(٢) لفظ ذلك مستدرك من ب ، ومكانه فراغ في أ . وفي ط : هذا .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٥) .

(٤) قوله : قال ابن جرير ، سقط من ط ، والخبر في تاريخ الطبري ، كما أشار (١/ ٤٧٥) .

(٥) كانت . زيادة من أ وهي موافقة لما في الطبري . وفي ط : أربعون .

قصّة داود عليه السلام وَمَا كان في أيامه وذكر فضائِله[١] وَشمائِله وَدَلائل نبوّته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن باغز[٢] بن سلمون بن نحشون بن عميناداب[٣] بن إرم بن حضرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبّه : كان داود عليه السلام قصيراً ، أزرق العينين ، قليل الشعر ، طاهر القلب نقيه[٤] .

تقدم أنه لما قتل جالوت ، وكان قتله له ، فيما ذكر ابن عساكر[٥] ، عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصُفَّر[٦] فأحبته بنو إسرائيل ، ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط ، والنبوة في آخر ، فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : لولا إقامة الملوك حكّاماً على الناس لأكل قويُّ الناسِ ضعيفَهم . ولهذا جاء في بعض الآثار : السلطان ظلّ الله في أرضه[٧] . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وقد ذكر ابن جرير في « تاريخه » أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إلي وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقَتل جالوت . قال وهب بن مُنبّه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلعوا طالوت ، وولوا عليهم داود[٨] .

---

(١) في ط : ثم فضائله .

(٢) في أ وط : عابر . وفي بعض النسخ : عامر وأثبتنا ما في ب ، والطبري (١/ ٤٧٦) . وسيأتي كذلك في نسب سليمان عليه السلام .

(٣) في م : عويناداب . وفي بعض النسخ : عويناداب بن إرم بن حصرون . وأثبتنا ما في ب ، والطبري ، وسيأتي كذلك في نسب سليمان .

(٤) في ط : ونقيه . مختصر ابن منظور (٨/ ١٠٥) وتاريخ الطبري (١/ ٤٧٦) .

(٥) مختصر ابن منظور (٨/ ١٠٥) .

(٦) مرج الصفَّر : موضع إلى الجنوب من دمشق بينها وبين الجولان . معجم البلدان (الصفر ـ مرج الصفر) .

(٧) كنز العمال (١٤٥٨٠ ـ ١٤٥٨٥) والحديث رواه البيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٧٣٧٣) وإسناده ضعيف في المرفوع.

(٨) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٨) .

وقيل : إن ذلك كان عن أمر شمويل ، حتى قال بعضهم : إنه ولّاه قبل الوقعة . قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم[١] .

وروى ابن عساكر ، عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية . فالله أعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ : ١٠ ـ ١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ـ ٨٠] .

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصّن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ أي : لا تُدِقَّ المسمارَ فيقلق[٢] ولا تُغلظه فيفصم . قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة[٣] .

قال الحسن البصري ، وقتادة ، والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح .

قال ابن شوذب : كان يعمل كلّ يومٍ درعاً يبيعها بستة آلاف درهم . وقد ثبت في الحديث أن أَطْيَبَ ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص : ١٧ ـ ٢٠] .

قال ابن عباس ومجاهد : الأيد : القوة في الطاعة ، يعني كان ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أُعطي قوةً في العبادة ، وفقهاً في الإسلام . قال : وقد ذُكر لنا أنه كان يقوم الليل ، ويصوم نصفَ الدهر .

وقد ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ دَاودَ وأَحَبُّ الصِّيامِ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٨) .

(٢) في ط : فيغلق . وهو تصحيف . والقلق : الاضطراب وعدم الثبات .

(٣) في ب : وغيرهم . وهناك عدة أقوال في تفسير الطبري (٢٢/ ٤٧) .

(٤) الحديث عند البخاري برقم (٢٠٧٢) في البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده . وفي الباب أحاديث أخرى . جامع الأصول (١٠/ ٥٧٠) .

إلى اللهِ صِيَامُ دَاودَ ، كان ينام نصفَ الليل ، ويقوم ثُلُثه . وينامُ سُدُسَه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرُّ إذا لاقى »[١] .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ أي : سبّحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي : عند آخر النهار وأوّله ، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً ، بحيث إنه كان إذا ترنّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتُسبِّح معه كلما سبَّح بُكرَةً وعَشِياً ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأَوزاعي[٢] : حدّثني عبد الله بن عامر قال : أُعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعْطَ أحدٌ قَطّ ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حَجَل[٣] كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً .

وقال أبو عوانة الإسفراييني : حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا محمد بن منصور الطوسي ، سمعت صبيحاً أبنأنا براذ[٤] . (ح) قال أبو عوانة : وحدّثني أبو العباس المدني ، حدّثنا محمد بن صالح العدوي ، حدّثنا سيَّار ـ هو ابن حاتم ـ عن جعفر ، عن مالك قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى . وهذا غريب .

وقال عبد الرزاق ، عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك ، سمعت عبيد بن عُمير يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المِعزَفة فيضرب بها فيقرأ عليها ، فترد عليه صوته . يريد بذلك أن يبكي وتبكي[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري : رقم (٣٤٢٠) ، في الأنبياء ، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وليس فيه : « ولا يفر إذا لاقى » ، ومسلم رقم (١١٥٩) (١٨٩ ـ ١٩٠) في الصيام ، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوّت به حقاً . وفي لفظه تقديم وتأخير .

(٢) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل الشام . كان يسكن بمحلة الأوزاع ـ وهي العقيبة الآن ـ ظاهر باب الفراديس ـ وهو باب العمارة اليوم ـ ثم تحول إلى بيروت مرابطاً بها إلى أن مات رحمه الله سنة (١٥٧هـ) في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧) ومصادر ترجمته ثمة .

(٣) الحَجْل : أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرى من الفرح .

(٤) في بعض النسخ : سمعت صبيحاً أبا تراب .

(٥) ضبطت في ب : أن يَبكي ويُبكي .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أُوْتي أبو مُوسَى مِنْ مَزَامِيْر آل داود »[١] . وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد[٢] : حدّثنا حسن[٣] ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُعْطي أَبو مُوْسَى مِن مَزامِيْرِ داود » . على شرط مسلم .

وقد روينا عن أبي عثمان النهدي[٤] أنه قال : لقد سمعت البَرْبَط[٥] والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام أحمد[٦] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفّفَ عَلَى داود القِراءةُ فَكَانَ يأْمُرُ بِدابَّتِهِ فَتُسْرَج ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرآنَ مِن قَبْل أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لا يَأْكُلُ إلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » .

وكذلك رواه البخاري[٧] منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق ، به . ولفظه : « خُفّفَ عَلَى داودَ القرآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّه فتُسْرَج فيَقْرَأُ القرآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّه وَلَا يَأْكُلُ إلَّا مِنْ عَمَلِ يديه[٨] » . ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة ، عن صفوان ـ هو ابن سليم ـ عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في « تاريخه » من طرق عن إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة . ومن طريق أبي عاصم ، عن أبي بكر السبري ، عن صفوان بن سليم ، به[٩] .

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذي أنزله عليه وأوحاه إليه . وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً ، فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تُسرج الدواب ، وهذا أمر سريع مع التدبُّر والترنُّم والتغني

---

(١) المسند (٦/ ١٦٧) .
(٢) في مسنده (٢/ ٣٥٤) .
(٣) هو حسن بن موسى الأشيب .
(٤) في أ وط الترمذي . والصواب ما في ب . وأبو عثمان النهدي هو عبد الرحمن بن مل بن عمرو بن عدي توفي سنة (١٠٠هـ) . اللباب (٣/ ٣٣٦) .
(٥) البَرْبَط : العود .
(٦) المسند (٢/ ٣١٤) .
(٧) أخرجه البخاري برقم (٣٤١٧) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ .
(٨) هكذا في أ وط وهو موافق لإحدى روايات البخاري ، وفي ب : « يده » وهي موافقة لإحدى روايات البخاري أيضاً .
(٩) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ١٠٩) .

به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٥] والزبور كتاب مشهور ، وذكرنا في « التفسير » الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان ، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ أي : أعطيناه ملْكاً عظيماً وحُكماً نافذاً . روى ابن جرير(١) ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادَّعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدَّعى عليه ، فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يَقتل المدَّعي ، فلما أصبح قال له داود : إن الله تعالى قد أوحى إلي أن أقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لَمحق فيما ادعيت عليه ، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا . فأمر به داود فقُتل ، فعظم أمرُ داود في بني إسرائيل جداً ، وخضعوا له خضوعاً عظيماً ، قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة ، ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ، قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السُّلَمي وغيرهم : فصل الخطاب : الشهود والأيمان ، يعنون بذلك البيّنة على المدعي ، واليمين على من أنكر(٢) . وقال مجاهد والسّدي : هو إصابة القضاء وفهمه(٣) . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم . اختاره ابن جرير(٤) وهذا لا ينافي ما رُوي عن أبي موسى أنه قول : أما بعد .

وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أُعطي داود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها ، والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجلٌ رجلاً لؤلؤة فجحدها منه ، واتخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضر عند الصخرة تناولها المدعي ، فلما قيل للآخر : خُذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أني دفعتها إليه ، ثمّ تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثمّ رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه إسحاق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب ، به ، بمعناه .

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٨) .
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٩) .
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٨) .
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٩) .

وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة ص : ٢١ ـ ٢٥] .

قد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاءً واقتصاراً على مجرّد تلاوة القصّة من القرآن العظيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ ص ﴾ هل هي من عزائم السجود ، أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود ، على قولين .

قال البخاري(١) : حدّثنا محمد بن عبد الله ، حدّثنا محمد بن عبيد الطنافسي ، عن العوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ﴿ ص ﴾ فقال : سألت ابنَ عباس : من أين سجدت ؟ فقال(٢) : أوما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فكان داود ممن أُمِر نبيُّكم ﷺ أن يقتدي به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

وقد قال الإمام أحمد(٣) : حدّثنا إسماعيل ـ هو ابن علية ـ عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال في السجود في ﴿ ص ﴾ : ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها .

وكذا رواه البخاري(٤) ، وأبو داود(٥) ، والترمذي(٦) ، والنسائي(٧) ، من حديث أيوب . وقال الترمذي : « حسن صحيح » .

وقال النسائي(٨) : أخبرني إبراهيم بن الحسن المِقْسَمي ، حدّثنا حجّاج بن محمد ، عن عمر بن ذرّ ، عن أبيه ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في ﴿ ص ﴾ وقال : « سَجَدَها دَاودُ تَوْبَةً وَنَسْجُدُها شُكْراً » تفرد به ، ورجاله ثقات .

---

(١) البخاري رقم (٤٨٠٧) ، في تفسير سورة ﴿ ص ﴾ .
(٢) في ط : « قال » وما هنا يعضده ما في البخاري .
(٣) في مسنده (١/ ٣٦٠) .
(٤) صحيح البخاري رقم (١٠٦٩) في سجود القرآن، و(٣٤٢٢) في الأنبياء، باب ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .
(٥) سنن أبي داود رقم (١٤٠٩) في الصلاة ، باب السجود في ﴿ ص ﴾ .
(٦) الترمذي رقم (٥٧٧) في الصلاة ، باب ما جاء في السجدة في ﴿ ص ﴾ .
(٧) في التفسير (١٩٠) .
(٨) سنن النسائي (٢/ ١٥٩) ، وهو في التفسير (٤٥٨) .

وقال أبو داود[١] : حدّثنا أحمد بن صالح ، حدّثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ ص ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ[٢] الناس للسجود فقال : « إنّما هي تَوْبَةُ نبي ولكنْ رَأَيْتكُم تَشَزَّنْتُم » فنزل وسجد . تفرد به أبو داود . وإسناده على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا عفان ، حدّثنا يزيد بن زُريع ، حدّثنا حُميد ، حدّثنا بكر ـ هو ابن عمر ـ وأبو الصديق الناجي[٤] أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ﴿ ص ﴾ فلما بلغ (إلى) التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكلَّ شيء بحضرته انقلب ساجداً ، قال : فقصَّها على النبي ﷺ ، فلم يزل يسجد بها بعد . تفرّد به أحمد .

وروى الترمذي[٥] وابن ماجة[٦] من حديث محمد بن يزيد بن خُنيس ، عن الحسن بن محمد بن عُبيد[٧] الله بن أبي يزيد قال : قال لي ابن جُريج : حدّثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : إني رأيت فيما يرى النائم كأني أُصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدةَ ، فسجدت الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، واجعلْها لي عندك ذُخراً ، وضع عنّي بها وِزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود ، قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثمّ سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثمّ قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً . وقاله مجاهد والحسن وغيرهما .

وورد في ذلك حديث مَرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف متروك الحديث[٨] . قال

---

(١) سنن أبي داود رقم (١٤١٠) في الصلاة ، باب السجود في ﴿ ص ﴾ .
(٢) في ط : تشرف . . . تشرفتم . . والتشزُّن : التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له .
(٣) المسند (٣/ ٧٨) .
(٤) في ب : وأبو بكر الصديق . وهو سهو . والناجي : نسبة إلى بني ناجية بن سامة بن لؤي . وأبو الصديق بكر بن قيس الناجي ، منهم ، بصري ، مات سنة (١٠٨هـ) . اللباب : (٣/ ٢٨٧) .
(٥) هو عند الترمذي رقم (٥٧٩) في الصلاة ، باب ما يقول في سجود القرآن ، وقال : غريب (يعني ضعيف) .
(٦) في سننه (١٠٥٣) .
(٧) في ب : « عبد الله » وهو تحريف .
(٨) في أ : متروك البداية ، وفي ط : . . الرواية . وأثبتنا ما في ب . ويزيد بن أبان الرقاشي كما قال ابن كثير ضعيف متروك الحديث . المجروحين (٣/ ٩٨) ، والضعفاء للنسائي : (١١٠) .

الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ . أي : وإن له يوم القيامة لزلفى ، وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة[١] قدسه بسببها ، كما ثبت في الحديث : « المُقْسِطُوْنَ على مَنَابِرَ مِنْ نُوْرٍ عَنْ يَمِيْنِ الرَّحْمنِ ، وَكِلْتَا يديه يمينٌ ، الذين يُقْسِطون في أَهليهم وحكمِهم وما وَلوا »[٢] .

وقال الإمام أحمد في « مسنده » : حدّثنا يحيى بن آدم ، حدّثنا فضيل ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أَحبَّ النَّاسِ إلى اللهِ يَوْمَ القِيامة وأَقْرَبَهُم مِنْه مَجْلِساً إمامٌ عَادِلٌ ، وإنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ[٣] وأشَدَّهُم عَذاباً إمامٌ جائِرٌ »[٤] .

وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغرّ ، به . وقال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[٥] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدّثنا سيّار ، حدّثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال : مقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول الله : يا داود مجِّدْني اليومَ بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنتَ تمجِّدني به في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليومَ . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] .

هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمرادُ ولاة الأمور وحُكّام الناس ، وأمرهم بالعدل واتّباع الحق المنزّل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعّد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت[٦] في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً ، كما قال تعالى ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدّثنا صالح المُرّي ، عن

---

(١) في أ و ب : حضيرة . . وحظيرة القدس : الجنة . اللسان .
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٧) في الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر . وفي لفظه اختلاف يسير .
(٣) من قوله : وأقربهم منه . . إلى هنا سقط من ب .
(٤) المسند (٣/ ٢٢ و٥٥) .
(٥) الترمذي رقم (١٣٢٩) في الأحكام ، باب ما جاء في الإمام العادل .
(٦) في ب : الزمان .

أبي عمران الجوني ، عن أبي الجَلْد[١] قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصِل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال : فأتاه الوحي « أن يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإني أرضى بذلك منك »[٢] .

وقال البيهقي[٣] : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن بالويه ، حدّثنا محمد بن يونس القرشي ، حدّثنا رَوح بن عبادة ، حدّثني عبد الله بن لاحق ، عن ابن شهاب قال : قال داود : الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبتَ الحفَظَةَ يا داود . ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد ، عن الثوري ، مثله[٤] .

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب « الزهد »[٥] : أخبرنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود : وحق على العقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخـوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحـل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب . وحق على العقل أن يعرف زمانه ، ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشه، ولذة من غير محرم .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي بكر بن أبي خيثمة ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه ، فذكره .

ورواه أيضاً عن علي بن الجعد ، عن عمر بن هيثم الرقاشي ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه ، فذكره ، وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته . قال ابن عساكر : وقال عبد الرزاق : أخبرنا بشر بن رافع ، حدّثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له : أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله .

---

(١) هو جيلان بن فروة ، أبو الجلد ، بفتح الجيم . الإكمال (٣/ ١٨١) وهو في كتاب الشكر لابن أبي الدنيا صفحة (٦٧) وإسناده ضعيف ، صالح المري ، ضعيف .

(٢) لفظ منك ليس في ب . والخبر في مختصر ابن منظور (٨/ ١١٣) .

(٣) في « شعب الإيمان » رقم (٤٤١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر صفحة (٨٣) ، وهو في تاريخ ابن عساكر كما في مختصره لابن منظور (٨/ ١١٣ ـ ١١٤) .

(٥) الزهد لابن المبارك ، وهو في تاريخ ابن عساكر كما في مختصره لابن منظور (٨/ ١٢٦) ، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ سفيان .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة ، منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم . واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .

وروى بسندٍ غريبٍ مرفوعاً قال داود : يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها . وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغنّي عند رأس الميت. وقال أيضاً: ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال : لا تَعِدنَّ أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه[١] .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر الواقدي ، حدّثني هشام بن سعد ، عن عمر مولى غفرة قال : قالت اليهود لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ، ولا والله ماله همة إلا إلى النِّساء ، وحسدوه لكثرة نسائه ، وعابوه بذلك ، وقالوا : لو كان نبياً ما رغب في النساء . وكان أشدهم في ذلك حُيي بن أخطب ، فكذبهم الله تعالى وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني بالناسِ رسول الله ﷺ ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] يعني ما آتى الله سليمانَ بن داود ، كانت له ألفُ امرأة ، سبعمئة مهيرة[٢] وثلاثمئة سرية ، وكانت لداود عليه السلام مئة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة ، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ .

وقد ذكر الكلبي نحو هذا، وأنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمئة سرية .

وروى الحافظ في « تاريخه »[٣] في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي ، عن أبي هريرة الحمصي ، عن صدقة الدمشقي : أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام ؟ فقال : لأحدثنك بحديثٍ كان عندي في التخت[٤] مخزوناً : إن شئت أنبأتك بصوم داود ، فإنه كان صوّاماً قوّاماً ، وكان شجاعاً لا يفرُّ إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ » ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها . وكانت له ركعة من آخر[٥] الليل يبكي فيها نفسه ، ويبكي ببكائه كلّ شيء ويصرف بصوته الهموم

(١) مختصر ابن منظور (٨/ ١٢٧) .
(٢) المهيرة : غالية المهر . اللسان . وهو كذلك في بعض النسخ وفي أصولنا : مهرية ، والصواب ما أثبتناه .
(٣) تاريخ دمشق (٢٤/ ٤٧) .
(٤) التخت : وعاء تحفظ فيه الثياب .
(٥) قوله : « آخر » من ب ، وهي في تاريخ دمشق الذي ينقل منه المصنف .

والحموم[١] . وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ، فإنه كان يصوم من أوّل الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ، ووسطه بصيام ، ويختمه بصيام . وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ؛ فإنه كان يصوم الدهر ، ويأكل الشعير ، ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه[٢] ، وقام يصلّي حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم . وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنّها كانت تصوم يوماً[٣] وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كلّ شهر ثلاثة أيام ، ويقول : « إن ذلك صوم الدهر[٤] » .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي النضر ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي هرم ، عن صدقة ، عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود[٥] .

ذكر[٦] كمّيّة حياته وَكيفيّة وفاته عليه السّلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم[٧] أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال : أي ربِّ من هذا ؟ قال : هذا ابنُك داود . قال : أي ربّ كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي ربّ زِدْ في عمره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألفَ عام ، فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملكُ الموت ، فقال : بقي من عمري أربعون سنة ، ونسي آدم ما كان وهَبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مئة سنة .

رواه أحمد[٨] عن ابن عباس ، والترمذي ـ وصححه ـ[٩] عن أبي هريرة . وابن خزيمة[١٠]

---

(١) في بعض النسخ : المهموم والمحموم ، وفي تاريخ ابن عساكر : « ويضطرب لصوته المهموم والمحموم » .
(٢) في ب : . . أينما أدركته صفن ، وفي تاريخ ابن عساكر : « صفق بيديه » .
(٣) في ب : يومين .
(٤) إلى هنا انتهى النقل من تاريخ ابن عساكر .
(٥) تقدم قبل قليل مخرّجاً .
(٦) كلمة ذكر ليست في ط .
(٧) في الجزء الأول من هذا الكتاب .
(٨) مسند أحمد (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) .
(٩) الترمذي رقم (٣٠٧٦) في التفسير ، باب ومن سورة الأعراف .
(١٠) لم نقف عليه في المطبوع من صحيح ابن خزيمة .

وابن حبان[١] . وقال الحاكم[٢] : على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم .

قال ابن جرير[٣] : وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة .

قلت : هذا غلط مردود عليهم قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة . وهذا قد يُقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام ، فقال الإمام أحمد في « مسنده »[٤] : حدّثنا قتيبة ، حدّثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كانَ داودُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيْدَةٌ ، فَكانَ إذا خَرَجَ أُغلقت الأبواب فَلَم يَدْخُلْ عَلى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ. قال : فَخَرَجَ ذاتَ يَوْمٍ وغلقت الدارُ فأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ تَطلع إلى الدَّارِ ، فإذا رَجُلٌ قائِمٌ وَسطَ الدَّارِ ، فَقالَت لِمَنْ في البَيْتِ : مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هذا الرَّجُلُ والدَّارُ مُغْلَقَةٌ ؟ واللهِ لَنَفْتَضِحَنَّ بداود . فجاءَ داودُ فإذا الرجُلُ قائِمٌ وسطَ الدَّارِ ، فقالَ لَهُ داودُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقالَ : أنا الذي لا أَهَابُ الملوكَ ولا يمتنع[٥] من الحجّاب ، فقالَ داودُ : أنتَ واللهِ إِذَنْ مَلَكُ الموْتِ ، مَرْحَباً بأَمْرِ اللهِ . فَرَمَلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَتَّى قُبِضَتْ نَفْسُه ، حتى فَرَغَ مِنْ شَأنِه . وطَلَعَتْ[٦] عَلَيهِ الشَّمْسُ ، فقالَ سُليمانُ لِلطَّيْر : أَظِلّي عَلَى دَاوُد ، فأَظَلَّت عَلَيه الطيرُ حتى أظلَمَتْ عَلَيهِ الأرْضُ . فقالَ سُلَيمانُ لِلطَّيْر : اقبضي جناحاً جناحاً » . قال أبو هريرة : يرينا رسول الله ﷺ كيف[٧] فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد . وإسناده جيد قوي ، رجاله ثقات .

ومعنى قوله : « وغلبت عليه يومئذ المضرحية » أي : وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهي الصقور الطوال الأجنحة ، وإحداها : مَضْرحي . قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح[٨] .

وقال السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : مات داود نبي الله عليه السلام فجأة ، وكان بسبت ، وكانت الطير تظله .

---

(١) الإحسان (٦١٦٧) من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة .
(٢) المستدرك (٢/ ٣٢٥) . في التفسير .
(٣) تاريخه (١/ ٤٨٥) .
(٤) المسند (٢/ ٤١٩) . وأخرجه ابن عساكر ، كما في مختصر ابن منظور (٨/ ١٣٩) .
(٥) في ط : ولا أمنع من . وفي مسند أحمد : ولا يمتنع مني شيء .
(٦) في ط : ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس . . . ، وفي مسند أحمد : . . . حيث قبضت روحه . . . .
(٧) في ط : قال : قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف . . .
(٨) الصحاح (١/ ٣٨٦) ضرح .

وقال السدي أيضاً عن أبي مالك ، وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مئة سنة ، ومات يوم الأربعاء فجأة .

وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة ، وداود فجأة ، وابنه سليمان فجأة ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه ابن عساكر(١) .

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعني أنزل أو أصعد . فقال : يا نبي الله نفدت(٢) السنون والشهور والآثار والأرزاق . قال : فخرَّ ساجداً على مِرْقاة من تلك المراقي ، فقبضه وهو ساجد . وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا زافر(٣) بن سليمان ، عن أبي سليمان الفلسطيني ، عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام ، فجلسوا في الشمس في يومٍ صائفٍ . قال : وكان شيَّع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال : فأذلقهم الحر(٤) فنادوا سليمان عليه السلام أن يعجل عليهم لما(٥) أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطيرَ ، فأجابت ، فأمرها فأظلت(٦) الناس . قال : فتراص بعضها إلى بعض من كلّ وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمانُ فنادى الطير : أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتَنحي عن ناحية الريح ، ففعلت ، فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك من أول ما رأوا من ملك سليمان(٧) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا أبو همّام الوليد بن شجاع ، حدّثني الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء قال : قال

---

(١) مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠) .

(٢) في أ وب : السنين . والذي في مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠) : نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق .

(٣) في أ وط : وافر . وهو تصحيف .
وزافر بن سليمان أبو سليمان الإيادي القوهستاني ، ذكره ابن حبان في المجروحين : (١/ ٣١١ـ ٣١٢) .

(٤) في ط : فأذاقهم . وأذلقهم الحر : أجهدهم وأضعفهم وأقلقهم .

(٥) في ط : أن يعمل لهم وقاية لما . . .

(٦) في ط : أن تظل .

(٧) مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠ ـ ١٤١) .

رسول الله ﷺ : « لَقَدْ قَبَضَ اللهُ دَاودَ مِنْ بَيْنِ أَصْحابهِ ما فُتِنوا ولا بَدَّلوا ، وَلَقَد مَكَثَ أَصْحَابُ المسيحِ على سننهِ وهَدْيِهِ مئتي سَنَةٍ » .

هذا حديث غريب ، وفي رفعه نظر . والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث[١] . والله أعلم .

***

(١) قوله : في الحديث والله أعلم : ليس في ب .
والوضين بن عطاء بن كنانة الخزاعي . قال ابن حجر في التقريب : صدوق ، سيء الحفظ ، ورمي بالقدر . مات سنة (١٥٦هـ) .

قصّة سليمان بن داود عليهما السّلام

قال الحافظ ابن عساكر[١] : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن باغز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن إرم بن حَضْرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، أبو الربيع ، نبي الله ابن نبي الله .

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق .

قال ابن ماكولا[٢] : فارص ، بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] أي : ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد وراثة المال ؛ لأنه قد كان له بنون غيره[٣] ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصِّحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورثُ ما تَرَكْنا فَهُوَ صَدَقَةٌ »[٤] وفي لفظ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِياءِ لا نُورث »[٥] فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تُورَث أموالُهم عنهم كما يورَث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقةً من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لا يخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هي عند الذي أرسلَهم واصطفاهم وفضَّلهم .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبِّر للناس عن مقاصدها وإراداتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا علي بن حمشَاذ ، حدّثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدّثنا علي بن قدامة ، حدّثنا أبو جعفر

---

(١) تاريخه (٢٢/ ٢٣٠) .

(٢) الإكمال (٧/ ٥٢) .

(٣) زاد هنا في ب : كما رواه ابن عساكر عن بعض السلف .

(٤) الحديث برواياته وطرقه أخرجه البخاري : رقم (٣٧١٢) في فضائل الصحابة ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ، ورقم (٤٠٣٤) في المغازي ، باب حديث بني النضير ، ورقم (٤٢٤٠) باب غزوة خيبر ، ورقم (٦٧٢٦ ، ٦٧٢٧ ، ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠) في الفرائض ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقة ، ورقم (٧٣٠٥) في الاعتصام ، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع . ومسلم (١٧٦١) ، في الجهاد ، باب قول النبي ﷺ لا نورث . وأبو داود (٢٩٧٧) في الخراج والإمارة ، باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال ، والترمذي (١٦١٠) في السير ، باب ما جاء في تركة رسول الله ﷺ . ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٣) ، في الكلام ، باب ما جاء في تركة النبي ﷺ . والنسائي : (٧/ ١٣٢) ، وأحمد (١/ ٤ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٢٠٨) و(٦/ ١٤٥ ، ٢٦٢) .

(٥) .قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٢/ ٨) : وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) فقد أنكرها جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ (نحن) لكن أخرجه النسائي بلفظ (إنا معاشر الأنبياء لا نورث) .

الأسواني يعني محمد بن عبد الرحمن ، عن يعقوب القُمّي[١] ، حدّثني أبو مالك قال : مرَّ سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطُبُها إلى نفسها ويقول : زوجيني أُسْكنكِ أيَّ غُرَفِ دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كلّ خاطبٍ كذاب .

ورواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر ، عن البيهقي ، به[٢] .

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات . والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من كلّ ما يحتاج الملك إليه من العُدَدِ والآلات ، والجنود والجيوش ، والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش[٣] السارحات ، والعلوم والفهوم ، والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات . ثمّ قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أي : من بارىء البريات ، وخالق الأرض والسماوات ، كما قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] .

يخبر سبحانه وتعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحرِّ وغيره ، وعلى كلٍّ من هذه الجيوش الثلاثة وَزَعَةٌ ، أي : نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذّرت ، واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

وقد ذكر وَهْب : أنه مرّ وهو على البساط بوادٍ بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها (جرس)[٤] وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان ، وكانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب[٥] . وفي هذا كلّه نظر ، بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه لا كما زعمه بعضهم من أنه كان إذ ذاك

---

(١) في ط : عن أبي يعقوب القمي .
ويعقوب بن عبد الله بن سعد القمي ، توفي بقزوين سنة (١٧٤هـ) . والقُمي ، بضم القاف ، وتشديد الميم المكسورة نسبة إلى (قُم) ، بلدة بين أصبهان وساوة ، في فارس . الأنساب (١٠/ ٢٢٨) .

(٢) تاريخه (٢٢/ ٢٣٢) .

(٣) زاد في ط : والشياطين !؟.

(٤) في تفسير ابن كثير : حرس . بالحاء المهملة . ونقل الخبر فيه عن ابن عساكر .

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٩) .

على البساط ، لأنه لو كان كذلك لم ينل النملَ منه شيء ولا وطْء ؛ لأن البساط كان يكون عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام ، والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأُمَّتها من الرأي السديد والأمر الحميد ، وتبسّم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره . وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتخاطب الناس ، حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهدَ ، وألجمها ، فلم تتكلّم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا ، لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلّهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها ، لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعوّل عليها[١] . ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . فطلب من الله أن يقيّضه للشكر على ما أنعم به عليه ، وعلى ما خصّه به من المزيّة على غيره ، وأن ييسّر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين . وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه : داود عليه السلام وأمه ، وكانت من العابدات الصالحات ، كما قال سُنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « قالَتْ أمُّ سُلَيمان بنِ داودَ : يا بُنيَّ لا تُكْثرِ النَّوْمَ باللَّيلِ ، فإن كَثرةَ النومِ بالليلِ تَدَعُ العبدَ فَقِيراً يومَ القِيامة » . رواه ابن ماجه[٢] عن أربعة من مشايخه ، عنه ، به ، نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزُّهري : إن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون ، فرأى نملة قائمةً رافعة إحدى قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سُقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستُجيب لها .

قال ابن عساكر[٣] : وقد رُوي مرفوعاً ، ولم يذكر فيه سليمان ، ثمّ ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، حدّثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله

(١) ورد مثل هذا في تفسيره (٣/ ٣٥٨) .
وزاد هنا في ب : فأما الحديث الذي رواه الطبراني من طريق زيد بن بكر بن حبيش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود أنهم عرضوا رقبة الحمار على رسول الله ﷺ بسم الله سحنة قرنبة ملحة بحر قمطا فقال : هذه مواثيق أخذها سليمان بن داود على الهوام ، ولا أرى بها بأساً . فإنه حديث غريب ولا يخلو من نكارة . والله أعلم . وبتقدير صحته أخذ على الهوام ، وهي ذوات السموم ، وكانت العهود والمواثيق أنه لا تؤذين أحداً من البشر ، وليس المراد أن لا تخاطبي أحداً .

(٢) سنن ابن ماجه رقم (١٣٣٢) في إقامة الصلاة ، باب ما جاء في قيام الليل ، وإسناده ضعيف .

(٣) تاريخه (٢٢/ ٢٨٨) .

ﷺ يقول : « خَرجَ نبيٌّ منَ الأنبياءِ بالناسِ يَسْتَسْقونَ الله ، فإذا هُم بِنَملةٍ رافعة بَعضَ قوائِمها إلى السماء ، فقال النبي : ارجِعُوا فَقَدِ اسْتُجِيْبَ لَكُم مِنْ أَجْلِ هذهِ النملةِ »[1] .

وقال السدي : أصاب الناس قحطٌ على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا ، فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : اللهمَّ إنا خلقٌ من خلقك ولا غناء بنا عَنْ فَضْلِكَ ، قال : فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل : ٢٠ ـ ٣٧] .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كانت على كلِّ صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ، ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد ـ على ما ذكره ابن عباس وغيره ـ أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماءٍ ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلّهم حفروا عنه ، واستنبطوه ، وأخرجوه ، واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ، ولم يجده في موضعه من محلّ خدمته ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ أي : ماله مفقودٌ من هاهنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ توعّده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كلِّ تقدير ، ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجّة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ . أي : فغاب الهدهدُ غيبةً ليست بطويلةٍ ثم قدم منها

(١) وأخرجه الحاكم وغيره ، وهو ضعيف .

﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي : بخبر صادق : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوّجين ، وكان المُلْك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يُخلِّف غيرها فملّكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجُلاً ، فعمَّ به الفساد ، فأرسلت إليه تخطُبه ، فتزوّجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزَّت رأسه ونصبته على بابها ، فأقبل الناس عليها وملّكوها عليهم ، وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل : شراحيل بن ذي جَدَن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشْجب بن يعرب بن قحطان . وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن ، فيقال إنه تزوج بامرأة من الجنّ اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها : بلقيس .

وقد روى الثَّعْلَبي[١] من طريق سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كانَ أَحَدُ أبَوي بَلْقيس جِنيّاً »[٢] . وهذا حديث غريب ، وفي سنده ضعف .

وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه[٣] ، حدّثنا أبو بكر بن جرجة ، حدّثنا ابن أبي الليث ، حدّثنا أبو كريب ، حدّثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يُفْلِحُ قَوْمٌ ولّوا أَمْرَهُم امْرَأَةً » .

إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي : ضعيف[٤] .

وقد ثبت في « صحيح »[٥] البخاري من حديث عوف ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملّكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ ولّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً » .

---

(١) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري . توفي سنة (٤٢٧هـ) .
وتفسيره : الكشف والبيان في تفسير القرآن . قال عنه الزركلي : مخطوط .
ترجمته في شذرات الذهب (٥/ ١٢٧) تحقيق محمود الأرناؤوط ـ طبع دار ابن كثير ، والأعلام (١/ ٢١٢) .

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢١١) .

(٣) في ط : قبحوية . وهو تصحيف . وهو الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن صالح بن شعيب بن فنجويه الثقفي الدينوري . توفي سنة (٤١٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٨٣) .

(٤) المجروحين لابن حبان (١/ ١٢٠) ، والضعفاء للبخاري (١٧) ، وللنسائي (١٧) .

(٥) صحيح البخاري رقم (٤٤٢٥) في المغازي ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، ورقم (٧٠٩٩) في الفتن ، باب (١٨) . وفيه : لن يفلح .

ورواه الترمذي[١] ، والنسائي[٢] من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني سرير مملكتها وكان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحليّ الباهر .

ثمّ ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلالَ الشيطان لهم وصدّه إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ أي : له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات .

فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أي : واقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة . فلما جاءها الكتاب مع الطير ـ ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ـ فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ، ثمّ وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أُمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ . ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ ثم قرأته ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . ثمّ شاورتهم في أمرها وما قد حل بها ، وتأدّبت معهم ، وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تعني : ما كنت لأبتّ أمراً إلا وأنتم حاضرون : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منّا ذلك فإنا عليه من القادرين ، ﴿ و ﴾ مع هذا فـ ﴿ الأمر إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فبذلوا لها الطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوّضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتمَّ وأسدَّ من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يُغالَب ولا يُمانَع ولا يُخالَف ولا يُخادَع .

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غَلَب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ، ولم تكن الحدّة الشديدة

(١) سنن الترمذي رقم (٢٢٦٢) في الفتن ، باب (٧٥) .
(٢) سنن النسائي (٨/ ٢٢٧) .

والسطوة البليغة إلا عليَّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم ـ والحالة هذه ـ صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون . ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ هذا ، وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون[1] .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه ، والناس حاضرون يسمعون : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قَدْ مَنَّ بها فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا ، وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي : فلأبعثنَّ إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ عليهم الصّغار والعار والدمار . فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بدٌّ من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخَّر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨ ـ ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجان أن يُحضِروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعني قبل أن ينقضيَ مجلسُ حكمك ، وكان ـ فيما يقال ـ من أول النهار إلى قريب الزوال ، يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أي : وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانةٍ على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان . وقيل : هو رجل من مؤمني الجان ، كان ـ فيما يقال ـ يحفظ الاسم الأعظم . وقيل : رجل من بني

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٩٧) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣) .

إسرائيل ، من علمائهم ، وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جداً . وضعفه السُّهَيْلي بأنه لا يصح في سياق الكلام ، قال : وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس . وقيل : قبل أن يكلَّ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي : هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يُغَيِّر حُليُّ هذا العرش ويُنكَّر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال : ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشَها ؛ لأنها خلَّفته وراءَها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنيع العجيب الغريب . قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أي : ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتّباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج ، وعمل في ممرِّه ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأُمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقد قيل : إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان ، وأن تُبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمَّها من الجان فتتسلط عليهم معه .

وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة ، وهذا ضعيف . وفي الأول أيضاً نظر . والله أعلم . إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عَزَم على تَزَوُّجها سألَ الإنس عن زواله فذكروا له الموسى ، فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النُّورَة[1] ووضعوا له الحمَّام ، فكان أول من دخل الحمّام ، فلما وجد مَسّه قال : أوَّه من عذاب أوّه ، أوَّه[2] قبل أن لا ينفع أوّه . رواه الطبراني مرفوعاً وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرَّها على مملكة اليمن وردّها إليه ، وكان يزورها في

---

(١) النورة : أخلاط تضاف على الكلس من زرنيخ وغيره ، ويستعمل لإزالة الشعر .

(٢) في ب : أواه من عذاب أواه أواه . .

كلَّ شهرٍ مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثمّ يعود على البساط . وأمر الجان فبنَوا لها ثلاثة قصور باليمن ، غمدان ، وسالحين ، وبيتون . فالله أعلم .

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها ، بل زوجها بملك هَمْدان وأقرها على ملك اليمن ، وسخَّر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن ، والأول أشهر وأظهر . والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [الآيات : ٣٠ ـ ٤٠] .

يذكر سبحانه وتعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنى عليه تعالى فقال : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجّاع مطيع لله .

ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات ، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، الجياد ، وهي المضمَّرة السراع[1] .

﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ يعني الشمس . وقيل : الخيل ـ على ما سنذكره من القولين ـ ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ قيل : مسح عراقيبها وأعناقَها بالسيوف . وقيل : مسح عنها العرق لمَّا أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا : اشتغل بعَرض تلك الخيول حتى خرج وقتُ العصر وغربت الشمس . رُوي هذا عن علي بن أبي طالب[2] وغيره .

والذي يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عَمْداً من غير عذر ، اللهمَّ إلا أن يُقال : إنه كان سائغاً في شريعتهم فأَخَّرَ الصلاة لأجل أسباب الجهاد ، وعَرْض الخيل من ذلك .

وقد ادَّعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نُسخ بصلاة الخوف . قاله الشافعي وغيره .

---

(١) في ب : الجياد المضمرة السرَّع . تفسير الطبري (٢٣/٩٨ ـ ٩٩) .

(٢) أورده الطبري في « تفسيره » (٢٣/٩٩) ، أن أبا الصهباء البكري سأل علي بن أبي طالب عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر ، وهي التي فتن بها سليمان بن داود .

وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حُكم مُحْكَم إلى اليوم ؛ أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف .

وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق سهواً نسيانا ، وعلى هذا فيُحمَل فعلُ سليمان عليه السلام على هذا . والله أعلم .

وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ عائد على الخيل ، وأنه لم يفته وقت صلاة ، وأن المراد بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجَّه هذا القول ابنُ جرير بأنه ما كان لِيعذِّبَ الحيوانَ بالعرقبة ، ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها[١] .

وهذا الذي قاله فيه نظر ، لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملّتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحُها وإهلاكها لئلا يتقوَّوا بها عليهم ، وعليه[٢] حُمل صنيع جعفر بن أبي طالب يومَ عَقَر فرسه بمؤته[٣] . وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمة . قيل : كانت عشرة آلاف فرس . وقيل : عشرين ألفَ فرس . وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة .

وقد روى أبو داود في « سننه » : حدّثنا محمد بن عوف ، حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، حدّثني عُمارة بن غَزيَّة أن محمد بن إبراهيم حدّثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر ، وفي سَهْوَتها[٤] سِتْر ، فهبَّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بناتٍ لعائشة لُعَب ، فقال : « ما هذا يا عائشةُ » فقالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال : « ما هذا الذي أرى وسْطَهنَّ » ؟ قالت : فرس . قال : « وما الذي عليه هذا » ؟ قالت : جناحان . قال : « فرسٌ له جناحان » ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[٥] .

وقال بعض العلماء : لما ترك الخيلَ لله عوَّضَه اللهُ عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غُدُوُّها شهرٌ ورَواحها شهر ، كما سيأتي الكلام عليها .

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٠) .

(٢) في أ : لئلا ينفروا بها ، وعليه . . . وفي ط : لئلا يتقووا بها ، وعليه . . وأثبتنا ما في ب .

(٣) خبر غزوة مؤتة ، وعرقبة جعفر بن أبي طالبٍ فرسه ، في المغازي (٢/ ٧٥٥) ، وما بعدها .

(٤) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً ، شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصُّفَّة تكون بين يدي البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء . النهاية (٢/ ٤٣٠) .

(٥) أخرجه أبو داود : رقم (٤٩٣١) ، في الأدب : باب (٦٢) في اللعب بالبنات .

كما قال الإمام أحمد : حدّثنا إسماعيل ، حدّثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلّمني مما علّمه الله عز وجل ، وقال : « إنّكَ لا تَدَعُ شَيْئاً اتّقاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إلّا أَعْطاكَ اللهُ خَيْراً مِنْهُ »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ : ذكر ابن جرير[٢] ، وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أوْ كلُّها متلقَّاة من الإسرئيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة . وقد نبهنا على ذلك في كتابنا « التفسير »[٣] ، واقتصرنا هاهنا على مجرّد التلاوة .

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثمّ عاد إليه . ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناءً مُحْكماً . وقد قدَّمْنا أنه جدَّده ، وأن أول من جَعله مسجداً إسرائيلُ عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر : قلت : يا رسول الله أيُّ مسجد وضع أوّل ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » . قلت : ثم أي ؟ قال : « مَسْجِدُ بَيْتِ المَقْدِسِ » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً »[٤] . ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة ، دع أربعين سنة ، وكان سؤاله المُلْك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعدَ إكماله بناء بيت المقدس كما قال الإمام أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والحاكم ، بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ سُلَيمانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِلالاً ثلاثاً فأَعْطَاهُ اثْـنَـتَيْنِ ، ونَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنا الثَّالِثَةُ ، سَأَلَهُ حُكْماً يُصادِفُ حُكْمَهَ فَأَعْطَاهُ إياهُ ، وسَأَلَهُ مُلْكاً لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فأعْطَاهُ إيَّاهُ ، وسَأَلَه أيّما رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لا يُرِيْدُ إلّا الصَّلاةَ في هذا المسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَعْطانا إياها »[٥] .

فأما[٦] الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى ، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ وَدَاوُدَ

---

(١) المسند (٥/ ٧٨) .
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٠) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤) وما بعدها .
(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٥) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٦) ، والنسائي (٢/ ٢٤) ، في المساجد ، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه ، وابن ماجه رقم (١٤٠٨) في إقامة الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس . وفي لفظه اختلاف يسير . وابن خزيمة (١٣٣٤) . وابن حبان في صحيحه (١٦٣٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٠ ـ ٣١) .
(٦) زاد في ب : وقد روي هذا عن صحابي آخر فقال الطبراني : حدّثنا محمد بن الحسن العسقلاني ، حدّثنا محمد بن أيوب بن سويد حدثني أبي ، حدّثنا إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي الزاهرية ، عن رافع بن عمير ، سمعت =

وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ـ ٧٩] وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم ، فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي : رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنتُ أنا لما حكمت إلّا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلّونها نتاجاً ودرّا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثمّ يتسلّموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امْرأتان مَعهما ابْناهُما ، إذْ عَدا الذِّئْبُ فأَخَذَ ابنَ إحْداهُما ، فَتَنازَعَتا في الآخر ، فَقالتِ الكُبْرى : إنَّما ذَهَبَ بابْنِكِ . وقَالَت الصُّغْرى : بلْ إنَّما ذَهَبَ بابنكِ . فَتَحاكَمتا إلى دَاودَ فَحَكَم بِهِ لِلْكُبْرى ، فَخَرجَتا علَى سُلَيمان فقَال : ائْتُوني بالسِّكِّين أَشُقُّهُ نِصْفَيْنِ لِكلِّ واحِدَةٍ منهما[١] نِصْفُه ، فَقَالَتِ الصُّغْرى : لا تَفْعَل يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابنُها فَقَضَى بِهِ لَها »[٢] ولعل كلاً من الحُكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح . ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال تعالى : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي وسخرنا

= رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى لداود عليه السلام : ابن لي بيتاً في الأرض ، فبنى داود لنفسه بيتاً قبل البيت الذي أمر به ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نصبت بيتك قبل بيتي . قال : يا رب هكذا تعلمت فما قضيت من ملك استأثر ، ثم أخذ في بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأوحى الله إليه أنه لا يصلح أن تبني لي بيتاً . قال : أي رب ولم ؟ قال : لما جرت عليك من الدماء . قال : أي رب أو لم يكن ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال : بلى ، ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم . فشق ذلك عليه ، فأوحى الله لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان . فلما مات داود عليه السلام أخذ سليمان في بنائه ، فلما تم قرّب القرابين وذبح الذبائح . وجمع بني إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي فسلني أعطك . قال : أسألك ثلاث خصال : حكماً يصادق حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال رسول الله ﷺ : أما الثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أُعطينا الثالثة . وهذا سياق غريب وإسناد غريب . وقد أورد هذا الحديث ابن كثير في تفسيره (٤/٣٨) .

(١) في ط : منكما .

(٢) في عبارة ب اختلاف عن لفظ الحديث هاهنا .

والحديث أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٧) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ . رقم(٦٧٦٩) في الفرائض ، باب إذا ادعت المرأة ابناً . ومسلم رقم (١٧٢٠) في الأقضية ، باب بيان اختلاف المجتهدين .

لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ـ٨٢] .

وقال في سورة ص : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [٣٦ـ٤٠] .

لما تَرَكَ الخَيلَ ابتغاء وجه الله عوَّضه اللهُ منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ، تجري بأمره رُخاءً ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد من أيِّ البلاد . كان له بساط يركبُ عليه من أخشاب[(١)] ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتالَ ملك أو أعداءً من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريحَ فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرُّخاءَ[(٢)] فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر ، مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثمّ يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٢ـ١٣] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدّى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابُل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرةُ شهر ، وبين إصطخر وكابُل مسيرة شهر[(٣)] .

قلتُ : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان ، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس ، وبابُ جيرون وباب البريد[(٤)] اللذان بدمشق ، على أحد الأقوال .

وأما القِطْر[(٥)] فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس ، وقال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السدي : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

---

(١) كذا في ب . وفي أ : مركب في أخشاب وفي ط : مركب من أخشاب . تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨) .

(٢) أورد الطبري الأقوال في تفسير الريح الرخاء ، وفيها : السريعة الطيبة ، والمطيعة . (٢٣/ ١٠٣) .

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨) .

(٤) في ب : باب التومة .

(٥) في ب : عين القطر .

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : وسخّر الله له من الجنّ عُمّالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذّبه ونكلّ به . ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملّتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ . قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه : كالحياض[١] . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم[٢] . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبىٰ فيه الماء كما قال الأعشى : [من الطويل]

تَرُوحُ على آلِ المُحَلّقِ جَفنةٌ كَجابِيَةِ السَّيْحِ العِراقيّ يَفْهَقُ[٣]

وأما القدور الراسيات ، فقال عكرمة : أثافيها منها ، يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن . وهكذا قال مجاهد وغير واحد[٤] .

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ يعني أن منهم من قد سخّره في البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله : ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أي قد عصوا فقُيّدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد ، وهي : القيود . وهذا كلّه من جملة ماهيأ الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله . وقد قال البخاري[٥] : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنّ عِفْرِيْتاً مِنَ الجِنّ تَفَلّتَ عليّ البارحَةَ لِيَقْطَعَ عليّ صَلاتي فأمْكَنَني اللهُ مِنْهُ ، فأخَذْتُهُ فأرَدْتُ أنْ أرْبطَهُ إلى سَارِيَةٍ مِنْ سَوارِي المَسْجِد حَتّى تَنْظُروا إليَه كُلُّكم ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أخي سُلَيْمانَ ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ فَرَدَدْتُهُ خاسِئاً » .

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٩) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ديوان الأعشى : (ق٣٣/ ب٥٧ ، ص٢٧٥) . وفيه : [من الطويل]
نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقي تفهق
وفي ط : الشيخ . والسيح : النهر . ويفهق : يتصبب .
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٩) .
(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٣) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة[١] .

وقال مسلم[٢] : حدّثنا محمد بن سلمة المرادي ، حدّثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدّثني ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخَوْلاني ، عن أبي الدرْداء قال : قام رسول الله ﷺ فصلّى ، فسمعناهُ يَقولُ : « أعوذُ باللهِ مِنْكَ ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ ثلاثاً ، وبَسَطَ يَدَهُ كأنَّهُ يَتَناوَلُ شَيْئاً ، فلَمّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ قُلْنا يا رَسُولَ اللهِ سَمِعْناكَ تَقُوْلُ في الصلاَّةِ شَيْئاً لم نَسْمَعك تَقُوْلُهُ قَبْلَ ذلكَ ، ورأَيْناكَ بَسَطْتَ يَدَكَ . قال : « إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبْليس جَاءَ بِشِهابٍ مِنْ نارٍ لِيَجْعَلَهُ في وَجْهي فَقُلْتُ أعُوذُ باللهِ مِنْكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ ، فَلَمْ يَسْتَأْخِر ثَلاثَ مَرَّاتٍ . ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ . واللهِ لَولا دَعْوَةُ أَخِيْنا سُليمانَ لأَصْبَحَ مُوْثَقاً يَلْعَبُ بهِ وِلْدَانُ أهْلِ المدِيْنَة » .

وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة ، به[٣] .

وقال أحمد[٤] : حدّثنا أبو أحمد ، حدّثنا مسرَّة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد صاحب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يُصلي ، فذهبتُ أمرُّ بين يديه ، فردّني ، ثمّ قال : حدّثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلّى صلاةَ الصُّبح وهو خلفَه ، فقرأ ، فالتبسَتْ عليه القراءة . فلمّا فرغ من صلاته قال : « لَوْ رَأَيْتُمُوني وإبْلِيْس فأَهْوَيْتُ بِيَدِي فما زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بَيْنَ أصْبعَيَّ هاتَيْن » الإبهام والتي تليها « ولَولا دَعْوَةُ أخي سُلَيمانَ لأصْبَحَ مَرْبُوطاً بِسارِيَةٍ مِنْ سَوارِي المسْجِدِ يَتَلاعَبُ بهِ صِبْيانُ المدِيْنة ، فَمَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُم أنْ لا يَحُولَ بَيْنَهُ وبَيْنَ القِبْلَةِ أحَدٌ فَلْيَفْعَلْ » .

روى أبو داود[٥] منه « فَمَن اسْتَطَاع » إلى آخره ، عن أحمد بن سريج ، عن أحمد الزبيري ، به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمئة بمهور ، وثلاثمئة سراري ، وقيل بالعكس ثلاثمئة حرائر وسبعمئة من الإماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً . قال البخاري : حدّثنا خالد بن مَخْلَد ، حدّثنا مغيرة بن عبد الرحمان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قالَ : « قال سُلَيْمانُ بنُ دَاودَ : لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِيْنَ امْرأةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرأةٍ فارِساً يُجَاهِدُ في سَبِيْلِ اللهِ . فقالَ لَهُ صَاحِبُهُ : إنْ شاءَ اللهُ . فلم يَقُلْ ، فَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئاً إلّا واحِداً ساقِطاً أَحَدُ شِقَّيْهِ » . فقال النبي ﷺ : « لَوْ قَالَها لَجَاهَدُوا في سَبِيْلِ اللهِ » . وقال

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٤١) في المساجد ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ، والتعوذ منه ، والنسائي في التفسير (٤٦٠) ، وهو في سننه الكبرى (١١٤٤٠) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٥٤٢) في المساجد ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة .

(٣) أخرجه في الصلاة من سننه الكبرى (٥٤٩) .

(٤) المسند (٣/ ٨٢ ـ ٨٣) .

(٥) في سننه رقم (٧٠٠) في الصلاة ، باب ما يؤمر المصلي أن يدرأ عن الممر بين يديه .

شعيب ، وابن أبي الزناد : تسعين ، وهو أصح ، تفرّد به البخاري من هذا الوجه[١] .

وقال أبو يعلى : حدّثنا زهير ، حدّثنا يزيد ، أخبرنا هشام بن حسان ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سُلَيمانُ بنُ دَاودَ : لأَطُوْفَنَّ اللَّيلةَ عَلَى مئةِ امْرأةٍ كُلُّ امْرأةٍ مِنْهُنَّ تَلِدُ غُلاماً يَضرِبُ بالسَّيْفِ في سَبِيْلِ اللهِ ، وَلَم يَقُلْ : إنْ شَاءَ اللهُ . فَطافَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ على مئةِ امْرأةٍ فَلَم تَلِدْ مِنهُنَّ امْرأةٌ إلّا امْرأةٌ وَلَدَتْ نِصْفَ إنْسَانٍ » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قَالَ : إنْ شَاءَ اللهُ لَوَلَدَتْ كُلُّ امْرأةٍ مِنهُنَّ غُلاماً يَضرِبُ بالسَّيْفِ في سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » . إسناده على شرط « الصحيح » ، ولم يخرجوه من هذا الوجه[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا هُشيم ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال سليمان ابن داود : لأطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن ، فما ولدت إلا واحدة منهن بشِقّ إنسان قال : قال رسول الله ﷺ : « لَو اسْتَثْنَى لَوُلِدَ لَهُ مِئَةُ غُلام . كُلُّهُم يُقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » تفرد به أحمد أيضاً[٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قالَ سُليمانُ بنُ داودَ لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ بمئةِ امْرأةٍ تَلِدُ كُلُّ امْرأةٍ مِنْهُنَّ غُلاماً يُقاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ » قال : « ونَسِيَ أنْ يَقُولَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، فأطَافَ بِهِنَّ » قال : « فلَم تَلِدْ مِنْهُنَّ امْرأةٌ إلّا واحِدَةٌ نِصْفَ إنْسانٍ » فقال رسول الله ﷺ : « لو قَالَ إنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنثْ وكانَ دركاً لحاجَتِهِ »[٤] .

وهكذا أخرجاه في « الصحيحين » من حديث عبد الرزاق ، به ، مثله[٥] .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا مقاتل ، عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة : أن سليمان بن داود كان له أربع مئةِ امْرأةٍ وستمئة سرية ، فقالَ يَوْماً : لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ على ألْفِ امْرأةٍ فَتَحْمِلُ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِفارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيْلِ اللهِ ، ولَمْ يَسْتَثْنِ ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمِلْ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ إلا امْرأَةٌ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ جاءَتْ بِشِقّ إنْسَانٍ . فقال النبي ﷺ : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوِ اسْتَثْنَى فَقالَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، لَوُلِدَ لَهُ ما قالَ فُرسانٌ ، ولَجاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ » .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٢٤) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

(٢) مسند أبي يعلى رقم (٦٣٤٧) .
ذكره صاحب كنز العمال (٣/ ٥٧ و٥٨ و٥٥٨)، والحديث عزاه لعدد من الأئمة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المسند (٢/ ٢٢٩) .

(٤) المسند (٢/ ٢٧٥) .

(٥) في البخاري رقم (٥٢٤٢) في النكاح ، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي . ومسلم رقم (١٦٥٤) في الأيمان ، باب الاستثناء .

وهذا إسناد ضعيفٌ لحال إسحاق بن بشر فإنه مُنكَر الحديث، ولاسيما وقد خالف الروايات الصحاح[١] .

وقد كان له عليه السلام من أمور المُلك واتِّساع الدولة وكثرة الجنود وتنوُّعها مالم يكن لأحدٍ قبلَه ولا يعطيه الله أحداً بعده، كما قال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

وقد أعطاه الله ذلك بنص الصَّادق المصدوق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي: أعط من شِئت، واحرم من شئت، فلا حساب عليك، أي: تصرَّف في المال كيف شئت، فإن الله قد سوَّغ لك كل ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك . وهذا شأن النبي المَلِك، بخلاف العبد الرسول، فإنّ مِنْ شأنه أن لا يُعطي أحداً، ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك . وقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه: أن تواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه . وقد جعل الله الخِلافة والمُلْك من بعده في أمته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة . فلله الحمد والمِنَّة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا، نبَّه على ما أعدَّه له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل، والقربة التي تقرِّبه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

***

ذكر وَفاته وكم كانت مدّة ملكه وحياته[٢]

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤] .

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب[٣] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « كانَ سُلَيمانُ نَبيُّ اللهِ عَلَيْه السَّلامُ إذا صَلَّى رَأَى شَجَرَةً

(١) ترجمته وما قيل فيه في المجروحين، لابن حبان (١/ ١٣٥ ـ ١٣٧) .
(٢) في ط: وفاته ومدة ملكه وحياته .
(٣) في ب: عن عطاء بن السائب عن أبي هريرة قال . . .

نابِتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُوْلُ لَها : ما اسْمُكِ ؟ فَتَقُول : كَذَا . فَيَقُولُ : لأيِّ شَيْءٍ أَنْتِ ؟ فإنْ كَانَتْ لِغَرْسٍ غُرِسَتْ ، وإنْ كَانَتْ لِدَوَاءٍ أنبتت[١] فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي ذاتَ يَوْمٍ إذْ رَأَى شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَها : ما اسْمُكِ ؟ قالتْ : الخرُّوْب . قال : لأيّ شَيءٍ أنْتِ ؟ قالتْ : لخرابِ هذا البَيتِ . فَقَالَ سُليمانُ : اللّهُمّ عَمِّ عَلَى الجِنِّ مَوْتي حَتَّى تَعْلَمَ الإنْسُ أنَّ الجِنَّ لا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ . فَنَحَتَها عَصاً فَتَوَكَّأ عَلَيْها حَوْلًا والجِنُّ تَعْمَلُ فَأكَلَتْها الأرَضَةُ ، فَتَبيَّنَتِ الإنْسُ أنَّ الجِنَّ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا حَوْلًا في العذابِ المُهِيْنِ ﴾[٢] .
قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك[٣] ، قال : فشكرت الجنُّ للأرضة فكانت تأتيها بالماء .

لفظ ابن جرير[٤] . وعطاء بن السائب[٥] في حديثه نكارة[٦] .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس موقوفاً[٧] ، وهو أشبه بالصواب . والله أعلم .

وقال السُدّي في خبرٍ ذَكَره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرّة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر ، يُدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي تُوُفّي فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها ، فيسألُها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا . فيقول لها : لأي شيء نبتِّ ؟ فتقول : نبتُّ لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع[٨] . فإذا كانت نبتت لغرس غرسها ، وإن كانت نبتت لدواءٍ[٩] قالت : نبتُّ دواءً لكذا وكذا ، فيجعلها كذلك . حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرُّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخرُّوبة . فقال : ولأي شيء

---

(١) في بعض النسخ : كتبت .
(٢) الحديث في تفسير الطبري (٢٢/ ٥١) .
(٣) أي : . . ما لبثوا حولًا في العذاب المهين . تاريخ الطبري (١/ ٥٠١) وفي شواذ ابن خالويه : (١٢١) ، أن ابن عباس كان يقرأ : تُبُيِّنت . .
(٤) تفسيره (٢٢/ ٥١) . وتاريخه (١/ ٥٠١) .
(٥) في أ وب وط : الخراساني . ولا مكان لذكره هاهنا ؛ والذي في سند الحديث عند ابن جرير في تفسيره ، وتاريخه (١/ ٥٠١) ، عطاء بن السائب .
(٦) هكذا قال ولم يوضح، وعطاء بن السائب ثقة في نفسه لكنه اختلط، فحديثه قبل الاختلاط صحيح، وقد وثقه أيوب السختياني، ويحيى بن سعيد القطان، وأحمد بن حنبل، والعجلي، وابن سعد، ويعقوب بن سفيان، والنسائي، وغيرهم، وإنما ضعفه بعضهم بسبب اختلاطه. وآفة هذا الحديث أنه من رواية إبراهيم بن طهمان عن عطاء، وهو ممن روى عنه بعد الاختلاط (وينظر تحرير التقريب ٣/ ١٤ ـ ١٥) .
(٧) تاريخه (٢٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .
(٨) من قوله : فيقول لها . . . إلى هنا ؛ زيادة من تفسير الطبري (٢٢/ ٥١) . وتاريخه (١/ ٥٠٢) .
(٩) في أ وط : دواء . وفي ب : نَبَت دواء . . . وأثبتنا لفظ الطبري .

نبتّ ؟ فقالت : نبتُّ لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليخرِبه وأنا حيّ ، أنتِ التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها في حائط[١] له . ثم دخل المحراب ، فقام يصلي مُتَكِئاً على عصاه ، فمات ولم يعلم به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوًى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك فمرّ ـ ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ـ ولم يسمع صوت سليمان ، ثمّ رجع فلم يسمع ، ثمّ رجع فوقع في البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا مِنْسأته ـ وهي العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلةً . ثمّ حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وهي قراءة ابن مسعود : « فمكثوا يدأبون[٢] له من بعد موته حولًا كاملاً » ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان . ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ، وذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنتِ تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين . قال فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشياطين تشكراً لها[٣] . وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تكذّب .

وقال أبو داود في كتاب « القدر »[٤] : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا قبيصة ، حدّثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني . قال : ما أنا أعلم بذاك منك ، إنما هي كُتب يُلقى إليَّ فيها تسميةُ من يموت .

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملَك الموت : إذا أُمرتَ بي فأعلمني . فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمِرت بك ، قد بقيت لك سُوَيعة ، فدعا

---

(١) الحائط : البستان .

(٢) في تاريخ الطبري : يدينون .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٠٢) ، وتفسيره (٢٢/ ٥١ ـ ٥٢) .

(٤) كتاب القدر لأبي داود ، رواه عنه محمد بن أحمد بن يعقوب المتُّوثي البصري .
ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٦) ، ولم يصل إلينا .

الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يُصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملَك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه . ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال فبعث الله دابّة الأرض ـ يعني إلى مِنْسأته ـ فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضَعُفتْ وثقُل عليها ، فخرّ ، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[١] .

قال أصبغ : ويلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في مِنسأته حتى خرَّ . وقد رُوِي نحوُ هذا عن جماعة من السلف وغيرهم . والله أعلم[٢] .

قال إسحاق بن بشر ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري وغيره ، إن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنةً ، وكان ملكه أربعين سنة .

وقال إسحاق أخبرنا أبو روق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن ملكه كان عشرين سنة . فالله أعلم .

وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام[٣] نيفاً وخمسين سنة . وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر[٤] .

ثمّ ملك بعده ابنه رحبعيم[٥] مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل[٦] .

* * *

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢) .

(٢) زاد في ب : وقد استنبط بعض الأئمة من هذا أن الأنبياء عليهم السلام لا تبلى أجسادهم كما ثبت في الحديث أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، رواه أبو داود رقم (١٠٤٧) من حديث أوس بن أوس بلفظ « إن الله حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء » وهو حديث صحيح .

(٣) زاد ابن جرير هنا : فيما ذُكر .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٥٠٣) .

(٥) في ط : رحبعام : وفي الطبري : رُحُبْعُم .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٥١٧) .

باب[١]

ذكر جَماعَة من أنبيَاء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان عليهما السلام وقبل زكريا وَيحيى عليهما السّلام[٢]

فمنهم :

شعيا بن أمصيا

قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو ممن بَشَّر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه صديقة[٣] على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت في رجله قَرْحة . وقصد بيت المقدس ملكُ بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستمئة ألف راية ، وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً ، وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحَى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يُوْحَ إليَّ فيهم شيء بعدُ . ثمّ نزل عليه الوحي بالأمر للملك صديقة بأن يوصي ويستخلف على ملكه مَن يشاء فإنه قد اقترب أجلُه ، فلما أخبره بذلك أقبل الملكُ على القبلة فصلّى وسبّح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله عزَّ وجل بقلب مخلص وتوكُّلٍ وصبر : اللهمّ ربَّ الأرباب وإلّه الآلهة[٤] ، يا رحمن يا رحيم[٥] ، يا من لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، اذكرني بعلمي[٦] وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك ، فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك[٧] . قال : فاستجاب الله له ورحمه . وأوحى الله إلى شعيا أن يبشّره بأنه قد رَحِم بكاءه ، وقد أخّر في أجله خمسَ عشرة سنة ، وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن ، وخرّ ساجداً ، وقال في سجوده : اللهم أنت الذي تعطي المُلْكَ من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت

---

(١) ليست في ب وط .
(٢) في ط : جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام .
(٣) في ط : حزقيا ، وكذلك في الطبري (١/ ٥٣١) ، إلا أنه نبه على أن ابن إسحاق سماه : صديقة . كما هاهنا .
(٤) زاد الطبري هاهنا : القدّوس المتقدس .
(٥) في الطبري : الرحيم ، الرؤوف الذي لا تأخذه .
(٦) في الطبري : بعملي ، وهو كذلك في بعض النسخ وهو الأصوب .
(٧) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣) .

ترحم وتستجيب دعوة المضطرين[١] . فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قَرحته فيشفى ويصبح قد برىء ، ففعل ذلك ، فشفي .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلُّهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه ، منهم بخت نصّر ، فأرسل ملكُ بني إسرائيل فجاء بهم ، فجعلهم في الأغلال وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ، ويطعم كلّ واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير . ثمّ أودعهم السجن .

وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومَهم ما قدْ حلّ بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال لهم السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم . فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثمّ مات سنحاريب بعد سبع سنين[٢] .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات صديقة ملك بني إسرائيل مَرِج أمرُهم ، واختلطت أحداثهم ، وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا ، فقام فيهم فوعظهم وذكّرهم . وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذّبوه . فلما فرغ من مقالته عَدَوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم ، فمرَّ بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها . فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣] .

***

ومنهم :

أرميَا بن حلقيا
من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحّاك عن ابن عباس[٤] ، وهو غريب وليس بصحيح[٥] .

قال ابن عساكر[٦] : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق

(١) لفظ الدعاء عند الطبري في تاريخه (١/ ٥٣٣) .
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٥) .
(٣) نقل الطبري الخبر عن ابن إسحاق مفصلاً في تاريخه (١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧) .
(٤) ورواه كذلك وهب بن منبه . تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦ و٥٤٧) .
(٥) وكذلك قال الطبري . تاريخه (١/ ٣٧٦) .
(٦) تاريخه (٨/ ٢٧ ـ ٢٨) .

فقال أيها الدم فتنت الناس فاسكن ، فسكن ورسب حتى غاب .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثني علي بن أبي مريم ، عن أحمد بن حباب ، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أي ربّ أيُّ عبادك أحَبُّ إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذِكراً ، الذين يشتغلون بذِكري عن ذكر الخلائق . الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يُحدِّثون أنفسهم بالبقاء . الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلَوه ، وإذا زوي عنهم سُرُّوا بذلك . أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

***

ذكر(١) خراب بَيت المقدس

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢ ـ ٨] .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له : أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قُم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون ، وإني تذكَّرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم ، فسلْهم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي ، وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي ، وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي ، إن الدوابَّ تذكر أوطانها فتنزع إليها ، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي ، وأما قُرَّاؤهم فعبدوا غيري ، وأما نُسّاكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما وُلاتهم فكذبوا عَليّ وعلى رُسلي . خَزَنوا المكر في قلوبهم ، وعوَّدوا الكذبَ ألسنتَهم . وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجنَّ عليهم جيولاً(٢) لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم مَلِكاً جبّاراً قاسياً ، له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حمل فرسانه كَرّ العقبان ، يعيدون العمران خراباً ، ويتركون القرى وحشة ، فياويل

---

(١) كلمة ذكر ؛ ليست في ط .

(٢) الجيول ، لعله يريد الأجيال ، جمع جيل .

إيليا وسكانها كيف أذلّلهم للقتل وأسلّط عليهم السبي ، وأُعيد بعد لجب الأعراس صُراخاً ، وبعد صهيل الخيل عُواء الذِّئاب ، وبعد شرافات القصور مساكن السباع ، وبعد ضوء السرج وهج العجاج ، وبالعزِّ الذُّلَّ ، وبالنعمة العبودية ، وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب ، وبالمشي على الزرابي الخبب[١] ، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض ، وعظامَهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنَّهم بألوان العذاب ، ثم لآمرنَّ السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أُمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبِرحْمتي للبهائم ، ثمّ أحبسه في زمان الزرع ، وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، فإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، [وإن بكَوا لم أرحمهم ، وإن تضرّعوا صرفتُ وجهي عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ][٢] .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا إدريس ، عن وهب بن منبه ، قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل ، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم ، فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء ، طمع بخت نصّر فيهم ، وقذف الله في قلبه ، وحدَّث في نفسه بالمسير إليهم لمَّا أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقمٌ منهم ، فَقُم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي ، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخرَّ ساجداً وقال : يا رب ودِدْتُ أمي لم تلدني حين جعلتني آخِر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي ، فقال له : ارفع رأسك . فرفع رأسه فبكى ثم قال : يا رب من تُسَلِّط عليهم ؟ فقال : عبدة النيران ، لا يخافون عقابي ولا يرجون ثوابي . قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرْك خبرك وخبر بني إسرائيل :

من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصوّرك في رحم أُمّك قَدَّسْتُك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهَّرْتُك ، ومن قبل أن تبلغ نبَّأْتُك ، ومن قبل أن تبلغ الأشدَّ اخترتُك ، ولأمر عظيمٍ اجتبيتك[٣] . فقم مع الملِك تُسدّده وترشده . فكان مع الملك يسدده[٤] ويأتيه بالوحي[٥] من الله ، حتى عظمت الأحداث ونَسُوا ما نجّاهم اللهُ به من عدوّهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به ، وذكِّرْهم نعمتي عليهم ، وعَرِّفْهم أحْدَاثَهم . فقال أرميا : يا رب إني ضعيفٌ إن لم تقوّني ، عاجزٌ إن لم تبلّغني ، مخطِىءٌ إنْ لم تسدّدْني ، مَخذولٌ إن لم تنصرني ، ذليلٌ إن لم تُعزّني . فقال الله تعالى : أَوَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الأُمُوْرَ كُلَّها تصدر عن مشيئتي ، وأنّ الخلقَ والأمر كله لي ، وأنّ

---

(١) الزرابي : البسط .

(٢) ليست في ب . وقد فصل الطبري الخبر في تاريخه (١/ ٥٤٨ ـ ٥٥٠) .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٨) .

(٤) في ب : يرشده .

(٥) في أوط : الوحي . وأثبتنا ما في ب . وفي تاريخ الطبري . . . ويأتيه بالخبر من قبل الله فيما بينه وبين الله عز وجل.

القلوب والألسنة كلها بيدي فأقلّبُها كيف شئتُ فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي . قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي ، وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلّا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلّمتُ البحار ففهمتْ قولي ، وأمرتها ففعلت أمري ، وحدَّدْتُ عليها حدوداً فلا تعدو حدِّي ، وتأتي بأمواجٍ كالجبال فإذا بلغت حَدّي ألبستُها مذَلَّةً لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري ، وإني معكَ ولن يصل إليك شيءٌ معي ، وإني بعثتُك إلى خلقٍ عظيمٍ من خلقي لتبلِّغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجر مَنِ اتّبعك ، ولا ينقص من أجورهم شيئاً [وإن تقصر عنها تستحق بذلك مني وزر من تركته في عماية ولا ينتقص ذلك من أوزارهم شيئاً][1] انطلق إلى قومك فقُم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكَركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم . يا معشر أبناء الأنبياء ، كيف وجد آباؤكم مَغَبَّةَ طاعتي ؟ وكيف وجدتم مغبةَ معصيتي ؟ وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ؟! وهل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي ؟ إن الدوابَّ إذا ذَكَرت أوطانَها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مُروج الهلَكَة وتركوا الأمر الذي به أكرمتُ آباءهم ، وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

أما أحبارهم ورهبانهم : فاتخذوا عبادي خَوَلًا[2] يتعبَّدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري ، وأنسَوْهم ذكري وسُنَّتي وغرُّوهم عني ، فدانَ لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلّا لي فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وأمراؤهم : فبطروا نعمتي وأمِنوا مكري ، وغرَّتهمُ الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ، فهم يُحرّفون كتابي ويفترون على رسُلي جراءةً منهم عليَّ وغرة بي ، فسبحان جلالي وعلوَّ مكاني وعظمة شأني هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشر أن يُطاع في معصيتي ؟! وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني ، أو آذن لأحد بالطاعة لأحد لا تنبغي إلا لي ؟! .

وأما قُرّاؤهم وفقهاؤهم : فيدرسون ما يتخَيَّرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جَهَلة بما يعلمون لا ينتفعون بشيء مما علِموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين : فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنَّون مثلَ نصري آباءهم ، والكرامةَ التي أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكر ، ولا يذكرون كيف كان صبرُ آبائهم ، وكيف كان جهدهم في أمري حين اغترَّ المغترُّون ، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءَهم فصبروا وصدقوا حتى عزّ أمري وظهر ديني . فتأنَّيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني

---

(١) سقطت العبارة من ط .
(٢) الخَوَل : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

ويرجعون ، فتطوَّلت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر ، وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أُمطر عليهم السماء وأُنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو ؛ ولا يزدادون إلّا طغياناً وبُعداً مني . فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون ؟ أم بي يتحرَّشون ؟ أم إياي يُخادعون ؟ أم عليَّ يجترئون ؟ فإني أُقسم بعزتي لأُتيحنَّ عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ، ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً أُلبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة ، وآليت أن يتبعه عددٌ وسوادٌ مثلُ الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ، ومواكب مثل العجاج ، وكأن حفيف راياته طيرانُ النسور ، وحمل فرسانه كسرب العقبان[١] يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ، ويعيثون في الأرض فساداً ، ويُتَبِّرون ما علوا تتبيراً ، قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقون ولا يَرحمون ولا يبصرون ، ولا يسمعون ، يجولون في الأسواق بأصوات مُرتفعة مثل زئير الأسد تقشعِرُّ من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام ، بألسنة لا يفقهونها ، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها .

فوعزَّتي لأُعَطّلن[٢] بيوتهم من كتبي وقدسي ، ولأُخْلِيَن مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأُوحِشَن مساجدَهم من عمّارها وزوّارها الذين كانوا يتزيَّنون بعمارتها لغيري ، ويتهجَّدون فيها ويتعبَّدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقّهون فيها لغير الدين ، ويتعلَّمون فيها لغير العمل . لأُبدّلن ملوكها بالعز الذل ، وبالأمن الخوف ، وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء أنواع[٣] البلاء ، وبلباس الديباج والحرير مَدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان جِيفَ القتل ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال . ثم لأعيدنَّ فيهم بعد القُصور الواسعة والحصون الحصينة الخرابَ ، وبعد البروج المشيَّدة مساكن السباع ، وبعد صَهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار . ثمّ لأبدلنَّ نساءها بالأسوِرَةِ الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار ، وبالمشي على الزَّرابي[٤] عُبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والستور ، الحسور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السّموم . ثمّ لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حَالِق[٥] لوَصَل ذلك إليه .

إني إنما أُكرم من أكرمني ، وإنما أُهين من هانَ عليه أمري . ثمّ لآمرنَّ السماء خلال ذلك فلتكونن

---

(١) الخبر في تاريخ الطبري (١/٥٤٨ ـ ٥٥٠) . وتفسيره (١٥/ ٢٩ ـ ٣٠) ، وفي بعض النسخ : كنصوب العقبان .
(٢) التعطيل : التفريغ .
(٣) في ب : ألوان .
(٤) الزّرابي : البسط . مفردها : زُربي .
(٥) الحالق : الجبل المنيف المشرف ، ولا يكون إلا مع عدم نبات . اللسان .

عليهم طبقاً من حديد ، ولآمُرَنّ الأرض فلتكونَن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ، ولا أرض تنبت . فإن أمطرت[١] خلال ذلك شيئاً سلّطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركةَ ، وإن دَعَوني لم أجبْهم ، وإن سألوني لم أُعْطِهم ، وإن بكَوا لم أرحَمْهم ، وإنْ تَضرَّعوا إليَّ صرفتُ وجهي عنهم ، وإن قالوا : اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنّك اخترتَنا لنفسكَ ، وجعلتَ فينا نُبوَّتَك وكتابك ومساجدك ، ثم مَكّنْتَ لنا في البلاد واستخلفتنا فيها ، وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صِغاراً ، وحفظتنا وإيّاهم برحمتك كباراً ، فأنتَ أوفى المُنْعِمين وإنْ غَيّرْنا ، ولا تُبَدّل وإنْ بدَّلْنا . وأن يتم نعمته وفضله ومَنَّه وطَوله وإحسانه[٢] . فإن قالوا ذلك قلت لهم : إني أبتدىء عبادي برحمتي ونعمتي ، فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعَفْتُ ، وإن بدلوا غيرت ، وإذا غيّروا غضبت ، وإذا غضبتُ عذَّبْتُ وليس يقوم شيء بغضبي .

قال كعب : فقال أرميا : برحمتك أصبحْت ، أتعلّم بين يديك ، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذلُّ وأضعفُ مِن أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً ، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظَنّي بك .

ثم قال : يا رب سبحانك وبحمدك وتباركتَ ربّنا وتعاليت ، أتُهلك هذه القرية وما حولَها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رُفِعتْ لذكرك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيِّك وقوم داود صفيِّك ؟ . يا رب أي القرى تأمن عقوبتَك بعدُ ؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأُمّة نجيّك موسى وقوم خليفتك داود ، تسلط عليهم عبدة النيران ؟ قال الله تعالى : يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أَتَدارَكَهم برحمتي .

قال أرميا : يا رب اتخذتَ إبراهيم خليلاً وحفظتنا به . وموسى قَرَّبته نجياً ، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفْنا ولا تسلط علينا عدوّنا . فأوحى الله إليه : يا أرميا إني قدَّسْتُك في بطن أمك ، وأخَّرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكينَ وابنَ السبيل لكنت الداعم لهم ، وكانوا عندي بمنزلة جنةٍ ناعم شجرُها ، طاهر ماؤها ، ولا يغور ماؤها ، ولا تبور ثماره ولا تنقطع . ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل ، إني كنتُ لهم بمنزلة الداعي الشفيق أُجَنّبهم كلَّ قَحْطٍ وكلَّ عسرة ، وأتبع بهم الخِصب

---

(١) في ب : مطرت .
(٢) في ط : وأن تتم فضلك ومَنَّكَ وطَولك وإحسانك .

حتى صاروا كباشاً ينطح بعضُها بعضاً ، فيا ويلَهم ثمّ يا ويلهم ، إنّما أُكرم من يكرمني[١] ، وأُهين من هان عليه أمري . إنَّ من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرَّعون بمعصيتي تبرُّعاً ، فيُظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجَّت السماء إليَّ منهم ، وعجَّت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب .

قال : فلما بلَّغهم أرميا رسالة ربهم ، وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب ، عصَوه وكذَّبوه واتّهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فتزعم أن الله مُعطّل أرضه ومساجدَه من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابدٌ ولا مسجدٌ ولا كتاب ؟! لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون . فأخذوه وقيَّدوه وسجنوه . فعند ذلك بعث الله عليهم بختَ نصر ، فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ، ثم حاصرَهم فكان كما قال تعالى : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ .

قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حُكمه ، ففتحوا الأبوابَ وتخلَّلوا الأزِقّة ، وذلك قوله : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ ، وحكم فيهم حُكم الجاهلية ، وبطْشَ الجبّارين ، فقتل منهم الثلثَ ، وسبى الثلثَ ، وترك الزَّمْنَى والشيوخَ والعجائز ، ثم وطِئهم بالخيل ، وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان ، وأوقف النساء في الأسواق محسرات[٢] ، وقتل المقاتلة وخرَّب الحصون ، وهدمَ المساجد ، وحرقَ التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد ماتَ ، وأخرج أهلُ بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر[٣] وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب . وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل بخت نصر بجنوده بيتَ المقدس ، ووطىء الشامَ كلَّها ، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم .

فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها ، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألفَ غلامٍ ، وقذف الكناسات في بيت المقدس ، وذبح فيه الخنازير . وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحدَ عشرَ ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زيالون ونفتالي ابني يعقوب ، وأربعةَ عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب[٤] وألفين من سبط زيالون بن

---

(١) في ب وط : أكرمني .
(٢) في ب وط : حاسرات .
(٣) في ب : دانيال الأصغر ابن حزقيل .
(٤) من قوله : وثمانية آلاف . . إلى هنا زيادة من ب وط .

يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل[(١)] ، وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يُحذِّرهُم ما أصابهم ، ويصفك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذّبوه واتّهموه وضربوه وقيّدوه وحبسوه . فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن ، فقال له : أكنتَ تُحذِّر هؤلاء القوم ما أصابهم[(٢)] ؟ قال : نعم . قال : فإني علمتُ ذلك . قال : أَرسلني الله إليهم فكذّبوني . قال : كذّبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال : نعم . قال : بئس القوم قومٌ كذّبوا نبيَّهم وكذّبوا رسالة ربّهم ، فهل لك أن تلحق بي فأكرمَك وأُواسيك ؟ وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمَّنْتك . قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنتُ . لم أخرج منه ساعةً قَطُّ ، ولو أن بني إسرائيل لم يَخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرَك ، ولم يكن لك عليهم سلطانٌ . فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيلياء[(٣)] .

وهذا سياق غريب . وفيه حِكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التغريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بخت نصر إصبهبذاً[(٤)] لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب ، وكان قد بنى مدينة بلْخ[(٥)] التي تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بخت نصر لقتال بني إسرائيل بالشام ، فلما قدم الشام صالحه[(٦)] أهل دمشق ، وقد قيل إن الذي بعث بخت نصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم .

وقد روى ابن جرير ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيِّب : أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا ـ يعني القمامة ـ فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركْنا آباءَنا على هذا ، وكلما ظهرَ عليه الكَبا ظهرَ . قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن[(٧)] .

---

(١) مجموع من ذكرهم هاهنا ثمانون ألفاً ، تاريخ الطبري (١/ ٥٥٣) .

(٢) من قوله : ويصفك وخبرك . . . . إلى هنا ساقط من ب بنقلة عين .

(٣) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس . (معجم ياقوت) .

(٤) الصَّبَهْبَذ ، والإصبهبذ : فارسي معرب ، وهو عندهم كالأمير في العرب . المعرّب : (٢١٨) ، واللسان (إصبهبذ).

(٥) معجم ياقوت : بلخ (١/ ٤٧٩) .

(٦) في ب : فصالحه .

(٧) تاريخ الطبري (٥٨٧ ـ ٥٨٨) .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيِّب ، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح ؛ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة ، والظاهر أن هذا دم نبي متقدّم ، أو دم لبعض الصالحين[١] ، أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي : ثمّ قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود ، وصانعه عن بني إسرائيل ، وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقابَ من معه من الرهائن ، ورجَع إليهم فأخذ المدينة عَنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية[٢] .

قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبيَّ ، فأخرجه وقصَّ عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه ، فقال بخت نصر : بئس القوم قومٌ عصَوا رسول الله . وخلّى سبيله وأحسن إليه واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عزَّ وجلَّ مما صنعنا ، فادْعُ الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربَّه فأوحى الله إليه أنه غيرُ فاعلٍ ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معكَ بهذه البلدة ، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها ؟ فأبوا أن يقيموا[٣] .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرّقت بنو إسرائيل في البلاد ، فنزلت طائفةٌ منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القُرى ، وذهبت شِرْذمة منهم إلى مصر ، فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه ، فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم . ثمّ ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثمّ انصرف بسبيٍ كثيرٍ من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبي دانيال .

قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه . والله أعلم .

***

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٨٩) .
(٢) نقله الطبري (١/ ٥٣٨) ، عن ابن الكلبي . وابن الأثير في الكامل (١/ ٢٦٢) .
(٣) الطبري (١/ ٥٣٨) .

ذكر[١] شيء من خبر دَانيال علَيه السَّلام

قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا أحمد بن عبد الأعلى الشّيباني قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان ، فحدّثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكِنْدي ، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : ضَرَّى بختُ نَصَّر أَسَدين ، فألقاهما في جُبٍّ ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما ، فلم يهيجاه[٢] ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام إن أعدِد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يا رب أنا بالأرض المقدَّسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه أن أعدِد ما أمرناك به فإنا سنرسل مَن يحملُك ويحملُ ما أعددت ، ففعل ، وأرسل الله تعالى مَن حَمَلَه وحمل ما أعدَّ ، حتى وقف على رأس الجبّ ، فقال : دانيالُ ! دانيال ! فقال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربُّك . قال : وقد ذكرني[٣] ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى مَن ذَكره . والحمد لله الذي لا يخيِّب[٤] من رجاه . والحمد لله الذي من وثق به لم يكِلْه إلى غيره . والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانا . والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً . والحمد لله الذي هو يكشف ضَرَّنا بعد كربنا . والحمد لله الذي هو يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا . والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا . قال : ولم أره ذكر إيصال ما أعدَّه أرميا لدانيال من الطعام الذي أحب[٥] .

وقال يونس بن بُكَير ، عن محمد بن إسحاق عن أبي خَلْدة خالد بن دينار[٦] ، حدّثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تُسْتَر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سِيَرُكم وأمورُكم ولُحون كلامكم ، وما هو كائن بعدُ . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرّقةً ، فلما كان بالليل دفنّاه وسوّينا القبورَ كلَّها لنُعَمِّيه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيُمْطَرون . قلت : مَن كنتم تظنّون الرجلَ ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .

---

(١) ليست في ط .
(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) .
(٣) من قوله : قال : أنا أرميا . . إلى هنا ، زيادة من ب وط .
(٤) في ط : الذي يجيب .
(٥) قوله : قال ولم أره . . إلى هنا ، زيادة من ب .
(٦) كذا في ب . وهو الصواب . وفي أ وط : أبي خلدون بن دينار وهو سهو . وخالد بن دينار التميمي السعدي ، أبو خَلْدَة ، محدث صدوق ، من الطبقة الخامسة ، مشهور بكنيته . تقريب التهذيب (١/ ٢١٣) .

قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : من ثلاثمئة سنة . قلت : ما تغيَّر منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لُحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمئة سنة ، فليس بنبي بل هو رجل صالح ، لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري[1] ، والفترة التي كانت بينهما أربعمئة سنة . وقيل : ستمئة . وقيل : ستمئة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمئة سنة ، وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر ، إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت[2] الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً ، كما تقدم .

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شِبرٌ .

وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع[3] ـ والله أعلم ـ ، فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدة[4] . والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب « أحكام القبور »[5] : حدّثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، حدّثنا أبو القاسم بن عبد الله ، عن أبي الأشعث الأحمري قال : قال رسول الله ﷺ : إن دانيال دعا ربّه عز وجل أن تدفنه أمّة محمد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر ، وجده في تابوت تَضْرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشّروه بالجنة » . فكان الذي دلّ عليه رجل يقال له : حُرقوص ، فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره ، فكتب إليه عمر أنِ ادفنه وابعث إليّ حرقوص[6] فإن النبي ﷺ بشّره الجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه ، وفي كونه محفوظاً نظر . والله أعلم .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢) ، في الأنبياء ، باب (٤٨) قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ . ونص الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد عَلّات ، ليس بيني وبينه نبي » .

(٢) في ب : قويت .

(٣) في ب : والله أعلم ، ولم يرد في نهاية كلامه .

(٤) في ب : المدة .

(٥) من كتبه التي لم تطبع بعد . فيما أعلم . ومن عادة ابن أبي الدنيا أن يذكر أحاديثه بسنده الخاص مما لا يشاركه فيها أحد من أصحاب المصادر إلا ما ندر .

(٦) في ب : بحر قوص . وهو حرقوص بن زهير . أحد القادة الذين شاركوا في فتح الأهواز . تاريخ الطبري (٤/ ٧٧) .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا أبو بلال ، حدّثنا قاسم بن عبد الله ، عن عنبسة بن سعيد وكان عالماً قال : وجد أبو موسى مع دانيال مُصْحفاً وجَرَّة فيها ودك[1] ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أمّا المصحف فابعث به إلينا ، وأما الوَدَك فابعث إلينا منه ، ومُر مَن قِبَلَك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأمّا الخاتم فقد نَفَلْنَاكَهُ .

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه أن أبا موسى لما وجده ذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبّله . وكتب إلى عُمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها ، فإن ردَّها وإلّا مرض ، وأن عنده ربعة[2] ، فأمر عُمر بأن يغسل بماءٍ وسدر[3] ، ويكفّن ويدفن ويُخفَى قبرُه فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالربعة فتحمل إليه ، ونَفَلَه خاتمه .

وروي عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأُسَراء فسَكَّروا نهراً ، وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ثمّ قدم الأربعة الأسراء ، فضرب أعناقهم ، فلم يعلم بمكان موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نَقْش فصّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجِّمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يُغور[4] ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنّهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه .

إسناد حسن .

***

---

(١) الودَك : الدسم .

(٢) الربعة : صندوق فيه أجزاء المصحف .

(٣) السدر : شجرة يستخدم ورقها للغسل .

(٤) في ط : يعور .

وهذا ذكر عمارة بَيت المقدس بَعدَ خرابها واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها[١]

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٩] .

قال هشام بن الكلبي : ثمّ أوحَى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام ، فيما بلغني ، إني عامرٌ بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها وهي خراب فقال في نفسه : سبحان الله ، أمرني الله أن أنزل هذه البلدة ، وأخبرني أنه عامرها ، فمتى يعمرها ؟! ومتى يُحييها الله بعد موتها ؟! ثمّ وضع رأسه فنام ومعه حمارُه وسلّة من طعام ، فمكث في نومه سبعين سنةً حتى هَلَك بخت نصر والملك الذي فوقه ، وهو لهراسب ، وكان ملكه مئة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بخت نصر في دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملّك عليهم رجلاً من آل داود ، وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها . فرجعوا ، فعمروها ، وفتح الله لإرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تُبنى وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تم له مئة سنة ، ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً فلما نظر إليها عامرة آهلة قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : فأقام بنو إسرائيل بها وردّ الله عليهم أمرهم ، فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف . ثمّ لم يكن لهم جماعة ولا سلطان[٢] ، يعني بعد ظهور النصارى عليهم . هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه[٣] عنه .

وذكر ابن جرير[٤] أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقوّاد[٥] وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل . ثمّ لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مئة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية ، وذلك أن رجلاً

---

(١) جاء عنوان ط ، هكذا : عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع بني إسرائيل . . الأرض .
(٢) في ب : ولا سلطان ولا عز .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٨ ـ ٥٤٠) .
(٤) تاريخ الطبري (١/ ٥٤٠ ـ ٥٤١) .
(٥) من قوله : وذكر ابن جرير . . إلى هنا سقط من ب وط .

اسمه زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا ، فبرص زردشت ، فذهب فلحق بأرض أذربيجان ، وصحب بشتاسب ، فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه ـ لعنه الله ـ[1] فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم[2] .

ثمّ كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بخت نصر لكلّ واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً ، قبّحه الله .

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المارَّ على هذه القرية هو إرميا عليه السلام . قاله[3] وهب بن منبه ، وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما ، وهو قوي من حيث السياق المتقدم .

وقد رُوي عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسُّدّي وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عُزير[4] . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف . والله أعلم .

***

(١) سقطت من ط .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٥٤٠ ، ٥٦١) .

(٣) في ط : قال . تفسير الطبري (٣/ ٢٠) .

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٩ ـ ٢٠) وفيه : وجائز أن يكون ذلك عزيراً ، وجائز أن يكون أرميا ، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه ، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك ، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم ، وإعادتهم بعد فنائهم .

وَهذه قِصَّة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزير بن جروة ، ويقال بن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا ابن عري بن تقي بن إيشوع[١] بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران . ويقال : عزير بن سَروخا[٢] . جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق .

ثمّ ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو عن حِبان بن علي عن محمد بن كُريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً « لا أدري أَلُعِنَ تُبَّعٌ أم لا[٣] ، ولا أدري أكان عزير نبياً أم لا » .

ثمّ رواه من حديث مؤمّل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السِّجْزي ، عن عبد الرزاق عن معمر ، عن أبي ذؤيب ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

ثمّ روي من طريق إسحاق بن بشر ، وهو متروك[٤] ، عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه . قال : وكان يُذكَر مع الأنبياء حتى محا الله اسمه من ذلك حين سأل ربّه عن القدر[٥] . وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مئة عام ثمّ بعثه .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن كعب ، وسعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، ومقاتل وجويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس وعن عبد الله بن إسماعيل السُّدّي ، عن أبيه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، وإدريس عن جده وهب بن منبه ، قال إسحاق : كل هؤلاء حدَّثوني عن حديث عزير ، وزاد بعضهم على بعض ، قالوا بإسنادهم : إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيما ، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه

---

(١) في ط ، وبعض النسخ : أسبوع .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٥) . وفيه اختلاف في بعض الأسماء . درتنا بن غرى بن بقي .
(٣) في ط : العين بيع . . . وهو تحريف وتصحيف . وفي بعض النسخ : (لا أدري العزير بِيع أم لا) والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في « المطالب العالية » رقم (٣٤٧١) مختصراً وفي إسناده ضعف .
(٤) المجروحين لابن حبان (١/ ١٣٥ ـ ١٣٧) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٥) .

الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلّة فيها تين وسلّة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه ، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ، ورأى عظاماً بالية فقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فلم يشك أن الله يحييها ، ولكن قالها تعجُّباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، فأماته الله مئة عام . فلما أتت عليه مئة عام وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث ، قال : فبعث الله إلى عزير مَلَكاً فخلق قلبه ليعقل[1] به ، وعينيه لينظر بهمافيعقل كيف يحيي الله الموتى . ثمّ ركّب خلقه وهو ينظر ثمّ كَسَى عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثمّ نفخ فيه الروح ، كلّ ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوى جالساً ، فقال له الملَك : كم لبثتَ ؟ قال : لبثت يوماً ، وذلك أنه كان لبث[2] صدر النهار عند الظهيرة ، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ، ولم يتم لي يوم ، فقال له الملك : بل لبثت مئة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعني الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصر في القصعة فإذا هما على حالهما ، لم يتغير العصير ، والخبز يابس ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير عن شيء من حالهم ، فكأنه أنكر في قلبه ، فقال له الملك : أنكرتَ ما قلتُ لك ؟ انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نَخِرة ، فنادى الملكُ عظامَ الحمار ، فأجابت وأقبلت من كلِّ ناحية حتى ركبه الملك ، وعزير ينظر إليه ، ثمّ ألبسها العروق والعصب ، ثمّ كساها اللحم ، ثمّ أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامةَ قد قامت ، فذلك قوله : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ يعني : وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ، ثمّ انظر كيف نكسوها لحماً ، فلما تبيّن له قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إحياء الموتى وغيره .

قال : فركب حماره حتى أتى محلّته ، فأنكره الناسُ ، وأنكر الناسَ ، وأنكر منزله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مئة وعشرون سنة ، كانت أَمَةً لهم ، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة . فقال لها عزير : يا هذه أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم هذا منزل عزير ، فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنةً يذكر عزيراً وقد نسيه الناس . قال : فإني أنا عزير كان الله أماتني مئة سنة ثم بعثني . قالت : سبحان الله

---

(١) في ط : ليعقل قلبه .

(٢) في ب : نام . في مختصر ابن عساكر : كان نام في صدر النهار .

فإن عزيراً [قد فقدناه منذ مئة سنة فلم نسمع له بذكر ، قال : فإني أنا عزير . قالت : فإن عزيراً][١] رجلٌ مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يردّ عليّ بصري حتى أراك ، فإن كنتَ عزيراً عرفتُك . قال : فدعا ربّه ومسح بيده على عينيها فصحَّتا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نَشِطَتْ من عقال[٢] فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير . وانطلقت إلى محلَّة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مئة سنة وثماني عشرة سنة ، ومن بني بنيه شيوخ في المجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردَّ عليّ بصري وأطلق رجليّ ، وزعم أن الله أماته مئة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير . فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدّثنا غير عزير ، وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظتِ الرجال ، فاكتبها لنا ، وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بخت نصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب ، قال : وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدَّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكَّر التوراة فجدَّدها لبني إسرائيل[٣] . فمن ثم قالت اليهود : عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل . وكان جدَّد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل . والقرية التي مات فيها يقال لها : سايراباذ . قال ابن عباس فكان كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني لبني إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب ، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات .

قال ابن عباس : بعث بعد بخت نصر . وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس : [من الطويل]

وأسودُ رأسٍ شابَ من قبلِه ابنُهُ ... ومن قبلِه ابنُ ابْنِه فَهْو أكْبرُ
يَرَى ابنَهُ شَيْخاً يدبُّ على عَصاً ... ولحيتُه سَوداءُ والرأسُ أشقرُ
وما لابنهِ حَيْلٌ ولا فَضْلُ قوّةٍ ... يقومُ كما يمشي الصبيّ فيعْثرُ[٤]
يَعُدُّ ابنُهُ في الناسِ تِسْعينَ حجةً ... وعشرينَ لا يجري ولا يَتَبَخْتَرُ

(١) سقطت من ب بنقلة عين .
(٢) في لسان العرب ، نشط : يقال للأخذ بسرعة في أي عمل كان ، وللمريض إذا برأ .
(٣) تفسير الطبري : (٣/ ٢٢ ـ ٣٢) .
(٤) في ب : يمشي الصغير .

وعُمـرُ أبيـهِ أرْبَعُـون أمـرَّهـا ولابن ابنه تِسْعون في الناسِ عُبّرْ[١]
فما هُو في المعْقولِ إن كنتَ دارياً وإن كنتَ لا تدْري فبالجَهْل تُعذَرُ[٢]

***

فصْلٌ

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان ، وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حِفظَها فسردَها على بني إسرائيل كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكاً فنزل بمغرفة من نور ، فقذَفها في عزير ، فنسخ التوراةَ حرفاً بحرف حتى فرغ منها[٣] .

وروى ابنُ عساكر[٤] عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبِه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب ، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب ، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير . وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، فيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء ، وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء : بخت نصر ، وجنة صنعاء ، وجنة سبأ ، وأصحاب الأُخدود ، وأمرحاصورا ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، ومدينة إنطاكية ، وأمر تُبّع .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان أمر عزير وبخت نصر في الفترة .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ أَوْلَى الناسِ بابنِ مَرْيَمَ لأَنا ، إنه لَيْسَ بَيني وبَيْنَهُ نبيّ »[٥] .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام .

---

(١) في ط : ولأن ابنه . وهو خطأ .
(٢) الخبر في مختصر ابن عساكر (١٧/ ٣٧ ـ ٤٠) . وفيه اختلاف يسير .
(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٧٨) .
(٤) مختصر ابن عساكر (١٧/ ٤٠) وما بعدها .
(٥) في ب : أنا أولى بابن مريم وإنه . . والحديث تقدم تخريجه ص (٢٠٦) .

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران ، وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعني لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول : مئة مَوتة أهون من ذُلِّ ساعة .

وفي معنى قول عزير : مئة موتة أهون من ذُلِّ ساعة قول بعض الشعراء : [من السريع]

قَد يَصْبر الحرُّ على السّيفِ ويأنَفُ الصَّبرَ على الحيْفِ
ويؤْثِرُ الموتَ على حَالةٍ يَعْجَزُ فيها عن قِرى الضّيفِ

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونَوْف البِكَالي[1] وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء ، فهو منكر ، وفي صحته نظر ، وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجَوني ، عن نوف البكالي قال : قال عزير فيما يناجي ربَّه : يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء ، فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد . فقيل له لتعرض عن هذا أو لأمحوَنَّ اسمك من الأنبياء ، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون . وهذا لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد . فما عاد ، فما محي اسمه . والله أعلم .

وقد روى جماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ فلدغته نملةٌ ، فأمَر بجِهازه فأُخرِجَ من تحتها ، ثمّ أَمَرَ بها فأُحرِقَتْ بالنارِ ، فأوحى الله إليه فهلاّ[2] نملةً واحدةً »[3] .

فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير .

وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير ، فالله أعلم .

***

---

(١) نوف بن فَضَالة البِكالي ، ابن امرأة كعب ، شامي ، وقد كذب ابن عباس ما رواه البكالي عن أهل الكتاب . مات بعد التسعين للهجرة . تقريب التهذيب (٢/ ٣٠٩) .

(٢) في ط : مهلاً . وهو تصحيف . وفي ب : أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم . وهي رواية أخرى للحديث أخرجها البخاري رقم (٣٠١٩) في الجهاد ، باب (١٥٣) ، ومسلم رقم (٢٢٤١) (١٤٨) ، في السلام ، باب النهي عن قتل النمل .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٣١٩) ، في بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم . . ، ومسلم (٢٢٤١) (١٤٩ ، ١٥٠) ، في السلام ، باب النهي عن قتل النمل ، وأبو داود (٥٢٦٥) وابن ماجه (٣٢٢٥) ، في الأدب ، باب في قتل الذر . وأحمد (٢/ ٣١٣ ، ٤٤٩) . والنسائي (٧/ ٢١١) .
وقوله : فهلا نملة واحدة أي : فهلا عاقبت نملة واحدة هي التي قرصتك .

قصّة زكريّا ويحيى عليهما السّلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١ ـ ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٣٧ ـ ٤١] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ـ ٩٠] .

وقال تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٥] .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ، ويقال : زكريا بن دان ، ويقال : زكريا بن لدن[١] بن مسلم بن صدوف بن خُشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهغاشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل . دخل البثنية[٢] من أعمال دمشق في

---

(١) في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٩/ ٤٥) أدن .

(٢) في ط : البثينة ؛ وهو تصحيف . والبثنية : ناحية من نواحي دمشق بينها وبين أذرعات . معجم البلدان .

طلب ابنه يحيى . وقيل : إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى . والله أعلم[١] .

وقد قيل غير ذلك في نسبه ، ويقال فيه : زكريا بالمد وبالقصر . ويقال : زكرى أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله محمداً[٢] ﷺ أن يقصّ على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته عاقراً[٣] في حال شبيبتها ، وقد أسَنَّت أيضاً ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضل الله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ .

قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقيَّ ويسمع الصوت الخفيَّ[٤] .

وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداةً أسرّها عمّن كان حاضراً عنده مخافتة فقال : يا رب ، يا رب ، يا رب ! فقال الله : لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي : ضعف وخار منَ الكبر ، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب ، أي : غلب على سواد الشعر شيبُه ، كما قال ابن دريد في مقصورته[٥] : [من الرجز]

إمّا تَرَيْ رَأسِيَ حاكَى لَوْنُه ... طُرَّةَ صُبحٍ تَحْتَ أذيالِ الدُّجى

واشْتَعَلَ المُبْيَضُّ في مُسْوَدِّهِ ... مِثْلَ اشْتِعالِ النَّارِ في جَمر الغَضى

وآضَ عودُ اللَّهْوِ يَبْساً ذَاوِياً ... مِنْ بَعْدِ ما قدْ كانَ مَجّاجَ الثَّرَى[٦]

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي : ما دعوتني فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنتَ عمران بن ماثان ؛ وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أيامها ولا في أوانها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كان قد طعن في سنه[٧] ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ .

---

(١) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٥) .
(٢) ليست في ط .
(٣) في ب : مع ذلك عاقراً .
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٣٥) .
(٥) الأبيات مطلع مقصورته . شرح المقصورة للتبريزي (١٣ ـ ١٤) .
(٦) في شرح التبريزي : وآض روضُ . .
(٧) في ب : سنه وزمانه .

قيل : المراد بالموالي العصبة[١] ، وكأنه خاف من تصرُّفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون برّاً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ أي في النبوة والحُكم في بني إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ يعني : كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياءَ ، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير هاهنا ، وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه : أحدها ما قدّمناه عند قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تَرَكْنا فَهُو صَدَقَةٌ »[٢] فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصدّيق أن يصرف ما يختص به في حياته ، إلى أحد من ورّاثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصدِّيق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وأبو هريرة ، وآخرون رضي الله عنهم .

الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبياءِ لا نورث » وصححه[٣] .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها[٤] أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجّاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله بتدبُّر وتفهُّم إن شاء الله .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦) ، وهو قول مجاهد ، وقتادة ، والسدي .

(٢) تقدم ص(١٧٦) .

(٣) لم يروه الترمذي بهذا اللفظ . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٢/ ٨) وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ (نحن) لكن أخرجه النسائي بلفظ « إنا معشر الأنبياء لا نورث » . أقول : وهو في الكبرى للنسائي رقم (٦٢٧٥) المؤسسة ، ورواه كذلك أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣) وإسناده صحيح ، ورواه البخاري رقم (٤٠٣٣) ومسلم (١٧٥٨) بلفظ (لا نورث ما تركنا فهو صدقة) .

(٤) في ب : يكترثوا بها .

قال الإمام أحمد[١] : حدثنا يزيد ، يعني ابن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كانَ زَكَرِيّا نجاراً » .

وهكذا رواه مسلم[٢] وابن ماجه[٣] من غير وجه[٤] عن حماد بن سلمة به .

وقوله : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾ وهذا مفسر بقوله : ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . فلما بُشّر بالولد وتحقّق البشارة ، شرع يستعلم على وجه التعجُّب وجود الولد والحالة هذه له ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ؟! قيل : كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه كان أسن من ذلك ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً ولا تلد . والله أعلم . كما قال الخليل ﴿ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] . وقالت سارة : ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] . وهكذا أُجيب زكريا عليه السلام ، قال له الملَك الذي يوحي إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ أي قُدرَته أوجدتْك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يوجِدُ منكَ ولداً وإن كنت شيخاً[٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل : كان في لسانها شيء ، أي بذاءة[٦] ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ ﴾ أي : علامة على وقت تعلّق مني المرأة بهذا الولد المبشّر به ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ يقول : علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت في ذلك سَويّ الخلق ، صحيح المزاج ، معتدل البنية . وأمر بكثرة الذِّكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بشّر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ . والوحي هاهنا هو

---

(١) المسند (٢/٢٩٦) .
(٢) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٩) ، في الفضائل ، باب من فضائل زكريا عليه السلام .
(٣) سنن ابن ماجه رقم (٢١٥٠) ، في التجارات ، باب الصناعات .
(٤) قوله : من غير وجه ليس في ب . فمسلم رواه عن هدّاب بن خالد عن حماد . وابن ماجه عن محمد بن عبد الله الخزاعي والحجاج بن منهال ، والهيثم بن جميل ، عن حماد .
(٥) في ب : شيخاً كبيراً .
(٦) تفسير الطبري (١٧/٦٦) ، والقرطبي (١١/٣٣٦) ، وابن كثير (٣/١٩٣) .

الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قال مجاهد والسُّدِّي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة[١] .

قال مجاهد وعكرمة ووهب والسُّدِّي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبّح ، ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلّهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله تعالى علَّمه الكتابة والحكمة وهو صغير في حال صباه . قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال : ما للّعب خُلِقنا . قال : وذلك قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[٢] .

وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فروى ابن جرير[٣] عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي رَحْمة من عندنا ، رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أي محبّة عليه . ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنّن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه، وهو محبّتهما والشفقة عليهما وبرّه بهما .

وأما الزكاة : فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره .

ثمّ ذكر برّه بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثم قال ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى آخر ، ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمَّها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمّها . وكذلك إذا فارق هذه الدار ، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور[٤] والقصور إلى عَرَصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ، ومن محزون ومثبور ، وما بين مجبور[٥] وكسير ، وفريق في الجنة وفريق في السّعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول : [من الكامل]

وَلَدتكَ أُمّكَ باكياً مُسْتَصْرِخاً ... والناسُ حولَك يَضْحكونَ سُرورا
فاحْرِصْ لنفسِك أن تكونَ إذا بَكَوا ... في يَوْمِ مَوْتِك ضاحِكاً مَسْرُورا

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤١ ـ ٤٢) .
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣) .
(٣) تفسيره (١٦/ ٤٣) .
(٤) في ب : بعد هذه الدار والقصور .
(٥) في ط : جبير .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلّم الله تعالى على يحيى في كلّ موطن منها فقال : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ . وقال سعيد ابن أبي عَروبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خيرٌ مني ، فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني ، فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمتُ على نفسي ، وسلّم الله عليكَ ، فعرف والله فضلها[١] .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فقيل : المراد بالحَصُور الذي لا يأتي النساء . وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله : ﴿ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ . وقد قال الإمام أحمد[٢] : حدّثنا عفّان ، حدّثنا حمّاد ، أخبرنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مِهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحدٍ من ولد آدمَ إلّا وقدْ أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ، لَيْس يَحْيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحدٍ يقول : أنا خَيْرٌ مِنْ يُونُس بن متَّى » .

علي بن زيد بن جُدْعان ، تكلم فيه غير واحدٍ من الأئمة ، وهو منكر الحديث[٣] .

وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العبّادَاني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً ، ثمّ قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني ابن لَهِيْعة ، عن عُقَيْل ، عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته . وقال قائل[٤] : إبراهيم خليل الله[٥] ، فقال : أين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب . قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا[٦] .

وقد رواه محمد بن إسحاق ، وهو مدلّس ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، حدّثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنْبٌ ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا »[٧] .

---

(١) في ط : فضلهما .
(٢) المسند (١/ ٢٥٤ و٢٩٢) .
(٣) قال الحافظ الذهبي في « ميزان الاعتدال » (٣/ ١٢٨) قلت : أراه منكراً .
(٤) كذا في ب وط . وفي أ : . . . روح الله وقائل يقول . .
(٥) زاد في ب : وهم يذكرون ذلك . . .
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٢). وابن لهيعة تكلّم فيه الحفاظ . لكن رواية العبادلة عنه قوية، وعبد الله بن وهب أحدهم (تنظر التفاصيل في «تحرير التقريب» ٢/ ٢٥٨)، على أن هذا الحديث من مراسيل الزهري، فهو ضعيف.
(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٣) ، أطول من هذا من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم !

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلّسين[١] ، وقد عنعن هاهنا .

ثمّ قد رواه عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

ثمّ رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري . ثم[٢] رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجُوزجَاني خطيب دمشق[٣] ، حدّثنا محمد بن الأصبهاني ، وحدّثنا أبو خالد الأحمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا . ثمّ تلا قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ثمّ رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثمّ ذبح ذبحاً .

وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً أصح من رفعه . والله أعلم .

وأورده ابن عساكر من طرق[٤] : من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ، وهو ضعيف[٥] ، عن عثمان بن ساج[٦] عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه .

وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره ، عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعْم[٧] ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسَنُ والحُسَيْن سَيِّدا شباب أَهْلِ الجَنةِ إلّا ابني الخالة يَحيَى وعِيْسى عليهما السلام »[٨] .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدّثنا إسحاق بن أحمد ، حدّثنا إبراهيم بن يوسف ، حدّثنا أحمد ابن أبي الحَواري ، سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا ابن خالة ، لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أن تغفر لك أبداً ، قال : وما هي يا ابن خالة . قال : امرأة صدمتها . قال : والله ما شعرت بها . قال : سبحان الله بدنك معي فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبي اطمئنَّ إلى جبريل لظننتُ أني ما عرفت الله طرفة عين .

---

(١) وقال الذهبي في السير (٧/ ٣٩) : وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأشياء ، منها : يدلس في حديثه .

(٢) زاد في ب وط : قد . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٤٤) .

(٣) توفي سنة (٢٥٩هـ) . وسيترجم له المؤلف فيما بعد .

(٤) زاد في ط : عن معمر .

(٥) المجروحين والضعفاء لابن حبان (١/ ١٣٥) .

(٦) في ط : سباح . وهو خطأ . وعثمان بن عمرو بن ساج ، مولى بني أمية . قال ابن حجر : فيه ضعف . تقريب التهذيب (٢/ ١٣) .

(٧) في جميع النسخ : ابن أبي نعيم ، وهو خطأ ، والتصحيح من كتب الرجال .

(٨) وأخرجه الترمذي (٣٧٦٨) في المناقب ، باب مناقب الحسن والحسين مختصراً على « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحديث حسن بتمامه .

فيه غرابة ، وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل ، عن أبي حصين ، عن خيثمة قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه ، أين ما جنَّهما الليلُ أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصني ، قال : لا تغضب . قال : لا أستطيع إلا أن أغضب . قال : لا تقتَنِ مالاً . قال : أمّا هذه فعسى .

وقد اختلفت الروايات عن وهب بن منبه[١] : هل مات زكريا عليه السلام موتاً ، أو قتل قتلاً على روايتين : فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرةً ، فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ ، فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينُك لأقلبنَّ الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين .

وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعدُ إن شاء الله .

وروى إسحاق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتاً . فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدّثنا عفّان ، حدّثنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يُعدُّ من البُدَلَاءِ[٣] ، حدّثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جدّه ممطور ، عن الحارث الأشعري ، أن نبي الله ﷺ قال : « إنّ الله أمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيا بخمسِ كلماتٍ أنْ يَعْمَلَ بِهنَّ وأنْ يأمُرَ بَني إسْرائيلَ أنْ يَعْملوا بهنَّ وكادَ أنْ يُبْطِىءَ ، فقالَ له عِيسى عليه السلام : إنّكَ قَدْ أُمِرتَ بخمسِ كلماتٍ أنْ تَعملَ بهنَّ وتأمُرَ بَني إسْرائيلَ أنْ يَعْملُوا بهنَّ ، فإمّا أنْ تُبلّغهنَّ ، وإمّا أنْ أُبلّغَهنَّ . فقالَ : يا أخي إني أخشى إنْ سَبقْتَني أنْ أُعذَّبَ أو يُخْسَفَ بي . قالَ : فجمعَ يَحْيَى بني إسرائيلَ في بيتِ المقدسِ حتّى امتلأ المسجدُ ، فَقعدَ على الشرفِ ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثمَّ قال : إنَّ الله عزَّ وجل أمرني بخمسِ كلماتٍ أنْ أعْملَ بهنَّ وآمُرَكُم أنْ تَعملُوا بهنَّ . وأوّلُهنّ أن تعبدوا اللهَ لا تُشرِكُوا بهِ شيئاً ، فإنَّ مَثَلَ ذلكِ مَثَلُ مَنِ اشْتَرى عَبداً مِنْ خالصِ مالِه بورِقٍ أو ذَهَبٍ ، فجعلَ يعملُ ويؤدي غلّته إلى غير سيّده ، فأيكم يَسُرُّهُ أن يكونَ عبدُهُ كذلك ؟ وأنَّ الله خَلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وآمُرُكم بالصلاةِ فإنّ الله ينصبُ وجهَهُ قِبَلَ عَبْدِه ما لم يلتفتْ ، فإذا صَلّيتم فلا تلتفتوا. وآمُرُكم بالصيامِ فإنّ مَثَلَ ذلك كمثلِ رَجُلٍ معه صرةٌ من مِسْكٍ في عصابة كلُّهم يَجدُ ريحَ المسك[٤] .

وآمُركم بالصدقة ، فإنَّ مَثل ذلك كمثل رجل أَسَرَهُ العدوُّ فشدُّوا يده إلى عنقه ، وقدَّموه ليضربوا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٥٠) .

(٢) مسند أحمد (٤/ ١٣٠ ، ٢٠٢) .

(٣) البدلاء : قوم من الصالحين كلما مات منهم أحد ، أبدل الله مكانه آخر .

(٤) زاد في ب وط : «وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». وهذه الزيادة غير موجودة في مسند أحمد.

عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتديَ نفسي منكم ، فجعل يفتدي نفسَه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه . وآمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سِراعاً في إثره ، فأتى حِصناً حصيناً فتحصّن فيه ، وإن العبدَ أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل » .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمرُكم بخمسٍ اللهُ أَمَرني بهنَّ : بالجماعةِ ، والسَّمعِ ، والطاعةِ ، والهجرةِ ، والجهادفي سبيل الله . فإن مَنْ خَرجَ عن الجماعةِ قِيْد شِبرٍ فقد خَلَع ربقة الإسلام من عُنقِه إلا أنْ يرجعَ ، ومن دَعَا بدعْوَى الجاهلية فهو من جُثَى جَهَنّم[1] » . قالوا : يا رسول الله وإن صام وصلّى ؟ قال : « وإنْ صامَ وصلّى وزَعَم أنه مُسلم . ادْعوا المسلمينَ بأسمائهم بما سَمَّاهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ المؤمنينَ عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد ، عن أبان بن يزيد ، عن يحيى بن أبي كثير ، به[2] .

وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي[3] وموسى بن إسماعيل[4] ، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار ، به .

ورواه النَّسائي[5] عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلاَّم ، عن أخيه زيد بن سلاَّم ، عن أبي سلاَّم ، عن الحارث الأشعري ، به .

ورواه الحاكم[6] من طريق مروان بن محمد الطَّاطَرِي ، عن معاوية بن سلاَّم ، عن أخيه ، به . ثم قال : تفرّد به مروان الطّاطَري عن معاوية بن سلاَّم .

قلت : وليس كما قال . ورواه الطَّبَراني[7] عن محمد بن عبدة ، عن أبي تَوْبة الربيع بن نافع[8] عن

---

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٩/ ٥٤٧) : جُثى : جمع جُثوة ، بالضم ، وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم ، هذا فيمن رواها مخففة . ومن رواها (جثيّ) مشددة ، فإنه أراد الذين يجثون على الركب ، واحدها (جاث) من قوله تعالى : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٦٨] قال الهروي : وهذا أحب إلى أبي عبيد .

(٢) مسند أبي يعلى (٣/ ١٤٠ _ ١٤٢) ، رقم (١٥٧١) .

(٣) رقم (٢٨٦٤) ، في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، وهو في مسند الطيالسي (١١٦١) .

(٤) رقم (٢٨٦٣) ، وصحح الترمذي الوجهين .

(٥) في ط : « ابن ماجة » وهو غلط محض، فابن ماجة لم يخرج هذا الحديث، والصواب ما أثبتنا، وهو الذي في تحفة الأشراف للمزي (٣٢٧٤). وقد أخرجه النسائي في موضعين من سننه الكبرى، أولهما في السير (٨٨٦٦)، وثانيهما في التفسير (١١٣٤٩)، وهو في كتاب التفسير المطبوع مفرداً برقم (٣٦٩) بالإسناد المذكور .

(٦) الحديث بطرق وروايات في المستدرك (١/ ١١٧ _ ١١٨ ، ٢٣٦ ، ٤٢١) ، ولم يرد في سنده ذكر لمروان الطاطري ، ولا الكلام المنسوب له عن التفرد ، ولعل الراوي غير الحاكم ، وهو الأرجح .

(٧) في المعجم الكبير (٣٤٣٠) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٥/ ٢١٧ _ ٢١٨) .

(٨) في ط : (نوبة) يافع . وهو تصحيف . والربيع بن نافع ، أبو توبة الحلبي ، نزيل طرسوس ، ثقة ، حجة . توفي سنة (٢٤١هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٢٤٦) .

معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري ، فذكر نحوه ، فسقط ذكر زيد بن سلاَّم عن أبي سلاَّم عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية[١] .

ثمّ روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قال : ذُكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلماتٍ ، وذكر نحو ما تقدّم .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثيرَ الانفراد من الناس ، إنما كان يأنسُ إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان . ويقول : من أنعم منك يا يحيى ! .

وروى ابن عساكر[٢] أن أبويه خرجا في تطلُّبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدّثنا أبو صالح ، حدّثنا الليث ، حدّثني عُقيل ، عن ابن شهاب قال : جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص ، فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع الوحش كراهةَ أن يُخالط الناس في معايشهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فَقَدَ زكريا ابنَه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبرٍ قد احتفرته ، قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت ألستَ أنتَ أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة[٣] لا تقطع إلا بدموع البكّائين ؟ فقال له : ابكِ يا بني ، فبكيا جميعاً .

وهكذا حكاه وهب بن منبه ، ومجاهد بنحوه .

وروى [ابن عساكر] عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي

---

(١) هكذا في ط والأصول التي بين أيدينا، والعبارة مرتبكة وغير صحيحة في الوقت نفسه، ذلك أن الطبراني قد روى هذا الحديث عن محمد بن عبدة، عن أبي توبة، عن معاوية، عن زيد بن سلام عن أبي سلام، به فلم يسقط منه « زيد بن سلام » كما في النص ، هكذا هو عنده في معجمه الكبير (٣٤٣٠)، وفي مسند الشاميين (٢٨٧٠) ، وكذلك نقله الإمام المزي عنه في تهذيب الكمال (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨) فلم يعد أدنى شك أن «زيد بن سلام» مذكور في إسناده. أما الارتباك ففي قوله: « فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري » ، مع أنه ذكر قبل «عن أبي سلام عن الحارث الأشعري » ! ونحن أخوف ما نكون أن تكون هذه العبارة مقحمة على النص (بشار عواد) .

(٢) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٩) .

(٣) كذا في ب وط . وفي أ : مقام .

للصدّيقين أن لا يناموا[١] لما في قلوبهم من نعيم المحبّة لله عز وجل . ثمّ قال : كم بين النعيمين وكم بينهما[٢] ؟ .

وذكروا أنّه كان كثير البكاء حتى أثّر البكاء في خدّيه من كثرة دموعه[٣] .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام[٤]

وذكروا في قتله أسباباً ، من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوّج ببعض محارمه أو من لا يحلّ له تزويجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى ، فوهبه لها ، فبعث إليه من قتله وجاء[٥] برأسه ودمه في طست إلى عندها . فيقال : إنها هَلَكت من فورها وساعتها[٦] .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ، ثمّ أجابها إلى ذلك فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدا »[٧] حيث قال : أخبرنا يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء ، فسلَّم عليه وقال له : يا أبا يحيى خبّرني عن قتلك كيف كانَ ، ولمَ قتلك[٨] بنو إسرائيل . قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ، وكان لا يحتاج إلى النساء ، فهويته امرأة ملك بني إسرائيل ، وكانت بَغيّةً ، فأرسلت إليه وعَصَمَهُ الله وامتنع يحيى وأبى عليها ، وأجمعت على قتل يحيى . ولهم عيد يجتمعون في كل عام ، وكانت سُنَّة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال : فخرج الملك إلى العيد ، فقامت امرأته فشيَّعته ، وكان بها معجباً ، ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سليني فما سألِتني شيئاً إلا أعطيتُك . قالت : أريدُ دمَ يحيى بن زكريا ، قال لها : سليني غيره . قالت : هو ذاك . قال : هو

---

(١) في بعض النسخ لا ينامون .
(٢) كتب على حاشية الأصل : لعله : بيننا .
(٣) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٩) .
(٤) ليس هذا العنوان في بعض النسخ .
(٥) في ب : وجاؤوا .
(٦) الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٥٨٧) .
(٧) ذكر هذا الكتاب صاحب كشف الظنون (١٥٧٩) ، والخبر نقله ابن عساكر . مختصر ابن منظور (٩/ ٥٠ ـ ٥١) .
(٨) كذا في الأصول . وفي حاشية ب : لعله : قتل ولدك . . ولم قتله . وواضح أن قصة قتل زكريا عليه السلام بدأت مع بداية قصة قتل يحيى . فالعبارة في المتن صحيحة .

لك . قال : فبعثت جَلاوِزَتَها إلى يحيى ، وهو في محرابه يصلّي ، وأنا إلى جانبه أصلي ، قال : فذُبح في طستٍ وحُمل رأسه ودمُه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فما بلغ من صَبْرِكَ ؟ قال : ما انفتلت من صلاتي » . قال : فلما حُمل رأسه إليها فوضع بين يديها ، فلما أمسوا خَسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إلّه زكريا لزكريا ، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا ، قال : فخرجوا في طلبي ليقتلوني ، وجاءني النذير ، فهربت منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ ، فلما أن تخوّفت أن لا أُعْجِزَهم عرضَتْ لي شجرةٌ ، فنادتني وقالت : إليَّ إليَّ ، وانصدعت لي ، ودخلت فيها . قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي ، والتأمتِ الشجرةُ ، وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل ، فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ؟ هذا طرف ردائه ، دخلها بسحره ، فقالوا : نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس : شُقّوهُ بالمنشار شقاً . قال : فَشُقِقْتُ مع الشجرة بالمنشار . قال له النبي ﷺ : « هل وَجَدْتَ لَهُ مسّاً أو وجعاً » قال : لا ، إنما وجدَتْ ذلكَ الشجرةُ التي جعل الله روحي فيها[1] .

هذا سياق غريب جداً ، وحديث عَجيبٌ ، ورفْعُهُ منكرٌ ، وفيه ما ينكر على كلّ حال ، ولم يُرَ في شيء من أحاديث الإسراء ذِكْرُ زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث ، وإنّما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء[2] : « فمررت بابني الخالة يَحْيَى وعِيسى » ، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ، فإن أم يحيى أَشْياعَ بنتَ عمران أختُ مريم بنت عمران . وقيل : بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حَنَّةَ امرأة عمران أم مريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم . فالله أعلم .

ثمّ اختُلف في مقتل يحيى بن زكريا : هل كان بالمسجد الأقصى ، أم بغيره على قولين ، فقال الثوري عن الأعمش ، عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعونَ نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم : حدّثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قدم بخت نصّر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه ، فأخبروه . فقتلَ على دمه سبعين ألفاً ، فسَكَنَ[3] .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهو يقتضي أنه قُتل بدمشق وأنَّ قصة بخت نصّر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري . فالله أعلم .

---

(١) في مختصر ابن منظور (١/ ٥١) : وعن وهب أن الذي انصدعت له الشجرة ودخل فيها كان أشعياء قبل عيسى وأن زكريا مات موتاً .

(٢) حديث الإسراء بطوله ورواياته في جامع الأصول (١١/ ٣٠٥) ، وتخريجه ثمة .

(٣) تفصيل الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٥٩١) .

وروى الحافظُ ابن عساكر[١] من طريق الوليد بن مسلم ، عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناءَ مسجد دمشق أُخرِج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرةُ والشعر على حاله لم يتغير . وفي رواية : كأنما قُتِل الساعةَ .

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة . فالله أعلم[٢] .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة ـ يعني دمشق ـ هداد بن هداد ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا ، قلت : وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك[٣] بدمشق ، وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثمّ إنه أراد مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا ، فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك ، فحقدت عليه ، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك بإشارة أُمها ، فأبى عليها ، ثمّ أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه وهو قائم يصلّي بمسجد جيرون مَنْ أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول له : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثّلت بين يدي أمها خُسف بها إلى قدميها[٤] ، ثم إلى حقويها . وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثمّ خُسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ، ففعل . فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا في الذلّ والفناء . ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصَّر ، فقتل عليه خمسةً وسبعين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دية كلّ نبي . ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله . فسكن[٥] ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس ، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يُحصون كثرة ، وسبا منهم ثمّ رجع عنهم .

***

(١) مختصر ابن منظور (١/ ٢٥٧) .
(٢) ليس في ب . وأورده ابن منظور في مختصره (١/ ٢٥٧) .
(٣) في ب : اللؤلؤ .
(٤) زاد في ب : ثم إلى ركبتيها .
(٥) في تاريخ الطبري (١/ ٥٨٧) خبر مشابه لما هنا .

قصّة عِيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وابن أمته عليه من الله[1] أفضل الصلاة والسّلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الردّ على النصارى ، عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولداً ، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . وكان قد قَدِمَ وفد نجران[2] منهم على رسول الله ﷺ ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ، ويدّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة ؛ وهم الذات المقدسة ، وعيسى ومريم ، على اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بيّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوَّره في الرحم كما صوّر غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أبٍ كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، وقال له : كن ، فكان ، سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمّه مريم ، وكيف كان من أمرها ، وكيف حملت بولدها عيسى ، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلّم على ذلك كلّه بعون الله وحسن توفيقه وهدايته . فقال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٣٣-٣٧] .

يذكر سبحانه وتعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّص من ذريته المتَّبِعين شرعَه الملازمين طاعته ، ثمّ خصص فقال : ﴿ وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثمّ ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . وقال محمد بن إسحاق[3] وهو عمران بن باشم بن أمون ابن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن بهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داود .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن اخنر بن صادوق بن عيازور بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتال بن [يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن

---

(١) في ط : قصة عيسى بن مريم عليه من الله . . .

(٢) سيفصل ابن كثير الحديث عن وفد نجران في الجزء الخامس ، باب الوفود .

(٣) نقل الطبري نسب عمران في تاريخه (١/ ٥٨٦) ، عن ابن إسحاق وفيه بعض خلاف من حيث اللفظ فقط . وكذلك هو في تفسيره (٣/ ١٥٧) .

حزقا [[1] بن احاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط ابن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام[2] . وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق ، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحبَ صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها وهي حَنَّة بنت فاقود بن قبيل من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور . وقيل : زوج خالتها أشياع فالله أعلم[3] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره[4] أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يوماً طائراً يزقُّ فَرخاً له ، فاشتهت الولد ، فَنَذرت لله إن حملت لتجعلَنَّ ولدها مُحَرَّراً ، أي : حبيساً في خدمة بيت المقدس . قالوا : فحاضت من فورها ، فلما طَهُرت واقَعَها بعلُها ، فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ وقُرِىء بضم التاء[5] ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي في خدمة بيت المقدس . وكانوا في ذلك الزمـان ينذرون لبيت المقدس خدّاما من أولادهم . وقولها : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استُدل به على تسمية المولود يوم يولد . وكما ثبت في الصحيحين[6] عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنَّكَ أخاهُ وسمَّاه عبد الله .

وجاء في حديث الحسن عن سَمُرة مرفوعاً « كُلُّ غُلامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ ويُسَمَّى ويُحْلَقُ رَأْسُه » . رواه أحمد[7] ، وأهل السنن[8] ، وصحّحه الترمذي . وجاء في بعض

---

(١) ليست في ب .
(٢) تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء (٣٤٣) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٨٥) .
(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٥٧) .
(٥) أي : وضعتُ ، وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر ، وقرأ الباقون : وضعتْ بالسكون حجة القراءات (١٦٠ ـ ١٦١) . وقد صوب الطبري القراءة الثانية ، بسكون التاء ، تفسيره (٣/ ١٥٩) .
(٦) في البخاري : رقم (٥٥٤٢) ، في الذبائح والصيد ، باب الوسم والعلم في الصورة . ومسلم (٢١١٩) (١١٠) ، في اللباس والزينة ، باب جواز وسم الحيوان غير الآدمي في غير الوجه .
كذلك أخرجه أبو داود (٢٥٦٣) ، في الجهاد ، باب في وسم الدواب .
وللحديث روايات تشير إلى أن أنساً رضي الله عنه ذهب بولد لأم سليم ، وبعبد الله بن أبي طلحة والأحاديث مخرجة في جامع الأصول (١/ ٣٦٦ـ ٣٦٩ ، و١١/ ٧٥٧) .
(٧) المسند (٥/ ٧ـ ٨ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٢) . وفيه اختلاف يسير في بعض ألفاظه . والعقيقة : الشعر الذي يولد عليه كل مولود ، ومنه سميت الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه : عقيقة .
(٨) أخرجه أبـو داود (٢٨٣٧) ، (٢٨٣٨) ، في الأضاحي ، باب في العقيقة ، والترمذي (١٥٢٢) و(١٥٢٢م) وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٥) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) في العقيقة ، وهو في سننه الكبرى (٤٥٤٦) و(٤٥٤٧) . في الأضاحي .

ألفاظه (ويُدَمَّى) بدلَ (ويسمَّى) . صححه بعضهم[١] . والله أعلم .

وقولها : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ قد استُجيب لها في هذا ، كما تقُبِّل منها نذرها . فقال الإمام أحمد[٢] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما مِنْ مَوْلُوْدٍ إلَّا والشيطانُ يَمَسُّهُ حِيْنَ يُوْلَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إيّاهُ إلَّا مَرْيَمَ وابْنَها » . ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شئتم ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أخرجاه من حديث عبد الرزاق[٣] . ورواه ابن جرير[٤] عن أحمد بن الفرج [عن بقية][٥] ، عن الزبيدي[٦] ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد[٧] أيضاً: حدّثنا إسماعيل بن عمر، حدّثنا ابن أبي ذئب، عن عجلان مولى المُشْمَعِل ، عن

---

(١) هكذا قال، ولم يصححه فيما أعلم كبير أحد سوى ابن حزم، فهذا خطأ أخطأ فيه هَمّام بن يحيى العوذي في روايته عن قتادة، وهذه الرواية في مسند أحمد (٥/ ٧ و١٧ و٢٢)، والدارمي (١٩٧٥) وأبي داود (٢٨٣٧) من رواية عفان بن مسلم وبهز بن أسد العمي وحفص بن عمر الغمري، وهم ثقات، ثلاثتهم عن هَمّام بهذه اللفظة «ويُدَمَّى» بدلًا من «ويُسَمَّى». وقد خالفه ثلاثة من الثقات من أصحاب قتادة وهم: أبان بن يزيد العطار، وسعيد بن أبي عروبة، وشعبة بن الحجاج، فرووه «يُسَمَّى» على الصواب، فأما رواية أبان فهي عند أحمد (٥/ ١٧)، وأما رواية شعبة فهي عند أحمد أيضاً، وأما رواية سعيد، وهو من أثبت الناس في قتادة ـ كما قرره الأئمة: ابن معين، والطيالسي، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان وغيرهم ـ فهي عند أحمد (٥/ ١٢) وأبي داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢م) وابن ماجه (٣١٦٥) والنسائي (٧/ ١٦٦).
وأيضاً فقد رواه آخرون عن الحسن مثل رواية الجماعة، منهم إسماعيل بن مسلم المكي ـ وهو ضعيف ـ عند الترمذي (١٥٢٢)، وإياس بن دغفل وأشعث بن عبد الملك الحمراني، وهما ثقتان. وقال أبو داود عقيب رواية همام: «خولف هَمّام في هذا الكلام، وهو وهم من همّام، وإنما قالوا: «يُسَمَّى» فقال همام: «يُدَمَّى». قال أبو داود: وليس يؤخذ بهذا». ثم قال عقيب حديث سعيد عن قتادة: «ويُسَمَّى أصح، كذا قال سلام بن أبي مطيع عن قتادة، وإياس بن دغفل وأشعث عن الحسن». وقال ابن عبد البر: «لا يُحْتَمَل هَمّام في هذا الذي انفرد به فإن كان حفظه، فهو منسوخ». (نقله الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح حديث العقيقة ٥٤٧٢).
قلت: وإنما كان يفعل ذلك في الجاهلية فنسخ هذا، وتدل عليه مجموعة أحاديث منها عند ابن حبان (٥٣٠٨)، وابن ماجه (٣١٦٦)، وأبي داود (٢٨٤٣)، والحاكم (٢٣٨) وغيرها. وإنما أطلنا في هذا ونبهنا عليه لئلا يغتر به بعض الناس فيعمل به أو بما يستفاد منه (بشار).
(٢) المسند (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) .
(٣) والبخاري (٤٥٤٨) في التفسير ، ومسلم (٢٣٦٦) في الأنبياء .
(٤) تفسيره (٣/ ١٦١) .
(٥) زيادة من ب وط . وهي في تفسير الطبري كذلك .
(٦) في ط : « عن عبد الله بن الزبيدي » وهو غلط بيّن ، فلا يعرف في الرواة عن الزهري مثل هذا ، وإنما هو محمد بن الوليد الزبيدي ، وروايته عن الزهري في الصحيحين (تهذيب الكمال ٢٦/ ٤٣٠) ، وفي تفسير الطبري كما أثبتناه .
(٧) المسند (٢/ ٢٨٨) .

أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « كُلُّ مولودٍ من بني آدم يَمَسُّه الشَّيْطانُ بإصْبَعِه إلَّا مَرْيَمَ بنتَ عِمْرانَ وابْنَها عِيْسى ».

تفرّد به من هذا الوجه .

ورواه مسلم[١] عن أبي الطاهر ، عن ابن وَهْب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وقال أحمد[٢] : حدّثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كُلُّ إنْسانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكزُهُ[٣] الشَّيْطَانُ في حِضْنَيْهِ[٤] إلَّا ما كانَ مِنْ مَرْيَمَ وابْنِها . أَلَمْ تَرَ إلى الصَّبيِّ حِيْنَ يَسْقُطُ كَيْفَ يَصْرُخُ ؟ قالُوا : بَلَى يا رسُولَ اللهِ . قالَ : ذلكَ حِيْنَ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ بِحِضْنَيه » .

وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه .

ورواه قيس ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مَوْلُودٍ إلَّا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطَانُ عَصْرَةً أو عَصْرَتَيْنِ إلّا عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ ومَرْيَمَ »[٥] .

ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بأصل الحديث[٦] .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدّثنا عبد الملك[٨] ، حدّثنا المغيرة هو ابن [عبد الرحمن] بن عبد الله الحِزَامي[٩] ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ بني آدمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ في جَنْبِهِ حِيْنَ يُوْلَدُ ، إلا عِيْسى بنَ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ في الحِجَابِ » .

وهذا على شرط الصحيحين ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ :

ذكر كثيرٌ من المفسرين أن أُمها حين وضعتها لفّتها في خروقها ثمّ خرجت بها إلى المسجد ،

---

(١) رقم (٢٣٦٦) (١٤٧) ، في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .
(٢) (٢/ ٣٦٨) .
(٣) اللكزُ : الدفع في الصدر بالكف .
(٤) الحِضن : الجنب . وهما حِضْنان .
(٥) أورده الطبري في تفسيره (٣/ ١٦١) .
(٦) المصدر السابق (٣/ ١٦٠) .
(٧) (٢/ ٥٢٣) .
(٨) في ب : أحمد بن عبد الرحمن . وهو سهو . وعبد الملك هو ابن عمرو كما في مسند أحمد .
(٩) المغيرة بن عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن حِزام ، الحِزامي . قال ابن حجر في التقريب (٢/ ٢٧٠) : ثقة ، له غرائب ، من السابعة ، قال أبو داود : كان قد نزل عسقلان .

فسلَّمتها إلى العُبّاد الذي هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها .

والظاهر أنّها إنّما سلَّمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها . ثمّ لمّا دفعتها إليهم تنازعوا في أيّهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان قد أراد أن يستبدّ بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين ، فشاحُوه في ذلك ، وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم ، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القُرعة . كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قالوا[١] : وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به ، ثمّ حملوها ووضعوها في موضع ، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث ، فأخرج واحداً منها ، وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقترعوا مرّة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأيّهم جَرى قلمُه على خلاف جرية الماء[٢] فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جَرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيُّهم جرى قلمه مع الماء ، ويكون بقية الأقلام قد انعكس[٣] سيرها صُعُداً فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان زكريا هو الغالب لهم ، فكفلها إذ كان أحقَّ بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتُها ، وتقوم بالعبادة ليلَها ونهارَها ، حتى صارت يُضرب المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجدُ عندها رزقاً غريباً في غير أوانه ، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف[٤] فيسألها أنَّى لك هذا ؟ فتقول : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي رزق رَزَقَنِيْه الله ، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولدٍ من صُلبه وإن كان قد أسَنَّ وكبر ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . قال بعضهم : قال : يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه[٥] هب لي ولداً ، وإن كان في غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ما قدّمنا ذِكره في قصته .

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٦٢) .
(٢) كذا في ب . وهو الأشبه كما سيأتي في سياق الكلام . وفي أ وط : في الماء .
(٣) في ب : انغطس . وكُتب في الحاشية : لعله : انعكس .
(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٦٥) .
(٥) في ب : إبّانه .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٤٢ ـ ٥١] .

يذكر سبحانه وتعالى أن الملائكة بشّرت مريمَ باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها بأنِ اختارها لإيجاد ولدٍ منها من غير أبٍ ، وبُشّرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أي : في صِغره يدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدلّ على أنه يبلغ الكهولةَ ويدعو إلى الله فيها . وأُمِرَتْ بكثرة العبادة والقُنوتِ والسجودِ والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ، ولتقوم بشُكْر هذه النعمة . فيقال : إنها كانت تَقُومُ في الصلاة حتى تفطّرت قدماها ، رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها . فقول الملائكة : ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي اختارك واجْتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة ، ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، يحتمل أنه يكون المراد عالمي زمانها ، كقوله لموسى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] وكقوله عن بني إسرائيل : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] . ومعلومٌ أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عدداً ، وأفضل علماً ، وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ محفوظ العموم ، فتكون أفضل نساء الدنيا[1] ممن كان قبلها ووجد بعدها ، لأنها إن كانت نبيةً ، على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى ـ كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ـ فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصةٌ بالرجال ، وليس في النساء نبيّة ، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ

---

(١) في ب : أفضل من سائر أهل الدنيا .

﴿ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] . فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصِّدِّيقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم .

وقد جاء ذِكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد[١] ، والبخاري[٢] ومسلم[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] من طرق عديدة عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِسائها مَرْيَمُ بنْتُ عِمْرَانَ ، وخيرُ نِسائِها خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلد » .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ مِنْ نِساءِ العالَمِيْنَ بأرْبَعٍ : مَرْيَم بِنْت عِمْران ، وآسِية امْرأة فِرعَوْن ، وخَدِيْجَة بِنْت خُوَيْلِد وفاطِمَةُ بنت مُحَمّد » .

ورواه الترمذي[٧] عن أبي بكر بن زَنجَويه[٨] ، عن عبد الرزاق ، به ، وصححه .

ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، وابنُ عساكر من طريق تميم بن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِساءِ العالَمينَ أرْبَعٌ : مريمُ بنتُ عِمران ، وآسِيةُ امْرأَةُ فِرْعَون ، وخَدِيجةُ بنتُ خُوَيْلِد ، وفاطمةُ بنت محمد[٩] رسول الله » .

وقال الإمام أحمد[١٠] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبِلَ ، صالحُ نِساءِ قُرَيْشٍ ، أَحْناهُ عَلَى وَلَدٍ في صِغَرِهِ وأرْعَاهُ لِزَوجٍ في ذاتِ يدِهِ » . قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط .

وقد رواه مسلم في « صحيحه »[١١] عن محمد بن رافع وعبد بن حُمَيد كلاهما عن عبد الرزاق به .

---

(١) المسند (١/ ٨٤ ، ١٣٢ ، ١٤٣) .
(٢) صحيح البخاري (٣٤٣٢) في أحاديث الأنبياء، و رقم (٣٨١٥)، في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها.
(٣) صحيح مسلم رقم (٢٤٣٠) في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين .
(٤) سنن الترمذي رقم (٣٨٧٧)، في المناقب ، باب فضل خديجة رضي الله عنها ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٥) في المناقب من سننه الكبرى (٨٣٥٤) .
(٦) مسند أحمد (٣/ ١٣٥) . وفي لفظه تقديم وتأخير .
(٧) جامع الترمذي رقم (٣٨٧٨) ، في المناقب ، باب فضل خديجة رضي الله عنها .
(٨) في ط : زانجويه ، وهو خطأ .
(٩) زاد في ط : محمد . والحديث في تاريخ دمشق ، تراجم النساء (٣٧٨) .
(١٠) مسند أحمد (٢/ ٢٧٥) .
(١١) صحيح مسلم رقم (٢٥٢٧) (٢٠١) ، في فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش .

وقال أحمد[١] : حدّثنا زيد بن الحباب ، حدّثني موسى بن عُلَيّ ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِساءِ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِساءُ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ في صِغَرِهِ وَأَرْأَفَهُ بِزَوْجٍ عَلَى قِلَّةٍ ذاتِ يَدِهِ » . قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل .

تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة[٢] .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدّثنا زهير ، حدّثنا يونس بن محمد ، حدّثنا داود بن أبي الفرات ، عن عِلباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خَطَّ رَسُول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال : « أَتَدْرُوْنَ ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ نِساءِ أَهْلِ الجنةِ خَديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ، ومَريَمُ بنتُ عِمران ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم امرأةُ فرعونَ »[٣] .

ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي الفرات[٤] .

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدّثنا يحيى بن حاتم العسكري ، حدّثنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدّثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ مِنْهُنَّ أَرْبَعُ سَيِّداتِ نساء العالمين : فاطمةُ بنتُ محمد ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم ، ومريمُ بنتُ عمران »[٥] .

وقال أبو القاسم البغوي : حدّثنا وهب بن منبه ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيتِ حين أَكْبَبْتِ على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكتِ ؟ قالتْ : أخْبرني أنه مَيِّتٌ من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكْبَبتُ عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به ، وأني سيدةُ نساء أهل الجنة إلا مريمَ بنتَ عمران فضحكتُ[٦] .

وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات[٧] .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٨] ، حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد هو ابن

---

(١) في مسنده (٢/ ٥٣٦) .

(٢) في مسند أحمد (٢/ ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٩ ، ٣٩٣ ، ٤٤٩ ، ٤٦٩ ، ٥٠٢) .

(٣) مسند أبي يعلى (٥/ ١١٠ ، رقم ٢٧٢٢) . وهو في تراجم النساء ، تاريخ دمشق (٣٧٥) .

(٤) في ط وأ وب: «داود بن أبي هند» وهو خطأ، وقد تقدم قبل قليل في إسناد أبي يعلى على الصواب. وقد أخرجه النسائي في الفضائل من سننه الكبرى من طريق يونس بن محمد (٨٣٥٥) وأبي النعمان (٨٣٥٧) وحجاج بن منهال (٨٣٦٤)؛ ثلاثتهم عن داود بن أبي الفرات.

(٥) تاريخ دمشق ، تراجم النساء (٣٧٨) .

(٦) وأورده الطبري في تفسيره (٣/ ١٨٠ ـ ١٨١) ، مفصلاً .

(٧) انظر الروايات وتخريجها في جامع الأصول (٩/ ١٢٨) ، وما بعدها .

(٨) المسند (٣/ ٨٠) .

أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمةُ سَيّدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّةِ ، إلّا ما كانَ مِنْ مَرْيَمَ بنتِ عِمران » . إسناد حسن ، وصححه الترمذي[١] ، ولم يخرجوه ، وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ، ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع . ثمّ يحتمل الاستثناءُ أن تكون مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة ، لكن ورد حديث إن صَحَّ عيَّنَ الاحتمال الأول ؛ فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أخبرنا أبو الحسن بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنّاء قالوا : أخبرنا أبو جعفر ابن المُسْلِمة أخبرنا أبو طاهر المُخَلِّص حدّثنا أحمد بن سليمان ، حدّثنا الزبير ـ هو ابن بكار ـ حدّثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيّدة نساءِ أهلِ الجنةِ مريمُ بنتُ عِمران ، ثم فاطمةُ ، ثم خديجةُ ، ثم آسيةُ امرأةُ فرعونَ » . فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـ« ثم » التي للترتيب فهو مبيِّنٌ لأحد الاحتمالين اللذين دلّ عليهما الاستثناء ، وتقدّم على ما تقدّم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي[٢] لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه . والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي ، عن داود الجعفري[٣] ، عن عبد العزيز بن محمد ـ وهو الدَّرَاوَرْدِي ـ[٤] عن إبراهيم بن عقبة ، عن كُريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف لا « بثمَّ » التي للترتيب[٥] فخالفه إسناداً ومتناً . فالله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مَردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمُلَ مِنَ الرِجَّالِ كَثِيْرٌ ، ولَمْ يَكْمُل مِنَ النّسَاءِ إلَّا ثَلاثٌ : مَرْيَمُ بنتُ عِمْران ، وآسيةُ امْرَأَةُ فِرعَون ، وخَدِيْجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ، وفَضْلُ عائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعامِ » . وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة[٦] إلا أبا داود من طرقٍ عن شعبة عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن

---

(١) هكذا قال، وإنما صحح الترمذي حديث «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» (٣٧٦٨) و(٣٧٦٨م) وليس فيه الزيادة التي ذكرها المصنف. نعم، ذكر الإمام أحمد حديث الحسن والحسين وذكر الزيادة في (٣/ ٦٤)، وكذلك ذكرها النسائي في المناقب (٨٥١٤)، لكن الترمذي لم يذكرها.

(٢) في ب : الذي .

(٣) هو داود بن عبد الله بن محمد الجعفري، أبو سليمان المدني، من رجال التهذيب .

(٤) قال ابن الأثير : هذه نسبة عبد العزيز بن محمد بن عبيد ، من أهل المدينة . توفي سنة (١٨٦هـ) . وكان أبوه من (دار ابجرد) فاستثقلوا أن يقولوا : دار ابجردي ، فقالوا : دراوردي . اللباب (١/ ٤٩٦) .

(٥) في ط : الترتيبية .

(٦) حديث شعبة عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن أبي موسى أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٣٤١١) و(٣٤٣٣)، وفي فضل عائشة (٣٧٦٩) وفي الأطعمة (٥٤١٨). وأخرجه مسلم في الفضائل (٢٤٣١)، والترمذي في=

أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ولم يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ آسِيَةُ امرأةُ فِرعَون ومَرْيَمُ بنتُ عِمران وإنَّ فَضْلَ عائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى الطَّعَامِ » ، فإنه حديث صحيح كما ترى، اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضي حَصْر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما ، فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة ، فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة، وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزيرَ صِدْق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها . وأما فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ فإنها خُصّت بمزيد فضيلة على أخواتها ، لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقيةُ أخواتها مِتن في حياة النبي ﷺ . وأما عائشة فإنها كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يتزوج بِكراً غيرها، ولا يُعرف في سائر النساء في هذه الأمة ، بل ولا في غيرها ، أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أَهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات، وقد عُمِّرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنةً تبلّغ عنه القرآن والسُّنَّةَ ، وتفتي المسلمين ، وتصلح بين المختلفين ، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما . وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : « وفضلُ عائِشَة على النساءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سائرِ الطَّعامِ » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات [وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات][١] . والله أعلم .

والمقصود هاهنا ذِكْر ما يتعلّق بمريم بنتِ عمران عليها السلام ، فإن الله طهَّرها واصْطفاها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً ، كما قدّمنا . وقد ورد في حديثٍ أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في « التفسير »[٢] عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٥] ، قال : فالثيب آسية ، ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم . فالله أعلم .

قال الطبراني[٣] : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العَوْفي[٤] حدثنا أبي حدثنا عمي

= الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة أيضاً (٣٢٨٠)، والنسائي في المناقب (٧/ ٦٨) وهو في عشرة النساء من الكبرى (٨٣٥٣) و(٨٣٨١) و(٨٨٩٥) بقصة فضل عائشة .

(١) سقط من ب بنقلة عين .

(٢) هو كما قال في تفسيره : (٤/ ٣٩٠) .

(٣) في المعجم الكبير (٥٤٨٥/ ٢) .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن سعد بن محمد بن الحسن ، العَوْفي ، من بني عوف بن سعد ، من يشكر بن بكر بن وائل ، وقيل من يشكر بن الحارث ، من قيس عيلان . كان من أهل بغداد ، توفي سنة (٢٧٦هـ) . قيل : كان لين الحديث . وقال الدار قطني : لا بأس به . أنساب السمعاني (٩/ ٨٩ ـ ٩٠) .

الحسين ، حدثنا يونس بن نُفيع عن سعد بن جُنَادة ـ هو العَوْفي ـ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اللهَ زَوَّجَنِي في الجنةِ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرانَ وامرأةَ فِرْعَوْنَ وأُخْتَ مُوْسَى » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا إبراهيم بن عرعرة ، حدّثنا عبد النور بن عبد الله ، حدّثنا يونس بن شعيب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُشْعِرْتُ أنَّ اللهَ زَوَّجَني مَرْيَمَ بنتَ عِمْران وآسِيَة بنْتَ مُزاحِم وكَلْثَم أُخْتَ مُوْسى » . رواه أبو جعفر العُقَيلي[١] من حديث عبد النور به ، وزاد : « فقلت هنيئاً لك يا رسول الله » ثم قال العقيلي : وليس بمحفوظ[٢] .

وقال الزبير بن بكار : حدّثني محمد بن الحسن ، عن يعلى بن المغيرة ، عن ابن أبي روَّاد قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها : « بالكُرهِ منّي ما أرى مِنْكِ يا خديجةُ ، وقد يَجْعلُ اللهُ في الكُره خَيْراً كثيراً . أما علمتِ أنَّ اللهَ قَدْ زَوَّجَني مَعَكِ في الجَنَّةِ مَرْيَمَ بنت عِمران وكَلْثَمَ أختَ مُوْسى وآسيةَ امرأةَ فِرعون » قالت : وقد فعل الله بكَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قالت : بالرِّفاء والبنين[٣] .

وروى ابن عساكر[٤] من حديث محمد بن زكريا الغَلاَبي[٥] ، حدّثنا العباس بن بكار ، حدّثنا أبو بكر الهذلي[٦] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت ، فقال : « يا خَدِيجةُ إذا لَقِيْتِ ضَرَائِرَكِ فَأقْرِئيهِنَّ مِنّي السَّلامَ » قالَت : يا رسول الله وهل تزوجتَ قبلي ؟ قال : « لا ، ولكن الله زوَّجَني مريَمَ بنتَ عِمران وآسيةَ بنتَ مُزاحِم وكَلْثَمَ أختَ موسى »[٧] .

وروى ابن عساكر من طريق سُويد بن سعيد ، حدّثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أُرسِل به ، وجلس يُحدّث رسول الله ﷺ إذ مَرّت

---

(١) في الضعفاء الكبير (٤/ ٤٥٩) .

(٢) إسناده تالف ، فإن يونس بن شعيب منكر الحديث ، كما قال البخاري فيما نقله عنه العقيلي (٤/ ٤٥٩)، وعبد النور بن عبد الله هو المسمعي رافضي كذاب وضاع خبيث (ضعفاء العقيلي ٣/ ١١٤)، وانظر تفسير ابن كثير : (٤/ ٣٩٠) .

(٣) الرِّفاء : الالتئام والاتفاق والبركة والنماء . وقد نُهي أن يقال للمتزوج : بالرفاء والبنين . وكان رسول الله ﷺ إذا رفّأ الإنسانَ قال : بارك الله لك وعليك وجمع بينكما على خير .

(٤) في ترجمة مريم بنت عمران كما أشار ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٠) .

(٥) الغَلابي ، بفتح الغين واللام ألف المخففة : نسبة إلى غَلاب ، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه . أنساب السمعاني (٩/ ١٩٣) .

(٦) في ط : الهزلي . بالزاي . وهو خطأ . وأبو بكر الهُذَلي اسمه سُلْمى بن عبد الله بن سُلْمى ، من أهل الكوفة ، سكن البصرة . توفي سنة (١٦٧هـ) . وهو متروك الحديث .
المجروحين لابن حبان (١/ ٣٥٥) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٤٠١) .

(٧) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٠) : ضعيف .

خَديجةُ ، فقال جبريل : من هذه يا محمد ؟ قال : « هذه صِدِّيقَةُ أُمتي » . قال جبريل : معي إليها رسالة من الرب عز وجل ، يقرئها السلام ويبشّرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ بعيد من اللهب لا نَصَب فيه ولا صَخَب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ، ما ذلك البيت الذي من قصب ؟ قال : لؤلؤة جوفاء بين بيت مَريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم ، وهما من أزواجي يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح[1] ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل هذه الأحاديث في أسانيدها نظر .

وروى ابنُ عساكر من حديث أبي زُرْعة الدمشقي ، حدّثنا عبد اللهبن صالح ، حدّثني معاوية ، عن صفوان بن عمرو ، عن خالد بن معدان ، عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة ـ يعني صخرة بيت المقدس ـ فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

ثمّ رواه من طريق إسماعيل بن عياش[2] ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ بمثله . وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع . وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس ، فذكره . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه .

قلت وكلامُ كعب الأحبار هذا إنما تلقّاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهّالهم ، وهذا منه . والله أعلم .

***

(١) رواه البخاري (٧/ ١٣٣) ، في مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها . ومسلم (٢٤٣٣) ، في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .

(٢) في ط . عن عياش . وهو خطأ . وإسماعيل بن عياش مترجم في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧٧) . وما بعدها .

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مَريم البتول(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ١٦ ـ ٣٧] .

ذكر تعالى(٢) هذه القصّة بعد قصّة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في سورة آل عمران ، قَرَن بينهما في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ـ ٩١] .

وقد تقدّم أنّ مريم لما جعلتها أمُّها محرَّرةً تخدم بيت المقدس ، وأنّه كفلها زوجُ أختها أو خالتها نبيُّ ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتّخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ما غَبَطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتْها الملائكةُ بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سَيَهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرَّماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والدٍ لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا

(١) لم يرد لفظ ذكر في ط . وزاد في ب : العذراء البتول .

(٢) في ب : يذكر سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فاستكانت لذلك وأنابت وسلَّمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنةٌ عظيمةٌ لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقةَ الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبُّرٍ ولا تعقُّلٍ ، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حَيْضها ، أو لحاجةٍ ضروريّةٍ لا بدَّ منها ؛ من استقاء ماءٍ أو تحصيل غذاءٍ ، فبينما هي يوماً قد خرجتْ لبعض شؤونها ﴿ فَانتَبَذَتْ ﴾ أي انفردت وحدَها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروحَ الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رأتْهُ ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ . قال أبو العالية : علمتْ أنّ التقي ذو نهيةٍ ، وهذا يردُّ قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسقٌ مشهور بالفسق اسمه « تقي » فإن هذا قولٌ باطلٌ بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ : أي : خاطَبها الملك قائلاً إنما أنا رَسُول ربك لستُ ببشرٍ ولكني مَلَك بعثني الله إليكِ ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أي : ولداً زاكياً[١] ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أي : كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولستُ ذاتَ زوجٍ ، وما أنا ممن يفعلُ الفاحشةَ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فأجابها المَلَك عن تعجُّبها من وجود ولدٍ منها والحالة هذه قائلاً ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعَدَ أنه سيخلق منكِ غلاماً ولستِ بذاتِ بعلٍ ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي وهذا سهل[٢] عليه ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير .

وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قُدرَتنا على أنواع الخلْق ، فإنه تعالى خلقَ آدمَ من غير ذكرٍ ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقيةَ الخلق من ذكر وأنثى .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته بأن يُفرِدوا[٣] الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه[٤] عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ؛ يعني أن هذا أمرٌ قد قضاه الله وحَتَّمَه وقدَّره وقرَّره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق ، واختاره ابن جرير[٥] ولم يحك سواه . والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كنايةً عن نفخ جبريل فيها كما قال

---

(١) في ط : زكياً .
(٢) في ب : أسهل .
(٣) في ب : يفرد .
(٤) في ب وينزهه .
(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٤٧) .

تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] . فذكر غيرُ واحدٍ من السلف(١) أن جِبريل نفخَ في جيبِ درعها ، فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها(٢) . ومن قال إنه نَفَخ في فمها أو إن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يُفهم من سياقات هذه القصّة في محالّها من القرآن ، فإن هذا السياق يدلّ على أن الذي أُرسل إليها ملكٌ من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج ، بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ يدلّ على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما رُوي عن أُبي بن كعب ، ولا في صدرها كما رواه السدّي بإسناده عن بعض الصحابة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي حملت ولدَها ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وذلكَ لأنَّ مَرْيَم عليها السلام لمّا حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقّها ، فذكر غير واحد من السّلف(٣) منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رَجُلٌ من عُبّاد بني إسرائيل يقال له : يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ، فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج فعرَّض لها ذات يوم في الكلام ، فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم فمن خلق الزرع الأول ! ثمّ قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الشجر الأول ! ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله بشّرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٧] . ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا . والله أعلم .

وذكر السُّدِّي بإسناده عن الصحابة(٤) : أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها : أُشْعِرْتُ أَنّي حُبلى . فقالت مريم : وشعرتُ أيضاً أني حبلى ، فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى إني أرى ما في بطني يَسجُد لما في بطنك ، وذلك قوله : ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ومعنى السجود هاهنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع مَن قَبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك

---

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١١٠) .

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨) .

(٣) أورده الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٩) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨) .

لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله تعالى جعله يُحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص . رواه ابن أبي حاتم . وروي عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدّثني وكلّمني ، وإذا كنت بين الناس سبّح في بطني .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر .

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر . وعن ابن عباس(١) ما هو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] . وكقوله : ﴿ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه(٢) .

قال محمد بن إسحاق : ثم شاع أمرها(٣) واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبّد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً .

وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعاً(٤) ، والبيهقي بإسنادٍ صححه(٥) عن شدّاد بن أوس مرفوعاً أيضاً بيت لحم(٦) الذي بنى عليه بعضُ ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره ، هذا البناء المشاهد الهائل ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن(٧) ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٠) ، والقرطبي : (١١/ ٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٨) في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، وص (٣٦٣) ، رقم (٣٣٣٢) في الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته . ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه .

(٣) في ط : شاع واشتهر .

(٤) السنن (١/ ٢٢٢) ، في أول أحاديث الصلاة ، وأوله عنده : « أُتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل . . . » وأورده المؤلف في تفسيره (٣/ ١٥٠) . في تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ .

(٥) في ط : وصححه . والحديث عنده في دلائل النبوة (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧) . وأوله عنده : قلنا يا رسول الله كيف أسري بك ؟ قال : « صليت لأصحابي صلاة العتمة . . . » .

(٦) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (١٦/ ٥٠) .

(٧) وقال في تفسيره (٣/ ١٢٣) (ط . دار المعرفة) : فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها=

مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم تخلق بالكلية .

وقوله : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ وقرىء ﴿ مِنْ تَحْتِها ﴾ على الخفض[١] ، وفي المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل[٢] . قاله العَوْفيُّ عن ابن عباس قال : ولم يتكلّم عيسى إلا بحضرة القوم . وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى . واختاره ابن جرير[٣] .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أي ناداها قائلاً لها : لا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سرياً . قيل : النهر ، وإليه ذهب الجمهور[٤] . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف ، واختاره ابن جرير[٥] وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهما أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ . ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ . قال عمرو بن ميمون ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرُّطَب ، ثم تلا هذه الآية[٦] .

وقال ابن أبي حاتم حدّثنا علي بن الحسين ، حدّثنا شيبان ، حدّثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدّثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْرِمُوا عَمَّتَكمُ النخْلةَ فإنها خُلِقَتْ من الطّينِ الذي خُلِقَ مِنْهُ آدمُ ، ولَيْس مِنَ الشَّجَرِ شيءٌ يُلْقَحُ غيرَها » . وقال رسول الله ﷺ : « أَطْعِمُوا نِساءَكُم الوُلَّدَ الرُّطَبَ فإنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبٌ فتَمْرٌ ،

= ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عندهم ـ فيما يظنون ـ عاهرة زانية ، فقالت : يا ليتني مت قبل هذا ، أي قبل هذا الحال .

(١) قرأ أبو عمرو وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر ﴿ مَن تحتها ﴾ بفتح الميم والتاء . وقرأ الباقون بكسر الميم والتاء حجة القراءات (٤٤١) .

(٢) عدد الطبري طائفة من أصحاب هذا القول . تفسيره (١٦/ ٥١ ـ ٥٢) .

(٣) تفسيره (١٦/ ٥٢) .

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٥٣) .

(٥) المصدر السابق (١٦/ ٥٤) .

(٦) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٥) .

وليسَ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ أكرمَ على اللهِ مِنْ شَجَرةٍ نَزَلَتْ تَحْتَها مَرْيَمُ بنت عمران »[١] .

وكذا رواه أبو يعلى في « مسنده »[٢] عن شيبان بن فروخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد ، والصّحيح مسرور بن سعيد التميمي . وأورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي ، به ، ثم قال : وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث . وقال ابن حبان[٣] : يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها[٤] .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ . وهذا من تمام كلام الذي نَاداها من تحتها قال : ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَقُولِىٓ ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي صَمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام ، قاله قتادة والسُّدِّي وابنُ أسلم[٥] ويدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فأما في شريعتنا فيُكْرَه للصَّائِمِ صَمْتُ يَوْمٍ إلى الليل[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ذكر كثير من السّلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنّهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها ، فمروا على محلّتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها ، فقالوا لها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي أمْراً عظيماً منكراً . وفي هذا الذي قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوّلَهُ آخرُه ، وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعلت من نفاسها بعد أربعين يوماً[٧] .

---

(١) وأخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ٤٤ ـ ٤٥) . مع خلاف يسير في اللفظ .
وأورد الحديثين متصلين السيوطي في الجامع الصغير (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣) . وضعفه .

(٢) مسند أبي يعلى : (١/ ٣٥٣) ، رقم (٤٥٥) .

(٣) الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٤٢٥) .

(٤) المجروحين (٣/ ٤٤) .

(٥) وقاله غيرهم أيضاً . تفسير الطبري (١٦/ ٥٦ ـ ٥٧) .

(٦) قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٩٨) : ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه، وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا . . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام، وهذا هو الصحيح، لحديث أبي إسرائيل . . . ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح، قال عليه الصلاة والسلام : إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم .
وحديث أبي إسرائيل رواه البخاري عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه. فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال رسول الله ﷺ: « مُرْهُ فليتكلّم وليستظل، وليقعد، وليتم صومهُ » فتح الباري: (١١/ ٥٨٦)، رقم (٦٧٠٤) في الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي المعصية.

(٧) وهو ما قاله أيضاً ابن الكلبي . تفسير القرطبي (١١/ ٩٩) .

والمقصود أنهم لما رأَوها تحملُ معها ولدها ﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ والفرْيَةُ : هي الفعْلةُ المنكرة العظيمة من الفعال والمقال[١] . ثم قالوا لها : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ قيل[٢] : شَبَّهُوها بعابدٍ من عُبَّادِ زمانهم كانت تُساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون . وقيل : شبَّهوها برجل فاجرٍ في زمانهم اسمه هارون ، قاله سعيد بن جبير . وقيل : أرادوا بهارون أخا موسى ، شبَّهوها به في العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً ، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم مايرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجّا اللهُ موسى وقومَه وأغرق فرعونَ وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه ، وهذا في غاية البُطْلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في « التفسير »[٣] مطولًا . ولله الحمد والمنة .

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ[٤] اسمه هارون وليس في ذكر قصّة ولادتها وتحرير أمّها لها ما يدلّ على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم .

قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره عن سماك ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شعبة[٦] قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ ، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا ؟! قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُم كَانُوا يُسَمّونَ بِالأنْبِياءِ والصَّالِحِيْنَ قَبْلَهُمْ » .

وكذا رواه مسلم[٧] ، والنسائي[٨] ، والترمذي[٩] من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

---

(١) في اللسان (فرا) : الفَرِيُّ : الأمر العظيم . . مفردات الراغب الأصبهاني (٣٩٣) . وتفسير الطبري (١٦/ ٥٨) .
(٢) أورد الطبري معظم ما قيل في تفسير هذه الآية (١٦/ ٥٨ ـ ٥٩) .
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٩) . والحديث الذي استدل به ابن كثير في التفسير ، قوله ﷺ : « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي » . وتقدم تخريج هذا الحديث (ص٢٠٦) ، (ت١٤) .
(٤) كذا في ب وط . وفي أ : على أن لها أخ . وفيه خطأ نحوي بيّن .
(٥) المسند (٤/ ٢٥٢) .
(٦) زاد في ب : عن علي ، وليست ثابتةً في مسند أحمد هذه الزيادة .
(٧) صحيح مسلم رقم (٢١٣٥) في الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء .
(٨) في تفسيره (٣٥٥) وهو في الكبرى (١١٣١٥) .
(٩) رقم (٣١٥٥) في تفسير القرآن ، باب ومن سورة مريم .

وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » .

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون ، حتى قيل : إنه حضر بعض جنائزهم بشرٌ كثير منهم ممن يُسمى بهارون ، أربعون ألفاً[(١)] . فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ودلّ الحديث على أنها قد كان لها أخ نَسَبي اسمه هارون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أي لستِ من بيتٍ هذا شيمتهم ولا سجيتهم ، لا أخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ، ورمَوها بالداهية الدهياء . فذكر ابن جرير في تاريخه[(٢)] أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم ، فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه ، فنشروه فيها كما قدمنا . ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتّكال ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ أي : خاطبوه وكلِّموه ، فإنَّ جوابَكم عليه وما تبغون من الكلام لديه . فعندها ﴿ قَالُواْ ﴾[(٣)] مَن كان منهم جباراً شقياً : ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ أي : كيف تحيلينا[(٤)] في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين محض المخض وزبده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقُّص لنا والازدراء ، إذاً لا تردّين علينا قولاً نطقياً ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً ، فعندها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ . وهذا أولُ كلامٍ تفوه به عيسى بن مريم ، فَكان أوّل ما تكلّم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ اعترف لربه سبحانه وتعالى بالعبودية ، وأن الله ربّه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبدُه ورسولُه وابنُ أَمَته ، ثم برَّأَ أُمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورمَوْها بسببه بقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ فإن الله تعالى لا يعطي النبوةَ من هو كما زعموا ـ لعنهم الله وقبّحهم ـ كما قال تعالى : ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زِنى في زمن الحيض ـ لعنهم الله ـ فبرَّأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صِدّيقة ، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحدَ أولي العزم

---

(١) اختصر ابن كثير الخبر هنا ، وقد نقله كاملاً في تفسيره (٣/ ١١٩) عن تفسير الطبري (١٦/ ٥٨) ، وفيه أن من خرج في جنازة هارون الرجل الصالح ممن يسمون هارون يبلغ عددهم (٤٠) ألفاً .

(٢) (١/ ٦٠٠) .

(٣) كذا في ب وط . وهو لفظ الآية وأشبه أن يُثْبَت هاهنا . وفي أ : قال .

(٤) في أوب وط : تحيلينا . وفي ب : على الجواب .

الخمسة[١] الكبار ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، ونزّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الصاحبة والولد تعالى وتقدّس ﴿ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهي تشمل طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهر الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج[٢] على اختلاف الأصناف وقِرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات ، وسائر وجوه الطاعات وأنواع القُرُبات .

ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي : وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكّد حقها عليه لمحض جهتها ، إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها ، وأعطى كلّ نفس هداها .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي لستُ بِفَظٍّ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قولٌ ولا فعلٌ ينافي أمر الله وطاعته .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ . وهذه الأماكن[٣] الثلاثة التي تقدّم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثمّ لما ذكر تعالى قصّته على الجلية ، وبيّن أمرَه ووضّحه وشرحه قال : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [٥٨ ـ ٦٣] . ولهذا لما قَدِم وفد نجران[٤] وكانوا ستينَ راكباً يرجع أمرُهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم ، وهم العاقب والسّيد وأبو حارثة بن علقمة ، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح ، فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أُمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهِلَهم[٥] إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكلوا ونكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة ، وقال قائلهم ، وهو العاقب

---

(١) ليست في ب . وأولو العزم من الرسل هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام .
(٢) المحاويج : جمع مُحْوِج وهو المعدم .
(٣) في ب : المواطن .
(٤) سيأتي تفصيل الحديث عن وفد نجران في الجزء الخامس ، باب الوفود .
(٥) المباهلة : الملاعنة ، وهو أن يجتمع القوم إذ اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

عبد المسيح : يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاَعَنَ قَومٌ نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نَبَت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلّا إلفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادِعوا الرجل وانصرِفوا إلى بلادكم . فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وسألوه أن يضرب عليهم جزية ، وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجرَّاح . وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران[١] وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية[٢] إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى لما بين أمر المسيح قال لرسوله : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق ، من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي لا يُعجزه شيء ، ولا يكربه[٣] ولا يؤوده ، بل هو القدير الفعّال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربُّه وربُّهم وإلَهُهُ وإلَهُهُم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : فاختلف أهل ذلك الزمان[٤] ومَنْ بَعدهم فيه ، فمن قائل من اليهود : إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم ، وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله . وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، هؤلاء هم الناجون المثابون المؤيَّدُون المنصورون ، ومَنْ خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالّون الجاهلون ، وقد توعَّدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال البخاري : حدّثنا صدقة بن الفضل ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا الأوزاعي ، حدّثني عمير بن هانىء ، حدّثني جُنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ شَهد أنْ لا إلهَ إلّا الله وحدَه لا شَرِيْكَ له ، وأن محمداً عبدُه ورَسُوْلُهُ ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته[٥] ألقاها إلى

(١) في تفسيره (١/ ٣٦٨) .
(٢) في الجزء الخامس من هذا الكتاب .
(٣) كذا في ب . وفي أ وط : يكترثه .
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٦٤ ـ ٦٥) .
(٥) في ب : وأن عيسى روح الله وكلمته .

مريم ورُوحٌ منه ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، أدخله الله الجنةَ على ما كان من العمل »[١] . قال الوليد : فحدّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة ، وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » .

وقـد رواه مسلم[٢] عن داود بن رُشَيْد عن الوليد عن ابن جابر به . ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به .

* * *

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٣٥) ، في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ . وقول الوليد الآتي من تتمة رواية البخاري وسيكرره في الصفحة (٢٨٩) ، ت (٩) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٨) في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً .

باب بَيان أنّ الله تعالى منزّه عن الولد
تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً(١)

قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أي : شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

فبيّن أنّه تعالى لا ينبغي له الولد ؛ لأنّه خالق كلِّ شيءٍ ومالكه ، وكلّ شيء فقير إليه ، خاضعٌ ذليلٌ لديه ، وجميع سكان السماوات والأرض عبيدُه ، وهو ربّهم ، لا إلّه إلا هو ، ولا رب سواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٠ ـ ١٠٣] .

فبين أنه خالق كلّ شيء ، فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عديل له ، ولا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ تقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يوجد منه ولد ، ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي : ولم يتولّد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي وليس له عديلٌ ولا مكافىءٌ ولا مساوٍ ، فقطع النظير المدني والأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولّداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تبارك وتعالى وتقدّس : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

---

(١) هذه العبارة ليست في ط .

إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

يَنْهىٰ تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلوّ والإطراء في الدين ، وهو مجاوزة الحدّ ، فالنصارى ـ لعنهم الله[١] ـ غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحدّ ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها ، فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخةً حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافةَ تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ، كما يقال : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، وكذا روح الله ، أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمي عيسى بها لأنه كان بها من غير أب ، وهي الكلمة أيضاً التي عنها تخلَّق[٢] ، وبسببها وجد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٦ ـ ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى ـ عليهم لعائن الله ـ كلٌّ من الفريقين ادّعَوا على الله شططاً ، وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنهم ليس لهم مستندٌ فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه إلّا مجرّد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة ، تشابهت قلوبهم ، وذلك أن الفلاسفة ـ عليهم لعنة الله ـ زعموا أن العقل الأول صَدَر عن واجب الوجود الذي يعبّرون عنه بعلّة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثمّ صدر عن الثاني كذلك ، حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر . وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم[٣] أن الملائكة بنات الله ، وأنه صاهر سروات الجن فتولّد منهما الملائكة ، تعالى الله عما يقولون وتنزّه عما يشركون ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

---

(١) في ب : عليهم لعائن الله تعالى .

(٢) في ط : خلق .

(٣) في ب : بجهلهم .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٤٩ ـ ١٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩] .

وقال تعالى في أول سورة الكهف ، وهي مكية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [١ ـ ٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٨ ـ ٧٠] .

فهذه الآيات المكّيات[١] الكريمات تشمل الردّ على سائر فرق الكفَرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادّعوا وزعموا ، بلا علم ، أن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوّاً كبيراً .

ولما كانت النصارى ـ عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ من أشهر من قال بهذه المقالة ، ذُكِروا في القرآن كثيراً للردّ عليهم ، وبيان تناقضهم ، وقلّة علمهم ، وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض ، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] . فدلّ على أن الحق يتّحد ويتّفق، والباطل يختلف ويضطرب. فطائفة من ضُلاّلهم وجُهّالهم زعموا أن المسيح هو الله ـ تعالى الله[٢] ـ وطائفة قالوا : هو ابن الله ـ عَزَّ الله ـ وطائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة ـ جل الله ـ . قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ

---

(١) ليست في ب . والآيات ، كما قال ، مكيات .
(٢) ليست في ب وط .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٧] .

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم ، وبيّن أنه الخالق القادر على كلّ شيء ، المتصرّف في كلّ شيء ، وأنه ربُّ كلّ شيء ومليكه وإلّهه . وقال في أواخرها : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ـ٧٥] .

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقَدَراً ، فأخبر أن هذا صَدَرَ مِنهم مع أنّ الرسول إليهم وهو عيسى بن مريم قد بيّن لهم أنه عبدٌ مَرْبُوبٌ مخلوقٌ مُصَوَّرٌ في الرحم ، داعٍ إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، وتوعَّدَهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار[١] ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ . ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ . قال ابن جرير[٢] وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم[٣] الثلاثة . أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية ـ عليهم لعائن الله ـ كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ، ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمئة سنة ، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمئة سنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي وما من إلّه إلّا الله وحدَه لا شريك له ولا نظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد . ثمّ توعَّدهم وتهدّدهم[٤] فقال : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولُطْفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ حالَ المسيح وأمّه ، وأنه عبدٌ رسولٌ ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي : ليست بفاجرة كما يقوله اليهود ـ لعنهم الله ـ وفيه دليلٌ على أنها ليست بنبيّة كما زعمه طائفة من علمائنا ، وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أي ومَنْ كان بهذه المثابة كيف يكون إلّهاً ، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً . وقال

(١) قوله : والهوان والعار ؛ ليس في ب .

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٠٢) .

(٣) الأقانيم : الأصول . واحدها أُقنوم . قال الجوهري : وأحسبها رومية . . نقله في اللسان .

(٤) في ب : وهددهم .

السُّدِّي[١] وغيرُه : المراد بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ زَعْمُهُم في عيسى وأمه أنهما إلٰهان[٢] مع الله ، يعني كما بيّن تعالى كفرَهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ ـ ١١٨] .

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابنَ مريمَ يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذَّب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله أو شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله ـ وهو يعلم ـ أنه لم يقعْ منه ما يسأله عنه ، ولكنْ لتوبيخ من كذبَ عليه ، فيقول له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تعاليت[٣] أن يكون معك شريك . ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحدٌ سواك ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ . وهذا تأدُّبٌ عظيمٌ في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾[٤] حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليَّ الكتاب الذي كان يُتلى عليهم .

ثم فسّر ما قال لهم بقوله : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : خالقي وخالقكم ، ورازقي ورازقكم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي : رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي ، فرحمتني وخلّصتني منهم ، وألقيتَ شَبَهي على أحدهم ، حتى انتقموا منه ، فلما كان ذلك ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثمّ قال على وجه التفويض إلى الربّ عزّ وجلّ والتبرّي من أهل النصرانية : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي : وهُمْ يستحقون ذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوعَ ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في « التفسير »[٥] ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذرّ أنَّ رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلةً حتى أصبح : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال : « إني سألت ربي

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .
(٢) في ط : الإلاهان .
(٣) في ب : عن أن .
(٤) زاد في ب : أي ما قلت غير ما أمرتني به .
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢١) .

عزَّ وجلَّ الشفاعةَ لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلةٌ إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[١] .

وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء : ١٦ ـ ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[الزمر : ٤ ـ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الزخرف : ٨١ ـ ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمدُ الذي لم ألدْ ولم أُولدْ ولم يكن لي كفواً أحد »[٢] .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبرُ على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم »[٣] .

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[٤] [هود : ١٠٢] .

---

(١) الحديث في مسند أحمد (٥/ ١٤٩) .

(٢) الحديث بتمامه في البخاري رقم (٤٩٧٤) و(٤٩٧٥) ، في التفسير ، باب تفسير سورة الإخلاص . والنسائي (٤/ ١١٢) ، ومسند أحمد (٢/ ٣١٧ ، ٣٥٠) . من طريق أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٩٩) ، في الأدب ، باب الصبر في الأذى ، ورقم (٧٣٧٨)في التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، ومسلم (٢٨٠٤) في المنافقين ، باب لا أحد أصبر على أذى ، من الله عز وجل ، وأحمد (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥) . وفي لفظه اختلاف يسير عما هنا .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦) ، في التفسير ، (تفسير سورة هود) ، باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ، ومسلم (٢٥٨٣) في البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، والترمذي (٣١١٠) في التفسير ، باب ومن سورة هود ، وابن ماجه (٤٠١٨) ، في الفتن ، باب العقوبات . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . . .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ـ ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٧] .

* * *

ذكر منشأ عِيسى ابن مريم عليهما السّلام ومرباه في صغره وصباه وَبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى[١]

قد تقدم أنه وُلد ببيت لحم[٢] قريباً من بيت المقدس . وزعم وهْب بن منبّه أنه ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينها وبين الإكاف[٣] شيء . وهذا لا يصح . والحديث[٤] الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطلٌ .

وذكر وهب بن منبه أنه لما وُلد خَرَّتِ الأصنام يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كَشَفَ لهم إبليس الكبير أمرَ عيسى ، فوجده في حجر أمه والملائكة مُحدقة به[٥] ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره ، فسأل الكهنةَ عن ذلك فقالوا : هذا لمولدِ عظيمٍ في الأرض ، فبعث رُسُلَه ومعهم ذهب ومرٌّ ولبان[٦] هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عمّا أقدمهم ، فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت ، فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه . فلما وصَلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت به حتى بلغ اثنتي عشرة سنةً ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره[٧] .

فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره ، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ، فلم يدر من أخذه ، وعزَّ ذلك على مريم عليها السلام ، وشَقّ على الناس وعلى

---

(١) العنوان في ط : منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى .

(٢) صفحة (١٦٨) .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٥) . والإكاف : برذعة الحمار .

(٤) في ب : والذي . والحديث المتقدم ص (٢٤٣) . في ذكر ميلاد عيسى عليه السلام .

(٥) كذا في ط . وفي أ : تحدقه . وفي ب : تحدقها . وفي تاريخ الطبري أن إبليس رأى الملائكة محدقين بذلك المكان .

(٦) في تاريخ الطبري : أن حملة الهدايا مرُّوا بملك من ملوك الشام ، فسألهم عن معنى هذه الهدية فقالوا : تلك أمثاله : لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه . ولأن المر يُجْبَرُ به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض . ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء لا يُرفع في زمانه أحد غيره .

(٧) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٥) ، وما بعدها .

رب المنزل ، وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى ـ عليه السلام ـ ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مُقْعَد من جُملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلى ، كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكُوَّة من الدار . فلما قال ذلك صدقاه فيما قال ، وأتيا بالمال ، فَعَظُم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً[١] .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافةً للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثمّ أراد أن يسقيهم شراباً ، يعني خمراً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان ، لم يجد في جِراره شيئاً ، فشق ذلك عليه ، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمرُّ على تلك الجرار ويمرُّ يَده على أفواهها ، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب . فتعجّب الناس من ذلك جداً وعظّموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه ، وارتحلا قاصدين[٢] بلاد بيت المقدس[٣] . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا عثمان بن ساج[٤] وغيره عن موسى بن وَرْدان ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيدٍ ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى ابن مريم[٥] أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلّم به وهو طفل فمجّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله ، لم يَدَع شمساً ولا قمراً ولاجبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوّك ، المتعال في دُنُوِّكَ ، الرفيع على كلّ شيءٍ من خلقك . أنت الذي خَلَقتَ سبعاً في الهواء بكلماتك ، مستوياتٍ طباقاً ، أجَبْنَ ، وهُنَّ دخانٌ من فَرَقك[٦] فأتَيْنَ طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتُكَ يسبّحون قُدْسَكَ لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياءً من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبِّح بالحمد ، فبعزَّتك يجلو ضوءُ ظلمتك . وجعلت فيهن مصابيح يَهتدِي بهنّ في الظلمات الحيرانُ ، فتباركت اللهم في مفطور سماواتك ، وفيما دَحَوْتَ من أرضك . دحوتها على الماء فسمكتها على تيّار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر[٧] فذلَّ لطاعتك صعبها واستحيى لأمرك أمرُها ، وخضعت لعزتك أمواجُها ، ففجَّرْتَ فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثمّ أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثمّ جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت

---

(١) أورد الطبري الخبرين أكثر تفصيلاً (١/٥٩٧ ـ ٥٩٨) .
(٢) ليست في ب وط .
(٣) الخبر في تاريخ الطبري (١/٥٩٨) .
(٤) عثمان بن عمرو بن ساج ، وقد ينسب إلى جده . قال ابن حجر في التقريب (٢/١٣) : فيه ضعف .
(٥) ليست في ب .
(٦) الفَرَق : الفزع .
(٧) في ب : الموج المتغاير . . . . إذلال الماء المتظاهر .

أطوادها وجلمودها[١] ، فتباركت اللهمّ ، فمن يبلغ بنعْته نعتَك ، أم من يبلغ بصفته صفتك ، تنشىء[٢] السحاب ، وتفكُّ الرقاب ، وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين . لا إلّه إلا أنت ، سبحانك أمرتَ أن نستغفر من كلّ ذنب ، لا إلّه إلا أنت ، سبحانك استترت بالسموات عن الناس . لا إلّه إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد أنّك لست بإلّه استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء يقضون معك فندعوهم ونَذَرُك[٣] ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشكّ فيك . نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفواً أحد[٤] .

وقال إسحاقُ بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتلٌ عن الضحاك ، عن ابن عباس : إن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد إذ كلّمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة[٥] والبيان ، فأكثر اليهودُ فيه وفي أمّه من القول ، وكانوا يسمّونه ابنَ البغيَّة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] قال : فلما بلغ سبعَ سنين أسلمته أمّه في الكُتَّاب ، فجعل لا يعلِّمه المعلِّم شيئاً إلا بَدَرَه إليه[٦] ، فعلّمه (أبا جاد) ، فقال عيسى : ما أبو جاد ؟ فقال المعلِّم : لا أدري . فقال عيسى : كيف تعلِّمني ما لا تدري ؟ فقال المعلِّم : إذاً فعلِّمني ! فقال له عيسى : فقم من مجلسك . فقام ، فجلس عيسى محلَّه ، فقال : سلني . فقال المعلِّم : ما أبو جاد ؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله . باء : بهاء الله . جيم[٧] : بهجة الله وجماله[٨] . فَعجِب المعلِّم من ذلك ، فكان أول من فسَّر أبا جاد[٩] .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كلِّ كلمةٍ كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل ولا يتمادى[١٠] .

وهكذا روى ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مُلَيْكَة عمّن حَدَّثه ، عن ابن مسعود ، وعن مِسْعَر بن كِدَام ، عن عطية ، عن أبي سعيدٍ ، رفع الحديث في دخول

---

(١) في ب وجلمدها . والجلمد والجلمود : الصخر .
(٢) في ب وط : تنشر .
(٣) في ط : ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك .
(٤) الدعاء في مختصر تاريخ ابن عساكر (٢٠/ ٩٠) ، مختصراً . عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة .
(٥) في ب : بالحكمة ، وكذلك في مختصر ابن عساكر .
(٦) يقال بدره الأمرَ ، وبدر إليه : إذا عَجِل إليه .
(٧) في ط : والباء . . والجيم .
(٨) في مختصر ابن عساكر : زاد في غيره : دال : الله الدائم .
(٩) مختصر ابن عساكر : (٢٠/ ٩٣) .
(١٠) في ب : لا يسأل فيه . والحديث أورده ابن عساكر . مختصره (٢٠/ ٩٣) .

عيسى إلى الكُتَّاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد ، وهو مطوّل لا يُفرَحُ به[١] .

ثم قال ابن عدي : وهذا الحديث باطلٌ بهذا الإسناد ، لا يرويه غير إسماعيل .

وروى ابن لَهِيْعَة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمرو يقول : كان عيسى بن مريم وهو غلامٌ يلعب مع الصبيان ، فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم . فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعميني ما خبأت لي . فتقول : وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم . فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليُفْسِدَنَّهم . فجمعوهم في بيتٍ وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم ، فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في بيت ، فسأل عنهم ، فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك . رواه ابن عساكر[٢] .

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ، ومقاتلٌ عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود ، وترعرع عيسى ، فهمَّتْ به بنو إسرائيل ، فخافت أمّه عليه ، فأوحى الله إلى أمّه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[٣] [المؤمنون : ٥٠] .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه (الربوة) التي ذكر الله من صفتها أنها ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ، وهذه صفةٌ غريبةُ الشكل ، وهي أنها ربوة ، وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستوٍ يقرُّ عليه وارتفاعه متسعٌ ، ومع علوّه فيه عيونُ[٤] الماء ، (معين) وهو الجاري السارح على وجه الأرض ، فقيل : المراد المكان الذي وَلَدت فيه المسيح ، وهو نخلة بيت المقدس ولهذا ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾[مريم : ٢٤] ، وهو النهر الصغير في قول جمهور السّلف[٥] . وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق [فلعلّه أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق][٦] . وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقّاه عنهم والله أعلم .

وقيل : هي الرملة[٧] .

---

(١) أخرجه ابن عدي في ترجمة إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي من الكامل (١/ ٢٩٩) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٢) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٧) . ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٤) .
(٤) في ب عين من الماء .
(٥) في تفسير الطبري (١٦/ ٥٣) . عدة آراء في تفسير (السري) .
(٦) ليست في ب .
(٧) أي : الربوة . تفسير الطبري (١٨/ ٢٠ ـ ٢١) .

وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس ، عن جدّه وهب بن منبه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال : فقدم عليه يوسف ابن خال أمّه ، فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا ، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل ، وعلّمه التوراة ، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، والعلم بالغيوب مما يدَّخرون في بيوتهم ، وتحدّث الناس بقدومه ، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ، ففشا فيهم أمره[١] .

***

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٤) .

[بَيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها][١]

قال[٢] أبو زرعة الدمشقي : حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني معاوية بن صالح عمّن حدّثه قال : أُنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان . ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . وكذلك بعد التوراة بأربع مئة سنة واثنتين وثمانين سنة . وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان . بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً . وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان . وقد ذكرنا في « التفسير »[٣] عند قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك ، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في « تأريخه »[٤] أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنةً ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأخبرنا سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، ومقاتلٌ عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عزّ وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى جُـدَّ في أمري ولا تَهِن ، واسمع وأطع . يا ابن الطاهرة البِكر البَتُوْل إنك من غير فحل ، وأنا خلقتك آيةً للعالمين ، إياي فاعبد ، وعليَّ فتوكل ، خُذِ الكتاب بقوة ، فَسِّر لأهل السريانية[٥] بلِّغ من بين يديك أني أنا الحقّ[٦] الحي القائم الذي لا أزول . صَدِّقوا النبيَّ الأميَّ العربيَّ صاحبَ الجملِ والتاجِ ـ وهي العمامة[٧] ـ والمِدْرَعة[٨] والنعلين والهِراوة ـ وهي القضيب ـ الأنجل[٩] العينين ، الصلتَ الجبين[١٠] ، الواضحَ الخدّين ، الجعدَ الرأس ، الكثَّ اللحية ، المقرونَ الحاجبين ، الأقنَى[١١] الأنف ، المفلَّجَ

---

(١) زيادة من ط . وهو في حاشية أ . ولم يرد في ب .
(٢) في أ وب : وقال .
(٣) (١/ ٢١٥) وما بعدها . والخبر في مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٥) .
(٤) (١/ ٥٩٨) .
(٥) قوله : السريانية ، زيادة من ب ، وهي كذلك في مختصر ابن عساكر .
(٦) ليست في ب .
(٧) يقولون : إن العمائم هي تيجان العرب . اللسان (عمم) .
(٨) المدرعة : ثوب من صوف .
(٩) النَّجَلُ : سعة العينين .
(١٠) الصلت : الواضح الجبين ، البارز المستوي .
(١١) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه ، وضيق المنخرين .

الثنايا ، البادي العَنْفَقَة[١] ، الذي كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن الذهب يجري في[٢] تراقيه ، له شعرات من لَبَّتِه[٣] إلى سُرَّته ، تجري كالقضيب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن[٤] الكف والقدم ، إذا التفتَ التفتَ جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلَّع من صخر ويتحدّر من صَبَب[٥] . عرَقه في وجهه كاللؤلؤ ، وريح المسك يَنْفَحُ منه ، ولم يُرَ قبلَه ولا بعده مثلُه . الحسنَ القامة ، الطيّبَ الريح ، نكّاحَ النساء ، ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركةٍ لها بيت ـ يعني في الجنة ـ من قصب لا نصب فيه ولا صخب[٦] ، تكفله يا عيسى في آخر الزمان ، كما كفل زكريا أمك ، له منها فَرَحان مستشهدان ، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر . كلامه القرآن ، ودينه الإسلام ، وأنا السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه[٧] .

قال[٨] عيسى : يا رب وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة[٩] أنا غرستها بيدي ، فهي للجنان كلّها ، أصلها من رضوان ، وماؤها من تَسْنيم ، وبردها برد الكافور ، وطعمها طعم الزنجبيل ، وريحها ريح المسك ، مَنْ شرب منه[١٠] شربة لم يظمأ بعدها أبداً . قال عيسى : يا رب اسقني منها . قال : حرامٌ على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي . قال : يا عيسى أرفعك إليّ . قال : ربِّ ولم ترفعني ؟ قال : أرفعك ، ثم أُهبِطُك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ، ولتعينهم على قتال اللعين الدجّال . أُهبطك في وقت صلاةٍ ، ثمّ لا تصلي بهم لأنها أمةٌ[١١] مرحومة ، ولا نبي بعد نبيهم .

وقال هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبيه : إن عيسى قال : يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة . قال : أمّة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ، يرضون مني بالقليل من العطاء ، وأرْضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إلّه إلا الله . يا عيسى هم أكثر

---

(١) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .
(٢) في ب : من .
(٣) اللبة : المنحر من الرقبة .
(٤) شثن الكف : خشونته وغلظه .
(٥) الصبب : تصوب نهر أو طريق يكون في حدور .
(٦) في ب : لا صخب فيه ولا نصب . والنصَب : التعب .
(٧) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٥ـ ٩٦) .
(٨) زاد في ط . عنواناً وهو في حاشية أ . ولم يرد في ب ، وهو : بيان شجرة طوبى ما هي .
(٩) زاد في ب : في الجنة .
(١٠) في ب : منها ، والتسنيم : قيل هو ماء في الجنة .
(١١) قوله : أمة . ليست في ط . والخبر تتمة للسابق في مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٦) .

سكان الجنة ؛ لأنه لم تذِلّ ألسنُ قوم قط بلا إلَه إلا الله كما ذلّت ألسنتهم ، ولم تذلّ رقابُ قومٍ قط بالسجود كما ذلّت به رقابهم . رواه ابن عساكر[١] .

وروى ابن عساكر[٢] من طريق عبد الله بن بديل العقيلي ، عن عبد الله بن عَوْسَجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : أنزلني من نفسك كهمِّك ، واجعلني ذخراً لك في مَعادك ، وتقرَّب إليَّ بالنوافل أُحبِبك ، ولا تَوَلَّ غيري فأخذلَك . اصبر على البلاء ، وارض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك ، فإن مسرتي أن أُطاع فلا أُعصى ، وكن مني قريباً ، وأحي ذِكري بلسانك ، ولتكن مودَّتي في صدرك ، تيقّظ من ساعات الغفلة ، واحكم في لطيف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً ، وأمِتْ قلبَك في الخشية لي ، وراعِ الليل لحقِّ مسرَّتي ، وأظْمِ نهارَك ليوم الريِّ عندي . نافس في الخيرات جهدَك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدلي ، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان ، وجلاء الأبصار من عَشَا الكلال . ولا تكن حَلْساً[٣] كأنك مقبوض ، وأنت حي تنفس . يا عيسى ابن مريم ما آمنت بي خليقةٌ إلا خشعت ، ولا خشعت لي إلا رَجَت ثوابي ، فأُشهدكَ أنها آمنة من عقابي ما لم تغيِّر أو تبدِّل سنَّتي . يا عيسى ابن مريم البِكْرِ البَتُول ، ابْكِ على نفسِكَ أيامَ الحياةِ بُكاءَ مَنْ ودَّعَ الأهلَ وقَلَى الدنيا وتَرَكَ اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلَهه ، وكن في ذلك تُلين الكلامَ وتفشي السلام . وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلزال شدايد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينك بمُلْمُول[٤] الحزن إذا ضحك البطّالون ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن نالك ما وعدتُ الصابرين . زَجِّ من الدنيا بالله[٥] ، يوم بيوم ، وذق مذاقه ما قد هرب منك أين طعمه ؟ وما لم يأتك كيف لذته ، فزجّ من الدنيا بالبُلْغة[٦] ، وليكفك منها الخشن الجَشِيب[٧] ، قد رأيت إلى ما يصير . اعمل على حساب فإنك مسؤول ولو رأت عينك[٨] ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهَقَت نفسك .

وقال أبو داود في كتاب « القدر »[٩] : حدّثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا

---

(١) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٦) .
(٢) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٧) .
(٣) العشا : سوء البصر ، أو العمى . والحلس : الملازم الذي لا يبرح مكانه .
(٤) في الأصل : بملول . وهو سهو . والمُلْمُول : المكحال يكتحل به .
(٥) تزجى بالشيء : اكتفى به .
(٦) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .
(٧) في ط : الجثيث . وهو خطأ . والجشيب : الخشن الغليظ البشع من كل شيء .
(٨) في ط : عيناك .
(٩) من كتب أبي داود التي لم تصل إلينا .

معمر عن الزهري عن ابن طاووس عن أبيه قال: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك، قال إبليس: فارق بذروة هذا الجبل فتردّى منه فانظر تعيش[١] أم لا، فقال ابن طاووس عن أبيه. فقال عيسى: أما علمت أن الله قال: لا يجرِّبني عبدي فإني أفعل ما شئت. وقال الزهري: العبد لا يبتلي ربَّه، ولكنَّ الله يبتلي عبدَه[٢].

قال أبو داود: حدّثنا أحمد بن عبدة، أخبرنا سفيان، عن عمرو، عن طاووس قال: أتى الشيطانُ عيسى ابن مريم فقال: أليس تزعم أنك صادقٌ؟ فأْتِ هُوَّةً فألقِ نفسَك. قال: ويلك أليس قال الله: يا ابن آدم لا تسألني هلاكَ نفسك فإني أفعل ما أشاء.

وحدّثنا أبو توبة الربيعُ بن نافع، حدّثنا حسين بن طلحة، سمعت خالد بن يزيد قال: تعبَّد الشيطان مع عيسى عشر سنين، أو سنتين، أقام يوماً على شفير جبل، فقال الشيطان: أرأيت إن ألقيتُ نفسي هل يصيبني إلا ما كُتب لي؟ قال: إني لست بالذي أبتلي ربي، ولكن ربي إذا شاء ابتلاني، وعرفه أنه الشيطان ففارقه[٣].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا شريح بن يونس، حدّثنا علي بن ثابت، عن خطاب[٤] بن القاسم، عن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل، فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدرٍ؟ قال: نعم. قال: ألقِ نفسَك من هذا الجبل وقل: قُدِّرَ عليّ. فقال: يا لعين! اللهُ يختبِرُ العبادَ، وليس العبادُ يختبرون الله عز وجل[٥].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا الفضل بن موسى البصري، حدّثنا إبراهيم بن بشّار، سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقي عيسى ابن مريم إبليس، فقال له إبليس: يا عيسى ابن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلّمت في المهد صبياً. ولم يتكلّم فيه أحد قبلك، قال: بل الربوبية للإلّه الذي أنطقني ثمّ يميتني ثمّ يحييني. قال: فأنت الذي بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تحيي الموتى؟ قال: بل الربوبية لله الذي يحيي ويُميت من أحييتُ ثم يحييه، قال: والله إنك لإلّه في السماء وإلّه في الأرض. قال: فَصَكَّه جبريلُ صكةً بجناحه[٦] فما تناهى[٧] دون قرون الشمس، ثمّ صكّه أخرى بجناحه فما تناهى دون العين الحامية،

---

(١) في ط: هل تعيش.
(٢) الخبر في مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٨).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨).
(٤) كذا في ب. وفي أ. وط: الخطاب.
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨).
(٦) في ط: بجناحيه.
(٧) في ط: فما تباها.

ثم صكّه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه ، وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة[١] ، فخرج وهو يقول : ما لقي أحدٌ من أحد ما لقيتُ منك يا ابن مريم[٢] .

وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو الحسن بن رزقويه ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن سندي[٣] ، حدّثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان[٤] ، حدّثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أخبرنا علي بن عاصم ، حدّثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال : صلّى عيسى ببيت المقدس ، فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس ، فاحتبسه ، فجعل يعرض عليه ويكلّمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً ، فأكثر عليه . وجعل عيسى يحرص على أن يتخلّص منه ، فجعل لا يتخلّص منه ، فقال له فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً . فقال : فاستغاث عيسى بربّه ، فأقبل جبريل وميكائيل ، فلما رآهما إبليس كَفَّ ، فلما استقرا[٥] معه على العقبة اكتنفا عيسى ، وضرب جبريلُ إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك ، فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً ، إنَّ غَضَبَكَ ليس بغضب عبد ، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك إلى أمر هو لك ؛ آمر الشياطين فليطيعوك ، فإذا رأى البشر الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون إلّهاً ليس معه إلّه ، ولكن الله يكون إلّهاً في السماء وتكون أنت إلّهاً في الأرض . فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربّه وصرخَ صرخةً شديدةً ، فإذا إسرافيل قد هَبَطَ ، فنظر إليه جبريل وميكائيل ، فكفّ إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيلُ إبليسَ بجناحه فَصَكَّ به عَيْنَ الشمسِ ، ثمّ ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ، ومر بعيسى وهو بمكانه فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً ، فَرُمي به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية[٦] ، قال : فَغَطّوه ، فجعل كلّما خرج[٧] غطّوه في تلك الحمأة ، قال : والله ما عاد إليه بعد[٨] .

---

(١) في ط : فخرج منها . والحمأة : الطين الأسود المنتن .

(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨) .

(٣) في ط : «سبدي» وهو تصحيف، والتصحيح من تاريخ الخطيب (٥/ ٣٠٤) (ط. الدكتور بشار) ومادة «السندي» من أنساب السمعاني، قال الخطيب: «حدثنا عنه ابن رزقويه بكتاب «المبتدأ» تصنيف أبي حذيفة البخاري وبغيره» وذكر سماعه من الحسن القطان .

(٤) هو المعروف بابن علويه المتوفى سنة ٢٩٨هـ، كما في تاريخ الخطيب (٨/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) .

(٥) في ط . . . استقر . وفي مختصر تاريخ دمشق : فلما استقر معهم على العقبة .

(٦) في ب : الخامسة .

(٧) كذا في ب . وأ وط صرخ .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨) .

قال : وحدّثنا إسماعيل العطار ، حدّثنا أبو حُذيفة[١] قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدَنا لقد لقيت تعباً . قال : إن هذا عبدٌ معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضلّ به بشراً كثيراً ، وأبثّ فيهم أهواءً مختلفة ، وأجعلهم شيعاً ، ويجعلونه وأمّه إلّهين من دون الله[٢] .

قال : وأنزل الله فيما أيَّدَ بِهِ عيسى وعَصَمه من إبليس قرآناً ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ يعني إذ قوّيْتُك بروح القُدُس يعني جبريل ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ . . . الآية كلها [المائدة : ١١٠] ، وإذ جعلتُ المساكين لكَ بِطانةً وصحابةً وأعواناً ترضى بهم ، وصحابةً وأعواناً يَرضَون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك ـ فاعلم ـ خُلُقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي . وسيقول لك بنو إسرائيل : صُمنا فلم يُتَقَبَّل صيامُنا ، وصلّينا فلم تُقبل صلاتُنا ، وتصدَّقنا فلم تُقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يُرْحَم بكاؤنا ، فقل لهم : ولم ذلك ، وما الذي يمنعني إنْ ذَاتُ يدي قلّتْ ، أَوَلَيْسَ خزائنُ السموات والأرض بيدي أُنْفق منها كيف أشاء ؟! وإن البخل لا يعتريني[٣] أولست أَجْوَدَ من سُئل ، وأوسع من أعطى ، أو إن رحمتي ضاقت ، وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي ، ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدّوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أُتُوا ، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدَى الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوّون عليه بالأطعمة الحرام ؟! وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونني ويستحلُّون محارمي ؟! وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلّها ؟! يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها . وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطرُ من دماءِ الأنبياء ! ازددت عليهم غضباً . يا عيسى وقضيت يوم خلقتُ السمواتِ والأرضَ أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل ، وشركاءك في الكرامة . وقضيت يوم خلقت السمواتِ والأرضَ أنه من اتخذك وأمَّك إلّهين من دون الله أن أجعلهم في الدركِ الأسفل من النار ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ، ومهاجره بِطَيْبَةَ ، وملكه بالشام . ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صخّاب[٤] في

---

(١) هو إسحاق بن بشر بن محمد، أبو حذيفة البخاري المتوفى سنة ٢٠٦هـ، وصاحب كتاب «المبتدأ» أحد الكذابين المشهورين، قال الخطيب: «حدث عن . . . وخلق من أئمة أهل العلم أحاديث باطلة» (تاريخه ٧/ ٣٣٧) .

(٢) ليست في ب . والخبر تتمة للسابق في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٩) .

(٣) في ب : أو إن البخل يعتريني .

(٤) كذا في ب . وفي أوط : سخاب ، وهو من الصخب أيضاً .
تاج العروس (سخب) ، وفي أساس البلاغة : يقال : وهو صخاب في الأسواق .

الأسواق ، ولا مُزِر[١] بالفحش ، ولا قَوَّال بالخنا ، أسدّده لكلّ أمر جميل ، وأهب له كلّ خُلُق كريم ، وأجعل التقوى ضميرَه ، والحكمَ معقوله ، والوفاءَ طبيعته ، والعدلَ سيرته ، والحقَّ شريعته ، والإسلامَ مِلَّته . اسمُه محمد ، أهدي به بعد الضلالة ، وأُعلّم به بعد الجهالة ، وأُغني به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضَّعَة ، أهدي به ، وأفتح به بين آذان صم وقلوب غُلف وأهواء مختلفة متفرّقة . أجعل أمته خيرَ أمّةٍ أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل . ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومتقلّبهم ومثواهم ، يصلّون لي قياماً وقعوداً وركّعاً وسجوداً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، قُربُاتهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، وقربانهم في بطونهم ، رهبانٌ بالليل ، ليوث في النهار ، ذلك فضلي أُوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم[٢] .

وسنذكر ما يصدّق كثيراً من هذا السياق . مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله ، وبه الثقة .

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي ، دخل حديثُ بعضهم في بعض قالوا : لما بُعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به ، فيقولون : ما أكل فلانٌ البارحة ؟ وما ادّخَر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكّاً وكفراناً ، وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه ، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يُعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مرَّ ذات يوم على امرأة قاعدةٍ عند قبرٍ وهي تبكي ، فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي[٣] فأنظر إليها ، فقال لها عيسى : أرأيتِ إن نظرتِ إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم . قالوا : فصلّى ركعتين ، ثمّ جاء فجلس عند القبر ، فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي ، قال : فتحرّك القبر ، ثمّ نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثمّ نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها ما بطّأ بكِ عني[٤] ؟ فقالت : لمَّا جاءتني الصيحة الأولى بَعثَ الله لي مَلَكاً فركّبَ خَلْقي ، ثمّ جاءتني الصيحة الثانية فرجَع إليّ روحي ، ثمّ جاءتني الصيحة الثالثة فخِفت أنها

---

(١) في مختصر تاريخ دمشق : ولا متزين بالفحش . وفي بعض النسخ المطبوعة : ولا يتَّزر .
(٢) مختصر تاريخ دمشق : (٢٠/ ٩٩ ـ ١٠٠) .
(٣) كذا في ب ط . وفي أ : يهيئها . وقوله : لي ليس في ب .
(٤) في ط : أبطأ وكلاهما صحيح . يقال أبطأ به ، وبطّأ به .
وفي ب : ما بدا لك فقالت .

صيحةُ القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عينيّ من مخافة القيامة ، ثمّ أقبلت على أمها فقالت : يا أُمّاه ما حملك على أن أَذُوقَ كَرْبَ الموت مرّتين ، يا أُمّاه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا روحَ الله وكلمتَهُ ، سل ربي أن يردّني إلى الآخرة ، وأن يهوّن عليَّ كرب الموت ، فدعا ربَّه ، فقبضها إليه واستوت عليها الأرض . فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه[1] غضباً .

وقدّمْنا في عقيب قصّة نوح[2] أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح ، فدعا الله عز وجل وصلّى لله[3] فأحياه الله لهم ، فحدّثهم عن السفينة وأمرها ، ثمّ دعا فعاد تراباً .

وقد روى السُّدّي عن أبي صالح ، وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره ، وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره ، فجاء عيسى عليه السلام ، فدعا الله عز وجل ، فأحياه الله عز وجل فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجيباً ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١٠ ـ ١١١] .

يذكّره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خَلْقه إياه من غير أبٍ ، بل من أُمّ بلا ذَكَرٍ ، وجَعْلِهِ له آيةً للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ، ثمّ إرساله بعد هذا كلّه ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة ، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ، ولهذا قال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه ، وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف[4] ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ أي تصوّره وتشكّله من الطين على هيئته[5] عن أمر الله له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أي بأمري ، يؤكّد تعالى بذكرِ الإذْن له في ذلك لرفع التوهّم .

وقوله : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ قال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء

---

(١) ليست في ب . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٠١ ـ ١٠٢) .

(٢) في الجزء الأول .

(٣) زاد في ب : ركعتين .

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٨٣) .

(٥) في ب : هيئة الطير .

إلى مداواته . ﴿ وَٱلۡأَبۡرَصَ ﴾ هو الذي لا طِبّ فيه ، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عُضالاً . ﴿ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ أي من قُبُورهم أحياءً بإذني .

وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددةً مما فيه كفاية .

وقوله : ﴿ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه ، فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة لهم من الردى .

وقوله : ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ قيل : المراد بهذا الوحي وحي إلهام ، أي : أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾ [النحل : ٦٨] . ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [القصص : ٧] . وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين ﴿ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾[١] .

وهذا من جملة نِعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً وحواريين[٢] ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٥١ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٨ ـ ٥٤] .

كانت معجزة كلّ نبي في زمانه بما يناسب أهلَ ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرةً أذكياء ، فَبُعِثَ بآياتٍ بهرتِ الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرةُ خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه ، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٨٣) .

(٢) قوله : وحواريين . ليست في ط .

الذي لا يمكن صدوره إلّا عَمَّنْ أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا[١] .

وهكذا عيسى ابن مريم بُعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنّى لحكيم إبراء الأكْمَه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرضٌ مزمن ؟! وكيف يتوصل أحدٌ من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟! هذا مما يعلم كلُّ أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] فلفظه معجز تحدّى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله[٢] ، أو بعشر سور من مثله[٣] ، أو بسورة[٤] ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال (فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا) وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة ، فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشَوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه ، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون ، وسَلَّم لهم كثيرٌ من النصارى ما ادّعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون . قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ

---

(١) التلعثم : الانتظار .

(٢) قال الله تعالى في سورة الإسراء (٨٨) : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

(٣) قال عز وجل في سورة هود (١٣) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

(٤) قال تبارك وتعالى في سورة البقرة (٢٣ ـ ٢٤) : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ٦ ـ ١٤] فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً فبشَّرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعدَه ، ونوَّه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامةً للحُجَّة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

قال محمد بن إسحاق : حدّثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى . ورَأَتْ أمّي حِيْنَ حَمَلَتْ بي كأنّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لَهُ قُصورُ بُصْرَى من أرضِ الشام »[١] .

وقد رُوي عن العِرْباض[٢] بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا[٣] ، وفيه « دعوة إبراهيم وبشرى عيسى » وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية : [البقرة : ١٢٩] . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً ، فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده في النبي العربي الأميِّ خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ ، ثمّ حَرَّض تعالى عباده المؤمنين على نُصرة الإسلام وأهله ، ونُصرةِ نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي من يساعدني[٤] في الدعوة إلى الله ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ وكان ذلك في قرية يُقال لها : الناصرة ، فَسُمّوا بذلك النصارى . قال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف : ١٤] ، يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم مَن آمن ، ومنهم

---

(١) هو في السيرة (١/ ١٧٥) . ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره ، والحاكم (٢/ ٦٠٠) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٣) وإسناده صحيح .

(٢) في ب : «روى العرباض ، وعن أبي أمامة» . وحديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) ومن طريقه أبو نعيم في الدلائل (١٠)، والبخاري في تاريخه الكبير (٦/ ٦٨) وابن حبان (٦٤٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٣٠) وغيرهم، وفيه سعيد بن سويد الكلبي مجهول الحال، وذكر الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة (ص١٥٢) أن البخاري قال: لم يصح حديثه هذا ، أقول : ولكن للحديث شواهد وطرق يقوى بها ، منها الذي قبله .

(٣) حديث أبي أمامة أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٢) ، وإسناده ضعيف . أقول : ويشهد له الذي قبله .

(٤) في ب : مساعدي .

من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم ، فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير[١] . بعث إليهم رسلاً ثلاثة أحدهم شمعون الصفا ، فآمنوا واستجابوا ، وليس هؤلاء هم المذكورين في سورة « يس » لما تقدم[٢] تقريره في قصّة أصحاب القرية، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيّد الله من آمن به على مَن كفر فيما بعد ، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية : [آل عمران : ٥٥] فكل من كان إليه أقرب كان عالياً لمن[٣] دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، من أنه عبد الله ورسوله ، كانوا ظاهرين على النصارى الذين غَلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

***

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ٥٩) ، وتاريخه (١/ ٦٠٣) ، وتفسير القرطبي (١٨/ ٩٠) .

(٢) في الجزء الأول .

(٣) في أ وط : فمن . وأثبت ما في ب .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[المائدة : ١١٢ ـ ١١٥] .

قد ذكرنا في « التفسير »[1] الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم من السّلف . ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريّين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتمّوها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها ، وتطمئن بذلك قلوبهم أنَّ الله قد تقبّل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ، لغنيِّهم وفقيرهم . فوعظهم عيسى في ذلك ، وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حقّ شروطها ، فأبوا عليه إلاّ أن يسأل لهم ذلك من ربّه عزّ وجلّ . فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مُصَلاّه ، ولبس مسحاً من شعر ، وصفّ بين قدميه ، وأطرقَ رأسه ، وأسبل عينيه بالبكاء ، وتضرّع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا ، فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتينِ ، وجعلت تدنو قليلاً قليلا ، وكلّما دنت سأل عيسى ربَّه عز وجل أن يجعلها رحمةً لا نقْمةً ، وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مُغَطّاة بمنديل ، فقام عيسى فكشف عنها وهو يقول : (بسم الله خير الرازقين) ، فإذا عليها سبعة من الحيتان ، وسبعة أرغفة . وبُقُول وخلّ . ويُقال : ورمان وثمار ، ولها رائحةٌ عظيمة جدّاً ، قال الله لها : كوني ، فكانت . ثمّ أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لا نأكل حتى تأكل ، فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً ، فأمر الفقراءَ والمحاويج والمرضى والزَّمْنَى[2] ، وكانوا قريباً من ألف وثلاثمئة ، فأكلوا منها ، فَبَرىء كلُّ مَنْ به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثمّ قيل : إنها كانت تنزل كلّ يوم مرّة ، فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل : إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثمّ كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١١٦) ، وفي تفسير الطبري (٧/ ٨٤ ـ ٨٥) . ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٠٦) وما بعدها .

(٢) في ب : والناس . والزمنى : المبتلون .

ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثمّ أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء ، فشَقّ ذلك على كثير من الناس ، وتكلّم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكُلّية ، ومسخ الذين تكلّموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدّثنا الحسن بن قَزَعَة الباهلي ، حدّثنا سُفيان بن حبيب ، حدّثنا سعيد بن أبي عَروبة ، عن قَتادة ، عن خِلاس[(١)] ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء خُبز ولحم ، وأُمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا ولا يرفعوا لغد[(٢)] فخانوا وادّخروا ورفعوا فَمُسخوا قِردَة وخنازير »[(٣)] .

ثمّ رواه ابن جرير عن بندار[(٤)] ، عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عمار ، موقوفاً ، وهذا أصح[(٥)] .

وكذا رواه من طريق سماك ، عن رجل من بني عجل ، عن عمار موقوفاً[(٦)] . وهو الصواب والله أعلم .

وخلاس عن عمار منقطع[(٧)] ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائدة : هل نزلت أم لا . فالجمهور أنّها نزلت ، كما دلّت عليه هذه الآثار ، وكما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ، ولا سيّما قوله : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ كما قرره ابن جرير[(٨)] . والله أعلم .

وقد روى ابن جرير[(٩)] بإسناد صحيح إلى مجاهد ، وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري أنهما قالا : لم تنزل ، وإنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبرَ المائدة ، وليس مذكوراً في كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوفّر الدواعي على نقله . والله أعلم .

---

(١) في تفسير الطبري : جلاس بن عمرو . بالجيم ، وهو تصحيف . وخِلاس بن عمرو الهَجَري ثقة . من رجال التهذيب .
(٢) كذا في ط ، وفي تفسير الطبري . وهو الأشبه . وفي أ : أن لا يخونوا بغد ولا يدخروا . . وفي ب : أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا . . . وفي مختصر تاريخ دمشق : أن لا يخبؤوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد . . .
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٨٧) . وأورده عن عمار في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٠٧) .
(٤) هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري . ثقة . توفي سنة (٢٥٢هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ١٤٧) .
(٥) تفسير الطبري (٧/ ٨٧) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) هكذا قال، وفي قوله نظر، فقد ذكر سماعه من عمار إمام أهل الصنعة محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه الكبير (٣/ الترجمة ٧٦٤)، وأبو زرعة الرازي (كما في الجرح والتعديل ٣/ الترجمة ١٨٤٤)، وناهيك بهما، ولذلك قال الحافظ ابن حجر في التقريب: «وقد صح أنه سمع من عمار» (وانظر التعليق على تهذيب الكمال ٨/ ٣٦٧) .
(٨) تفسيره (٧/ ٨٨) .
(٩) المصدر السابق .

وقد تقصينا الكلام على ذلك في « التفسير »[١] فليُكْتَب من هناك . ومن أراد مراجعته فلينظره من ثَمَّ . ولله الحمد والمنة .

فصْلٌ

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا رجل سقط اسمه ، حدّثنا حجاج بن محمد ، حدّثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني[٢] قال : فقد الحواريون عيسى[٣] ، فقيل لهم : توجَّه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء ، يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مُرتدٍ بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم ، فقال له بعضهم ـ قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم ـ : ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدى رجليه على الماء ، ثمّ ذهب ليضع الأخرى فقال : أَوّه ، غرقت يا نبي الله! فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء[٤] .

ورواه أبو سعيد بن الأعرابي ، عن إبراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمان بن حرب ، عن أبي هلال ، عن بكر ، بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدّثنا إبراهيم بن الأشعث ، عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى بن مريم : يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا : فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت ، قال : فامشوا إذاً . قال : فمشوا معه في الموج ، فغرقوا ، فقال لهم عيسى : ما لكم ؟ فقالوا : خِفنا الموج . قال : ألا خفتم ربّ الموج . قال : فأخرجهم ، ثمّ ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثمّ بسطها ، فإذا إحدى يديه ذهب ، وفي الأخرى مَدَر[٥] أو حصى ، فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب . قال : فإنهما عندي سواء[٦] .

وقدّمنا في قصة يحيى بن زكريا[٧] عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٩) .
(٢) هو أبو عبد الله البصري . قال ابن حجر : ثقة . ثبت . جليل . من الثالثة ، مات سنة ست ومئة . تقريب التهذيب (١/ ١٠٦) .
(٣) في ب وط : نبيهم عيسى .
(٤) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٢) .
(٥) المدر : التراب المتلبّد .
(٦) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٧) ص (٢١٦) من هذا الجزء .

ورق الشجر ، ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدّخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر[١] عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ، ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى[٢] .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، حدّثنا جعفر بن بُرْقَان[٣] أن عيسى كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتَهناً بعملي ، فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمتْ بي عدوي ، ولا تَسُؤْ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في دِيني ، ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني[٤] .

وقال الفُضيل بن عياض ، عن يونس بن عُبيد : كان عيسى يقول : لا نصيب[٥] حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أَكَلَ الدنيا[٦] .

وقال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكَّرت[٧] في الخلق ، فوجدت من لم يُخلق أغبط عندي ممن خُلق[٨] .

وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين ، يؤمُّ الزاهدين يوم[٩] القيامة . قال : وإن الفرّارين بذنوبهم ، يُحشَرون يوم القيامة مع عيسى[١٠] .

قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسّده ، وقد وجد لذة النوم ، إذ مرّ به إبليس فقال :

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٣) في الأصل : بلقان . وهو تحريف . وأثبت ما في مختصر ابن منظور ، وجعفر بن بُرقان الكلابي ، أبو عبد الله الرقي ، من الطبقة السابعة . قال ابن حجر : صدوق ، يهم في حديث الزهري . التقريب (١/ ١٢٩) . توفي سنة (١٥٠هـ) .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٥) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : لا يصيب أحد .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٧) في ب : تفكرت .
(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .
(٩) قوله : يؤم الزاهدين : ليس في ب وط . ومختصر تاريخ دمشق .
(١٠) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .

يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ! فهذا الحجر من عرض الدنيا . فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا[١] .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جُبَّة صوف وكساءٌ وتُبَّان[٢] حافياً باكياً شعِثاً ، مصفرّ اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش . فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلتُ الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، وسراجي القمر بالليل ، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وريحاني بُقُول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجلسائي الزَّمنى[٣] ، والمساكين ، أُصبح وليس لي شيء ، وأمسي وليس لي شيء[٤] ، وأنا طيّب النفس غير مكترث ، فمن أغنى مني وأربح ! رواه ابن عساكر[٥] .

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حيان أبي الحسن العقيلي المصري : حدّثنا هانىء بن المتوكل الإسكندراني ، عن حَيْوة بن شُريح ، حدّثني الوليد بن أبي الوليد ، عن شُفَي بن ماتع[٦] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تُعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنّك ألفَ حوراء ، ولأولمنَّ عليك أربعمئة عام[٧] .

وهذا حديث غريب رفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية شُفَي بن ماتع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين . والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حَوشب قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة ، فكذلك فاتركوا لهم الدنيا[٨] .

وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سلوني فإني ليّن القلب ، وإني صغير عند نفسي .

وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : كلوا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .
(٢) التبان : سراويل صغير يستر العورة فقط .
(٣) الزمنى : المرضى المبتلون بدوام المرض .
(٤) قوله : وأمسي وليس لي شيء . سقط من ب .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٦ ـ ١١٧) .
(٦) في ط : سفي بن نافع . وفيه تصحيف وتحريف . وشُفَي بن ماتع الأصبحي ممن رووا عن أبي هريرة ، وهو من الطبقة الثالثة ، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك . ووثقه ابن حجر . تقريب التهذيب (١/ ٣٥٣) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٩٨) .
(٨) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٧) ، عن سفيان بن عيينة .

خبز الشعير ، واشربوا الماء القَراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين ، بحق ما أقول لكم : إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين ، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه ، يود أن الناس كلّهم مثله[١] .

ورُوي نحوه عن أبي هريرة[٢] .

وقال أبو مصعب ، عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : يا بني إسرائيل عليكم بالماء القَراح والبقل البَرِّي ، وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البُرِّ ، فإنكم لن تقوموا بشكره[٣] .

وقال ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تَعْمُروها . وكان يقول : حب الدنيا رأس كلّ خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وحكى وُهَيب بن الوَرْد مثله ، وزاد : ورُبّ شهوةٍ أورثت أهلها حُزناً طويلاً[٤] .

وعن عيسى عليه السلام : يا ابن آدم الضعيف ، اتقّ الله حيثما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلّم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة[٥] .

وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتّخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً[٦] .

وفي هذا يقول سابق البربري[٧] : [من البسيط]

لكُم بيوتٌ بمستَنِّ السُّيوفِ وهَلْ يُبنَى على الماءِ بيتٌ أُسُّه مَدَرُ

وقال سفيان الثوري : قال عيسى بن مريم : لا يستقيم حبُّ الدنيا وحبُّ الآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء[٨] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٤) المصدر السابق (٢٠/ ١١٩) .
(٥) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) ، وهو عن عتبة بن يزيد .
(٦) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٠) .
(٧) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، شاعر أموي ، سكن الرقة ، ووفد على عمر بن عبد العزيز . واتصف شعره بالزهد والموعظة . توفي نحو سنة (١٠٠هـ) .
والبربري : لقب له ، وليس نسبة إلى البربر . ترجمته في مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٨٠) خزانة الأدب (٩/ ٥٣٢) والأعلام (٣/ ٦٩) .
(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .

وقال إبراهيم الحربي ، عن داود بن رُشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي قال : قال عيسى[(١)] : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله[(٢)] .

وعن عيسى عليه السلام : إن الشيطان مع الدنيا ، ومَكْرُهُ[(٣)] مع المال ، وتزيينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات[(٤)] .

وقال الأعمش ، عن خيثمة : كان عيسى يصنع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى[(٥)] .

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحِجْر [حملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وعنه : طوبى] [(٦)] لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظ لسانه ، ووسعه بيته[(٧)] .

وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدِّث نفسها بالمعصية ، وانتبهت إلى غير إثم[(٨)] .

وعن مالك بن دينار قال : مرّ عيسى وأصحابه بجيفة ، فقالوا : ما أنتن ريحَها ! فقال : ما أبيض أسنانَها ، لينهاهم عن الغيبة[(٩)] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى بن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدَنيِّ الدُّنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بِدَنيِّ الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا : وفي ذلك يقول الشاعر : [من البسيط]

أرى رِجالاً بأدنى الدِّينِ قَدْ قَنِعوا ولا أَراهُم رَضُوا في العَيْشِ بالدّونِ
فاستَغْنِ بالدينِ عنْ دنيا الملوكِ كما اسْتغنَى الملوكُ بدُنياهُم عنِ الدِّينِ[(١٠)]

---

(١) في هامش ب : لعله : مثل .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .
(٣) في ط . وفكره من المال .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .
(٥) في ب : تصنعوا بالفقراء . وفي ط : فاصنعوا بالقرى .
والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) ، ونصه : إذا صنع الطعام ، فدعا القرّاء ، قام عليهم ثم قال : هكذا فافعلوا بالقراء .
(٦) سقطت من ب بنقلة عين . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٢) .
(١٠) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٣ ـ ١٢٤) .

وقال أبو مصعب ، عن مالك : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوَ قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيدٌ من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلًى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية[١] .

وقال الثوري : سمعت أبي يقول ، عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى لأصحابه : بحقٍّ أقول لكم : من طلب الفردوس فخبز شعير له[٢] والنوم في المزابل مع الكلاب كثير[٣] .

وقال مالك بن دينار : قال عيسى : إن أكل الشعير مع الرَّماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا لهذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم : نحن أعظم بطوناً من الطير ، فانظروا إلى هذه الأباقر[٤] من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها[٥] .

وقال صفوان بن عمرو ، عن شريح بن عبيد الله ، عن يزيد بن ميسرة قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه ، قال : آمين آمين بحقٍّ أقول لكم : لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً ، إنّ أحبّ إلى الله منها القلوب الصالحة ، وبها يعمرُ الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك[٦] .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في « تاريخه » : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي ، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوَرْكانية[٧] ، قالت : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاءً ، حدّثنا الوليد بن أبان إملاءً ، حدّثنا أحمد بن جعفر الرازي ، حدّثنا سهل بن

(١) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٤) .
(٢) قوله : له . زيادة من ب ، وهي كذلك في مختصر ابن منظور .
(٣) زاد في ب : في حقه . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٤) .
(٤) في ط : الأباقير . وفي مختصر ابن منظور : الأنافر .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٤) .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٨) .
(٧) الوركانية : نسبة إلى محلة بأصبهان . وعائشة بنت الحسن هذه عالمة واعظة ، توفيت سنة (٤٦٣هـ) . اللباب (٣/ ٣٦١) .

إبراهيم الحنظلي ، حدّثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز ، عن المعتمر ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : مرّ عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال : أي ربّ مُر هذه المدينة أن تجيبني . فأوحى الله إلى المدينة : أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى . قال : فنادت المدينة عيسى : حبيبي وما تريد مني ؟ قال : ما فعل أشجارك ؟ وما فعل أنهارك ؟ وما فعل قصورك ؟ وأين سكانك ؟ قالت : حبيبي جاء وعد ربك الحق ، فيبست أشجاري ، ونشفت أنهاري ، وخربت قصوري ، ومات سكاني . قال : فأين أموالهم ؟ فقالت : جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني ، لله ميراث السموات والأرض . قال : فنادى عيسى عليه السلام : تعجَّبتُ[١] من ثلاثة أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . ابنَ آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك ، وتقدم على رب لا يعذرك ، إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما يُملأ بطنك إذا دخلت قبرك . وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان[٢] غيرك .

هذا حديث غريب جداً ، وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري، عن أبيه ، عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه[٣] .

وقال ثور بن يزيد ، عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى ابن مريم : من تعلّم وعَلِم وعمل دُعي عظيماً في ملكوت السماء[٤] .

وقال أبو كريب : روي أن عيسى عليه السلام قال : لا خير في علم لا يَعْبُر معك الوادي ويعبر بك النادي[٥] .

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً : أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال : يا معشر الحواريين لا تحدِّثوا بالحكمة[٦] غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمرٌ تبيَّن رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيُّه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه ، فردُّوا علمه إلى الله عز وجل[٧] .

---

(١) كذا في ب ، ومختصر ابن منظور ، وهو الأشبه بالصواب . وفي أ وط : فعجبت .
(٢) في ب : ميراث . وفي مختصر ابن منظور (٢٠/ ١٢٨ ـ ١٢٩) . ترى حسد مالك في ميزان غيرك .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٩) .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٩) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٩) ، وفيه : ولا يعمر بك النادي .
(٦) كذا في ب ، وهو موافق لما في مختصر تاريخ دمشق . وفي أ وط : بالحكم .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٩ ـ ١٣٠) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن رجل ، عن عِكرمة قال : قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير[١] .

وكذا حكى وهب وغيره عنه . وعنه أنه قال لأصحابه : أنتم ملح الأرض ، إذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عُجب ، والصُّبْحة من غير سهر[٢] .

وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلّة العالم . فإن العالم إذا زلّ يزلُّ بزلّته عالم كثير[٣] .

وعنه أنه قال : يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاءٌ وعملكم داءٌ ، مَثَلكم مثل شجرة الدفلى[٤] تُعْجِبُ من رآها وتَقْتُلُ مَنْ أَكَلَها[٥] .

وقال وهب : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ، ولا تَدَعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه[٦] .

وقال مكحول : التقى يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيى : يا ابن خالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟! فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يئست . فأوحى الله إليهما إن أحبكما إليّ أبشُّكما بصاحبه[٧] .

وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يُدلّى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه ، فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسّع وَسَّع[٨] .

وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت تفطّر جلده دماً .

والآثار في مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر[٩] منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر . والله الموفق للصواب .

***

---

(١) وهو في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٠) .
(٢) المصدر السابق . والصبحة : نوم الغداة .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الدفلى : شجر مرّ ، أخضر حسن المنظر ، لا يأكله شيء ، وهو من السموم .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣١) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٤) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) مختصره لابن منظور (٢٠/ ٨٢ ـ ١٥٤) .

ذكر[(١)] رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
في حفظ الربّ وبيانِ كذب اليهود والنصارى عليهم لعائن الله في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران : ٥٤ ـ ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[النساء : ١٥٥ ـ ١٥٩] فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به ، وخلّصه ممن كان أراد أذيّته من اليهود الذين وشَوا به إلى بعض الملوك الكفَرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ، ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نودا[(٢)] ، فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دارٍ ببلد بيت[(٣)] المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ، أُلقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورُفع عيسى من رَوْزَنة[(٤)] من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشُّرَط فوجدوا ذلك الشاب الذي أُلقي عليه الشبه ، فأخذوه ظانّين أنّه عيسى ، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له ، وسلَّم لليهود عامةُ النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب ، وضَلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً . وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام كما بيّنا ذلك ، بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء[(٥)] ، وكما سنورد ذلك مستقصًى في كتاب الفتن

---

(١) ليست في ط .
(٢) في مختصر تاريخ دمشق : بوذا . الخبر ثمة (٢٠/ ١٣٥) .
(٣) في ب : ببلد في بيت . وفي ط : ببيت المقدس .
(٤) ليست في ط . والروزنة : الكوة ، أو الخرق في أعلى السقف .
(٥) تفسير ابن كثير .

والملاحم[١] عند أخبار المسيح الدجّال ، فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال ، وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء .

قال ابن أبي حاتم : حدّثنا أحمد بن سنان ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماءً ، فقال : إنّ منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثمّ قال : أيّكم يُلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له : اجلس . ثمّ أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس . ثمّ أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : أنت ، هو ذاك ، فأُلقي عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى من رَوْزَنةٍ في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه ، فقتلوه ، ثمّ صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثمّ صعد إلى السماء ، هؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثمّ رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾[٢] [الصف : ١٤].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم .

ورواه النسائي عن أبي كُريب ، عن أبي معاوية ، به نحوه .

ورواه ابن جرير ، عن سَلْم[٣] بن جُنادة ، عن أبي معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف . وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار قال : وجَعَل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخّر أجله ، يعني ليبلِّغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله ، قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : فطرس[٤] ، ويعقوب بن زبدا ، ويحنس أخو يعقوب ، واندرابيس ، وابن قلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن خلفايا ،

---

(١) في آخر هذا الكتاب .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٨) .

(٣) في ب : ابن خزيمة . وفي ط : مسلم بن جنادة . وهو تحريف . وسَلْم بن جنادة بن سلم السُّوائي ، أبو السائب الكوفي وثقه ابن حجر في التقريب (١/ ٣١٣) . توفي سنة (٢٥٤هـ) .
والخبر أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/ ٦٠) .

(٤) حصل في أسماء الحواريين تصحيف وتحريف كثير بين المطبوع ونسخنا . وكذلك في تفسير الطبري (٦/ ١١) .

وتراوسيس ، وقنانيا ، ويودس ، وزكريا يوطا ، وهذا هو الذي دلّ اليهود على عيسى .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى ، وهو الذي أُلقي شبه المسيح عليه فصُلِب عنه . قال : وبعض النصارى يزعم أن الذي صُلب عن المسيح وأُلقي عليه شبهه هو يودس بن زكريا يوطا . والله أعلم .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يوذا[١] الذي ألقي عليه الشبه[٢] .

وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال : سمعت الفَرّاء[٣] يقول في قوله : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودي ، فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره ، فكسروا الباب ، ودخل رأس جالوت[٤] ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى[٥] ، ثمّ خرج إلى أصحابه فقال : لم أره . ومعه سيف مسلولٌ ، فقالوا : أنت عيسى . وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فقال جلّ ذِكْرُه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

وقال ابن جرير[٦] : حدّثنا ابن حميد ، حدّثنا يعقوب القُمّي ، عن هارون بن عنترة ، عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت ، فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صوَّرهم[٧] الله كلّهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سَحَرْتمونا ، لتُبرِزُنَّ إلينا[٨] عيسى أو لنقتلنَّكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم[٩] نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوَّره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثَم شُبِّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى . وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورَفَعَ اللهُ عيسى من يومه ذلك .

---

(١) في ط : يودس . وفي مختصر تاريخ دمشق بوذا .
(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٩) .
(٣) معاني القرآن (١/ ٢١٨) . وفيه اختلاف عما هاهنا .
(٤) في ب : الجالوت . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق .
(٥) في ب : فوقع يمشي ثم خرج . .
(٦) تفسيره (٦/ ١٠) .
(٧) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي أ : عليه صورهم .
وفي ب : عليه صوره .
(٨) في ب : ليبرز لنا . وفي تفسير الطبري : لتبرزن لنا .
(٩) قوله : منكم ، زيادة من ب وط . وفي تفسير الطبري نفسه منكم .

قال ابن جرير[١] : وحدّثنا المثنى ، حدّثنا إسحاق ، حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدّثني عبد الصمد بن مَعْقِل أنه سمع وَهْباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا ، جَزِعَ من الموت وشقَّ عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً ، فقال : احضُروني الليلة فإن لي إليكم حاجةً ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشّاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده[٢] ، ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا من ردّ عليّ شيئاً الليلة[٣] مما أصنع فليس مني ولا أنا منه ، فأقرّوه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أمّا ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسّلت أيديكم بيدي ، فليكن لكم بي أسوة فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظّم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم نفسه لبعض[٤] كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي الليلة التي استعنتكم عليها فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أَجَلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدّعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ما ندري مالنا ! والله لقد كنّا نسمر فنكثر السّمر وما نطيق الليلة سمراً ، وما نريد دعاءً إلا حِيْل بيننا وبينه ! فقال : يَذهب الراعي وتتفرّق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعى به نفسه .ثمّ قال : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلنّ ثمني . فخرجوا وتفرّقوا ، وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه ، فجحد وقال : ما أنا بصاحبه ، فتركوه . ثمّ أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثمّ سمع صوتَ ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود ، فقال : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلّهم عليه ، وكان شبّه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل ، وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تُحيي الموتى وتنتهر الشيطان[٥] وتبرىء المجنون ، أفلا تنجي[٦] نفسك من هذا الحبل ، ويبصقون عليه ، ويلقون عليه الشوك حتى أتَوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلَبوا ما شُبّه لهم ، فمكث سبعاً . ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : عَلامَ تبكيان ؟ قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ولم يُصِبْني إلّا خير ، وإن هذا شيء شُبّه لهم .

---

(١) تفسيره (٦/ ١٠ ـ ١١) . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٦) .
(٢) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي أ وب أخذ يوضئهم ويغسل أيديهم بيده .
(٣) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي ب . شيئاً عليَّ . وفي أ : الليلة شيئاً .
(٤) في ط . وتفسير الطبري لبعض نفسه .
(٥) كذا في ط . وتفسير الطبري . وفي أ : وتنهر الشياطين .
(٦) كذا في ب . وط . وتفسير الطبري . وفي أ : تفتكّ .

فأَمُرَا الحواريين أن يَلقوني إلى مكان كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر ، وفَقَد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود فسأل عنه أصحابَه ، فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقَتَل نفسه . فقال لو تاب لتاب الله عليه . ثمّ سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له : يحيى ، فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كلّ إنسان منكم[١] يحدّث بلغة قومٍ فلينذرهم وليدْعُهم .

وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصحّ مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها أماكن المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت ، وأن جسده صلب . وهذا بُهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل ، وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحقّ ومقتضى النقل[٢] .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صُلب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنّه ابنها أن ينزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ، ودُفن هنالك . فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا ، فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحداً ، فرجت مريم أن يكون جبريلَ ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أمَّ يحيى وذهبت نحو القبر ، فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلّم عليه وأحدث[٣] عهداً به . فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيحَ وطهَّره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذي أُلقي شبهه عليه وصُلِبَ وقُتِلَ مكانه . وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل . فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا فأْتي غيضة كذا وكذا فإنك تلقَيْن المسيح . قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة ، فلما رآها أسرع إليها فأكبَّ عليها ، فقبّل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أُمَّه إن القوم لم يقتلوني ، ولكنَّ الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك ، والموت يأتيك قريباً ، فاصبري واذكري الله كثيراً . ثمّ صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت .

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري : كان عمر عيسى عليه السلام يومَ رُفع أربعاً وثلاثين سنة .

---

(١) قوله : منكم . زيادة من ط . وتفسير الطبري .
(٢) في ب : الدليل .
(٣) في ب : وأحدثه .

وفي الحديث : « إنَّ أهلَ الجنة يدخلونها جُرداً مُرداً مكحّلين أبناء ثلاث وثلاثين »[١] .

وفي الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحُسْنِ يوسف[٢] .

وكذا قال حماد بن سلمة ، عن علي بن زَيْد[٣] ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : رُفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في « مستدركه » ويعقوب بن سفيان الفسوي في « تاريخه »[٤] عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع عن يزيد ، عن عمارة بن غَزيّة ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، أن أمَّه فاطمة بنت الحسين حدّثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها[٥] أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله ، وأنه أخبرني أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومئة سنة ، فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين . هذا لفظ الفسوي ، فهو حديث غريب[٦] .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : إن عيسى بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة[٧] . وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعمش عن إبراهيم : مكث عيسى في قومه أربعين عاماً .

ويروى عن أمير المؤمنين علي أن عيسى عليه السلام رُفع في ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي علي بعد طعنه بخمسة أيام[٨] .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رُفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها ، وجاءته مريم فودَّعته وبكت ، ثمّ رُفع وهي تنظر ، وألقى إليها عيسى برداً له وقال : هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أُمُّه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٥) ، في صفة الجنة ، باب ما جاء في سن أهل الجنة ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٣) . من طريق معاذ بن جبل رضي الله عنه .
وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة مرسلاً ولم يسندوه .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤٢) .

(٣) في ط : « يزيد » محرف ، وهو علي بن زيد بن جُدعان ، ضعيف ، من رجال التهذيب .

(٤) لعل الحديث ورد في القسم المفقود من كتابه « المعرفة والتاريخ » لأن المطبوع منه يبدء بسنة (١٣٥هـ) .

(٥) قوله : أخبرها ، زيادة من ب وط .

(٦) زاد في ب جداً . والخبر مفصلاً أورده ابن عساكر . مختصر تاريخه (٢٠/ ١٤١ ـ ١٤٢) .

(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤٢) .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤١) .

غاب عنها ، وكانت تحبّه حباً شديداً ، لأنه توفر عليها حُبُّه من جهتي الوالدين ، إذْ لا أبَ له ، وكانت لا تفارقه سَفَراً ولا حضراً . فكانت كما قال بعض الشعراء :

وكُنتُ أرى كالموْتِ من بَينِ ساعةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كانَ مَوْعِدَه الحَشْرُ

وذكر إسحاق بن بِشْر ، عن مجاهد بن جبر[١] أن اليهود لمَّا صَلبوا ذلك الرّجل الذي شُبّه لهم ، وهم يحسبونه المسيح ، وسَلّم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلّطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس ، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم ، وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلّطوا على أصحاب رجلٍ كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يُحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويفعل العجائب ، فَعَدَوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم ، فبعث ، فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح ، فأخبروه عنه ، فبايعهم في دينهم ، وأعلى كلمتهم ، وظهر الحق على اليهود ، وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه ، وجيء بالجذع الذي صُلب عليه ذلك الرجل فعظّمه[٢] .

فمن ثَمَّ عَظَّمتِ النصارى الصليبَ ، ومن هاهنا دخل دين النصرانية في الروم[٣] .

وفي هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبيٌّ لا يُقرُّ على أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .

الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمئة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن[٤] باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أنّ اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثمّ ألقوه بخشبته ، جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة[٥] وجِيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور ، فعمدت أُمُّه هيلانة الحرّانية الفندقانية ، فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صُلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسّها ذو عاهة إلا عوفي . فالله أعلم أكان هذا أم لا ، وهل كان هذا لأن ذلك

(١) في الأصول والمطبوع : جبير ، وهو تصحيف ، ومجاهد بن جبر ، هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي التابعي إمام في التفسير والعلم .

(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٣٩) .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٩ ـ ١٤٠) .

(٤) في ب : بن قسطنطين وفي بعض النسخ : قسطسن .

(٥) في ب : والكناسة .

الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمّة النصارى في ذلك اليوم حتى عظّموا تلك الخشبة وغَشَّوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثمّ اتخذوا الصلبانات وتبرّكوا بشكلها وقبّلوها لعنهم الله وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبُني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها : القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها : القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثمّ أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قِبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه ، وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلّى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء ، وهو الأقصى .

* * *

ذكر[١] صِفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل : سُمِّي المسيح لمسحه الأرض ، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدّة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمّه عليهما السلام .

وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقَفَّيْنا عَلَىٰ آثارِهِم[٣] بعيسىٰ بنِ مَرْيَمَ وآتَيْناهُ الإنْجِيْلَ فيهِ هُدىٰ ونُورٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

والآيات في ذلك كثيرةٌ جداً .

وقد تقدم[٤] ما ثبت في (الصحيحين)[٥] : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهلّ صارخاً إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب » .

وتقدم[٦] حديث عُمير بن هانيء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم[٧] .

---

(١) ليست في ط .
(٢) وثمة أقوال أخرى أوردها الأصفهاني في معجمه مفردات ألفاظ القرآن (٤٨٨) .
(٣) زاد في ط : برسلنا قفينا وهو التباس بالآية الكريمة الأخرى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧] .
(٤) ص ٢٣١ .
(٥) في البخاري : رقم (٣٢٨٦) في بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده . ورقم (٣٤٣١) في الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ . ورقم (٤٥٤٨) في التفسير ، باب ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ . وأخرجه مسلم (٢٣٦٦) في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .
والاستهلال : صياح المولود عند الولادة . وقوله : فطعن في الحجاب ، أي : في المشيمة وهي التي يكون فيها المولود جامع الأصول (٨/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣) .
(٦) صفحة ٢٥٠ . عن البخاري فقط .
(٧) صحيح مسلم رقم (٢٩) في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة .

وروى البخاري[١] ومسلم[٢] من حديث الشعبي ، عن أبي بُرْدة بن أبي موسى ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدَّبَ الرجلُ أَمَتَهُ فأحْسَنَ تأديبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، ثمّ أعتقها ، فتزوَّجها ؛ كان له أجران . وإذا آمن بعيسى ابن مريم ، ثم آمن بي فله أجران . والعبد إذا اتّقى ربّه وأطاع مواليه فله أجران » هذا[٣] لفظ البخاري .

وقال البخاري[٤] : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام عن معمر ، « ح » وحدّثني محمود ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزُّهري ، أخبرني سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لَيلَةَ أُسْرِيَ بي لقيتُ موسى » قال : فنعته فإذا رَجُلٌ حَسِبْتُهُ قال مُضطرب رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : « ولقيت عِيسى »فنعته النبي ﷺ فقال : « رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنّما خَرَجَ مِن دِيماس » يعني : الحمّام « ورأيتُ إبراهيمَ وأنا أشْبَهُ ولده به » . الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم[٥] وموسى[٦] .

ثم قال : حدّثنا محمد بن كثير ، أخبرنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « رأيتُ عِيسى وموسى وإبراهيم ، فأمّا عيسى فأحمرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدْر . وأما موسَى فآدمُ جَسِيْمٌ سَبِطٌ ، كأنّه من رِجال الزُّطِّ » تفرّد به البخاري[٧] .

وحدّثنا إبراهيم بن المنذر ، حدّثنا أبو ضَمْرة ، حدّثنا موسى بن عُقْبة ، عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بينَ ظَهْراني الناسِ المسيحَ الدجّالَ فقال : « إنَّ اللهَ لَيْسَ بأعورَ إلّا أنَّ المسيحَ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٩٧) ، في العلم ، باب تعليم الرجل أمته وأهله ، ورقم (٢٥٤٤) و(٢٥٤٧) في العتق ، باب فضل من أدب جاريته وعلمها ، ورقم (٣٠١١) ، في الجهاد ، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين ، ورقم (٣٤٤٦) في أحاديث الأنبياء، ورقم (٥٠٨٣) ، في النكاح ، باب اتخاذ السراري ، ومن أعتق جارية ثم تزوجها .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٥٤) ، في الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ .

(٣) هذا ، زيادة من ط . وثمة اختلاف بين لفظ البخاري والنص هنا .

(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٧) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
وكذلك هو فيه رقم (٣٣٩٤) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ من طريق إبراهيم بن موسى وحده . والرَّبْعة : المربوع . قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٤) : والمراد أنه ليس بطويل جداً ولا قصير جداً ، بل وسط . والمراد بقوله : كأنما خرج من ديماس : أن يصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه .

(٥) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٦) في هذا الجزء ص (٥) .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٨) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
والسبط : الذي ليس بجعد ، من صفات الشَّعر . والزُّط : جنس من السودان ، وقيل : هم نوع من الهنود ، وهم طوال الأجسام مع نحافة فيها . فتح الباري (٦/ ٤٨٥) .

الدجّالَ أعورُ العينِ اليمنى كأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِية . وأراني الليلةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ في المنامِ فإذا رَجُلٌ آدَمُ كأحْسَنِ ما يُرى من أُدْمِ الرِّجالِ ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَينَ مَنْكِبَيْهِ ، رَجِلُ الشَّعْرِ ، يَقْطُرُ رأسُه ماءً ، واضعاً يديهِ على مَنْكِبي رَجُلَيْنِ ، وهُو يطوفُ بالبيت ، فقلتُ : من هذا ؟ فقالوا : المسيحُ بنُ مريمَ . ثُمَّ رأيتُ رَجُلاً وراءَهُ جَعْداً قَطَطاً أعورَ عينِ اليُمْنَى كأشْبَهِ من رأيتُ بابنِ قَطَنٍ ، واضعاً يدَه على مَنكبي رَجُل يطوفُ بالبيتِ ، فقلتُ : مَن هذا ؟ فقالوا : المسيحُ الدَّجّال »[١] .

ورواه مسلم[٢] من حديث موسى بن عقبه به[٣] .

ثمّ قال البخاري : تابعه عُبيد الله ، عن نافع[٤] . ثمّ ساقه من طريق الزُّهري عن سالم [عن] ابن عمر . قال الزهري : وابن قَطَن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية[٥] .

فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحَيْنِ مسيحِ المهدي ومسيحِ الضلالة ، ليُعرَفَ هذا إذا نَزَل فيؤمن به المؤمنون ، ويُعرَف الآخر فيحذره الموحِّدون .

وقال البخاري[٦] : حدَّثنا عبد الله بن محمد ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن همام بن منبّه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق ، فقالَ له : أسَرَقْتَ ؟ قال : كلاّ والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنت بالله وكذّبْتُ عيني » .

وكذا رواه مسلم عن[٧] محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

وقال أحمد[٨] : حدّثنا عفان ، حدّثنا حمّاد بن سلمة ، عن حُميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رَجُلاً يَسْرِقُ فقالَ : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقت . فقال : آمنتُ بالله وكذَّبْتُ بصري » .

---

(١) رواه البخاري : رقم(٣٤٣٩) (٣٤٤٠) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
وقوله : طافية : أي بارزة . وآدم : أسمر . واللمّة : شعر الرأس إذا جاوز الأذنين . ورجِل الشعر : أي قد سرحه ودهنه . والقطط : شدة جعودة الشعر .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٦٩) ، في الإيمان ، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال .

(٣) به ، زيادة من ب .

(٤) في ط . عبد الله بن نافع . وهو خطأ .

(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٤١) . في الأنبياء ، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .

(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٤) . في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .

(٧) قوله : مسلم عن ، سقط من ط . والحديث في صحيح مسلم ، رقم(٢٣٦٨) ، في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .

(٨) المسند (٢/ ٣٨٣) .

وهذا يدلّ على سجيّةٍ طاهرة ، حيث قدَّم حلف ذلك الرجل ، فظنَّ أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً ، على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عُذرَه ، ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله ، أي : صدَّقتُك ، وكذّبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري[1] : حدّثنا محمد بن يوسف ، حدّثنا سُفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تُحشَرُونَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً » ثمّ قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأوّلُ الخلقِ يُكْسَى إبراهيم ، ثمّ يُؤْخَذُ برجالٍ من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول : أصحابي ! فيقال : إنّهم لن يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتَهُم . فأقول كما قال العبدُ الصالحُ عيسى ابنُ مريم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٧ - ١١٨]

تفرّد به دون مسلم من هذا الوجه .

وقال[2] أيضاً : حدّثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيدِي ، حدّثنا سفيان ، سمعت الزُّهْري يقول : أخبرني عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عُمر يقول على المنبر : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تُطْروني كما أطْرتِ النَّصارى عيسى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ ورسولُه » .

وقال البخاري[3] : حدّثنا مسلم بن[4] إبراهيم ، حدّثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لم يَتكَلَّمْ في المهدِ إلّا ثلاثةٌ : عيسى ، وكانَ في بني إسرائيل رجلٌ يقال له جُرَيج يُصَلِّي إذْ جاءته[5] أُمُّهُ فدعتْه ، فقال : أُجِيبُها أو أُصَلِّي ؟ فقالت : اللهم لاتُمِتْهُ حَتّى تُريه وجوهَ المومساتِ . وكان جُريجٌ في صَوْمَعةٍ ، فتعرَّضتْ[6] له امرأة وكلَّمته فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاماً ، [فقيل لها : ممن ؟][7] قالت : من جريج . فأتَوْه وكَسروا صومعته ، فأنزلوه وسبّوه . فتوضّأ وصلّى ، ثمّ أتى الغلامَ فقالَ : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلانٌ الراعي . قالوا : أنبني صومعتَكَ من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين . وكانتِ امرأةٌ تُرضعُ ابناً لها في بني إسرائيل ، فمرَّ بها رجلٌ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٧) ، في الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٢) صحيح البخاري رقم(٣٤٤٥) ، في الأنبياء ، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٦) ، في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٤) قوله : مسلم بن سقط من ط .
(٥) في البخاري : كان يصلي فجاءته .
(٦) كذا في ب . وهو موافق لرواية البخاري ، في م وط « فعرضت » .
(٧) ليست في البخاري .

راكبٌ ذُو شَارَةٍ . فقالتْ : اللهمَّ اجعل ابني مثلَه ، فترك ثديَها وأقبلَ على الراكِب فقال : اللهم لا تجعلْني مثلَه . ثم أقْبَلَ عَلى ثَدْيها يَمُصُّه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه . « ثم مُر بأَمَةٍ ، فقالتْ : اللهم لا تجعل ابني مثلَ هذه . فتركَ ثديَها فقال : اللهم اجعلني مثلَها . فقالت : لم ذلك ؟ فقالت : الراكبُ جبَّارٌ من الجبابرة ، وهذه الأمَةُ يقولون سَرَقَتْ وزَنَتْ[١] ولم تفعل » .

وقال البخاري[٢] : حدثنا أبو اليَمان ، حدثنا شُعيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سَلَمة أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أَوْلى الناسِ بابنِ مَرْيَم ، والأنبياءُ أولادُ عَلاَّتٍ ، ليس بيني وبينه نبي » .

تفرد به البخاري من هذا الوجه .

ورواه ابن حِبَّان في « صحيحه » من حديث أبي داود الحَفَرِي[٣] ، عن الثوري ، عن أبي الزناد ، عن أبي سَلَمة ، عن أبي هريرة .

وقال أحمد[٤] : حدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان ـ هو الثوري ـ عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أَوْلَى الناسِ بِعيسى عليه السلام ، والأنبياءُ إخْوةٌ أولادُ عَلاَّتٍ ، ولَيْس بيني وبين عِيسى نبي » .

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وأخرجه أحمد[٥] عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه[٦] .

وقال أحمد[٧] : حدّثنا يحيى ، عن ابن أبي عَرُوبة ، حدّثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الأنبياءُ إخْوةٌ لِعَلاّت . ودِينُهم واحدٌ وأُمَّهاتُهُم شَتّى . وأنا أَوْلى الناسِ بِعِيْسَى ابنِ مَرْيَم لأنَّه لم يَكُنْ بَيني وبَيْنه نبيٌّ ، وإنَّه نازِلٌ ، فإذا رأَيْتُموهُ فاعْرِفُوه ، فإنهُ رَجُلٌ مربوعٌ إلى الحُمْرةِ والبياضِ ، سَبط ، كأنَّ رأسَهُ يَقْطُرُ وإنْ لَم يُصِبْهُ بَلَلٌ بَيْن مُمَصَّرَتَيْن[٨] ، فيكسر الصليبَ ، ويَقْتُلُ

---

(١) في البخاري : سرقتِ زنيتِ .

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .

(٣) هو عمر بن سعد بن عبيد أبو داود الحفَري ، ثقة عابد . توفي سنة(٢٠٣هـ) وقيل (٢٠٦هـ) . والحَفَري : نسبة إلى محلة بالكوفة . تقريب التهذيب (٢/ ٥٦) ، واللباب (١/ ٣٧٥) ، والحديث في الإحسان (٦١٩٥) .

(٤) المسند (٢/ ٤٦٣) .

(٥) مسند أحمد (٢/ ٣١٩) .

(٦) الإحسان (٦١٩٤) .

(٧) المسند (٢/ ٤٣٧) .

(٨) في ط : مخصرتين ، وهو تحريف ، والممصرة من الثياب : التي فيها صفرة خفيفة . النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٣٦) .

الخِنزير ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ ، ويُعَطِّلُ المِلَلَ ، حتى يهلك في زمانه المِلَل كلُّها غير الإسلام ، ويُهلك اللهُ في زمانه المسيحَ الدجَّالَ الكذابَ ، وتقع الأَمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمورُ مع البقر ، والذئابُ مع الغنم ، ويلعبُ الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكثُ ما شاءَ اللهُ أنْ يمكثَ ، ثمّ يُتوفَّى ، فَيُصَلِّي عليه المسلمونَ ويدفنونَه » .

ثمّ رواه أحمد[١] عن عَفّان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، فذكر نحوه ، وقال : « فيمكث أربعين سنةً . ثُمَّ يُتوفَّى ويصلّي عليه المسلمون » .

ورواه أبو داود عن هُدبة بن خالد ، عن همام بن يحيى[٢] ، به نحوه .

وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة ، عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » . وسيأتي بيانُ نزولِه عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم[٣] ، كما بسطنا ذلك أيضاً في « التفسير » عند قوله تعالى في سورة النّساء [الآية : ١٥٩] : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الآية[٥] [الزخرف : ٦١] ، وأنَّه ينزل على المنارة البَيضاءِ بدمشق ، وقد أقيمت صلاةُ الصبح ، فيقول له إمام المسلمين : تقدَّم يا روح الله فَصَلِّ ، فيقول : لا ، بعضُكم على بعضٍ أمراء تكرمة الله هذه الأمة ، وفي رواية : فيقول له عيسى : إنما أُقيمت الصلاةُ لكَ ، فيُصلي خلفه . ثمّ يركبُ ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال ، فيلحقه عند باب لُدّ ، فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه قَوِيَ الرجاءُ حِيْنَ بُنيت هذه المنارةُ الشرقيةُ بدمشق التي هي من حِجارة بيض ، وقد بنيت[٦] أيضاً من أموال النصارى حين حَرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحدٍ إلّا الاسلام ، وأنه يخرج[٧] من فج الرَّوْحاء حاجاً أو معتمراً أو ليُثَنِّيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثمّ يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر[٨] في آخر ترجمة[٩] المسيح عليه السلام في كتاب عن

---

(١) المسند (٢/ ٤٠٦) .

(٢) سنن أبي داود (٤٣٢٤) ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن حبان أيضاً (٦٨٢١) .

(٣) في الجزء الأخير من هذا الكتاب . وهناك تخريج الأحاديث الواردة في ذلك .

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٨) وما بعدها .

(٥) التفسير (٤/ ١٣١) وما بعدها .

(٦) أشار ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٣) إلى أن المنارة المذكورة بنيت سنة إحدى وأربعين وسبعمئة .

(٧) كذا في ب . وفي أ وط : يحج . وفج الروحاء : بين مكة والمدينة .

(٨) مختصر ابن منظور (٢٠/ ١٥٤) .

(٩) كذا في ط : وفي بعض النسخ : بعثة . وفي ب قصة .

عائشة[١] مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمر في الحجرة النبوية . ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذي[٢] : حدّثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدّثنا أبو قتيبة سَلْم[٣] بن قتيبة ، حدّثني أبو مودود المدني ، حدّثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه ، عن جدّه قال : مكتوب في التوراة صفة محمد ، وعيسى ابن مريم عليهم السلام يُدفن معه . قال أبو مَوْدُود : وقد بقي من البيت موضع قبر . ثمّ قال الترمذي : هذا حديث حسن[٤] . كذا قال : والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتابَع عليه .

وروى البخاري[٥] عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصمٍ الأحول ، عن أبي عثمان النَّهْدي ، عن سلْمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمئة سنة .

وعن قتادة : خمسمئة وستون سنة[٦] . وقيل : خمسمئة وأربعون سنة[٧] .

وعن الضحاك : أربعمئة وبضع وثلاثون سنة[٨] .

والمشهور ستمئة سنة[٩] . ومنهم من يقول ستمئة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمئة بالشمسية . والله أعلم .

وقال ابن حِبّان في صحيحه[١٠] : (ذِكْرُ المدة التي بقيت فيها أُمة عيسى على هديه) : حدّثنا أبو يعلى ، حدّثنا أبو هَمام ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوَضِيْن بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نُفَير ، عن أبي الدرداء قال : ؛ قال رسول الله ﷺ : « لقد قَبَضَ الله داودَ من

---

(١) قوله : عن عائشة ، زيادة من ط . وهو كذلك في مختصر تاريخ دمشق ، وفي ب : في آخر ترجمة المسيح وفيه أنه . .

(٢) سنن الترمذي رقم (٣٦١٧) ، في المناقب ، باب (١) في فضل النبي ﷺ وهو في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٥٤) وإسناده ضعيف .

(٣) في ط : مسلم ، وهو تحريف . ولم يرد الاسم في ب . وسلم بن قتيبة الشَّعيري صدوق . توفي سنة (٢٠٠هـ) أو بعدها . تقريب التهذيب (١/ ٣١٤) .

(٤) في السنن : « حسن غريب » ، وهو الصواب الذي نص عليه المزي في التحفة (٥٣٣٦) .

(٥) صحيح البخاري رقم (٣٩٤٨) ، في مناقب الأنصار باب إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٦) أورده ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٧٧) . في شرح الأحاديث السابقة .

(٧) قال الكلبي ، كما في فتح الباري (٧/ ٢٧٧) .

(٨) المصدر السابق .

(٩) قوله : وقيل خمسمئة . . . إلى هنا . سقط من ب بنقلة عين .

(١٠) الإحسان (١٤/ ٦٢٣٦) .

بين أصحابه فما فُتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سُنته وهديه مئتي سنة » . وهذا حديث غريب جداً وإن صَحَّحه ابن حِبَّان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع وصَّى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعَيَّن كلَّ واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتّى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوتٌ كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ، ونقص بالنسبة إلى الأخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيحَ ورآه وهما متّى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا . وكان ممن آمن بالمسيح وصدَّقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولص اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولِما جاء به ، وكان قد حلق رأسَ ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثمّ رَجَمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جَهَّز بغاله[1] وخرج ليقتله ، فتلقاه عند كوكبا[2] ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه مَلَكٌ فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه . فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به ، فَقَبِل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليردَّ اللهُ عليه بصرَه ، فقال : اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك . فجاء إليه ، فدعا له فرّد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله ، وبُنيت له كنيسة باسمه ، فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتَحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت في الزمان الذي سنورده[3] ، إن شاء الله تعالى .

***

---

(١) في ب : العساكر .
(٢) في معجم البلدان : كوكب : . . . اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية . .
(٣) في ب : سنورده فيما بعد .

فصلٌ

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال ، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف ، كما أوردناه عند قوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] قال ابن عباس وغيره[١] قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء . وقال آخرون[٢] منهم : كان فينا ابن الله فرفعه إليه . وقال آخرون : كان الله فينا فارتفع إلى السماء ، فالأول هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧]

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، ثمّ بعد المسيح بثلاثمئة سنة حدثت فيه الطامّة العظمى والبلية الكبرى ؛ اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة[٣] والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعدّدة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا الملكية[٤] ودَحَض من عداهم وأبعدهم . وتفرّدت[٥] الفرقة التابعة لعبد الله بن اديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله ، فسكنوا البراري والبوادي ، وبَنَوا الصوامع والديارات والقَلاّيات[٦] ، وقنعوا بالعيش الزهيد ، ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل . وبنت الملكية الكنائس الهائلة ، عمدوا إلى ما كان من بناء[٧] اليونان فحوَّلوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدْي .

***

(١) زاد في ب : من أئمة التفسير .
(٢) كذا في ب ، وهو موافق لما أورده ابن كثير قبل قليل (ص٢٨٧) ولما جاء في تفسيره (٤/ ٣٦٢) ، وتفسير الطبري (٢٨/ ٦٠) . وفي العبارة التالية اختلاف . ففي أ : كان فينا فارتفع إلى السماء ، فالأول . . . وفيه نقص . وفي ط : هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، فالأول . . . وفيه نقص أيضاً .
(٣) في أ : والقساقسة . ولم يسمع هذا الجمع لـ (قس) .
(٤) كذا في ب . وفي أ وط الملائكة .
(٥) في ب : وتفرقت .
(٦) القلاّيات : جمع قلاّية ، كالصومعة . وقيل هي قَلِيَّة . لسان العرب : (قلي) .
(٧) في ب : من كنائس .

[١] وبنى الملك قسطنطين بيتَ لحم على محلِّ مولد المسيح ، وبَنَتْ أُمُّه هَيلانة القُمامةَ ، يعني على قبر المصلوب ، وهم يُسلّمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت[٢] هؤلاء وهؤلاء ، ووضعوا القوانين والأحكام ، ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير ، وصلّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلّى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى . ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعةَ عشر شهراً ، ثمّ حُوِّل إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل . وصوَّروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يُسمُّونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة ، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها . وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لأنبّه على ما فيها من ركّة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ ، فيقولون عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة[٣] :

نؤمن بإلّه واحد[٤] ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض كل ما يُرى ، وكل ما لا يرى ، وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل[٥] الدهور ، نور من نور ، إلّه حق من[٦] إلّه حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كلّ شيء من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل السماء وتجسَّد من روح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي ، وتألَّم وقبر ، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبّر الأحياء والأموات ، الذي لافناء لملكة[٧] ، وروح القدس الربّ المحيي[٨] المنبثق من الأب والابن مسجود له ، وبمجد الناطق في الأنبياء كنسبة

---

(١) وُضِع في ط عنوان في الوسط : بيان بناء بيت لحم والقمامة . وهو ليس في متن أ ، بل كتب في الحاشية . وليس في ب .
(٢) في ب : كذب .
(٣) عليهم لعائن الله . . . سقطت من ط .
(٤) في ب : واحد أب .
(٥) في ب : كل الدهور .
(٦) في ب : ابن .
(٧) في ب : الذي رد بوحي بملكه وبروح . . .
(٨) في ب : المنجي .

واحدة جامعة مقدسة بهولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين[١] .

***

(١) زاد في ب هنا : وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القَرَافي في كتابه « الرد على النصارى » لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك إلى اليهود مع دعواهم أنه ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

عجباً للمسيح بين النصارى … وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا … إنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً … وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلّى ابنه رهين الأعادي … أتراهم أرضوه أو أغضبوه
فلئن كان راضياً بأذاهم … فاحمدوهم لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه … واعبدوهم لأنهم غلبوه

كتاب أخبَار الماضين[١]

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة ، سوى أيام العرب وجاهليتهم ، فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] .

وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣]

خبر ذي القرنين

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف : ٨٣ـ٩٨] .

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا ، وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارقَ والمغاربَ ، وملك الأقاليم ، وقَهَرَ أهلها ، وسار فيهم بالمَعْدِلة التامة ، والسلطان المؤيَّد المظفّر المنصور القاهر المقسط .

والصحيح أنه كان مِلكاً من الملوك العادلين[٢] ، وقيل : كان نبياً . وقيل : رسولاً[٣] . وأغربَ من

(١) في ب : الأمم الماضية .
(٢) هذا هو قول علي رضي الله عنه كما أورده السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٣) هذه الأقوال مفصلة في تفسير الطبري (١٦/ ٨) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠) ، والروض الأنف (٢/ ٥٩) .

قال : ملَكاً[١] من الملائكة . وقد حُكي هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فإنه سمع رجلاً يقول لآخر : يا ذا القرنين ، فقال : مَهْ ! ما كفاكم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة . ذكره السهيلي[٢] .

وقد رَوَى وكيعٌ ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبياً .

ورَوَى الحافظُ ابنُ عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر ، عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب ، حدّثنا محمد بن حماد ، أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المَقْبُري ، عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدْري أَتُبَّعٌ كانَ لَعِيناً أمْ لاَ ، ولا أدْري الحدُودُ كَفَّاراتٌ لأَهْلِها أمْ لا ، ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم لا »[٣] .

وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال إسحاق بن بشر ، عن عثمان بن السَّاج ، عن خُصَيْف[٤] ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين مَلِكا صالحاً ، رضي الله عملَه ، وأثنى عليه في كتابه ، وكان منصوراً ، وكان الخضِر وزيره .

وذكروا أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في اصطلاح الناس اليوم .

وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام .

وروي عن عُبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حجَّ ماشياً ، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقّاه ودعا له ووصَّاه[٥] ، وأن الله سخّر[٦] لذي القرنين السحابَ يحمله[٧] حيث أراد . والله أعلم .

---

(١) في ب : كان ملكاً .
(٢) الروض الأنف (٢/ ٦٠) .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) ، في السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء باختصار وفيه « عزير » بدلًا من ذي القرنين . وهو في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٥) .
(٤) هو خُصَيف بن عبد الرحمن ، أبو عون الخِضرمي ، الأموي ، مولاهم الجزري الحرّاني ، رمي بالإرجاء ، وفيه كلام . توفي سنة سبع وثلاثين ومئة ، وقيل غير ذلك . سير أعلام النبلاء (٦/ ١٤٥) .
(٥) في ط : ورضاه . وفيها تحريف وتصحيف .
(٦) في ب : يسخر .
(٧) في ب : السحابة تحمله .

واختلفوا في السبب الذي سُمِّي به ذا القرنين . فقيل : لأنه كان له في رأسه شبه القرنين . قال وهب بن منبه : كان له قرنان من نحاس في رأسه ، وهذا ضعيف ؛ [قال][١] : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم .

وقيل : لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً ، وملك ما بينهما من الأرض . وهذا أشبه من غيره ، وهو قول الزهري[٢] .

وقال الحسن البصري : كانت له غديرتان من شعر يطأ فيهما ، فسمي ذا القرنين .

وقال إسحاق بن بشر ، عن عبد الله بن زياد بن سمعان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه أنّه قال : دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضّه . ثمّ دعاه فدقّ قرنه الثاني فكسره ، فسُمّي ذا القرنين .

وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطُّفيل ، عن علي بن أبي طالب أنه سُئِل عن ذي القرنين فقال : كان عبداً ناصحَ الله[٣] فناصَحَه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومَه إلى الله ، فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فسُمّي ذا القرنين .

وهكذا رواه شعبة عن القاسم[٤] بن أبي بَزَّة ، عن أبي الطفيل ، عن علي ، به .

وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل ، عن علي قال : لم يكن نبياً ولا رسولاً ولا مَلِكاً ، ولكن كان عبداً صالحاً[٥] .

وقد اختُلِف في اسمه : فروى الزبير بن بكّار ، عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد[٦] .

وقيل : مصعب[٧] بن عبد الله بن قَنّان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن غَوث[٨] بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان .

---

(١) زيادة يستوجبها الكلام وهي مثبتة في تفسيره (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١) . وتفسير الطبري (١٦/ ٨) .
(٢) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٣) في ب : ناصحاً إلى الله . والخبر في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٤) زيادة من ب . والخبر في تفسير الطبري (١٦/ ٨) بهذا السند .
(٥) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٦) الروض الأنف (٢/ ٦٠) .
(٧) في المحبر (٣٦٥) : الصعب بن قرين .
(٨) في ط : عون .

وقد جاء في حديث أنه كان من حمير ، وأمه رومية[١] ، وأنه كان يقال له : ابن الفيلسوف ؛ لعقله .

وقد أنشد بعض الحميريين في ذلك شعراً يفخر[٢] بكونه أحد أجداده فقال : [من الكامل]

قَد كانَ ذو القرنَيْنِ جَدّي مُسْلماً   مَلِكاً تدينُ له الملوكُ وتَحشِدُ
بلغَ المشارقَ والمغاربَ يَبتغي   أسبابَ أمرٍ مِنْ حَكيمٍ مُرشِدِ
فرأى مغيبَ الشّمسِ عندَ غُروبها   في عيْنِ ذي خُلْبٍ وثَأْطٍ حِرْمِدِ[٣]
مِن بعدِهِ بلقيسُ كانتْ عمّتي   مَلَكَتهُمُ حتّى أتاها الهدهدُ[٤]

قال السهيلي : وقيل كان اسمه مرزبان بن مَرْذَبة[٥] . ذكره ابن هشام . وذكر ابن هشام في موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذي مراثد ، وهو أول التبابعة ، وهو الذي حكم لإبراهيم[٦] في بئر السبع .

وقيل : إنه أفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحَّاك ، وفي خطبة قُس : يا معشر إياد بن الصعب ، ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمر ألفين . ثم كان ذلك كلحظة عين[٧] ، ثم أنشد ابن هشام للبيد[٨] : [من الكامل]

والصّعبُ ذو القَرنَيْنِ أصبحَ ثاوياً   بالحنوِ في جَدَثٍ ـ أُميم ـ مقيم[٩]

وذكر الدار قطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس ، ويقال : هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان[١٠] بن يافث بن نوح ، فالله أعلم .

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٧٤) وفي الروض الأنف (٢/ ٥٩) : وكانت أمه زنجية .
(٢) في ط : يفتخر . والقائل هو تبع أبو كرب كما في التيجان ١٢ (ص١٢١) والنص من قصيدة طويلة في التيجان (١٢١ ـ ١٢٤) . وثمة بعض خلاف في رواية الشعر ، ولم يرد البيت الأخير (الهدهد) فيها . وهو مختلف الروي ولعله من قصيدة ثانية .
(٣) الخُلْب : الطين والحمأة ، والثأط : كذلك . والحِرْمِد : الطين الأسود .
(٤) في ب : من بعد بلقيس وكانت عمتي .
(٥) في ط : مرزبة ، بالزاي . والذي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) : ايمه مرزبي بن مرذبة بذال مفتوحة اسم أبيه وزاي في اسمه .
(٦) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٧) المصدر السابق .
(٨) نسب ابن هشام البيت للأعشى ، وكذلك نقله عنه السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) ، وابن كثير ، هنا . والبيت ليس في ديوان الأعشى (تح . محمد محمد حسين) . وهو للبيد في ديوانه (ص١٠٩) . من قصيدة مطلعها :
سفهاً عذلتِ وقلت غيرَ مليم   وبُكاك قِدْماً غيرُ جِدٍّ حكيمِ
(٩) في ط : أشم مقيما .. وهو خطأ . وأميم مرخم أميمة . والحنو : موضع .
(١٠) ليست في ب .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن بشير ، عن قَتادة قال : اسكندر هو ذو القرنين ، وأبوه أول القياصرة ، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام[١] .

فأما ذو القرنين الثاني ، فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن هردس[٢] بن ميطون بن رومي بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في « تاريخه »[٣] ـ المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهرٍ طويلٍ كان هذا متأخراً[٤] قبل المسيح بنحو من ثلاثمئة سنة ، وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذلّ ملوك الفرس وأوطأ أرضهم .

وإنما نبّهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير ، فإنّ الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً ، وملِكاً عادلا ، وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً ، على ما قررناه قبل هذا .

وأما الثاني فكان مشركاً ، وكان وزيره فيلسوفاً ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة . فأين هذا من هذا ! لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبيٍّ لا يعرف حقائق الأمور . فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم : سلوه عن رجل طوّافٍ في الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يُدرَى ما فعلوا ، فأنزل الله تعالى قصّة أصحاب الكهف وقصّة ذي القرنين[٥] . ولهذا قال ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي من خبره وشأنه ، ﴿ ذِكْرًا ﴾ أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله ، فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي وسَّعْنا مملكته في البلاد ، وأعطيناه[٦] من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمّات العظيمة والمقاصد الجسيمة .

قال قتيبة ، عن أبي عَوَانة ، عن سِماك ، عن حَبيب بن حماد ، قال : كنت عند علي بن أبي طالب ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ، فقال له : سُخِّرَ له السّحاب ، ومُدَّت له الأسباب ، وبُسط له في النور . وقال : أَزيدُك ؟ فسكت الرجلُ ، وسكت عليٌّ رضي الله عنه .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٣) .
(٢) ليست في ط .
(٣) تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٠) .
(٤) ليست في ط .
(٥) وقيل إن الذين سألوه هم اليهود . تفسير الطبري (١٦/ ٧) وأسباب النزول للواحدي (٢٢٥) .
(٦) في ب : وآتيناه .

وعن أبي إسحاق السَّبِيعي ، عن عمرو بن عبد الله الوادعي ، سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة : سليمان بن داود النبي عليهما السلام ، وذو القرنين ، ورجلٌ من أهل حلوان ، ورجلٌ آخر . فقيل له : الخضر ؟ قال : لا[١] .

وقال الزبير بن بكار : حدثني إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن الضحاك ، عن أبيه ، عن سفيان الثوري قال : بلغني أنه مَلك الأرضَ كلَّها أربعة : مؤمنان وكافران ، سليمان النبي ، وذو القرنين ، ونُمرود ، وبخت نصَّر[٢] . وهكذا قال سعيد بن بشير سواء .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنّه كان رجُلاً مسلماً صالحاً ، أتى المشرق والمغرب ، مدّ الله له في الأجل ، ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال ، وفتح المدائن ، وقتل الرجال ، وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتى أتى المشرق والمغرب ، فذلك قول الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي خبراً ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي : علماً بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق : وزعم مُقاتل أنّه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، فمن اتبعه على دينه وشايعه[٣] عليه وإلا قتله[٤] .

وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعِكرمة وعُبيد بن يعلى والسُّدِّي وقتادة والضحاك : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ يعني علماً[٥] .

وقال قتادة ومَطَر الورَّاق[٦] : معالم الأرض ، ومنازلها ، وأعلامها ، وآثارها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني تعليم الألسنة ، كان لا يغزو قوماً إلا حدّثهم بلغتهم .

والصحيح أنه يعم[٧] كلّ سبب يتوصّل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كلّ إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٥) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) في ب : وسار معه ، وفي ط : وتابعه .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٧) .
(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٨ ـ ٩) .
(٦) في ب ومطرف . وكذلك هو في تفسير ابن كثير (٣/ ١٠١) .
ومطر بن طهمان الوراق السلمي مات سنة (١٢٥هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٢) .
(٧) في ب : تعلم .

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمئة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي كلّ هذه المدّة نظر . والله أعلم .

وقد روى البيهقي ، وابن عساكر حديثاً متعلّقا بقوله ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ مطولاً جداً ، وهو منكر جداً . وفي إسناده محمد بن يونس الكُدَيْمي، وهو مُتَّهم[١] فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا. والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طَريقاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ يعني من الأرض ، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له : أُوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبتدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة ، والثاني من ساحل هذا البحر كما قدّمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ والمراد بها البحر في نظره ، فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمسَ كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ، ولهذا قال : ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أي في نظره ، ولم يقل : فإذا هي تغرب في عين حمئةٍ ، أي ذات حمأة . قال كعب الأحبار[٢] : وهو الطين الأسود . وقرأه بعضهم ﴿ حامية ﴾[٣] . فقيل : يرجع إلى الأول ، وقيل من الحرارة ، وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها .

وقد روى الإمام أحمد[٤] ، عن يزيد بن هارون ، عن العوَّام بن حَوْشَب ، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو ، عن عبد الله قال : نظر رسول الله ﷺ : إلى الشمس حين غابت فقال : « في نار الله الحامية ، لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحْرقَتْ ما على الأرض » فيه غرابة ، وفيه رجل مُبهم لم يُسَمَّ ، ورفْعُه فيه نظر ، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ، فإنه أصاب يوم اليرموك زامِلتين من كتب المتقدّمين ، فكان يحدِّث منها[٥] . والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مُدداً طويلة فقد أخطأ وأبعدَ النجعة . وقال ما يخالف العقل والنقل .

***

---

(١) ترجمته في المجروحين والضعفاء (٢/ ٣١٢) وفيه : ولعله قد وضع أكثر من ألف حديث .

(٢) زيادة من ط .

(٣) هي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر . حجة القراءات لابن زنجلة : (٤٢٨ ـ ٤٢٩) ، وتفسير الطبري (١٦/ ٩) .

(٤) المسند (٢/ ٢٠٧) .

(٥) في ب : منهما .

[بَيان طلب ذي القرنين عين الحياة][(١)]

وقد ذكر ابن عساكر[(٢)] من طريق وكيع ، عن أبيه ، عن معتمر بن سليمان ، عن أبي جعفر الباقر ، عن أبيه زين العابدين خبراً مطولاً جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له : رناقيل[(٣)] ، فسأله ذو القرنين : هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها : عين الحياة ؟ فذكر له صِفةَ مكانها . فذهب ذو القرنين في طلبها ، وجعل الخَضِرَ على مقدّمته ، فانتهى الخضِر إليها في وادٍ في أرض الظلمات ، فشرب منها ، ولم يهتد ذو القرنين إليها .

وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصرٍ هناك ، وأنه أعطاه حجراً ، فلما رَجَع إلى جيشه سأل العلماءَ عنه ، فوضعوه في كِفَّة ميزان ، وجعلوا في مقابلته[(٤)] ألف حجر مثله فوزنها ، حتى سأل الخضرَ ، فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به[(٥)] ، وقال : هذا مَثَلُ ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب ، فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً . والله أعلم .

ثمّ ذكر تعالى أنه حكّمه في تلك الناحية ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٦ ـ ٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجَرُ عند الكافر . ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ فبدأ بالأهَمِّ وهو ثواب الآخرة ، وعطف عليه الإحسان منه إليه ، وهذا هو العدل والعلم والإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سَلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق ، فيقال : إنه رجع في ثنتي عشرة[(٦)] سنة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي : لَيسَ لَهُم بُيُوتٌ ولا أَكْنانٌ[(٧)] يَسْتَتِرُونَ بها من حرّ الشمس . قال كثيرٌ من العلماء[(٨)] : ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحَرُّ إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبهَ القبور . قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلَؤه بحراستنا في مسيره ذلك كلّه من مغارب الأرض إلى مشارقها .

وقد رُوي عن عُبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حجَّ ماشياً ، فلما سمع

---

(١) زيادة من ط . ومن حاشية الأصل .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢٤) .
(٣) في مختصر تاريخ دمشق : زيافيل . وكذلك هو في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٤) زيادة من ب وط .
(٥) في ب : فرجحته .
(٦) في ط : عشر ، وهو خطأ . والقول منسوب إلى سعيد بن جبير في مختصر تاريخ دمشق(٨/ ٢١٧) .
(٧) الكِنّ والكِنان : البيت ، وما يقي ويستر ، جمعه : أكنان وأكِنَّة .
(٨) تفسير الطبري (١٦/ ١٢) .

إبراهيمُ الخليل بقدومه تلقّاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ، ووصّاه بوصايا ، ويقال : إنه جيء بفرس ليركبها فقال : لا أركبُ في بلد فيه الخليل ، فسخَّر اللهُ له السحابَ ، وبشّره إبراهيم بذلك ، فكانت تحمله إذا أراد[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ يعني غُشما . يُقال : إنهم هم التُّركُ أبناء عم يأجوج ومأجوج ، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السُّبُل عليهم ، وبذلوا له حَمْلا ، وهو الخراج (على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم فامتنع من أخذ الخراج)[٢] اكتفاءً بما أعطاه الله تعالى من الأموال الجزيلة .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ثمّ طلب منهم أن يجمعوا له رجالًا وآلاتٍ ليبني بينهم وبينهم سداً ، وهو الردم بين الجبلين ، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحارٌ مُغرِقة وجبالٌ شاهقةٌ ، فبناه كما قال الله تعالى من الحديد والقَطر ، وهو النحاس المذاب ، وقيل : الرصاص ، والصحيح الأول ، فجعل بَدَل اللَّبِن حديداً ، وبدلَ الطِّين نحاساً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي يَعلو عليه بسلالم ولا غيرها ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها ، فقابل الأسهلَ بالأسهل ، والأشد بالأشد .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : قَدَّرَ اللهُ وجودَه ليكون رحمةً منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على مَن جاورهم في تلك المحلة ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي : الوقت الذي قدّر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي : مُساوياً للأرض ، ولا بد من كون هذا ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [الأنبياء : ٩٦ ـ ٩٧] . ولذا قال هاهُنا : ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ يَعني يوم فتح السدِّ على الصحيح[٣] ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ .

وقد أوردنا الأحاديث المرويّة في خروج يأجوج ومأجوج في « التفسير »[٤] ، وسنوردها إن شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته[٥] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٧) .

(٢) سقطت من ب بنقلة عين .

(٣) عند الطبري أقوال متعددة في تفسير هذه الآية ، تفسيره (١٦/ ٢٣ ـ ٢٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٥) ، عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ .

(٥) زاد في ب : وإنه المستعان .

قال أبو داود الطيالسي ، عن الثوري : بلغنا أن أَوَّلَ من صافح ذو القرنين[١] .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمَّه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثَكْلَى فلا تأكل منه شيئاً ، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدَها فيه ، فقالت لهن : سبحان الله كلكنَّ ثَكْلى ؟ فقلن : إي والله ما منا (إلا من أثكَلتْ . فكان ذلك تسلية لأمه)[٢] .

وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة ، فيها حكم وأمور نافعة ، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة . وهذا غريب .

قال ابن عساكر[٣] : وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنةً . (وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعمئة سنة وأربعين سنة)[٤] . وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومئة وإحدى وثمانين سنة . وكان ملكه ست عشرة سنة[٥] . وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على الإسكندر الثاني لا الأول ، وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما ، والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداءً بجماعة من الحفّاظ . والله أعلم .

وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة[٦] ، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السُّهيلي[٧] ، رحمه الله ، إنكاراً بليغاً ، ورد قوله رداً شنيعاً ، وفرَّق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا ، قال : ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسمَّوا بذي القرنين تشبُّهاً بالأول . والله أعلم .

* * *

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٩) .
(٢) سقطت من ب . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٩) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٩) .
(٤) سقطت من ب بنقلة عين .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٩) .
(٦) السيرة (١/ ٣٠٧) .
(٧) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .

ذكر أُمَّتَيْ يأجوج ومأجوج

وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ، ثمّ الدليل على ذلك ما ثبت في « الصحيحين »[١] من طريق الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول اللهُ تعالى يومَ القيامة : يا آدمُ قُمْ فَابْعثْ بَعْثَ النارِ من ذُرّيّتك . فيقولُ : يا ربِّ وما بعْثُ النار ؟ فيقولُ : من كُلِّ ألفٍ تسعمئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ ، وواحدٌ إلى الجنة ، فحينئذٍ يَشيبُ الصغيرُ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وتَرَى النَّاسَ سُكَارى وما هُمْ بِسُكَارى ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَدِيْدٌ . قالوا : يا رسول الله أيُّنا ذلك الواحدُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبشروا فإن منكم واحداً ، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً » . وفي رواية : فقال : « أبشروا فإن فيكم أُمَّتين ما كانتا في شيء إلا كثَّرتاه » أي غلبتاه كثرةً ، وهذا يدلّ على كثرتهم ، وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة .

ثمّ هم من ذرية نوح ، لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت : ١٥] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] .

وتقدم[٢] في الحديث المروي في « المسند »[٣] و « السنن »[٤] أن نوحاً وُلد له ثلاثة ، وهم سام ، وحام ويافث ، فسام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك . فيأجوج ومأجوج طائفةٌ من الترك وهم مثل[٥] المغول ، وهم أشدّ بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السدَّ وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه ، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا[٦] من ورائه . فلهذا قيل لهم الترك .

---

(١) في البخاري رقم(٤٧٤١) ، في التفسير ، باب تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ ، ومسلم (٣٧٩) ، في الإيمان ، باب قوله : « يقول الله لآدم : أخرج بعث النار من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين » .

(٢) في الجزء الأول من هذا الكتاب ، في قصة نوح عليه السلام .

(٣) مسند أحمد(٥/ ٩و١١) ، من طريق سَمُرة بن جندب عن رسول الله ﷺ .

(٤) الترمذي ، رقم(٣٢٣٠) و(٣٢٣١) في التفسير ، باب ومن سورة الصافات ، رقم (٣٩٣١) في المناقب ، باب مناقب في فضل العرب ، وحسّنه الترمذي ، وإسناده ضعيف .

(٥) كذا في ب وهو أشبه بالصواب . وفي أ وط : مغل .

(٦) في ب : فنزلوا . وهو تصحيف وتحريف .

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خُلقوا من نطفة آدم حين احتلم ، فاختلطت بترابٍ ، فَخُلِقوا من ذلك ، وأنهم ليسوا من حواء ، فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النووي[١] في شرح مسلم وغيره ، وضَعَّفوه ، وهو جدير بذلك ، إذ لا دليل عليه ، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن .

وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً ؛ فمنهم من هو كالنخلة السحوق . ومنهم من هو غاية في القصر . ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان[٢] .

والصحيح أنهم من بني آدم ، وعلى أشكالهم وصفاتهم . وقد قال النبي ﷺ : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً . . . ثمّ لم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[٣] . وهذا فيصل في هذا الباب وغيره .

وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ، فإن صَحَّ في خبرٍ قُلنا به ، وإلا فلا نردُّه ، إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضاً قد يرشد إليه . والله أعلم . بل قد ورد حديث مصرّح بذلك إن صَحَّ ، قال الطبراني : حدّثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني ، حدّثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدّثنا أبو داود الطيالسي ، حدّثنا المغيرة ، عن مسلم ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أُرسِلوا لأفسدوا على الناس معايِشَهم ، ولن يموتَ منهم رَجُلٌ إلّا تَرَكَ من ذُرّيته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاثَ أُمَم : تاويل وتاريس ومنسك » . وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف . وفيه نكارة شديدة .

وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في « تاريخه »[٤] أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ، وأنه دعا تلك الأمم التي هناك (تارس وتاويل ومنسك) فأجابوه فهو حديث موضوع ، اختلقه أبو نعيم عمر بن الصبح[٥] أحد الكذّابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث . والله أعلم .

---

(١) نقله أيضاً ابن حجر في فتح الباري : ٦/ ٣٨٦ .
والنووي : هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي النووي الحوراني ، توفي سنة (٦٧٦هـ) وله مؤلفات كثيرة . منها كتابه : المنهاج في شرح صحيح مسلم . وهو مطبوع .

(٢) تفسير الطبري (١٦/١٦) .

(٣) الحديث بتمامه في البخاري : رقم (٦٢٢٧) في أول باب الاستئذان ، ومسلم (٢٨٤١) ، في الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٧٠) .

(٥) انظر تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦٣) .

فإن قيل : فكيف دلّ الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة ، وأنهم في النار ولم يُبعثْ إليهم رُسُلٌ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] (فالجواب أنهم لا يُعذَّبون إلا بعد قيام الحجّة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾)[١] فإن كانوا في زمن[٢] الذي قبل بعث[٣] محمد ﷺ قد أتتهم رسلٌ منهم ، فقد قامت على أولئك الحجّة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسُلاً ، فهم في حكم أهل الفترة ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وقد دلَّ الحديث المرويُّ من طُرُق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أن من كان كذلك يُمتحَنُ في عَرَصَات القيامةِ ، فمن أجابَ الداعي دخَلَ الجَنَّةَ ، ومن أبى دَخلَ النار . وقد أوردنا الحديث بطرقه[٤] وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم ولا ينافي الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار ، لأن الله يُطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب ، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء ، وأن سجاياهم تأبى قَبولَ الحق والانقياد له ، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة ، فيُعلَم من هذا أنهم كانوا أشدّ تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها ، لأن في عرصات القيامة ينقاد خلقٌ ممن كان مكذِّباً في الدنيا ، فإيقاع الإيمان هنالك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا ، والله أعلم .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يُجِيبوا ، فإنه حديث منكَرٌ ، بل موضوع ، وضعه عمر بن الصبح .

وأما السَّدُّ ، فقد تقدّم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنُّحاس ، وساوَى به الجبالَ الصم[٥] الشامخات الطوال ، فلا يُعرفُ على وجه الأرض بناءٌ أجلّ منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم . قال البخاري : وقال رجل للنبي ﷺ : رأيتُ السد . قال : « وكَيْفَ رَأَيْتَهُ » ؟ قالَ : مثل البُرْدِ المحبَّر . فقال : « رأيته هكذا » . ذكره البخاري[٦] معلقاً بصيغة الجزم ، ولم أَرَه مُسْنَداً من وجه متصل أرتضيه ، غير أن ابن جرير

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .
(٢) في ب الزمن .
(٣) في ب : بعثة .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨ ـ ٣٢) .
(٥) في ب : الشم .
(٦) رواه البخاري (٦/ ٣٨١) في الأنبياء ، معلقاً أول باب قصة يأجوج ومأجوج .

رواه في « تفسيره »[(١)] مرسَلاً فقال : حدّثنا بِشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله قد رأيتُ سد يأجوج ومأجوج ، قال : « انعتْه لي » . قال : كالبُردِ المحبَّر طريقة سواد وطريقة حمراء . قال : « قد رأيته » .

وقد ذُكر أن الخليفة الواثق[(٢)] بعث رسلاً من جهته ، وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره ، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيماً ، وعليه أقفال ، وأنه بناءٌ محكمٌ شاهقٌ منيفٌ جداً ، وأن بقية اللَّبِن الحديد والآلات في برج هناك ، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ، ومحلّته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية ، ويقال : إن بلادهم متسعة جداً ، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر ، وهم أمم وخلق لا يعلم عدَدَهم إلا الذي خلقهم .

فإن قيل : فما الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وبين الحديث الذي رواه البخاري[(٣)] ومسلم[(٤)] عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمرّاً وجهه وهو يقول : « لا إلَه إلا الله ، ويلٌ لِلعربِ من شرٍّ قَدِ اقْتَربَ ، فُتِحَ اليومَ من ردمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه » وحلّق تسعين[(٥)] . قلت : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ » .

وأخرجاه في « الصحيحين »[(٦)] من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه » وعقد تسعين .

فالجواب : أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفِتن ، وأن هذا استعارة محضة ، وضرْبُ مثلٍ ، فلا إشكال .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠) .

(٢) هو هارون بن محمد بن هارون الرشيد . ولي الخلافة سنة ٢٢٧هـ وتوفي سنة ٢٣٢هـ .

(٣) صحيح البخاري رقم (٣٣٤٦) في الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، ورقم (٣٥٩٨)في المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ، ورقم(٥٢٩٣) في الطلاق باب الإشارة في الطلاق والأمور ، ورقم(٧٠٥٩) . في الفتن ، باب قول النبي ﷺ ويلٌ للعرب من شرٍّقد اقترب ، ورقم (٧١٣٥) باب يأجوج ومأجوج .

(٤) صحيح مسلم رقم (٢٨٨٠) في الفتن ، باب اقتراب الفتن .

(٥) قال ابن حجر في فتح الباري : عقد التسعين : أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضماً محكماً بحيث تنطوي عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوقة (١٣/ ١٠٨) .

(٦) في البخاري رقم (٧١٣٦) في الفتن ، باب يأجوج ومأجوج .
ومسلم رقم (٢٨٨١) في الفتن ، باب اقتراب الفتن . واللفظ لمسلم .

وأما على قول من جَعل ذلك إخباراً عن أمرٍ محسوس كما هو الظاهر المتبادر ، فلا إشكال أيضاً ، لأن قوله : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي : في ذلك الزمان ، لأن هذه صيغة خبر ماضٍ فلا ينفي وقوعُه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً ، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦] ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا ، وهو ما رواه الإمام أحمد في « مسنده »[١] قائلاً : حدّثنا رَوْح ، حدّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، حدّثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليَحْفِرُنَّ السدّ كلّ يومٍ حتى إذا كادوا يرونَ شعاعَ الشمسِ قالَ الذي عَلَيهم : ارجِعُوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدّتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرون غداً إن شاء الله ، ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فيستقون[٢] المياه وتتحصن الناس منهم[٣] في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً[٤] في أقفائهم فيقتلهم بها » ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسُ محمدٍ بيده إن دوابَّ الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » . رواه أحمد[٥] أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة .

وهكذا رواه ابن ماجه[٦] من حديث سعيد عن قتادة ، إلا أنه قال : حدّث أبو رافع . ورواه الترمذي[٧] من حديث أبي عوانة عن قتادة به ، ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينظرون[٨] شعاع الشمس من ورائه لرقّته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً . وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار ، كما قاله بعضهم ، فقد استرحنا من المؤونة ، وإن كان محفوظاً ، فيكون محمولاً على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان

---

(١) المسند (٢/ ٥١٠) .
(٢) في المسند : فينشفون .
(٣) قوله : منهم ، زيادة من ب والمسند .
(٤) النَّغَفُ : دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها : نَغَفَةٌ . النهاية لابن الأثير .
(٥) المسند (٢/ ٥١١) .
(٦) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٨٠) ، في الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، إسناده صحيح، ولكن في رفعه نكارة، ولعله من كلام كعب ، كما يعنيه المصنف وينظر التعليق على ابن حبان (١٤/ حديث ٦٨٢٩).
(٧) سنن الترمذي رقم (٣١٥٣) في تفسير القرآن ، باب ومن سورة الكهف .
(٨) في ط : ينذرون . .

عند اقتراب خروجهم ، كما هو المروي عن كعب الأحبار ، أو يكون المراد بقوله : ﴿ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي : نافذاً منه ، فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه . والله أعلم .

وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في « الصحيحين » عن أبي هريرة « فُتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وعقد تسعين ، أي : فتح فتحاً نافذاً فيه . والله أعلم .

***

قصّة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٩ - ٢٦] .

كان سبب نزول قصّة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في « السيرة »[1] وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يُدرَى ما صنعوا ، وعن رجل طوّافٍ في الأرض ، وعن الروح . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء : ٨٥] . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي

(١) السيرة النبوية (٢٠٢) .

ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف : ٨٣] ، وقال هاهنا ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة .

والكهف : هو الغار في الجبل . قال شُعيب الجَبَائي(١) : واسم كهفهم حَيزم .

وأما الرَّقيم ، فعن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما المراد به . وقيل : هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم ، كُتِبَ من بعدهم ، اختاره ابن جرير(٢) وغيره . وقيل : هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجَبَائي واسمه بنجلوس(٣) . وقيل : هو اسم وادٍ عند كهفهم . وقيل : اسم قرية هنالك . والله أعلم .

قال شعيب الجَبَائي : واسم كلبهم حَمران .

واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدِّم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح ، وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين(٤) والمؤرخين وغيرهم كانوا في زمن ملك يقال له : دقيانوس ، وكانوا من أبناء الأكابر . وقيل: من أبناء الملوك . واتفق اجتماعهم في يوم عيدٍ لقومهم ، فرأوا مايتعاطاه قومُهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البَصِيرة ، وكشف الله عن قلوبهم حجابَ الغفلة ، وألهمَهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم ، وانتموا إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له . ويقال : إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس ، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكانٍ واحد ، كما صحّ في البخاري(٥) « الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعارَفَ مِنها ائتَلَفَ وما تناكَرَ مِنها اختَلَفَ » ، (فكلٌّ منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم)(٦) والتبرّي منهم ، والخروج من بين أظهرهم ، والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفِتن وظهور الشرور .

قال الله تعالى ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أي : بدليلٍ ظاهرٍ على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه

---

(١) الجَبَائي : نسبة إلى جَبَاء ، جبل باليمن .
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٣١ ـ ١٣٢) .
(٣) كذا في الأصول ، وفي تفسير أيضاً . وفي ط : بنا جلوس .
(٤) تفسير الطبري (٥١/ ١٣٢) وما بعدها .
(٥) رواه البخاري معلقاً رقم (٣٣٣٦) ، في الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة ، وقد وصله البخاري في الأدب المفرد ، وقد وصله مسلم رقم (٢٦٣٨) وأبو داود رقم (٤٨٣٤) وغيرها .
(٦) سقطت من ب .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرَّأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قالوا بعضهم بعضاً[١] : إذ قد فارقتم قومكم في دينهم[٢] فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصِلوا إليكم شراً ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ أي : يُسبلْ عَلَيكُم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبةَ أمركم إلى خيرٍ ، كما جاء في الحديث « اللهُمَّ أحسن عاقِبَتنا في الأُمورِ كُلِّها ، وأَجِرْنا مِن خزي الدُّنيا ومِن عذابِ الآخرة »[٣] .

ثمّ ذكر تعالى صفة الغار الذي أووا إليه ، وأن بابه موجَّه إلى نحو الشمال ، وأعماقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبلياً وبابه نحو الشمال ، فقال : ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ ﴾ وقُرِئ[٤] ﴿ تَزْوَرُّ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ فأخبر أن الشمس ـ يعني في زمن الصيف وأشباهه ـ تشرق أوَّل طلوعها في الغار في جانبه الغربي ، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً ، وهو ازورارُها ذاتَ اليمين[٥] فترتفع في جو السماء وتتقلص عن باب الغار ، ثم إذا تضيَّفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب ، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان ، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذَّى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ ﴾ قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ ﴾ قيل : في كل عام يتحوَّلون مرةً من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك . فالله أعلم .

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ ﴾ (قال شُعيب الجَبَائي : اسم كلبهم حَمْران . وقال غيره : الوصيد)[٦] :

---

(١) كذا العبارة في أ وب : قالوا بعضهم بعضاً . وفي ط : قال بعضهم إذ . وهو الأصح .

(٢) في ب : دينكم .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٨١) من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ، وبسر مختلف في صحبته، والصحيح أنه ولد قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، وذكر ابن معين أنه كان رجل سوء، وقال ابن عدي: مشكوك في صحبته، وله أفعال قبيحة معروفة (وينظر تحرير التقريب ١/ ١٦٩)، فالثابت أنه لم يسمع النبي ﷺ .

(٤) هي قراءة ابن عامر . الحجة لابن زنجلة (٤١٣) .

(٥) في ب : الشمال وهو سهو .

(٦) سقطت من ب بنقلة عين .

أُسْكُفَّةُ الباب[١] . والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصَحِبَهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم إلى الكهف ، بل رَبَض على بابه ووضع يديه على الوصيد ، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أُكرِموا به ، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم ، لأن من أحبَّ قوماً سَعِد بهم ، فإذا كان هذا في حق كلبٍ فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام .

وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأً وخبراً طويلاً أكثره متلقًى من الإسرائيليات ، وكثير منها كَذِبٌ ومما لا فائدة فيه ، كاختلافهم في اسمه ولونه[٢] .

وأما اختلاف العلماء في محلّة هذا الكهف ، فقال كثيرون : هو بأرض أيْلة . وقيل : بأرض نينوى . وقيل : بالبلقاء . وقيل : ببلاد الروم ، وهو أشبه والله أعلم .

ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ، ووصف حالهم حتى كأن السامع راءٍ والمخبر مشاهِدٌ لصفة كهفهم ، وكيفيتهم في ذلك الكهف ، وتقلّبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي : لِما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه . ولعلّ الخطاب هاهنا لجنس الإنسان المخاطَب لا بخصوصية الرسول ﷺ ، كقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [التين : ٧] أي : أيّها الإنسان ، وذلك لأن طبيعة البشرية تنفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ، ولهذا قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ودلَّ على أن الخبر ليس كالمعاينة ، كما جاء في الحديث[٣] ، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب .

ثمّ ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمئة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي : بدراهمكم هذه ، يعني التي معهم ، إلى المدينة ، ويقال : كان اسمها دفسوس ، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي : أطيب مالاً ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي : بطعامٍ تأكلونه ، وهذا من زهدهم وورعهم ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي في دخوله إليها ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي : إن عُدتم في ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها ، وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعضَ يومٍ أو أكثر من ذلك ، ولم يحسِبوا أنهم قَدْ رقدوا أَزْيَدَ من ثلاثمئة سنة ،

---

(١) أُسْكفَّة الباب : خشبته التي يوطأ عليها ، وقيل عتبته .

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١٤٢) .

(٣) رواه أحمد في مسنده رقم (١٨٤٢) و(٢٤٤٧) وابن حبان رقم (٦٢١٣) وهو حديث صحيح .

وقد تبدَّلت الدول أطواراً عديدةً ، وتغيَّرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم ، وجاء غيرُهم ، وذهبوا وجاء غيرهم ، ولهذا لما خرج أحدُهم وهو تيذوسيس[١] فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه ، فيقال : إنهم حملوه إلى متولِّيهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له طوية[٢] يخشون من مضرتها فيقال : إنه هرب منهم . ويقال : بل أخبرهم خبرَه ومن معه وما كان من أمرهم ، فانطلقوا معه ليُريهم مكانَهم ، فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقَة أمرهم ومقدار ما رقدوا ، فعلموا أن هذا أمرٌ قدَّره الله ، فيقال : إنهم استمرُّوا راقدين ، ويقال : بل ماتوا بعد ذلك .

وأما أهل البلدة[٣] فيقال : إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار ، وعمَّى الله عليهم أمرهم ، ويقال : لم يستطيعوا دخوله حِسّاً ، ويقال : مهابةً لهم[٤] .

واختلفوا في أمرهم : فقائلون يقولون : ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ﴾ أي : سدُّوا عليهم بابَ الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصلَ إليهم ما يؤذيهم . وآخرون ، وهم الغالبون على أمرهم ، قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أي : معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين[٥] . وهذا كان شائعاً فيمَن كان قبلنا ، فأما في شَرْعنا ، فقد ثبت في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارَى اتّخذُوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ » يُحذِّرُ ما فعلوا[٦] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ (فمعنى أعثرنا : أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين : ليعلم الناسُ أن المعاد حقٌّ وأن الساعة

---

(١) كذا في الأصول . وقد ذكر ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١٤٣و ١٤٤) . أن تيذوسيس هو الملك الذي كان حاكماً وقتئذٍ ، أما الفتى الذي أرسله أصحابه من الكهف فهو يمينحا . كما ذكر وفي بعض النسخ : يمليخا .

(٢) في ط : صولة . وهو تحريف .

(٣) في ب : القرية .

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٢) . وما بعدها .

(٥) أشار الطبري إلى أن قائلي هذا الرأي مختلف فيهم ، فقيل : هم المسلمون ، وقيل : هم الكفار . تفسيره (١٥/ ١٤٩) .

(٦) أخرجه البخاري : برقم (٤٣٥ ـ ٤٣٧) ، في الصلاة ، باب (٥٥) (الصلاة في البيعة) ، ورقم (١٣٣٠) ، في الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ورقم (١٣٩٠) باب ما جاء في قبر النبي ﷺ ، من طريق عائشة رضي الله عنها . ومسلم (٥٣٠) و(٥٣١) في المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، وقوله : يحذر ما فعلوا . ورد في فتح الباري (١/ ٥٣٢) وفيه . وقوله : يحذر ما صنعوا جملة أخرى مستأنفة من كلام الراوي ، كأنه سئل عن حكمة ذكر ذلك في ذلك الوقت فأجيب بذلك .

لا ريب ﴾[١] فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاثمئة سنة ثمّ قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ، فإن من أبقاهم كما هُم قادرٌ على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان ، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رُفاتاً ، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون[٢] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس : ٨٢] .

هذا ويحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ ﴾ إلى أصحاب الكهف ، إذ علْمُهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرِهم بهم . ويحتمل أن يعود على الجميع . والله أعلم .

ثمّ قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فذكر اختلافَ الناس في كميتهم ، فحكى ثلاثة أقوال وضعّف الأوّلَيْنِ وقرّر الثالثَ ، فدلّ على أنه الحقُّ ، إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهّاه ، فدلّ على ما قلناه[٣] . ولمّا كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول : الله أعلم . ولهذا قال : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ .

وقوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي : من الناس . ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي : سَهلا ، ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال ولا تَسْتَفْتِ في أمْرِهم أحداً من الرجال . ولهذا أبهَم الله تعالى عدَّتَهم في أوّلِ القِصة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ ولو كان في تعيُّن عدَّتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحَثّ خلقه عليه ، وهو ما إذا قال أحدهم : إني سأفعل في المستقبل كذا ، فيشرع له أن يقول : إن شاء الله ، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ، لأن العبدَ لا يعلم ما في غدٍ ، ولا يدري أهذا الذي عَزَم عليه مقدَّرٌ أم لا ، وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقي ، ولهذا قال ابن عباس إنه يصح إلى سنة[٤] ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ، ولهذا كما تقدّم في قصّة سليمان عليه السلام[٥] حين قال : لأطوفنَّ الليلةَ على سبعين[٦] امرأةً تلد كل

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٩) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٧٧) .

(٣) وهذا رأي ابن عباس رضي الله عنه . كما في تفسير الطبري (١٥/ ١٥٠) ، وابن كثير (٣/ ٧٨) .

(٤) أي يصح أن يستثني ولو تذكر إلى سنة ، وقول ابن عباس في الرجل يحلف ، قال له أن يستثني ولو إلى سنة . أورده الطبري في تفسيره (١٥/ ١٥١) ، وابن كثير (٣/ ٧٩) .

(٥) تقدم في الصفحة (١٩١) من هذا الجزء . وتخرج الحديث ثمة .

(٦) في ب : تسعين ، وهي رواية أيضاً .

واحدة[١] منهنَّ غلاماً يقاتل في سبيل الله . فقيل له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأةٌ واحدةٌ نصف إنسان . قال رسول الله ﷺ : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لو قالَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، لم يَحْنَثْ وكانَ دركاً لحاجته » .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذِكْرُ الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه .

وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي : إذا اشْتبه أمرٌ وأشكَلَ حالٌ والتبس أقوالُ الناس في شيءٍ فارغب إلى الله يُيسّره لك ويسهّله عليك .

ثمّ قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ . لما كان في الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذَكَرها تعالى ، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلاثمئة شمسية ، فإن كل مئة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي : إذا سُئِلْتَ عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقلٌ ، فرُدَّ الأمرَ في ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو العالم بالغيب فلا يُطلع عليه إلا من شاء من خلقه ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ يعني أنه يضع الأشياء في مَحالّها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه .

ثم قال : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي : ربك المنفرد بالملك والمتصرف[٢] وحدَه لا شريك له .

***

---

(١) في ب : امرأة .

(٢) في ط : المنصرف . وهو تصحيف .

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ إلى قوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الآيات : ٣٢ـ٤٤] .

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً . والجمهور أنه أمرٌ قد وقع .

وقوله : ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ يعني لكفارِ قُريش في عَدَم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣] . كما قدَّمنا[١] الكلام على قصَّتهم قبل قصة موسى عليه السلام .

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين ، وكان أحدُهما مؤمناً والآخر كافراً ، ويقال : إنه كان لكل منهما مالٌ ، فأنفق المؤمن مالَه في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه ، وأما الكافر فإنه اتّخذ له بستانين ، وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور ، فيهما أعنابٌ ونخيل تحفّ تلك الأعناب والزروع في ذلك[٢] ، والأنهار سارحةٌ هاهنا وهاهنا للسقي والتنزُّه ، وقد استوثقت فيهما الثمار ، واضطربت فيهما الأنهار ، وابتهجت الزروع والثمار ، وافتخر مالكُهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلاً له : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أوسع[٣] جناناً . ومرادُه أنّه خيرٌ منه ، ومعناه : ماذا أغنى عنكَ إنفاقُك ما كنتَ تملكُه في الوجه الذي صرفتَه فيه ؟! كان الأولى بكَ أن تفعل كما فعلتُ لتكونَ مثلي ، فافتخر على صاحبه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي : وهو على غير طريقةٍ مرضية . قال : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك لِما رأى من اتّساع أرضِها وكثرة مائها وحُسن نبات أشجارِها ، ولو قد بادت كلُّ واحدةٍ من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دارةٌ لكثرة مياهها .

ثمّ قال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فوَثِقَ بزهرةِ الحياة الدنيا الفانية وكذّب بوجود الآخرةِ الباقية الدائمة . ثمّ قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي : وَلَئن كان ثَمَّ آخرةٌ ومعادٌ فلأجدنَّ هنالكَ خيراً من هذا ، وذلك لأنه اغترَّ بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلّا لحبّهِ له وحظوته عنده ،

---

(١) في آخر الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) في ب : والزرع في خلال ذلك . .

(٣) زاد في ب : وأينع .

كما قال العاص بن وائل فيما قصَّ الله من خبره وخبر خبّاب بن الأرت[١] في قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم : ٧٧ـ٧٨] .

وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

وقال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أي : لعلم الله بي أنّي أستحقه ، قال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨] .

وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصّة موسى[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ـ ٥٦] .

ولما اغتر هذا الجاهل بما خُوِّل به في الدنيا فجحد الآخرة وادّعى أنها إن وجدت لَيَجدنَّ عند ربّه خيراً مما هو فيه . وسمعَه صاحبُه يقول ذلك قال له ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي : يجادله : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي : أَجَحَدْتَ[٣] المَعَادَ وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ، ثمّ من نطفة ، ثمّ طوّرك[٤] أطواراً حتى صِرت رجلاً سوياً سميعاً بصيراً ، تعلم وتبطش وتفهم ، فكيف أنكرت المعاد والله قادرٌ على البداءة . ﴿ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي : لكن أنا أقول بخلاف ما قلتَ ، وأعتقد خلافَ معتقدكَ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أي : لا أعبد سِواه ، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فَنائها ، ويعيد الأموات ، ويجمع العظام الرُّفات ، وأعلم أنَّ الله لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ، ولا إلَه غيره .

ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ولهذا يُسْتحَب لكلٍّ من أعجبه شيءٌ من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك ، وقد ورد فيه حديثٌ مرفوعٌ ، في صحته نظر .

---

(١) تفصيل الخبر وسبب نزول هذه الآية في تفسير الطبري (١٦/ ٩١) .

(٢) في أول هذا الجزء .

(٣) في ب : جحرت .

(٤) في ط : صورك .

قال أبو يعلى الموصلي : حدّثنا جَرّاح بن مَخْلد[١] ، حدّثنا عمر بن يونس[٢] ، حدّثنا عيسى بن عون ، حدّثنا عبد الملك بن زرارة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً من أهْلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فيَقُولُ : ما شاءَ اللهُ لا قوةَ إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت »[٣] . وكان يتأول هذه الآية ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زُرارة عن أنس لا يصح .

ثمّ قال المؤمن للكافر : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ . قال ابن عباس ، والضحّاك ، وقتادة : أي : عذاباً من السماء[٤] . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يَقْتَلِعُ زروعها وأشجارها ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ وهو الترابُ الأملس الذي لا نبات فيه[٥] ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ وهو ضد المَعِين السارح ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ يعني فلا تقدر على استرجاعه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أي : جاءه أمرٌ أحاط بجميع حواصله وخَرَّب جنته ودمَّرها ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي : خربت بالكُلّية فلا عودَة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أَمَّل حيث قال[٦] : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ أي : لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره ، وما كان له قدرة في نفسه على شيءٍ من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] وقوله : ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ . ومنهم من يبتدىء بقوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو حَسَنٌ أيضاً لقوله ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] فالحكم الذي لا يُرَدُّ

---

(١) الجراح بن مخلد العجلي ، ثقة ، من الطبقة العاشرة ، توفي نحو سنة (٢٠٥هـ) . تقريب التهذيب (١/ ١٢٦) .

(٢) في ط : عمرو بن يوسف . وفي أ : عمر بن يوسف . وأثبت ما في ب ، وهو موافق لما في تفسير المؤلف (٣/ ٨٤) ، وعمر بن يونس اليمامي ، من الطبقة التاسعة ، وهو ثقة ، توفي بعيد المئتين ، قيل سنة (٢٠٦هـ) . سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٢٢) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٦٤) . ولعله التبس بعمرو بن يوسف مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه . الجرح والتعديل (٦/ ٢٦٩) .

(٣) رواه أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان ، من حديث أنس ، وفيه ضعف .

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ١٦٣) .

(٥) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (١٥/ ١٦٣) .

(٦) في ب : ما كان أمل منها حيث . . .

ولا يُمانَع ولا يُغالَب في تلك الحال ، وفي كل حال لله الحق . ومنهم من رفع ﴿ ٱلۡحَقُّۚ ﴾ جعله صفةً للوَلاية ، وهما متلازمتان[١] .

وقوله : ﴿ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾ [أي : معاملته خيرٌ لصاحبها ثواباً ، وهو الجزاء ، وخير عُقبا][٢] .

وهو العاقبة في الدنيا والآخرة .

وهذه القصّة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ، ولا يغترّ بها ولا يثق بها ، بل يجعل طاعةَ الله والتوكُّلَ عليه في كلّ حال نصب عينيه . وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه .

وفيها : أن من قدَّم شيئاً على طاعة الله والإنفاق في سبيله عُذِّب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده .

وفيها : أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق ، وأن مخالفته وبال ودَمار على من رد النصيحة الصحيحة .

وفيها : أن الندامةَ لا تنفع إذا حانَ القدر ونفذ الأمر الحتم ، بالله المستعان وعليه التكلان .

* * *

---

(١) قراءة الرفع لأبي عمرو والكسائي ، وقرأ الباقون بالكسر ، ورجح الطبري قراءة الكسر . تفسير الطبري (١٥/ ١٦٤) ، وحجة القراءات (٤١٨ ـ ٤١٩) ، والنشر (٢/ ٣١١) .

(٢) زيادة من ط . سقطت من أ وب . بنقلة عين .

قصّة أصحاب الجنّة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ـ٣٣] .

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة[١] ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ـ٢٩] . قال ابن عباس : هم كفار قريش ، فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تُجذَّ وهو الصرام ، ولهذا قال ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ ﴾ فيما بينهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أي : ليجذّنها وهو الاستغلال ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ [أي : وقت الصبح][٢] حيث لا يراهم فقيرٌ ولا محتاج فيعطوه شيئاً ، فحلفوا على ذلك ، ولم يستثنوا في يمينهم ، فعجّزهم الله وسلّط عليها[٣] الآفة التي أحرقتها وهي السفعة التي اجتاحتها ولم تُبقِ بها شيئاً يُنتفع به ، ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل الأسود المنصرم من الضياء ، وهذه معاملة بنقيض المقصود .

﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أي : فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضُهم بعضاً قائلين : ﴿ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السُؤّال ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خِفْيةً قائلين : ﴿ لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي : انطلقوا مُجدِّين في ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه[٤] النية الفاسدة . وقال عِكْرمة والشَّعْبي : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : غضب على[٥] المساكين[٦] . وأبعد السُّدِّي في قوله : أن اسم

---

(١) زاد في ب : له .

(٢) ليست في ب .

(٣) في ب : عليهم .

(٤) في ب : . . . . عليه مصممين مصرين على هذه . .

(٥) في ب : من .

(٦) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠ ـ ٢١) ، وأمالي القالي (١/ ٧ـ٨) .

حرثهم[١] حرد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي : وصلوا إليها ونظروا ما حصل[٢] بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحُسْن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة ، فعند ذلك ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي : قد تهنا[٣] عنها وسلكنا غير طريقها . ثمّ قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحُرِمنا بركة حَرْثنا .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أعدلهم وخيرهم[٤] ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قيل : تستثنون ، قاله مجاهد والسُّدِّي وابن جرير[٥] . وقيل : تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر .

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ ، فندموا حيث لا ينفع[٦] واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا إخوةً وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم وكان يتصدّق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً ، فعاقبهم الله أشد[٧] العقوبة ، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار وحَثَّ على ذلك يوم الجذاذ كما قال تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ثمّ قيل : كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها : ضَرَوَان[٨] . وقيل : من أهل الحبشة . والله أعلم[٩] .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي : هكذا نعذّب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ ـ ١١٣] قيل : هذا مثل مضروب لأهل مكة ، وقيل[١٠] : هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم ولا ينافي ذلك . والله أعلم .

---

(١) في تفسير ابن كثير : (٤/ ٤٠٦) : اسم قريتهم حرد .
(٢) في ب : ونظروا إلى ما . . ، وفي ط : ما حل .
(٣) في ط : نهينا .
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٢٢) .
(٥) المصدر السابق .
(٦) زاد في ط : الندم .
(٧) في ب : هذه العقوبة .
(٨) ضروان : بليدة قرب صنعاء . (معجم البلدان) .
(٩) انظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٩) ، وتفسير النيسابوري على حاشيته ، وتفسير المؤلف (٤/ ٤٠٦) .
(١٠) زاد في ب : أنفسهم .

قصّة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف : ١٦٣ ـ ١٦٦] .

وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [٦٥ ـ ٦٦] .

وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [٤٧] .

قال ابن عباس ومُجاهد وعِكْرمة وقَتادة والسُّدِّي وغيرُهم : هم أهل أيلة[١] . زاد ابن عباس بين مَدْين والطُّور[٢] .

قالوا : وكانوا متمسِّكين[٣] بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان ، فكانت الحِيْتان قد أَلِفَتْ منهم السكينة في مثل هذا اليوم ، وذلك أنه كان يحرَّم عليهم الاصطياد فيه ، كذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب ، فكانت الحِيْتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلّتهم من البحر ، فتأتي من هاهنا وهاهنا ظاهرةً آمنةً مسترسلةً ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ، ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي : نختبرهم بكثرة الحِيْتان في يوم السبت ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ أي : بسبب فسقهم المتقدِّم .

فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشُّصُوص[٤] وحفروا الحُفَر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيْتان مُسترسلةً يوم السبت علقت بهذه المصايد ، فإذا خرج

---

(١) معجم البلدان . وهي التي تسمى اليوم إيلات ، على الشاطىء الشمالي للبحر الأحمر جنوب فلسطين .

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٢) .

(٣) في ب : مستمسكين .

(٤) الشُّصوص ، مفردها : شِصّ : وهي حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

سبتُهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولَعَنَهم لِمَا احتالوا على خلاف أمره وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر ، وهي في الباطن مخالفةٌ مَحضَةٌ ، فلما فعل ذلك طائفةٌ منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان ، وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يقولون[١] : ما الفائدة في نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبةَ لا محالة ، فأجابتهم الطائفة المنكرة بأنْ قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي : فيما أَمَرَنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنقوم به خوفاً من عذابه ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ولعلّ هؤلاء يتركون ما هُم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رَجَعوا واستمعوا .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ ﴾ أي : لم يلتفتوا إلى مَن نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية[٢] عن المنكر ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . ثم فَسَّر العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ . وسنذكر ما ورد من الآثار عن ذلك[٣] .

والمقصود هنا أن الله تعالى أخبر أنه أهلكَ الظالمين ، ونجَّى المؤمنين المنكرِين ، وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماءُ على قولين : فقيل : هم[٤] من الناجين . وقيل : إنهم من الهالكين . والصحيح الأول عند المحقّقين ، وهو الذي رَجَع إليه ابن عَبَّاس إمامُ المفسرين ، وذلك عند[٥] مناظرة مولاه عِكرمة ، فكساه من أجل ذلك حُلَةً سَنِيَّةً تكرمةً .

قلت : وإنما لم يُذكَروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطِنهم تلك الفاحشةَ إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث التي أعلاها الإنكار باليد ذات البَنان ، وبعدَها الإنكار القولي باللسان ، وثالثها الإنكار بالجَنان ، فلما لم يُذكَروا نجوا مع الناجين ، إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروا[٦] .

---

(١) زاد في ب : لهم .
(٢) في ب : والناهون .
(٣) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب . وفي أ وط : الآيات في .
(٤) في ط : إنهم .
(٥) كذا في ب : وهو مناسب لما في تفسير المؤلف (٢/ ٢٥٨) . وفي أ وط : عن .
(٦) في ط : أنكروها .

وقد روَى عبد الرزاق ، عن ابن جُرَيج ، عن رجل ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس(١) ، وحكى مالك ، عن ابن رومان ، وشيبانُ عن قتادة وعطاء الخراساني ما مضمونه أن الذين ارتكبوا هذا الصنيع اعتزلهم بقيةُ أهل البلد ، ونهاهم من نهاهم منهم ، فلم يقبلوا ، فكانوا يبيتون وحدَهم ، ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم ، فأصبحوا ذاتَ يوم وأبوابُ ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها ، وارتفع النهار واشتد الضحاء ، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذا هم قِردة لها(٢) أذناب يتعاوون ويتعادون ، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ولا يعرفهم قراباتهم ، فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم ؟ فتشير القردة برؤوسها أنْ نعم. ثمّ بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا لَنَرى مُنكراتٍ كثيرةً ولا نُنكرها ولا نقول فيها شيئاً(٣) .

وقال العَوْفي(٤) عن ابن عباس : صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير .

وروى ابن أبي حاتم(٥) من طريق مجاهد عن ابن عباس أنهم لم يعيشوا إلا فُوَاقاً(٦) ثمّ هلكوا ما كان لهم نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس(٧) : إنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا .

وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف(٨) . ولله الحمد والمنة .

وقد روى ابن أبي حاتم(٩) وابن جرير(١٠) من طريق ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير ، وإنما هو مَثَلٌ(١١) ضربه الله ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة : ٥] وهذا صحيح إليه ، وغريب منه جداً ، ومخالف لظاهر القرآن ، ولما نصّ عليه غير واحد من السلف والخلف . والله أعلم .

---

(١) قوله : عن ابن عباس ليس في ب . والذي في تفسير المؤلف : جئت ابن عباس .
(٢) في ب : لهم .
(٣) تفسير المؤلف (٢/ ٢٥٨) .
(٤) العَوْفي ، هو عطية بن سعيد بن جنادة العَوْفي ، الجَدَلي الكوفي أبو الحسن ، صدوق يخطىء كثيراً ، وكان مدلساً « التقريب » رقم (٤٦١٦) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٩) .
(٦) الفُواق : ترديد الشهقة العالية ، وما يأخذ الإنسان عند النزع .
(٧) قوله : أنهم لم يعيشوا . . . إلى هنا . زيادة من ب وط . سقطت من أ بنقلة عين .
(٨) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦هـ ٢/ ٢٥٧) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٩) .
(١٠) تفسير الطبري (١/ ٢٦٣) .
(١١) في ب . . قردة وإنما هذا مثل .

قصّة ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣] تقدَّم ذِكْرُها[١] قَبْلَ قِصَّة مُوسى عليه السلام .

قصّة سبأ : سيأتي ذكرها[٢] في أيام العرب إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

قصّة قارون ، وقصّة بلعام : تقدّمتا[٣] في قصّة موسى .

وهكذا قصّة الخضر وقصّة فرعون والسَّحرة كلّها في ضمن[٤] قصّة موسى .

وقصّة البقرة تقدَّمت[٥] في قصّة موسى .

وقصّة ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] . في قصّة حزقيل[٦] .

وقصّة ﴿ ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] في قصّة شمويل[٧] .

وقصّة الذي ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] في قصّة عُزَيْر[٨] .

* * *

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) (ص٤٠٥) من هذا الجزء .

(٣) (ص١٠٤) من هذا الجزء .

(٤) (ص٨٦ و١٢٩) من هذا الجزء .

(٥) (ص٨٤) من هذا الجزء .

(٦) (ص١٥١) من هذا الجزء .

(٧) (ص١٥٦) من هذا الجزء .

(٨) (ص٢١١) من هذا الجزء .

قصّة لقمان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٢ ـ ١٩] .

هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال : لقمان بن ثاران ، حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي . قال السهيلي : وكان نُوبيّاً من أهل أيْلَة .

قلت : وكان رجلاً صالحاً ذا عبادةٍ وعبارةٍ وحكمةٍ عظيمةٍ . ويقال : كان قاضياً في زمان داود عليه السلام . فالله أعلم .

وقال سفيان الثوري ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان[١] عبداً حبشياً نجاراً[٢] .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم في[٣] شأن لقمان ؟ قال : [كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيّب قال][٤] : كان لقمان من سودان مصر[٥] . ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعي : حدّثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيّب يسأله ، فقال

(١) زاد في ب : لقمان .
(٢) الخبر في تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) ، وليست فيه كلمة نجار ، والظاهر أنها جاءت من رواية أخرى سترد بعد قليل .
(٣) في ب : من . والخبر في تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(٤) سقطت من ب بنقلة عين .
(٥) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .

له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان ، بلال ومِهْجع[١] مولى عمر ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر[٢] .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وفي رواية مصفَّح القدمين[٣] .

وقال عمرو[٤] بن قيس : كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدّثهم ، فقال له : ألستَ الذي كنتَ ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا[٥] ؟ قال : نعم . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صِدْقُ الحديث ، والصمتُ عما لا يعنيني . رواه ابن جرير[٦] عن ابن حُميد عن الحكم عنه .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا صفوان ، حدّثنا الوليد ، حدّثناعبد الرحمن بن يزيد[٧] ابن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك فقال : ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى[٨] بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصِدْقُ الحديث ، وترك ما لا يعنيني[٩] .

وقال ابن وهْب : أخبرني عبد الله بن عياش القِتْباني[١٠] ، عن عمر مولى غفرة[١١] قال : وقف رجل

---

(١) قال النووي : استشهد يوم بدر . تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٥) .
(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) في ط : عمر .
(٥) قوله : وكذا زيادة من ب وط .
(٦) تفسيره (٢١/ ٤٤) .
(٧) في ط : أبي يزيد ، وهو خطأ . وفي تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) : عن جابر ، وهو خطأ أيضاً .
وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، أبو عتبة الأزدي الداراني ، إمام ، حافظ ، فقيه ، ولد في خلافة عبد الملك بن مروان ، وتوفي سنة (١٥٣هـ) وقيل (١٥٤هـ) . وقد روى عنه الوليد بن مسلم . ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٦) .
(٨) في ط : عبد بن . . . ترعى غنمي . . . ، وفي ب : عبدي فلان . . . ترد غنمي .
(٩) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(١٠) القتباني ، بكسر القاف وسكون التاء : نسبة إلى قِتبان ، بطن من رُعين نزلوا مصر .
وعبد الله بن عياش بن عباس القتباني أبو حفص توفي سنة (٧٠هـ) .
تقريب التهذيب (١/ ٤٣٩) واللباب (٣/ ١٤) .
(١١) في ط : عفرة ، بالعين ، وهو تصحيف .

على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ؟ أنت عبد بني الحسحاس[١] ؟! قال : نعم . قال : فأنت راعي الغنم الأسود ؟ قال : أمّا سَوادي فظاهر ، فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال : وطْءُ الناس بساطَك ، وغشيهم بابَكَ ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي إن صنعتَ[٢] ما أقول لك كنتَ كذلك . قال : ما هو[٣] ؟ قال لقمان : غَضِّي بصري ، وكَفِّي لساني ، وعِفَّةُ مطعمي ، وحفظي فرجي ، وقيامي بعدَّتي ، ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيّرني كما ترى[٤] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبي ، حدّثنا ابن فضيل ، حدّثنا عمرو بن واقد ، عن عبدة بن رباح ، عن ربيعة ، عن أبي الدرداء أنه قال يوماً[٥] ، وذَكَر لقمانَ الحكيم فقال : ما أوتي ما أوتي[٦] عن أهل ولا مالٍ ولا حَسَب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة[٧] سِكِّيتاً ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنخَّع[٨] ولا يبول ولا يتغوَّط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحدٌ ، وكان قد تزوَّج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكّام لينظر ويتفكّر ويعتبر ، فبذلك أوتي ما أوتي[٩] .

ومنهم من زعم أنه عُرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه . وفي هذا نظر والله أعلم . وهذا مروي[١٠] عن قتادة كما سنذكره .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير[١١] من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجُعْفي عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً . وهذا ضعيف لحال الجُعْفي[١٢] .

---

(١) في ط : النحاس .
(٢) في تفسير المؤلف : صغيت إلى ما أقول .
(٣) ليست في ب .
(٤) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(٥) قوله : يوماً ، زيادة من ب وط . وهي ثابتة في تفسيره أيضاً .
(٦) سقطت من ط .
(٧) في ط : ضمضامة . وهو تصحيف . ورجل صمصامة : مصمم .
(٨) في ط : يتنحنح . والتنخُّع : رمي ما يخرج من الصدر عن طريق الفم .
(٩) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٤) .
(١٠) في ب : يروى . وسيأتي الخبر مفصلاً بعد قليل .
(١١) تفسير الطبري (٢١/ ٤٤) .
(١٢) جابر بن يزيد الجُعفي ، أبو يزيد ، من أهل الكوفة ، كان سبئياً ، تكلموا فيه . توفي سنة (١٢٨هـ) . والجُعفي : نسبة إلى قبيلة جعفي بن سعد العشيرة من مذحج . المجروحين (١/ ٢٠٨) ، واللباب (١/ ٢٨٤) .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً . وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه وحكى من كلامه فيما وَعَظَ به [ولده الذي هو أحبُّ الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ما وَعَظَ به][١] أن قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ . فنهاه عنه وحذّره منه . وقد قال البخاري[٢] : حدّثنا قُتيبة ، حدّثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أيّنا لم يلبس[٣] إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث سُليمان بن مِهران الأعمش[٤] به .

ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكُده ، وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركَيْن ، ولكن لا يطاعـان على الدخول في دينهما ، إلى أن قال مُخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبَّةِ خردلٍ ، فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب ويضعها في الميزان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾ [النساء : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وأخبره أن هذا الظلم ولو كان في الحَقارة كالخردلة ، ولو كان في جوف صخرةٍ صَمّاء لا بابَ لها ولا كُوَّة ، أو لو كانت ساقطةً في شيءٍ من ظلمات الأرض أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما ، لعلم اللهُ مكانها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ أي : عِلْمُه دقيقٌ فلا يخفى عليه الذَّرُّ مما تراءى للنواظر أو توارى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وقال : ﴿ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٧٥] وقال ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ : ٣] .

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٧٧٦) ، في التفسير ، (سورة لقمان) .
كذلك أورده من غير طريق قتيبة عن جرير ، برقم (٣٢) في الإيمان ، باب ظلم دون ظلم ، ورقم (٣٤٢٨ و٣٤٢٩) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ ، ورقم (٤٦٢٩) في التفسير ، باب ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ .

(٣) في ب : يظلم وهو سهو .

(٤) صحيح مسلم رقم (١٢٤) في الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه .

وقد زعم السُّدِّي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة[١] الصخرة التي تحت الأرضين السبع ، وهكذا حكي عن عطية العَوْفي[٢] وأبي مالك والثوري والمِنْهال بن عمرو وغيرهم ، وفي صحة هذا القول من أصله نظر .

ثمّ إن في هذا هو المراد نظر آخر ، فإن هذه الآية نَكِرة غير معرفة فلو كان المراد بها ما قالوه لقال : فتكن في الصخرة ، وإنما المراد فتكن[٣] في صخرة أي صخرة كانت ، كما قال الإمام أحمد : حدّثنا حسن بن موسى ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، حدّثنا دَرَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال[٤] : « لو أَنَّ أحدَكُم يَعمَلُ في صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ لَخرَجَ عملُه للناسِ كائِناً ما كان »[٥] .

ثم قال ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : أَدّها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها ، واجتنب ما نُهي عنه فيها .

ثم قال : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ أي : بجَهْدك وطاقتك أي إن استطعت باليد فباليد ، وإلّا فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك . ثمّ أمر بالصبر فقال : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ وذلك أن الآمرَ بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يُعادَى ويُنال منه ، ولكن له العاقبة ، ولهذا أمره بالصبر على ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [أي : إن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وصبرك على الأذية من عزائم الأمور][٦] التي لا بد منها ولا مَحيد عنها .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبير والضحَّاك ويزيد بن الأصَمّ وأبو الجوزاء وغير واحد[٧] : معناه لا تتكبّر على الناس وتميّل خدّك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبّر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة[٨] : وأصلُ الصَّعَر داءٌ يأخذ الإبل في

(١) الأقوال في المراد بالصخرة في تفسير الطبري (٢١/ ٤٦ ـ ٤٧) وتفسير ابن كثير : (٣/ ٤٤٦) .
(٢) العَوْفي : هو عطية بن سعد العوفي ، الجدلي ، صدوق يخطىء كثيراً ، وكان مدلساً .
(٣) في ب : فتكون .
(٤) في ب : أنه قال .
(٥) مسند أحمد (٣/ ٢٨)، وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة وَدَرَّاج أبي السمح، وهم من القصاص المصريين .
(٦) سقطت من ب وط .
(٧) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧) .
(٨) لسان العرب (صعر) .

أعناقها فتلتوي رؤوسُها فشبّه به الرجل المتكبّر الذي يميل وجهه إذا كلّم الناس أو كلّموه على وجه التعاظم[١] عليهم .

قال أبو طالب في شعره : [من الطويل]

وكُنّا قديماً لا نُقِرُّ ظُلامَةً ... إذا ما ثَنَوا صُعْرَ الخُدودِ نُقيمُها

وقال عمرو بن حُنَيّ[٢] التغلبي : [من الطويل]

وكنّا إذا الجبّار صَعَّر خدَّه ... أقمنا لَهُ مِن مَيْلِهِ فتقوّما[٣]

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ينهاه عن التبختر في المِشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، يعني لستَ بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه ، ولست بدقّك الأرضَ برجلك تخرِق الأرض بوطئك عليها ، ولست بتشامخك وتعاظُمك وترفُّعك تبلغ الجبال طولاً ، فاتّئد على نفسك ، فلست تعدو قدرك .

وقد ثبت في الحديث « بينما رجلٌ يمشي في بُردَيه يَتَبَخْتَرُ فيهما إذ خَسَفَ اللهُ به الأرضَ ، فهو يَتَجَلْجَلُ[٤] فيها إلى يوم القيامة »[٥] . وفي الحديث الآخر : « وإياكَ وإسْبال الإزارِ فإنّها مِن المَخِيلَة والمخيلة لا يحبُّها الله »[٦] . كما قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ . ولما نهاه عن الاختيال في المشي أمره بالقصد فيه ، فإنه لا بدَّ له أن يمشي ، فنهاه عن الشر وأمره بالخير ، فقال : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : لا تتباطأ مُفرِّطاً ولا تسرع إسراعاً مُفْرِطاً ، ولكن بين ذلك قواما ، كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

---

(١) في ط : التعظم .

(٢) القول وبيت عمرو سقط من ب .
وعمرو بن حُني فارس شاعر جاهلي . اختُلِف في اسمه واسم أبيه ، وفي وجوده أصلاً . انظر ترجمته ضمن شعراء تغلب للمحقق .

(٣) البيت بهذه الرواية فتقوما ، الأولى أن ينسب للمتلمس ، من قصيدة أصمعية له رقمها (٩٢) .
أما الذي ينسب إلى عمرو بن حني فهو برواية فتقوَّم ، وهو من أبيات مطلعها :
ألا تستحي منا ملوك وتتقي ... محارمنا لا يُبأُ الدم بالدمِ
شعر عمرو بن حني في ديوان شعراء تغلب ، للمحقق (٢/ ٣٢٧) .

(٤) في ط : يتجلل .

(٥) أخرجه البخاري : رقم (٥٧٩٠) ، في اللباس ، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء ، ومسلم (٢٠٨٨) ، في اللباس ، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه ، وفي اللفظ بعض اختلاف .

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٦٥ و٥/ ٣٧٧) ، وهو صحيح .

ثمّ قال : ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ يعني إذا تكلّمت فلا تتكلّف رفع صوتك ، فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير .

وقد ثبت في « الصحيحين »[١] الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل ، فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا نُهي عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ولا سيما عند العُطاس ، فيستحب خفضُ الصوت وتخميرُ الوجه كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ[٢] . فأما رفع الصوت بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال ، وعند الإهلال[٣] ونحو ذلك فذلك مشروع .

فهذا مما قصّه الله تعالى عن لقمان عليه السلام[٤] في القرآن من الحِكَم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر . وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى مجلة[٥] لقمان . ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدّثنا علي بن إسحاق[٦] أخبرنا ابن المبارك أخبرنا سفيان ، أخبرني نَهْشل بن مجمّع[٧] الضبي ، عن قَزَعَة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لُقمانَ الحكيمَ كانَ يَقُولُ : إنَّ اللهَ إذا استُودع شيئاً حفظه »[٨] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا عيسى بن يونس عن الأوْزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم بن مُخَيْمِرة[٩] أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك

---

(١) أخرجه البخاري : رقم (٣٣٠٣) في بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعف الجبال ، ومسلم (٢٧٢٩) في الذكر والدعاء ، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك ، وكذلك أخرجه أبو داود (٥١٠٢) في الأدب ، باب ما جاء في الديك والبهائم ، والترمذي (٣٤٥٩) في الدعوات ، باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٢٩) في الأدب ، باب في العطاس ، والترمذي (٢٧٤٥) في الأدب ، باب ما جاء في خفض الصوت وتخمير الوجه عند العطاس ، من حديث أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفض أو غض بها صوته ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) في ط : الإهلاك وهو خطأ . وفي ط : ذلك فذلك .

(٤) في ب : رضي الله عنه .

(٥) في ب وط : بحكمة . والمجلة : صحيفة يكتب فيها ، والصحيفة فيها الحكمة . وقيل : كل كتاب عند العرب مجلّة . لسان العرب (جلل) .

(٦) لم يرد علي بن إسحاق في سند الحديث في المسند ، ففيه : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان . .

(٧) في ط : نهيك بن يجمع وفيه تحريف وتصحيف . ونهشل بن مجمع الضبي الكوفي من رجال التهذيب .

(٨) مسند أحمد (٢/ ٨٧) رقم (٥٦٠٦) وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح سوى نهشل بن مجمع وهو ثقة، وثقه ابن معين وأبو داود ويعقوب بن سفيان. ولا نعلم فيه جرحاً (تحرير التقريب ٤/ ٢٥) .

(٩) القاسم بن مُخيمرة ، أبو عروة الهمْداني ، نزيل دمشق ، محدث ثقة ، توفي سنة مئة للهجرة . سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠١) .

والتقنُّعَ فإنه مَخُوفة بالليل ومذمّة بالنهار »[١] .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان[٢] حدثنا ضمرة حدثنا السري بن يحيى قال قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وحدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان أخبرنا ابن المبارك أخبرنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيتَ نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدّثنا أبي ، حدّثنا عمرو بن عثمان ، حدّثنا ضَمرة ، عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خَردلٍ إلى جانبه ، وجعل يَعظُ ابنَهُ وعظة ويُخرج خَردلةً ، حتى نَفِدَ الخردل ، فقال : يا بني وعظتك موعظةً لو وُعِظها جبلٌ تفطَّرَ . قال : فتفطّر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدّثنا يحيى بن عبد الباقي المصِّيْصي ، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرَّاني ، حدّثنا عثمان بن عبد الرحمن الطَّرَائفي[٣] حدّثنا أبين بن سفيان[٤] المقدسي ، عن خليفة بن سلاّم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتّخِذوا السُّودان فإنَّ ثَلاثَةَ منهم من سادات أهل[٥] الجنة : لُقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن[٦] » قال الطبراني : يعني الحبشي . وهذا حديث غريب بل منكر .

وقد ذكر له الإمام أحمد في كتاب « الزهد » ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة ، فقال[٧] : حدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] قال : الفقه والإصابة في غير نبوة[٨] . وكذا روي عن وهب بن منبه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٧) . وكذلك باقي الأخبار واردة فيه .
(٢) في ط : عمارة وهو خطأ .
(٣) عثمان بن عبد الرحمن الحرَّاني الطرائفي ، لُقب بذلك لأنه كان يتبع طرائف الحديث ويرويها عن قوم ضعاف . اللباب (٢/ ٢٧٨) .
(٤) في ط : عن ابن سفيان ، وهو خطأ . وأَبَيَن بن سفيان المقدسي شيخ أكثر رواته من الضعفاء . المجروحين لابن حبان (١/ ١٧٩) .
(٥) في ب : من سادات الجنة ، وفي ط : من أهل الجنة .
(٦) أورده ابن حبان في المجروحين (١/ ١٨٠) . وفيه : هذا متن باطل لا أصل له .
(٧) الزهد (٢٦٦) .
(٨) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٣) من طريق آخر .

وحدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان عن أشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً[١] .

وحدّثنا أسودُ[٢] ، حدّثنا حماد ، عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن لقمان كان خياطاً .

وحدثنا سيَّار[٣] ، حدّثنا جعفر ، حدّثنا مالك يعني ابن دينار قال : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة .

وحدّثنا يزيد[٤] ، حدّثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه : يا بني اتق الله ولا تُري الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر .

وحدّثنا يزيد بن هارون ووكيع قالا[٥] : حدّثنا أبو الأشهب ، عن خالد الربَّعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له سيده : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال : ائتني بأطيب مضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب . فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا . قال : فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لي شاةً ، فذبح له شاة ، فقال له : ألق أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان[٦] والقلب ، فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ! ، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا[٧] .

وحدّثنا داود بن رُشَيد ، حدّثنا ابن المبارك ، حدّثنا معمر ، عن أبي عثمان رجلٍ من أهل البصرة يقال له : الجعد أبو عثمان ، قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب في ودِّ الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تَهاوَن بمقْت الحكيم فيزهده فيك[٨] .

وحدّثنا داود بن أسيد، حدّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شُريح بن عبيد الحضرمي، عن عبد الله بن زيد قال: قال لقمان: ألا إن يد الله على أفواه الحكماء، لا يتكلّم أحدُهم إلا ما هيَّأ الله له[٩] .

---

(١) هكذا قال ، والذي في كتاب الزهد (٢٦٥) أنه من رواية حكَّام الرازي ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد . وانظر تفسير الطبري : (٢١/ ٤٣) .

(٢) الزهد ، رقم (٢٦٧) .

(٣) الزهد ، رقم (٢٦٨) .

(٤) الزهد ، رقم (٢٦٩) .

(٥) الزهد ، رقم (٢٧٠) .

(٦) في ب : فألقى اللسان ، وما أثبتناه هو الذي في كتاب « الزهد » لأحمد .

(٧) وهو في تفسير الطبري (٢١/ ٤٣ ـ ٤٤) .

(٨) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .

(٩) كذلك .

وحدّثنا عبد الرزاق ، سمعت ابن جُريج قال : كنت أقنّع رأسي بالليل ، فقال لي عمرو[١] : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالنهار مذلَّة معذرة ، أو قال معجزة بالليل ، فلِمَ تقنع رأسك بالليل ؟ قال : قلت له : إن لقمان لم يكن عليه دَين[٢] .

وحدّثني حسن بن الجنيد[٣] ، حدّثنا سفيان ، قال : قال[٤] لقمان لابنه : يا بُني ما ندمت على السكوت[٥] قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

وحدّثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدّثنا أبو الأشهب[٦] ، عن قتادة أن لقمان قال لابنه : يا بُنيَّ اعتزل الشرّ يعتزلك ، فإنَّ الشر للشر خُلِق .

وحدّثنا أبو معاوية ، حدّثنا هشام بن عروة ، عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة : يا بُني إياك والرغَب فإن الرغَب كلّ الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحلم[٧] كما يزيل الطرب . يا بُني إياك وشدّة الغضب ، فإن شدّة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدّثنا نافع بن عمر[٨] ، عن ابن أبي مُليكة ، عن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بُني اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ، فإنك إن تكُ عالماً ينفعك علمُك ، وإن تك غبيّاً يعلّموك ، وإن يطّلع الله عليهم برحمة تصبك[٩] معهم . يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه[١٠] ، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمُك ، وإن تك غَبيّاً يزيدوك غُبِيّاً[١١] ، وإن يطّلع الله إليهم[١٢] بعد ذلك بسخط يصبك معهم . يا بني لا تغبطوا[١٣] امرأً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

---

(١) في ب : فقال عمرو . وفي ط : عمر . . .
(٢) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .
(٣) الزهد ، رقم (٢٧١) .
(٤) من ب ، وهي في الزهد لأحمد .
(٥) في ب : الصمت .
(٦) أخرجه في الزهد من زيادات عبد الله عن أحمد بن حنبل ، عن ابن المبارك ، عن أبي الأشهب (رقم ٢٧٢) .
(٧) في ط : الحكم .
(٨) في ب : نافع عن ابن عمر ، وهو سهو . ونافع بن عمر بن عبد الله إمام حافظ ، ثبت . حدّث عن ابن مليكة وغيره . توفي سنة (١٦٩هـ) . سير أعلام النبلاء : (٧/ ٤٣٣) .
(٩) في ط : تصيبك وهو خطأ .
(١٠) في ب : فيه الله .
(١١) يقال : فيه غَبْوَةٌ ، وغُبُوَة ، وغُبِيٌّ : أي غفلة .
(١٢) في ب : عليهم .
(١٣) في ب : ويا بني لا تغبطن .

وحدّثنا أبو معاوية[١] ، حدّثنا هشام بن عُروة ، عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة [بني لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

وقال : مكتوب في الحكمة][٢] أو التوراة : الرفق رأس الحكمة .

وقال : مكتوب في التوراة : كما تَرْحَمون تُرحَمون .

وقال : مكتوب في الحكمة : كما تزرعون تحصدون .

وقال : مكتوب في الحكمة : أحبَّ خليلك وخليل أبيك .

وحدّثنا عبد الرزاق عن مَعْمَر عن أيوب عن أبي قِلابة قال : قيل للقمان : أي الناس أَصْبَر ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى . قيل : فأي الناس أعلم ؟ قال : من ازداد من علم الناس إلى علمه . قيل : فأي الناس خيرٌ ؟ قال : الغني . قيل : الغنيّ من المال ؟ قال : لا ولكن الغنيَّ الذي إذا التُمِس عنده خيرٌ وُجد ، وإلا أغنى نفسه عن الناس[٣] .

وحدّثنا سفيان[٤] ، هو ابن عيينة قال : قيل للقمان : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وحدّثنا أبو عبد الصمد[٥] عن مالك بن دينار قال : وجدت في بعض الحكمة : يبدد الله عظامَ الذين يتكلّمون بأهواء الناس . ووجدت فيها : لا خير لك في أن تُعلّم ما لم تعلم ولما تعمل[٦] بما قد علمت ، فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل احتطب حطباً فحزم حزمةً ثمّ ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

وقال عبد الله بن أحمد : حدّثنا الحكم بن أبي زهير ، وهو الحكم بن موسى ، حدّثنا الفرج بن فضالة ، عن أبي سعيد قال : قال لقمان لابنه : يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذا الموضع[٧] . وقد قدّمنا من الآثار كثيراً لم يروها ، كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا . والله أعلم .

---

(١) الزهد ، رقم (٢٧٣) .
(٢) سقطت من ب بنقلة عين .
(٣) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .
(٤) الزهد ، رقم (٢٧٤) .
(٥) سقطت من ط .
(٦) في ب : ما لا تعلم ولم تعمل .
(٧) في ط : هذه المواضع .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبي ، حدّثنا العباس بن الوليد ، حدّثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدّثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خَيَّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة ، قال فأتاه جبريل وهو نائم فذرَّ عليه الحكمة ، قال : فأصبح ينطق بها . قال سعيد : فسمعت[١] قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربُّك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عزمةً لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكن خيَّرني ، فخِفْت أن أضعُفَ عن النبوة ، فكانت الحكمة أحبَّ إليَّ[٢] .

وهذا فيه نظر ، لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلّموا فيه[٣] . والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] قال : يعني الفقه في الإسلام[٤] ، ولم يكن نبياً ولم يُوحَ إليه[٥] . وهكذا نصّ على هذا غير واحد من السّلف ، منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس . والله أعلم .

* * *

(١) في ط : سمعت .
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٤) .
(٣) قال ابن حبان : يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه . المجروحين : (١/ ٣١٥) .
(٤) في ط : والإسلام .
(٥) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .

قصّة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١ ـ ١٠] .

قد تكلّمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة[١] ولله الحمد .

وقد زعم محمد بن إسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله .

وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ، ولكنْ هؤلاء المذكورون في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع ، وأثر أورده ابن إسحاق ، وهما متعارضان وها نحن نوردهما لنوقف عليهما[٢] .

قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا عفان[٤] ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان مَلِك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحرٌ ، فلما كبر الساحِرُ قال للملك : إني قد كَبرتْ سني ، وحَضَرَ أجلي ، فادفعْ إليَّ غلاماً فلأُعلمه السحرَ ، فدفع إليه غلاماً ، فكان يعلمه السحرَ ، وكان بين الساحر وبين الملك[٥] راهب ، فأتى الغلام على الراهب ، فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامُه ، وكان إذا أتى الساحرَ ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر . قال : فبينما[٦] هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حَبَستِ الناسَ فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليومَ أعلم أمرُ الساحر أحبُّ إلى الله أم أمرُ الراهب . قال : فأخذ حَجَراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى ، فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضلُ مني ، وإنك

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) وما بعدها .
(٢) في ط : لتقف .
(٣) في المسند (٦/ ١٧) .
(٤) في ط : سقط « عفان » من السند .
(٥) في ط وأ: « وكان بين الملك وبين الساحر ». وما أثبتناه من ب ، وهو موافق لما في المسند الذي ينقل منه المصنف.
(٦) في ط وأ : « فبينا » وما هنا من ب ، وهو الموافق للمسند .

ستُبْتَلَى فإن ابتُلِيت فلا تدل عليَّ . فكان الغلام يُبرىء الأكمه والأبرصَ وسائر الأدواء ويشفيهم الله على يديه[(١)] وكان جليسٌ للملك فعمي ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني ولك ما هاهنا أَجْمَع . فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك[(٢)] . فآمن ، فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملكَ ، فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من ردّ عليك بَصَرَك ؟ فقال : ربي . قال : أنا . قال : لا ربي وربُّك الله . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ، فأتى به فقال : أي بني! بَلَغَ من سحرك أن تُبرىء الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ؟! قال ما أشفي أنا أحداً[(٣)] إنما يشفي الله عز وجل . قال : أنا . قال : لا . قال : أولك ربٌّ غيري ؟ قال : ربي وربك الله . قال : فأخذه أيضاً بالعذاب ، ولم يزل به حتى دَلَّ على الراهب ، فأتي بالراهب[(٤)] فقال : ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه حتى وقع شِقَّاهُ . وقال للأعمى : ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شِقَّاه . وقال للغلام : ارجع عن دينك . فأبى . فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا . وقال : إذا بلغتم ذروته[(٥)] فإن رجع عن دينه ، وإلا فدهدهوه[(٦)] ، فذهبوا به ، فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدُهدِهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فبعث به مع نفر في قُرْقُوْر[(٧)] فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه ، وإلا فغَرِّقوه[(٨)] في البحر ، فلججوا به البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به ، فإن أنتَ فعلتَ ما آمرك به قتلتني ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ قال : تجمعُ الناسَ في صعيد واحدٍ ، ثم تصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم قل : بسم الله ربّ الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثمّ رماه وقال : بسم الله ربّ الغلام ، فوقع[(٩)] السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس :

---

(١) قوله : الله على يديه ليس في ب ، ولا في المسند .
(٢) في ط : ودعوت . شفاك .
(٣) ليست في ب .
(٤) في ط : الراهب .
(٥) في ب : ذروة الجبل .
(٦) زاد في المسند : من فوقه . والدهدهة : الدحرجة .
(٧) كذا في المسند . وهو الصواب . وفي أ ، وب ، وط ، قرقرة . والقرقور : السفينة .
(٨) في ط : فأغرقوه .
(٩) في ب : فوضع . وهو موافق لما في المسند .

آمنا بربّ الغلام آمنا بربّ الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله نزل بك ، قد آمن الناس كلُّهم ، فأمر بأفواه السكك فخدّت[١] فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دِينه فدعوه ، وإلا فأقحموه فيها . وقال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون ، فجاءت امرأة بابن لها تُرضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماه فإنك على الحق » .

كذا رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم[٢] والنسائي[٣] من حديث حماد بن سلمة . زاد النسائي وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت ، به . ورواه الترمذي[٤] من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن ثابت ، بإسناده نحوه ، وجَوَّد إيراده كما بسطنا ذلك في « التفسير »[٥] .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر[٦] فقال : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب ، وحدثني أيضاً بعضُ أهل نجران ، عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شِرْك يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هي القرية العظمى التي إليها جِماع أهل تلك البلاد ـ ساحرٌ يعلّم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيميون[٧] ، ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن مُنَبِّه ، قالوا : رجل نزلها ، فابتنى خيمةً بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر ، وجعل أهلُ نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر [يعلمهم السحر][٨] . فبعث الثامرُ ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مَرَّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحَّد الله وعبدَه ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يَعْلَمُهُ ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخي إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبدالله[٩] لا يظن إلا أن ابنه[١٠] يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبدُ الله أن صاحبه قد ضنَّ به عنه وتَخوَّف ضعفه فيه ، عمد إلى قِداح فجمعها ، ثمّ لم يُبقِ لله اسماً يعلمه إلا كَتَبه في قدح ،

---

(١) في ط : فحفر . والسكك : الطرق .

(٢) صحيح مسلم رقم (٣٠٠٥) ، في الزهد ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .

(٣) في التفسير (٦٨١)، وهو فيه من سننه الكبرى (١١٦٦١) عن حماد بن سلمة، وفي السير (٨٦٣٣)، وفي عمل اليوم والليلة (٦١٤) عن حماد بن زيد .

(٤) سنن الترمذي رقم (٣٣٤٠) في التفسير ، باب ومن سورة البروج .

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٤) . وقال هناك: قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى .

(٦) الروض الأنف (١/ ٤٧) وما بعدها .

(٧) في ط : فيمون . وهو تحريف .

(٨) ليست في ب .

(٩) سقطت من ط . وهي في نص السيرة لابن إسحاق .

(١٠) زاد في ط : عبد الله .

لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقدَ ناراً ثمّ جعل يقذفها فيها[١] قدَحاً قدحاً ، حتى إذا مرَّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضرّه شيئاً ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي قد كتمه ، فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف[٢] علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أي ابن أخي ، قد أصبتَه فأمسِك على نفسك ، وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَلْقَ أحداً به ضُرٌّ إلّا قال : يا عبد الله أتوحِّد اللهَ وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما[٣] أنت فيه من البلاء . فيقول[٤] : نعم ، فيوحّد الله ويُسلم ، ويدعو[٥] الله فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضُر إلّا أتاه فاتَّبعه على أمره . ودعا له فعوفي ، حتى رُفع شأنُه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدتَ عليّ أهلَ قريتي وخالفتَ ديني ودينَ آبائي لأُمثِّلنَّ بك . قال : لا تقدر على ذلك . فجعل يُرسل به إلى الجبل الطويل ، فيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يُلقى فيها شيء إلّا هَلَك فيُلقى به فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر إنك[٦] والله لا تقدر على قتلي حتى توحِّد اللهَ فتؤمنَ بما آمنتُ به ، فإنك إن فعلتَ سُلِّطتَ عليّ فقتلتني[٧] . قال : فوحَّد اللهَ ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثمّ ضربه بعصاً في يده فشجه شجةً غيرَ كبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحُكمه ، ثمّ أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث[٨] . فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر . فالله أعلم أي ذلك كان .

قال[٩] : فسار إليهم ذو نُواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتلَ فخدَّ[١٠] الأخدود ، وحرق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثَّل بهم . فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ،

---

(١) ليست في ط .
(٢) زاد في ب : قد .
(٣) في ط : عما .
(٤) قوله : فيقول . . . . على أمره ، سقط من ط .
(٥) زاد في ب : له ، وهو موافق لما في الروض الأنف .
(٦) ليست في ط .
(٧) في ب : فتقتلني .
(٨) في ط : الأحزاب .
(٩) ابن إسحاق . وهو تتمة للخبر السابق في الروض الأنف (١ / ٥١) .
(١٠) في ط : فخدوا . . وفي الروض الأنف : فخد لهم .

ففي ذي نواس وجُنده أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ . . الآيات [البروج : ٤ ـ ٥] . وهذا يقتضي أنَّ هذه القصة غير ما وقع في سياق مُسلم . وقد زعم بعضُهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كان الأخدود في اليمن زمان تُبَّع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذ[١] أَتُّونا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفي العراق في أرض بابل في زمان بخت نصّر حين صَنَع الصنمَ وأمر الناس فسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيها الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط[٢] ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط عن السُّدِّي في قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج : ٤] قال : كان الأخدود ثلاثة : خد بالشام ، وخد بالعراق ، وخد باليمن . رواه ابن أبي حاتم .

وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج[٣] ولله الحمد والمنة .

* * *

(١) كذا في ب . وفي أ وط : واتخذ .
(٢) في ب : من رهطه .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) وما بعدها . وزاد في ب : من التفسير .

باب[١]

بَيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبَار بني إسرَائيل

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الصمد ، حدّثنا همّام ، حدثنا زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « حدِّثوا عنّي ولا تَكْذبُوا عَلَيَّ ، ومَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمّداً فَلْيتبوّأ مقعدَهُ من النارِ . وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج »[٢] .

وقال أيضاً : حدّثنا عفان ، حدّثنا همام ، أخبرنا زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « لا تكتبُوا عنّي شيئاً غيرَ القرآن ، فمن كتبَ عني شيئاً غيرَ القرآن فليمْحُه » وقال : « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج . حدّثوا عني ولا تكذبوا عليَّ »[٣] . قال : « ومن كذب عليَّ » . قال همام[٤] أحسبه قال : « متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[٥] .

وهكذا رواه مسلم[٦] والنَّسائي[٧] من حديث همام .

ورواه أبو عوانة الأسْفَرَاييني ، عن أبي داود السجستاني ، عن هُدْبة ، عن همام ، عن زيد بن أسلم به . ثم قال : قال أبو داود : أخطأ فيه همام هو[٨] من قول أبي سعيد . كذا قال .

وقد رواه الترمذي[٩] عن سفيان ، عن وكيع ، عن سفيان بن عُيَينة ، عن زيد بن أسلم ببعضه[١٠] مرفوعاً . فالله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدّثنا الوليد بن مسلم ، أخبرنا الأَوزاعي ، حدّثنا حسان بن عطية ، حدّثني

---

(١) في ب وط : بيان . وسقطت لفظة التحديث من ط .

(٢) المسند (٣/ ٤٦) وفيه : فقد تبوّأ .

(٣) ليست في المسند .

(٤) زيادة من ب وط . وهي موافقة لما في المسند .

(٥) المسند (٣/ ٥٦) .

(٦) صحيح مسلم (٣٠٠٤) في الزهد ، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم .

(٧) في سننه الكبرى (٨٠٠٨) .

(٨) في ط : وهو .

(٩) جامع الترمذي (٢٥٦٦) في العلم، باب ما جاء في كراهته كتابة العلم .

(١٠) هو قوله : « استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا » ، وقال الترمذي عقبه : « وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه أيضاً عن زيد بن أسلم ، رواه همام عن زيد بن أسلم » .

أبو كبشة السَّلُولي ، أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدّثه أنه سمع رسول الله ﷺ يعني يقول : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومَن كَذَب عليَّ متعمداً[١] فليتبوأ مقعده من النار »[٢] .

ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق ، كلاهما عن الأوزاعي[٣] ، به .

وهكذا رواه البخاري[٤] عن أبي عاصم النبيل ، عن الأوزاعي ، به .

وكذا رواه الترمذي عن بُنْدار عن أبي عاصم . ثم رواه عن محمد بن يحيى الذُّهلي ، عن محمد بن يوسف الفِرْيابي[٥] عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية[٦] وقال : حسن صحيح[٧] .

وقال أبو بكر البزَّار : حدّثنا محمد بن المثنى أبو موسى ، حدّثنا هشام بن معاوية ، حدّثنا أبي ، عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عبد الله بن عمرو قال : كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل حتى نصبح ، ما نقوم فيها إلا لعظم صلاة[٨] [ورواه أبو داود[٩] ، عن محمد بن مثنى . ثمّ قال البزار : حدّثنا محمد بن مثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عمران بن حصين ، قال : كان رسول الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظم صلاةٍ][١٠] .

قال البزار : وهشام أحفظ من أبي هلال ، يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا يحيى ـ هو القطان ـ عن محمد بن عمرو ، حدّثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي[١١] ﷺ « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[١٢] إسناد[١٣] صحيح ولم يخرّجوه .

---

(١) ليست في ب . وهي واردة في مسند أحمد .
(٢) المسند (٢/ ١٥٩) .
(٣) المسند (٢/ ٢٠٢) .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٦١) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٥) في ط : العرياني وهو تصحيف . والفريابي نسبة إلى فارياب ، بلدة بنواحي بلخ . اللباب (٢/ ٤٢٧) .
(٦) زاد في ب : حدثني أبو كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع به . وهو موافق لما في الترمذي ، لكن إيراده هنا فيه تكرار .
(٧) سنن الترمذي : (٢٦٦٩) في العلم ، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل .
(٨) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩١، ٨/ ٢٦٤). من حديث عمران بن حصين، وقال: رواه البزار وأحمد والطبراني في الكبير، وإسناده صحيح. وقال أيضاً: وفي رواية: يعني الفريضة المكتوبة. وعُظْم الشيء: أكثره ومعظمه.
(٩) سنن أبي داود رقم (٣٦٦٣) في العلم ، باب الحديث عن بني إسرائيل ، وهو حديث صحيح .
(١٠) زيادة من ب وط .
(١١) زاد في ط : قال .
(١٢) المسند (٢/ ٤٧٤) .
(١٣) في ب : إسناده .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا أبو خيثمة ، حدّثنا وكيع ، حدّثنا ربيع بن سعد الجعفي ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب » . ثم أنشأ يحدث ﷺ قال : « خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلَّينا ركعتين ودعونا الله عزَّ وجلَّ فيخرج لنا رجلاً قد مات نُسائِله يحدّثنا عن الموت ، ففعلوا ، فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر[1] من تلك القبور ، بين عينيه أثر السجود ، فقال : يا هؤلاء ! ما أردتم إلي ؟ فقد مِتُّ منذ مئة عام فما سكنتْ عني حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يُعيدني كما كنتُ »[2] .

وهذا حديث غريب ، إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً ، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم ، فذاك متروك مردود لا يعرَّج عليه ، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته ، لما رواه البخاري[3] قائلاً : حدّثنا محمد بن بشار[4] ، حدّثنا عثمان بن عمر ، حدّثنا علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلّهنا وإلّهكم واحد ونحن له مسلمون » . تفرّد به البخاري من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد[5] من طريق الـزُّهري عن [ابن][6] أبي نملة الأنصاري عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ ، إذ جاء[7] رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلّم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » . فقال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلّم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حَدَّثَكُم أهل الكتاب[8]

---

(١) ليست في ب .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩١) باختصار ، وقال : رواه البزار عن شيخه جعفر بن محمد بن أبي وكيع ، عن أبيه ، ولم أعرفهما ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) صحيح البخاري رقم (٤٤٨٥) في التفسير ، باب ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ ، ورقم (٧٣٦٢) في الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » ، ورقم (٧٥٤٢) في التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية .

(٤) في ط : يسار وهو تصحيف . وسقط عمر من السند في ب .

(٥) المسند (٤/ ١٣٦) .

(٦) زيادة من ب ، وهي موافقة لما في المسند . وأبو نملة الأنصاري صحابي مختلف في اسمه ، فقيل هو عمار ، وقيل : عمرو ، وقيل عمارة . من الأوس شهد أحداً . تقريب التهذيب (٢/ ٤٨٢) .

(٧) في ط : فقال إذا جاء . . وهو خطأ .

(٨) زاد في ب : بشيء .

فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم تصدّقوهم » . تفرّد به أحمد .

وقال الإمام أحمد[١] : حدّثنا سُريج[٢] بن النعمان ، حدّثنا هشيم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب[٣] أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ ، قال : فغضب وقال : « أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب ؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء[٤] نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده[٥] لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني » . تفرد به أحمد ، وإسناده على شرط مسلم .

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدّلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرّفوها وأوّلوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المغربات التي لم يحيطوا علماً بها[٦] ، وهي بلغتهم ، فكيف يعبّرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذه وقع في تعريبهم خطأ كبيرٌ ووهْم كثيرٌ مع مالهم من القصود[٧] الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم وتأمّل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

وهذه التوراة التي يُبْدونها ويُخفُون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريفٌ[٨] وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم[٩] من نظر فيها وتأمّل ما قالوه وما[١٠] أبدوه وما أخفوه ، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب ، باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، وقد أسلم في زمن عمر ، وكان ينقل شيئاً عن[١١] أهل الكتاب ، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما

---

(١) المسند (٣/ ٣٨٧) .
(٢) في ط : شريح وهو تصحيف . وسُريج بن النعمان بن مروان الجوهري ، أبو الحسن البغدادي ، من كبار الطبقة العاشرة ، توفي سنة (٢١٧هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢١٩) .
(٣) زاد في ب : في كتاب .
(٤) كذا في ب ، وهو موافق لما في المسند ، وفي أ وط : به لقد جئتكم به . . . والتهوّك : كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير روية .
(٥) كذا في ب ، وهو موافق لما في المسند . وفي أ وط . به .
(٦) في ط : بها علماً .
(٧) في ط : المقاصد . وفي حاشية الأصل : لعله المقاصد .
(٨) في ب : من تحريف .
(٩) في ب : يعلمه .
(١٠) ليست في ب .
(١١) زاد في ب كتب .

يصدقه من الحق وتأليفاً لقلبه، فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده ، وبالغ أيضاً[١] هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما لا يساوي مداده ، ومنها ما هو باطل لا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق[٢] الذي بأيدينا .

وقد قال البخاري[٣] : وقال أبو اليمان : حدّثنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني حُميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدّث رَهْطاً من قريش بالمدينة . وذَكر كعبَ الأحبار ، فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يُحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا ـ مع ذلك ـ لَـنَبْلُو عليه الكذب » يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري[٤] من حديث الزُّهري ، عن عُبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس أنه قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزلَ الله على رسوله أحدَثُ الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يُشب ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتابَ الله وغيّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله أعلم .

***

(١) في ب : هو أيضاً .
(٢) في ب : من الحق .
(٣) صحيح البخاري رقم (٧٣٦١) ، في الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » .
(٤) رقم (٧٣٦٣) .

قصّة جريج أحد عُبّاد بني إسرَائيل

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا وهب بن جرير ، حدّثني أبي ، سمعت محمد بن سيرين يحدّث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يَتكلّم في المهد إلّا ثلاثةٌ : عيسى ابنُ مريم » . قال : « وكان في[٢] بني إسرائيل رجلٌ عابد يُقال له جُريج ، فابتنى صومعةً وتعبّد فيها . قال : فذكر بنو إسرائيل عبادةَ جريج ، فقالت بَغِيٌّ منهم : لئن شئتم لأفتننّه . فقالوا : قد شئنا ذاك . قال : فأتته ، فتعرَّضت له ، فلم يلتفت إليها . فأمكنت نفسَها من راعٍ كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جُريج ، فحملت ، فولدت غلاماً ، فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج . فأتوه ، فاستنزلوه ، فشتموه وضربوه وهدموا صومعته ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : إنك زنيتَ بهذه البغيّ فولدت غلاماً . فقال : وأين هو ؟ قالوا : هو هذا . قال : فقام ، فصلّى ودعا ، ثمّ انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه ، فقال : بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال : أنا[٣] ابن الراعي . فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبّلونه ، وقالوا : نبني صومعتَك من ذهب . قال : لا حاجة لي في ذلك ، ابنوها من طين كما كانت .

قال : وبينما امرأة في حجرها ابن لها تُرضعه ، إذ مرَّ بها راكبٌ ذو شارة . فقالت : اللهم اجعل ابني مثلَ هذا . قال : فترك ثَدْيَها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثلَه . قال : ثمّ عاد إلى ثديها فمصَّه . قال أبو هريرة : فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيعَ الصبيّ ووضع إصبعه في فيه يمصُّها . ثمّ مُرَّ[٤] بأَمَة تُضرَبُ فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثلَها . قال : فترك ثديَها وأقبل على الأَمَة فقال : اللهم اجعلني مثلها . قال : فذاك حين تراجعا الحديث ، فقالت : حَلْقَى[٥] . مرَّ الراكب ذو الشارة ، فقلتُ : اللهم اجعل ابني مثلَه ، فقلتَ : اللهم لا تجعلني مثله . ومُرَّ[٦] بهذه الأَمَةِ فقلتُ : اللهم لا تجعل ابني مثلَها . فقلتَ : اللهم اجعلني مثلها ! فقال : ياأُمَّاه إن الراكب ذا[٧] الشارة جبَّارٌ من الجبابرة ، وإن هذه الأَمَة يقولون : زنت ، ولم تزنِ ، وسرقت ولم تسرق ، وهي تقول : حسبي الله » .

---

(١) المسند (٢/ ٣٠٧) .
(٢) في ب : من .
(٣) زيادة من ب وط ، وهي موافقة لما في المسند .
(٤) في ط : مرت .
(٥) في ط : خلفي ، وهو تصحيف . وقولها : حلقى : أي :حلقك الله حلقاً ، قال السندي : المعروف في اللغة بالتنوين ، لكن اشتهر على الألسنة بلا تنوين .
(٦) في ط : مررت .
(٧) في أ. وب . وط : ذو . وهو خطأ .

وهكذا[١] رواه البخاري في أحاديث الأنبياء[٢] ، وفي المظالم[٣] عن مسلم بن إبراهيم . ومسلم في كتاب الأدب[٤] عن زهير بن حرب عن يزيد بن هارون ، كلاهما عن جرير بن حازم ، به . طريق أخرى وسياق آخر .

قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا يحيى بن سعيد ، حدّثنا سليمان بن المغيرة ، حدّثنا حُميد بن هلال ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة عن النبي[٦] ﷺ قال : « كان جُريج يتعبّد في صومعته »[٧] قال : « فأتته أُمُّه فقالت : يا جريج أنا أمك وكلمني » . قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن ، قال : « وصادفَتْه يُصلّي . قال : يا ربّ أمي وصلاتي ، فاختارَ صلاتَه ، [فرجعتْ . ثمّ أتته فصادفته يُصلي ، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلّمني . فقال : يا رب أمي وصلاتي ، فاختار صلاتَه . فقالت : اللهم هذا جريج ، وإنه ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني][٨] ، اللهم فلا تمته حتى تُريه المومسات . ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن . قال : وكان راعٍ يأوي إلى ديره ، فخرجت امرأة ، فوقع عليها الراعي ، فولدت غلاماً ، فقيل : ممن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير . فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم[٩] ، وأقبلوا إلى الدير فنادوه ، فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره ، فنزل إليهم ، فقالوا : سل هذه المرأة . قال : أراه تَبَسَّم ، قال : ثمّ مسح رأس الصبي فقال : من أبوك ؟ قال : راعي الضأن . قالوا : يا جريج نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة . قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان . ففعلوا » .

ورواه مسلم[١٠] في الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة ، به .

سياق آخر : قال الإمام أحمد[١١] : حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد ، أخبرنا[١٢] ثابت ، عن أبي رافع ،

---

(١) في ب : وهذا .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٦) ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .
(٣) صحيح البخاري رقم (٢٤٨٢) ، باب إذا هدم حائطاً فليبن مثله .
(٤) صحيح مسلم رقم (٢٥٥٠) . في ب البر والصلة والآداب ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.
(٥) في المسند (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) .
(٦) لم يرفع الحديث إلى النبي ﷺ في مسند أحمد ، والظاهر أن هذا من إضافات المصنف إن صحت النسخ لأن الحديث في حقيقته مرفوع .
(٧) كذا في ب وط . وهو موافق لما في المسند . وفي أ صومعة .
(٨) سقطت من ب .
(٩) المسحاة : أداة تقشر بها الأرض وتجرف .
(١٠) مسلم (٢٥٥٠) .
(١١) المسند (٢/ ٣٨٥) .
(١٢) في ب : وحدثنا .

عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له : جريج ، كان يتعبّد في صومعته ، فأتته أمه ذات يوم ، فنادته فقالت : أي جريج أي بُني أشرِف عليَّ أكلمكَ أنا أمُّك أشرِفْ عليَّ ، فقال : أي ربي صلاتي وأمي ، فأقبل على صلاته ، ثم عادت فنادته مراراً ، فقالت : أي جريج أي بُني أشرِف عليَّ . فقال : أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تُمته حتى تريه المومسة . وكانت راعية ترعى غنماً لأهلها ، ثم تأوي إلى ظل صومعته ، فأصابت فاحشةً فحملت فأُخِذَت . وكان من زنى منهم قُتل . فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج صاحب الصومعة ، فجاؤوا بالفؤوس والمرور فقالوا ؛ أي جريج أي مراءِ ، انزل ، فأبى وأقبل على صلاته يصلّي ، فأخذوا في هدم صومعته . فلما رأى ذلك نزلَ فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً ، فجعلوا[1] يطوفون بهما في الناس ، فوضع أصبعه على بطنها فقال : أي غلام من أبوك ؟ فقال[2] : أبي فلان راعي الضأن . فقبّلوه وقالوا : إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة ، قال : أعيدوها كما كانت » .

وهذا سياق غريب ، وإسناده على شرط مسلم ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلّموا في المهد : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وقد تقدم الكلامُ على قصته[3] ، وصاحب جُريج ابن البغي من الراعي كما سمعت ، واسمه يابوس كما ورد مصرّحاً به في صحيح البخاري[4] ، والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه فتمنّت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقد رواه الإمام أحمد[5] عن هَوذة عن عوف الأعرابي عن خِلاَس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع ، وهو إسنادٌ حسن .

وقال البخاري[6] : حدّثنا أبو اليمان ، حدّثنا شعيب ، حدّثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج ، حدّثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما[7] امرأة ترضع ابنها إذ مرّ بها راكب وهي ترضعه ، فقالت : اللهم لا تُمت ابني حتى يكون مثل هذا . فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثمّ رجع في

---

(١) ليست في ب .
(٢) في ب : قال وهذا موافق لما في المسند .
(٣) في ب : كلامه .
(٤) صحيح البخاري رقم (١٢٠٦) ، في العمل في الصلاة ، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة .
(٥) المسند (٢/ ٣٩٥) .
(٦) رقم (٣٤٦٦) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٧) في ب : بينا ، وهو موافق لرواية البخاري .

الثدي ومرّ بامرأة تُجرّر ويلعب بها ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه[١] . فقال : اللهم اجعلني مثلها . فقال : أما الراكب فإنه كافر . وأما المرأة فإنهم يقولون : إنها[٢] تزني ، وتقول : حسبي الله ، ويقولون : تسرق ، وتقول : حسبي الله » .

وقد ورد في من تكلّم في المهد أيضاً شاهد يوسف كما تقدّم ، وابن ماشطة آل فرعون[٣] . والله أعلم .

* * *

(١) في ب : مثلها ، وهو موافق لرواية البخاري .
(٢) في ب : لها ، وهو موافق لرواية البخاري .
(٣) ليست في ب . وتقدم خبر ابن الماشطة في هذا الجزء .

قصّة برصيصا

وهي عكس قضية[١] جُريج فإن جُريجاً عُصم ، وذلك[٢] فتن .

قال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، أخبرنا أبي ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦ ـ ١٧] . قال ـ ابن مسعود ـ وكانت امرأة ترعى الغنم ، وكان لها إخوة أربعة ، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب ، قال : فنزل الراهب ، ففجر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثمّ ادفنها ، فإنك رجل تُصَدَّقُ ويُسمع قولُك . فقتلها ثمّ دفنها . قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثمّ دفنها في مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجلٌ منهم : والله لقد[٣] رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقُصُّها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قُصَّها علينا . قال : فقصها . فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء . فانطلقوا فاستَعْدوا ملكَهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه . ثمّ انطلقوا به ، فأتاه الشيطان فقال : إني أنا[٤] أوقعتك في هذا ، ولن ينجيك منه غيري ، فاسجُد لي سجدةً واحدةً وأُنجيكَ مما أوقعتُك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرّأ منه ، وأُخِذَ فقُتل[٥] . وهكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حَيّان نحو ذلك[٦] .

وقد رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسياق آخر ، فقال ابن جرير[٧] : حدثنا خَلّاد بن أسلم ، حدثنا النَّضْرُ بن شُمَيل أخبرنا شُعْبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهيك ، سمعت علياً يقول : إن راهباً تعبَّد ستين سنةً ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأةٍ فأَجَنَّها[٨] ولها

---

(١) في ب : قصة .

(٢) في ب : وذاك .

(٣) في ب : لقد والله .

(٤) في ب : أنا الذي . . . وهو موافق لما عند ابن جرير .

(٥) تفسير الطبري (٢٨/ ٣٣) .

(٦) قوله : وهكذا روي . . . إلى هنا ، زيادة من ب وط . والرواية من طريق ابن عباس وطاووس في تفسير الطبري (٨/ ٣٣ ـ ٣٤) .

(٧) تفسير الطبري (٢٨/ ٣٣) .

(٨) في ب : فأحبلها . وكلا اللفظين بمعنى .

إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فَيُداويها ، قال : فجاؤوا بها إليه ، فداواها . وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته ، فأتاها ، فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتُها . فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتني ، أنا صنعتُ هذا بك فأطعني أُنْجِكَ مما صنعتُ بك ، اسجُد لي سجدةً ، فسجد له فلما سجد له[1] قال إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب العالمين . فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

* * *

(١) قوله : فلما سجد له ، زيادة من ب ، وهي موافقة لما عند ابن جرير .

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ففرّج عنهم

قال الإمام البخاري[١] : حدّثنا إسماعيل بن خليل ، أخبرنا علي بن مُسْهِر ، عن عُبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثةُ نَفَرٍ ممّن كانَ قبلَكم يمشونَ ، إذ أصابَهم مطرٌ ، فأوَوا إلى غارٍ ، فانطبَقَ عليهم . فقال بعضُهم لبعض : إنه واللهِ يا هؤلاء لا يُنجيكُم إلا الصِّدق ، فليدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يَعلمُ أنَّه صدَقَ فيه . فقال واحدٌ منهم[٢] : اللهمّ إنْ كُنتَ تعلمُ أنّه كانَ لي أجيرٌ عَمِلَ لي على فرَقٍ من[٣] أرُز ، فذهب وتركه ، وأني عَمدتُ إلى ذلك الفَرَق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريتُ منه بَقَراً ، وأنه أتاني يطلب[٤] أجره ، فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسُقْها . فقال لي : إنما لي عندك فَرَق من أرز . فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفَرَق ، فساقها . فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرِّج عنا . فانساخَتْ[٥] عنهم الصخرةُ . فقال الآخر : اللهم إنْ كنتَ تعلم كان لي أبَوان شيخانِ كبيران ، وكنت آتيهما كلَّ ليلةٍ بلبن غنم لي فابطأتُ ليلةً ، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغَون[٦] من الجوع ، وكنتُ لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي ، فكرهتُ أن أُوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فَيَسْتَكِنَّا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرّج عنّا ، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : اللهمّ إنْ كنتَ تعلمُ أنه كانتْ لي ابنةُ عمٍّ مِنْ أحَبِّ الناسِ إليَّ وأنّي راودتُها عن نفسها ، فأبَتْ إلّا أن آتِيَها بمئة دينار ، فطلبتُها حتى قدرتُ ، فأتيتُها بها ، فدفعتُها إليها ، فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدتُ بين رجليها قالت : اتقِ الله ولا تَفضَّ الخاتَمَ إلا بحقّه ، فقمت وتركتُ المئة دينار . فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرّج عنّا . ففرَّج الله عنهم فخرجوا[٧] » .

---

(١) ثمة خلاف في نسخة ب عما هاهنا ، ففيها الحديث الذي رواه البخاري من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (٢٢٧٢) في الإجارة ، باب من استأجر أجيراً فترك أجره . .

(٢) كذا في البخاري ، وفي أ : أحدهم ، وفي ط : واحداً منهم .

(٣) زيادة من ط ، وهي موافقة لما في البخاري . والفَرَق : مكيال محدد .

(٤) كذا في ط والبخاري . وفي أ : فطلب .

(٥) انساخت : انشقت .

(٦) الضغاء : الصياح ببكاء .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٥) ، في أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار .

ورواه[١] مسلم عن سويد بن سعيد ، عن علي بن مُسْهِر[٢] ، به .

وقد رواه الإمام أحمد[٣] منفرداً به عن مروان بن معاوية ، عن عُمَر بن حمزة بن عبد الله بن عمر ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

ورواه الإمام أحمد[٤] من حديث وهْب بن مُنَبِّه ، عن النعمان بن بشير ، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق ، وفيه زيادات .

ورواه البزّار من طريق أبي إسحاق عن رجل من بَجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله[٥] .

ورواه البزّار في مسنده من حديث ابن حبيش[٦] عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ بنحوه[٧] .

* * *

---

(١) في ط : رواه .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال .

(٣) المسند (٢/ ١١٦) .

(٤) المسند (٤/ ٢٧٤) .

(٥) كشف الأستار (٣١٧٨) .

(٦) في أ وط : « أبي حنتش » وما أثبتناه في ب وهو الصواب ، فالمعروف أن زر بن حبيش هو أحد الرواة عن علي رضي الله عنه كما في كتب الرجال . . سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦٧) ، وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٥) .

(٧) وذكره ابن قدامة في كتاب التوابين (٦٩) ، وللشيخ عبد القادر الأرناؤوط تعليق مطوّل عليه ، فلينظر ثمة .

خبَر الثلاَثة الأعمى وَالأبرص وَالأقرع

روى البخاري[١] ومسلم[٢] من غير وجه عن هَمَّام بن يحيى ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، حدثني عبد الرحمن بن أبي عَمْرة ، أن أبا هريرة حدَّثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثةً في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله[٣] أن يَبْتَليهم ، فَبعث[٤] إليهم مَلَكاً ، فأتى الأبرصَ ، فقال له : أي شيء أحبّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن وجلدٌ حسنٌ ، قد قَذِرَني الناسُ . قال : فمسحه فذهب عنه فأُعطي لَوناً حسناً وجلداً حسنا . فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ـ أو قال : البقر ، شك[٥] في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ فأعطي ناقة عشراء ، فقال : يُبارَك لكَ فيها . قال : وأتى الأقرَع فقال[٦] : أي شيء[٧] أحب إليك ؟ قال : شَعرٌ حسنٌ ويَذْهَبُ عني هذا[٨] ، قد قَذِرَني الناس . فمسحَه فذهب وأُعطيَ شَعراً حسناً . قال أي المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطاه بقرةً حاملاً وقال : يُبارَك لك فيها . قال[٩] : وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال يردُّ اللهُ إليَّ بَصري . فأبصِرُ به الناسَ . قال : فمسحه ، فرد الله إليه بصرهُ[١٠] . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطاه شاةً والداً فأُنتج هذان ، ووُلِّدَ هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر[١١] ، ولهذا وادٍ من الغنم ثم[١٢] إنه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته ، فقال : رجلٌ مِسكين تقطَّعت بي الحِبال في سَفري فلا بلاغَ اليوم[١٣] إلا بالله ثم بك ، أسألك ـ بالذي أعطاك اللون الحسن والجِلْد الحسن والمال ـ بعيراً أتبلّغ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٤) ، أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل ، ورقم (٦٦٥٣) ، في الأيمان والنذور ، باب لا يقول ما شاء الله وشئت .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٩٦٤) في أول الزهد .

(٣) في ط : وأعمى وأقرع بدا لله .

(٤) في ط : فبعث الله .

(٥) في ط : هو شك ، وهي رواية البخاري .

(٦) زاد في ط : له .

(٧) كذا في ب : وهو لفظ البخاري . وفي أ وط : المال .

(٨) في ب : هذا عني .

(٩) ليست في ب . وكذلك في البخاري .

(١٠) من قوله : يرد الله . . إلى هنا زيادة من ب وط والبخاري ، سقطت من الأصل .

(١١) في ب : بقر ، وهي رواية البخاري .

(١٢) زيادة من ط . موافقة للفظ البخاري .

(١٣) في ب : لي اليوم . والحبال : الوسائل والأسباب .

عليه في سفري . فقال له : إن الحقوق كثيرةٌ . فقال له : كأني أعرفُك ! ألم تكن أبرصَ يَقْذَرُكَ الناس فقيراً فأعطاك الله عزَّ وجلَّ ؟ فقال : لقد ورثتُ لكابرٍ[(١)] عن كابر . فقال : إن كنتَ كاذباً فصيّركَ الله إلى ما كنتَ . وأتى الأقرعَ في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فردّ عليه مثلَ ما ردَّ عليه هذا . فقال : إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنتَ . وأتى الأعمى في هيئته وصورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل ، وتقطّعت بي الحِبال في سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثمّ بك ، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلّغ بها في سفري . فقال : قد كنتُ أعمى فردّ الله إليَّ بَصري ، وفقيراً فقد أغناني[(٢)] فخذ ما شئت[(٣)] فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ . فقال : أمْسك مالَكَ فإنما ابتُليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » .

هذا لفظ البخاري[(٤)] في أحاديث بني إسرائيل .

* * *

---

(١) في ب : كابراً ، وهو لفظ مسلم .

(٢) زيادة من ب وط . وهي موافقة للفظ البخاري .

(٣) زاد في ب : واترك ما شئت وهو لفظ مسلم . وفيه : ودع .

(٤) وهو أقرب إلى لفظ مسلم .

حديث الذي استلف من صَاحبه ألف دينار فأدّاها

قال الإمام أحمد : حدّثنا يونس بن محمد ، حدّثنا ليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر « أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سأل بعضَ بني إسرائيل أن يُسلفه ألفَ دينارٍ ، فقال : ائتني بشهداء أُشهدهم . قال : كفى بالله شهيداً . قال : ائتني بكفيلٍ . قال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقتَ . فدفعها إليه إلى أجَلٍ مُسمًى ، فخرج في البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدمُ عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألفَ دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثمّ زَجَّجَ موضعها ، ثمّ أتى بها البحر ، ثمّ قال : اللهم إنك علمتَ أني استسلفت فلاناً ألفَ دينارٍ ، فسألني كفيلاً فقلتُ : كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ، وإني قد جَهِدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى وَلَجتْ فيه ، ثمّ انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجلُ الذي كان أسلفه ينظرُ لعلَّ مركباً يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفةَ ، ثمّ قدم الرجل الذي كان تسلَّف منه ، فأتاه بألف دينارٍ وقال : والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء ؟ قال : ألم أُخبرْكَ أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه . قال : فإن الله أدّى عنكَ الذي بعثتَ في الخشبة ، فانصرفْ بألفكَ راشداً » .

هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً[١] . وقد علّقه البخاري في غير موضعٍ من « صحيحه »[٢] بصيغة الجزم عن الليث بن سعد ، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه[٣] . والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبي عَوانة عن عمر بن سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . ثم قال : لا يُروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

***

(١) المسند (٢/٣٤٨ـ٣٤٩) .

(٢) صحيح البخاري رقم (١٤٩٨) (٢٢٩١) ، و(٢٤٠٤) و(٢٤٣٠) و(٢٧٣٤) وفي الكفالة ، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها ، ورقم (٦٢٦١) في الاستئذان ، باب بمن يُبدأ في الكتاب .

(٣) البخاري (٢٠٦٣) .

قصة أخرى شبيهة بهذه[١] في الصّدق وَالأمانة

قال البخاري : حدّثنا إسحاق بن نصر ، حدّثنا عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن همّام بن مُنَبِّه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له ، فوجد الرجلُ الذي اشترى العقار في عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار : خُذْ ذهبَك مني إنما اشتريتُ منكَ الأرض ولم أبْتَع منك[٢] الذهب . فقال الذي له الأرض : إنما بعتُك الأرضَ وما فيها . فتحاكَما إلى رجلٍ ، فقال الذي تحاكما إليه : ألَكُما ولَد ؟ قال أحدهما لي غلام ، وقال الآخر : لي جارية . قال أَنْكِحوا الغلام الجارية وأنْفِقوا[٣] على أنفسهما منه ، وتصدقا » .

هكذا روى البخاري[٤] هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل . وأخرجه مسلم[٥] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق ، به .

وقد رُوي أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين . وقد كانَ قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة . والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر[٦] في كتابه « المبتدأ » عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن : إن ذا القرنين كان يتفقّد أمور[٧] ملوكه وعماله بنفسه ، وكان لا يطّلع على أحدٍ منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطّلع هو بنفسه . قال : فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن ، فجلس إلى قاضٍ من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومةٍ ، فلما أن طال بذي القرنين ولم يطّلع على شيء من أمر ذلك القاضي ، وهَمَّ بالانصراف ، إذا هو برجلين قد اختصما إليه ، فادّعى أحدهما فقال : أيها القاضي إني اشتريتُ من هذا داراً وعمرتها ووجدت فيها كنزاً ، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليَّ . فقال له القاضي ما تقول ؟ قال : ما دفنتُ ولا علمت[٨] به فليس هو لي ولا أقبضُه منه . قال المدّعي : أيها القاضي مُر من يقبضه فيضعه حيث أحببتَ . فقال القاضي : تَفِرُّ من الشر وتُدخلني فيه ، ما أنصفتني ،

---

(١) في ط : « بهذه القصة » .
(٢) زيادة من ب وط ، وهي موافقة للفظ البخاري .
(٣) كذا في ب وط . وهو موافق لما في البخاري . وفي أ : انكحا .. وانفقا .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٢) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٥) صحيح مسلم رقم (١٧٢١) في الأقضية ، باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين .
(٦) إسحاق بن بشر بن محمد ، أبو حُذيفة ، مؤرخ ، ولد ببلخ ، واستوطن بخارى . توفي سنة (٢٠٦هـ) . وكتابه المبتدأ منه جزء مخطوط في المكتبة الظاهرية . الأعلام (١/ ٢٩٤) .
(٧) زاد في ب : مملكته . . .
(٨) في ط : وما .

وما أظن هذا في قضاء الملك . فقال القاضي : هل لكما في[1] أمرٍ أنصف مما دعوتماني إليه ؟ قالا : نعم . قال للمدعي : ألكَ ابنٌ ؟ قال : نعم . وقال للآخر : ألك ابنة ؟ قال : نعم . قال : اذهبا فزوّج ابنتك من ابن هذا وجهزاهما[2] من هذا المال وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا قد حمّلتا[3] بخيره وشره . فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ، ثم قال للقاضي : ما ظننت أن في الأرض أحداً يفعل مثل هذا ، أو قاضٍ يقضي بمثل هذا ؟ فقال القاضي وهو لا يعرفه : وهل أحد يفعل غير هذا ؟ قال ذو القرنين : نعم . قال القاضي : فهل يُمطَرُون في بلادهم ؟! فعجب ذو القرنين من ذلك وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

***

قصّة أخرى

قال البخاري[4] : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن أبي الصّدِّيق[5] الناجي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل[6] تسعةً وتسعين إنساناً ، ثمّ خرج يسأل ، فأتى راهباً ، فسأله ، فقال : هل من توبةٍ[7] ؟ قال : لا . فقتله . فجعل يسأل ، فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموتُ فناءَ بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه أن تقرَّبي ، وأوحى إلى هذه أن تَبَاعدي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوُجد إلى هذه أقرب بشبرٍ ، فغُفر له » .

هكذا رواه هاهنا مختصراً . وقد رواه مسلم[8] عن بندار ، به . ومن حديث شعبة ، ومن وجه آخر عن قتادة ، به مطولاً .

***

---

(١) ليست في ط .
(٢) كذا في ب ، وفي أ : وجهزوهما . وفي ط : وجهزهما .
(٣) في ط : فتكونا ملياً .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٠) في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٥) في ب : أبي بكر الصديق وهو سهو . وأبو الصدّيق هو بكر بن عمرو الناجي ، ثقة من الطبقة الثالثة ، مات سنة (١٠٨هـ) . تقريب التهذيب (١/ ١٠٦) .
(٦) كذا في ب وط . والبخاري ومسلم . وفي أ زاد : قد .
(٧) كذا في ب وط والبخاري . وفي أ فسأله هل له توبة .
(٨) صحيح مسلم رقم (٢٧٦٦) في التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله .

حديث آخر :

قال البخاري[١] : حدّثنا علي بن عبد الله ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : صلَّى بنا [رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثمّ أقبل على الناس بوجهه][٢] فقال : « بينما رجلٌ يسوق بقرةً إذ ركبها فضربها فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنّما خلقنا للحَرث . فقال الناس : سبحان الله بقرةٌ تكَلَّمُ ؟! فقال : فإني أومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما[٣] ثمَّ . قال وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلبه[٤] حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا ! استنقذتَها منّي ، فمن لها يوم السَّبُع[٥] ، يوم لا راعي لها غيري ؟ فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلّم . قال : فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما[٦] ثَمَّ » .

قال[٧] : وحدّثنا علي قال : حدّثنا[٨] سفيان ، عن مِسْعَر ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بمثله .

وقد أسنده البخاري في المزارعة عن علي بن المديني[٩] . ومسلم[١٠] عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة ، وأخرجاه من طريق شعبة ، كلاهما عن مِسْعَر به . وقال الترمذي : حسن صحيح[١١] .

---

(١) (٦/ ٥١٢) ، رقم (٣٤٧١) في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٢) ليست في ط .
(٣) كذا في ب وط والبخاري . وفي أ : وهاهما .
(٤) في ط : فطلب .
(٥) يوم السبع : قيل هو يوم القيامة ، وردوه بأن هذا لا يصلح مع تتمة الحديث . قيل : السبع : الذعر والفزع . وقيل : أراد عند الفتن يتركها الناس هملاً . وقيل : يوم السبع عيد كان لهم في الجاهلية يلهون به وينشغلون عن ماشيتهم النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .
(٦) كذا في ب وط . والبخاري . وفي أ : وهاهما .
(٧) أي البخاري (٦/ ٥١٢) .
(٨) قوله : علي ، قال : حدثنا ، سقطت من أ . وهي في ب وط . والبخاري .
(٩) هكذا وقع عند المصنف ، والذي في المطبوع من صحيح البخاري أن حديث المزارعة (٢٣١٤) إنما هو عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة فقط . والظاهر أن المصنف قد نقل ذلك من كتاب « تحفة الأشراف » لشيخه المزي إذ جاء فيه : « خ في المزارعة عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة . وعن علي عن سفيان عن مسعر ، كلاهما عن سعد بن إبراهيم به » (١٠/ ٣٤٦) رقم (١٤٩٥١) ط . د. بشار .
(١٠) ليست في ب . والحديث بطرقه في صحيح مسلم ، رقم (٢٣٨٨) ، في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
(١١) جامع الترمذي (٣٦٧٧) و(٣٦٩٥) .

[وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد][١] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد[٢] ، عن أبي ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنه قد[٣] كان فيما مضى قبلَكم من الأمم مُحدَّثون وإنّه وإنْ كان في أمتي هذه منهم فإنه عمرُ بن الخطاب »[٤] . لم يخرجه مسلم من هذا الوجه[٥] .

وقد روي عن إبراهيم بن سعد عن أبي سلمة عن عائشة[٦] رضي الله عنها .

حديث آخر :

قال البخاري[٧] : حدّثنا عبد الله بن مَسْلمة ، عن مالك ، عن ابن شهاب ، عن حُميد بن عبد الرحمن أنه« سمع معاوية بنَ أبي سفيان ـ عام حجَّ ـ على المنبر ، وتناول[٨] قُصَّةً من شعرٍ كانتْ في يدِ حَرَسيِّ[٩] فقال : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثلِ هذه ويقول : إنما هَلَكَتْ بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم » .

وهكذا رواه مسلم[١٠] وأبو داودُ[١١] من حديث مالك . وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه .

وقال الترمذي : حديث صحيح[١٢] .

وقال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا عمرو بن مُرَّة ، قال : سمعت سعيد بن المسيِّب

---

(١) ليست في ب ، وهي في صحيح مسلم رقم (٣٦٧٧) في المناقب ، باب (١٧) .
(٢) كذا في ب ، والبخاري . وفي أ وط : عن سعد ، وهو سهو .
(٣) سقطت من ط .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٩) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) . ورواه أيضاً من طريق يحيى بن قزعة عن إبراهيم بن سعد رقم (٣٦٨٩) في فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب .
(٥) الحديث بطرق أخرى في صحيح مسلم (٢٣٩٨) في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٦) لابن حجر قول في سند هذا الحديث في الفتح (٧/ ٥٠) .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٨) ، في الأنبياء باب (٥٤) .
(٨) في ط : فتناول .
(٩) القُصَّة : هي شعر الناصية ، والخصلة منه . والحرسيّ : منسوب إلى الحرس ، وهو واحد الحراس .
(١٠) صحيح مسلم رقم (٢١٢٧) في اللباس والزينة ، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة .
(١١) سنن أبي داود رقم (٤١٦٧) في الترجل ، باب صلة الشعر .
(١٢) الترمذي رقم (٢٧٨١) في الأدب ، باب ما جاء في كراهية اتخاذ القُصَّة .

قال : قدم معاوية بن أبي سُفيان المدينة آخر قَدْمةٍ قَدِمها ، فخطبنا ، فأخرج من كُمِّه كُبّةَ شعرٍ وقال : « ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود ، إن النبي ﷺ سمّاه الزُّوْرَ ، يعني الوصال في الشعر » . تابعه غُنْدَر عن شعبة[١] .

والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غُندر عن شعبة[٢] . ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب[٣] ، به[٤] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا سعيد بن تَلِيْدٍ ، حدّثنا ابنُ وهب قال[٥] أخبرني جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما كلبٌ يَطِيفُ برَكِيَّةٍ كادَ يقتله العطشُ ، إذ رأته امرأة بغي[٦] من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوْقَها ، فسقته ، فَغُفِرَ لها به »[٧] .

ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السَّرْح عن ابن وهب ، به[٨] .

حديث آخر :

قال البخاري[٩] : حدّثني عبد الله بن محمد بن[١٠] أسماء ، حدّثنا جويرية ، عن نافع ، عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، فلا[١١] هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض » .

وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، به[١٢] .

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٨٨) في الأنبياء .
(٢) رواه عن أبي بكر من أبي شيبة ، ومحمد بن المثنى العنزي ، ومحمد بن بشار ، ثلاثتهم عن غندر (٢١٢٧) (١٢٣) في اللباس .
(٣) مسلم (٢١٢٧) (١٢٤) .
(٤) زيادة من ب وط .
(٥) زيادة من ط . موافقة للفظ البخاري .
(٦) ليست في ط . ولا في البخاري .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٧) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٨) صحيح مسلم رقم (٢٢٤٥) في السلام ، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها . والموق : الخف .
(٩) صحيح البخاري (٣٤٨٢) في الأنبياء .
(١٠) قوله : محمد بن . . . زيادة من ب . موافقة لنص البخاري .
(١١) في ب : لا .
(١٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٤٢) في الحيوان ، وفي الأدب ، جميعاً بالإسناد نفسه .

حديث آخر :

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا عثمان بن عمر ، حدّثنا المُسْتَمِرُّ بن الريّان ، حدّثنا أبو نَضْرة ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل امرأة قصيرةٌ ، فصنعتْ رِجلين من خشب ، فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين . واتخذت خاتماً من ذهب ، وحشت تحت فَصِّه أطيب الطيب والمسك[٢] ، فكانت إذا مرت بالمجلس حركّته فَنَفَح رِيحه » .

رواه مسلم من حديث المستمر وخُليد بن جعفر كلاهما عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً[٣] منه .

وقال الترمذي : حديث حَسَن صحيح[٤] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، عن منصور ، سمعت رِبْعي بن حِرَاش يحدّث عن أبي مسعود[٥] قال : قال النبي ﷺ : « إن ممّا أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى[٦] : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ » . تفرّد به البخاري[٧] دون مسلم .

وقد رواه بعضهم عن ربعي[٨] عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً[٩] . والله أعلم .

حديث آخر :

قال الإمام أحمد[١٠] : حدّثنا هاشم بن القاسم ، حدّثنا عبد الحميد ـ يعني ابن بهرام ـ حدّثنا شَهْر بن حَوْشَب قال : قال أبو هريرة[١١] : بينما رجلٌ وامرأةٌ له في السلف الخالي لا يقدران على شيء ، فجاء

---

(١) المسند (٣/ ٤٠) .
(٢) في ب : المسك بلا واو . وكذلك هو في المسند .
(٣) صحيح مسلم رقم (٢٢٥٢) في الألفاظ ، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .
(٤) في ط وأ : « صحيح » وما أثبتناه من ب ، وهو الذي في الترمذي رقم (٩٩١) ، في الجنائز ، باب في ما جاء في المسك للميت ، وكذلك نقله المزي في التحفة (٤٣١١) .
(٥) كذا في ب ، وهو موافق لنص البخاري ، وفي أ وط : ابن وهو سهو .
(٦) ليست في ب . وكذلك في البخاري .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٤) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٨) زاد في ط : ابن حراش .
(٩) تنظر تحفة الأشراف (٩٩٨٢) .
(١٠) المسند (٢/ ٤٢١) .
(١١) زاد في ط : قال قال رسول الله ، وما هنا هو الذي في المسند .

الرجل من سَفَره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مَسْغَبَةٌ شديدة فقال لامرأته : أعندكِ[١] شيء ؟ قالت : نعم أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحثَّها فقال : ويحك أبتغي إن كان عندك شيء . قالت : نعم هُنيّة[٢] نرجو رحمة الله . حتى إذا طال عليه الطَّول[٣] قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فأتيني به فإني قد بلغت[٤] وجهدت . فقالت : نعم الآن ينضج التنّور فلا تعجل . فلما أن سَكَتَ عنها ساعة وتحيَّنَتْ أيضاً أن يقول لها ، قالت مِن عِند نفسها : لو قُمتُ فنظرتُ إلى تنّوري . فقامت فوجدت تنورَها ملآن من جُنُوب الغنم [ورحاها تطحن ، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جُنُوب الغنم][٥] . قال أبو هريرة : فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ لو أخذت ما في رَحْيَيْها ولم تنفضها لطحنتها[٦] إلى يوم القيامة .

وقال أحمد[٧] : حدّثنا ابن عامر ، حدّثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج[٨] إلى البرِّيَّة ، فلما رأت امرأته[٩] قامت إلى الرَّحى فوضعتها ، وإلى التنور فَسَجَرته ، ثمّ قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت فإذا الجَفْنَةُ قد امتلأت . قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً . قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، ثم قامت إلى الرَّحى فرفعتها[١٠] . فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » .

قال : شهدت النبي ﷺ وهو يقول : والله لأَن يأتيَ أحدُكم بحزمة حطبٍ[١١] ثمّ يحمله فيبيعه فيستعفف منه خيرٌ له من يأتي رجلاً فيسأله .

* * *

(١) هكذا في ب وهو الموافق لما في المسند .
(٢) في ط : هنيئة . والهُنَيّة : تصغير هَنَة : القليل من الوقت .
(٣) في ط . المطال . وفي حاشية أ : في نسخة : المطال .
(٤) زاد في ط : الجهد .
(٥) ليست في ب ، وهي في مسند أحمد . وجنوب الغنم : جمع جَنْب ، يريد جنب الشاة ، أي أنه كان في التنور جنوب كثيرة لا جنب واحد . النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٠٤) .
(٦) من ب ، وهي رواية أحمد .
(٧) مسند أحمد (٢/ ٥١٣) .
(٨) كذا في ب وط . وهو موافق لما في المسند . وفي أ : فرجع .
(٩) زاد في ط : مالقي . وليست في المسند ، وفي حاشية أ : أنها رواية نسخة أخرى .
(١٠) في ط : من ربنا فرفعتها إلى الرحى ثم قامت فذكر . وفي ب : قام الرجل فرفعها .
(١١) في ب : بحطب . وفي المسند : صبيراً .

قِصّة المَلِكَينْ التائبين

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا يزيد بن هارون ، حدّثنا المسعودي ، عن سِمَاك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته فَتَفَكَّرَ[٢] ، فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو[٣] فيه قد شغله عن عبادة ربه ، فانسابَ ذاتَ ليلة من قصره فأصبح[٤] في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر ، فكان به يضرب اللَّبِنَ بالأجر فيأكل ويتصدَّق بالفضل . ولم يزل كذلك حتى رقي أمرُه إلى مَلِكِهم ، فأرسل إليه ، فأبى أن يأتيه ، فركب إليه الملكُ ، فلما رآه ولَّى هارباً ، فركض في أثره فلم يدركه ، فناداه : يا عبد الله إنه ليس عليك منّي بأس . فقام حتى أدركه فقال له : من أنت ، رحمك الله ؟ فقال : أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ، تَفَكَّرْتُ[٥] في أمري فعلمت أن[٦] ما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي ـ عز وجل ـ فتركته وجئتُ هاهنا أعبدُ ربّي . فقال له : ما أنت بأحوجَ لما صنعتَ منّي . قال : فنزل عن دابّته ، فسيَّبها وتبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عزَّ وجلَّ فَدَعَوا اللهَ أن يُميتهما جميعاً ، فماتا . قال عبد الله : فلو كنتُ بِرُمَيلة[٧] مصر لأريتُكم قبورَهما بالنعتِ الذي نعتَ لنا رسول الله ﷺ .

حديث آخر :

قال البخاري[٨] : حدّثنا أبو الوليد ، حدّثنا أبو عَوانة ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال[٩] : « إن رجلاً كان قَبْلَكُم رَغَسَهُ[١٠] الله مالاً ، فقال لبنيه لما حُضِر : أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرَ أب . قال : فإني لم أعمل خيراً قَطُّ ، فإذا مِتُّ فاحرقوني ثمّ اسحقوني ثمّ ذرُّوني

---

(١) المسند (١/ ٤٥١) ، وإسناده ضعيف لاختلاط المسعودي ، ويزيد ممن سمع منه بعد الاختلاط .

(٢) من ب : وهي كذلك في المسند .

(٣) ليست في ب .

(٤) من ب ، وهو الذي في المسند .

(٥) من ب ، وكذلك في المسند .

(٦) في ب : فعلمت ما أنا .

(٧) في ط : برملية .

(٨) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٨) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) . والذي في نسخة ب رواية أخرى للحديث من طريق عبد الله بن محمد ، وهي في البخاري رقم (٣٤٨١) ، وستأتي الإشارة إليه في آخر الحديث .

(٩) ليست في ب وط .

(١٠) رَغَسَه : كثّر مالَه ، وأعطاه .

في يوم عاصف . ففعلوا . فجمعه الله عزَّ وجلَّ فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك . فتلقاه برحمته » .

ورواه في مواضع أخر ، ومسلم من طرق عن قتادة ، به[١] . ثمّ رواه البخاري ومسلم من حديث ربْعي بن حِراش ، عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه[٢] . [ومن حديث الزهري عن حُميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه][٣] .

حديث آخر :

قال البخاري[٤] : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد ، عن ابن شهاب ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ[٥] قال : « كان رجل يُداين الناس فكان[٦] يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا . قال : فلقي اللهَ فتجاوز عنه » .

وقد رواه في مواضع أخر[٧] ، ومسلم من طريق الزهري ، به[٨] .

حديث آخر :

قال البخاري[٩] : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني مالك ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، [وعن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد : ماذا سمعتَ من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعونُ رِجْسٌ أُرسلَ على طائفةٍ من بني إسرائيل وعلى][١٠] من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تَقْدَموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجوا فِراراً منه » . قال أبو النضر : « لا يُخرِجكم إلا فِراراً منه » .

---

(١) البخاري (٦٤٨١) في الرقاق و(٧٥٠٨) في التوحيد . ومسلم (٢٧٥٧) (٢٨) في التوبة .

(٢) هكذا قال، ولم يخرجه مسلم، إنما تفرد به البخاري وحده، فرواه في الرقاق (٦٤٨٠)، وفي الأنبياء (٣٤٥٢) و(٣٤٨٠) و(٣٤٧٩) .

(٣) زيادة من ب وط ، وهذا الطريق في الأنبياء من البخاري (٣٤٨١)، وفي التوبة من صحيح مسلم (٢٧٥٦) (٢٥) و(٢٧٥٦) (٢٦) .

(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٠) في الأنبياء ، باب (٥٤) .

(٥) في ط وأ : « عن النبي ﷺ » وما أثبتناه من ب وهو الذي في البخاري وهو المصدر الذي ينقل منه المصنف .

(٦) زيادة من ب وط والبخاري .

(٧) صحيح البخاري رقم (٢٠٧٨) في البيوع ، باب من أنظَر معسراً .

(٨) صحيح مسلم رقم (١٥٦٢) في المساقاة ، باب فضل إنظار المعسر .

(٩) زيادة من ب وط . والحديث عند البخاري رقم (٣٤٧٣) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) . وورد الحديث في نسخة ب من طريق آخر ، ورواية أخرى هي في البخاري أيضاً رقم (٣٤٧٤) ، وستأتي بعد هذا .

(١٠) زيادة من البخاري .

ورواه مسلم[١] من حديث مالك ، ومن طرق أخر ، عن عامر بن سعد ، به .

حدّثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا داود بن أبي الفرات ، حدّثنا عبد الله بن بُرَيدة ، عن يحيى بن يَعْمَر ، عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرني « أنه عذابٌ يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمةً[٢] للمؤمنين ، ليس من أحد يقَعُ الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أن لا يصيبه إلا ما كتبَ الله له ، إلا كان له مثلُ أجرِ شهيد » . تفرّد به البخاري[٣] عن مسلم من هذا الوجه .

حديث آخر :

قال البخاري[٤] : حدّثنا قتيبة ، حدّثنا ليثٌ ، عن ابن شهاب ، عن عُروة ، عن عائشة ، (أن قريشاً أهمهم شأن[٥] المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ [فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ][٦] فكلّمه أسامةُ . فقال : « أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟! » ثمّ قام فاختطب ، ثمّ قال : « إنما أهلك[٧] الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ . وايمُ اللهِ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد ، به[٨] .

حديث آخر :

وقال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا عبد الملك بن مَيسرة ، سمعت النَّزَّال بن سَبْرَة الهلالي ، عن ابن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية[٩] وسمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ خلافَها ، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فعرفت في وجهه الكراهية فقال[١٠] : « كلاكما محسن ، ولا تختلفوا

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢١٨) في السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .
(٢) زيادة من ب وط . والبخاري .
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٤) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٥) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٥) زاد في ب : المرأة . وكذلك هو في البخاري .
(٦) سقطت من ب بنقلة عين .
(٧) في ط : فخطب . وهلك .
(٨) أخرجه مسلم رقم (١٦٨٨) في الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره . والترمذي رقم (١٤٣٠) ، في الحدود ، باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود . وأبو داود (٤٣٧٣) في الحدود ، باب في الحد يُشفع فيه . وابن ماجه (٢٥٤٧) في الحدود ، باب الشفاعة في الحدود ، والنسائي (٨/ ٧٢ ـ ٧٥) .
(٩) زيادة من البخاري .
(١٠) في ط : وقال . وكذلك هي في البخاري .

فإن من[١] قبلكم اختلفوا فهلكوا » . تفرّد به البخاري[٢] دون مسلم .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد[٣] عن صالح ، عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى[٤] لا يصبغون فخالفوهم » . تفرّد[٥] به دون مسلم . وفي سنن أبي داود[٦] : « صلّوا في نعالكم خالفوا اليهود » .

حديث آخر :

قال البخاري[٧] : حدّثنا علي بن عبد الله ، حدّثنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاووس ، عن ابن عباس : سمعت عمر يقول : قاتلَ الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ الله اليهودَ ، حُرِّمَت عليهم الشحومُ فَجَمَلوها[٨] . فباعوها » رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار[٩] ، به . ثمّ قال البخاري : (تابعه أبو جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ) .

ولهذا الحديث طرقٌ كثيرةٌ[١٠] . وسيأتي في باب الحِيَل من كتاب الأحكام إن شاء الله ، وبه الثقة .

حديث آخر :

قال البخاري[١١] : حدّثنا عِمْران بن مَيْسَرة ، حدّثنا عبد الوارث ، حدّثنا خالد ، عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك قال : (ذَكَرُوا النارَ والناقوسَ فَذَكروا اليهود والنصارى ، فأُمِر بلالٌ أنْ يَشْفَعَ الأذان وأن يوتر

---

(١) زاد في ط : كان . وكذلك هي في البخاري .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٦) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٣) ليست في ب وط .
(٤) ليست في ب .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٢) في الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل . والمراد بالصبغ هنا : صبغ شيب اللحية والرأس .
(٦) رقم (٦٥٢) في الصلاة ، باب الصلاة في النعل .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٠) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٨) جَمَلوها : أي أذابوها .
(٩) صحيح مسلم رقم (١٥٨٢) في المساقاة . باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام .
(١٠) جامع الأصول (١/ ٤٥٠) وما بعدها .
(١١) صحيح البخاري رقم (٦٠٣) في الأذان .

الإقامة . وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجَرْمي ، به[(١)] .

والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم ، فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينةَ كان المسلمون يتحيَّنون وقت الصلوات بغير دَعوة إليها ، ثمّ أمرَ من ينادي فيهم وقت الصلاة : (الصلاة جامعة) ، ثمّ أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس ، فقال قائلون : نضربُ بالناقوس . وقال آخرون : نوري بالنار[(٢)] ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتابين[(٣)] فأُري عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري في منامه الأذان ، فقصَّها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى به[(٤)] ، كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان في كتاب الأحكام .

حديث آخر :

قال البخاري[(٥)] : حدّثنا بشر بن محمد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا مَعْمَر ويونس عن الزُّهْري ، أخبرني عُبَيد الله بن عبد الله ، أن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طَفِق يطرَحُ خميصةً على[(٦)] وجهه، فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه فقال: « وهو كذلك، لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ. يُحذِّر ما صنعوا ». وهكذا رواه في غير موضع[(٧)] ، ومسلم[(٨)] من طُرُقٍ عن الزهري ، به.

حديث آخر :

قال البخاري[(٩)] : حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، حدّثنا أبو غسان ، قال: حدثني[(١٠)] زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « لتَتَّبِعُنَّ سَنَن من[(١١)] قبلكم شِبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٨) في الصلاة ، باب الأمر بشفع الأذان وإيتار الإقامة . وأبو داود (٥٠٨) في الصلاة ، باب في الإقامة ، والترمذي (١٩٣) في الصلاة ، باب ما جاء في إفراد الإقامة . وابن ماجه (٧٢٩) و(٧٣٠) في الأذان والسنة ، باب إفراد الإقامة ، والنسائي (٢/ ٣) في الصلاة .
(٢) في ط : وقال آخر نوري ناراً .
(٣) في ب وط : الكتاب .
(٤) جامع الأصول (٥/ ٢٦٩) .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٣) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٦) في أ وب : « خميصة له » . وما هنا من ط ، وهو الموافق لصحيح البخاري .
(٧) أخرجه البخاري في الصلاة من صحيحه (٤٣٥ و٤٣٦) ، وفي المغازي (٤٤٤٣ و٤٤٤٤) ، وفي اللباس (٥٨١٥).
(٨) صحيح مسلم رقم (٥٢٩ ـ ٥٣١) ، في المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور .
(٩) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٦) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(١٠) زيادة من ب وط موافقة لما في صحيح البخاري . وفي ب : أبو غسان حدثني .
(١١) زاد في ب : كان .

حتى لو سَلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لسلكتموه » فقلنا : يا رسول الله اليهودَ والنصارى ؟ قال النبي ﷺ : « فَمَنْ » ؟ .

وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم ، به[١] .

والمقصود من هذا الإخبارُ عما يقع من الأقوال والأفعال[٢] المنهيّ عنها شرعاً مما يشابه أهل الكتاب قبلنا . إن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً[٣] ، لكنه تَشبّه ، فَفِعْله[٤] في الظاهر فعلُهم ، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذٍ ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكُلّية ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ١٠٤] . فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه : راعنا ، أي : انظر إلينا ببصرك واسْمَع كلامَنا ، ويقصدون بقولهم : راعنا ، من الرُّعُونَةِ ، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك وإنْ كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً[٥] . فقد روى الإمام أحمد[٦] ، والترمذي[٧] ، من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وجعل رزقي تحت ظلّ رُمحي ، وجعل الذلّة والصَّغَار على من خالف أمري . ومن تَشَبَّه بقوم فهو منهم » . فليس للمسلم أن يتشبه بهم ، لا في أعيادهم ولا مواسمهم ولا عباداتهم[٨] ، لأن الله تعالى شرَّف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أُنزلت[٩] عليه التوراة ، وعيسى بن مريم الذي أنـزل عليه الإنجيل حَيّين لم يكن لهما شرع متَّبَع ، بل لو كانا موجودين ، بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحدٍ منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهَّرة المشرَّفة المكرَّمة المعظَّمة ، فإذا كان الله تعالى قد مَنَّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يَليق بنا أن نتشبَّه بقومٍ قد ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، قد

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٦٦٩) ، في العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى .
(٢) في ب : من الأفعال والأقوال .
(٣) في ب : الخير .
(٤) في ب : يشبه فعله .
(٥) تفسير الطبري (١/ ٣٧٣) وما بعدها .
(٦) المسند (٢/ ٥٠ ، ٩٢) .
(٧) لم أقف على الحديث في سنن الترمذي . وهو في الجامع الصغير (١/ ٤٢٧) ، من رواية أحمد وأبي يعلى والطبراني في الكبير .
(٨) في ب : لا في عباداتهم ولا في مواسمهم ولا أعيادهم . وفي ط : ولا في عباداتهم .
(٩) في ب : أنزل .

بدَّلوا دينهم وحرَّفوه وأوَّلوه حتى صار كأنه غير ما شُرِع لهم أولًا . ثمّ هو بعد ذلك كلّه منسوخ والتمسك[١] بالمنسوخ حرامٌ لا يَقْبَلُ اللهُ منه قليلاً ولا كثيراً ، ولا فرق بينه وبين الذي لم يُشْرَع بالكلية . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

حديث آخر :

قال البخاري[٢] : حدّثنا قُتيبة ، حدَّثنا اللَّيثُ ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجَلُكم في أجل من خَلا[٣] من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس . وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجُلٍ استعملَ عُمَّالًا فقال : مَن يَعملُ لي إلى نصفِ النهار على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ . ثمّ قال : مَن يعملُ لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ . ثمّ قال : مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس[٤] على قيراطين قيراطين . ألا لكم الأجرُ مرَّتين . فغضب اليهودُ والنصارى ، فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقلُّ عطاءً ؟ قال الله تعالى : هل ظُلِمتم من حقّكم شيئاً ؟ فقالوا : لا . قال : فإنه فَضْلي أوتيه من شئت[٥] » .

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدّة هذه الأمة قصيرةٌ بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها ، لقوله : « إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ، فالماضي لا يعلمه إلا الله ، كما أن الآتي لا يعلمه إلا هو ، ولكنه قصيرٌ بالنسبة إلى ما سبق ، ولا اطّلاع لأحدٍ على تحديد ما بقي إلا الله عزَّ وجلَّ كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٤] . وما يذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه عليه السلام لا يؤلف تحت الأرض ، فليس له أصل في كتب الحديث ، وورد حديث فيه[٦] أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة . وفي صحته نظر .

والمراد من هذا التشبيهِ بالعمالِ تفاوتُ أجورِهم ، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقِلَّته ، بل بأمور أُخَرَ معتبرةٍ عند الله تعالى ، وكم من عملٍ قليلٍ أجدى ما لا يجديه العمل الكثير ، هذه ليلة القدر العمل

---

(١) في ب : والعمل .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٩) ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٣) زاد في ط : من قبلكم ، وليست في البخاري .
(٤) في ط : إلى المغرب .
(٥) في ط : من أشاء ، وما أثبتناه موافق لرواية البخاري .
(٦) من ب ، وفي ط : فيه حديث .

فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها . وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقاتٍ لو أنفقه غيرُهم من الذهب مثل أُحُدٍ ما بلغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصيفَه[١] من تمر . وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة[٢] من عمره ، وقَبَضَه وهو ابن ثلاثٍ وستين[٣] على المشهور ، وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنةً في العلوم النافعة والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله ، حتى على نوحٍ الذي لبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً ، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين . فهذه الأمة إنما شُرِّفت وتضاعف ثوابُها ببركة سيادة نبيّها وشرفِه وعَظَمته ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢٨ ـ ٢٩] .

* * *

فصل

وأخبارُ بني إسرائيل كثيرةٌ جداً في الكتاب وفي السنة[٤] النبوية ، ولو ذهبنا نتقصَّى ذلك لطال الكتابُ ، ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الكتاب[٥] ، ففيه مَقنَعٌ وكفايةٌ ، وهو تذكرة وأُنموذج لهذا الباب والله أعلم .

وأما الأخبار الإسرائيلية فيما يذكره كثيرٌ من المفسرين والمؤرخين ، فكثيرةٌ جداً ، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقَعَ ، وكثيرٌ منها بل أكثرُها مما يذكره القصَّاص مكذوبٌ مفترًى وضعه زنادقتُهم وضُلاَّلُهم ، وهي ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح ، لموافقته ما قصَّه اللهُ في كتابه أو أخبرَ به رسولُ الله ﷺ . ومنها ما هو معلوم البُطلان ؛ لمخالفته كتاب الله وسُنة رسوله . ومنها ما يحتمل الصدق والكذب ، فهذا الذي

---

(١) النصيف : النصف ، وقيل مكيال دون المد . وكلام المؤلف هنا مأخوذ من حديث رواه البخاري : رقم (٣٦٧٣) ، في فضائل الصحابة ، باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » . ولفظه : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ » . ورواه مسلم (٢٥٤٠) و(٢٥٤١) في فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة .

(٢) ليست في ب .

(٣) زاد في ب : سنة .

(٤) في ط : والسنة .

(٥) صحيح البخاري (٦/ ٤٩٤) ، وما بعدها ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ولم يأت به كله .

أُمِرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه كما[1] ثبت في الصحيح : « إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم « وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[2] .

* * *

(١) في ب : لما .
(٢) تقدم في الصفحة (٢٣٥) ، عند حديث المؤلف عن بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل .

ذكر[١] تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات : ١١٧ ـ ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها بُرهةً من الزمن ، ثمّ شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

فأخبر تعالى أنّهم يفسّرونها ويتأوّلونها ويضعونها على غير مواضعها ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ؛ وهو أنّهم يتصرّفون في معانيها ويحملونها على غير المراد ، كما بدّلوا حُكْم الرجمِ بالجلد والتحميم[٢] ، مع بقاء لفظ الرجم فيها ، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ[٣] ، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع .

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون : بأنها جميعها بُدِّلت . وقال آخرون : لم تبدل ، واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٣] وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ . . . الآية [الأعراف : ١٥٧] وبقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣] .

---

(١) ليست في ط .

(٢) التحميم : تسويد الوجه حتى يصبح كالفحمة .

(٣) تقدم هذا في حديث رسول الله ﷺ ص(٣٨٠) .

وبقصة[١] الرجم ، فإنهم كما ثبت في « الصحيحَين »[٢] عن ابن عمر ، وفي « صحيح » مسلم عن البَراء بن عازب[٣] وجابر بن عبد الله[٤] ، وفي « السنن » عن أبي هريرة[٥] وغيره لمَّا تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصّة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجلدون . فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة ، فلما جاؤوا بها وجعلوا يقرؤونها ويكتمون آيةَ الرجم التي فيها ، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يَدك يا أعور » . فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ برجمها وقال : « اللهمَّ إني أوّلُ من أحيا أمرك إذ أماتوه » وعند أبي داود[٦] أنهم لما جاؤوا بها نَزَعَ الوِسادةَ من تحته فوضعها تحتها[٧] وقال : « آمنتُ بكَ وبمَن أنزلَكَ » . وذكر بعضُهم أنه قام لها ، ولم أقف على إسناده . والله أعلم .

فهذا كلّه يُشْكِلُ على ما يقوله كثيرٌ من المتكلّمين وغيرِهم : إن التوراة انقطع تواترها في زمن بُخت نصّر ولم يبقَ من يحفظها إلا العُزَيْر ، ثمّ العزير[٨] إن كان نبياً فهو معصومٌ والتواتر إلى المعصوم يكفي ، اللهمّ إلا أن يُقال إنها لم تتواتر إليه . لكِنْ بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلّهم كانوا متمسكين بالتوراة ، فلو لم تكن صحيحةً معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون .

ثم قد[٩] قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد ، إذ عدلوا عمّا يعتقدون صحَّته عندهم ، وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به . لكنْ لمَّا كان في زعمهم ما قد يوافقهم على

---

(١) في ب : وبقضية .

(٢) في البخاري رقم (١٣٢٩) ، في الجنائز ، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد ، ورقم (٣٦٣٥) ، في المناقب ، باب قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ . ورقم (٤٥٥٦) ، في التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾ ورقم (٦٨١٩) في الحدود ، باب الرجم في البلاط ، ورقم (٦٨٤١) باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ، ورقم (٧٣٣٢) في الاعتصام ، باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم ، ورقم (٧٥٤٣) في التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها .
ومسلم (١٦٩٩) ، في الحدود ، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى .

(٣) صحيح مسلم رقم (١٧٠٠) .

(٤) صحيح مسلم رقم (١٧٠١) .

(٥) في سنن أبي داود (٤٤٥٠) و(٤٤٥١) ، في الحدود ، باب في رجم اليهوديين .

(٦) سنن أبي داود رقم (٤٤٤٩) .

(٧) تحت التوراة .

(٨) تقدمت قصته .

(٩) ليست في ب .

ما ابتدعوه[١] من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً وقالوا : إنْ حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم فاحذروا أن تقبلوا منه . فأنكر اللهُ تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنما حملهم عليه الغرضُ الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ . . . الآية [المائدة : ٤٣ـ٤٤] . ولهذا لمّا[٢] حكم بالرجم قال : « اللهم إني أوّل من أحيى أمرك إذْ أماتوه » ، وسألهم ما حَمَلَهُم على هذا ؟ ولِمَ تركوا أمر الله الذي بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنى[٣] قد كثر في أشرافنا ولم يمكنّا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا ، فقلنا : تعالوا إلى أمر نصف نفعله مع الشريف والوضيع ، فاصطلحنا على الجلد والتحميم ، فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل . وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم كما دلّ عليه الحديث المتفق عليه ، فلهذا قال من قال هذا من الناس إنه لم يقع تبديلهم إلا في المعاني ، وإن الألفاظ باقيةٌ وهي حجة عليهم ، إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ . . الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ ﴾ . . الآية [المائدة : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ . . . الآية [المائدة : ٦٨] . وهذا المذهب ، وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها ، حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابه « الصحيح » وقرّر عليه ولم يردَّه . وحكاه العلامة فخر الدين الرازي في « تفسيره » عن أكثر المتكلمين .

[٤] وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مَسُّ التوراة وهو مُحْدِث . وحكاه الحنَّاطي في « فتاويه » عن بعض أصحاب الشافعي ، وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسُّط في هذين القولين ، منهم شيخُنا الإمام العلامة أبو العباس بن تَيْمِية ـ رَحِمَه اللهُ ـ فقال : أمّا من ذهب إلى أنها

---

(١) في ب : ابتدعوا .
(٢) ليست في ط .
(٣) ليست في ب .
(٤) زاد في ط عنواناً لهذه الفقرة : ليس للجنب لمس التوراة . وهو مكتوب في حاشية أ ، وليس له ذكر في متنها أو في ب .

كلّها مبدَّلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرفٌ إلا بدَّلوه فهذا بعيدٌ ، وكذا من قال لم يبدَّل شيء منها بالكلّية بعيدٌ أيضاً ، والحق أنه دخلها تبديلٌ وتغيير ، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرّفوا في معانيها ، وهذا معلوم عند التأمل ، ولبسطه موضع آخر ، والله أعلم ، كما في قوله في قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك ، وفي نسخة : بكرك إسحاق ، فلفظة إسحاق مُقحَمة مزيدة بلا مرية ، لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل ، لأنه وُلِدَ قبل إسحاق بأربع عشرة[١] سنة ، فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق . وإنما حَمَلَهم على ذلك حَسَدُ العرب أن يكون إسماعيلُ هو الذبيح[٢] ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم ، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراءً على الله وعلى رسوله ﷺ وقد اغتر بهذه الزيادة خلقٌ كثير من السلف والخلف ، ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق ، والصحيحُ الذبيحُ[٣] إسماعيل كما قدَّمنا ، والله أعلم . وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة ، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد الزبور[٤] المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً ، وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه[٥] وليست منه ، والله أعلم .

قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعرَّبة فلا يشكُّ عاقلٌ في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها ، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البيّن الواضح ، وفيها من الكذب البيِّن والخطأ الفاحش شيءٌ كثيرٌ جداً ، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطّلاع لنا عليه ، والمظنونُ بهم أنهم كَذَبَةٌ خَوَنَة يكثرون الفِرْية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى ، فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومَتّى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادةً ونقصاً ، وأفحش تفاوتاً من التوراة . وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيءٍ قد شرَّعوه لأنفسهم ، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق ، وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة . وهكذا تصويرهم كنائسهم ، وتركهم الختان ، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع ، وزيادته إلى خمسين يوماً ، وأكلِهم الخنزير ، ووضعهم الأمانة الكبيرة ، وإنما هي الخيانة الحقيرة ، والرهبانية وهي ترك التزويج لمن أراد التعبُّدَ وتحريمه عليه ، وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمئة والثمانية عشر ، فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية ، وكان زمنه

---

(١) في ط : عشر وهو خطأ .
(٢) في ب : أن يكون أبوهم هو الذبيح .
(٣) في ب : أن الذبيح .
(٤) في ط : في الزبور .
(٥) في ب : مزيدة وليست . . .

بعد المسيح بثلاثمئة سنة ، وكان أبوه أحدَ ملوك الروم ، وتزوَّج أمَّه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حَرَّان ، وكانت نصرانيةً على دين الرهابين المتقدمين ، فلما وُلِدَ لها منه قسطنطين المذكور تعلّم الفلسفة ومهر[١] فيها وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أُمُّه عليها ، فعظَّم القائمين بها بعض الشيء ، وهو على اعتقاد الفلاسفة . فلما مات أبوه واستقلَّ هو في المملكة ، سار في رعيته سيرةً عادلة ، فأحبَّه الناس ، وساد فيهم ، وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة ، وعظُم شأنه وكان أول القياصرة .

ثمّ اتفق اختلافٌ في زمانه بين النصارى ومنازعةٌ بين[٢] بترك الإسكندرية أكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له : عبد الله بن أريوس ، فذهب أكصندروس إلى أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قوله ، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ، واتَّبعه على هذا طائفة من النصارى واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ، ومُنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه ، فذهب يستعدي على أكصندروس وأصحابه إلى الملك قسطنطين ، فسأله الملك عن مقالته ، فَعَرَضَ عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله ، واحتج على ذلك فمال[٣] إليه وجنح إلى قوله ، فقال له قائلون : فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه . فأَمَر الملكُ بإحضاره ، وطلب من سائر الأقاليم كلَّ أسقف وكل من عنده علم[٤] في دين النصرانية ، وجمع البتاركة الأربعة من القدس وأنطاكية وورومية والإسكندرية ، فيقال : إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف ، فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة وهم مختلفون اختلافاً[٥] متبايناً منتشراً جداً . فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها فهؤلاء خمسون على مقالة . وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى . وهؤلاء عشرة على مقالة أخرى[٦] وأربعون على أخرى ومئة على مقالة ، ومئتان على مقالة ، وطائفة على مقالة ابن أريوس ، وجماعة على مقالة أخرى . فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم[٧] حار فيهم الملك قسطنطين ، مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين ، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة أكصندروس ، ولم يجد طائفةً بلغت عِدّتهم ، فقال : هؤلاء أَوْلى بنصرِ قولِهم لأنهم أكثر الفِرَق ، فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه إليهم وقال : إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم

---

(١) كذا في ب . وفي أ وط : وبهر .
(٢) زاد في ب : وقعت بين .
(٣) في ط : فحال وهو تحريف .
(٤) ليست في ط .
(٥) زاد في ب : كثيراً .
(٦) ليست في ب وط .
(٧) في ب : خلافهم .

هذه فأنا أنصرها وأذهب إليها ، فسجدوا له . وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام ، وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيّرة ، وأن يصوروا في كنائسهم صوراً[١] لها جثث ، فصالحوه على أن تكون في الحيطان ، فلما توافقوا على ذلك أخذ في نصرهم ، وإظهار كلمتهم ، وإقامة مقالتهم ، وإبعاد مَن خالفهم ، وتضعيف رأيه وقوله ، فظهر أصحابه بجاهِه على مخالفيهم ، وانتصروا عليهم ، وأمرببناء الكنائس على دينهم وهم الملكية نِسبةً إلى دين الملك ، فَبُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقُرى أزيدَ من اثني[٢] عشر ألف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم ، يعني على مكان مولد المسيح ، وبَنَت أُمُّه هَيلانة قُمامةَ بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ، ويقال : إنه قتل من أعداء أولئك وخَدَّ لهم الأخاديد في الأرض ، وأجّج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه في سورة[٣] البروج ، وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين . وقد أفسده عليهم فساداً لا صلاح[٤] له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده . وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم ، وكثرت كنائسهم على أسماء عُبَّادهم . وتفاقم كفرهم ، وغلظت مصيبتهم ، وتخلَّد ضلالهم ، وعظم وَبَالُهم ، ولم يهد الله قلوبَهم ولا أصلح بَالهم ، بل صرف قلوبَهم عن الحق وأحال[٥] عن الاستقامة حالهم[٦] .

ثم اجتمعوا بعد ذلك مَجْمَعَيْن في قضية النسطورية واليعقوبية ، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى وتعتقد تخليدَهم في نار جهنم ، ولا يرى مجامعتهم في المعابد والكنائس ، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة . ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت هل تدرَّعه أو حلَّ فيه أو اتّحد به ، واختلافهم في ذلك شديد ، وكفرهم بسببه غليظ ، وكلهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس إن المسيح عبد الله ورسوله ، وابن أَمَتِه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . كما يقول المسلمون فيه سواء . ولكن لما استقر أمر الأريوسية على هذه المقالة ، تسلّط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلّوا فلا يُعرَف اليوم منهم أحد فيما يعلم . والله أعلم .

***

(١) في أ : صور وهو خطأ .
(٢) في أ ، وب ، وط : اثنتي ، وهو خطأ .
(٣) في ب : في تفسير سورة .
(٤) في ط : لا إصلاح .
(٥) في ط : وأمال .
(٦) زيادة من ب .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقد روى ابن حِبّان في « صحيحه » ، وابن مَردويه في « تفسيره » ، وغيرهمامن طريق إبراهيم بن هشام ، عن يحيى بن محمد الغساني الشامي ، وقد تكلّموا فيه ، حدثني أبي ، عن جَدّي ، عن أبي إدريس ، عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمئة وثلاثة عشر ، جم غفير » قلت : يا رسول الله مَن كان أوّلهم ؟ قال : « آدم » . قلت : يا رسول الله نبي مرسل ؟[1] قال : « نَعم خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم سوّاه قبلاً » ثم قال : يا أبا ذر أربعة سريانيون : آدم وشيث ونوح وخنوخ ، وهو إدريس ، وهو أول من خط بالقلم . وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر . وأول نبي من بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك » .

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في « الموضوعات »[2] .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدّثنا محمد بن عوف ، حدّثنا أبو المغيرة ، حدّثنا مُعان بن رفاعة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل[3] من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جماً غفيراً » .

---

(١) رواه ابن حبان رقم (٣٦١) وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨ و١٧٩) من حديث أبي ذر ، وأحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة مطولاً ، وهو ضعيف جداً بطوله . ورواه مختصراً ابن حبان (٦١٩٠) والطبراني في (الأوسط) رقم (٤٠٥) وهو صحيح في عدد الرسل ، وكم كان بينه وبين نوح ، وزيادة عدد الأنبياء ، ضعيف ، ولكن له متابعات ، فهو حديث حسن بطرقه .

(٢) وليس كذلك ، وقد رد عليه الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) (٤/ ١١٤) .

(٣) ليست في ب .

وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف ، فيه ثلاثةٌ من الضعفاء : معان[١] ، وشيخه ، وشيخ شيخه[٢] .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدّثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري ، حدّثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عُبيدة الرَّبَذي[٣] ، عن يزيد الرَّقَاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثَ اللهُ ثمانيةَ آلاف نبي ، أربعةُ آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس » .

موسى وشيخه[٤] ضعيفان أيضاً .

وقال أبو يعلى أيضاً : حدّثنا أبو الربيع ، حدّثنا محمد بن ثابت العبدي ، حدّثنا معبد بن خالد الأنصاري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثمّ كان عيسى ، ثمّ كنت أنا » .

يزيد الرقاشي ضعيفٌ .

وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي ، عن محمد بن عثمان بن أبي شَيبة ، حدّثنا أحمد بن طارق ، حدّثنا مسلم بن خالد ، حدّثنا زياد بن سعد ، عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعثت على أثر ثمانية آلاف نبي ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل » .

وهذا إسناد لا بأس به ، لكني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا . والله أعلم .

حدِّيث آخر :

قال عبد الله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطه : حدّثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب ، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي ، حدّثنا مجالد ، عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجّال ؟ قال : قلت : لا . فقال : قال رسول الله ﷺ : « إني خاتم ألف نبي أو أكثر ، وما بعث الله نبياً يُتبع إلا وحذَّر أمته منه ، وإني قد بُيِّن لي فيه ما لم يُبيَّن لأحد منهم ، وأنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ،

---

(١) مُعان بن رفاعة الدمشقي ، منكر الحديث ، يروي مراسيل كثيرة ، ويحدّث عن أقوام مجاهيل . المجروحين (٣/ ٣٦) .

(٢) قال ابن حبان هو ضعيف جداً. المجروحين (٢/ ١١٠) في ترجمة علي بن يزيد، ولكن يشهد له الذي قبله فهو حسن.

(٣) في ط : اليزيدي ، وهو تصحيف وتحريف . وموسى بن عُبيدة بن نِسطاس الرَّبذي ، أبو عبد العزيز ، متوفى سنة (١٥٣هـ) . فاضل من خيار العبّاد نسكاً وصلاحاً ، إلا أنه بطل الاحتجاج به . المجروحين (٢/ ٢٣٤) .
والحديث في مسند أبي يعلى (٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠) رقم (٤١٣٢) .

(٤) يزيد بن أبان ، أبو عمرو الرقاشي ، من أهل البصرة ، أحد العبّاد البكّائين ، إلا أنه ضعيف ، كما قال ابن كثير . المجروحين (٣/ ٩٨) .

وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب درّي . معه من كلّ لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن »[١] .

وهذا حديث غريب .

وقد روي عن جابر بن عبد الله ، فقال الحافظ أبو بكر البزّار : حدّثنا عمرو بن علي ، حدّثنا يحيى بن سعيد ، حدّثنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإنه قد تبيّن لي فيه ما لم يتبيّن لأحدٍ منهم ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[٢] .

وهذا إسناد حسن[٣] ، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء . لكن في الحديث الآخر « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال » فالله أعلم .

وقال البخاري : حدّثنا محمد بن بشّار ، حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شُعبة ، عن فُرات ، قال : سمعت أبا حازمٍ قال : قاعدْتُ أبا هريرة خمسَ سنين فسمعتُه يحدّث عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خُلَفاء فيَكْثُرون » . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « فُوا ببيعةِ الأوّل فالأول ، أعطوهم حقَّهم ، فإن الله سائلُهم عما استرعاهم »[٤] .

وكذا رواه مسلم[٥] عن بُندار ، ومن وجهٍ آخر عن فُرات ، به ، نحوه .

وقال البخاري[٦] : حدّثنا عمر بن حفص ، حدّثنا أبي ، حدّثني الأعمش ، حدّثني شَقيق قال : قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضَربه قومُه فأدمَوه وهو يمسحُ الدمَ عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

ورواه[٧] مسلم[٨] من حديث الأعمش ، به نحوه .

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٧٩) . بخلاف يسير في لفظه ومجالد هو ابن سعيد ، وهو ضعيف .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٧) .
(٣) هكذا قال وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف .
(٤) البخاري رقم (٣٤٥٥) ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٥) صحيح مسلم رقم (١٨٤٢) في الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول .
(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٧) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٧) في ط . رواه .
(٨) صحيح مسلم رقم (١٧٩٢) ، في الجهاد والسير ، باب غزوة أحد .

وقال الإمام أحمد[١] : حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل ، عن أبي سعيد الخدري قال : وضع رجلٌ يده اليمنى[٢] على النبي ﷺ فقال : والله ما أُطيق أن أضع يدي عليكَ من شدة حُمّاك . فقال النبي ﷺ : « إنا معشرَ الأنبياء يُضاعَفُ لنا البلاءُ كما يُضاعف لنا الأجر ، إن كان النبيُّ من الأنبياء ليُبتلَى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العبَاءة فيجوّبها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء » . هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد .

وقد رواه ابن ماجه[٣] عن دُحَيم عن ابن أبي فُدَيك ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسْلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ، فذكره .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن[٥] عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ قال : « الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صَلابةٌ ، زِيْدَ في بلائه ، وإن كان في دينه رقّة خُفِّف عليه ولا يزال[٦] البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

ورواه الترمذي[٧] والنسائي[٨] ، وابن ماجه[٩] من حديث عاصم بن أبي النجود[١٠] . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وتقدم[١١] في الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولادُ عَلّات ديننا واحد وأمهاتنا شتى » . والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونَسخَ بعضُها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ، إلا أن كل نبي بعثه الله ، فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

---

(١) المسند (٣/ ٩٤) في سنده جهالة الرجل ولكن يشهد له ما بعده .
(٢) ليست في ب ، ولا في المسند .
(٣) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٢٤) ، في الفتن ، باب الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(٤) المسند (١/ ١٧٢) .
(٥) في ط : بن ، وهو خطأ .
(٦) في ب : ما يزال ، وكذلك في المسند .
(٧) سنن الترمذي رقم (٢٣٩٨) في الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(٨) في الطب من سننه الكبرى (٧٤٨١) .
(٩) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٢٣) ، في الفتن ، باب الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(١٠) زاد في ب : به .
(١١) تقدم ص (٢٩٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ الآية [النحل : ٣٦] .

فأولاد العَلاَّت أن يكون الأب واحداً ، والأمهات متفرّقات ، فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] . وقال : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [الحج : ٦٧] . وقال : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة : ١٤٨] . على أحد القولين في تفسيرها[١] .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها ، إلا أنَّ الجميع آمرةٌ بعبادة الله وحدَه لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيرَه يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ الآية [المائدة : ٤٤] . فدين الإسلام هو عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه ، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك الوقت المأمور به ، ولهذا لا يقبلُ اللهُ من أحد عملاً بعد أن بَعث محمداً ﷺ إلا[٢] على ما شرعه له كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] . وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسود » . قيل أراد العرب والعجم . وقيل الإنس والجن[٣] . وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبحَ فيكم موسى ثمّ اتّبعتُمُوهُ وتركتُموني لضللتم »[٤] والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

والمقصود أن « إخوة العلات » أن يكونوا من أبٍ واحد وأمهاتهم شتّى ، مأخوذٌ من شُرب العَلَل بعد النَّهَل . وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وإخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) تفسير المؤلف (١/ ١٩٤) .
(٢) سقطت من ب وط .
(٣) النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٣٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٧١) من طريق عبد الله بن ثابت .

وفي الحديث الآخر : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة »[١] وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقرُ عندهم من أن تكون مخلَّفة عنهم ، ولأن توكُلهم على الله عز وجل في ذراريهم أعظم[٢] وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم ما لا يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقةً لفقراء الناس ومحاويجهم وذوي خلَّتهم . وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمةُ من المصنِّفين اقتداءً بالإمام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن ابن[٤] عبد ربِّ الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظلّ الكعبة ، فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً فَمِنا من يَضْرب خباءه ، ومنّا مَن هو في جَشَرة[٥] ، ومنّا من ينتضلُ ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعةً ، قال : فاجتمعنا . قال : فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلّا دلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذَّرهم ما يعلمه شراً لهم ، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاءٌ شديد وأمور ينكرونها ، تجيء فتن يرقق[٦] بعضها بعضاً ، تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي . ثمّ تنكشف . ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه . ثم تنكشف . فمن سرَّه منكم أن يُزَحْزَح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيَّتُه[٧] وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرةَ قلبه فليطعه ما استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عُنق الآخر » . قال فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت : أُنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : فأشار بيده إلى أذنيه وقال : سمعتْه أذناي ووعاه قلبي . قال : فقلت : هذا ابن عمك ـ يعني معاوية ـ يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وأن نقتل أنفسنا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] قال : فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثمّ نكس هُنيهة ، ثمّ رفع رأسه فقال : أطِعْه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله .

---

(١) تقدم تخريجه .
(٢) زيادة من ب وط .
(٣) المسند (٢/ ١٦١) .
(٤) في ط : أن ، وهو خطأ .
(٥) الجَشَرة : قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ، ولا يأوون إلى البيوت . النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٧٣) . والمناضلة : المراماة بالنشاب .
(٦) كذا في ب ، والمسند . وفي أ وط : يريق .
(٧) في ب وط : موتته . وأشار في حاشية أ إلى هذه الرواية .

ورواه أحمد أيضاً عن وكيع ، عن الأعمش ، به . وقال فيه : « أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلّا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذرهم ما يعلمه شراً لهم » وذكر تمامه بنحوه[١] .

وهكذا رواه مسلم[٢] ، وأبو داود[٣] ، والنسائي[٤] ، وابن ماجة[٥] من طُرقٍ عن الأعمش ، به .

ورواه مسلم أيضاً من حديث الشعبي[٦] عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ بنحوه[٧] .

* * *

(١) المسند (٢/ ١٩١) .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٨٤٤) (٤٦) ، في الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء .

(٣) سنن أبي داود رقم (٤٢٤٨) ، في الفتن ، باب ذكر الفتن ودلائلها .

(٤) سنن النسائي (٧/ ١٥٣) .

(٥) سنن ابن ماجه رقم (٣٩٥٦) ، في الفتن ، باب ما يكون من الفتن .

(٦) صحيح مسلم (١٨٤٤) (٤٧) .

(٧) هذا آخر الجزء الثامن من تصنيف ابن كثير رحمه الله . وجاء في نسخة أ : آخر الجزء الثامن من خط المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أخبار العرب . وكان الفراغ من تتمة هذا المجلد في سابع عشر شوال سنة (. . ؟؟ . .) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بدمشق المحروسة على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلى رحمته وعفوه وغفرانه ولطفه وكرمه إسماعيل الدرعي الشافعي الأنصاري غفر الله تعالى له وختم له بخير ، ولأحبابه ولإخوانه ولمشايخه ، ولجميع المسلمين والصلاة والسلام على محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

ذكر أخبار العرب

[١] قيل : إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور أن العرب العارِبة قبل إسماعيل ، وقد قدّمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطَسَم وجَديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفي زمنه أيضاً . فأما العرب المستعربة ، وهم عرب الحجاز ، فمن ذرّية إسماعيل بن إبراهيم[٢] عليهما السلام . وأما عرب اليمن ، وهم حِمْيَر ، فالمشهور أنهم من قحطان ، واسمه مهزم ، قاله ابن ماكولا[٣] ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة : قحطان ، وقاحط ، ومقحط ، وفالغ[٤] . وقحطان بن هود[٥] . وقيل : هو هُود . وقيل : هود[٦] أخوه . وقيل : من ذريته . وقيل : إن قحطان من سُلالة إسماعيل ، حكاه ابن إسحاق[٧] وغيره . فقال بعضهم : هو قحطان بن [الهميسع بن تيمن بن قيذر بن نبت][٨] بن إسماعيل . وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل . والله أعلم .

[وقد ترجم البخاري في « صحيحه » على ذلك فقال : (باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام)][٩] حدّثنا مُسَدَّد ، حدّثنا يحيى ، عن يزيد بن أبي عبيد ، حدّثنا سَلَمة رضي الله عنه قال : خَرَج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضَلُون بالسوق[١٠] فقال : « ارموا بني إسماعيل وأنا مع بني فلان » ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم ، فقال : « مالكم »[١١] قالوا : وكيف نرمي وأنت مع بني فلان . فقال : « ارموا وأنا معكم كلّكم » .

انفرد به البخاري[١٢] . وفي بعض ألفاظه : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع » . فأمسك القوم فقال : « ارموا وأنا معكم كلكم » .

---

(١) في ب : كتاب أخبار العرب .
(٢) سقطت من ب .
(٣) ونقله أيضاً السهيلي في الروض الأنف (١/ ١٩) .
(٤) زاد في ب : ويقال .
(٥) انظر نسب قحطان في : نسب معد (١/ ١٣١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٧ ـ ٨) .
(٦) ليست في ب .
(٧) السيرة (١/ ٥) .
(٨) سقطت من ط .
(٩) سقط من ب بنقلة عين .
(١٠) كذا في البخاري ، وب ، وفي أ وط : بالسيوف .
(١١) في البخاري ، وب : مالهم .
(١٢) صحيح البخاري رقم (٣٥٠٧) ، في المناقب .

قال البخاري : وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة ، يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم ، كما سيأتي بيانه ، وكانت الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام : « ارموا بني إسماعيل »[١] فدلّ على أنهم من سلالته ، وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، لكنه تأويل بعيد ، إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل . لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل ، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان ، والشعب الخامس وهم قضاعة[٢] مختلف فيهم ، فقيل : إنهم عدنانيون . قال ابن عبد البر : وعليه الأكثرون ، ويروى هذا عن ابن عباس وابن عُمر وجبير بن مطعم ، وهو اختيار الزبير بن بكار ، وعمه مصعب الزبيري ، وابن هشام . وقد ورد في حديث قضاعة بن معدّ ، ولكنه لا يصح . قاله ابن عبد البر وغيره[٣] . ويقال : إنهم لن يزالوا في جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان في زمن خالد بن يزيد بن[٤] معاوية ، وكانوا أخواله ، انتسبوا إلى قحطان ، فقال في ذلك أعشى بني[٥] ثعلبة في قصيدة له : [من البسيط]

أبلغْ قضاعةَ في القِرطاس أنهمُ ... لولا خلائفُ آلِ الله ما عُتقوا

قالت قضاعةُ : إنا من ذوي يمنٍ ... واللهُ يعلم ما برّوا وما صَدقوا

قِد ادّعوا والداً ما نالَ أمَّهمُ ... قد يعلمون ولكنْ ذلكَ الفَرَق

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي[٦] أيضاً من شعر العرب ما فيه إقذاع في تغيير[٧] قضاعة في انتسابهم إلى اليمن ، والله أعلم .

---

(١) أورده ابن حجر في شرح الحديث السابق .

(٢) نسب معد (٢/ ٥٥١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٨) . والإنباه على قبائل الرواه ، لابن عبد البر (٣١) .

(٣) ليست في ب .

(٤) قوله : يزيد بن . زيادة من ب وط . وخالد هذا أحد العلماء الحكماء ، اشتغل بالطب والكيمياء والنجوم . واختلفوا في سنة وفاته . فقيل سنة (٨٥هـ) وقيل (٩٠هـ) . وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤) ، والأعلام (٢/ ٣٠٠) .

(٥) في أ وط : بن . وهو ميمون بن قيس ، الشاعر الجاهلي المشهور . من قبيلة قيس بن ثعلبة ، يقال له : أعشى قيس ، وأعشى بني ثعلبة ، والأعشى الكبير .
والأبيات القادمة ليست في ديوانه المطبوع بتحقيق الدكتور محمد محمد حسين .

(٦) الروض الأنف (١/ ٢٣ ـ ٢٤) .

(٧) كذا في ب ، وهو الصواب يؤيده ما جاء في الروض من أشعار . وفي أ : إبداع . وفي ط : إبداع في تفسير .

والقول الثاني : أنهم من قحطـان ، وهو قول ابن إسحاق[١] ، والكلبي[٢] ، وطائفة من أهل النسب .

قال ابن إسحاق : وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد قال بعض شعرائهم ، وهو عمرو بن مرة ، صحابي[٣] له حديثان : [من الرجز]

يـا أيُّهـا الـداعـي ادْعُنـا وأَبشـرِ وكـــنْ قُضـــاعيـــاً ولا تُنَـــزِّرِ

نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهر قضـاعـةَ بـنِ مـالـكِ بـنِ حِمْيَـرِ

النسب المعروف غير المنكر[٤]

قال بعض أهل النسب : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرَّة بن زيد بن حمير . وقال ابن لَهِيْعَة ، عن معروف بن سويد ، عن أبي عشابة محمد بن موسى[٥] ، عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أما نحن من معد ؟ قال : « لا » . قلت : فمن نحن ؟ قال : « أنتم قضاعة بن مالك بن حِمير » .

قال أبو عمر بن عبد البر : ولا يختلفون أن جُهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن الحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجُهني[٦] . فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ ، وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حِمير فولدت له قضاعة ، ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير ، وزعم بعضهم أنه كان حملاً فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه . والله أعلم .

وقال محمد بن سَلاَّم البصري النسابة : العرب ثلاثة جراثيم : العدنانية ، والقحطانية ، وقضاعة . قيل له : فأيهما أكثر ، العدنانية أو القحطانية ؟ فقال : ما شاءت قضاعة إن تيامنت فالقحطانية أكثر ، وإن تعددت[٧] فالعدنانية أكثر ، وهذا يدل على أنهم يتلوَّمون في نسبهم ، فإن صحّ حديثُ ابن لهيعة

---

(١) السيرة (١/ ١٠) .

(٢) نسب معد (٢/ ٥٥١) .

(٣) ترجمته في الإصابة (٣/ ١٥) ، رقم (٥٩٦١) . وأورد له البيتين الثالث والرابع (نحن بنو الشيخ . .) والخبر أورده السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٣) ، وأورد الأبيات الأربعة الأولى ، ونقل عن الزبير قوله : الشعر لأفلح بن اليعبوب . تهذيب السيرة لابن هشام (١/ ١١) .

(٤) زاد في ط بيتاً سادساً ، وهو : في الحجر المنقوش تحت المنبر ، وهو في السيرة : (١/ ١١) .

(٥) كذا في أ وط . وفي ب : عن أبي عُشَّانة حَي بن يُؤمن ، ولعله الأشبه بالصواب . فلم أقف على ترجمة لأبي عشابة . وحي بن يومن ، من رجال الطبقة الثالثة ، توفي سنة (١١٨هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٢٠٨) .
والخبر أورده السهيلي في الروض (١/ ٢٣) دون سنده .

(٦) الإنباه على قبائل الرواه (٣٢) .

(٧) كذا في ب . وهو الصواب . وفي أ وط : تعددنت .

المقدَّم(١) فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . قال علماء النسب : يقال : شعوب ، ثمّ قبائل ، ثمّ عمائر ، ثمّ بطون ، ثمّ أفخاذ ، ثمّ فصائل ، ثمّ عشائر ، والعشيرة(٢) أقرب الناس إلى الرجل(٣) وليس بعدها شيء .

ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية ، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متّصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وقد قال البخاري : (باب ذكر قحطان)(٤) حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبي الغَيْث(٥) ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا تقومُ الساعةُ حتّى يخرجَ رجلٌ من قحطان يَسوقُ الناس بعصاه » .

وكذا رواه مسلم ، عن قتيبة ، عن الدَّرَاوَرْدِي ، عن ثور بن زيد ، به(٦) .

قال السهيلي(٧) : وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن ، وأول من قيل له : أنعم صباحاً .

وقال الإمام أحمد(٨) : حدّثنا أبو المغيرة ، عن حَريز(٩) حدّثني راشد بن سعد المَقْرَائي(١٠) ، عن أبي حَيّ(١١) ، عن ذي مِخْبَر(١٢) ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان هذا الأمر في حمير ، فنزعه الله منهم

---

(١) في ب : المتقدم .

(٢) في ط : فالعشيرة .

(٣) سبائك الذهب (ص٧) .

(٤) صحيح البخاري (٦/ ٥٤٥) ، رقم (٣٥١٧) ، في المناقب .

(٥) في ط . المغيث . وهو خطأ .

(٦) صحيح مسلم رقم (٢٩١٠) ، في الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء .

(٧) الروض الأنف (١/ ١٩) .

(٨) المسند (٤/ ٩١) .

(٩) في ط : جرير ، وهو تصحيف . وحريز هو ابن عثمان الرَّحَبي الحمصي ، توفي سنة ثلاث وستينَ ومئة . تقريب التهذيب (١/ ١٥٩) .

(١٠) المقرائي ، فتح الميم وسكون القاف . كذا ضبطه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٢٤٠) . وضبطت بضم الميم ، ضبط قلم في ب . وكذلك بضمها في (اللباب) ، وقال : نسبة إلى قرية بالشام . أقول : ومُقرى كَحُبلى : قرية على مرحلة من صنعاء .

(١١) هو شداد بن حي . تقريب التهذيب (١/ ٣٤٧) .

(١٢) كذا في ب ، ومسند أحمد : مخمر . وفي أ وط : فجر . قال في التقريب : ذو مِخْبَر ، بكسر أوله وسكون المعجمة وفتح الموحدة ، وقيل : بدلها ميم ، الحبشي ، صحابي ، نزل الشام ، =

فجعله في قريش » . (وس ي ع ودال ي ه م) . قال عبد الله كان هذا[١] في كتاب أبي [مقطع][٢] وحيث حدّثنا به تكلم به على الاستواء ، يعني : « وسيعود إليهم » .

* * *

= وهو ابن أخي النجاشي (١/ ٢٣٩) .

(١) في ب : هكذا كان في . . وفي المسند : وكذا كان في .

(٢) زيادة من المسند .

قِصّة سَبَأ

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٥ـ١٩] .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق[١] : اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قالوا : وكان أول من سبى في[٢] العرب فسُمّي سبأ لذلك[٣] ، وكان يقال [له : الرائش لأنه كان يُعطي الناس الأموالَ من متاعه . قال السهيلي : ويقال][٤] إنه أول من تَتَوَّج[٥] . وذكر بعضهم أنه كان مسلماً ، وكان له شعر بشَّرَ فيه بقدوم[٦] رسول الله ﷺ ، فمن ذلك قوله[٧] : [من الوافر]

سَيَملِكُ بعدَنا مُلْكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرامِ

ويملِك بعدَه مِنهم ملوكٌ ... يدينون العبادَ بغيرِ ذام

ويملِك بعدَهم منا ملوكٌ ... يَصِيْر الملكُ فينا باقتسام

ويملك بعدَ قحطانٍ نبيٌّ ... تقيّ جَبينِه خيرُ الأنام

يُسمى أحمداً يا ليتَ أني ... أُعمّر بعدَ مبعثِه بعام

فأعضدُه وأحبُوه بنصري ... بكلّ مدجّج وبكلّ رام

متى يظهرْ فكونوا نَاصِريه ... ومَنْ يلقاهُ يُبلغه سلامي

---

(١) السيرة (١/ ١٠) .

(٢) في ط : من .

(٣) مروج الذهب (٢/ ٧١) ، والبدء والتاريخ (٣/ ١٣١) . ونهاية الأرب للنويري (١٥/ ٢٩١) . وقال السهيلي في الروض (١/ ١٩) : ولست من هذا الاشتقاق على يقين ، لأن سبأ مهموز ، والسبي غير مهموز .

(٤) سقطت العبارة من ب بنقلة عين . والذي في نهاية الأرب للنويري (١٥/ ٢٩٢) : أن الذي لقب بالرائش هو الحارث بن شداد .

(٥) الروض الأنف (١/ ١٩) .

(٦) كذا في ب ، وهو اللفظ الأنسب . وفي أ وط : بوجود .

(٧) أورد النويري في نهاية الأرب (١٥/ ٢٩٢) بيتين .
وواضح أن هذه الأبيات مصنوعة منحولة ، وقد تكررت فيها الضرائر الشعرية .

حكاه ابن دحية[١] في كتابه « التنوير في مولد البشير النذير » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا أبو عبد الرحمن ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن عبد الله بن هُبيرة عن عبد الرحمن[٢] بن وعلة ، سمعت عبد الله بن عباس يقول : إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ : ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ولد[٣] عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان »[٤] . وقد ذكرنا في « التفسير »[٥] أن فروة بن مُسَيك الغطيفي هو السائل عن ذلك ، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك . ولله الحمد .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلّها وقد كان فيهم التبابعة[٦] بأرض اليمن ، واحدهم تُبّع . وكان لملوكهم تيجان يلبَسُونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك ، وكانت العرب تسمي كلّ من ملك اليمن مع[٧] الشحر وحضرموت تُبّعاً ، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ، ومن ملك الفرس كسرى ، ومن ملك مصر كافراً[٨] فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشي ، ومن ملك الهند بَطْلَيْمُوس . وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس . وقد قدَّمْنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارّة وثمار وزروع كثيرة ، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدّلوا نعمة الله كفراً أحلُّوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه : أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً[٩] . وزعم السُّدِّي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي . فالله أعلم .

والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، وسجدوا للشمس من دون الله ، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً ، واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ : ١٦ ـ ١٧] .

---

(١) هو عمر بن الحسن بن علي ، ابن دحية الكلبي ، أديب مؤرخ مغربي ، أقام بمصر وتوفي فيها سنة (٦٣٣هـ) . الأعلام (٥/ ٤٤) ومصادر ترجمته ثمة .

(٢) قوله : ابن هبيرة عن عبد الرحمن ، زيادة من ب ومسند أحمد .

(٣) زاد في ب : له .

(٤) مسند أحمد (١/ ٣١٦) .

(٥) تفسير المؤلف (٣/ ٥٣١) ، وكذلك ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٣) .

(٦) زاد في ب : وهم ملوك حمير .

(٧) اليمن مع سقطت من ب .

(٨) سقطت من ط .

(٩) وأورده الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٤) .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين[١] وغيرهم أن سدَّ مأرب كان صنعته أن المياه تجري من بين جبلين ، فعمدوا في قديم الزمان فسدّوا ما بينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين ، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة . ويقال : كان أول من بناه سبأ بن يعرب ، وسلّط إليه سبعين وادياً يفد إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ، ومات ولم يكمل بناؤه ، فكمّلته حمير بعده ، وكان اتِّساعه فرسخاً في فرسخ ، وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ، حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلىء من الثمار ما[٢] يتساقط فيه من نضجه وكثرته ، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحّة هوائهم ، وطيب فنائهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] . وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] . فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينهـا من البساتين وأمْن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم في مشاقٍّ وتعب ، وطلبوا أن يبدِّلوا بالخير شراً[٣] ، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسـلوى البقول والقِثّاء والفوم والعدس والبصـل ، فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ .

قال غير واحد[٤] : أرسل الله على أصل السدِّ الفار ، وهو الجرذ ، ويقال الخُلْد ، فلما فطِنوا لذلك أرصدوا عندهم السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حُمَّ القدر ولم ينفع الحذر ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ [القيامة : ١١] فلما تحكّم في أصله الفساد سقط وانهار ، فسلك الماء القرار وتقطعت[٥] تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك الثمار ومادت[٦] تلك الزروع والأشجار ، وتبدَّلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار كما قال العزيز الجبَّار ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ ﴾ [قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو الأراك ، وثمره البرير ، وأثل][٧] : وهو الطرفاء[٨] . وقيل : يشبهه وهو حطب لا ثمر له : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٥) .
(٢) في ب : بما .
(٣) في ب : الشر . وفي أ : كما سألوا بنو . . وهي لغة رديئة .
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٦) .
(٥) في ط : فقطعت .
(٦) في ب : وبادت .
(٧) سقطت العبارة من ب بنقلة عين . وقد أورد الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٦) مجمل الآراء في تفسير الآية .
(٨) المصدر السابق ، عن ابن عباس وقتادة .

سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ وذلك لأنه لما كان يثمر النَّبق كان قليلاً مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال في المثل : لحم جملٍ غث على رأس جبل وعر لا سهل فيُرتقى ولا سمين فينتقى[١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ أي : إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذّب رسلَنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا .

وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها ، فتفرَّقوا في غَور البلاد ونجدها أيدي سبأ شَذَر مَذَر ، فنزلت طوائف منهم الحجاز ؛ ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ومنهم الأوس والخزرج ، نزلوا بيثرب وهي[٢] المدينة النبوية[٣] اليوم ، فكانوا أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، فحالفوا الأوس والخزرج ، وأقاموا عندهم ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ونزلت طائفة أخرى منهم الشام ، وهم الذين تنصَّروا فيما بعد ، وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم ، وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما .

قال محمد بن إسحاق[٤] : حدّثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة ، وهو ميمون بن قيس[٥] . [من المتقارب]

وفي ذاكَ للمؤتَسي أُسْوةٌ ... ومأربُ عَفَّى عليها العَرِمْ[٦]

رُخامٌ بَنَتْهُ لهم حِميرٌ ... إذا جاءَ موَّارُه لم يرِم[٧]

فأَروى الزروع وأعنابها ... على سَعَةٍ ماؤهم إذ قَسَم

فصاروا أياديَ لا يقدِرو ... ن على شُربِ طفلٍ إذا ما فُطِم[٨]

---

(١) هو جزء من حديث أم زرع الطويل ، رواه البخاري رقم (٥١٨٩) ومسلم رقم (٢٤٤٨) وقد شرحه شرحاً مطولاً في رسالة القاضي عياض .

(٢) قوله : الأوس و . . إلى هنا ، زيادة من ب .

(٣) في ط : المنورة .

(٤) السيرة (١/ ١٤) . وفيه : قال أعشى بني قيس بن ثعلبة . . وهذا هو الصحيح الأعلى .

(٥) ديوانه (ص٩٣) من القصيدة الرابعة ، ومطلعها : [من المتقارب]

أتهجر غانبة أم يُلم ... أم الحبلُ واهٍ بها مُنجذِمْ

وقالها يمدح قيس بن معد يكرب .

(٦) في ط . ومأرم وهو سهو . وفي الديوان : قفَّى .

(٧) في الديوان : إذا جاءه ماؤهم لم يرِم .

(٨) في ب : لا يقدرون منه على شرب طفل إذا ما فطم ، وعليه يختل الوزن . وأثبت ما في ط . وفي أ . سقطت لفظة=

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب « السيرة »[١] أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي ، ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن أزد[٢] بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال : لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ ، قاله ابن هشام[٣] . قال ابن إسحاق[٤] : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدّثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سدِّ مأرب الذي كان يحبس عنهم[٥] الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أن لا بقاء[٦] للسدِّ على ذلك ، فاعتزم على النُّقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له[٧] ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أُمِر[٨] به . فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيه أصغرُ ولدي . وعرض ماله[٩] . فقال أشرافٌ مِن أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو ، فاشتروا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلّف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عكٍّ مجتازين يرتادون البلدان[١٠] فحاربتهم عك ، فكانت حربهم سجالاً . ففي ذلك يقول[١١] عباس بن مرداس : [من الطويل]

وعكّ بن عدنانَ الّذين تلعّبوا ... بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطْرِدِ

قال : فارتحلوا عنهم ، فتفرَّقوا في البلاد[١٢] فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرّ[١٣] ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عُمان ، ثم أرسل الله تعالى على السدّ السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات .

= (إذا ما) وفي الديوان : [من المتقارب]

فطاروا سراعاً وما يقدرو ... ن منه لشرب صبي فطم

(١) (١/ ١٣) .
(٢) في ط : أزد .
(٣) السيرة (١/ ١٢) .
(٤) السيرة (١/ ١٣) .
(٥) في ط : عليهم .
(٦) في ط : أنه لا بقاء .
(٧) في ط : عليه .
(٨) في ب وط : أمره .
(٩) في ط : أمواله .
(١٠) زيادة من ط .
(١١) في ط : قال . والبيت في السيرة (١/ ٩) والروض الأنف (١/ ٢٠) .
(١٢) في ب : في البلدان . وكذا في السيرة .
(١٣) مَرّ : موضع على خمسة أميال من مكة . معجم البلدان .

وقد رُوي عن السُّدِّي قريب من هذا . وعن محمد بن إسحاق في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً . وقال غيره : كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة ، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلِّط على سدِّهم ففعلوا ما فعلوا والله أعلم . وقد ذكرتُ قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في « التفسير »[1] .

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أُصيبوا بسيل العرم ، بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السدُّ فتفرَّقوا في البلاد ، وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن ، بل إنما تشاءم منها أربعة ، وبقي باليمن ستة وهم : مذحج وكندة والأزد[2] وأنمار والأشعريون ـ وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة ـ وحمير فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم[3] ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط نحواً من سبعين سنة ، ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل ، كما سنذكره مفصَّلاً قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم بعث[4] رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن علياً وخالد بن الوليد ، ثم أبا موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل ، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبيِّنون لهم الحجج ثم[5] تغلَّب على اليمن الأسود العنسي ، وأخرج نوَّاب رسول الله ﷺ منها ، فلما قُتِل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

***

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٣) .
(٢) زيادة من ب ، وتفسير المؤلف (٣/ ٥٣١) لأن أنماراً هو أبو خثعم وبجيلة . جمهرة ابن حزم (٤٨٤) ، وعلى ما ورد في المتن يكون عدد القبائل خمسة لا ستة .
(٣) زاد في ب : بعد .
(٤) في ط : أرسل .
(٥) في ب : حتى .

قِصّة رَبيعة بن نصر بن أبي حَارثة بن عمرو بن عَامِر

المتقدِّم ذِكره اللخمي ، كذا ذكره ابن إسحاق[١] . وقال السهيلي[٢] . ونسَّابُ اليمن تقول : نصر بن ربيعة ، وهو ربيعة[٣] بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم[٤] . وقال الزبير بن بكار : ربيعة بن نصر بن مالك[٥] بن شَعوذ بن مالك بن عُجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ، ولخم أخو جذام ، وسمي لخماً لأنه لَخَم أخاه[٦] على خدِّه ، أي : لطمه ، فعضّه الآخر في يده فَجَذَمها ، فَسُمّي جُذاماً[٧] . وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة ، وخبره مع شِق وسَطيح الكاهنين ، وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ .

أما سَطيح : فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان[٨] .

وأما شق فهو ابن صعب[٩] بن يشكر بن رُهْم بن أَفْرَك بن قسر[١٠] بن عبقر بن أنمار بن نزار ، ومنهم من يقول : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

ويقال : إن سطيحاً كان لا أعضاء له ، وإنما كان مثل السطيحة ، ووجهه في صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس .

وكان شِق نصفَ إنسان ، ويقال : إن خالد بن عبد الله القسري كان من سلالته[١١] . وذكر

---

(١) السيرة (١/ ١٥) .

(٢) عبارة السهيلي في الروض (١/ ٢٦ ـ ٢٧) : وبعضهم يقول فيه : نصر بن ربيعة ، وهو في قول نساب اليمن : ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم . . .

(٣) سقطت من ط .

(٤) كذا في ط . وهو موافق لما في الروض الأنف . وفي أ وب : . . الحارث بن ربيعة بن نصر . وهو سهو .

(٥) ليست في ب .

(٦) في أ وب : لطم أخاه . وهو سهو . واللخم : اللطم . وفي ط : لخم أخاه : أي لطمه . وقال ابن دريد في الاشتقاق (٣٧٦) : واشتقاق لخم من الغِلَظ والجفاء .

(٧) كذا في ط . وهو موافق لما نقله السهيلي عن الزبير . وفي أ وب : فعضه الآخر في يده فجذمها وكان . . .

(٨) كذا نسبه ابن إسحاق . وفيه خلاف عما ذكره ابن الكلبي في نسب معد (١/ ٤٧٧) ، وابن دريد في الاشتقاق (٤٨٧) وابن حزم في الجمهرة (٣٧٤) .

(٩) كذا في ط . وهو موافق لما في السيرة ، وجمهرة ابن حزم (٣٨٨) . وفي أ وب : أصعب .

(١٠) في ط : قيس ، وهو تحريف .

(١١) في ط : ابن عبد الله بن القسري كان سلالته . وخالد القسري هو أحد خطباء العرب وأجوادهم ، أمير العراقين . قُتل في أيام الوليد بن يزيد بعد سنة (١٢٠هـ) . الأعلام (٢/ ٢٩٧) .

السهيلي[١] أنهما ولدا في يوم واحد ، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال : إنها تفلت في فم كلٍّ منهما فورثا[٢] الكهانة عنها ، وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدِّم ذِكره . والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق[٣] : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة[٤] هالته وفظِع بها[٥] ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا مُنجّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظِعت بها فأخبروني بها وبتأويلها . فقالوا : اقصُصْها علينا نخبرْك بتأويلها . فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها إلا مَن عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شِق وسَطيح فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه . فبعث إليهما ، فقدم إليه سَطيح قبل شِق ، فقال له : إني قد[٦] رأيت رؤيا هالتني وفظِعت بها ، فأخبِرْني بها ، فإنك إن أصبتَها أصبتَ تأويلَها . فقال : أَفْعَلُ . رأيت حُمَمة خرجتْ من ظُلُمة[٧] . فوقعت بأرض تهَمة . فأكلت منها كلُّ ذاتِ جُمْجُمة . فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرَّتين من حَنَش لتهبطنّ أرضَكُم الحَبَش ، فليملكنّ ما بين أَبْيَن إلى جُرَش . فقال له الملك : يا[٨] سطيح إن هذا لنا لَغائظٌ موجعٌ ، فمتى هو كائن ، أفي زماني أم بعده ؟ فقال : لا[٩] بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين[١٠] ، يمضين من السنين . قال : أفيدوم ذلك من سلطانهم[١١] أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه[١٢] إرم ذي يَزَن ، يخرج عليهم من عَدَن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن[١٣] . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم

---

(١) الروض الأنف (١/ ٢٧) .
(٢) في ط : فورث .
(٣) السيرة (١/ ١٥) .
(٤) ليست في ب .
(٥) فظع بالأمر : اشتد عليه . وفي ب : فلم يترك كاهناً .
(٦) ليست في ب .
(٧) الحممة : أراد الفحمة . وقال السهيلي (١/ ٢٨) : أي من ظُلْمة ، وذلك أن الحممة قطعة من نار ، وخروجها من ظلمة يشبه خروج عسكر الحبشة من أرض السودان .
(٨) زاد في ب : وأبيك يا سطيح .
(٩) زاد في ط : وأبيك .
(١٠) زاد في أ : سنة ، ولا يستقيم هذا من السجعة ، والمعنى .
(١١) في ب : ملكهم ، وكذلك في السيرة والروض الأنف .
(١٢) كذا في ب . وهو موافق لما في السيرة . وفي أ وط : يليهم .
(١٣) في ب : أحداً منهم باليمن . وهو موافق لما في السيرة والروض الأنف .

ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي ، من قبل العلي . قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يومٌ[١] يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يَسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحقٌّ ما تخبرني ؟ قال : نعم ، والشَّفقِ والغسقِ ، والفلق إذا اتّسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

قال ثمّ قدم عليه شِق ، فقال[٢] له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيحٌ لينظر أيتّفقان أم يختلفان . قال : نعم ، رأيتَ حُمَمة ، خرجت من ظُلمة ، فوقعت بين روضة وأكَمة ، فأكلت منها كلَّ ذاتِ نسمة . فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولهما واحدٌ ، إلّا أن سَطيحاً قال : وقعت بأرض تهمة ، فأكلت منها كل ذات جُمْجُمة . وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كلّ ذات نسمة . فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان . لينزلنَّ أرضَكُم السودان، فليغلِبُنَّ على كل طَفْلَةِ البَنان ، وليملكن ما بين أَبْيَن إلى نَجران . فقال له الملك : وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجعٌ ، فمتى هو كائن ، أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بزمان . ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : غلام ليس بدَني ولا مُدَنٍ[٣] يخرج عليهم[٤] من بيت ذي يَزَن . قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل[٥] ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل ، بين[٦] أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم يُجزَى فيه الوُلاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع الناس فيه للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات . قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : إي وربِّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفْعٍ وخفض ، إن ما أنبأتك به لحقٌ[٧] ما فيه أَمْض .

قال ابن إسحاق : فوقع في نفس[٨] ربيعة بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما

---

(١) يوم . زيادة من ط . موافقة لنص السيرة .
(٢) ليست في ب .
(٣) قال السهيلي ، عن الفراهيدي : المدن : الذي جمع الضعف مع الدناءة .
(٤) ليست في ب .
(٥) في ب : لا بل .
(٦) كذا في ب ، وهو موافق لما في السيرة والروض الأنف . وفي أ وط : من .
(٧) زيادة من ب وط . موافقة لنص السيرة . والأمض : الشك والريب ، والباطل .
(٨) في ب : قلب .

يصلحهم وكتب لهم[١] إلى ملك من ملوك فارس يقال له : سابور بن خُرَّزاذ ، فأسكنهم الحِيرة[٢] .

قال ابن إسحاق : فمن بقية ولد[٣] ربيعة بن نصر النعمانُ بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر . يعني الذي كان نائباً على الحِيرة لملوك الأكاسرة ، وكانت العرب تَفِدُ إليه وتمتدحه . وهذا الذي قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق[٤] أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر سأل جُبير بن مُطْعِم عنه ممن كان ، فقال : من أشلاء قُنُص بن معد بن عدنان . قال ابن إسحاق : فالله أعلم أي ذلك كان .

***

---

(١) زيادة من ب . موافقة لنص السيرة .

(٢) زاد في ب : قال أبو القاسم السهيلي : ليس في ملوك الفرس من اسمه خرزاذ ، فإنهم من ولد أزدشير بن بابك ـ وهو أولهم ـ إلى يزدجرد ، يعني ابن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وأسماؤهم محفوظة ، ليس فيهم من اسمه خرزاذ ، ولعل خرزاذ هذا نائب له ، أو ملك من ملوك الطوائف ، فإن زمان ربيعة بن نصر كان في زمانهم . والله أعلم . وكانت ملوك الطوائف في زمن المسيح وقبله وبعده ، وكان الذي فرّق شملهم إسكندر بن فيليبس المقدوني كما غلب على دارا بن دارا وتزوج ابنته من بعده ، ففرق شملهم لئلا ينتظم لواحد منهم أمر ، وكان كل ملك يتبعه طائفة من الناس على قطر من الأرض ، منهم عرب ، ومنهم فرس ، وغيرهم . واستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمئة سنة . ثم قام بعدهم بنو ساسان بن بهمن بن أسفيديار بن بشتاسب . وكان أردشير وبعده ابنه سابور الذي خرب الحصن وأخذه من الساطرون . وهذا القول مأخوذ ـ كما سلف ـ من السهيلي (١/ ٣٠ ـ ٣١) بتصرف .

(٣) زيادة من ب وط . والسيرة .

(٤) السيرة (١/ ١٢) .

قصّة تُبَّع أَبي كرب تُبَّان أسعد

ملك اليمن مع أهل المدينة[١] ، وكيف أراد غزو البيت الحرام ، ثمّ شرَّفه وعظَّمه وكساه الحُلل ، فكان أوّل من كساه

قال ابن إسحاق[٢] : فلما هلك ربيعة بن نصر ، رجع مُلْك اليمن كلُّه إلى حسّان بن تُبَّان أسعد أبي كَرب ـ وتُبَّان أسعد تبع الآخر ـ بن كلكيكرب[٣] بن زيد ، وزيد تُبَّع الأول بن عمرو ذي الأَذْعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب كَهْف[٤] الظُّلْم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطَن بن عَرِيْب بن زهير بن أنس[٥] بن الهَمَيْسع بن العَرَنجج ، والعَرَنجج هو حِمير بن سبأ الأكبر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام : سبأ بن يشجب[٦] بن يعرب بن قحطان[٧] .

قال ابن إسحاق : وتُبَّان أسعد أبو كَرِب هو الذي قدم المدينة ، وساق الحبرين[٨] من اليهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل [مُلْك][٩] ربيعة بن نصر[١٠] ، وكان قد جعل طريقه ـ حين رجع من غزوة بلاد المشرق ـ على المدينة[١١] ، وكان قد مر بها في بَدْأَته فلم يَهِجْ أهلَها ، وخلَّف بين أظهرهم ابناً له ، فقُتِل غِيْلة ، فقدِمَها وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فَجَمَعَ له

---

(١) جاء العنوان في ط : قصة تبع أبي كرب مع أهل المدينة ، وكيف. . . .

(٢) السيرة (١/ ١٩) .

(٣) في ب : كلكيرب . وفي السيرة : كُلي كرب . وأشار المحقق إلى أن أصل المخطوط : كليككرب . وفي الروض الأنف (١/ ٣٤) : وكلكي كرب اسم مركب . وقال السهيلي أيضاً (١/ ٦) : والكرب : هو الفلاح (بالحميرية) وقد تقدم أبو كرب ، فمعناه على هذا : أبو الفلاح . قاله ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكذلك تقدم كلكي كرب ، ولا أدري ما كلكي .

(٤) كذا في ط . وهو موافق لما في السيرة . وفي أ . وب : بن كهف .

(٥) في السيرة ، والروض الأنف : أيمن .

(٦) ليست في ب .

(٧) شرح السيرة (١/ ٢٠) .

(٨) في أ : الحرير ، وهو تحريف .

(٩) زيادة من ب وط . والسيرة .

(١٠) زاد في ب : قال ابن هشام : وهو الذي يقال له : [من المديد]

ليت حظي من أبي كرب أن يَسُــد خيــره خبلــه

قال ابن إسحاق وهذه الزيادة في السيرة (١/ ٢٠) .

(١١) في ب : حين أقبل من المشرق على المدينة . وكذا في السيرة .

هذا الحيُّ من الأنصار ورئيسُهم عَمْرو بن طَلحة[١] أخو بني النجّار ، ثم أحد بني عمرو بن مبذول ، واسم مَبْذول[٢] : عامر بن مالك بن النجار ، والنجار هو[٣] : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة ابن ثعلبة بن[٤] عمرو بن عامر .

وقال ابن هشام : عمرو بن طَلّة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار ، وطَلَّة أُمُّه ، وهي بنت عامر بن زُرَيق[٥] الخزرجية .

قال ابن إسحاق[٦] : وقد كان رجل من بني عدي بن النجار ، يقال له : أحمر ، عدا على رجل من أصحاب تُبَّع[٧] وَجَدَه يَجُدُّ عَذْقاً[٨] له فضربه بمنجله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أَبَّرَه[٩] ، فزاد ذلك تُبعاً حنقاً عليهم ، فاقتتلوا . فتزعَم الأنصارُ أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرُونه[١٠] بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام . وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تُبَّعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه .

قال السهيلي[١١] : ويقال إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناءِ عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم[١٢] . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فبينا تُبَّع على ذلك من حربهم[١٣] إذ جاءه حَبْران من أحْبار اليهود من بني قُريظة[١٤] ،

---

(١) في أ وط : طلحة . وهو سهو . وسيذكره صحيحاً بعد قليل .
(٢) كذا في ب ، وط . والسيرة . وفي أ : واسمه .
(٣) في ب ، وط : واسم النجار : تيم وكذا في السيرة .
(٤) ليست في ط .
(٥) زاد في ب : ابن عبد حارثة بن مالك بن غضْب بن جشم بن الخزرج . وكذلك في السيرة .
(٦) السيرة (١/ ٢١) وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٥) .
(٧) زاد في ب : حين نزل بهم فقتله ، وذلك أنه . . . وكذلك في السيرة .
(٨) العَذْق : النخلة . والجد : القطع .
(٩) أَبَّرَه : أصلحه .
(١٠) القرى إطعام الضيف .
(١١) الروض الأنف (١/ ٣٥) .
(١٢) في الروض : واستضاموهم .
(١٣) في ط : قتالهم . وكذلك في السيرة .
(١٤) زاد في ب : وقريظة والنضير والنحّام وعمرو ـ وهو هَدَل ـ بن الخزرج بن الصريح بن التوءمان بن السبط بن اليسع بن لاوي بن خير بن النحام بن منحوم بن عاد بن عود بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ . وكذلك في السيرة ، مع خلاف يسير .

عالمان راسخان ، حين سمعا بما يُريد من إهلاك المدينة وأهلها ، فقالا[١] له : أيها الملك لا تفعلْ فإنك إن أبيت إلا ما تريد حِيْل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل[٢] العقوبة . فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هي مُهاجَرُ نبيّ يخرج من هذا الحرَم من قُريش في آخر الزمان ، تكون دارَه وقرارَه . فتناهى عن ذلك[٣] ورأى أن لهما علماً ، وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتّبعهما على دينهما[٤] .

قال ابن إسحاق : وكان تُبَّع وقومُه أصحاب أوثان يعبدونها ، فوجَّه[٥] إلى مكة ، وهي طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عُسْفان وأَمَج[٦] أتاه نفرٌ من هذيل بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له : أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثرٍ أَغْفَلَتْه الملوكُ قبلكَ ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيتٌ بمكة يعبده أهله ويصلّون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكَه بذلك لما عرفوا من هلاك مَنْ أراده من الملوك وبَغَى عنده . فلما أجمع لما قالوا[٧] أرسلَ إلى الحَبْرَيْن فسألهما عن ذلك . فقالا له : ما أراد القومُ إلّا هلاكَك وهلاكَ جُنْدك ، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه[٨] في الأرض لنفسِه غيرَه ، ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن مَن معك جميعاً . قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدِمْتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهلُه ، تطوفُ به وتعظّمه وتكرّمه ، وتَحلق رأسَك عنده ، وتَذَلّلُ[٩] له حتى تخرج من عنده . قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما[١٠] والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، عليه السلام ، وإنه لكَما أخبرناك ، ولكنّ أهلَه حَالُوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها[١١] حوله وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نَجَس أهل شرك ، أو كما قالا له . فعرف نُصْحَهما وصِدْقَ حديثهما ، وقرَّب النفرَ من هُذيل فقطع أيديهم وأرجلَهم ، ثم مضى حتى قدم

---

(١) في ط : فقالوا .
(٢) في ط : جل .
(٣) زيادة من السيرة .
(٤) زاد في ب : فقال خالد بن عبد العزى بن غزية بن عمرو بن عبيد بن غوث بن غنم بن مالك بن النجار يفخر بعمرو بن طلة : [من المديد]

أصحا أم قد نهى ذكره ... أم قضى من لذة وطره

إلى انتهاء الأبيات . والقول مع الأبيات في السيرة (١/ ٢٢) .
(٥) في ط : فتوجه . وكذلك في السيرة .
(٦) عُسفان : موضع ، على مرحلتين من مكة ، وهو حد تهامة . وأَمَج : بلد من أعراض المدينة .
(٧) في ب : سمع ما قالوا .
(٨) زيادة من ب وط . والسيرة .
(٩) في ب : وتتذلل . وفي السيرة : وتذل .
(١٠) ليست في ب .
(١١) في ب : نصبوا .

مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ـ فيما يذكرون ـ ينحر بها للناس ويُطعم أهلَها ويسقيهم العسل . وأُرِيَ في المنام أن يَكسو البيتَ ، فكساه الخَصَفَ[١] ثم أُرِيَ في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافِرِيّ[٢] ، ثم أُرِيَ أن يكسوه أحسن من ذلك . فكساه المُلاءَ والوصائل[٣] ، فكان تُبع ـ فيما يزعمون ـ أولَ من كسا البيتَ وأوصى به وُلاتَه من جُرْهم ، وأمرهم بتطهيره وأن لا يُقرّبوه دماً ولا مِيتة ولا مِثْلاة ـ وهي المحايض[٤] ـ وجعل له باباً ومفتاحاً . ففي ذلك قالت سُبَيْعة بنت[٥] الأحَبِّ تُذَكّر ابنَها خالد بن عبدِ مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وتنهاه عن البغي بمكة ، وتذكر له ما كان من أمر تُبّع فيها : [من مجزوء الكامل]

أبُنَيّ لا تَظلِمْ بمكـ ـةَ لا الصغيرَ ولاَ الكَبيرْ
واحفَظْ محارِمَها بُنَـ ـيّ ولا يغرَّنْك الغَرورْ
أبنيّ من يَظلِمْ بمكـ ـةَ يلقَ أطرافَ الشُّرور
أبُنَيّ يُضرَبْ وجهُه ويلحْ بخدّيهِ السَّعير[٦]
أبنيّ قد جرّبتُها فوجدتُ ظالمَها يَبور[٧]
اللهُ آمَنها وما بُنِيتْ بِعَرْصَتها قُصور
واللهُ آمَنَ طَيرَها والعُصْمُ تامَنُ في ثَبِير[٨]
ولقدْ غزَاها تُبّع فكَسا بنيّتها الحبير
وأذلّ ربي مُلْكَه فيها فأوفى بالنّذُور
يمشي إلَيها حافياً بفِنائها ألفا بعير

(١) الخصف : حصر تنسج من خوص النخل ومن الليف .
(٢) في ط ، وب ، والسيرة : المعافر . والمعافري : ثوب منسوب إلى معافر ، وهو رجل ، ثم أصبح علماً على الثوب دون نسبة ، فيقال : معافري .
(٣) قوله : فكساه الملاء والوصائل . سقط من ب . والملاء : ج ملاءة ، وهي الملحفة . والوصائل : ثياب مخططة يمنية يوصل بعضها إلى بعض .
(٤) المحايض : ج محيضة ، وهي خرقة الحيض .
(٥) في ب : بنت الأحب بن زبيّنة بن جذيمة بن عوف بن مضر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان ، وكانت عند عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، لابن أبي منبه يقال له خالد ، تعظم عليه حرمة مكة ، وتنهاه عن البغي فيها ، وتذكره وتذلله لها وما صنع بها . وقريب منه في السيرة .
(٦) في ط : ويلج ، وفي ب : بحرمته .
(٧) يبور : يهلك .
(٨) العصم : الوعول ، لأنها تعتصم بالجبال . وثبير : جبل بمكة .

ويظــلّ يُطعــمُ أهلَهــا لحــمَ المهــارَى والجــزَور[١]
يسقيهــمُ العسَــلَ المصفــفى والرَّحِيضَ من الشّعير[٢]
والفيــلُ أهلــكَ جيشَــه يُــرمــون فيهــا بــالصّخــور
والملْـك فــي أقصَــى البـلا دِ وفي الأعاجم والخُزير[٣]
فــاسمــع إذا حُــدّثــت وافْـ ـهَمْ كيـفَ عـاقبـةُ الأمـور[٤]

قال ابن إسحاق : ثم خرج تُبَّع متوجّهاً إلى اليمن بمن مَعه من جنوده[٥] وبالحَبْرَين ، حَتَى إذا دخل اليمن ، دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبَوْا عليه حتى يحاكموه[٦] إلى النار التي كانت باليمن . قال ابن إسحاق : حدّثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي[٧] مالك القُرَظي ، قال[٨] : سمعتُ إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدِّث أن تُبّعاً لما دنا من اليمن ليَدْخلها حالت حِمْير بينه وبين ذلك وقالوا : لا تدخلها علينا وقد خالفت[٩] ديننا ، فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خيرٌ من دينكم . قالوا : تُحاكمنا[١٠] إلى النار ؟ قال : نعم . قال : وكانت باليمن ـ فيما يزعم أهل اليمن ـ نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؛ تأكل[١١] الظالم ولاتضر المظلوم ، فخرج قومُه بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم ، وخرج الحَبْرَان بمصاحفهما في أعناقهما متقلّدين حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منها ، فخرجت النارُ إليهم ، فلما خرجت[١٢] نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فزجرهم[١٣] من حَضَرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غَشِيتْهم ، فأكلت الأوثانَ وما قرّبوا معها ، ومَن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحَبران بمصاحفهما في أعناقهما تَعْرَق جباهُهما لم[١٤] تضرهما ،

---

(١) المهارى : الإبل النجيبة .
(٢) الرحيض : المنقّى والمصفًّى .
(٣) في ط : والخزور . وفي ب : والجزير . والخزير : أمة من العجم .
(٤) كذا في ب وط ، والسيرة . وفي أ : خافهم إذا . . .
(٥) في ط : الجنود .
(٦) في ب : تحاكموا .
(٧) ليست في ب .
(٨) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٩) في ب وط : فارقت . وكذلك في السيرة .
(١٠) في ب : حاكمنا . وفي السيرة : فحاكمنا .
(١١) في ط : تأخذ .
(١٢) في ب ، وط : أقبلت . وكذلك في السيرة .
(١٣) في ب : فزبرهم . وفي السيرة : فزبرهم . والزبر : المنع والنهي . وذمرهم : حضهم وشجعهم .
(١٤) في ط : ولم .

فأصفقت[١] عند ذلك حمير على دينه[٢] ، فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق : وقد حدّثني مُحدِّث أن الحَبْرَيْن ومَن خرج من حِمْير إنما اتَّبعوا النار ليردُّوها، وقالوا: من ردّها فهو أولى بالحق ، فدنا منها رجال حِمير بأوثانهم ليردُّوها ، فدنت منهم لتأكلهم ، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها ، ودنا[٣] منها الحَبْران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وتنكص[٤] عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه ، فأصفقت عند ذلك حِمير على دينهما . والله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن إسحاق : وكان رِئام بيتاً لهم يعظِّمونه وينحرون عنده ويكلِّمون منه[٥] إذ كانوا على شركهم . فقال الحبران لِتُبَّع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك[٦] فَخَلِّ بيننا وبينه . قال : فشأنكما به . فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود ، فذبحاه ، ثم هَدَما ذلك البيت ، فبقاياه اليوم كما ذُكر لي بها آثار[٧] الدماء التي كانت تهراق عليه[٨] .

وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ : « لا تسبوا تُبَّعاً فإنّه قد كان أسلم »[٩] قال السهيلي[١٠] : ورَوى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبُّوا أسعد الحميري فإنه أوّل من كسا الكعبة »[١١] .

قال السهيلي[١٢] : وقد قال تُبَّع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً : [من المتقارب]

شهِدْتُ على أحمدٍ أنه ... رسولٌ منَ الله باري النسم
فلو مُدَّ عمري إلى عُمره ... لكنتُ وزيراً له ، وابنَ عم
وجاهدت بالسيف أعداءَه ... وفرّجتُ عن صدرِه كلَّ هم[١٣]

---

(١) في ب : فأصفقت حمير عند ذلك . . . وأصفقوا على الأمر : اجتمعوا عليه .
(٢) في ط : دينهما . وعبارة ط . بعد هذا . فمن هنالك كان أصل . . . .
(٣) في ط : فدنا .
(٤) في ط : وهي تنقص .
(٥) في ط : فيه .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) في ب : كما ذكر فيه آثار . . .
(٨) زاد في ب هاهنا قوله : ثم صار الملك فيما بعد . . . اليمامة . وسيأتي هذا بعد قليل في أ وط .
(٩) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٤٠) ، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .
(١٠) الروض الأنف (١/ ٣٦) .
(١١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٣١) من رواية ابن مردويه ، والله أعلم به .
(١٢) الروض الأنف (١/ ٣٥) .
(١٣) كذا في ط ، وهو موافق لنص السهيلي : وفي أ وب : (عن وجهه) . وفي ب : (كل غم) .

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم ، وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه .

قال السهيلي[(١)] : وروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور أن قبراً حُفر بصنعاء ، فوُجد فيه امرأتان معهما[(٢)] لوحٌ من فضة مكتوب فيه بالذهب[(٣)] ، وفيه : هذا قبر لَميس وحُبَّى ابنتي تُبَّع ماتتا وهما تشهدان أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له[(٤)] ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تُبَّان أسعد ، وهو أخو اليمامة الزرقاء التي صُلبت على باب مدينة جَوّ ، فسميت من يومئذ اليمامة .

قال ابن إسحاق[(٥)] : فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبَّان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم[(٦)] أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كان[(٧)] ببعض أرض العراق[(٨)] كرهت حِمير وقبائل اليمن السير معه ، وأراداو الرجعة إلى بلادهم وأهليهم ، فكلّموا أخاً له يقال له : عمرو ، وكان معه في جيشه ، فقالوا له : اقتل أخاك حسان ونملّكك علينا، وترجع بنا إلى بلادنا . فأجابهم . فاجتمعوا[(٩)] على ذلك إلا ذا رُعين الحِميري فإنه نهى عَمراً عن ذلك ، فلم يقبل منه ، فكتب ذو رعين رُقعة فيها هذان البيتان : [من الوافر]

أَلا مَـن يَشْتـري سَهَـراً بنـومٍ   سعيـدٌ مَـن يبيـتُ قَـريرَ عَيْـن
فإما حِميَرٌ غدَرتْ وخانَت   فمعذرةُ الإلَه لِذي رُعَينْ[(١٠)]

[(١١)] ثمّ استودعها عمراً . فلما قَتَل عمرٌو أخاه حسان ورجع إلى اليمن ، مُنع منه النوم ، وسُلّط عليه السهر ، فسأل الأطباء والحُزاة[(١٢)] من الكهّان والعرّافين عما به ، فقيل له : إنه والله ما قَتلَ رجلٌ أخاه قط

---

(١) الروض الأنف (١/ ٣٦) . وفي ط : (وذكر) .
(٢) زيادة من ط ، والروض الأنف .
(٣) في ط : مكتوب بالذهب ، وفيه .
(٤) زيادة من ط موافقة لنص السهيلي .
(٥) السيرة (١/ ٢٨) .
(٦) زيادة من ب ، وط . موافقة لنص السيرة .
(٧) في ط : كانوا . وكذلك في السيرة .
(٨) زاد في ب : قال ابن هشام : بالبحرين فيما ذكر لي بعض أهل العلم . وهو كذلك في شرح السيرة .
(٩) كذا في ب ، وط . وهو موافق لنص السيرة ، والذي في أ : . . وأهليهم ، فاتفقوا مع أخيه عمرو على أن يقتله ويملكون عليهم ، وأصفقوا على ذلك .
(١٠) تاريخ الطبري (٢/ ١١٥)، ومجمع الأمثال (١/ ٧٣) . وهذه الأبيات أصبحت تضرب لمن غمط النعمة وكره العافية .
(١١) زاد في ب : كلاماً هو من تمام نص السيرة الذي تصرف به قليلاً المؤلف في نسخة أ وط .
(١٢) في ط : والحذّاق . وهو أصوب .

أو ذا رَحم بغياً[١] إلا ذهب نومه وسُلِّط عليه السهر ، فعند ذلك جعل يقتل كل[٢] من أمره بقتل أخيه[٣] ، فلما خلص إلى ذي رُعين قال له : إن لي عندك براءة . قال : وما هي ؟ قال : الكتاب الذي دفعتُه إليك . فأخرجه فإذا فيه البيتان ، فتركه ورأى أنه قد نصحه . وهلك عمرو ، فمرج أمرُ حمير عند ذلك وتفرَّقوا .

***

وثُوْبُ لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة . قال ابن إسحاق[٤] : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له : لَخْنِيْعَة ينوف ذو شَناتر ، فَقَتَل خيارَهم ، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم[٥] ، وكان مع ذلك امرأً فاسقاً يعمل عَمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مَشْرَبة[٦] له قد صنعها لذلك لئلا يَملِك بعد ذلك ، ثم يَطْلعُ من مشربته تلك إلى حرسه ومن حَضَر من جنده قد[٧] أخذ مِسواكاً فجعله في فِيه ليُعْلِمهم أنه قد فرغ منه . حتى بعث إلى زُرْعة ذي نواس بن تُبان أسعد أخي حسن وكان صبياً صغيراً حين قُتل أخوه حسان ، ثمّ شبَّ غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئةٍ[٨] وعقلٍ ، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه ، فأخذ سكِّيناً حديداً[٩] لطيفاً ، فخبّأه بين قدميه[١٠] ونعله ، ثمّ أتاه ، فلما خلا معه وَثَب إليه ، فواثبه ذو نواس فَوَجَأَه حتى قَتَله ، ثُمّ حزَّ رأسه فوضعه في الكُوَّة التي كان يُشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ، ثمّ خرج على الناس فقالوا له : ذا نواس أَرُطَبٌ أَمْ يَباس ؟ فقال : سَلْ نحماس[١١]

---

(١) زاد في ب : على مثل ما قتلت أخاك عليه . وهو موافق لنص السيرة .

(٢) زيادة من ب وط . وكذلك في السيرة .

(٣) زاد في ب : من أشراف اليمن . وكذلك في السيرة .

(٤) السيرة (١/ ٢٩) . وقد سقط العنوان ومطلع هذا المقطع من ب تاريخ الطبري (٢/ ١١٧) .

(٥) زاد في ب : فقال قائل من حمير شعراً : [من الطويل]

تقتل أبناءها وتنفي سراتها	وتبني بأيديها لها الذل حمير
تدمر دنياها بطيش حلومها	وما ضيعت من دينها فهو أكثر
كذاك القرون قبل ذاك بظلمها	وإسرافها تأتي الشرورَ فتخسر

والنص هو من تمام نص السيرة .

(٦) المشربة : الغرفة المرتفعة .

(٧) في ب : وقد .

(٨) كذا في ط ، والسيرة ، وهو موافق للمعنى ، وفي أ وب : هيبة .

(٩) في ط : جديداً وهو تصحيف .

(١٠) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب ، وموافق لنص السيرة . وفي أ وط : قدميه .

(١١) في السيرة : نخماس وأشار السهيلي إلى أنه يمكن أن يكون هو الصواب . وفيه أنه النحماس في لغتهم : الرأس . =

اسْترطُبان ذو نواس ، استرطبان لا باس ، فنظروا إلى الكُوَّة فإذا رأس لَخنيعة مقطوع ، فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرُك إذ أَرَحْتنا من هذا الخبيث ، فملّكوه عليهم ، واجتمعت[(١)] عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير ، وتَسَمَّى يوسف ، فأقام في مُلكه زماناً .
وبنجران[(٢)] بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل ، أهل[(٣)] فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأسٌ يقال له : عبد الله بن الثامر[(٤)] .

ثمّ ذكر ابن إسحاق[(٥)] سبب دخول أهل نجران في دين النصارى ، وأن ذلك كان على يدي رَجُل يقال له : فَيْمِيُون كان من عُبّاد النصارى بأطراف الشام ، وكان مجاب الدعوة ، وصَحِبه رجلٌ يقال له : صالح ، فكانا[(٦)] يتعبَّدان يوم الأحد ، ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء ، وكان يدعو للمرضى والزَّمْنَى[(٧)] وأهلِ العاهات فيشفون ، ثمّ استأسره وصاحِبَه بعضُ الأعراب ، فباعوهما بنجران ، فكان الذي اشترى فَيْميون يراه إذا قام في مُصَلاّه بالبيت الذي هو فيه في الليل يمتلىء عليه البيت نوراً ، فأعجبه ذلك من أمره ، وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلِّقون عليها حُليَّ نسائهم ويعكفون عندها ، فقال فيميون لسّيده : أرأيتَ إن دعوتُ الله على هذه الشجرة فَهَلَكَتْ أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم . فجمع له أهل نجران ، وقام فيميون إلى مُصَلاّه ، فدعا الله عليها ، فأرسل الله عليها قاصفاً[(٨)] فجعفها من أصلها ورماها إلى الأرض ، فاتَّبعه أهل نجران على دين النصرانية ، وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت[(٩)] على أهل دينهم بكل أرض ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب .

= وأورد الأصفهاني الخبر بشكل يوضح المراد من هذه العبارة ، وفيه أن الحراس يصيحون بالخارج : أرطب أم يباس ، فلما خرج ذو نواس صاحوا : زرعة يا ذا نواس ، أرطب أم يباس؟ فقال : ستعلم الأحراس ، أاست ذي نواس رطب أم يباس (الأغاني ـ ثقافة ٢٢/ ٣٤٦) .

(١) كذا في ط . وفي أ : وأجمعت . وفي ب : فملكوه واجتمعت .
(٢) هذا من تتمة كلام ابن إسحاق .
(٣) كذا في ب وط ، والسيرة . وفي أ : فيهم فضل .
(٤) زاد في ب : وكان موقع أهل ذلك الدين بنجران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان وسائر العرب كلها أهل أوثان يعبدونها ، وأن رجلاً من بقايا أهل ذلك الدين يقال له فيمون . وهذه تتمة كلام ابن إسحاق ، وآخره : يقال له فيميون وقع بين أظهرهم فحملهم عليه ، فدانوا به . . تاريخ الطبري (٢/ ١٢١) .
(٥) السيرة (١/ ٣١) . وما بعدها .
(٦) في ط : فكان ، وهو خطأ .
(٧) الزمنى : الذين يطول مرضهم ولا يشفون منه .
(٨) زاد في ب : ريحاً قاصفاً . والجعف : القلع .
(٩) في ب : حلت .

ثمّ ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر[١] حين تنصَّر على يدي فيميون ، وكيف قتله وأصحابه ذو نواس ، وخَدَّ لهم الأخدود ـ وقال ابن هشام : وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق[٢] ـ وأجّج فيه النار وحرقهم بها ، وقتل آخرين حتى قَتَل قريباً من عشرين ألفاً ، كما قدّمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل ، وكما هو مستقصى في تفسير سورة ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ من كتابنا « التفسير »[٣] ولله الحمد .

***

ذكر خروج المُلْك باليمن من حِميَر وصيرورته إلى الحبشة السودان[٤]

كما أخبر بذلك شِقٌّ وسَطيح الكاهنان . وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجلٌ واحدٌ[٥] يقال له دوس ذو ثعلبان على فَرَس له ، فَسَلك الرمْل[٦] ، فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ صاحب الروم[٧] ، فاستنصره على ذي نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصراني على دينهم . فقال له : بعدتِ بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك . فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره . فقدِم دَوْس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمَّر عليهم رجلاً منهم يقال له : أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم ، فركب أرياطُ البحرَ حتى نزل ساحلَ[٨] اليمن ، ومعه دوس ، وسار إليه ذو نواس في حِمْير ومَن أطاعه من قبائل اليمن . فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر ، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضَحْضاح[٩] البحر حتى أفضى به إلى غَمْرِه فأدخله فيه[١٠] ، فكان آخر العهد به ، ودخل أرياط اليمن فملكها[١١] .

---

(١) السيرة (١/ ٣٤) .
(٢) السيرة (١/ ٣٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) .
(٤) في ط : خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة السودان .
(٥) تفصيل الخبر في السيرة (١/ ٣٧) ، وتاريخ الطبري (٢/ ١٢٥) .
(٦) كذا في ب وط ، وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : الرجل .
(٧) في ط : ملك . وكذلك في السيرة .
(٨) في ط : بساحل .
(٩) الضحضاح من الماء : الذي يظهر منه القعر .
(١٠) كذا في ب ، وهو موافق لنص السيرة ، وأقرب إلى المعنى . وفي أ : غمرة فأدخله فيها . . وفي ط : غمره . . والغَمْر : الماء الكثير .
(١١) في ب وط : وملكها .

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا[١] أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة ، وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ، ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة ، وخوف الملالة . وبالله المستعان .

* * *

ذكر خروج أبرهة الأشرم على أرياط
واختلافهما ، واقتتالهما ، وصيرورة ملك اليمن إلى أبرهة بعد قتله أرياط[٢]

قال ابن إسحاق[٣] : فأقام أرياط بأرض اليمن سنين[٤] في سلطانه ذلك ، ثمّ نازعه أبرهة حتى تفرقت الحبشة بينهما[٥] . فانحاز إلى كل منهما طائفةٌ ، ثم[٦] سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لا تصنع[٧] بأن تلقى الحبشةُ بعضُها ببعض حتى تفنيها شيئاً شيئاً[٨] ، فابرُزْ لي وأبرُزُ لك ، فأيّنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط : أنصفتَ . فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحِيماً[٩] وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حَربةٌ له ، وخلف أبرهة غلام يقال له : عَتَوْدَة يمنع ظهرَه ، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخَه ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه[١٠] وشفته ، فبذلك سُمي أبرهة الأشرم . وحمل عَتَودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى[١١] أبرهة . فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وَوَدَى[١٢] أبرهةُ أرياطَ . فلما بلغ ذلك النجاشي [ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن][١٣] غضب غضباً شديداً على أبرهة ، وقال : عَدَا عَلَى أميري فقتله بغير أمري ، ثمّ حَلَف

---

(١) السيرة (١/ ٣٨) وما بعدها .
(٢) نقص العنوان في ط عما هاهنا ، وهو ثمة : خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما . قال ابن إسحاق . .
(٣) السيرة (١/ ٤١) . وانظر تاريخ الطبري (٢/ ١٢٨) .
(٤) كذا في ب وط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : سنتين .
(٥) في ط : عليهما . وكذلك في السيرة .
(٦) في ب : إلى كل واحد منهما أناس منهم ثم .
(٧) في ط : لن تضيع .
(٨) في ب : بشيء .
(٩) اللحيم : الكثير لحم الجسد .
(١٠) في ب : أنفه وعينه .
(١١) في أ : على .
(١٢) في ب : ووارى . ووداه : دفع ديته .
(١٣) سقطت من ب .

أن[١] لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزَّ ناصيته ، فحلق أبرهة رأسَه وملأ جُراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ، ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدُك ، فاختلفنا في أمرك ، وكلٌّ طاعتُه لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه . وقد حَلَقْتُ رأسي كله حين بلغني قسمُ الملك ، وبعثت إليه بجراب تراب[٢] من أرضي ليضعه تحت قدميه[٣] فيبرَّ قسمه فيّ . فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري ، فأقام أبرهة باليمن[٤] .

***

ذكر سَبب قصد أبرهة بالفيل مكّة ليخرب الكعبة فأهلكه الله عاجلاً غير آجل ، كما قال سبحانه وتعالى[٥] :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ [الفيل : ١ ـ ٥] .

قيل : أول من ذلَّل الفِيَلة إفريدون بن أثفيان[٦] الذي قَتَل الضحّاك ، قاله الطبري[٧] . وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخَّر الخيل وركبها فطهمورث[٨] وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا . ويقال : إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب . والله تعالى أعلم .

ويقال : إن الفيل مع عظمة خلقه يَفْرَق[٩] من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال

(١) ليست في ط .
(٢) كذا في ب وط . وهو موافق للسيرة . وفي أ : من تراب اليمن من أرضي .
(٣) في ط : قدمه .
(٤) زاد في ب : وحكى السهيلي أن النجاشي بعث أرياط بعد أبرهة شفقاً عليه ينصره في طاعته ، فخالفه أبرهة وامتنع أن يسلم اليمن إليه ، فاقتتلا ، فلما قتل عتودة أرياط قال له أبرهة : تَمَنَّ عليَّ . قال : أريد أن لا تُزفَّ امرأة بكر في اليمن أو غيرها إلا جيء بها إلي قبله فأقضي وطري منها ، ثم أردها إليه . فأجابه إلى ذلك . فلما طال على أهل اليمن ذلك قتلوا عتودة غيلة ، فلم يعنفهم أبرهة ، ولم يطلبهم بدمه .
(٥) الذي في ط : سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة . ألم تر . .
(٦) ليست في ب .
(٧) تاريخه (١/ ٢١٤) ، وخبر قتل الضحاك ثمة .
(٨) تاريخ الطبري (١/ ١٧٢) .
(٩) في ب : عظم خلقه يهرب . والفَرَق : الخوف والفزع .

الهنود بإحضار سنانير[١] إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

قال ابن إسحاق[٢] : ثمّ إن أبرهة بنى القُلَّيس بصنعاء ، كنيسةً[٣] لم يُرَ مثلُها في زمانها بشيء من الأرض ، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لكَ كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجَّ العرب .

فذكر السهيلي[٤] أن أبرهة استذلَّ أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة ، وسخَّرهم فيها أنواعاً من السّخر . وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة . وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رُخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة ، وركّب فيها صلباناً من ذهب وفضة . وجعل فيها منابر من عاج وأبنُوس ، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً ، واتساعها باهراً . فلما هلك أبرهة بعد ذلك وتفرقت[٥] الحبشة كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجنُّ بسوء . وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كُعَيْب وامرأته ـ وكان طول كلّ منهما ستين ذراعاً . فتركها أهل اليمن على حالها . فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس ، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضها حجراً حجراً ، واندثرت إلى يومك هذا[٦] .

قال ابن إسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي ، غضب رجلٌ من النَّسَأة[٧] من كنانة الذين ينسؤون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ . . . الآية [التوبة : ٣٧] قال ابن إسحاق : فخرج الكناني حتى أتى القُلَّيس ، فقعد فيه ، أي أَحْدث حيث لا يراه أحدٌ ، ثم خرج فلحق بأرضه . فأُخْبِر أبرهةُ بذلك . فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجّه العرب بمكة لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا ، فغضب ، فجاء ، فقعد فيه . أي إنه ليس لذلك أهل . فغضب أبرهة عند ذلك ، وحلف ليسيرنَّ إلى البيت حتى يهدمه . ثمّ أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وفظعُوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هَدْم الكعبة بيت الله

---

(١) السنانير : مفردها سنور .
(٢) السيرة (١/ ٤٣) .
(٣) في ب : فبنى الكنيسة .
(٤) في ب : وقد ذكر والخبر في الروض الأنف (١/ ٦٣) .
(٥) في ط : بعد ذلك أبرهة . . . وفي ب : وتمزقت الحبشة .
(٦) في ط : ودرست آثارها إلى يومنا هذا .
(٧) قال ابن إسحاق : النسأة : الذين كانوا ينسؤون ـ أي يؤخرون ـ الشهور على العرب في الجاهلية ، فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ، ليواطئوا عدّة ما حرم الله ، ويؤخرون ذلك الشهر . السيرة (١/ ٤٣) .

الحرام . فخرج إليه رجلٌ وكان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نَفْر ، فدعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام[١] وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عَرَض له فقاتله . فَهُزِم ذو نَفْر وأصحابه ، وأُخِذَ له ذو نفر فَأُتي به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً ، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفيل بن حبيب الخثْعمي في قبيلَتَي خَثْعم ، وهما شَهْران وناهس ومن تَبِعه من قبائل العرب ، فقاتله ، فهزمه أبرهة ، وأُخِذَ له نُفيلٍ أسيراً ، فأُتي به ، فلما هَمَّ بقتله قال له نفيل : أيها الملك[٢] لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة . فخلّى سبيله وخرج به معه يدله . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس لك عندنا[٣] خلاف . وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف ، كانوا يعظّمونه نحوَ تعظيم الكعبة . قال فبعثوا معه أَبارِغال يدلُّه على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبورغال حتى أنزله بالمغمِّس[٤] . فلما أنزله به مات أبورغال هنالك ، فَرَجَمَتْ قبرَه العربُ ، فهو القبر الذي يَرْجُم الناسُ بالمغمّس .

وقد تقدّم في قصّة ثمود أن أبارغال كان رجُلاً منهم ، وكان يمتنع بالحرم ، فلما خرج منه أصابه حَجَرٌ فقتله ، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « وآية ذلك أنه دُفن معه غصنان من ذهب »[٥] ، فحفروا فوجدوهما . قال : وهو أبو ثقيف .

قلت : والجمع بين هذا وبين ما ذَكَر ابنُ إسحاق أن أبارغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ، رجمته الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله أعلم . وقد قال جرير[٦] : [من الوافر]

إذا ماتَ الفَرَزْدَقُ فارْجُموه كرجمِكُمْ لقبرِ أبي رِغَالِ

الظاهر أنه الثاني .

---

(١) زيادة من ب ، وط . موافقة لنص السيرة . وفي ط : وما يريده .
(٢) زيادة من ط ، موافقة لنص السيرة .
(٣) في ب ، وط : ليس عندنا لك .
(٤) في ب : المغمس . وهو موضع بطريق الطائف إلى مكة .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه : (٣٠٨٨) ، في الخراج والإمارة ، باب نبش القبور العادية وإسناده ضعيف .
(٦) ليس في ديوانه ، بتحقيق الدكتور نعمان طه .

قال ابن إسحاق : فلما نزل أبرهة المغمِّس بَعَث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال أهل تِهامة من قُريش وغيرهم . وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قُريش وسيِّدها ـ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم[١] بقتاله . ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبَعث أبرهة حُناطَة الحميري إلى مكة ، وقال له : سَلْ عن سيّد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثمّ قل له : إن الملك يقول إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه[٢] بحرب ، فلا حاجة[٣] لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فائتني به . فلما دخل حُناطة مكّة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم . فجاءه ، فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يمنعه منه فهو حَرَمُه وبيته[٤] ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه . فقال له[٥] حُنَاطة : فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر ، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه ، فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غَناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غُدوّاً أو عشيّاً ؟ ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أُنَيساً سائسَ الفيل صديق لي ، فسأرسل إليه فأوصيه[٦] بك وأعظم عليه[٧] حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ، يُطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير[٨] ، فاستأذِنْ له عليه وانفعْه عنده بما استطعت . قال : أَفْعَلُ . فكلّم أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو الذي يطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، فائذن له عليك فليكلمك في حاجته . قال[٩] : فأذن له أبرهة . وكان عبد المطلب أوسَم الناس وأعظمهم

---

(١) في ب : ومن كان من أكابر الحرم .

(٢) في ط : لنا دونه .

(٣) في ب : له .

(٤) في ب : بيته وحرمه .

(٥) ليست في ب .

(٦) في ب وط : وأوصيه .

(٧) زيادة من ب ، وط ، موافقة لنص السيرة .

(٨) في عبارة ب هاهنا بعض التصرف مما يخالف الأصل ونص السيرة ، ولا جديد في ذلك .

(٩) ليست في ط . وفيه : فأذن له أبرهة قال وكان . . .

وأجملهم[١] ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه عن[٢] أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه[٣] على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره[٤] فجلس على بساطه وأجلسه إلى[٥] جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك[٦] ؟ فقال له ذلك الترجمان[٧] ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد[٨] كنتَ أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني . أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه[٩] لا تكلّمني فيه !؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربّاً سيمنعه . فقال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك[١٠] . فردّ على عبد المطلب إبلَه .

قال ابن إسحاق : ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يَعْمَر بن نُفاثة بن عدي بن الدِّيل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، سيدُ[١١] بني بكر ، وخويلد بن واثلة سيدُ[١٢] هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم ذلك[١٣] ، فالله أعلم أكان ذلك أم لا[١٤] .

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّز في رؤوس الجبال[١٥] . ثمّ قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش

---

(١) في ب : وأجملهم وأعظمهم .
(٢) زيادة من ب ، وط . والسيرة .
(٣) في ب : يجلس على .
(٤) قوله : منزل . . سريره . ليس في ب .
(٥) في ط : وأجلسه معه عليه إلى . . وكذلك في السيرة .
(٦) في ب : ما حاجتك .
(٧) زيادة من ب ، وط . والسيرة .
(٨) في ب : قد . وكذلك في السيرة .
(٩) في ب : لهدمه . وكذلك في السيرة .
(١٠) عبارة ب بعد هذا : قال : وكان فيما زعم أهل العلم قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة ـ حين بعث إليه حناطة ـ يعمر بن نفاثة . . وكذلك في السيرة .
(١١) في ب : وهو يومئذ سيد . . وكذلك في السيرة .
(١٢) في ب : الهذلي ، وهو يومئذ . . وكذلك في السيرة .
(١٣) ليست في ب . وكذلك في السيرة .
(١٤) زاد في ب : فرد أبرهة الإبل على عبد المطلب التي أصاب له . ومثله في السيرة .
(١٥) في ب : في شَعَف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرة الجيش . ثم . . . . ومثله في السيرة . والتحرّز : التمنع . وشعف الجبال : رؤوسها . والشعاب : المواضع الخفية بين الجبال . ومعرة الجيش : شدته .

يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقةباب[(١)] الكعبة ـ:[م الكامل]

لا هُـــمَّ إنّ العبـــدَ يمـ ـنع رَحْلَه فامنَعْ حِلالك[(٢)]

لا يَغلِبَـــنَّ صَليبُهـــم وَمِحَالُهم غَدْواً مِحالَك[(٣)]

قال ابن هشام : هذا ما صح عندي[(٤)] له منها .

وقال ابن إسحاق[(٥)] : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال يتحرَّزون[(٦)] فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ . فلما[(٧)] أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكة ، وهيأ فِيلَه ، وعبّى جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، فلما[(٨)] وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال : ابرُك محمود وارجع راشداً من حيث جئت[(٩)] ، فإنك في بلد الله الحرام ، وأرسل[(١٠)] أذنه . فبرك الفيل .

قال السهيلي[(١١)] : أي سقط إلى الأرض ، وليس من شأن الفيلة أن تبرك . وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير ، فالله أعلم .

وخرج نُفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه

(١) كذا في ب ، وط ، وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : بباب .
(٢) في ط : رحالك . والحِلال : جماعة البيوت ، ومتاع البيت .
(٣) غدواً : أي غداً .
وزاد في ط بيتاً آخر : [من الرجز]

إن كنـــت تـــاركهـــم وقبـ ـلتنا فـأمـر مـا بـدا لـكْ

وهو في السيرة زيادة عن الواقدي .
(٤) ليست في ط . ولا في نص السيرة .
(٥) زاد في ب : قال ابن إسحاق : وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي :

لا هـم أخـز الأسـود بـن مقصـودْ الآخـذَ الهجمـة فيهـا التقليـدْ
بيـــن حـــراء وثبيـــر فـــالبيـــدْ يحبسهـا وهـي أولات التطـريـدْ
فضمهـــا إلـــى طمـــاطـــم ســـود أخفـره يـا رب وأنـت محمـود

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها . . وهذا من تمام نص السيرة .
(٦) في ب : فتحرزوا .
(٧) زاد في ب : فاعل بمكة إذا دخلها ، فلما . . . وكذلك في السيرة .
(٨) في ب : وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما . . وكذلك في السيرة .
(٩) في ط : أتيت .
(١٠) في ب : ثم أرسل . وكذلك في السيرة .
(١١) قول السهيلي سقط من ب . وهو في الروض (١/ ٧١) .

بالطَّبَرْزين[١] ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجنهم[٢] في مَرَاقّه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى . فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجّهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان[٣] ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحِمَّص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هَلَك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا . ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل[٤] في ذلك : [من الوافر]

ألا حُيّيتِ عنّا يا رُدَينا ... نَعِمناكُم معَ الإصباحِ عَيْنا

رُدَيْنةُ لو تَرينَ ولا تَرَيْنه ... لَدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأينا[٥]

إذاً لعذَرْتِني وحَمِدْتِ أمري ... ولَم تأسَيْ علَى ما فاتَ بَيْنا

حَمِدتُ الله إذْ أبصَرْتُ طَيراً ... وخِفْتُ حِجارةً تُلقَى علَينا[٦]

فكلُّ القَومِ يسألُ عن نُفَيلٍ ... كأنّ علَيّ للحُبْشانِ دَينا[٧]

قال ابن إسحاق[٨] : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون [بكل مَهْلَك][٩] على كل مَنْهل . وأُصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنْملة [أُنملة][١٠] ، كلما سقطت أُنملة أتبعتها منه مِدَّة تَمُثُّ[١١] قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدَع صدرُه

---

(١) الطبرزين : آلة من حديد . والطبر ، بالفارسية : الفأس . وفي المعرب للجواليقي (٢٢٨) : والطبرزين : فارسي . وتفسيره : فأس السرج . لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به .

(٢) في ب ، وط : محاجن لهم . ومثله في السيرة . والمحجن : عصا معوجة ، وقد يجعل في طرفها حديد . ومراقّه : أسفل بطنه . وبزغوه : أدموه .

(٣) الخطاطيف : جمع خُطّاف ، وهو طائر أسود . والبلسان : لعلها الزرازير .

(٤) في ب ، زيادة : فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته : [من الرجز]

أيـن المفـر والإلـه الطـالـب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

قال ابن هشام : قوله : ليس الغالب ، عن غير ابن إسحاق . وهذا من تمام نص السيرة .

(٥) في ب ، وط : لو رأيت . وكذلك في السيرة . وفي ط : ولا . . ومثله في السيرة . والمحصب : موضع فيما بين مكة ومنى .

(٦) في ب : أن أبصرت . وفي أ : ترمى . وأثبت ما في ب ، وط . لموافقته ما في السيرة .

(٧) في ط : وكل . وكذلك في السيرة .

(٨) ليست في ب .

(٩) زيادة من ط ، توافق نص السيرة .

(١٠) زيادة من ب ، وط ، والسيرة . وقوله : يسقط أنملة أنملة ، أي ينتثر جسمه . الروض الأنف (١ / ٧٤) .

(١١) تمث : ترشح . والمدة : ما يجتمع في الجرح من القيح .

[عن قلبه][١] فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق[٢] : حدثني يعقوب بن عُتبة أنه حُدّث أن أول ما رؤيت الحصْبة والجُدَري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعُشَر[٣] ذلك العام .

قال ابن إسحاق : فلما بعثَ اللهُ محمداً ﷺ كان مما يعد[٤] الله على قريش من[٥] نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ ـ ٥] .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها[٦] . وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا « التفسير »[٧] بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى . وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام : الأبابيل : الجماعات ، ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه[٨] . قال وأما السِّجّيل ، فأخبرني يونس النحوي وأبو عُبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وزعم بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة[٩] واحدة ، وأنهما[١٠] (سَنْجُ) و (جِل)[١١] فالسنج : الحجر ، والجل : الطين . يقول الحجارة[١٢] من هذين الجنسين الحجر والطين . قال : والعَصْفُ : ورق الزرع الذي لم يقصَّب .

وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبّيل[١٣] . وقال كثيرون من السلف : الأبابيل : الفِرق من الطير التي يتبع بعضها بعضاً من هاهنا وهاهنا .

---

(١) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٢) قول ابن إسحاق هذا إلى آخر الآية سقط من ب .
(٣) العشر : شجر مر له صمغ ولبن . من فصيلة الحنظل والحرمل .
(٤) في ب ، وط : يعدد .
(٥) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٦) السيرة (١/ ٥٥) .
(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨) ، وما بعدها .
(٨) كذا في ط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ وب : ولم تتكلم العرب بواحدة .
(٩) ليست في ب .
(١٠) في ط : وأنها .
(١١) في المعرّب : قال ابن قتيبة : السجيل بالفارسية : (سنك) و(كل) أي : حجارة وطين . (١٨١) .
(١٢) زيادة من ط . والسيرة .
(١٣) أورد الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩١) وما بعدها معظم الآراء التي جاءت في تفسير هذه الكلمة .

وعن ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكُفٌّ كأكفِّ الكلاب .

وعن عكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع ، خرجت عليهم من البحر ، وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير : كانت سُوداً بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة .

وعن ابن عباس : كانت أشكالها كعنقاء مُغرب[1] .

وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ، ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل : كانت صغاراً . والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة[2] ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن عُبيد بن عُمير قال : لما أراد الله أن يُهلك أصحابَ الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزّعة[3] ، حجرين في رجليه وحجراً في منقاره ، قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم . ثم صاحَت وألْقت ما في رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلّا خرج من دبره . ولا يقع على شيء من جسده إلّا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله رِيحاً شديدةً فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدّم أن ابن إسحاق قال : وليس كلّهم أصابته الحجارة ، يعني بل رَجَع منهم راجعون إلى اليمن حتى أَخْبروا أهلَهم بما حلّ بقومهم من النّكال .

وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أُنملة أنملة ، فلما وصل إلى اليمن انصَدَع صدرُه فمات ، لعنه الله[4] .

وروى ابن إسحاق قال : حدّثني عبد الله بن أبي بكر ، عن عمْرة[5] ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعْمييْن مُقْعَدَين يستطعمان .

وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أُنيسا ، فأما قائده فلم يُسم . والله أعلم .

---

(١) عنقاء مغرب ، يضرب بها المثل في الشيء الذي يُسمَع به ولا يُرى ، يقال : (أعز من عنقاء مغرب) . ثمار القلوب (٤٥٠) .

(٢) في أ وط : محمد بن عبد الله بن أبي شيبة . وأثبت ما في ب ، فهو الصواب ومثله في تفسير المؤلف (٤/ ٥٥١) وأبو زرعة روى عن عبد الله بن محمد ، وعبد الله أخذ عن أبي معاوية . سير أعلام النبلاء (١١/ ١٢٢ ـ ١٢٣) .

(٣) سقطت من ط . والمجزعة : المقطعة .

(٤) ذكره ابن إسحاق في السيرة (١/ ٥٤) .

(٥) كذا في ب ، وهو موافق لنص السيرة ، وهو الصواب . وفي أ . وط : سمرة وهو تحريف . وعمرة هي ابنة عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، كما في السيرة (١/ ٥٧) .

وذكر النقّاش[١] في « تفسيره » أن السيل احتمل جُثَثَهم فألقاها في البحر .

قال السهيلي[٢] : وكانت قصة الفيل في المحرم من[٣] سنة ست وثمانين وثمانمئة[٤] من تاريخ[٥] ذي القرنين .

قلت : وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل : كان قبل مولده بسنين ، كما سنذكر إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق[٦] ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نَصَرَ اللهُ فيها بيتَه الحرام الذي يُريد أن يشرّفه ويعظّمه ويطهّره ويوقّره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة ، بل عماد دينه ، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهّرة . ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نُصْرَةً لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة ، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها[٧] من مشركي قريش ، وإنما كان النصر للبيت الحرام ، وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ .

فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي[٨] : [من الكامل]

فَتَنَكّلوا عن بطنِ مكّة إنّها ... كانتْ قديماً لا يُرام حَريمُها[٩]
لم تُخلَق الشِّعرى ليالِيَ حُرّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنامِ يرومُها
سائلْ أميرَ الحُبْشِ عنها ما رأى ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها[١٠]
ستّون ألفاً لم يَؤوبوا أرضَهم ... بلْ لم يعشْ بعدَ الإيابِ سَقيمُها
كانتْ بها عاد وجُرْهُم قبلَهم ... واللهُ من فوقِ العبادِ يُقيمها[١١]

---

(١) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي ، أبو بكر ، النقاش ، علاّمة ، مفسر ، شيخ القراء . له عدة كتب . ولد سنة (٢٦٦هـ) وتوفي سنة (٣٥١هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٧٣) .
(٢) الروض الأنف (١/ ٧٢) عن تفسير النقاش .
(٣) في ط : أول المحرم وهو موافق لنص السهيلي .
(٤) في الروض الأنف : سنة اثنتين وثمانين .
(٥) زيادة من ط ، توافق نص السهيلي .
(٦) السيرة (١/ ٥٧) .
(٧) في ب : أقرب حالاً .
(٨) أحد شعراء الدعوة الإسلامية . توفي سنة (١٥هـ) . والأبيات في ديوانه (٤٩) .
(٩) في ط ، وديوان ابن الزبعرى : تنكلوا وعلى هذه الرواية يصاب البيت بالوقص .
(١٠) في الديوان ، والسيرة : الجيش . . . ولسوف .
(١١) سقط هذا البيت من ب .

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني[١] : [من المتقارب]

ومـنْ صُنعهِ يـومَ فيـلِ الحبُو شِ إذْ كلّمـا بعثُـوه رَزَمْ[٢]
محـاجنهـم تحـتَ أقـرابـه وقـدْ شَرَمـوا أنفَه فانخـرَمْ[٣]
وقـد جَعلـوا سوْطَه مِغْـولاً إذا يَمّمـوه قَفـاهُ كُلـمْ[٤]
فـولّـى وأدبَـرَ أدراجَـه وقدْ باءَ بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً فلفّهـمُ مثـلَ لـفّ القُـزُمْ[٥]
تحثّ على الصّبر أحبارُهم وقـد ثـأَجـوا كثُؤاجِ الغَنَـمْ[٦]

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة[٧] بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي . قال ابن هشام : ويروي لابنه أمية[٨] ابن أبي الصلت : [من الخفيف]

إن آيـاتِ ربّنـا بـاقيـاتٌ ما يُمارِي فيهنّ إلا الكَفُور[٩]
خلَـقَ الليـلَ والنهـارَ فكـلٌّ مستبيـنٌ حسـابُـهُ مقـدور
ثـم يجلـو النهـارَ ربٌّ رحيـم بِمَهَـاةٍ شُعـاعُهـا مَنشـورُ[١٠]
حَبسَ الفيلَ بالمغمَّس حتّى صَـارَ يحبـو كـأنـه مَعْقُـورُ[١١]
لازماً حَلْقَةَ الجِرانِ كما قُطْـ ـطِرَ من ظهرِ كَبْكَبٍ مَحْدُورُ[١٢]

---

(١) أبو قيس صيفي بن عامر الأسلت شاعر جاهلي حكيم ، أدرك النبي ولقيه وتريث في إعلان إسلامه ، ومات قبل أن يسلم في السنة الأولى للهجرة .
والأبيات في ديوانه (٩٠) بتحقيق د . حسن محمد باجودة .
وقال ابن هشام : والقصيدة أيضاً تروى لأمية بن أبي الصلت . السيرة (١/ ٥٩) .
والأبيات في ديوان أمية (٤٩٢) بتحقيق أستاذنا د . عبد الحفيظ السطلي .

(٢) رزم البعير والرجل : إذا كان لا يقدر على النهوض إعياءً أو هزالاً .

(٣) المحاجن : العصي المعوجة كالصولجان . والأقراب : مفردها قُرْب ، وهو الخاصرة .

(٤) المغول : سيف دقيق غمده كالسوط . وكُلِم : جُرح .

(٥) في أ ، ب يلفهم وأثبت رواية ط ، والديوان والسيرة ، فهي أولى وأقرب للمعنى . والحاصب : ريح شديدة تحمل التراب . والقُزُم : مفردها قَزَم ، وهو اللئيم الدنيء الصغير الجثة .

(٦) في ب ، وط ، والديوان : تحض . والثؤاج : صياح الغنم .

(٧) ليست في السيرة . وفي اسم أبي الصلت خلاف . ديوان أمية (٣٣) .

(٨) في ط : ويروي لأمية : والأبيات في ديوان أمية (٣٩١) وتخريجها ثمة .

(٩) في ط ، والسيرة ، والديوان : ثاقبات .

(١٠) المهاة : الشمس .

(١١) المغمس : موضع في طرف الحرم . والعقر : أن تقطع إحدى قوائم البعير قبل نحره كيلا يشرد عند النحر .

(١٢) في ط : قد من صخر . والجِران : باطن العنق . وقُطِّر : أُلقي من علو على قطره، أي جانبه . وكبكب : جبل بمكة خلف عرفات .

حـولَـه مـن ملـوك كِنـدة أبطـا ... لٌ ملاويثُ في الحروب صُقُور[١]
خَلَّفـوه ثـم ابـذَعَـرُّوا جَميعـاً ... كُلُّهـم عَظْـمُ سـاقِـهِ مَكْسـور[٢]
كـلُّ دِيـنٍ يـومَ القيـامـة عنـدَ اللّـ ... ـــه إلّا ديـــنَ الحنيفـــةِ بُــورُ

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت[٣] أيضاً : [من الطويل]

فقُـومـوا فَصَلّـوا ربَّكـم وتمسحـوا ... بأركانِ هذا البيت بين الأخاشبِ[٤]
فعِنـــدكـــمُ منـــهُ بـــلاءٌ مُصَـــدَّق ... غـداة أبـي يكسـوم هـادي الكتـائـب
كتيبتُـه بـالسهـلِ تَمشـي ورَجْلُـه ... على القاذفاتِ في رؤوسِ المناقبِ[٥]
فلما أتاكم نصرُ ذي العرش ردَّهم ... جنودُ المليكِ بين سَافٍ وحاصبِ[٦]
فـولَّـوا سِـراعـاً هـاربيـن ولـم يـؤب ... إلى أهله مِلحُبْش غيرُ عصائبِ[٧]

ومن ذلك قول عبد[٨] الله بن قيس الرُّقَيّات في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء : [من الخفيف]

كـادَهُ الأشْـرَم الـذي جـاءَ بـالفيـ ... ـــلِ فَـولّـى وجَيْشُـه مَهْـزُومُ[٩]
واستهلـت عَلَيهـمُ الطَّيْـرُ بـالجنـ ... ــدَلِ حتّـى كـأنّـه مَـرْجُـومُ[١٠]
ذاكَ مــن يَغْـزُهُ مــن النــاسِ يَـرْ ... جع وهو فَلٌّ من الجيوشِ ذميمُ[١١]

قال ابن إسحاق[١٢] وغيره : فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشةَ بعده ابنُه يَكْسوم . ثم من بعده أخوه

---

(١) الملاويث : الأشداء ، مفردها : مَلاث ، أو مِلْوَث .
(٢) ابذعروا : تفرقوا .
(٣) ديوانه ص (٦٩) من قصيدة مطلعها :
أيـا راكبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فبلغَـنْ ... مغلغلـةً عنـي لـؤي بـن غـالـب
(٤) الأخاشب : جبال بمكة .
(٥) القاذفات : أعالي الجبال البعيدة . والمناقب : جمع منقبة ، وهي الطريق في رأس الجبل . ورواية أ : المقانب وهي بعيدة ، فالمقانب : الذئاب .
(٦) السافي : أراد الذي غطّاه التراب . والحاصب : الذي أصابته الحجارة .
(٧) ملحبش : أي من الحبش . والعصائب : الجماعات .
(٨) في ط : عبيد . وقيل في اسمه : عبد الله وعبيد الله ، وهو شاعر قريش في العصر الأموي . توفي سنة (٨٥هـ) . والأبيات في ديوانه ص (١٩٢) . عن السيرة .
(٩) في ب : لأبرهة الأشرم . ولا يستقيم بها الوزن .
(١٠) الجندل : الحجارة .
(١١) فَلٌّ : منهزم .
(١٢) السيرة (١/ ٦١) .

مسروق بن أبرهة ، وهو آخر ملوكهم . وهو الذي انتزع سيف بن ذي يَزَن الحِميري المُلْكَ مِن يده بالجيش الذين قَدِم بهم من عند كسرى أنوشروان ، كما سيأتي بيانهُ .

وكانت قِصّة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمئة من تاريخ[١] ذي القرنين ، وهو الثاني إسكندر بن فلبس المقدوني الذي يُؤرِّخ له الروم ، ولما هَلَك أبرهة وابناه ، وبادَ[٢] مُلك الحبشةِ عن اليمن ، هُجِر القُلَّيْس الذي كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله[٣] وقِلّة عقله . وأصبح يباباً لا أنيس به . وكان قد بناه على صَنمين[٤] ، وهما كُعيب وامرأته ، وكانا من خَشَب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء ، وكانا مصحوبين من الجان ، ولهذا كان لا يتعرَّض أحدٌ إلى أخذ شيءٍ من بناء القُلّيس وأمتعته إلا أصابوه بسوءٍ . فلم يزل كذلك إلى أيام السفّاح أول خلفاء بني العباس ، فذُكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرُّخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن ، فبعث إليه من خربه حَجَراً حجراً ، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل . هكذا ذكره السهيلي[٥] . والله أعلم .

* * *

ذكر خروج المُلْك عَن الحبشة وَرجوعه إلى سيف بن ذي يَزَن الحِمْيَري كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمي[٦]

قال محمد إسحاق[٧] رحمه الله : فلما هلك أبرهةُ مَلَكَ الحبشةَ يكسومُ بن أبرهة ، وبه كان يكنى ، فلما هلك يَكسومُ مَلَكَ اليمنَ في الحبشة[٨] أخوه مسروقُ بن أبرهة .

قال : فلما طال البلاءُ على أهل اليمن ، خرج سيفُ بن ذي يزن الحميري[٩] ، وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير سبأ ـ وكان سيف يكنى

---

(١) زيادة من ط .
(٢) في ط : وزال .
(٣) في ب : بجهله ، وسقطت أيضاً كلمة : وأصبح . من ب .
(٤) في ب : على اسم صنمين .
(٥) الروض الأنف (١/ ٦٣) .
(٦) ورد العنوان في ط . مختصراً خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن .
(٧) السيرة (١/ ٦١) وما بعدها .
(٨) في ب : ملك الحبشة أخوه . وفي ط : من الحبشة .
(٩) في السطرين القادمين تقديم وتأخير في ب .

أبا مرة ـ حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكى إليه ما هو فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم[١] ويخرج إليهم من سائر[٢] الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يُشكِه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمرَ الحبشة ، فقال له النعمان : إن لي على كسرى وِفادة في كل عام ، فأقم عندي حتى يكون ذلك ، ففعل . ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه[٣] وكان تاجه مثل القُنْقُل العظيم ـ فيما يزعمون ـ يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في[٤] مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُسْتَرُ بالثياب[٥] حتى يجلس في مجلسه ذلك[٦] ، ثم يُدخِلُ رأسَه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كُشِفَ عنه الثيابُ فلا يـراه أحد[٧] لم يره قبلَ ذلك إلّا برك هيبةً له . فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن بَـرَك . قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة أن سيفاً لما دخل عليه[٨] طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل عليَّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسَه ! فقيل ذلك لسيف . فقال : إنما فعلتُ هذا لهمي لأنه يضيق عنه كل شيء[٩] . قال ابن إسحاق ثم قال : أيها الملك غَلَبَنا على بلادنا الأغربة . قال كسرى : أيُّ الأغربة ؛ الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة ، فجئتك لتنصرني ويكونَ ملك بلادي لك . فقال له كسرى : بَعُدَت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورّط جيشاً من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لي بذلك ، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ[١٠] وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك[١١] سيف ، خرج فجعل ينثر تلك الورِق للناس ، فبلغ ذلك الملك ، فقال إن لهذا لشأناً[١٢] ، ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حِباء الملك تنثرُه للناس ؟! قال : وما أصنع بهذا ؟

---

(١) في أ : عن ويلهم ويخرج . وفي ط : ويلهم ، وأثبت ما في ب .
(٢) في ط : شاء من .
(٣) زيادة من ط . وفي ب : الذي تاجه مثل القنقل . والقنقل : المكيال الضخم ، واسم تاج لكسرى (المحيط) . الروض الأنف (١/ ٨٢) .
(٤) كذا في ب ، وط . وفي أ من .
(٥) في ب : يستتر بالثياب . وفي ط : يستر عليه بالثياب .
(٦) زاد في ب : قال الخليل : القنقل : شجر له ثمر عظام .
(٧) في ب : كشفت الثياب عنه فلا يراه رجل .
(٨) قوله : سيف بن ذ . . . إلى هنا زيادة من ب ، وكذلك النص في السيرة (١/ ٦٣) .
(٩) كذا في ط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : فعلت ذلك لهمتي . .
وفي ب : فعلت ذلك لهمي لأني تضيق علي كل شيء . وقوله : قال ابن إسحاق ليس في ط .
(١٠) وفى الدرهمُ المثقالَ : عَدَله . وفي ب : ورق .
(١١) زاد في ط : منه .
(١٢) زاد في ب : عظيماً .

ما[١] جبال أرضي التي جئتُ منها إلا ذهبٌ وفضة ، يُرَغِّبُه فيها ، فجمع كسرى مرازبته ، فقال لهم[٢] : ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك ، إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتَهم معه ، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً ازددْتَه ، فبعث معه كسرى مَن كان في سجونه ، وكانوا ثمانمئة رجل ، واستعمل عليهم وَهْرز ، وكان ذا سنّ فيهم ، وأفضلَهم حسباً وبيتاً ، فخرجوا في ثمان سفائن[٣] ، فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، فجمع سيف إلى وَهْرز من استطاع من قومه ، وقال له : رِجلي ورجلك[٤] حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً . فقال له وَهْرز : أنصفتَ . وخرج إليه مسروقُ بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جندَه ، فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالَهم ، فقُتِل ابنُ وهرز ، فزاده ذلك حَنَقاً عليهم ، فلما تواقف الناس على مصافهم قال وَهْرز : أَروني مِلِكَهم . فقالوا له : أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم . قالوا : ذلك ملكهم . فقال : اتركوه . قال[٥] : فوقفوا طويلاً ، ثم قال : عَلامَ هو ؟ قالوا : [قد تحوّل على الفرس . قال : اتركوه . فتركوه طويلاً . ثم قال : عَلامَ هو ؟ قالوا :][٦] على البغلة . قال وهرز : بنتُ الحمار ! ذلّ وذلَّ مُلكُه ، إني سأرميه فإن[٧] رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم ، فإني قد أخطأتُ الرجلَ ، وإن رأيتمُ القومَ قد استداروا به ولاثوا[٨] فقد أصبتُ الرجلَ فاحملوا عليهم . ثم وَتَرَ قوسه ـ وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيرُه من شدتها ـ وأمر بحاجبَيه فعصّبا له ، ثم رماه ، فَصَكَّ الياقوتةَ التي بين عينيه ، وتغلغلت النُّشّابة في رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشةُ ولاثت به[٩] ، وحملت عليهم الفرس ، وانهزموا[١٠] فقُتِلوا وهَرَبوا في كل وجه ، وأقبلَ وَهْرز ليدخلَ صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايتي مُنَكَّسةً أبداً ، اهدموا هذا[١١] الباب فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته . فقال سيف بن ذي يزن[١٢] : [من مجزوء الوافر]

---

(١) زيادة من ب ، وكذلك في السيرة . وفي ط : بحباك .
(٢) زيادة من ط . وكذلك في السيرة .
(٣) في ب : سفن . وكلا الجمعين صحيح .
(٤) في ب : مع رجلك . وكذلك في السيرة . وسقط من ب قوله : أو نظفر جميعاً .
(٥) ليست في ب . ولا في السيرة .
(٦) سقطت من ب .
(٧) كذا في ب ، وط ، والسيرة . وفي أ : فإذا .
(٨) في ب ، والسيرة : ولاثوا به . ولاثوا به : اجتمعوا حوله .
(٩) في ب : به ولاثت .
(١٠) في ط : فانهزموا .
(١١) ليست في ب ، والسيرة .
(١٢) زاد في ط ، والسيرة : الحميري . والأبيات في السيرة (١/ ٦٥) والروض الأنف (١/ ٨٤) .

يظن الناسُ بالملْكَيـ ـنِ أنهما قد التأما
ومن يسمعْ بلأمِهما فان الخطب قد فَقما[١]
قتلنا القَيْلَ مسروقاً وروَّينا الكثيبَ دما
وإن القيلَ قيلَ النا سِ وهرز مُقْسِم قَسَما
يذوق مُشَعْشَعاً حتى يُفيءَ السبيَ والنَّعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود المُلْك إليه ، وامتدحوه . فكان من جملة من[٢] وفَدَ من قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشّره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم[٣] من أمره ، وسيأتي ذلك مفصّلاً في باب البشارات به عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق[٤] : وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة[٥] الثقفي ، قال ابن هشام ويروى لابنه أمية[٦] :

لِيطلبِ الوترَ أمثالُ ابن ذي يَزَن ريَّم في البحرِ للأعداءِ أحوالا[٧]
يمَّمَ قيصر لما حانَ رحلته فلم يجد عندَه بعضَ الذي سالا[٨]
ثم انثنى نحو كسرى بعدَ عاشرةٍ من السنين يهين النفسَ والمالا[٩]
حتى أتى ببني الأحرارِ يَحملُهم إنك عَمْري لقد أسرعتَ قَلقالا[١٠]
لله درُّهمُ من عصْبةٍ خرجوا ما إن أرى لهمُ في الناسِ أمثالا
غُلْباً مرازبةً بِيضاً أساورةً أُسْداً تُربّبُ في الغَيْضات أشبالا[١١]
يرمُون عَنْ شُدُفٍ كأنها غُبُط بزَمْجَرٍ يُعجِل المرميَّ إعجالا[١٢]

---

(١) كذا في ط ، والسيرة . والروض الأنف وفي أ : ملامهما . وفي ب : كلاهما .
(٢) زيادة من ب ، وط . يستقيم بها المعنى .
(٣) في ب : يكون .
(٤) السيرة (١/ ٦٥) .
(٥) في أ ، وب : أمية وهو سهو .
(٦) في ط : ويروى لأمية بن أبي الصلت ، وكذلك نص السيرة . والأبيات في ديوان أمية : (٤٥٣) ، رجح الدكتور السطلي أنها منحولة .
(٧) في ديوان أمية : ليطلب الثأر . وريّم : زاد في السير .
(٨) في أ : لقيصر . وفي ط : قيصراً .
(٩) هذا البيت لم يرد في أ وب . وهو في السيرة والديوان . وط .
(١٠) قلقل في الأرض قلقلة وقلقالًا : ضرب فيها .
(١١) الغُلْب : مفردها أغلب ، وهو الغليظ الرقبة . والمرازبة : مفردها مرزبان وهو عند الفرس الفارس الشجاع . والأساورة : مفردها إسوار ، وهو القائد من الفرس . وتُربّب : تُربّي . والغيضات : جمع غيضة ، وهي الأجمة .
(١٢) في ط : سُدُف بالسين المهملة . والشدُف : القسي الفارسية ، واحدتها شَذْفاء . والغُبط : جمع غبيط ، وهو =

أرسلتَ أُسداً على سود الكلابِ فقد أضحى شريدُهمُ في الأرضِ فُلّالا[١]

فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا[٢]

واشربْ هنيئاً فقد شَالتْ نعامتُهم وأسبلِ اليومَ في بُرديْك إسبالا[٣]

تلكَ المكارمُ لا قعبانِ من لَبنٍ شِيْبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا[٤]

يقال : إن غمدان قصرٌ باليمن ، بناه يَعرب بن قحطان وأكمله[٥] بعده واحتله وائلة بن حِمير بن سبأ . ويقال : كان ارتفاعه عشرين طبقةً . فالله أعلم[٦] .

قال ابن إسحاق : وقال عدي بن زيد الحِميري[٧] وكان أحد بني تميم : [من المنسرح]

ما بَعدَ صنعاءَ كان يَعْمُرُها وُلاةُ مُلْكٍ جَزْلٌ مَواهِبُها

رفعها من بَنى لَدَى قَزَعِ الـ ـمُزْنِ وتَنْدَى مِسْكاً مَحاربُها[٨]

مَحْفوفَة بالجبالِ دون عُرَى الـ كائدِ ما تُرتَقَى غواربُها[٩]

يأنَسُ فيها صوتُ النُّهامِ إذا جاوبَها بالعشيّ قاصِبُها[١٠]

ساقتْ إليها الأسبابُ جُنْدَ بني الـ أحرارِ فُرْسَانُها مَواكبها

وفَوّزتْ بالبغال تُوسَقُ بالـ ـحَتْفِ وتَسعى بها توالبُها[١١]

حتى رآها الأقوالُ من طرفِ الـ ـمَنْقَلِ مُخْضَرَّةً كتائبها[١٢]

= الرحل . شبه القسي الفارسية بخشب الرحل . والزمجر : الهام .

(١) أراد بسود الكلاب : الأحباش . وفلال : مهزومون .

(٢) في ب : مرتفعاً . ومرتفقاً : متكئاً . والمحلال : التي يكثر فيها الحلول والإقامة .

(٣) شالت نعامتهم : هلكوا وتفرقوا .

(٤) القعب : القِدح الضخم . وشِيبا : خُلِطا .

(٥) في ط : وملكه .

(٦) هذا المقطع ليس في ب .

(٧) في ط : الحميري . وهو سهو . والأبيات من قصيدة في ديوان عدي ص (٤٥) وما بعدها (تح . المعيبد . وط . العراق ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م) .

(٨) في الديوان : يرفعها . والقزع : قطع من السحاب صغار متفرقة . والمحارب : الغرف المرتفعة .

(٩) في الديوان : الكيد فيها ترقى . وقواه : دون عرى الكائد : يريد عرى السماء وأسبابها . الروض الأنف (١/ ٨٦) . والغوارب : الأعالي .

(١٠) النهام : ذكر البوم . والقاصب : الذي يزمر بالقصب .

(١١) فوّزت بالبغال : ركبت المفاوز أي الصحاري . ووسق البعير : حمله . وتوسق بالحتف : أي تحمل بالحتف . والتوالب : جمع تولب وهو ولد الحمار .

(١٢) في ط : يراها . وطرف المنقل : أعالي الحصون . والأقوال : جمع قَيل ، وهو الملك من ملوك حِمير . وقوله : =

يـومَ ينـادون آل بـربَـرَ والـ يكسُـومَ لا يُفْلِحَـنْ هَـاربُهـا[١]

فكان يوماً باقي الحديثِ وزا لـتْ أُمّـةٌ ثـابَـتْ مَـرَاتبهـا[٢]

وبُـدّل الفيـجُ بـالـزرافـة والأ يـام خُـونٌ جَـمٌّ عجـائبهـا[٣]

بعـدَ بنـي تُبّـعٍ نَخَـاوِرَةٍ قـدِ اطْمـأنّـتْ بهـا مَـرازِبهـا[٤]

قال ابن هشام[٥] : وهذا الذي عنى سطيحٌ بقوله : يليه إرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن[٦] . والذي عنى شِقٌّ بقوله : غلام ليس بدني ولا مدن يخرج من بيت ذي يزن .

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناءُ الذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرْياط إلى أن قتلت الفرس مسروقَ بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعينَ سنةً ، توارث ذلك منهم أربعة : أرْياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة ، ثم مسروق بن أبرهة .

***

ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام[٧] : ثم مات وِهرز ، فأمّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان ، فأمّر كسرى ابنَه التَّيْنُجان ، ثم مات ، فأمّر ابن التَّيْنُجان ، ثم عزله عن اليمن وأمّر عليها باذان ، وفي زمنه بُعث رسول الله ﷺ .

قال ابن هشام : فبلغني عن الزُّهْري أنه قال : كتب كسرى إلى باذان : إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسِرْ إليه فاستَتِبْه ، فإن تابَ ، وإلا فابعث إليّ برأسه ، فبعث باذان بكتاب

= مخضرة كتائبها : يعني من الحديد .

(١) في الديوان :

يـوم يقـولـون يـال بـربـر والـ يكـون لا يفلتـن هـاربهـا

(٢) سقط البيت من ب . والإمة : النعمة .

(٣) كذا في الديوان . وفي أ وط : وبدل الهيج . وفي ب : الفيل غياجها . والفيج : المنفرد في مشيته . والزرافة : الجماعة من الناس .

(٤) في ب : وبعد تبع فيها نواخرة . وفي الديوان : بهم . والنخاورة : الكرام الأشراف .

(٥) السيرة (١/ ٦٨) .

(٦) في ب ، والسيرة : أحداً منهم باليمن .

(٧) السيرة (١/ ٦٩) .

كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إن الله قد وَعَدني أن يُقْتَل كسرى يوم كذا وكذا من شهر كذا » . فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر[١] وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال . فَقَتلَ اللهُ كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ . قال ابن هشام[٢] : على يدي ابنه شِيرَوَيه .

قلت : وقال بعضهم[٣] بنوه تمالؤوا على قتله ، وكسرى هذا هو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباذ ، وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم : ١ ـ ٣] كما سيأتي بيانه .

قال السهيلي[٤] : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خَلَون من جمادى الأولى سنة تسع[٥] من الهجرة .

وكان ـ والله أعلم ـ لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، فغضب ومزّق كتابه ، كَتَبَ إلى نائبه باليمن [يقول له ما قال . وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان][٦] : « إن ربي قد قَتَل الليلةَ ربَّك » . فكان كما قال رسول الله ﷺ قُتِل تلك الليلة بعينها ، قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعد ما خلعوه[٧] وولوا ابنه شيرويه ، فلم يعش بعد قتله أباه إلّا ستة أشهر أو دونها . وفي هذا يقول خالد بن حِق الشيباني[٨] : [من الوافر]

وكسرى إذ تَقَاسمَه بَنُوهُ ... بأسْيافٍ كما اقْتُسِمَ اللَّحَامُ[٩]
تَمَخَّضَتِ المنُونُ له بيومٍ ... أَنى ولِكُلِّ حَاملةٍ تمامُ[١٠]

قال الزُّهري : فلما بلغ باذان[١١] بعث بإسلامه وإسلام مَن مَعه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل : إلى مَن نحن يا رسولَ الله ؟ قال : أنتم منا وإلينا أهلَ البيت . قال الزُّهري : ومن ثم قال رسول الله ﷺ : « سلمانُ مِنّا أهلَ البيت »[١٢] .

---

(١) في ب : توقف ينظر .
(٢) في ب : ابن شهاب وهو سهو .
(٣) زاد في ب : قتله .
(٤) الروض الأنف (١/ ٨٨) .
(٥) في الروض الأنف : سبع .
(٦) سقطت من ب .
(٧) في ب : بعدما خلعوه لظلمه بقومه .
(٨) البيتان في السيرة (١/ ٦٩) والروض الأنف (١/ ٨٨) .
(٩) في ط ، والسيرة ، والروض : تقسّمه . . . واللحام : جمع لحم .
(١٠) في ط : ألا . وقوله : أنى : أي حان .
(١١) في ب : سمع باذان . . وفي ط : بلغ ذلك باذان . وكان إسلام باذان سنة عشر للهجرة كما أورد السهيلي (١/ ٨٨) .
(١٢) رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف وفيه ضعف .

قلتُ : والظاهر أن هذا كان بعدما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخيرَ ودعوتهم إلى الله عز وجل ، فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب ، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جَبل . ودانت اليمن وأهلها للإسلام . ومات باذان ، فقام بعده ولده شهر بن باذان ، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبّأ[١] وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه ، وأجلى عن اليمن نوابَ رسول الله ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها .

وقال ابن هشام : وهذا هو الذي عنى به سطيح بقوله : نبي زكي يأتيه الوحي من قِبَل العلي . والذي عنى شِقٌّ بقوله : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال ابن إسحاق[٢] : وكان في حَجَر باليمن ـ فيما يزعمون ـ كتابٌ بالزبور كتب في الزمان[٣] الأول : لمن مُلْك ذِمار ؟ لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار .

وقد نظم[٤] بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي : [من الخفيف]

حين شيدتْ ذِمارُ قِيلَ : لمنْ أنـ ـتِ ؟ فقالت : لِحميَرِ الأخيار[٥]
ثم سِيلتْ من بعدِ ذاك فقالت : أنا للحُبْشِ أخبثِ الأشرار[٦]
ثم قالوا من بعد ذاك : لمن أنـ ـتِ ؟ فقالت : لفارسِ الأحرار[٧]
ثم سيلت من بعد ذاك : لمن أنـ ـت ؟ فقالت : إلى قريش التِّجار[٨]

ويقال : إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق[٩] ، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام حين

---

(١) كان أول تنبؤ الأسود سنة إحدى عشرة للهجرة . تاريخ الطبري (٣/ ١٨٤) . وما بعدها .
(٢) السيرة (١/ ٧٠) .
(٣) في ط : بالزمان .
(٤) لم يشر المسعودي إلى أن أحداً نظم هذا ، بل قال : وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود ، ثم أورد الأبيات . مروج الذهب (٢/ ٨٨) .
(٥) في ط : شدت . وفي المروج : يوم .
(٦) في المروج : إن ملكي .
(٧) في المروج : ثم سيلت من بعد ذاك فقالت إن ملكي .
(٨) في ط : ثم قالوا . وفي المروج : ما بعد ذاك فقالت إن ملكي . وأورد المسعودي ثلاثة أبيات أخرى .
(٩) الإشارة إلى ما قاله ابن إسحاق من كلام منثور . أما الأبيات المنظومة فلم يذكرها ابن إسحاق بل أخذها ابن كثير عن المسعودي كما ذكر .

كشفَت الريح عن قبره بأرض اليمن ، وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار ، ويقال : كان مكتوباً على قبر هود[1] ، وهو من كلامه عليه السلام . حكاه السهيلي[2] . والله أعلم .

* * *

(١) في ب : منبر ، وكذلك عند السهيلي .
(٢) الروض الأنف (١/ ٩٠) .

قصّة السّاطرون صَاحب الحَضْر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام[١] لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النعمان بن المنذر الذي تقدّم ذِكره في ورود سيف بن ذي يزَن عليه وسؤاله في مساعدته في ردّ مُلْك اليمن إليه إنه[٢] من سلالة الساطرون صاحب الحضر . وقد قدّمنا عن ابن إسحاق أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر ، وأنه روى عن جُبير بن مطعِم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان ، فهذه ثلاثة أقوال في نسبه ، فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر .

والحضر حصنٌ عظيم بناه هذا الملك ، وهو الساطرون ، على حافة الفرات ، وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة ، وهو في غاية الإحكام والبهاء والحسن والسناء ، وإليه يُجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون الضَّيْزَن بن معاوية بن عبيد بن سَليح[٣] بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . كذا نسبه ابن الكلبي . وقال : غيره كان من الجرامقة[٤] وكان أحد ملوك الطوائف ، وكان يقدمهم[٥] إذا اجتمعوا ، وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام[٦] : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا ساطرون[٧] ملك الحضر . وقال غير[٨] ابن هشام : إنما غزا صاحب سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان ، أَذَلَّ ملوكَ الطوائف وردَّ المُلْكَ إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل . والله أعلم . ذكره السهيلي[٩] .

قال ابن هشام : فحصره سنتين . وقال غيره : أربع سنين[١٠] ، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور

---

(١) هو مهذب السيرة لابن إسحاق .

(٢) في ب : إنه ملك .

(٣) في ط : ... عبيد بن أجرم من بني سليح . وفي تاريخ الطبري (٢/ ٤٧) : ابن العَبيد بن الأجرام بن عمرو بن النخع بن سليح .

(٤) الطبري (١/ ٤٧) .

(٥) في ط : يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه ...

(٦) السيرة (١/ ٧١) .

(٧) في ط : الساطرون .

(٨) الطبري (١/ ٤٧) .

(٩) الروض الأنف (١/ ٩١) .

(١٠) قاله ابن الكلبي فيما نقله عنه الطبري (١/ ٤٨) .

في غيبته بأرض العراق ، فأشرفت بنت الساطرون ، وكان اسمها النضيرة ، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلّل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، وكان جميلاً ، فدسَّت إليه : أتتزوجني إن فتحت[١] لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون ، شرب حتى سكر ، وكان لا يبيتُ إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب[٢] الحضر من تحت رأسه فبعثت[٣] بها مع مولى لها ، ففتح الباب .

ويقال : بل دلَّتهم على نهر يدخل منه[٤] الماء متسع ، فولجوا منه إلى الحضر ، ويقال : بل دلَّتهم على طلسم كان في الحضر وكان في علمهم أنه[٥] لا يفتح حتى تؤخذ حمامة وَرْقاء ، وتُخضَب رجلاها بحيض جارية بكر زَرقاء ، ثم ترسل ، فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب . ففعل ذلك فانفتح الباب ، فدخل[٦] سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه . وسار بها معه فتزوجها . فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تَململُ لا تنام ، فدعا[٧] بالشمع ، ففتّش فراشَها ، فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهركِ ؟ قالت : نعم . قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخَّ ، ويَسقيني الخمر[٨] . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعتِ به ؟! أنت إليَّ بذلك أسْرع ، ثم أمر بها[٩] فرُبطت قُرون رأسِها بذنب فرس ، ثم رَكَض الفرس حتى قتلها . ففيه يقول أعشى بني[١٠] قيس بن ثعلبة : [من المتقارب]

أَلـم تَـرَ للحَضْـرِ إذْ أهلُـه ... بنُعْمَـى وهـلْ خـالِدٌ مَـن نَعم

أقـامَ بـه شـاهَبُـورُ الجنـو ... دَ حـوْلَيْـنِ تضـربُ فيـه القَـدم

فلمّـا دَعـا ربَّـهُ دعـوَةً ... أنـابَ إليـه فلـم ينتقِـم

فهـل زادَه ربـه قـوَّةً ... ومثْـل مجـاورِه لـم يُقِـم

---

(١) في ب : وأنا أفتح .

(٢) ليست في ب .

(٣) في ط : وبعثت .

(٤) زيادة من ب ، وط . والكلام هاهنا ليس لابن هشام ، بل للسهيلي .

(٥) قوله : وكان . . . إلى هنا : زيادة من ط . وكذلك في السهيلي نقلاً عن الطبري (١/ ٤٩) .

(٦) عاد هنا إلى ما قاله ابن هشام .

(٧) في ب ، وط ، والسيرة : فدعا لها .

(٨) زاد في ب : وقال الطبري : كان يطعمني المخ والزبد ، وشهد أبكار النحل ، وصفو الخمر . وذكر أنه كان يُرى مخ ساقها من صفاء بشرتها . تاريخ الطبري (١/ ٥٠) .

(٩) زيادة من ب ، والسيرة . وقرون رأسها : أي ذوائب شعرها .

(١٠) في ط : بن ، وهو سهو . والأبيات في ديوانه ص(٩٣) ، من قصيدة طويلة يمدح فيها قيس بن معد يكرب . وفي رواية الديوان بعض اختلاف عما هنا .

وكــانَ دعــا قــومَــه دعــوةً ... هلمُّــوا إلـى أمـرِكـم قـد صُـرِم
فمـوتـوا كِـرامـاً بـأسيـافكـم ... أرى الموتَ يجشِمه من جَشِمِ[١]

وقال عدي بن زيد في ذلك[٢] : [من المنسرح]

والحضرَ صابتْ عليه داهيةٌ ... مِـن فـوقِـه أَيِّـدٍ مناكبُهـا[٣]
ربيَّــةٌ لــم تُــوَقِّ والــدَهــا ... لِحيَنْهــا إذ أضــاعَ راقبُهــا
إذ غَبَّقَتْــه صهبــاءَ صــافيــةً ... والخمرَ وَهْلٌ يَهيم شاربُها[٤]
فــأسلمــتْ أهلَهــا بليلتهــا ... تظـنّ أن الـرئيـسَ خـاطبُهـا
فكانَ حظُّ العروسِ إذ جَشَر الـ ... ـصبح دماءً تجري سبائبها[٥]
وخَرَّبَ الحضرَ واستُبيح وقد ... أُحرقَ في خدرِها مشاجبها[٦]

وقال عدي بن زيد أيضاً[٧] : [من الخفيف]

أيُها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ... ـر أأنـتَ المبـرَّأُ المـوفـور
أم لديكَ العهدُ الوثيق من الـ ... أيام بـل أنـتَ جـاهـلٌ مغـرور
من رأيتَ المنونَ خلَّدنَ أم من ... ذا عليـه مِـن أن يضـام خَفيـر
أين كسرى كسرى الملوك أنو ... شـروانَ أم أيـن قبلـه سـابـور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الـ ... ـروم لـم يبـق منهـمُ مـذكـور
وأخو الحضْر إذْ بَنَاهُ وإذ دجْـ ... ـلَـةُ تُجبَـى إليـه والخـابـور
شــاده مَــرْمـراً وجلَّلــه كــأ ... ـسـاً فللطيـر فـي ذُراه وُكُـور
لــم يَهَبْـهُ ريـبُ المنـون فبَـا ... ن الملـك عنـه فبـابـه مهجـور
وتــذكّــر ربَّ الخــوَرْنَــقِ إذ ... أشرف يوماً وللهدى تنكير[٨]
سَــرَّه مــالُــه وكثــرةُ مــا يمـ ... ـلِكُ والبحرُ معرضاً والسديرُ

---

(١) يجشمه : يتكلفه ويركبه .
(٢) الأبيات في ديوانه ص(٤٦) ، مع خلاف ببعض الألفاظ .
(٣) أيد : شديدة .
(٤) غبقته : سقته الغبوق ، وهو شراب العشي . ويقال : وهَلَ الرجل : إذا أراد شيئاً فذهب وهمه إلى غيره .
(٥) جشر : أضاء وبيّن . والسبائب : الطرائق .
(٦) المشاجب : جمع مشجب وهو عود تعلق عليه الثياب .
(٧) ديوانه ص(٨٧) ، وفيه بعض اختلاف في الرواية .
(٨) في ب ، وط . والديوان : تفكير .

فارعوى قلبُه وقال وما غِبـ ـطةُ حيٍّ إلى المماتِ يصيرُ
ثـم أضْحَـوا كـأنهـم وَرَقٌ جـ ـفَّ فألْوَتْ به الصَّبا والدَّبورُ[١]

قلت : وربُّ الخوَرْنق الذي ذكره في شعره رجلٌ من الملوك المتقدمين ، وعَظَهُ بعضُ علماء زمانه في أمره الذي قد كان[٢] أسرف فيه وعتا ، وتمرد فيه وأتْبعَ نفسَه هواها ، ولم يراقب فيها مولاها ، فوعَظَه بمن سلَف قبلَه من الملوك والدول ، وكيف بادُوا ولم يبق منهم أحدٌ ، وأنه ما صار إليه عن غيره إلا وهو منتقل عنه إلى مَن بَعْده ، فأخذته موعظتُه وبلغت منه كلَّ مبلغ ، فارعَوى لنفسه ، وفكّر في يومه وأمسه ، وخاف من ضِيْق رَمْسه[٣] . فتاب وأناب ونزع عما كان فيه ، وترك الملك ولبس زي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات ، وخرج عمّا كان الناس فيه من اتّباع الشهوات وعصيان ربّ السماوات .

وقد ذكر قصته مبسوطة[٤] الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسي[٥] رحمه الله في كتاب « التّوابين » . وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب[٦] « الروض الأنف »[٧] المرتَّب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

***

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضْر ، وهو ساطِرون ، فقد تقدّم أنه كان مقدّماً على سائر ملوك الطوائف ، وكان من[٨] زمن اسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني ، وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذلَّ مملكته وخرّب بلاده واستباح بيضة قومه ، ونهب حواصله ، ومزّق شمل الفرس شَذَرَ مَذَرَ ، عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ، ولا يلتئم لهم أمر ، فجعل يقرّ كل ملك على طائفة من الناس في أقليم من

---

(١) الصبا ، والدبور : ريح . وزاد في ب هنا بيتاً آخر ، وهو :
ثم بعد الفلاح والمُلْك والأ مَّـة وارتهـم هنـاك قبـور
(٢) في ب : الذي كان أسرف . وفي ط : الذي كان قد . . .
(٣) الرمس : القبر .
(٤) في ب تقديم وتأخير في العبارة هنا .
(٥) هو الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، توفي سنة (٦٢٠هـ) . وكتاب التوابين طبع في دار البيان بدمشق (١٩٦٩) ، بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط . والخبر فيه ص(٣٩) .
(٦) في ط : كتاب .
(٧) الروض الأنف (١/ ٩٣ ـ ٩٤) .
(٨) في ب : في .

أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها[١] ، فاستمر كل ملك منهم يحمي حَوزته ، ويحفظ صقعه[٢] ويستغلُّ محلَّته ، فإذا هَلَك قام ولده من بعده أو أحد قومه ، فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمئة سنة ، حتى كان أردشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب ، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ، ورجعت الممالك برمَّتها إليه ، وأزال ممالك ملوك الطوائف ، ولم يبق منهم[٣] تالد ولا طارف ، وكأنه[٤] تأخر عليه حصار صاحب الحضْر الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم ، إذ كان رئيسهم ومقدّمهم ، فلما مات أزدشير تصدّى له ولده سابور فحاصره حتى أخذه كما تقدم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

(١) كذا في ط . وفي أ : ما بين عرب وأعاجمها . وفي ب : عرب وأعاجم .
(٢) في ط . حصته . وهو خطأ .
(٣) في ب : منه .
(٤) في ط : وكان .

باب[١]

ذكر بني إسماعيل وهم عرب الحجاز وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء[٢] ، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر ، فأسكنها[٣] بوادي مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس ، وكان إسماعيل رضيعاً[٤] ، ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ، ليس عند أمّه سوى جراب فيه تَمر ووِكاءٌ[٥] فيه ماءٌ ، فلما نَفد ذلك أنبع الله لِهاجَرَ زمزمَ التي هي « طعام طعم وشفاء سقم » كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري[٦] رحمه الله .

ثم نزلت جُرْهم ، وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجَر بمكة على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به ، فاستأنست هاجر بهم ، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرَهم في كلّ حين ، يقال : إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه ، ثم لما ترعرع الغلام وشبَّ وبلغ مع أبيه السعي كانت قصّة الذبح ، كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح .

ثم لما كبر تزوج من جُرهم امرأةً ، ثم فارقَها وتزوّج غيرَها وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو رئيس جرهم ، وجاءته البنون الاثنا عشر[٧] كما تقدم ذِكرهم ، وهم : نابِت ، وقيذر ، وأدبيل[٨] ، وميشا ، ومسمع ، وماسى ، ودما[٩] ، وأذر ، ويطور ، ونيشى ، وطيما ، وقيذما . هكذا ذكره محمد بن إسحاق[١٠] وغيره عن كتب أهل الكتاب . وله ابنة واحدة اسمها نَسَمة ، وهي التي زوَّجها من

---

(١) سقط من ط : باب . وهم عرب الحجاز .
(٢) في الجزء الأول من هذا الكتاب .
(٣) في ب : فأسكنهما . وفيها أيضاً : حيث لا حسيس به ولا أنيس .
(٤) زاد في ب : إذ ذاك .
(٥) الوكاء : هو ما يُشدّ به الكيس وغيره . وأراد القربة .
(٦) تقدم تخريجه في الجزء الأول .
(٧) في ط : ابن عمرو الجرهمي وجاءته بالبنين الاثني عشر . وتقدم الخبر كما أشار ابن كثير في سيرة إسماعيل عليه السلام في الجزء الأول .
(٨) وأدبيل : زيادة من ب ، تتمم العدد . تاريخ الطبري (١/ ٣١٤) .
(٩) في ب : ودوما .
(١٠) السيرة (١/ ٤ ـ ٥) .

ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم واليونان[١] ، والأشبان أيضاً في أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر .

وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل ، وهو ابن أخت الجرهميين ، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم ، فحكموا بمكة وما والاها عِوضاً عن بني إسماعيل مدةً طويلة ، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هي[٢] بن نبت بن جرهم ، وجرهم بن قحطان ويقال جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح الجرهمي . وكان نازلاً بأعلى مكة بقُعَيْقِعان ، وكان السَّمَيْدع سيد قَطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة ، وكل منهما يَعْشُر[٣] من مَرَّ به مُجتازاًإلى مكة . ثم وقع بين جُرهم وقَطوراء ، فاقتتلوا ، فقُتِل السَّمَيْدعُ واستوثق الأمر لمضاض ، وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم[٤] بمكة وبغيرها ، وذلك لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثمّ صار الملك بعد إلى ابنه الحارث ، ثمّ إلى عمرو بن الحارث .

ثمّ بَغَت جرهم بمكة وأكثرتْ فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذُكر أن رجلاً منهم يقال له : إساف بن بغي ، وامرأة يقال لها : نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة ، فكان منه إليها الفاحشة ، فمسخهما الله حَجَرين ، فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما ، فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عبدا من دون الله في زمن خزاعة كما سيأتي بيانه في موضعه . فكانا منصوبين صنمين[٥] يقال لهما : إساف ونائلة . فلما أكثرت جرهم البغي[٦] بالبلد الحرام تمالأت عليهم خُزاعة الذين كانوا[٧] نزلوا حول الحرم ، وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي[٨] خرج من اليمن لأجل ما توقّع من سيل العرم[٩] ، كما تقدم . وقيل : إن خزاعة من بني إسماعيل . فالله أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا ، واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين .

---

(١) في ب وط : فولد . وفي ط : الروم وفارس .
(٢) في ب وط : عيبر . وفي الروض الأنف (١/ ١٣٦) ، كما هنا .
(٣) يعشر : يأخذ عشر أموالهم .
(٤) في ط : وانتثارهم .
(٥) في ط : صنمين منصوبين .
(٦) في ب : الظلم .
(٧) ليست في ب .
(٨) الذي ، زيادة من ب وط .
(٩) الخبر في السيرة (١/ ١١١) وما بعدها .

فغلبت خُزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان ، وأجلوا جرهماً[١] عن البيت ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو سيدهم إلى غَزَالَي الكعبة ، وهما[٢] من ذهب ، وحجر الركن وهو الحَجَرِ الأسود ، وإلى سيوف محلاَّة ، وأشياء أُخر فدفنها في زمزم ، وعلَّمَ زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . ففي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض[٣] : [من الطويل]

وقَائلةٍ والدَّمعُ سَكْبٌ مُبادرٌ ... وقَدْ شَرِقتْ بالدمع منها المحاجرُ
كأنْ لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يسمُر بمكّة سامرُ
فقلتُ لها والقلبُ مِنّي كأنما ... يُلجلجُه بين الجناحَيْن طائرُ[٤]
بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا ... صُروفُ الليالي والجدودُ العواثر[٥]
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابتٍ ... نَطوْف بذاك البيت والخيرُ ظاهر
ونحن وَلينا البيتَ من بعد نابتٍ ... بعزّ فما يحظى لدينا المُكاثر
ملَكنا فعزَّزْنا فأعظِمْ بمُلْكِنا ... فليس لحيّ غيرنا ثَمَّ فاخر
ألم تنكحوا من خيرِ شخصٍ علمتمُ ... فأبناؤه منّا ونحنُ الأصاهر[٦]
فإن تنثِني الدنيا علينا بحالها ... فإنّ لها حالاً وفيها التشاجُرُ
فأخرجَنا منها المليكُ بقُدرةٍ ... كذلك ، يا للناسِ ، تجري المقادِرُ
أقولُ إذا نام الخليّ ولم أنم ... أذا العرشُ لا يبعد سُهيلٌ وعامر
وبُدِّلْتُ منها أوجُهاً لا أحِبُّها ... قبائل منها حِمْيَرٌ ويُحابر
وصِرْنا أحاديثاً وكُنّا بغبطةٍ ... بذلك عضّتنا السِّنونَ الغوابر
فَسحَّتْ دُموعُ العَين تبكي لبلدةٍ ... بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعر[٧]
وتبكي لبيتٍ ليس يؤذَى حَمامُه ... يَظلّ (به) أمناً وفيه العَصَافر[٨]
وفيه وحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ ... إذا خرجَتْ منه فليست تُغادر

---

(١) في ط : وأجلوهم .
(٢) وهما : زيادة من ط .
(٣) السيرة (١/ ١١٤) ، والروض الأنف (١/ ١٣٦) وما بعدها ، والأبيات فيهما .
(٤) البيت زيادة من ط . وهو كذلك في السيرة ، والروض الأنف .
(٥) صروف الدهر : نوائبه . والجدود : الحظوظ .
(٦) في ب ، وط . والسيرة ، والروض : علمته .
(٧) المشاعر : المواضع المشهورة في الحج التي يتعبَّد بها .
(٨) زيادة من ب ، وط . والسيرة ، والروض ، يستقيم بها الوزن . وقوله : العصافر : أراد العصافير ، وحذف الياء ضرورة .

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث بن مُضاض أيضاً يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة[١] : [من البسيط]

يا أيها الناسُ سِيروا إن قَصرَكم أن تصبحوا ذاتَ يومٍ لا تسيرونا[٢]
حُثوا المطيَّ وأرْخوا من أَزِمّتها قبلَ المماتِ وقضّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا دهر فأنتم كما صرنا تصيرونا[٣]

قال ابن هشام : هذا ما صحَّ له منها . وحدثني بعض أهلِ العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يُسَمَّ قائلُها .

وذكر السهيلي[٤] لهذه الأبيات أخوة ، وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة . قال : وزاد أبو الوليد الأزرقي في كتابه « فضائل مكة » على هذه الأبيات[٥] المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض : [من البسيط]

قد مالَ دهرٌ علينا ثم أهلكَنا بالبغي فينا وبزّ الناسَ ناسونا[٦]
واستخبِروا في صنيع الناس قبلَكمُ كما استبانَ طريقٌ عنده الهونا
كنا زماناً ملوكَ الناس قبلَكمُ بمسكنٍ في حَرامِ الله مسكونا

***

(١) السيرة (١/ ١١٦) ، والروض الأنف (١/ ١٣٩) .
(٢) في ط : قصاركم . وهو تحريف وأراد نهايتكم وغايتكم .
(٣) في ب : كنا تصيرونا . وفي السيرة والروض : كما كنا تكونونا .
(٤) الروض الأنف (١/ ١٤٠) وما بعدها .
(٥) في ط : الأبيات المذكورة .
(٦) كذا في ط . ومثله عند السهيلي . وفي أ : فيه . وفي ب : فيه وكل الناس . وزاد في ب بعد هذا البيت :

إن التفكر لا يجدي بصاحبه عند البديهة في علم له دونا
قضّوا أموركم بالحزم إن لها أمور رشد رشدتم ثم مسنونا

وهما كذلك في الروض الأنف .

قصّة خزاعة وخبر عمرو بن لُحَي وَعبادة الأصنام بأرض العرب[١]

قال ابن إسحاق : ثم إن غُبْشان من خُزاعة ولِيَتِ البيتَ دون بني بكر بن عبد مناة ، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشاني ، وقُريش إذ ذاك حُلول وصِرَم[٢] وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة[٣] .

قالوا : وإنما سُميت خُزاعة خزاعة[٤] لأنهم تخزَّعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلوا بمرّ الظهران ، فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصاري ثمّ الخزرجي : في ذلك يقول بعضهم[٥] : [من الطويل]

فلمّا هبطْنا بطنَ مرّ تخزّعتْ ... خُزاعةُ مِنّا في حُلُولِ كَرَاكرِ
حمتْ كل وادٍ من تِهامةَ واحتمت ... بصُمّ القَنا والمرهَفاتِ البواتر

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي :

فلما هبطنا بطن مكة أحْمدت ... خزاعةُ دارَ الآكل المتحامل
فحلت أكاريساً وشتّت قبائلاً ... على كلِّ حيّ بينَ نجد وساحل[٦]
نفَوا جُرهماً عن بطن مكّة واحتبَوا ... بعزٍّ خزاعيّ شديدِ الكواهل

فوليت[٧] خزاعة البيتَ يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حُلَيْل بن حُبْشِية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، الذي تزوّج قصي بن كلاب ابنته حُبَّى ، فولدت له بنيه الأربعة : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبدا .

ثمّ صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه[٨] إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

---

(١) في ط : قصة خزاعة وعمرو بن لحي وعبادة العرب للأصنام .
(٢) الصرم : الجماعات المتقطعة .
(٣) السيرة (١/ ١١٧) .
(٤) ليست في ب . وتخزعوا : انقطعوا عنهم وفارقوهم . الاشتقاق لابن دريد (٤٦٨) .
(٥) زيادة من ب يستقيم بها الخبر . فالبيتان لحسان بن ثابت ، وهما في ديوانه (٢٦٤ و٢٦٥) . مع خلاف في الرواية (تحقيق عبد الرحمنِ البرقوقي) . وأورد ابن دريد البيت الأول بعد حديثه عن اشتقاق (خزاعة) منسوباً إلى حسان.
(٦) في ط : وشتت قنابلا . والأكاريس ، جمع أكراس ، وهي جمع كِرْس ، وهي أبيات من الناس مجتمعة .
(٧) عاد إلى نقل ما قاله ابن إسحاق .
(٨) سيأتي خبر قصي بعد صفحات في هذا الجزء .

واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمئة سنة ، وقيل : خمسمئة سنة . والله أعلم .

وكانوا مشؤومين[١] في ولايتهم ، وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عَمرو بن لُحي لعنه الله ، فإنه أول من دعاهم إلى ذلك[٢] ، وكان ذا مالٍ جزيلٍ جداً . يقال : إنه فقأ عين[٣] عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير ، وكان من عادة العرب أنّ من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها كأنه[٤] يدفع بذلك العين عنها . وممن ذكر ذلك الأزرقي .

وذكر السهيلي : أنه ربما ذَبح أيام[٥] الحجيج عشرة آلاف بَدَنة ، وكسا عشرة آلاف حُلَّة في كلّ سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويلتُّ لهم السَّويق[٦] . قالوا : وكان قولُه وفعلُه فيهم كالشرع المتّبع لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم .

قال ابن هشام[٧] : حدّثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَي خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره ، فلما قدم مآبَ من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عِمْلاق ، ويقال : ولد[٨] عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصر بها[٩] فتنصرنا . فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنماً يقال له : هبل ، فقدِم به مكَة فنصبَه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يَظْعَنُ من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفَسَحَ في البلاد[١٠] إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سَلَخَ ذلك

---

(١) في ط : وكانوا سوس .
(٢) الأصنام لابن الكلبي (٨) ، واللباب للسيوطي (١/ ٤٣٩) ، والسيرة (١/ ٧٦) ، والروض الأنف (١/ ٩٩) وما بعدها ، والأوائل للعسكري ص(٤٨ ط . السعودية ١٩٦٦) .
(٣) في ط : أعين .
(٤) في ط : لأنه .
(٥) في ب : زمن .
(٦) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً . واللت : الدَّقّ ، والفتّ ، والسحق . والسويق : ضرب من الطعام .
(٧) السيرة (١/ ٧٧) .
(٨) ليست في ب ، والسيرة .
(٩) في ط : ونستنصرها . وكذلك في السيرة .
(١٠) زيادة من ط . توافق نص السيرة .

بهم[١] إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخُلوفُ ، ونَسَوا ما كانوا عليه .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العُطاردي ، قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طُفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها ، من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عَرفات والمزدلفة ، وهَدْي البُدْن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فيوحّدونه بالتلبية ويدخلون[٢] معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] . أي : ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي .

وقد ذكر السهيلي[٣] وغيره : أن أول من لبّى هذه التلبية عمرو بن لُحي ، وأن إبليس تبدّى له في صورة شيخ ، فجعل يلقّنه ذلك فيسمع منه ، ويقول كما يقول ، واتّبعه العرب في ذلك .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون : لبيك لا شريك لك يقول : « قَدِ قَدِ »[٤] أي : حَسْب حسب .

وقد قال البخاري[٥] : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن آدم ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي حصين[٦] ، عن (أبي صالح)[٧] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « عمرو بن لُحَي بن قَمْعَة بن خِندف أبو خُزاعة » تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي : حدّثنا عمرو بن مجمع ، حَدّثنا إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال[٨] : « إن أول من سَيَّبَ السَّوائب ،

---

(١) سلخ بهم : خرج بهم .
(٢) في ط : ثم .
(٣) الروض الأنف (١/ ١٠٢) .
(٤) رواه مسلم (١١٨٥) في الحج ، باب التلبية وصفتها ووقتها .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٠) ، في المناقب ، باب قصة خزاعة .
(٦) في أ ، وط : حفص ، وهو سهو . والزيادة من ب ، والبخاري .
(٧) سقط من ط .
(٨) قوله : عمرو بن لحي . . . إلى هنا زيادة من ب يستقيم بها النص ، ففيه اضطراب من قبل .

وعبدَ الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيتُه يجرُّ أمعاءه في النار »تفرّد به أحمد[١] من هذا الوجه .

وهذا يقتضي أن عمرو بن لُحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكاملها ، كما زعمه بعضهم من أهل النسب ، فيما حكاه ابن إسحاق وغيره . ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك ، بل كالنص . ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه ، فقال البخاري : حدّثنا[٢] أبو اليمان : أخبرنا شُعيب ، عن الزهري ، قال : سمعت سعيد بن المسيِّب قال : البَحيرةُ التي يُمْنَعُ دَرُّها للطواغيت ولا يحلُبها أحدٌ من الناس ـ والسائبة ـ التي كانوا يُسَيِّبونها لآلهتهم فلا يُحملُ عليها شيء . قال ، وقال[٣] أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « رأيتُ عَمْرو بن عامر بن لُحَيّ[٤] الخزاعي يجر قُصْبَه في النار ، وكان أولَ من سيّب السوائب » .

وهكذا رواه البخاري[٥] أيضاً ، ومسلم[٦] من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به . ثمّ قال البخاري : ورواه ابن الهاد عن الزهري .

قال الحاكم : أراد[٧] رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت ، عن الزهري . كذا قال .

وقد رواه أحمد عن منصور[٨] بن سلمة الخزاعي [عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عمرو بن عامر][٩] يجر قُصْبَه في النار ، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة » . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بُخْت كما قال الحاكم . فالله أعلم .

وقال أحمد أيضاً[١٠] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمَر ، عن الزهري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَه في النار ، وهو أول من سَيَّب السوائب » .

---

(١) المسند (١/ ٤٤٦) .
(٢) في ط : وقال أبو اليمان . والحديث في البخاري رقم (٣٥٢١) ، في المناقب ، باب قصة خزاعة .
(٣) زيادة من ط ، والبخاري .
(٤) سقطت من ط .
(٥) صحيح البخاري رقم (٤٦٢٣) ، في تفسير سورة المائدة ، باب (١٣) .
(٦) صحيح مسلم رقم (٢٨٥٦) ، في الجنة وصفة نعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون .
(٧) زاد في ط : البخاري .
(٨) المسند (٢/ ٣٦٦) . وفي ط : « عمرو » وهو خطأ ، فلا نعرف في شيوخ أحمد من اسمه عمرو بن سلمة ، وما أثبتناه هو الصواب (وينظر تهذيب الكمال ٢٨/ ٥٣١) .
(٩) سقطت من ب بنقلة عين .
(١٠) المسند (٢/ ٢٧٥) .

وهذا منقطع من هذا الوجه . والصحيح : الزُّهري ، عن سعيد عنه كما تقدم .

وقوله في هذا الحديث والذي قبله « الخزاعي » يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسبٌ ، فلعل[١] ما وقع في الرواية من قوله « أبو خزاعة » [تصحيف من الراوي من (أخو خزاعة)][٢] ، أو أنه كان يُكنى بأبي خزاعة ، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلّهم . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق[٣] : حدّثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي : أن أبا صالح السمّان حدّثه : أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجَوْن الخزاعي : « يا أكْثَم ، رأيتُ عَمْرَو بنَ لُحي بن قَمعة بن خِنْدف يَجُرُّ قُصْبَه في النار ، فما رأيتُ رجلاً أشبهَ برجُلٍ منكَ بِه ولا بِكَ مِنْهُ » . فقال أكثم : عسى أن يَضُرَّني شبهه يا رسول الله ؟! قال : « لا ، إنك[٤] مؤمنٌ وهو كافر . إنه كانَ أولَ مَنْ غيّر دينَ إسماعيل فَنَصَبَ الأوثانَ ، وبَحَر البَحِيْرَةَ ، وسيَّب السائبة ، ووَصَلَ الوَصِيْلَة ، وحَمَى الحامي[٥] » .

ليس في الكتب من هذا الوجه . وقد رواه ابن جرير عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله . وليس في الكتب أيضاً .

وقال البخاري[٦] : حدّثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني ، حدّثنا حسان بن إبراهيم ، حدّثنا يونس ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جهنَّم يَحطم بعضُها بعضاً ، ورأيتُ عَمْراً يجرُّ قُصْبَه ، وهو أول من سيّب السوائب » . تفرّد به البخاري .

وروى الطبراني من طريق صالح[٧] ، عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك[٨] .

والمقصود أن عمرو بن لُحَي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غيّر بها دينَ الخليل ، فاتبعه العرب في ذلك ، فَضَلُّوا بذلك ضلالاً بعيداً بيّناً فظيعاً شنيعاً . وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) في ط : إليها مع .
(٢) سقطت من ب بنقلة عين .
(٣) السيرة (١/ ٧٥) . والقصب : الأمعاء .
(٤) لا زيادة من ط . والسيرة .
(٥) الأصنام لابن الكلبي ص(٥٨) . والوصيلة : الناقة البكر تنتج أنثى ثم أنثى ، يسيبونها لطواغيتهم . والحام : فحل الإبل ، يتركونه للطواغيت ويعفونه من الحمل .
(٦) صحيح البخاري رقم (٤٦٢٤) ، في تفسير سورة المائدة ، باب (١٣) .
(٧) في معجمه الكبير (١٠٨٠٨) ، وصالح هو مولى التوأمة .
(٨) في ب : مرفوعاً بنحوه نحو ذلك .

ٱلْكَذِبَ ﴾ . . الآية [النحل : ١١٦] . وقال تعالى ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

وقد تكلّمنا على هذا كلّه مبسوطاً وبيّنا اختلافَ السلف في تفسير[1] ذلك ، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ . ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦ ـ ١٤٠] .

قال البخاري في صحيحه[2] : باب جهل العرب :

حدّثنا أبو النُّعمان ، حدّثنا أبو عوانة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [١٤٠] .

وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنّها كبيرُهم عَمرو بن لُحَي قبّحه الله مصلحةً ورحمةً بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفترٍ في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتّبعه هؤلاء الجهلةُ الطَّغَام[3] فيه ، بل قد تابعوه فيما هو أطَمّ[4] من ذلك وأعظم بكثير ، وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل ، وبدّلوا ما كان اللهُ بعث به إبراهيمَ خليلَه من الدين القويم والصراط المستقيم ، من توحيد عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وتحريمِ الشرك ، وغيّروا شعائر الحج ومعالمَ الدين بغير علم ولا برهان ولا دليلٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ ، واتّبعوا في ذلك مَن كان قبلهم من أمم المشركين ، وشابهوا قومَ نوح ،

---

(١) في ب : تفسيرنا .
(٢) (٦/ ٥٥٠) ، في المناقب . وفيه : باب قصة زمزم وجهل العرب .
(٣) الطَّغَام : أوغاد الناس .
(٤) في ب : أطم وأعظم من ذلك بكثير . وأطَمّ : أدهى وأعجب .

وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ، ولهذا بعث الله إليهم نوحاً وكان أول رسول بُعث يَنهى عن عبادة الأصنام ، كما تقدم بيانه في قصة نوح[١] ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ الآية [نوح : ٢٣ ـ ٢٤] .

قال ابن عباس : كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . وقد بيّنا كيفيةَ ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته هاهنا .

قال ابن إسحاق[٢] وغيره : ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل ، فكان وَدٌّ لبني كلب بن وَبْرة[٣] بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة . وكان منصوباً بدَوْمَة الجَنْدَلِ .

وكان سُواع لبني هذيل بن إلياس بن مُدْرِكة بن مضر . وكان منصوباً بمكان يقال له رُهَاط[٤] .

وكان يَغُوث لبني أَنْعُمَ من طيّئ ولأهل جُرَش من مذحِج وكان منصوباً بجرش[٥] .

وكان يَعُوقُ منصوباً بأرض هَمْدان من اليمن لبني خَيْوان بطن من هَمْدان[٦] .

وكان نَسْر منصوباً بأرض حِمْير لقبيلة يقال لهم : ذو الكلاع[٧] .

قال ابن إسحاق : وكان لخَولان بأرضهم صَنمٌ يقال له : عم أنس[٨] يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله فيما يزعمون ، فما دخل في حق عم أنس من حق الله الذي قسموه له تركوه له ، وما دخل في حق الله من حق عم أنس ردّوه عليه ، وفيهم أنزل الله ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ .

قال : وكان لبني مِلْكان بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة صنم يقال له : سَعْدٌ ، صخرةٌ بفلاة أرضهم طويلة ، فأقبل رجلٌ منهم بإبلٍ له[٩] ليقفها عليه التماسَ بركتِه ، فيما يزعم ، فلما رأته الإبل ، وكانت مرعيةً لا تُركب ، وكان الصنم يُهرَاق عليه الدماء ، نفرت منه فذهبت في كل وجه ، وغضب ربها ، فأخذ حجراً فرماه به ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت عليّ إبلي ، ثم خرج في طلبها ، فلما اجتمعت له قال :

---

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب . والسيرة (١/ ٧٨) .
(٢) السيرة (١/ ٧٨) ، والروض الأنف (١/ ١٠٢) .
(٣) كذا في ب . وهو الصحيح . وفي أ وط : مرة وهو سهو . الأصنام لابن الكلبي ص(١٠) .
(٤) الأصنام ص(٩) .
(٥) الأصنام ص(١٠) ، ولم يذكر أنه لطيّئ .
(٦) الأصنام ص(١٠) .
(٧) الأصنام ص(١١) .
(٨) في السيرة : عُميانس : وأشار المحقق إلى ما أورده ابن كثير . وفي الأصنام ص(٤٣) عُمْيَانُس .
(٩) زاد في ط : مؤبلة . وفي الأصنام ص(٣٦) ، ذكر موضع الصنم أنه بساحل جدة . والتنوفة : القفر .

أتينـا إلـى سعـدٍ ليجمـعَ بيننـا   فشتّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعـدِ[١]
وهـل سعـدُ إلّا صَخـرةٌ بِتنـوفـةٍ   من الأرض لا يَهدي لغيّ ولا رُشْدِ[٢]

قال ابن إسحاق : وكان في دوس صنم[٣] لعمرو بن حُممة الدوسي .

قال وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له : هبل ، وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لُحَي لعنه الله .

قال ابن إسحاق[٤] : واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما . ثم ذكر أنهما كانا رجلاً وامرأةً ، فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين[٥] . ثم قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن عَمْرة أنها[٦] سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأةً من جُرهم ، أحدثا في الكعبة ، فمسخهما الله عز وجل حجرين . والله أعلم .

وقد قيل[٧] إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، فعند ذلك نُصِبا عند الصفا والمروة ، فلما كان عمرو بن لُحي نقلهما فوضعهما على زمزم وطاف الناس بهما . وفي ذلك يقول أبو طالب : [من الطويل]

وحيث يُنيخُ الأشعَرونَ ركابَهُم   بِمُفْضَىٰ السُّيولِ من إسافٍ ونائلِ[٨]

وقد ذكر الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور[٩] .

وقد ذكر السهيلي : أن أجا وسلمى وهما جبلان بأرض الحجاز إنما سميا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحي فَجَرَ بسلمى بنت حام فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطيّئ يقال له : فَلْس[١٠] .

---

(١) في ط : ليجمع شملنا . وكذلك في الأصنام ص(٣٧) .
(٢) في ط : لا يدعو . وفي الأصنام : لا يُدعى .
(٣) هو ذو الكفّين ، كما ذكر ابن الكلبي ص(٣٧) .
(٤) السيرة (١/ ٨٢) .
(٥) في ب : فمسخا حجرين .
(٦) في ط ، والسيرة : أنها قالت سمعت .
(٧) الروض الأنف (١/ ١٠٥) .
(٨) البيت في السيرة (١/ ٨٣) ، وروض الأنف (١/ ١٠٦) ، والأصنام ص(٢٩) .
(٩) المغازي (٢/ ٨٤١) .
(١٠) الروض الأنف (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨) . والأصنام ص(٥٩) .

قال ابن إسحاق[١] : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسَّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . فإذا قدم من سفره تمسَّح به ، فكان[٢] أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال : فلما بعث اللهُ محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سَدَنة وحُجَّاب ، وتُهدي لها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها[٣] ، وتنحر عندها كما تنحر عندها[٤] . وهي مع ذلك تعرف فَضْل الكعبة عليها ، لأنها بناءُ إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده .

فكانت لقريش وبني كنانة العُزَّى بِنَخْلَة ، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سُلَيم حُلفاء بني هاشم ـ وقد خرّبها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي ـ .

قال : وكانت اللاتُ لثقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجّابها بني مُعَتّب من ثقيف[٥] وخرّبها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي .

[قال][٦] : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقُدَيْد[٧] . وقد خرَّبها أبو سفيان أيضاً ، وقيل علي بن أبي طالب كما سيأتي .

قال : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة[٨] ، وكان يقال له : الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية . وقد خرَّبه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتي .

قال : وكان فلس لطيّىء[٩] بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم .

قال : [وكان ريآم[١٠] بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم][١١] ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير ،

---

(١) السيرة (١/ ٨٣) .
(٢) في ط : فكان ذلك .
(٣) في ب : وتطوف بها كتطوافها بالكعبة .
(٤) ليست في ط . ولا السيرة .
(٥) السيرة (١/ ٨٥) .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) قديد : موضع قرب مكة . والمشلل : جبل يهبط منه إلى القديد من ناحية البحر .
(٨) تبالة : موضع على مسيرة سبع ليال من مكة .
(٩) في ط . والسيرة : لطيىء ومن يليها بجبلي طيء . وفي الأصنام ص(٥٩) : وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان .
(١٠) في ط : رآم .
(١١) سقط من ب بنقلة عين .

وقصة الحَبْرَيْن حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود .

قال : وكانت رُضاء[١] بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر ، واسمه عمرو[٢] بن ربيعة بن كعب : [من الكامل]

ولقد شددت على رُضاءِ شَدَّةً فتركتُها قفراً بقاعٍ أسحما
وأعان عبد الله في مكروهها وبمثلِ عبد الله أَغْشى المَحْرما[٣]

ويقال : إن المستوغر هذا عاش ثلاثمئة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً ، وهو الذي يقول : [من الكامل]

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا
مئة حدتها بعدها مئتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا يوم يمرُّ وليلة تحدونا[٤]

قال ابن هشام : وتُروى[٥] لزهير بن جناب بن هُبل .

قال السهيلي : ومن المعمَّرين الذين جازوا المئتين والثلاثمئة زهير هذا ، وعبيد بن شرية ، ودَغْفَل ابن حنظلة النسّابة ، والربيع بن ضبع الفزاري ، وذو الإصبع العدواني ، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان ، وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه ، وتقوَّم ظهره بعد اعوجاجه[٦] .

قال[٧] : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب بن وائل وإياد بِسَنْداد[٨] ، وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة[٩] : [من الكامل]

---

(١) في الأصنام ص(٣٠) : رُضَى .
(٢) في أ ، و : ب ، و : ط و : كعب بن ربيعة . . . وهذا غير معروف . ألقاب الشعراء (في نوادر المخطوطات (٢/ ٣٠٤) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٨٤) ، والمعمرين (١٢ ـ ١٣) ، والأصنام ص(٣٠) .
(٣) في الأصنام : ودعوت . . . ولمثل عبد الله يغشى المحرما .
(٤) قوله : بقَى ، يريد بقيَ ، وهي لغة لطيىء . والأبيات في المعمرين ص(١٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٨٤) . إضافة إلى السيرة .
(٥) في ط : وتروى هذه الأبيات . وزهير بن جناب بن هبل الكلبي من المعمرين أيضاً . انظر المعمرين : (٣١) .
(٦) الروض الأنف (١/ ١١٠) . وانظر ذكراً لهؤلاء في المعمرين .
(٧) ابن إسحاق (١/ ٨٨) .
(٨) سنداد : من منازل إياد أسفل سواد الكوفة .
(٩) كذا في الأصل . والسيرة . وأشار ابن هشام إلى أن هذا البيت للأسود بن يعفر النهشلي . وليست الأبيات في ديوان الأعشى بشرح الدكتور محمد محمد حسين ، رحمه الله .

بين الخَوْرَنَقِ والسَّدِيرِ وبارقٍ   والبيتِ ذي الشُّرفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة[١] : [من الكامل]

ولقد علمتُ وإن تطاول بي المدى   أن السبيل سبيل ذي الأعواد
ماذا أؤمّل بعد آل محرّق   تركوا منازلهم وبعد إياد
نزلوا بأنقرةٍ يسيل عليهم   ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذي الشرفات من سنداد
جرت الرياح على محلّ ديارهم   فكأنما كانوا على ميعاد
وأرى النعيم وكل ما يُلهى به   يوماً يصير إلى بِلىً ونفاد

قال السهيلي[٢] : الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له : سِنِمَّار في عشرين سنة ، ولم ير بناء أعجب منه ، فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله . ففي ذلك يقول الشاعر[٣] : [من البسيط]

جزاني جزاه الله شر جزائه   جزاء سنمَّار وما كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجة   يعلقْ عليه بالقرامد والسكب[٤]
فلما انتهى البنيان يوماً تمامه   وآض كمثل الطود والباذخ الصعب
رمى بسنمَّار على حق رأسه   وذاك لعمر الله من أعظم الخطْب[٥]

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان[٦] . والسِّنمّار من أسماء القمر[٧] .

والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت ، لما جاء الإسلام ، جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه

---

(١) هذه الأبيات ضمن قصيدة مفضلية للأسود بن يعفر ، ص(٢١٦) وما بعدها ، مع بعض اختلاف في الرواية . وكذلك نسب السهيلي البيت الأول للأسود بن يعفر .

(٢) الروض الأنف (١/ ١١١) ومن قوله : الخورنق إلى قوله : السهيلي وبداية المقطع الثاني سقط من ب بنقلة عين .

(٣) هو شرحبيل الكلبي كما في ثمار القلوب للثعالبي (١/ ١٣٩) . ولعبد العزى بن امرىء القيس الكلبي كما في الأمالي الشجرية (١/ ١٠٢) .

(٤) في ط ، وب : سوى رضفه . . . يعد عليه . . والسكب : النحاس أو الرصاص .

(٥) في ب ، ط : من أقبح .

(٦) حياة الحيوان (١/ ٢٣) .

(٧) زاد في ب : وقال آخر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر   وحسن ظن كما يجزى سنمَّار

وأما السدير : فبيت الملك . وذو الكعبات ، وهي الشرفات ، بيت كانوا ينحرون عنده ويطوفون به كما ذكره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم .

سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ، حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد الله وحده لا شريك له ، كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

***

خبر عدنان جد عرب الحجاز
[وهو الذي ينتهي إليه نسب رسول الله ﷺ][1]

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل . على أقوال كثيرة ، فأكثر ما قيل : أربعون أباً ، وهو الموجود عند أهل الكتاب ، أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا ، على ما سنذكره . وقيل : بينهما ثلاثون . وقيل : عشرون . وقيل : خمسة عشر . وقيل : عشرة . وقيل : تسعة . وقيل : سبعة . وقيل : إن أقل ما قيل في ذلك : أربعة ، لما رواه موسى بن يعقوب[2] الزمعي ، عن عمته ، عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أُدَدْ بن زند بن اليرى بن أَعْراق الثرى »[3] . قالت أم سلمة : فَزَنْد : هو الهَمَيْسع ، واليَرى : هو نابت ، وأعراق الثرى : هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار ، كما أن النار لا تأكل الثرى .

قال الدارقطني : لا نعرف زنداً إلا في هذا الحديث وزَنْدَ بن الجَون[4] أبا دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي[5] ، وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون ، وذلك أن معدّ بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر ثنتي عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبري[6] وغيره أن الله تعالى أوحى[7] إلى أرميا بن حلقيا أن اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أني سلطته على العرب ، وأمر الله لأرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي

---

(١) سقط من ط .

(٢) تمم نسبه في ط فقال : ابن يعقوب بن عبد الله بن وهب بن زمعة . تقريب التهذيب (٢/ ٢٨٩) .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) ، ورواه السهيلي في الروض (١/ ١١) ، وقال : أصح شيء روي فيما بعد عدنان .

(٤) في ط : الجون وهو أبو دلامة . والخبر نقله السهيلي في الروض (١/ ١١) ، عن الدار قطني . وأبو دلامة شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، توفي سنة (١٦١هـ) . وله ديوان شعر جمعه الدكتور رشدي علي حسن وطبع في مؤسسة الرسالة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م) .

(٥) الروض الأنف (١/ ١١) .

(٦) تاريخه (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩) .

(٧) زاد في ط : في ذلك الزمان .

لا تصيبه النقمة[١] ، فإني مستخرجٌ من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل . ففعل أرميا ذلك ، واحتمل معداً[٢] إلى أرض الشام ، فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن[٣] من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده ، ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب[٤] . وكان رخيا كاتب أرميا قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرميا فيحفظ نسب معد[٥] لذلك . والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رَفْعَ النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلي[٦] : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه ، كابن إسحاق والبخاري والزُّبير بن بكار والطبري وغيرهم من العلماء . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال من أين له بعلم[٧] ذلك ؟ فقيل له : فإلى إسماعيل ؟ فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به ، وكره أيضاً أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال : إبراهيم بن فلان بن فلان ، هكذا ذكره المعَيْطي في كتابه[٨] . قال : وقول مالك هذا نحو مما روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل[٩] . وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً[١٠] . والأصح

(١) زاد في ط : فيهم .
(٢) زاد في ط : على البراق .
(٣) في الطبري (١/ ٥٦٠) ، أن معداً تزوج معانة بنت جوشم بن جلهمة الجرهمي .
(٤) تمحضت : تخلصت من الشوائب ، وزاد في ب هنا . ذكر السهيلي إنما سلط الله تعالى عليهم بخت نصر على العرب لأنه كان بعث فيهم رسولاً يقال له : شعيب بن ذي مهدم ، فكذبوه وقتلوه ، فقبره بجبل باليمن يقال له : صنين . قال : وليس بشعيب صاحب مدين ، وذاك شعيب بن عَيفي ، ويقال : ابن صيفون . قال : وبعث الله تعالى إلى العرب نبياً آخر يقال له : حنظلة بن صفوان ، فكذبوه أيضاً ، فسلط الله عليهم . بخت نصر . وفي هذا الذي قاله نظر من وجوه ، من آكدها قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والمراد بهم العرب ؛ لا أهل مكة على الخصوص ، وسنزيد هذا بسطاً فيما بعد ، إن شاء الله تعالى . الروض الأنف ، (١/ ١٢) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) .
(٥) زاد في ب : وكان النسب بينه وبين إسماعيل قريباً من أربعين أباً كما تقدم ، لكن تختلف ألفاظ الضابطين . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٤) .
(٦) الروض الأنف (١/ ١٤) .
(٧) في ط : وقال له من له علم ذلك .
(٨) قال السهيلي : وقع هذا الكلام لمالك في الكتاب الكبير المنسوب إلى المعيطي ، وإنما أصله لعبد الله بن محمد بن حنين ، وتممه المعيطي ، فنسب إليه .
(٩) من قوله : روي عن . . . إلى هنا زيادة من ط ، والسهيلي .
(١٠) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ، ونسبه لابن سعد وابن عساكر ، من حديث ابن عباس ، وهو ضعيف .

عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب إنما تنسب إلى عدنان .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه « الإنباه في معرفة قبائل الرواه » روى ابن لهيعة عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا وراء قحطان إلا تخرُّصاً ، وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر[١] : وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأودي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [إبراهيم : ٩] قالوا : كذب النسابون[٢] .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا[٣] ، والمراد أن من ادعى إحصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم ، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك[٤] .

قال أبو عمر : والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور ابن[٥] يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في « السيرة »[٦] .

قال ابن هشام : ويقال : عدنان بن أد ، يعني عدنان بن أد بن أدد . ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام .

وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً لا يتمارى فيها اثنان ، والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح . وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف والأصل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله : [من الطويل]

---

(١) زاد في ب : ابن عبد البر .
(٢) الإنباه (١٧ ـ ١٩) وتفسير الطبري (١٣/ ١٢٥) .
(٣) زاد في ب : إليه .
(٤) الإنباه (١٩) وزاد في ب : وقد حرَّر ذلك مستقصىً مطولاً الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه ، وذكر الخلاف في ذلك مبسوطاً رحمه الله . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٤) .
(٥) زاد في ط : ابن تيرح . وكذلك في السيرة .
(٦) السيرة (١/ ٢) ، والإنباه (٢٠) .

مدحتُ رسولَ الله أبغي بمدحِه ... وُفورَ حظوظي من كريمِ المآربِ
مدحتُ امرأً فاقَ المديحَ موحّداً ... بأوصافه عن مُبعِدٍ ومقارِب[(١)]
نبيّاً تسامى في المشارقِ نورُه ... فلاحتْ هَواديه لأهل المغاربِ
أتتنا به الأنباءُ قبلَ مجيئه ... وشاعتْ به الأخبارُ في كلّ جانب
وأصْبَحَتِ الكُهّانُ تهتفُ باسمهِ ... وتنفي به رجمَ الظنونِ الكواذب
وأُنطِقت الأصنامُ نطقاً تبرّأت ... إلى الله فيهِ من مَقالِ الأكاذب
وقالت لأهل الكفر قولاً مبيّناً : ... أتاكم نبيٌّ من لؤيّ بنِ غالب
ورامَ استراقَ السمع جنٌّ فزيّلتْ ... مقاعدَهم منها رجومُ الكواكب[(٢)]
هدانا إلى ما لم نكنْ نهتدي له ... لطولِ العمى من واضحات المذاهب
وجاء بآيات تبيّن أنها ... دلائلُ جبّارٍ مثيبٍ معاقب
فمنها انْشقاقُ البدرِ حين تعمّمت ... شعوبُ الضيا منه رؤوس الأخاشب[(٣)]
ومنها نبوعُ الماء بينَ بَنانه ... وقد عدِم الورّاد قربَ المشارب[(٤)]
فروّى به جمّاً غفيراً وأسْهلت ... بأعناقِهِ طوعاً أكُفّ المذانِب[(٥)]
وبئرٍ طفتْ بالماء من مَسّ سَهْمِه ... ومن قبلُ لم تسمح بمَذْقةِ شارب[(٦)]
وضرع مَرَاهُ فاستدرّ ولم يكنْ ... به دِرّةٌ تُصغي إلى كفّ حالب
ونُطقٍ فصيحٍ من ذِراع مبينةٍ ... لكيدِ عدوٌّ للعداوة ناصب
وإخبارِه بالأمر من قبلِ كونه ... وعندَ بواديه بما في العواقب
ومن تلكم الآياتِ وَحيٌ أتى به ... قريب المآتي مستجمّ العجائب
تقاصرتِ الأفكارُ عنه فلم يطعْ ... بليغاً ولم يَخْطُر على قلبِ خاطب
حَوى كلَّ عِلمٍ واحْتوى كلَّ حِكمةٍ ... وفاتَ مرامَ المستمرّ الموارب

---

(١) في ط : عن معبد .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٧ - ١٨] .

(٣) قال عز وجل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . وحديث انشقاق القمر مشهور أورد ابن الأثير رواياته في جامع الأصول (١١/ ٣٩٦) عن البخاري ومسلم والترمذي . والأخاشب : الجبال .

(٤) حديث نبع الماء بين أصابعه ﷺ أخرجه مسلم (٣٠٠٦ وحتى ٣٠١٤) ، في الزهد ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر .

(٥) المذانب : جمع مِذْنب وهو سيل الماء إلى الأرض .

(٦) المذقة : الشّربة .

أتانا به لا عَن رَويَّة مرتىءٍ ... ولا صُحْفِ مُسْتَمْلٍ ولا وصفِ كاتب
يواتيه طوراً في إجابةِ سائلٍ ... وإفتاءِ مستفْتٍ ووعْظ مخاطب
وإتيان برهانٍ وفرضِ شرائعٍ ... وقصٍّ أحاديثٍ ونصّ مآرب
وتصريف أمثالٍ وتثبيتِ حُجّة ... وتعريفِ ذي جَحدٍ وتوقيف كاذب
وفي مَجمع النادي، وفي حومةِ الوغى ... وعندَ حدوثِ المعضِلات الغرائب
فيأتي على ما شئتَ من طُرقاته ... قويمَ المعاني مستدرَّ الضَّرائب
يصدّقُ منه البعضُ بعضاً كأنما ... يلاحَظ معناه بعينِ المراقب
وعجْزُ الورَى عن أن يجيؤوا بمثلِ ما ... وصَفناهُ معلومٌ بطول التجارب
تأبَّى (بعبدِ الله) أكرمِ والدٍ ... تبلّجَ منه عن كريمِ المناسب
و (شيبة) ذي الحمدِ الذي فخرت به ... قريشٌ على أهلِ العُلَى والمناصب
ومَن كان يُستسْقَى الغمامُ بوجهه ... ويُصدَر عن آرائه في النوائب
و (هاشمٌ) الباني مُشيد افتخارِه ... بعزّ المساعي وامتهانِ المواهب[1]
و (عبدِ مناف) وهو علَّم قومَه اشـ ... ـتطاط الأماني واحتكامَ الرغائب
وإن (قُصَيّاً) من كريمِ غِراسه ... لفي مَنهلٍ لم يَدنُ من كف قاضب
به جَمع الله القبائلَ بعد ما ... تقسَّمها نهبُ الأكفّ السوالب
وحلَّ (كلابٌ) من ذُرى المجدِ معقلاً ... تقاصَرَ عنه كلُّ دانٍ وغائب
و (مُرَّة) لم يحلل مريرةَ عزمه ... سِفاهُ سَفيهٍ أو مَحُوبةُ حائب[2]
و(كعب) عَلاَ عن طالبِ المجدِ كعبُه ... فنال بأدنى السعي أعلا المراتب
وألوى (لؤيٌّ) بالعُداة فطُوّعت ... له هِمَمُ الشُّمِّ الأنوفِ الأغالب
وفي (غالبٍ) بأسٌ أبَى البأسُ دونهم ... يُدافع عنهم كلّ قِرنٍ مُغالب
وكانت (لفهرٍ) في قريشٍ خَطابة ... يعوذُ بها عندَ اشتجارِ المُخاطب
وما زالَ منهم (مالكٌ) خيرَ مالكٍ ... وأكرمَ مصحوبٍ وأكرمَ صاحبِ
و(للنضر) طولٌ يقصُرُ الطَّرفُ دونَه ... بحيثُ التقى ضوءَ النجومِ الثواقب
لَعَمري لقد أبدى (كِنانةُ) قبله ... محاسنَ تأبى أن تَطوعَ لغالب[3]

---

(١) في ط : وامتنان .
(٢) الحوبة : الإثم .
(٣) كذا في ط . وهو الصحيح . وفي أ وب بعده .

ومـن قبلـه أبقـى (خُـزيْمَـةُ) حَمْـدَه … تليـدَ تُـراثٍ عـن حَميـدِ الأقـارب[١]
و(مـدرِكـةٌ) لـم يـدركِ النـاسُ مثلَـه … أعـفّ وأعلـى عـن دنـيّ المكـاسـب
و(إليـاسُ) كـان اليـأسُ منـه مُقـارِنـاً … لأعـدائـه قبـل اعتـدادِ الكتـائـب
وفـي (مُضَـرٍ) يُستجمَـع الفخـرُ كلُّـه … إذا اعتـركـتْ يـومـاً زُحُـوفُ المقانـب[٢]
وحـلَّ (نـزارٌ) مـن ريـاسـة قـومـه … محـلاً تسـامـى عـن عيـونِ الـرواقـب[٣]
وكـان (معـدّ) عِـدَّةً لـوليّـه … إذا خـافَ مـن كيـدِ العـدوّ المحـارب
ومـا زال (عـدنـان) إذا عُـدّ فضلُـه … تـوحَّـد فيـه عـن قـريـنٍ وصـاحـب
و (أُدّ) تـأدّى الفضـلُ منـه بغـايـةٍ … وإرثٍ حـواهُ عـن قُـروم أشـايـب[٤]
وفـي (أُدَدٍ) حلْـم تـزيَّـنَ بـالحِجـا … إذا الحلـم أزهـاهُ قطـوبُ الحـواجـب
ومـا زال يَستعلـي (هَميسـعُ) بـالعلـى … ويبلـغ آمـالَ البعيـدِ المـراغـب[٥]
و (نبـتٍ) بنتْـهُ دوحـةُ العـزّ وابتغـى … معـاقلَـه فـي مُشْمَخـرٍ الأهـاضـب[٦]
وحِيـزتْ (لِقيـذارٍ) سمـاحـةُ حـاتـم … وحكمـةُ لقمـانٍ وهمّـةُ حـاجـب
هُمـوا نسـلُ (إسمـاعيـل) صـادقِ وعـدِه … فمـا بعـدَه فـي الفخـرِ مَسْعـىً لـذاهـب
وكـان (خليـلُ الله) أكـرمَ مـن عَنَـت … لـه الأرضُ مـن مـاشٍ عليهـا وراكـب
و (تـارحُ) مـا زالـتْ لـه أرْيَحِيّـة … تُبيّـنُ منـه عـن حميـد الضـرائـب[٧]
و (نـاحـورُ) نحّـارُ العِـدى حُفظـت لـه … مـآثـرُ لمَّـا يُحصِهـا عـدُّ حـاسـب
و (أشـرغُ) فـي الهيجـاء ضَيْغَـمُ غـابـةٍ … يقـدُّ الطّلـى بـالمـرهَفـات القـواضـب[٨]
و (أرغـو) فنـابٌ فـي الحـروب مُحكَّـم … ضنيـنٌ علـى نفـس المشيـح المغـالـب
ومـا (فـالـغٌ) فـي فضلـه تِلـو قـومِـه … ولا (عابرٌ) من دونهم في المراتب[٩]
و (شالخ) و(ارفخشذ) و (سام) سمتْ بهم … سجـايـا حمتْهـم كـلّ زارٍ وعـائـب

---

(١) كذا في ط . وفي أ و ب : ومن بعده أبقى خزيمة بعده .
(٢) المقانب : جمع مِقْنب ، وهي جماعة الخيل والفرسان .
(٣) في ط : أهله .
(٤) القروم : السادة الفرسان الشجعان .
(٥) في ط : ويتبع .
(٦) المشمخر : العالي المرتفع .
(٧) في ط : المضارب .
(٨) الطلى : الأعناق .
(٩) كذا في ط . وفي أ و ب : دونه .

وما زال (نوحٌ) عند ذي العرش فاضلاً ... يعــدّده فــي المصطَفَيــن الأطــايــب
و (لمكٌ) أبوهُ كان في الرَّوْع رائعاً ... جـريئـاً علـى نفـس الكمـيِّ المضـارب
ومن قبلِ لمكٍ لم يزل (متوشلخ) ... يـذودُ العِـدى بـالـذائـدات الشـوازب
وكـانـت (لإدريـسَ) النبـيّ منـازلٌ ... مِــنَ الله لــم تُقــرن بهمّــة راغــب
و (يـاردُ) بحـرٌ عنـد آلِ سـراتـه ... أبــيُّ الخــزايــا مُستــدقّ المـآرب
وكـانـت (لمهـلاييـل) فيـه فضـائـلٌ ... مهــذَّبــةٌ مــن فــاحشــات المثــالــب
و (قينان) من قبلُ اقتنى مجدَ قومه ... وقـادَ بشـأوِ الفضـل وَخْـدَ الـركـائـب[1]
وكـان (أنـوش) نـاشَ للمجـد نفسَـه ... ونــزّهــا عــن مُــردِيـات المطـالـب
وما زال (شيثٌ) بالفضائل فاضلاً ... شـريفـاً بـريئـاً مـن ذميـم المعـايـب
وكلّهــمُ مــن نــورِ (آدم) أقبســوا ... وعــن عــودِه أجْنــوا ثمـار المنـاقـب
وكــان رســول الله أكــرمَ منجَــبٍ ... جرى فـي ظهـور الطيّبيـن المنـاجـب
مقــابلــةً آبــاؤه أمهــاتِــه ... مُبــرّأة مــنْ فــاضحــات المثــالــب
عليـه ســلامُ الله فــي كــلِّ شــارقٍ ... ألاحَ لنــا ضــوءاً وفــي كــلّ غــارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر[2] ، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزي في « تهذيبه »[3] من شعر الأستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشيء المعروف بابن شِرْشِير[4] ، أصله من الأنبار ، وورد بغداد ثمّ ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومئتين . وكان متكلماً معتزلياً ، يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه « المقالات » فيما يحكي عن المعتزلة . وكان شاعراً مطبقاً حتى إنه من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني ، فينظم في مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة والألفاظ البليغة، حتى نسبه بعضهم إلى التهوّس والاختلاط . وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدةً على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم ، وأرخ وفاته كما ذكرنا[5] .

قلت : هذه قصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه ، وحسن لفظه ، واطلاعه واضطلاعه واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره ، فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه .

---

(١) الوخْد : الإسراع .
(٢) الإنباه على قبائل الرواه (٢١/ ٢٥) .
(٣) تهذيب الكمال (١/ ١٧٧ ـ ١٨٠) .
(٤) ترجمته في : وفيات الأعيان (٣/ ٩١) ، والسير (١٤/ ٤٠) .
(٥) تاريخ مدينة السلام (١١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩) (ط. د. بشار) .

ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجَاز إلى عدنان[١]

وذلك لأن عدنان وُلِد له ولدان : معدّ وعك . قال السهيلي : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث ، وآخر يقال له[٢] المذهب . قال وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحاك . وقيل إن الضحاك ابن لمعدّ لا ابن عدنان . قال : وقيل : إن عدن الذي تُعرف به مدينةُ عدَن ، وكذلك أَبْيَن ، كانا ابنين لعدنان . حكاه الطبري[٣] . فتزوج عك في الأشعريين وسَكَن في بلادهم من اليمن ، فصارت لغتهم واحدة[٤] ، فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم فيقولون : عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن الغوث ، ويقال : عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الأسد ، يقال : الريث بدل الذيب ، والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان[٥] . قال عباس بن مرداس : [من الطويل]

وعكّ بن عدنانَ الذين تَلَقَّبُوا   بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطرد[٦]

وأما معد : فوُلِد له أربعة : نزار ، وقضاعة ، وقُنُص ، وإياد . وكان قضاعةُ بكرَه ، وبه كان يُكنى ، وقد قدّمنا[٧] الخلاف في قضاعة ، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق[٨] وغيره . والله أعلم .

وأما قُنُص : فيقال : إنهم هلكوا ولم يبقَ لهم بقيةٌ ، إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة كان من سُلالته على قول طائفة من السلف[٩] . وقيل بل كان من حمير ، كما تقدم . والله أعلم.

وأما نزار : فولد لهم ربيعة ومضر وأنمار . قال ابن هشام : وإياد بن نزار كما قال الشاعر[١٠] : [من الرمل]

وفُتُــوٌّ حَسَــنٌ أَوْجُهُهُــم   مِن إيادِ بنِ نزار بن مَعَدّ

---

(١) في ط : أصول أنساب عرب الحجاز .
(٢) قوله : وآخر يقال له ، زيادة من ط ، توافق نص السهيلي (١/ ١٨) ، وكذلك بقية الزيادات التالية في هذا النص .
(٣) كذا في ط . ومثله في الروض الأنف . ونص أ ، وب : وقيل إن عدن وأبين اللذين باليمن اللذين تنتسب إليهما هذان اللذان كانا ابنين لمعد بن عدنان . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٠) .
(٤) السيرة (١/ ٨) .
(٥) انظر الروض الأنف (١/ ١٨) .
(٦) السيرة (١/ ٩) ، والروض (١/ ٢٠) .
(٧) في فصل (ذكر أخبار العرب) من هذا الجزء .
(٨) السيرة (١/ ١٠) .
(٩) السيرة (١/ ١١) .
(١٠) نسب ابن هشام البيت إلى الحارس بن دوس الإيادي ، وقال : ويروى لأبي داود الإيادي . السيرة (١/ ٧٤) . والروض الأنف (١/ ٩٧) .

قال : وإياد ومضر شقيقان ، وأمهما : سَوْدة بنت علّ بن عدنان . وربيعة وأنمار شقيقان ، أمهما شُقيقة ، ويقال[١] : جُمعة بنتُ عك بن عدنان .

قال ابن إسحاق[٢] : فأما أنمار فهو والد خَثْعَم ، وبَجِيلة ، قبيلة جرير بن عبد الله البجلي[٣] . قال وقد تيامنت فلحقت باليمن . قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون : أَنمار بن إراش بن لِحْيان بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

قلت : والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا . والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حَدا ، وذلك لأنه كان حَسَنَ الصوت ، فسقط يوماً عن بعيره ، فَوَثِيَت يده فجعل يقول : وايدياه وايدياه ، فأَعْنَقَتِ الإبل لذلك[٤] .

قال ابن إسحاق[٥] : فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس وعَيلان ، ووُلد لإلياس مُدركة وطابخة وقَمَعَة ، وأمهم خِنْدف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن إسحاق : وكان اسم مُدركة عامراً ، واسم طابخة عمراً ، ولكن اصطاد صيداً فبينا هُما يطبخانه إذ نفرت الإبل ، فذهب عامر في طلبها حتى أدركها ، وجلس الآخر يطبخ ، فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك ، فقال لعامر : أنت مُدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة[٦] .

قال : وأما قَمعَة فيزعم نُسّاب مُضَر أن خُزاعة من ولد عمرو بن لُحي بن قمعة بن إلياس[٧] . قلت والأظهر أنه منهم لا والدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم[٨] . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فولد مُدركة : خُزيمة وهذيل ، وأمهما امرأة من قُضاعة . وولد خُزيمة : كنانة

---

(١) في ط : وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان ، ويقال . . . وفي تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٨) : أمهما جدالة بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو ، من جرهم .

(٢) السيرة (١/ ٧٤) .

(٣) من أعيان الصحابة ، بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم ، وكان أميراً نبيلاً . بديع الحسن كامل الجمال . توفي سنة (٥١هـ) وقيل (٥٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٣٠) .

(٤) وثيت : انكسرت . وأعنقت الإبل : أسرعت . والخبر في : الأوائل لابن قتيبة (٤٢ ـ ٤٣) (تح . محمد بدر الدين القهوجي ، بإشراف محمود الأرناؤوط ـ طبع دار ابن كثير ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) . والروض الأنف (١/ ١٠) ، والأوائل للحنبلي ص (١١٩) (ط . دار الإيمان ـ دمشق ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م) .

(٥) السيرة : (١/ ٧٥) .

(٦) النص عن السيرة (١/ ٧٥) ، مع اختلاف وتصرف به . وانظر تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٧) .

(٧) في خبر خزاعة وعمرو بن لحي من هذا الجزء .

(٨) السيرة (١/ ٩٢) .

وأسداً وأَسَدَة والهون . وزاد أبو جعفر الطبري(١) في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة : عامراً ، والحارث ، والنضير ، وغنماً ، وسعداً ، وعوفاً ، وجرولاً ، والحدال ، وغزوان .

قال وولد كنانة النضر ومالكاً وعبد مناة ومِلْكان(٢) .

الكلام على(٣) قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنَانة

قال ابن إسحاق(٤) : وأم النَّضر بَرَّةُ بنت مرّ بن أد بن طابخة ، وسائر(٥) بنيه لامرأة أخرى . وخالفه ابن هشام فجعل برَّة بنت مرّ أم النضر ومالك ومِلكان . وأم عبد مناة هالة بنت سُويد بن الغطريف من أزد شَنُوءة . قال ابن هشام : النضر هو قُريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . قال : ويقال : فِهر بن مالك هو قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة(٦) النسب كالشيخ أبي عمر بن عبد البر ، والزبير بن بكار ومصعب ، وغير واحد(٧) .

قال أبو عُبيد ، وابن عبد البر : والذي عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة ، لحديث الأشعث بن قيس .

قلت : وهو الذي نصّ عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه .

ثم اختار أبو عمر أنه فِهر بن مالك ، واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك . ثم حكى اختيار هذا القول عن الزبير بن بكّار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان ، قال : وإليهم المرجع في هذا الشان . وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نُسَّاب قريش [وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك ، والذي عليه من أدركت من نُسّاب قريش](٨) أن ولد

---

(١) فيما نقله ابن كثير عن الطبري هنا لبس . ونص الطبري (٢/ ٢٦٥) : واسم النضر : قيس ، وأمه برة بنت مر بن أد بن طابخة . وإخوته لأبيه وأمه : نُضير ، ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو وسعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وحُدال . وأخوهم من أبيهم عبد مناة ، وأمه فُكيهة .

(٢) السيرة (١/ ٩٣) . وفي الخبر تأخير في نسخة ب .

(٣) قوله : الكلام على ليس في ط .

(٤) السيرة (١/ ٩٣) .

(٥) سائر الشيء بقيته .

(٦) في ط : أئمة علم .

(٧) الروض الأنف (١/ ١١٥ ـ ١١٦) .

(٨) سقطت من ب ، بنقلة عين .

فهر بن مالك قريش ، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ، ثم نصر هذا القول نَصْراً عزيزاً وتحامى له ونحوه بأنه أعلم[١] بأنساب قومهم وأحفظ لمآثرهم .

وقد روى البخاري[٢] من حديث كليب بن وائل قال : قلت لرَبيبة النبي ﷺ يعني زينب ، في حديث ذكره : أخبريني عن النبي ﷺ ممن كان ، من مضر ؟ قالت : فممن كان إلا من مضر ، كان[٣] من بني النضر بن كنانة .

وقال الطبراني[٤] : حدّثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدّثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدّثنا الحسن بن صالح ، عن أبيه ، عن الجُفْشيش[٥] الكندي قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أنت منا ، وادّعوه . فقال : « لا[٦] نقفوا أمّنا ولا ننتفي من أبينا ، نحن ولد[٧] النضر بن كنانة » .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد[٨] حدثنا أبي ، حدثنا الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس[٩] قال جاء رجل من كندة يقال له : الجفشيش إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نَزْعم أن عبد مناف منا ، فأعرضَ عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، ثم أعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « نحنُ بَنو النضر بن كنانة لا نَقْفوا أُمّنا ولا ننتفي من أبينا » . فقال الأشعث : ألا كنتَ سكتَّ في المرة الأولى فأبطل ذلك من[١٠] قولهم على لسان نبيه ﷺ . وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه . والكلبي ضعيف . والله أعلم[١١] .

---

(١) في ط : له بأنه ونحوه أعلم .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٩٢) ، في أول المناقب .
(٣) ليست في ط .
(٤) في المعجم الصغير (١/ ٨١) .
(٥) كذا في ب . وهو موافق لما عند الطبراني . وفي أوط : الجشيش . . . وهو خطأ .
وجفشيش لقب ، واسمه معدان بن أسود ، وقيل غير ذلك ترجمته في الإصابة (١/ ٢٤٠) . وفيهم خشيش بن الأسود النسائي ، وثقه النسائي . توفي سنة (٢٥٣هـ) ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٥٠) .
(٦) في ط : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفي من أبينا .
(٧) في ب . وط : بنو . وقوله : لا نقفوا أمنا : أي لا نتهمها ولا نقذفها . وقيل : لا نترك النسب إلى الآباء وننتسب إلى الأمهات . النهاية في غريب الحديث (٤/ ٩٥) . وفي الطبراني : لا ننبوا أمنا .
(٨) ثقة ، من الطبقة العاشرة ، توفي سنة (٢٤٩هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٣٠٨) .
(٩) قال سفيان الثوري : قال لي الكلبي : ما سمعتَه مني عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب . كتاب المجروحين (٢/ ٢٥٤) .
(١٠) في ط : ذلك قولهم . وزاد .
(١١) زاد في ب : والمحفوظ في هذا حديث الأشعث بن قيس ، ورُوي من حديث النبي . والكلبي هو محمد بن السائب المفسر ، النسابة ، الأخباري ، توفي سنة (١٤٠هـ) . المجروحين (٢/ ٢٥٣ـ ٢٥٦) .

وقد قال الإمام أحمد : حدّثنا بَهْز وعفّان قالا : حدّثنا حماد بن سلمة ، قال : حدثني عقيل بن أبي طلحة . قال عفان : عقيل بن طلحة السلمي ، عن مسلم بن الهَيْضَم ، عن الأشعث بن قيس أنه قال : أتيتُ رسول الله ﷺ في وفد كِندة . قال عفان ـ لا يَرَوْني أَفْضَلَهم ـ قال : فقلت : يا رسولَ الله إنّا نزْعُم أنّكم مِنّا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا[1] أُمّنا ولا ننتفي من أبينا » . قال : فقال الأشعث بن قيس : فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جَلَدْته الحد[2] .

وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة ، به[3] . وهذا إسناد جيد قوي ، وهو فَيْصل في هذه المسألة ، فلا التفات إلى قول من خالفه ، والله أعلم ، ولله الحمد والمِنة .

وقد قال جرير[4] بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان : [من الوافر]

فما الأمّ التي وَلَدت قريشاً ... بمُقْرِفَة النِّجارِ ولا عَقيمِ
وما قَرْمٌ بأنجبَ من أبيكم ... ولا خالٌ بأكرمَ من تميمِ

قال ابن هشام : يعني أم النضر بن كنانة ، وهي بَرّة بنت مُرّ أخت تميم بن مر[5] .

وأما اشتقاق قريش فقيل : من التقَرُّش وهو[6] التجمُّع بعد التفرُّق ، وذلك في زمن قُصي بن كِلاب ، فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه . وقد قال حذافة بن غانم العدوي[7] : [من الطويل]

أبوكم قُصَيّ كان يُدعى مُجمِّعاً ... به جمَع اللهُ القبائلَ من فِهْر

وقال بعضهم : كان قُصي يقال له : قريش ، قيل : من التجمّع ، والتقرّش : التجمع كما قال أبو جِلْدة اليشكري[8] : [من الخفيف]

---

(١) في ط : لا نقف .

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢١٢) .

(٣) سنن ابن ماجه رقم (٢٦١٢) ، في الحدود ، باب من نفى رجلاً من قبيلته ، وهو حديث حسن .

(٤) في ديوانه (١/ ٢١٩) ، من قصيدة أولها : [من الطويل]

أَلَمّتِ وما رفقْت بأن تلومي ... وقلتِ مقالةَ الخَطِل الظلومِ

(٥) السيرة : (١/ ٩٣) . . وديوان جرير (١/ ٢١٩) .

(٦) قوله : التقرّش وهو زيادة من ط . زانظر ما جاء في اشتقاق قريش : السيرة (١/ ٩٣) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥) ، والروض (١/ ١١٥) .

(٧) أورد ابن إسحاق البيت في السيرة (١/ ١٢٦) . بلا نسبه ، ونسبه السهيلي (١٠/ ١٤٨) ، إلى حذافة بن جمح وفيهما : قصي لعمري كان يدعى مجمعاً . وهو في تاريخ الطبري (٢/ ٢٥٦) ، ونسبه إلى مطرود وقيل إن قائله حذافة بن غانم .

(٨) شاعر أموي ، كان مولعاً بالشراب . توفي سنة (٨٣هـ) . الشعر والشعراء (٢/ ٧٣٣) ، والأعلام للزركلي (٢/ ١٣٣) . والبيت في السيرة (١/ ٩٤) ، والروض (١/ ١١٦) .

إخوةٌ قَرَّشُوا الذُّنُوبَ عَلَينا ... في حديثٍ من دهرِنا وقَدِيْمِ

وقيل : سميت (قريش) من التقرُّش ، وهو التكسُّب والتجارة . حكاه ابن هشام رحمه الله[١] .

وقال الجوهري : القَرْشُ : الكَسْب والجمعُ ، وقد قَرَش يَقْرِش . قال الفرّاء : وبه سُميت قريشٌ ، وهي قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قُرَشي دون ولد كنانة ، ومن فوقه[٢] .

وقيل : من التفتيش . قال هشام بن الكلبي : كان النضر بن كنانة تسَمَّى قُريشاً لأنه كان يقرِش عن خُلَّة الناس وحاجتهم فيسدُّها بماله ، والتقريش هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسُمّوا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً[٣] . وقد قال الحارث بن حِلِّزة في بيان أن التقرُّش التفتيش : [من الخفيف]

أيُّهـا النـاطـقُ المقرِّش عنّـا ... عنـدَ عمـروٍ فهـلْ لـه إبقـاء[٤]

حكى ذلك الزبير بن بكار . وقيل: قُرَيش تصغير قرش، وهو دابة في البحر . قال بعض الشعراء:

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ... ـرَ بها سُمّيت قريشٌ قريشا

قال البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني[٥] ، حدّثنا محمد بن الحسن بن الخليل النَّسَوي[٦] ، أن أبا كُريبٍ حدَّثهم : حدّثنا وكيع بن الجراح ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أبي ركانة العامري ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سُمِّيت قريش قريشاً ؟ فقال لدابة تكون في البحر ، تكون أعظم دوابه فيقال لها : القرش ، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته . قال : فأنشِدْني في ذلك شيئاً ، فأنشده شعرَ الجُمحي إذ يقول : [من الخفيف]

وقريشٌ هي التي تسكنُ البحـ ... ـرَ بها سُمّيتْ قريشٌ قريشا

تـأكـلُ الغـثَّ والسَّميـنَ ولا ... تتركن لذي الجناحين رِيشا

هكذا في البلادِ حيّ قريش ... يأكلون البلادَ أكلاً كميشا[٧]

---

(١) السيرة (١/ ٩٤) .

(٢) الصحاح (٣/ ١٠١٦) (قرش) . والنص في أ وب ، دون من كان من كنانة فمن فوقه . وأثبت ما في ط . وهو موافق لما في الصحاح .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٤) .

(٤) من معلقته . ويروى : المرقش . ولا شاهد فيه . شرح القصائد السبع للأنباري (٤٥٣) .

(٥) الماليني : نسبة إلى مالين ، قرى مجتمعة من أعمال هراة في بلاد فارس . اللباب (٣/ ١٥٥) .

(٦) النسوي : نسبة إلى نسا ، إحدى مدن فارس .

(٧) الأكل الكميش : السريع المغني .

ولهـم آخـر الـزمـانِ نبـيٌّ   يُكثِرُ القتلَ فيهمُ والخُموشا

وقيل : سُمُّوا بقريش بن الحارث بن يخلُد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بني النضر وصاحب[١] مِيْرتهم ، فكانت العرب تقول : قد جاءت عِير قريش[٢] ، قالوا : وابنه[٣] بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله أعلم .

ويقال في النسبة إلى قريش : قُرَشي وقُرَيْشي . قال الجوهري : وهو القياس . قال الشاعر : [من الطويل]

بكُـلِّ قُـرَيشـيّ عَلَيـهِ مهـابـةٌ   سـريعٌ إلى داعي النَّدا والتَكَـرُّمِ[٤]

قال فإذا[٥] أردت بقريش الحي صرفته ، وإن أردت القبيلة منعته . قال الشاعر في ترك الصرف : [من الكامل]

وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها[٦]

وقد روى مسلم في صحيحه[٧] من حديث أبي عمرو الأوزاعي قال : حدّثني شدّاد أبو عمار ، حدّثني واثِلَة بن الأَسْقَع قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله اصطفى كِنانةَ من وَلَدِ إسماعيل ، واصْطَفى قُريشاً من كِنانةَ ، واصطفى هاشِماً من قريش ، واصطفاني مِنْ بني هاشم » .

قال أبو عمر بن عبد البر : يقال : بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم فخذه ، وبنو عبد مناف بطنه ، وقريش عِمارته ، وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شَعبه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين[٨] .

ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر بن كنانة مالكاً ويَخْلُد[٩] . قال ابن هشام : والصَّلْت ، وأُمُّهم جميعاً بنت سعد بن الظَّرِب العُدواني . قال كثيِّر بن عبد الرحمن وهو كُثير عَزَّة أحد بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة :

أَلَيْس أبي بالصَّلتِ أمْ ليس إخْوتي   لِكـلِّ هجـانٍ مـن بَنـي النضْـر أَزْهـرا

---

(١) في ب : وهو صاحب .
(٢) زاد في ب : قد خرجت عير قريش .
(٣) في ط : وابن وهو خطأ . تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) .
(٤) الشطر الثاني من البيت زيادة من ط ، توافق نص الصحاح . وفي ط : لكل .
(٥) في ب : فإن ، وكذلك في الصحاح .
(٦) الصحاح(٣/ ١٠١٦) (قرش) . وصدر البيت :
غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً
وهو لعدي بن الرقاع العاملي في مدح الوليد بن عبد الملك . الإنباه (٤٣ ـ ٤٥) .
(٧) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ، في أول الفضائل .
(٨) الإنباه (٤٥) .
(٩) في ط : ومخلداً ، وهو خطأ .

رأيت ثيابَ العَصْبِ مختلطَ السَّدَى بنا وبهمْ والحَضْرَميَّ المخَصَّرا[١]
فإن لم تكونوا من بني النضْرِ فاتْركوا أراكاً بأذنابِ الفَوائجِ أخْضَرا[٢]

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو يُعزَوْن إلى الصلت بن النضر[٣] .

قال ابن إسحاق : فولد مالكُ بن النضر فِهْرَ بنَ مالك ، وأمه جَنْدلة بنت الحارث بن مُضاض الأصغر ، وولد فِهر غالباً ومُحارباً والحارث وأَسَداً ، وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

قال ابن هشام : وأختهم لأبويهم[٤] جندلة بنت فهر .

قال ابن إسحاق : فولد غالبُ بن فهر لؤيَّ بنَ غالب ، وتيمَ بن غالب ، وهم الذين يقال لهم : بنو الأدْرَم ، وأمهما سلمى بنت عَمرو الخُزاعي .

قال ابن هشام : وقيس بن غالب ، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي ، وهي أم لؤي وتيم ابني غالب[٥] .

قال ابن إسحاق : فولدَ لُؤيُّ بن غالب أربعَةَ نفرٍ : كعباً وعامراً وسامة وعوفاً[٦] . قال ابن هشام : ويقال : والحارث وهم جُشم بن الحارث في هِزّان من ربيعة وسَعْد بن لؤي ، وهما بُنَانة في شيبان بن ثعلبة ، وبُنانة حاضِنَة لهم .

وخزيمة بن لؤي ، وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة[٧] .

ثم ذكر ابن إسحاق[٨] خبر سامة بن لؤي ، وأنه خرج إلى عُمان ، فكان بها ، وذلك لشَنَآن[٩] كان بينه وبين أخيه عامر ، فأخافَه عامر ، فخرجَ عنه هارباً إلى عُمان ، وأنه مات بها غريباً ، وذلك أنه كان يرعى ناقَتَه ، فعلقت حية بمشفرها ، فوقعت لشقِّها ، ثم نهشت الحيةُ سامةَ حتى قتلته[١٠] . فيقال : إنه كتب بأصبعه على الأرض : [من الخفيف]

---

(١) العصب : نوع من الثياب اليمنية . والحضرمي نوع من النعال المخصرة .
(٢) الفوائج : رؤوس الأودية .
(٣) السيرة (١/ ٩٤ ـ ٩٥) ، الروض (١/ ١١٧ ـ ١١٨) .
(٤) في ط ، وب : لأبيهم . السيرة (١/ ٩٥) .
(٥) قوله : وتيم ابني غالب زيادة من ب . والسيرة .
(٦) قول ابن إسحاق زيادة من ب ، ط . والسيرة .
(٧) تتمة النص في السيرة (١/ ٩٧) .
(٨) السيرة (١/ ٩٧) . الروض (١/ ١٢٠) .
(٩) الشنآن : البغضاء .
(١٠) وقيل كان يسير عليها حين حدث عليها . السيرة .

عينُ فابكي لِسَامةَ بنِ لؤيّ عُلِقَتْ ما بِسَامةَ العَلاَّقه
لا أرى مِثْلَ سامةَ بن لُؤَيٍّ يومَ حَلّوا به قتيلاً لناقه
بَلِّغا عامراً وسعداً رسولاً أن نفسي إليهما مشتاقه[١]
إن تكن في عُمانَ داري فإني غالبيٌّ خَرجْتُ من غير فاقه
رُبَّ كأسٍ هرقتَ يا ابنَ لُؤي حَذَرَ الموتِ لم تكُن مُهراقه
رُمتَ دَفْعَ الحتوفِ يا بنَ لُؤي ما لمنْ رامَ ذاك بالحتْفِ طاقه
وخَروس السُّرى تركْت رَدياً بعد جِدّ وجِدّةٍ ورشاقَه[٢]

قال ابن هشام[٣] : وبلغني أن بعض وَلَده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي ، فقال له رسول الله ﷺ : « آلشاعر ؟ » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

رُبَّ كأسٍ هَرقتَ يا بنَ لؤي حَذَرَ الموتِ لم تكنْ مُهراقه

فقال : أجل .

وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يُعْقِب . وقال الزبير : ولَدَ أسامةُ بن لؤي غالباً ، والنبيت ، والحارث ، قالوا : وكانت له ذرية بالعراق يبغضون علياً ، ومنهم علي بن الجعد ، كان يشتم أباه لكونه سمّاه علياً . ومن بني سامة بن لؤي محمد بن عَرْعَرة بن اليزيد شيخ البخاري[٤] .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي فإنه خرج فيما يزعمون في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غَطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أُبْطِىء به ، فانطلق مَن كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد ، وهو أخوه في نسب بني ذبيان ، فحبسه وزوَّجه والتاطه[٥] وآخاه ، فشاع نسبه في ذبيان وثعلبة فيما يزعمون[٦] .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين أن عمر بن الخطاب قال : لو كنتُ مدّعياً حياً من العرب أو مُلحِقَهم بنا لادّعيتُ بني مرة بن

---

(١) في ط . والسيرة ، والروض : عامراً وكعباً .
(٢) خروس السرى : أراد ناقة صموتاً صبوراً على السرى لا تضجر منه .
(٣) السيرة (١/ ٩٧ ـ ٩٨) والروض (١/ ١٢٠ ـ ١٢١) .
(٤) الروض الأنف (١/ ١٢١) .
(٥) التاطه : ألصقه به وضمه إليه وألحقه بنسبه .
(٦) السيرة (١/ ٩٨ ـ ٩٩) .

عوف ، إنا لَنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع . يعني عوف بن لؤي[١] .

قال ابن إسحاق : وحدثني مَن لا أتّهم أن عمر بن الخطاب قال لرجل منهم من بني مُرّة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه[٢] .

قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافاً في غطفان ، هم سادتهم وقادتهم ، قوم لهم صيت[٣] في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم[٤] .

قالوا : وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم ما ننكره وما نجحده[٥] ، وإنه لأحب النسب إلينا . ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي[٦] .

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البَسْلُ ، وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمّنونهم أيضاً[٧] .

وكانت ربيعة ومضر إنما يحرّمون أربعة أشهر من السنة ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، واختلفت ربيعةُ ومضر في الرابع ، وهو رجب . فقال مضر : هو الذي بين جمادى وشعبان . وقالت ربيعة : هو الذي بين شعبان وشوال . وقد ثبت في الصحيحين[٨] عن أبي بَكْرة أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إنَّ الزمانَ قدِ اسْتدارَ كَهيئته يومَ خلق [الله][٩] السموات والأرض ، السنةُ اثنا عَشَر شهراً ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ثلاثٌ متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورَجَبُ مُضَر الذي بين جمادى وشعبان »فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] فهذا ردّ على بني عوف بن لؤي في جَعلهم الأشهر الحرم ثمانيةً ، فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه . وقوله في الحديث : « ثلاث متواليات » رد على أهل النسيء الذين كانوا يؤخّرون تحريم المحرَّم إلى صفر . وقوله فيه « ورجب مضر » ردٌّ على ربيعة .

---

(١) السيرة (١/ ٩٩) .
(٢) السيرة (١/ ١٠٠) .
(٣) زاد في ب : وذكر . وكذلك في السيرة .
(٤) السيرة (١/ ١٠١ ـ ١٠٢) ، اختصر ابن كثير الخبر هاهنا .
(٥) السيرة (١/ ٩٩) .
(٦) وُضِع في ب هنا عنوان : ذكر السبل وهو تحريم ثمانية أشهر من السنة .
(٧) السيرة (١/ ١٠٢) ، والروض (١/ ١٢٦) .
(٨) في البخاري رقم (٤٦٦٢) ، في التفسير ، تفسير سورة براءة ، باب (٨) ، ومسلم رقم (١٦٧٩) ، في القسامة ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .
(٩) زيادة من ب ، والصحيحين .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤي ثلاثةً ، مرة ، وهُصَيْصَا ، وعديا[١] ، وولد مُرَّةُ ، ثلاثةً أيضاً : كلاب بن مرَّة ، وتيم بن مرة ، ويَقَظَة بن مُرة ، من أمهات ثلاث .

قال : وولد كلابٌ رجلَين : قُصَيّ بن كلاب وزُهْرَة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سَيَل أحد الجَدَرَة من جُعْثُمة الأَسْدِ من اليمن حلفاء بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وفي أبيها يقول الشاعر :

ما نرى في الناسِ شخْصاً واحداً　　مَـنْ عَلمنـاه كَسَعْـد بـنِ سَيَـلْ
فـارسـاً أضبـطَ فيـه عُسْـرَةٌ　　وإذا مـا واقَـفَ القِـرنَ نَـزَلْ[٢]
فارساً يستدرِج الخيلَ كما اسـ　　ـتدرجَ الحرُّ القَطاميُّ الحجَل[٣]

قال السهيلي : سَيَل اسمه خير بن حَمَالة ، وهو أول من طُلِيت له السيوفُ بالذهب والفضة[٤] .

قال ابن إسحاق : وإنما سُمُّوا الجدَرَة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جُعْثمة تزوّج بنتَ الحارث بن مُضَاض الجُرهمي ، وكانت جرهم إذ ذاك ولاةَ البيت ، فبنى للكعبة جداراً ، فَسُمّي عامر بذلك الجدار ، فقيل لولده : الجدَرة لذلك .

***

خبر قصيّ بن كلاب وما كان من أمره في ارتجاعه ولاية البَيت إلى قريش وانتزاعه ذلِك من خزاعة واجتماع قريش إلى الحرم الذي جعله الله أمناً للعباد بعد تفرقها في البلاد وتمزقها في الجبال والمهاد[٥]

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمَّه ربيعةُ بنُ حرام من عُذرة ، وخرج بها وبه إلى بلاده ، ثم قدِم قُصَيّ مكةَ وهو شاب ، فتزوج حُبَّى ابنةَ رئيس خزاعة حُلَيْل بن حُبْشِيَّة . فأما خُزاعة فزعم[٦] أن حُليلاً أوصى إلى قُصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نَسْله من ابنته ، وقال : أنت أحق بذلك مني[٧] .

---

(١) في ط : وعديا وهصيصاً . وكذلك في السيرة (١/ ١٠٣) .
(٢) الأضبط : الذي يعمل بكلتا يديه . والقرن : الذي يقاوم في الحرب .
(٣) الحر القطامي : أراد الصقر . والأبيات في السيرة (١/ ١٠٥) ، والروض (١/ ١٢٨) .
(٤) الروض (١/ ١٢٨) ، نقلاً عن الطبري (٢/ ٢٥٤) .
(٥) سقط من هذا الكلام جزء كبير من ط . ففيه : خبر قصي بن كلاب وارتجاعه . . . . من خزاعة . فقط .
(٦) في ب : فتزعم .
(٧) الخبر في السيرة (١/ ١١٧ ـ ١١٨) ، وفيه اختلاف عما هنا . وكذلك نقله الطبري عن ابن إسحاق (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) ، والسهيلي في الروض (١/ ١٤٢) .

وقال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم . وأما غيرهم فإنهم يَزْعُمُون أنه استغاث بإخوته من أمه ، وكان رئيسهم رزاح بن ربيع وإخوة[١] إخوته ، وبني كنانة ، وقضاعة ، ومَنْ حَول مكة من قريش وغيرهم[٢] ، فأجلاهم عن البيت ، واستقل هو بولاية البيت ، إلا أن[٣] إجازة الحجيج كانت إلى صُوْفة ، وهم بنو الغوث بن مُرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من مِنًى حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا ، فورثهم ذلك بالقُعْدُدِ[٤] بنو سعد بن زيد مناة بن تميم[٥] ، فكان أولهم صفوان بن الحارث ابن شِجْنَة بن عُطَارد بن عوف بن كَعب [بن سعد][٦] بن زيد مناة من تميم ، وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام ، وهو كَرِب بن صفوان .

وكانت الإجازة[٧] من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم ، وهو أبو سيَّارة عُمَيْلَة بن الأعزل ، وقيل : اسمه العاصي واسم الأعزل[٨] خالد وكان يجيز بالناس على أتان له عَوراء مكث يدفع عليها في الموقف[٩] أربعين سنة ، وهو أول من جعل الدية مئة[١٠] ، وأول من كان يقول : أشْرِق ثَبِيْرُ كيما نُغير[١١] . حكَاه السُّهيلي[١٢] .

وكان عامر بن الظَّرِب العُدْواني لا يكون بين العرب نائرة[١٣] إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضي به ،

---

(١) سقطت من ط . والنص في السيرة : كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته . . فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته . . . وهم لغير فاطمة . . .

(٢) زاد في ب : على خزاعة .

(٣) في ط : لأن ، ولا يستقيم مع المراد .

(٤) القعدد : قرب الآباء بالنسب من الجد الأكبر .

(٥) زاد في أ : من سهم .

(٦) زيادة من ط ، والسيرة (١/ ١٢٠) .

(٧) وفي السيرة ، والروض : الإفاضة .

(٨) في أ وب : العاص بن خالد والزيادة من ط ، والروض الأنف .

(٩) زيادة من ط . والروض . وانظر ما قاله الأصبهاني في الأغاني (٣/ ٩٣) ، وسوائر الأمثال (الدرة الفاخرة) . تحقيق د . فهمي سعد (عالم الكتب ـ بيروت) : ص(٢٧٣) .

(١٠) وقيل أول من سنَّ ذلك عبد المطلب . الأوائل لابن قتيبة (٢٣٣) ، وسوائر الأمثال (٢٣٣) ، والأوائل لأبي بكر الجراعي الحنبلي (٧٢) ، والوسائل للسيوطي (٧٢) .

(١١) ثبير : جبل بمكة . يريد أشرق كيما نسرع للنحر . وهو مثل يضرب في الإسراع والعجلة . مجمع الأمثال (١/ ٣٦٢) .

(١٢) الروض الأنف (١/ ١٤٦) .

(١٣) النائرة : الكائنة الشنيعة بين القوم . وعامر بن الظرب العدواني أحد المعمرين في الجاهلية ، قيل عاش مئتي سنة . المعمرين للسجستاني (٥٦) .

فتحاكموا إليه مرة في ميراث خُنْثَى ، فبات ليلته ساهراً يتروَّى ماذا يحكم به ، فرأته جاريةٌ له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سُخَيلة[١] فقالت له : ما لك ـ لا أبا لك ـ الليلةَ ساهراً ؛ فذكر لها ما هو مفكّر فيه ، قال : لعله[٢] يكون عندها في ذلك شيء . فقالت : أَتبعِ القضاءَ المبالَ . فقال : فَرَّجْتِها واللهِ يا سخيلة . وحكم بذلك[٣] .

قال السهيلي : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات[٤] ، وله أصل في الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه . وقال تعالى : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦ ـ ٢٧] . وفي الحديث : « أَنْظِروها فإن جاءَتْ به أوْرَقَ جعداً[٥] جُمَالياً فهو الذي رُمِيَتْ به »[٦] .

قال ابن إسحاق : وكان النسيء في بني فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

قال ابن إسحاق[٧] : وكان أول من نَسَأَ الشهور على العرب القَلَمَّس[٨] ، وهو حُذيفة بن عبد بن فُقَيم ابن عدي ، ثم قام بعده ابنُه عَبَّاد ، ثُم قَلَع بن عبّاد ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم كان آخرَهم أبو ثُمامة جُنادة بن عوف بن قَلَع بن عبّاد بن حُذيفة وهو القلَمَّس ، فعلى أبي ثُمامة قام الإسلام . وكانت العرب إذا فَرغَت من حجّها اجتمعت إليه ، فخطبهم[٩] ، فحرّم الأشهر الحرم ، فإذا أراد أن يُحلَّ منها شيئاً أحلَّ المحرَّم ، وجعل مكانه صَفَراً ليواطِئوا عِدَّة ما حرَّم اللهُ فيقول : اللهم إني أحللتُ أَحَدَ الصفرين ، الصفر الأول ، وأنسأت الآخر للعام المقبل . فتتبعه العرب في ذلك . ففي ذلك يقول مفتخراً[١٠] عمير بن

---

(١) في المعمرين : فُصيلة .

(٢) في ط : وقال : لعلها .

(٣) الخبر ، مفصلاً ، في السيرة (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣) ، والمعمرين (٥٧) ، والروض (١/ ١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٤) كذا في ط . وهو موافق لنص السهيلي . وفي أ : وهذا الحكم بالأمارات وله . . . وفي ب : وهذا من باب الاستدلال بالأمارات وله .

(٥) زيادة من ط توافق نص الحديث . والحديث طويل رواه أبو داود (٢٢٥٦) في الطلاق ، باب في اللعان ، وأحمد (١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) ، من طريق ابن عباس رضي الله عنه . والأورق : الذي لونه فيه سمرة ، والجعد : القصير الشعر .

(٦) الروض الأنف (١/ ١٤٧) .

(٧) السيرة (١/ ٤٤ ـ ٤٥) .

(٨) قيل سمي القلمس لجوده ، إذ القلمس من أسماء البحر .

(٩) في ب : فقام فيهم خطيباً ، ومحرم الأشهر الحرم الأربعة .

(١٠) ليست في ط .

قَيس أحد بني فِراس بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، ويُعرف عمير بن قيس هذا : بِجِذْلِ الطَّعان : [من الوافر]

لقد علمتْ معدّ أن قومي كرامُ الناسِ أن لهم كراما[١]

فأي الناس فاتونا بوِترٍ وأي الناس لم نُعْلِك لِجاما

أَلَسْنا الناسِئينَ على معدٍّ شهورَ الحِلّ نجعلُها حَراما

والمقصود[٢] أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خُزاعة وإجلائهم عن البيت الحرام[٣] وتسليمه إلى قُصي ، فكان بينهم قتال كبير[٤] ودماءٌ غزيرة ، ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يَعْمَر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قُصياً أَوْلَى بالبيت من خُزاعة ، وأنَّ كلَّ دم أصابه قُصَيّ من خزاعة وبني بكر موضوعٌ يَشْدَخُه[٥] تحت قدميه ، وأن ما أصابته خُزاعة وبنو بكر من قُريش وكنانة وبني[٦] قضاعة ففيه الدية مُؤَدّاة ، وأن يُخَلَّى بين قُصَي وبين مكة والكعبة . فَسُمّي يَعْمَر يومئذٍ : الشدَّاخ[٧] .

قال ابن إسحاق : فوَلي قُصَي البيتَ وأمرَ مكة ، وجَمَع قومَه من منازلهم إلى مكة ، وتملَّك على قومه وأهل مكة فملّكوه ، إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ، لأنه يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييرُه . فأقرّ آلَ صفوان وعَدوان والنَّسَأَةَ ومُرة بن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله . قال : فكان قُصَي أول بني كعب أصابَ مُلْكا أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحِجابة والسقاية والرِّفادة والندوة واللواء[٨] ، فحاز شَرَف مكة كلَّه ، وقطع مكة رِباعاً بين قومه ، فأنزل كلَّ قوم من قريش منازلهم من مكة[٩] .

---

(١) كذا في ط ، والسيرة ، والروض . وفي أ : معداً من لؤي .

(٢) زاد في ط قبل هذه الكلمة : وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً . ولا وجود لها في السيرة . في هذا الموضع .

(٣) الحرام ، ليست في ط .

(٤) في ط : كثيرة .

(٥) يشدخه : يكسره ، يريد إبطال تلك الدماء .

(٦) بني ، ليست في ط .

(٧) السيرة (١/ ١٢٤) .

(٨) الحجابة : أن يكون مفاتيح البيت عنده ، فلا يدخله أحد إلا بإذنه . والسقاية : سقاية الحجيج . والرفادة : طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم . والندوة : الاجتماع للمشورة والرأي . واللواء : يعني في الحرب ولأنه كان لا يحمله إلا أناس مخصوصون .

(٩) كذا في ط : وكذلك في السيرة . وفي أ ، وب : من مكة منازلهم .

قلت : فرجَع الحق إلى نصابه ، ورُدَّ شاردُ العدل بعد إيابه[١] ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خُزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت بيتَهم العتيق القديم ، لكن بما أحدثتْ خُزاعة من عبادة الأوثان ونصْبها إياها حول الكعبة ، ونحرهم لها ، وتضرّعهم عندها ، واستنصارهم بها ، وطلبهم الرزق منها . وأنزل قُصي قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ، فكان يقال : قريش البطاح وقريش الظواهر . فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء ، وبنَى داراً لإزاحة الظلامات وفَصْل الخصومات سمَّاها دار النَّدْوة ، إذا أعضلت قضيةٌ اجتمع الرؤساءُ من كلِّ قبيلةٍ فاشْتَوَرُوا فيها وفصلوها ، ولا يُعقَد عقدُ لواء ولا عقدُ نكاح إلا بها ، ولا تبلغ جاريةٌ أن تَدَّرِعَ فتدَّرعُ[٢] إلا بها . وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بني عبد الدار ، فباعها في زمن معاوية بمئة ألف درهم ، فلامه على بيعها مُعاوية ، وقال : بعتَ شرف قومك بمئة ألف ؟ فقال : إنما الشرف اليوم بالتقوى . والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزقِّ خَمر ، وهاأنا قد بعتها بمئة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها صدقةٌ في سبيل الله ، فأيُّنا المغبون . ذكره الدارَقُطني في « أسماء رجال الموطّأ »[٣] .

وكانت إليه سقاية الحجيج ، . فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطمومةً[٤] من زمن جُرهم ، قد تناسَوا أمرها من تقادُم عهدها ، ولا يهتدون إلى موضعها . قال الواقدي : وكان قُصي أول من أحدَث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات . والرِّفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم . قال ابن إسحاق : وذلك أن قُصياً فرضه عليهم ، فقال لهم : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكةُ[٥] ، وأهل الحرم . وإن الحُجَّاج ضيفُ الله وزوَّار بيته ، وهم أحق بالضيافة[٦] ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا فكانوا يُخرِجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنًى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنًى للناس حتى ينقضي الحج[٧] .

---

(١) في ب : وآب : شرد بعد ذهابه .
(٢) ادرعت الجارية : لبست الدرع والدرع قميص المرأة .
(٣) نقله السهيلي في الروض (١/ ١٤٩) .
(٤) في ط : مطموسة .
(٥) في ب : بيته . وكذلك في السيرة .
(٦) زاد في ب : والكرم ، وفي السيرة : أحق الضيف بالكرامة .
(٧) السيرة (١/ ١٣٠) .

قلتُ : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق ، ثم أُمِر بإخراج طائفة من بيت المال فتصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيعٌ حسن من وجوه يطول ذكرها ، ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحَلّ ما فيه ، والأولى أن يكون من جوالي الذمة[1] لأنهم لا يحجون البيت العتيق ، وقد جاء في الحديث : « من استطاعَ الحجَّ فلم يَحُجَّ فليَمُتْ إنْ شَاءَ يَهودياً أو نصْرانياً »[2] .

وقال قائلهم في مدح قُصي وشرفه في قومه[3] : [من الطويل]

قُصيّ لعمري كان يُدْعَى مجمّعاً ... بـه جَمَـعَ اللهُ القبائـلَ مـن فِهـر

هُموا ملؤوا البطحاءَ مَجْداً وسُؤْدداً ... وهـم طَـردوا عنـا غُـواة بنـي بكـر

[4] قال ابن إسحاق : ولما فرغ قُصي من حَربه انصرفَ أخوه رِزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه ، [وإخوته من أبيه الثلاثة وهم حُنّ ومحمود وجلهمة][5] . قال رِزاح في إجابته قُصياً : [من المتقارب]

ولمّـا أتـى مِـن قصـيٍّ رَسُـولٌ ... فقـالَ الـرسـولُ أَجِيبـوا الخليـلا

نهضْنـا إليـه نَقُـودُ الجيـا ... دَ ونطـرحُ عنّـا المَلـولَ الثقيـلا

نَسِيـرُ بهـا الليـلَ حتـى الصبـا ... حِ ونَكْمـي النهـارَ لِئـلا نَـزُولا[6]

فَهُـنّ سِـراعٌ كـوِرْدِ القطـا ... يُجِبْـنَ بنـا مِـن قُصـيّ رَسـولا

جمعنـا مـن السرِّ مـن أَشْمَـذَيْـن ... ومِـنْ كُـلّ حـيّ جَمعنـا قَبيـلا[7]

فيـالـكِ حَلْبَـةَ مـا لَيْلَـةٍ ... تـزيـد علـى الألـف سَيْبـا رَسِيـلا[8]

فلمـا مَـرَرْنَ علـى عَسْجَـرٍ ... وأسْهلـنَ مِـن مُسْتَنـاخِ سَبيـلا[9]

---

(١) الجوالي : جمع جالية ، وهم أهل الذمة ، لأن عمر رضي الله عنه أجلاهم عن جزيرة العرب ، ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد . (اللسان) .

(٢) أخرجه الترمذي : (٨١٢) ، في الحج ، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج ، وإسناده ضعيف .

(٣) أورد ابن كثير البيت الأول قبل قليل ، في الكلام على قريش نسباً واشتقاقاً ، ونسبه إلى حذافة بن غانم العدوي . وهو في الروض (١/ ١٤٩) ، والإنباه على قبائل الرواة (٤٤) .

(٤) زاد في ب : ثم فوّض قصي هذه الجهات التي كانت إليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار كما سيأتي تفصيله وإيضاحه ، وأقر الإجازة في المزدلفة في بني عدوان ، وأقر النسيء في بني فقيم ، وأقر الإجازة ، وهو النفر في صوفه كما تقدم بيان ذلك كله ، ما كان بأيديهم قبل ذلك . وسيكرر هذا في مطلع الفصل القادم ، بعد قليل .

(٥) لم يرد هذا القول في نص السيرة (١/ ١٢٦) .

(٦) نكمي النهار : أي نكمن ونستتر .

(٧) الأشمذان : جبلان هاهنا ، وقيل : قبيلتان . انظر معجم البلدان (أشمذان) ، والروض : (١/ ١٥١) .

(٨) الحلبة : الدفعة من الخيل .

(٩) في ب : عسجد . وكذا روى ياقوت البيت في معجم البلدان (عسجد) . وأشار إلى روايته بالراء : عسجر .

وجاوزْنَ بالرُّكنِ مِنْ وَرَقا ... نَ وجاوَزْن بالعرْج حَيّا حُلولا[١]

مَرَرْنَ على الحِلي ما ذُقنه ... وعالجنَ منْ مرّ ليلاً طويلا[٢]

نُدَنّي من العُوْذِ أفلاءها ... إرادةَ أن يَسْتَرِقْن الصَّهيلا[٣]

فلما انتَهَيْنا إلى مكةٍ ... أبَحْنا الرجالَ قَبيلاً قَبيلا[٤]

نُعَاورُهم ثَمَّ حَدَّ السُّيو ... فِ وفي كُلِّ أوْبٍ خَلَسْنا العقُولا

نُخَبِّزُهُم بصِلابِ النُّسو ... رِ خَبْزَ قَويّ العَزيزِ الذَّليلا[٥]

قَتَلنا خُزاعَةَ في دارِها ... وبَكراً قَتَلْنا وجِيْلاً فَجيلا

نَفَيْناهُمُ مِن بلادِ المليـ ... ـكِ كما لا يَحُلُّون أرْضاً سهولا

فأصْبَح سَبْيُهُمُ في الحَديـ ... ـدِ ومن كل حَيٍّ شَفَيْنا الغَليلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حُنّا ، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم[٦] . قال ابن إسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك[٧] : [من الوافر]

أنا ابن العاصِمين بني لُؤي ... بمكَّةَ مَنْزلي وبها رُبِيْت

إلى البطحاءِ قدْ علمتْ معدّ ... ومروتُها رَضيتُ بها رَضيت

فلست لغالبٍ إنْ لم تأثَّلْ ... بها أولادُ قيذرَ والنَّبِيْت[٨]

رِزاحٌ ناصِري وبه أُسامي ... فلستُ أخافُ ضيماً ما حييت

وقد ذكر الأموي ، عن الأثرم[٩] ، عن أبي عبيدة ، عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعد ما نَفَى قُصي خُزاعة . والله أعلم .

---

(١) ورقان ، بفتح الراء ، وروي بكسرها : جبل عظيم .

(٢) الحلي : ثمر نبت . ويروى : الحِل وهو جمع حِلة ، وهي بقلة شاكة . ويروى : الحيل ، وهو الماء المستنقع في بطن واد . الروض (١/ ١٥١) .

(٣) العوذ : الحديثات النتاج من الظباء . والأفلاء : الصغار .

(٤) في ب : أنخنا الرحال .

(٥) نخبزهم : نسوقهم سَوقاً شديداً .

(٦) السيرة (١/ ١٢٩) . وفي ب : قبيلتا عذرة . وقال السهيلي : في قضاعة عذرتان : عذرة بن رفيدة ، وهم من بني كلب بن وبرة ، وعذرة بن سعد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، الروض (١/ ١٥١) .

(٧) السيرة (١/ ١٢٨) .

(٨) تتأثل : تتأصل وتنمو .

(٩) في ط : الأشرم وهو خطأ . والأثرم ، بالثاء : هو علي بن المغيرة ، أديب ، ورّاق ، لقي أبا عبيدة ، والأصمعي وأخذ عنهما ، توفي سنة (٢٣٢هـ) . ترجمته في معجم الأدباء (١٥/ ٧٧) .

فصل

ثم لما كبر قُصي فوّض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة[١] إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده. وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته عبد مناف وعبد العزّى[٢] وعبد كانوا قد شَرُفوا في زمن أبيهم، وبلغوا في قوتهم[٣] شرفاً كبيراً، فأحب قُصي أن يلحق بهم[٤] عبد الدار في السؤدد، فخصصه بذلك، فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك، فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك، وقالوا: إنما خصص قُصي عبدَ الدار بذلك ليُلحقه بإخوته، فنحن نستحقُّ ما كان أباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار: هَذا أمر جعله لنا قُصَي، فنحن أحق به. واختلفوا اختلافاً كثيراً، وانقسمت بطون قريش فرقتين: ففرقة بايعت عبدَ الدار وحالفتهم، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك ووضعوا أيديهم عند الحلف في جَفْنة فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسُمّوا: حلف المطَيّبين. وكان منهم من قبائل قريش: بنو أسد بن عبد العزى بن قُصي، وبنو زُهرة، وبنو تميم وبنو الحارث بن فِهر. وكان مع بني عبد الدار بنو مخزوم، وبنو سَهم، وبنو جُمح، وبنو عَدي. واعتزلت بنو عامر بن لُؤي ومُحارب بن فِهر الجميع، فلم يكونوا مع واحد منهما. ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار، فانبرم الأمر على ذلك واستمر[٥].

وحكى الأموي عن الأثرم عن أبي عُبيدة قال: وزَعَم قوم من خُزاعة[٦] أن قُصياً لما تزوج حُبَّى بنت حُليل ونقل حُليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حُبَّى، واستناب عنها أبا غُبشان سليم بن عمرو بن لؤي بن مِلكان بن قُصي بن حارثة بن عمرو بن عامر، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزِقِّ خَمر وقَعود[٧]، فكان يقال: أَخْسَر من صَفقة أبي غُبْشان[٨]. ولما رأت خُزاعة ذلك اشتدّوا على قُصي، فاستنصر أخاه، فقَدِم بمن معه، وكان ما كان.

---

(١) في ب: ودار الندوة.

(٢) كذا في ب. وهو موافق لنص السيرة (١/ ١٢٩)، وفي أ، وط: عبد الشمس.

(٣) في ب: قومهم.

(٤) في ب: يلحق عبد الدار بهم.

(٥) السيرة (١/ ١٢٩ ـ ١٣١).

(٦) ليست في ب.

(٧) القعود: الناقة، والفصيل.

(٨) المثل والقصة في الدرة الفاخرة (١/ ١٣٩).

ثم[١] فوّض قُصي هذه الجهات التي كانت إليه من السِّدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار ، كما سيأتي تفصيله وإيضاحه ، وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عَدوان ، وأقر النسيء في فُقيم ، وأقر الإجازة ، وهو النفر في صُوفة[٢] ، كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قُصي أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبداً ، وتَخْمُر وبرَّة ، وأمُّهم كلُّهم حُبَّى بنت حُلَيل بن حُبْشِيَّة بن سَلول بن كعب بن عمرو الخزاعي[٣] ، وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ومن يده أخذَ البيتَ قُصي بن كلاب .

قال ابن إسحاق[٤] : فولد عبد مناف بن قُصي أربعةَ نَفَر : هاشماً ، وعبدَ شمس ، والمطّلب ، وأمُّهم عاتكة بنتُ مُرَّة بن هلال ، ونوفلَ بن عبد مناف ، وأمه واقدة بنت عمرو المازنية .

قال ابن هشام : ووُلِد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو وتُماضر ، وقلابة ، وحَيَّة ، وريْطة ، وأم الأختم ، وأم سفيان[٥] .

قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعةَ نفرٍ وخمسَ نسوة : عبد المطلب ، وأسداً وأبا صَيْفي ، ونَضْلة ، والشِّفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورُقيَّة ، وحَيّة ، فأم عبد المطلب ورُقيَّة : سَلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عامر بن غَنْم بن عَدي بن النجار من المدينة ، وذَكَرَ أمهاتِ الباقين . قال ووَلَدَ عبدُ المطلب عشرةَ نفر وستَّ نسوة وهم : العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبو طالب، واسمه عبد مناف لا عمران، والزُّبير، والحارث[٦] ـ وكان بكر أبيه وبه كان يُكنى ـ وجَحْل ، ومنهم من يقول : حَجْل ، وكان يلقّب بالغَيداق لكثرة خيره ، والمقوّم ، وضرار ، وأبو لهب ـ واسمه عبد العزى ـ وصَفية ، وأم حكيم البيضاء[٧] ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبَرة . وذَكَر أمهاتهم ، إلى أن قال : وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء ، إلّا صفيةَ : فاطمةُ بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يَقَظة بن مرة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعد بن عدنان . قال : فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، ثم ذكر

---

(١) ليست في ب .
(٢) صوفة : الغوث بن مر بن أد بن طابخة .
(٣) السيرة (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦) .
(٤) في ط : بن هشام . وهو سهو . والسيرة (١/ ١٠٦) .
(٥) السيرة (١/ ١٠٧) .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) كذا في ط ، وهو موافق لما في السيرة . وفي أ ، وب : ذكر البيضا وبعد برّة .

أمهاتها فأغرق إلى أن قال : فهو أشرف ولد آدم حَسباً ، وأفضلهم نسباً من قِبَل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين[١] .

وقد تقدّم حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار ، عن واثلة بن الأسْقَع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصْطفى كِنانةَ من ولد إسماعيل ، واصْطَفى قُريشاً من كِنانةَ ، واصطفى هاشماً من قُريش ، واصطفاني من بني هاشم » . رواه مسلم[٢] .

وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أُخر لَيست هاهنا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة ، وعليه التُكْلان .

* * *

ذكر جُمَلٍ من الأحدَاث الواقعة في زمن الجاهِليّة[٣]

قد تقدم ما كان من أخذ جُرهم ولاية البيت من بني إسماعيل ، طمِعوا فيهم لأنهم أبناء بناتِهم ، وما كان من توثُّب خُزاعة على جُرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم ، ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قُصي وبَنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه .

* * *

باب
ذكر جماعة مشهورين كانوا في الجاهلية[٤]

خبر[٥] خالد بن سِنان العبسي الذي كان في زمن الفترة ، وقد زعم بعضُهم أنه كان نبياً[٦] . والله أعلم.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدّثنا أحمد بن زُهَير التُّسْتَرِي[٧] ، حدّثنا يحيى بن المعَلّى بن

---

(١) السيرة (١/ ١٠٧ ـ ١١٠) .
(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ، في أول الفضائل .
(٣) في ط : الأحداث في الجاهلية .
(٤) في ط : ذكر جماعة مشهورين في الجاهلية .
(٥) في ب : ذكر .
(٦) أخباره في : مروج الذهب (٢/ ٢٢٦) ، والكامل لابن الأثير (١/ ٣٧٦) ، والإصابة (١/ ٤٦٦) ، وتاريخ الخميس (١٩٩) .
(٧) التُّسْتَري : نسبة إلى تُستَر ، من قرى خوزستان . اللباب (١/ ٢١٦) .

منصور الرازي ، حدّثنا محمد بن الصَّلْت ، حدّثنا قيس بن الربيع ، عن سالم الأفطَس ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : قال : جاءت بنتُ خالد بن سِنان إلى النبي ﷺ ، فبَسط لها ثوبَه وقال : « بنتُ نبي ضَيَّعَهُ قَوْمُه »[١] .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزَّار ، عن يحيى بن المعلى بن منصور ، عن محمد بن الصلت ، عن قيس ، عن سالم ، عن سعيد ، عن ابن عباس . قال : ذُكِر خالدُ بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبيٌّ ضيَّعَهُ قومُهُ » . ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[٢] . وكان قيس بن الربيع ثقةً في نفسه ، إلا أنه كان رديء الحفظ ، وكان له ابنٌ يُدْخِل في أحاديثه ما ليس منها[٣] . والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جُبير مرسلاً .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدّثنا المعلّى بن المهدي الموصلي[٤] قال : حدّثنا أبو عَوانة ، عن أبي يونس ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلاً من عبس يقال له : خالد بن سنان قال لقومه : إني أُطفىء عنكم نار الحرّتين . فقال له رجلٌ من قومه : والله يا خالد ما قلتَ لنا قطُّ إلّا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرّتين تزعم أنك تطفئها ؟! فخرج خالد ومعه أناس من عبس[٥] قومه ، فيهم عمارة بن زياد ، فأتوها ، فإذا هي تخرج من شِق جبل فخط لهم خالد خطة ، فأجلسهم فيها ، فقال : إن أبطأتُ عليكم فلا تَدْعُوني باسمي . فخرجَتْ[٦] كأنها خيلٌ شُقر يتبع بعضُها بعضاً ، فاستقبلها خالد ، فجعلَ يضربُها بعصاه ويقول : بدا بدا بدا كل هدى مؤدى[٧] زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندى . حتى دخل معها الشق . فأبطأ عليهم ، فقال لهم عمارة بن زياد : إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد فادعُوه باسمه . قال : فقالوا : إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه . فدعوه باسمه . فخرج وهو آخذ برأسه فقال : ألم أنهَكُم أن تدعوني باسمي ، فقد والله قَتَلتموني ، فاحملوني[٨] فادفنوني ، فإذا مرتْ بكم الحُمُرُ ، فيها حمار أبتر فانبشوني ، فإنكم تجدوني حَياً ، فحملوه فدفنوه ، فمرت بهم الحمر فيها حمار

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٤) .
وأورده ابن حجر في الإصابة (١/ ٤٦٦) ، وابن الأثير (١/ ٣٧٦) ، والمسعودي (٢/ ٢٢٧) .

(٢) زاد في ب : قلت . والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٤) .

(٣) قيس بن الربيع الأسدي ، أبو محمد ، من أهل الكوفة ، توفي سنة (١٦٧هـ) . اختُلف فيه . المجروحين (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٩) .

(٤) زاد في ب : ورواه الطبري عن علي بن عبد العزيز ، وخلف بن عمرو العكبري ، عن معلى بن مهدي الموصلي .

(٥) ليست في ط .

(٦) قوله : فخط لهم . . . إلى هنا زيادة من ب ، وط .

(٧) في العبارة هنا بعض اختلاف في الأصول .

(٨) فاحملوني : زيادة من ب وط .

أبتر ، فأرادوا نبشه فقال لهم[١] عمارة لا تنبشوه ، لا والله لا تُحدِّث مضر أنّا ننبش موتانا . وقد كان قال لهم خالد : إن في عُكَن[٢] امرأته لوحين فإنْ أشكَل عليكم أمرٌ فانظروا فيهما ، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه قال ولا يمسهما حائض . فلما رجعوا إلى[٣] امرأته سألوها عنهما ، فأخرجتهما إليهم وهي حائض ، فذهب ما كان فيهما من علم[٤] .

قال أبو يونس : قال سماك بن حَرب : سُئل عنه النبي ﷺ فقال : « ذاك نبيٌّ أضاعَه قومه » . قال : أبو يونس : قال سماك بن حرب[٥] إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال : « مرحباً بابن أخي »[٦] . فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبياً ، والمرسَلات التي فيها أنه نبي لا يُحتَجُّ بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات ، فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ أولى الناس بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي »[٧] . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] . وقد قال غير واحد من العلماء : إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قِبلةً لأهل الأرض شرعاً ، وبشّرت به الأنبياء لقومهم ، حتى كان آخر من بشّر به عيسى بن مريم عليه السلام . وبهذا المسلك بعينه يُرَدّ ما ذكره السهيلي[٨] وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له : شُعيب بن ذي مَهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مَدين ، وبُعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صَفوان[٩] فكذبوهما فسلّط الله على العرب بختَ نصّر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل ، وذلك في زمن معد بن عدنان . والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير . والله أعلم .

وقد تقدّم ذكر عمرو بن لُحي بن قمعة بن خِندف في أخبار خُزاعة بعد جُرهم .

***

---

(١) في ط : فقلنا انبشوه ، فإنه أمرنا أن ننبشه ، فقال لهم عمارة .

(٢) كذا في ط ،وهو موافق لما نقله ابن حجر في الإصابة . وهو الأشبه بالصواب . وفي أ ، وب : علم . والعُكن : جمع عُكنة ، وهي ما تثنى من لحم البطن وانطوى .

(٣) كذا في ط . وهو موافق لما أورده ابن حجر . وفي أ، وب : تسألون ولا تمسه حائض فلما فرغوا من دفنه أتوا امرأته.

(٤) الخبر في الإصابة (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨) ، وتاريخ الخميس (١٩٩ ـ ٢٠٠) ، والكامل (١/ ٣٧٦) . والمروج (٢/ ٢٢٦) ، وفي روايته اختلاف .

(٥) زيادة من ب ، وط . والإصابة .

(٦) كذا في الأصول . والذي في الإصابة . والكامل : أن الذي أتى إلى النبي ﷺ ابنة خالد بن سنان ، لا ابنه .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢ و٣٤٤٣) ، في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ وفيه اختلاف عما هاهنا ، وكذلك رواه مسلم ، رقم (٢٣٦٥) في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .

(٨) الروض (١/ ١٢) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) .

(٩) خبره في تاريخ الخميس (٢٠٠) .

ذكر حَاتم الطائي أحَد أجواد الجاهليّة

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحَشْرج بن امرىء القيس بن عَدي بن أَخْزم بن أبي أخزم ، واسمه هرومة[١] بن ربيعة بن جَرْول بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغوث بن طيىء ، أبو سَفَّانة الطائي ، والد عَدِي بن حاتم الصحابي[٢] .

كان جواداً ممدَّحاً في الجاهلية ، وكذلك كان ابنه في الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة ، وأخبار مُسْتَغْرَبة في كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمْعة والذكر .

قال الحافظ أبو بكر البزّار في « مسنده » : حدّثنا محمد بن معمر ، حدّثنا عبيد بن واقد القيسي ، حدّثنا أبو نصر ـ هو الناجي ـ عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : ذُكر حاتم عند النبي ﷺ فقال : « ذاك أرادَ أمراً فأدركَه »[٣] .

حديث غريب . قال الدارقُطني : تفرّد به عُبيد بن واقد، عن أبي نصر الناجي، ويقال: إن اسمه حماد. قال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ، ولم يسم الناجي . ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي . والله أعلم[٤] .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة[٦] عن سماك بن حرب ، عن مرِّي بن قطري ، عن عدي بن حاتم قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبي كان يَصِلُ الرحمَ ، ويفعل ، ويفعل ، فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر . قال : « إن أباكَ طَلَبَ شيئاً فأصَابه » .

وهكذا رواه أبو يعلى ، عن القواريري ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن سماك ، به . وقال : « إن أباكَ أرادَ أمراً فأدركه » يعني الذِّكرَ .

---

(١) زيادة من ط . وب . وكذلك في الأغاني (ثقافة ١٧/ ٢٧٨) . ووقع في نسبه بعض اختلاف في المصادر . الشعر والشعراء (١/ ٢٤١) ، ونشوة الطرب (١/ ٢٢٣) ، والأغاني .

(٢) توفي عدي سنة (٦٧هـ) وقيل (٦٨هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢) ومصادر ترجمته ثمة .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد : (١/ ١١٩) ، وقال : رواه البزار ، وفيه عبيد بن واقد العبسي ، ضعّفه أبو حاتم.

(٤) تاريخ دمشق (١١/ ٣٦٢) .

(٥) في المسند (٤/ ٢٥٨) .

(٦) في ط : «حدثنا يزيد بن إسماعيل، حدثنا سفيان عن سماك. . .» ومثل هذا الإسناد لا يوجد في مسند الإمام أحمد، وفيه خلط، فقد روى أحمد عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي عبيدة عن رجل، قال: قلت لعدي، وذكر حديثاً غير هذا (٤/ ٢٥٧) كما روى عن عبد الرحمن ـ وهو ابن مهدي، عن سفيان، عن سماك عن مُري عن عدي حديث ذكر اسم الله على الذبيحة (٤/ ٢٥٦) أما هذا الحديث فليس له في المسند سوى طريقين: الأول من طريق محمد بن جعفر غندر عن شعبة عن سماك، وهو هذا، والثاني من طريق حسين بن محمد بن بهرام المروزي، عن شعبة، به (٤/ ٢٥٨) .

وهكذا رواه أبو القاسم البغوي[١] ، عن علي بن الجعد ، عن شعبة ، به ، سواء[٢] .

وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تُسَعَّرُ بهم جَهنم ، منهم الرجل الذي يُنفق ليقال : إنه كريم ، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا ، وكذا في العالم والمجاهد[٣] .

وفي الحديث الآخر في الصحيح أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سَعد بن تَيم بن مرة فقالوا له : كان يقري الضيفَ ويعتقُ ويتصدَّقُ ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يَقُلْ يوماً من الدهرِ رَبِّ اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدين »[٤] .

هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعِمين في السنين الممحلة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي[٥] : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدّثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العُماني ، حدّثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي ، حدّثنا ضِرار بن صُرَدٍ[٦] ، حدّثنا عاصم بن حميد ، عن أبي حمزة الثُّمالي[٧] ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كُمَيْل بن زياد النَّخْعي[٨] قال : قال علي بن أبي طالب : يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس في خير ، عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً[٩] لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ، فإنها تدلّ على سبيل النجاح . فقام إليه رجل فقال : فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ، أسمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . وما هو خير منه : لما أُتي بسبايا طيىء وقعت جارية

---

(١) الجعديات (٥٧٩) .

(٢) زاد في ب : وروى الطبراني من طريق سعيد بن أبي هلال عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، أن عدي بن حاتم قال : يا رسول الله إن أبي كان يصل القرابة ، ويحمل الكَلَّ ، ويطعم الطعام . قال : هل أدرك الإسلام؟ قال : لا . قال : فإن أباك كان يحب أن يذكر فذكر .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار . وكذلك الترمذي (٢٣٨٢) ، في الزهد ، باب ما جاء في الرياء والسمعة . وقال : هذا حديث حسن غريب . والنسائي (٦/ ٢٣) .

(٤) رواه مسلم (٢١٤) ، في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمله . وأحمد في مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) ، من طريق عائشة رضي الله عنها .

(٥) في دلائل النبوة (٥/ ٣٤١) .

(٦) ضِرار بن صُرَد، أبو نعيم الطحان الكوفي، فقيه عالم، كذّبه يحيى بن معين. توفي سنة (٢٢٩هـ). المجروحين (١/ ٣٧٦).

(٧) أبو حمزة الثمالي ثابت بن أبي صفية ، كوفي ، ضعيف ، رافضي . توفي سنة (١٤٨هـ) .
المجروحين (١/ ٢٠٦) ، وتقريب التهذيب (١/ ١١٦) .
والثُّمالي : نسبة إلى (ثُمالة) بطن من الأزد . اللباب (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) .

(٨) كُمَيْل بن زياد النَّخْعي من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه . كان منكر الحديث .
المجروحين (٢/ ٢٢١) .

(٩) في ب : عذاباً .

حمراء لَعْساء ، زلفاء ، عَيْطاء ، شَمّاء الأنف ، معتدلة القامة والهامة ، درماء الكعبين ، خَدَلَّجة الساقين ، لَفَّاء الفخذين ، خميصة[١] الخصرين ، ضامرة الكشحين ، مصقولة المتنين . قال : فلما رأيتها أُعجِبْتُ بها ، وقلتُ : لأطلبَنَّ إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فَيْئي . فلما تكلَّمَتْ أُنسِيْتُ جمالَها لِما رأيتُ من فصاحتها. فقالت: يا محمد إنْ رأيتَ أن تُخلّي عني ولا تُشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يَحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويُشبع الجائع ، ويكْسوالعاري ، ويَقْري الضيف ، ويُطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجةٍ قط ، أنا ابنة حاتم طيء . فقال النبي ﷺ : « يا جَارية هَذه صِفةُ المؤمنين حقاً ، لو كانَ أبوكِ مؤمناً لترحَّمْنا عليه ، خَلُّوا عنها فإن أباها كان يُحِبُّ مكارمَ الأخلاق ، والله تعالى [يحبُّ مكارمَ الأخلاق »][٢] . فقام أبو بردة بن دينار فقال : يا رسول الله ، والله يُحبُّ مكارمَ الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلا بحُسْن الخلق »[٣] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدَّثني عُمر بن بكر ، عن أبي عبد الرحمن الطائي ـ هو الهيثم[٤] بن عدي ـ عن عثمان ، عن عركى بن حليس الطائي ، عن أبيه ، عن جده ، وكان أخا عدي بن حاتم لأمه قال : قيل لنَوار امرأة حاتم : حدّثينا عن حاتم . قالت : كل أَمْره كان عجباً . أصابتنا سَنَةٌ حصتْ كلَّ شيء ، فاقشعرَّت لها الأرضُ واغبرَّتْ لها السماء ، وضَنَّت المراضع على أولادها ، وراحت الإبل حُدْبا حَدابير ، ما تَبِضّ[٥] بقطرة ، وحَلَقتِ المالَ ، وإنا لفي ليلة صِنَّبْر[٦] ، بعيدة ما بين الطرفين ، إذا تَضَاغَى الأصبيةُ[٧] من الجوع: عبد الله، وعدي، وسَفّانة، فوالله إنْ وَجَدْنا شيئاً نُعلّلهم به . فقام إلى أحد الصبيين[٨]

---

(١) اللعساء : التي في شفتها سواد مستحسن . الزلفاء : الصقيلة البشرة من الزَّلَفة ، وهي المرآة النظيفة المستوية . والعيطاء : الطويلة العنق . ودرماء الكعبين : أي غطاهما اللحم حتى لم يبن لهما حجم . والخَدَلَّجَة : الممتلئة الذراعين والساقين . واللَّفَّاء : الضخمة الفخذين . والخميصة : الضامرة . والكشح : ما بين السرة ووسط الظهر . والمتن : الظهر ، أو ما ظهر منها .

(٢) ليست في ب .

(٣) وروى الخبر الأصبهاني في الأغاني (الثقافة ١٧/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩) ، وابن عساكر في تاريخه (١١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) .

(٤) كذا في ب ، وهو الصحيح . وفي أ ، وط : القاسم بن عدي ، وهو سهو .
والهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي أبو عبد الرحمن ، ولد بالكوفة ، وسكن بغداد ، كان عالماً بالسير وأخبار العرب ، تكلموا فيه . وتوفي سنة (٢٠٧هـ) . سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٣ ـ ١٠٤) ، والمجروحين (٣/ ٩٢ ـ ٩٣) .

(٥) والحُدب : جمع حدباء ، وهي التي بدت حراقفها وعظم ظهرها .
والحدابير : جمع حِدْبير ، وهي الإبل الضامرة . والسنة الجدبة أيضا . والبَضُّ : السيلان ببطء .

(٦) حلقت المال : ذهبت بالإبل . وليلة صِنَّبْر : شديدة البرد .

(٧) ضغا : صاح . وأصبية : جمع صبي .

(٨) في ب ، وط : الصبيان .

فحمله ، وقمتُ إلى الصَّبِيَّة فعلّلتُها ، فوالله إنْ سَكتا إلا بعدَ هدْأةٍ من الليل . ثم عُدْنا إلى الصبيِّ الآخر فعلّلناه حتى سكتَ وما كاد . ثم افترشنا قَطِيفةً[١] لنا شامية ذات خمل ، فأضْجعنا الصبيان عليها ، ونمتُ أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا ، ثم أقبل عليَّ يُعلّلني لأنامَ ، وعرفتُ ما يريدُ ، فتناومْتُ . فقال : مالكِ أنمتِ ؟ فسكتُّ . فقال : ما أراها إلا قد نامت وما بي نوم . فلما ادلهمَّ الليلُ وتهوَّرت النجوم[٢] ، وهدأتِ الأصواتُ ، وسكنتِ الرِّجْلُ ، إذا جانب البيت قد رُفع . فقال : من هذا ؟ فولّى ، حتى قلتُ : إذاً قد أسْحَرنا أو كِدنا ، عاد فقال : من هذا ؟ قالت : جارتُك فُلانة يا أبا عدي ، ما وجدتُ على أحد معولاً غيرَك ، أتيتك من عند أصْبيةٍ يتعاوَوْن عواء الذئاب من الجوع . قال : أعجليهم عليَّ . قالت النوارُ : فوثبتُ فقلتُ : ماذا صنعتَ ؟![٣] والله لقد تضاغى أصْبيتُك فما وجدت ما تعلّلهم [به][٤] فكيف بهذه وبولدها ؟ فقال : اسكتي ، فوالله لأُشْبِعَنّك [وإياهم][٤] إن شاء الله . قالت : فأقبلتْ تحملُ اثنين ، وتمشي جنبتيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه ، فوَجَأ بحرْبَتِه في لَبّته[٥] ، ثم قدَح زَنْده وأورى ناره ، ثم جاء بِمدْية فكَشَط عن جلده ، ثم دفع المديةَ إلى المرأة ، ثم قال : دُونَكِ . ثم قال : ابعثي صِبيانك ، فبعثتهم . ثم قال : سوءةً ! أتأكلون شيئاً دون أهل الصِّرم[٦] ؟ فجعل يطوفُ فيهم حتى هَبّوا وأقبلُوا عليه . والتَفَعَ في ثوبه ثم اضجع ناحية ينظر إلينا . والله ما ذاقَ مُِزْعَةً[٧] ، وإنه لأحْوَجُهم إليه ، فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عَظْم أو حافر[٨] .

وقال الدارقُطني : حدّثني القاضي أبو عبد الله المحاملي ، حدّثنا عبد الله بن أبي سعد ، حدّثنا عُثَيم بن ثوابة بن حاتم الطائي ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قالت امرأة حاتم لحاتم : يا أبا سَفّانة ، أشتهي أنْ آكلَ أناوأنتَ طعاماً وحدَنا ليس عليه أحدٌ . فأمَرَها فحوّلت خَيْمتَها من الجماعة على فرسخ ، وأمر بالطعام فهُيىء ، وهي مرخاة ستورها عليه وعليها ، فلما قاربَ نضجُ الطعام كشفَ عن رأسه ثم قال : [من الطويل]

فلا تطبخي قِدري وسِتْرُكِ دونَها عليَّ إذنْ ما تطبخينَ حَرامُ

---

(١) القطيفة : دثار مُخَمّل .
(٢) تهوَّرت النجوم ذهبت ، أو ولّى أكثرها .
(٣) زاد في ط : اضطجع .
(٤) زيادة من ب .
(٥) الرأل : ولد النعام . ووجأ : ضرب . واللبة : المنحر .
(٦) الصرم : الأبيات المجتمعة المنقطعة من الناس .
(٧) المُزعة : القطعة من اللحم .
(٨) في ط : وحافر . والخبر في الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤) ، والأغاني (٧/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣) ، ونشوة الطرب (١/ ٢٢٥) ، وفي روايته اختلاف يسير .

ولكــنْ بهــذاكَ اليَفــاعِ فــأَوقِــدي بجــزلٍ إذا أوقــدتِ لا بضِــرامِ[١]

قال : ثم كشفَ الستورَ وقدَّمَ الطعامَ ودعا الناسَ ، فأكل وأكلوا . فقالت : ما أتممْتَ لي ما قلت . فأجابها : فإني لا تطاوعني نفسي ، ونفسي أكرمُ عليَّ مِن أن يثني علي هذا ، وقد سبق لي السخاء . ثم أنشأ يقول : [من الطويل]

أُمارسُ نفسَ البخلِ حتّى أعزّها وأتركُ نفسَ الجودِ ما أستشيرها
ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنها إذا غابَ عنها بعلُها لا أزورُها
سيبلُغها خَيري ويرجع بعلُها إليها ، ولم تقصُر عليها سُتُورها[٢]

ومن شعر حاتم : [من الوافر]

إذا ما بتّ أشْربُ فوقَ زِقّي لِسُكْرٍ في الشرابِ فلا رَوِيتُ[٣]
إذا ما بِتُّ أختِلُ عِرْسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيتُ
أأفضحُ جارتي وأخونُ جاري فلا واللهِ أفعلُ ما حَييتُ[٤]

ومن شعره أيضاً : [من الكامل]

ما ضَرَّ جاراً لي أُجاورُه أن لا يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ
أُغضي إذا ما جارتي بَرَزت حَتّى يُواريَ جارتي الخِدْرُ[٥]

ومن شعر حاتم أيضاً : [من الوافر]

وما مِنْ شِيمتي شَتْمُ ابنِ عَمّي وما أنا مُخْلِفٌ مَن يَرْتجيني
وكلْمةِ حاسدٍ من غَيْر جرْمٍ سَمعتُ وقلتُ : مُرّي فانقِذيني
وعابُوها عليّ ، فلم تَعِبْني ولم يعرَقْ لها يوماً جبيني
وذي وجهين يلقاني طليقاً وليس إذا تغيَّب يأتسيني
ظفرتُ بعيبه فكففْتُ عنه محافظةً على حَسَبي وديني[٦]

---

(١) البيتان في ديوانه (١٦٤) ، (تحقيق د . عادل جمال ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٠) . وفيه اختلاف في بعض الألفاظ .
واليفاع : المرتفع من الأرض . والجزل : الغليظ من الحطب اليابس . والضرام : دقيق الحطب .
(٢) ديوانه (٢٣٢) وما بعدها ، من قصيدة ، والخبر في تاريخ ابن عساكر من طريق الدارقطني (١١/ ٣٦٦) .
(٣) في ط : فوق ري .
(٤) ديوانه (٢١٠) .
(٥) ديوانه (٢٩٦) .
(٦) ديوانه (١٥٢) .

ومن شعره : [من الطويل]

سلي البائسَ المقرورَ يا أُمَّ مالكٍ إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي إنه أولُ القِرى وأبذلُ معروفي له دون مُنْكَرِي[1]

وقال أيضاً : [من الطويل]

وإنكَ إن أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه وفَرْجَك نالا منتهى الذمّ أَجْمعا[2]

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا[3] الجريري : حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدّثنا أبو العباس المبرد ، أخبرني التَّوزي ، عن أبي عُبيدة . قال : لما بلغ حاتم طيّئ قول المتلمس :

قليلُ المالِ تُصلحهُ فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفَساد
وحِفظُ المال خيرٌ من فَناه وعسفٍ في البلادِ بغير زاد

قال ماله قطع الله لسانه حمل الناس على البخل ، فهلا قال : [من الطويل]

فلا الجودُ يُفني المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمسْ مالاً بعيشٍ مُقَتّرٍ لكلّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديد
ألم تَرَ أنّ المالَ غادٍ ورائح وأنّ الذي يُعطيك غيرُ بعيد[4]

قال القاضي أبو الفرج : ولقد أحسن في قوله : وإن الذي يعطيك غير بعيد . ولو كان مسلماً لرجي له الخير في معاده . وقد قال تعالى في كتابه : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[5] [البقرة : ١٨٦] .

وعن الوضّاح بن معبد الطائي قال : وَفَدَ حاتم الطائي على النعمان بن المنذر ، فأكرمه وأدناه ، ثم زوّده عند انصرافه جَمَلين ذهباً وورِقاً غيرَ ما أعطاه من طرائف بلده ، فرحل ، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيّئ . قالت : يا حاتم أتيتَ من عند الملك بالغنى[6] وأتينا من عند أهالينا بالفقر . فقال حاتم : هلم فخذوا ما بين يدي فتوزّعوه ، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه . فخرجت إلى حاتم

---

(١) ديوانه (٢٨٤) .
(٢) ديوانه (١٧٤) .
(٣) في كتابه الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) ، (تحقيق د . محمد مرسي الخولي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨١) .
(٤) ديوانه (٢٥٠) .
(٥) الجليس الصالح الكافي (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) .
(٦) زيادة من ب .

طريفة جاريتُه ، فقالت له : اتق الله وأبقِ على نفسك ، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا دِرهماً ولا شاة ولا بعيراً . فأنشأ يقول : [من البسيط]

قـالـتْ طُـرَيفـةُ : مـا تَبقَـى دراهِمُنـا ... ومـا بنـا سَـرَفٌ فيهـا ولا خَـرَقُ

إنْ يَفْـنَ مـا عنـدنـا فـالله يـرزُقنـا ... ممَّـنْ سِـوانـا ولسنـا نحـنُ نَـرْتَـزِق

ما يألف الدرهمُ الكاريُّ خِرقَتَنا ... إلا يمـرّ عليهـا ثُـم ينطلـق

إنـا إذا اجتمعـت يـومـاً دراهمُنـا ... ظلّت إلى سُبُلِ المعروفِ تستبق[١]

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم : هل في العرب أجود منك ؟ فقال : كل العرب أجود مني . ثم أنشأ يُحدّثُ ، قال : نزلتُ على غلام من العرب يتيمٍ ذات ليلة ، وكانت له مئة من الغنم ، فذبح لي شاة منها ، وأتاني بها ، فلما قَرَّبَ إليَّ دماغَها قلت : ما أَطيبَ هذا الدماغ ! قال : فذهبَ ، فلم يزل يأتيني منه حتى قلتُ : قدِ اكتفيت ، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المئة شاة وبقي لا شيء له ؟ فقيل : فما صنعتَ به ؟ فقال : ومتى أبلغُ شكرَه ولو صنعتُ به كل شيء ؟! قالوا[٢] : على كل حال ؟ فقال : أعطيتُه مئة ناقة من خيار إبلي .

وقال محمد بن جعفر الخرائطي[٣] في كتاب « مكارم الأخلاق » : حدّثنا العباس بن الفضل الرَّبَعي ، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدّثني حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيّئ ، قالوا : كانت عنترة[٤] بنت عفيف بن عمرو بن امرىء القيس أم حاتم طيّئ لا تُمسك شيئاً سَخاءً وجوداً ؛ وكان إخوتها[٥] يمنعونها فتأبى ، وكانت امرأة موسِرةً ، فحبسوها في بيتٍ سنةً يطعمونها قوتَها لعلها تكفّ عما تصنع . ثمّ أخرجوها بعد سنةٍ وقد ظنّوا أنها قد تركتْ ذلك الخُلُق ، فدفعوا إليها صِرْمةً من مالها وقالوا : استمتعي بها ، فأتتها امرأة من هوازنٍ ، وكانت تغشاها ، فسألتها ، فقالت : دونك هذه الصِّرْمة فقد والله مسني من الجوع ما آليتُ أن لا أمنع سائلاً ثم أنشأت تقول : [من الطويل]

لَعَمري لقِدماً عضّني الجوعُ عضة ... فـآليـتُ أن لا أمنـعَ الـدهـرَ جـائعـا

فقـولا لهـذا الـلائمـي اليـومَ أعفِنـي ... وإن أنتَ لم تفعل فعضّ الأصابعا

---

(١) ديوانه (٢٨٦) .
(٢) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب . وفي ط : قال .
(٣) محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي السامري ، فاضل من حفاظ الحديث . توفي في يافا سنة (٣٢٧هـ) . وكتابه مكارم الأخلاق مطبوع .
الأعلام (٦/ ٧٠) .
(٤) كذا في م ، وط . وفي ب ، والأغاني : غنية . وفي الشعر والشعراء : عنبة .
(٥) كذا في ب ، ط . وفي أ : وكانوا يمنعونها .

فماذا عساكم أن تقولوا لأختِكم ... سوى عذلكم أو منع مَن كانَ مانعا[١]
ومهما تروْن اليومَ إلا طبيعةً ... فكيف بتركي يا ابنَ أمي الطبائعا[٢]

وقال الهيثم بن عدي ، عن مِلحان بن عركى بن عدي بن حاتم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدتُ حاتماً يكيد بنفسه[٣] فقال لي : أي بُني إني أعهدُ من نفسي ثلاث خصال : والله ما خاتلتُ جارةً لريبةٍ قطُّ ، ولا ائتمنت على أمانة إلَّا أدّيتُها ، ولا أوتيَ أحدٌ من قِبلي بسوء .

وقال أبو بكر الخرائطي : حدّثنا علي بن حَرب ، حدّثنا عبد الرحمن[٤] بن يحيى العدوي ، حدّثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين ـ يعني جعفر بن المحرر بن الوليد ـ عن المحرر مولى أبي هريرة قال : مرَّ نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيّئ ، فنزلوا قريباً منه ، فقال إليه بعضهم [يقال له : أبو الخيبري][٥] فجعل يركض[٦] قبره برجله . ويقول : يا أبا الجَعْراء[٧] اقرنا . فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رِمَّة وقد بليتْ ! وأجنّهم الليلُ فنوموا[٨] . فقام صاحبُ القول فزعاً يقول : يا قوم عليكم بمطيكم فإن حاتماً أتاني في النوم ، وأنشدني شعراً ، وقد حفظته . يقول : [من المتقارب]

أبا خَيْبَرِيّ وأنتَ امرؤٌ ... ظَلومُ العَشِيْرةِ شتَّامُها
أتيتَ بصحْبِكَ تبغي القِرى ... لَدى حُفْرةٍ قد صَخِبِ هَامُها[٩]
أتبغي لي الذنبَ عندَ المبيـ ... ـتِ وحولَك طيىء وأنعامها
وإنا سنُشْبِعُ أضيافَنا ... وتأتي المطيّ فنعتامُها[١٠]

قال : وإذا ناقة صاحب القول تَكُوس[١١] عقيراً ، فنحروها وقاموا يشْتَوونَ ويأكلون . وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حيّاً وميتاً . قال : وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم ، وساروا . فإذا رجلٌ

---

(١) في ب : عسيتم . وفي ط : أو عذل من .
(٢) في ط : وماذا ترون . والخبر في الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢) ، والأغاني (١٧/ ٢٨٠) .
(٣) كاد بنفسه : جاد .
(٤) في ب : عبد الرزاق وهو خطأ .
(٥) قوله : يقال له أبو الخيبري . زيادة من ط .
(٦) الركض : تحريك الرجل ، والضرب بها .
(٧) في ط ، ومروج الذهب : الجعد . وفي الشعر والشعراء : عذي . وفي الأغاني : جعفر . وأثبت ما في الأصل ، وهو الأشبه بالصواب . فالجعراء هي الاست . وهو هنا إنما يسخر من حاتم .
(٨) في ط : فناموا .
(٩) في ط : قد صدت هامها .
(١٠) في ط : لنشبع . والأبيات في ديوانه (١٦٨) ، مع اختلاف في الرواية .
(١١) تكوس : تمشي على ثلاثة أرجل .

ينوّه[١] بهم راكباً جملاً ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبري ؟ قال : أنا . قال : إن حاتماً أتاني في النوم فأخبرني أنه قرى أصحابَك ناقتك ، وأمرني أن أحملك ، وهذا بعيرٌ فخذه . ودفعه إليه[٢] .

***

ذكر شيء من أخبَار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة ، سيد بني تيم ، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتين[٣] .

وكان في بدء أمره فقيراً مُمْلِقاً ، وكان شِرّيراً يُكْثِر من الجنايات ، حتى أبغضه قومُه وعشيرتُه وأهلُه وقبيلتُه ، وأبغضوه حتى أَبُوه ، فخرج ذات يوم في شِعاب مكة حائراً بائراً[٤] ، فرأى شِقاً في جبل ، فظن أن يكون به شيء يؤذي ، فقصدَه لعلّه يموت فيستريح مما هو فيه ، فلما اقترب منه إذا ثعبانٌ يخرج إليه ويَثِبُ عليه ، فجعل يحيدُ عنه ويَثِبُ فلا يُغْني شيئاً ، فلما دنا منه إذا هو من ذهب ، وله عينان هما ياقوتتان ، فكَسَره وأخذه ، ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال[٥] من ملوك جُرهم ، ومنهم الحارث بن مُضاض الذي طالت غيبتُه فلا يُدرَى أين ذهبَ ، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومُدَد ولايتهم ، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شيء كثير ، فأخذ منه حاجته[٦] ، ثمّ خرج . وعَلَّم بابَ الغارِ ثم انصرف إلى قومه ، فأعطاهم حتى أَحَبّوه ، وسادهم ، وجعل يُطعم الناسَ ، وكلما قَلَّ ما في يده ذَهَبَ إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ، ثمّ رَجَع[٧] .

فممن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب « التيجان »[٨] .

---

(١) ينوّه : ينادي .

(٢) الخبر في الشعر والشعراء (١/ ٢٤٩) ، ومروج الذهب (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣) ، والأغاني (١٧/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ و٣٠٠) ، وخزانة الأدب (٣/ ١٢٩) .

(٣) المسنتون : المجدبون . وقد ذكره ابن حبيب في المحبر (١٣٧ ـ ١٣٩) وعده من أجواد الجاهلية .

(٤) حائر بائر : لم يتجه لشيء ، ولا يأتمر رُشْداً ، ولا يطيع مرشداً . (القاموس) .

(٥) زاد في ب : طوال .

(٦) في ب : ما يكفيه .

(٧) الخبر في الروض الأنف (١/ ١٥٩) ، وفيه توضيح كيف اكتشف ابن جدعان أن الثعبان مصنوع وليس حقيقياً .

(٨) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، مؤرخ عالم بالأنساب واللغة وأخبار العرب . وهو الذي هذّب كتاب السيرة لابن إسحاق . توفي سنة (٢١٣هـ) وقيل : (٢١٨هـ) . وكتابه التيجان في ملوك حمير مطبوع . ترجمته في وفيات الأعيان (٣/ ١٧٧) ، والأعلام (٤/ ١٦٦) .

وذكره أحمد بن عَمَّار[١] في كتاب « ري العاطش وأنس الواحش » .

وكانت له جَفنة يأكُلُ منها الراكب على بعيره ، ووقع فيها صَغيرٌ فغرق .

وذكر ابن قتيبة وغيره[٢] أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنتُ أستظلُّ بظِلِّ جَفْنةِ عبد الله بن جُدعان صكة عُمَيّ » أي وقت الظهيرة .

وفي حديث مقتل أبي جهل[٣] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشَجَّةٍ في رُكبته ، فإني تزاحمتُ أنا وهو على مأدبةٍ لابن جُدْعان ، فدفعتُه ، فَسَقَطَ على رُكبته ، فانهشمت ، فأثرُها باقٍ في ركبته » . فوجدوه كذلك . [من الكامل]

وذكروا أنه كان يطعم التمر والسَّوِيق ، ويسقي اللبنَ ، حتى سمع قول أمية بن أبي الصَّلْت :

ولقـدْ رأيـتُ البـاذليـن وفِعلَهـم فـرأيـتُ أكـرمَهـم بني الـديّـان[٤]
البُـرُّ يُلْبَـكُ بـالشِّهـادِ طَعَـامُهـم لا مـا يُعلِّلنـا بنـو جُـدْعـان[٥]

فأرسل ابن جُدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البُرَّ والشَّهْدَ والسمن ، وجعل منادياً ينادي كلَّ ليلةٍ على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان . فقال أمية في ذلك : [من الوافر]

لَـــهُ داعٍ بمكـــةَ مُشْمَعِـــلٌّ وآخـرُ فـوقَ كَعبتهـا ينـادي[٦]
إلـى رُدُحٍ مـن الشِّيـزى عليهـا لُبـابُ البُـر يُلْبَـكُ بـالشِّهـادُ[٧]

ومع هذا فقد ثبت في الصحيح لمسلم أن عائشة قالت : يا رسول الله إن ابن جُدعان كان يُطعم الطعام

---

(١) أحمد بن عمار المَهدَوي التميمي ، مقرىء أندلسي ، من المهدية بالقيروان . توفي نحو (٤٤٠هـ) . الأعلام (١/ ١٨٤) .

(٢) غريب الحديث (١/ ٤٥٥) ، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٣) في صكة عمي : يريد الهاجرة . والأصل فيها أن عُمَياً مصغّر مرخم ، كأنه تصغير أعمى . وقيل إن عمياً اسم رجل من عدوان كان يُفيض بالحاج عند الهاجرة وشدة الحر . وقيل إنه أغار على قومه في حر الظهيرة فضُرب به المثل في من يخرج في شدة الحر يقال : لقيته صكة عُمي . مجمع الأمثال (٢/ ١٨٢) ، والمستقصى (٢/ ٢٨٧) ، والروض الأنف (١/ ١٥٨) .

(٣) زاد في ب : يوم بدر . والخبر في السيرة (١/ ٦٣٥) .

(٤) في ب ، وط : الفاعلين .

(٥) البر : الحنطة . ويلبك : يخلط . والشهاد : مفردها شهد ، وهو العسل . علّله بالشيء : شغله به والبيتان في ديوان أمية (٥٠٢) ، (صنعة د . عبد الحفيظ السطلي) .

(٦) المشمعل : النشيط السريع ، المبادر .

(٧) في ط : ملاء لباب . والردح : الجفان العظيمة . والشيزى : خشب أسود تُتَّخذ منه الجفان . واللباب من كل شيء : خالصه وخياره .
والبيتان في ديوان أمية (٣٨١)، والخبر في الروض الأنف (١/ ١٥٨).

ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: « إنه لم يَقُلْ يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[١] .

***

ذكر امرىء القيس بن حجر الكندي صاحب إحدَى المعلّقات[٢]

وهي أفخرهنّ وأشهرهن التي أولها :

قِفا نبكِ مِن ذكرى حَبيبٍ ومنزل

قال الإمام أحمد : حدّثنا هُشيم[٣] ، حدّثنا أبو الجهم ، عن الزُّهْري ، عن أبي سَلَمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القَيس صاحِب لواء الشُّعَراء إلى النار »[٤] .

وقد روَى هذا الحديثَ عن هشيم جماعةٌ كثيرون، منهم بِشر بن الحكم، والحسن بن عَرفة ، وعبد الله ابن هارون أمير المؤمنين المأمون أخو الأمين ، ويحيى بن مَعين . وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزُّهْري ، به[٥] . وهذا منقطع[٦] ، وروي من وجه آخر عن أبي هريرة[٧] ، ولا يصح من غير هذا الوجه[٨] .

---

(١) تقدم قبل قليل ، في أول الحديث عن حاتم الطائي ، وتخريجه هناك .
وابن جدعان واحد ممن حرموا الخمر في الجاهلية . المحبر (٢٣٧) . وأخباره في الأغاني (ثقافة ٨/ ٣٢٩) وما بعدها .

(٢) قوله : ذكر ليس في ط . وفي ب : المعلقات السبع .

(٣) في أ . ط : هشام وهو خطأ .

(٤) المسند(٢/ ٢٢٨) ، والجامع الصغير (١/ ٢١٧) ، وضعّفه .

(٥) الكامل (٤/ ١٤٠٤) .

(٦) هكذا قال المصنف، وهو وهم منه، فكأنه ظن عبد الرزاق هذا هو ابن هَمَّام الصنعاني فقال هذه المقالة، وإنما هو عبد الرزاق بن عمر الثقفي الدمشقي، وهو من الضعفاء المتروكين ومن أصحاب الزهري الكذبة المعروفين (تهذيب الكمال ١٨/ ٤٨ ـ ٥٠ والتعليق عليه)، وقد نسب ابن عدي هذا الحديث إليه فقال في ترجمة أبي الجهم الإيادي وبعد أن ساق هذا الحديث من طريق هشيم عنه عن الزهري: «وقد روي هذا الحديث عن عبد الرزاق بن عمر الدمشقي عن الزهري، كما رواه أبو الجهم» ثم ساقه من طريقه (الكامل ٤/ ١٤٠٤). ثم ذكره في ترجمة هشيم بن بشير منه (٧/ ٢٥٩٨)، وفي ترجمة أبي الجهم من الكنى (٧/ ٢٧٥٥) (د. بشار) .

(٧) أخرجه ابن عدي في الكامل (١/ ٢٠٤) وقال عقيبه : « وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل » .

(٨) قوله: «ولا يصح من غير هذا الوجه»، أي لا يعرف إلا من طريق أبي الجهم، لا أنه صحيح، وأبو الجهم هذا واهي الحديث كما قال الإمام أبو زرعة الرازي في كتاب الضعفاء (٢/ ٥٢٧)، وقال ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٥٠): «لا يجوز الاحتجاج بروايته إذا انفرد» فإسناد الحديث ضعيف جداً، ولذلك ذكره ابن الجوزي في كتابه «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (١/ ١٣٨)، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٢١٧) .

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عَمرو بن[١] حجر آكل المُرَار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يَعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة . أبو يزيد ويقال : أبو وهب ويقال : أبو الحارث الكِنْدي . كان بأعمال دمشق ، وقد ذَكَر مواضعَ منها في شعره ، فمن ذلك قولُه :

قِفا نبكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ بِسِقْط اللِّوى بينَ الدَّخُول فَحَوْمَلِ
فتُوضِحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رسمُها لمـا نَسجَتْها مـن جَنـوبٍ وشَمْـألِ

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران[٢] .

ثمّ روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي : حدّثني فَرْوة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفدٌ من اليمن ، فقالوا : يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس . قال : « وكيف ذاك » ؟ قالوا : أقبلنا نريدُك ، حتى إذا كُنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق ، فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء[٣] ، فتفرقنا إلى أصول طَلْح وسَمُر ليموتَ كل رجلٍ منا في ظل شجرة ، فبينا نحن بآخر رَمَق إذا راكب يُوضِعُ على بعير ، فلما رآه بعضُنا قال ، والراكب يسمع :

ولمـا رأتْ أنّ الشـريعـةَ هَمُّهـا وأنَّ البيـاضَ مـنْ فَـرائصِها دامـي[٤]
تَيَمَّمَـتِ العيـنَ التـي عنـد ضـارجٍ يَفيءُ عليها الظلّ عَرْمَضُها طامي[٥]

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد ؟ قال : قلنا : امرؤ القيس بن حُجر .

---

(١) كذا في ط ، وهو موافق لنص ابن عساكر . وزاد في : أ . ابن الحارث بن حجر . والمُرَار : نبتٌ حار يأكله البعير فيتقلص منه مشفره .

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/ ٣٣) . ولم يشر ياقوت إلى أن هذه المواضع من حوران ، بل نقل عن السكري قوله : حومل والدخول والمقراة وتوضح مواضع ما بين إمرة وأسود العين . وإمرة : موضع على طريق مكة من البصرة . معجم البلدان (حومل ، إمرة ، أسود العين) .

(٣) كذا في ب وط . وفي أ : عليه .

(٤) كذا في ب وط . ومختصر تاريخ دمشق . وفي أ : أن المنية وردها . والشريعة : مورد الشاربين . والفرائص : جمع فريصة ، لحمة بين الكتف والصدر . ترتعد عند الفزع .

(٥) ضارج : جبل ، وقيل : موضع ببلاد عبس . والعرمض : الطحلب . وفي اللسان (ضرج) . همها : طلبها . والضمير في (رأت) للحمر ، يريد أن الحمر لما أرادت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة ، وأن تدمى فرائصها من سهامهم ، عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيه . . . وطامي : مرتفع .
والبيتان ، مع الخبر في الشعر والشعراء (١/ ١١١ ـ ١١٢) ، وفي ملحقات ديوان امرىء القيس (تح . أبو الفضل إبراهيم) (٤٧٦) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٤) ، واللسان (ضرج) .

قال : ما كذب وإن هذا الضارج أو (ضارج)[١] ، عندكم ، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحوٌ من خمسين ذراعاً ، فحبونا إليه على الركَب ، فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك رَجُلٌ مذكورٌ في الدنيا منسِيٌّ في الآخرة ، شَريفٌ في الدنيا ، خامل في الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودُهم إلى النار » .

وذكر الكلبي : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قِتال بني أسد حين قتلوا أباه ، فمر بِتَبَالَةَ ، وبها ذو الخُلصة ، وهو صنم ، وكانت العرب تستقسم عنده ، فاستقسم ، فخرج القدح الناهي ، ثم الثانية ، ثم الثالثة كذلك ، فكسر القداح وضرب بها في[٢] وجه ذي الخُلَصة وقال : عَضِضْتَ بأير أبيك ، لو كان أبوك المقتولَ لما عَوَّقْتَني . ثمّ أغار على بني أسد[٣] فقتلهم قتلاً ذريعاً . قال ابن الكلبي : فلم يُسْتَقْسَم عِند ذي الخلصَة حتى جاء الإسلام[٤] . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده ، فلم يجد ما يؤمله عنده ، فهجاه بعد ذلك ، فيقال : إنه سقاه سُمّاً فقتله ، فألجاه الموتُ إلى جنب قبرِ امرأةٍ عند جبل يقال له : عسيب ، فكتب هنالك : [من الطويل]

أجـارتَنـا إن المـزارَ قـريـبُ ... وإنـي مُقيـمٌ مـا أقـامَ عسيـبُ

أجـارتَنـا إنـا غـريبـان هـاهنـا ... وكـلُّ غـريـبٍ للغـريـبِ نسيـبُ[٥]

وقد[٦] ذكروا أن المعلقات السبع كانت معلَّقةً بالكعبة[٧] ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدُهم قصيدةً عرضها على قريش ، فإن أجازوها علّقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها ، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع :

فالأولى لامرىء القيس بن حُجْر الكِندي كما تقدم ، وأولها : [من الطويل]

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحومَلِ

---

(١) في ط : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم .
(٢) ليست في ط . ولا الأصنام لابن الكلبي .
(٣) في أ : سليم وهو سهو .
(٤) الأصنام لابن الكلبي (٤٧) . وفي ص (٣٤ ـ ٣٦) . تفصيل خبر ذي الخلصة .
(٥) البيتان في ديوانه (٣٥٧) ، وكذلك في الشعر والشعراء (١/ ١٢١) ، والأغاني (٩/ ١٠١) ، ومختصر تاريخ دمشق (٤١) .
(٦) في ط : وذكروا .
(٧) انظر ما جاء في الحديث عن المعلقات وتسميتها وعددها وما إلى ذلك في كتاب (المعلقات سيرة وتاريخاً) لنجيب البهبيتي . طبع دار الثقافة ـ المغرب . (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) .

والثانية للنابغة الذبياني : واسمه زياد بن معاوية ـ ويقال : زياد بن عمرو[١] ـ بن معاوية بن ضباب بن جابر[٢] بن يَربوع بن غَيْظ بن مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض ، وأولها : [من البسيط]

يــا دارَ ميّــةَ بــالعليــاءِ فــالسَّنَــدِ أقـوتْ وطـالَ عليهـا سـالـفُ الأبـدِ

والثالثة[٣] لزهير بن أبي سُلْمى ، ربيعة بن رياح المزَني ، وأولها : [من الطويل]

أمِــنْ أمِّ أَوْفَــى دِمْنَــةٌ لــم تكلَّــمِ بِحَـوْمـانـةِ الـدَّرَّاج فـالمُتَثَلَّـمِ[٤]

والرابعة لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب ابن عُلَي بن بكر بن وائل ، وأولها : [من الطويل]

لخَــولــةَ أطــلالٌ ببُــرقَــةِ ثَهْمَــدِ تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظاهر اليد

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب[٥] بن قُطَيفةَ بن عبس العبسي وأولها : [من الكامل]

هــل غــادرَ الشعــراءُ مــن مُتــردَّمِ أمْ هَل عَرَفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ[٦]

---

(١) قاله التبريزي في شرح القصائد العشر (٤٤٦) .

(٢) سقط ضباب من النسب في ب . وفي أ : بن جابر بن ضباب . ونسب النابغة كما هنا في طبقات فحول الشعراء (١/ ٥١) ، والشعر والشعراء (١/ ١٦٣) ، والأغاني (١١/ ٣) ، والمؤتلف والمختلف (١٩١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٢٥٣) .

(٣) في ب جعل الثالثة لعلقمة بن عبدة ، ثم تابع لزهير الرابعة ، وهكذا .

(٤) أم أوفى : زوجة زهير . والدمنة : آثار الناس وما اسود من أماكنهم . وحومانة الدراج ، والمتثلم : موضعان .

(٥) قوله : غالب زيادة من ط ، توافق المشهور من نسب عنترة . انظر طبقات فحول الشعراء (١/ ١٥٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٢٥٠) .

(٦) زاد في ب بعد البيت قوله : وهو عربي صليبة ، وإنما كانت أمه حبشية ، فكان أسمر اللون كأمه ، فتوهم العامة أنه كان عبداً رقيقاً ، وسموا أمه زبيبة . ويقولون : عنتر ، ويجعلون له أخاً اسمه شيبوب ، ولم أرَ ذلك في شيء من التواريخ . وإنما كان له أخ اسمه عُتبة فيما ذكره ابن خالويه في شرح المعلقات السبع . وكان أبوه من الشجعان أيضاً ، وكان يعرف بفارس جِرْوة ـ اسم فرس له ـ وكان عنترة من أشد الناس بأساً ، وأبطشهم يداً . وكان له مقامات في العرب ، وكان أبوه يعترف له بذلك ويشكره على ذلك . وقد فاخره رجل فقال له عنترة : ويلك! والله إني لأحضر البأس في المقام ، وأعف عن الغنيمة ، وأفضُل الشجعان . فقال له الرجل : أنا أشعر منك . فقال له عنترة : ستعلم ذلك . فعمل قصيدته هذه ، فذكر فيها قتل معاوية بن نزّال ، وتغزل بمعشوقته عبلة بنت أم الهيثم . وله شعر كثير غيرها . ولكن هذه القصيدة هي أول ما قاله من الشعر فيما ذكره ابن خالويه . ومن شعره يقول :

يــا عبــل للمنيــة مهــربــي إن كان ربي في السماء قضى بها

وقد ذكر له الأصمعي ، وأبو عبيدة شيئاً يسيراً من سيرته ، فزاد عليها القصاص وجهلة الناس أشياء كثيرة مكذوبة ح ، وحروباً كانت بين رستم واسفنديار ملك من ملوك الفرس كانت بينهما حروب طويلة ، فساقوا كثيراً منها في حروب=

والسادسة لعلقمة بن عَبَدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها : [من الطويل]

طحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ بُعَيد الشباب عَصْرَ حانَ مَشِيْبُ[١]

والسابعة ـ ومنهم من لايثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره ـ وهي للبيد بن ربيعة[٢] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن عامر بن صَعْصَعة بن معاوية بن بكر بن هَوَزان بن منصور بن عِكْرمة بن خصفة بن قيس بن مضر وأولها : [من الكامل]

عفتِ الديارُ مَحلُّها فَمُقَامُها بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها[٣]

فأما القصيدة التي لا يُعْرَف قائلُها ، فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرّد وغيرهم فهي قوله :

هَلْ بالطُّلولِ لسائلٍ ردُّ أمْ هَلْ لَها بتكلُّمٍ عهدُ[٤]

وهي مطولة وفيها معان حسنة كثيرة[٥] .

* * *

= عنترة، ووضعوا لها أشعاراً ركيكة لا تناسب . وقد قيل لشيخنا العلامة ابن تيمية : إن العامة يجلسون يسمعون سيرة عنترة ، ويأكلون من الترمس والباقلا المقلي ، فقال : هؤلاء قال الله تعالى فيهم : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

ويبدو أن هذا النص من الناسخ لا من ابن كثير ، فالأسلوب يختلف ، وإن ظهر فيه شيء من العلم ، فناسخ فيما يبدو ، من روايته ، عالم .

(١) لا أعرف أحداً ـ فيما قرأت ـ جعل قصيدة علقمة هذه من المعلقات السبع ، أو التسع ، أو العشر . وقد عدّها ابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) من المعلقات كذلك ، ولعل ابن كثير وابن خلدون قد وقعا على مصدر فيه ذلك ، ولم يصل إلينا .
المعلقات سيرة وتاريخاً (١١١) .
وقصيدة علقمة هذه قالها يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني ، ويسعى بها إلى إطلاق أسرى قومه . الشعر والشعراء (١/ ٢٢١) . وهي في ديوانه (٣٣) .

(٢) المشهور أن قصيدة لبيد من المعلقات السبع المتفق عليها ، فقد اتفقت الروايات على أن قصيدة امرىء القيس ، وزهير ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، من القصائد السبع ، واختلفوا في القصيدتين المتممتين بين قصائد : النابغة ، والأعشى ، وعنترة ، والحارث بن حلزة . الحديث مفصلاً حول عدد المعلقات في : المعلقات سيرة وتاريخاً (٦٩) وما بعدها .

(٣) عفت : درست وانمحت . وتأبّد : توحَّشَ . ومنى : موضع غير الذي بمكة ، وقيل : هو . والغول والرجام : موضعان .

(٤) قيل : إن هذه القصيدة تنسب إلى سبعة عشر شاعراً . ونشرت القصيدة منسوبة إلى دوقلة المنبجي بعنوان (القصيدة اليتيمة) برواية القاضي علي بن المحسن التنوخي . حققها د . صلاح الدين المنجد (ط . دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٧٠م) .

(٥) في ب : وفيها معان كثيرة .

ذكر شيء من أخبار أميّة بن أبي الصّلت الثقفي[١]

[كان من شعراء الجاهلية ، وقد أدرك زمن الإسلام][٢]

قال الحافظ ابن عساكر[٣] : هو أمية بن أبي الصَّلْت عبد الله بن أبي ربيعة بن عَوْف بن عُقْدَة[٤] بن غِيَرة ابن عوف بن ثقيف ، أبو عثمان ، ويقال : أبو الحكم الثقفي . شاعر جاهلي ، قَدِم دمشقَ قبل الإسلام ، وقيل : إنه كان مستقيماً[٥] ، وإنه كان في أول أمره على الإيمان ، ثمّ زاغ عنه ، وإنه هو الذي أراد الله تعالى[٦] بقوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

قال الزبير بن بكّار : فولدت رُقَيّة بنتُ عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبي الصلت ، واسم أبي الصلت : ربيعة بن وهْب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين[٧] بالطائف ، وكان أمية أشعرَهم .

وقال عبد الرزاق : قال الثوري : أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ هو أمية بن أبي الصلت . وكذا رواه أبو بكر بن مردويه[٨] عن أبي بكر الشافعي ، عن معاذ بن المثنى ، عن مُسدّد ، عن أبي عَوانة ، عن عبد الملك بن عُمير ، عن نافع بن عاصم بن مسعود . قال : إني لفي حلقة[٩] فيها عبد الله بن عمرو ، فقرأ رجلٌ من القوم الآية التي في الأعراف ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فقال : هل تدرون من هو ؟ فقال بعضهم : هو صَيْفي بن الراهب . وقال آخر : بل هو بَلْعم رجل من بني إسرائيل . فقال : لا ! قال[١٠] : فمن ؟ قال : هو أمية بن أبي الصلت .

---

(١) قوله : ذكر شيء من ، ليس في ط .
(٢) سقط من . وزاد في ب هنا ، فكان ممن آمن شعره وكفر قلبه كما قاله عنه سيد المرسلين رسول الله ﷺ .
(٣) تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٥) .
(٤) في ط: «عوف بن عقدة بن ربيعة» وفي أ: «عقدة بن ربيعة بن عزة». وأثبت الصواب من نسبه. انظر الاشتقاق: (٣٠٤)، وجمهرة ابن حزم: (٢٦٧، ٢٦٩)، ومختصر تاريخ دمشق: (٥/ ٤٢) .
(٥) في مختصر تاريخ دمشق : كان نبياً .
(٦) تفسير الطبري (٩/ ٨٢ ـ ٨٣) .
(٧) الشعر والشعراء (١/ ٤٥٩ و٤٦١) .
(٨) في ب : وقد رواه ابن مردويه .
(٩) في ب : جماعة .
(١٠) في ب : قالوا : والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٦) .

وهكذا قال أبو صالح : والكَلْبي . وحكاه قَتادة عن بعضهم[١] .

وقال الطبراني[٢] : حدّثنا علي بن عبد العزيز ، حدّثنا عبد الله بن شبيب الربعي ، حدّثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومي ، حدّثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي ، حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن مروان بن الحكم ، عن معاوية بن أبي سفيان ، عن أبيه ، قال : خرجتُ[٣] وأمية بن أبي الصلت الثقفي تُجّاراً إلى الشام ، فكلّما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا ، فكنا كذلك حتى نزلنا قريةً من قرى النصارى ، فجاؤوه وأهدوا له وأكرموه وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار ، فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين ، فلبسهما وقال لي : هل لك يا أبا سفيان في عالِم من عُلماء النصارى إليه يتناهى علمُ الكتاب تسأله ؟ قلت : لا أرَبَ لي فيه ، والله لئن حدَّثني بما أُحِبُّ لا أثق به ، ولئن حدّثني بما أكره لأَوجلنّ[٤] منه . قال : فذهب ، وخالفه شيخٌ من النصارى ، فدخل عَليَّ فقال : ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت : لست على دينه . قال : وإنْ . فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لي أثقفيٌّ أنت ؟ قلت : لا ، ولكن قُرشي ؟ قال : فما يمنعك من الشيخ ؟ فو الله إنه ليحبُّكم ويوصي بكم . قال : فخرج من عندنا ، ومكث أميةُ[٥] حتى جاءنا بعد هدْأةٍ[٦] من الليل ، فطرح ثوبيه ، ثم انجدل على فراشه ، فو الله ما نامَ ولا قامَ حتى أصبحَ كئيباً حَزيناً ساقطاً غبوقه على صبوحه[٧] ما يكلّمنا ولا نكلّمه . ثم قال : ألا ترحَلُ ؟ قلت : وهل بكَ مِن رحيل ؟ قال : نعم ، فرحلنا . فسرنا بذلك ليلتين من همه[٨] ثم قال في الليلة الثالثة : ألا تَحدَّثُ يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيتُ[٩] مثل الذي رجعتَ به من عند صاحبك . قال : أَمَا إنَّ ذلك لشيءٌ لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلتُ منه من مُنقلبي . قلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إي والله . لأموتَن ثم لأحيين . قال : قلت : هل أنت قابل أمانتي ؟ قال : على ماذا ؟ قلت : على أنك لا تُبعثُ ولا تحاسَب . قال : فضحك ثمّ قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنُبعثن ثم لنُحاسَبَن وليَدخلن فريق الجنة وفريق النار ، قلت : ففي أيهما أنتَ أخبرَكَ صاحبك ؟ قال : لا علم لصاحبي بذلك لافيَّ ولا في نفسه . قال : فكُنا في ذلك ليلتين يعجَبُ مني وأضحك منه ، حتى قدِمنا

---

(١) أورد الطبري في تفسيره معظم الآراء التي قيلت في هذه الآية (٩/ ٨٢ ـ ٨٣) .
(٢) ذكره ابن عساكر عن أبي علي الحداد ، عن أبي نُعيم ، عنه (٩/ ٢٥٧ ـ ٢٦٠) .
(٣) في ط : أنا وأمية .
(٤) في ط : لأجدن . والوجل : الخوف .
(٥) زاد في ط : عندهم .
(٦) بعد هدأة من الليل : أي حين هدأ الليل ، والرِّجْلُ ، والهدْءُ : أول الليل إلى ثلثه .
(٧) الغَبوق : العشي ، وما يشرب فيه . والصبوح : الصباح ، وما يشرب فيه .
(٨) قوله : من همه ، ليس في ب ، وط .
(٩) في ب : منك .

غوطةَ دمشق ، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، فارتحلنا ، حتى نزلنا قريةً من قرى النصارى ، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأةٍ من الليل ، فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه ، فوالله ما نام ولا قام ، وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلّمنا ولا نُكلّمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت : بلى إنْ شئتَ . فرحلنا كذلك من بثّه[١] وحُزنه ليالي . ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير ؟ نقدمْ أصحابنا . قلت : هل لي فيه[٢] ؟ قال : نعم! فسرنا حتى برزْنا من أصحابنا ساعةً ، ثم قال : هيا صَخر[٣] . فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدّثني عن عُتبة بن ربيعة[٤] أيجتَنِبُ المظالم والمحارمَ ؟ قلتُ : إي والله . قال : ويَصِلُ الرحم ويأمرُ بصلتها ؟ قلتُ : إي والله ! قال : وكريم الطرفين وسيطٌ في العشيرة ؟ قلت : نعم ! قال : تعلم[٥] قرشياً أشرف منه ؟ قلت : لا والله لا أعلم . قال أمحوجٌ هو ؟ قلت : لا ، بل هو ذو مال كثير . قال : وكم أتى عليه من السن[٦] ؟ فقلت : قد زاد على المئة . قال : فالشرفُ والسنُّ والمال أزْرَيْنَ به ؟ قلت : ولم ذاك يُزري به ؟ لا والله بل يزيده خيراً . قال : هو ذاك . هل لك في المبيت ؟ قلت هل لي فيه[٧] ، قال : فاضطجعنا حتى مر الثَّقَل[٨] . قال : فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ، ثم ارتحلنا[٩] منه . فلما كان الليل قال لي : يا أبا سفيان . قلت : ما تشاء ؟ قال : هل لك في مثل البارحة ؟ قلت : هل لي فيه! قال : فسرنا[١٠] على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هَيا صَخر ، هيه عن عتبة بن ربيعة ، قال : قلت : هِيْهاً فيه . قال : أيجتنب المحارم والمظالم ، ويصل الرحم ، ويأمرُ بصلتها ؟ قلت : إي والله ، إنه ليفعل . قال : وذو مال ؟ قلت : وذو مال . قال : أتعلم قرشياً أسودَ منه[١١] ؟ قلت : لا والله ما أعلم! قال : كم أتى له من السن ؟ قلت : قد زاد على المئة . قال فإن السن والشرف والمال أزرَين به ؟ قلت : كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائلٌ شيئاً فقلْه . قال : لا تَذْكُرْ حديثي حتى[١٢] يأتي منه ما هوآت .ثم قال : فإن الذي

---

(١) البث : شدة الحزن .

(٢) في ط : لنتقدم هل لك فيه .

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية ، صحابي توفي سنة (٣١هـ) .

(٤) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أحد سادة قريش في الجاهلية، كان خطيباً ، حليماً ذا فضل ، قتل يوم بدر على الشرك.

(٥) في ط : فهل تعلم .

(٦) في ب : أتى له من السنين .

(٧) في ط : قالت لي فيه .

(٨) الثَّقَل : المتاع ، والحشم .

(٩) في ب : رحلنا .

(١٠) في ط : هل لك فيه . قال نعم فسرنا . وفي ب : بخيبتين . والبُخت : نوع من الجِمال .

(١١) أسود : من السيادة .

(١٢) ليست في ط .

رأيتَ أصابني أنّي جئتُ هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلتُ : أخبرني عن هذا النبي الذي يُنْتَظَر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ أنه من العرب ، فمن أي العرب هو ؟ قال من أهل بيت تحُجه العرب . قلت : وفينا بيتٌ تحجّه العرب . قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط[١] ، وخرج من يدي فوزُ الدنيا والآخرة ، وكنتُ أرجو أن أكونَ إياه ، قلت : فإذا كان ما كان فصِفْه لي . قال : رجل شاب حين دَخَل في الكهولة[٢] . بُدُوُّ أمره يجتنبُ المظالم والمحارم ، ويصل الرحمَ ، ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين ، متوسط في العشيرة ، أكثر جنده[٣] الملائكة . قلت : وما آيةُ ذلك ؟ قال : قد رَجَفتِ الشام منذ هلكَ عيسى ابن مريم عليه السلام ثلاثين[٤] رجفةً ، كلها فيها مصيبة ، وبقيتْ رجفةٌ عامة فيها مصائب . قال أبو سفيان : فقلتُ : هذا والله الباطل ، لئن بعثَ اللهُ رسولاً لا يأخذه إلا مُسِنًّا شريفاً . قال أمية : والذي حلفتَ به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول إن قول النصراني حق . هل لك في المبيت ؟ قلت نعم ، هل لي فيه[٥] . قال : فبتنا حتى جاءنا الثَّقَلُ ، ثم خرجْنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان[٦] أدرَكَنا راكبٌ من خلفنا ، فسألناه ، فإذا هو يقول : أصابت أهلَ الشام بعدكم رجفةٌ دمَّرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمةٌ . قال أبو سفيان : فأقبل عليَّ أميةُ فقال : كيف ترى قولَ النصراني يا أبا سفيان ؟ قلت أرى والله وأظن[٧] أن ما حدَّثك به صاحبُك حقٌّ . قال أبو سفيان : فقدِمْنا مكةَ ، فقضيتُ ما كان معي ، ثم انطلقتُ حتى جئتُ اليمنَ تاجراً ، فكنت بها خمسةَ أشهر ، ثم قدمتُ مكة ، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلّمون[٨] ويسألون عن بضائعهم ، حتى جاءني محمد بن عبد الله وهندٌ عندي تُلاعبُ صبيانها ، فسلّم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سَفَري ومُقامي ولم يسألني عن بضاعته ، ثم قام . فقلت لهندٍ : والله إن هذا يعجبني[٩] ، ما مِن أحَد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها ، وما سألني هذا عن بضاعته . فقالت لي هند : أو ما علمتَ شأنه ؟ قلت وقد فزعت[١٠] : ما شأنه ؟ قالت : يزعم أنه رسول الله . فوَقَذَتْني وذكرتُ[١١] قول النصراني ،

---

(١) في ب قط مثله .
(٢) الكهل : من جاوز الثلاثين أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين .
(٣) في ط : من الملائكة .
(٤) زيادة من ب . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق . وفي ط : ثمانين .
(٥) في ط : قلت نعم لي .
(٦) في ط : مرحلتان ليلتان .
(٧) في ط : أرى وأظن والله .
(٨) في ط ، ومختصر تاريخ دمشق : يسلمون علي .
(٩) في ط : ليعجبني . وفي ب : ما يعجبني أي الذي يعجبني .
(١٠) في ط : فقلت وأنا فزع .
(١١) في ب : وذكرتني . وفي ط : وتذكرت . والوقذ : شدة الضرب .

فوجمت[(١)] حتى قالت لي هند : مالك ؟ فانتبهتُ ، فقلت : إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقول ذلك ويؤاتى عليه ، وإن له صحابة[(٢)] على دينه . قلت : هذا[(٣)] الباطل . قال : وخرجتُ . فبينا أنا أطوف بالبيت لقيته[(٤)] فقلت له : إن بضاعتك قد بلغتْ كذا وكذا ، وكان فيها خيرٌ فأرسِلْ فخذها[(٥)] ، ولست آخُذُ مِنكَ فيها ما آخُذُ من قومي ، فأبَى عليَّ ، وقال : إذن لا آخذُها . قلت : فأرسل فخذْها وأنا آخذ منك مثلَ ما آخذُ من قومي . فأرسَلَ إلى بضاعته فأخذها ، وأخذتُ منه ما كنتُ آخذ من غيره . فلم أَنْشَبْ[(٦)] أن خرجتُ إلى اليمن ، ثم قدمتُ الطائفَ فنزلتُ على أميةَ بن أبي الصلت فقلت : يا أبا عثمان ، قال : ما تشاء ؟ قلت : هل[(٧)] تذكر قول النصراني ؟ فقال : أذكره قلت : فقد كان . فقال : ومن ؟ قلت : محمد بن عبد الله . قال ابن عبد المطلب ؟ قلت : ابن عبد المطلب . ثم قصصْتُ عليه خبرَ هند ، قال : فالله يعلم ، لَتَصَبَّبَ[(٨)] عرقاً . ثم قال : والله يا أبا سفيان لَعَلَّهُ ! إنَّ صفته لهي ، ولئن ظهر وأنا حَيٌّ لأنيلنَّ[(٩)] من الله عزّ وجل في نصره عُذراً . قال : ومضيتُ إلى اليمن فلم أنْشَب أن جاءني هنالك استهلاله ، فأقبلتُ حتى نزلتُ على أمية بن أبي الصلت بالطائف ، فقلت : يا أبا عثمان ! قد كان من أمر الرجل ما قد بلغَكَ وسمعت . قال[(١٠)] : قد كان لَعَمْري . قلت : فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال : والله ما كنتُ لأومن برسولٍ من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلتُ إلى مكةَ ، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئتُ مكةَ فوجدتُ أصحابه يُضْرَبون ويُعْقَرون ، قال أبو سفيان : فجعلتُ أقول : فأين جُنْدُه من الملائكة ؟! قال : فدخلني ما يدخلُ الناس من النفاسة[(١١)] .

وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب « الدلائل »[(١٢)] من حديث إسماعيل بن طريح به ، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول . والله أعلم .

---

(١) في ط : فرجفت .
(٢) في ط : ليقولن ذلك ويدعوا إليه وإن له لصحابة . والمؤاتاة : حُسن المطاوعة .
(٣) في ط : هذا هو الباطل .
(٤) في ط : إذ بي قد لقيته .
(٥) في ط : من يأخذها .
(٦) في ط : قال أبو سفيان : فلم أنشب . ولم ينشب : أي ما لَبِث .
(٧) في ط : . . الصلت فقال لي يا أبا سفيان ما تشاء هل . . . وكذلك ثمة خلاف في ألفاظ : قال وقلت بين المطبوع ، وأ ، وب . لن أشير إليها .
(٨) في ط : وأخذ يتصبب .
(٩) في ط : لأطلبن . وائتلى : إذا اجتهد ، أو قصّر ، من الأضداد .
(١٠) في ط : وسمعته فقال .
(١١) النفاسة : الحسد . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٣ ـ ٤٦) ، والأغاني (٤/ ١٢٣) .
(١٢) في ب : كتابه دلائل النبوة ، وهو فيه (٢/ ١١٦ ـ ١١٧) .

وقال الطبراني : حدّثنا بكر بن أحمد بن نُفَيل ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا يعقوب بن محمد الزُّهْري ، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدي ، حدثنا ليث بن سعد ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن[١] ، عن عروة بن الزبير ، عن معاوية بن أبي سفيان ، عن أبي سفيان بن حَرب أن أمية بن أبي الصلت كان بغزةَ أو بإيلياء ، فلما قفلنا قال لي أمية : يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفْقة فنتحدث ؟ قلت : نعم ! قال : ففعلنا ، فقال لي : يا أباسفيان إيهِ عن عتبة بن ربيعة . قلت : كريمُ الطرفين ، ويجتنب المحارم والمظالم ؟ . قلت : نعم . قال : وشريفٌ مُسِنٌّ ؟ . قلت : وشريف مسن . قال : السن والشرف أزْرَيا به ؟ فقلت له : كذبتَ ، ما ازداد سناً إلا ازداد شرفاً . قال : يا أبا سفيان إنها كلمةٌ ما سمعتُ أحداً يقولها لي منذ تبصرت ، فلا تعجل عليَّ حتى أُخبرَك . قال : قلت : هات . قال : إني كنت أجد في كتبي نبياً يُبعث من حَرّتنا[٢] هذه ، فكنتُ أظن ، بل كنتُ لا أشك أني أنا هو ، فلما دارَسْتُ أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف ، فنظرتُ في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غيرَ عُتبة بن ربيعة ، فلما أخبرتني بسنّه عرفتُ أنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يُوْحَ إليه . قال أبو سفيان : فضرب الدهر من[٣] ضَرْبه ، فأُوحي إلى رسول الله ﷺ ، وخرجت في ركْبٍ من قريش أريد اليمن في تجارة ، فمررتُ بأمية ، فقلتُ له كالمستهزِىء به : يا أمية ، قد خرج النبي الذي كنتَ تنعته . قال : إنه[٤] حقٌّ فاتَّبِعْهُ . قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعني إلّا الاستحياء من نسيّات[٥] ثقيف ، إني كنتُ أحدّثهن أني هو ، ثم يَرَيْنني تابعاً لغلام من بني عبد مناف ! ثم قال أمية : كأني بك يا أبا سفيان إن[٦] خالفتَه ، ثم قد رُبطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن الكلبي قال : بينا أمية راقدٌ ومعه ابنتان له إذ فزِعت إحداهما ، فصاحت عليه ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : رأيت نَسْرين كَشَطا سقفَ البيت ، فنزل أحدهما إليك فشقَّ بطنك ، والآخر واقفٌ على ظهر البيت ، فناداه فقال : أَوَعَى ؟ قال : نعم . قال : أزَكَا ؟ قال[٧] :

---

(١) في أ : أبي الأسود بن محمد بن عبد الرحمن . وهو سهو ، فأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي ، ثقة . توفي سنة بضع وثلاثين ومئة . تقريب التهذيب (٢/ ١٨٥) .
(٢) الحَرَّة : الأرض ذات الحجارة السود .
(٣) ليست في ط .
(٤) في ط : أنا إنه .
(٥) في ط : نساء .
(٦) في ط : قد .
(٧) كذا في ط . ومختصر تاريخ دمشق . وهي أوضح العبارات . وفي أ : أوعى؟ قال : وعى . قال : أرجا قال لا . وفي ب مثل ما في ط ، وفيهما : قال : أرجا . وقوله : زكا ، يعني الشفع ، ويروى الخبر ، قال : زكا؟ قال : خسا . وخسا : هو الفرد ، يقال : زكاـ خسا أي أزوج أم فرد؟ قال الشيخ محمود شاكر في تحقيقه لطبقات=

لا . فقال : ذاك خيرٌ أريد بأبيكما فلم يقبلْه[١] .

وقد رُوي من وجه آخر ، بسياق آخر ، فقال إسحاق بن بشر ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب وعثمان بن عبد الرحمن ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيِّب قال : قدمَتِ الفارعة أختُ أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة[٢] ، وكانت ذاتَ لُبٍّ وعَقْل وجمال ، وكان رسول الله ﷺ بها معجَباً ، فقال لها ذات يوم : يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فقالت : نعم ، وأعجبُ منه[٣] ما قد رأيتُ ، قالت : كان أخي في السفر ، فلما انصرفَ بدأني[٤] فدخل عليَّ ، فرقدَ على السرير وأنا أحلق أديماً في يدي، إذ أقبل طائران أبيضان، أو كالطيرين أبيضين، فوقع على الكوّة أحدُهما، ودخل الآخر فوقع عليه ، فشقَّ الواقعُ عليه ما بينَ قَصّه[٥] إلى عانته ، ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه ، فوضعه في كفه ، ثم شمه ، فقال له الطائر الآخر : أوَعَى ؟ قال : وعى . قال : أزكا ؟ قال أبى ، ثم ردَّ القلبَ إلى مكانه فالتأم الجرحُ أسرعَ من طَرفة عين ، ثم ذهبا ، فلما رأيتُ ذلك دنوتُ منه فحركتُه فقلتُ : هل تجدُ شيئاً . قال : لا ، إلا توهيناً في جَسَدي ـ وقد كنت ارتعبتُ مما رأيتُ ـ فقال : ما لي أراك مرتاعة ؟ قالت : فأخبرتُه الخبرَ . فقال : خيرٌ أُريد بي ثم صُرِف عني . ثم أنشأ يقول : [من المنسرح]

باتت همومي تَسْرِي طوارِقُها ... أَكُفُّ عيني والدمْعُ سابقُها
مما أتاني من اليقينِ ولم ... أُوْتَ بَراةً يَقُصُّ ناطِقُها[٦]
أَمْ مَنْ تَلَظَّى واقِدَةُ النـ ... ـارِ مُحِيطٌ بهم سُرَادِقُها[٧]
أَمْ أُسْكِنَ الجنَّةَ التي وُعِد الأبـ ... ـرارُ مَصْفُوفةٌ نَمارِقُها
لا يَسْتَوِي المنزلانِ ثَمّ ولا الأعـ ... ـمالُ لا تَسْتَوِي طَرَائقُها
هُما فريقان فِرْقةٌ تَدْخُلُ الجـ ... ـنَّةَ حَفّتْ بهم حَدائِقُها

= ابن سلام (٢٦٦) : وأراد به في هذا الخبر : أوعى فقبِلَ ؟ فهذان زوج ، الوعي والقبول معاً . أم وعى ولم يقبل ، فهذا فرد في الوعي وحده دون القبول .

(١) في ط : يفعله . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٦) .
(٢) في الإصابة : الطائف .
(٣) في ب ، وط : من ذلك .
(٤) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : بدأ بي . وفي ط : على سريري .
(٥) القصُّ : الصدر ، أو رأسه ، أو وسطه ، أو عظمه .
(٦) اليقين : أراد به العلم بالبعث والحساب ، وهو شيء مؤكد . والبراة : أراد بها البراءة ، أي لم يُعط براءة تخفف من همه ، لأنه واحد من الناس ، وعليه ما عليهم يوم الحساب .
(٧) السرادق : ما أحاط بالبناء ونحوه . وخبر (من) محذوف ، والتقدير : أمّن يحترق بالنار ويحيط به العذاب كمن يسكن الجنة .

وفرقةٌ منهمُ قدِ ادخلتِ النَّـ ـارَ فساءتْهمُ مَرافقها
تعاهدتْ هذه القلوبُ إذا همَّتْ بخيرٍ عاقَتْ عَوائقُها
وصَدَّها للشقاءِ عَن طلَبِ الـ ـجَنَّةِ دُنيا أللهُ ماحِقُها
عبدٌ دَعا نَفسَه فعاتَبَها يَعْلَمُ أنَّ البصيرَ رامِقُها
ما رغبة النفس في الحياةِ وإن تَحيا قليلاً فالموتُ لاحِقها[1]
يوشِك مَنْ فرَّ من منيّته يوماً على غِرّةٍ يُوافقها
إنْ لم تَمُتْ عَبْطةً تَمُتْ هَرَماً لِلموتِ كأسٌ والمرْءُ ذائِقها[2]

قال[3] : ثم انصرف إلى رحله ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى طعن في حيارته[4] فأتاني الخبر ، فانصرفتُ إليه ، فوجدتُه منعوشاً[5] قد سُجّي عليه ، فدنوتُ منه ، فشهق شهقةً ، وشقّ[6] بصره ، ونظر نحوَ السقفِ ورفع صوتَه ، وقال : [من الرجز]

لَبَّيكما لَبَّيكما ها أنذا لَديكما

لا ذو مال فيفديني ، ولا ذو أهل فتحميني . ثم أُغمي عليه ، إذ شهق شهقةً فقلت : قد هلك الرجلُ . فشقَّ بصره نحو السقف فرفع صوته ، فقال : [من الرجز]

لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما

لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر . ثم أغمي عليه ، إذ شهق شهقةً وشق بصره ، ونظر نحو السقف ، فقال : [من الرجز]

لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما

بالنعم محفود ، وبالذنب محصود ، ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة . فقال : [من الرجز]

لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما
إنْ تغفرِ اللهُمَّ تَغفِرْ جَمّا وأيُّ عبدٍ لكَ لا أَلمَّا[7]

---

(١) في ط : ما رغّب .
(٢) في ط الأصول : غبطة . ولا وجه لها . وأثبت ما في ديوانه . ومات عبطة : شاباً . والأبيات في ديوان أمية : (٤١٩) ، وتخريجها فيه .
(٣) في ب : قالت .
(٤) في ط : حيارته . وفي مختصر تاريخ دمشق : ظعن في جنازته . ولا يستقيم بها المعنى . والحيار : الأثر .
(٥) النعش : السرير يحمل عليه الملك إذا مرض .
(٦) شق بصر الميت : انفتحت عيناه وشخص كأنه ينظر إلى شيء ، لا يرتد إليه طرفه .
(٧) ديوانه (٤٩١) . وألم الرجل : وقع في اللمم ، وهو صغار الذنوب .

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال : [من الخفيف]

كـلُّ عيشٍ وإن تطاولَ دهـراً صـائـرٌ مـرَّةً إلـى أن يَـزُولا
ليتنـي كنـتُ قبلَ مـا قـدْ بـدالـي في قِلالِ الجبالِ أرْعَى الوعولا[١]

قالت : ثم مات . فقال رسول الله ﷺ : « يا فارعةُ فإن مَثَلَ أخيك كَمَثَلِ الذي آتاه الله آياته ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾[٢] الآية .

وقد تكلَّم الخطابي على غريب هذا الحديث .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهري أنه قال : قال أمية بن أبي الصلت : [من البسيط]

أَلا رسـولٌ لنـا منّـا يخبّـرنـا ما بُعْدُ غايتِنا منْ رأسِ مُجْرانا[٣]

قال : ثم خرج أميةُ بن أبي الصلت إلى البحرين ، وتَنَبّأ رسول الله ﷺ ، وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ، ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقولُ محمد بن عبد الله ؟ قالوا : يزعم أنه نبيٌّ ، هو[٤] الذي كنتَ تتمنى . قال : فخرجَ حتى قدم عليه مكة ، فلقيه . فقال : يا ابن عبد المطلب ، ما هذا الذي تقول ؟ قال : أقول : إني رسول الله ، وأن لا إلّه إلا هو . قال : إني أريدُ أن أكلمك ، فعِدْني غداً . قال : فموعدُك غداً . قال : فتحِبُّ أن آتيكَ وحْدي أو في جماعةٍ من أصحابي ، وتأتيني وحدَك أو في جماعةٍ من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أيّ ذلك شئتَ » . قال : فإني آتيكَ في جماعة ، فأْتِ في جماعة . قال : فلما كان الغدُ غدا أمية في جماعةٍ من قريش ، قال : وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكَعْبة . قال : فبدأ أميةُ فخطبَ ، ثم سجع ، ثم أنشدَ الشعر ، حتى إذا فرغ[٥] قال : أجبني يا ابنَ عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم ﴾ حتى إذا فرغ منها وثَبَ أميةُ يجرُّ رجلَيه ، قال : فتبعتْه قريشٌ يقولونَ : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتّبعُه ؟ قال : حتى أنظرَ في أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام ، وقدم رسولُ الله ﷺ المدينة ، فلما قُتِلَ أهلُ بدرٍ قدِمَ[٦] أميةُ من الشام حتى نزلَ بدراً ، ثم ترحَّل يريدُ رسولَ الله ﷺ فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريدُ ؟ قال : أريدُ محمداً . قال : وما تصنعُ ؟ قال : أومنُ به وأُلقي إليه

---

(١) ديوانه (٤٥٠ ـ ٤٥١) . والقلال : جمع قُلّة ، وهي أعلى الجبل .
(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٠ ـ ٥٢) . وطبقات فحول الشعراء (٢٦٥ ـ ٢٦٧) ، والأغاني (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢) ، والإصابة (٤/ ٣٧٥) .
(٣) ديوان أمية : (٥١٧) .
(٤) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : فهو .
(٥) في ط : فرغ الشعر .
(٦) في ب ، وابن عساكر : أقبل .

مقاليدَ هذا الأمر . قال : أتدري مَنْ في القليب ؟ قال : لا . قال : فيه عُتبة بن ربيعة ، وشَيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه رُقية[١] بنتُ عبد شمس ـ قال : فَجَدَعَ أذني ناقته ، وقطع ذنَبها ، ثم وقفَ على القليب يقول : [من مجزوء الكامل]

مـــا ذا ببَــدرٍ فـــالعَقَنْـ ـقَلِ مِن مرازبةٍ جَحاجِحْ[٢]

القصيدة إلى آخرها ، كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصّة بدر إن شاء الله . ثمّ رجع إلى مكة والطائف ، وترك الإسلام[٣] .

ثمّ ذكر قصّة الطيرين ، وقصّة وفاته كما تقدم .

وأنشدَ شعرَه عند الوفاة : [من الخفيف]

كــلُّ عيــشٍ وإن تَطــاولَ دَهْــراً صــائــرٌ مــرةً إلــى أنْ يــزولا
ليتنـي كُنْـتُ قبـلَ مـا قـد بـدا لـي فـي قِـلالِ الجبـالِ أرعَـى الـوُعُـولا
فاجْعل الموتَ نُصْبَ عَينيكَ واحْذَرْ غَـوْلـةَ الـدهْـر إنّ للـدهْـرِ غُـوْلا[٤]
نـائـلاً ظُفْـرُهـا القَسَـاورَ والصّـدْ عَان والطِّفْلَ في المنار الشَّكِيلا[٥]
وبُغَــاثَ النِّيــافِ واليَعْفُــرَ النــا فِـرَ والعَـوْهَـجَ البُـرامَ الضَّئِيـلا[٦]

فقوله : القساور : جمع قَسْورة ، وهو الأسد . والصّدْعان : ثيران الوحش ، واحدها صَدْع ، والطّفل : الشكل من حمرة العين . والبغاث : الرخم . والنياف : الجبال . واليَعْفُر : الظبي . والعوهج : ولد النعامة . يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ، ولا الرخم الساكن في رؤوس الجبال ، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره .

وقد تكلّم الخطابي وغيرُه على غريب هذه الأحاديث .

---

(١) كذا في ب : وهو معروف . وفي أ ، ط : ربيعة .
(٢) ديوانه (٣٤٦) . والعقنقل : كثيب رمل ببدر . والمرازبة : جمع مرزبان ، وهو الفارس الشجاع (فارسية) . والجحاجح : جمع جحجاح ، وهو السيد الكريم .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٢ ـ ٥٣) .
(٤) الغَوْلة : المَرَّةُ من غاله الشيء غَوْلًا إذا أهلكه . والغُول : المنية وكل ما أهلك الإنسان .
(٥) في الديوان : في القفار الشكيلا . وقال محققه في رواية المتن المنار : لا يستقيم معناه بهذه الرواية ، ولهذا اجتهدت أن أقرأه (والطفل في القفار الشكيلا) لأن الطفل في اللغة : النار ، أو ولد كل وحشيّةٍ . والمنار : موضع النور . وطبيعة الأبيات لا تساعد على هذا المعنى .
(٦) ديوان أمية (٤٥١ ـ ٤٥٢) . والبرام : القُراد ، وهو دويبة تعلق بالبعير ونحوه .

وقد ذكر السهيلي في كتابه « التعريف والإعلام »[١] : أن أمية بن أبي الصلت أول من قال : باسمك اللهم[٢] ، وذكر عند ذلك قصة غريبة ، وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سَفرٍ فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان ، قال : فمرّوا في مسيرهم بحيَّة فقتلوها ، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ، ومعها قضيبٌ ، فضربت به الأرضَ ضربةً نفرت الإبل عن آخرها ، فذهبت وشردت كل مذهب ، وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردّوها ، فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرضَ بقضيبها ، فنفرت الإبل ، فذهبوا في طلبها حتى ردوها[٣] ، فلما أعياهم ذلك قالوا : والله هل عندكَ لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال : لا والله ، ولكن سأنظر في ذلك . قال فسار[٤] في تلك المحلّة لعلّه يجد أحداً يسأله عما قد حلّ بهم من العَناء ، إذا نارٌ تلوح على بعد ، فجاءها ، فإذا شيخٌ على باب خيمة يوقد ناراً ، وإذا هو من الجان ، في غاية الضآلة والدَّمَامة ، فسلّم عليه ، فسأله عما هم فيه ، فقال : إذا جاءتكم فَقُلْ : باسمك اللهم ، فإنها تهربُ ، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية : باسمك اللهم ، فشردت ولم يقرّ لها قرار ، لكن عَدَت الجِنُّ على حَرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية ، فقبره[٥] أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ، ففي ذلك يقول الجان : [من الرجز]

وقبـرُ حـربٍ بمكـانٍ قفْـرُ ... ولَيْس قُربَ قبرِ حَربٍ قبرُ[٦]

وذكر بعضهم : أنه كان يَتفرَّسُ في بعض الأحيان في لغات[٧] الحيوانات ، فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا ، فيقولون : لا نعلم صدقَ ما يقول . حتى مرّوا على قطيع غنم قد انقطعتْ منه شاةٌ ومعها ولدها ، فالتفتتْ إليه فثَغَتْ[٨] كأنها تستحثه . فقال : أتدرون ما تقول له ؟ قالوا : لا . قال : إنها تقول : أسرعْ بنا لا يجيء الذئبُ فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام[٩] أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعي : هل أكل الذئب عام أول حَمَلاً بتلك البقعة ؟ فقال : نعم[١٠] .

---

(١) التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام ، طبع في مصر (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م) .
(٢) الأغاني (٤/ ١٢٣) .
(٣) قوله : حتى ردوها ليس في ب ، ط .
(٤) في ط : فساروا وكذلك باقي الخبر ورد في ط بصيغة الجماعة .
(٥) في ط : قبره .
(٦) الخبر في الأغاني (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٧) . والبيت من شواهد البلاغيين على تنافر الكلمات . البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٦٥) ، ودلائل الإعجاز (٤٧) . (تح . د . الداية) .
(٧) في ب : كلام .
(٨) الثغاء : صوت الغنم .
(٩) في ب : كما أكل أخاك في .
(١٠) الأغاني (٤/ ١٢٤) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨) .

قال : ومرَّ يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغُو . فقال : إنه يقول لها : إنك رحلتني وفي الحِدَاجَة مَخيط . فأنزَلوا تلك المرأةَ وحلوا ذلك الرحْل فإذا فيه مخيط كما قال[١] .

وذكر ابن السكّيت : أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يَشْرَب يوماً إذ نَعَبَ غُرابٌ . فقال له : بفيك التراب ، مرتين . فقيل له : ما يقول ؟ فقال : إنه يقول : إنك تشربُ هذا الكأسَ الذي في يدك ثم تتكىء[٢] تموت . ثم نعب الغراب فقال : إنه يقول : وآيةُ ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلقُ عظم في حلقي فأموت . ثم نزل الغرابُ على تلك المزبلة ، فأكل شيئاً ، فعلق في حلقه عظمٌ ، فمات . فقال أمية : أما هذا فقد صدق في نفسه ، ولكن سأنظر هل صدقَ فيَّ أم لا . ثم شرب ذلك الكأس الذي في يده ، ثم اتّكأ فمات[٣] .

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مهدي ، عن الثوري ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصْدَقَ كلمة قالَها شاعرٌ كلمة لبيد : [من الطويل]

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم »[٤] .

فقال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا رَوْح ، حدّثنا زكريا بن إسحاق ، حدّثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد : كنت رِدْفاً لرسول الله ﷺ فقال لي : « أمَعَكَ مِن شِعْر أمية بن أبي الصلت شَيءٌ » ؟ قلت : نعم ! قال : « فأنشِدْني » . فأنشدتُه بيتاً ، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً : « إيهِ » حتى أنشدته مئة بيت . قال : ثمّ سكتَ النبي ﷺ وسكتُّ .

وهكذا رواه مسلم من حديث سُفيان بن عُيينة عن إبراهيم[٦] بن ميسرة ، به .

ومن غير وجهٍ عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ[٧] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) . والحداجة : مركب للنساء .
(٢) قوله : تتكىء ، زيادة من ب ، وابن عساكر توافق سياق الكلام .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٢) .
(٤) أخرجه البخاري رقم (٦١٤٧) في الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز ، ومسلم (٢٢٥٦) ، في الشعر ، وابن ماجه (٣٧٥٧) في الأدب ، باب الشعر .
(٥) المسند (٤/ ٣٨٩) .
(٦) في ط : أبي تميم بن مسرة . وإبراهيم بن ميسرة الطائفي فقيه ، ثقة . توفي قريباً من سنة (١٣٢هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٣) .
والحديث في صحيح مسلم (٢٢٥٥) ، في أول كتاب الشعر .
(٧) زاد في ب : بنحوه .

وفي بعض الروايات : فقال رسول الله ﷺ : « إنْ كاد ليُسْلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد : حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدّثنا أبو أسامة ، حدّثنا حاتم بن أبي صَغيرة[١] ، عن سماك بن حرب ، عن عمرو بن نافع ، عن الشريد الهمْداني وأخواله ثقيف قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجّة الوداع ، فبينا أنا أمشي ذات يوم إذا وَقْعُ ناقةٍ خلفي فالتفت[٢] فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد » ؟ فقلت : نعم . قال : « ألا أحملك » ؟ قلت : بلى ، وما من إعياء[٣] ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ ، فحملني ، فقال : « أمعكَ من شِعر أمية بن أبي الصَّلْت » ؟ قلت : نعم ! قال : « هاتِ » . فأنشدتُه . قال : أظنه قال : مئة بيت ، فقال : « عند الله عِلْم أمية بن أبي الصلت »[٤] . ثم قال ابنُ صاعد : هذا حديث غريبٌ .

فأما الذي يُروى أن رسول الله ﷺ قال في أمية : « آمنَ شعرُه وكَفَرَ قلبُه » ، فلا أعرفه[٥] . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدثنا عبد الله بن محمد ـ وهو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدّق أمية في شيء من شِعره قال : [من الطويل]

رجلٌ وثورٌ تحتَ رِجل يَمينه   والنَّسْر للأُخرى ولَيْثٌ مُرْصِدُ[٧]

[فقال رسول الله ﷺ : صدق ، وقال][٨] [من الكامل]

والشمسُ تَبدو كُلَّ آخرِ ليلةٍ   حَمْراءَ يُصبحُ لونُها يتورّد
تأبى فما تَطلُعُ لنا في رِسْلها   إلا مُعَذَّبةً وإلّا تُجلَدُ[٩]

فقال رسول الله ﷺ : « صدَق » .

---

(١) في ط : صفرة وفيه تحريف . وحاتم بن أبي صغيرة أبو يونس البصري ، ثقة ، من الطبقة السادسة . تقريب التهذيب (١/ ١٣٧) .
(٢) زيادة في ب .
(٣) في ب : وما بي من إعياء ولا لغوب .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٧) .
(٥) أورده السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٧) ، وضعّفه . وهو في الأغاني (٤/ ١٣٠) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨) .
(٦) المسند (١/ ٢٥٦) .
(٧) المرصد : المترقب المتهيىء للوثوب .
(٨) من ب ، وهي في المسند الذي ينقل منه .
(٩) الرِّسْل : الرفق وعدم العنف . والأبيات في ديوان أمية (٣٦٥ ـ ٣٦٦)، والحديث في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٧).

وفي رواية أبي بكر الهذلي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى يَنْخَسَها[١] سبعونَ ألف مَلك يقولون لها : اطلعي اطلعي ، فتقول : لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله . فإذا همّت بالطلوع أتاها شيطانٌ يريد أن يُثبّطها ، فتطلع بين قرنيه وتحرقه . فإذا تضيَّفت للغروب عزمت على السجود[٢] لله عز وجل فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود ، فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولاً[٣] .

ومن شعره في حَمَلَة العرش : [من الطويل]

فمن حاملٍ إحدى قوائمِ عرشِه ... ولـولا إلَـهُ الخلـقِ كَلُّـوا وبلَّـدوا[٤]

قيـامٌ علـى الأقـدامِ عـانـونَ تحتـه ... فرائصُهم من شدّة الخوف ترعدُ[٥]

رواه ابن عساكر ، وروي عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية : [من الخفيف]

مجّـدوا اللهَ فهـو للمجْـدِ أهْـلُ ... رَبُّنـا فـي السمـاء أمسـى كَبيـرا

بـالبنـاءِ الأعلـى الـذي سَبَـقَ النَّـ ... ـاسَ وسَـوَّى فَـوْق السَّمـاءِ سَرِيـرا

شَـرْجَعـاً لا ينـالـهُ بَصَـرُ العَيْـ ... ـنِ تَـرَى دُوْنه المـلائِكَ صُورا[٦]

ثم يقول الأصمعي : الملائك : جمع ملك ، والصور : جمع أصور ، وهو المائل العنق ، وهؤلاء حَملة العرش . ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدْعان التيمي[٧] : [من الوافر]

أأذكـرُ حَـاجتـي أمْ قَـدْ كفـانـي ... حَيَـاؤُكَ إنَّ شيْمَتَـك الحيـاءُ

وعِلمُـك بـالحقـوقِ وأنْـتَ فَـرْعٌ ... لَـكَ الحسَـبُ المهـذّبُ والسنـاء

كـريـمٌ لا يغيّـره صَبـاح ... عـن الخُلُـق الجـزيـل ولا مَسـاءُ[٨]

يبـاري الـريـحَ مَكْـرُمـةً وجُـوداً ... إذا مـا الكَلْـبُ أجحَـره الشتـاء

وأرضُـك أرضُ مَكْـرمـةٍ بَنَتْهـا ... بنـو تَيْـمٍ وأنـتَ لهـا سمـاء

---

(١) ينخسها : يقال : نخس الدابة ، غرز مؤخّرها أو جنبها بعود ونحوه .

(٢) زيادة من ب .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٤٨/٥) .

(٤) في ط : وأبلدوا . وكذلك في ديوانه .

(٥) العاني : الأسير . والبيتان في ديوان أمية (٣٦٨ ـ ٣٦٩) .

(٦) في ط : شرجعاً يناله ، ولا يستقيم الوزن بذلك . والأبيات في ديوانه (٣٩٩ ـ ٤٠٠) . وهي من الشعر المتهم والشرجع : العالي المنيف .

(٧) في ب : ومن شعره يمدح ابن جدعان .

(٨) في ب ، ط : الجميل .

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كَفَاه من تَعَرُّضِه الثَّنَاءُ[١]

وله فيه مدائح أُخَر .

وقد كان عبد الله بن جُدعان[٢] هذا من الكُرماء الأجواد الممَدَّحين المشهورين ، وكان له جَفنة يأكل الراكب منها وهو على بَعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها ، وكان يملؤها لُباب البُرّ يُلْبَك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ، ويُعين على النوائب . وقد سألت عائشةُ النبي ﷺ : أينفعُه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر[٣] : ربّ اغفرْ لي خَطيئتي يومَ الدينِ »[٤] .

ومن شعر أمية البديع : [من الكامل]

لا يَنْكُتُونَ الأرْضَ عندَ سُؤَالهم ... كَتَطَلُّبِ العِلاَّتِ بالعِيْدانِ[٥]

بل يُسْفِرون وجوهَهم فَتَرى لها ... عند السُّؤال كأحْسَن الألوانِ

وإذا المقِلُّ أقامَ وسْط رِحَالهم ... رَدُّوْهُ رَبَّ صَواهلٍ وقِيانِ

وإذا دعوتَهُمُ لِكُلِّ مُلمّةٍ ... سَدُّوا شعاعَ الشمسِ بالفرسانِ[٦]

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت[٧] .

---

(١) ديوانه (٣٣٣ ـ ٣٣٥) .
(٢) سلف الحديث عن ابن جدعان قبل قليل .
(٣) في ب : لم يكن يوماً من الدهر يقول .
(٤) تقدم تخريجه قبل قليل في ترجمة عبد الله بن جدعان .
(٥) النكت : نبش الأرض بالعود ، فِعْلَ المفكر المهموم .
(٦) ديوانه (٥٠٠ ـ ٥٠٢) .
(٧) في حاشية ب : وهو آخر الجزء التاسع من أجزاء المصنف ، وزاد في النص التالي : فائدة جليلة ذكرها ابن عساكر في ترجمة صفوان بن أمية . قال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خَرَّبوذ رحمه الله، قال صفوان بن أمية الجد، أحد العشرة الذين من عشرة بطون الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام: هاشم، وأمية، ونوفل، وأسد، وعبد الدار، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وسهم ، وجمح . فمن هاشم: العباس بن عبد المطلب ، قد كان سقى الحجيج وبقي له في الإسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ، ومن بني نوفل في الجاهلية : الحارث بن عامر . قال الزبير : غَلِط في الحارث بن عامر . ومن بني عبد الدار : عثمان بن أبي طلحة . ومن بني تيم: أبو بكر الصديق. ومن بني أسد : يزيد بن زمعة . ومن بني مخزوم : خالد بن الوليد بن المغيرة. ومن بني عدي: عمر بن الخطاب . ومن بني سهم : الحارث بن قيس . ومن بني جُمح : صفوان بن أمية. قال ابن خرّبوذ : فإن قريشاً لم تكن تملّك عليها في الجاهلية أحداً ، فإذا كانت حرب أقرعوا بين أهل الرياسة من الذكور ، فإذا حضرت الحرب أجلسوه، لا يبالون صغيراً كان أو كبيراً، أجلسوه تيمُّناً به. فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج سهم العباس ، وهو غلام ، فأجلسوه على فرس ، وكان أبو طالب يحضرها ، وكان النبي ﷺ يجيء معه وهو غلام، فإذا جاء أبو طالب هَزَمَت قريش وإذا لم يجىء هزمت كنانة، فقالوا: لا أبا لك لا تغب. =

بحيرى الراهب[١]

الذي توسَّم في رسول الله ﷺ النبوةَ وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجّار من أهل مكة ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة[٢] سنة ، فرأى الغمامةَ تُظِلّه من بينهم . فصنع لهم طعاماً ضيافة ، واستدعاهم ، كما سيأتي بيان ذلك في السيرة[٣] . وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك .

وقد أورد له الحافظ ابن عساكر[٤] شواهد وسائغات في ترجمة بَحيرى ، ولم يُورد ما رواه الترمذي ، وهذا عَجَبٌ .

وذكر ابنُ عساكر أن بحيرى كان يسكن قرية يقال لها : الكفر ، بينها وبين بصرى ستة أميال ، وهي التي يقال لها : (دير بحيرى) . قال : ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها : منفعة بالبلقاء وراء زيزاء[٥] . والله أعلم .

* * *

= وأما عمارة المسجد الحرام ، فإنها والسقاية كانت إلى العباس بن عبد المطلب ، فأما السقاية فإنها معروفة ، وأما العمارة فإنهم لا يدع أحداً في المسجد الحرام ، ولا يقول : يحملهم على عمارته بالخير ، لا يستطيعون لذلك امتناعاً ، لأنه قد اجتمع ملأ قريش على ذلك ، فهم له أعوان . وكانت العُقاب عند أبي سفيان ، وإنه الرئيس ، وكانت العقاب إذا كانت عند رجل أخرجها إذا حمشت الحرب ، فإن أجمعت قريش على أحد أعطوها إياه ، وإن لم يجمعوا على أحد فأمروا صاحبها . وكانت الرفادة إلى الحارث بن عامر بن نوفل ، والرفادة : ما كانت قريش تخرج من أموالها في زمن ينقطع الحاج . وكانت المشورة إلى يزيد بن ربيعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، وقتل يوم الطائف مع رسول الله ﷺ ، والمشورة : أن قريشاً لم يجتمعوا على أمر إلا عرضوه عليه ، فإن وافق رأيهم رأيه سكت ، وإن سعت فيه فكانوا له جوّاباً حتى يرجعوا عنه . وكانت سدانة البيت واللواء إلى عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى . والسدانة : الخزانة مع الحجابة . وكانت الأشياق : إلى أبي بكر الصديق ، يحمل الديات ، كان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه ، وإن قام به غيره خذلوه ولم يصدقوه . وكانت القبة والأعنَّة إلى خالد بن الوليد . فأما الأعنَّة : فإنه أن يكون على خيول قريش في الجاهلية . وأما القبة : فإنهم كانوا يضربونها ، يجمعون إليها ما يجيرون له عيش . وكانت السفارة إلى عمر بن الخطاب ، إن وقعت الحرب بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، بعثوه مسافراً ومفاخراً ورضوا به . وكانت الحكومة والنوال المحجرة إلى الحارث بن قيس بن عباد ، والأموال التي سمّوا لآلهتهم . وكانت الأسمار إلى صفوان بن أمية ، والأنصاب والأزلام ، فكان لا يشق بأمر عام حتى يكون هو الذي يسره على يديه به » .

(١) خبر بحيرا الراهب هنا سقط من نسخة ب .

(٢) في الأصل : اثني عشرة ، وهو خطأ .

(٣) في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب .

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٦) وما بعدها . وأورد له ترجمة في (٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٥٤) . وقوله : دير بحيرى . لعله أراد دير بصرى ، فقد ذكر ياقوت أن بحيرى كان به =

ذكر قُسّ بنِ سَاعِدة الإيَادي(١)

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب « هَواتِف الجِنَّان »(٢) حدثنا علي بن(٣) داود القَنْطَري ، حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني أبو عبد الله المشْرقي ، عن أبي الحارث الورّاق ، عن ثور بن يزيد ، عن مورِّق العِجْلي ، عن عُبادة بن الصامت ، قال : لما قدِم وفْدُ إياد على النبي ﷺ قال : « يا مَعْشَرَ وفْدِ إياد ! ما فَعَلَ قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي » ؟ قالوا : هلك يا رسول الله . قال : « لقد شَهِدتُه يوماً بسوق عُكَاظ على جَمَلٍ أحْمَرَ يَتَكَلَّمُ بكلامٍ معجب مونق لا أجدني أحفظه » . فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فَسُرَّ النبي ﷺ بذلك . قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحْمر وهو يقول : يا معشرَ الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكلّ شيء آت آت ، ليلٌ داج ، وسماءٌ ذات أبراج ، وبحر عَجَّاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبَرا ، مالي أرى الناس يذهبون ويموتون(٤) فلا يرجعون ، أَرَضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا ، أَقسم قُسٌّ بالله قسماً لا ريب فيه ، إن لله ديناً هو أرضَى من دينكم هذا [وإن كان فيه بعض الاستطال](٥) ، ثم أنشأ يقول : [من مجزوء الكامل]

فـــي الـــذاهِبيـــنَ الأوّلِيـ ـــنَ من القُرونِ لنا بَصَائر
لمّـــا رأيـــتُ مـــوارداً للمـوتِ ليـسَ لهـا مصـادر
ورأيـــتُ قَـــومـي نحـوهـا يمضـي الأصـاغـرُ والأكـابـر
لا مَـــن مضـــى يـــأتـــي إليـ ـــك ولا مِـن البـاقيـن غـابـر
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائر(٦)

= وزيزاء : كان ينزلها الحاج ، وفيها بِرْكة عظيمة . (ياقوت) .

(١) ترجمته وأخباره في : المعمرين (٨٧ ـ ٩٠) ، والبيان والتبيين (١/ ٥٢ ، ٣٠٨ ـ ٣٠٩) ، ومعجم الشعراء(٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، ومجمع الأمثال (١/ ١١١) ، والعصا لأسامة بن منقذ (٧٨ ـ ٧٩) ، وخزانة الأدب (تح . هارون) (٢/ ٨٩ ـ ٩٠) ، والإصابة (٣/ ٢٧٩) . وعيون الأثر (١/ ٩٥ ـ ١٠٠) .

(٢) في ب ، ط : الجان . والجنان : جمع الجان ، والليل ، والقلب لاستتاره في الصدر . وكتاب الخرائطي : (هواتف الجنان وما يحكى عن الكهان) طبع مؤسسة الرسالة ضمن كتاب نوادر الرسائل ، تح إبراهيم صالح .

(٣) زيادة من ب توافق ما في هواتف الجنان ويستقيم بها النص . وعلي بن داود بن يزيد القنطري الأَدَمي ، محدث ثقة . توفي سنة (٢٧٢هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٤٣) .

(٤) ليست في ط .

(٥) ليست في ط .

(٦) الأبيات في مصادر ترجمته . والخبر في هواتف الجنان (١٨٥ ـ ١٨٦) .

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه .

وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه « المعجم الكبير »[١] : حدّثنا محمد بن السَّرِي بن مهران بن الناقد البغداي ، حدّثنا محمد بن حسان السَّمْتي[٢] ، حدّثنا محمد بن الحجاج ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس . قال : قدِم وفدُ عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « أيّكم يَعْرفُ القُسَّ بن ساعدة الإيادي » ؟ قالوا : كلّنا يعرفه يا رسول الله . قال : « فما فعل » ؟ قالوا : هلك . قال : « فما أنساهُ بعُكَاظ في الشّهْرِ الحرامِ وهُوَ على جَمَلٍ أحْمَرَ وهُو يخطُبُ الناسَ ، وهو يقول : يا أيها الناسُ اجْتمعوا واستَمِعوا وعُوا ، من عاشَ ماتَ ، ومَن ماتَ فاتَ ، وكل ما هو آتٍ آت . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقفٌ مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تَغُور . أقسم[٣] قسٌّ قَسماً حقاً لئن كان في الأمر رِضىً ليكون بعده سخط . إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أَرَضوا بالمقام فأقاموا . أم تُرِكوا فناموا » . ثم قال رسول الله ﷺ : « أفيكم من يروي شعرَهُ » ؟ فأنشده بعضهُم : [من مجزوء الكامل]

فــي الــذاهبيــن الأوليـ ــنَ من القرونِ لنا بصَائر
لمّــا رأيــتُ مَــوارداً للموْتِ ليسَ لها مصادر
ورأيــتُ قَـومـي نحـوَهـا يَسعى الأصاغِرُ والأكابر[٤]
لا يـرجـع المـاضـي إلـيَّ ولا مــن البَـاقِيـن غـابـر
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائر

وهكذا أَورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسّان السَّمْتي[٥] ، به .

وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه في « أخبار قُسّ »[٦] قال : حدّثنا عبد الكريم بن الهيثم الديْرعَاقُولي[٧] ، عن سعيد بن شبيب ، عن محمد بن

---

(١) المعجم الكبير (١٢٥٦١) .
(٢) في ط : السهمي ، وهو تحريف . والسَّمْتي نسبة إلى السمت والهيئة . اللباب (٢/ ١٣٦) ، ومحمد بن حسان بن خالد الضبي السمتي ، أبو جعفر البغدادي ، محدث صدوق ، لين الحديث . توفي سنة (٢٢٨هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ١٥٣) .
(٣) في ط . وأقسم .
(٤) هذا البيت والذي يليه ليس في ب .
(٥) في ط : السلمي ، وهو تحريف . والخبر في دلائل النبوة (٢/ ١٠٤) .
(٦) تفرد ابن كثير في الإشارة إلى هذا الكتاب ، ولم أقف على أحد غيره ذكره فيما رجعت إليه .
(٧) الديرعاقولي : نسبة إلى دير عاقول من قرى بغداد . اللباب (١/ ٥٢٣) .

الحجاج وهو أبو إبراهيم[١] الواسطي نزيل بغداد ويعرف بصاحب الهَرِيسة[٢] به ، وقد كذَّبه يحيى بن مَعين[٣] وأبو حاتم الرازي[٤] ، والدارقُطني[٥] ، واتَّهمه غير واحد منهم ابن عَدي[٦] بوضع الحديث .

وقد رواه البزّار[٧] ، وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا[٨] .

ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وهذه الطريق أمثل من التي قبلها ، وفيه أن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكمالها نَظَمَها ونَثَرَها بين يدي رسول الله ﷺ .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الخطمي . حدّثنا علي بن الحسين بن محمد المخزومي : حدّثنا أبو حاتم السجستاني ، حدّثنا وهب بن جرير ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيِّب ، عن ابن عباس قال : قدم وفدُ بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعلَ حَليفٌ لكم يقالُ له : قُس بن ساعدة الإيادي » . وذكر القصَّة مطوّلة[٩] .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازةً إن لم يكن سماعاً قال : أجاز لنا جعفر ابن علي الهمْداني قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد[١٠] بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السِّلَفي سماعاً (ح)[١١] : وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلاَّل سماعاً قال : أخبرنا جعفر بن علي سماعاً : أخبرنا السِّلَفي سماعاً ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، أخبرنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي، أخبرنا أبو القاسم عبيد الله ابن أحمد بن علي المقرىء، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال: حدّثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد السعدي ـ قاضي فارس ـ حدّثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن دِرْهم الطائي ، من أهل حران ، حدّثنا أبو عمرو سعيد بن يربع ، عن محمد بن إسحاق ، حدّثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود بن المعلَّى بن حَنَش بن معلّى

---

(١) في ط : عن إبراهيم الواسطي . وهو خطأ .

(٢) في ط : الفريسة ، وهو تحريف . وسقط لفظ به من ط . وإنما لقب بصاحب الهريسة لأنه روى حديث الهريسة وهو أن النبي ﷺ قال: « أتاني جبريل بهريسة فقال : كل هذه لتشد ظهرك لقيام الليل » . المجروحين (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

(٣) تاريخ الدارمي عن يحيى ، رقم (٧٩٨) .

(٤) الجرح والتعديل لابنه عبد الرحمن (٧/ الترجمة ١٢٧٨) .

(٥) سؤالات البرقاني رقم (٤٧٢) ، والضعفاء والمتروكون رقم (٤٦٠) .

(٦) الكامل في الضعفاء (٦/ ٢١٥٦) .

(٧) كما في كشف الأستار (٢٧٥٩) .

(٨) وهو حديث موضوع كما بينه الدكتور بشار عواد معروف في تعليقه على تاريخ الخطيب (٣/ ٩٣) .

(٩) المعمرين سجستاني (٨٨ ـ ٨٩) .

(١٠) في ب : أبو طاهر السلفي ، ولم يذكر تمام اسمه .

(١١) مختصر الحوالة هذا لم يرد في ط .

العبديّ(١) نصرانياً ، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالماً بسِيَرِ الفرس وأقاويلها ، بصيراً بالفلسفة والطب ، ظاهرَ الدهاء والأدب ، كاملَ الجمال ، ذا ثَرْوةٍ ومالٍ ، وإنه قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي آراء وأسنان وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان ، فلما قَدِم على النبي ﷺ وقف بين يديه ، وأشار إليه ، وأنشأ يقول : [من الخفيف]

يـا نبـيَّ الهُـدى أتتـكَ رِجـالٌ ... قَطَعـتْ فَـدْفَـداً وآلاً فـآلا(٢)
وطَـوتْ نحوكَ الصَّحَاصِحَ تهوى ... لا تَعُـدُّ الكـلالَ فيـك كَـلالا(٣)
كُـلّ يَهْمـاء قَصـرَ الطـرفُ عنهـا ... أرْقَلتْهـا قِـلاصُنـا إرْقـالا(٤)
وطـوتْهـا العِتـاقُ يَجْمَـحُ فيهـا ... بِكُمـاةٍ كـأنْجُـمٍ تَتَـلالا(٥)
تَبْتَغـي دفْـعَ بـأسِ يـومٍ عظيـم ... هـائـلٍ أوجـعَ القلـوبَ وهـالا
ومـزاداً لمحشـر الخلْـق طُـرّاً ... وفـراقـاً لمـن تمـادى ضـلالا
نحـو نـورٍ مـن الإلـه وبـرهـا ... نِ وَبِـرّ ونعمـةٍ أن تُنـالا
خَصَّـكَ الله يـا ابـن آمنـةَ الخـ ... ـيرِ بهـا إذ أتـتْ سِجـالا سِجـالا
فـاجْعلِ الحظَّ منكَ يـا حُجَّة اللـ ... ـه جـزيـلاً لا حـظّ خُلـفٍ أحـالا

قال : فأدناه النبي ﷺ وقرّب مجلسه وقال له : يا جارود ، لقد تأخّر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبي وأمي ، أمّا من تأخّر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة ، وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتَّبع سواك ، وإني الآن على دينٍ قد علمتَ به ، قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يُمحّص الذنوب والمآثم والحوب ؟ ويُرْضي الربَّ عن المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنا ضَامنٌ لك ذلك ، وأخْلِصِ الآن لله بالوحدانية ، ودعْ عنك دينَ النصرانية » . فقال الجارود : فداك أبي وأمي ، مُدَّ يدَكَ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم ، وأسلم معه أناس من قومه ، فَسُرَّ النبي ﷺ [بإسلامهم ، وأظهر من إكرامهم ما سُرّوا به وابتهجوا به . ثم أقبل عليهم رسولُ الله ﷺ](٦) فقال : « أفيكم من يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي » ؟ فقال الجارود : فداك أبي وأمي كلُّنا نعرفه ، وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره : كان قُسٌّ

(١) اختلف في اسم أبيه فقيل : الجارود بن عمرو ، وقيل ابن العلاء . استشهد سنة (٢١هـ) . وقيل غير ذلك . تقريب التهذيب (١/ ١٢٤) ، والإصابة (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧) ، والكامل لابن الأثير (٢/ ٣٦٨) .
(٢) الفدفد : الفلاة .
(٣) الصحاصح : ما استوى من الأرض .
(٤) اليهماء : الفلاة لا يُهتدى فيها . وأرقل : أسرع . والقلاص : جمع قلوص ، وهي الشديدة من الإبل الباقية على السير .
(٥) يجمح : يسرع . والخبر والأبيات في عيون الأثر (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) .
(٦) سقطت من ب بنقلة عين .

يا رسولَ الله سِبْطاً[١] من أسباط العرب ، عُمّر ستمئة سنة[٢] ، تَقَفَّرَ منها خمسة أعمار في البراري والقفار يضِجُّ بالتسبيح على مثال المسيح ، لا يقرُّه قَرارٌ ، ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمْساح[٣] ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ، يتحسّى في سياحته بيضَ النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام ، يُبصِرُ فيعتبر ، ويُفكّر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تُضْرَب بحكمته الأمثال[٤] ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأسَ الحواريين سَمْعان ، وهو أول رجل تألّه من العرب ووحّد ، وأقرّ وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذّر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلَّم بالقضا على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكّر في الأقدار وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكباً ، ووعظ دائباً ، وحذّر من الكرب ، ومن شدة الغضب ، ورسَّل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم في خطبه ، وبيّن في كتبه ، وخوّف الدهر ، وحذر الأزْر[٥] ، وعظَّم الأمر ، وجنَّب الكفر ، وشوّق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية . وهو القائل في يوم عكاظ : شرق وغرب ، ويتم وحزب[٦] ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأُجَاج[٧] وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور[٨] ، وحَب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورَب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد[٩] مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغني ، ومحسن ومسيء ، تباً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إلّهٌ واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، ربّ الآخرة والأولى[١٠] . أما بعد : فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد !؟ وأين الآباء والأجداد !؟ وأين العليل والعوّاد !؟ كل له مَعاد . يقسم قُسٌّ برب العباد ، وساطح المِهاد ، لتُحْشَرُنَّ على الانفراد ،

---

(١) السِّبط : الأمة ، أي الشخص المنفرد بدين .

(٢) وقيل غير ذلك ، ففي المعمرين : أنه عاش (٣٨٠) سنةً . وفي الخزانة (٢/ ٩٠) : أنه عاش سبعمئة سنة .

(٣) الأمساح : جمع قلة للمِسْح ، وهو الكساء من الشعر .

(٤) قال الأعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذي ... بذي الفيل من خفّان أصبح حاردا

وقال لبيد :

وأقول من قس ، وأمضى إذا مضى ... من الرمح إذ مسّ النفوسَ نكالُها

(٥) الأزر : القوة ، والضعف ، ضد . وهذه الجملة والتي تليها ليست في ب .

(٦) الحزب : الطائفة ، والجماعة من الناس .

(٧) الأجاج : الملح المر .

(٨) في ب : وأبرار وفجور .

(٩) في ب : وولد مفقود . وقوله : نشو ، بتسهيل الهمز أراد : نشوء .

(١٠) زاد في ب : وهو أول من قال .

في يوم التناد ، إذا نُفخ في الصور ، ونقر[١] في الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ الغائظ ، وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صَدَفَ عن الحق الأشْهَر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حَكَم القدير ، وشهد النذير ، وبَعُدَ النصير ، وظهر التقصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير . وهو القائل : [من الخفيف]

ذكّـر القلـبَ مـن جـواه ادّكـارُ ... ولَيـالٍ خَـلالهـنّ نهـار
وسِجَـالٌ هَـواطـلٌ مـن غَمـام ... ثِـرنَ مـاءً وفـي جـواهـنّ نـار
ضَـوءهـا يطمسُ العيونَ وأرعـا ... دٌ شِـداد فـي الخـافقيـن تُطـار
وقصـورٌ مَشِيـدة حـوت الخـ ... ـيـر وأخـرى خلـت بهـن قِفـار
وجبـالٌ شـوامِـخٌ راسيـاتٌ ... وبحـارٌ ميـاههـن غِـزار
ونجـومٌ تلـوح فـي ظُلَـم الليـ ... ـل نَـراهـا فـي كـل يـوم تـدار
ثـم شمـس يحثّهـا قمـرُ الليـ ... ـل وكـلٌّ متـابِـعٌ مَـوَّار
وصغيـرٌ وأشمـط وكَبيـر ... كلهـم فـي الصعيـد يـومـاً مـزار
وكبيـر ممـا يقصـر عنـه ... حـدسـه الخـاطـر الـذي لا يُحـارُ
فالذي قد ذكرتُ دلَّ على اللـ ... ـه نُفـوسـاً لهـا هُـدى واعْتبـار

قال : فقال رسول الله ﷺ : « مهما نَسيتُ فلستُ أنساه بسوقِ عُكاظ ، واقفاً على جَمل أحمر يخطب الناس ويقول : يا أيها الناس[٢] اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل[٣] وأيام ، وبر وأثَام[٤] ، إن في السماء خبرا ، وإن في الأرض عبرا ، يحار فيهن البُصَرا ، مِهاد موضوع ، وسَقف مرفوع ، ونجوم تغور[٥] ، وبحار لا تفور ، ومنايا دوان ، ودهر خَوّان ، كحد النِّسْطاس[٦] ، ووزن القِسطاس . أقسَم قُسٌّ قسما ، لا كاذباً فيه ولا آثما ، لئن كان في هذا الأمر رِضى ، ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه . ثم قال :

---

(١) في ب : إذا نقر . وسقط ما بينهما .
(٢) قوله : يا أيها الناس . زيادة من ب . والخبر في عيون الأثر (١/ ٩٧) .
(٣) في ب : وليال .
(٤) أثام : الإثم ، وجزاؤه .
(٥) تغور : أي تذهب وتختفي . وفي اللسان (مور) . وفي حديث قس : ونجوم تمور ، أي تذهب وتجيء .
(٦) في اللسان (نسطس) : في حديث قس : كحذْو النسطاس ، قيل : إنه ريش السهم ، ولا تعرف حقيقته . وفي رواية : كحد النسطاس .

مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرَضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُرِكوا فناموا » . والتفتَ رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه فقال : « أيُّكم يروي شعرَه لنا » ؟ فقال أبو بكر الصديق : فداك أبي وأمي أنا شاهدٌ له في ذلك اليوم حيث يقول : [من مجزوء الكامل]

فـي الـذاهبيـن الأوّلـ ـن من القرون لنا بصائر
لمـا رأيـتُ مَـوارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قـومي نحـوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يَـرجـع المـاضـي إلـ ـيَّ ولا من الباقين غابر
أيقنـتُ أنـي لا محـا لة حيث صارَ القومُ صائر

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ، عظيمُ الهامة ، طويل القامة ، بعيدُ ما بين المنكبين ، فقال : فداك أبي وأمي ، وأنا رأيتُ من قُسٍّ عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : « ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس » ؟ فقال : خرجتُ في شبيبتي أتبع[1] بعيراً لي نَدَّ عنّي أقفو أثره في تَنائف قِفاف ذات ضَغَابيس وعرصات جَثْجَاث[2] ، بين صدور جَذعان ، وغمير حَوذان[3] ، ومَهْمه ظُلْمان ، ورصيع أيهقان[4] ، فبينا أنا في تلك الفلوات أجول بسبسبها وأرمق[5] فدفدها ، وإذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كَبَاث مخضوضلة[6] ، وأغصانها متهدلة ، كأن بَرِيْرها[7] حب الفلفل وبواسق أقحوان ، وإذا بعين خرَّارة ، وروضة مُدْهَامَّة[8] ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقسّ بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوتُ منه وقلت له : أنعم صباحاً ! فقال : وأنت فنَعِمَ صباحُك ! وقد وردتِ العينَ سباعٌ كثيرةٌ ، فكان كلما ذهبَ سَبُعٌ منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قسٌّ بالقضيب الذي بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك ، فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إليَّ فقال : لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجدٌ ، فقلت : ما هذان القبران ؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عزّ وجل بهذا الموضع ، فأنا

---

(١) كذا في ب وهو أشبه بالصواب . وفي أ ، وط : أربع .

(٢) التنائف : جمع تنوفة ، وهي المفازة ، والأرض الواسعة البعيدة الأطراف . والقِفاف : جمع قُف ، وهي حجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة . والضغابيس : جمع ضغبوس ، صغار القثاء ، وأغصان الشوك . والجثجاث : نبات .

(٣) الغمير : الكثير . وحوذان : نبات .

(٤) في ط : ليهقان . وهو خطأ . والمهمه : المفازة البعيدة . والظلمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . والأيهقان : عشب يطول ، والجرجير البري .

(٥) في ط : أرنق ، وهو تحريف . والسبسب : المفازة . ورمَقَه : لَحَظَه . والفدفد : الفلاة .

(٦) النشْز : المكان المرتفع . والكَبَاث : النضيج من ثمر الأراك . ومخضوضلة : رطبة ندية .

(٧) البرير : الأول من ثمر الأراك .

(٨) روضة مدهامّة : خضراء تضرب إلى السواد نعمة ورياً .

مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحقَ بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتبايُنِهم على شرهم ؟ فقال لي : ثكلتكَ أمُّك ، أوَ مَا علمتَ أن ولد إسماعيل تركوا دينَ أبيهم واتّبعوا الأضداد وعظّموا الأنداد[١] ، ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول : [من الطويل]

خليليّ هُبّا طالما قد رقَدتُما ... كما أجِدَّ لا تَقضيان كَراكُما[٢]

أرى النومَ بين الجِلد والعَظمِ منكما ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما[٣]

أمِن طولِ نومٍ لا تُجيبان داعياً ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما

ألم تعلما أني بنجرانَ مفرَداً ... ومالِيَ فيه من حَبيبٍ سواكما[٤]

مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً ... إيابَ الليالي أو يجيبَ صَداكما

أبكيكما طولَ الحياةِ وما الذي ... يردّ على ذي لوعةٍ أن بَكاكما

فلو جُعلتْ نفسٌ لنفس امرىء فِدىً ... لجدتُ بنفسي أن تكونَ فِداكما

كأنكما والموت أقربُ غايةٍ ... بروحيَ في قَبريكما قد أتاكما

قال : فقال رسول الله ﷺ : « رحمَ الله قُساً ، أمَا إنه سيبعث يوم القيامة أُمَّةً وحده »[٥] .

وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل إلا أن يكون الحسَنُ سمِعَه من الجارود . والله أعلم .

وقد رواه البيهقي ، والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر ، من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن[٦] سعيد القُرشي الأخباري ، حدّثنا أبي ، حدّثنا علي بن سليمان عن سليمان بن علي ، عن علي[٧] بن عبد الله ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . قال : قدم الجارود بن عبد الله[٨] ، فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره ، وفيه[٩] ما ذكره عن الذي ضَلّ بعيره فذهب في طلبه ،

---

(١) الند : المِثْل ، والمشارك في الجوهر ، جمعه : أنداد .

(٢) الكرى : النوم .

(٣) العقار : الخمر . وهذا البيت لم يرد في الأغاني ، ولا الخزانة .

(٤) في الأغاني ، والخزانة : بسمعان . وهو الجبل الذي كان فيه قس كما في الرواية فيهما .

(٥) الأمة : الشخص المنفرد بدين ، أي يُبعث واحداً يقوم مقام جماعة . (الخزانة) .
والخبر في الأغاني (ثقافة) (١٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣) ، وخزانة الأدب (تح . هارون) (٢/ ٨٠ ـ ٨٣) .

(٦) زيادة من ب ، وط . وعيون الأثر . وهو الصحيح .

(٧) كذا في ب ، وهو موافق لما في عيون الأثر ، وهو الصحيح . وفي م ، وط : علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله .

(٨) هذا اختلاف آخر في نسب الجارود .

(٩) في ب : فمنه .

قال : فبِتُّ في وادٍ لا آمن فيه حتفي ، ولا أَرْكن إلى غير سيفي ، فبتُّ[١] أرقب الكوكب ، وأرمق الغَيْهب ، حتى إذا عسعس الليل[٢] ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول : [من الرجز]

يا أيُّها الراقدُ في الليلِ الأَجَمّ قَدْ بعثَ الله نبياً في الحَرَمْ[٣]

من هاشمٍ أهلِ الوفاءِ والكرمْ يجلو دجنّاتِ الدياجي والبهَمْ[٤]

قال : فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فَحْصاً[٥] ، قال : فأنشأت أقول : [من الرجز]

يا أيها الهاتفُ في داجي الظُّلَم أهلاً وسهلاً بك من طيْفٍ أَلَمّ

بيِّنْ هَداكَ اللهُ في لحنِ الكَلِم ماذا الذي تدعو إليهِ يُغتنم

قال : فإذا أنا بنَحْنَحَةٍ وقائل[٦] يقول : ظهر النور ، وبَطَل الزور ، وبَعثَ الله محمداً بالحبُور[٧] ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمِغْفَر[٨] ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطَّرْف الأحور ، صاحب قول شهادة أن لا إلّه إلا الله ، وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر[٩] ، ثم أنشأ يقول : [من مجزوء الرجز]

الحمدُ للهِ الّذي لم يخلقِ الخلقَ عبث

لم يُخلِنا يوماً سُدى . من بعدِ عيسى واكترث[١٠]

أرسلَ فينا أحمداً خيرَ نبيّ قد بُعث

صلى عليه اللهُ ما حجّ له ركبٌ وحثّ

وفيه من إنشاد[١١] قُس بن ساعدة : [من البسيط]

---

(١) ليست في ط .
(٢) في ط : إذا الليل عسعس .
(٣) في ط : الأجم بالجيم ، وهو تصحيف . والأحم : الأسود من كل شيء ، واحتم : اهتم بالليل .
(٤) في ب : يجلو غياهب . والدجنات : الظلمات . والبهم : السود .
(٥) في اللسان (فحص) : وفي حديث قس : ولا سمعت له فحصاً : أي وقع قدم وصوتَ مشي .
(٦) كذا في ب ، وفي أ ، وط : وقائلاً .
(٧) الحبور : السرور والنعمة .
(٨) المغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .
(٩) في ب : المبعوث للأسود والأحمر من أهل الوبر والمدر . وكذلك في عيون الأثر .
وأهل المدر : هم أهل القرى الذين يبنون بيوتهم بالطين الذي فيه المدر ، وهو القش . وأهل الوبر : البدو الذين ينسجون بيوتهم من الوبر .
(١٠) في ب : فلم يخلنا سدى : وكذلك في عيون الأثر .
(١١) في ط : إنشاء .

يا ناعيَ الموتِ والملحودِ في جدثٍ   عليهمُ من بقايا ثوبهمْ خِرَقُ[١]
دعهم فإنّ لهم يوماً يُصاح بهم   فهم إذا انتبهوا من نومهم أرِقوا
حتى يعودوا بحالٍ غيرِ حالهمُ   خَلقاً جديداً كما مِن قَبْلِه خُلقوا
منهم عُراةٌ ومنهم في ثيابهمُ   منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلَقُ[٢]

ثمّ رواه البيهقي عن أبي محمد عبد الله[٣] بن يوسف بن أحمد الأصبهاني ، حدّثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الإخميمي[٤] بمكة . حدّثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ، حدّثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن[٥] المخزومي . حدّثنا سفيان بن عُيينة ، عن أبي حمزة الثُّمالي ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس . فذكر القصةَ وذكر الإنشادَ[٦] ، قال فوجدوا عِنْدَ رأسه صحيفة فيها : [من البسيط]

يا ناعيَ الموتِ والأمواتُ في جَدثٍ   عليهم من بقايا نومهم خِرقُ[٧]
دعْهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم   كما تَنَبّهَ من نوماته الصَّعِقُ
منهم عُراةٌ وموتىً في ثيابهمُ   منها الجديدُ ومنها الأزرَق الخَلَقُ

فقال رسول الله ﷺ : « والذي بَعَثني بالحق لقد آمن قُس[٨] بالبعث » .

وأصله مشهور . وهذه الطرق على ضَعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقد تكلّم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذا الحديث ، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى ، وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه في الحواشي .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو سعد سعيد بن محمد بن أحمد الشُّعَيْثي[٩] ، حدّثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمد آباذي[١٠] لفظاً ، حدّثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأموردي[١١] ، حدّثنا أبي ، حدّثنا سعيد بن

---

(١) في ب : بزهم . وفي ط : قولهم .
(٢) المنهج : البالي .
والخبر في عيون الأثر (١/ ٩٦ ـ ٩٩) ، وخزانة الأدب (٢/ ٨١ ـ ٨٣) .
(٣) كذا في ب ، وهو موافق لنص الدلائل ، وفي م وط : عن محمد بن عبد الله .
(٤) الإخميمي : نسبة إلى إخميم ، بلدة من صعيد مصر . اللباب (١/ ٣٥) .
(٥) في ب : عبيد الله بن سعيد بن عبد الرحمن .
(٦) في ب : هذا الإنشاد . وفيها : عند رأسه صخرة .
(٧) في ب : ثوبهم .
(٨) في ب : والذي نفسي بيده لقد آمن قس بن ساعدة بالبعث . والخبر مطولاً في دلائل النبوة : (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٤) .
(٩) الشعيثي : نسبة إلى شُعَيث ، بطن من بَلْعنبر بن عمرو بن تميم . اللباب (٢/ ٢٠٠) .
(١٠) المحمد آباذي : نسبة إلى محمد آباذ محلة خارج نيسابور . اللباب (٣/ ١٧٥) .
(١١) في ب : الأنبوردي . ولم أقف على هذه النسبة . ولعلها الأبيوردي ، نسبة إلى أبيورد من قرى خراسان .

هبيرة حدّثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك قال : قدِم وَفْد إياد على النبي ﷺ فقال : « ما فعل قُسُّ بن ساعدة » ؟ قالوا : هلك . قال : « أما إني سمعتُ منه كلاماً أرى أني أحفظه » . فقال بعض القوم : نحن نحفظه يا رسول الله . قال : « هاتوا » . فقال قائلهم : إني واقف بسوق عُكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كلّ من عاش مات ، وكلّ من مات فات ، وكلّ ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبرا ، أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا . أقسَمَ قُسٌّ قسماً بالله لا إثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه . ثم أنشأ يقول : [من مجزوء الكامل]

فــي الــذاهبيــن الأوّليــن من القرون لنا بصائر
لمــا رأيــت مصــارعــاً للقوم ليس لها مصادر[١]
ورأيـت قـومـي نحـوهـا يمضي الأكابر والأصاغر[٢]
أيقنــتُ أنــي لا محــالة حيثُ صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقي من طُرُق أُخَر قد نبّهنا عليها فيما تقدم . ثم قال بعد ذلك كله : وقد رُوي هذا الحديث عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس بزيادة ونقصان . ورُوي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً . ورُوي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقّاص وأبي هريرة .

قلت : وعُبادة بن الصامت ، كما تقدم ، وعبد الله بن مسعود ، كما رواه أبو نعيم في كتاب « الدلائل »[٣] عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي ، عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل ، عن يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ، فَذَكَرَه .

وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم ، وسعد بن أبي وقاص[٤] .

ثم قال البيهقي : وإذا رُوي الحديثُ من أوجه أُخَر ، وإن كان بعضها ضعيفاً ، دلّ على أن للحديث أصلاً . والله أعلم .

---

(١) في ب : مصارعاً للقوم .

(٢) في ب : الأصاغر والأكابر . وكتب فوق العبارة : الأوائل والأواخر . وزاد بعده :

لا يـرجـع المـاضـي ولا يبقـى مـن البـاقيـن غـابـر

والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٠١) وما بعدها .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩) .

(٤) قوله : وسعد بن أبي وقاص ليس في ب . ولم أجد الخبر عند سعد في دلائل أبي نعيم . وهو في الزهرة لمحمد بن داود الأصبهاني (٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥) . (تح . السامرائي ـ ط . الأردن ـ ١٩٨٥) .

ذِكْر زيد بن عَمْرو بن نُفَيْل رَضيَ الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نُفَيل بن عبد العزّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عَدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي[١] .

وكان الخطّابُ والدُ عُمر بن الخطاب عمَّه وأخاه لأمه . وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نُفيل أخوه الخطاب . قاله الزبير بن بكّار ومحمد بن إسحاق[٢] .

وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان ، وفارق دينهم . وكان لا يأكل إلا ما ذُبح على اسم الله وحدَه .

قال يونس بن بُكير ، عن محمد بن إسحاق : حدّثني هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مُسنِداً ظهرَه إلى الكعبة يقول : يا معشرَ قريش ، والذي نفسُ زيد بيده ما أصبح منكم أحد[٣] على دين إبراهيم غيري . ثمّ يقول : اللهمّ إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتُك به ، ولكني لا أعلم ، ثم يسجد على راحلته[٤] .

وكذا رواه أبو أسامة عن هشام ، به . وزاد : وكان يُصلي إلى الكعبة ويقول : إلّهي إلّه إبراهيم ، وديني دين إبراهيم . وكان يُحيي الموؤدة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتلَ ابنتَه : لا تقتلها ، ادفعها إليَّ أكفِكَها ، فإذا ترعرعت قال :[٥] إن شئت فخذها وإن شئت فادفعها[٦] .

أخرجه النَّسائي من طريق أبي أسامة . وعلّقه البخاري فقال : وقال الليث : كتب إليَّ هشامُ بن عروة ، عن أبيه ، به[٧] .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش : زيد بن عمرو بن نفيل ،

---

(١) في نسبه بعض اختلاف . وترجمته في السيرة (١/ ٢٢٣) وما بعدها ، والاشتقاق (١٣٤) ، ومروج الذهب (١/ ٧٠) ، والأغاني (ثقافة) (٣/ ١١٧) وما بعدها ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢ ـ ١٦٧) ، والروض الأنف (١/ ٢٥٣) ، والإصابة (١/ ٥٦٩) ، وخزانة الأدب (٦/ ٤١٦) .

(٢) السيرة (١/ ٢٢٩) . ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢) .

(٣) في ط ، ب : أحد منكم . والخبر في السيرة (١/ ٢٢٥) .

(٤) في الأصول : راحلته . وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصحيح من السيرة ، والروض الأنف ، والإصابة لابن حجر .

(٥) في ط : ترعرعت فإن .

(٦) في ب : فدعها . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٨) ، في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

ووَرَقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله بن جحش بن رياب بن يَعْمَر بن صَبْرة بن بَرَة بن كبير بن غَنْم بن دودان بن أسد[١] بن خزيمة ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب ، وأخته زينب بنت جحش التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة ، كما سيأتي بيانه . حضروا قُريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لِعيدٍ من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خَلاَ بعضُ أولئك النفر إلى بعضٍ وقال : تصادقوا ولْيكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم : تعلَمُنَّ والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه . ما وَثَنٌ يُعْبَد ؟ لا يضرُّ ولا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم ، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلّها الحنيفيةَ دين إبراهيم . فأما ورَقَة بن نوفل فتنصَّر واستحكم في النصرانية ، واتبع[٢] الكتب من أهلها ، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل شأناً[٣] من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان ، وفارقَ الأديان من اليهود والنصارى والملل كلّها إلّا دين الحنيفية دين إبراهيم ، يوحّد اللهَ ، ويخلع مَنْ دونه ، ولا يأكل ذبائح قومِه ، باداهم[٤] بالفِراق لما هم فيه .

قال : وكان الخطّاب قد آذاه أذى كثيراً ، حتى خرج منه إلى أعلى مكة ، ووكل به الخطّاب شباباً من قريش وسُفهاء من سُفهائهم فقال : لا تتركوه يدخل ، فكان لا يدخلُها إلّا سِرّاً منهم ، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهيةَ أن يُفْسِد عليهم دينَهم أو يتابعه أحد إلى[٥] ما هو عليه .

وقال موسى بن عقبة : سمعتُ من أرْضَى يحدث أنّ[٦] زيد بن عمرو بن نفيل كان يَعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً ، وأنبت لها من الأرض ، لم تذبحونها[٧] على غير اسم الله ؟! إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

وقال يونس ، عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكة ، فضرب في الأرض يطلب الحنيفيةَ دينَ إبراهيم ، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأرادَه آذنت الخطّابَ بن نفيل . فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأوَل دين

---

(١) في أ ، وط : دودان بن أسعد بن أسد . وهي زيادة ليست في السيرة .

(٢) في ط : وابتغى .

(٣) كذا في ب . وهو الأشبه بالصواب . ومثله في مختصر تاريخ دمشق ، وسير أعلام النبلاء . وفي أ ، وط : ثباتا .

(٤) في ط : فإذا هم . ولا معنى لها .

(٥) في ب : على . . . والخبر في السيرة (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٣) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٧) .

(٦) كذا في ب ، ومثله في الإصابة (١/ ٥٦٩) . وفي أ ، وط : عن .

(٧) في الأصول : تذبحوها . . . وهو خطأ . والحديث بتمامه أخرجه البخاري رقم (٣٨٢٦) في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

إبراهيم ويسأل عنه ، ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصلَ والجزيرة كلَّها ، ثم أقبل حتى أتى الشامَ ، فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دينٍ ما أنت بواجدٍ مَن يحملك عليه اليوم ، لقد دَرَسَ مَنْ عَلِمَهُ ، وذهب مَن كان يعرفه ، ولكنه قد أظَلَّ[1] خروج نبي وهذا زمانه . وقد كان شام[2] اليهودية والنصرانية فلم يرضَ شيئاً منها ، فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريدُ مكةَ ، حتى إذا كان بأرض لخمٍ عدَوا عليه فقتلوه ، فقال ورقةُ يرثيه :

رَشَدْتَ وأَنْعَمْتَ ابنَ عَمْرٍو وإنما ... تجنَّبْتَ تَنُّوراً مِنَ النارِ حامِيا

بِدينِكَ ربّاً لَيسَ ربٌّ كمِثْلِهِ ... وتركِكَ أوثانَ الطواغي كما هيا

وقد تُدرِكُ الإنسانَ رَحْمةُ ربهِ ... ولو كان تحتَ الأرض ستين واديا[3]

وقال محمد بن عثمان بن أبي شَيبة : حدّثنا أحمد بن طارق الوابِشي[4] حدّثنا عمرو بن عطية ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يتألَّه في الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود ، فقال له : أحبُّ أن تُدخلني معك في دينك . فقال له اليهودي : لا أُدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله . فقال : من غضب الله أفِرُّ ! فانطلق حتى أتى نَصْرانياً فقال له : أحب أن تُدخلني معك في دينك . فقال : لستُ أُدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة . فقال : من الضلالة أفِرُّ ! قال له النصراني فإني أدلك[5] على دين إن تبعتَه اهتديتَ . قال : أيّ دين ؟ قال : دين إبراهيم . قال : فقال : اللهمّ إني أُشهدُك أني على دين إبراهيم ، عليه أحيا وعليه أموت . قال فذُكِر شأنُه للنبي ﷺ فقال : « هو أمةٌ وحدَه يوم القيامة »[6] .

وقد روى موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر نحو هذا[7] .

وقال محمد بن سعد : حدّثنا علي بن محمد بن عبد الله بن سيف القُرشي ، عن إسماعيل بن مجالد[8]

---

(١) في ب : أظلك . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق . وفي السيرة : أظل زمان نبي يخرج .

(٢) شام : اختبر .

(٣) الخبر في السيرة (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٤ ـ ١٦٥) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٣٥).

(٤) الوابِشي : نسبة إلى وابِش بن زيد . اللباب (٣/ ٣٤٣) .

(٥) في ب : فإني لأدلك .

(٦) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥) . وقد خرّج الشيخ شعيب الأرناؤوط هذا الحديث في سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٠) .

(٧) أخرجه البخاري رقم (٣٨٢٧) في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل . وأورده أبو الفرج في الأغاني (ثقافة) (٣/ ١٢٠ ـ ١٢١) .

(٨) في ط : إسماعيل عن مجالد عن الشعبي .

عن مجالد ، عن الشَّعْبي ، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما[(١)] ، فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيتُ راهباً في صومعة[(٢)] ، فذكرتُ له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية . فقال له : أراكَ تريدُ دِين إبراهيم يا أخا أهل مكة ، إنك لتطلب ديناً ما يوجَدُ اليوم أحدٌ يدين[(٣)] به ، وهو دين أبيك إبراهيم ، كان حنيفاً ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، كان[(٤)] يصلي ويسجُدُ إلى هذا البيت الذي ببلادك ، فالحق ببلدك ، فإن الله يبعثُ من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله[(٥)] .

وقال يونس ، عن ابن إسحاق : حدّثني بعضُ آل زيد بن عمرو بن نفيل : إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال : لبيك حقاً حقاً ، تَعبُّداً ورِقاً ، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلَهي أنفي لك عان راغم ، مهما تُجشّمني فإني جاشم ، البِرَّ أبغي لا الخال ، ليس مُهَجِّر كمن قال[(٦)] .

وقال أبو داود الطيالسي : حدّثنا المسعودي ، عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، عن أبيه ، عن جده أن زيد بن عمرو ووَرَقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدينَ ، حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلتَ يا صاحب البعير ؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال : وما تلتمس ؟ قال : ألتمس الدين . قال : ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك . قال :

فأما ورقة فتنصَّر . وأما أنا فعزمتُ على النصرانية فلم يوافقني ، فرجع وهو يقول : [من مجزوء الرجز]

لبيكَ حقّاً حقاً تعبُّداً ورِقّا
البرَّ أبغي لا الخالْ فهل مهجِّر كَمَن قال

آمنت بما آمن به إبراهيم ، وهو يقول : أنفي لك عان راغم ، مهما تجشّمني فإني جاشم ، ثم يخر فيسجد . قال : وجاء ابنه ، يعني سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ! إن أبي كما رأيتَ وكما بلغك ، فاستغفرْ له ، قال : « نعم فإنه يُبعث يومَ القيامة أمةً واحدة »[(٧)] .

قال : وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ،

---

(١) في ب : النصرانية واليهودية وكرهتهما .
(٢) زاد في ب فوقفت عليه .
(٣) قوله : أحدٌ يدين . زيادة من ط وفي السير : ما يوجد اليوم فالحق ببلدك .
(٤) في ب : إنه كان .
(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٢) .
(٦) الخال : الخيلاء والكبر . وقال ، من القيلولة ، وهي النوم عند الظهيرة . والتهجير السير في الهاجرة ، في شدة الحر . السيرة (١/ ٢٣٠) .
(٧) أشار إلى الخبر ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٤٣) . وتقدم الحديث قبل قليل .

فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو : يا ابن أخي أنا لا آكل مما ذُبح على النُّصُب[١] .

وقال محمد بن سعد : حدّثنا محمد بن عمرو ، وحدّثني أبو بكر بن أبي سَبْرة ، عن موسى بن ميسرة ، عن ابن أبي مُليكة عن حُجير[٢] بن أبي إهاب ، قال : رأيتُ زيد بن عمرو وأنا عند صَنمِ بُوَانَةَ بعد ما رجع من الشام وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبلَ الكعبة فصلّى ركعة وسجدتين ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ، ولا أصلي له ، ولا آكل ما ذُبح له ، ولا أستقْسِم الأزلام ، وأنا أصلي إلى هذا[٣] البيت حتى أموت . وكان يحجّ فيقف بعرفة ، وكان يلبيّ فيقول : لبيكَ لا شريك لك ولا نِدّ لك ، ثم يدفع من عَرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبِّداً مرقوقاً[٤] .

وقال الواقدي : حدّثني علي بن عيسى الحَكَمي ، عن أبيه ، عن عامر بن ربيعة قال : سمعتُ زيدَ بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أُراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدّقه ، وأشهد أنه نبيٌّ ، فإن طالت بكَ مدة فرأيتَه فأَقرِئْه مني السلاَم ، وسأخبرك ما نعتُه حتى لا يخفَى عليك . قلتُ : هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارقُ عَينَه حمرةٌ ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مَولده ومَبْعَثه ، ثم يخرجه قومُه منها ويَكْرَهُون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمرُه ، فإياك أن تُخْدَع عنه ، فإني طُفْتُ البلادَ كلها أطلب دين إبراهيم ، فكان مَن أسألُ من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعتُّه لك ، ويقولون : لم يبق نبيٌّ غيرُه . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرتُ رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام ، فردّ عليه السلام وترحَّم عليه وقال : « قد رأيتُه في الجنةِ يَسْحَبُ ذُيولًا »[٥] .

وقال البخاري في صحيحه[٦] : ذكر زيد بن عمرو بن نفيل :

حدّثني محمد بن أبي بكر ، حدّثنا فُضَيل بن سليمان ، حدّثنا موسى بن عُقْبة ، حدثني سالم بن[٧] عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيدَ بن عمرو بن نُفَيل بأسفل بَلْدَح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحيُ ،

---

(١) زاد في ب : وقد رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن المسعودي ، به .
وهو كذلك في المسند (١/ ١٨٩) ، وذكره الذهبي في السير (١/ ١٢٩) .
(٢) في ط : حجر . وهو خطأ .
(٣) في ط : وإنما أصلي لهذا .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥) ، وهو من طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٠) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥ ـ ١٦٦) . وهو في طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٩) .
(٦) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٦ و٣٨٢٧ و٣٨٢٨) في مناقب الأنصار ، باب (٢٤) .
(٧) في ط : عن . والتصحيح عن البخاري .

فقُدِّمَتْ إلى النبي ﷺ سفرةٌ ، فأبى أن يأكلَ منها . ثمَّ قال زيد : إني لستُ آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذُكر اسمُ اللهِ عليه ، وأنَّ زيدَ بن عمرو كان[١] يعيب على قريش ذبائحَهم ويقول : الشاةُ خَلَقها الله وأنزلَ لها من السماء الماءَ[٢] ، وأنبت لها من الأرض[٣] ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

قال موسى بن عقبة : وحدّثني سالم بن عبد الله ، ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر[٤] : أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم ، فقال : إني لَعلّي أن أدينَ دينَكم فأخبِرْني . فقال : إنك[٥] لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . قال زيد : وما أَفِرُّ إلا من غضب الله تعالى ، ولا أحمِلُ من غضب الله شيئاً ولا أستطيعه ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقي عالماً من النصارى ، فذَكَر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من [لعنة الله . قال : ما أَفِرُّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، ولا أستطيع[٦] ، فهل تدلّني][٧] على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكونَ حنيفاً . قال : وما الحنيفُ ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نَصْرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيدٌ قولَهم في إبراهيم خرج ، فلما برزَ رَفَع يديه فقال : اللهم إني أُشْهِدُك أني على دين إبراهيم .

قال[٨] : وقال الليثُ : كتب إليَّ هشامُ بن عُرْوة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : رأيت زيدَ بن عمرو بن نفيل قائماً مسنِداً ظهرَه إلى الكعبة يقول : يا معشرَ قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يُحيي الموؤودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنتَه : لا تقتلْها أنا أكفيك مؤونتَها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعتْ قال لأبيها : إن شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئت كفيتُكَ مؤونتها .

انتهى ما ذكره البخاري .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود ، عن عيسى بن

---

(١) قوله : كان . زيادة من ب ، والبخاري .
(٢) في ط : ماء .
(٣) زاد في ب : الكلأ . وكذلك في الروض الأنف (١/ ٢٥٦) .
(٤) في ب : ولا أعلمه يحدث به إلا عن ابن عمر .
(٥) ليست في ب ، والبخاري . وفي ط : تأخذ نصيبك .
(٦) في ب : وإني لا أستطيع . ولفظ البخاري : وأنّى أستطيع .
(٧) سقطت هذه العبارة من ط .
(٨) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٨) ، والخبر أيضاً في سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٨) .

حماد ، عن الليث ، عن هشام ، عن أبيه ، عن أسماء ، فذكر نحوَه[١] .

وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أسماء قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش إياكم والزّنا فإنه يورثُ الفقر[٢] .

وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جداً ، وفي بعضها نَكَارة شديدة . ثم أورد من طُرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُبْعَثُ يوم القيامة أمة وحده »[٣] . فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا يوسف بن يعقوب الصفّار ، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يَستقبل القبلةَ في الجاهلية ويقول : إلَهي إلَه إبراهيم وديني دينُ إبراهيم ، ويسجد . فقال رسول الله ﷺ : « يُحْشَرُ ذاكَ أمةً وحدَه بيني وبينَ عيسى بن مريم » .

إسناده جيد حسن[٤] .

وقال الواقدي : حدثني موسى بنُ شيبة ، عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت سعيد بن المسيَّب يذكر زيدَ بن عمرو بن نفيل فقال : توفي وقريشٌ تبني الكعبةَ قبل أن ينزل الوحيُ على رسول الله ﷺ بخمس سنين ، ولقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم ، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتَّبع رسولَ الله ﷺ ، وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم »[٥] . قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكرٌ منهم إلا ترحَّم عليه واستغفر له . ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه الله وغفر له . وقال محمد بن سعد ، عن الواقدي : حدثني زكريا بن يحيى السعدي ، عن أبيه قال : مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودُفن بأصل حِراء[٦] ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لمَّا عَدَا عليه قومٌ من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له : مَيْفعة[٧] . والله أعلم .

وقال الباغَنْدي ، عن أبي سعيد الأشَجّ ، عن أبي معاوية ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت :

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٦) . والسيرة (١/ ٢٢٥) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) . وفي مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٧) : إياكم والربا .
(٣) في ب : وحده . مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢ ـ ١٦٦) .
(٤) هكذا قال ، ومجالد ، وهو ابن سعيد ، ضعيف .
(٥) المصدر السابق (٩/ ١٦٦) . والإصابة (١/ ٥٧٠) .
(٦) المصدر السابق (٩/ ١٦٧) .
(٧) ميفعة : وراء بطن نخل إلى النقرة بناحية نجد ، بينها وبين المدينة ثمانية برد . (عن حاشية في المغازي للواقدي : ٢/ ٧٢٦) . والخبر في الأغاني (ثقافة) (٣/ ١٢١) .

قال رسول الله ﷺ : « دخلتُ الجنَة فرأيتُ لزيدِ بنِ عَمْرو بن نُفَيل دَوْحَتَيْن »[١] .

وهذا إسناد جيد ، وليس هو في شيء من الكتب .

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة : [من الطويل]

إلى الله أُهدي مِدْحَتي وثَنائيا ... وقَوْلاً رضياً لا يني الدهرَ باقيا

إلى الملِكِ الأعلى الذي ليس فوقَه ... إلَه ولا ربٌّ يكونُ مدانيا

وقد قيل : إنها لأمية بن أبي الصلت[٢] . والله أعلم .

ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق[٣] والزبير بن بكار وغيرهما : [من المتقارب]

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقالا

دَحاها فلمّا استوتْ شَدّها ... سواءً وأرسَى عليها الجبالا

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المزْنُ تحملُ عَذْباً زلالا

إذا هيَ سِيقت إلى بلدةٍ ... أطاعتْ فَصَبّت عليها سِجالا

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريحُ تُصرَف حالاً فحالا

وقال محمد بن إسحاق[٤] : حدّثني هشام بن عروة قال : رَوَى أبي أن زيدَ بن عمرو قال : [من الوافر]

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ... أَدِينُ إذا تُقُسِّمَتِ الأمورُ

عَزلْتُ اللاتَ والعزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْد الصَّبُورُ

فلا العُزَّى أَدينُ ولا ابنَتَيْها ... ولا صَنَمَيْ بني عمروٍ أزور

ولا هُبلاً أدين وكان ربّاً ... لنا في الدهرِ إذْ حِلمي يسير[٥]

عجبتُ ، وفي الليالي مُعجِباتٌ ... وفي الأيامِ يعرفُها البصير

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٦) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير : (١/ ٥٦٤) ، عن ابن عساكر ، وحَسَّنه .

(٢) ديوان أمية (٥٣٧) ، وقد أشار د . السطلي إلى اختلاف نسبة هذه الأبيات وقال : ومن المرجح أنها منحولة غير موثّقة .

(٣) السيرة (١/ ٢٣١) ، ولم يذكر البيت الخامس . وفي سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣) ، أربعة أبيات ، مع اختلاف في الرواية . وكذلك أورد صاحب الأغاني (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢) ، ثلاثة أبيات .

(٤) السيرة (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) والروض الأنف (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) . وفي الأغاني (٣/ ١١٨ ـ ١١٩) سبعة أبيات ، وفي مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٧) ثمانية أبيات ، وفيها بعض اختلاف في الرواية وفي الأصنام (٢٢) ثلاثة أبيات .

(٥) في الأصول : ولا غنماً . ولم أجد لها وجهاً . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق ، ولعله تحريف . وأثبت ما في سائر مصادر الأبيات .

بأنّ اللهَ قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنهمُ الفُجور
وأبقى آخرينَ ببرِّ قوم ... فيَرْبُلُ منهمُ الطفلُ الصغير[1]
وبينا المرءُ يعثُرُ ثابَ يوماً ... كما يتروَّحُ الغُصنُ النضير[2]
ولكنْ أعبدُ الرحمنَ ربي ... ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفور
فتقوى اللهِ ربكمُ احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تَبُوروا
ترى الأبرارَ دارُهُمُ جِنانٌ ... وللكفّارِ حاميةً سَعِيرُ
وخِزْيٌ في الحياةِ وإن يموتوا ... يُلاقوا ما تضيقُ به الصدور

[هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة][3] .

وقد رواه أبو القاسم البَغَوي ، عن مُصعب بن عبد الله ، عن الضحّاك بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : قال هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل : [من الوافر]

عزلتُ الجنَّ والجِنّانَ عني ... كذلك يفعلُ الجَلْد الصبور[4]
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمي بني طَسْمٍ أدير
ولا غنماً أدينُ وكان ربّاً ... لنا في الدهر إذ حِلمي صغير
أربّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ ... أدينُ إذا تُقُسِّمت الأمورُ
ألم تعلم بأن الله أفنى ... رجالاً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببِرِّ قومٍ ... فيربُو منهُمُ الطفل الصغيرُ
وبينا المرء يعثر ثاب يوما ... كما يتروّحُ الغصنُ النضير

قالت : فقال وَرَقة بن نوفل[5] : [من الطويل]

رُشِدْتَ وأُنْعِمْتَ ابنَ عمروٍ وإنما ... تَجَنَّبتَ تَنُّوراً من النار حاميا
لدينِك ربّاً ليس ربٌّ كمثله ... وتركِك جنّان الجبال كما هيا

---

(١) يربل : يشب ويعظم . (الروض) .
(٢) يتروح الغصن : أي ينبت ورقه بعد سقوطه . (الروض) .
(٣) سقط من ب .
(٤) وكذلك في الأغاني .
(٥) تقدم قبل قليل أن هذه الأبيات في رثاء زيد بن عمرو .
والأبيات : ١ ـ ٢ ، في ديوان أمية بن أبي الصلت (٥٤٢) والرابع من قصيدة تروى لأمية أيضاً في ديوانه (٥٣٨) والخامس من قصيدة ثالثة لأمية (٥٢٩) .

أقـولُ إذا أَهبطـتُ أرضـاً مَخُـوفـةً حنـانيْـكَ لا تُظهـر علـيَّ الأعـاديـا
حَنانَيكَ إنَّ الجن كانَتْ رَجَاءَهُم وأنـتَ إلَهـي رَبُّنـا ورَجـائيـا[١]
لَتُـدْرِكَـنَّ المـرءَ رحْمَـةُ ربّـه وإن كان تحتَ الأرض سبعين واديا[٢]
أديـن لـربٍّ يَسْتجيـبُ ولا أُرَى أديـنُ لمـن لا يسمـعُ الـدهْـرَ واعيـا
أقـولُ إذا صليـتُ فـي كـل بيعـةٍ تَبارَكْتَ قد أكثرتُ باسمِك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نُفَيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش فتنصروا إلّا زيداً ، فإنه لم يدخل في شيء من الأديان ، بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له ، متّبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه[٣] .

وأما وَرَقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث[٤] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر[٥] . وله خبر عجيب ذكره الأموي ؛ ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جَفْنة مَلك عرب الشام ليجهّز معه جيشاً لحرب قريش ، فعزم على ذلك فكتبتْ إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل ، فكساه ابن جَفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً ، فمات من سمه[٦] ، فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً . وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها . والله سبحانه وتعالى أعلم[٧] .

• • •

---

(١) في ديوان أمية : كنت .
(٢) في ديوان أمية : ألا لن تفوت المرء رحمة ربه .
(٣) في ب : فكان من أمره ما ذكرناه .
(٤) في الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٥) ذكره ابن حبيب في المحبر (١٧١) تنصر ومات على النصرانية من العرب .
(٦) في ب : فمات بسببه .
(٧) انتهى الخبر في النسخة الأحمدية (أ) هنا . ثم وردت صفحة مستقلة كتب عليها : الجزء الثاني من تجزئة (المؤلف) من تاريخ الإسلام المسمى بالبداية والنهاية ، تصنيف الشيخ الإمام الهمام ، العالم المفتي المحدث ، عماد الدين إسماعيل بن كثير رحمة الله عليه .
أما في النسخة (ب) فقد وصل الكلام مباشرة بخبر كعب بن لؤي ، وذكر قبله الخبر التالي : وأما عبيد الله بن جحش فرجع إلى مكة ، وكان من جملة من أسلم وهاجر إلى الحبشة ، ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ثم عاد إلى النصرانية بأرض الحبشة ـ قبّحه الله ـ ومات هناك ، فخلف على زوجته بعده رسول الله ﷺ ، كما سيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة ، وعليه التكلان .
ثم أورد خبر ما وقع من الحوادث في زمن الفترة بعد ذلك . أي هناك تقديم وتأخير في إيراد الأخبار .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

***